

# إحياء علوم الدين

## للإمام الغزالي

مع مقدمة في التصوف الإسلامي ودراسة تحليلية لشخصية الغزالي  
وفلسفته في الإحياء  
بمعلم

الدكتور بدوي طنبانة  
الأستاذ المساعد بكلية دار العلوم  
بجامعة القاهرة

فيها كتب قيمة

مكتبة محمد بن إسماعيل حمزين المقدسي

From the Library of  
Muhammad T. Hozien

الجزء الرابع

مكتبة وطبعة "كرياطه فوترا" سماراغ

« إِنَّ فِي ذَلِكَ لَذِكْرٍ لِمَنْ كَانَ لَهُ قَلْبٌ »

(فرآن كريم)

## بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

(كتاب التوبة)

(وهو الأول من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله الذي بتحميده يستفتح كل كتاب . وبذكره يصدر كل خطاب . وبعمده يتم أهل النعم في دار الثواب . وباسمه يتسلى الأشقياء وإن أرخى دونهم الحجاب . وخرب بينهم وبين السمداء بسور له باب باطنه فيه الرحمة وظاهره من قبله العذاب . وتوب إليه توبة من يوقن أنه ربّ الأرباب ومسبب الأسباب . وزجوه رجاء من يعلم أنه الملك الرحيم الغفور التواب . ونزع الخوف رجائنا مزج من لا يرتاب . إنه مع كونه غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب . ونصلى على نبيه محمد صلى الله عليه وسلم وعلى آله وصحبه صلاة تنقذنا من هول اللطع يوم العرض والحساب . ونعهد لنا عند الله زلفى وحسن مكاب .

أما بعد : فإن التوبة عن الذنوب بالرجوع إلى ستار العيوب وعلام الغيوب ، مبدأ طريق السالكين ، ورأس مال الفائزين ، وأول إقدام الريدن ، ومفتاح استقامة السائلين ، ومطلع الاصطفاء والاجتباء للمقربين ، ولأينا آدم عليه الصلاة والسلام وعلى سائر الأنبياء أجمعين ، وما أجد بال أولاد ، الاقتداء بالآباء والأجداد ، فلا غرو إن أذنب آدمى واجرم ، فهو شذوثة يعرفها من أخزم ، ومن أشبه آباءه لما ظلم . ولكن الأب إذا جبر بعد ما كسر وعمر بعد أن هدم ، فليكن التزوع إليه في كلا طرفي النفي والاثبات والوجود والعدم ، وقد قرع آدم سنّ الندم ، وتقدم على ما سبق منه وتقدم . فمن أخذ قدوة في الذنب دون التوبة فقد زلت به القدم ، بل التجرد لمحض الخير دأب اللائكة المقربين ، والتجرد للشر دون التلاقي سجية الشياطين ، والرجوع إلى الخير بعد الوقوع في الشر ضرورة آدميين . فالتجرد للخير ملك مقرب عند الملك الدبان . والتجرد للشر شيطان ، والتلاقي للشر بالرجوع إلى الخير بالحقيقة إنسان ، فقد ازدوج في طينة الإنسان شائبتان ، واضطرب فيه سجتان ، وكل عبد مصحح نسبه إما إلى الملك أو إلى آدم أو إلى الشيطان ، فالتائب قد أقام البرهان ، على صحة نسبه إلى آدم بملزمة حد الإنسان ، والصر على الطغيان مسجل على نفسه بنسب الشيطان ، فأما تصحيح النسب إلى اللائكة بالتجرد لمحض الخير فمخرج عن حيز الامكان ، فإن الشر معجون مع الخير في طينة آدم هجما محكما لا يخلصه إلا إحدى النارين

(كتاب التوبة)

[الباب التاسع]

والأربعون في استقبال

التهار والأدب فيه

والعمل]

قال الله تعالى - وأتم

الصلاة طرفي التهار -

أجمع القسرون على

أن أحد الطرفين

أراد به الفجر وأمر

بصلاة الفجر واختلفوا

في الطرف الآخر قال

قوم أراد به المغرب وقال

آخرون صلاة العشاء

وقال قوم صلاة الفجر

واظهر طرف وصلاة

المغرب للطرف

وزلوا من الليل صلاة

العشاء ثم إن الله تعالى

أخبر عن عظيم بركة

الصلاة وشرف فائدتها

ومعناها وقال - إن

الحسنات يذهبين

نار الندم أو نار جهنم ، فالاحراق بالنار ضروري في تخليص جوهر الانسان من خباثات الشيطان وإليك الآن اختيار أهون النارين ، والبادرة إلى أخف الشرين ، قبل أن يطوى بساط الاختيار ، ويساق إلى دار الاضطرار . إما إلى الجنة وإما إلى النار . وإذا كانت التوبة موقفا من الدين هذا للوقع وجب تقديمها في صدر ربع المنجيات بشرح حقيقتها وشروطها وسببها وعلامتها وثمراتها والآفات للنافعة منها والأدوية الميسرة لها ويتضح ذلك بذكر أربعة أركان : الركن الأول في نفس التوبة ويان حدها وحقيقتها وأنها واجبة على الفور وعلى جميع الأشخاص وفي جميع الأحوال وأنها إذا صحت كانت مقبولة . الركن الثاني : فيما عنه التوبة وهو الذنوب ويان انقسامها إلى صفائر وكبائر وما يتعلق بالعباد وما يتعلق بحق الله تعالى ويان كيفية توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات ويان الأسباب التي بها تعظم الصفائر . الركن الثالث : في بيان شروط التوبة ودوامها وكيفية تدارك ماضى من اللظام وكيفية تكفير الذنوب ويان أقسام التائبين في دوام التوبة : الركن الرابع : في السبب الباعث على التوبة وكيفية العلاج في حل عقدة الاصرار من المذنبين ويتم المقصود بهذه الأركان الأربعة إن شاء الله عز وجل . الركن الأول : في نفس التوبة .

### ( بيان حقيقة التوبة وحدها )

أعلم أن التوبة عبارة عن معنى ينتظم ويلتزم من ثلاثة أمور مرتبة : علم وحال وفعل ، فالعلم الأول والحال الثاني والفعل الثالث والأول موجب للثاني والثاني موجب للثالث إيجابا اقتضاء اطراد سنة الله في الملك والملكوت . أما العلم : فهو معرفة عظم ضرر الذنوب وكونها حجابا بين العبد وبين كل محبوب فإذا عرف ذلك معرفة محقة يتيقن غالب على قلبه ثار من هذه العرق تآلم للقلب بسبب فوات المحبوب فإن القلب مهما شعر بفوات محبوبه تآلم فإن كان فواته بفعله تأسف على الفعل القوت فيسمى تآلمه بسبب فعله القوت لمحبوبه ندما فإذا غلب هذا الألم على القلب واستولى انبعث من هذا الألم في القلب حالة أخرى تسمى إرادة وقصدا إلى فعل له تعلق بالحال وبالماضى والاستقبال أما تعلقه بالحال فبالتارك للذنوب الذي كان ملاسبا وأما بالاستقبال فبما عزم على ترك الذنب القوت للمحبوب إلى آخر العمر وأما بالماضى فبتلافي مافات بالجبر والقضاء إن كان قليلا للجبر فالعلم هو الأول وهو مطلع هذه الحيرات وأعنى بهذا العلم الايمان واليقين فإن الايمان عبارة عن التصديق بأن الذنوب عموم مهلكة واليقين عبارة عن تأكيد هذا التصديق وانتفاء الشك عنه واستيلائه على القلب فيشمر نور هذا الايمان مهما أشرق على القلب نوار الندم فيتألم بها القلب حيث يبصر بأشراق نور الايمان أنه صار محجوبا عن محبوبه كمن يهيم في عليه نور الشمس وقد كان في ظلمة فيسطع النور عليه بانقشاع سحب أو انحسار حجاب قرأى حبرية وقد أشرقت على الهلاك فتشتعل نيران الحب في قلبه وتنبت تلك النيران بارادته للاستعاضة للتدارك فالعلم والندم والقصد المتعلق بالتارك في الحال والاستقبال والتلافي للماضى ثلاثة معان مرتبة في الحصول فيطلق اسم التوبة على مجموعها وكثيرا ما يطلق اسم التوبة على معنى الندم وحده ويجعل العلم كالسابق والقدمة والتارك كالثمره والتابع التأخر وبهذا الاعتبار قال عليه الصلاة والسلام « الندم توبة (١) » إذ لا يخلو الندم عن علم أو حبه وآثره وعن عزم ينجمه ويتلوه فيكون الندم محفوفا بطرفيه أعنى ثمرته ومثمره وبهذا الاعتبار قيل في حد التوبة إنه ذوبان الحشا لما سبق من الخطأ فإن هذا يعرض لمجرد الألم ولذلك قيل هو نار في القلب تلتهب وصعد

(١) حديث الندم توبة ابن ماجه وابن حبان والحاكم وصححه إسناده من حديث ابن مسعود ورواه ابن حبان والحاكم من حديث أنس وقال صحيح على شرط الشيخين .

السيئات - أى الصلوات  
الحسن يذهب  
الخطيئات ، وروى  
أن أبا اليسر كتب  
ابن عمرو الأنصاري  
كان يبيع التمر فأتت  
امرأة بتناع تمرا فقال  
لها إن هذا التمر ليس  
بجيد وفي البيت أجود  
منه فهل لك فيه رغبة  
قالت نعم فذهب بها  
إلى بيته فضمها إلى  
نفسه وقبلها فقالت له  
اتق الله فتركها وندم  
ثم أتى النبي عليه  
السلام وقال يا رسول  
الله ما تقول في رجل  
رود امرأة عن نفسها  
ولم يبق شيء مما يفعل  
الرجال بالنساء إلا  
ركبه غير أنه لم يجامعها  
قال عمر بن الخطاب

في السكبد لا ينشعب وباعتبار معنى الترك قيل في حد التوبة إنه خلع لباس الجفاء ونشر بساط الوفاء وقال سهل بن عبد الله التستري التوبة تبديل الحركات اللذمومة بالحركات الحمودة ولا يتم ذلك إلا بالخلوة والصمت وأكل الحلال وكأنه أشار إلى المعنى الثالث من التوبة والأقاويل في حدود التوبة لا تنحصر وإذا فهمت هذه المعاني الثلاثة وتلازمها وترتيبها عرفت أن جميع ما قبل في حدودها قاصر عن الإحاطة بجميع معانيها وطلب العلم بحقائق الأمور أهم من طلب الألفاظ المجردة .

### ( بيان وجوب التوبة وفضلها )

اعلم أن وجوب التوبة ظاهر بالأخبار <sup>(١)</sup> والآيات وهو واضح بنور البصيرة عند من انفتحت بصيرته وشرح الله بنور الإيمان صدره حتى اقتدر على أن يسمى بنوره الذي بين يديه في ظلمات الجهل مستغنيا عن قائد يقوده في كل خطوة . فالسالك إما أعمى لا يستغنى عن القائد في خطوه ، وإما بصير يهdy إلى أول الطريق ثم يهdy بنفسه ، وكذلك الناس في طريق الدين ينقسمون هذا الانقسام . فمن قاصر لا يقدر على مجاوزة التقليد في خطوه فيفتقر إلى أن يسمع في كل قدم نصا من كتاب الله أو سنة رسوله وربما عوزه ذلك فيتعبر . فسير هذا وإن طال عمره وعظم جده مختصر وخطاه قاصرة ومن سعي شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه فيتنبه بأدنى إشارة لسلك طريق معوضة وقطع عقبات متعبة ويشرق في قلبه نور القرآن ونور الإيمان وهو لشدة نور باطنه يحترق . بأدنى بيان فكأنه يكاد زيتة يضيء . ولو لم تمسه نار فاذا مسته نار فهو نور على نور يهdy الله لنوره من يشاء وهذا لا يحتاج إلى نص منقول في كل واقعة . فمن هذا حاله إذا أراد أن يعرف وجوب التوبة فينظر أولا بنور البصيرة إلى التوبة ماهي ثم إلى الوجوب مامعناه ثم يجمع بين معنى الوجوب والتوبة فلا يشك في ثبوتها وذلك بأن يعلم بأن معنى الواجب ماهو واجب في الوصول إلى سعادة الأبد والنجاة من هلاك الأبد فانه لولا تعلق السعادة والشقاوة بفعل الشيء وتركه لم يكن لو منه بكونه واجبا معنى . وقول القائل صار واجبا بالانجاب حديث محض فان مالا غرض لنا أجلا عاجلا في فعله وتركه فلا معنى لاشتغالنا به أوجه علينا غيرنا أو لم يوجهه فاذا عرف معنى الوجوب وأنه الوسيلة إلى سعادة الأبد وعلم أن لاسعادة في دار البقاء إلا في لقاء الله تعالى وأن كل محبوب عنه يشقى لامحالة محول بينه وبين ما يشتهى يحترق بنار الفراق ونار الجحيم وعلم أنه لا يبعد عن لقاء الله إلا اتباع الشهوات والأنس بهذا العالم الفاني والآكيات على حب مالا بد من فراقه قطعا وعلم أنه لا يقرب من لقاء الله إلا قطع علاقة القلب عن زخرف هذا العالم والاقبال بالكلية على الله طلبا للأنس به بدوام ذكره وللمحبة له بمعرفة جلاله وجماله على قدر طاقته وعلم أن الذنوب التي هي إغراض عن الله واتباع لهاب الشياطين أعداء الله للبعدين عن حضرته سبب كونه محبوبا مبعدا عن الله تعالى فلا يشك في أن الانصراف عن طريق البعد واجب للوصول إلى القرب وإنما يتم الانصراف بالعلم والندم والعزم فانه مالم يعلم أن الذنوب أسباب البعد عن المحبوب لم يندم ولم يتوجه بسبب سلوكه في طريق البعد وما لم يتوجه فلا يرجع ومعنى الرجوع الترك والعزم فلا يشك في أن المعاني الثلاثة ضرورية في الوصول إلى المحبوب وهكذا يكون الإيمان الحاصل عن نور البصيرة وأما من لم يترشح لثل هذا المقام للترفع ذروته عن حدود أكثر الخلق في التقليد والاتباع له

(١) الأخبار الدالة على وجوب التوبة مسلم من حديث الأغر الزني يأبها الناس توبوا إلى الله الحديث ولا بن ماجه من حديث جابر يأبها الناس توبوا إلى ربكم قبل أن تموتوا الحديث وسنده ضعيف .

لقد ستر الله عليك لو  
سترت على نفسك ولم  
يرد رسول الله صلى الله  
عليه وسلم عليه شيئا  
وقال أنتظر أمر ربي  
وحضرت صلاة العصر  
وصلى النبي عليه الصلاة  
والسلام العصر . فلما  
فرغ أتاه جبريل بهذه  
الآية فقال النبي عليه  
الصلاة والسلام : أين  
أبو اليسر قال هاأنذا  
يا رسول الله قال شهدت  
معا هذه الصلاة قال  
نعم قال انذهب فاتها  
كفارة لما عملت قال  
عمر يا رسول الله هذا  
له خاصة أولنا عامة ،  
قال بل للناس عامة  
فيستعد العبد لصلاة  
الفسح باستكمال  
الطهارة قبل طلوع



بحال رحب يتوصل به إلى النجاة من الهلاك فليلاحظ فيه قول الله وقول رسوله وقول السلف الصالحين فقد قال الله تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - وهذا أمر على العموم وقال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً - الآية ومعنى النصوح الخالص لله تعالى خالياً عن الشوائب مأخوذاً من النصح ويدل على فضل التوبة قوله تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - وقال عليه السلام «التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفرح بتوبة العبد المؤمن من رجل نزل في أرض دوية مهلكة معه راحلته عليها طعامه وشرابه فوضع رأسه فنام نومة فاستيقظ وقد ذهبت راحلته فطلبها حتى إذا اشتد عليه الحر والعطش أوماشاه الله قال أرجع إلى مكاني الذي كنت فيه فأنام حتى أموت فوضع رأسه على ساعده لموت فاستيقظ فإذا راحلته عنده عليها زاده وشرابه فأله تعالى أشد فرحاً بتوبة العبد المؤمن من هذا براحلته» (٢) وفي بعض الألفاظ قال من شدة فرحه إذا أراد شكر الله : أنا ربك وأنت عبيد . وروى عن الحسن قال لما تاب الله عز وجل على آدم عليه السلام هنأته الملائكة وهبط عليه جبريل وميكائيل عليهما السلام فقالا يا آدم قررت عينك بتوبة الله عليك فقال آدم عليه السلام يا جبريل فإن كان بعد هذه التوبة سؤال فأين مقامى فأوحى الله إليه يا آدم ورثت ذؤيبك التعب والنصب وورثهم التوبة فمن دعاني منهم لبيتك كالبيتك ومن سألتى الغفرة لم أبخل عليه لأنى قريب عجب يا آدم وأحشر التائبين من القبور مستبشرين ضاحكين ودعائهم مستجاب والأخبار والآثار في ذلك لا تحصى والاجماع متفق من الأمة على وجوبها إذ معناها العلم بأن الذنوب والمعاصي مهلكات ومبعدات من الله تعالى وهذا داخل في وجوب الإيمان ولكن قد تدهش الغفلة عنه فعنى هذا العلم إزالة هذه الغفلة ولا خلاف في وجوبها ومن معانيها ترك المعاصي في الحال والعزم على تركها في الاستقبال وتدارك ما سبق من التقصير في سابق الأحوال وذلك لا يشك في وجوبه وأما التندم على ما سبق والتحزن عليه فواجب وهو روح التوبة وبه تمام التلاقي فكيف لا يكون واجبا بل هو نوع ألم يحصل للاحالة عقيب حقيقة المعرفة بما فات من العمر وضاع في سخط الله . فان قلت تألم القلب أمر ضرورى لا يدخل تحت الاختيار فكيف يوصف بالوجوب . فاعلم أن سببه تحقيق العلم بفوات المحبوب وله سبيل إلى تحصيل سببه وبمثل هذا المعنى دخل العلم تحت الوجوب لابعنى أن العلم بخلقه العبد ويحدثه في نفسه فان ذلك محال بل العلم بالندم والفعل والارادة والقدرة والقادر الكل من خلق الله وفعله - والله خلقكم وما تعملون - وهذا هو الحق عند ذوى الأبصار وما سوى هذا ضلال . فان قلت أفليس للعبد اختيار في الفعل وتركه قلنا نعم وذلك لا يناقض قولنا إن الكل من خلق الله تعالى بل الاختيار أيضاً من خلق الله والعبد مضطر

(١) حديث التائب حبيب الله والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ابن ماجه من حديث ابن مسعود بالشرط الثانى دون الأول وأما الشرط الأول فروى ابن أبى الدنيا فى التوبة وأبو الشيخ فى كتاب التواب من حديث أنس بسند ضعيف إن الله يحب الشاب التائب ولعبه الله بن أحمد فى زوائد المسند وأبى يعلى بسند ضعيف من حديث على إن الله يحب العبد المؤمن الفتى التواب (٢) حديث الله أفرح بتوبة عبده المؤمن من رجل نزل فى أرض فلاة دوية مهلكة الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وأنس زاذ مسلم فى حديث أنس ثم قال من شدة الفرح اللهم أنت عبيد وأنا ربك أخطأ من شدة الفرح ورواه مسلم بهذه الزيادة من حديث النعمان بن بشير ومن حديث أبى هريرة مختصراً .

الفجر ويستقبل الفجر بتجديد الشهادة كما ذكرنا فى أول الليل ثم يؤذن إن لم يكن أجاب للؤذن ثم صلى ركعتى النجر يقرأ فى الأولى بعد الفاتحة قل يا أيها الكافرون وفى الثانية قل هو الله أحد وإن أراد قرأ فى الأولى - قلوا آمنا بالله وما أنزل - الآية فى سورة البقرة وفى الأخرى - ربنا آتينا بما أنزلنا وبما أرسلنا بالرسول - ثم يستغفر الله ويسبح الله تعالى بما يتيسر له من العدد وإن اقتصر على كلمة استغفر الله لذنبى سبحان الله بحمد ربى آتى بالمقصود من

في الاختيار الذي له فان الله إذا خلق اليد الصحيحة وخلق الطعام اللذيذ وخلق الشهوة للطعام في المعدة وخلق العلم في القلب بأن هذا الطعام يسكن الشهوة وخلق الحواطر المتعارضة في أن هذا الطعام هل فيه مضرة مع أنه يسكن الشهوة وهل دون تناوله مانع يتعذر معه تناوله أم لا ثم خلق العلم بأنه لا مانع ثم عند اجتماع هذه الأسباب تنجزم الارادة الباعثة على التناول فانجزم الارادة بعد تردد الحواطر المتعارضة وبعد وقوع الشهوة للطعام يسمى اختيارا ولا بد من حصوله عند تمام أسبابه فاذا حصل انجزم الارادة بخلق الله تعالى إياها تحركت اليد الصحيحة إلى جهة الطعام لا محالة إذ بعد تمام الارادة والقدرة يكون حصول الفعل ضروريا فتحصل الحركة فتكون الحركة بخلق الله بعد حصول القدرة وانجزم الارادة وهما أيضا من خلق الله وانجزم الارادة يحصل بعد صدق الشهوة والعلم بعدم الوانع وهما أيضا من خلق الله تعالى ولكن بعض هذه المخلوقات يترتب على البعض ترتيبا جرت به سنة الله تعالى في خلقه - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فلا يخلق الله حركة اليد بكتابة منظومة مالم يخلق فيها صفة تسمى قدرة ومالم يخلق فيها حياة ومالم يخلق إرادة مجزومة ولا يخلق الارادة المجزومة مالم يخلق شهوة وميلا في النفس ولا ينبعث هذا اليل انبعاثا تاما مالم يخلق علما بأنه موافق للنفس إما في الحال أوفي الكمال ولا يخلق العلم أيضا إلا بأسباب أخر ترجع إلى حركة وإرادة وعلم فالعلم والليل الطبيعي أبدا يستتبع الارادة الجازمة والقدرة والارادة أبدأ تستتبع الحركة وهكذا الترتيب في كل فعل والسكل من اختراع الله تعالى ولكن بعض مخلوقاته شرط لبعض فذلك يجب تقدم البعض وتأخر البعض كما لا يخلق الارادة إلا بعد العلم ولا يخلق العلم إلا بعد الحياة ولا يخلق الحياة إلا بعد الجسم فيكون خلق الجسم شرطا لحدوث الحياة لأن الحياة تتولد من الجسم ويكون خلق الحياة شرطا لخلق العلم لأن العلم يتولد من الحياة ولكن لا يستتبع المثل لقبول العلم إلا إذا كان حيا ويكون خلق العلم شرطا لجزم الارادة لأن العلم يولد الارادة ولكن لا يقبل الارادة إلا جسم حيا عالم ولا يدخل في الوجود إلا يمكن وللإمكان ترتيب لا يقبل التغير لأن تغييره محال فهما وجد شرط الوصف استند المثل به لقبول الوصف فحصل ذلك الوصف من الجود الإلهي والقدرة الأزلية عند حصول الاستعداد ولما كان للاستعداد بسبب الشروط ترتيب كان لحصول الحوادث بفعل الله تعالى ترتيب والعبد مجرى هذه الحوادث للربة وهي مرتبة في قضاء الله تعالى الذي هو واحد كلح البصر ترتيبا كلياً لا يتغير وظهورها بالتفصيل مقدر بقدر لا يتعداها وعنه العبارة بقوله تعالى - إنا كل شيء خلقناه بقدر - وعن القضاء الكلي الأزلي العبارة بقوله تعالى - وما أمرنا إلا واحدة كلح بالبصر - وأما العباد فأنهم مسخرون تحت مجارى القضاء والقدر ومن جملة القدر خلق حركة في يد الكاتب بعد خلق صفة مخصوصة في يده تسمى القدرة وبعد خلق ميل قوى جازم في نفسه يسمى القصد وبعد علم بما إليه يميل يسمى الإدراك والمعرفة فاذا ظهرت من باطن الملكوت هذه الأمور الأربعة على جسم عبد مسخر تحت قهر التقدير سبق أهل عالم الملك والشهادة المحبوبون عن عالم الغيب والملكوت وقالوا يا أيها الرجل قد تحركت ورميت وكتبت ونودى من وراء حجاب الغيب وسراقات الملكوت وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى وما قتلت إذ قتلت ولكن قاتلهم بمنهم الله بأيديكم وعند هذا تحجير عقول القاعدين في بحبوحة عالم الشهادة فمن قائل إنه جبر محض ومن قائل إنه اختراع صرف ومن متوسط مائل إلى أنه كسب ولو فتح لهم أبواب السماء فنظروا إلى عالم الغيب والملكوت لظهر لهم أن كل واحد منهم من وجه وأن القصور شامل لجميع فلم يدرك واحد منهم كنه هذا الامر ولم يحيط علمه بهوائه وتمام علمه ينال بأشراق النور من كوة نافذة إلى عالم الغيب

التسبيح والاستغفار.  
ثم يقول اللهم صل على محمد وعلى آل محمد اللهم إني أسألك رحمة من عندك تهدي بها قلبي وتجمع بها شمل وتعلم بها شقي وترد بها الفتن عنى وتصلح بها ديني وتحفظ بها قائمي وترفع بها شاهدي وتركي بها عملي وتبييض بها وجهي وتلقني بها رشتي وتصمني بها من كل سوء اللهم أعطني إيمانا صادقا وقينا ليس بعده كفر ورحمة أنال بها شرف حكرامتك في الدنيا والآخرة اللهم إني أسألك الفوز عند القضاء ومنازل الشهداء وعيش السعداء

وأنة تعالى - عالم القيب والشهادة لا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول - وقد يطلع على الشهادة من لم يدخل في حيز الارتضاء ومن حرك سلسلة الأسباب والسبب وعلم كيفية تسلسلها ووجه ارتباط مناسط سلسلتها بمسبب الأسباب انكشف له سر القدر وعلم علما يقيناً أن لا خالق إلا الله ولا مبدع سواه . فان قلت قد قضيت على كل واحد من القائلين بالجبر والاختراع والكسب أنه صادق من وجه وهو مع صدقه قاصر وهذا تناقض فكيف يمكن فهم ذلك وهل يمكن إصال ذلك إلى الأفهام بمثال ، فاعلم أن جماعة من العميان قد صموا أنه حمل إلى البلدة حيوان عجيب يسمى القيل وما كانوا قط شاهدوا صورته ولا صموا اسمه فقالوا لا بد لنا من مشاهدته ونعرفه بالمس الذي قدر عليه فطلبوه فلما وصلوا إليه لمسوه فوق يد بعض العميان على رجليه ووقع يد بعضهم على نابه ووقع يد بعضهم على أذنه فقالوا قد عرفناه فلما انصرفوا سألهم بقية العميان فاختلفت أجوبتهم فقال الذي لمس الرجل إن القيل ماهو إلا مثل اسطوانة خشنة الظاهر إلا أنه ألبن منها وقال الذي لمس الناب ليس كما يقول بل هو صلب لا لين فيه وأمس لا خشونة فيه وليس في غلط الاسطوانة أصلا بل هو مثل عمود وقال الذي لمس الأذن لعمري هو لين وفيه خشونة فصدق أحدهما فيه ولكن قال صاهو مثل عمود ولا هو مثل اسطوانة وإنما هو مثل جلد عريض غليظ فكل واحد من هؤلاء صدق من وجه إذا أخبر كل واحد عما أصابه من معرفة القيل ولم يخرج واحد في خبره عن وصف القيل ولكنهم بحيلهم قصروا عن الاحاطة بكنه صورة القيل فاستبصر بهذا المثال واعتبر به فانه مثال أكثر ما اختلف الناس فيه وإن كان هذا كلاما يناطح علوم الكاشفة ويحرك أمواجها وليس ذلك من غرضنا فلنرجع إلى ما كنا بصده وهو بيان أن التوبة واجبة بجميع أجزائها الثلاثة العلم والندم والترك وأن الندم داخل في الوجوب لكونه واقفا في جملة أفعال الله المحصورة بين علم العبد وإرادته وقدرته للتخلية بينها وما هذا وصفه قاسم الوجوب يشملها .

### ( بيان أن وجوب التوبة على الفور )

أما وجوبها على الفور فلا يستراب فيه إذ معرفة كون المعاصي مهلكات من نفس الإيمان وهو واجب على الفور والتفصي عن وجوبه هو الذي عرفه معرفة زجره ذلك عن الفعل المكروه فان هذه المعرفة ليست من علوم المكاشفات التي لاتعلق بصل بل هي من علوم العامة وكل علم يراد ليكون باعثا على عمل فلا يقع التفصي عن عهده مالم يصير باعثا عليه فالعلم بضرر الذنوب إنما أريد ليكون باعثا على تركها فمن لم يتركها فهو فاقده لهذا الجزء من الإيمان وهو للراد بقوله عليه السلام « لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن » (١) وما أراد به نفى الإيمان الذي يرجع إلى علوم الكاشفة كالعلم بآفة ووحدايته وصفاته وكتبه ورسله فان ذلك لا ينفيه الزنا والمعاصي وإنما أراد به نفى الإيمان لكون الزنا مبعدا عن الله تعالى موجبا للعقوبة كما إذا قال الطبيب هذا سم فلان تناوله فاذا تناوله يقال تناوله وهو غير مؤمن لا بمعنى أنه غير مؤمن بوجود الطبيب وكونه طبيبا وغير مصدق به بل المراد أنه غير مصدق بقوله إنه سم مهلك فان العالم بالسم لا يتناوله أصلا فالعاصي بالضرورة ناقص الإيمان وليس الإيمان بابا واحدا بل هو نيف وسبعون بابا أعلاها شهادة أن لا إله إلا الله وأدناها إمطة الأذى عن الطريق ومثاله قول القائل ليس الانسان موجودا واحدا بل هو نيف وسبعون موجودا أعلاها القلب والروح وأدناها إمطة الأذى عن البشرة بأن يكون مقصود الشارب من العلوم الأظفار في البشرة عن الحبث حتى يتميز عن البهائم الرسالة للوثة بأرواتها المستكرهة الصور بطول محالها وأظلافها وهذا مثال مطابق فلايمان كالانسان

(١) حديث لا يزني الزاني حين يزني وهو مؤمن متفق عليه من حديث أبي هريرة .

والنصر على الأعداء  
ومراقبة الأنبياء اللهم  
إني آتزل بك حاجتي  
وان قصر رأي وضف  
عملي واقتربت إلى  
رحمتك وأسألك  
يا قاضي الأمور وباشافي  
الصدور كما تجير بين  
البحور أن تجيرني من  
عذاب السعير ومن  
دعوة الثيور ومن فتنة  
القبور اللهم ما قصر  
عنه رأي وضف فيه  
عملي ولم تبله نيق  
وأمنيق من خير  
وعدته أحدا من  
عباك أو خير أمت  
معطيه أحدا من خلقك  
فأنا راغب إليك فيه  
وأسألك إليه يارب  
العالمين . اللهم اجعلنا  
هادين مهدين خير

وقد شهادة التوحيد يوجد البطلان بالكلية كفقده الروح والذي ليس له إلا شهادة التوحيد والرسالة هو كائن منقطع الأطراف مفقود العينين فاقد لجميع أعضائه الباطنة والظاهرة لا أصل للروح وكما أن من هذا حاله قريب من أن يموت فزايده الروح الضعيفة المنفردة التي تخلف عنها الأجزاء التي أعدها وتقورها فكذلك من ليس له إلا أصل الإيمان وهو مقصر في الأعمال قريب من أن تقتلع شجرة إيمانه إذا صدمتها الرياح العاصفة المحركة للإيمان في مقدمة قدوم ملك الموت ووروده فكل إيمان لم يثبت في اليقين أصله ولم تنتشر في الأعمال فروعه لم يثبت على عواصف الأحوال عند ظهور ناصية ملك الموت وخيف عليه سوء الخاتمة لاما يبق بالطاعات على توالي الأيام والساعات حتى رسخ وثبت وقول العاصي للمطيع إني مؤمن كما أنك مؤمن كقول شجرة القرب لشجرة الصنوبر أنا شجرة وأنت شجرة وما أحسن جواب شجرة الصنوبر إذ قالت ستعرفين اغترارك بشمول الاسم إذا عصفت رياح الخريف فند ذلك تنقطع أصولك وتتناثر أوراقك وينكشف غرورك بالمشاركة في اسم الشجرة مع النخلة عن أسباب ثبوت الأشجار : وسوف ترى إذا انجلي الغبار أقرس تحتك أم حمار . وهذا أمر يظهر عند الخاتمة وإنما انقطع نياط المعارفين خوفا من دواعي الموت ومقدماته الهائلة التي لا يثبت عليها إلا الأفلون فالعاصي إذا كان لا يخاف الخلود في النار بسبب مصيئته كالمصحيح التهمك في الشهوات المضرة إذا كان لا يخاف الموت بسبب صحتته وأن للموت قالبا لا يقع فجأة فيقال له الصحيح بخاف المرض ثم إذا مرض خاف الموت وكذلك العاصي يخاف سوء الخاتمة ثم إذا ختم له بالسوء واليأس بالله وجب الخلود في النار فالعاصي للإيمان كالمأ كولات للضرة للأبدان فلا تزال تجتمع في الباطن حتى تغير مزاج الأخلاط وهو لا يشعر بها إلى أن يفسد الزاج فيمرض دفعة ثم يموت دفعة فكذلك العاصي فإذا كان الخائف من الهلاك في هذه الدنيا للنقضية يجب عليه ترك السموم وما يضره من المأكولات في كل حال وعلى الفور فالخائف من هلاك الأبد أولى بأن يجب عليه ذلك وإذا كان متناول السم إذا ندم يجب عليه أن يتقيأ ويرجع عن تناوله باطلاله وإخراجه عن المعدة على سبيل الفور والمبادرة لتلافيا لبدنه المشرف على هلاك لا يفوت عليه إلا هذه الدنيا الفانية فتناول موموم الدين وهي الذنوب أولى بأن يجب عليه الرجوع عنها بالتدارك الممكن مادام بقي للتدارك مهلة وهو العمر فإن الخوف من هذا السم فوات الآخرة الباقية التي فيها النعيم المقيم والمملك العظيم وفي فواتها نار الجحيم والعذاب المقيم الذي تصرم أضعاف أعمار الدنيادون عشر عشر مدته إذ ليس لمدته آخر ألبنة فالبدار البدار إلى التوبة قيل أن تعمل موموم الذنوب بروح الإيمان عملا يجاوز الأمر فيه الأطباء واختيارهم ولا ينفع بعده الاحتناء فلا يجمع بعد ذلك نصيح التاممين ووعظ الواعظين وتحق الكلمة عليه بأنه من المالكين ويدخل تحت عموم قوله تعالى - إنا جعلنا في أعناقهم أغلالا فهي إلى الأذقان فهم مقمحون . وجعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون . وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون - ولا يفرنك لفظ الإيمان فنقول المراد بالآية الكافر إذ بين لك أن الإيمان بضع وسبعون بابا وأن الزاني لا يزني حين يزني وهو مؤمن فالهجوم عن الإيمان الذي هو شعب وفروع سيحجب في الخاتمة عن الإيمان الذي هو أصل كما أن الشخص الفاقد لجميع الأطراف التي هي حروف وفروع سيقا إلى الموت المعدم للروح التي هي أصل فلا بقاء للأصل دون الفرع ولا وجود للفرع دون الأصل ولا فرق بين الأصل والفرع إلا في شيء واحد وهو أن وجود الفرع وبقاءه جميعا يستدعي وجود الأصل وأما وجود الأصل فلا يستدعي وجود الفرع فبقاء الأصل بالفرع ووجود الفرع بالأصل فعلوم المكاشفة وعلوم العامة متلازمة كتلازم الفرع والأصل فلا يستغنى أحدهما عن الآخر وإن كان أحدهما في رتبة الأصل والآخر في رتبة

ضالين ولا مضلين حربا  
لأعدائك وسلا  
لأوليائك نحب بحبك  
الناس ونصادي  
بعداوتك من خالفك  
من خلقك اللهم هذا  
الدعاء مني ومنك  
الاجابة وهذا الجهد  
وعليك التكلان إن الله  
وإنا إليه راجعون ولا  
حول ولا قوة إلا بالله  
العلي العظيم ذي  
الحبل الشديد والأمر  
الرشيد أسألك الأمن  
يوم الوعيد واللجنة  
يوم الخلود مع المقربين  
الشهود والركع السجود  
والموفين بالعهود إنك  
رحيم وعبود وأنت تفعل  
ما تريد سبحانه من  
تعطف بالمر وقال به  
سبحان من لبس المجد

التابع وعلوم الجامعة إذا لم تكن باعثة على العمل فعدمها خير من وجودها فإن هي لم تعمل عملها الذي تراد له قامت مؤيدة للحجة على صاحبها ولذلك يزداد في عذاب العالم الفاجر على عذاب الجاهل الفاجر كما أوردنا من الأخبار في كتاب العلم .

( بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد ألبتة )

اعلم أن ظاهر الكتاب قد دل على هذا إذ قال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون - فعمم الخطاب . ونور البصيرة أيضا يرشد إليه إذ معنى التوبة الرجوع عن الطريق للبعد عن الله القرب إلى الشيطان ولا يتصور ذلك إلا من عاقل ولا تنكسر غريزة العقل إلا بعد كمال غريزة الشهوة والنصب وسائر الصفات للذمومة التي هي وسائل الشيطان إلى إغواء الإنسان إذ كمال العقل إنما يكون عند مقارنة الأربعين وأصله إنما يتم عند مراعاة البلوغ ومبادئه تظهر بعد سبع سنين والشهوات جنود الشيطان والعقول جنود الملائكة فانه اجتماعا قام القتال بينهما بالضرورة إذ لا يثبت أحدهما للآخر لأنهما ضدان فالطارد بينهما كالطارد بين الليل والنهار والنور والظلمة ومهما غلب أحدهما أزهيح الآخر بالضرورة . وإذا كانت الشهوات تكمل في العبا والشباب قبل كمال العقل فقد سبق جند الشيطان واستولى على السكان ووقع للقلب به أنس وإلف لا محالة مقتضيات الشهوات بالعادة وغلب ذلك عليه ويسر عليه التزوع عنه ثم يلوح العقل الذي هو حزب الله وجنده ومنقذ أوليائه من أيدي أعدائه شيئا فشيئا على التدرج فان لم يقو ولم يكمل سلمت مملكة القلب للشيطان وأنجز العين موعده حيث قال - لأحتسكن ذريته الإنثى - وإن كمل العقل وقوى كان أول شغله قمع جنود الشيطان بكسر الشهوات ومفارقة العادات ورد الطبع على سبيل القهر إلى العبادات والامتناع للتوبة إلا هذا وهو الرجوع عن طريق دليله الشهوة وخفيته الشيطان إلى طريق الله تعالى وليس في الوجود آدمي إلا وشهوته سابقة على عقله وغريزته التي هي عدوة الشيطان متقدمة على غريزته التي هي عدو الملائكة فكان الرجوع عما سبق إليه على مساعدة الشهوات ضروريا في حق كل إنسان نبييا كان أو غيبيا فلا تظن أن هذه الضرورة اختصت بآدم عليه السلام وقد قيل :

فلا تحسبن هذا لها القدر وحدها سجية نفس كل غائبة هند

بل هو حكم أزل مكتوب على جنس الإنس لا يمكن فرض خلافه ما لم تبدل السنة الإلهية التي لا مطلق في تبدلها فاذا ن كل من بلغ كافرا جاهلا فعليه التوبة من جهله وكفره فاذا بلغ مسلما تابعا لأبويه غافلا عن حقيقة إسلامه فعليه التوبة من غفله بتفهم معنى الإسلام فانه لا يفي عنه إسلام أبويه شيئا ما لم يسلم بنفسه فان فهم ذلك فعليه الرجوع عن عادته وإلفه للاسترسال وراء الشهوات من غير صارف بالرجوع إلى قالب حدود الله في النع والاطلاق والانكسار والاسترسال وهو من أشق أبواب التوبة وفيه هلك الأكترون إذ هزوا عنه وكل هذا رجوع وتوبة فدل على أن التوبة فرض عين في حق كل شخص لا يتصور أن يمتنح عنها أحد من البشر كالم يستن آدم خلقة الولد لا تتسع لمما يسع له خلقة الوالد أصلا ، وأما بيان وجوبها على الدوام وفي كل حال فهو أن كل بشر فلا يخلو عن معصية بخوارحه إذ لم يخل عنه الأنبياء كما ورد في القرآن والأخبار من خطايا الأنبياء وتوبتهم وبكائهم على خطاياهم فان خلا في بعض الأحوال عن معصية الجوارح فلا يخلو عن المهم بالنوب بالقلب فان خلا في بعض الأحوال عن المهم فلا يخلو عن وسوسة الشيطان بإيراد الحواطر المنفرة المذهلة عن ذكر الله فان خلا عنه فلا يخلو عن غفلة وتقصير في العلم بالله وصفاته وأفعاله وكل ذلك نفس وله أسباب وترك أسبابه بالشغول بأضدادها رجوع عن طريق إلى ضده والراد بالتوبة الرجوع ولا يتصور الخلو في حق آدمي عن هذا النفس وانما يشغلها وتون

وتكرم به سبحانه الذي لا ينفعني التيسير إلا له سبحانه ذي الفضل والنعم سبحانه ذي الجود والكرم سبحانه الذي أحصى كل شيء بعلمه اللهم اجعل لي نورا في قلبي ونورا في قبري ونورا في ممالي ونورا في بصري ونورا في شمعي ونورا في لحمي ونورا في دمي ونورا في عظامي ونورا من بين يدي ونورا من خلفي ونورا عن يميني ونورا عن شمالي ونورا من فوقي ونورا من تحتي اللهم زدني نورا وأعطني نورا واجعل لي نورا . ولهذا الدعاء أثر كثير وما رأيت



في القادر فأما الأصل فلا بد منه ، ولهذا قال عليه السلام «إِنَّهُ لِيُغَانِ عَلَى قَلْبِي حَتَّى أَسْتَغْفِرَ اللَّهَ فِي الْيَوْمِ وَاللَّيْلَةِ سَبْعِينَ مَرَّةً» (١) الحديث ، ولذلك أكرمهُ الله تعالى بأن قال - ليغفر لك الله ما تقدم من ذنبك وما تأخر - وإذا كان هذا حاله فكيف حال غيره . فان قلت لا يخفى أن ما يطرأ على القلب من المعلوم والحواطر تقص وأن الكمال في الخلوة عنه وأن التصور عن معرفة كنه جلال الله تقص وأنه كلما ازدادت المعرفة زاد الكمال وأن الانتقال إلى الكمال من أسباب نقصان رجوع والرجوع توبة ولكن هذه فضائل لا فرائض وقد أطلقت القول بوجوب التوبة في كل حال والتوبة عن هذه الأمور ليست بواجبة إذ إدراك الكمال غير واجب في الشرع فالمراد بقولك التوبة واجبة في كل حال . فاعلم أنه قد سبق أن الانسان لا يخلو في مبدأ خلقته من اتباع الشهوات أصلاً وليس معنى التوبة تركها فقط بل تمام التوبة بتدريك ماضى وكل شهوة اتبعها الانسان ارتفع منها ظلمة إلى قلبه كما يرتفع عن نفس الانسان ظلمة إلى وجهه للآراء الصافية فان تراكت ظلمة الشهوات صار رينا كما يصير بخار النفس في وجه المرأة عند تراكمه خبثاً كما قال تعالى - كَلَّا بَلْ رَانَ عَلَى قُلُوبِهِمْ مَا كَانُوا يَكْسِبُونَ - فإذا تراكم الرين صار طبعاً فيطبع على قلبه كالخبث على وجه المرأة إذا تراكم وطال زمانه غاص في جرم الحديد وأفسده وصار لا يقبل الصقل بعده وصار كالمطبوخ من الخبز ولا يمكن في تدريك اتباع الشهوات تركها في المستقبل بل لا بد من محو تلك الآريان التي انطبعت في القلب كما لا يمكن في ظهور الصور في المرأة قطع الأنفاس والبخارات السوداء لوجهها في المستقبل ما لم يشتغل بمحو ما انطبعت فيها من الآريان وكما يرتفع إلى القلب ظلمة من المعاصي والشهوات فيرتفع إليه نور من الطاعات وترك الشهوات تنمحي ظلمة المعصية بنور الطاعة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «اتَّبِعِ السَّبِيلَةَ الْحَسَنَةَ تَحْمَهَا» (٢) فاذن لا يستغنى العبد في حال من أحواله عن محو آثار السيئات عن قلبه بمباشرة حسنات تضاد آثارها آثار تلك السيئات . هذا في قلب حصل أو لا صفاؤه وجلأؤه ثم أظلم بأسباب عارضة فأما التصديق الأول ففيه يطول الصقل إذ ليس شغل الصقل في إزالة الصلابة عن المرأة كصقله في عمل أصل المرأة فهذه أشغال طويلة لا تنقطع أصلاً وكل ذلك يرجع إلى التوبة ، فأما قولك إن هذا لا يسمى واجباً بل هو فضل وطلب كمال . فاعلم أن الواجب له معنيان : أحدهما ما يدخل في فتوى الشرع ويشترك فيه كافة الخلق وهو القدر الذي لو اشتغل به كافة الخلق لم يخرّب العالم فلو كلف الناس كلهم أن يتقوا الله حتى تقاته لتركوا المعاش ورفضوا الدنيا بالكلية ثم يؤدّى ذلك إلى بطلان التقوى بالكلية فانه مهما فسدت المعاش لم يفرغ أحد للتقوى بل شغل الحياة والحراثة والخبز يستغرق جميع العمر من كل واحد فيحتاج إليه لجميع هذه الدرجات ليست بواجبة بهذا الاعتبار والواجب الثاني هو الذي لا بد منه للوصول به إلى القرب المطلوب من رب العالمين والمقام المحمود بين الصديقين والتوبة عن جميع ما ذكرناه واجبة في الوصول إليه كما يقال الطهارة واجبة في صلاة التطوع أي لمن يريد بها فانه لا يتوصل إليها إلا بها ، فأما من رضى بالنقصان والحرمان عن فضل صلاة التطوع فالطهارة ليست واجبة عليه لأجلها كما يقال العين والأذن واليد والرجل شرط في جود الانسان يعنى أنه شرط لمن يريد أن يكون إنساناً كاملاً

أحدا حافظ عليه  
إلا وعنده خير ظاهر  
وبركه وهو من وصية  
الصادقين بعضهم بعضا  
محفظه والمحافظة عليه  
منقول عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أنه  
كان يقرؤه بين الفريضة  
والسنة من صلاة  
الفجر ثم يقصد المسجد  
للمسلاة في الجماعة  
ويقول عند خروجه  
من منزله : - وقل رب  
أدخلني مدخل صدق  
وأخرجني مخرج صدق  
واجعل لي من لدنك  
سلطاناً نصيراً - ويقول  
في الطريق : اللهم إني  
أسألك بحق السائلين  
عليك وبحق ممشي  
هذا إليك لم أخرج  
أشراً ولا بطراً ولا رياء

(١) حديث إنه ليغان على قلبي فأستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة مسلم من حديث الأغر الزنى  
لأنه قال في اليوم مائة مرة وكذا عند أبي داود والبخاري من حديث أبي هريرة إني لأستغفر الله  
في اليوم أكثر من سبعين مرة وفي رواية البيهقي في الشعب سبعين لم يقل أكثر وتقدم في الأذكار  
والدعوات (٢) حديث أتبع السبيلة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر زيادة في أوله وآخره  
وقال حسن صحيح وقد تقدم في رياضة النفس .

ينفع بإنسانيته ويتوصل بها إلى درجات العلا في الدنيا فأما من قنع بأصل الحياة ورضى أن يكون  
كلهم على وضوء وتكررة مطروحة فليس يشترط لكل هذه الحياة عين ويد ورجل فأصل الواجبات  
الداخلة في فتوى العامة لا يوصل إلا إلى أصل النجاة وأصل النجاة كأصل الحياة وما وراء أصل النجاة  
من السعادات التي بها تنتهي الحياة يجري مجرى الأعضاء والآلات التي بها تنبأ الحياة وفيه سعى الأنبياء  
والأولياء والعلماء والأمثل فالأمثل وعليه كان حرصهم وحوايه كان تطوافهم ولأجله كان رفضهم لما لا  
الدنيا بالكلية حتى انتهى عيسى عليه السلام إلى أن توسد حجرا في منامه فجاء إليه الشيطان وقال  
أما كنت تركت الدنيا للآخرة فقال نعم وما الذي حدث فقال توسدك لهذا الحجر تنتم في الدنيا فلم  
لاتضع رأسك على الأرض فرى عيسى عليه السلام بالحجر ووضع رأسه على الأرض وكان رميه بالحجر  
توبة عن ذلك التتم ، أقرى أن عيسى عليه السلام لم يعلم أن وضع الرأس على الأرض لا يسمى  
واجبا في فتاوى العامة . أقرى أن نبينا محمدا صلى الله عليه وسلم لما شغله الثوب الذي كان عليه علم  
في صلاته حتى نزع<sup>(١)</sup> وشغله شراك نعله الذي جده حتى أعاد الشراك الخلق<sup>(٢)</sup> لم يعلم أن ذلك  
ليس واجبا في شرعه الذي شرعه لكافة عباده فإذا علم ذلك فلم تاب عنه بتركه وهل كان ذلك إلا لأنه  
رآه مؤثرا في قلبه أرا يمنعه عن بلوغ المقام المحمود الذي قد وعد به ، أقرى أن الصديق رضي الله  
عنه بعد أن شرب اللبن وعلم أنه على غير وجهه أدخل أصبعه في حلقه ليخرجه حتى كاد يخرج مع عروجه  
ما علم من الفقه هذا القدر وهو أن ما أكله عن جهل فهو غير آثم به ولا يجب في فتوى الفقه إخراج  
فلم تاب عن شربه بالتدارك على حسب إمكانه بتخلية المعدة عنه وهل كان ذلك إلا لسر وقر في صدره  
عرفه ذلك السر أن فتوى العامة حديث آخر وأن خطر طريق الآخرة لا يبرفه إلا الصديقون فتأمل  
أحوال هؤلاء الذين هم أعرف خلق الله بالله وبطريق الله وبمكر الله وبمكامن الغرور بالله وإياك مرة  
واحدة أن تترك الحياة الدنيا وإياك ثم إياك ألف مرة أن يترك بالله الغرور ، فهذه أسرار من  
استشقق مبادئ روايتها علم أن لزوم التوبة النصوح ملازم للبعد السالك في طريق الله تعالى في كل  
نفس من أنفاسه ولو عمر عمر نوح وأن ذلك واجب على القور من غير مهلة ، ولقد صدق أبو سليمان  
الداراني حيث قال لو لم يكن العاقل فيما بقي من عمره إلا على تفويت ماضى منه في غير الطاعة لكان  
خليقا أن يحزنه ذلك إلى المات ، فكيف من يستقبل ما بقي من عمره بمثل ماضى من جهله وإنما  
قال هذا لأن العاقل إذا ملك جوهرة نفيسة وصنعت منه بقير فائدة بكى عليها لاحتالة وإن صنعت  
منه وصار ضياعها سبب هلاكه كان بكاءه منها أشد وكل ساعة من العمر بل كل نفس جوهرة نفيسة  
لا خلف لها ولا بدل منها فانها صالحة لأن توصلك إلى سعادة الأبد وتنقذك من شقاوة الأبد وأي جوهرة  
أتقس من هذا فإذا ضيعتها في الغفلة فقد خسرت خسرانا مبينا وإن صرقتها إلى معصية فقد هلك  
هلاكا فاحشا ، فإن كنت لا تبكي على هذه المصيبة فذلك لجهلك ومصيتك بجهلك أعظم من كل  
مصيبة لكن الجهل مصيبة لا يعرف الصاب بها أنه صاحب مصيبة فإن نوم الغفلة يحول بينه وبين  
معرفة الناس نيام فإذا ماتوا اتبهوا فسد ذلك ينكشف لكل مفلس إفلاسه ولكل مصاب مصيبته  
وقد رفع الناس عن التدارك . قال بعض العارفين : إن ملك الموت عليه السلام إذا ظهر للعبد أعلمه  
أنه قد بقي من عمره ساعة وإنك لا تستأخر عنها طرفة عين فيبدو للبعد من الأسف والحسرة  
مالو كانت له الدنيا بخلافها لخرج منها على أن يضم إلى تلك الساعة ساعة أخرى ليستعب فيها

(١) حديث نزع صلى الله عليه وسلم الثوب الذي كان عليه في الصلاة تقدم في الصلاة أيضا (٢) حديث  
نزع الشراك الجديد وإعادة الشراك الخلق تقدم في الصلاة أيضا .

ولا صمعة خرجت انقضاء  
سخطك وابتغاء  
مرضاتك أسألك أن  
تنقذني من النار  
وأن تغفر لي ذنوبي  
إنه لا يضر الذنوب إلا  
أنت . وروى أبو سعيد  
الخدري أن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال  
« من قال ذلك إذا  
خرج إلى الصلاة وكل  
الله به سبعين ألف  
ملك يستغفرون له  
وأقبل الله تعالى عليه  
بوجهه الكريم حتى  
يقضى صلاته » وإذا  
دخل المسجد أو دخل  
مجاذته للصلاة يقول :  
بسم الله والحمد لله  
والصلاة والسلام على  
رسول الله اللهم اغفر  
لي ذنوبي واتق لي

ويتدارك تفريطه فلا يجد إليه سبيلا وهو أول ما يظهر من معاني قوله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - من قبل أن يأتي أحدكم الموت فيقول رب لولا أخرتني إلى أجل قريب فأصدق وأكن من الصالحين . ولن يؤخر الله نفسا إذا جاء أجلها - فقيل الأجل القريب الذي يطلبه معناه أنه يقول عند كشف الغطاء للعبد يملك الموت أخرني يوما أعتذريه إلى ربى وأتوب وأزود صالحا لنفسى فيقول فبيت الأيام فلا يوم فيقول فأخرني ساعة فيقول فبيت الساعات فلا ساعة فيغلق عليه باب التوبة فيتفرغ بروحه وتردد أنفاسه في شر أسفه ويتجرع غصة اليأس عن التدارك وحسرة الندامة على تضييع العمر فيضطرب أصل إيمانه في صدمات تلك الأحوال فإذا زهقت نفسه فإن كان سبقت له من الله الحسنى خرجت روحه على التوحيد فذلك حسن الخاتمة وإن سبق له القضاء بالشقوة والعياذ بالله خرجت روحه على الشك والاضطراب وذلك سوء الخاتمة، ولعل هذا يقال - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - وقوله - إنما التوبة على الله للذين يعملون السوء بجهالة ثم يتوبون من قريب - ومعناه عن قرب عهد بالخطيئة بأن يتندم عليها ويمحو أثرها بحسنة يردفها بها قبل أن يتراكم الرين على القلب فلا يقبل المحو ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أتبع السيئة الحسنة تمحها » ولذلك قال لقمان لابنه يا بني لا تؤخر التوبة فإن الموت يأتي بغتة ، ومن ترك المبادرة إلى التوبة بالتسوية كان بين خطيرين عظيمين : أحدهما أن تراكم الظلمة على قلبه من المعاصي حتى يصير رينا وطبعا فلا يقبل المحو . الثاني أن يعاجله المرض أو الموت فلا يجد مهلة للاشتغال بالمحو ، ولذلك ورد في الخبر « إن أكثر صياح أهل النار من التسوية (١) » فما هلك من هلك إلا بالتسوية فيكون تسويده القلب قد أوجلاؤه بالطاعة نسيئة إلى أن يختطفه الموت فيأتي الله بقلب غير سليم ولا ينجو إلا من أتى الله بقلب سليم ، فالقلب أمانة الله تعالى عند عبده والعمر أمانة الله عنده وكذا سائر أسباب الطاعة فمن خان في الأمانة ولم يتدارك حياته فأمره عطر . قال بعض العارفين : إن لله تعالى إلى عبده سريين يسرها إليه على سبيل الإلهام : أحدهما إذا خرج من بطن أمه يقول له عبيد قد أخرجتك إلى الدنيا طاهرا نظيفا واستودعتك عمرك واتممتك عليه ، فانظر كيف تحفظ الأمانة وانظر إلى كيف تلقاني . والثاني عند خروج روحه يقول عبيد ماذا صنعت في أمانتي عندك هل حفظتها حتى تلقاني على العهد فألقاك على الوفاء أو أضعتها فألقاك بالمطالبة والعقاب وإليه الإشارة بقوله تعالى - أو فوا بهدي أو فبهمدم - ويقول تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون - .

( بيان أن التوبة إذا استجتمت شرائطها فهي مقبولة لا محالة )

اعلم أنك إذا فهمت معنى القبول لم تشك في أن كل توبة صحيحة فهي مقبولة فالناظرون بنور البصائر المستمدون من أنوار القرآن علموا أن كل قلب سليم مقبول عند الله ومتنعم في الآخرة في جوار الله تعالى ومستعد لأن ينظر بعينه الباقية إلى وجه الله تعالى ، وعلموا أن القلب خلق سليما في الأصل وكل مولود يولد على الفطرة وإنما فطوته السلامة بكدورة ترهق وجهه من غيرة الذنوب وظلمتها ، وعلموا أن نار الندم تحرق تلك الغبرة وأن نور الحسننة يمحو عن وجه القلب ظلمة السيئات وأنه لا طاقة لظلام المعاصي مع نور الحسنات كالأطعمة لظلام الليل مع نور النهار بل كما لا طاقة لكدورة الوسخ مع بياض الصابون ، وكما أن الثوب الوسخ لا يقبله الملك لأن يكون لباسه فالقلب للظلم لا يقبله الله تعالى لأن يكون في جواره ، وكما أن استعمال الثوب في الأعمال الحسنة يوسخ الثوب وغسله

(١) حديث إن أكثر صياح أهل النار من التسوية لم أجده أصلا .

أبواب رحمتك ويقدم  
رجله الخبي في الدخول  
واليسرى في الخروج  
من المسجد أو السجدة  
فمسجدة الصوفي بمنزلة  
البيت والمسجد ثم يصل  
صلاة الصبح في جماعة  
فاذا سلم يقول : لا إله  
إلا الله وخده لا شريك  
له ، له الملك وله الحمد  
يعبي ويعيب وهو حي  
لا يموت يسده الخير  
وهو على كل شيء مقدير  
لا إله إلا الله وحده  
صدق وعده ونصر  
عبده وأعز جنده  
وهزم الأحزاب وحده  
لا إله إلا الله أهل النعمة  
والفضل والثناء الحسن  
لا إله إلا الله ولا نعبد  
إلا إياه مخلصين له الدين  
ولو كره الكافرون  
ويقراً هو الله الذي



بالصابون والياء الحار ينظفه لاحتالة قاستعمال القلب في الشهوات يوسخ القلب وغسله بماء الديموع وحرقة الندم ينظفه ويظهره ويزكيه ، وكل قلب زكى طاهر فهو مقبول كما أن كل ثوب نظيف فهو مقبول فانما عليك التزكية والتطهير . وأما القبول فيبدول قد سبق به القضاء الأزلي الذي لا مرد له وهو للمسي فلاحا في قوله - قد أفلح من زكاها - ومن لم يعرف على سبيل التحقيق معرفة أقوى وأجلى من للشاهدة بالبصر أن القلب يتأثر بالمعاصي والطاعات تأثرا متضادا يستمار لأحدهما لفظ الظلمة كما يستمار للجهل ويستمار للآخر لفظ النور كما يستمار للعلم وأن بين النور والظلمة تضادا ضروريا لا يتصور الجمع بينهما فكأنه لم يبق من الدين إلا قشوره ولم يعلق به إلا أسماؤه وقلبه في غطاء كثيف عن حقيقة الدين بل عن حقيقة نفسه وصفات نفسه ومن جهل نفسه فهو بغيره أجهل وأعنى بقلبه إذ بقلبه يعرف غير قلبه فكيف يعرف غيره وهو لا يعرف قلبه ، فمن يتوهم أن التوبة تصح ولا تقبل كمن يتوهم أن الشمس تطاع والظلام لا يزول والثوب يغسل بالصابون والوسخ لا يزول إلا أن يغوص الوسخ لطول تراكمه في مجاوزات الثوب وخلله فلا يقوى الصابون على قلعه فمثال ذلك أن تراكم الذنوب حتى تصير طبما وريتا على القلب فمثل هذا القلب لا يرجع ولا يتوب ، نعم قد يقول باللسان ثبت فيكون ذلك كقول القصار بلسانه قد غسلت الثوب وذلك لا ينظف الثوب أصلا ما لم يغير صفة الثوب باستعمال ما يضاد الوصف الممكن به فهذا حال امتناع أصل التوبة ، وهو غير بعيد بل هو الغالب على كافة الخلق القليلين على الدنيا للعرضين عن الله بالسكينة فهذا البيان كاف عند ذوي البصائر في قبول التوبة ولكننا نضد جناحه بنقل الآيات والأخبار والآثار فكل استبصار لا يشهد له الكتاب والسنة لا يوثق به وقد قال تعالى - وهو الذي يقبل التوبة عن عباده ويغفر السيئات - وقال تعالى - غفر الذنب وقابل التوب - إلى غير ذلك من الآيات . وقال صلى الله عليه وسلم « لله أفرح بتوبة أحدكم » الحديث والقرح وراء القبول فهو دليل على القبول وزيادة . وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يبسط يده بالتوبة لمسئ الليل إلى النهار وإلى الليل حتى تطلع الشمس من مغربها <sup>(١)</sup> » . وبسط اليد كناية عن طلب التوبة والطالب وراء القابل فرب قابل ليس بطالب ولا طالب إلا وهو قابل وقال صلى الله عليه وسلم « لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم <sup>(٢)</sup> » وقال أيضا « إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة قيل كيف ذلك يا رسول الله قال يكون نصب عينه ثابثا منه فارا حتى يدخل الجنة <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « كفارة الذنب الندامة <sup>(٤)</sup> » . وقال صلى الله عليه وسلم « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » .

(١) حديث إن الله يبسط يده بالتوبة لمسئ الليل إلى النهار الحديث مسلم من حديث أبي موسى يلفظ يبسط يده بالليل ليتوب مسيء النهار الحديث ، وفي رواية للطبراني لمسئ الليل أن يتوب بالنهار الحديث (٢) حديث لو عملتم الخطايا حتى تبلغ السماء ثم ندمتم لتاب الله عليكم ابن ماجه من حديث أبي هريرة وإسناده حسن بلفظ لو أخطأتم وقال ثم تبت (٣) حديث إن العبد ليذنب الذنب فيدخل به الجنة الحديث ابن المبارك في الزهد عن المبارك بن فضالة عن الحسن مرسلا ولأبي نعيم في الحلية من حديث أبي هريرة إن العبد ليذنب الذنب فإذا ذكره أحزنه فإذا نظر الله إليه أنه أحزنه غفر له الحديث وفيه صالح المري ، وهو رجل صالح لكنه مضطرب في الحديث ولابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عمر إن الله لينفع العبد بالذنب يذنبه والحديث غير محفوظ قاله العقيلي (٤) حديث كفارة الذنب الندامة أحمد والطبراني وهق في الشعب من حديث ابن عباس وفيه يحيى بن عمرو بن مالك الشكري ضعيف .

لا إله إلا هو الرحمن  
الرحيم التوبة  
والتسعين اسما إلى  
آخرها فإذا فرغ منها  
يقول : اللهم صل  
على محمد عبدك  
ونبيك ورسولك النبي  
الأمي وعلى آل محمد  
سلام تكون لله رضاء  
ولحبه أداء وأعطه  
الوسيلة والمقام الم محمود  
الذي وعدته وأجزه  
عنا ما هو أهله وأجزه  
عنا أفضل ما جازيت  
نبييا عن أمته وصل  
على جميع إخوانه من  
الطيبين والصديقين  
والشهداء والصالحين .  
اللهم صل على محمد  
في الأولين وصل على  
محمد في الآخرين وصل  
على محمد إلى يوم الدين  
اللهم صل على روح

ويروى « أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة؟ قال نعم فولى ثم رجع فقال يا رسول الله أكان يراني وأنا أعملها قال نعم فصاح الحبشي صيحة خرجت فيها روحه <sup>(١)</sup> » و يروى أن الله عز وجل لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح فقال الله تعالى : وعزتي وجلالي لا حجت عنه التوبة مادام الروح فيه <sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم « إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ <sup>(٣)</sup> » والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد قال سعيد بن المسيب أنزل قوله تعالى - إنه كان للأوابين غفورا - في الرجل يذنب ثم يتوب ثم يذنب ثم يتوب . وقال الفضيل قال الله تعالى : بشر للذين بأنهم إن تابوا قبلت منهم وحذر الصديقين أي إن وضعت عليهم عدلي عذبهم وقال طلق بن حبيب : إن حقوق الله أعظم من أن يقوم بها المبد ولكن أصبحوا تائبين وأمسوا تائبين . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما من ذكر خطيئة ألم بها فوجل منها قلبه محيت عنه في أم الكتاب . ويروى أن نبيامن أنبياء بني إسرائيل أذنب فأوحى الله تعالى إليه وعزتي لئن عدت لأعذبك فقال يارب أنت أنت وأنا أنا وعزتك إن لم تصحني لأعودن فصممه الله تعالى وقال بعضهم إن الصبد ليذنب الذنب فلا يزال ناديا حتى يدخل الجنة فيقول إبليس ليتني لم أوقعه في الذنب وقال حبيب بن ثابت تعرض على الرجل ذنوبه يوم القيامة فيمر بالذنب فيقول أما إني قد كنت مشفقا منه قال فيغفر له . ويروى أن رجلا سأل ابن مسعود عن ذنب ألم به هل له من توبة فأعرض عنه ابن مسعود ثم التفت إليه فرأى عينيه تذرفان فقال له إن للجنة ثمانية أبواب كلها تفتح وتغلق إلا باب التوبة فإن عليه ملكا موكلا به لا يخلق فاعمل ولا تيأس . وقال عبد الرحمن بن أبي قاسم تذاكرنا مع عبد الرحيم توبة الكافر وقول الله تعالى - إن ينتهوا يغفر لهم ما قد سلف - فقال إني لأرجو أن يكون السلم عند الله أحسن حالا ولقد بلغني أن توبة السلم كإسلام بعد إسلام . وقال عبد الله بن سلام لا أحدثكم إلا عن نبي مرسل أو كتاب منزل إن الصبد إذا عمل ذنبا ثم ندم عليه طرفة عين سقط عنه أسرع من طرفه عين . وقال عمر رضى الله عنه اجلسوا إلى التوابين فانهم أرقى أثمة وقال بعضهم أنا أعلم متى يغفر الله لي قيل ومتى قال إذا تاب على وقال آخر أنا من أن أحرم التوبة أخوف من أن أحرم الضرة أي للفرقة من لوازم التوبة وتوابها لا محالة ويروى أنه كان في بني إسرائيل شاب عبد الله تعالى عشرين سنة ثم عصاه عشرين سنة ثم نظر في المرآة فرى الشيب في لحيته فساءه ذلك فقال إلهي أطلعتك عشرين سنة ثم عصيتك عشرين سنة فإن رجعت إليك أتقبلني فسمع قائلا يقول ولا يرى شخصا أحببتنا فأحببتك وتركنا فتركناك وعصيتنا فأهملناك وإن رجعت إلينا قبلناك . وقال ذو النون للصري رحمه الله تعالى إن لله عبادا نصبوا أشجار الخطايا نصب رواق القلوب وسقوها بماء التوبة فأثمرت ندما وحزنا فجنوا من غير

(١) حديث أن حبشيا قال يا رسول الله إني كنت أعمل الفواحش فهل لي من توبة قال نعم الحديث لم أجده أصلا (٢) حديث إن الله لما لعن إبليس سأله النظرة فأنظره إلى يوم القيامة فقال وعزتك لا خرجت من قلب ابن آدم مادام فيه الروح الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه من حديث أبي سعيد أن الشيطان قال وعزتك يارب لا أزال أغوي عبادك مادامت أرواحهم في أجسادهم فقال وعزتي وجلالي لا أزال أغفر لهم ما استغفروني أورده للصف بصيغة وروى كذا ولم يمهز إلى النبي صلى الله عليه وسلم فذكرته احتياطا (٣) حديث إن الحسنات يذهبن السيئات كما يذهب الماء الوسخ لم أجده بهذا اللفظ وهو صحيح المعنى وهو بمعنى أتبع السيئة الحسنة تمحها رواه الترمذي وتقدم قريبا .

محمد في الأرواح وصل  
على جد محمد  
في الأجساد واجمل  
شراف صلواتك  
ونواي برحمتك  
ورأفك ورحمتك  
وتحيتك ورضوانك  
على محمد عبدك  
ونبيك ورسولك اللهم  
أنت السلام ومنك  
السلام وإليك يعود  
السلام غينا ربنا  
بالسلام وأدخلنا دار  
السلام تباركت يا ذا  
الجلال والاکرام  
اللهم إني أصبحت  
لا أستطيع دفع ما أكره  
ولا أملك قمع ما أرجو  
وأصبح الأمر بيد  
غيري وأصبحت مرتهنا  
بمولى فلا قصير أقهر  
منى اللهم لا تشمت بي

جنون وتبلهوا من غير عى ولا بكم وإنهم لم يلبثوا إلا بضعة من العارفين بالله ورسوله ثم شر بوابكأس الصفاء فورثوا الصبر على طول البلاء ثم تولعت قلوبهم في اللسكوت وجالت أفكارهم بين سرايا حجب الجبروت واستظلوا تحت رواق الندم وقرءوا صحيفة الخطايا فأورثوا أنفسهم الجزع حتى وصلوا إلى علو الزهد بسم الورع فاستعذبوا مرارة الترك للدنيا واستلناوا خشونة للضعف حتى ظفروا بعجل النجاة وعروة السلامة وسرحت أرواحهم في الملا حتى أناخوا في رياض النعيم وخاضوا في بحر الحياة ورددوا خنادق الجزع وعبروا جسور الهوى حتى نزلوا بفناء العلم واستنوا من غير الحكمة وركبوا سفينة القنطرة وأقلعوا بريح النجاة في بحر السلامة حتى وصلوا إلى رياض الراحة ومعادن المزا والكرامة فهذا القدر كاف في بيان أن كل توبة صحيحة مقبولة لامحالة . فان قلت أقول ما قالته المعتزلة من أن قبول التوبة واجب على الله . فأقول لا أعني بما ذكرته من وجوب قبول التوبة على الله إلا ما يريد القائل بقوله إن الثوب إذا غسل بالصابون وجب زوال الوسخ وإن العطشان إذا شرب الماء وجب زوال العطش وإنه إذا منع الماء مدة وجب العطش وإنه إذا دام العطش وجب الموت وليس في شيء من ذلك ما يريد المعتزلة بالإيجاب على الله تعالى . بل أقول خلق الله تعالى الطاعة مكرمة للصحة والحسنة ماحية للسيئة كما خلق الماء مزيلًا للعطش والقدرة منسقة بخلافه لوسبقت به للشيئة فلا واجب على الله تعالى ولكن ما سبقت به إرادته الأزلية فواجب كونه لامحالة . فان قلت لما من تأمب إلا هو شاك في قبول توبته والشارب للماء لا يشك في زوال عطشه فلم يشك فيه . فأقول شكك في القبول كشكك في وجود شرائط الصحة فان للتوبة أركانًا وشروطًا دقيقة كما سيأتي وليس يتحقق وجود جميع شروطها كالذي يشك في دواء شربه للاسهال في أنه هل سهل وذلك لشكك في حصول شروط الاسهال في الدواء باعتبار الحال والوقت وكيفية خلط الدواء وطبخه وجودة عقاقيره وأدويته فهذا وأمثاله موجب للخوف بعد التوبة وموجب للشك في قبولها لامحالة على ما سيأتي في شروطها إن شاء الله تعالى .

( الركن الثاني فما عنه التوبة وهي الذنوب صغارها وكبارها )

اعلم أن التوبة ترك الذنب ولا يمكن ترك الشيء إلا بعد معرفته وإذا كانت التوبة واجبة كان ما لا يتوصل إليها إلا به واجبا فمعرفة الذنوب إذن واجبة والذنب عبارة عن كل ما هو مخالف لأمر الله تعالى في ترك أو فعل وتفصيل ذلك يستدعى شرح التكليفات من أولها إلى آخرها وليس ذلك من غرضنا ولكننا نشير إلى مجامعها وروابط أقسامه والله الوفي للصواب برحمته

( بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد )

اعلم أن للإنسان أوصافًا وأخلاقًا كثيرة على ما عرف شرحه في كتاب هجائب القلب وغوائله ولكن تنحصر مئارات الذنوب في أربع صفات ربوية وصفات شيطانية وصفات بهيمية وصفات سبعية وذلك لأن طينة الإنسان مجتمعة من أخلاط مختلفة فتنضى كل واحد من الأخلاط في المكون منه أثرًا من الآثار كما يقتضى السكر والخل والزعفران في السكنجين آثارًا مختلفة . فأما ما يقتضى الزرع إلى الصفات الربوية فمثل السكر والخمر والجبرية وجب للدخ والتناء والمز والتنى وجب دوام البقاء وطلب الاستعلاء على الكافة حتى كأنه يريد أن يقول أنا ربكم الأعلى وهذا يقتضب منه جملة من كبار الذنوب غفل عنها الخلق ولم يعدوها ذنوبًا وهي للهلكات العظيمة التي هي كالأهيات لأكثر العاصي كما استقصيناه في ربيع للهلكات . الثانية هي الصفة الشيطانية التي منها يقتضب الحسد والبغى والحيلة والخداع والأمر بالقساد والنكر وفيه يدخل النسي والتفاني والدعوة إلى

عدوى ولا نسي . في صديق ولا تجعل مصديق في ديني ولا تجعل الدنيا أكبر همي ولا تسلط على من لا يرجي الله من هذا خلق جديد فاتحه على بطاعتك واخته لي بخفرتك ورضوانك وارزقي فيه حنة تقبلها مني وزككها وضعفها وماعلت فيه من سيئة فاغفر لي إنك غفور رحيم ودود رضيت بالله ربا وبالإسلام دينًا وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبيًا اللهم إني أسألك خير هذا اليوم وخير ما فيه وأعوذ بك من شره وشر ما فيه وأعوذ بك من شر

البدع والضلال . الثالثة الصفة البيمية ومنها يتشعب الشره والكلب والحرص على قضاء شهوة البطن والفرج ومنه يتشعب الزنا واللواط والسرقة وأكل مال الأيتام وجمع الحطام لأجل الشهوات . الرابعة الصفة السبعة ومنها يتشعب الغضب والحقد والتهجم على الناس بالضرب والشتم والقتل واستهلاك الأموال ويتفرع عنها جل من الذنوب وهذه الصفات لها تدرج في الفطرة فالصفة البيمية هي التي تغلب أولاً ثم تلوها الصفة السبعة ثانياً ثم إذا اجتمعا استعملا العقل في الحداد والكر والحيلة وهي الصفة الشيطانية ثم بالآخرة تغلب الصفات الربوية وهي الفخر والعز والعلو وطلب الكبرياء وقصد الاستيلاء على جميع الخلق فهذه أمهات الذنوب ومنابعها ثم تنفجر الذنوب من هذه المنابع على الجوارح فبعضها في القلب خاصة كالكفر والبدعة والنفاق وإضمار سوء للناس وبعضها على اللسان والسمع وبعضها على اللسان وبعضها على البطن والفرج وبعضها على اليدين والرجلين وبعضها على جميع البدن ولا حاجة إلى بيان تفصيل ذلك فإنه واضح . قسمة ثانية : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى ما بين المبد وبين الله تعالى وإلى ما يتعلق بحقوق العباد لما يتعلق بالمبد خاصة كترك الصلاة والصوم والواجبات الخاصة به وما يتعلق بحقوق العباد كترك الزكاة وقته النفس وغصبه الأموال وشتمه الأعراس وكل متناول من حق الغير فاما نفس أو طرف أو مال أو عرض أو دين أو جاه وتناول الدين بالاغواء والبداء إلى البدعة والترغيب في المعاصي وتهيج أسباب الجراءة على الله تعالى كإفطه بعض الوعاظ بتخليب جانب الرجاء على جانب الخوف وما يتعلق بالعباد فالأمر فيه أغلظ وما بين العبد وبين الله تعالى إذا لم يكن شركاً فالعفو فيه أرجى وأقرب وقد جاء في الخبر «الدواوين ثلاثة ديوان يغفر ودويان لا يغفر ودويان لا يترك فالديوان الذي يغفر ذنوب العباد بينهم وبين الله تعالى وأما الديوان الذي لا يغفر فالشرك بالله تعالى وأما الديوان الذي لا يترك لمظالم العباد <sup>(١)</sup>» أي لا بدوان يطالب بها حتى يبقى عنها : قسمة ثالثة : اعلم أن الذنوب تنقسم إلى صغار وكبار وقد كثر اختلاف الناس فيها فقال قائلون لاصفيرة ولا كبيرة بل كل مخالفة لله فهي كبيرة وهذا ضعيف إذ قال تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم وندخلكم مدخلا كريماً - وقال تعالى - الذين يجتنبون كبار الإثم والله واثق إلا اللهم - وقال <sup>(٢)</sup> «الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة يكفرون ما بينهما إن اجتنبت الكبائر <sup>(٣)</sup>» وفي لفظ آخر «كفارات ما بينهما إلا الكبائر» وقد قال صلى الله عليه وسلم قمارواه عبد الله بن عمرو بن العاص «الكبائر الإشرار بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين القموس <sup>(٤)</sup>» واختلف الصحابة والتابعون في عدد الكبائر من أربع إلى سبع إلى تسع إلى إحدى عشرة لما فوق ذلك فقال ابن مسعود هن أربع وقال ابن عمر هن سبع وقال عبد الله بن عمرو هن تسع وكان ابن عباس إذا بلغه قول ابن عمر الكبائر سبع يقول هن إلى سبعين أقرب منها إلى سبع وقال مرة كل ما نهى الله عنه فهو كبيرة وقال غيره كل ما أوعد الله عليه بالنار فهو من الكبائر وقال بعض السلف كل ما أوجب عليه الحد في الدنيا فهو كبيرة وقيل إنها مبهمة لا يعرف عددها كلية القدر وساعة يوم الجمعة . وقال ابن مسعود لما سئل عنها أقرأ من أول سورة النساء إلى رأس ثلاثين آية منها عند قوله - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه - فكل ما نهى الله عنه في هذه السورة إلى هنا فهو كبيرة . وقال أبو طالب السكي

طوارق الليل والنهار  
ومن بفتات الأمور  
وجاءة الأقدار ومن  
شرك كل طارق يطرق  
إلا طارقا يطرق منك  
بخير يارحم الدنيا  
والآخرة ورحيمها  
وأعوذ بك أن أزل  
أوأزك أو أضل أو أضل  
أو أعظم أو أعظم أو أجمل  
أو يجهل على عز جارك  
وجل ثناؤك وتقدست  
أسمائك وعظمت  
نعمائك أعوذ بك من  
شرب ما يبلع في الأرض  
وما يخرج منها وما ينزل  
من السماء وما يجرح فيها  
أعوذ بك من حسنة  
الحرص وشدة الطمع  
وسورة الغضب وسنة  
النفقة ومطامير الكلفة  
اللهم إني أعوذ من

(١) حديث الدواوين ثلاثة ديوان يغفر الحديث أحمد والحاكم وصححه من حديث عائشة وفيه صدقة بن موسى الدقيقي ضعفه ابن معين وغيره وله شاهد من حديث سلمان ورواه الطبراني (٢) حديث الصلوات الخمس والجمعة إلى الجمعة تكفرون ما بينهما إن اجتنبت الكبائر مسلم من حديث أبي هريرة (٣) حديث عبد الله بن عمرو الكبائر الإشرار بالله وعقوق الوالدين وقتل النفس واليمين القموس رواه البخاري.

الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار (١) وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم أربعة في القلب وهى الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره

(١) الأخبار الواردة في الكبائر حكى المصنف عن أبي طالب المكي أنه قال الكبائر سبع عشرة جمعتها من جملة الأخبار وجملة ما اجتمع من قول ابن عباس وابن مسعود وابن عمر وغيرهم الشرك بالله والإصرار على معصيته والقنوط من رحمته والأمن من مكره وشهادة الزور وقذف المحصن واليمين القموس والسحر وشرب الخمر والسكر وأكل مال اليتيم ظلماً وأكل الربا وألّا اللواط والقتل والسرقه والفرار من الزحف وعقوق الوالدين انتهى . وسأذكر ماورد منها مرفوعاً وقد تقدم أربعة منها في حديث عبد الله بن عمرو وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات قالوا يا رسول الله وماهى؟ قال الشرك بالله والسحر وقتل النفس التى حرم الله إلا بالحق وأكل الربا وأكل مال اليتيم والتولى يوم الزحف وقذف المحصنات المؤمنات ولهما من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور أو قال قول الزور ولهما من حديث أنس سئل عن الكبائر قال الشرك بالله وقتل النفس وعقوق الوالدين وقال ألا أنبئكم بأكبر الكبائر قال قول الزور أو قال شهادة الزور ولهما من حديث ابن مسعود سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم أى الذنب أعظم قال أن تجعل لله ندا وهو خلقك قلت ثم أى قال أن تقتل ولدك مخافة أن يطعم معك قلت ثم أى قال أن تزاني حليلة جارك وللطبراني من حديث سلمة بن قيس إنما هى أربع لا تتركوا بالله شيئاً ولا تقتلوا النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت يابعون على أن لا تتركوا بالله شيئاً ولا تزنوا ولا تسرقوا وفي الأوسط للطبراني من حديث ابن عباس الخمر أم الفواحش وأكبر الكبائر وفيه موقوفاً على عبد الله بن عمرو وأعظم الكبائر شرب الخمر وكلاهما ضعيف وللبراز من حديث ابن عباس بإسناد حسن أن رجلاً قال يا رسول الله ما الكبائر؟ قال الشرك بالله والإيأس من روح الله والقنوط من رحمة الله وله من حديث بريدة أكبر الكبائر الإشراك بالله وعقوق الوالدين ومنع فضل الماء ومنع القفل وفيه صالح بن حبان ضعفه ابن معين والنسائي وغيرهما وله من حديث أبي هريرة الكبائر أو لهن الإشراك بالله وفيه والانتقال إلى الأعراب بعد هجرته وفيه خالد بن يوسف السمين ضعيف وللطبراني في الكبير من حديث سهل بن أبي حنيفة في الكبائر والتعرب بعد الهجرة وفيه ابن لهيعة وله في الأوسط من حديث أبي سعيد الخدري الكبائر سبع وفيه والرجوع إلى الأعرابية بعد الهجرة وفيه أبو بلال الأشعري ضعفه الدارقطني وللحاكم من حديث عبيد بن عمير عن أبيه الكبائر تسع فذكر منها واستحلال البيت الحرام وللطبراني من حديث وائله إن من أكبر الكبائر أن يقول الرجل على مالم أقل وله أيضاً من حديثه إن من أكبر الكبائر أن ينتفى الرجل من ولده ولمسلم من حديث جابر بين الرجل وبين الشرك أو الكفر ترك الصلاة ولمسلم من حديث عبد الله بن عمرو من الكبائر شتم الرجل والديه ولأبي داود من حديث سعيد بن زيد من أربى الربا الاستطالة في عرض المسلم بغير حق وفي الصحيحين من حديث ابن عباس أنه عليه السلام مر على قبرين فقال إني ليمذبان وما يمذبان في كبير وإنه لكبير أما أحدهما فكان يمشى بالقيمة وأما الآخر فكان لا يستتر من بوله الحديث ولأحمد في هذه القصة من حديث أبي بكره أما أحدهما فكان يأكل لحوم الناس الحديث ولأبي داود والترمذي من حديث أنس عرضت على ذنوب أمي فلم أر ذنباً أعظم من سورة من القرآن أو آية أو تبها رجل ثم نسبها سكت عليه أبو داود واستفربه البخاري والترمذي وروى ابن أبي شيبة في التوبة من حديث ابن عباس لاصفيرة مع إصرار وفيه أبو شيبة الخراساني

مباهاة الكثرين  
والإزراء على القليلين وأن  
أنصر ظالمًا أو أخذل  
مظلوماً وأن أقول في  
العلم بغير علم أو أعمل في  
الدين بغير يقين أعوذ  
بك أن أشرك بك وأنا  
أعلم وأستغفر لك  
لا أعلم أعوذ بفوك  
من عقابك وأعوذ  
برضاك من سخطك  
وأعوذ بك منك  
لا أحصى ثناء عليك  
أنت كما أثبتت على  
نفسك اللهم أنت ربى  
لا إله إلا أنت خلقتنى  
وأنا عبدك وابن  
عبدك وعلى عهدك  
ووعدك ما استطعت  
أعوذ بك من شر  
ما صنعت أبوء بنعمتك  
على وأبوء بذنبي فاغفرلى

وأربع في اللسان ، وهي شهادة الزور وقذف المحصن واليمين النعوس ، وهي التي يحق بها بطلاؤها يطل بها حقا ، وقيل هي التي يقتطع بها مال امرئ مسلم بطلا ولو سوا كامن أراك . وصحبت غموسا لأنها تنمض صاحبها في النار . والسحر وهو كل كلام يغير الانسان وسائر الأجسام عن موضوعات الخلقة . وثلاث في البطن وهي شرب الخمر والمسكر من كل شراب وأكل مال اليتيم ظلما وأكل الربا وهو يلم . واثنان في الفرج هما الزنا والواط . واثنان في اليدين هما القتل والسرقة . وواحدة في الرجلين وهو الفرار من الزحف الواحد من اثنين والعشرة من العشرين وواحدة في جميع الجسد وهو عقوق الوالدين . قال وجلة عقوقهما أن يقسا عليه في حق فلا ير قسمهما وإن سألاه حاجة فلا يعطيها وإن يسأه فيضربها ويجوعان فلا يطعمها هذا ما قاله وهو قريب ولكن ليس يحصل به تمام الشفاء إذ يمكن الزيادة عليه والنقصان منه فانه جعل أكل الربا ومال اليتيم من الكبائر وهي جناية على الأموال ، ولم يذكر في كبائر النفوس إلا القتل فأما فقء العين وقطع اليدين وغير ذلك من تعذيب المسلمين بالضرب وأنواع العذاب فلم يتعرض له وضرب اليتيم وتعذيبه وقطع أطرافه لاشك في أنه أكبر من أكل ماله ، كيف وفي الخبر من الكبائر « السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه للمسلم <sup>(١)</sup> وهذا زائد على قذف المحصن . وقال أبو سعيد الخدرى وغيره من الصحابة : إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر <sup>(٢)</sup> . وقالت طائفة : كل عمد كبيرة وكل مانهى الله عنه فهو كبيرة وكشف الغطاء عن هذا أن نظر الناظر في السرقة أهي كبيرة أم لا يصح ما لم يفهم معنى

إنه لا يضر الذنوب إلا أنت . اللهم اجعل أول يومنا هذا صلاحا وآخره نجاحا وأوسطه فلاحا . اللهم اجعل أوله رحمة وأوسطه نعمة وآخره تكريمة أصبحنا وأصبح الملك لله والعظمة والكبرياء لله والجبروت والسلطان لله والليل والنهار وما سكن فيها لله الواحد القهار . أصبحنا على فطرة الاسلام وكلمة الاخلاص وعلى دين نبينا محمد صلى الله عليه وسلم وملة آيينا إبراهيم حنيفا مسلما وما كان من المشركين ، اللهم إنا نسألك بأن لك الحمد لا إله إلا أنت الحنان

والحديث منكر يعرف به . وأما الموقوفات فروى الطبراني والبيهقي في الشعب عن ابن مسعود قال الكبائر الإشرار بالله والأمن من مكر الله والقنوط من رحمة الله واليأس من روح الله . وروى البيهقي فيه عن ابن عباس قال الكبائر الإشرار بالله واليأس من روح الله والأمن من مكر الله وعقوق الوالدين وقتل النفس التي حرم الله وقذف المحصنات وأكل مال اليتيم والفرار من الزحف وأكل الربا والسحر والزنا واليمين النعوس الفاجرة والغلول ومنع الزكاة وشهادة الزور وكنان الشهادة وشرب الخمر وترك الصلاة متمعدا وأشياء مما فرضها الله وتقص العهد وقطيعة الرحم . وروى ابن أبي الدنيا في التوبة عن ابن عباس كل ذنب أصر عليه العبد كبير وفيه الربيع بن صبيح يختلف فيه . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس عن أنس قوله لاصغيرة مع الإصرار وإسناده جيد فقد اجتمع من المرفوعات والموقوفات ثلاثة وثلاثون أو اثنان وثلاثون إلا أن بعضها لا يصح إسناده كما تقدم وإنما ذكرت الموقوفات حتى يعلم ما ورد في المرفوع وما ورد في الوقوف ولا يهتدى في الشعب عن ابن عباس أنه قيل له الكبائر سبع فقال هي إلى السبعين أقرب وروى البيهقي أيضا فيه عن ابن عباس قال كل مانهى الله عنه كبيرة ، والله أعلم <sup>(١)</sup> حديث من الكبائر السبتان بالسبة ومن الكبائر استطالة الرجل في عرض أخيه للمسلم عزاه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس لأحمد وأبي داود من حديث سعيد بن زيد والذي عندهما من حديثه من أربى الربا استطالة في عرض السلم بغير حق كما تقدم <sup>(٢)</sup> حديث أبي سعيد الخدرى وغيره من الصحابة إنكم تعملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشعر كنا نعدها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبائر أحمد والبخاري بسند صحيح وقال من اللوبات بدل الكبائر ورواه البخاري من حديث أنس وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص وقال صحيح الاسناد .

الكبيرة والمراد بها كقول القائل السرقة حرام أم لا ، لامطع في تعريفه إلا بعد تقرير معنى الحرام أولاً ثم البحث عن وجوده في السرقة ، فالكبيرة من حيث اللفظ مبهم ليس له موضوع خاص في اللغة ولا في الشرع وذلك لأن الكبير والصغير من المضافات وما من ذنب إلا وهو كبير بالإضافة إلى مادونه وصغير بالإضافة إلى ما فوقه فالمضاجعة مع الأجنبية كبيرة بالإضافة إلى النظرة صغيرة بالإضافة إلى الزنا وقطع يد المسلم كبيرة بالإضافة إلى ضربه صغيرة بالإضافة إلى قتله ، نعم للإنسان أن يطلق على ما توعد بالنار على فعله خاصة اسم الكبيرة ، ونفى بوصفه بالكبيرة أن العقوبة بالنار عظيمة وله أن يطلق على ما أوجب الحد عليه مصيراً إلى أن ما جهل عليه في الدنيا عقوبة واجبة عظيم وله أن يطلق على ما ورد في نص الكتاب التمس عنه فيقول تخصيصه بالذكر في القرآن يدل على عظمته ثم يكون عظيماً وكبيرة لأعماله بالإضافة ، إذ منصوصات القرآن أيضاً تتفاوت درجاتها فهذه الاطلاقات لا حرج فيها وما نقل من ألفاظ الصحابة يتردد بين هذه الجهات ولا يبعد تزييلها على شيء من هذه الاحتمالات ، نعم من اللغات أن تعلم معنى قول الله تعالى - إن تجتنبوا كبار ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم «الصلوات كفارات لما بينهن» إلا الكبائر ، فإن هذا إثبات حكم الكبائر والحق في ذلك أن الذنوب منقسمة في نظر الشرع إلى ما يعلم استظامه إياها وإلى ما يعلم أنها معدودة في الصفات وإلى ما يشك فيه فلا يدرى حكمه فالطمع في معرفة حد حاصر أو عدد جامع مانع طلب لما لا يمكن فإن ذلك لا يمكن إلا بالسماع من رسول الله صلى الله عليه وسلم بأن يقول إنني أردت بالكبائر عشرًا أو خمسا ويفصلها ، فإن لم يرد هذا بل ورد في بعض الألفاظ « ثلاث من الكبائر (١) » وفي بعضها « سبع من الكبائر (٢) » . ثم ورد « أن السبطين بالسبة الواحدة من الكبائر » وهو خارج عن السبع والثلاث علم أنه لم يقصد به العدد بما يحصر فكيف يطمع في عدد ما لم يحد الشرع وربما قصد الشرع إبهامه ليكون العباد منه على وجل كما أيهم ليلة القدر ليحظم جد الناس في طلبها ، نعم لنا سبيل كلي يمكننا أن نعرف به أجناس الكبائر وأنواعها بالتحقيق . وأما أعيانها فمعرفة بالظن والتقريب ونعرف أيضاً أكبر الكبائر ، فأما أصغر الصفات فلا سبيل إلى معرفته . ويأتي أن نعلم بشواهد الشرع وأنوار البصائر جميعاً أن مقصود الشرائع كلها سياق الخلق إلى جوار الله تعالى وسعادة لقاءه وأنه لا وصول لهم إلى ذلك إلا بمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وكتبه ورسوله وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - أي ليكونوا عبيداً لي ولا يكون العبد عبداً ما لم يعرف ربه بالربوبية ونفسه بالصودية ولا بد أن يعرف نفسه وربه فهذا هو المقصود الأقصى يمتثل الأنبياء ولكن لا يتم هذا إلا في الحياة الدنيا ، وهو المعنى بقوله عليه الصلاة والسلام « الدنيا مزرعة الآخرة (٣) » فصار حفظ الدنيا أيضاً مقصوداً تابعاً للدين لأنها وسيلة إليه

(١) حديث ثلاث من الكبائر الشيخان من حديث أبي بكره ألا أنبئكم بأكبر الكبائر ثلاثاً الحديث وقد تقدم (٢) حديث سبع من الكبائر طبر في الأوسط من حديث أبي سعيد الكبائر سبع وقد تقدم وله في الكبير من حديث عبد الله بن عمر من صلى الصلوات الخمس واجتنب الكبائر الحديث ثم عدهن سبعاً وتقدم عن الصحيحين حديث أبي هريرة اجتنبوا السبع الموبقات (٣) حديث الدنيا مزرعة الآخرة لم أجده بهذه اللفظ مرفوعاً وروى العقيلي في الضعفاء وأبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث طارق بن أشيم نعمت الدار الدنيا لمن تزود منها لآخرته الحديث وإسناده ضعيف .

للنار بديع السموات والأرض ذو الجلال والاكرام أنت الأحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً أحد يا حي يا قيوم يا حي حين لا شيء في دعوته ملكه وجاته يا حي يحيى الموتى يا حي يميت الأحياء ووارث الأرض والسماء ، اللهم إني أسألك باسمك بسم الله الرحمن الرحيم وباسمك الله لا إله إلا هو الحي القيوم لا تأخذه سنة ولا نوم اللهم إني أسألك باسمك الأعظم الأجل الأعز الأكرم الذي إذا دعيت به أجبت وإذا سئلت به أعطيت يا نور النور يا مدبر الأمور

والملحق من الدنيا بالآخرة شيان النفوس والأموال فكل ما يستلزم معرفة الله تعالى فهو أكبر الكبائر  
وبليه ما يستلزم باب حياة النفوس وبليه ما يستلزم باب للمعيشة التي بها حياة النفوس فهذه ثلاث مراتب ،  
حفظ المعرفة على القلوب والحياة على الأبدان والأموال على الأشخاص ضرورى فى مقصود الترائع  
كلها وهذه ثلاثة أمور لا يتصور أن يختلف فيها للئلا فلا يجوز أن الله تعالى يمتحن نبيا يريد بعثه  
إصلاح الخلق فى دينهم ودنياهم ثم يأمرهم بما عندهم من معرفته ومعرفة رسوله أو يأمرهم بهلاك  
النفوس وإهلاك الأموال لحصل من هذا أن الكبائر على ثلاث مراتب : الأولى ما يمنع من معرفة  
الله تعالى ومعرفة رسوله وهو الكفر فلا كبيرة فوق الكفر ، ذ الحجاب بين الله وبين العبد هو الجهل  
والوسيلة للقربة له إليه هو العلم والمعرفة وقربه بقدر معرفته وبسببه بقدر جهله ويتلو الجبل الذى  
يسمى كفرا الأمن من مكر الله والقنوط من رحمته فان هذا أيضا عين الجهل لمن عرف الله لم يتصور  
أن يكون آمنا ولأن يكون آيسا ويتلو هذه الرتبة البدع كلها التملق بذات الله وصفاته وأفعاله  
وبعضها أشد من بعض ومخاوتها على حسب مخاوت الجبل ، وعلى حسب تعلقها بذات الله سبحانه وبأفعاله  
وشرائعه وبأوامره ونواهيه ومراتب ذلك لا تنحصر وهى تنقسم إلى ما يعلم أنها داخلية تحت ذكر  
الكبائر المذكورة فى القرآن وإلى ما يعلم أنه لا يدخل وإلى ما يشك فيه وطلب دفع الشك فى القسم  
للتوسط طمع فى غير مطمع . الرتبة الثانية : النفوس إذ يقاؤها وحفظها تدوم الحياة وتحصل المعرفة  
بالله قتل النفس لعمالة من الكبائر وإن كان دون الكفر لأن ذلك يصد عن التصود وهذا  
يصد وسيلة للتصود إذ حياة الدنيا لا تراد إلا للآخرة والتوصل إليها بمعرفة الله تعالى ويتلو هذه  
الكبيرة قطع الأطراف وكل ما يفضى إلى الهلاك حتى الضرب وبعضها أكبر من بعض ويقع فى  
هذه الرتبة تحريم الزنا والواط لأنه لو اجتمع الناس على الاكتفاء بالله كور فى قضاء الشهوات  
انقطع النسل ودفع الموجود قريب من قطع الوجود ، وأما الزنا فانه لا يفوت أصل الوجود ولكن  
يشوش الأنساب ويطل التوارث والتناصر وجملة من الأمور التى لا ينتظم المعيشة إلا بها بل كيف  
يتم النظام مع إباحة الزنا ولا ينتظم أمور البهائم مالم يتميز الفعل منها بإثبات يمتنع بها عن سائر  
الفحول ولذلك لا يتصور أن يكون الزنا مباحا فى أصل شرع قصد به الإصلاح وينبى أن يكون الزنا  
فى الرتبة دون القتل لأنه ليس يفوت دوام الوجود ولا يمنع أصله ولعمركه يفوت تميز الأنساب  
ويحرك من الأسباب ما يكاد يفضى إلى التقاتل وينبى أن يكون أعاد من القواط لأن الشهوة  
داعية إليه من الجانبين فيكثر وقوعه ويحطم أثر الضرر بكثرته . للرتبة الثالثة : الأموال فانها معاش  
الخلق فلا يجوز تسلط الناس على تناولها كيف شاءوا حتى بالاستيلاء والسرقة وغيرهما بل ينبى أن تحفظ  
لنبيق يقاتها النفوس إلا أن الأموال إذا أخذت أمكن استردادها وإن أكلت أمكن ترميها  
فليس يحطم الأمر فيها ، نعم إذا جرى تناولها بطريق يصير التدارك له فينبى أن يكون ذلك من  
الكبائر وذلك بأربع طرق : أحدها الخفية ، وهى السرقة فانه إذا لم يطلع عليه غالبا كيف  
يتدارك . الثانى أكل مال اليتيم ، وهذا أيضا من الخفية وأعنى به فى حق الولي والقيم فانه مؤتمن  
فيه وليس له خصم سوى اليتيم وهو صغير لا يعرف فتعظيم الأمر فيه واجب بخلاف النسب فانه ظاهر  
يعرف وبخلاف الحيانة فى الوديعة فان اللودع خصم فيه يتصف لنفسه . الثالث : مخاوتها بشهادة  
الزور . الرابع : أخذ الوديعة وغيرها باليمين القموس فان هذه طريق لا يمكن فيها التدارك ولا يجوز  
أن تختلف الترائع فى ترميها أصلا وبعضها أشد من بعض وكلها دون الرتبة الثانية المتعلقة بالنفوس

إعالم ما فى الصدور  
يا صبح يا قريب يا محبوب  
الدعاء بالطينا لما يشاء  
يارهوف يارحم يا كبير  
يا عظيم يا الله يارحم  
يا ذا الجلال والاكرام  
الم الله لا إله إلا هو الحى  
القيوم وعنت الوجوه  
الحى القيوم يا الهى  
والله كل شيء إلها  
واحدا لا إله إلا أنت  
الهم إني أسألك باسمك  
يا الله الله الله الذى  
لا إله إلا هو رب العرش  
العظيم فتعالى الله الملك  
الحق لا إله إلا هو رب  
العرش الكريم أنت  
الأول والآخر والظاهر  
والباطن وسعت كل  
شيء رحمة وعلم  
كريم حم عسق  
الرحمن يا واحد يا قهار



وهذه الأربعة جدية بأن تكون مرادة بالكبائر وإن لم يوجب الشرع الحد في بعضها ولكن أكثر الوعيد عليها وعظم في مصالح الدنيا تأثيرها . وأما كل الرافليس فيه إلا كل مال الغير بالتراضي مع الإخلال بشرط وضعه الشرع ولا يبعد أن تختلف الشرائع في مثله وإذا لم يجعل النصب الذي هو أكل مال الغير بغير رضاه وبغير رضا الشرع من الكبائر فأكل الربا أكل رضا المالك ولكن دون رضا الشرع وإن عظم الشرع الربا بالزجر عنه قد عظم أيضا الظلم بالنصب وبغيره وعظم الخيانة والمصير إلى أن أكل دائق بالخيانة أو النصب من الكبائر فيه نظر وذلك واقع في مظنة الشك وأكتميل الظن إلى أنه غير داخل تحت الكبائر بل ينبغي أن تختص الكبيرة بما لا يجوز اختلاف الشرع فيه ليكون ضروريا في الدين فيقوما ذكره أبو طالب المكي القذف والشرب والسحر والفرار من الزحف وعقوق الوالدين . أما الشرب لما يزيل العقل فهو جدير بأن يكون من الكبائر وقد دل عليه تشديدات الشرع وطريق النظر أيضا لأن العقل محظوظ كما أن النفس محظوظة بل لاخير في النفس دون العقل فإزالة العقل من الكبائر ولكن هذا لا يجري في قطرة من الخمر فلا شك في أنه لو شرب ماء قطرة من الخمر لم يكن ذلك كبيرة وإنما هو شرب ماء نجس والقطرة وحدها في محل الشك وإيجاب الشرع الحد به يدل على تعظيم أمره فبعد ذلك من الكبائر بالشرع وليس في قوة البشرية الوقوف على جميع أسرار الشرع فإن ثبت إجماع في أنه كبيرة وجب الاتباع وإلا فالتوقف فيه محال . وأما القذف فليس فيه إلا تناول الأعراض والأعراض دون الأموال في الرية ولتأولها مراتب وأعظمها تناول القذف بالإضافة إلى فاحشة الزنا وقد عظم الشرع أمره وأظن ظنا غالبا أن الصحابة كانوا يمتدون كل ما يجب به الحد كبيرة فهو بهذا الاعتبار لا تكفره الصلوات الخمس وهو الذي نريده بالكبيرة الآن ولكن من حيث إنه يجوز أن تختلف فيه الشرائع فالقياس بمجرده لا يدل على كبره وعظمته بل كان يجوز أن يرد الشرع بأن العدل الواحد إذا رأى إنسانا يزني فله أن يشهد ويحلف بالشهود عليه بمجرد شهادته فإن لم تقبل شهادته فحده ليس ضروريا في مصالح الدنيا وإن كان على الجملة من المصالح الظاهرة الواقعة في رتبة الحاجات فاذن هذا أيضا يلحق بالكبائر في حق من عرف حكم الشرع فأما من ظن أنه أن يشهد وحده أو ظن أنه يساعده على شهادة غيره فلا ينبغي أن يجعل في حقه من الكبائر . وأما السحر فإن كان فيه كفر فكبيرة وإلا فعظمته بحسب الضرر الذي يتولد منه من هلاك نفس أو مرض أو غيره . وأما الفرار من الزحف وعقوق الوالدين فهذا أيضا ينبغي أن يكون من حيث القياس في محل التوقف وإذا قطع بأن سب الناس بكل شيء سوى الزنا وضربهم والظلم لهم بنصب أموالهم وإخراجهم من مساكنهم وبلادهم وإجلالهم من أوطانهم ليس من الكبائر إذ لم ينقل ذلك في السبع عشرة كبيرة وهو أكبر ما قبل فيه فالتوقف في هذا أيضا غير بعيد ولكن الحديث يدل على تسجيته كبيرة فليحقق بالكبائر . فإذا رجع حاصل الأمر إلى أننا نفي بالكبيرة ما لا تكفره الصلوات بحكم الشرع وذلك مما انقسم إلى ما علم أنه لا تكفره قطعا وإلى ما ينبغي أن تكفره وإلى ما يتوقف فيه والتوقف فيه بضه مظنون للنفي والاثبات وبضه مشكوك فيه وهو شك لا يزيله إلا نص كتاب أو سنة وإذن لا مطمع فيه فطلب رفع الشك فيه محال . فإن قلت فهذا إقامة برهان على استحالة معرفة حدها فكيف يرد الشرع بما يستحيل معرفة حده . فاعلم أن كل ما لا يتعلق به حكم في الدنيا فيجوز أن يتطرق إليه الإبهام لأن دار التكليف هي دار الدنيا والكبيرة على الخصوص لا حكم لها في الدين من حيث إنها كبيرة بل كل موجبات الحدود معلومة بأسمائها كالسرقة والزنا وغيرها وإنما حكم الكبيرة أن الصلوات الخمس لا تكفرها ، وهذا أمر يتعلق بالآخرة والإبهام ألقى به حتى يكون الناس على وجل وحذر

ياعزيز يا جبار يا أحد  
يا صمد يا ودود يا غفور  
وهو الله الذي لا إله إلا  
هو عالم الغيب والشهادة  
هو الرحمن الرحيم لا إله  
إلا أنت سبحانك إني  
كنت من الظالمين  
اللهم إني أعوذ باسمك  
المكنون الخزون  
المنزل السلام الطهر  
الطاهر القدوس القدس  
يادهر يادهور ياديهار  
يا أبد يا أزل يا من لم يزل  
ولا يزال ولا يزول هو  
يا هو لا إله إلا هو يا من  
لا هو إلا هو يا من  
لا يعلم ما هو إلا هو  
يا كان يا كائن  
يا روج يا كائن قبل  
كل كون يا كائن بعد  
كل كون يا مكنونا

فلا يتجرءون على الصغائر اعتمادا على الصلوات الخمس وكذلك اجتناب الكبائر يكفر الصغائر بموجب قوله تعالى - إن تجتنبوا كبائر ما تنهون عنه نكفر عنكم سيئاتكم - ولكن اجتناب الكبيرة إنما يكفر الصغيرة إذا اجتنبها مع القدرة والارادة كمن يتمكن من امرأة ومن موافقتها فكيف نفسه عن الوقوع فيقتصر على نظر أو لمس فإن مجاهدة نفسه بالكف عن الوقوع أشد تأثيرا في تنوير قلبه من إقامته على النظر في إظلامه فهذا معنى تكفيره فإن كان عينا أو لم يكن امتناعه إلا بالضرورة للمعجز أو كان قادرا ولكن امتنع لحوف أمر آخر فهذا لا يصلح للتكفير أصلا وكل من يشتهي الحمر بطبعه ولو أيسح له لما شربه فاجتنابه لا يكفر عنه الصغائر التي هي من مقدماته كسماع اللاهی والأوتار، ثم من يشتهي الحمر وسماع الأوتار فيمسك نفسه بالمجاهدة عن الحمر ويطلقها في السماع فجاهدته النفس بالكف ربما تمحو عن قلبه الظلمة التي ارتفعت إليه من معصية السماع فكل هذه أحكام أخروية ويعجز أن يبقى بعضها في محل الشك وتكون من التشابهات فلا يعرف تفصيلها إلا بالنص ولم يرد النص بعد ولا حد جامع بل ورد بألفاظ مختلفات : قد روى أبو هريرة رضي الله عنه أنه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة (١) » قيل ما ترك السنة قيل الخروج عن الجماعة ونكث الصفقة أن يبيع رجلا ثم يخرج عليه بالسيف يقال له فهذا أو مثاله من الألفاظ لا يحيط بالصدق ولا يدل على حد جامع فيبقى لأحالة مبهما . فإن قلت الشهادة لا تقبل إلا بمن يجتنب الكبائر والورع عن الصغائر ليس شرط في قبول الشهادة وهذا من أحكام الدنيا . فاعلم أنا لا نخصي رد الشهادة بالكبائر فلا خلاف في أن من يسمع اللاهی ويلبس الديباج ويتختم بخاتم الذهب وشرب في أواني الذهب والفضة لا تقبل شهادته ولم يذهب أحد إلى أن هذه الأمور من الكبائر وقال الشافعي رضي الله عنه إذا شرب الخنق النبيذ حددته ولم أرد شهادته قد جعله كبيرة بإيجاب الحد ولم يرد به الشهادة فدل على أن الشهادة نفا وإثباتا لا تدور على الصغائر والكبائر بل كل الذنوب تقدر في المدالة إلا ما لا يغلو الإنسان عنه غالبا بضرورة مجاري العادات كالغيبة والتجسس وسوء الظن والكذب في بعض الأقوال وسماع الغيبة وترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وأكل الشبهات وسب الولد والعلامة وضربهما بحكم القضب زائدا على المصلحة وإكرام السلاطين الظلمة ومصادقة الفجار والتكاسل عن تعليم الأهل والولد جميع ما يحتاجون إليه من أمر الدين فهذه ذنوب لا يتصور أن ينفك الشاهد عن قليلها أو كثيرها إلا بأن يعزل الناس ويتجرد لأمر الآخرة ويجاهد نفسه مدة بحيث يبقى على صحته مع المخالطة بعد ذلك ولو لم يقبل إلا قول مثله لزم وجوده وبطلت الأحكام والشهادات وليس ليس الحرير وسماع اللاهی واللعب بالنرد ومجالسة أهل الشرب في وقت الشرب والحلوة بالأجنبيات وأمثال هذه الصغائر من هذا القبيل فإلى مثل هذا المنهاج ينبغي أن ينظر في قبول الشهادة وردها إلى الكبيرة والصغيرة ثم آحاد هذه الصغائر التي لا ترد الشهادة بها ولو اطلب عليها لأثر في رد الشهادة كمن اتخذ الغيبة وثلب الناس عادة وكذلك مجالسة الفجار ومصادقهم والصغيرة تكبر بالمواظبة كما أن المباح يصير صغيرة بالمواظبة كاللعب بالشطرنج والترنم بالنساء على الدوام وغيره فهذا بيان حكم الصغائر والكبائر .

( بيان كيفية توزع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا )

اعلم أن الدنيا من عالم الملك والشهادة والآخرة من عالم القيب والملكوت وأعني بالدنيا حالنا قبل (١) حديث الصلاة إلى الصلاة كفارة ورمضان إلى رمضان كفارة إلا من ثلاث إشرارك بالله وترك السنة ونكث الصفقة الحديث الحاكم من حديث أبي هريرة نحوه وقال صحيح الاسناد .

لكل ككون أهيا  
شرا هيا أدوناى  
أصبوت يا مجلى عظام  
الأمور - فان تولوا  
قل حسبي الله لا إله  
إلا هو عليه توكلت  
وهو رب العرش  
العظيم - ليس كمثل شيء  
وهو السميع البصير -  
اللهم صل على محمد وعلى  
آل محمد كما صليت  
على إبراهيم وآل  
إبراهيم وبارك على  
محمد وعلى آل محمد كما  
باركت على إبراهيم  
وآل إبراهيم إنك  
حميد مجيد اللهم إني  
أعوذ بك من علم  
لا ينفع وقلب لا يخشع  
ودعاء لا يسمع اللهم إني  
أعوذ بك من فتنة  
الدجال وعذاب القبر

الموت وبالأخرة حالتك بعد الموت فدياك وآخرتك صفاتك وأحوالك يسمى القريب الداني منها دنيا والمتأخر آخرة ونحن الآن نتكلم من الدنيا في الآخرة فانا الآن نتكلم في الدنيا وهو عالم الملك وغرضنا شرح الآخرة وهي عالم الملكوت ولا يتصور شرح عالم الملكوت في عالم الملك إلا بضرب الأمثال ولذلك قال تعالى - وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون - وهذا لأن عالم الملك نوم بالإضافة إلى عالم الملكوت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا» (١) وما سيكون في اليقظة لا يتبين لك في النوم إلا بضرب الأمثال الموجهة إلى التعبير فكذلك ما سيكون في يقظة الآخرة لا يتبين في نوم الدنيا إلا في كثرة الأمثال وأعني بكثرة الأمثال ما تعرفه من علم التعبير وكيفك منه إن كنت فطنا ثلاثة أمثلة قد جاء رجل إلى ابن سيرين فقال رأيت كأن في يدي خاتما أختم به أفواه الرجال وفروج النساء فقال إنك مؤذن مؤذن في رمضان قبل طلوع الفجر قال صدقت وجاء رجل آخر فقال رأيت كأنني أصبت الزيت في الزيتون فقال إن كان تحتك جارية اشتريتها ففتش عن حالها فإن أمك سييت في صفرك لأن الزيتون أصل الزيت فهو يرد إلى الأصل فنظر فإذا جاريته كانت أمه وقد سييت في صفرة وقال له آخر رأيت كأنني أفلد الدر في أعناق الخنازير فقال إنك تعلم الحكمة غير أهلها فكان كما قال والتعبير من أوله إلى آخره أمثال تعرفك طريق ضرب الأمثال وإنما نعني بالمثل أداء المعنى في صورة إن نظر إلى معناه وجده صادقا وإن نظر إلى صورته وجده كاذبا فالمؤذن إن نظر إلى صورة الخاتم والختم به على الفروج رآه كاذبا فإنه لم يختم به قط وإن نظر إلى معناه وجده صادقا إذ صدر منه روح الختم ومعناه وهو اللع الذي يراد الختم له وليس للأنبياء أن يتكلموا مع الخلق إلا بضرب الأمثال لأنهم كلفوا أن يكلموا الناس على قدر عقولهم وقدر عقولهم أنهم في النوم والنائم لا يكشف له عن شيء إلا بمثل فإذا ماتوا انتبهوا وعرفوا أن المثل صادق ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» (٢) وهو من المثل الذي لا يعقله إلا العالمون فأما الجاهل فلا يجاوز قدره ظاهر المثل لجهله بالتفسير الذي يسمى تأويلا كما يسمى تفسير ما يرى من الأمثلة في النوم تعبيرا فيثبت لله تعالى يدا وأصبعها ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . وكذلك في قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته» (٣) فإنه لا يفهم من الصورة إلا اللون والشكل والهيئة فيثبت لله تعالى مثل ذلك ، تعالى الله عن قوله علوا كبيرا . ومن ههنا زل من زل في صفات إلهية حتى في الكلام وجعلوه صوتا وحرفا إلى غير ذلك من الصفات والقول فيه يطول وكذلك قد يرد في أمر الآخرة ضرب أمثلة يكذب بها اللحد بمحمود نظره على ظاهر المثل وتناقضه عنده كقوله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح فيثور اللحد الأحق ويكذب» (٤) ويستدل به على كذب الأنبياء ويقول يا ضحاج الله الموت عرض والكبش جسم فكيف يتقلب العرض جسما وهل هذا إلا أعمال ولكن الله تعالى عزل هؤلاء الحق عن معرفة أسرارهم فقال - وما يعقلها إلا العالمون - ولا يدري المسكين أن من قال رأيت في منامي أنه جى بكبش وقيل هذا هو الوباء الذي في البلد وذبح فقال العبر صدقت والأمر كما رأيت وهذا يدل على أن هذا الوباء ينقطع ولا يعود قط لأن

ومن فتنة الهياوليات  
اللهم إني أعوذ بك من  
شر ما علمت وشر ما لم  
أعلم وأعوذ بك من  
شر سمعي وبصري  
ولساني وقلبي اللهم إني  
أعوذ بك من القسوة  
والغفلة والذل والسكنة  
وأعوذ بك من الفقر  
والكفر والفسوق  
والشقاق والنفاق وسوء  
الأخلاق وضيق  
الأرزاق والسمة  
والرياء وأعوذ بك من  
الصمم والبكم والجنون  
والجذام والبرص وصائر  
الأسقام ، اللهم إني أعوذ  
بك من زوال نعمتك  
ومن تحويل عافيتك  
ومن خيانة نعمتك ومن  
جميع سخطك ، اللهم  
إني أسألك الصلاة على

(١) حديث الناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا لم أجده مرفوعا وإنما يعزى إلى علي بن أبي طالب  
(٢) حديث قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن تقدم (٣) حديث إن الله خلق آدم على  
صورته تقدم (٤) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة في صورة كبش أملح فيذبح متفق عليه من  
حديث أبي سعيد .

الذبح وقع اليأس منه فإن العبر صادق في تصديقه وهو صادق في رؤيته وترجع حقيقة ذلك إلى أن الوكل بالرؤيا وهو الذي يطلع الأرواح عند النوم على ما في اللوح المحفوظ عرفه بما في اللوح المحفوظ بمثال ضربه له لأن النائم إنما يحتمل المثال فكان مثاله صادقا وكان معناه صحيحا فالرسل أيضا إنما يكلمون الناس في الدنيا وهي بالإضافة إلى الآخرة نوم فيوصلون للعاني إلى أفهامهم بالأمثلة حكمة من الله ولطفًا بعباده وتيسيرا لأدراك ما يعجزون عن إدراكه دون ضرب الثل فقوله يؤتى بالموت في صورة كبش أملح مثال ضربه ليوصل إلى الأفهام حصول اليأس من الموت وقد جبلت القلوب على التأثر بالأمثلة وثبوت للعاني فيها بواسطتها ولذلك عبر القرآن بقوله كن فيكون عن نهاية القدرة وعبر صلى الله عليه وسلم بقوله «قلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن» عن سرعة التقلب . وقد أشرنا إلى حكمة ذلك في كتاب قواعد العقائد من ربع العبادات فلنرجع الآن إلى الغرض فالمقصود أن تعريف توزع الدرجات والدركات على الحسنات والسيئات لا يمكن إلا بضرب المثال فلتفهم من الثل الذي نضربه معناه لامورته . فنقول : الناس في الآخرة ينقسمون أصنافا وتفاوت درجاتهم ودرجاتهم في السعادة والشقاوة تفاوتًا لا يدخل تحت الحصر كما تفاوتوا في سعادة الدنيا وشقاوتها ولا تفارق الآخرة في هذا المعنى أصلا ألته فان مدبر الملك والملكوت واحد لا شريك له وسنته الصادرة عن إرادته الأزلية مطردة لا تبدل لها إلا أن إن هجرتنا عن إحصاء آحاد الدرجات فلا نجز عن إحصاء الأجناس . فنقول الناس ينقسمون في الآخرة بالضرورة إلى أربعة أقسام هالكين وممذيين وناجين وفائزين . ومثاله في الدنيا أن يستولى ملك من الملوك على إقليم فيقتل بعضهم فهم المهلكون ويعذب بعضهم مدة ولا يقتلهم فهم المذبذبون ويغلب بعضهم فهم الناجون ويخلق على بعضهم فهم الفائزون فإن كان للملك عادل لم يقسمهم كذلك إلا باستحقاق فلا يقتل إلا جاحدا لاستحقاق الملك معاندا له في أصل الدولة ولا يذب إلا من قصر في خدمته مع الاعتراف بملكه وعلو درجته ولا يغلب إلا معترفا له بربته الملك لكنه لم يقصر ليعذب ولم يخدم ليخلق عليه ولا يخلق إلا على من أبلى عمره في الخدمة والنصرة ثم ينبغي أن تكون خلق الفائزين متفاوتة الدرجات بحسب درجاتهم في الخدمة وإهلاك المالكين إما تحقيقا بحز الرقة أو تسكيلا بالثلة بحسب درجاتهم في العاندة وتمذيب المذيين في الخفة والشدة وطول الدة وقصرها واتحاد أنواعها واختلافها بحسب درجات تقصيرهم فتنقسم كل رتبة من هذه الرتب إلى درجات لا تحصى ولا تنحصر فكذلك فافهم أن الناس في الآخرة هكذا يتفاوتون فمن هالك ومن معذب مدة ومن ناج يحل في دار السلامة ومن فائز والفائزون ينقسمون إلى من يحلون في جنات عدن أو جنات المأوى أو جنات الفردوس والمذبذبون ينقسمون إلى من يعذب قليلا وإلى من يعذب ألف سنة إلى سبعة آلاف سنة وذلك آخر من يخرج من النار (١) كما ورد في الخبر وكذلك المالكون الأيسون من رحمة الله تتفاوت درجاتهم وهذه الدرجات بحسب اختلاف الطاعات والمعاصي فلنذكر كيفية توزعها عليها : الرتبة الأولى وهي رتبة المالكين . نعى بالمالكين الأيسين من رحمة الله تعالى إذ أدى قتله للملك في الثالثة الذي ضربناه آيس من رضا الملك وإكرامه فلا تنقل عن معاني المثال وهذه الدرجة لا تكون إلا للجاحدين والمريضين التجردين لهدنيا المكذبين باقه ورسله وكتبه فان السعادة الأخروية في القرب من الله والنظر إلى وجهه وذلك لا ينال أصلا إلا بالمعرفة التي يعبر عنها

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعذب سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة بسند ضعيف في حديث قال فيه وأطولهم مكثا فيه مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة .

محمد وعلى آله وأسألك  
من الخير كله عاجله  
وأجله ما علمت منه  
وما لم أعلم وأعوذ بك  
من الشر كله عاجله  
وأجله . ما علمت منه  
وما لم أعلم وأسألك الجنة  
وما قرب إليها من قول  
وعمل وأعوذ بك من  
النار وما قرب إليها من  
قول وعمل وأسألك  
ماسألك عبدك ونييك  
محمد صلى الله عليه  
وسلم وأستعيذك مما  
استعاذك منه عبدك  
ونبيك محمد صلى الله  
عليه وسلم وأسألك  
ما قضيت لي من أمر أن  
تجعل عاقبته رشدا  
ترحمك يا أرحم  
الراحمين يا حي يا قيوم  
ترحمك أستغث

بالإيمان والتصديق والجاهدون هم المنكرون والمنكذبون هم الآيسون من رحمة الله تعالى أبداً لا يبدون وهم الذين يكذبون رب العالمين وبأنبيائه المرسلين إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون لا محالة وكل محجوب عن محبوبه لمحول بينه وبين ما يشتهي لا محالة فهو لا محالة يكون محترقا نار جهنم بنار القراق ولذلك قال العارفون ليس خوفنا من نار جهنم ولا رجاؤنا للطور العيين وإنما مطالبنا للقاء ومهربنا من الحجاب فقط ، وقالوا من يعبد الله بعوض فهو لئيم كأن يبيده لطلب جنته أو لحوف ناره بل العارف يبيده لقاته فلا يطلب إلا ذاته فقط ، فأما الحور العيين والفواكه فقد لا يشتهيها وأما النار فقد لا يتيها إذ نار القراق إذا استولت ربما غلبت النار المحرقة للأجسام ، فإن نار القراق نار الله الموقدة التي تطلع على الأفئدة ونار جهنم لاشغل لها إلا مع الأجسام وألم الأجسام تستحرق مع ألم القواد ولذلك قيل :

وفي قواد الحب نار جوى أحر نار الجحيم أبردها

ولا ينبغي أن تنكر هذا في عالم الآخرة إذ له نظير مشاهد في عالم الدنيا فقد رؤي من غلب عليه الوجد فعدا على النار وعلى أصول القصب الجارحة للقدم وهو لا يحس به لقرط غلبة ما في قلبه وترى الفضبان يستولى عليه الغضب في القتال فتصيه جراحات وهو لا يشعر بها في الحال لأن الغضب نار في القلب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الغضب قطعة من النار »<sup>(١)</sup> واحترق القواد أشد من احترق الأجساد والأشد يبطل الإحساس بالأضعف كما أراه فليس الهلاك من النار واليف إلا من حيث إنه يفرق بين جزئين يرتبط أحدهما بالآخر برابطة التأليف الممكن في الأجسام فالذي يفرق بين القلب وبين محبوبه الذي يرتبط به برابطة تأليف أشد إحكاما من تأليف الأجسام فهو أشد إيلا ما إن كنت من أرباب البصائر وأرباب القلوب ولا يبعد أن لا يدرك من لا قلب له شدة هذا الألم ويستحرقه بالإضافة إلى ألم الجسم فالصبي لو خير بين ألم الحرمان على الكرة والصولجان وبين ألم الحرمان عن رتبة السلطان لم يحس بألم الحرمان عن رتبة السلطان أصلا ولم يعد ذلك ألما وقال العدو في الميدان مع الصولجان أحب إلى من ألف سرير للسلطان مع الجلوس عليه ، بل من تغلبه شهوة البطن لو خير بين الهريسة والحلواء وبين فعل جميل يقهر به الأعداء ويفرح به الأصدقاء لأثر الهريسة والحلواء ، وهذا كله لفقد المعنى الذي بوجوده يصير الجاه محبوبا ووجود المعنى الذي بوجوده يصير الطعام لذينا وذلك لمن استرقت صفات الهائم والسباع ولم تظهر فيه صفات الملائكة التي لا ياسبها ولا يلبها إلا القرب من رب العالمين ولا يؤلمها إلا البعد والحجاب وكما لا يكون الذوق إلا في اللسان والسمع إلا في الآذان فلا تكون هذه الصفة إلا في القلب ، فمن لا قلب له ليس له هذا الحس كن لا سمع له ولا بصر ليس له لذة الألحان وحسن الصور والألوان وليس لكل إنسان قلب ولو كان لما صح قوله تعالى - إن في ذلك لذكرى لمن كان له قلب - فجعل من لم يتذكر بالقرآن مفلسا من القلب ، واستأعنى بالقلب هذا الذي تكتنفه عظام الصدر ، بل أعنى به السر الذي هو من عالم الأمر وهو اللحم الذي هو من عالم الخلق عرشه والصدر كرسية وسائر الأعضاء عاله ومملكته والله الخلق والأمر جميعا ، ولكن ذلك السر الذي قال الله تعالى فيه - قل الروح من أمر ربي - هو الأمير والملك لأن بين عالم الأمر وعالم الخلق ترتيبا وعالم الأمر أمير على عالم الخلق وهو اللطيفة التي إذا صلت صلت لها سائر الجسد من عرفها فقد عرف نفسه ومن عرف نفسه فقد عرف ربه وعند ذلك يشم العبد مبادئ روائع المعنى للطوى تحت قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله خلق آدم على صورته » ونظر بعين

(١) حديث الغضب قطعة من النار الترمذي من حديث أبي سعيد نحوه وقد تقدم .

لا تكفى إلى تسمى  
طرفة عين وأصلح لي  
شأنى حكه يا نور  
السحوات والأرض  
يا جمال السموات  
والأرض يا عماد  
السموات والأرض  
يا بديع السموات  
والأرض يا ذا الجلال  
والإكرام يا صريح  
السترخين يا غوث  
الستغثين يا منتهى  
رغبة الراغبين  
والفرج عن الكرويين  
والروح عن القوميين  
ومجيب دعوة  
الضطرين وكاشف  
السوء وأرحم الراحمين  
وإله العالمين منزل  
بك كل حاجة يا أرحم  
الراحمين اللهم استر  
عورائى وآمن روغائى

الرحمة إلى الخاملين له على ظاهر لفظه وإلى المتعصين في طريق تأويله ، وإن كانت رحمته للعاملين على اللفظ أكثر من رحمته للمتصين في التأويل لأن الرحمة على قدر للصية ومصيبة أولئك أكثر وإن اشتركوا في مصيبة الحرمان من حقيقة الأمر فالحقيقة فضل الله يؤتيه من يشاء والله ذو الفضل العظيم وهي حكمته يختص بها من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا ، ولعمد إلى الفرض فقد أرحبنا الطول وطولنا النفس في أمر هو أطل من علوم للعاملات التي قصدتها في هذا الكتاب فقد ظهر أن رتبة الهلاك ليس إلا للجهال المكذبين ، وشهادة ذلك من كتاب الله وضنة رسوله صلى الله عليه وسلم لا تدخل تحت الحصر فذلك لم نوردها . الرتبة الثانية : رتبة للعزيبين وهذه رتبة من تحلى بأصل الإيمان ولكن قصر في الوفاء بمتقتضاه فان رأس الإيمان هو التوحيد وهو أن لا يسجد إلا الله ومن اتبع هواه فقد أخذ إلهه هواه فهو موحد بلسانه لا بالحقيقة بل معنى قوله لا إله إلا الله معنى قوله تعالى - قل الله ثم ذرم في خوضهم يلعبون - وهو أن تذر بالكلية غير الله ، ومعنى قوله تعالى - الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - ولما كان الصراط المستقيم الذي لا يكل التوحيد إلا بالاستقامة عليه أدق من الشر وأحد من السيف مثل الصراط الموصوف في الآخرة فلا ينفك بشر عن ميل عن الاستقامة ولو في أمر يسير إذ لا يخلو عن اتباع الهوى ولو في فعل قليل وذلك قادح في كمال التوحيد بقدر ميله عن الصراط المستقيم فذلك يقتضي لاجتماع نقصان في درجات القرب ومع كل نقصان نار ان النار لذلك الكمال الفائت بالنقصان ونار جهنم كما وصفها القرآن فيكون كل مائل عن الصراط المستقيم معذبا مرتين من وجهين ، ولكن شدة ذلك العذاب وخفته وتفاوته بحسب طول اللذة إنما يكون بسبب أمرين : أحدهما قوة الإيمان وضمنه ، والثاني كثرة اتباع الهوى وقلته وإذ لا يخلو بشر في غالب الأمر عن واحد من الأمرين قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم ننجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - ولذلك قال الخائفون من السلف : إنما خوفنا لأننا نيقنا أنا على النار واردون وشككنا في النجاة ، ولما روى الحسن الخبر الوارد فيمن يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان <sup>(١)</sup> قال الحسن ياليتني كنت ذلك الرجل . واعلم أن في الأخبار ما يدل على أن آخر من يخرج من النار بعد سبعة آلاف سنة وأن الاختلاف في المدة بين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة حتى قد يجوز بعضهم على النار كبرى خاطف ولا يكون له فيها لبث وبين اللحظة وبين سبعة آلاف سنة درجات متفاوتة من اليوم والأسبوع والشهر وسائر الدد وأن الاختلاف بالشدة لانه لآعلاه وأدناه التعذيب بالمناقشة في الحساب كأن الملك قد يعذب بعض المقصرين في الأعمال بالمناقشة في الحساب ثم يفوقه ويضرب بالسياط وقد يعذب بنوع آخر من العذاب ويتطرق إلى العذاب اختلاف ثالث في غير المدة والشدة وهو اختلاف الأنواع إذ ليس من يعذب بمصادرة المال فقط كمن يعذب بأخذ المال وقتل الولد واستباحة الحرم وتمذيب الأقارب والضرب وقطع اللسان واليد والأنف والأذن وغيره ، فهذه الاختلافات ثابتة في عذاب الآخرة دل عليها قواطع الشرع وهي بحسب اختلاف قوة الإيمان وضمنه وكثرة الطاعات وقتها وكثرة السيئات وقتها . أما عدة العذاب فبشدة قبح السيئات وكثرتها وأما كثرة فبكثرتها وأما اختلاف أنواعه فباختلاف أنواع السيئات وقد انكشف هذا لأرباب القلوب مع شواهد القرآن بنور الإيمان وهو المعنى بموله تعالى - وما ربك بظلام للعبيد - وبقوله تعالى - اليوم تجزى كل نفس

وأقلى عتراني ، اللهم  
احفظني من بين يدي  
ومن خلفي وعن يميني  
وعن شمالي ومن فوقی  
وأعوذ بك أن أغتال  
من تحتي ، اللهم - إني  
ضئيف تقو في رضاك  
ضعفي وخذ إلى الخير  
بناصيتي واجعل الاسلام  
منتهى رضاي ، اللهم  
إني ضئيف تقو في  
اللهم إني ذليل فأعزني ،  
اللهم إني فقير فأغنني  
برحمتك يا أرحم  
الراحمين ، اللهم إنك تعلم  
سري وعلايتي فأقبل  
معذرتي وتعلم حاجتي  
فأعطني مؤلي وتعلم  
ما في نفسي فاغفر لي  
ذنوبي ، اللهم إني أسألك  
إيمانا يياشر قلبي  
ويقينا صادقا حتى أعلم

(١) حديث من يخرج من النار بعد ألف عام وأنه ينادى يا حنان يا منان أحمد وأبو يعلى من رواية أبي ظلال القسملی عن أنس وأبو ظلال ضعيف واسمه هلال بن مسمون .

بما كسبت - وبقوله تعالى - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - وبقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره . ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - إلى غير ذلك مما ورد في الكتاب والسنة من كون العقاب والثواب جزاء على الأعمال وكل ذلك يعدل لا ظلم فيه وجانب العفو والرحمة أرجح ، إذ قال تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم « سبقت رحمي غضبي » (١) وقال تعالى - وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فإذا هذه الأمور الكلية من ارتباط الدرجات والدركات بالحسنات والسيئات معلومة بقواطع الشرع ونور المعرفة ، فأما التفصيل فلا يعرف إلا ظنا ومستنده ظواهر الأخبار وتوقع حدس يستمد من أنوار الاستبصار بعين الاعتبار . فتقول : كل من أحكم أصل الإيمان واجتنب جميع الكبائر وأحسن جميع الفرائض : أعنى الأركان الخمسة ولم يكن منه إلا صفائر متفرقة لم يصبر عليها في شبه أن يكون عذابه المناقشة في الحساب قط فانه إذا حوسب رجحت حسناته على سيئاته إذ ورد في الأخبار أن الصلوات الخمس والجمعة وصوم رمضان كفارات لساينين ، وكذلك اجتناب الكبائر بحكم نص القرآن مكفر للصغائر وأقل درجات التكفير أن يدفع العذاب إن لم يدفع الحساب وكل من هذا حاله قد تقلت موازينه ، فيتنبى أن يكون بعد ظهور الرجحان في الميزان وبعد الفراغ من الحساب في عيشة راضية ، نعم التحاقه بأصحاب الجيمين أو بالمقرين وزوله في جنات عدن أوفى الفردوس الأعلى فكذلك يتبع أصناف الإيمان ، لأن الإيمان إيمانان تقليدي كإيمان العوام يصدقون بما يستمعون ويستمررون عليه ، وإيمان كسفي يحصل بانسراح الصدر بنور الله حق ينكشف فيه الوجود كله على ما هو عليه فيتضح أن الكل إلى الله مرجعه ومصيره إذ ليس في الوجود إلا الله تعالى وصفاته وأفعاله ، فهذا الصنف هم القريبون النازلون في الفردوس الأعلى وهم على غاية القرب من اللائ الأعلى وهم أيضا على أصناف فمنهم السابقون ومنهم من دونهم ، وفناوتهم بحسب تفاوت معرفتهم بالله تعالى ودرجات المعارفين في المعرفة بالله تعالى لا تنحصر إذ الإحاطة بكنهه جلال الله غير ممكنة وبحر المعرفة ليس له ساحل وعمق وإنما يفرس فيه الفواصون بقدر قواهم ويقدر ما سبق لهم من الله تعالى في الأزل ، فالطريق إلى الله تعالى لانهائية لمنزلة فالسالكون سبيل الله لانهائية لدرجاتهم . وأما المؤمن إيمانا تقليديا فهو من أصحاب الجيمين ودرجته دون درجة المقرين وهم أيضا على درجات فالأعلى من درجات أصحاب الجيمين تقارب رتبته رتبة الأدنى من درجات المقرين ، وهذا حال من اجتنب كل الكبائر وأدى الفرائض كلها : أعنى الأركان الخمسة التي هي النطق بكلمة الشهادة باللسان والصلاة والزكاة والصوم والحج ، فأما من ارتكب كبيرة أو كبائر أو أهمل بعض أركان الاسلام فإن تاب توبة نصوحا قبل قرب الأجل التحق بمن لم يرتكب لأن التائب من الذنب كمن لا ذنب له والثوب المنسول كالندي لم يتوسخ أصلا وإن مات قبل التوبة فهذا أمر مخطر عند الموت إذ ربما يكون موته على الإصرار سببا لزلزل إيمانه فيعظم له بسوء الخاتمة لاسيما إذا كان إيمانه تقليديا ، فإن التقليد وإن كان جزما فهو قابل للانحلال بأدنى شك وخيال والمعارف البصير أبعد أن يخاف عليه سوء الخاتمة ، وكلاهما إن ماتا على الإيمان يعذبان إلا أن يخفوا الله عذابا يزيد على عذاب المناقشة في الحساب وتكون كثرة العقاب من حيث المدة بحسب كثرة مدة الإصرار ومن حيث الشدة بحسب قبح الكبائر ومن حيث اختلاف النوع بحسب اختلاف أصناف السيئات وعند انقضاء مدة العذاب ينزل البله المقلدون في درجات أصحاب الجيمين والمعارفون المستبصرون في أعلى عليين ،

أنه فمن يسيئ إلا ما كتب لي والرضا بما قسمت لي إذا الجلال والاكرام اللهم ياهادي المضلين وياراحم المذنبين ومقيل عثره العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والمسلمين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء المرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين اللهم عالم الخفيات رفيع الدرجات تلقى الروح بأمرك على من تشاء من عبادك غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب ذا الطول لا إله إلا هو أنت الوكيل

ففي الخبر « آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف <sup>(١)</sup> » فلا تظن أن المراد به تقديره بالمساحة لأطراف الأجسام كأن يقابل فرسخ بفرسخين أو عشرة بعشرين فإن هذا جهل بطريق ضرب الأمثال بل هذا كقول القائل أخذ منه جملا وأعطاء عشرة أمثاله وكان الجمل يساوي عشرة دنانير فأعطاء مائة دينار فإن لم يفهم من المثل إلا المثل في الوزن والثقل فلا تكون مائة دينار لو وضعت في كفة الميزان والجمل في الكفة الأخرى عشرة عشره بل هو موازنه مائة الأجزاء وأرواحها دون أشخاصها وهياكلها فإن الجمل لا يقصد لثقله وطوله وعرضه ومساحته بل لماليتها وفروحه المالية وجسمه اللحم والدم ومائة دينار عشرة أمثاله بالموازنة الروحية لا بالموازنة الجسدية وهذا صادق عند من يعرف روح السالية من الذهب والفضة بل لو أعطاء جوهرة وزنها مثقال وقيمتها مائة دينار وقال أعطيته عشرة أمثاله كان صادقا ولكن لا يدرك صدقه إلا الجوهريون فإن روح الجوهرة لا تدرك بمجرد البصر بل بفطنة أخرى وراء البصر فذلك يكذب به الصبي بل القروي والبدوي ويقول ماهذه الجوهرة إلا حجر وزنه مثقال ووزن الجمل ألف ألف مثقال فقد كذب في قوله إني أعطيته عشرة أمثاله والكاذب بالتحقيق هو الصبي ولكن لا سبيل إلى تحقيق ذلك عنده إلا بأن ينتظر به البلوغ والكمال وأن يحصل في قلبه النور الذي يدرك به أرواح الجواهر وسائر الأموال فنصدق ذلك ينكشف له الصديق والعارف عاجز عن تفهيم المقلد القاصر صدق رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذه الموازنة إذ يقول صلى الله عليه وسلم « الجنة في السموات <sup>(٢)</sup> » كما ورد في الأخبار والسموات كن الدنيا فكيف يكون عشرة أمثال الدنيا في الدنيا وهذا كما يعجز البالغ عن تفهيم الصبي تلك الموازنة وكذلك تفهيم البدوي وكما أن الجوهرى مرحوم إذا بلى بالبدوي والقروي في تفهيم تلك الموازنة فالعارف مرحوم إذا بلى بالبلد الأبله في تفهيم هذه الموازنة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « ارحموا ثلاثة عالمين الجهال وغنى قوم افتقر وعزير قوم ذل <sup>(٣)</sup> » والأنبياء مرحومون بين الأمة بهذا السبب ومقاساتهم لقصور عقول الأمة فتنة لهم وامتحان وابتلاء من الله وبلاء موكل بهم سبق بتوكيله القضاء الأزلي وهو العنق بقوله عليه الصلاة والسلام « البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل <sup>(٤)</sup> » فلا تظن أن البلاء بلاء أيوب عليه السلام وهو الذي ينزل بالبدن فإن بلاء نوح عليه السلام أيضا من البلاء العظيم إذ بلى بمجاعة كان لا يزيدهم دعاؤه إلى الله إلا فرارا ولذلك لما تأذى رسول الله صلى الله عليه وسلم بكلام بعض الناس قال « رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر <sup>(٥)</sup> » فاذن لا تخلو الأنبياء عن الابتلاء بالجاهدين ولا تخلو الأولياء والعلما عن الابتلاء بالجاهلين ولذلك قلنا ينفك الأولياء عن ضروب

وإليك المصير يا من لا يشغله شأن عن شأن ولا يشغله سمع عن سمع ولا تشبه عليه الأصوات ويا من لا تلهي المسائل ولا تختلف عليه اللغات ويا من لا يترجم بل الحاح الملحين أذقنى برد عفوك وحلاوة رحمتك اللهم إني أسألك قلبا سليما ولسانا صادقا وعخلا متقبلا أسألك من خير ما تعلم وأعوذ بك من شر ما تعلم وأستغفر لك ما تعلم ولا أعلم وأنت علام الغيوب . اللهم إني أسألك إيمانا لا يرتد ونعما لا ينفد وقرة عين الأبد ومراقبة نبيك محمد وأسألك حبك

(١) حديث إن آخر من يخرج من النار يعطى مثل الدنيا كلها عشرة أضعاف متفق عليه من حديث ابن مسعود (٢) حديث كون الجنة في السموات خ من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فيه فإذا سألت الله فاسأله الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة وفوقه عرش الرحمن (٣) حديث ارحموا ثلاثة عالمين الجهال الحديث ابن حبان في الضعفاء من رواية عيسى بن طهمان عن أنس وعيسى ضعيف ورواه فيه من حديث ابن عباس إلا أنه قال عالم تلاعب به الصبيان وفيه أبو البختري، وأما وهب بن وهب أحد الكذابين (٤) حديث البلاء موكل بالأنبياء ثم الأولياء ثم الأمثل فالأمثل الترمذي ومحمده والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث سعد بن أبي وقاص وقال قلت يا رسول الله أى الناس أشد بلاء فذكره دون ذكر الأولياء والطبراني من حديث فاطمة أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون الحديث (٥) حديث رحم الله أخى موسى لقد أودى بأكثر من هذا فصبر البخاري من حديث ابن مسعود .



من الايذاء وأنواع البلاء بالاخراج من البلاد والسعاية بهم إلى السلاطين والشهادة عليهم بالكفر والخروج عن الدين وواجب أن يكون أهل المعرفة عند أهل الجهل من الكافرين كما يجب أن يكون المتعاض عن الجهل الكبير جوهره صغيرة عند الجاهلين من البغوين للضعيف. فاذ عرفت هذه الدقائق فأت من بقوله عليه الصلاة والسلام «إنه يعطى آخر من يخرج من النار مثل الدنيا عشر مرات» وإياك أن تقتصر بتصديقك على ما يدركه البصر والحواس فقط فتكون حماراً برجلين لأن الحمار يشارك في الحواس الخمس وإنما أنت مفارق للحمار بسرّ إلى عرض على السموات والأرض والجبال فأبين أن يحمله وأشفقن منه فإدراك ما يخرج عن عالم الحواس الخمس لا يصادف إلا في عالم ذلك السرّ الذي فارقت به الحمار وسائر البهائم فمن ذهل عن ذلك وعطله وأهمله وقنع بدرجة البهائم ولم يعاوز المحسوسات فهو الذي أهلك نفسه بتعطيلها ونسبها بالإعراض عنها فلا تسكنونوا كالذين نسوا الله فأنساهم أنفسهم فكل من لم يعرف إلا المدرك بالحواس فقد نسي الله إذ ليس ذات الله مدركاً في هذا العالم بالحواس الخمس وكل من نسي الله أنساه الله لاهياله نفسه ونزل إلى رتبة البهائم وترك الترقى إلى الأفق الأعلى وخان في الأمانة التي أودعه الله تعالى وأنعم عليه كافراً لأنعمه ومتعرضاً لنقمة الله لأنه أسوأ حالاً من البهيمة فإن البهيمة تتخلص بالموت. وأما هذا فعنده أمانة ترجع لاهياله إلى مودعها فإليه مرجع الأمانة ومصيرها وتلك الأمانة كالشمس الزاهرة وإنما حبطت إلى هذا القالب الفاني وغربت فيه وستطلع هذه الشمس عند خراب هذا القالب من مغربها وتعود إلى بارئها وخالقها إمامظلة منكسفة وإما زهرة مشرقة. والزهرة المشرقة غير محجوبة عن حضرة الربوبية والمظلة أيضاً راجعة إلى الحضرة إذ المرجع والمصير لكل إليه إلا أنها فاكسة رأسها عن جهة أعلى عليين إلى جهة أسفل سافلين ولذلك قال تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤوسهم عند ربهم - فيبين أنهم عند ربهم إلا أنهم منكوسون قد انقلبت وجوههم إلى أفتيتهم واتكست رؤوسهم عن جهة فوق إلى جهة أسفل وذلك حكم الله فيمن حرمه توفيقه ولم يهد طريقه ، فعوذ باق من الضلال والتزلزل إلى منازل الجبال فهذا حكم اتسام من يخرج من النار ويعطى مثل عشرة أمثال الدنيا أو أكثر ولا يخرج من النار إلا موحد . ولست أعنى بالتوحيد أن يقول بلسانه لا إله إلا الله فإن اللسان من عالم الملك والشهادة فلا ينع إلا في عالم الملك فيدفع السيف عن رقبته وأيدي الفاعلين عن ماله ومدة الرقبة والمال مدة الحياة بحيث لا يبقى رقبة ولا مال لا ينع القول باللسان وإنما ينفع الصدق في التوحيد وكل التوحيد أن لا يرى الأمور كلها إلا من الله . وعلامته أن لا يغضب على أحد من الخلق بما يجري عليه إذ لا يرى الوسائط وإنما يرى مسبب الأسباب كما سيأتي تحقيقه في التوكل وهذا التوحيد متفاوت فمن الناس من له من التوحيد مثل الجبال . ومنهم من له مثقال ومنهم من له مقدار خردلة وذرة ، فمن في قلبه مثقال دينار من إيمان فهو أول من يخرج من النار . وفي الخبر يقال «أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان» (١) وآخر من يخرج من في قلبه مثقال ذرة من إيمان وما بين المثقال والذرة على قدر تفاوت درجاتهم يخرجون بين طبقة المثقال وبين طبقة الذرة والموازنة بالمثقال والذرة على سبيل ضرب المثل كما ذكرنا في الموازنة بين أعيان الأموال وبين التقود وأكثر ما يدخل الموحدين النار مظالم العباد فديوان العباد هو الديوان الذي لا يترك فأما بقية السيئات فيتمارح العفو والتكفير إليها في الأثر إن البعد ليوقف بين يدي الله تعالى وله من الحسنات أمثال الجبال لو سلمت له لكان من أهل الجنة فيقوم أصحاب المظالم فيكون قد سبّ عرض هذا وأخذ مال هذا وضرب هذا فيقضى من حسناته حتى لا يبقى له حسنة ، فتقول

(١) حديث أخرجوا من النار من في قلبه مثقال دينار من إيمان الحديث تقدم .

وحب من أحبك  
وحب عمل يقرب إلى  
حبك . اللهم بملك  
الغيب وقدرتك على  
خلقك أحيى ما كانت  
الحياة خيراً لي وتوفى  
ما كانت الوفاة خيراً لي  
أسألك خشيتك في  
الغيب والشهادة وكلمة  
العدل في الرضا والغضب  
والقصد في الغنى والفقر  
ولذة النظر إلى  
وجهك والشوق إلى  
لقاءك وأعوذ بك من  
ضراء مضرة وفئة  
مضلة . اللهم اقم لي  
من خشيتك ما تحول  
به بيني وبين مصيبتك  
ومن طاعتك ما يدخلني  
جنتك ومن اليقين  
ماتهمون به علينا  
مصائب الدنيا . اللهم  
ارزقنا حزن خوف

اللائكة ياربنا هذا قد فئت حسناته وبقى طالبون كثير فيقول الله تعالى : ألقوا من سيئاتهم على سيئاته وسكوا له سكا إلى النار وكما يهلك هو بسبب غيره بطريق القصاص فكذلك ينبغي للظالم بحسنة الظالم إذ ينقل إليه عوضا عما ظلم به وقد حكى عن ابن الجلاء أن بعض إخوانه اغتابه ثم أرسل إليه يستحله فقال لأفضل ليس في صحيفتي حسنة أفضل منها فكيف أمحوها وقال هو وغيره مذنوب إخواني من حسناتي أريد أن أزين بها صحيفتي فهذا ما أردنا أن نذكره من اختلاف الصناديق في اللامات في درجات السعادة والشقاوة وكل ذلك حكم بظاهر أسباب يضاها حكم الطبيب على مريض بأنه يموت لا محالة ولا يقبل العلاج وعلى مريض آخر بأن عارضه خفيف وعلاجه حين فان ذلك ظن يصيب في أكثر الأحوال ولكن قد تنوق إلى الشرف على الهلاك نفسه من حيث لا يشعر الطبيب وقد يساق إلى ذى العارض الخفيف أجله من حيث لا يطلع عليه وذلك من أسرار الله تعالى الخفية في أرواح الأحياء وغموض الأسباب التي رتبها مسبب الأسباب بقدر معلوم إذ ليس في قوة البشر الوقوف على كنهها فكذلك النجاة والفوز في الآخرة لهما أسباب خفية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها جبر عن ذلك السبب الخفي الملقى إلى النجاة بالعباد والرضا وعمافيض إلى الهلاك بالنضب والانتقام ووراء ذلك سر الشيعة الإلهية الأزلية التي لا يطلع الخلق عليها فذلك يجب علينا أن نجوز العفو عن العاصي وإن كثرت سيئاته الظاهرة والنضب على الطيع وإن كثرت طاعاته الظاهرة فإن الاعتماد على التقوى والتقوى في القلب وهو أغمض من أن يطلع عليه صاحبه فكيف غيره ولكن قد انكشف لأرباب القلوب أنه لا عفو عن عبد إلا بسبب خفي فيه يقتضى العفو ولا غضب إلا بسبب باطن يقتضى البعد عن الله تعالى ولولا ذلك لم يكن العفو والنضب جزاء على الأعمال والأوصاف ولولم يكن جزاء لم يكن عدلا ولولم يكن عدلا لم يصح قوله تعالى - وما ربك بظلال للعبيد - ولا قوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وكل ذلك صحيح فليس للإنسان إلا ما سعى وسعيه هو الذي يرى وكل نفس بما كسبت رهينة فلما راغوا أراغ الله قلوبهم ولما غيروا ما بأنفسهم غير الله ما بهم تحقيقا لقوله تعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وهذا كله قد انكشف لأرباب القلوب انكشافا أوضح من المشاهدة بالبصر إذ البصر يمكن الخلط فيه إذ قد يرى البعيد قريبا والكبير صغيرا ومشاهدة القلب لا يمكن الخلط فيها وإنما الشأن في افتتاح بصيرة القلب وإلا فما يرى بها بعد الافتتاح فلا يتصور فيه الكذب وإليه الإشارة بقوله تعالى - ما كذب الفؤاد ما رأى - . الرتبة الثالثة : رتبة الناجين وأغنى بالنجاة السلامة فقط دون السعادة والفوز وهم قوم لم يخدموا فيخلق عليهم ولم يقصروا فيعذبوا ويشبه أن يكون هذا حال المجانين والصبيان من الكفار والعتوهين والذين لم تلبسهم الدعوة في أطراف البلاد وعاشوا على البله وعدم المعرفة فلم يكن لهم معرفة ولا جود ولا طاعة ولا مصيبة فلا وسيلة تقربهم ولا جناية تبعدهم فقام من أهل الجنة ولا من أهل النار بل ينزلون في منزلة بين المنزلتين ومقام بين المقامين عبر الشرح عنه بالأعراف وحلول طائفة من الخلق (١) فيه معلوم يقينا من الآيات والأخبار

الوعيد وسرور رجاء للعود حتى نجد لمة ما نطلب وخوف بامنه نهرب اللهم ألبس وجوهنا منك الحياء واملأ قلوبنا بك فرحا وأسكن في قلوبنا من عظمتك مهابة وذلل جوارحنا لخدمتك واجعلك أحب إلينا مما سواك واجعلنا أشقى لك ممن سواك نسألك تمام النعمة بتمام التوبة ودوام العافية بدوام العصمة وأداء الشكر بحسن العبادة اللهم إني أسألك بركة الحياة وخير الحياة وأعوذ بك من شر الحياة وشر الوفاة وأسألك خير ما بينهما أحيى حياة

(١) حديث حلول طائفة من الخلق الأعراف البزار من حديث أبي سعيد الخدري سئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أصحاب الأعراف فقال هم رجال قتلوا في سبيل الله وهم عصاة لأبائهم فمنهم الشهادة أن يدخلوا النار ومنعهم العصية أن يدخلوا الجنة وهم على سور بين الجنة والنار الحديث وفيه عبد الرحمن بن زيد بن أسلم وهو ضعيف ورواه الطبراني من رواية أبي معشر عن يحيى بن شبل عن عمر بن عبد الرحمن الددني عن أبيه مختصرا وأبو معشر نجيب السندى ضعيف ويحيى ابن شبل لا يعرف وللحاكم عن حذيفة قال أصحاب الأعراف قوم تجاوزت بهم حسناتهم النار

ومن أنوار الاعتبار فأما الحكم على العین كالحكم مثلا بأن الصبيان منهم فهذا مظنون وليس بمتيقن والاطلاع عليه تحقيقا في عالم النبوة ويعد أن ترتقي إليه رتبة الأولياء والعلماء والأخبار في حق الصبيان أيضا متعارضة حتى قالت عائشة رضي الله عن الملمات بعض الصبيان عصفور من عصفائر الجنة فأنكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال وما يدريك (١) فاذن الاشكال والاشتباه أغلب في هذا المقام . الرتبة الرابعة : رتبة الفائزين وهم العارفون دون التقليدين وهم القربون السابقون فإن التمدد وإن كان له فوز على الجملة بمقام في الجنة فهو من أصحاب اليمين وهؤلاء هم القربون وما يلقى هؤلاء يجاوز حد البيان والقدر الممكن ذكره مافضله القرآن فليس بعد بيان الله بيان والذي لا يمكن التعبير عنه في هذا العالم فهو الذي أجمله قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وقوله عز وجل أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر والعارفون مطلبهم تلك الحالة التي لا يتصور أن تخطر على قلب بشر في هذا العالم . وأما الحور والقصور والفاكهة واللبن والعسل والحمر والحلى والأساور فأنهم لا يحرمون عليها ولو أعطوها لم يقنعوا بها ولا يطلبون إلا لذة النظر إلى وجه الله تعالى الكريم فهي غاية السعادة ونهاية اللذات

وقصرت سيئاتهم عن الجنة الحديث وقال صحيح على شرط الشيخين وروى الثعلبي عن ابن عباس قال الأعراف موضع عال في الصراط عليه العباس وحمزة وعلى وجعفر الحديث هذا كذب موضوع وفيه جماعة من السكذابين (١) حديث عائشة أنها قالت لملمات بعض الصبيان عصفور من عصفائر الجنة فأنكر ذلك وقال ما يدريك رواه مسلم قال المصنف والأخبار في حق الصبيان متعارضة . قلت روى البخاري من حديث حمزة بن جندب في رؤيا النبي صلى الله عليه وسلم وفيه وأما الرجل الطويل الذي في الروضة فإبراهيم عليه السلام وأما الولدان حوله فكل مولود يولد على الفطرة قليل يارسل الله وأولاد الشركين قال وأولاد الشركين وللطبراني من حديثه سألتنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن أولاد الشركين فقال هم خدمة أهل الجنة وفيه عباد بن منصور الناجي قاضي البصرة وهو ضعيف يرويه عن عيسى بن شعيب وقد ضعفه ابن حبان وللنسائي من حديث الأسود ابن سريع كنا في غزاة لنا الحديث في قتل الذرية ، وفيه إلا إن خياركم أبناء المشركين ثم قال لا تقتلوا ذرية وكل نسمة تولد على الفطرة الحديث وإسناده صحيح ، وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة كل مولود يولد على الفطرة الحديث وفي رواية لأحمد ليس مولود يولد إلا على هذه الملة ولأبي داود في آخر الحديث فقالوا يارسل الله أفرأيت من يموت وهو صغير فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وفي الصحيحين من حديث ابن عباس سئل النبي صلى الله عليه وسلم عن أولاد المشركين فقال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث ثابت بن الحرث الأنصاري كانت يهود إذا هلك لهم صبي صغير قالوا هو صديق فقال النبي صلى الله عليه وسلم كذبت يهود مامن نسمة يخلقها الله في بطن أمه إلا أنه شقي أو سعيد الحديث وفيه عبد الله بن أبي داود من حديث ابن مسعود الوائدة والموءودة في النار وله من حديث عائشة قلت يارسل الله ذراري المؤمنين فقال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فذراري المشركين قال مع آبائهم قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين وللطبراني من حديث خديجة قلت يارسل الله أين أطفالك منك قال في الجنة قلت بلا عمل قال الله أعلم بما كانوا عاملين قلت فأتين أطفالك قبلك قال في النار قلت بلا عمل قال لقد علم الله ما كانوا عاملين وإسناده منقطع بين عبد الله بن الحرث وخديجة وفي الصحيحين من حديث الصعب بن جثامة في أولاد المشركين هم من آبائهم وفي رواية هم منهم .

السعداء حياة من  
تحب بقاءه وتوفي وفاة  
الشهداء وفاة من تحب  
لقاءه ياخير الرازيين  
وأحسن التوابين  
وأحكم الحاكمين  
وأرحم الراحمين ورب  
العالمين ، اللهم صل على  
محمد وعلى آل محمد  
وارحم ما خلقت واغفر  
ما قدرت وطيب  
ما رزقت وتمم ما أنعمت  
وتقبل ما استعملت  
واحفظ ما استفظت  
ولا تهتك ما سترت فانه  
لا إله إلا أنت أستغفرك  
من كل لذة بغير ذكرك  
ومن كل راحة بغير  
خدمتك ومن كل  
سرور بغير قربك  
ومن كل فرح بغير  
مجالستك ومن كل

ولذلك قيل لرابطة العبودية رحمة الله عليها كيف رغبتك في الجنة قتالت الجار ثم الدار فهو لا يقوم شغلهم حب رب الدار عن الدار وزيتها بل عن كل شيء سواه حتى عن أنفسهم ومثلهم مثال العاشق للشيء بمشوقه المستوفى همه بالنظر إلى وجهه والفكر فيه فانه في حال الاستغراق غافل عن نفسه لا يحس بما يصيبه في بدنه ويعبر عن هذه الحالة بأنه فني عن نفسه ومعناه أنه صار مستغرقا بغيره وصارت همومه هما واحدا وهو محبوبه ولم يبق فيه متسع لغير محبوبه حتى بلغت إليه لانهه ولا غير نفسه وهذه الحالة هي التي توصل في الآخرة إلى قرة عين لا يتصور أن تخطر في هذا العالم على قلب بشر كما لا يتصور أن تخطر صورة الألوان والألحان على قلب الأصم والأكف إلا أن يرفع الحجاب عن صممه وبصره فعند ذلك يدرك حاله ويعلم قطعا أنه لم يتصور أن تخطر بباله قبل ذلك صورته فالدنيا حجاب على التحقيق وبرفعه ينكشف الغطاء فعند ذلك يدرك ذوق الحياة الطيبة وإن الدار الآخرة لمس الحيوان لو كانوا يعلمون فهذا القدر كاف في بيان توزع الدرجات على الحسنات والله الوفي بلفظه.

(بيان ما تعظم به الصفات من الذنوب)

اعلم أن الصغيرة تكبر بأسباب منها الاصرار والواظبة ولذلك قيل لا صغيرة مع إصرار ولا كبيرة مع استغفار فكبيرة واحدة تنصرم ولا يتبعها مثيلا لو تصور ذلك كان الغفوعها أرجى من صغيرة يواظب العبد عليها ومثال ذلك قطرات من الماء تقع على الحجر على توال فتؤثر فيه وذلك القدر من الماء لو صب عليه دفعة واحدة لم يؤثر ولذلك قال رسول الله ﷺ «خير الأعمال أدومها وإن قل» (١) والأشياء تستبان بأضدادها وإن كان النافع من العمل هو الدائم وإن قل فالكثير للنصرم قليل النفع في تنوير القلب وتطهيره فكذلك القليل من السيئات إذا دام عظم تأثيره في إظلام القلب إلا أن الكبيرة قلما يتصور المهجوم عليها بفتنة من غير سوابق ولواحق من جملة الصفات قلما يزن الزاني بفتنة من غير مراودة ومقدمات وقلما يقتل بفتنة من غير مشاحنة سابقة ومعاودة فكل كبيرة تكتنفها صفات سابقة ولا حقة ولو تصورت كبيرة وحدها بفتنة لم يتفق إليها عود بما كان الغفوقها أرجى من صغيرة واطب الإنسان عليها عمره . ومنها أن يستصغر الذنب فإن الذنب كلما استعظمه الصبد من نفسه صغر عند الله تعالى وكلما استصغره كبر عند الله تعالى لأن استعظامه يصدر عن نفور القلب عنه وكراهيته له وذلك النفور يمنع من شدة تأثيره به واستصغاره يصدر عن الألف به وذلك يوجب شدة الأثر في القلب والقلب هو المطلوب تنويره بالطاعات والمهذور تسويده بالسيئات ولذلك لا يؤاخذ بما يجري عليه في النقلة فإن القلب لا يتأثر بما يجري في النقلة وقد جاء في الخبر «الؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه يخاف أن يقع عليه والنافق يرى ذنبه كذباب مر على أنفه فأطاره» (٢) وقال بعضهم الذنب الذي لا يغفر قول العبد ليت كل ذنب عملته مثل هذا وإنما يعظم الذنب في قلب المؤمن لملحه بجلال الله فإذا نظر إلى عظم من عصى به رأى الصغيرة كبيرة وقد أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تنظر إلى قلة الهدية وانظر إلى عظم مهديها ولا تنظر إلى صغر الخطيئة وانظر إلى كبرياء من واجهته بها وبهذا الاعتبار قال بعض العارفين لا صغيرة بل كل مخالفة فهي كبيرة وكذلك قال بعض الصحابة

شغل بغير معاملتك اللهم إني أستغفرك من كل ذنب ثبت إليك منه ثم عدت فيه اللهم إني أستغفرك من كل عقد عقدته ثم لم أوف به اللهم إني أستغفرك من كل نعمة أنعمت بها على فقويت بها على معصيتك اللهم إني أستغفرك من كل عمل عملته لك غفلة ما ليس لك اللهم إني أسألك أن تصلي على محمد وعلى آل محمد وأسألك جوامع الخير وفوائده وخواتمه وأعوذ بك من جوامع الشر وفوائده وخواتمه اللهم احفظنا فيما أمرتنا واحفظنا عما نهيتنا واحفظ لنا ما أعطينا يا حافظ

(١) حديث خير الأعمال أدومها وإن قل متفق عليه من حديث عائشة بلفظ أحب وقد تقدم (٢) حديث المؤمن يرى ذنبه كالجبل فوقه الحديث البخاري من رواية الحرث بن سويد قال حدثنا عبد الله بن مسعود حديثين أحدهما عن النبي صلى الله عليه وسلم والآخر عن نفسه فذكر هذا وحديث لله أفرح بتوبة العبد ولم يبين المرفوع من الموقوف وقد رواه البيهقي في الشعب من هذا الوجه موقوفا ومرفوعا .

رضي الله عنهم للتابعين إنكم لتعملون أعمالاً هي في أعينكم أدق من الشعر كنا نعتها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من اللوبات إذ كانت معرفة الصحابة بحلال الله أتم فكانت الصغائر عندهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى من الكبائر وبهذا السبب يعظم من العالم ما لا يعظم من الجاهل ويتجاوز عن العاصي في أمور لا يتجاوز في أمثاله عن العارف لأن الذنب والمخالفة يكبر بقدر معرفة المخالف . ومنها السرور بالصغيرة والفرح والتبجح بها واعتداد النكح من ذلك نعمة والقفلة عن كونه سبب الشقاوة فكلمة غلبت حلاوة الصغيرة عند العبد كبرت الصغيرة وعظم أثرها في تسويد قلبه حتى إن من الذنبيين من يتمدح بذنبه ويتبجح به لشدة فرحه بتعارفه إياه كما يقول أمارأيتني كيف مزقت عرضه ويقول الناظر في مناظرته أمارأيتني كيف فضحته وكيف ذكرت مساويه حتى أخجلته وكيف استخففت به وكيف لبست عليه ويقول العامل في التجارة أما رأيت كيف روجت عليه الزائف وكيف خدعته وكيف غبته في ماله وكيف استحمقته فهذا وأمثاله تكبر به الصغائر فإن الذنوب مهلكات وإذا دفع العبد إليها وظفر الشيطان به في الحبل عليها فينبغي أن يكون في مصيبة وتأسف بسبب غلبة العدو عليه وبسبب بدمه من الله تعالى فالمرضى الذي يفرح بأن ينكسر إناءه الذي فيه دواؤه حتى يتخلص من ألم شربه لا يرجى شفاؤه . ومنها أن يتهاون بستر الله عليه وحلمه عنه وإهماله إياه ولا يدرى أنه إنما يعمل مقراً ليزداد بالإهمال إنما فيظن أن تمكنه من الماصي عناية من الله تعالى به فيكون ذلك لأمنه من مكر الله وجهله بمكان السرور بالله كما قال تعالى - ويقولون في أنفسهم لولا يعذبنا الله بما نقول حسبهم جهنم يصلونها فبئس المصير - ومنها أن يأتي الذنب ويظهره بأن يذكره بعد إتيانه أو يأتية في مشهد غيره فإن ذلك جناية منه على ستر الله الذي سده عليه وتحريك لرغبة الشرف من اسمه ذنبه أو أشهده فعله فهما جنايتان انضمتا إلى جنايته فغلظت به فإن انضاف إلى ذلك الترغيب للغير فيه والحمل عليه وتهيئة الأسباب له صارت جناية رابعة وتفاخش الأمر وفي الخبر « كل الناس معافي إلا المجاهرين بيبب أحدهم على ذنب قد ستره الله عليه فيصبح فيكشف ستر الله ويتحدث بذنبه » (١) وهذا لأن من صفات الله ونعمه أنه يظهر الجميل ويستر القبيح ولا يهتك السر فالإظهار كفران لهذه النعمة . وقال بعضهم لا تذب فإن كان ولا بد فلا ترغب غيرك فيه فتذب ذنبين ولذلك قال تعالى - للناقمون والناقات بعضهم من بعض يأمرون بالنكر وينهون عن المعروف - وقال بعض السلف ما تهتك الرء من أخيه حرمة أعظم من أن يساعده على مصيبتهم يهونها عليه . ومنها أن يكون الذنب عالماً يقتدى به فاذا فعله بحيث يرى ذلك منه كبر ذنبه كلبس العالم الأبريسم وركوبه مراكب الذهب وأخذه مال الشبهة من أموال السلاطين ودخوله على السلاطين وتردده عليهم ومساعدته إياهم بترك الإنكار عليهم وإطلاق اللسان في الأعراض وتعدية باللسان في المناظرة وقصده الاستخفاف واشتغاله من العلوم عللاً يقصده إلاً الجاه كالمجدل والمناظرة فهذه ذنوب يتبع العالم عليها فيحوت العالم ويبقى شره مستطيراً في العالم آمداً متطاولة فطوبى لمن إذا مات ماتت ذنوبه معه وفي الخبر « من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها لا ينقص من أوزارهم شيئاً » (٢) قال تعالى - ونكتب ما قدموا وآثارهم - والآثار ما يالحق من الأعمال بعد انقضاء العمل والعمل والعلل وقال ابن عباس ويل للعالم من الأتباع يزل زلة فيرجع عنها ويحملها الناس فيذهبون بها في الآفاق وقال بعضهم

(١) حديث كل الناس معافي إلا المجاهرين الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة بالفظ كل أمق وقد تقدم (٢) حديث من سن سنة سيئة فعله وزرها ووزر من عمل بها الحديث مسلم من حديث جرير بن عبد الله وقد تقدم في آداب الكسب .

الحافظين وإذا كر  
الذاكرين وباشا كر  
الشاكرين بذكره  
ذكروا وبفضلك  
شكروا يا غياث يا غيث  
يا مستغاث يا غياث  
المستغيث لا تكلني إلى  
نفسى طرفة عين  
فأهلك ولا إلى أحد من  
خلقك فأضيع أكلاتي  
كلاءة الوليد ولا تغل  
عني وتولي عاتولي به  
عبادك المالحين أنا  
عبدك وابن عبدك  
ناصر يدك جار في  
حكك عدل في  
نضاؤك نافذ في مشيتك  
إن تعذب فأهل ذلك  
أنا ، وإن رحم فأهل  
ذلك أنت فاقبل اللهم  
بامولاي يا الله يارب  
ما أنت له أهل ولا تفعل

مثل زلة العالم مثل انكسار السفينة تفرق ويغرق أهلها . وفي الاسرائيليات : إن طالما كان يصل الناس بالبدعة ثم أدركته توبة فصل في الإصلاح دهرًا فأوحى الله تعالى إلى نبيهم قل له إن ذنبك لو كان فيما بيني وبينك لغفرت لك ولكن كيف بمن أضلت من عبادي فأدخلتهم النار . فهذا يوضح أن أمر العلماء مخطر فعليه وظيقتان : إحداها ترك الذنب والأخرى إخفاؤه كتضاعف أوزارهم على الذنوب فكذلك يتضاعف ثوابهم على الحسنات إذا اتبعوا فإذا ترك التجمل والليل إلى الدنيا وقع منها باليسير ومن الطعام بالقوت ومن الكسوة بالخلق فيتبع عليه ويتقدي به العلماء والعوام فيكون له مثل ثوابهم وإن مال إلى التجمل مالت طباع من دونه إلى التشبه به ولا يقدر على التجمل إلا بخدمة السلاطين وجمع الحطام من الحرام ويكون هو السبب في جميع ذلك فخر كات العلماء في طورى الزيادة والنقصان تتضاعف آثارها إما بالبرح وإما بالخسران وهذا القدر كاف في تفاصيل الذنوب التي التوبة توبة عنها .

### ( الركن الثالث في تمام التوبة وشروطها ودوامها إلى آخر العصر )

قد ذكرنا أن التوبة عبارة عن ندم يورث عزما وقصدا وذلك الندم أو رثه العلم يكون المعاصي حائلا بينه وبين محبته ولكل واحد من العلم والندم والعزم دوام وتتمام ولتمامها علامة ولدوامها شروط فلا بد من ثباتها . أما العلم فالنظر فيه نظر في سبب التوبة وسيأتي . وأما الندم فهو توجع القلب عند شعوره بفوات المحبوب وعلامته طول الحسرة والحزن وانسكاب الدمع وطول البكاء والفكر فمن استشعر عقوبة نازلة بولده أو بعض أعزته طال عليه مصيبته وبكاؤه وأى عزيز أعز عليه من نفسه وأى عقوبة أشد من النار وأى شيء أدل على نزول العقوبة من المعاصي وأى خبر أصدق من الله ورسوله ولوحدثه إنسان واحد يسمى طبيباً أن مرض ولده المريض لا يبرأ وأنه سيموت منه لظلال في الحال حزنه فليس ولده بأعز من نفسه ولا الطبيب بأعلم ولا أصدق من الله ورسوله ولا الموت بأشد من النار ولا المرض بأدل على الموت من المعاصي على سخط الله تعالى والتعرض بها للنار فالندم كلما كان أشد كان تكفير الذنوب به أرجى فلامعة محبة الندم رقة القلب وغزارة الدمع وفي الخبر « جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة (١) » ومن علامته أن تمكن حرارة تلك الذنوب في قلبه بدلا عن حلاوتها فيستبدل بالليل كراهية وبالرغبة نفرة . وفي الاسرائيليات : إن الله سبحانه وتعالى قال لبعض أنبيائه وقد سأله بقبول توبة عبد بعد أن اجتهد سنين في العبادة ولم يقبل توبته فقال وعزنى وجلالى لو شفع فيه أهل السموات والأرض ما قبلت توبته وحلاوة ذلك الذنب الذى تاب منه في قلبه . فان قلت فالذنوب هى أعمال مشتهة بالطبع فكيف يجد مرارتها ؟ فأقول من تناول عسلا كان فيه سم ولم يدركه بالذوق واستلذه ثم مرض وطال مرضه وألمه وتناثر شعره وفلجت أعضاؤه فإذا قدم إليه عسل فيه مثل ذلك السم وهو فى غاية الجوع والشهوة للحلاوة فهل تنفر نفسه عن ذلك العسل أم لا ؟ فان قلت لافهو جحد للشاهدة والضرورة بل ربما تنفر عن العسل الذى ليس فيه سم أيضا لشبهه بفوجدان التائب مرارة الذنب كذلك يكون وذلك لعله بأن كل ذنب فذوقه ذوق العسل وعمله عمل السم ولا تصح التوبة ولا تصدق إلا بمثل هذا الايمان ولما عز مثل هذا الايمان عزت التوبة والتائبون فلا ترى إلا معرضا عن الله تعالى متهاونا بالذنوب مصرا عليها فهذا شرط تمام الندم وينبى أن يدوم إلى الموت

اللهم يارب يا الله  
ما أنا له أهل إنك أهل  
التقوى وأهل المغفرة  
يا من لا تغفر الذنوب  
ولا تنقص المغفرة هب  
لى ما لا يضرك وأعطى  
ملا لا ينقصك ياربنا  
أفرغ علينا صبرا  
وتوفنا مسلمين توفى  
مسلمنا وألحقنى  
بالصالحين أنت ولينا  
فاغفر لنا وارحمنا وأنت  
خير الغافرين ربنا  
عليك توكلنا وإليك  
أئبنا وإليك المصير  
ربنا اغفر لنا ذنوبنا  
وإسرافنا فى أمرنا  
وثبت أقدامنا وانصرنا  
على القوم الكافرين  
ربنا آتنا من لدنك  
رحمة وهى لنا من  
أمرنا وشئنا ربنا

(١) حديث جالسوا التوابين فانهم أرق أفئدة لم أجده مرفوعا وهو من قول عون بن عبد الله رواه ابن أبى الدنيا فى التوبة قال جالسوا التوابين فان رحمة الله إلى النادم أقرب وقال أيضا فالموعة إلى قلوبهم أسرع وهم إلى الرقة أقرب وقال أيضا التائب أسرع دمة وأرق قلبا .

وينبغي أن يجد هذه المראה في جميع الذنوب وإن لم يكن قد ارتكبها من قبل كما يجد متناول السم في السمل التفرقة من الماء البارد مهما علم أن فيه مثل ذلك السم إذ لم يكن ضرره من السمل بل بمخافته ولم يكن ضرر التائب من مرقته وزناؤه من حيث إنه مرققة وزنا بل من حيث إنه من مخالفة أمر الله تعالى وذلك جار في كل ذنب . وأما القصد الذي ينبعث منه وهو إرادة التدارك فله تعلق بالحال وهو يوجب ترك كل محظور هو ملابس له وأداء كل فرض هو متوجه عليه في الحال وله تعلق بالماضي وهو تدارك ما فرط والمستقبل وهو دوام الطاعة ودوام ترك المعصية إلى الموت . وشروط محبتها ما يتعلق بالماضي أن يرد فكره إلى أول يوم بلغ فيه بالنسب أو الاحتلام ويفتش عما مضى من عمره سنة سنة وشهر شهرا ويوما يوما ونفسا نفسا وينظر إلى الطاعات ما الذي قصر فيه منها وإلى المعاصي ما الذي قارف منها فإن كان قد ترك صلاة أو صلاها في ثوب نجس أو صلاها بنية غير صحيحة لجهله بشرط النية في قضائها عن آخرها فإن شك في عدد ما فاتته منها حسب من مدة بلوغه وترك القدر الذي يستيقن أنه أداه ويقضى الباقي وله أن يأخذ فيه بغالب الظن ويصل إليه على سبيل التحري والاجتهاد . وأما الصوم فإن كان قد تركه في سفر ولم يقضه أو أنظر عمدا أو نسي النية بالليل ولم يقض فيتعرف بمجموع ذلك بالتحري والاجتهاد ويستقل بقضائه ، وأما الزكاة فيحسب جميع ماله وعدد السنين من أول ملكه لا من زمان البلوغ فإن الزكاة واجبة في مال الصبي فيؤدى ما علم بغالب الظن أنه في ذمته فإن أداه لا على وجه يوافق مذهبه بأن لم يصرف إلى الأصناف الثمانية أو أخرج البدل وهو على مذهب الشافعي رحمه الله تعالى فيقضى جميع ذلك فإن ذلك لا يجزيه أصلا وحساب الزكاة ومعرفة ذلك يطول ويحتاج فيه إلى تأمل شاف ويأمره أن يسأل عن كيفية الخروج عنه من العلماء . وأما الحج فإن كان قد استطاع في بعض السنين ولم يتفق له الخروج والأن قد أفلس فليحسب الخروج فان لم يقدر مع الإفلاس فليحسب أن يكتب من الحلال قدر الزاد فإن لم يكن له كسب ولا مال فليحسب أن يسأل الناس ليصرف إليه من الزكاة أو الصدقات ما يحج به فانه إن مات قبل الحج مات عاصيا قال عليه السلام « من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا وإن شاء نصرانيا (١) » والمجزأ الطارئ بعد القدرة لا يسقط عنه الحج فهذا طريق تفتيشه عن الطاعات وتداركها . وأما المعاصي فيجب أن يفتش من أول بلوغه عن سمعه وبصره ولسانه وبطنه ويده ورجله وفرجه وسائر جوارحه ثم ينظر في جميع أيامه وساعاته ويفصل عند نفسه ديوان معاصيه حتى يطلع على جميعها صفاتها وكبائرها ثم ينظر فيها فما كان من ذلك بينه وبين الله تعالى من حيث لا يتعلق بمظلمة العباد كنظر إلى غير محرم وقعود في مسجد مع الجنازة ومس مصحف بغير وضوء واعتقاد بدعة وشرب خمر ومما ملأه وغير ذلك مما لا يتعلق بمظالم العباد فالتوبة عنها بالندم والتحرر عليها وبأن يحسب مقدارها من حيث الكبر ومن حيث الدعة ويطلب لكل معصية منها حسنة تناسبها فيأتي من الحسنات بمقدار تلك السيئات أخذا من قوله ﷺ « اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها (٢) » بل من قوله تعالى - إن الحسنات يذهبن السيئات - فيكفر صماح الملائهي بسماع القرآن وبمجالس الذكر ويكفر القعود في المسجد جنبا بالاعتكاف فيه مع الاشتغال بالعبادة ويكفر من الصحف محدثا بآرام المصحف وكثرة قراءة القرآن منه وكثرة تقيله بأن يكتب مصحفا ويحمله وقفا ويكفر شرب الخمر بالتصدق بشراب حلال هو أطيب منه وأحب إليه وعد جميع المعاصي غير ممكن وإنما المقصود سلوك

(١) حديث من مات ولم يحج فليمت إن شاء يهوديا الحديث تقدم في الحج (٢) حديث اتق الله حيث كنت وأتبع السيئة الحسنة تمحها الترمذي من حديث أبي ذر وصححه وتقدم أوله في آداب الكسب وبضه في أوائل التوبة وتقدم في رياضة النفس .

آتيا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وفنا عذاب النار اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وارزقنا العون على الطاعة والعصمة من المعصية وإفراغ السبر في الخدمة وإيداع الشكر في النعمة وأسألك حسن الخاتمة وأسألك اليقين وحسن المعرفة بك وأسألك المحبة وحسن التوكل عليك وأسألك الرضا وحسن الثقة بك وأسألك حسن القلب إليك اللهم صل على محمد وعلى آل محمد وأصلح أمة محمد اللهم ارحم أمة محمد اللهم فرج عن أمة محمد فرجا عاجلا ربنا اغفر

الطريق المضادة فإن المرض يالج بضده فكل ظلمة ارتفعت إلى القلب بمصيبة فلا يحسها إلا أن يرفع إليها بحسنة تضادها والتضادات هي المتناسبات فذلك ينبغي أن تحصى كل سيئة بحسنة من جنسها لكن تضادها فإن البياض يزال بالسواد لا بالحرارة والبرودة وهذا التدرج والتحقيق من التلطيف في طريق المهور فالرجاء فيه أصدق والثقة به أكثر من أن يواظب على نوع واحد من العبادات وإن كان ذلك أيضا مؤثرا في المهور فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وبدل على أن الشيء يكفر بضده أن حب الدنيا رأس كل خطيئة وأثر اتباع الدنيا في القلب السرور بها والخين إليها فلا جرم كان كل أذى يصيب المسلم يندب عليه قلبه عن الدنيا يكون كفارة له إذ القلب يتجاف بالمهموم والغموم عن دار المهموم قال صلى الله عليه وسلم « من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم <sup>(١)</sup> » وفي لفظ آخر « إلا المهم بطلب المعيشة » وفي حديث عائشة رضي الله عنها « إذا كثرت ذنوب العبد ولم تكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه المهموم فتكون كفارة لذنوبه <sup>(٢)</sup> » ويقال إن المهم الذي يدخل على القلب والعبد لا يعرف هو ظلمة الذنوب والمهم بها وشعور القلب بوقفة الحساب وهول المظالم . فان قلت هم الإنسان غالباً بما له وولده وجهه وهو خطيئة فكيف يكون كفارة . فاعلم أن الحب له خطيئة والحرامان عنه كفارة ولو تمت به تمت الخطيئة فقد روى أن جبريل عليه السلام دخل على يوسف عليه السلام في السجن فقال له كيف تركت الشيخ الكتيب فقال قد حزن عليك حزن مائة شكوى قال فما له عند الله قال أجزمائة شهيد فاذن المهموم أيضا مكفرات حقوق الله فهذا حكم ما بينه وبين الله تعالى . وأما مظالم العباد فيها أيضا معصية وجناية على حق الله تعالى فإن الله تعالى نهى عن ظلم العباد أيضا لما يتعلق منه بحق الله تعالى تداركه بالندم والتعسر وترك مثله في المستقبل والالتيان بالحسنات التي هي أضدادها فيقابل إتياءه الناس بالاحسان إليهم ويكفر غضب أموالهم بالتصدق بملكه الحلال ويكفر تناول أعراضهم بالعبية والقدح فيهم بالثناء على أهل الدين وإظهار ما يعرف من خصال الخير من أقرانه وأمثاله ويكفر قتل النفوس باعتناق الرقاب لأن ذلك إحياء إذ البعد مفقود لنفسه موجود لسيده والاعتناق إجماع لا يقدر الإنسان على الأكثر منه فيقابل الأعداء بالإيمان وبهذا تعرف أن ما ذكرناه من سلوك طريق المضادة في التكفير والمهور مشهود له في الشرع حيث كفر القتل باعتناق رقبة ثم إذا فعل ذلك كله لم ينجم ولم يكفه ما لم يخرج عن مظالم العباد ومظالم العباد إما في النفوس والأموال والأعراض أو القلوب أعني به الإتياء المحض . أما النفوس فإن جرى عليه قتل خطأ فتوبته بتسليم الدية ووصولها إلى المستحق إيمانه أو من عاقبته وهو في عهدة ذلك قبل الوصول وإن كان عمدا موجبا لقتلصاص فبالقتصاص فإن لم يعرف فيجب عليه أن يتعرف عند ولي الدم ويحكمه في روحه فإن شاء عفا عنه وإن شاء قتله ولا تسقط عهده إلا بهذا ولا يجوز له الإخفاء وليس هذا كما لو زنى أو شرب أو سرق أو قطع الطريق أو باشر ما يحجب عليه فيه حد الله تعالى فإنه لا يلزمه في التوبة أن يفضح نفسه ويهتك ستره ويعلن من الوالي استيفاء حق الله تعالى بل عليه أن يتستر بستر الله تعالى ويقوم حد الله على نفسه بأنواع المجاهدة والتعذيب فالعفو في بعض حقوق الله تعالى قريب من التائبين النادمين فإن رفع أمر هذه إلى الوالي حتى أقام عليه الحد وقع موقعه وتكون توبته صحيحة مقبولة عند الله تعالى بدليل ما روى « أن ما عزم مالك أني رسول الله صلى الله عليه وسلم

لنا ولا خواتنا الذين  
سبقونا بالإيمان ولا  
تجعل في قلوبنا غلا  
لذين آمنوا ربنا إنك  
رؤوف رحيم اللهم  
اغفر لي ولوالدي وللمن  
تولدا وارحمهما كما  
ربياني صغيرا واغفر  
لأعمامنا وعماتنا  
وأخواننا وخالاتنا  
وأزواجنا وفريقاتنا  
ولجميع المؤمنين  
والمؤمنات والمسلمين  
والمسلمات الأحياء  
منهم والأموات يا أرحم  
الراحمين يا خير الغافرين  
ولما كان الدعاء مخ  
العبادة أحببنا أن  
نستوفي من ذلك فسمنا  
صالحا نرجو بركته  
وهذه الأدعية  
استخرجها الشيخ

(١) حديث من الذنوب ذنوب لا يكفرها إلا المهموم وفي لفظ آخر إلا المهم في طلب المعيشة طس  
وأبو نعيم في الحلية والخطيب في التلخيص من حديث أبي هريرة بسند ضعيف تقدم في النكاح  
(٢) حديث إذا كثرت ذنوب العبد ولم يكن له أعمال تكفرها أدخل الله تعالى عليه الغموم وتقدم أيضا  
في النكاح وهو عند أحمد من حديث عائشة بلفظ ابتلاه الله بالحزن .



فقال يارسول الله إني ظلمت نفسي وزيت وإني أريد أن تطهرني فردّه فلما كان من الغد أتاه فقال يارسول الله إني قد زيت فردّه الثانية فلما كان في الثالثة أمر به فحفر له حفرة ثم أمر به فرجم فكان الناس فيه فريقين فقال يقول لقد هلك وأحاطت به خطيئته وقائل يقول ماثوبة أصدق من توبته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : لقد تاب توبة لو قسمت بين أمة لو منهم (١) وجاءت الغامدية فقالت « يارسول الله إني قد زيت فطهرني فردّها فلما كان من الغد قالت يارسول الله لم تردني لعلك تريد أن تردني كما رددت ماعزاً فوالله إني لحبلى فقال صلى الله عليه وسلم أما الآن فاذهي حتى تضعى فلما ولدت أنت بالصبي في خرقه فقالت هذا قد ولدته قال اذهبي فأرضعيه حتى تظميه فلما فطمته أنت بالصبي وفي يده كسرة خبز فقالت يا بني الله قد فطمته وقد أكل الطعام فدفع الصبي إلى رجل من المسلمين ثم أمر بها فحفر لها إلى صدرها وأمر الناس فرجموها فأقبل خالد بن الوليد بحجر فرمى رأسها فتضح الدم على وجهه فسبها فسمع رسول الله صلى الله عليه وسلم سبه إياها فقال مهلاً يا خالد فوالذي نفسي بيده لقد تابت توبة لو تابها صاحب مكس لفقر له ثم أمر بها فصلى عليها ودفنت (٢) .

وأما القصاص وحد القذف : فلا بد من تحليل صاحبه المستحق فيه وإن كان التناول مالا تناوله بنصب أو خيانة أو غبن في معاملة بنوع تلبس كتروج زائف أو ستر عيب من المبيع أو نقص أجره أجير أو منع أجرته فكل ذلك يجب أن يفتش عنه لامن حد بلوغه بل من أول مدة وجوده فإن ما يجب في مال الصبي يجب على الصبي إخراج به بلوغ إن كان الولي قد قصر فيه فإن لم يفعل كان ظالماً مطالباً به إذ يستوى في الحقوق المالية الصبي والبالغ وليحاسب نفسه على الحيات والدوانق من أول يوم حياته إلى يوم توبته قبل أن يحاسب في القيامة وليناقش قبل أن يناقش فمن لم يحاسب نفسه في الدنيا طال في الآخرة حسابه فإن حصل مجرم ماعليه بظن غالب ونوع من الاجتهاد يمكن فليكتبه وليكتب أسامى أصحاب المظالم واحداً واحداً وليطف في نواحي العالم وليطلمهم وليستحلهم أو ليؤد حقوقهم وهذه التوبة تشق على الظلمة وعلى التجار فاتهم لا يقدر أن يطلب العاملين كلهم ولا على طلب ورثتهم ولكن على كل واحد منهم أن يفعل منه ما يقدر عليه فإن عجز فلا يبقى له طريق إلا أن يكثر من الحسنات حتى تنفي عن يوم القيامة فتؤخذ حسناته وتوضع في موازين أرباب المظالم ولتسكن كثرة حسناته بقدر كثرة مظالمه فإنه إن لم تنف بها حسناته حمل من السيئات أرباب المظالم فيهلك بسيئات غيره فهذا طريق كل تائب في رد المظالم وهذا يوجب استغراق العمر في الحسنات لو طال العمر بحسب طول مدة الظلم فكيف وذلك مما لا يعرف وربما يكون الأجل قريباً فينبغي أن يكون تشميره للحسنات والوقت ضيق أشد من تشميره الذي كان في العاصي في متسع الأوقات هذا حكم المظالم الثابتة في ذمته . أما أمواله الحاضرة فليرد إلى السالك ما يعرف له مال كما عينوا وما لا يعرف له مال كما فعله أن يتصدق به فإن اختلط الحلال بالحرام فعليه أن يعرف قدر الحرام بالاجتهاد ويتصدق بذلك المقدار كما سبق تفصيله في كتاب الحلال والحرام . وأما الجناية على القلوب بمشافة الناس بما يسوؤهم أو يهينهم في النية فيطلب كل من تعرض له بلسانه أو أذى قلبه بفعله من أفعاله وليستحل واحداً واحداً منهم ومن مات أو غاب فقد فات أمره ولا يتدارك إلا بتكثير الحسنات لتؤخذ منه عوضاً في القيامة وأما من وجدته وأحله بطيب قلب منه فذلك كفارته وعليه أن يعرف قدر جنايته

(١) حديث اعتراف ماعز بالزنا ورده صلى الله عليه وسلم حتى اعترف أربعا وقوله لقد تاب توبة الحديث مسلم من حديث بريدة بن الحصيب (٢) حديث الغامدية واعترافها بالزنا ورجمها وقوله صلى الله عليه وسلم : لقد تابت توبة الحديث مسلم من حديث بريدة وهو بعض الذي قبله .

أبو طالب المكي رحمه الله في كتابه قوت القلوب وعلى قله كل الاعتماد وفي البركة فليدع هذه الدعوات منفرداً أو في الجماعة إماماً أو مأموماً ويختصر منها ما يشاء [الباب المحسون في ذكر العمل في جميع التهار وتوزيع الأوقات] فن ذلك أن يلازم موضعه الذي صلى هو فيه مستقبل القبلة إلا أن يرى انتقاله إلى زاويته أسلم لدينه لكلا يحتاج إلى حديث أو التفات إلى شيء فإن السكوت في هذا الوقت وترك الكلام له أثر ظاهر بين عبده أهل

وتعرضه له فالاستحلال لهم لا يكتفى وربما لو عرف ذلك وكثرة تعديه عليه لم تطب نفسه بالاستحلال  
 وادخر ذلك في القيامة ذخيرة يأخذها من حسناته أو يحمله من سيئاته فإن كان في جملة جنائته على  
 الغير ماله ذكره وعرفه لتأذي بعمره كزناه بجاريته أو أهله أو نسبه بالسان إلى عيب من خفايا  
 عيوبه يعظم أذاه مهما عوفه به فقد انسد عليه طريق الاستحلال فليس له إلا أن يستحل منها ثم  
 يبق له مظلة فليجبرها بالحسنات كما يجبر مظلة الليل والنائب . وأما الذكر والتعريف فهو سيئة  
 جديدة يجب الاستحلال منها ومهما ذكر جنائته وعرفه المجنى عليه فلم تسمع نفسه بالاستحلال  
 بقيت المظلة عليه فان هذا حقه فعليه أن يتألف به ويسعى في مهماته وأغراضه ويظهر من  
 حبه والشفقة عليه ما يستميل به قلبه فان الانسان عبد الاحسان وكل من تفر ببيتة مال بحسنة  
 فاذا طاب قلبه بكثرته تودده وتلطفه صحت نفسه بالاستحلال فان أبي إلا الاصرار فيكون تلطفه به  
 واعتذاره إليه من جملة حسناته التي يمكن أن يجبر بها في القيامة جنائته وليكن قدر سعيه في فرحه  
 وسرور قلبه بتودده وتلطفه كقدر سعيه في أذاه حتى إذا قاوم أحدهما الآخر أو زاد عليه أخذ ذلك  
 منه عوضا في القيامة يحكم الله به عليه كمن أتلف في الدنيا مالا لجاء بمثله فامتنع من له المال من  
 القبول وعن الإبراء فان الحاكم يحكم عليه بالقبض منه شاء أم أبي فكذلك يحكم في صعيد القيامة  
 أحكم الحاكمين وأعدل القسطين وفي التفرق عليه من الصحيحين عن أبي سعيد الخدري أن نبي الله  
 صلى الله عليه وسلم قال « كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفسا فسأل عن أعلم  
 أهل الأرض فدل على راهب فأتاه فقال إنه قتل تسعة وتسعين نفسا فهل له من توبة ؟ قال لا  
 فقتله فكل به مائة ثم سأل عن أعلم أهل الأرض فدل على رجل عالم فقال له إنه قتل مائة نفس  
 فهل له من توبة ؟ قال نعم ومن يحول بينه وبين التوبة انطلق إلى أرض كذا وكذا فان بها  
 أناسا يعبدون الله عز وجل فاعبد الله معهم ولا ترجع إلى أرضك فانها أرض سوء فانطلق حتى إذا  
 نصف الطريق أتاه الموت فاخضعت فيه ملائكة الرحمة وملائكة العذاب فقالت ملائكة الرحمة  
 جاء تائباً مقبلاً بقلبه إلى الله وقالت ملائكة العذاب إنه لم يعمل خيراً قط فأتاهم ملك في صورة آدمي  
 فجاءوه حكماً بينهم فقال قيسوا ما بين الأرضين فإلى أيتهما كان أدنى فهو له فقاموا فوجدوه أدنى  
 إلى الأرض التي أراد قبضته ملائكة الرحمة (١) « وفي رواية : فكان إلى القرية الصالحة أقرب  
 منها بشبر فجعل من أهلها . وفي رواية : فأوحى الله تعالى إلى هذه أن تباعدى وإلى هذه أن تقربي  
 وقال قيسوا ما بينهما فوجدوه إلى هذه أقرب بشبر فقفر له ، فهذا تعرف أنه لا خلاص إلا بالرجحان  
 ميزان الحسنات ولو بمشقال ذرة فلا بد للتائب من تكثير الحسنات هذا حكم القصد المتعلق بالماضي .  
 وأما العزم المرتبط بالاستقبال فهو أن يعتقد مع الله عقدا مؤكداً وبما عهد بهد وثيق أن لا يعود  
 إلى تلك الذنوب ولا إلى أمثالها كالقدي يعلم في مرضه أن الفاكهة تضره مثلاً فيعزم عزماً جزمياً  
 أنه لا يتناول الفاكهة مالم يزل مرضه فان هذا العزم يتأكد في الحال وإن كان يتصور أن تغلبه  
 الشهوة في ثأني الحال ولكن لا يكون تائباً مالم يتأكد عزمه في الحال ولا يتصور أن يتم ذلك للتائب  
 في أول أمره إلا بالعزلة والصمت وقلة الأكل والنوم وإحراز قوت حلال فان كان له مال موروث  
 حلال أو كانت له حرفة يكتسب بها قدر الكفاية فليقتصر عليه فان رأس للعاصي أكل الحرام  
 فكيف يكون تائباً مع الاصرار عليه ولا يكتفى بالحلال وترك الشبهات من لا يقدر على ترك الشهوات

للعمالة وأرباب القلوب  
 وقد ندب رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم إلى  
 ذلك ثم يقرأ الفاتحة  
 وأول سورة البقرة إلى  
 للفلقون والآيتين  
 والحكم إلى واحد وآية  
 الكرسي والآيتين  
 بعدها وآمن الرسول  
 والآية قبلها وشهد الله  
 وقال اللهم مالك الملك  
 وإن ربكم الله الذي  
 خلق السموات  
 والأرض إلى الحسين  
 ولقد جاءكم رسول إلى  
 الآخر وقال ادعوا الله  
 الآيتين وآخر الكهف  
 من إن الذين آمنوا  
 وذا النون إذ ذهب  
 مغاضباً إلى خير الوارثين  
 فسبحان الله حسين  
 عمون وحين تصبحون

(١) حديث أبي سعيد الخدري التفرق عليه كان فيمن كان قبلكم رجل قتل تسعة وتسعين نفساً  
 عن أعلم أهل الأرض الحديث هو متفق عليه كما قال المصنف من حديث أبي سعيد .

في الماء كولات والمليوبات وقد قال بعضهم من صدق في ترك الشهوة وجاهد نفسه لله سبع مرار لم يبتل بها . وقال آخر من تاب من ذنب واستقام سبع سنين لم يعد إليه أبدا . ومن مهمات التائب إذا لم يكن عالما أن يتعلم ما يجب عليه في المستقبل وما يحرم عليه حتى يمكنه الاستقامة وإن لم يؤثر العزلة لم تتم له الاستقامة المطلقة إلا أن يتوب عن بعض الذنوب كالذي يتوب عن الشرب والزنا والنصب مثلا وليست هذه توبة مطلقة وقد قال بعض الناس إن هذه التوبة لاتصح وقال قائلون تصح ولفظ الصحة في هذا المقام مجمل بل نقول لمن قال لاتصح إن عنت به أن تركه بعض الذنوب لايفيد أصلا بل وجوده كعدمه لما أعظم خطأك فانا نعلم أن كثرة الذنوب سبب لكثرة العقاب وقتلها سبب لقلته وقول لمن قال تصح إن أردت به أن التوبة عن بعض الذنوب توجب قبولاً يوصل إلى النجاة أو الفوز فهذا أيضا خطأ بل النجاة والفوز بترك الجميع هذا حكم الظاهر ولنا تتكلم في خفايا أسرار عفو الله فان قال من ذهب إلى أنها لاتصح إن أردت به أن التوبة عبارة عن الندم وإنما يندم على السرقة مثلا لكونها معصية لالكونها سرقة ويستحيل أن يندم عليها دون الزنا إن كان توجهه لأجل المعصية فان العلة شاملة لما إذا من يتوجه على قتل ولله بالسيف يتوجه على قتله بالسكين لأن توجهه بفوات محبوبه سواء كان بالسيف أو بالسكين فكذلك توجه العبد بفوات محبوبه وذلك بالمعصية سواء عصى بالسرقة أو الزنا فكيف يتوجه على البعض دون البعض فالتندم حالة يوجبها العلم بكون المعصية مفوتة للمحبوب من حيث إنها معصية فلا يتصور أن يكون على بعض المعاصي دون البعض ولو جاز هذا لجاز أن يتوب من شرب الخمر من أحد الدينين دون الآخر فان استحالة ذلك من حيث إن المعصية في الخمرين واحد وإنما الدنان ظروف فكذلك أعيان المعاصي آلات للمعصية والمعصية من حيث مخالفة الأمر واحدة فاذن معنى عدم الصحة أن الله تعالى وعد التائبين رتبة وتلك الرتبة لاتنال إلا بالتندم ولا يتصور الندم على بعض التماثلات فهو كالمملك المرتب على الإيجاب والقبول فانه إذا لم يتم الإيجاب والقبول قول إن العقد لا يصح أى لم ترتب عليه الثمرة وهو المملك وتحقيق هذا أن ثمرة مجرد الترك أن ينقطع عنه عقاب ما تركه وثمره الندم تكفير ماسبق فترك السرقة لا يكفر السرقة بل الندم عليها ولا يتصور الندم إلا لكونها معصية وذلك يتم جميع المعاصي وهو كلام مفهوم واقع يستنتج النصف بتفصيل به ينكشف الغطاء . فنقول التوبة عن بعض الذنوب لاتخلو إما أن تكون عن الكبائر دون الصغائر أو عن الصغائر دون الكبائر أو عن كبيرة دون كبيرة . أما التوبة عن الكبائر دون الصغائر فأمر ممكن لأنه يعلم أن الكبائر أعظم عند الله وأجلب لسخط الله ومقته والصغائر أقرب إلى تطرق العفو إليها فلا يستحيل أن يتوب عن الأعظم ويتندم عليه كالذي ينجى على أهل الملك وحرمة ويحجى على دابته فيكون خائفا من الجناية على الأهل مستحقرا للجناية على الدابة والندم بحسب استعظام الذنب واعتقاد كونه مبعدا عن الله تعالى وهذا ممكن وجوده في الشرع فقد كثرت التائبون في الأعصار الحاليه ولم يكن أحد منهم معصوما فلا تستدعى التوبة المعصية والطبيب قد يعذر المريض العسل تحذيرا شديدا ويعذره السكر تحذيرا أخف منه على وجه يشعر معه أنه ربما لا يظهر ضرر السكر أصلا فيتوب المريض بقوله عن العسل دون السكر فهذا غير محال وجوده وإن أكلفهما جميعا بحكم شهوته ندم على أكل العسل دون السكر . الثاني أن يتوب عن بعض الكبائر دون بعض وهذا أيضا ممكن لاعتقاده أن بعض الكبائر أشد وأغلظ عند الله كالذي يتوب عن القتل والنهب والظلم ومظالم العباد لعله أن ديوان العباد لا يترك وما بينه وبين الله يتسارع العفو إليه فهذا أيضا ممكن كافي تفاوت

وسبحان ربك إلى آخر  
السورة ولقد صدق الله  
وأول سورة الحديد إلى  
بذات الصدور وآخر  
سورة الحشر من  
لو أنزلناهم بسبح ثلاثا  
وثلاثين وهكذا يعمد  
مثله ويكرر مثله ويتمها  
مائة بلا إله إلا الله وحده  
لا شريك له فإذا فرغ  
من ذلك يشتغل بتلاوة  
القرآن حفظا أو من  
المصحف أو يشتغل  
بأنواع الأذكار ولا  
يزال كذلك من غير  
قصور وقصور وناس  
فان النوم في هذا الوقت  
مكروه جدا فان غلبه  
النوم فليقم في مصلاه  
فإنما مستقبل القبلة  
فان لم يذهب النوم  
بالقيام يخطو خطوات

الكبائر والصغائر لأن الكبائر أيضا متفاوتة في أنفسها وفي اعتقاد مرتكبها ، ولذلك قد يتوب عن بعض الكبائر التي لاتتعلق بالعباد كما يتوب عن شرب الخمر دون الزنا مثلا ، إذ يتضح له أن الخمر مفتاح الشرور وأنه إذا زال عقله ارتكب جميع المعاصي وهو لا يدري فبحسب ترجع شرب الخمر عنده ينبعث منه خوف يوجب ذلك تركا في المستقبل وندما على الماضي . الثالث أن يتوب عن صغيرة أو صغائر وهو مصر على كبيرة يعلم أنها كبيرة كالقدي يتوب عن الغيبة أو عن النظر إلى غير الحرم أو ما يجري مجراه وهو مصر على شرب الخمر فهو أيضا ممكن ووجه إمكانه أنه ما من مؤمن إلا وهو خائف من معاصيه ونادم على فعله ندما إما ضعيفا وإما قويا ولكن تكون قوة نفسه في تلك المعصية أقوى من ألم قلبه في الخوف منها لأسباب توجب ضعف الخوف من الجهل والقفلة وأسباب توجب قوة الشهوة فيكون الندم موجودا ولكن لا يكون ملما بتحريك العزم ولا قويا عليه ، فإن سلم عن شهوة أقوى منه بأن لم يعارضه إلا ما هو أضعف فخر الخوف الشهوة وغلبها وأوجب ذلك ترك المعصية وقد تشدد ضراوة الفاسق بالخمر فلا يقدر على الصبر عنه وتكون له ضراوة ما بالغيبية وثلب الناس والنظر إلى غير الحرم وخوفه من الله قد بلغ مبلغا يقطع هذه الشهوة الضعيفة دون القوية فيوجب عليه جند الخوف انبعاث العزم للترك بل يقول هذا الفاسق في نفسه : إن قهرني الشيطان بواسطة غلبة الشهوة في بعض المعاصي فلا ينبغي أن أخلع العذار وأرخص العنان بالكلية بل أجاهده في بعض المعاصي فماتني أغلبه فيكون قهرى له في البعض كفارة لبعض ذنوبى ، ولو لم يتصور هذا لما تصور من الفاسق أن يصلى ويصوم ولقيل له إن كانت صلاتك تغير الله فلا تصح وإن كانت لله فترك الفسق لله فإن أمر الله فيه واحد فلا يتصور أن تقصد بصلاتك التقرب إلى الله تعالى ما لم تقرب بترك الفسق وهذا محال بأن يقول الله تعالى على أمران ولى على المخالفة فيهما عقوبتان وأنا ملئ في أحدهما بقهر الشيطان عاجز عنه في الآخر فأنا أفهزه فيما أقدر عليه ، وأرجو بمجاهدتي فيه أن بكفر عنى بعض ما عجزت عنه بفرط شهوتى فكيف لا يتصور هذا وهو حال كل مسلم . إذ لا مسلم إلا وهو جامع بين طاعة الله ومعصيته ولا سبب له إلا هذا وإذا فهم هذا فهم أن غلبة الخوف للشهوة في بعض الذنوب ممكن وجودها ، والخوف إذا كان من فعل ماض أورث الندم والندم يورث العزم وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « الندم توبة » ولم يشترط الندم على كل ذنب وقال « التائب من الذنب كمن لا ذنب له » ولم يقل التائب من الذنوب كلها وبهذه المعاني تين سقوط قول القائل إن التوبة عن بعض الذنوب غير ممكنة لأنها متائلة في حق الشهوة وفي حق التعرض إلى سخط الله تعالى ، نعم يجوز أن يتوب عن شرب الخمر دون التوبة لثبوتها في اقتضاء السخط ويتوب عن الكثير دون القليل لأن لكثرة الذنوب تأثيرا في كثرة العقوبة فيساعد الشهوة بالقدر الذى يعجز عنه ويترك بعض شهوته لله تعالى كالمريض الذى حذره الطبيب الفاكهة فإنه قد يتناول قليلها ولكن لا يستكثر منها فقد حصل من هذا أنه لا يمكن أن يتوب عن شيء ولا يتوب عن مثله بل لا بد وأن يكون ماتاب عنه مخالفا لما بقى عليه إما في شدة المعصية وإما في غلبة الشهوة وإذا حصل هذا التفاوت في اعتقاد التائب تصور اختلاف حاله في الخوف والندم فيتصور اختلاف حاله في الترك فندمه على ذلك الذنب ووقاؤه بعزمه على الترك يلحقه بمن لم يذنب وإن لم يكن قد أطاع الله في جميع الأمور والنواهي . فإن قلت هل تصح توبة العن من الزنا الذى قارقه قبل طريان العنة . فأقول لا ، لأن التوبة عبارة عن ندم يبعث العزم على الترك فما يقدر على فعله وما لا يقدر على فعله فقد انعدم بنفسه لا بتركه إياه . ولكنى أقول لو طرأ عليه بعد العنة كشف ومعرفة تحقق به ضرر الزنا الذى قارقه وثار منه احتراق وتحسر وندم بحيث لو كانت شهوة الواقع به باقية

فهو القليلة ويتأخر بالخطوات كذلك ولا يستدبر القيلة في إدامة استقبال القيلة وترك الكلام والنوم ودوام الذكر في هذا الوقت أثر كبير وبركة غير قليلة . وجدنا ذلك بحمد الله ونوصى به الطالبين ، وأثر ذلك في حق من يجمع في الأذكار بين القلب واللسان أكثر وأظهر وهذا الوقت أول النهار والنهار مظنة الآفات فإذا أحكم أوله بهذه الرعاية فقد حكم ببقائه وتبقي أوقات النهار جميعا على هذا البناء فلذا قارب طلوع الشمس يستدئى بهراءة المسحات العشر

لكانت حرقه الندم تجمع تلك الشهوة وتغلبها فاني أرجو أن يكون ذلك مكفرا لذنبه وماجبا عنه سيئته إذ لاخلاف في أنه لو تاب قبل طريان العنة ومات عقيب التوبة كان من التائبين وإن لم يطرأ عليه حالة تهيج فيها الشهوة وتيسر أسباب قضاء الشهوة ولكنه تائب باعتبار أن ندمه بلغ مبلغا أوجب صرف قصده عن الزنا لو ظهر قصده فاذن لا يستجبل أن تبلغ قوة الندم في حق العنين هذا البالغ إلا أنه لا يعرفه من نفسه فان كل من لا يشتهي شيئا يقدر نفسه قادرا على تركه بأدنى خوف والله تعالى مطلع على ضميره وعلى مقدار ندمه فساد يقبله منه بل الظاهر أنه يقبله والحقيقة في هذا كله ترجع إلى أن ظلمة اللصبة تتمحى عن القلب بشيئين : أحدهما حرقه الندم ، والآخر شدة المجاهدة بالترك في المستقبل وقد امتنت المجاهدة بزوال الشهوة ولكن ليس محالاً أن يقوى الندم بحيث يقوى على محوها دون المجاهدة ولولا هذا قلنا إن التوبة لا تقبل مالم يمضِ التائب بعد التوبة مدة يجاهد نفسه في عين تلك الشهوة مرات كثيرة وذلك مما لا يدل ظاهر الشرع على اشتراطه أصلاً. فان قلت إذا فرضنا تائبين أحدهما سكنت نفسه عن النزوع إلى الذنب والآخر بقي في نفسه نزوع إليه وهو يجاهدها ويمنعها فأيهما أفضل ؟ . فأعلم أن هذا مما اختلف العلماء فيه ، قال أحمد بن أبي الخوارى وأصحاب أبي سليمان الداراني إن المجاهد أفضل لأن له مع التوبة فضل الجهاد. وقال علماء البصرة ذلك الآخر أفضل لأنه لو قر في توبته كان أقرب إلى السلامة من المجاهد الذي هو في عرصة الفتور عن المجاهدة وما قاله كل واحد من الفريقين لا يخلو عن حق وعن قصور عن كمال الحقيقة والحق فيه أن الذي انقطع نزوع نفسه له حالتان : إحداهما أن يكون انقطاع نزوعه إليها بفتور في نفس الشهوة فقط فالمجاهد أفضل من هذا إذ تركه بالمجاهدة قد دل على قوة نفسه واستيلاء دينه على شهوته فهو دليل قاطع على قوة اليقين وعلى قوة الدين ، وأعلى بقوة الدين قوة الإرادة التي تنبثق بإشارة اليقين وتقمع الشهوة النبعثة بإشارة الشياطين فهاتان قوتان تدل المجاهدة عليهما قطعاً وقول القائل إن هذا أسلم إذ لو قر لا يعود إلى الذنب فهذا صحيح ولكن استعمال لفظ الأفضل فيه خطأ وهو كتقول القائل العنين أفضل من الفحل لأنه في أمن من خطر الشهوة والصبي أفضل من البالغ لأنه أسلم والفلس أفضل من الملك القاهر القامع لأعدائه لأن الفلّس لا عدو له والملك ربما يغلب مرة وإن غالب مرات وهذا كلام رجل سليم القلب قاصر النظر على الظواهر غير عالم بأن العز في الأخطار وأن العلو شرطه اقتحام الأغرار بل كقول القائل الصياد الذي ليس له فرس ولا كلب أفضل في صناعة الاصطياد وأعلى رتبة من صاحب الكلب والفرس لأنه آمن من أن يجمح به فرسه فتتكسر أعضاؤه عند السقوط على الأرض وآمن من أن يعضه الكلب ويعتدى عليه وهذا خطأ بل صاحب الفرس والكلب إذا كان قويا عالماً بطريق تأديبهما أعلى رتبة وأحرى بدرك سعادة الصيد . الحالة الثانية : أن يكون بطلان النزوع بسبب قوة اليقين وصدق المجاهدة السابقة إذ بلغ مبلغاً قمع هيجان الشهوة حتى تأدبت بأدب الشرع فلا تهيج إلا بالإشارة من الدين وقد سكنت بسبب استيلاء الدين عليها فهذا أعلى رتبة من المجاهد القامع لهيجان الشهوة وقمعها ، وقول القائل ليس لذلك فضل الجهاد قصور عن الاحاطة بمقصود الجهاد فان الجهاد ليس مقصوداً لعينه بل للمقصود قطع ضراوة العدو حتى لا يستجرك إلى شهواته وإن عجز عن استجراك فلا يصدك عن سلوك طريق الدين فاذا قهرته وحصلت المقصود فقد ظفرت ومادمت في المجاهدة فأنت بعد في طلب الظفر ومثاله كمثل من قهر العدو واسترقه بالاضافة إلى من هو مشغول بالجهاد في صف القتال ولا يدري كيف يسلم ومثاله أيضاً مثال من علم كلب الصيد وراض الفرس فهما نائمسان عنده بعد ترك الكلب الضراوة والفرس الجماح بالاضافة إلى من هو مشغول بمسألة التأديب بعد ولقد ذل

وهي من تطهير الخضر  
عليه السلام عليها  
ابراهيم التيمي وذكر  
أنه تعلمها من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم ،  
وينال بالمداومة عليها  
جميع التفرق في  
الأذكار والدعوات ،  
وهي عشرة أشياء  
سبعة سبعة القامحة  
والعودتان وقل هو  
الله أحد وقل يا أيها  
الكافرون وآية  
الكرسى وسبحان الله  
والحمد لله ولا إله إلا الله  
واقه أكبر والصلاة  
على النبي وآله وسخفر  
لنفسه ولوالديه  
والمؤمنين والمؤمنات  
ويقول سبحا اللهم افعل  
بي وبهم عاجلاً وآجلاً  
في الدين والدنيا والآخرة

في هذا فريق فظنوا أن الجهاد هو المقصود الأقصى ولم يطلوا أن ذلك طلب للخلاص من عوائق الطريق وظن آخرون أن قمع الشهوات وإمالتها بالسكينة مقصود حتى جرب بعضهم نفسه فجزعته فقال هذا محال فكذب بالشرع وسلك سبيل الإباحة واستمر في اتباع الشهوات وكل ذلك جهل وضلال وقد قررنا ذلك في كتاب رياضة النفس من ربيع للهلكات . فان قلت لما قولك في تأييد أحد هاتين الذنوب ولم يشتغل بالتفكير فيه والآخر جملة نصب عينه ولا يزال يتفكر فيه ويمحرق ندماعليه فأيهما أفضل . فاعلم أن هذا أيضا قد اختلفوا فيه فقال بعضهم حقيقة التوبة أن تصب ذنبك بين عينيك . وقال آخر حقيقة التوبة أن تنسى ذنبك وكل واحد من اللذيين عندنا حق ولكن بالإضافة إلى الحالين وكلام المتصوفة أبدا يكون قاصرا فان عادة كل واحد منهم أن يغرب عن حال نفسه فقط ولا يهمل حال غيره فتختلف الأجوبة لاختلاف الأحوال وهذا تخاصم بالإضافة إلى الهمة والارادة والجد حيث يكون صاحبه بمصور النظر على حال نفسه لايهمه أمر غيره إذ طريقه إلى الله نفسه ومنازل أحواله وقد يكون طريق المبدى إلى الله العلم فالطريق إلى الله تعالى كثيرة وإن كانت مختلفة في القرب والبعد والله أعلم بمن هو أهدى سبيلا مع الاشتراك في أصل الهداية . فأقول تصور الذنب وذكره والتفجع عليه كمال في حق المبتدئ لأنه إذا نسيه لم يكثر احتراقه فلا تقوى إرادته وانبعثاته لسلك الطريق ولأن ذلك يستخرج منه الحزن والخوف الوازع عن الرجوع إلى مثله فهو بالإضافة إلى العاقل كمال ولكنه بالإضافة إلى سالك الطريق نقصان فانه شغل مانع عن سلوك الطريق بل سالك الطريق ينبغي أن لا يخرج على غير السلك فان ظهر له مبادئ الوصول وانكشف له أنوار المعرفة ولوامع النيب استغرقه ذلك ولم يبق فيه متسع للالتفات إلى ماسبق من أحواله وهو الكمال بل لو عاق السافر عن الطريق إلى بلد من البلاد نهض حاجز طال تعب السافر في عبوره مدة من حيث إنه كان قد خرب جسده من قبل فلو جلس على شاطئ النهر بعد عبوره يبكي متأسفا على تخريبه الجسر كان هذا مانعا آخر اشتغل به بعد الفراغ من ذلك للمانع ، نعم إن لم يكن الوقت وقت الرحيل بأن كان ليلا فتعذر السلك أو كان على طريقة أتهار وهو يخاف على نفسه أن يمر بها فليطلل بالليل بكاؤه وحزنه على تخريب الجسر ليتأكد بطلان الحزن عزمه على أن لا يعود إلى مثله فان حصل له من التنبيه ما وثق بنفسه أنه لا يعود إلى مثله فسلك الطريق أولى بمن الاشتغال بذكر تخريب الجسر والبكاء عليه وهذا لا يعرفه إلا من عرف الطريق والقصد والعاقل وطريق السلك وقد أشرنا إلى تلويحات منه في كتاب العلم وفي ربيع للهلكات بل تقول شروط دوام التوبة أن يكون كثير الفكر في النعيم في الآخرة ليزيد رغبته ولكن إن كان شافلا ينبغي أن يبطل فكره في كل ماله نظير في الدنيا كالحور والقصور فان ذلك الفكر بما يحرك رغبته في طلب العاجلة ولا يرضى بالآخرة بل ينبغي أن يتفكر في لذة النظر إلى وجه الله تعالى فقط فذلك لا نظير له في الدنيا فكذلك تذكر الذنب قد يكون محركا للشهوة فالمبتدئ أيضا قد يستغربه فيكون النسيان أفضل له عند ذلك ولا يصدقك عن التصديق بهذا التحقيق ما يحكي لك من بكاء داود ونياحته عليه السلام فان قياسك نفسك على الأنبياء قياس في غاية الاعوجاج لأنهم قد ينزلون في أقوالهم وأفعالهم إلى الدرجات اللاتمة بأنهم فاتهم ما بحثوا إلا لأرشادهم فطهيم التلبس بما تنفع أهمهم بمشاهدته وإن كان ذلك نازلا عن ذروة مقامهم فلقد كان في الشيوخ من لا يشير على مريده بنوع رياضة إلا ويخوض معه فيها وقد كان مستغنيا عنها لفراغه عن المجاهدة وتأديب النفس تسهلا للأمر على المريد ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشترع <sup>(١)</sup> » وفي لفظ « إنما أسهو لأسن » .

(١) حديث « أما إني لا أنسى ولكن أنسى لأشترع ذكره مالك بلاغا بغير إسناد وقال ابن عبد البر

ما أنت له أهل ولا  
تعمل ربنا يا مولانا  
ما نحن له أهل إنك  
غفور حلیم جواد كريم  
رءوف رحيم . وروى  
أن ابراهيم التيمي لما  
قرأه بعد أن تلمها  
من الحضر رأى في المنام  
أنه دخل الجنة ورأى  
لللائكة والأنبياء  
عليهم السلام وأكل  
من طعام الجنة وقيل  
إنه مكث أربعة أشهر  
لم يطعم وقيل لعله كان  
ذلك لكونه أكل من  
طعام الجنة فاذا فرغ  
من السموات أقبل  
على التسييح  
والاستغفار والتلاوة  
الى أن تطلع  
الشمس قدر رمح .

ولا تعجب من هذا فإن الأمم في كنف شفقة الأنبياء كالصبيان في كنف شفقة الآباء وكالمواشي في كنف الرعاة أما ترى الأب إذا أراد أن يستطلق ولده الصبي كيف يزل إلى درجة نطق الصبي كما قال صلى الله عليه وسلم للحسن « كخ كخ »<sup>(١)</sup> لما أخذ تمر من تمر الصدقة ووضعها في فيه وما كانت فصاحته تقصر عن أن يقول ارم هذه التمرة فانها حرام ولكنه لما علم أنه لا يفهم منطقه ترك الفصاحة ونزل إلى لسكنته بل الذي يطم شاة أو طائرا يصوت به رغاء أو صفيرا تشبها بالبيضة والطائر تطلقا في تعليمه فأياك أن تغفل عن أمثال هذه الدقائق فانها مزية أقدام العارفين فضلا عن الغافلين ، نسأل الله حسن التوفيق بطلعه وكرمه .

### ( بيان أقسام العباد في دوام التوبة )

اعلم أن التائبين في التوبة على أربع طبقات . الطبقة الأولى : أن يتوب العاصي ويستقيم على التوبة إلى آخر عمره فيستدرك ما فرط من أمره ولا يحدث نفسه بالعود إلى ذنوبه إلا الزلات التي لا ينفك البشر عنها في العادات مهما لم يكن في رتبة النبوة فهذا هو الاستقامة على التوبة وصاحبها هو السابق بالخيرات للمستبدل بالسيئات حسنات واسم هذه التوبة التوبة النصوح واسم هذه النفس الساكنة النفس اللطيفة التي ترجع إلى ربها راضية مرضية وهؤلاء هم الذين إليهم الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « سبق المفردون للسهرة بذكر الله تعالى وضع الله كرههم أو زارهم فوردوا القيامة خفافا »<sup>(٢)</sup> فان فيه إشارة إلى أنهم كانوا تحت أوزار وضعها الله كرههم وأهل هذه الطبقة على رتب من حيث النزول إلى الشهوات فمن تائب سكنت شهواته تحت قهر المعرفة ففقر زاعها ولم يشغل عن السلوك صرعها وإلى من لا ينفك عن منازعة النفس ولكنه لم يجاهدتها وردها ثم تفاوتت درجات النزاع أيضا بالكثرة والقلة وباختلاف اللذة وباختلاف الأنواع وكذلك يختلفون من حيث طول العمر فمن مختطف يموت قريبا من توبته يخط على ذلك لسلامته وموته قبل الفترة ومن يميل طال جهاده وصبره وتمادت استقامته وكثرت حسناته وحال هذا أعلا وأفضل إذ كل سيئة فاعسا تجوحها حسنة حتى قال بعض العلماء إنما يكفر الذنب الذي ارتكبه العاصي أن يتمكن منه عشر مرات مع صدق الشهوة ثم يصبر عنه ويكسر شهوته خوفا من الله تعالى واشتراط هذا بعيد وإن كان لا يشكر عظم أثره لو فرض ولكن لا ينبغي للمريد الضعيف أن يسلك هذا الطريق فتهيج الشهوة وتخضر الأسباب حتى يتمكن ثم يطمع في الانكشاف فانه لا يؤمن خروج عنان الشهوة عن اختياره فيقدم على العمية وينقض توبته بل طريقها الفرار من ابتداء أسبابه الميسرة له حتى يسد طرقها على نفسه ويسمى مع ذلك في كسر شهوته بما يقدر عليه فيه تسلم توبته في الابتداء . الطبقة الثانية : تائب سلك طريق الاستقامة في أمهات الطاعات وترك كبائر الفواحش كلها إلا أنه ليس ينفك عن ذنوب تعثره لاعتى عمد وتجريد قصد ولكن يبتلى بها في مجاري أحواله من غيره أن يقدم عزمه على الاقدام عليها ولكنه كلما أقدم عليها لام نفسه وندم وتأسف وجدد عزمه على أن يتشمر للاحتراز من

لا يوجد في اللوط إلا مرسل لا إسناد له وكذا قال حمزة الكناني إنه لم يرد من غير طريق مالك وقال أبو طاهر الأنصاري وقد طال بحثي عنه وسؤالي عنه للائمة والحفاظ فلم أظفر به ولا سمعت عن أحد أنه ظفر به قال وادعى بعض طلبة الحديث أنه وقع له مسندا (١) حديث أنه قال للحسن كخ كخ لما أخذ تمر من الصدقة ووضعها في فيه البخاري من حديث أبي هريرة وتقدم في كتاب الحلال والحرام (٢) حديث سبق للمفردون للسهرة بذكر الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وحسنه وقد تقدم .

روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « لأن أقصد في مجلس أذكر الله فيه من صلاة التداوي إلى طلوع الشمس أحب إلى من أن أعتق أربع رقاب » ثم صلى ركعتين قبل أن يصرف من مجلسه فقد نقل عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يصلي الركعتين وبهاتين الركعتين تبين فائدة رعاية هذا الوقت وإذا صلى الركعتين يجمع هم وحضور فهم وحسن تدبر لما يقرأ بعد في باطنه أو نورا وروحا وأنسا إذا كان صادقا والذي يحمد

أسبابها التي تعرض لها وهذه النفس جذيرة بأن تكون هي النفس اللوامة إذ تلوم صاحبها على ما تستهدف له من الأحوال الذميمة لاعتن تصميم عزم وتحمين رأى وقصد وهذه أيضا رتبة عالية وإن كانت نازلة عن الطبقة الأولى وهي أغلب أحوال التائبين لأن الشر معجون بطينة الآدمي قلما ينفك عنه وإنما غاية صعبه أن يطلب خيره شره حتى يشغل ميزانه فترجح كفة الحسنات فأما أن تخلو بالكلية كفة السيئات فذلك في غاية البعد وهؤلاء لهم حسن الوعد من الله تعالى إذ قال تعالى - الذين يجتنبون كبائر الإثم والفواحش إلا اللمم إن ربك واسع الغفرة - فكل للمام يقع بصغيرة لاعتن توطئ نفسه عليه فهو جدير بأن يكون من اللمم المفعو عنه قال تعالى - والذين إذا فعلوا فاحشة أو ظلموا أنفسهم ذكروا الله فاستغفروا لذنوبهم - فأتى عليهم مع ظلمهم لآفة - هم لتندمهم ولومهم أنفسهم عليه وإلى مثل هذه الرتبة الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم فيها رواه عنه على كرم الله وجهه « خياركم كل مفتن تواب (١) » وفي خبر آخر « المؤمن كالسنبلة ينفي أحيانا ويميل أحيانا (٢) » وفي الخبر « لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة (٣) » أي الحين بعد الحين فكل ذلك أدلة قاطعة على أن هذا القدر لا ينقض التوبة ولا يلحق صاحبها بدرجة المصيرين ومن يؤيس مثل هذا عن درجة التائبين كالطبيب الذي يؤيس الصحيح عن دوام الصحة بما يتناوله من الفواكه والأطعمة الحارة مرة بعد أخرى من غير مداومة واستمرار وكالضيق الذي يؤيس للفقير عن نيل درجة الفقهاء بفتوره عن التكرار والتعليق في أوقات نادرة غير متطاولة ولا كثيرة وذلك يدل على نقصان الطبيب والفقير بل الفقيه في الدين هو الذي لا يؤيس الخلق عن درجات السعادات بما يتفق لهم من الفترات ومقارفة السيئات المختطفات قال النبي ﷺ « كل بني آدم خطاءون وخير الخطائين التوابون المستغفرون (٤) » وقال أيضا « المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقبته (٥) » أي واه بالذنوب راقع بالتوبة والندم وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا ويدرءون بالحسنة السيئة - فما وصفهم بعدم السيئة أصلا. الطبقة الثالثة : أن يتوب ويستمر على الاستقامة مدة ثم تغلب الشهوات في بعض الذنوب فيقدم عليها عن صدق وقصد شهوة لمجزء عن قهر الشهوة إلا أنه مع ذلك مواظب على الطاعات وتارك لجملة من الذنوب مع القدرة والشهوة وإنما قهرته هذه الشهوة الواحدة أو الشهوات وهو يود لو أقدره الله تعالى على قمعها وكفها شرها هذا أمنيته في حال قضاء الشهوة وعند الفراغ يتندم ويقول ليتني لم أفعلها وسأتوب عنه وأجاهد نفسي في قهرها لكنه تسول نفسه ويسوف توبته مرة بعد أخرى ويوما بعد يوم فهذه النفس هي التي تسمى النفس السوءة وصاحبها من الذين قال الله تعالى فيهم - وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا - فأمره من حيث مواظبته على الطاعات وكرهاته لما عاظمه مرجو (١) حديث على خياركم كل مفتن تواب البيهقي في الشعب بسند ضعيف (٢) حديث للمؤمن كالسنبلة تنفي أحيانا ويميل أحيانا أبو يعلى وابن حبان في الضعفاء من حديث أنس والطبراني من حديث عمار بن ياسر والبيهقي في الشعب من حديث الحسن مرسلًا وكلها ضعيفة وقالوا تقوم بدل تنفي وفي الأمثال للراهمرمزي إسناده جيد لحديث أنس (٣) حديث لا بد للمؤمن من ذنب يأتيه الفينة بعد الفينة الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بأسانيد حسنة (٤) حديث كل ابن آدم خطاء وخير الخطائين المستغفرون الترمذي واستغفبه والحاكم وصححه إسناده من حديث أنس وقال التوابون بدل للمستغفرون . قلت فيسه على بن مسعدة ضعفه البخاري (٥) حديث المؤمن واه راقع غيرهم من مات على رقبته الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث جابر بسند ضعيف وقالوا فسيء بدل غيرهم .

من البركة ثواب  
معجل له على عمله هذا  
وأحب أن يقرأ في  
هاتين الركعتين في  
الأولى آية الكرسي  
وفي الأخرى آمين  
الرسول والله نور  
السماوات والأرض  
إلى آخر الآية وتكون  
نية فيها الشكر لله  
على نعمه في يومه  
وليلته ثم يركعتين  
آخرتين يقرأ المعوذتين  
فيهما في كل ركعة  
سورة وتكون صلاته  
هذه ليستبد بالله  
تعالى من شر يومه  
وليلته ويذكر بعد  
هاتين الركعتين كلمات  
الاستعاذة فيقول أعوذ  
بالحكم وكلتك التامة  
من شر السامة والحامة



فسمى الله أن يحب عليه وعاقبته عظمة من حيث تسوية وتأخير فرعا يغتطف قبل التوبة ويقع أمره في الشبهة فان تدارك الله فضله وجبر كرمه وامتن عليه بالتوبة التحق بالسابقين وإن غلبته شقوته وقهرته شهوته فيخشى أن يحق عليه في الحاتمة ماسبق عليه من القول في الأزل لأنه مهما تمذر على التفقه مثلا الاحتراز عن شواغل التعلم دل تعذره على أنه سبق له في الأزل أن يكون من الجاهلين فيضرب الرجاء في حقه وإذا يبرت له أسباب المواظبة على التحصيل دل على أنه سبق له في الأزل أن يكون من جملة المالمين فكذلك ارتباط سعادات الآخرة ودرجاتها بالحسنات والسيئات بحكم تقدير مسبب الأسباب كارتباط المرض والصحة بقتايل الأغذية والأدوية وارتباط حصول قه النفس القدي به تستحق المناصب العلية في الدنيا بترك الكسل والمواظبة على تفقيه النفس فكما لا يصلح لمنصب الرياسة والقضاء والتقدم بالعلم إلا النفس صارت قهية بطول التفقيه فلا يصلح لملك الآخرة ونعيمها ولا للقرب من رب العالمين إلا القلب سليم صار طاهرا بطول التزكية والتطهير هكذا سبق في الأزل بتدبير رب الأرباب ولذلك قال تعالى - وتقس وما سواها فألهمها فجورها وتقواها قد أفلح من زكاها وقد خاب من دساها - فمهما وقع العبد في ذنب فصار الذنب قدما والتوبة نسيئة كان هذا من علامات الخذلان قال صلى الله عليه وسلم «إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة حتى يقول الناس إنه من أهلها ولا يلقى بيته وبين الجنة إلا شرب فيسبق عليه الكتاب فيعمل بعمل أهل النار فيدخلها» (١) فاذن الخوف من الحاتمة قبل التوبة وكل نفس فهو خاتمة مقبلة إذ يمكن أن يكون الموت متصلا به فليراقب الأغصان والإوقع في المندور ودامت الحشرات حين لا ينفع التحسر . الطبقة الرابعة : أن يتوب ويمر بمرحلة على الاستقامة ثم يعود إلى مقارفة الذنب أو الذنوب من غير أن يحدث نفسه بالتوبة ومن غير أن يتأسف على فعله بل ينعمك انهماك الغافل في اتباع شهواته فهذا من جملة الصيرين وهذه النفس هي النفس الأمارة بالسوء الفرارة من الخير ويخاف على هذا سوء الحاتمة وأمره في مشيئة الله فان ختم له بالسوء شقي شقاوة لا آخر لها وإن ختم له بالحسن حتى مات على التوحيد فينتظر له الخلاص من النار ولو بعد حين ولا يستحيل أن يشملهم عموم العفو بسبب خفي لا نطلع عليه كالأستحيل أن يدخل الإنسان خرابا ليجد كنزا فيفتق أن يجدد وأن يجلس في البيت ليحمله الله عالما بالعلوم من غير تعلم كما كان الأنبياء صلوات الله عليهم فطلب المغفرة بالطاعات كطلب العلم بالجهد والتكرار وطلب المال بالتجارة وركوب البحار وطلبها بمجرد الرجاء مع خراب الأعمال كطلب الكنوز في المواضع الخربة وطلب العلوم من تعليم الملائكة وليت من اجتهد تعلم وليت من أجز استغنى وليت من صام وصلى غفر له فالتناس كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والعالمون كلهم محرومون إلا العالمون والمخلصون على خطر عظيم وكما أن من خرب بيته وضيع ماله وترك نفسه وعياله جياعا زعم أنه ينتظر فضل الله بأن يزرقه كنزا يجده تحت الأرض في بيته الحرب بعد عند ذوى البصائر من الحق والفرورين وإن كان ما ينتظره غير مستحيل في قدرة الله تعالى وفضله فكذلك من ينتظر المغفرة من فضل الله تعالى وهو مقصر عن الطاعة هـ على الذنوب غير ماله سبيل المغفرة بعد عند أرباب القلوب من المتوهين والعجب من عقل هذا اللغو وترويعه حماقته في صيغة حسنة إذ يقول إن الله كريم وجنته ليست

(١) حديث إن العبد ليعمل بعمل أهل الجنة سبعين سنة الحديث متفق عليه من حديث سهل بن سعد قوله سبعين سنة ولمسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمن الطويل بعمل أهل الجنة الحديث ولأحمد من رواية شهر بن حوشب عن أبي هريرة إن الرجل ليعمل بعمل أهل الخير سبعين سنة وشهر مختلف فيه

وأعوذ بأصمك وكلتك  
التامة من شر عذابك  
وشر عبادك وأعوذ  
بأصمك وكلتك التامة  
من شر ما يجري به الليل  
والنهار إن رب الله لا إله  
إلا هو عليه توكلت  
وهو رب العرش العظيم  
ويقول بعد الر كنتين  
الأولين اللهم إني  
أصبحت لا أستطيع  
دفع ما أكره ولا أملك  
نفع ما أرجو وأصبحت  
مرتها بصلى وأصبح  
أمرى بيد غيري فلا  
قصر أقرمني اللهم  
لا تشمت بي عدوى  
ولا تشؤ بي صديق  
ولا تجعل مصيقي في  
دينى ولا تجعل الدنيا  
أكبر همى ولا مبلغ  
على ولا تسلط على من

تضيق على مثلي ومعصيتي ليست تضربه ثم تراه يركب البحار ويفتحهم الأوعار في طلب الدينار وإذا قيل له إن الله كريم ودنانير خزائنه ليست تنقص عن قهرك وكسلك بترك التجارة ليس يضرك فاجلس في بيتك فمساء يرزقك من حيث لا تعتسب فيستحق قائل هذا الكلام ويستهيء به ويقول ما هذا المحوس السماء لا تمطر ذهباً ولا فضة وإنما ينال ذلك بالكسب هكذا قدره مسبب الأسباب وأجرى به سنته ولا تبديل لسنة الله ولا يطمئنون أن رب الآخرة ورب الدنيا واحد وأن سنته لا تبديل لها فيها جميعاً وأنه قد أخبر إذ قال - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فكيف يستقد أنه كريم في الآخرة وليس بكريم في الدنيا وكيف يقول ليس مقتضى الكرم المنور عن كسب المال ومقتضاه المنور عن العمل للملك للقيم والنعم الدائم وأن ذلك بحكم الكرم يعطيه من جهد في الآخرة وهذا يمنه مع شدة الاجتهاد في غالب الأمر في الدنيا ونفس قوله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - فعوذ باليمن العمي والضلال فما هذا إلا انتكاس على أم الرأس وانغماس في ظلمات الجهل وصاحب هذا جدير بأن يكون داخلًا تحت قوله تعالى - ولوترى إذ المجرمون ناكسوا رؤسهم عند ربهم ربنا أبصرنا وسمعنا فأفرجنا فعملنا صالحاً - أي أبصرنا أنك صدقت إذ قلت - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى - فأفرجنا نسعى وعند ذلك لا يمكن من الانقلاب ويحق عليه العذاب فعوذ بالله من دواعي الجهل والشك والارتياب السائق بالضرورة إلى سوء القلب والمآل.

(يان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب إن جرى عليه ذنب إما

عن قصد وشهوة غالبية أو عن إمام بحكم الانفاق)

اعلم أن الواجب عليه التوبة والندم والاشتغال بالتكفير بحسنة تضاده كما ذكرنا طريقه فإن لم تساعده النفس على العزم على الترك لعلبة الشهوة فقد هيجز عن أحد الواجبين فلا ينبغي أن يترك الواجب الثاني وهو أن يدرأ بالحسنة السيئة ليحوها فيكون ممن خلط عملاً صالحاً وآخر سيئاً فالحسنات المكفرة للسيئات إما بالقلب وإما باللسان وإما بالجوارح ولتكن الحسنة في محل السيئة وفيما يتعلق بأسبابها فأما بالقلب فيكفره بالتضرع إلى الله تعالى في سؤال المغفرة والعتو وتذلل تذلل العبد الآبق ويكون ذله بحيث يظهر لسائر العباد وذلك بنقصان كبره فيما بينهم فما للعبد الآبق للذنوب وجه للتكبر على سائر العباد وكذلك يضم بقلبه الخيرات للمسلمين والعزم على الطاعات . وأما باللسان فبالاعتراف بالظلم والاستغفار فيقول رب ظلمت نفسي وعملت سوءاً فاغفر لي ذنوبي وكذلك يكثر من ضروب الاستغفار كما أوردناه في كتاب الدعوات والأذكار . وأما بالجوارح فبالطاعات والصدقات وأنواع العبادات وفي الآثار ما يدل على أن الذنب إذا أتبع بشمانية أعمال كان الضوء عنه مرجوا أربعة من أعمال القلوب وهي التوبة أو العزم على التوبة وحب الانفلاع عن الذنب وتخوف العقاب عليه ورجاء المغفرة له وأربعة من أعمال الجوارح وهي أن تصلي عقيب الذنب ركعتين ثم تستغفر الله تعالى بعدها سبعين مرة وتقول سبحان الله العظيم ومحمد مائة مرة ثم تصدق بصدقة ثم تصوم يوماً وفي بعض الآثار تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين<sup>(١)</sup> وفي بعض الأخبار تصلي أربع ركعات<sup>(٢)</sup>

(١) أثر إن من مكفرات الذنب أن تسبغ الوضوء وتدخل المسجد وتصل ركعتين أصحاب السنن من حديث أبي بكر الصديق رضي الله عنه ما من عبد يذنب ذنباً فيحسن الطهور ثم يقوم فيصلّي ثم يستغفر الله إلا غفر الله له لفظ أبي داود وهو في السكبري للنسائي مرفوعاً وموقوفاً فلعل المصنف عبر بالأثر لإرادة الوقوف فذكرته احتياطاً وإلا فالآثار ليست من شرط كتابي (٢) حديث التكفير بصلاة أربع ركعات ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس قال كان رجل

لا يرحم الله إني أعوذ بك من الذنوب التي تزيل النعم وأعوذ بك من الذنوب التي توجب النعم ثم يصلي ركعتين أخريين بنية الاستخارة لكل عمل عمله في يومه وليلته وهذه الاستخارة تكون بمعنى الدعاء على الإطلاق وإلا فالاستخارة التي وردت بها الأخبار هي التي يصلّيها أمام كل أمر يريد ويقرأ في هاتين الركعتين - قل يا أيها الكافرون - وقل هو الله أحد - ويقرأ دعاء الاستخارة كما سبق ذكره في غير هذا الباب ويقول فيه كل قول وعمل أريده

وفي الخبر « إذا عملت سيئة فأتبها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية (١) » ولذلك قيل صدقة السر تكفر ذنوب الليل وصدقة الجهر تكفر ذنوب النهار ، وفي الخبر الصحيح « أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس فاقض على بحكم الله تعالى فقال صلى الله عليه وسلم أو ماصليت معنا صلاة القداة قال بلى فقال صلى الله عليه وسلم إن الحسنات يذهبن السيئات (٢) » وهذا يدل على أن مادون الزنا من معالجة النساء صغيرة إذ جعل الصلاة كفارة له بمقتضى قوله صلى الله عليه وسلم « الصلوات الخمس كفارات لما بينهن إلا الكبائر » فعلى الأحوال كلها ينبغي أن يحاسب نفسه كل يوم ويجمع سيئاته ويجهد في دفعها بالحسنات. فان قلت فكيف يكون الاستغفار نافعا من غير حل عقدة الاصرار ، وفي الخبر « للاستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى. بآيات الله (٣) » وكان بعضهم يقول أستغفر الله من قولي أستغفر الله ، وقيل الاستغفار باللسان توبة الكذابين . وقالت رابعة العدوية : استغفارنا يحتاج إلى استغفار كثير . فاعلم أنه قد ورد في فضل الاستغفار أخبار خارجة عن الحصر ذكرناها في كتاب الأذكار والدعوات حتى قرن الله الاستغفار بقاء الرسول صلى الله عليه وسلم فقال تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم وما كان الله معذبهم وهم يستغفرون - فكان بعض الصحابة يقول كان لنا أمانان ذهب أحدهما وهو كون الرسول فينا وبقي الاستغفار معنا فإن ذهب هاسكنا (٤) . فنقول : الاستغفار الذي هو توبة الكذابين هو الاستغفار بمجرد اللسان من غير أن يكون للقلب فيه شركة كما يقول الانسان بحكم العادة وعن رأس التفتة أستغفر الله وكما يقول إذا سمع صفعة النار نعوذ بالله منها من غير أن يتأثر به قلبه ، وهذا يرجع إلى مجرد حركة اللسان ولا جدوى له فأما إذا انضاف إليه تضرع القلب إلى الله تعالى وابتهاله في سؤال الغفرة عن صدق إرادة وخلص نية ورغبة فهذه حسنة في نفسها تفضل لأن تدفع بها السيئة ، وعلى هذا تحمل الأخبار الواردة في فضل الاستغفار حتى قال صلى الله عليه وسلم « ما أصر من استغفر ولو عاد في اليوم سبعين مرة (٥) » وهو عبارة عن الاستغفار بالقلب وللتوبة

من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم يهوى امرأة الحديث وفيه فلما رآها جالس منها مجلس الرجل من امرأته وحرك ذكره فاذا هو مثل الهدية فقام نادما قائم النبي صلى الله عليه وسلم فذكر له ذلك فقال له النبي صلى الله عليه وسلم صل أربع ركعات فأنزل الله عز وجل وأقم الصلاة طرفة النهار - الآية وإسناده جيد (١) حديث إذا عملت سيئة فأتبها حسنة تكفرها السر بالسر والعلاية بالعلاية البيهقي في الشعب من حديث معاذ وفيه رجل لم يسم ورواه الطبراني من رواية عطاء بن يسار عن معاذ ولم يلقه بلفظ وما عملت من سوء فأحدث لله فيه توبة السر بالسر الحديث (٢) حديث إن رجلا قال يا رسول الله إني عالجت امرأة فأصبت منها كل شيء إلا السيس الحديث في نزول - إن الحسنات يذهبن السيئات - متفق عليه من حديث ابن مسعود دون قوله أو ماصليت معنا صلاة القداة ورواه مسلم من حديث أنس وفيه هل حضرت معنا الصلاة قال نعم ومن حديث أبي أمامة وفيه ثم شهدت الصلاة معنا قال نعم الحديث (٣) حديث المستغفر من الذنب وهو مصر عليه كالمستهزى. بآيات الله ابن أبي الدنيا في التوبة ومن طريقه البيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ كالمستهزى. بربه وسنده ضعيف (٤) حديثا بعض الصحابة في قوله تعالى - وما كان الله ليعذبهم وأنت فيهم - الآية كان لنا أمانان ذهب أحدهما أحمد من قول أبي موسى الأشعري ورفع الترمذي من حديثه أنزل الله على أمانين الحديث وضعفه ابن مردويه في تحصيله من قول ابن عباس (٥) حديث ما أصر من استغفر الحديث تقدم في الدعوات .

في هذا اليوم اجل فيه  
الحيرة . ثم يصلى  
ركعتين أخريين يقرأ  
في الأولى سورة الواقعة  
وفي الأخرى سورة  
الأعلى ويقول بعدها  
اللهم صل على محمد  
وعلى آل محمد واجعل  
حبك أحب الأشياء  
إلى وخشيتك أخوف  
الأشياء عندي واقطع  
عني حاجات الدنيا  
بالشوق إلى لقاءك وإذا  
أقربت أعين أهل  
الدنيا بدنياهم فأقرر  
عيني بعبادتك واجعل  
طاعتك في كل شيء  
منى يا أرحم الراحمين  
ثم يصلى بعد ذلك  
ركعتين يقرأ فيها  
شيئا من حزيه من  
القرآن ثم بعد ذلك

والاستغفار درجات وأوائلها لا تخلو عن الفائدة وإن لم تنته إلى أواخرها ، ولذلك قال سهل لا بد للعبد في كل حال من مولاة فأحسن أحواله أن يرجع إليه في كل شيء ، فإن عصى قال يارب استر علي فاذا فرغ من المعصية قال يارب تب علي فاذا تاب قال يارب ارزقني العصمة وإذا عمل قال يارب تقبل مني وسئل أيضا عن الاستغفار الذي يكفر الذنوب فقال أول الاستغفار الاستجابة ثم الانابة ثم التوبة فاستجابة أعمال الجوارح والانابة أعمال القلوب والتوبة إقباله على مولاة بأن يترك الخلق ثم يستغفر الله من تقصيره الذي هو فيه ومن الجهل بالنعمة وترك الشكر فند ذلك يغفر له ويكون عنده مأواه ثم التنقل إلى الاتقاراد ثم الثبات ثم البيان ثم الفكر ثم المعرفة ثم النجاة ثم المصافة ثم الموالاة ثم محادثة السرو هو الحلة ولا يستقر هذا في قلب عبد حتى يكون العلم غذاءه ، والذكر قوامه ، والرضا زاده والتوكل صاحبه ثم ينظر الله إليه فيرفعه إلى العرش فيكون مقامه مقام حملة العرش ، وسئل أيضا عن قوله صلى الله عليه وسلم « التائب حبيب الله » فقالوا ، إنما يكون حبيبا إذا كان فيه جميع ما ذكر في قوله تعالى - التائبون العابدون - الآية . وقال الحبيب هو الذي لا يدخل فيما يكرهه حبيبه ، والقصد أن للتوبة ثمرتين إحداها تكفير السيئات حتى يصير كمن لا ذنب له . والثانية نيل الدرجات حتى يصير حبيبا وللتكفير أيضا درجات فبعضه نحو لأصل الذنب بالكلية وبعضه تخفيف له ويتفاوت ذلك بتفاوت درجات التوبة فلا يستغفار بالقلب والتدارك بالحسنات وإن خلا عن حل عقدة الإصرار من أوائل الدرجات فليس يخلو عن الفائدة أصلا فلا ينبغي أن تظن أن وجودها كعدمها بل عرف أهل المشاهدة وأرباب القلوب معرفة لا ريب فيها أن قول الله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - صدق وأنه لا تخلو ذرة من الخير عن أثر كالأخلو شعيرة تطرح في الميزان عن أثر ولو خلت الشعيرة الأولى عن أثر لكانت الثانية مثلها ولكان لا يرجح للميزان بأعمال الذرات وذلك بالضرورة محال بل ميزان الحسنات يرجع بذرات الخير إلى أن يثقل فترفع كفة السيئات فيألك أن تستغفر ذرات الطاعات فلا تأتيتها وذرات المعاصي فلا تنفيتها كالمرأة الحرقاء تسكدل عن الغزل تعلا بأنها لا تقدر في كل ساعة إلا على خيط واحد وتقول أي غني يحصل بخيط وما وقع ذلك في الثياب ولا تدري المعصية أن ثياب الدنيا اجتمعت خيطا خيطا وأن أجسام العالم مع اتساع أقطاره اجتمعت ذرة ذرة فاذن التضرع والاستغفار بالقلب حسنة لا تضيع عند الله أصلا بل أقول الاستغفار باللسان أيضا حسنة إذ حركة اللسان بها عن غفلة خير من حركة اللسان في تلك الساعة بغية مسلم أو فضول كلام بل هو خير من السكوت عنه فيظهر فضله بالاضافة إلى السكوت عنه وإنما يكون قصافا بالاضافة إلى عمل القلب . ولذلك قال بعضهم لشيخه أبي عثمان المغربي : إن لسانى في بعض الأحوال يعجز بالذكر والقرآن وقلبي غافل . فقال اشكر الله إذ استعمل جارحة من جوارحك في الخير وعوده الذكر ولم يستعمله في الشر ولم يعود الفضول وما ذكره حق فان تعود الجوارح للخيرات حتى يصير لها ذلك كالطبع يدفع جملة من المعاصي فمن تعود لسانه الاستغفار إذا سمع من غيره كذبا سبق لسانه إلى ما تعود فقال أستغفر الله ومن تعود الفضول سبق لسانه إلى قول ما أحقق وما أقبح كذبك ومن تعود الاستعاذة إذا حدث بظهور مبادئ الشر من شرير قال بحكم سبق اللسان نعوذ بالله وإذا تعود الفضول قال لعنه الله فيعصى في إحدى الكلمتين وبسلم في الأخرى وسلامته أثر اعتياد لسانه الخير وهو من جملة معاني قوله تعالى - إن الله لا يضيع أجر المحسنين - ومعاني قوله تعالى - وإن تلك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما - فانظر كيف ضاعفها إذ جعل الاستغفار في الغفلة عادة اللسان حتى دفع تلك العادة شر العصيان بالغبية واللعن والفضول هذا تضيق في الدنيا لأدنى الطاعات وتضيق الآخرة كبر لو كانوا

إن كان متفرغا ليس له شغل في الدنيا يتنقل في أنواع العمل من الصلاة والتلاوة والذكر إلى وقت الضحى وإن كان ممن له في الدنيا شغل إما لنفسه أو لغيره فليحضر حاجته ومهامه بعد أن يصلى ركعتين لخروجه من المنزل وهكذا ينبغي أن يفعل أبدا لا يخرج من البيت إلى جهة إلا بعد أن يصلى ركعتين ليقية الله سواء المخرج ولا يدخل البيت إلا ويصلى ركعتين ليقية الله سواء المدخل بعد أن يسلم على من في المنزل من الزوجة وغيرها وإن لم يكن في البيت

يسلمون - فإياك وأن تلح في الطاعات مجرد الآفات فتفتقر برغبتك عن العبادات فإن هذه مكيدة ووجهها الشيطان بلمسته على الغرورين وخيل إليهم أنهم أرباب البصائر وأهل النطق بالخفايا والسرائر فأى خير في ذكرنا باللسان مع غفلة القلب فانقسم الخلق في هذه الكيدة إلى ثلاثة أقسام: ظالم لنفسه ومقتصد وسابق بالخيرات . أما السابق فقال صدقت ياملعون ولكن هي كلمة حق أردت بها باطلا فلا جرم أعذبك مرتين وأرغم أنفك من وجهين فأضيف إلى حركة اللسان حركة القلب فكان كالذى داوى جرح الشيطان بشر الملح عليه . وأما الظالم الغرور فاستشعر في نفسه خيلاء الفطنة لهذه الدققة ثم عجز عن الإخلاص بالقلب فترك مع ذلك تعويد اللسان بالذكر فأسهف الشيطان وتدلى بحبل غروره فتمت بينهما المشاركة والواقعة كما قيل : وافق من طبقه . واقفه فاعتنقه . وأما المقتصد فلم يقدر على إرغامه بإشراك القلب في العمل ونفطن لنقصان حركة اللسان بالإضافة إلى القلب ولكن اهتدى إلى كماله بالإضافة إلى السكوت والفضول فاستمر عليه وسأل الله تعالى أن يشرك القلب مع اللسان في اعتياد الخير فكان السابق كالحائك الذى ذمت حيا كته فتركها وأصبح كاتباً والظالم المتخلف كالذى ترك الحياكة أصلاً وأصبح كناساً والمقتصد كالذى عجز عن الكتابة فقال لا أنكر مقدمة الحياكة ولكن الحائك مذموم بالإضافة إلى الكاتب لا بالإضافة إلى الكناس فاذا عجزت عن الكتابة فلا ترك الحياكة ولذلك قالت رابعة العدوية استغفارتنا محتاج إلى استغفار كثير فلا تظن أنها تدم حركة اللسان من حيث إنه ذكر الله بل تدم غفلة القلب فهو محتاج إلى الاستغفار من غفلة قلبه لا من حركة لسانه فان سكنت عن الاستغفار باللسان أيضاً احتاج إلى استغفارين لا إلى استغفار واحد فهكذا ينبغي أن تفهم ذم ما يذم وحمد ما يحمد وإلا جهلت معنى ما قال القائل الصادق: حسنات الأبرار سيئات القريين. فان هذه أمور ثبتت بالإضافة فلا ينبغي أن تؤخذ من غير إضافة بل ينبغي أن لا تستحقر درات الطاعات والمعاصي ولذلك قال جعفر الصادق إن الله تعالى خبأ ثلاثاً في ثلاث رضاه في طاعته فلا تحقروا منها شيئاً فاعل رضاه فيه وغضبه في معاصيه فلا تحقروا منها شيئاً فاعل غضبه فيه وخبأ ولايته في عبادته فلا تحقروا منهم أحداً فاعله ولى الله تعالى وزاد وخبأ إجابته في دعائه فلا تركوا الدعاء فربما كانت الاجابة فيه .

#### (الركن الرابع في دواء التوبة وطريق العلاج لحل عقدة الإصرار)

اعلم أن الناس قسمان : شاب لاصبوة له نشأ على الخير واجتنب الشر وهو الذى قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم « تعجب ربك من شاب ليست له صبوة (١) » وهذا عزيز زنادر: والقسم الثانى هو الذى لا يخلو عن مقارفة الذنوب ثم هم ينقسمون إلى مصرين وإلى تائبين وغرضنا أن نبين العلاج في حل عقدة الإصرار ونذكر الدواء فيه . فاعلم أن شفاء التوبة لا يحصل إلا بالدواء ولا يقف على الدواء من لا يقف على الداء إذ لا معنى للدواء إلا منقضة أسباب الداء فكل داء حصل من سبب فدواءه حل ذلك السبب ورضه وإبطاله ولا يطل الشيء إلا بضده ولا سبب للإصرار إلا الغفلة والشهوة ولا يضاف الغفلة إلا العلم ولا يضاف الشهوة إلا الصبر على قطع الأسباب المحركة للشهوة والغفلة رأس الخطايا قال تعالى - وأولئك هم الصافلون لاجرم أنهم في الآخرة هم الخاسرون - فلادواء إذن للتوبة إلا المعجون بسجن من حلاوة العلم ومرارة الصبر وكما يجمع السكنجيين بين حلاوة السكر وحموضة الحل ويقصد بكل منهما غرض آخر في العلاج بمجموعهما فيقمع الأسباب المهيجة للصفراء فهكذا ينبغي أن تفهم علاج القلب مما به من مرض الإصرار فاذن لهذا الدواء أصلاًن : أحدهما العلم والآخر الصبر ولا بد من بينهما .

(١) حديث يجب ربك من الشاب ليست له صبوة أحمد والطبرانى من حديث عقبة بن عامر وفيه ابن لهيعة .

أحد يسلم أيضاً ويقول  
السلام على عباد الله  
الصالحين المؤمنين وإن  
كان متفرغاً فأحسن  
أشغاله في هذا الوقت  
إلى صلاة الضحى الصلاة  
فان كان عليه قضاء  
صلى صلاة يوم أو  
يومين أو أكثر وإلا  
فاصل ركعات يطولها  
ويقرأ فيها القرآن فقد  
كان من الصالحين من  
يختم القرآن في الصلاة  
بين اليوم والليلة وإلا  
فليصل أعداداً من  
الركعات خفيفة بفاعحة  
الكتاب وقل هو الله  
أحد وبآيات التي في  
القرآن وفيها الدعاء  
مثل قوله تعالى ربنا  
عليك توكلنا وإليك  
أنبنا وإليك المصير -

فان قلت أينفع كل علم لحل الإصرار أم لا بد من علم مخصوص . فاعلم أن العلوم يحملها أدوية لأعراض القلوب ولكن لكل مرض علم يخصه كما أن علم الطب نافع في علاج الأمراض بالجملة ولكن يخص كل علة علم مخصوص فكذلك دواء الإصرار . فلنذكر خصوص ذلك العلم على موازنة مرض الأبدان ليكون أقرب إلى الفهم ، فنقول : يحتاج المريض إلى التصديق بأمور : الأول أن يصدق على الجملة بأن للمرض والصحة أسبابا يتوصل إليها بالاختيار على مآربه مسبب الأسباب وهذا هو الإيمان بأصل الطب فان من لا يؤمن به لا يشتغل بالعلاج ويعتق عليه الهلاك وهذا وزانه مما نحن فيه الإيمان بأصل الشرع وهو أن السعادة في الآخرة سببا هو الطاعة والشقاوة سببا هو المصيبة وهذا هو الإيمان بأصل الشرائع وهذا لا بد من حصوله إما عن تحقيق أو تقليد وكلاهما من جملة الإيمان . الثاني أنه لا بد أن يعتقد المريض في طبيب معين أنه عالم بالطب حاذق فيه صادق فيما يعبر عنه لا يلبس ولا يكذب فان إيمانه بأصل الطب لا ينفعه بمجرد دون هذا الإيمان ، ووزانه مما نحن فيه العلم بصدق الرسول صلى الله عليه وسلم والإيمان بأن كل ما يقوله حق وصدق لا كذب فيه ولا خلف . الثالث أنه لا بد أن يصنى إلى الطبيب فيما يحذره عنه من تناول الفواكه والأسباب للضرر على الجملة حتى يخلب عليه الخوف في ترك الاحتياء فتكون شدة الخوف باعثة له على الاحتياء ووزانه من الدين الاصفاء إلى الآيات والأخبار الشتملة على الترغيب في التقوى والتحذير من ارتكاب الذنوب واتباع الهوى والتصديق بجميع ما يلحق إلى سمعه من ذلك من غير شك واسترابة حتى ينبعث به الخوف التقوى على الصبر الذي هو الركن الآخر في العلاج . الرابع أن يصنى إلى الطبيب فيما يخص مرضه وفيما يلزمه في نفسه الاحتياء عنه ليعرفه أو لا تفصيل ما يضره من أفعاله وأحواله وما كوله ومشروبه فليس على كل مريض الاحتياء عن كل شيء ولا ينفعه كل دواء بل لكل علة خاصة علم خاص وعلاج خاص ووزانه من الدين أن كل عبد فليس يتلى بكل شهوة وارتكاب كل ذنب بل لكل مؤمن ذنب مخصوص أو ذنوب مخصوصة وإنما حاجته في الحال مرهقة إلى العلم بأنها ذنوب ثم إلى العلم بآفاتهما وقدر ضررها ثم إلى العلم بكيفية التوصل إلى الصبر عنها ثم إلى العلم بكيفية تكفير ما سبق منها فهذه علوم يختص بها أطباء الدين وهم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فالعاصي إن علم عصيانه فعليه طلب العلاج من الطبيب وهو العالم وإن كان لا يدري أن ما يرتكبه ذنب فعلى العالم أن يعرفه ذلك ، وذلك بأن يتكفل كل عالم باقليم أو بلدة أو محلة أو مسجد أو مشهد فيعلم أهله دينهم وعيز ما يضرهم عما ينفعهم وما يشقيهم عما يسدهم ولا ينبغي أن يصبر إلى أن يسأل عنه بل ينبغي أن يتصدى لدعوة الناس إلى نفسه فاتهم ورثة الأنبياء والأنبياء ما تركوا الناس على جهلهم بل كانوا ينادونهم في مجامعهم ويدورون على أبواب دورهم في الابتداء ويطلبون واحدا واحدا فيرشدونهم فان مرضى القلوب لا يعرفون مرضهم كما أن الذي ظهر على وجهه برص ولا مرآة معه لا يعرف برصه ما لم يعرفه غيره وهذا فرض عين على العلماء كافة وعلى السلاطين كافة أن يرتبوا في كل قرية وفي كل محلة قسيسا متدينا يعلم الناس دينهم فان الخلق لا يولدون إلا جاهلا فلا بد من تبليغ الدعوة إليهم في الأصل والفرع والدنيا دار الرضى إذ ليس في بطن الأرض إلا ميت ولا على ظهرها إلا سقيم ومرضى القلوب أكثر من مرضى الأبدان والعلماء أطباء والسلاطين قوام دار الرضى فكل مريض لم يقبل العلاج بمداواة العالم يسلم إلى السلطان ليكشف شره كما يسلم الطبيب للمريض الذي لا يحتمى أو الذي غلب عليه الجنون إلى القيم ليقيد بالسلاسل والأغلال ويكشف شره عن نفسه وعن سائر الناس وإنما صار مرضى القلوب أكثر من مرض الأبدان ثلاث علل : إحداها أن المريض به لا يدري أنه مريض . والثانية أن عاقبته غير مشاهدة في هذا العالم بخلاف مرض البدن

وأمثال هذه الآية يقرأ في كل ركعة آية منها إما مرة أو يكررها مهما شاء ويقدر للطالب أن يصلى بين الصلاة التي ذكرناها بعد طلوع الشمس وصلاة الضحى مائة ركعة خفيفة وقد كان في الصالحين من ورده بين اليوم واليلة مائة ركعة إلى مائتين إلى خمسمائة إلى ألف ركعة ومن ليس له في الدنيا شغل وقد ترك الدنيا إلى أهلها فما باله يطل ولا يتعم بخدمة الله تعالى . قال سهل بن عبد الله التستري لا يكمل شغل قلب عبد بالله الكريم وله في الدنيا حاجة فإذا ارتفعت الشمس

فإن عاقبة موت مشاهد تنفر الطباع منه وما يجد للوت غير مشاهد وعاقبة الذنوب موت القلب وهو غير مشاهد في هذا العالم قتل النفرة عن الذنوب وإن عليها مرتكبها فذلك تراه بشكل على فضل الله في مرض القلب ويجتهد في علاج مرض البدن من غير انكال . والثالثة : وهو الداء الضال فقد الطبيب فإن الأطباء هم العلماء وقد مرضوا في هذه الأعصار مرضا شديدا همزواعن علاجه وصارت لهم سلوة في عموم المرض حتى لا يظهر قصاصهم فاضطروا إلى إغواء الخلق والإشارة عليهم بما يزيد مرضا لأن الداء للهالك هو حب الدنيا وقد غلب هذا الداء على الأطباء فلم يقدر واطل تحذير الخلق منه استنكافا من أن يقال لهم فلما بالكم تأمرون بالعلاج وتفسون أنفسكم فهذا السبب عم على الخلق الداء وعظم الوباء واقطع الدواء وهلك الخلق فقد الأطباء بل اشتغل الأطباء بفنون الإغواء فليتهم إذ لم ينصحوا لم يشعروا وإذا لم يصلحوا لم يفسدوا ولتهم سكوا وما نطقوا فاتهم إذا تكلموا لم يهملهم في مواعظهم إلا ما يرغب العوام ويستميل قلوبهم ولا يتوصلون إلى ذلك إلا بالإرجاء وتغليب أسباب الرجاء وذلك لثلاث الرحمة لأن ذلك أهدى في الأسماع وأخف على الطباع فتصرف الخلق عن مجالس الوعظ وقد استفادوا من زيادة رجاء على العاصي ومزيد ثقة بفضل الله ومهما كان الطبيب جاهلا وأخانا أهلك بالدواء حيث يضعه في غير موضعه فالرجاء والخوف دوا آن ولكن لشخصين متضادى العلة أما الذي غلب عليه الخوف حتى هجر الدنيا بالكلية وكلف نفسه ما لا يطيق وضيق العيش على نفسه بالكلية فتكسر سورة إسراره في الخوف يذكر أسباب الرجاء ليعود إلى الاعتدال وكذلك المصير على الذنوب الشتي للتوبة للمتنع عنها بحكم القنوط والياس استعظاما لذنوبه التي سبقت يبالغ أيضا بأسباب الرجاء حتى يطمع في قبول التوبة فيتوب ، فأما معالجة للفرور المسترسل في العاصي يذكر أسباب الرجاء فيضاهي معالجة المهرور بالصل طلبا للشفاء وذلك من دأب الجبال والأغبياء فاذن فساد الأطباء هي المضلة الزباء التي لا تقبل الدواء أصلا . فإن قلت : فأذكر الطريق الذي ينبغي أن يسلكه الواعظ في طريق الوعظ مع الخلق . فاعلم أن ذلك يطول ولا يمكن استقصاؤه ، نعم نشير إلى الأنواع النافعة في حل عقدة الإصرار وحمل الناس على ترك الذنوب وهي أربعة أنواع : الأول أن يذكر مافي القرآن من الآيات المخوفة للمذنبين والعاصين ، وكذلك ماورد من الأخبار والآثار مثل قوله صلى الله عليه وسلم « ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات يقول أحدهما : يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا ، فيقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا لماذا خلقوا علموا بما علموا <sup>(١)</sup> » وفي بعض الروايات « ليتهم تجالسوا فتذكروا ما علموا ، ويقول الآخر : يا ليتهم إذ لم يخلقوا بما علموا تابوا بما علموا » وقال بعض السلف إذا أذنب البعد أمر صاحب الجمين صاحب الشمال وهو أمير عليه أن يرفع القلم عنه ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبها عليه وإن لم يستغفر كتبها . وقال بعض السلف ما من عبد يصي إلا استأذن مكانه من الأرض أن يخسف به واستأذن سقفه من السماء أن يسقط عليه كسفا ، فيقول الله تعالى للأرض والسماء كفا عن عبدى وأمهلاء فانكما لم تخلفاه ولو خلقتهما لرحمتهما ولله يتوب إلى فأغفر له ولله يستبدل صالحا فأبدله له حسنات

(١) حديث ما من يوم طلع فجره ولا ليلة غاب شفقها إلا وملكان يتجاوبان بأربعة أصوات فيقول أحدهما يا ليت هذا الخلق لم يخلقوا الحديث غريب لم أجده هكذا . وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عمر بسند ضعيف إن لله ملكا ينادى في كل ليلة أبناء الأربعين زرع قد دنا حساده الحديث وفيه ليت الخلق لم يخلقوا ولتهم إذ خلقوا علموا لماذا خلقوا فتجالسوا بينهم فتذاكروا الحديث .

وتصف الوقت من صلاة الصبح إلى الظهر كما ينصف المصري بين الظهر والقرب صلى الضحى فهذا الوقت أفضل الأوقات لصلاة الضحى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « صلاة الضحى إذا رُمضت الفصال » وهو أن ينام الفصيل في ظل أمه عند حرّ الشمس . وقيل الضحى إذا ضحيت الأقدام بحر الشمس وأقل صلاة الضحى ركعتان وأكثرها اثنتا عشرة ركعة ويجعل لنفسه دعاء بعد كل ركعتين ويسبح ويستغفر ثم بعد ذلك إن كان هناك

فذلك معنى قوله تعالى - إِنَّ اللَّهَ بِكُمْ لَخَبِيرٌ بَالِغٌ فِي الْغَيْبِ - وفي حديث عمر بن الخطاب رضى الله عنه « الطابع معلق بقائمة العرش فإذا انتهكت الحرمات واستحلّت المحارم أرسل الله الطابع فيطبع على القلوب بما فيها<sup>(١)</sup> » وفي حديث مجاهد « القلب مثل الكف المفتوح كلما أذنب البعد ذنبا انقبضت أصبع حتى تنقبض الأصابع كلها فيسد على القلب فذلك هو الطبع<sup>(٢)</sup> » وقال الحسن : « إِنَّ بَيْنَ الْعَبْدِ وَبَيْنَ اللَّهِ حِدَا مِنْ الْعَاصِي مَعْلُومًا إِذَا بَلَغَهُ الْعَبْدَ طَبَعَ اللَّهُ عَلَى قَلْبِهِ فَلَمْ يَوْقِهِ بَعْدَهَا خَيْرٌ وَالْأَخْبَارُ وَالْآثَارُ فِي ذِمِّ الْعَاصِي وَمَدْحُ التَّائِبِينَ لَا تَحْصِي فَيُبْنَى أَنْ يَسْتَكْتِرَ الْوَاعِظُ مِنْهَا إِنْ كَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فَإِنَّهُ مَا خَلَفَ دِيَارًا وَلَا دَرَاهِمًا إِلَّا خَلَفَ الْعِلْمَ وَالْحِكْمَةَ وَوَرِثَهُ كُلَّ عَالَمٍ بِقَدَرِ مَا أَصَابَهُ<sup>(٣)</sup> .

حق يقضى مما ندب  
إليه من زيارة أو عيادة  
بعض فيه وإلا فقديم  
العمل لله تعالى من غير  
فتور ظاهر أو باطن  
وتلبا وقالوا وإلا فباطن  
وترتيب ذلك أنه يصلى  
مادام مشرعا وقسمه  
عجبة فان سم يزل من  
الصلاة إلى التلاوة فان  
مجرد التلاوة أخف على  
النفس من الصلاة فان  
سم التلاوة أيضا يذكر  
الله بآقاب والسان فهو  
أخف من القراءة فان  
سم الله ذكر يدع ذكر  
السان ويلزم بقلبه  
الراقبة والراقبة علم  
القلب بنظر الله تعالى  
إله فما دام هذا العلم  
ملازما لقلبه فهو  
مراقب والراقبة عين

النوع الثاني : حكايات الأنبياء والسلف الصالحين وما جرى عليهم من المصائب بسبب ذنوبهم فذلك شديد الوقع ظاهر النفع في قلوب الخلق مثل أحوال آدم صلى الله عليه وسلم في عصيانه وما لقيه من الاخراج من الجنة حتى روى أنه لما أكل من الشجرة تطايرت الحلال عن جسده وبدت عورته فاستعيا التاج والإكليل من وجهه أن يرتعنا عنه فجاء جبريل عليه السلام فأخذ التاج عن رأسه وحلّ الإكليل عن جبينه ونودي من فوق العرش : اهبطا من جوارى فانه لا يحاورني من عصاني قال فالتفت آدم إلى حواء باكية وقال هذا أول شؤم للعصية أخرجنا من جوار الحبيب. وروى أن سليمان بن داود عليهما السلام لما عوقب على خطيئته لأجل التمثال الذي عبد في داره أربعين يوما وقيل لأن المرأة سأله أن يحكم لأبيها فقال نعم ولم يفعل وقيل بل أحب بقلبه أن يكون الحكم لأبيها على خصمه لمكانها منه فسلم ملكه أربعين يوما فهرب تأمها على وجهه فكان يسأل بكفه فلا يطعم فاذا قال أطعموني فاني سليمان بن داود شجع وطرد وضرب . وحكى أنه استظم من بيت لامرأته فطردته وصقت في وجهه . وفي رواية أخرجت عجوز جرة فيها بول فضبت على رأسه إلى أن أخرج الله الحاتم من بطن الحوت فلبسه بعد انقضاء الأربعين (أيام العقوبة) قال فجاءت الطيور فمكتفت على رأسه وجاءت الجن والشياطين والوحوش فاجتمعت حوله فاعتذر إليه بعض من كان جنى عليه فقال لا ألومكم فيما فعلتم من قبله ولا أحمدكم في عذرکم الآن إن هذا أمر كان من السماء ولا بد منه . وروى عن الاسرائيليات أن رجلا تزوج امرأة من بلدة أخرى فأرسل عبده ليحملها إليه فراودته نفسه وطالبته بها فجاهدها واستعصم قال فنبأه الله بركة تقواه فكان نبيا في بني اسرائيل وفي قصص موسى عليه السلام أنه قال للمضر عليه السلام بم أطلعك الله على علم الغيب قال بتركي للعاصي لأجل الله تعالى . وروى أن الريح كانت تسير بسليمان عليه السلام فنظر إلى قميصه نظرة وكان جديدا فكانه أعجبه قال فوضته الريح فقال لم فعلت هذا ولم آمرك ؟ قالت إنما نطبعك إذا أطعت الله .

(١) حديث عمر الطابع مطلق بقائمة من قوائم العرش فاذا انتهكت الحرمات الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر وهو منكر (٢) حديث مجاهد القلب مثل الكف للفتوحه . قلت هكذا قال المصنف وفي حديث مجاهد وكأنه أراد به قول مجاهد وكذا ذكره المفسرون من قوله وليس بمرفوع وقد روياه في شب الایمان لليحيى من قول حذيفة (٣) حديث أنه صلى الله عليه وسلم ما خلف ديناراً ولا درهما إنما خلف العلم والحكمة البخاري من حديث عمرو بن الحرث قال مات رسول الله صلى الله عليه وسلم عند موته ديناراً ولا درهما ولا عبداً ولا أمة ولمسلم من حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ديناراً ولا درهما ولا شاة ولا بعيراً روى حديث أبي الدرداء إن الأنبياء لم يورثوا ديناراً ولا درهما إنما ورثوا العلم الحديث وقد تقدم في العلم .



وروى أن الله تعالى أوحى إلى يعقوب عليه السلام أتدري لم فرقت بينك وبين ولدك يوسف ؟ قال لا . قال فتوكل لإخوته - أخاف أن يأكله الذئب وأنهم عنه فافلون - لم خفت عليه الذئب ولم تريعي ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وتدري لم رددته عليك ؟ قال لا قال لأنك رجوتني وقلت - عسى الله أن يأتيني بهم جميعا - وبما قلت - اذهبوا فتحسسوا من يوسف وأخيه ولا تيأسوا - وكذلك لما قال يوسف لصاحب الملك - اذكرني عند ربك - قال الله تعالى - فأنساه الشيطان ذكر ربه فلبث في السجن بضع سنين - وأمثال هذه الحكايات لا تنحصر ولم يرد بها القرآن والأخبار ورود الأسرار بل الفرض بها الاعتبار والاستبصار لتعلم أن الأنبياء عليهم السلام لم يتجاوز عنهم في الذنوب الصغار فكيف يتجاوز عن غيرهم في الذنوب الكبار ، نعم كانت سعادتهم في أن عوجلوا بالعقوبة ولم يؤخروا إلى الآخرة والأشقياء يجهلون ليزدادوا إثما ولأن عذاب الآخرة أشد وأكبر ، فهذا أيضا مما ينبغي أن يكثر جنبه على ألسنة الصالحين فإنه نافع في تحريك دواعي التوبة . النوع الثالث : أن يقرر عندهم أن تعجيل العقوبة في الدنيا متوقع على الذنوب وأن كل ما يصيب العبد من المصائب فهو بسبب جنائياته فرب عبد يتساهل في أمر الآخرة ويخاف من عقوبة الله في الدنيا أكثر لفرط جهله فينبغي أن يخوف به فإن الذنوب كلها تتعجل في الدنيا شؤمها في غالب الأمر كما حكى في قصة داود وسليمان عليهما السلام حتى إنه قد يضيق على العبد رزقه بسبب ذنوبه وقد تستقط منزلته من القلوب ويستولى عليه أعداؤه قال صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه <sup>(١)</sup> » وقال ابن مسعود إنى لأحسب أن العبد ينسى العلم بالذنب يصيبه وهو معنى قوله عليه السلام « من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا <sup>(٢)</sup> » وقال بعض السلف ليست اللمة سوادا في الوجه وقصا في المال إنما اللمة أن لا تخرج من ذنب إلا وقعت في مثله أو شر منه وهو كما قال لأن اللمة هي الطرد والإبعاد فإذا لم يوفق للخير ويسر له الشر فقد أبعد والحرم من رزق التوفيق أعظم حرمان وكل ذنب فانه يدعو إلى ذنب آخر ويتضاعف فيحرم العبد به عن رزقه النافع من مجالسة العلماء السالكين للذنوب ومن مجالسة الصالحين بل يحقته الله تعالى ليحقته الصالحون . وحكى عن بعض العارفين أنه كان عثى في الوحل جامعا ثيابه عثرزا عن زلقة رجله حتى زلقت رجله وسقط ققام وهو عثى في وسط الوحل ويبكى ويقول هذا مثل العبد لا يزال يتوقى الذنوب ويحاربها حتى يقع في ذنب وذنين فعندها يخوض في الذنوب خوفا وهو إشارة إلى أن الذنب تتعجل عقوبته بالانجرار إلى ذنب آخر ولذلك قال الفضيل ما أنكرت من تغير الزمان وجفاء الإخوان فذنوبك ورثتك ذلك وقال بعضهم إنى لأعرف عقوبة ذنبي في سوء خلق حمارى وقال آخر أعرف العقوبة حتى في فأر يبق وقال بعض صوفية الشام نظرت إلى غلام نصرانى حسن الوجه فوقفت أنظر إليه فمر بي ابن الجلاء الدمشقي فأخذ يدي فاستحييت منه فقلت يا أبا عبد الله سبحانه الله تعجبت من هذه الصورة الحسنة وهذه الصنعة المحسنة كيف خلقت للنار قفص يدي وقال لتجدن عقوبتها بعد حين قال فعوقبت بها بعد ثلاثين سنة . وقال أبو سليمان الداراني الاحتلام عقوبة وقال لا يفوت أحدا صلاة جماعة إلا بذنب يذنبه وفي الخبر « ما أنكرتم من زمانكم فبا غيرتم من أعمالكم <sup>(٣)</sup> » وفي الخبر « يقول الله تعالى إن أدنى ما أنصنع

(١) حديث إن العبد ليحرم الرزق بالذنب يصيبه ابن ماجه والحاكم وصححه إسناده واللفظه إلا أنه قال الرجل بدله العبد من حديث ثوبان (٢) حديث من قارف ذنبا فارق عقله لا يعود إليه أبدا تقدم (٣) حديث ما أنكرتم من زمانكم فبا أنكرتم من أعمالكم البيهقي في الزهد من حديث أبي الدرداء

الذكر وأفضله فإن مجز عن ذلك أيضا وتعلمته الوسواس وتراحم في باطنه حديث النفس فليتم في النوم السلامة وإلا فكثر حديث النفس تقسى القلب ككثر الكلام لأنه كلام من غير إسان فيحترز عن ذلك قال سهل بن عبد الله أسوأ المعاصي حديث النفس والطالب يريد أن يعتبر باطنه كما يعتبر ظاهره فانه بحديث النفس وما يتخيل له من ذكر ماضى ورأى وسمع كشخص آخر في باطنه فيقيد الباطن بالمراقبة والرعاية كما يقيد الظاهر بالعمل وأنواع الذكر ويمكن للطالب المجد

بالعبء إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذيق مناجاتي (١) . وحكى عن أبي عمرو بن علوان في قصة يطول ذكرها قال فيها كنت قائماً ذات يوم أصلى غلام قلبي هوى طاولته بفكرتي حتى تولد منه شهوة الرجال فوفقت إلى الأرض واسود جسدي كله فاستترت في البيت فلم أخرج ثلاثة أيام وكنت أعالج غداه في الحمام بالصابون فلا يزداد إلا سواداً حتى انكشف بعد ثلاث فلقيت الجنيـد وكان قد وجه إلى فأخصني من الرقة فلما أتيت قال لي أما استحييت من الله تعالى كنت قائماً بين يديه فصاررت تفكك بشهوة حتى استولت عليك برقة وأخرجتك من بين يدي الله تعالى فلولا أنني دعوت الله لك وتبت إليه عنك فلقيت الله بذلك اللون قال فصبرت كيف علم بذلك وهو يفداد وأنا بالركة . واعلم أنه لا يذنب العبد ذنباً إلا ويسود وجهه قلبه فإن كان سعيداً أظهر السواد على ظاهره لينزجر وإن كان شقياً أخفى عنه حتى ينهك ويستوجب النار والأخبار كثيرة في آفات الذنوب في الدنيا من الفقر والمرض وغيره بل من شؤم الذنب في الدنيا على الجملة أن يكسب ما بعده صفته فإن ابتلى بشيء كان عقوبة له ويحرم جميل الرزق حتى يتضاعف شقاؤه وإن أصابته نعمة كانت استدراجاً له ويحرم جميل الشكر حتى يجاقب على كفرانه وأما للطبع فمن بركة طاعته أن تكون كل نعمة في حقه جزاء على طاعته ويوفق لشكرها وكل بلية كفارة لذنوبه وزيادة في درجاته .

النوع الرابع : ذكر ماورد من العقوبات على آحاد الذنوب كالزنا والسرقة والقتل والفيـسة والكبر والحسد وكل ذلك مما لا يمكن حصره وذكره مع غير أهله وضع الدواء في غير موضعه بل ينبغي أن يكون العالم كالطبيب الحاذق فيستدل أولاً بالنفس والسحنة ووجود الحركات على العلل الباطنة ويشتمل بعلاجها فليستدل بقرائن الأحوال على خفايا الصفات وليتعرض لما وقف عليه اقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال له واحد « أوصني يا رسول الله ولا تسكّر على قال لا تنضب (٢) » وقال له آخر « أوصني يا رسول الله فقال عليه السلام عليك باليأس مما في أيدي الناس فإن ذلك هو التقى وإياك والطمع فإنه الفقر الحاضر وصل صلاة مودع وإياك وما يستدر منه (٣) » وقال رجل ل محمد بن واسع أوصني فقال أوصيك أن تكون ملكاً في الدنيا والآخرة قال وكيف لي بذلك قال الزم الزهد في الدنيا فكأنه صلى الله عليه وسلم توسم في السائل الأول مخايل الغضب قناه عنه وفي السائل الآخر مخايل الطمع في الناس وطول الأمل وتخيل محمد بن واسع في السائل مخايل الحرص على الدنيا وقال رجل لمعاذ أوصني فقال كن رجلاً كن لك بالجنة عيافاً فكأنه تفرس فيه آثار القظاظلة والمخالطة . وقال رجل ل إبراهيم بن آدم أوصني فقال: إياك والناس وعليك بالناس ولا بد من الناس فإن الناس هم الناس وليس كل الناس بالناس ذهب الناس وبقي الناس وما أراهم بالناس بل غمسوا في ماء اليأس فكأنه تفرس فيه آفة المخالطة وأخبر عما كان هو الغالب على حاله في وقته وكان الغالب أذاه بالناس والكلام على قدر حال السائل أولى من أن يكون بحسب حال القائل وكتب معاوية رحمه الله إلى عائشة رضي الله عنها أن اكتبي لي كتاباً توصيني فيه ولا تسكّري فككتبت إليه من عائشة إلى معاوية سلام عليك أما بعد فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول وقال غريب تفرد به هكذا العقيلي وهو عبيد الله بن هاني . قلت : هو منهم بالكذب قال ابن أبي حاتم روى عن أبيه أحاديث بواطيل (١) حديث يقول الله إن أدنى ما صنع بالعبء إذا أثر شهوته على طاعتي أن أحرمه لذة مناجاتي غريب لم أجده (٢) حديث قال رجل أوصني ولا تسكّر على قال لا تنضب تقدم (٣) حديث قال له آخر أوصني قال عليك باليأس الحديث ابن ماجه والحاكم وقد تقدم .

أن يصلي من صلاة الضحى إلى الاستواء مائة ركعة أخرى وأقل من ذلك عشرون ركعة يصلها خفيفة أو يقرأ في كل ركعتين جزءاً من القرآن أو أقل أو أكثر والنوم بعد الفراغ من صلاة الضحى وبعد الفراغ من أعداد آخر من الركعات حسن . قال سفيان كان يسبهم إذا فرغوا أن يناموا طلباً للسلامة وهذا النوم فيه فوائد منها أنه يمين على قيام الليل ومنها أن النفس تستريح ويصفو القلب لبقية النهار والعمل فيه والنفس إذا استراحت عادت جديدة فبعد الإتياء

«من التمس رضا الله بسخط الناس كفاه الله مؤنة الناس ومن التمس سخط الله برضا الناس وكرهه الله إلى الناس» (١) والسلام عليك فانظر إلى قهها كيف تعرضت لآفة التي تكون الولاية بصدها وهي مراعاة الناس وطلب مرضاتهم وكتبت إليه مرة أخرى : أما بعد ؛ فأتق الله فانك إذا اتقيت الله كما لك الناس وإذا اتقيت الناس لم يفتوا عنك من الله شيئا والسلام . فاذن على كل ناصح أن تكون عنايته مصروفة إلى تفرس الصفات الخفية وتوسم الأحوال اللاحقة ليسكون اشتغاله بالمهم فإن حكاية جميع مواعظ الشرع مع كل واحد غير محكمة والاشتغال بوعظه بما هو مستغن عن التوعظ فيه تضييع زمان . فان قلت : فان كان الواعظ يتكلم في جمع أو سأله من لا يدري باطن حاله أن يعظه فكيف يفعل . فاعلم أن طريقه في ذلك أن يعظه بما يشترك كافة الخلق في الحاجة إليه إما على العموم وإما على الأكثر فان في علوم الشرع أغذية وأدوية فالأغذية للكافة والأدوية لأرباب العلل . ومثاله ما روى أن رجلا قال لأبي سعيد الخدري أوصني قال عليك بتقوى الله عز وجل فانها رأس كل خير وعليك بالجهاد فانه رهبانية الاسلام وعليك بالقرآن فانه نور لك في أهل الأرض وذكر لك في أهل السماء وعليك بالصمت إلا من خير فانك بذلك تغلب الشيطان . وقال رجل للحسن أوصني فقال أعز أمر الله يعزك الله . وقال لقمان لابنه يا بني زاحم العلماء بركتيك ولا تجادلهم فيمقتوك وخذ من الدنيا بلاغك وأنفق فضولك كسبك لآخرتك ولا ترفض الدنيا كل الرفض فتكون عيالا وعلى أعناق الرجال كلا وصم صوما يكسر شهوتك ولا تصم صوما يضر بصلاتك فان الصلاة أفضل من الصوم ولا تجالس السفه ولا تغالط ذا الوجهين . وقال أيضا لابنه يا بني لاتضحك من غير عجب ولا تمس في غير أرب ولا تسأل عما لا يعينك ولا تضيع مالك وتصلح مال غيرك فان مالك ما قدمت ومال غيرك ما تركت يا بني إن من يرحم يرحم ومن يصمت يسلم ومن يقل الخير يغم ومن يقل الشر يأتهم ومن لا يملك لسانه يندم وقال رجل لأبي حازم أوصني فقال كل ما لوجاءك لك لوت عليه فرأيت غنيمة فالزمه وكل ما لوجاءك الموت عليه فرأيت مصيبة فاجتنبه . وقال موسى للخضر عليهما السلام أوصني فقال كن بساما ولا تكن غضابا وكن قناعا ولا تكن ضاررا واتزع عن اللجاجة ولا تمس في غير حاجة ولا تضحك من غير عجب ولا تبع الخطائين بخطاياهم وابك على خطيئتك يا ابن عمران . وقال رجل لمحمد بن كرام أوصني فقال اجتهد في رضا خالقك بقدر ما تجتهد في رضا نفسك وقال رجل لحامد اللهاف أوصني فقال اجعل لديك غلافا كغلاف الصحف أن تدنسه الآفات قال وما غلاف الدين قال ترك طلب الدنيا إلا ما لا بد منه وترك كثرة الكلام إلا ما لا بد منه وترك مخالطة الناس إلا ما لا بد منه . وكتب الحسن إلى عمر بن عبدالعزيز رحمه الله تعالى : أما بعد ، غف بمأخوئك الله واحذر مما حذر الله وخذ بما في يديك لما بين يديك فعند الموت يأتيك الخبر اليقين والسلام ، وكتب عمر بن عبدالعزيز إلى الحسن يسأله أن يعظه فكتب إليه : أما بعد ، فان الهول الأعظم والأمور المفظعات أمامك ولا بد لك من مشاهدة ذلك إما بالنجاة وإما بالمطب ، واعلم أن من حاسب نفسه ربح ومن غفل عنها خسر ومن نظر في العواقب نجح ومن أطاع هواه ضل ومن حلم غم ومن خاف أمن ومن آمن أمن اعتبر ومن اعتبر أبصر ومن أبصر فهم ومن علم فاذا زلت فارجع وإذا ندمت فأقلع وإذا جهلت فاسأل وإذا غضبت فأمسك . وكتب مطرف بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز رحمه الله : أما بعد ، فان الدنيا دار عوبة ولها يجمع من لا عقل له وبها ينتر من لا علم عنده فكُن فيها يأمر المؤمنين كالمدادى جرحه يصبر

(١) حديث عائشة من التمس رضا الناس بسخط الله وكرهه الله إلى الناس الحديث الترمذي والحاكم وفي مسند الترمذي من لم يحسم .

من نوم النهار تجدد  
في الباطن نشاطا آخر  
وشفا آخر كما كان  
في أول النهار فيكون  
للصادق في النهار نهاران  
يفتتحمها بخدمة الله  
تعالى والدؤوب في العمل  
وينبغي أن يكون  
انتباهه من نوم النهار  
قبل الزوال بساعة  
حتى يتمكن من  
الوضوء والطهارة قبل  
الاستواء بحيث يكون  
وقت الاستواء  
مستقبل القبلة ذا كرا  
أو مسبحا أو تاليا قال الله  
تعالى - وأقم الصلاة طرفي  
النهار - وقال - فسبح  
بحمد ربك قبل طلوع  
الشمس وقبل غروبها -  
قل قبل طلوع  
الشمس صلاة الصبح

على عبدة الدواء لما يخاف من عاقبة الهباء . وكتب عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه إلى عدى بن أوطاة أما بعد ، فإن الدنيا عدوة أولياء الله وعدوة أعداء الله فأولياؤه فضعفهم وأما أعداؤه فضعفهم . وكتب أيضا إلى بعض عماله : أما بعد ، قد أمكنتك القدرة من ظلم العباد فإذا هممت بظلم أحدا فاذكر قدرة الله عليك ، واعلم أنك لا تأتي إلى الناس شيئا إلا كان زائلا عنهم باقيا عليك ، واعلم أن الله عز وجل أخذ للظالمين من الظالمين والسلام . فهكذا ينبغي أن يكون وعظ العامة ووعظ من لا يدري خصوص واقته فهذه اللواعظ مثل الأغذية التي يشترك السكافة في الاتضاع بها ولأجل قد مثل هؤلاء اللواعظ انهم باب الاتماظ وغلبت العاصي واستشرى الفساد وبلى الخلق بوعاظ يزخرفون أسجاعا وينشدون أياتا ويتكلفون ذكر مالبس في سعة علمهم ويتشبهون بحال غيرهم فسقط عن قلوب العامة وقارهم ولم يكن كلامهم صادرا من القلب ليصل إلى القلب بل القائل متكلف والسمتع متكلف وكل واحد منهما مدبر ومتخلف ، فإذا كان طلب الطبيب أول علاج المرضى وطلب العلماء أول علاج العاصين فهذا أحد أركان العلاج وأصوله . الأصل الثاني الصبر ووجه الحاجة إليه أن المريض إنما يطول مرضه لتناوله ما يضره . وإنما تناول ذلك إما تنفلة عن مضرة وإما لشدة غلبة شهوته فله سبيلان فإما ذكرناه هو علاج النفقة فيبقى علاج الشهوة وطريق علاجها قد ذكرناه في كتاب رياضة النفس . وحاصله أن المريض إذا اشتدت ضررته لما كوله مضرة فطريقه أن يستشعر عظم ضرره ثم يغيب ذلك عن عينه فلا يحضره ثم يتسلى عنه بما يقرب منه في صورته ولا يكثر ضرره ثم يصير بقوة الخوف على الألم الذي يناله في تركه فلا بد على كل حال من مرارة الصبر فكذلك يبالغ الشهوة في العاصي كالشاب مثلا إذا غلبته الشهوة فصار لا يقدر على حفظ عينه ولا حفظ قلبه أو حفظ جوارحه في السعي وراء شهوته فينبغي أن يستشعر ضرر ذنبه بأن يستقرى المخوفات التي جاءت فيه من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم فإذا اشتد خوفه تباعد من الأسباب للهبطة لشهوته ومهيج الشهوة من خارج هو حضور المشتهى والنظر إليه وعلاجه الحرب والعزلة ومن داخل تناوله للدائد الأطمع وعلاجه الجوع والصوم الدائم وكل ذلك لا يتم إلا بصبر ولا يصبر إلا عن خوف ولا يخاف إلا عن علم ولا يعلم إلا عن بصيرة واختصار أو عن صماع وتقليد فأول الأمر حضور مجالس الله كثر ثم الاستماع من قلب مجرد عن سائر الشواغل مصروف إلى السماع ثم التفكير فيه لتخام الفهم وينبت من تمامه لاحالة خوفه وإذا قوى الخوف تيسر بمعونه الصبر وابتعث الدواعي لطاب العلاج وتوفيق الله وتيسره من وراء ذلك فمن أعطى من قلبه حسن الاصغاء واستشعر الخوف فانتفى وانتظر الثواب وصدق بالحسن فيسيره الله تعالى ليسرى ، وأما من بغل واستغنى وكذب بالحسن فيسيره الله للعسرى فلا يغنى عنه ما اشتغل به من ملاذ الدنيا مهما هلك وتردى وما على الأنبياء إلا الشرح طرق الهدى وإتمامه الآخرة والأولى . فإن قلت فقد رجع الأمر كله إلى الإيمان لأن ترك الذنب لا يمكن إلا بالصبر عنه والصبر لا يمكن إلا بمعرفة الخوف والخوف لا يكون إلا بالعلم والعلم لا يحصل إلا بالتصديق بعظم ضرر الذنوب والتصديق بعظم ضرر الذنوب هو تصديق الله ورسوله وهو الإيمان فكأن من أصر على الذنب لم يصبر عليه إلا لأنه غير مؤمن . فاعلم أن هذا لا يكون لفقد الإيمان بل يكون لضعف الإيمان اذ كل مؤمن مصدق بأن العصية سبب البعد من الله تعالى وسبب العقاب في الآخرة ولكن سبب وقوعه في الذنب أمور : أجهلها أن العقاب الموعود غيب ليس بحاضر والنفس جبلت متأثرة بالحاضر فتأثرها بالموعود ضعيف بالإضافة إلى تأثرها بالحاضر . الثاني : أن الشهوات الباعثة على الذنوب لذاتها ناجزة وهي في الحال آخذة بالخلق وقد قوى ذلك واستولى عليها بسبب الاعتياد والإلف والمادة طبيعة خامسة والتزوع عن

وقبل غروبها صلاة  
الصبر - ومن آتاه  
الليل فصبغ - أراد  
العشاء الأخيرة  
سواطراف النهار - أزداد  
الظهر والغرب لأن  
الظهر صلاة في آخر  
الطرف الأول من  
النهار وآخر الطرف  
الآخر غروب الشمس  
وفيها صلاة المغرب  
فصار الظهر آخر  
الطرف الأول والمغرب  
آخر الطرف الآخر  
فيستقبل الطرف الآخر  
بالقطة والله كذا  
استقبل الطرف الأول  
وقد عاد بنوم النهار  
جديدا كما كان بنوم  
الليل وبصلى في أول  
النهار قبل السنة  
والفرض أربع ركعات

العاجل لحوف الآجل شديد على النفس ولذلك قال تعالى - كلاب تجنون العاجلة وتندرون الآخرة - وقال عز وجل - بل تؤثرون الحياة الدنيا - وقد عبر عن شدة الأمر قول رسول الله صلى الله عليه وسلم « حفت الجنة بالمكاره وحفت النار بالشهوات » (١) وقوله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى خلق النار لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فقال وعزتك لا يسمع بها أحد فيدخلها خلفها بالشهوات ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يبق أحد إلا دخلها، وخلق الجنة فقال لجبريل عليه السلام اذهب فانظر إليها فنظر فقال وعزتك لا يسمع بها أحد إلا دخلها خلفها بالمكاره ثم قال اذهب فانظر إليها فنظر إليها فقال وعزتك لقد خشيت أن لا يدخلها أحد » (٢) فإذا كون الشهوة مرهقة في الحال وكون العقاب متأخرا إلى الآل سببان ظاهران في الاسترسال مع حصول أصل الإيمان فليس كل من يشرب في مرضه ماء الثلج لشدة عطشه مكذبا بأصل الطب ولا مكذبا بأن ذلك مضر في حقه ولكن الشهوة قلبه وألم الصبر عنه ناجز فيكون عليه الألم ينتظر. الثالث أنه مامن مذنب مؤمن إلا وهو في الغالب عازم على التوبة وتكفير السيئات بالحسنات وقد وعد بأن ذلك يجبره إلا أن طول الأمل غالب على الطباع فلا يزال يسوف التوبة والتكفير في حيث رجاؤه التوفيق لتوبة ربما يقدم عليه مع الإيمان. الرابع أنه مامن مؤمن موقن إلا وهو معتقد أن الذنوب لا توجب العقوبة إيجابا لا يمكن الصفو عنها فهو يذنب وينتظر الصفو عنها اتكالا على فضل الله تعالى فهذه أسباب أربعة موجبة للإصرار على الذنب مع بقاء أصل الإيمان، نعم قد يقدم الذنب بسبب خامس قدح في أصل إيمانه وهو كونه شاكيا في صدق الرسل وهذا هو الكفر كالذي يحذر الطيب عن تناول ما يضره في المرض فإن كان المحذر ممن لا يعتقد فيه أنه عالم بالطب فيكذبه أو يشك فيه فلا يبالى به فهذا هو الكفر. فإن قلت فما علاج الأسباب الخمسة؟ فأقول هو الفكر وذلك بأن يقرر على نفسه في السبب الأول وهو تأخر العقاب أن كل ما هو آت آت وأن غدا للناظرين قريب وأن الموت أقرب إلى كل أحد من شرائه فلهذا يدريه لكل الساعة قريب والتأخر إذا وقع صار ناجزا ويذ كر نفسه أنه أبدا في دنياه يتعب في الحال لحوف أمر في الاستقبال إذ يركب البحار ويقاسى الأسفار لأجل الربح الذي يظن أنه قد يحتاج إليه في ثاني الحال بل لو مرض فأخبره طبيب نصراني بأن شرب الماء البارد يضره ويسوقه إلى الموت وكان الماء البارد ألد الأشياء عنده تركه مع أن الموت ألم لحظة إذ لم يخف ما بعده ومفارقة الدنيا لا بد منها فتكم نسبة وجوده في الدنيا إلى عدمه ألا وأبدا فليظن كيف يبادر إلى ترك ملاذنه بقول ذي لم تقم معجزة على طبه فيقول كيف يليق بعقلي أن يكون قول الأنبياء لا يؤيدن بالمعجزات عندي دون قول نصراني يدعى الطب لنفسه بلا معجزة على طبه ولا يشهد له إلا عوام الخلق وكيف يكون عذاب النار عندي أخف من عذاب المرض وكل يوم في الآخرة بمقدار خمسين ألف سنة من أيام الدنيا وبهذا التفكير بينه يبالغ اللذة الغالبة عليه ويكاف نفسه تركها ويقول إذا كنت لا أقدر على ترك لذاتي أيام العمر وهي أيام قلائل فكيف أقدر على ذلك أبدا إذا كنت لا أطيق ألم الصبر فكيف أطيق ألم النار وإذا كنت لا أصبر عن زخارف الدنيا مع كدوراتها وتغصمها وامتناع صفوها بكدرها فكيف أصبر عن نعم الآخرة وأما تسويف التوبة فيعالجها بالفكر في أن أكثر صياح أهل النار من التسويف لأن السوف يبنى الأمر على ما ليس إليه وهو البقاء فلهذا لا يبق وإن بقي

(١) حديث حفت الجنة بالمكاره الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث إن الله خلق النار فقال لجبريل اذهب فانظر إليها الحديث أبو داود والترمذي والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وقدم فيه ذكر الجنة.

بتسليم واحدة كان  
صليها رسول الله صلى  
الله عليه وسلم وهذه  
صلاة الزوال قبل الظهر  
في أول أوقاتها ويحتاج  
أن يراعى لهذه الصلاة  
أول الوقت بحيث  
يفطن لوقت قبل  
لؤذين حين يذهب  
وقت الصلوة  
بالاستواء فيشرع في  
صلاة الزوال ويسمع  
الأذان وقد توسط  
هذه الصلاة ثم يستعد  
لصلاة الظهر فإن وجد  
في باطنه كدرا من  
عجالة أو جمالة  
انفتحت يستغفر الله  
تعالى ويتضرع إليه  
ولا يشرع في صلاة  
الظهر إلا بعد أن يجد  
الباطن عائدا إلى حاله

فلا يقدر على الترك غدا كما لا يقدر عليه اليوم فليت شعري هل عجز في الحيل إلى الغلبة الشهوة والشهوة ليست تخارقه غدا بل تضاعف إذ تتأكد بالاعتیاد فليست الشهوة التي أكلها الإنسان بالعادة كالتي لم يؤكلها وعن هذا هلك السوفون لأنهم يظنون الفرق بين المتأملين ولا يظنون أن الأيام متشابهة في أن ترك الشهوات فيها أبدا شاق ومما مثال للسوف إلى امثال من احتاج إلى قلع شجرة فراه اقوية لا تتقلع إلى بمشقة شديدة فقال أواخرها سنة ثم أعود إليها وهو يعلم أن الشجرة كلما بقيت ازداد رسوخها وهو كما طال عمره ازداد ضعفه فلا حماقة في الدنيا أعظم من حماقة إذ عجز مع قوته عن مقاومة ضعيف فأخذ ينتظر الطلبة عليه إذا ضعف هو في نفسه وقوى الضعيف . وأما المعنى الرابع وهو انتظار غفر الله تعالى فملاجه ماسبق وهو كمن ينفق جميع أمواله ويترك نفسه وعياله قراء منتظرا من فضل الله تعالى أن يرزقه العزور على كثر في أرض خربة فان إمكان النفق عن القنب مثل هذا الامكان وهو مثل من يتوقع النهب من الظلمة في بلده وترك ذخائر أمواله في صحن داره . وقدر على دقتها وإخفائها فلم يفعل وقال أنتظر من فضل الله تعالى أن يسلط غفلة أو عقوبة على الظالم التاهب حتى لا يتفرغ إلى داري أو إذا انتهى إلى داري مات على باب الدار فان الموت ممكن والغفلة ممكنة . وقد حكى في الأمصار أن مثل ذلك وقع فأتانا أنتظر من فضل الله مثله فنتظر هذا منتظر أمر ممكن ولكنه في غاية الحماقة والجهل إذ قد لا يمكن ولا يكون . وأما الخامس وهو شك فهذا كفر وعلاجه الأسباب التي تعرفه صدق الرسل وذلك بطول ولكن يمكن أن يعالج بعلم قريب يليق بحمد عقله فيقال له ما قاله الأنبياء المؤيدون بالمعجزات هل صدق ممكن أو تقول أعلم أنه محال كما أعلم استحالة كون شخص واحد في مكانين في حالة واحدة فان قال أعلم استحالاته كذلك فهو أخرق معتوه وكأنه لا وجود لمثل هذا في العقلاء وإن قال أنا شاك فيه فيقال لو أخبرك شخص واحد مجهول عند تركك طعامك في البيت لحظة أنه ولدت فيه حية وألقت سمها فيه وجوزت صدقه فهل تأكله أو تتركه وإن كان الله الأظلمة فيقول أتركه لا محالة لأنني أقول إن كذب فلا يفوتني إلا هذا الطعام والصبر عنه وإن كان شديدا فهو قريب وإن صدق فتفوتني الحياة والموت بالإضافة إلى ألم الصبر عن الطعام وإضاعته شديد فيقال له يا منبجحان الله كيف تؤخر صدق الأنبياء كلهم مع ما ظهر لهم من المعجزات وصدق كافة الأولياء والعلماء والحكماء بل جميع أصناف العقلاء ولست أعني بهم جهال العوام بل ذوي الأبواب عن صدق رجل واحد مجهول لعل له غرضا فيما يقول فليس في العقلاء إلا من صدق باليوم الآخر وأثبت ثوابا وعقابا وإن اختلفوا في كيفية فان صدقوا فقد أشرفت على عذاب يبقى أبد الآباد وإن كذبوا فلا يفوتك إلا بعض شهوات هذه الدنيا الفانية المكسرة فلا يبقى له توقف إن كان عاقلا مع هذا الفكر إذ لانبية لمدة العمر إلى أبد الآباد بل لو قدرنا الدنيا بمسحاة بالذرة وقدرنا طائر ايلتقط في كل ألف سنة حبة واحدة منها لفنيته الذرة ولم ينقص أبد الآباد شيئا فكيف يفتر رأى العاقل في الصبر عن الشهوات مائة سنة مثلا لأجل سعادة تبقى أبد الآباد ولذلك قال أبو العلاء أحمد ابن سليمان التوحي المعري :

قال النجم والطبيب كلاهما لا تبعت الأموات قلت إليك  
إن صح قولك فلست بخاسر أو صح قولي فالحسار عليكما

ولذلك قال على رضى الله عنه لبعض من قصر عقله عن فهم تحقيق الأمور وكان شاكا إن صح ما قالت فقد تخلفنا جميعا وإلا فقد تحلصت وهلكت أى الماقل يسلك طريق الأمن في جميع الأحوال . فان قلت هذه الأمور جليلة ولكنها ليست تنال إلا بالفكر فما بال القلوب هجرت الفكر فيها واستقلته وما علاج القلوب ليردها إلى الفكر لاسيما من آمن بأصل الشرع وتفصيله . فاعلم أن المنافع من الفكر

من الصفاء والالتفات من حلاوة الناجاة لا بد أن يجدوا صفو الأنس في الصلاة ويتكبدون بيسير من الاسترسال في اللباح ويصير على بواطنهم من ذلك عقد وكدر وقد يكون ذلك بمجرد الخفاطة والمجاسة مع الأهل والولد مع كون ذلك عبادة ولكن حسنات الأبرار سيأت القربين فلا يدخل الصلاة إلا بعد حل العقد وإذ هاب الكدرو حل العقد بصدق الانابة والاستغفار والتضرع إلى الله تعالى ودواء ما يحدث من الكدر بمجالسة الأهل والولدان أن يكون في مجاسته

أمران : أحدهما أن الفكر النافع هو الفكر في عقاب الآخرة وأهو الهاوشدائدها وحسرات العاصمين في الحرمان عن النعيم المقيم وهذا فكر لداغ مؤلم للقلب فينفر القلب عنه ويلتذ بالفكر في أمور الدنيا على سبيل الفرج والاستراحة . والثاني أن الفكر غفل في الحال مانع من لذائذ الدنيا وقضاء الشهوات وما من إنسان إلا وله في كل حالة من أحواله ونفس من أنفاسه شهوة قد تسلطت عليه واستقرته فصار عقله مسخرا لشهوته فهو مشغول بتدبير حياته وصارت لذته في طلب الحيلة فيه أو في مباشرة قضاء الشهوة والفكر ينم عن ذلك ، وأما علاج هذين للأمنين فهو أن يقول لقلبه ما أعد غباوتك في الاحتراز من الفكر في الموت وما بعده تألما بذكره مع استحقار ألم مواقفه فكيف تصبر على مقاماته إذا وقع وأنت عاجز عن الصبر على تقدير الموت وما بعده ومثألم به وأما الثاني وهو كون الفكر مغفوا للذات الدنيا فهو أن يتحقق أن فوات لذات الآخرة أشد وأعظم فاتها لا آخر لها ولا كدورة فيها ولذات الدنيا سريرة الدثور وهي مشوبة بالمكدرات لما فيها لذة صافية عن كدر وكيف وفي التوبة عن المعاصي والإقبال على الطاعة تلذذ بمناجاة الله تعالى واستراحة بمعرفته وطاعته وطول الأنس به ولو لم يكن للمطيع جزاء على عمله إلا ما يجده من حلاوة الطاعة وروح الأنس بمناجاة الله تعالى لكان ذلك كافيا فكيف بما ينضاف إليه من نعيم الآخرة ، نعم هذه اللذة لا تكون في ابتداء التوبة ولكنها بعد ما يصبر عليها مدة مديدة وقد صار الخير ديدنا كما كان الشر ديدنا فالنفس قابلة لما عودتها تعود والخير عادة والشر لاجبة ، فاذن هذه الأفكار هي الهيجة للخوف للهيج لقوة الصبر عن اللذات ومهيج هذه الأفكار وعظ الوعاظ وتنبيهات تقع للقلب بأسباب تنفق لا تدخل في الحصر فيصير الفكر مواقفا للطبع فيميل القلب إليه ويعبر عن السبب الذي أوقع الواقعة بين الطبع والفكر الذي هو سبب الخير بالتوفيق إذ التوفيق هو التاليف بين الإرادة وبين المعنى الذي هو طاعة نافعة في الآخرة وقد روى في حديث طويل أنه قام عمار بن ياسر فقال لملي بن أبي طالب كرم الله وجهه يا أمير المؤمنين أخبرنا عن الكفر على ما ذابني ، فقال على رضى الله عنه بنى على أربع دعائم : على الجفاء والمعنى والغفلة والشك ، فمن جفا احتقر الحق وجهر بالباطل ومقت الملباء ومن عمى نسي الذكر ومن غفل حاد عن الرشود من شك غرته الأمانى فأخذته الحسرة والندامة وبدأ له من الله ما لم يكن يحتسب ، فلما ذكرناه بيان بعض آفات الغفلة عن التفكير وهذا القدر في التوبة كاف وإذا كان الصبر ركنا من أركان دوام التوبة فلا بد من بيان الصبر فذكره في كتاب مفرد إن شاء الله تعالى .

### ﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

( وهو الكتاب الثاني من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله أهل الحمد والثناء ، التفرد برباء الكبرياء ، للتوحد بصنات المجد والملاء ، للوئيد صفوة الأولياء بقوة الصبر على السراء والضراء والشكر على البلاء والنعماء . والصلاة على محمد سيد الأنبياء وعلى أصحابه سادة الأصفياء وعلى آله قادة البررة الأتقياء صلاة محروسة بالدوام عن الفناء ، ومصونة بالتعاقب عن النقص والاعتناء [ أما بعد ] فإن الإيمان نصفان : نصف صبر ونصف شكر <sup>(١)</sup> كما وردت به الآثار وشهدت له الأخبار وهما أيضا وصفان من أوصاف الله تعالى وإيمان من أعيانه الحسنى إذ سمى نفسه صبوراً وشكوراً إذا جهل بحقيقة الصبر والشكر جهل بكلا شطري الإيمان ثم هو غفلة عن وصفين من أوصاف الرحمن

### ﴿ كتاب الصبر والشكر ﴾

(١) حديث الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من

غير راكن إليهم كل الركون بل يشرق القلب في ذلك نظرات إلى الله تعالى فتكون تلك النظرات كفارة لتلك الهالة إلا أن يكون قوى الحال لا يعجبه الخلق عن الحق فلا يتعقد على باطنه عقدة فهو كما يدخل في الصلاة لا يجدها ويجد باطنه وقلبه لأنه حيث استروحت نفس هذا إلى الهالة كان استرواح نفسه منغمرا . روح قلبه لأنه يجالس ويخالط وعين ظاهره ناظرة إلى الخلق وعين قلبه مطالعة للحضرة الإلهية فلا يتعقد على باطنه عقدة وصلاة

ولا سبيل إلى الوصول إلى القرب من الله تعالى إلا بالإيمان وكيف تصور سلوك سبيل الإيمان دون معرفة مآبه الإيمان ومن به الإيمان والثقاعد عن معرفة الصبر والشكر ثقاعد عن معرفة من به الإيمان وعن إدراك مآبه الإيمان فما أحوج كلا الشطرين إلى الإيضاح والبيان ونحن نوضح كلا الشطرين في كتاب واحد لارتباط أحدهما بالآخر إن شاء الله تعالى . الشطر الأول في الصبر وفيه بيان فضيلة الصبر وبيان حده وحقيقته وبيان كونه نصف الإيمان وبيان اختلاف أساميهِ باختلاف متعلقاته وبيان أقسامه بحسب اختلاف القوة والضعف وبيان مظان الحاجة إلى الصبر وبيان دواء الصبر وما يستعان به عليه فهي سبعة فصول تشتمل على جميع مقاصده إن شاء الله تعالى .

### ( بيان فضيلة الصبر )

قد وصف الله تعالى الصابرين بأوصاف وذكر الصبر في القرآن في نيف وسبعين موضعاً وأضاف أكثر الدرجات والخيرات إلى الصبر وجعلها ثمرة له فقال عز من قائل - وجعلنا منهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك الحسنى على نبي إسرائيل بما صبروا وقال تعالى - ولنجزين الذين صبروا أجرهم بأحسن مما كانوا يعملون - وقال تعالى - وأولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وقال تعالى - إنما يؤتى الصابرون وأجرهم خير حساب - فإمن قربة إلا وأجرها بتقدير وحساب إلا الصبر ولأجل كون الصوم من الصبر وأنه نصف الصبر قال الله تعالى « الصوم لي وأنا أجزى به » فأضافه إلى نفسه من بين سائر العبادات ووعد الصابرين بأنه معهم فقال تعالى - واصبروا إن الله مع الصابرين - وعلق النصر على الصبر فقال تعالى - بل إن تصبروا وتتقوا ويأتوكم من فورهم هذا يمددكم ربكم بخمسة آلاف من الملائكة مسومين - وجمع للصابرين بين أمور لم يحسبها لغيرهم فقال تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المنتهدون - فالهدى والرحمة والصلوات مجموعة للصابرين واستقصاء جميع الآيات في مقام الصبر يطول . وأما الأخبار فقد قال صلى الله عليه وسلم « الصبر نصف الإيمان <sup>(١)</sup> » على ما سأتى وجه كونه نصفاً وقال صلى الله عليه وسلم « من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر ومن أعطى حفظه منهما لم يبال بما فات من قيام الليل وصيام النهار ولأن تصبروا على ما أنتم عليه أحب إلى من أن يوافيكم كل امرئ منكم بمثل عمل جميعكم ولكني أخاف أن تفتح عليكم الدنيا بحدى فينكر بعضكم بعضاً وينكركم أهل السماء عند ذلك فمن صبر واحتسب ظفر بكال ثوابه ثم قرأ قوله تعالى - ما عندكم ينفذ وما عند الله باق ولنجزين الذين صبروا أجرهم - <sup>(٢)</sup> » الآية وروى جابر أنه سئل عن النبي ﷺ عن الإيمان فقال « الصبر والسجدة <sup>(٣)</sup> » وقال أيضاً « الصبر كنز من كنوز الجنة <sup>(٤)</sup> » وسئل مرة « ما الإيمان فقال الصبر <sup>(٥)</sup> » وهذا يشبه قوله صلى الله عليه وسلم « الحج عرفة <sup>(٦)</sup> » معناه معظم الحج عرفة

رواية يزيد الرقاشي عن أنس ويزيد ضعيف (١) حديث الصبر نصف الإيمان أبو نعيم والخطيب من حديث ابن مسعود وتقدم في الصوم (٢) حديث من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر الحديث بطوله تقدم في العلم مختصراً ولم أجده هكذا بطوله (٣) حديث جابر سئل عن الإيمان فقال الصبر والسجدة الطبراني في معارج الأخلاق وابن حبان في الضعفاء وفيه يوسف بن محمد بن النكدر ضعيف ورواه الطبراني في الكبير من رواية عبد الله بن عبيد بن عمير عن أبيه عن جده (٤) حديث الصبر كنز من كنوز الجنة غريب لم أجده (٥) حديث سئل مرة عن الإيمان فقال الصبر أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية يزيد الرقاشي عن أنس مرفوعاً الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ويزيد ضعيف (٦) حديث الحج عرفة تقدم في الحج .

نزول التي ذكرناها  
تحل السقذ وتبي  
الباطن لصلاة الظهر  
فيقرأ في صلاة الزوال  
يعقد سورة البقرة  
في النهار الطويل وفي  
القصر ما يتيسر من  
ذلك قال الله تعالى :  
وعشوا وحين تظهرون -  
وهذا هو الإظهار فان  
انتظر بعد السنة  
حضور الجماعة للفرص  
وقرأ الدعاء الذي بين  
الفريضة والسنة من  
صلاة الفجر فحسن  
وكذلك ماورد أن  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم دعا به إلى  
صلاة العجر ثم إذا  
فرغ من صلاة الظهر  
يقرأ الفاتحة وآية  
الكرسى ويسبح



وقال أيضا صلى الله عليه وسلم «أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس»<sup>(١)</sup> وقيل أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام تخليق بأخلاق وإن من أخلاق أنى أنا الصبور وفي حديث عطاء عن ابن عباس لما دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على الأنصار فقال «أؤمنون أنتم؟ فسكتوا فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وماعلمة إيمانكم قالوا أنشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب السكبة»<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «في الصبر على ما تكره خير كثير»<sup>(٣)</sup> وقال المسيح عليه السلام : إنكم لا تدركون ما تحبون إلا بالصبركم على ما تكرهون . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لو كان الصبر رجلا لكان كريما والله يحب الصابرين»<sup>(٤)</sup> والأخبار في هذا لا تحصى . وأما الآثار : فقد وجد في رسالة عمر بن الخطاب رضي الله عنه إلى أبي موسى الأشعري عليك بالصبر واعلم أن الصبر صبران أحدهما أفضل من الآخر : الصبر في المصائب حسن وأفضل منه الصبر عما حرم الله تعالى . واعلم أن الصبر ملاك الإيمان وذلك بأن التقوى أفضل البر والتقوى بالصبر وقال صلى الله عليه وسلم : بني الإيمان على أربع دعائم : اليقين والصبر والجهاد والعدل . وقال أيضا الصبر من الإيمان بمنزلة الرأس من الجسد ولا جسد لمن لا رأس له ولا إيمان لمن لا صبر له وكان عمر رضي الله عنه يقول : نعم العدلان وأعمت الملاوة للصابرين يعني بالعدلين الصلاة والرحمة وبالملاوة الهدى والملاوة ما يحمل فوق العدلين على البعير وأشار به إلى قوله تعالى - أولئك عليهم صلوات من ربهم ورحمة وأولئك هم المهتدون - وكان حبيب بن أبي حبيب إذا قرأ هذه الآية - إنا وجدناه صابرا نعم الصديق - أو أبى بكى وقالوا عجباه أعطى وأثنى أى هو العطي للصبر وهو الثنى . وقال أبو الدرداء ذروة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر هذا بيان فضيلة الصبر من حيث الثقل وأما من حيث النظر بين الاعتبار فلا تفهمه إلا بعد فهم حقيقة الصبر ومعناه إذ معرفة الفضيلة والرتبة معرفة صفة فلا تحصل قبل معرفة الموصوف فلنذكر حقيقته ومعناه وبالله التوفيق .

### ( بيان حقيقة الصبر ومعناه )

اعلم أن الصبر مقام من مقامات الدين ومنزل من منازل السالكين وجميع مقامات الدين إنما تنظم من ثلاثة أمور : معارف وأحوال وأعمال فالمعارف هي الأصول وهي توزن الأحوال والأحوال تشر الأعمال فالمعارف كالأشجار والأحوال كالأغصان والأعمال كالثمار وهذا مظهر في جميع منازل السالكين إلى الله تعالى واسم الإيمان تارة يختص بالمعارف وتارة يطلق على السبل كما ذكرناه في اختلاف اسم الإيمان والاسلام في كتاب قواعد العقائد وكذلك الصبر لا يتم إلا بمعرفة سابقة وبمالة قائمة فالصبر على التحقيق عبارة عنها والعمل هو كالثمره يصدر عنها ولا يعرف هذا إلا بمعرفة كيفية الترتيب بين اللائكة والإنس والبهائم فإن الصبر خاصية الإنس ولا يتصور ذلك في البهائم ولللائكة أما في البهائم فلتقصاتها . وأما في اللائكة فلكمالها ويانه أن البهائم سلطت عليها الشهوات وصارت مسخرة لها فلا باعث لها على الحركة والسكون إلا الشهوة وليس فيها قوة تصادم الشهوة وتردها عن مقتضاها حتى يسمى ثبات تلك القوة في مقابلة مقتضى الشهوة صبرا . وأما اللائكة

(١) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس لأصل له مرفوعا وإنما هو من قول عمر بن عبد العزيز هكذا رواه ابن أبي الدنيا في كتاب محاسبة النفس (٢) حديث عطاء عن ابن عباس دخل على الأنصار فقال أؤمنون أنتم فسكتوا فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه قال وماعلمة إيمانكم قالوا أنشكر على الرخاء ونصبر على البلاء ونرضى بالقضاء فقال صلى الله عليه وسلم مؤمنون ورب السكبة (٣) حديث في الصبر على ما تكره (٤) حديث لو كان الصبر رجلا لكان كريما الطبراني من حديث عائشة وفيه صحيح بن دينار ضعفه العقيلي .

ومحمد ويكبر ثلاثا  
وثلاثين كما وصفنا ولو  
قدر على الآيات كلها  
التي ذكرناها بعد  
صلاة الصبح وعلى  
الأدعية أيضا كان ذلك  
خييرا كثيرا وفضلا  
عظيما ومن له حمة  
ناهضة وعزيمة صادقة  
لا يستكثر شيئا لله  
تعالى ثم يحسب بين  
الظهر والعصر كما يحسب  
بين العشاءين على  
الترتيب الذي ذكرناه  
من الصلاة والتلاوة  
والذكر والراقبة  
ومن دام سهره ينام  
نومة خفيفة في النهار  
الطويل بين الظهر  
والعصر ولو أحيا بين  
الظهر والعصر ركعتين  
يقرأ فيهما ربع القرآن

عليهم السلام فإنهم جردوا للشوق إلى حضرة الربوبية والابتهاج بدرجة القرب منها ولم تسلط عليهم شهوة صارفة صادة عنها حتى يحتاج إلى مصادمة ما يصرفها عن حضرة الجلال بجد آخر يطلب الصوارف . وأما الإنسان فإنه خلق في ابتداء الصبا ناقصا مثل البهيمة لم يخلق فيه إلا شهوة الغذاء الذي هو محتاج إليه ثم تظهر فيه شهوة اللعب والزينة ثم شهوة النكاح على الترتيب وليس له قوة الصبر البتة ، إذ الصبر عبارة عن ثبات جند في مقابلة جند آخر قام القتال بينهما لتضاد مقتضياتهما ومطالبهما وليس في الصبي إلا جند الهوى كما في البهائم ولكن الله تعالى بفضل وسعة جوده أكرم بني آدم ورفع درجاتهم عن درجة البهائم فوكل به عند كمال شخصه بمقاربة البلوغ ملكين : أحدهما يهديه . والآخر يقويه تمييز بمعونة الملكين عن البهائم ، واختص بصفتين : إحداهما معرفة الله تعالى ومعرفة رسوله ومعرفة الصالح للتعاقب بالعواقب وكل ذلك حاصل من الملك الذي إليه الهداية والتعريف ، فالبهيمة لا معرفة لها ولا هداية إلى مصلحة العواقب بل إلى مقتضى شهواتها في الحال فقط فذلك لا يتطلب إلا اللذيق . وأما الدواء النافع مع كونه مضرا في الحال فلا يتطلب ولا ترفه فصار الإنسان بنور الهداية يعرف أن اتباع الشهوات له مضيات مكروهة في العاقبة ولكن لم تكن هذه الهداية كافية ما لم تكن له قدرة على ترك ما هو مضر فكم من مضر يعرفه الإنسان كالمرض النازل به مثلا ولكن لا قدرة له على دفعه فافتقر إلى قدرة وقوة يدفع بها في نحر الشهوات فيجاهدها بتلك القوة حتى يقطع عداوتها عن نفسه فوكل الله تعالى به ملكا آخر يسدده ويؤيده ويقويه بخنود لم تروها وأمر هذا الجند بقتال جند الشهوة فتارة يضعف هذا الجند وتارة يقوى ذلك بحسب إمداد الله تعالى عبده بالتأييد كأن نور الهداية أيضا يختلف في الخلق اختلافا لا ينحصر فلنسم هذه الصفة التي بها فارق الإنسان البهائم في قمع الشهوات وقهرها باعثا دينيا ولنسم مطالبة الشهوات بمقتضياتها باعث الهوى وليفهم أن القتال قائم بين باعث الدين وباعث الهوى والحرب بينهما سجل ومعرفة هذا القتال قلب العبد ، ومدد باعث الدين من الملائكة الناصرين لحزب الله تعالى ، ومدد باعث الشهوة من الشياطين الناصرين لأعداء الله تعالى ، فالصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الشهوة ، فإن ثبت حتى قهره واستمر على مخالفة الشهوة فقد نصر حزب الله والتحقيق بالصبرين وإن تخاذل وضعف حتى غلبته الشهوة ولم يصبر في دفعها التحق بأتباع الشياطين ، فإذا ترك الأفعال المشتهة عمل يشمره حال يسمى الصبر وهو ثبات باعث الدين الذي هو في مقابلة باعث الشهوة وثبات باعث الدين حال ثمرها العرفة بعداوة الشهوات ومضادها لأسباب السعادات في الدنيا والآخرة فإذا قوى يقينه أعنى العرفة التي تسمى إيمانا وهو اليقين بكون الشهوة عدوا قاطعا لطريق الله تعالى قوى ثبات باعث الدين وإذا قوى ثباته تمت الأفعال على خلاف ما تنقضاء الشهوة فلا يتم ترك الشهوة الأبقوة باعث الدين المضاد لباعث الشهوة وقوة العرفة والأيمان تنجح مغية الشهوات وسوء عاقبتها وهذان للسكان هما التكفلان بهذين الجندين بأذن الله تعالى وتسخيرهما إياهما ، وهما من الكرام السكاتبين وهما للملكان الموكلان بكل شخص من الآدميين . وإذا عرفت أن رتبة الملك الهادي أعلى من رتبة الملك للقوى لم يغف عليك أن جانب اليمين هو الذي أشرف الجانبين من جنبتي الدست ، ينبغي أن يكون مسلما له فهو أذن صاحب اليمين والآخر صاحب الشمال . ولعبد طوران في الغفلة والفكر وفي الاسترسال والمجاهدة فهو بالغفلة معرض عن صاحب اليمين ومضى إليه فيكتب أعراضه سيئة وبالفكر مقبل عليه ليستفيد منه الهداية فهو به محسن فيكتب أقباله حسنة وكذا بالاسترسال هو معرض عن صاحب اليسار تارك للاستمداد منه فهو به مسىء إليه فيثبت عليه سيئة وبالمجاهدة مستمد من جنوده فيثبت له به حسنة وانما ثبتت هذه الحسنات والسيئات بآبائهما فذلك مما كراما

أو يقرأ ذلك في أربع ركعات فهو خير كثير وإن أراد أن يحجي هذا الوقت بمائة ركعة في النهار الطويل أمكن ذلك أو بعشرين ركعة يقرأ فيها قل هو الله أحد ألف مرة في كل ركعة خمسين ويستاك قبل الزوال إذا كان صائما وإن لم يكن صائما فأى وقت خير فيه الفم . وفي الحديث « السواك مطهرة للفم مرضاة لقرب » وعند القيام من الفرائض يستحب قبل إن الصلاة بالسواك تفضل على الصلاة بغير سواك سبعين ضمنا ، وقيل هو خير وإن أراد أن يقرأ بين

كاتبين أما الكرام فلا تنفخ البعد بكرمهما ولأن الملائكة كلهم كرام برروا أما الكاتبون فلا ياتهما الحسنت والسبئات وإنما يكتبان في صحائف مطوية في سر القلب ومطوية عن سر القلب حتى لا يطلع عليه في هذا العالم فأنهما وكتبتهما وخطبهما وصحائفهما وجملة ما تعلق بهما من جملة عالم الغيب والملكوت لامن عالم الشهادة وكل شيء من عالم الملكوت لا تدركه الأبصار في هذا العالم ثم تنشر هذه الصحائف المطوية عنه مرتين مرة في القيامة الصغرى ومرة في القيامة الكبرى وأعني بالقيامة الصغرى حالة الموت إذ قال صلى الله عليه وسلم « من مات فقد قامت قيامته <sup>(١)</sup> » وفي هذه القيامة يكون العبد وحده وعندها يقال - ولقد جثمتونا فرادی كما خلقناكم أول مرة - وفيها يقال - كفى بنفسك اليوم عليك حسيبا - أما في القيامة الكبرى الجامعة لكافة الخلائق فلا يكون وحده بل ربما يحاسب على ملائمة الخلق وفيها يساق للتون إلى الجنة والمجرمون إلى النار زمرا لا آحادا والمهل الأول هو هول القيامة الصغرى وجميع أهوال القيامة الكبرى نظير في القيامة الصغرى مثل زلزلة الأرض مثلا فان أرضك الخاصة بك تزلزل في الموت فانك تعلم أن الزلزلة إذا زلزلت يهتة صدق أن يقال قد زلزلت أرضهم وإن لم تزلزل البلاد المحيطة بها بل لو زلزل مسكن الإنسان وحده فقد حصلت الزلزلة في حقه لأنه إنما ينشأ من عند زلزلة جميع الأرض بزلزلة مسكنه لا بزلزلة مسكن غيره فخصته من الزلزلة قد توفرت من غير نقصان . واعلم أنك أرضى مخلوق من التراب وحطك الخاص من التراب بذلك قط فاما بدن غيرك فليس بحطك والأرض التي أنت جالس عليها بالاضافة إلى بدنك ظرف ومكان وإنما تخاف من تزلزله أن يترززل بدنك بسببه وإلا فالهواء أبدا متززل وأنت لا تغشاه إذ ليس يترززل به بدنك فخطك من زلزلة الأرض كلها زلزلة بدنك قط فهي أرضك وترباك الخاص بك وعظامك جبال أرضك ورأسك سماء أرضك وقلبك شمس أرضك وسمك وبصرك وسائر خواصك نجوم بجناك ومفيض العرق من بدنك بحر أرضك وشمورك نبات أرضك وأطرافك أشجار أرضك وهكذا إلى جميع أجزائك فاذا انهدم بالموت أركان بدنك قد زلزلت الأرض زلزالها فاذا انقضت العظام من اللحوم قد حملت الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة فاذا رمت العظام قد نسفت الجبال نسفا فاذا أظلم قلبك عند الموت قد كورت الشمس تكويرا فاذا بطل سمك وبصرك وسائر خواصك قد انكسرت النجوم انكسارا فاذا انشق دماغك قد انشقت السماء انشقاقا فاذا انفجرت من هول الموت عرق جبينك قد انفجرت البحار انفجيرا فاذا التفت إحدى ساقيك بالأخرى وما مطيتك قد عطلت العشار تعطيلها فاذا فارقت الروح الجسد قد حملت الأرض فمدت حتى ألقت ما فيها وتخلت ولست أطول بجميع موازنة الأحوال والأهوال ولكني أقول بمجرد الموت تقوم عليك هذه القيامة الصغرى ولا يغوتك من القيامة الكبرى شيء مما يخشك بل ما يخص غيرك فان بقاء الكواكب في حق غيرك ماذا ينفعك وقد انشثرت حواسك التي بها تنتفع بالنظر إلى الكواكب والأعمى يستوى عنده الليل والنهار وكسوف الشمس وانجلائها لأنها قد كسفت في حقه دفعة واحدة وهو حصته منها فالانجلاء بعد ذلك حصة غيره ومن انشق رأسه قد انشثت سجاؤه إذ السماء عبارة عما على جهة الرأس فمن لا رأس له لا أسماء له فمن أين ينفعه بقاء السماء لغيره فهذه هي القيامة الصغرى والخوف بعد أسفل والمهل بعد مؤخر وذلك إذا جاءت الطامة الكبرى وارتفع الحصوص وبطلت السموات والأرض ونسفت الجبال ونمت الأهوال . واعلم أن هذه الصغرى وإن طوكتا في وصفها فانا لم نذكر عشر عشر أو صافها وهي بالنسبة إلى القيامة الكبرى كالولادة الصغرى بالنسبة إلى الولادة الكبرى فان للإنسان ولادتين: إحداهما الخروج من الصلب والترائب إلى مستودع الأرحام

(١) حديث من مات فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث أنس بسند ضعيف.

الصلابين في صلاته في  
عشرين ركعة في كل  
ركعة آية أو بعض آية  
تقرأ في الركعة الأولى  
ربنا آتنا في الدنيا  
حسنة وفي الآخرة  
حسنة وقنا عذاب  
النار - ثم في الثانية  
ربنا أفرغ علينا صبرا  
وثبت أقدامنا وانصرنا  
على القوم الكافرين -  
ثم - ربنا لا تؤاخذنا  
بإخرا السورة ثم ربنا  
لا تزغ قلوبنا - الآية  
ثم ربنا إنا معذمانا  
ينادي للإيمان - الآية  
ثم ربنا آمنا بما  
أنزلت - ثم - أنت  
ولينا فاغفر لنا - ثم  
فاطر السموات  
والأرض أنت ولي -  
ثم - ربنا إنك تعلم

فهو في الرحم في قرار مكين إلى قدر معلوم وله في سلوكه إلى الكمال منازل وأطوار من نطفة وعلقة ومضغة وغيرها إلى أن يخرج من مضيق الرحم إلى فضاء العالم فنبذة عموم القيامة الكبرى إلى خصوص القيامة الصغرى كنسبة سعة فضاء العالم إلى سعة فضاء الرحم ونسبة سعة العالم الذي يقدم عليه الصبد بالموت إلى سعة فضاء الدنيا كنسبة فضاء الدنيا أيضا إلى الرحم بل أوسع وأعظم قس الآخرة بالأولى فما خلقكم ولا بشئكم إلا كنفس واحدة وما النشأة الثانية إلا على قياس النشأة الأولى بل أعداد النشآت ليست محصورة في اثنتين وإليه الإشارة بقوله تعالى - وننشئكم فيما لا تعلمون - فالمر بالقيامتين مؤمن بعالم الغيب والشهادة وموقن بالملك والملكوت والمر بالقيامة الصغرى دون الكبرى ناظر بالعين الموراء إلى أحد العالمين وذلك هو الجهل والضلال والافتداء بالأعور إلى الدجال ، فما أعظم غفلتك يا مسكين وكلنا ذلك المسكين وبين يديك هذه الأهوال فإن كنت لا تؤمن بالقيامة الكبرى بالجهل والضلال أفلا تكفيك دلالة القيامة الصغرى أو ما سمعت قول سيد الأنبياء « كفى بالموت واعظا »<sup>(١)</sup> أو ما سمعت بكبريه عليه السلام عند الموت حتى قال صلى الله عليه وسلم « اللهم هون على محمد سكرات الموت »<sup>(٢)</sup> أو ما تستحي من استبطائك هجوم الموت اقتداء برعاغ العافلين الذين لا ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون فيأتيهم المرض نذيرا من الموت فلا ينزجرون ويأتيهم الشيب رسولا منه فما يعتبرون فيا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون أفيطنون أنهم في الدنيا خالدون أو لم يروا كم أهلكنا قبلاهم من القرون أنهم إليهم لا يرجعون أم يحسبون أن الموتى سافروا من عندهم فهم معدومون كلا إن كل لما جحيم لدينا محضرون ولكن ماتناهم من آية من آيات ربهم إلا كانوا عنها معرضين وذلك لأننا جعلنا من بين أيديهم سدا ومن خلفهم سدا فأغشيناهم فهم لا يبصرون وسواء عليهم أأنذرتهم أم لم تنذرهم لا يؤمنون ولترجع إلى الفرض فإن هذه تلويحات تشير إلى أمور هي أعلى من علوم للعامة . فقول قد ظهر أن الصبر عبارة عن ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى وهذه المقاومة من خاصة الآدميين لما وكل بهم من الكرام الكاتبين ولا يكتبان شيئا على الصبيان والمجانين إذ قد ذكرنا أن الحسنه في الإقبال على الاستفادة منهما والسيئة في الاعراض عنهما وما للصبيان والمجانين سبيل إلى الاستفادة فلا يتصور منهما إقبال وإعراض وهما لا يكتبان إلا الإقبال والاعراض من القادرين على الإقبال والإعراض ولعمري إنه قد تظهر مبادئ إشراق نور الهداية عند سن التمييز وتنمو على التدرج إلى سن البلوغ كما يبدو نور الصباح إلى أن يطلع قرص الشمس ولكنها هداية قاصرة لا ترشد إلى مضار الآخرة بل إلى مضار الدنيا فلذلك يضرب على ترك الصلوات ناجزا ولا يعاقب على تركها في الآخرة ولا يكتب عليه من الصحائف ما ينشر في الآخرة بل على القيم العدل والولي البر الشفيق إن كان من الأبرار وكان على صفات الكرام الكاتبين البررة الأخيار أن يكتب على الصبي سيئته وحسنه على صحيفة قلبه فيكتبه عليه بالحفظ ثم ينشره عليه بالتحريف ثم يعذبه عليه بالضرب فكل ولي هذا صته في حق الصبي فقد ورث أخلاق الملائكة واستعملها في حق الصبي فينال بها درجة القرب من رب العالمين كما نالته الملائكة فيكون مع النبيين والمقرئين والصديقين وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث كفى بالموت واعظا البيهقي في الشعب من حديث عائشة وفيه الريع بن بدر ضعيف ورواه الطبراني من حديث عقبة بن عامر وهو معروف من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٢) حديث اللهم هون على محمد سكرات الموت الترمذي وقال غريب والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه من حديث عائشة بالفظ اللهم أعني على سكرات الموت .

ما تخفى وما تعلمان -  
الآية ثم - وقال رب زدني علما - ثم - لا إله إلا أنت سبحانك - ثم - رب لا تذرني فردا - ثم - وقال رب اغفر وارحم وأنت خير الراحمين - ثم - ربنا هب لنا من أزواجنا - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي وعلى والدي وأن أعمل صالحا ترضاه وأدخلني برحمتك في عبادك الصالحين - ثم - يعلم خائنة الأعين وما تخفى الصدور - ثم - رب أوزعني أن أشكر نعمتك التي أنعمت علي - الآية من سورة الأحقاف ثم - ربنا اغفر لنا

وأنا وكافل اليتيم كهاتين في الجنة (١) وأشار إلى أصعبه الكريمين صلى الله عليه وسلم .  
( بيان كون الصبر نصف الإيمان )

اعلم أن الإيمان تارة يختص في إطلاقه بالتصديقات بأصول الدين وتارة يختص بالأعمال الصالحة الصادرة منها وتارة يطلق عليهما جميعا وللمعارف أبواب وللأعمال أبواب ولا احتمال لفظ الإيمان على جميعها كان الإيمان نيفا وسبعين بابا واختلاف هذه الاطلاقات ذكرناه في كتاب قواعد العقائد من ربيع العبادات ولكن الصبر نصف الإيمان باعتبارين وعلى مقتضى إطلاقين : أحدهما أن يطلق على التصديقات والأعمال جميعا فيكون للإيمان ركنان : أحدهما اليقين والآخر الصبر والمراد باليقين للمعارف القطعية الحاصلة بهداية الله تعالى عبده إلى أصول الدين والمراد بالصبر العمل بمقتضى اليقين إذ اليقين يرفقه آن العصية ضارة والطاعة نافعة ولا يمكن تزكك العصية والمواظبة على الطاعة إلا بالصبر وهو استعمال باعث الدين في قهر باعث الهوى والكسل فيكون الصبر نصف الإيمان بهذا الاعتبار ولهذا جمع رسول الله صلى الله عليه وسلم بينهما فقال « من أقل ما يؤتيه اليقين وعزيمة الصبر » الحديث إلى آخره . الاعتبار الثاني أن يطلق على الأحوال الثمرة للأعمال لاهل المعارف وعند ذلك ينقسم جميع ما يلاقه العبد إلى ما ينفعه في الدنيا والآخرة أو يضره فيها وله بالإضافة إلى ما يضره حال الصبر وبالإضافة إلى ما ينفعه حال الشكر فيكون الشكر أحد شطري الإيمان بهذا الاعتبار كأن اليقين أحد الشطرين بالاعتبار الأول وبهذا النظر قال ابن مسعود رضى الله عنه الإيمان نصفان نصف صبر ونصف شكر وقد يرفع أيضا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ولما كان الصبر صبرا عن باعث الهوى بثبات باعث الدين وكان باعث الهوى قسمين . باعث من جهة الشهوة ، وباعث من جهة الغضب فالشهوة أطلب للذيذ والغضب للهرب من المؤلم وكان الصوم صبرا عن مقتضى الشهوة فقط وهى شهوة البطن والفرج دون مقتضى الغضب قال صلى الله عليه وسلم بهذا الاعتبار « الصوم نصف الصبر » لأن كمال الصبر بالصبر عن دواعي الشهوة ودواعي الغضب جميعا فيكون الصوم بهذا الاعتبار ربع الإيمان فهكذا ينبغي أن نفهم تقديرات الشرع بمحدود الأعمال والأحوال ونسبها إلى الإيمان والأصل فيه أن تعرف كثرة أبواب الإيمان فإن اسم الإيمان يطلق على وجوه مختلفة .

( بيان الأسامي التي تتجدد للصبر بالإضافة إلى ماعنه الصبر )

اعلم أن الصبر ضربان : أحدهما ضرب بدني كتحمل الشاق بالبدن والثبات عليها وهو إما بالفعل كتماطى الأعمال الشاقة إما من العبادات أو من غيرها وإما بالاحتمال كالصبر عن الضرب الشديد والمرضى العظيم والجراحات المائلة وذلك قد يكون محمدا إذا وافق الشرع ولكن الحمد والثناء هو الضرب الآخر وهو الصبر النفسى عن مشتبهات الطبع ومقتضيات الهوى ثم هذا الضرب إن كان صبرا على شهوة البطن والفرج سمى غفة وإن كان على احتمال مكروه اختلفت أساميه عند الناس باختلاف المكروه الذى غلب عليه الصبر فإن كان فى مصيبة اقتصر على اسم الصبر وتضاده حالة تسمى الجزع والمهلح وهو إطلاق داعى الهوى ليسترسل فى رفع الصوت وضرب الخدود وشق الجيوب وغيرها وإن كان فى احتمال النفسى وتضاده حالة تسمى البطر وإن كان فى حرب ومقابلة سمى شجاعة ويضاده الجبن وإن كان فى كظم الغيظ والغضب سمى حلا ويضاده التذمر وإن كان فى نائبة من نوائب الزمان مضجرة سمى سعة الصدر ويضاده الضجر والتبرم وضيق الصدر وإن كان فى إخفاء كلام سمى كتمان السر وسمى صاحبه كتوما وإن كان عن فضول القيتى سمى زهدا ويضاده

(١) حديث أنا وكافل اليتيم كهاتين البخارى من حديث سهل بن سعد وتقدم .

ولا خواتنا الذين -  
الآية ثم - ربنا عليك  
توكلنا - ثم درب اغفر  
لى ولوالدى ولمن دخل  
بيت مؤمنا وللمؤمنين  
والمؤمنات ولا تزد  
الظالمين إلا تبارا -  
مهما يصل فليقرأ بهذه  
الآيات وبالحفاظة على  
هذه الآيات فى الصلاة  
مواظبا للقلب واللسان  
يوشك أن يرقى إلى  
مقام الاحسان ولورد  
فرد آية من هذه فى  
ركعتين من الظهر أو  
الصبر كان فى جميع  
الوقت مناجيا لمولاه  
وداعيا وتاليا ومصليا  
والدؤوب فى العمل  
واستيعاب أجزاء النهار  
بلذاته وحلاوة من  
غير سامة لا يصح

الحرم وإن كان صبرا على قدر يسير من الحظوظ سوى قناعة وصاده الشره فأكثر أخلاق  
الإنسان داخل في الصبر ولذلك لما سئل عليه السلام مرة عن الإيمان قال «هو الصبر» لأنه أكثر  
أعماله وأعزها كما قال «الحج عرفه» (١) وقد جمع الله تعالى أقسام ذلك وصي الكل صبرا فقال تعالى  
- والصابرين في البأساء - أي الصيبة - والضراء - أي الفقر - وحين البأس - أي المحاربة - أولئك  
الذين صدقوا وأولئك هم المتقون - فاذن هذه أقسام الصبر باختلاف متعلقاتها ومن يأخذ اللعان من  
الأسامي يظن أن هذه الأحوال مختلفة في ذواتها وحقائقها من حيث رأى الأسامي مختلفوا الذي  
يسلك الطريق للستقيم وينظر بنور الله يلحظ للعانى أولا فيطلع على حقائقها ثم يلاحظ الأسامي  
فانها وضعت دالة على اللعان فاللعان هي الأصول والألفاظ هي التوابع ومن يطلب الأصول من التوابع  
لا بد وأن يزل وإلى الفريقين الإشارة بقوله تعالى - أفمن ينشئ مكبأ على وجهه أهدى أمن يمشي  
سويا على صراط مستقيم - فإن الكفار لم يخطوا فيما غلطوا فيه إلا بمثل هذه الانكسارات ، نسأل  
الله حسن التوفيق بكرمه ولطفه .

( بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف )

اعلم أن باعث الدين بالإضافة إلى باعث الهوى له ثلاثة أحوال : أحدها أن يقهر داعي الهوى فلا يتبع  
له قوة المنازعة ويتوصل إليه بدوام الصبر وعند هذا يقال من صبر ظفر والواصلون إلى هذه الرتبة  
هم الأقفلون فلا جرم هم الصديقون المقربون الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فهو لاء لازموا الطريق  
للمستقيم واستوتوا على الصراط القويم واطمأنات نفوسهم على مقتضى باعث الدين وإياهم ينادى النادى  
- يا أيها النفس الطمئة ارجعي إلى ربك راضية مرضية - . الحالة الثانية أن تغلب دواعي الهوى  
وتسقط بالكلية المنازعة باعث الدين فيسلم نفسه إلى جند الشياطين ولا يجاهد ليأسه من المجاهدة  
وهؤلاء هم العافلون وهم الأكثرون وهم الذين استرقتهم شهواتهم وغلبت عليهم شغوتهم فكروا  
أعداء الله في قلوبهم التي هي سر من أسرار الله تعالى وأمر من أمور الله وإليه الإشارة بقوله تعالى  
- ولوشئنا لآتيناك كل نفس هداها ولكن حق القول مني لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين -  
وهؤلاء هم الذين اشتروا الحياة الدنيا بالآخرة فخرت صفقتهم وقيل لمن قصد إرشادهم - فأعرض عمن  
تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - وهذه الحالة علامتها اليأس والقنوط  
والفرور بالأمانى وهو غاية الحق كما قال صلى الله عليه وسلم «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد  
الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (٢) وصاحب هذه الحالة إذا وعظ قال أنا مشتاق  
إلى التوبة ولكنها قد تعذرت على فلست أطمع فيها أولم يكن مشتاقا إلى التوبة ولكن قال إن  
الله غفور رحيم فلاحاجة به إلى توبتي وهذا السكين قد صار عقله رقيقا لشهوته فلا يستعمل  
عقله إلا في استنباط دقائق الحيل التي بها يتوصل إلى قضاء شهوته قد صار عقله في يد شهواته كسمل  
أسير في أيدي الكفار فهم يستسخرونه في رعاية الخنازير وحفظ الحنجر وحملها وعمله عند الله تعالى  
عمل من يقهر مسلما ويسلمه إلى الكفار ويحمله أسيرا عندهم لأنه بفاحش جنايته يشبه أنه سخر  
ما كان حقه أن لا يستسخر وسلط ماحقه أن لا يتسلط عليه وإنما استحق السلم أن يكون متسلطا  
لما فيه من معرفة الله وباعث الدين وإنما استحق الكفار أن يكون مسلطا عليه لما فيه من الجهل  
بالدين وباعث الشياطين وحق السلم على نفسه أوجب من حق غيره عليه فهما سخر المعنى الشريف

إلا بعد تزكيت نفسه  
بكمال التقوى  
والاستقصاء في الزهد  
في الدنيا وانزع منه  
متابعة الهوى ومتى بقي  
على الشخص من  
التقوى والزهد والهوى  
بقية لا يندوم روحه في  
العمل بل ينشط وتنا  
ويسام وتنا ويتناوب  
النشاط والكسل فيه  
لبقاء متابعة شيء من  
الهوى بنقصان تقوى  
أوجبة دنيا وإذا صح  
في الزهد والتقوى فإن  
ترك العمل بالجوارح  
لا يفر عن العمل بالقلب  
فمن رام دوام الروح  
واستحلاء الدؤوب في  
العمل فعليه بحسم مادة  
الهوى والهوى روح  
النفس لا يزول ولكن

(١) حديث الحج عرفة أصحاب السنن من حديث عبد الرحمن بن يسر وتقدم في الحج

(٢) حديث الكيس من دان نفسه الحديث تقدم في ذم الفرور .

الذي هو من حزب الله وجند الملائكة لبعض الخبيث الذي هو من حزب الشياطين البعدين عن الله تعالى كان كمن أرقى مسلماً لكافر بل هو كمن قصد الملك النعم عليه فأخذ أعز أولاده وسله إلى أبض أعدائه فانظر كيف يكون كفراته لنعمته واستجابته لنعمته لأن الهوى أبض إله عبد في الأرض عند الله تعالى والعقل أعز موجود خلق على وجه الأرض . الحالة الثالثة أن يكون الحزب سجالات بين الجندين فتارة له اليد عليها وتارة لها عليه وهذا من المجاهدين يمد مثله لامن الظافرين وأهل هذه الحالة هم الذين خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم هذا باعتبار القوة والضعف ويتطرق إليه أيضاً ثلاثة أحوال باعتبار عدد ما يصبر عنه : فانه إما أن يظلب جميع الشهوات أو لا يظلب شيئاً منها أو يظلب بعضها دون بعض وتزبل قوله تعالى - خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً - على من هجر عن بعض الشهوات دون بعض أولى والتاركون للمجاهدة مع الشهوات مطلقاً يشبهون بالأنعام بل هم أضل سبيلاً إذ البهيمة لم تخلق لها المعرفة والقدرة التي بها يجاهد مقتضى الشهوات وهذا قد خلق ذلك له وعظله فهو الناقص حقاً المدبر بقينا ولذلك قيل :

فلم أر في عيوب الناس عيباً كنقص القادرين على التمام

وينقسم الصبر أيضاً باعتبار اليسر والعسر إلى ما يشق على النفس فلا يمكن الدوام عليه إلا بمجهود جهيد وتعب شديد ويسمى ذلك صبراً وإلى ما يكون من غير شدة تعب بل يحصل بأدنى تحمل على النفس ويخص ذلك باسم الصبر وإذا دامت القوى وقوى التصديق بما في العاقبة من الحسن تيسر الصبر ولذلك قال تعالى - فأما من أعطى واتقى وصدق بالحسن فستيسره لليسر - ومثال هذه القسمة قدرة الصارع على غيره فان الرجل القوى يقدر على أن يصرع الضعيف بأدنى حملة وأيسر قوة بحيث لا يلقاه في مصارعة إعياء ولا لقوب ولا تضرب فيه نفسه ولا ينهر ولا يقوى على أن يصرع الشديد إلا بتعب ومزيد جهد وعرق جبين فهكذا تكون المصارعة بين باعث الدين وبعث الهوى فانه على التحقيق صراع بين جنود الملائكة وجنود الشياطين ومهما أذعنت الشهوات وانصرفت وتسلبت باعث الدين واستولى وتيسر الصبر بطول اللواظبة أورت ذلك مقام الرضا كما سيأتي في كتاب الرضا فالرضا أعلى من الصبر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير (١) » وقال بعض العارفين أهل الصبر على ثلاثة مقامات : أولها ترك الشهوة وهذه درجة التائبين . وثانيها الرضا بالتدور وهذه درجة الزاهدين . وثالثها المحبة لما يصنع به مولاه وهذه درجة الصديقين وسنبين في كتاب المحبة أن مقام المحبة أعلى من مقام الرضا كما أن مقام الرضا أعلى من مقام الصبر وكان هذا الانقسام يجري في صبر خاص وهو الصبر على المصائب والبلايا . واعلم أن الصبر أيضاً ينقسم باعتبار حكمه إلى فرض وقيل ومكروه وعمرم . فالصبر عن المحظورات فرض وعلى المكروه نفل والصبر على الأذى المحظور محظور كمن تقطع يده أو يده ولده وهو صبر عليه ما كتاكوتن يقصد حرمة بشهوة محظورة فتبيح غيرته فيصبر عن إظهار الفرية ويسكت على ما يجري على أهله فهذا الصبر عمرم والصبر المكروه هو الصبر على أذى يناله بجهة مكروهة في الشرع فليكن الشرع يحكم الصبر فكون الصبر نصف الإيمان لا ينبغي أن يغفل إليك أن جميعه محمود بل المراد به أنواع من الصبر مخصوصة .

( بيان مظان الحاجة إلى الصبر وأن العبد لا يستغنى عنه في حال من الأحوال )

اعلم أن جميع ما يلقى العبد في هذه الحياة لا يخلو من نوعين : أحدهما هو الذي يوافق هواه .

(١) حديث اعبد الله على الرضا فان لم تستطع ففي الصبر على ما تكره خير كثير الترمذي من حديث ابن عباس وقد تقدم .

نزول متابعته والنبي عليه السلام ما استعاذ من وجود الهوى ولكن استعاذ من متابعته فقال « أعوذ بك من هوى متبع » ولم يستعذ من وجود الشح فانه طبيعة النفس ولكن استعاذ من طاعته فقال « وشح مطاع » ودقائق متبعة الهوى تتبين على قدر صفاء القلب وعلو الحال فقد يكون متبعاً للهوى باستحلاء مجالسة الخلق ومكالتهم أو النظر إليهم وقد يتبع الهوى بتجاوز الاعتدال في النوم والأكل وغير ذلك من أقسام الهوى المتبع وهذا شغل من ليس له شغل إلا في الدنيا

والآخر هو الذي لا يوافق به يكرهه وهو محتاج إلى الصبر في كل واحد منهما وهو في جميع الأحوال لا يخلو عن أحد هذين النوعين أو عن كليهما فهو إذن لا يستغنى قط عن الصبر . النوع الأول : ما يوافق الهوى وهو الصحة والسلامة والمال والجاه وكثرة العشرة واتساع الأسباب وكثرة الأتباع والأنصار وجميع ملاذ الدنيا وما أحوج العبد إلى الصبر على هذه الأمور فإنه إن لم يضبط نفسه عن الاسترسال والركون إليها والانهماك في ملاذها للباحة منها أخرجته ذلك إلى البطر والطغيان فإن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى حتى قال بعض العارفين : البلاء يصبر عليه المؤمن والعوافي لا يصبر عليها إلا صديق . وقال سهل : الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ولما فتحت أبواب الدنيا على الصحابة رضي الله عنهم قالوا ابتلينا بقتة الضراء فصرنا وابتلينا بقتة السراء فلم نصبر ولذلك حذر الله عباده من فتنة المال والزوج والولد فقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تلهكم أموالكم ولا أولادكم عن ذكر الله - وقال عز وجل - إن من أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال صلى الله عليه وسلم « الولد مبخلة مجنة عزنة (١) » . ولما نظر عليه السلام إلى ولده الحسن رضي الله عنه يتعثر في قيصة نزل عن المنبر واحتضنه ثم قال صدق الله - إنما أموالكم وأولادكم فتنة - إنى لمسا رأيت ابنى يتعثر لم أملك نفسى أن أخذته (٢) » . ففى ذلك عبرة لأولى الأبصار فالرجل كل الرجل من يصبر على العافية ومعنى الصبر عليها أن لا يركن إليها ويصم أن كل ذلك مستودع عنده وعسى أن يسترجع على القرب وأن لا يرسل نفسه فى الفرج بها ولا ينهمك فى التمتع واللذة والهوى والمصباح وأن يعزى حقوق الله فى ماله بالاتفاق وفى بدنه يذل المعونة للخلق وفى لسانه يذل الصدق وكذلك فى سائر ما أنعم الله به عليه وهذا الصبر متصل بالشكر فلا يتم إلا بالقيام بحق الشكر كما سيأتى وإنما كان الصبر على السراء أشد لأنه مقرون بالقدره ومن العصمة أن لا تقدر والصبر على الحاجة والفصد إذا تولا غريك أسير من الصبر على فصدك نفسك وحجامتك نفسك والجائع عند غيبة الطعام أقدر على الصبر منه إذا حضرته الأطعمة الطيبة اللذيذة وقدر عليها فلهذا عظمت فتنة السراء . النوع الثانى مالا يوافق الهوى والطبع وذلك لا يخلو إما أن يرتبط باختيار العبد كالطاعات والمعاصى أو لا يرتبط باختياره كالحساب والنوائب أو لا يرتبط باختياره ولكن له اختيار فى إزالته كالتشقى من المؤذى بالانتقام منه فهذه ثلاثة أقسام : القسم الأول ما يرتبط باختياره وهو سائر أفعاله التى توصف بكونها طاعة أو معصية وهما ضربان . الضرب الأول : الطاعة والعبد محتاج إلى الصبر عليها فالصبر على الطاعة شديد لأن النفس بطبعها تنفر عن العبودية وتشهى الربوبية ولذلك قال بعضى العارفين ما من نفس إلا وهى مضمرة ما أظهره فرعون من قوله - أنا ربكم الأعلى - ولكن فرعون وجدله مجالا وقبولا فأظهره إذ استخف قومه فأطاعوه وما من أحد إلا وهو يدعى ذلك مع عبده وخادمه وأتباعه وكل من هو تحت قهره وطاعته وإن كان محتما من إظهاره فإن استشاطته وغبطه عند تقصيرهم فى خدمته واستبداده ذلك ليس يصدر إلا عن إضمار الكبر ومنازعة الربوبية فى رداء الكبرياء فإذا ذى العبودية شافة على النفس مطلقا ثم من العبادات ما يكره بسبب الكسل كالصلاة ومنها ما يكره بسبب البخل كالزكاة ومنها ما يكره بسببهما جميعا كالخج والجهاد فالصبر على الطاعة صبر على الشدائد ومحتاج للطبع إلى الصبر على طاعته فى ثلاث أحوال : الأولى قبل الطاعة وذلك فى تصحيح النية والاختلاص والصبر عن شوائب الرياء

ثم يصلى العبد قبل العصر أربع ركعات فإن أمكنه تجديد الوضوء لكل فريضة كان أكمل وأتم ولو اغتسل كان أفضل فكل ذلك له أثر ظاهر فى تنوير الباطن وتكميل الصلاة ويقرأ فى الأربع قبل العصر إذا زلزلت والمعاديات والقارعة والمهاسم ويصلى الصبر ويصلى من قراءته فى بعض الأيام والسهاء ذات البروج وصحمت أن قراءة سورة البروج فى صلاة العصر أمان من الدماميل ويقرأ بعد العصر ما ذكرنا من الآيات والدعوات ما يتيسر له من ذلك فإذا صلى

(١) حديث الولد مجنة مبخلة عزنة أبو يعلى اللؤلؤى من حديث أبى سعيد وتقدم (٢) حديث لما نظر إلى ابنه الحسن يتعثر فى قيصة نزل عن المنبر الحديث أصحاب السنن من حديث بريدة وقالوا الحسن والحسين وقال الترمذى حسن غريب .



ودواعي الآفات وعقد العزم على الاخلاص والوفاء وذلك من الصبر الشديد عند من يعرف حقيقة النية والاخلاص وآفات الرياء ومكاييد النفس ، وقد نبه عليه صلوات الله عليه إذ قال « إنما الأعمال بالنيات وإنما لكل امرئ ما نوى » (١) وقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - ولهذا قدم الله تعالى الصبر على العمل ، فقال تعالى - إلا الذين صبروا وعملوا الصالحات - الحالة الثانية : حالة العمل كي لا يغفل عن الله في أثناء عمله ولا يتكاسل عن تحقيق آدابه وسننه ويدوم على شرط الأدب إلى آخر العمل الأخير فيلزم الصبر عن دواعي الفتور إلى الفراغ ، وهذا أيضا من شدائد الصبر ولعله المراد بقوله تعالى - نعم أجر العاملين الذين صبروا - أي صبروا إلى تمام العمل . الحالة الثالثة بعد الفراغ من العمل إذ يحتاج إلى الصبر عن إفشائه والتظاهر به للسمعة والرياء والصبر عن النظر إليه بين العجب وعن كل ما يبطل عمله ويحبط أثره كما قال تعالى - ولا تبطلوا أعمالكم - وكما قال تعالى - لا تبطلوا صدقاتكم بالبنى والأذى - فمن لم يصبر بعد الصدقة عن البنى والأذى قد أبطل عمله . والطاعات تنقسم إلى فرض ونفل وهو محتاج إلى الصبر عليهما جميعا وقد جمعهما الله تعالى في قوله - إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذى القربى - فالعدل هو الفرض ، والإحسان هو النفل ، وإيتاء ذى القربى هو المروءة وصلة الرحم وكل ذلك محتاج إلى صبر . الضرب الثاني للمعاصي لما أحوج العبد إلى الصبر عنها ، وقد جمع الله تعالى أنواع المعاصي في قوله تعالى - وينهى عن الفحشاء والمنكر والبغى - وقال صلى الله عليه وسلم « المهاجر من هجر السوء ، والمجاهد من جاهد هواه » (٢) والمعاصي مقتضى باعث الهوى . وأشد أنواع الصبر عن المعاصي الصبر عن المعاصي التي صارت مألوفة بالعادة فإن العادة طبيعة خامسة ذات انصاف المادة إلى الشهوة تظاهر جندان من جنود الشيطان على جند الله تعالى فلا يقوى باعث الدين على قمعها ، ثم إن كان ذلك الفعل مما يتيسر فعله كان الصبر عنه أثقل على النفس كالصبر عن معاصي اللسان من الغيبة والكذب والراء والثناء على النفس تعريضا وتصريحا . وأنواع للزح المؤذى للقلوب وضروب الكلمات التي يقصدها الأزرار والاستحغار وذكر الموتى والقدح فيهم وفي علومهم وصبرهم ومناصبهم فإن ذلك في ظاهره غيبة وفي باطنه ثناء على النفس فللنفس فيه شهوتان : إحداها نفى الغير والأخرى إثبات نفسه وبها تتم له الربوية التي هي في طبعه ، وهي ضد ما أمر به من العبودية واجتماع الشهوتين وتيسر تحريك اللسان ومصير ذلك معنادا في المحاورات يمسر الصبر عنها ، وهي أكبر الويلات حتى يطل استنكارها واستقباحها من القلوب لكثرة تكريرها وعموم الأنس بها فرى الإنسان يلبس حريرا مثلا فيستبعد غاية الاستبعاد ويطلق لسانه طول النهار في أعراض الناس ولا يستنكر ذلك مع ماورد في الخبر « من أن الغيبة أشد من الزنا ومن لم يملك لسانه في المحاورات ولم يقدر على الصبر عن ذلك فيجب عليه العزلة والانفراد » (٣) فلا ينجيه غيره فالصبر على الانفراد أهون من الصبر على السكوت مع المخالطة وتختلف شدة الصبر في آحاد المعاصي باختلاف داعية تلك المعصية في قوتها وضعفها وأيسر من حركة اللسان حركة الحواطر باختلاج الوسواس فلا يجرم يتي

الصبر ذهب وقت التنفل بالصلاة وبقي وقت الأذكار والتلاوة وأفضل من ذلك مجالسة من يزهد في الدنيا ويسدد كلامه عرا التقوى من الطاعة الزاهدين للتكلمين بما يقوى عزائم المؤمنين فإذا صحت نية القائل والستمع فهذه المجالسة أفضل من الانفراد وللداومة على الأذكار وإن عدت هذه المجالسة وتصدرت فليترجح بالتنفل في أنواع الأذكار وإن كان خروجه لحوائجه وأمر معاشه في هذا الوقت يكون أفضل وأولى من خروجه

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث المهاجر من هجر السوء والمجاهد من جاهد هواه ابن ماجه بالشرط الأول والنسائي في الكبرى بالشرط الثاني كلاهما من حديث فضالة بن عبيد باسنادين جيدين وقد تقدم (٣) حديث إن الغيبة أشد من الزنا تقدم في آفات اللسان .

حديث النفس في العزلة ولا يمكن الصبر عنه أصلاً إلا بأن يطلب على القلب هم آخر في الدين يستغفره  
 كمن أصبح وهوومه هم واحد وإلا فإن لم يستعمل الفكر في شيء معين لم يتصور فنور الوسواس  
 عنه . القسم الثاني ما لا يرتبط بهجومه باختياره وله اختيار في دفعه كالو أذى بفعل أو قول أو جنى  
 عليه في نفسه أو ماله ، فالصبر على ذلك بترك المكافأة تارة يكون واجباً وتارة يكون فضيلة . قال  
 بعض الصحابة رضوان الله عليهم : ما كنا نعدّ إيمان الرجل إيماناً إذا لم يصبر على الأذى ، وقال  
 تعالى - ولنصبرن على ما آتيتونا وعلى الله فليتوكل المتوكلون - « وقسم رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم مرة مالا ، فقال بعض الأعراب من المسلمين هذه قسمة ما أريد بها وجه الله فأخبر  
 به رسول الله صلى الله عليه وسلم فأحمرّت وجنتاه ثم قال يرحم الله أخى موسى لقد أذى بأكثر  
 من هذا فصر (١) » وقال تعالى - ودع أذاهم وتوكل على الله - وقال تعالى - واصبر على ما يقولون  
 واهجرهم هجرة جيلا - وقال تعالى - ولقد نعلم أنك يضيق صدرك بما يقولون فسبح بحمد  
 ربك - الآية وقال تعالى - ولتسمعن من الذين أوتوا الكتاب من قبلكم ومن الذين أشركوا  
 أذى كثيراً وإن تصبروا وتتقوا فإن ذلك من عزم الأمور - أى تصبروا عن المكافأة ولذلك مدح  
 الله تعالى العافين عن حقوقهم في القصص وغيره فقال تعالى - وإن تأقبن متابوا بمنزل ما عوقبت  
 به ولئن صبرتم لهو خير للصابرين - وقال صلى الله عليه وسلم « صل من قطعك وأعط من حرمك  
 وأعف عمن ظلمك (٢) » ورأيت في الإنجيل قال عيسى ابن مريم عليه السلام لقد قيل لكم من  
 قبل إن السن بالسن والأنف بالأنف وأنا أقول لكم لا تقاوموا الشر بالشر بل من ضرب خدك  
 الأيمن فحول إليه الخد الأيسر ومن أخذ رداك فأعطه إزارك ومن سخرك لتسير معه ميلا فسر  
 معه ميلين وكل ذلك أمر بالصبر على الأذى ، فالصبر على أذى الناس من أعلى مراتب الصبر لأنه  
 يتعاون فيه باعث الدين و باعث الشهوة والنضب جميعا . القسم الثالث : ما لا يدخل تحت حصر  
 الاختيار أوله وآخره كالمصائب مثل موت الأعزة وهلاك الأموال وزوال الصحة بالمرض وعمل العين  
 وفساد الأعضاء وبالجملة سائر أنواع البلاء فالصبر على ذلك من أعلى مقامات الصبر . قال ابن عباس  
 رضى الله عنهما : الصبر في القرآن على ثلاثة أوجه : صبر على أداء فرائض الله تعالى فله ثلثمائة درجة  
 وصبر عن محارم الله تعالى فله ستمائة درجة وصبر على المصيبة عند الصدمة الأولى فله تسعمائة درجة  
 وإنما فضلت هذه الرتبة مع أنها من الفضائل على ما قبلها وهى من الفرائض لأن كل مؤمن يقدر على  
 الصبر عن المحارم . فأما الصبر على بلاء الله تعالى فلا يقدر عليه إلا الأنبياء لأنه بضاعة الصديقين فإن ذلك  
 شديد على النفس ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أسألك من اليقين ما تهون على به مصائب الدنيا (٣) »  
 فهذا صبر مستندة حسن اليقين . وقال أبو سليمان والله ما نصبر على ما يحب فكيف نصبر على ما نكره  
 وقال النبي صلى الله عليه وسلم « قل الله عز وجل إذا وجهت إلى عبد من عبيدى مصيبة في بدنه أو ماله  
 أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب ميذاً أو أنشر له ديوماً (٤) »

في أول النهار ولا  
 يخرج من المنزل إلا  
 وهو على وضوء .  
 وكره جمع من الماء  
 تحية الطهارة بعد  
 صلاة العصر وأجازه  
 للشافعي والصلحون  
 ويقول كما خرج من  
 منزله بسم الله ماشاء  
 الله حسي الله لا قوة  
 إلا بالله ، اللهم  
 إليك خرجت وأنت  
 أخرجتنى ؛ وليقرأ  
 الفاتحة والموذنين ولا  
 يدع أن تصدق كل  
 يوم بما يتيسر له ولو  
 تمرّة أو لقمة فإن  
 القليل بحسن النية  
 كثير . وروى أن  
 عائشة رضى الله  
 عنها أعطت السائل

(١) حديث قسمة مرة مالا وقول بعض الأعراب هذه قسمة ما أريد بها وجه الله الحديث متفق  
 عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم (٢) حديث صل من قطعك الحديث تقدم (٣) حديث  
 أسألك من اليقين ما تهون به على مصائب الدنيا الترمذي والنسائي والحاكم ومصححه من حديث ابن عمر  
 وحسنه الترمذي وقد تقدم في الدعوات (٤) حديث قال الله إذا وجهت إلى عبد من عبيدى  
 مصيبة في بدنه أو ولده أو ماله ثم استقبل ذلك بصبر جميل الحديث ابن عدى من حديث أنس  
 بسند ضعيف .

وقال صلى الله عليه وسلم « انتظار الفرج بالصبر عبادة <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن عبد مؤمن أصيب بمصيبة فقال كما أمر الله تعالى - إنا لله وإنا إليه راجعون - اللهم أوثرني في مصيبتك وأعقبني خيرا منها إلا فعل الله به ذلك <sup>(٢)</sup> » وقال أنس حدثني رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته قال سبحانه لا علم لنا إلا ما علمتنا قال تعالى جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « يقول الله عز وجل إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه فإذا أبرأته أبرأته ولا ذنب له وإن توفيته فإلى رحمي <sup>(٤)</sup> » وقال داود عليه السلام : يارب ماجزاه الحزين الذي يصبر على الصائب ابتداء مرضاتك قال جزاؤه أن ألبسه لباس الإيمان فلا آثرعه عنه أبدا. وقال عمر بن عبد العزيز رحمه الله في خطبته ما أنتم على عبد نعمة فانتزعها منه وعوضه منها الصبر إلا كان ماعوضه منها أفضل مما انتزع منه وقرأ - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وسئل فضيل عن الصبر فقال هو الرضا بقضاء الله ، قيل وكيف ذلك ؟ قال الرضا لا يتخى فوق منزلته ، وقيل حبس الشئلى رحمه الله في السارستان فدخل عليه جماعة فقال من أتم قالوا أحباؤك جاءوك زاربن فأخذ يرميهم بالحجارة فأخذوا يهربون فقال لو كنتم أحبائي لصبرتم على بلائي ، وكان بعض العارفين في جيه رقة يخرجها كل ساعة ويطلعها وكان فيها - وأصبر لحكم ربك فانك - أيمنا - ويقال إن امرأة فتحت للوصلى عثرت فاقطع ظميرها فضحكت فقيل لها أما تجدين الوجع فقالت إن لغة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجهه ، وقال داود لسليمان عليهما السلام يستدل على تقوى اللؤم بثلاث حسن التوكل فيما لم ينل وحسن الرضا فيما قد نال وحسن الصبر فيما قد فات . وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك <sup>(٥)</sup> » وروى عن بعض الصالحين أنه خرج يوما في كه صرة فاقتفدها فإذا هي قد أخذت من كنه فقال بارك الله له فيها لعله أحوج إليها منى وروى عن بعضهم أنه قال مررت على سالم مولى أبي حذيفة في حذيفة في القتلى وبه رمق فقلت له أسقيك ماء فقال جرنى قليلا إلى العدو واجعل للماء في الترس فإني صائم قان عشت إلى الليل شربته فهكذا كان صبر سالكي طريق

(١) حديث انتظار الفرج بالصبر عبادة القضاعى في مسند الشباب من حديث ابن عمر وابن عباس وابن أبي الدنيا في الفرج بعد الشدة من حديث على دون قوله بالصبر وكذلك رواه أبو سعيد اللالىنى في مسند الصوفية من حديث ابن عمر وكلها ضعيفة وللترمذى من حديث ابن مسعود أفضل العبادة انتظار الفرج وتقدم في الدعوات (٢) حديث مامن عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله - إنا لله وإنا إليه راجعون - الحديث مسلم من حديث أم سلمة (٣) حديث أنس إن الله قال يا جبريل ماجزاه من سلبت كرميته الحديث الطبرانى في الأوسط من رواية أبى ظلال القسلى واسمه هلال أحد الضعفاء عن أنس ورواه البخارى بلفظ إن الله عز وجل قال إذا ابتليت عبدي بحبيتيه فصر عوضه منها ما الجنة رواه ابن عبيد وأبو يعلى بلفظ إذا أخذت كرمي عبدي لم أرض له ثوابا دون الجنة قلت يارسول الله وإن كانت واحدة قال وإن كانت واحدة وفيه سيد بن سليم قال ابن عدى ضعيف (٤) حديث يقول الله إذا ابتليت عبدي بيلاء فصر ولم يشكني إلى عواده أبدته لحما خيرا من لحمه الحديث مالك في الوطأ من حديث عطاء بن يسار عن أبى سعيد انتهى وعباد بن كثير ضعيف ورواه البيهقى موثوقا على أبى هريرة (٥) حديث من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجهك ولا تذكر مصيبتك لم أجده مرفوعا وإنما رواه ابن أبي الدنيا في الرض والكفارات من رواية سفيان عن بعض الفقهاء قال من الصبر أن لا تتحدث بمصيبتك ولا بوجهك ولا تتركى نفسك .

عنة واحدة وقالت إن فيها لمخايل ذر كثير . وجاء في الخبر « كل امرئ يوم القيامة تحت ظل صدقته » ويكون من ذكره من الصبر إلى المغرب مائة مرة لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير فقد ورد عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أن من قال ذلك كل يوم مائة مرة كان له عدل عشر رقاب وكتبت له مائة حسنة ومحبت عنه مائة سيئة وكانت له حرزا من الشيطان يومه ذلك حتى يمسي ولم يأت أحد بأفضل مما جاء به

الآخرة على بلاء الله تعالى . فان قلت فبماذا تنال درجة الصبر في الصائب وليس الأمر إلى اختياره فهو مضطراً شاء أم أبى فان كان المراد به أن لا تكون في نفسه كراهية المصيبة فذلك غير داخل في الاختيار . فاعلم أنه إنما يخرج عن مقام الصابرين بالجزع وشق الجيوب وضرب الحدود والبالغة في الشكوى وإظهار الكتابة وتغيير العادة في اللبس والفرش والطعم وهذه الأمور داخلة تحت اختياره فينبغي أن يحتجب جميعها ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ويبقى مستمرا على عادته ويستند أن ذلك كان وديعة فاسترجعت كما روى عن الربيعة أم سليم رحمها الله أنها قالت توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فتمت فسجيت في ناحية البيت فقدم أبو طلحة فتمت فنبأت له إظهاره فجعل يأكل فقال كيف الصبي قلت بأحسن حال بحمد الله ومنه فانه لم يكن منذ اشتكى بأمكن منه الليلة ثم تصمت له أحسن ما كنت أتصنع له قبل ذلك حتى أصاب مني حاجته ثم قلت ألا تعجب من جيراننا قال ما لهم قلت أعيروا عارية فلما طلبت منهم واسترجعت جزعوا فقال بئس ما صنعوا فقلت هذا ابنك كان عارية من الله تعالى وإن الله قد قبضه إليه فحمد الله واسترجع ثم غدا على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبره فقال اللهم بارك لهما في ليلتهما (١) قال الراوي فلقد رأيت لهم بعد ذلك في السجدة سبعة كلهم قد قرءوا القرآن ، وروى جابر أنه عليه السلام قال رأيتني دخلت الجنة فإذا أنا بالربيعة امرأة أبي طلحة ، وقد قيل الصبر الجميل هو أن لا يعرف صاحب المصيبة من غيره ولا يخرج به عن حد الصابرين توجع القلب ولا فيضان العين بالدمع إذ يكون من جميع الحاضرين لأجل اللوت سواء ولأن البكاء توجع القلب على الليت فان ذلك مقتضى البشرية ولا يفارق الانسان إلى اللوت ولذلك لمسامات إبراهيم ولد النبي صلى الله عليه وسلم فاضت عيناه فقيل له « أما نهيتنا عن هذا فقال إن هذه رحمة وإنما يرحم الله من عباده الرحماء » بل ذلك أيضا لا يخرج عن مقام الرضا فالمقدم على الحجامة والفصد راض به وهو متألم بسببه لا محالة وقد تفيض عيناه إذا عظم ألمه وسيأتي ذلك في كتاب الرضا إن شاء الله تعالى ، وكتب ابن أبي نجيح يعزى بعض الخلفاء إن أحق من عرف حق الله تعالى فيما أخذ منه من عظم حق الله تعالى عنده فيما أبغاه له . واعلم أن الساضي قبلك هو الباقي لك والباقي بمدك هو المأجور فيك . واعلم أن أجر الصابرين فيما يصابون به أعظم من النعمة عليهم فيما يوافقون منه فاذن مهمادفع الكراهة بالتفكر في نعمة الله تعالى عليه بالثواب نال درجة الصابرين ، نعم من كمال الصبر كتمان الرضا والفقر وسائر المصائب ، وقد قيل من كنوز البر كتمان للصائب والأوجاع والصدقة فقد ظهر لك بهذه التسميات أن وجوب الصبر عام في جميع الأحوال والأفعال فان الذي كفى الشهوات كلها واعتزل وحده لا يستغنى عن الصبر على العزلة والافراد ظاهرا وعن الصبر عن وساوس الشيطان باطنا فان اختلاج الخواطر لا يمكن وأكثر جولان الخواطر إنما يكون في فائت لا تدارك له وفي مستقبل لا بد أن يحصل منه ما هو مقدر فهو كيفما كان تضيق زمان وآلة العبد قلبه وبضاعته عمره فاذا غفل القلب في نفس واحد عن ذكر يستفيد به أنسا بالله تعالى أو عن فكر يستفيد به معرفة بالله تعالى ليستفيد بالمعرفة بحبة الله تعالى فهو مغبون هذا إن كان فكره ووسواسه في المباحات مقصورا عليه ولا يكون ذلك غالبا بل يتفكر في وجوه الحيل لقضاء الشهوات إذ لا يزال يتنازع كل من تحرك على خلاف غرضه في جميع عمره أو من يتوهم أنه يتنازع ويخالف أمره أو غرضه بظهور أماره له منه بل يتقدر الخاتمة من أخلص الناس في حبه حتى في أهله وولده ويتوهم مخالفتهم له ثم يتفكر في كيفية زجرهم وكيفية قهرهم وجوابهم عمايتهم لئلا يكون به

(١) حديث الربيعة أم سليم توفي ابن لي وزوجي أبو طلحة غائب فتمت فسجيت في ناحية البيت الحديث طيب ومن طريقه أبو نعيم في الحلية والقصة في الصحيحين من حديث أنس مع اختلاف .

إلا أحد عمل أكثر من ذلك ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين فقد ورد أن من قال في يومه مائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين لم يعمل أحد في يومه أفضل من عمله ويقول مائة مرة سبحان الله والحمد لله والكلمات ومائة مرة سبحان الله وبحمده سبحان الله العظيم وبحمده أستغفر الله ومائة مرة لا إله إلا الله الملك الحق المبين ومائة مرة اللهم صل على محمد وعلى آل محمد ومائة مرة أستغفر الله العظيم الذي لا إله إلا هو الحي القيوم وأسأله التوبة ومائة

في محالته ولا يزال في شغل دائم فللشيطان جندان جند يطير وجند يسير والوسواس عبارة عن حركة جنده الطيار والشهوة عبارة عن حر كجنده السيار وهذا لأن الشيطان خلق من النار وخلق الإنسان من صلصال كالغفار والفخار قد اجتمع فيه مع النار الطين والطين طبيعته السكون والنار طبيعتها الحركة فلا يتصور نار مشتعلة لا تتحرك بل لا تزال تتحرك بطبعها وقد كلف للمؤمن الخلق من النار أن يطمئن عن حر كته ساجدا لما خلق الله من الطين فأبى واستكبر واستصصى وعبر عن سبب استنصائه بأن قال - خلقتني من نار وخلقته من طين - فاذن حيث لم يسجد للمؤمن لأبينا آدم صلوات الله عليه وسلامه فلا ينبغي أن يطمع في سجوده لأولاده ومهما كلف عن القلب وسواسه وعدوانه وطيرانه وجولانه قد أظهر اتقياده وإذعانه بالأذعان سجود منه فهو روح السجود وإنما وضع الجبهة على الأرض قلبه وعلامته الدالة عليه بالاصطلاح ولوجعل وضع الجبهة على الأرض علامة استخفاف بالاصطلاح لتصور ذلك كما أن الانبطاح بين يدي العظم المحترم يرى استخفافا بالمادة فلا ينبغي أن يدهتك صدف الجوهر عن الجوهر وقالب الروح عن الروح وتشر اللب عن اللب فتكون عن قيده عالم الشهادة بالسكينة عن عالم القلب وتحقق أن الشيطان من المنظرين فلا يتواضع لك بالكف عن الوسواس إلى يوم الدين إلا أن تصبح وهو منك هم واحد فتشغل قلبك بالله وحده فلا يجد للمؤمن مجالا فيك فند ذلك تكون من عباد الله المحاصن الداخلين في الاستثناء عن سلطة هذا الأمين ولا تظن أنه يخلو عنه قلب فارغ بل هو سبال يجري من ابن آدم مجرى الدم وسيلانه مثل الهواء في القدر فانك إن أردت أن يخلو الصدح عن الهواء من غير أن تشغله بالماء أو غيره قد طمعت في غير مطمع بل بقدر ما يخلو من الماء يدخل فيه الهواء لا محالة فكذلك القلب المشغول بغيرهم في الدين لا يخلو عن جولان الشيطان والإلمن غفل عن الله تعالى ولو في لحظة فليس له في تلك اللحظة قريب إلا الشيطان ولذلك قال تعالى - ومن يمش عن ذكر الرحمن يقبض له شيطانا فهو له قرين - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله يغضب الشاب الفارغ»<sup>(١)</sup> وهذا لأن الشاب إذا تعطل عن عمل يشغل باطنه بباح يستعين به على دينه كان ظاهره فارغا ولم يبق قلبه فارغا بل يعيش فيه الشيطان ويبيض ويفرخ ثم تزوج أفراده أيضا وتبيض مرة أخرى وتفرخ وهكذا يتوالد نسل الشيطان توالدا أسرع من توالد سائر الحيوانات لأن طبعه من النار وإذا وجد الحلفاء اليابسة كثر توالده فلا يزال تتوالد النار من النار ولا تنقطع البتة بل تسمى شيئا فشيئا على الاتصال فالشهوة في نفس الشاب للشيطان كالحلفاء اليابسة للنار وكما لا يبقى النار إذا لم يبق لها قوت وهو الحطب فلا يبقى للشيطان مجال إذا لم تكن شهوة فاذن إذا تأملت علمت أن أعدى عدوك شمتوك وهي صفة نفسك ولذلك قال الحسين بن منصور الحلاج حين كان يصلب وقد مثل عن التصوف ما هو فقال هي نفسك إن لم تشغلها شغلك فاذن حقيقة الصبر وكاله الصبر عن كل حر كة مذمومة وحر كة الباطن أولى بالصبر عن ذلك وهذا صبر دائم لا يقطعه إلا الموت نسأل الله حسن التوفيق عنه وكرمه .

( بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه )

اعلم أن الذي أزل الداء أزل الدواء ووعد الشفاء بالصبر وإن كان شاقا أو ممتنا فتحصيله ممكن بحسب جنس العلم والعمل فالعلم بالأخلاق التي منها تتركب الأدوية لأمرض القلوب كلها ولكن يحتاج كل مرض إلى علم آخر وعمل آخر وكما أن أقسام الصبر مختلفة فأقسام العلل المانعة منه مختلفة وإذا اختلفت العلل اختلف العلاج إذ معنى العلاج مضادة العلة وقمعها واستيفاء ذلك عما يطول

(١) حديث إن الله يغضب الشاب الفارغ لم أجده .

مرة ما شاء الله لا قوة إلا بالله ورأيت بعض الفقهاء من المغرب بمكة وله سبعة فيها ألف حبة في كيس له ذكر أن ورده أن يديرها كل يوم اثني عشرة مرة بأنواع الذكر . ونقل عن بعض الصحابة أن ذلك كان ورده بين اليوم واليلة ونقل عن بعض التابعين كان ورده من التسبيح ثلاثين ألفا بين اليوم واليلة وليقل مائة مرة بين اليوم واليلة هذا التسبيح سبحان الله العلي الديان سبحان الله شديد الأركان سبحان من يذهب بالليل ويأتي بالنهار

ولكننا نعرف الطريق في بعض الأمثلة . فقول إذا افتقر الى الصبر عن شهوة الوقاع مثلا وقد غلبت عليه الشهوة بحيث ليس يملك معها فرجه أو يملك فرجه ولكن ليس يملك عينه أو يملك عينه ولكن ليس يملك قلبه ونفسه إذ لا تزال تحدّثه بمقتضيات الشهوات ويصرفه ذلك عن الواظبة على الذكر والفكر والأعمال الصالحة . فنقول قد قدّمنا أن الصبر عبارة عن مصارعة باعث الدين مع باعث الهوى وكل متصارعين أردنا أن يظلب أحدهما الآخر فلا طريق لنا فيه إلا تقوية من أردنا أن تكون له اليد العليا وتضعيف الآخر فلزمنا ههنا تقوية باعث الدين وتضعيف باعث الشهوة فأما باعث الشهوة فسهيل تضعيفه ثلاثة أمور : أحدها أن ننظر إلى مادة قوتها وهي الأغذية الطيبة المحرّكة للشهوة من حيث نوعها ومن حيث كثرتها فلا بد من قطعها بالصوم الدائم مع الاقتصاد عند الإفطار على طعام قليل في نفسه ضعيف في جنسه فيحترز عن اللحم والأطعمة اللذيذة للشهوة . الثاني قطع أسبابه للبهجة في الحال فانه إنما يهيج بالنظر إلى مظان الشهوة إذ النظر يحرك القلب والقلب يحرك الشهوة وهذا يحصل بالعزلة والاحتراز عن مظان وقوع البصر على الصور المشتهة والفرار منها بالكلية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « النظره سهم مسموم من سهام إبليس »<sup>(١)</sup> وهو سهم يسدده للمعون ولا ترس يمنع منه إلا تقيض الأجفان أو المحرب من صوب رمية فانه إنما يرمى هذا السهم عن قوس الصور فاذا انقلبت عن صوب الصور لم يصيبك سهمه . الثالث تسليّة النفس بالمباح من الجنس الذي تشتهيه وذلك بالنكاح فان كل ما يشتهيه الطبع في اللباحت من جنسه ما يفتنى عن المحظورات منه وهذا هو العلاج الأتبع في حق الأكثر فان قطع الغذاء يضعف عن سائر الأعمال ثم قد لا يقع الشهوة في حق أكثر الرجال ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « عليكم بالبائة فمن لم يستطع فعليه بالصوم فان الصوم له وجاء »<sup>(٢)</sup> فهذه ثلاثة أسباب للعلاج الأول وهو قطع الطعام يضاهي قطع العلف عن البهيمة الجحوش وعن الكلب الضاري ليضعف فقط قوته . الثاني يضاهي تقييد اللحم عن النكاح وتقييد الشعر عن البهيمة حتى لا تتحرك بواطنها بسبب مشاهدتها . والثالث يضاهي تسليتها بشيء قليل مما يميل إليه طبعها حتى يبقى معها من القوة ما تصبر به على التأديب . وأما تقوية باعث الدين فانما تكون بطريقتين أحدهما إطعامه في فوائد المجاهدة وممراتها في الدين والدنيا وذلك بأن يكثر فكره في الأخبار التي أوردناها في فضل الصبر وفي حسن عواقبه في الدنيا والآخرة وفي الأثر : إن ثواب الصبر على المصيبة أكثر مما فات وإنه بسبب ذلك مغبوط بالمصيبة إذ فاته ما لا يبقى معه إلا مدة الحياة وحصل له ما يبقى بعد موته أبد الدهر ومن أسلم خيسا في نقيس فلا يبنئ أن يحزن لفوات الخسيس في الحال وهذا من باب المعارف وهو من الإيمان فتارة تضعف وتارة يقوى فان قوى قوى باعث الدين وهيجه تهيجا شديدا وإن ضعف ضعفه وإنما قوة الإيمان يجبر عنها باليقين وهو المحرك لعزيمة الصبر وأقل ما أوتى الناس اليقين وعزيمة الصبر والثاني أن يهود هذا الباعث مصارعة باعث الهوى تدريجا قليلا قليلا حتى يدرك لذة الظفر بها فيستجري عليها وتقوى منه في مصارعها فان الاعتناء والممارسة للأعمال الشاقة تؤكّد القوى التي تصدر منها تلك الأعمال ولذلك تزيد قوة الحالمين والفلاحين والقاتلين وبالجملة تقوية الممارسين للأعمال الشاقة تزيد على قوة الحياطين والخطارين والفقهاء والصالحين وذلك لأن قوامهم لم يتأكّد بالممارسة فالعلاج الأول يضاهي أطماع المصارع بالحمامة عند القلبة ووعدده بأنواع الصكرامة كما وعد فرعون سحرته عند إغرائه بإمام عوسى حيث قال - وإنكم إذا لمن المقربين - والثاني يضاهي تعويد الصبي

سبحان من لا يشغله شأن عن شأن سبحان الله الختان للثان سبحان الله السبع في كل مكان . روى أن بعض الأبدال بات على شاطئ البحر فسمع في هذه الليل هذا التسبيح فقال من الذي أصم صوته ولا أرى شخصه فقال أنا ملك من اللاتكة موكل بهذا البحر أصبح الله تعالى بهذا التسبيح منذ خلقت قلت ما سمك فقال مهلبائسل قلت ما ثواب هذا التسبيح قال من قاله مائة مرة لم يمت حتى يرى مقعده من الجنة أو يرى له . وروى أن عثمان رضى

(١) حديث النظره سهم مسموم من سهام إبليس تقدم غير مرة (٢) حديث عليكم بالبائة فمن لم يستطع فعليه بالصوم الحديث تقدم في النكاح .

الذي يراد منه المصارعة والمقاتلة بمباشرة أسباب ذلك منذ الصبا حتى يأنس به ويستجري عليه وتقوى فيه منته فن ترك بالكلية المجاهدة بالصبر ضعف فيه باعث الدين ولا تقوى على الشهوة وإن ضعف ومن عود نفسه مخالفة الهوى غلبها مهما أراد فهذا منهاج العلاج في جميع أنواع الصبر ولا يمكن استيفاءه وإنما أشدها كنف الباطن عن حديث النفس وإنما يشتد ذلك على من تفرغ له بأن تقع الشهوات الظاهرة وآثر المزلة وجلس للمراقبة والذكر والفكر فان الوسواس لا يزال يجاذبه من جانب إلى جانب وهذا لا علاج له البتة إلا قطع العلائق كلها ظاهرا وباطنا بالفرار عن الأهل والولد والمال والجاه والرفقاء والأصدقاء ثم الاعتزال إلى زاوية بعد إحراز قدر يسير من القوت وبعد الفناعة به ثم كل ذلك لا يكفي ما لم تنصر المأموم بها واحدا وهو الله تعالى ثم إذا غلب ذلك على القلب فلا يكفي ذلك ما لم يكن له مجال في الفكر وسير الباطن في ملكوت السموات والأرض وعجائب صنع الله تعالى وسائر أبواب معرفة الله تعالى حتى إذا استولى ذلك على قلبه دفع اشتغاله بذلك بمجاذبة الشيطان ووسواسه وإن لم يكن له سير بالباطن فلا ينبغي إلا الأوراد المتواصلة الترتيبية في كل لحظة من القراءة والأذكار والصلوات وبحاج مع ذلك إلى تكليف القلب الحضور فان الفكر بالباطن هو الذي يستغرق القلب دون الأوراد الظاهرة ثم إذا قل ذلك كله لم يسلم له من الأوقات إلا بعضها إذ لا يغلو في جميع أوقاته عن حوادث تتجدد فتشغله عن الفكر والذكر من مرض وخوف وإيذاء من إنسان وطغيان من مخالط إذ لا يستغنى عن مخالطة من يعينه في بعض أسباب المعيشة فهذا أحد الأنواع الشاغلة . وأما النوع الثاني فهو ضروري أشد ضرورة من الأول وهو اشتغاله بالمطعم والملبس وأسباب العاش فان تهية ذلك أيضا تحوج إلى شغل إن تولاه بنفسه وإن تولاه غيره فلا يغلو عن شغل قلب ممن يتولاه ولكن بعد قطع العلائق كلها يسلم له أكثر الأوقات إن لم تهجم به مله أو واقعة في تلك الأوقات يصفو القلب ويتيسر له الفكر وينكشف فيه من أسرار الله تعالى في ملكوت السموات والأرض ما لا يقدر على عشر عشرة في زمان طويل لو كان مشغول القلب بالعلائق والالتقاء إلى هذا هو أقصى المقامات التي يمكن أن تنال بالاكتساب والجهد فأما مقادير ما ينكشف ومبالغ ما يرد من لطف الله تعالى في الأحوال والأعمال فذلك يجري مجرى الصيد وهو بحسب الرزق فقديرة الجهد ويحمل الصيد وقد يطول الجهد ويقل الحظ والمولوراء هذا الاجتهاد على جذبة من جذبات الرحمن فانها توازي أعمال الثقلين وليس ذلك باختيار العبد ، ثم اختيار العبد في أن يتعرض لتلك الجذبة بأن يقطع عن قلبه جواذب الدنيا فان المهدوب إلى أسفل سافلين لا ينجذب إلى أعلى عليين وكل مهوم بالدنيا فهو منجذب إليها فقطع العلائق الجاذبة هو الراد بقوله ﷺ « إن ربكم في أيام دهركم نفحات ألا تعرضوا لها » وذلك لأن تلك النفحات والجذبات لها أسباب سماوية إذ قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وهذا من أعلى أنواع الرزق والأمور السماوية غائبة عنا فلا ندري متى يسر الله تعالى أسباب الرزق فما علينا إلا تفريغ المحل والانتظار لزول الرحمة وبلوغ الكتاب أجله كالذي يصلح الأرض وينقيها من الحشيش ويبت البذر فيها وكل ذلك لا ينفعه إلا بغير ولا يدري متى قدر الله أسباب المطر إلا أنه يثق بفضل الله تعالى ورحمته أنه يغلي سنة عن مطر فكذلك فلما تحلوسنة وشهرو يوم عن جذبة من الجذبات ونفحة من النفحات فيبقى أن يكون العبد قد طهر القلب عن حشيش الشهوات وبذر فيه بذر الإرادة والاخلاص وعرضه لمهاب رياح الرحمة كما يقوى انتظار الأمطار في أوقات الربيع وعند ظهور الغيم فيقوى انتظار تلك النفحات في الأوقات الشريفة وعند اجتماع الهمم وتساعد القلوب كما في يوم عرفة ويوم الجمعة وأيام رمضان فان الهمم والأفاس أسباب بحكم تقدير الله تعالى لا ستدرار رحمة حتى

الله عنه سأل رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
عن تفسير قوله تعالى  
- له مقابل السموات  
والأرض - فقال سألني  
عن شيء عظيم ما سألني  
غيرك هو لا إله إلا الله  
والله أكبر وسبحان الله  
والحمد لله ولا حول  
ولا قوة إلا بالله عز وجل  
وأستغفر الله الأول  
الآخر الظاهر الباطن  
له الملك وله الحمد لله  
الحير وهو على كل شيء  
قدير من قالها عشرا  
حين يصبح وحين  
يمسي أعطيت حسنة  
فأول حسنة أن يحرس  
من إبليس وجنوده  
الثانية أن يعطي قطارا  
من الأجر الثالثة يرفع  
له درجة في الجنة

تستدر بها الأمطار في أوقات الاستسقاء وهي لاستدراار أمطار الكاشفات والطائف المعارف من خزائن  
 الملكوت أشد مناسبة منها لاستدراار قطرات الماء واستجراار القيوم من أقطار الجبال والبحار بل  
 الأحوال والكاشفات حاضرة معك في قلبك وإنما أنت مشغول عنها بملاتك وشهوائك خاضرك  
 حجاباً بينك وبينها فلا تحتاج إلا إلى أن تنكسر الشهوة ويرفع الحجاب فتشرق أنوار المعارف من  
 باطن القلب وتظهر ماء الأرض بحفر القى أسهل وأقرب من استرسال اليهامن مكان بعيد منخض عنها  
 ولكونه حاضراً في القلب ومنسياً بالتفعل عنه معي الله تعالى جميع معارف الإيمان تذكر أفعال تعالى  
 - إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون - وقال تعالى - ولينذكر أولوا الألباب - وقال تعالى - ولقد  
 يسرنا القرآن لذكر فهل من مدكر - فهذا هو علاج الصبر عن الوسواس والشواغل وهو آخر درجات  
 الصبر وإنما الصبر عن الملائق كلها مقدم على الصبر عن الخواطر . قال الجنيد رحمه الله السير من الدنيا  
 إلى الآخرة سهل على المؤمن وهجران الخلق في حب الحق شديد والسير من النفس إلى الله تعالى صعب  
 شديد والصبر مع الله أشد فذكر شدة الصبر عن شواغل القلب ثم شدة هجران الخلق وأشد الملائق  
 على النفس علاقة الخلق وحب الجاه فان لذة الرياسة والظلمة والاستسلام والاستتباع أغلب الذات في  
 الدنيا على نفوس العقلاء وكيف لا تكون أغلب الذات ومطلوبها صفة من صفات الله تعالى وهي الربوبية  
 والربوبية محبوبة ومطلوبة بالطبع للقلب لما فيه من للنسابة لأموال الربوبية وعنه العبادة بقوله تعالى  
 - قل الروح من أمر ربي - وليس القلب مذموماً على حبه ذلك وإنما هو مذموم على غلط وقوعه بسبب  
 تمرير الشيطان العين للبعد عن عالم الأمر إذ حسده على كونه من عالم الأمر فاضله وأخوامه كيف يكون  
 مذموماً عليه وهو يطلب سعادة الآخرة فليس يطلب إلا بقاء لا فناء فيه وعزا لا دل فيه وأمان لا خوف فيه  
 وغنى لا فقر فيه وكالا لا نقصان فيه وهذه كلها من أوصاف الربوبية وليس مذموماً على طلب ذلك بل  
 حق كل عبد أن يطالب ملكاً عظيماً لا آخر له وطالب الملك طالب للعالمين والكمال لا محالة ولكن الملك  
 مسكن ملك مشوب بأنواع الآلام وملحوق بسرعة الانصرام ولكنه عاجل وهو في الدنيا وملك عظيم  
 دائم لا يشوبه كدر ولا ألم ولا يقطعه قاطع ولكنه آجل وقد خلق الإنسان محملاً لا رغباً في العاجلة فجاء  
 الشيطان وتوسل إليه بواسطة العجلة التي في طبعه فاستغوا به بالعاجلة وزين له الحاضرة وتوسل إليه بواسطة  
 الحق فوعده بالفرور في الآخرة ومناه مع ملك الله في ملك الآخرة كما قال عليه السلام «والأحق من أتبع نفسه  
 هواها وعنى على الله الأمانى» فانخدع الخدول بفروره واشتغل بطلب عز الدنيا وملسكم على قدر إمكانه ولم  
 يتدل الموفق بحبل غروره إذ علم مداخل مكره فأعرض عن العاجلة صبر عن الخدولين بقوله تعالى - كلا  
 بل تحبون العاجلة وتذرون الآخرة - وقال تعالى - إن هؤلاء يحبون العاجلة ويذرون وراءهم يوماً  
 ثقيلاً - وقال تعالى - فأعرض عنهم ممن تولى عن ذكرنا ولم يرد إلا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم -  
 ولما استطار مكر الشيطان في كافة الخلق أرسل الله الملائكة إلى الرسل وأوحى إليهم ما هم على الخلق  
 من إهلاك العدو وإغوائه فاشتغلوا بدعوة الخلق إلى الملك الحقيقي عن الملك المجازى الذي لا أصل  
 له إن سلم ولا دوام له أصلاً فنادوا فيهم - يا أيها الذين آمنوا مالكم إذا قيل لكم انفروا في سبيل  
 الله إنما قلتم إلى الأرض أرضنتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا في الآخرة إلا قليل -  
 فالتوراة والإنجيل والزبور والفرقان وصحف موسى وإبراهيم وكل كتاب منزل ما أنزل إلا لدعوة  
 الخلق إلى الملك الدائم الخلد والبر والعدل والبراد منهم أن يكونوا ملوكاً في الدنيا ملوكاً في الآخرة أما ملك الدنيا  
 فالزهدي فيها والقناعة باليسير منها وأما ملك الآخرة فبالقرب من الله تعالى يدرك بقاء لا فناء فيه وعزا  
 لا ذل فيه وقررة عين أخفيت في هذا العالم لا تعلمها نفس من النفوس والشيطان يدعوهم إلى ملك  
 الدنيا لعله بأن ملك الآخرة يموت به إذ الدنيا والآخرة ضربان ولعله بأن الدنيا لا تسلم له أيضاً

الرابعة يزوجه الله من  
 الحور العين الخامسة  
 اثنا عشر ملكاً  
 يستغفرون له السادسة  
 يكون له من الأجر كن  
 حج واعتمر ويقول  
 أيضاً في هذا الوقت وفي  
 أول النهار اللهم أنت  
 خلقتني وأنت هديتني  
 وأنت تطمئني وأنت  
 تسقني وأنت تقيمني  
 وأنت تحييني أنت ربي  
 لا رب لي سواك ولا  
 إله إلا أنت وجسدك  
 لا شريك لك ويقول  
 ماشاء الله لا قوت إلا بالله  
 ماشاء الله كل نعمة  
 من الله ماشاء الله الخير  
 كله بيد الله ماشاء الله  
 لا يصرف النسوة إلا الله  
 ويقول حسبي الله لا إله  
 إلا هو عليه توكلت



ولو كانت تسلم له لكان يحسده أيضا ولكن ملك الدنيا لا يخلو عن المفازات والمكدرات وطول المحموم في التدبيرات وكثرا سائر أسباب الجاه ثم معها تسلم وتم الأسباب بنقض العمر - حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس - فضرب الله تعالى لها مثلا فقال تعالى - واضرب لهم مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض فأصبح هشيما تذروه الرياح - والزهد في الدنيا لما أن كان ملكا حاضرا حسده الشيطان عليه فصد عنه ومعنى الزهد أن يملك العبد شهوته وغضبه فينقادان لباعث الدين وإشارة الإيمان وهذا ملك بالاستحقاق إذ به يصير صاحبه حرا وباستيلاء الشهوة عليه يصير عبدا لفرجه وبطنه وسائر أغراضه فيكون مسخرا مثل البهيمة يملوكا يستجره زمام الشهوة أخذًا بجنته إلى حيث يريد ويهوى فما أعظم اختار الإنسان إذ ظن أنه ينال الملك بأن يصير مملوكا وينال الربوبية بأن يصير عبدا ومثل هذا هل يكون إلا معكوسا في الدنيا منكوسا في الآخرة ولهذا قال بعض الملوك لبعض الزهاد هل من حاجة ؟ قال كيف أطلب منك حاجة وملكى أعظم من ملكك فقال كيف قال من أنت عبده فهو عبدلى فقال كيف ذلك قال أنت عبد شهوتك وغضبك وفرجك وبطنك وقد ملكك هؤلاء كلهم فهم عبيدى فهذا إذن هو الملك في الدنيا وهو الذى يسوق إلى الملك فى الآخرة فالخمدوعون بفرور الشيطان خسروا الدنيا والآخرة جميعا والذين وقفوا للاشتداد على الصراط المستقيم فازوا بالدنيا والآخرة جميعا فإذا عرفت الآن معنى الملك والربوبية ومعنى التسخير والعبودية ومدخل الغلط في ذلك وكيفية تعمية الشيطان وتليسه يسهل عليك الزوع عن الملك والجاه والاعراض عنه والصبر عند فواته إذ تصير بتركه ملكا في الحال وترجوه ملكا في الآخرة ومن كوشف بهذه الأمور بعد أن ألف الجاه وأنس به ورسخت فيه بالعادة مباشرة أسبابه فلا يكفيه في العلاج مجرد العلم والكشف بل لابد وأن يضيق إليه العمل وعمله في ثلاثة أمور : أحدها أن يهرب عن موضع الجاه كي لا يشاهد أسبابه فيعصر عليه الصبر مع الأسباب كما يهرب من غلبته الشهوة من مشاهدة الصور المحركة ومن لم يعمل هذا فقد كفر نعمة الله في سعة الأرض إذ قال تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - الثانى أن يكلف نفسه في أعماله أفعالا تخالف ما اعتاده فيبدل التكلف بالتبذل ويزى الحشمة بزي التواضع وكذلك كل هيئة وحال وفعل في مسكن ومابس ومطعم وقيام وقعود كان يتأده وفاء بمقتضى جاهه فينبغى أن يبدلها بنقائصها حتى يرسخ باعتياد ذلك ضد ما رسخ فيه من قبل باعتياده ضد فلامعنى للمعالجة بالإلضادة . الثالث أن يراعى في ذلك التلطف والتدرج فلا ينتقل دفعة واحدة إلى الطرف الأقصى من التبذل فإن الطبع ينفور ولا يمكن نقله عن أخلاقه إلا بالتدرج فيترك البعض ويسل نفسه ببعض ثم إذا فنت نفسه بذلك البعض ابتدأ بترك البعض من ذلك البعض إلى أن يقع بالبقية وهكذا فعل شيئا فشيئا إلى أن يجمع تلك الصفات التي رسخت فيه وإلى هذا التدرج الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم « إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق ولا تنفض إلى نفسك عبادة الله فإن المنبت لأرضاً قطع ولا ظهرا أبقي » (١) وإليه الإشارة بقوله عليه السلام « لا تشادوا هذا الدين فإن من يشاده يظله » (٢) فاذن ما ذكرناه من علاج الصبر عن الوسواس وعن الشهوة وعن الجاه أضفه إلى ما ذكرناه من قوانين طرق المجاهدة في كتاب رياضة النفس من ربيع المهلكات فاعفذه دستورك لتعرف به علاج الصبر في جميع الأقسام التي فصلناها من قبل فإن تفصيل الأحاد بطول ومن راعى التدرج ترقى به الصبر إلى حال يشق عليه الصبر

(١) حديث إن هذا الدين متين فأوغل فيه برفق الحديث أحمد من حديث أنس والبيهقي من حديث جابر وتقدم في الأوراد (٢) حديث لا تشادوا هذا الدين فإنه من شاده يظله تقدم فيه .

وهو رب العرش العظام  
ثم يستعد لاستقبال  
الليل بالوضوء والطهارة  
ويقرا للمسببات قبل  
القروب ويديم  
التسبيح والاستغفار  
بحيث تغيب الشمس  
وهو في التسبيح  
والاستغفار ويقرا عند  
القروب أيضا والتسبيح  
والليل والعبوديتين  
ويستقبل الليل كما  
استقبل النهار قال الله  
تعالى - وهو الذى  
جعل الليل والنهار خلفه  
لمن أراد أن يذكر أو  
أراد شكورا - فكما  
أن الليل يعقب النهار  
والنهار يعقب الليل  
ينبغى أن يكون العبد  
بين الذكر والشكر  
يعقب أحدهما الآخر

دونه كما كان يشق عليه الصبر معه فتعكس أموره فيصير ما كان محبوبا عنده ممقوتا وما كان مكروها عنده مشربا هنيئا لا يصبر عنه وهذا لا يعرف إلا بالتجربة والقدوق وله نظير في العادات فان الصبر يعمل على التعلم في الابتداء قهرا فيشق عليه الصبر عن العلم والصبر على اللعب وإلى هذا يشير ما حكى عن بعض العارفين أنه سأل الشبل عن الصبر أيه أشد ؟ قال الصبر في الله تعالى قال لا فقال الصبر لله قال لا فقال الصبر مع الله قال لا فقال فليس ؟ قال الصبر عن الله فصرخ الشبل صرخة كادت تروحه تلفظ وقد قيل في معنى قوله تعالى - اصبروا وصابروا ورابطوا - اصبروا في الله وصابروا بالله ورابطوا بطوامع الله وقيل الصبر لله غناء والصبر بالله بقاء والصبر مع الله وفاء والصبر عن الله جفاء وقد قيل في معناه :  
والصبر عنك لدموم عواقبه والصبر في مائر الأشياء محمود  
وقيل أيضا : الصبر يعمل في للوطن كلها إلا عليك فإنه لا يعمل  
هذا آخر ما أردنا شرحه من علوم الصبر وأسواره .

الشرط الثاني من الكتاب في الشكر ، وله ثلاثة أركان

الأول: في فضيلة الشكر وحقيقته وأقسامه وأحكامه. الثاني: في حقيقة النعمة وأقسامها الخاصة والعامة. الثالث: في بيان الأفضل من الشكر والصبر.

الركن الأول في نفس الشكر

( بيان فضيلة السكر )

اعلم أن الله تعالى قرن الشكر بالله كرفي كتابه مع أنه قال - وقد كرر الله أكبر - فقال تعالى - فاذكروني  
أذكركم واشكروا لي ولا تكفرون - وقال الله تعالى - ما يضل الله بعدا بكم إن شكرتم وآمنتم - وقال  
تعالى - وسنجزى الشاكرين - وقال عز وجل إخبارا عن إبليس اللعين - لأقصدن لهم صراطك  
الستقيم - قيل هو طريق الشكر ولعلو رتبة الشكر طعن اللعين في الخلق فقال: ولا نجد أكثرهم شاكرين  
وقال تعالى - وقليل عن عبادي الشكور - وقد قطع الله تعالى بالزيد مع الشكر ولم يستثن فقال تعالى  
- ثن شكرتم لأزيدنكم - واستثنى في خمسة أشياء في الاغناء والاجابة والرزق والنفرة والتوبة فقال  
تعالى - فسوف ينصيكم الله من فضله إن شاء - وقال فيكشف ما تدعون إليه إن شاء - وقال: يرزق  
من يشاء بغير حساب وقال : ويغفر مادون ذلك لمن يشاء وقال : ويتوب الله على من يشاء وهو خلق من  
أخلاق الربوبية إذ قال تعالى - والله شكور حلیم - وقد جعل الله الشكر مفتاح كلام أهل الجنة فقال  
تعالى - وقالوا الحمد لله الذي صدقنا وعده - وقال - وآخر دعوانا أن الحمد لله رب العالمين - وأما  
الأخبار فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر»<sup>(١)</sup> وروى عن  
عطاء أنه قال «دخلت على عائشة رضي الله عنها فقلت أخبرينا بأحب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه  
وسلم فيكث وقالت وأى شأنه لم يكن محبا أناني ليلة قد دخل معي في فراشي أو قالت في لحافي حتى مس جفدي  
جلبه ثم قال يا ابنة أبي بكر ذريني أعبد لربي قالت قلت إني أحب قربك لكني أوثرهوا فكأذنت له فقام  
إلى قربة ماء فوضأ فلم يكثر صب الماء ثم قام يصلي فبكي حتى سالت دموعه على صدره ثم ركع فبكي  
ثم سجد فبكي ثم رفع رأسه فبكي فلم يزل كذلك يبكي حتى جاء بلال فأذنه بالصلاة فقلت يا رسول الله  
ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر قال أفلا أكون عبدا شكورا ولم لأفضل ذلك

(١) حديث الطمام الشاكر بمنزلة الصائم الصابر علقه البخاري وأسنده الترمذي وحسنه وابن ماجه وابن حبان من حديث أبي هريرة ورواه ابن ماجه من حديث سنان بن سنان وفي إسناده اختلاف.

ولا يَنفُضُهَا شَيْءٌ كَمَا  
لَا يَنفُضُ بَيْنَ اللَّيْلِ  
وَالنَّهَارِ شَيْءٌ وَالَّذِي  
جَمِعَهُ أَعْمَالُ الْقَلْبِ  
وَالشُّكْرُ أَعْمَالُ  
الْجَوَارِحِ قَالَ اللَّهُ تَعَالَى  
- اَعْمَلُوا آلَ دَاوُدَ  
شُكْرًا - وَإِنَّهُ الْوَاقِعُ  
لِلْعَيْنِ .

[ الباب الحادى  
والخسون فى آداب  
المرید مع الشيخ ]  
أدب المریدین مع  
الشیوخ عند الصوفیة  
من مهام الآداب  
وللقوم فی ذلك اقتداء  
برسول الله صلى الله  
عليه وسلم وأصحابه  
وقد قال الله تعالى  
- یا ایها الذین آمنوا  
لا تخدموا بین یدى الله  
ورسوله واتقوا الله إن

وقد أنزل الله تعالى طي - إن في خلق السموات والأرض - (١) الآية وهذا يدل على أن البكاء ينبغي أن لا ينقطع أبداً وإلى هذا السر يشير ما روى أنه مر بعض الأنبياء بحجر صغير فخرج منه ماء كثير فنسج منه فأنطقه الله تعالى فقال منذ سمعت قوله تعالى - وقودها الناس والحجارة - فأنا أبكي من خوفه فسأله أن يجبره من النار فأجابه ثم رآه بعد مدة طي مثل ذلك فقال لم تبكي الآن فقال ذاك بكاء الخوف وهذا بكاء الشكر والسرور وقلب العبد كالحجارة أو أشد قسوة ولا تزول قسوته إلا بالبكاء في حال الخوف والشكر جميعاً . وروى عنه عليه السلام أنه قال « ينادى يوم القيامة ليقم المحادون فتقوم زمرة فينصب لهم لواء فيدخلون الجنة قيل ومن المحادون قال الذين يشكرون الله تعالى طي كل حال (٢) » وفي لفظ آخر « الذين يشكرون الله طي السراء والضراء » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمد رداء الرحمن (٣) » وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام إن رضيت بالشكر مكافأة من أوليائي في كلام طويل وأوحى الله تعالى إليه أيضاً في صفة الصابرين أن دارهم دار السلام إذا دخلوها ألهمتهم الشكر وهو خير الكلام وعند الشكر أستزيدهم وبالنظر إلى أزيدهم ولما نزل في الكنوز مازل . قال عمر رضي الله عنه « أي للال تتخذ فقال عليه السلام ليتخذ أحدكم لساناً ذا كرا وقلبا شاكراً (٤) » فأمر باقتناء القلب الشاكر بدلاً عن اللال . وقال ابن مسعود الشكر نصف الإيمان .

## ( بيان حد الشكر وحقيقته )

اعلم أن الشكر من جملة مقامات السالكين وهو أيضاً ينظم من علم وحال وعمل فالعلم هو الأصل في ورث الحال والحال يورث العمل ، فأما العلم فهو معرفة النعمة من النعم والحال هو الفرح الحاصل بانعامه والعمل هو القيام بما هو مقصود النعم ومحبو به ويتعلق ذلك العمل بالقلب والجوارح وباللسان ولا بد من بيان جميع ذلك ليحصل بمجموعه الاحاطة بحقيقة الشكر فإن كل ما قيل في حد الشكر قاصر عن الاحاطة بكامل معانيه . فالأصل الأول : العلم وهو علم بثلاثة أمور بين النعمة ووجه كونها نعمة في حقها وبذات النعم ووجود صفاته التي بها يتم الانعام ويصدر الانعام منه عليه فانه لا بد من نعمة ومنم ومنم عليه تصل إليه النعمة من النعم بقصد وإرادة فهذه الأمور لا بد من معرفتها هذا في حق غير الله تعالى فأما في حق الله تعالى فلا يتم إلا بأن يعرف أن النعم كلها من الله وهو النعم والوسائط من سخر من جهته وهذه المعرفة وراء التوحيد والتقديس إذ دخل التقديس والتوحيد فيها بل الرتبة الأولى في معارف الإيمان التقديس ثم إذا عرف ذاتاً مقدسة فيعرف أنه لا مقدس إلا واحد وما عداه غير مقدس وهو التوحيد ثم يعلم أن كل ما في العالم فهو موجود من ذلك الواحد فقط فالكل نعمة منه فتقع هذه المعرفة في الرتبة الثالثة إذ ينطوي فيها مع التقديس والتوحيد كمال القدرة والافتقار بالفعل وعن هذا عبر

(١) حديث عطاء دخلت طي عائشة فقلت لها أخبرينا بأعجب ما رأيت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقالت وأي أمره لم يكن عجيباً الحديث في بكائه في صلاة الليل أبو الشيخ ابن حبان في كتاب أخلاق رسول الله عليه السلام ومن طريقه ابن الجوزي في الوفاء وفيه أبو جناب واسمه يحيى بن أبي حبة ضمه الجمهور ورواه ابن حبان في صحيحه من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء دون قولها وأي أمره لم يكن عجيباً وهو عند مسلم من رواية عروة عن عائشة مقتصر على آخر الحديث (٢) حديث ينادى يوم القيامة ليقم المحادون الحديث الطبراني وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب من حديث ابن عباس بلفظ أول من يدعى إلى الجنة المحادون الحديث وفيه قيس بن الربيع ضعه الجمهور (٣) حديث الحمد رداء الرحمن لم أجده أصلاً في الصحيح من حديث أبي هريرة الكبير رداؤه الحديث وتقدم في العلم (٤) حديث عمر ليتخذ أحدكم لساناً ذا كرا وقلبا شاكراً الحديث تقدم في النكاح .

الله صبيح علم - .  
 روى عن عبد الله بن الزبير قال قدم وفد على رسول الله صلى الله عليه وسلم من بني تميم فقال أبو بكر أمر القمقاع بن مبيد وقال عمر بل أمر الأقرع بن حابس فقال أبو بكر ما أردت إلا خلافي وقال عمر ما أردت خلافتك قهارياً حتى ارتفعت أصواتهما فأزل الله تعالى عليهما الذين آمنوا - الآية .  
 قال ابن عباس رضي الله عنهما لا تقدموا لا تتكلموا بين يدي كلامه وقال جابر كان ناس يضحون قبل رسول الله فنبهوا عن تقديم الأضحية طي

رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « من قال سبحان الله فله عشر حسنات ومن قال لا إله إلا الله فله عشرون حسنة ومن قال الحمد لله فله ثلاثون حسنة (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الذكر لا إله إلا الله ، وأفضل الدعاء الحمد لله (٢) » وقال « ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله (٣) » ولا تظن أن هذه الحسنات بإزاء تحريك اللسان بهذه الكلمات من غير حصول معانيها في القلب فسبحان الله كلمة تدل على التقديس ولا إله إلا الله كلمة تدل على التوحيد والحمد لله كلمة تدل على معرفة النعمة من الواحد الحق فالحسنات بإزاء هذه المعارف التي هي من أبواب الإيمان واليقين. واعلم أن تمام هذه المعرفة ينفي الشرك في الأقوال ، فمن أنعم عليه ملك من الملوك بشيء فإن رأى لوزيره أو وكيله دخلا في تيسير ذلك وإصاله إليه فهو إشراك به في النعمة فلا يرى النعمة من الملك من كل وجه بل منه بوجه ومن غيره بوجه فيتوزع فرحه عليهما فلا يكون موحدا في حق الملك ، نعم لا ينقص من توحيده في حق الملك وكما شكره أن يرى النعمة الواصلة إليه بتوقيمه الذي كتبه بقله وبالكاغد الذي كتبه عليه فإنه لا يفرح بالقلم والكاغد ولا يشكرهما لأنه لا يثبت لهما دخلا من حيث هما موجودان بأنفسهما بل من حيث هما مسخران تحت قدرة الملك وقد يعلم أن الوكيل الوصل والخازن أيضا مضطربان من جهة الملك في الإيصال وأنه لو رد الأمر إليه ولم يكن من جهة الملك إرهاب وأمر جزم يخاف عاقبته لما سلم إليه شيئا فإذا عرف ذلك كان نظره إلى الخازن والوصل كنظره إلى القلم والكاغد فلا يورث ذلك شركا في توحيده من إضافة النعمة إلى الملك وكذلك من عرف الله تعالى وعرف أقواله علم أن الشمس والقمر والنجوم مسخرات بأمره كالقلم مثلا في يد الكاتب وأن الحيوانات التي لها اختيار مسخرات في نفس اختيارها فإن الله تعالى هو السلط للدواعي عليها لتفعل شاءت أم أبت كالخازن المضطرب الذي لا يجد سبيلا إلى مخالفة الملك ولو خلى ونفسه لما أعطاك ذرة مما في يده فكل من وصل إليك نعمة من الله تعالى على يده فهو مضطرب إذ سلط الله عليه الإزادة وهيج عليه الدواعي وألقى في نفسه أن خيره في الدنيا والآخرة أن عطيك ما أعطاك وأن غرضه القصد عنده في الحلال والمآل لا يحصل إلا به وبعد أن خلق الله له هذا الاعتقاد لا يجد سبيلا إلى تركه فهو إذن إنما يعطيك لنفسه لا لغيرك ولو لم يكن غرضه في العطاء لما أعطاك ولو لم يعلم أن منفعته في منفعتك لما نفعتك فهو إذن إنما يطلب نفع نفسه بنفسك فليس منعا عليك بل اتخذك وسيلة إلى نعمة أخرى وهو يرجوها وإنما الذي أنعم عليك هو الذي سخره لك وألقى في قلبه من الاعتقادات والارادات ما صار به مضطربا إلى الإيصال إليك فإن عرفت الأمور كذلك فقد عرفت أن الله تعالى وعرفت فعله وكنت موحدا وقدرت على شكره بل كنت بهذه المعرفة بمجردها شاكرًا ولذلك قال موسى عليه السلام في مناجاته: إلهي خلقت آدم يديك وفعلت وفعلت فكيف شكرتك فقال الله عز وجل اعلم أن كل ذلك مني فكانت معرفته شكرًا فاذا لم لا تشكر إلا بأن تعرف أن الكل منه فإن خالجت ريب في هذا لم تكن عارفاً بالنعمة ولا بالمنعم فلا تفرح بالمنعم وحده بل وبغيره فبنقصان معرفتك ينقص حالك في الفرح وبنقصان فرحك ينقص عملك فهذا بيان هذا الأجل. الأصل الثاني: الحال المستعدة من أصل للمعرفة وهو الفرح بالمنعم مع هيئة الخضوع والتواضع وهو أيضا في نفسه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وقبل كان قوم يقولون لو أنزل في كذا وكذا فذكره الله ذلك وقالت عائشة رضي الله عنها أي لاتصوموا قبل أن يصوم نبيكم . وقال الكوفي لاتبعة وأرسول الله يقول ولا فصل حتى يكون هو الذي يأمركم به وهكذا أدب المريء مع الشيخ أن يكون مسلوب الاختيار لا يتصرف في نفسه وماله إلا بمراجعة الشيخ وأمره وقد استوفينا هذا المعنى في باب المشيخة وقيل لا تقدموا لاتمشوا بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم وروى

(١) حديث من قال سبحان الله فله عشر حسنات الحديث تقدم في الدعوات (٢) حديث أفضل الذكر لا إله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله الترمذي وحسنه والنسائي في اليوم والليلة وابن ماجه وابن حبان من حديث جابر (٣) حديث ليس شيء من الأذكار يضاعف ما يضاعف الحمد لله لم أجده مرفوعا ولا معارواه ابن أبي الدنيا في كتاب الشكر عن إبراهيم النخعي يقال إن الحمد أكثر الكلام تضييفا .

شكر على تجرده كما أن المعرفة شكر ولكن إنما يكون شكرا إذا كان حاويا شرطه ، وشرطه أن يكون فرحك بالنعم لا بالنعمة ولا بالإتمام ، ولعل هذا مما يتعذر عليك فهمه فنضرب لك مثالا نقول : الملك الذي يريد الخروج إلى سفر فأتم بفرس على إنسان يتصور أن يفرح النعم عليه بالفرس من ثلاثة أوجه : أحدها أن يفرح بالفرس من حيث إنه فرس وإنه مال ينتفع به ومرتكوب يوافق غرضه وإنه جواد نفيس وهذا فرح من لاحظ له في الملك بل فرسه الفرس فقط ولوجوده في صحراء فأخذه لسان فرحه مثل ذلك الفرح . الوجه الثاني أن يفرح به لامن حيث إنه فرس بل من حيث يستدل به على عناية الملك به وشغفته عليه واهتمامه بجانبه حتى لو وجد هذا الفرس في صحراء أو أعطاه غير الملك لكان لا يفرح به أصلا لاستغنائاه عن الفرس أصلا أو استحقاقه له بالإضافة إلى مطلوبه من نيل الحل في قلب الملك . الوجه الثالث أن يفرح به ليركبه ليخرج في خدمة الملك ويتحمل مشقة السفر لينال بمخدمته رتبة القرب منه وربما يرتقى إلى درجة الوزارة من حيث إنه ليس يقنع بأن يكون محله في قلب الملك أن يحطيه فرسا ويستغنى به هذا القدر من العناية بل هو طالب لأن لا ينعم الملك بشيء من ماله على أحد إلا بواسطته ، ثم إنه ليس يريد من الوزارة الوزارة أيضا بل يريد مشاهدة الملك والقرب منه حتى لو خير بين القرب منه دون الوزارة وبين الوزارة دون القرب لاختار القرب فهذه ثلاث درجات ، فالأولى لا يدخل فيها معنى الشكر أصلا لأن نظره صاحبها تصور على الفرس فقرحه بالفرس لا بالمعطى ، وهذا حال كل من فرح بنعمة من حيث إنها لذيدة وموافقة لغرضه فهو بعيد عن معنى الشكر ، والثانية داخلة في معنى الشكر من حيث إنه فرح بالنعم ولكن لامن حيث ذاته بل من حيث معرفة عنايته التي تستحقه على الإتمام في المستقبل ، وهذا حال الصالحين الذين يبدون الله ويشكرونه خوفا من عقابه ورجاء لثوابه وإنما الشكر التام في الفرح الثالث ، وهو أن يكون فرح العبد بنعمة الله تعالى من حيث إنه يقدر بها على التوصل إلى القرب منه تعالى والوصول في جواره والنظر إلى وجهه على الدوام فهذا هو الرتبة العليا . وأما رتبة أن لا يفرح من الدنيا إلا بما هو مزرعة للأخرة ويعينه عليها ويحزن بكل نعمة تلهيه عن ذكر الله تعالى وتصدده عن سبيله لأنه ليس يريد النعمة لأنها لذيدة كما لم يرد صاحب الفرس الفرس لأنه جواد ومهم ليج بل من حيث إنه يحمله في محبة الملك حتى تدوم مشاهدته له وقربه منه ، ولذلك قال الشبلي رحمه الله : الشكر رؤية النعم لا رؤية النعمة . وقال الحواص رحمه الله : شكر العامة على الطعام واللبس والشرب ، وشكر الخاصة على واردات القلوب وهذه رتبة لا يدركها كل من انحصرت عنده اللذات في البطن والفرج ومدركات الحواس من الألوان والأصوات وخلا عن لذة القلب فان القلب لا يلتذ في حال الصحة إلا بذكر الله تعالى ومعرفته ولقائه وإنما يلتذ بغيره إذا مرض بسوء العادات كما يلتذ بعض الناس بأكل الطين وكما يستبشع بعض المرضى للأشياء الحلوة ويستحلي الأشياء المرة كما قيل :

ومن يك ذا فم مريض يجهد مرآ به الماء الزلالا

فأذن هذا شرط الفرح بنعمة الله تعالى ، فان لم تكن إبل فعمري ، فان لم يكن هذا فالدرجة الثانية . أما الأولى فخارجة عن كل حساب فكلم من فرق بين من يريد الملك للفرس ومن يريد الفرس للملك وكم من فرق بين من يريد الله لينعم عليه وبين من يريد نعم الله ليصل بها إليه . الأصل الثالث : العمل بموجب الفرح الحاصل من معرفة النعم وهذا العمل يتعلق بالقلب وباللسان وبالجوارح . أما بالقلب فقصد الخير وإضماره لكافة الخلق . وأما باللسان فأظهار الشكر لله تعالى بالتحميدات الدالة عليه . وأما بالجوارح : فاستعمال نعم الله تعالى في طاعته والتوقى من

أبو الدرداء قال كنت  
أمشي أمام أبي بكر  
فقال لي رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
تمشى أمام من هو خير  
منك في الدنيا والآخرة  
وقيل نزلت في أقوام  
كانوا يحضرون  
مجلس رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
فاذا سئل الرسول  
عليه السلام  
عن شيء خاضوا فيه  
وتقدموا بالقول  
والفتوى فهو عن  
ذلك وهكذا أدب  
لأبي بكر في مجلس الشيخ  
ينبغي أن يلزم السكوت  
ولا يقول شيئا يحضرته  
من كلام حسن إلا  
إذا استأمر الشيخ  
ووجد من الشيخ  
فسحة في ذلك وشأن

الاستعانة بها على مصيته حتى إن شكر العيين أن تستر كل عيب تراه لمسلم وشكر الأذنين أن تستر كل عيب تسمعه فيه فدخل هذا في جملة شكر نعم الله تعالى بهذه الأعضاء والشكر باللسان لاظهار الرضا عن الله تعالى وهو مأمور به فقد قال صلى الله عليه وسلم لرجل «كيف أصبحت قال بغير فأعاد صلى الله عليه وسلم السؤال حتى قال في الثالثة بغير أحمد الله وأشكره فقال صلى الله عليه وسلم هذا الذي أردت منك (١)» وكان السلف يتساءلون وينتبهم استخراج الشكر لله تعالى ليكون الشاكر مطيعا والمستنطق له به مطيعا وما كان قسدا من الرياء باظهار الشوق وكل عبد سئل عن حال فهو بين أن يشكر أو يشكو أو يسكت فالشكر طاعة والشكوى معصية قبيحة من أهل الدين وكيف لا تصبح الشكوى من ملك للملك ويده كل شيء إلى عبد مملوك لا يقدر على شيء فالأحرى بالعبد إن لم يحسن الصبر على البلاء والتضاء وأفضى به الضعف إلى الشكوى أن تكون شكواه إلى الله تعالى فهو البلى والقادر على إزالة البلاء وذلك العبد لمولاه عز والشكوى إلى غيره ذل وإظهار الذل للعبد مع كونه عبدا مثله ذل قبيح قال الله تعالى - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه واشكروا له - وقال تعالى - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - فالشكر باللسان من جملة الشكر . وقد روى أن وفدا قدموا على عمر بن عبد العزيز رحمه الله فقام شاب ليتكلم فقال عمر الكبير الكبر فقال يأمر المؤمنين لو كان الأمر بالسن لكان في المسلمين من هو أسن منك فقال تكلم فقال لنا وقد الرغبة ولا وفد الرهبة أما الرغبة فقد أوصلنا إلينا فضلك وأما الرهبة فقد آمنتنا منها عدلك وإعما نحن وفدا لشكر جثناك فنشكرك باللسان ونصرف . فهذه هي أصول معاني الشكر المحيطة بمجموع حقيقته . فأما قول من قال إن الشكر هو الاعتراف بنعمة النعم على وجه الخضوع فهو نظر إلى فعل اللسان مع بعض أحوال القلب . وقول من قال إن الشكر هو الثناء على المحسن بذكر إحسانه نظر إلى مجرد عمل اللسان وقول القائل إن الشكر هو الاعتكاف على بساط الشهود بإدامة حفظ الحرمة جامع لأكثر معاني الشكر لا يشذ منه إلا عمل اللسان وقول حمدون القصار شكر النعمة أن ترى نفسك في الشكر طغيا إشارة إلى أن معنى للعرفة من معاني الشكر فقط وقول الجند الشكر أن لا ترى نفسك أهلا للنعمة إشارة إلى حال من أحوال القلب على الخصوص وهؤلاء أقوالهم تعرب عن أحوالهم فلذلك تختلف أجوبتهم ولا تنفق ثم قد يختلف جواب كل واحد في حالتين لأنهم لا يتكلمون إلا عن حالتهم الراهنة الغالبة عليهم اشتغالا بما همهم عمالهم أو يتكلمون بما يرونه لاثقا بحال السائل اقتصارا على ذكر القدر الذي يحتاج إليه وإعراضا عما لا يحتاج إليه فلا ينبغي أن تظن أن ما ذكرناه طعن عليهم وأنه لوعرض عليهم جميع المعاني التي شرحناها كانوا ينكرونها بل لا يظن ذلك باقل أصلا إلا أن تعرض منازعة من حيث اللفظ في أن اسم الشكر في وضع اللسان هل يشمل جميع المعاني أم يتناول بعضها مقصودا وثبة المعاني تكون من توابسه ولوازمه ولنا قصد في هذا الكتاب شرح موضوعات اللغات فليس ذلك من علم طريق الآخرة في شيء والله للوفيق برحمته .

للريد في حضرة الشيخ كمن هو قاعد على ساحل بحر ينتظر رزقا يساق إليه تطلعه الى الاستماع وما يريزق من طريق كلام الشيخ يحقق مقام إرادته وطلبه واستزادته من فضل الله وتطلعه الى القول برده عن مقام الطلب والاستزادة إلى مقام إثبات شيء نفسه وذلك جناية للريد . وينبغي أن يكون تطلعه إلى مبهم من حاله يستكشف عنه بالسؤال من الشيخ على أن الصادق لا يحتاج إلى السؤال باللسان في حضرة الشيخ بل يادته بما يريد لأن الشيخ يكون مستنطقا نطقه بالحق

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم لرجل كيف أصبحت قال بغير فأعاد السؤال حتى قال في الثالثة بغير أحمد الله وأشكره فقال هذا الذي أردت منك الطبراني في الدعاء من رواية الفضيل بن عمرو مرفوعا نحوه قال في الثالثة أحمد الله وهذا معضل ورواه في المعجم الكبير من حديث عبد الله بن عمرو ليس فيه تكرار السؤال وقال أحمد الله إليك وفيه راشد بن سعد ضعفه الجمهور لسوء حفظه ورواه مالك في اللوطا موقوفا على عمر بإسناد صحيح .

( بيان طريق كشف الغطاء عن الشكر في حق الله تعالى )

لعلك يخطر ببالك أن الشكر إنما يحل في حق من هو صاحب حظ في الشكر فانا نشكر للولك إما بالثناء ليزيد مجدهم في القلوب ويظهر كرمهم عند الناس فيزيد به صيتهم وجاههم أو بالخدمة التي هي إعانة لهم على بعض أغراضهم أو بالثول بين أيديهم في صورة الخدم وذلك تكثير لسوادم وسبب لزيادة جاههم فلا يكونون شاكرين لهم إلا بشيء من ذلك وهذا محال في حق الله تعالى من وجهين: أحدهما أن الله تعالى منزّه عن الحظوظ والأغراض مقدس عن الحاجة إلى الخدمة والإعانة وعن نشر الجاه والخسمة بالثناء والإطراء وعن تكثير سواد الخدم بالثول بين يديه ركعا سجدا فشكرنا إياه بما لاحظ له فيه بضاهى شكرنا الملك للنعم علينا بأن تام في يوتنا أو نسجد أو نركع إذ لاحظ للملك فيه وهو غائب لاعلم له ولا حظ لله تعالى في أفعالنا كلها. الوجه الثاني أن كل ما تعطاه باختيارنا فهو نعمة أخرى من نعم الله علينا إذ جوارحنا وقدرتنا وإرادتنا وداعتنا وسائر الأمور التي هي أسباب حركتنا ونفس حركتنا من خلق الله تعالى ونعمته فكيف نشكر نعمة نعمة ولو أعطانا الملك مراكوبا فأخذنا مراكوبا آخر له وركبناه أو أعطانا الملك مراكوبا آخر لم يكن الثاني شكر الأول من أجل أن الثاني يحتاج إلى شكر كما يحتاج الأول ثم لا يمكن شكر الشكر إلا بنعمة أخرى فيؤدي إلى أن يكون الشكر محالا في حق الله تعالى من هذين الوجهين ولنا نذكر في الأمرين جميعا والشرع قد ورد به فكيف السبيل إلى الجمع . فاعلم أن هذا الخاطر قد خطر لداود عليه السلام وكذلك لموسى عليه السلام فقال يارب كيف أشكرك وأنا لا أستطيع أن أشكرك إلا بنعمة ثانية من نعمك وفي لفظ آخر وشكركم لك نعمة أخرى منك توجب على الشكر لك فأوحى الله تعالى إليه إذا عرفت هذا فقد شكرتني وفي خبر آخر إذا عرفت أن النعمة متى رضى منك بذلك شكرا . فان قلت فقد فهمت السؤال وفهمى قاصر عن إدراك معنى ما أوحى إليهم فاني أعلم استحالة الشكر لله تعالى فأما كون العلم باستحالة الشكر شكرا فلا أفهمه فان هذا العلم أيضا نعمة منه فكيف صار شكرا وكان الحاصل يرجع إلى أن من لم يشكر فقد شكر وأن يقول الخلعة الثانية من الملك شكر للخلعة الأولى والفهم قاصر عن درك السرفه فان أمكن تعريف ذلك بمثال فهو مهم في نفسه . فاعلم أن هذا فرع باب من المعارف وهي أعلى من علوم العامة ولكننا نشير منها إلى ملامح ونقول ههنا نظران نظر بعين التوحيد المحض وهذا النظر يفرق قطعا أنه الشاكر وأنه للشكور وأنه المحب وأنه المحبوب وهذا نظر من عرف أنه ليس في الوجود غيره وأن كل شيء هالك إلا وجهه وأن ذلك صدق في كل حال أزلا وأبدا لأن الغير هو الذي يتصور أن يكون له بنفسه قوام ومثل هذا الغير لا وجود له بل هو محال أن يوجد إذ الوجود المحقق هو القائم بنفسه وما ليس له بنفسه قوام فليس له بنفسه وجود بل هو قائم بغيره فهو موجود بغيره فان اعتبر ذاته ولم يلتفت إلى غيره لم يكن له وجود البته وإنما للوجود هو القائم بنفسه والقائم بنفسه هو الذي لو قدر عدم غيره بقى موجودا فان كان مع قيامه بنفسه يقوم بوجوده وجود غيره فهو قيوم ولا قيوم إلا واحد ولا يتصور أن يكون غير ذلك فاذا ليس في الوجود غير الحى القيوم وهو الواحد الصمد فاذا نظرت من هذا المقام عرفت أن الكل منه مصدره وإليه مرجعه فهو الشاكر وهو المشكور وهو المحب وهو المحبوب ومن ههنا نظر حبيب بن أبي حبيب حيث قرأ - إنا وجدناه صابرا نعم العبد إنه أواب - فقال وأعجباه أعطى وأثنى إشارة إلى أنه إذا أثنى على إعطائه فعلى نفسه أثنى فهو المثنى وهو المثنى عليه ومن ههنا نظر الشيخ أبو سعيد الميثني حيث قرئ بين يديه - يحبه ويحبونه - فقال لعمرى يحبه ودعه يحبه

وهو عند حضور  
الصادقين يرفع قلبه  
إلى الله ويستنظر  
ويستقي لهم فيكون  
لسانه وقلبه في القول  
والنطق مأخوذين إلى  
مهم الوقت من أحوال  
الطالبين المحتاجين إلى  
ما يفتح به عليه لأن  
الشيخ يعلم تطلع  
الطالب إلى قوله  
واعتداده بقوله  
والقول كالبذر يقع في  
الأرض فاذا كان  
البذر فاسدا لا ينبت  
وفساد الكلمة بدخول  
الهوى فيها فالشيخ  
ينقى بذر الكلام عن  
شوب الهوى ويسلمه  
إلى الله ويسأل الله  
المعونة والساد ثم يقول  
فيكون كلامه بالحق

فبحق محبهم لأنه إنما يحب نفسه أشار به إلى أنه المحب وأنه المحبوب وهذه رتبة عالية لانتهمها إلا بمثال على حد عقلك فلا يغني عليك أن المصنف إذا أحب تصنيفه فقد أحب نفسه والصانع إذا أحب صنيعه فقد أحب نفسه والوالد إذا أحب ولده من حيث إنه ولده فقد أحب نفسه وكل مافي الوجود سوى الله تعالى فهو تصنيف الله تعالى وصنعه فان أحبه لما أحب إلا نفسه وإذا لم يحب إلا نفسه فبحق أحب ما أحب وهذا كله نظر بعين التوحيد وتعبير الصوفية عن هذه الحالة بغذاء النفس أي فنى عن نفسه وعن غير الله فلم يبق إلا الله تعالى لمن لم يفهم هذا ينكر عليهم ويقول كيف فنى وطول ظله أريية أذرع ولله يأكل في كل يوم أرطالا من الخبز فيضحك عليهم الجاهل لجهلهم بمعنى كلامهم وضرورة قول المارفين أن يكونوا ضحكة للجاهلين وإليه الإشارة بقوله تعالى - إن الذين أجروا كانوا من الذين آمنوا يضحكون وإذا مروا بهم يتغامزون وإذا اتقلبوا إلى أهلهم اتقلبوا فكهن وإذا رأوهم قالوا إن هؤلاء لضالون وما أرسلوا عليهم حافظين - ثم بين أن ضحك المارفين عليهم غدا أعظم إذ قال تعالى - فاليوم الذين آمنوا من الكفار يضحكون على الأرائك ينظرون - وكذلك أمة نوح عليه السلام كانوا يضحكون عليه عند اشتغاله بعمل السفينة قال - إن تسخروا منا فإنا نسخر منكم كما تسخرون - فهذا أحد النظرين . النظر الثاني نظر من لم يبلغ إلى مقام الفناء عن نفسه وهؤلاء قسما قسم لم يثبتوا إلا وجود أنفسهم وأنكروا أن يكون لهم رب يسد وهؤلاء هم العميان النكوسون وعمام في كلتا العينين لأنهم نقوا ماهو الثابت تحقيقا وهو القيوم الذي هو قائم بنفسه وقائم على كل نفس بما كسبت وكل قائم فقام به ولم يقتصر واطى هذا حتى أثبتوا أنفسهم ولو عرفوا لعلوا أنهم من حيث هم لا ثبات لهم ولا وجود لهم وإعسا وجودهم من حيث أوجدوا لا من حيث وجدوا وفرق بين الوجود وبين الموجد وليس في الوجود إلا موجود واحد وموجد فالموجود حق والموجد باطل من حيث هو هو الوجود قائم وقيوم والموجد هالك وفان وإذا كان كل من عليها فان فلا يبقى إلا وجه ربك ذو الجلال والإكرام . الفريق الثاني ليس بهم عى ولكن بهم عور لأنهم يصرون بأحدى العينين وجود للوجود الحق فلا ينكرونه والبين الأخرى إن تم عماها لم يصير بها فناء غير الوجود الحق فأثبت موجودا آخر مع الله تعالى وهذا مشرك تحقيقا كما أن الذي قبله جاهد تحقيقا فان جاوز حد العمى إلى العمى أدرك تفاوتا بين الوجودين فأثبت عبدا وربا فهذا القدر من إثبات التفاوت والنقص من الوجود الآخر دخل في حد التوحيد ثم إن كل بصره بما يزيد في أنواره فيقل عمشه وبقدر ما يزيد في بصره يظهر له نقصان ما أثبتته سوى الله تعالى فان بقى في سلوكه كذلك فلا يزال يفضي به النقصان إلى المحو فينمحي عن رؤية ماسوى الله فلا يرى إلا الله فيكون قد بلغ كمال التوحيد وحيث أدرك نقصا في وجود ماسوى الله تعالى دخل في أوائل التوحيد وبينهما درجات لا تحصى فهذا تفاوت درجات الموحدين وكتب الله المنزلة على ألسنة رسله هي السجل الذي به يحصل أنوار الأبصار والأنبياء هم السكالكون وقد جاءوا داعين إلى التوحيد المحض وترجمته قول لا إله إلا الله ومعناه أن لا يرى إلا الواحد الحق والواصلون إلى كمال التوحيد هم الأفلون والجاحدون والمشركون أيضا قليلون وهم على الطرف الأقصى المقابل اطرف التوحيد إذ عبدة الأوثان قالوا - ما نبدم إلا ليقربونا إلى الله زلفى - فكانوا داخلين في أوائل أبواب التوحيد دخولا ضيقا والتوسطون هم الأكثرون وفيهم من تنفتح بصيرته في بعض الأحوال فتلوح له حقائق التوحيد ولكن كالبرق الخاطف لا يثبت وفيهم من يلوح له ذلك ويثبت زمانا ولكن لا يدوم والسوام فيه عزيز :

من الحق الحق فالشيخ  
المريدن أمين الإلهام  
كما أن جبريل أمين  
الوحي فكما لا يخون  
جبريل في الوحي  
لا يخون الشيخ في  
الإلهام وكان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
لا ينطق عن الهوى  
فالشيخ مقتد رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
ظاهرا وباطنا لا يتكلم  
بهوى النفس . وهوى  
النفس في القول  
بشيئين : أحدهما طلب  
استجلاب القلوب  
وصرف الوجوه إليه  
وما هذا من شأن  
الشيخ . والثاني ظهور  
النفس باستحلاء  
الكلام والمعجب وذلك  
خيانة عند المحققين



لكلّ إلى شأو الملا حر كات ولكن عزيز في الرجال ثبات

ولما أمر الله تعالى نبيه صلى الله عليه وسلم بطلب القرب قيل له سواسجد واقترب - قال في سجوده «أعوذ بفؤك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك وأعوذ بك منك لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» (١) قوله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بفؤك من عقابك» كلام عن مشاهدة فعل الله قط فكأنه لم ير إلا الله وأنفاله فاستعاذ بفؤه من فعله ثم اقترب ففنى عن مشاهدة الأفعال وترقى إلى مصادر الأفعال وهي الصفات فقال «أعوذ برضاك من سخطك» وما صفتان ثم رأى ذلك نقصانا في التوحيد فاقرب ورتقى من مقام مشاهدة الصفات إلى مشاهدة الذات فقال «وأعوذ بك منك» وهذا فرار منه إليه من غير رؤية فعل وصفة ولكنه رأى نفسه فارّا منه إليه ومستغيذا ومثليا ففنى عن مشاهدة نفسه إذ رأى ذلك نقصانا واقترب فقال «لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك» قوله صلى الله عليه وسلم «لأحصى» خبر عن فناء نفسه وخروج عن مشاهدتها وقوله «أنت كما أثنيت على نفسك» يبان أنه للثني والثني عليه وأن الكل منه بدا وإليه يعود وأن - كل شيء هالك إلا وجهه - فكان أوّل مقاماته نهاية مقامات الموحدين وهو أن لا يرى إلا الله تعالى وأفعاله فيستغنى بفعل من فعله فانظر إلى ماذا انتهت نهايته إذا انتهى إلى الواحد الحق حتى ارتفع من نظره ومشاهدته سوى الذات الحق ، ولقد كان صلى الله عليه وسلم لا يرقى من رتبة إلى أخرى إلا ويرى الأولى بدا بالاضافة إلى الثانية فكان يستغفر الله من الأولى ويرى ذلك تصافى ولو كده وتقصيرا في مقامه وإليه الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «إنه ليغان على قلبي حتى أستغفر الله في اليوم والليلة سبعين مرة» (٢) فكان ذلك لترقيه إلى سبعين مقاما بعضها فوق البعض أوّلها وإن كان مجاوزا أقصى غايات الخلق ولكن كان نقصانا بالاضافة إلى آخرها فكان استغفاره لذلك، ولما قالت عائشة رضي الله عنها «أليس قد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء في السجود وما هذا الجهد الشديد قال أفلا أكون عبدا شكورا» (٣) مضاه أفلا أكون طالبا للزيد في المقامات فإن الشكر سبب الزيادة حيث قال تعالى - لئن شكرتم لأزيدنكم - وإذا تطلعتنا في بحار للكاشفة فلنقبض العنان ، ولنرجع إلى ما يليق بعلوم العامة ، فنقول : الأنبياء عليهم السلام بشوا لدعوة الخلق إلى كمال التوحيد الذي وصفناه ولكن بينهم وبين الوصول إليه مسافة بعيدة وعقبات شديدة وإنما الشرح كله تعريف طريق سلوك تلك المسافة وقطع تلك العقبات وعند ذلك يكون النظر عن مشاهدة أخرى ومقام آخر فيظهر في ذلك النقام بالاضافة إلى تلك المشاهدة الشكر والشاكر والشكور ولا يعرف ذلك إلا بالثال ، فأقول : يمكنك أن تفهم أن ملكا من الملوك أرسل إلى عبد قد بعده من مكرها وملبوسا وقد أجل زاده في الطريق حتى يقطع به مسافة البعد ويقرب من حضرة الملك ثم يكون له حالتان : إحداها أن يكون قصده من وصول العبد إلى حضرته أن يقوم ببعض مهماته ويكون له عناية في خدمته ، والثانية أن لا يكون للملك حظ في العبد ولا حاجة به إليه بل حضوره لا يزيد في ملكه

(١) حديث قال في سجوده أعوذ بفؤك من عقابك وأعوذ برضاك من سخطك الحديث مسلم من حديث عائشة أعوذ برضاك من سخطك وبمعاذتك من عقوبتك الحديث (٢) حديث إنه ليغان على قلبي الحديث تقدم في التوبة وقوله في الدعوات (٣) حديث عائشة لما قالت له غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر فها هذا البكاء الحديث رواه أبو الشيخ وهو بقية حديث عطاء عنها للتقدم قبل هذا بتسعة أحاديث وهو عند مسلم من رواية عروة عنها مختصرا وكذلك هو في الصحيحين مختصرا من حديث المغيرة بن شعبه .

والشيخ فيها يجرى على لسانه راقد النفس تشفه مطالعة نعم الحق في ذلك فاقد الحظ من فوائد ظهور النفس بالاستحلاء والعجب فيكون الشيخ لما يجرى الحق سبحانه وتعالى عليه مستمعا كأحد المستمعين وكان الشيخ أبو السعود رحمه الله يشكك مع الأصحاب بما يلقى إليه وكان يقول أنا في هذا الكلام مستمع كأحدكم فأشكل ذلك على بعض الحاضرين وقال إذا كان القائل هو يعلم ما يقول كيف يكون كستمع لا يعلم حتى يسمع منه فرجع إلى منزله فرأى ليلته

لأنه لا يقوى على القيام بخدمة تفي فيه غناء وغيبته لاتنقص من ملكه فيكون قصد من الإنعام عليه بالمرکوب والزاد أن يحظى العبد بالقرب منه وينال سعادة حضرته لينتفع هو في نفسه لا ينتفع الملك به وبانتفاعه فنزل العباد من الله تعالى في المنزلة الثانية لافي المنزلة الأولى فان الأولى محال على الله تعالى والثانية غير محال . ثم اعلم أن العبد لا يكون شاكرًا في الحالة الأولى بمجرد الركوب والوصول إلى حضرته مالم يتم بخدمته التي أرادها الملك منه . وأما في الحالة الثانية فلا يحتاج إلى الخدمة أصلاً ومع ذلك يتصور أن يكون شاكرًا وكافرًا ويكون شكره بأن يستعمل ما أنعم الله عليه مولاه فيما أحبه لأجله لأجل نفسه وكفره أن لا يستعمل ذلك فيه بأن يطله أو يستعمله فيما يزيد في بعده منه فهو مالم يسلب العبد الثوب وركب الفرس ولم ينفق الزاد إلا في الطريق فقد شكره مولاه إذا استعمل نعمته في عبته : أي استعملها فيما أحبه لمولاه لا لنفسه وإن ركب واستدبر حضرته وأخذ يبعد منه فقد كفر نعمته : أي استعملها فيما كرهه مولاه لعبد لا لنفسه وإن جلس ولم يركب لافي طلب القرب ولا في طلب البعد فقد كفر أيضاً نعمته إذا أهملها وعطلها وإن كان هذا دون ماله بعد منه فكذلك خلق الله سبحانه الخلق وهم في ابتداء فطرتهم يحتاجون إلى استعمال الشهوات لتشكل بها أبدانهم فيبعدون بها عن حضرته وإنما سعادتهم في القرب منه فأعد لهم من النعم ما يقدر على استعماله في نيل درجة القرب وعن بعدهم وقبرهم عبر الله تعالى إذ قال - قد خلقنا الإنسان في أحسن تقويم ثم رددناه أسفل سافلين إلا الذين آمنوا - الآية فاذن نعم الله تعالى آليات يترقى العبد بها عن أسفل السافلين خلقها الله تعالى لأجل العبد حتى ينال بها سعادة القرب والله تعالى غني عنه قرب أم بعد والعبد فيها بين أن يستعملها في الطاعة فيكون قد شكر لموافقة محبة مولاه وبين أن يستعملها في معصيته فقد كفر لانتقامه ما يكرهه مولاه ولا يرضاه له فان الله لا يرضى لعباده الكفر والعصية وإن عطلها ولم يستعملها في طاعة ولا معصية فهو أيضاً كفران للنعمة بالتضييع وكل ما خلق في الدنيا إما ما خلق آله للعبد ليتوصل به إلى سعادة الآخرة ونيل القرب من الله تعالى فكل مطيع فهو بقدر طاعته شاكر نعمة الله في الأسباب التي استعملها في الطاعة وكل كسلان ترك الاستعمال أو عاص استعملها في طريق البعد فهو كافر جار في غير محبة الله تعالى فالمعصية والطاعة تشملهما المشيئة ولكن لا تشملهما المحبة والكرهية بل رب مراد محبوب ورب مراد مكروه . ووراء بيان هذه الدقيقة سر القدر الذي منع من إفشائه وقد انحل بهذا الاشكال الأول وهو أنه إذا لم يكن للشكور حظ فكيف يكون الشكر ، وبهذا أيضاً ينحل الثاني فانالم نعن بالشكر إلا انصراف نعمة الله في جهة محبة الله فإذا انصرفت النعمة في جهة المحبة بفعل الله فقد حصل المراد وفعلك عطاء من الله تعالى ومن حيث أنت محله فقد أتى عليك وثناؤه نعمة أخرى منه إليك فهو الذي أعطى وهو الذي أتى وصار أحد فعليه سبباً لانصراف فعله الثاني إلى جهة عبته فله الشكر على كل حال وأنت موصوف بأنك شاكر بمعنى أنك محل المعنى الذي الشكر عبارة عنه لا بمعنى أنك موجب له كما أنك موصوف بأنك عارف وعالم لا بمعنى أنك خالق للعالم وموجد لمولكن بمعنى أنك محل له وقد وجد بالقدرة الأزلية فيك فوصفك بأنك هاكر إثبات شيشة لك وأنت شيء إذ جعلك خالق الأشياء شيئاً وإنما أنت لاشيء إذا كنت أنت ظاناً لنفسك شيئاً من ذاتك فأما باعتبار النظر إلى الذي جعل الأشياء شيئاً فأنت شيء إذ جعلك شيئاً فان قطع النظر عن جعله كنت لاشيء تحقيقاً وإلى هذا أشار صلى الله عليه وسلم حيث قال «اعملوا فكل ميسر لما خلق له» (١) لما قيل له يا رسول الله فقيم العمل إذا كانت الأشياء قد فرغ منها من قبل فتبين أن الخلق مجارى قدرة الله تعالى ومحل أفعاله وإن كانوا هم أيضاً من أفعاله ولكن بعض أفعاله محل للبعض وقوله اعملوا وإن كان جارياً على

في المنام كأن قالوا يقول له أليس الغواص ينوص في البحر لطلب الدر ويجمع الصدف في محلاته والدر قد حصل معه ولكن لا يراه إلا إذا خرج من البحر ويشاركه في رؤية الدر من هو على الساحل ففهم بالنام إشارة الشيخ في ذلك فأحسن أدب للمريد مع الشيخ السكوت والحمود والحمود حتى يبادئه الشيخ بما له فيه من الصلاح قولاً وفعلًا وقيل أيضاً في قوله تعالى - لا تقدموا بين يدي الله ورسوله - لا تطلبوا منزلة وراء منزلته ، وهذا من

(١) حديث اعملوا فكل ميسر لما خلق له متفق عليه من حديث علي وعمران بن حصين .

لسان الرسول صلى الله عليه وسلم فهو فعل من أفعاله وهو سبب لعلم الخلق أن العمل نافع وعلمهم فعل من أفعال الله تعالى والعلم سبب لانبعاث داعية جازمة إلى الحركة والطاعة وإنبعاث الداعية أيضا من أفعال الله تعالى وهو سبب لحركة الأعضاء وهي أيضا من أفعال الله تعالى ولكن بعض أفعاله سبب للبعض أي الأول شرط للثاني كما كان خلق الجسم سببا لخلق العرض إذ لا يخلق العرض قبله وخلق الحياة شرط لخلق العلم وخلق العلم شرط لخلق الإرادة والكل من أفعال الله تعالى وبعضها سبب للبعض : أي هو شرط ومعنى كونه شرطاً أنه لا يستمد لقبول فعل الحياة إلا جوهر ولا يستمد لقبول العلم إلا ذو حياة ولا لقبول الإرادة إلا ذو علم فيكون بعض أفعاله سببا للبعض بهذا المعنى لا بمعنى أن بعض أفعاله موجد لغيره بل بمهد شرط للحصول لغيره وهذا إذا حقق ارتقى إلى درجة التوحيد الذي ذكرناه . فان قلت فلم قال الله تعالى اعملوا وإلا قاتم معاقبون مذمومون طي الصبيان وما للناسي . فكيف نذم وإنما الكل إلى الله تعالى . فاعلم أن هذا القول من الله تعالى سبب لحصول اعتقادنا والاعتقاد سبب لهيجان الخوف وهيجان الخوف سبب لترك الشهوات والتجافي عن دار الغرور ، وذلك سبب للوصول إلى جوار الله والله تعالى مسبب الأسباب ومرتبها فمن سبق له في الأزل السعادة يسر له هذه الأسباب حتى يقوده بسلسلتها إلى الجنة ويعبر عن مثله بأن كلا ميسر لما خلق له ومن لم يسبق له من الله الحسنى بعد عن صماع كلام الله تعالى وكلام رسول الله صلى الله عليه وسلم وكلام العلماء فإذا لم يسمع لم يعلم وإذا لم يعلم لم يخف وإذا لم يخف لم يترك الركون إلى الدنيا وإذا لم يترك الركون إلى الدنيا لم يترك الركون إلى الدنيا بقي في حزب الشيطان وإن جهنم لموعدهم أجمعين ، فإذا عرفت هذا تمجيت من قوم يقادون إلى الجنة بالسلاسل فما من أحد إلا وهو مقود إلى الجنة بسلاسل الأسباب وهو تسليط العلم والخوف عليه وما من غدول إلا وهو مقود إلى النار بالسلاسل وهو تسليط الغفلة والأمن والغرور عليه فالتقون يساقون إلى الجنة قهرا والمجرمون يقادون إلى النار قهرا ولا قاهر إلا الله الواحد القهار ولا قادر إلا الملك الجبار وإذا انكشف الغطاء عن أعين العاقلين فشهدوا الأمر كذلك صمعا عند ذلك نداء المنادي - لمن الملك اليوم الله الواحد القهار - ولقد كان للملك الله الواحد القهار كل يوم لذلك اليوم على الخصوص ولكن العاقلين لا يسمعون هذا النداء إلا ذلك اليوم ، فهو نبأ عما يتجدد للعاقلين من كشف الأحوال حيث لا يتفهم الكشف ، فنعوذ بالله الحليم الكريم من الجهل والعمى فإنه أصل أنبياء الهلاك .

( بيان تميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه )

اعلم أن فعل الشكر وترك الكفر لا يتم إلا بمعرفة ما يحبه الله تعالى عما يكرهه إذ معنى الشكر استعمال نعمه تعالى في محابه ومعنى الكفر تقيض ذلك إما بترك الاستعمال أو باستعمالها في مكارهه ولتميز ما يحبه الله تعالى عما يكرهه مدركان : أحدهما السمع ومستنده الآيات والأخبار . والثاني بصيرة القلب وهو النظر بين الاعتبار وهذا الأخير عسير وهو لأجل ذلك عزيز ، فلذلك أرسل الله تعالى الرسل وسهل بهم الطريق على الخلق ومعرفة ذلك تنبى على معرفة جميع أحكام الشرع في أفعال العباد فمن لا يطالع على أحكام الشرع في جميع أفعاله لم يمكنه القيام بحق الشكر أصلا . وأما الثاني وهو النظر بين الاعتبار فهو إدراك حكمة الله تعالى في كل موجود خلقه إذ ما خلق شيئا في العالم إلا وفيه حكمة وتحت الحكمة مقصود وذلك المقصود هو المحبوب وتلك الحكمة منقسمة إلى جليلة وخفية . أما الجليلة فكالمعلم بأن الحكمة في خلق الشمس أن يحصل بها الفرق بين الليل والنهار فيكون النهار معاشا والليل لباسا فتبصر الحركة عند الإبصار والسكون عند الاستتار فهذا من جملة حكم الشمس لا كل الحكم فيها

محاسن الآداب  
وأعزها وبنفى للمريد  
أن لا يحدث نفسه  
بطلب منزلة فوق  
منزلة الشيخ بل يجب  
للشيخ كل منزلة عالية  
ويتمنى للشيخ عز  
النسب وغرائب الواجب  
وبهذا يظهر جوهر  
الريدى حسن الإرادة  
وهذا يعزى الريدين  
فإرادته للشيخ تعطيه  
فوق ما يتمنى لنفسه  
ويكون قائما بلحب  
الإرادة . قال السرى  
رحم الله حسن الأدب  
رجان العقل . وقال  
أبو عبد الله بن حنيف  
قال لى رويى يابى  
اجعل عملك ملحا  
وأدبك دقيقا ، وقيل  
التصوف كله أدب

بل فيها حكم أخرى كثيرة دقيقة وكذلك معرفة الحكمة في القيم ونزول الأمطار وذلك لانشقاق الأرض بأنواع النبات مطعما للخلق ومرعى للأنعام وقد انطوى القرآن على جملة من الحكم الجليلة التي عملها أفهام الخلق دون الدقيق الذي يفهمون عن فهمه إذ قال تعالى - أنا صبينا السماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبثنا فيها حبا وعنا - الآية . وأما الحكمة في سائر الكواكب السيارة منها والتوابت غفية لا يطلع عليها كافة الخلق والقدر الذي يحتمله فهم الخلق أنها زينة للسماء لتستلذ العين بالنظر إليها وأشار إليه قوله تعالى - إنا زينا السماء الدنيا بزينة الكواكب - فجميع أجزاء العالم سماؤه وكواكبه ورياحه وبحاره وجباله ومعادنه ونباته وحيواناته وأعضاء حيواناته لا تخلو ذرة من ذراته عن حكم كثيرة من حكمة واحدة إلى عشرة إلى ألف إلى عشرة آلاف وكذا أعضاء الحيوان تنقسم إلى ما يعرف حكمها كالعلم بأن العين للإبصار واللبطش واليد للبطش والمشى والرجل للمشى فالأعضاء الباطنة من الأمعاء والمرارة والكبد والكلية وآحاد العروق والأعصاب والمضلات وما فيها من التجاوب والتفاف والاشتباك والانحراف والدقة والفظول سائر الصفات فلا يعرف الحكمة فيها سائر الناس والذين يعرفونها لا يعرفون منها إلا قدرا يسيرا بالإضافة إلى ما في علم الله تعالى وما أوتيتهم من العلم الإقليل فماذا من استعمل شيئا في جهة غير الجهة التي خلق لها ولا على الوجه الذي أريد به فقد كفر فيه نعمة الله تعالى فمن ضرب غيره يده فقد كفر نعمة اليد إذ خلقت له اليد ليدفع بها عن نفسه ما يهلكه ويأخذ ما ينفعه لا يهلك بها غيره ومن نظر إلى وجه غير المحرم فقد كفر نعمة العين ونعمة الشمس إذا إبصار يتيم بها وإنما خلقنا لمبصر بهما ما ينفعه في دينه ودنياه ويتق بهما ما يضره فيهما فقد استعملهما في غير ما أريدتا به وهذا لأن المراد من خلق الخلق وخلق الدنيا وأسبابها أن يستعين الخلق بهما على الوصول إلى الله تعالى ولا وصول إليه إلا بمحبته والأنس به في الدنيا والتجافي عن غرور الدنيا ولا أنس إلا بدوام الذكر ولا محبة إلا بالمعرفة الحاصلة بدوام الفكر ولا يمكن الدوام على الذكر والفكر إلا بدوام البدن ولا يبقى البدن إلا بالغذاء ولا يتم الغذاء إلا بالأرض والماء والهواء ولا يتم ذلك إلا بخلق السماء والأرض وخلق سائر الأعضاء ظاهرا وباطنا فكل ذلك لأجل البدن والبدن مطية للنفس والراجع إلى الله تعالى هي النفس للطمشة بطول العبادة والعرفة فلذلك قال تعالى - وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون ما أريد منهم من رزق - الآية فكل من استعمل شيئا في غير طاعة الله فقد كفر نعمة الله في جميع الأسباب التي لا بد منها لإقدامه على تلك العصية . ولذا ذكر مثلا واحدا للحكم الخفية التي ليست في غاية الخفاء حتى تعتبر بها وتعلم طريقة الشكر والتكفران على النعم فنقول : من نعم الله تعالى خلق الدرام والدنانير وبهما قوام الدنيا وهما حجران لامتعة في أعيانها ولكن يضطر الخلق إليهما من حيث إن كل إنسان محتاج إلى أعيان كثيرة في مطعمه وملبسه وسائر حاجاته وقد يحجز عما يحتاج إليه ويملك ما يستغنى عنه كمن يملك الزعفران مثلا وهو محتاج إلى جمل يركبه ومن يملك الجمل ربعا يستغنى عنه ويحتاج إلى الزعفران فلا بد بينهما من معاوضة ولا بد في مقدار العوض من تقدير إذ لا يبدل صاحب الجمل جملة بكل مقدار من الزعفران ولا مناسبة بين الزعفران والجمل حتى يقال يعطى منه مثله في الوزن أو الصورة وكذا من يشتري دارا بقباب أو عبد أغف أو دقيقا بحمار فله الأشياء لا تناسب فيها فلا يدري أن الجمل كم يسوى بالزعفران فتعذر للمعاملات جدا فافتقرت هذه الأعيان التنافرة للتباعدة إلى متوسط بينها يحكم فيها بحكم عدل فيعرف من كل واحد رتبته ومنزلته حتى إذا تفرقت المنازل وترتبت الرتب علم بعد ذلك المساوي من غير المساوي فخلق الله تعالى الدنانير والدرام حاكين ومتوسطين بين سائر الأموال حتى تقدر الأموال بهما فيقال هذا الجمل يسوى

لكل وقت وأدب ولكل حال أدب ولكل مقام أدب فمن يلزم الأدب يبلغ الرجال ومن حرم الأدب فهو بريد من حيث يظن القرب ومردود من حيث يرجو القبول ومن تأديب الله تعالى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - لا رفوا أصواتكم فوق صوت النبي - كان ثابت بن قيس بن شماس في أذنه وقر وكان جهوري الصوت فكان إذا كلم إنسانا جهر بصوته وربما كان يكلم النبي صلى الله عليه وسلم فيتأذى بصوته فأزل الله تعالى الآية تأديبا له ونفيرا .

مائة دينار وهذا القدر من الزعفران يسوى مائة فهما من حيث إتيانها مساويان بشيء واحد إذن متساويان وإنما أمكن التعديل بالتدوين إذ لا غرض في أعيانها ولو كان في أعيانها غرض ربما اقتضى خصوص ذلك الغرض في حق صاحب الغرض ترجيحاً ولم يقتض ذلك في حق من لا غرض له فلا ينتظم الأمر فاذن خلقهما الله تعالى لتداولهما الأبدى ويكونا حاكين بين الأموال بالعدل والحكمة أخرى وهى التوصل بهما إلى سائر الأشياء لأنهما عزيزان في أنفسهما ولا غرض في أعيانها ونسبتهما إلى سائر الأموال نسبة واحدة فمن ملكهما فكأنه ملك كل شيء لا كمن ملك ثوبا فإنه لم يملك إلا الثوب فلو احتاج إلى طعام ربما لم يرغب صاحب الطعام في الثوب لأن غرضه في دابة مثلا فاحتيج إلى شيء هو في صورته كأنه ليس بشيء وهو في مناه كأنه كل الأشياء والشئ إنما تستوى نسبته إلى الاختلافات إذا لم تكن له صورة خاصة يفيد بها بخصوصها كالمرآة لالون لها ونحكي كل لون فكذلك النقد لا غرض فيه وهو وسيلة إلى كل غرض وكالحرف لامتعى له في نفسه ونظهر به المعاني في غيره فهذه هى الحكمة الثانية وفيها أيضا حكم بطول ذكرها فكل من عمل فيهما عملا لا يليق بالحكم بل يخالف الغرض المقصود بالحكم فقد كفر نعمة الله تعالى فيهما فاذن من كثرهما فقد ظلمهما وأبطل الحكمة فيهما وكان كمن حبس حاكم المسلمين في سجن يتمتع عليه الحكم بسببه لأنه إذا كثر فقد ضيع الحكم ولا يحصل الغرض المقصود به وما خلقت الدراهم والدنانير ليزيد خاصة ولا لعمرو خاصة إذ لا غرض للأحد في أعيانها فإتيانها حيران وإنما خلقا لتداولها الأبدى فيكونا حاكين بين الناس وعلامة معرفة للمقادير مقومة للمراتب فأخبر الله تعالى الذين يعجزون عن قراءة الأسطر الإلهية المكتوبة على صفحات الوجودات بخط إلهي لا حرف فيه ولا صوت الذى لا يدرك بعين البصر بل بعين البصيرة أخبر هؤلاء العاجزين بكلام سمعوه من رسوله صلى الله عليه وسلم حتى وصل إليهم بواسطة الحرف والصوت الذى عجزوا عن إدراكه فقال تعالى - والذين يكرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب أليم - وكل من اتخذ من الدراهم والدنانير آتية من ذهب أو فضة فقد كفر النعمة وكان أسوأ حالا ممن كثر لأن مثال هذا مثال من استخبر حاكم البلد في الحياكة والسكس والأعمال التى يقوم بها أخساء الناس والحبس أهون منه وذلك أن الحزف والحديد والرصاص والنحاس تنوب مناب الذهب والفضة في حفظ المائعات عن أن تتبدد وإنما الأواني لحفظ المائعات ولا يكفي الحزف والحديد في المقصود الذى أريد به النقود فمن لم ينكشف له هذا انكشف له بالترجمة الإلهية وقيل له من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم<sup>(١)</sup> وكل من عامل معاملة الرابحى الدراهم والدنانير فقد كفر النعمة وظلم لأنهما خلقا لغيرهما لالتفسيهما إذ لا غرض في عينهما فاذا أبحر في عينهما فقد اتخذهما مقصودا على خلاف وضع الحكمة إذ طلب النقد لغير ما وضع له ظلم ومن معه ثوب ولا نقد معه فقد لا يقدر على أن يشتري به طعاما ودابة إذ ربما لا يباع الطعام والدابة بالثوب فهو معذور في يسه بتقد آخر ليحصل النقد فيتوصل به إلى مقصوده فإتيانها وسيلتان إلى الغير لا غرض في أعيانها وموقعهما في الأموال كواقع الحرف من الكلام كما قال النحويون إن الحرف هو الذى جاء لمعنى في غيره وكوقع المرأة من الألوان فأما من معه نقد فلو جاز له أن يبيعه بالنقد فيتخذ التعامل على النقد غاية عمله فيبقى النقد مقيدا عنده وبئز منزلة الكنوز وتقييد الحاكم والبريد الموصول إلى الغير ظلم

(١) حديث من شرب في آتية من ذهب أو فضة فكأنما يجر جر في بطنه نار جهنم متفق عليه من حديث أم سلمة ولم يصرح المصنف بكونه حديثا .

أخبرنا ضياء الدين  
عبد الوهاب بن طي  
قال أنا أبو الفتح  
المروى قال أنا أبو نصر  
الترياقى قال أنا أبو محمد  
الجراحى قال أنا  
أبو المباس الجبوبي  
قال أنا أبو عيسى  
الترمذى قال ثنا محمد  
ابن الشئبى قال ثنا مؤمل  
ابن إسماعيل قال ثنا نافع  
ابن عمر بن جميل الجهمى  
قال حدثني حابس بن  
أبي مليكة قال حدثني  
عبد الله بن الزبير أن  
الأقرع بن حابس قدم  
على النبي صلى الله عليه  
وسلم فقال أبو بكر  
استعمله على قومه فقال  
عمر لا تستعمله يا رسول  
الله فتكلمنا عند النبي  
صلى الله عليه وسلم

كما أن حبسه ظلم فلا معنى لبيع النقد بالنقد إلا اتخاذ النقد مقصودا للادخار وهو ظلم . فان قلت : فلم جاز بيع أحد التقدين بالآخر ولم جاز بيع الدرهم بمثله . فاعلم أن أحد التقدين يخالف الآخر في مقصود التوصل ، إذ قد يتيسر التوصل بأحدهما من حيث كثرته كالدرهم تنفرق في الحاجات قليلا قليلا في النعم منه ما يشوش المقصود الخاص به ، وهو تيسر التوصل به إلى غيره . وأما بيع الدرهم بدرهم بمثله فجائز من حيث إن ذلك لا يرغب فيه عاقل مهما تساوى ولا يشتغل به تاجر فانه عبث يجري مجرى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه ونحن لا نخاف على العقلاء أن يصرفوا أوقاتهم إلى وضع الدرهم على الأرض وأخذه بعينه فلا تمنع عما لا تشوق النفوس إليه إلا أن يكون أحدهما أجود من الآخر وذلك أيضا لا يتصور جريانه ، إذ صاحب الجيد لا يرضى بمثله من الرديء فلا ينتظم العقد وإن طلب زيادة في الرديء فذلك مما قد يقصده فلا جرم نمنعه منه ونحكم بأن جيدها ورديئها سواء لأن الجودة والرداءة ينبغي أن ينظر إليهما فيما يقصد في عينه ، وما لا غرض في عينه فلا ينبغي أن ينظر إلى مضافات دقيقة في صفاته وإنما الذي ظلم هو الذي ضرب النقود مختلفة في الجودة والرداءة حتى صارت مقصودة في أعيانها وحققها أن لا تقصد . وأما إذا باع درهما بدرهم مثله نسيئة فاعلم إن جز ذلك لأنه لا يقدم على هذا إلا مسامح قاصد الإحسان في القرض وهو مكرمة مندوحة عنه لتبقي صورة للساعة فيكون له حمد وأجر . والعارضة لا حمد فيها ولا أجر فهو أيضا ظلم لأنه إضاعة خصوص الساعة وإخراجها في معرض المعاوضة وكذلك الأطعمة خلقت ليتغذى بها أو يتداوى بها فلا ينبغي أن تصرف على جهتها فان فتح باب المعاملة فيها يوجب تقييدها في الأيدي ويؤخر عنها الأكل الذي أريدت له لما خلق الله الطعام إلا ليؤكل والحاجة إلى الأطعمة شديدة فينبغي أن تخرج عن يد المستغنى عنها إلى المحتاج ولا يعامل على الأطعمة إلا مستغنى عنها . إذ من معه طعام فلم يأتأ كله إن كان محتاجا ولم يحمله بضاعة تجارة وإن خطه بضاعة تجارة فليسه ممن يطلبه بغيره غير الطعام يكون محتاجا إليه . فأما من يطلبه بعين ذلك الطعام فهو أيضا مستغنى عنه ولهذا ورد في الشرع لعن المحتكر وورد فيه من التشديدات ما ذكرناه في كتاب آداب الكسب ، نعم بائع البر بالبحر معذور إذ أحدهما لا يبدد مسد الآخر في القرض وبائع صاع من البر بصاع منه غير معذور ولكنه عايب فلا يحتاج إلى منع لأن النفوس لا تسمح به إلا عند التفاوت في الجودة ومقابلة الجيد بمثله من الرديء لا يرضى بها صاحب الجيد . وأما جيد برديئين فقد يقصد ولكن لما كانت الأطعمة من الضروريات والجيد يساوي الرديء في أصل الفائدة ويخالفه في وجوه النعم أسقط الشرع غرض النعم فيما هو القوام فهذه حكمة الشرع في تحريم الربا وقد انكشف لنا هذا بعد الاعراض عن فن الفقه فلنلتحق هذا بفن الفقهيات فانه أقوى من جميع ما أوردناه في الخلافات وبهذا يتضح رجحان مذهب الشافعي رحمه الله في التخصيص بالأطعمة دون السكيات إذ لو دخل الجص فيه لكانت الثياب والدواب أولى بالدخول ولولا الملح لكان مذهب مالك رحمه الله أقوم المذاهب فيه إذ خصه بالأوقات ولكن كل معنى يراه الشرع فلا بد أن يضبط بمحد وتعميد هذا كان ممكنا بالقوت وكان ممكنا بالمطعم ف رأى الشرع التحديد بمنس المطعم أخرى لكل ما هو ضرورة البقاء وتعميدات الشرع قد تحيط بأطراف لا يقوى فيها أصل المعنى الباعث على الحكم ولكن التحديد يقع كذلك بالضرورة ولو لم يحد لتعير الخلق في اتباع جوهر المعنى مع اختلافه بالأحوال والأشخاص فعين المعنى بكامل قوته يختلف باختلاف الأحوال والأشخاص فيكون الحد ضروريا فلذلك قال الله تعالى - ومن تعد حدود الله فقد ظلم نفسه -

حقى علت أصواتها  
فقال أبو بكر لعمر  
ما أردت إلا خلافي وقال  
عمر ما أردت خلافتك  
فأنزل الله تعالى الآية  
فكان عمر بعد ذلك  
إذا تكلم عند النبي  
صلى الله عليه وسلم  
لا يسمع كلامه حتى  
يستفهم . وقيل لما نزلت  
الآية آلى أبو بكر أن  
لا يتكلم عند النبي  
صلى الله عليه وسلم إلا  
كأخ السرار فكذا  
ينبغي أن يكون المريد  
مع الشيخ لا ينسبط  
رفع الصوت وكثرة  
الضحك وكثرة  
الكلام إلا إذا بسطه  
الشيخ فرفع الصوت  
تنحية جلباب الوقار  
والوقار إذا سكن

ولأن أصول هذه المعاني لا تختلف فيها الشرائع وإنما تختلف في وجوه التحديد كما عهد شرع عيسى ابن مريم عليه السلام تحريم الخمر بالسكر وقد حده شرعنا بكونه من جنس المسكر لأن قليله يدعو إلى كثيره والداخل في الحدود داخل في التحريم بحكم الجنس كما دخل أصل المعنى بالجملة الأصلية فهذا مثال واحد لحكمة خفية من حكم التقدين فينبغي أن يعتبر شكر النعمة وكفرانها بهذا المثال فكل ما خلق لحكمة فينبغي أن يصرف عنها ولا يعرف هذا إلا من قد عرف الحكمة - ومن ثبوت الحكمة قد أوتي خيرا كثيرا - ولكن لا تصادف جواهر الحكم في قلوب هي مزابل الشهوات وملعب الشياطين بل لا يتذكر إلا أولو الألباب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «لولا أن الشياطين يحومون على قلوب بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء» (١) وإذا عرفت هذا للمثال قس عليه حركتك وسكونك ونطقك وسكونك وكل فعل صادر منك فانه إما شكر وإما كفر إذ لا يتصور أن ينفك عنهما وبعض ذلك نصفه في لسان الفقه الذي تناطق به عوام الناس بالكراهة وبعضه بالحظر وكل ذلك عند أرباب القلوب موصوف بالحظر . فأقول مثلا لو استنجيت باليمنى قد كفرت نعمة اليمين إذ خلق الله لك اليمين وجعل إحداها أقوى من الأخرى فاستحق الأقوى بزيد رجحانه في الغالب التشريف والتفضيل وتفضيل الناقص عدول عن العدل والله لا يأمر إلا بالعدل ثم أحوجك من أعطاك اليمين إلى أعمال بعضها شريف كأخذ للصحف وبعضها خسيس كالزلة النجاسة فإذا أخذت للصحف باليسار وأزلت النجاسة باليمين قد خصصت الشريف بما هو خسيس ففضضت من حقه وظلمته وعدلت عن العدل وكذلك إذا بصقت مثلاً في جهة القبلة أو استقبلتها في قضاء الحاجة قد كفرت نعمة الله تعالى في خلق الجهات وخلق سعة العالم لأنه خلق الجهات لتكون متمسكة في حركتك وقسم الجهات إلى مالم يصرفها وإلى ما شرفها بأن وضع فيها بيتاً أضافه إلى نفسه استمالة لقلبك إليه ليتقيد به قلبك فيتقيد بسببه بدتك في تلك الجهة على هيئة الثبات والوقار إذا عبدت ربك وكذلك انقسمت أفعالك إلى ما هي شريفة كالطاعات وإلى ما هي خسيسة كقضاء الحاجة ورمى البصاق فإذا رميت بصافك إلى جهة القبلة قد ظلمتها وكفرت نعمة الله تعالى عليك بوضع القبلة التي بوضعها كمال عبادتك وكذلك إذا لبست خفك فابتدأت باليسرى قد ظلمت لأن الخف وقاية للرجل فالرجل فيه حظ والبداءة في الحظوظ ينبغي أن تكون بالأشرف فهو العدل والوفاء بالحكمة وتقيضه ظلم وكفران لنعمة الخف والرجل وهذا عند العارفين كبيرة وإن ساء الفقيه مكروها حتى إن بعضهم كان قد جمع أكراراً من الخنطة وكان يتصدق بها فستل عن سببه فقال لبست اللداس مرة فابتدأت بالرجل اليسرى سهواً فأريد أن أكفروه بالصدقة ، ثم الفقيه لا يقدر على تضخيم الأمور في هذه الأمور لأنه مسكين بل يصلاح العوام الذين تقرب درجاتهم من درجة الأنعام وهم مغموسون في ظلمات أطم وأعظم من أن تظهر أمثال هذه الظلمات بالإضافة إليها قبيح أن يقال الذي شرب الخمر وأخذ القدرح يساره قد تعدى من وجهين : أحدهما الشرب والآخر الأخذ باليسار ومن باع خمر في وقت النداء يوم الجمعة قبيح أن يقال خان من وجهين : أحدهما بيع الخمر والآخر البيع في وقت النداء ومن قضى حاجته في محراب المسجد مستدبر القبلة قبيح أن يذكر تركه الأدب في قضاء الحاجة من حيث إنه لم يحمل القبلة عن يمينه فالمعاصي كلها ظلمات بعضها فوق بعض فينمحق بعضها في جنب البعض فالسيد قد يماقب عبده إذا استعمل سكينه بغير إذنه ولكن لو قتل بتلك السكين أعزأ ولاد لم يبق

(١) حديث لولا أن الشياطين يحومون على بني آدم لنظروا إلى ملكوت السماء تقدم في الصوم .

القلب عقل اللسان  
ما يقول وقد ينازل  
باطن بعض الريدين  
من الحرمة والوقار من  
الشيخ ما لا يستطيع  
الريد أن يشبع النظر  
إلى الشيخ وقد كنت  
أحم فيدخل على عمي  
وشيخي أبو النجيب  
السهروردي رحمه  
الله فيترشح جسدي  
عرقاً وكنت أتمنى  
العرق لتخف الحمى  
فكنت أجد ذلك  
عند دخول الشيخ  
على ويكون في قدمه  
بركة وشفاء وكنت  
ذات يوم في البيت  
خالياً وهناك مندبل  
وهبه لي الشيخ وكان  
ينعم به فوق قدمي  
على الندبل اتفاقاً فأتلم

لاستعمال السكين بغير إذن حكم ونكايه في نفسه فسل ما راعاه الأنبياء والأولياء من الآداب وتسامحنا فيه في الفقه مع العوام فسيبه هذه الضرورة وإلا فسل هذه السكارة عدول عن العدل وكفران للنعمة وتقصان عن الدرجة المبلغ للعبد إلى درجات القرب ، فم بعضها يؤثر في العبد بقصان القرب وانعطاط النزلة وبسببها يخرج بالكلية عن حدود القرب إلى عالم البعد الذي هو مستقر الشياطين وكذلك من كسر غصنا من شجرة من غير حاجة ناجزة مهتوم من غير حاجة غرض صحيح فقد كفر نعمة الله تعالى في خلق الأشجار وخلق له العروق وساق إليه الماء وخلق فيه قوة الاغتذاء والثناء ليلج منتهى نشوة فينتفع به عباده فكسره قبل منتهى نشوة لاطى وجهه ينتفع به عباده مخالفة لقصود الحكمة وعدول عن العدل فان كان له غرض صحيح فله ذلك إذا الشجر والحيوان جعل لافداء لأغراض الانسان فانها جميعا فانين هالكان فافناء الأخص في بقاء الأشرف مدة ما أقرب إلى العدل من تضييع ما جميعا وإليه الإشارة بقوله تعالى - وسخر لكم مافي السموات ومافي الأرض جميعا منه - نعم إذا كسر ذلك من ملك غيره فهو ظالم أيضا وإن كان محتاجا لأن كل شجرة بينها لاتفى بحاجات عباد الله كلهم بل تفي بحاجة واحدة ولو خص واحد بها من غير رجحان واختصاص كان ظلما فصاحب الاختصاص هو الذي حصل البذر ووضع في الأرض وساق إليه الماء وقام بالتعهد فهو أولى به من غيره فيرجع جانبه بذلك ، فان ثبت ذلك في موات الأرض لا يسعى آدمي اختص بغيره أو بغيره فلا بد من طلب اختصاص آخر وهو السبق إلى أخذه فللسابق خاصة السبق . فالعدل هو أن يكون أولى به ، وعبر الفقهاء عن هذا الترجيح بالملك ، وهو مجاز محض ، إذ لا ملك إلا الملك الملوك الذي له مافي السموات والأرض ، وكيف يكون العبد مالكا وهو في نفسه ليس يملك نفسه بل هو ملك غيره ، نعم الخلق عباد الله والأرض مائدة الله وقد أذن لهم في الأكل من مائدته بقدر حاجتهم كالملك ينصب مائدة لعيده ، فمن أخذ لقمة يمينه واحتوت عليها راحه فجاء عبد آخر وأراد انتزاعها من يده لم يمكن منه لأن اللقمة صارت ملكا له بالأخذ باليد فان اليد وصاحب اليد أيضا مملوك ولكن إذا كانت كل لقمة بينها لاتفى بحاجة كل العبد فالعدل في التخصيص عند حصول ضرب من الترجيح والاختصاص والأخذ اختصاص ينفرده العبد فمنع من لا يدلي بذلك الاختصاص عن مزاحمته ، فهكذا ينبغي أن نهم أمر الله في عباده ولذلك نقول من أخذ من أموال الدنيا أكثر من حاجته وكثره وأسكه وفي عباد الله من يحتاج إليه فهو ظالم وهو من الذين يكثرزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله وإنما سبيل الله طاعته وزاد الخلق في طاعته أموال الدنيا ، إذ بها تندفع ضرورتهم وترتفع حاجاتهم ، نعم لا يدخل هذا في حدتنا وفي الفقه لأن مقادير الحاجات خفية والنفوس في استشعار الفقر في الاستقبال مختلفة وأواخر الأعمار غير معلومة فتسكين العوام ذلك يجري مجرى تكليف الصبيان الوقار والتؤدة والسكوت عن كل كلام غير مهم ، وهو بحكم نقصانهم لا يطبقونه فتركنا الاعتراض عليهم في الحب واللهم وإاحتنا ذلك أيام لا يدل على أن الله هو اللعب حق فكذلك إاحتنا للعوام حفظ الأموال والاقتصاد في الاتفاق على قدر الزكاة لضرورة ما جلبوا عليه من البخل لا يدل على أنه غاية الحق . وقد أشار القرآن إليه إذ قال تعالى - إن يسألكموها فيحلفكم تبخلوا - بل الحق الذي لا كدورة فيه والعدل الذي لا ظلم فيه أن لا يأخذ أحد من عباد الله من مال الله إلا بقدر زاد الرأكب فسل عباد الله ركاب لمطاي الأبدان إلى حضرة الملك الديان . فمن أخذ زيادة عليه ثم منعه عن ركب آخر محتاج إليه فهو ظالم تارك للعدل وخارج عن مقصود الحكمة وكافر نعمة الله تعالى عليه بالقرآن والرسول والعقل وسائر الأسباب التي بها عرف أن ماسوى زاد الرأكب وبإل عليه

باطن من ذلك وهائل الوطء بالتقدم على منديل الشيخ وانبت من باطن من الاحترام ما أرجو بركته . قال ابن عطاء في قوله تعالى - لا ترفعوا أصواتكم - زجر عن الأدنى لئلا يخطئ أحد إلى ما فوقه من ترك الحرمة وقال سهل في ذلك لا غلط به إلا المستفهمين . وقال أبو بكر بن طاهر لا تبدءوا بالخطاب ولا تجهيؤوه إلا على حدود الحرمة ولا تجهروا له بالقول كجهر بعضكم لبعض أى لا تخطئوا له في الخطاب ولا تنادوه باسمه يا محمد يا أحمد كما ينادى بعضكم بعضا ولكن غصوه



في الدنيا والآخرة فمن فهم حكمة الله تعالى في جميع أنواع الموجودات قدر على القيام بوظيفة الشكر واستقصاء ذلك بمحتاج إلى مجلدات ثم لان في الإلّا بالقليل وإنما أوردنا هذا القدر ليعلم علة الصدق في قوله تعالى - وقليل من عبادى الشكور - وفرح إبليس لعنه الله بقوله - ولا تجدوا كثير من شاكرين - فلا يعرف معنى هذه الآية من لم يعرف معنى هذا كله وأمورا أخرى وأمر ذلك تنقضى الأعمار دون استقصاء مبادئها ، فأما تفسير الآية ومعنى لفظها فيعرفه كل من يعرف اللغة وبهذا يتبين لك الفرق بين المعنى والتفسير . فان قلت قد رجع حاصل هذا الكلام إلى أن الله تعالى حكمة في كل شيء وأنه جعل بعض أفعال العباد سببا لتقام تلك الحكمة وبلوغها غاية المراد منها وجعل بعض أفعالها مانعا من تمام الحكمة فكل فعل وافق مقتضى الحكمة حتى انساق الحكمة إلى غايتها فهو شكر وكل ما خالف ومنع الأسباب من أن تنساق إلى الغاية المرادة بها فهو كفران وهذا كله مفهوم ولكن الأشكال باقية وهو أن فعل العبد بالنسبة إلى ما يتم الحكمة وإلى ما يرضى هو أيضا من فعل الله تعالى فإن الصدق في البين حتى يكون شاكرًا مرة وكافرا أخرى . فاعلم أن تمام التحقيق في هذا يستمد من تيار بحر عظيم من علوم للكشافات وقد رمزنا فيها سبق إلى تلويحات بمبادئها ونحن الآن نبر بعبارة وجيزة عن آخرها وغايتها فهمها من عرف منطق الطير ويحدها من عجز عن الإيضاح في السير فضلا عن أن يحول في جو الملكوت جولان الطير فنقول : إن لله عز وجل في جلاله وكبريائه صفة عنها يصدر الخلق والاختراع وتلك الصفة على وأجل من أن تلحقها عين واضح اللغة حتى يبر عنها بعبارة تدل على كنه جلالها وخصوص حقيقتها فلم يكن لها في العالم عبارة لعلو شأنها وانحطاط رتبة واضى اللغات عن أن يمتد طرف فهمهم إلى مبادئ إشراقها فانخفضت عن ذروتها أبصارهم كما تنخفض أبصار الحفائش عن نور الشمس لا تنموض في نور الشمس ولكن لضعف في أبصار الحفائش فاضطر الدين فتحت أبصارهم للملاحظة جلالها إلى أن يستعيروا من حضيض عالم للتناطقين باللغات عبارة تفهم من مبادئ حقائقها شيئا ضعيفا جدا فاستعاروا لها اسم القدرة فتجاسرنا بسبب استعارتهم على النطق قلنا لله تعالى صفة هي القدرة عنها يصدر الخلق والاختراع ثم الخلق ينقسم في الوجود إلى أقسام وخصوص صفات ومصدر أقسام هذه الأقسام واختصاصها بخصيص صفاتها صفة أخرى استعير لها بمثل الضرورة التي سبقت عبارة المشيئة فهي توهم منها أمرا مجعلا عند التناطقين باللغات التي هي حروف وأصوات المتفاهمين بها وتصور لفظ المشيئة عن الدلالة على كنه تلك الصفة وحقيقتها كتصور لفظ القدرة ثم انقسمت الأفعال الصادرة من القدرة إلى ما ينساق إلى المنتهى الذى هو غاية حكمتها وإلى ما يقف دون الغاية وكان لكل واحد نسبة إلى صفة المشيئة لرجوعها إلى الاختصاصات التي بها تتم القسمة والاختلافات فاستعير لنسبة البالغ غايته عبارة المحبة واستعير لنسبة الواقف دون غايته عبارة الكراهة وقيل إنها مجعلا داخلان في وصف المشيئة ولكن لكل واحد خاصية أخرى في النسبة يوم لفظ المحبة والكراهة منهما أمرا مجعلا عند طالبي الفهم من الألفاظ واللغات ثم انقسم عباده الذين هم أيضا من خلقه واختراعه إلى من سبقت له المشيئة الأزلية أن يستعمله لاستيقاف حكمته دون غايتها ويكون ذلك قهرا في حقهم بتسليط الدواعي والبواعث عليهم وإلى من سبقت لهم في الأزل أن يستعملهم لسياقة حكمته إلى غايتها في بعض الأمور فكان لكل واحد من الفريقين نسبة إلى المشيئة خاصة فاستعير لنسبة المستعملين في إتمام الحكمة بهم عبارة الرضا واستعير للذين استوقف بهم أسباب الحكمة دون غايتها عبارة الغضب فظهر على من غضب عليه في الأزل فعل وقتت الحكمة به دون غايتها فاستعير له الكفران وأردف ذلك بنقمة اللعن والمذمة زيادة في النكال وظهر على من ارضاه في الأزل فعل انساق بسببه الحكمة إلى غايتها فاستعير له عبارة الشكر وأردف

واحترموا وقولوا له :  
يا نبي الله يا رسول الله  
ومن هذا القبيل  
يكون خطاب المريد  
مع الشيخ وإذا سكن  
الوقار القاب علم اللسان  
كيفية الخطاب . ولما  
كلفت النفوس بحجة  
الأولاد والأزواج  
وتعنت أهوية  
النفوس والطباع  
استخرجت من اللسان  
عبارات غريبة وهي  
تعت وقها صاغها  
كلف النفس وهواها  
فاذا امتلأ القلب حرمة  
ووقارا تعلم اللسان  
العبارة . وروى لما  
نزلت هذه الآية فقد  
ثابت بن قيس في  
الطريق يبكي فربه  
عاصم بن عدى فقال

بخلة الشاء والإطراء زيادة في الرضا والقبول والإقبال فكان الحاصل أنه تعالى أعطى الجمال ثم أثنى وأعطى النكال ثم قبح وأردى وكان مثاله أن ينظف الملك عبده الوسخ عن أوساخه ثم يلبسه من محاسن ثيابه فإذا تم زينته قال يا جميل ما أجلك وأجل ثيابك وأنظف وجهك فيكون بالحقيقة هو الجميل وهو اللئى على الجمال فهو اللئى عليه بكل حال وكأنه لم يثن من حيث اللئى إلا على نفسه وإنما العبد هدف الشاء من حيث الظاهر والصورة فهكذا كانت الأمور في الأزل وهكذا تنسلسل الأسباب والسيئات بتقدير رب الأرباب ومسبب الأسباب ولم يكن ذلك على اتفاق وبمحث بل عن إرادة وحكمة وحكم حق وأمر جزم استعير له لفظ القضاء وقيل إنه كلف بالبر أو هو أقرب ففاضت بحار المقادير بحكم ذلك القضاء الجزم بما سبق به التقدير فاستعير لترتب آحاد المقادير بعضها على بعض لفظ القدر فكان لفظ القضاء بإزاء الأمر الواحد الكلى ولفظ القدر بإزاء التفصيل للتأدى إلى غير نهاية وقيل إن شيئا من ذلك ليس خارجا عن القضاء والقدر فخطر لبعض العباد أن القسمة لماذا اقتضت هذا التفصيل وكيف انتظم العدل مع هذا التفاوت والتفضيل وكان بعضهم لتصوره لا يطبق ملاحظة كنه هذا الأمر والاحتواء على مجامعه فألجؤا عما لم يطبقوا خوض غمرته بلجام اللع وقيل لهم اسكنوا فما لهذا خلقتم لا يستل عما يفعل وهم يستلون وامتلات مشكاة بعضهم نورا مقتبسا من نور الله تعالى في السموات والأرض وكان زيتهم أولا صافيا يكاد يضيء ولو لم تفسد نار فستة نار فاشتعل نورا على نور فأشرفت أقطار للسكرات بين أيديهم بنور ربها فأدركوا الأمور كلها كما هي عليه فقيل لهم تأدبوا بأداب الله تعالى واسكنوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا (١) فإن للحيطان آذانا وحواليكم ضغف الأبرار فسيروا بسير أضعفكم ولا تكشفوا حجاب الشمس لأبصار الخفافيش فيكون ذلك سبب هلاكهم فتخلقوا بأخلاق الله تعالى وأنزلوا إلى سماء الدنيا من منتهى علوكم ليأمنس بكم الضغف ويقتبسوا من بقايا أنواركم للشرقة من وراء حجابكم كما يقتبس الخفافيش من بقايا نور الشمس والكواكب في جنح الليل فيجابه حياة عتملتها شخصه وحاله وإن كان لا يحيا به حياة المتردين في كمال نور الشمس وكونوا كمن قيل فيهم :

شربنا شرابا طيبا عند طيب هكذاك شراب الطيبين يطيب

شربنا وأهرقنا على الأرض فضلة وللأرض من كأس الكرام نصيب

فهكذا كان أول هذا الأمر وآخره ولا يفهمه إلا إذا كنت أهلا له وإذا كنت أهلا له فتحت العين وأبصرت فلا تحتاج إلى قائد يهتدك والأعمى يمكن أن يقاد ولكن إلى حداما فإذا ضاق الطريق وصار أحد من السيف وأدق من الشعر قدر الطائر على أن يطير عليه ولم يقدر على أن يستجر وراءه أعمى وإذا دق الجبال ولطف لطف الماء مثلا ولم يكن العبور إلا بالسباحة فقد يقدر الماهر بصناعة السباحة أن يجبر بنفسه وربما لم يقدر على أن يستجر وراءه آخر فهذه أمور نسبة السيرة إليها إلى السيرة على ما هو محال جماهير الخلق كنسبة اللئى على الماء إلى اللئى على الأرض والسباحة يمكن أن تتعلم فأما اللئى على الماء فلا يكتسب بالتعليم بل ينال بقوة اليقين ، ولذلك قيل للئى صلى الله عليه وسلم « إن عيسى عليه السلام يقال إنه مشى على الماء فقال صلى الله عليه وسلم لو ازداد يقينا للئى على الهواء (٢) » فهذه

ما يبيحك يا ثابت قال هذه الآية آخوف أن تكون نزلت في - أن تحبط أعمالكم وأنتم لا تشعرون - وأنا رفيع الصوت على النبي صلى الله عليه وسلم أخاف أن يحبط عملي وأكون من أهل النار فخصي عاصم إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وغلب ثابتا البكاء فأتى امرأته جميلة بنت عبد الله بن أبي بن سلول فقال لها إذا دخلت بيت فرسى فسد على الضبة بسمار فضرته بسمار حتى إذا خرجت عطفته وقال لا أخرج حتى يتوفاني الله أو يرضى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فلما

(١) حديث إذا ذكر القدر فأمسكوا الطبراني من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم ولم يصرح المصنف بكونه حديثا (٢) حديث قيل له يقال إن عيسى مشى على الماء قال لو ازداد يقينا للئى على الهواء وهذا حديث منكرا لا يعرف هكذا والمعروف ما رواه ابن أبي الدنيا في كتاب اليقين من قول بكر بن عبد الله المزني قال قد الحواريون نبيهم قبيلا له توجه نحو البحر فانطلقوا يطلبونه . فلما انتهوا إلى البحر

رموز وإشارات إلى معنى الكراهة والمحبة والرضا والغضب والشكر والكفران لا يليق بعلم العامة أكثر منها وقد ضرب الله تعالى مثلا لذلك تقريبا إلى أفهام الخلق إذ عرف أنه ما خلق الجن والانس إلا ليعبدوه فكانت عبادتهم غاية الحكمة في حقهم ثم أخبر أن له عبيدين يحب أحدهما واسمه جبريل وروح القدس والأمين وهو عنده محبوب مطاع أمين مكين ويغض الآخر واسمه إبليس وهو اللعين للنظر إلى يوم الدين ، ثم أحال الإرشاد إلى جبريل فقال تعالى - قبل نزله روح القدس من ربك بالحق - وقال تعالى - يلقي الروح من أمره على من يشاء من عباده - وأحال الإغواء على إبليس فقال تعالى - ليضل عن سبيله - والإغواء هو استيقاف العباد دون بلوغ غاية الحكمة فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي غضب عليه والإرشاد سباقه لهم إلى الغاية فانظر كيف نسبة إلى العبد الذي أحبه وعندك في العادة له مثال فالملك إذا كان محتاجا إلى من يسقيه الشراب وإلى من يحججه وينظف فناء منزله عن القاذورات وكان له عبدان فلا يمين للحجامة والتنظيف إلا أقبحهما وأخسهما ولا يفوض حمل الشراب الطيب إلا إلى أحسنهما وأكملهما وأحبهما إليه ولا ينفخ أن تقول هذا فعلى ولم يكن فعله دون فعلى فانك أخطأت إذ أضفت ذلك إلى نفسك بل هو الذى صرف داعيتك لتخصيص الفعل المكروه بالشخص المكروه والفعل المحبوب بالشخص المحبوب إتماما للعدل فإن عدله تارة يتم بأمور لا مدخل لك فيها وتارة يتم فيك فانك أيضا من أفعاله فداعيتك وقدرتك وعملك وسائر أسباب حركاتك في التعبير هو فعله الذى رتبته بالعدل ترتيبا تصدر منه الأفعال للعدالة إلا أنك لا ترى إلا نفسك فتظن أن ما يظهر عليك في عالم الشهادة ليس له سبب من عالم الغيب والملكوت فذلك تضيفه إلى نفسك وإنما أنت مثل الصبي الذى ينظر ليلا إلى لب الشعبد الذى يخرج صورا من وراء حجاب ترقص وتزغق وتقوم وتقعدهوى مؤلفة من خرق لا تتحرك بأنفسها وإنما تحركها خيوط شعرية دقيقة لا تظهر في ظلام الليل وزواياها في يد الشعبد وهو محتجب عن أبصار الصبيان فيفرحون ويتعجبون لظنهم أن تلك الحرق ترقص وتلعب وتقوم وتقعده ، وأما العقلاء فانهم يطمون أن ذلك تحريك وليس بتحريك ولكنهم ربما لا يعلمون كيف تفصيله والذى يعلم بعض تفصيله لا يعلمه كما يعلمه الشعبد الذى الأمر إليه والجاذبة بيده فكذلك صبيان أهل الدنيا والخلق كلهم صبيان بالنسبة إلى العلماء ينظرون إلى هذه الأشخاص فيظنون أنها التحركة فيجولون عليها ، والعلماء يطمون أنهم محركون إلا أنهم لا يعرفون كيفية التحريك وهم الأكثرون إلا العارفون والعلماء الراسخون فانهم أدركوا بمعدة أبصارهم خيوطا دقيقة عنكبوتية بل أدق منها بكثير معلقة من السماء متشبثة الأطراف بأشخاص أهل الأرض لا تدرك تلك الخيوط لدقتها بهذه الأبصار الظاهرة ثم شاهدوا رؤوس تلك الخيوط في مناطات لهاهى معلقة بها وشاهدوا لتلك المناطات مقابض هى فى أيدي الملائكة المحركين للسماوات وشاهدوا أيضا ملائكة السماوات مصروفة إلى حملة العرش ينتظرون منهم ما ينزل عليهم من الأمر من حضرة الربوبية كي لا يصوا الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون وعبر عن هذه المشاهدات فى القرآن وقيل - وفى السماء رزقكم وما توعدون - وعبر عن انتظار ملائكة السماوات لما ينزل إليهم من القدر والأمر قليل - خلق سبع سموات ومن الأرض مثلهن ينزل الأمر بينهن لعلن تعلموا أن الله على كل شئ قدير وأن الله قد أحاط بكل شئ علما - وهذه أمور لا يعلم تأويلها إلا الله والراسخون فى العلم وعبر ابن عباس رضى الله عنهما عن اختصاص

إذا هو قد أقبل بمشى على الماء فذكر حديثا فيه أن عيسى قال : لو أن لابن آدم من اليقين شعرة مشى على الماء وروى أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس بسند ضعيف من حديث معاذ بن جبل لو عرفتم الله حق معرفته لمشيتم على البحور وزلات بدعائكم الجبال

آتى عاصم النبى وأخبره بخبره قال اذهب فادعه فجاء عاصم إلى المكان الذى فيه رآه فلم يجده فجاء إلى أهله فوجده فى بيت الفرس فقال له إن رسول الله يدعوك فقال اكر الضبة فأتيا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال رسول الله صلى الله عليه وآله يا ثابث فقال أنا صيت وأخاف أن تكون هذه الآية نزلت فى فقال له رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم أما ترى أن تعيش سعيدا وتقتل شهيدا وتدخل الجنة فقال قدر ضيقت ببشرى الله تعالى ورسوله ولا أرفع صوتى أبدا على

الراسخين في العلم بعلوم لا تخفى عليها أفهام الخلق حيث قرأ قوله تعالى - ينزل الأمر بينهن - فقال لو ذكرت ما أعرفه من معنى هذه الآية لرجعتوني وفي لفظ آخر قلتم إنه كافر . ولتقتصر على هذا القدر فقد خرج عنان الكلام عن قبضة الاختيار وامتزج بعلم العاملة ما ليس منه فلترجع إلى مقاصد الشكر فتقول : إذا رجع حقيقة الشكر إلى كون العبد مستملاً في إتمام حكمة الله تعالى فأشكر العباد أحبهم إلى الله وأقربهم إليه وأقربهم إلى الله الملائكة ولهم أيضاً ترتيب بومانهم إلاولة مقام معلوم وأعلام في رتبة القرب ملك اسمه إسرأفيل عليه السلام وإنما علو درجته لأنهم في أنفسهم كرام برة وقد أصلح الله تعالى بهم الأنبياء عليهم السلام وهم أشرف مخلوق على وجه الأرض ويلى درجته درجة الأنبياء فانهم في أنفسهم أخيار وقد هدى الله بهم سائر الخلق ونعم بهم حكته وأعلام رتبة نبينا ﷺ وعليهم إذ أكل الله به الدين وختم به النبيين وليم العلماء الذين هم ورثة الأنبياء فانهم في أنفسهم صالحون وقد أصلح الله بهم سائر الخلق ودرجة كل واحد منهم بقدر ما أصلح من نفسه ومن غيره ثم يليهم السلاطين بالعدل لأنهم أصلحوا دنيا الخلق كما أصلح العلماء دينهم ولأجل اجتماع الدين والملك والسلطنة لنبينا محمد صلى الله عليه وسلم كان أفضل من سائر الأنبياء فانه أكل الله به صلاح دينهم ودنياهم ولم يكن السيف والملك لغيره من الأنبياء ثم يلي العلماء والسلاطين الصالحون الذين أصلحوا دينهم ونفوسهم فقط فلم تتم حكمة الله بهم بل فيهم ومن عدا هؤلاء فهمج رعا . واعلم أن السلطان بقوام الدين فلا ينبغي أن يستحق وإن كان ظالماً فاسقاً . قال عمرو بن العاص رحمه الله : إمام غشوم خير من فتنة تدوم . وقال النبي صلى الله عليه وسلم لا يكون عليكم أمراء تعرفون منهم وتذكرون ويغدون وما يصلح الله بهم أكثر فإن أحسنوا فلهم الأجر وعليكم الشكر وإن أساءوا فاضلهم الوزر وعليكم الصبر (١) . وقال سهل من أنكر إمامة السلطان فهو زنديق ومن دعاه السلطان فلم يجبه فهو مبتدع ومن أتاه من غير دعوة فهو جاهل . وسئل أى الناس خير فقال السلطان فقيل كنا نرى أن شر الناس السلطان فقال مهلاً إن الله تعالى كل يوم نظرتين نظرة إلى سلامة أموال المسلمين ونظرة إلى سلامة أديانهم فيقطع في صديفته فيغفر له جميع ذنبه وكان يقول الخشب السود الطلقة على أبوابهم خير من سبعين قاصية صون .

( الركن الثاني من أركان الشكر ما عليه الشكر )

وهو النعمة فلنذكر فيه حقيقة النعمة وأقسامها ودرجاتها وأصنافها وجماعها فيما يخص وبم كان إحصاء نعم الله على عباده خارج عن مقدور البشر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فتقدم أموراً كلية تجرى مجرى القوانين في معرفة النعم ثم نشتمل بذكر الأحاد والله الموفق للصواب .

( بيان حقيقة النعمة وأقسامها )

اعلم أن كل خير ولذة وسعادة بل كل مطلوب ومؤثر فانه يسمى نعمة ولكن النعمة الحقيقية هي

(١) حديث سيكون عليكم أمراء يعرفونهم ويغدون وما يصلح الله بهم أكثر الحديث مسلم من حديث أم سلمة يستعمل عليكم أمراء تعرفونهم وتذكرون ورواه الترمذي بلفظ سيكون عليكم أعلم وقال حسن صحيح وللبزار بسند ضعيف من حديث ابن عمر السلطان ظل الله في الأرض يأوى إليه كل مظلوم من عباده فان عدل كان له الأجر وكان على الرعية الشكر وإن جار أو خاف أو ظلم كان عليه الوزر وعلى الرعية الصبر وأما قوله وما يصلح الله بهم أكثر فلم أجده بهذا اللفظ إلا أنه يؤخذ من حديث ابن مسعود حين فرغ إليه الناس لما أنسكروا سيرة الوليد بن عقبة فقال عبيد الله أصبروا فان جور إمامكم خمسين سنة خير من هرج شهر فأنى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول فذكر حديثاً والإمارة الفاجرة خير من الهرج رواه الطبراني في الكبير بإسناد لا بأس به .

رسول الله فأنزل الله تعالى - إن الذين يفضون أصواتهم عند رسول الله - قال أنس كنا ننظر إلى رجل من أهل الجنة يمشى بين أيدينا فلما كان يوم الجمعة في حرب سيلمترأى ثابت من المسلمين بعض الانكسار واتهمت طائفة منهم فقال آف لهؤلاء وما يصنعون ثم قال ثابت لسالم بن خديفة ما كنا نقاتل أعداء الله مع رسول الله صلى الله عليه وسلم مثل هذا ثم ثبتا ولم يزالا يقاتلان حتى قتل واستشهد ثابت كما وعده رسول الله

السعادة الأخروية وتسمية ما سواها نعمة وسعادة إما غلط وإما مجاز كتسمية السعادة الدنيوية التي لا تدوم على الآخرة نعمة فإن ذلك غلط محض وقد يكون اسم النعمة للشيء صدقا ولكن يكون إطلاقه على السعادة الأخروية أصدق فكل سبب يوصل إلى سعادة الآخرة ويسمى عليها إما بواسطة واحدة أو بواسطة ثلث تسميته نعمة صحيحة وصدق لأجل أنه يقضى إلى النعمة الحقيقية والأبواب المعينة والذات المسماة نعمة نثرها بتقسيمات [القسم الأول] أن الأمور كلها بالإضافة إلى ما تنقسم إلى ما هو نافع في الدنيا والآخرة جميعا كالعلم وحسن الخلق وإلى ما هو ضار فيها جميعا كالجهل وسوء الخلق وإلى ما ينفع في الحال ويضر في المال كذلك بتابع الشهوات وإلى ما يضر في الحال ويؤلم ولكن ينفع في المال كقمع الشهوات ومخالفة النفس فالنافع في الحال والمال هو النعمة الحقيقية كالعلم وحسن الخلق والضرر فيها هو البلاء تحققتا وهو ضدهما والنافع في الحال للضرر في المال بلاء محض عند ذوى البصائر وتظنه الجهال نعمة ومثاله الجائع إذا وجد عسلا فيه سم فإنه يئده نعمة إن كان جاهلا وإذا علمه علم أن ذلك بلاء سبق إليه والضرر في الحال النافع في المال نعمة عند ذوى الأبصار بلاء عند الجهال ومثاله الدواء البشع في الحال مذاقه إلا أنه شاف من الأمراض والأقسام وجالب للصحة والسلامة فالصبي الجاهل إذا كلف شربه ظنه بلاء والماعز يئده نعمة ويتفقد المنة ممن يهديه إليه ويقربه منه ويهيء له أسبابه فلذلك تمنع الأم ولدها من الحجامه والأب يدعو إليها فإن الأب لكامل عقله يلمح العاقبة والأم لفرط جهلها وقصورها تلاحظ الحال والصبي لجهله يتفقد منة من أمه دون أبيه ويأنس إليها وإلى شفقتها ويقدس الأب عدوا له ولو عقل لعم أن الأم عدو باطن في صورة صديق لأن من معها إياه من الحجامه يسوقه إلى أمراض وآلام أشد من الحجامه ولكن الصديق الجاهل شر من العدو والماعز وكل إنسان فانه صديق نفسه ولكنه صديق جاهل فلذلك تعمل به ما لا يعمل به العدو [قسم ثانيا] اعلم أن الأسباب الدنيوية مختلطة قد امتزج خيرها بشرها قلما يصفو خيرها كالمال والأهل والولد والأقارب والجاه وسائر وسائل الأسباب ولكن تنقسم إلى مانعة أكثر من ضرر كقدر الكفاية من المال والجاه وسائر الأسباب وإلى مضره أكثر من نفعه في حق أكثر الأشخاص كالمال الكثير والجاه الواسع وإلى ما يكافئ ضرره نفعه وهذه أمور تختلف بالأشخاص فرب إنسان صالح ينتفع بالمال الصالح وإن أكثر فينفقه في سبيل الله ويصرفه إلى الخيرات فهو مع هذا التوفيق نعمة في حق ممرور إنسان يستضر بالقليل أيضا إذ لا يزال مستصغرا له شاكيا من ربه طالبا للزيادة عليه فيكون ذلك مع هذا الخذلان بلاء في حق [قسم ثالثة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم إلى ما هو مؤثر لذاته لا لغيره وإلى مؤثر لغيره وإلى مؤثر لذاته ولغيره . فالأول ما يؤثر لذاته لا لغيره ككلية النظر إلى وجه الله تعالى وسعادة لقائه ، وبالجملة سعادة الأخرى التي لا انتفاء لها فانها لا تتطلب لتوصل بها إلى غاية أخرى مقصودة وراءها بل تتطلب لذاتها . الثاني ما يقصد لغيره ولا غرض أصلا في ذاته كالأدراهم والنانيير فان الحاجة لو كانت لا تنفد في بها لكانت هي والحسب بمثابة واحدة ولكن لما كانت وسيلة إلى اللذات سرية الإيصال إليها صارت عند الجهال محبوبة في نفسها حتى يجمعوها ويكثرونها ويتصارفوا عليها بالربا ويظنون أنها مقصودة ومثال هؤلاء مثال من يحب شخصا فيحب بسببه رسوله الذي يجمع بينه وبينه ثم ينسى في محبة الرسول محبة الأصل فيعرض عنه طول عمره ولا يزال مشغولا بتعبد الرسول ومراعاته وتفقدته وهو غاية الجهل والضلال . الثالث ما يقصد لذاته ولغيره كالصحة والسلامة فانها تقصد ليقدر بسببها على الذكر والفكر الموصلين إلى لقاء الله تعالى أو لتوصل بها إلى استيفاء لذات الدنيا وتقصدها أيضا لذاتها فان الإنسان وإن استغنى عن الشيء الذي أراد سلامة الرجل لأجله فيريد أيضا سلامة الرجل

صلى الله عليه وسلم  
وعليه درع قرآه  
رجل من الصحابة بعد  
موته في المنام فقال له  
اعلم أن فلانا رجلا من  
المسلمين نزع درعي  
فذهب بها وهو في  
ناحية من السكر  
وعنده فرس يستن  
في طيله وقد وضع على  
درعي برمة فانت خالده  
ابن الوليد فأخبره  
حتى يسترد درعي وانت  
أبا بكر خليفة رسول  
الله عليه السلام قل  
له إن على ديننا حتى  
يقضى عني وفلان من  
عبيدي عتيق فأخبر  
الرجل خالدا فوجد  
الدرع والفرس على  
ما وصفه فاسترد الدرع  
وأخبر خالد أبا بكر

من حيث إنها سلامة فإذا نالها قط هو الخير والنعمة تحقيقاً وما يؤثر لذاته ولغيره ما يضافو  
 نعمة ولكن دون الأول فأما مالا يؤثر إلا لغيره كالنفدين فلا يوصفان في أنفسهما من حيث إنهما  
 جوهران بأنهما نعمة بل من حيث هما وسيلتان فيكونان نعمة في حق من يقصد أمرهما ليس يمكنه  
 أن يتوصل إليه إلا بهما فلو كان مقصده العلم والعبادة ومعه الكفاية التي هي ضرورة حياته استوى عنده  
 الذهب والدر فكان وجودهما وعدمهما عنده بمثابة واحدة بل ربما شغل وجودهما عن الفكر  
 والعبادة فيكونان بلاء في حقه ولا يكونان نعمة [قصة رابعة] اعلم أن الخيرات باعتبار آخر تنقسم  
 إلى نافع ولذيد وجميل فاللذيد هو الذي تدرك راحته في الحال والنافع هو الذي يفيد في المال والجميل  
 هو الذي يستحسن في سائر الأحوال . والشروع أيضاً تنقسم إلى ضار وقبيح ومؤلم وكل واحد من  
 القسمين ضربان مطلق ومقيد . فالمطلق هو الذي اجتمع فيه الأوصاف الثلاثة أما في الخير فكالعلم  
 والحكمة فانهما نافعة وجيدة ولذيذة عند أهل العلم والحكمة وأما في الشر فكالجهل فانه ضار وقبيح  
 ومؤلم وإنما يحس الجاهل بأن جهله إذا عرف أنه جاهل وذلك بأن يرى غيره عالماً ويرى نفسه  
 جاهلاً فيدرك ألم النقص فتنبث منه شهوة العلم اللذيذة ثم قد يمنعه الحسد والكبر والشهوات  
 البدنية عن التعلم فينجاذه متضادان فيعظم ألمه فانه إن ترك التعلم تألم بالجهل ودرك نقصان  
 وإن اشتغل بالتعلم تألم بترك الشهوات أو بترك الكبر وذل التعلم ومثل هذا الشخص لا يزال في  
 عذاب دائم لا محالة . والضرب الثاني للقيد وهو الذي جمع بعض هذه الأوصاف دون بعض فرب  
 نافع مؤلم كقطع الأصبع للتأكل والسلمة الخارجة من البدن ورب نافع قبيح كالحق فانه بالإضافة  
 إلى بعض الأحوال نافع فقد قيل استراح من لا عقل له فانه لا يهتم بالعاقبة فيستريح في الحال إلى أن  
 يحين وقت هلاكه ورب نافع من وجه ضار من وجه كإلقاء المال في البحر عند خوف الفرق  
 فانه ضار للمال نافع للنفس في نجاتها والنافع قهراً ضروري للإيمان وحسن الخلق في الإيصال  
 إلى سعادة الآخرة وأعني بهما العلم والعمل إذ لا يقوم مقامهما البتة غيرهما وإلى مالا يكون ضرورياً  
 كالسكنجبين مثلاً في تسكين الصفره فانه قد يمكن تسكينها أيضاً بما يقوم مقامه [قصة خامسة]  
 اعلم أن النعمة يبر بها عن كمال لذيد واللذات بالإضافة إلى الإنسان من حيث اختصاصه بها  
 أو مشاركتها لغيره ثلاثة أنواع عقلية وبدنية مشتركة مع بعض الحيوانات وبدنية مشتركة مع جميع  
 الحيوانات أما العقلية فكلذة العلم والحكمة إذ ليس يستلذها السمع والبصر والشم والذوق ولا البطن  
 ولا الفرج وإنما يستلذها القلب لاختصاصه بصفة يعبر عنها بالعقل وهذه أقل اللذات وجوداً وهي  
 أشرفها أما قلبها فلأن العلم لا يستلذه إلا عالم والحكمة لا يستلذها إلا حكيم وما أقل أهل العلم والحكمة  
 وما أكثر التسمين باسمهم والترسمين برسومهم وأما شرفها فلائها لازمة لا تزول أبداً لا في الدنيا ولا  
 في الآخرة ودائمة لا تمحل بالطمع بشبع منه فيمل وشهوة الواقع يفرغ منها فتستقل والعلم والحكمة  
 قط لا يتصور أن تمحل وتستقل ومن قدر على الشريف الباقي أبداً الآباد إذا رضى بالحسيس الثاني  
 في أقرب الآمال فهو مصاب في عقله محروم لشقاوته وإدباره وأقل أمر فيه أن العلم والعقل لا يحتاج  
 إلى أعوان وحفظة بخلاف المال إذ العلم يهرسك وأنت تهرس المال والعلم يزيد بالإشفاق والمال  
 ينقص بالإشفاق والمال يسرق والولاية يزل عنها والعلم لا يمتد إليه أيدي السراق بالأخذ ولا أيدي  
 السلاطين بالزول فيكون صاحبه في روح الأمن أبداً وصاحب المال والجاه في كرب الخوف أبداً  
 ثم العلم نافع ولذيد وجميل في كل حال أبداً والمال تارة يجذب إلى الهلاك وتارة يجذب إلى النجاة  
 ولذلك لم الله تعالى المال في القرآن في مواضع وإن سباه خيراً في مواضع وأما قصوراً أكثر الخلق

بتلك الرؤيا فأجاز  
 أبو بكر وصيته قال  
 مالك بن أنس رضى  
 الله عنهما لا أعلم وصية  
 أجيزت بعد موت  
 صاحبها إلا هذه فهذه  
 كرامة ظهرت لثابت  
 بحسن تقواه وأدبه مع  
 رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم فليعتبر  
 المرید الصادق ويعلم  
 أن الشيخ عنده  
 تذكرة من الله ورسوله  
 وأن الذي يعتمد مع  
 الشيخ عوض ما لو كان  
 في زمن رسول الله صلى  
 الله عليه وسلم واعتمده  
 مع رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم فلما قام القوم  
 بواجب الأدب أخبر  
 الحق عن حالهم وأثنى  
 عليهم فقال - أوئلك

عن إدراك لذة العلم فلما لعدم الذوق لمن لم يدق لم يعرف ولم يشفق إذ الشوق تبع الذوق وإما الفساد  
أمزجتهم ومرض قلوبهم بسبب اتباع الشهوات كالمريض الذي لا يدرك حلاوة العسل ويراه مرًا  
وإما لقصور فطنهم إذ لم تخلق لهم بعد الصفة التي بها يستلذ العلم كالطفل الرضيع الذي لا يدرك لذة  
العسل والطيور السمان ولا يستلذ إلا اللبن وذلك لا يدل على أنها ليست لذيدة ولا استطابته اللبن يدل  
على أنه ألد الأشياء فالقاصرون عن درك لذة العلم والحكمة ثلاثة إما من لم يحس باطنه كالطفل وإما  
من مات بعد الحياة باتباع الشهوات وإما من مرض بسبب اتباع الشهوات وقوله تعالى - في قلوبهم  
مرض - إشارة إلى مرض العقول وقوله عز وجل - لينذر من كان حيا - إشارة إلى من لم يحس  
حياة باطنه وكل حي بالبدن ميت بالقلب فهو عند الله من الموتى وإن كان عند الجهال من الأحياء  
وذلك كان الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون فرحين وإن كانوا موتى بالأبدان . الثانية لذة  
يشارك الإنسان فيها بعض الحيوانات كلفة الرياضة والغلبة والاستيلاء وذلك موجود في الأسد والفيل  
وبعض الحيوانات . الثالثة ما يشارك فيها سائر الحيوانات كلفة البطن والفرج وهذه أكثرها وجودا  
وهي أخسها ولذلك اشترك فيها كل مادي ودرج حتى الديدان والحشرات ومن جاوز هذه الرتبة  
تشبت به لذة الغلبة وهو أشدها تصاقا بالمغافلين فإن جاوز ذلك ارتقى إلى الثالثة فصار أغلب  
اللذات عليه لذة العلم والحكمة لاسيما لذة معرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأفعاله وهذه رتبة الصديقين  
ولا ينال تمامها إلا بخروج استيلاء حب الرياضة من القلب وأخر ما يخرج من رءوس الصديقين حب  
الرياضة وأما ثمره البطن والفرج فكسره محبة قوي عليه الصالحون وشهوة الرياضة لا يقوى على  
كسرها إلا الصديقون فأما قمعها بالسكينة حتى لا يقع بها الإحساس على الدوام وفي اختلاف الأحوال  
فيشبه أن يكون خارجا عن مقدور البشر ، نعم تغلب لذة معرفة الله تعالى في الأحوال لا يقع معها الإحساس  
بلذة الرياضة والغلبة ولكن ذلك لا يدوم طول العمر بل تعتريه الفترات فتعود إليه الصفات البشرية  
فتكون موجودة ولكن تكون مقهورة لا تقوى على حمل النفس على المدول عن العدل وعند هذا  
تنقسم القلوب إلى أربعة أقسام قلب لا يحب إلا الله تعالى ولا يستريح إلا بزيادة المعرفة به والفكر  
فيه وقلب لا يدري مالذة المعرفة وما معنى الأنس بالله وإنما لذته بالجاه والرياضة والمال وسائر الشهوات  
البدنية وقلب أغلب أحواله الأنس بالله سبحانه والتلذذ بمعرفته والفكر فيه ولكن قد يعتريه في  
بعض الأحوال الرجوع إلى أوصاف البشرية وقلب أغلب أحواله التلذذ بالصفات البشرية ويعتريه  
في بعض الأحوال تلذذ بالعلم والمعرفة أما الأول فإن كان ممكنا في الوجود فهو في غاية البعد وأما الثاني  
فالدنيا طائفة به وأما الثالث والرابع فوجدان ولكن على غاية الندور ولا يتصور أن يكون ذلك  
إلا نادرا شاذا وهو مع الندور يتفاوت في القلة والكثرة وإنما تكون كثرة في الأعصار القريبة  
من أعصار الأنبياء عليهم السلام فلا يزال يزداد العهد طولا وتزداد مثل هذه القلوب قلة إلى أن تقرب  
الساعة ويقضي الله أمرا كان مفعولا وإنما يجب أن يكون هذا نادرا لأنه مبادئ ملك الآخرة  
والملك عزيز والملوك لا يكثر فكلما لا يكون الفائق في الملك والجمال إلا نادرا وأكثر الناس من  
دونهم فكذا في ملك الآخرة فإن الدنيا مرآة الآخرة فإنها عبارة عن عالم الشهادة والآخرة عبارة  
عن عالم الغيب وعالم الشهادة تابع لعالم الغيب كما أن الصورة في المرآة تابعة لصورة الناظر في المرآة  
والصورة في المرآة وإن كانت هي الثانية في رتبة الوجود فإنها أولى في حق رؤيتك فانك لا ترى  
نفسك وترى صورتك في المرآة أولا فتعرف بها صورتك التي هي قائمة بك ثانيا على سبيل المحاكاة  
فالقلب التابع في الوجود متبوعا في حق المعرفة والقلب التأخر متقدما وهذا نوع من الانعكاس

الذين امتحن الله قلوبهم  
للتقوى - أي اختبر  
قلوبهم وأخلصها كما  
يمتحن الذهب بالنار  
فيخرج خالصه وكان  
اللسان ترجمان القلب  
وتهذب اللفظ لتأدب  
القلب فهذا ينبغي أن  
يكون السريد مع  
الشيخ . قال أبو عثمان  
الأدب عند الأكابر  
وفي محادثة السادات من  
الأولياء يباح بصاحبه  
إلى الدرجات العلى  
والخير في الأولى والعقبى  
ألا ترى إلى قول الله  
تعالى - ولو أنهم صبروا  
حتى تخرج إليهم لكان  
خييرا لهم - ومع علمهم  
الله تعالى قوله سبحانه  
- إن الذين ينادونك  
من وراء الحجرات

ولكن الانكاس والانتكاس ضرورة هذا العالم فكذلك عالم الملك والشهادة عاكس لعالم النيب  
والملكوت فمن الناس من يسر له نظر الاعتبار فلا ينظر في شيء من عالم الملك إلا ويصير به إلى  
عالم الملكوت فيسمى عبوره عبرة وقد أمر الحق به فقال - فاعتبروا بأولى الأبصار - ومنهم من  
عميت بصيرته فلم يعتبر فاحتبس في عالم الملك والشهادة واستفتح إلى حيسه أبواب جهنم وهذا  
الحبس مملوء نارا من غائتها أن تطلع على الأئمة إلا أن بينه وبين إدراك أئمتها حجابا فإذا رفع  
ذلك الحجاب بالموت أدرك وعن هذا أظهر الله تعالى الحق على لسان قوم استطعمهم بالحق فقالوا  
الجنة والنار مخلوقتان ولكن الجحيم تدرك مرة بإدراك يسمى علم اليقين ومرة بإدراك آخر  
يسمى عين اليقين وعين اليقين لا يكون إلا في الآخرة وعلم اليقين قد يكون في الدنيا ولكن  
للذين قد وفوا حظهم من نور اليقين فذلك قال الله تعالى - كلا لو تعلمون علم اليقين لترون الجحيم -  
أي في الدنيا - ثم لترونها عين اليقين - أي في الآخرة فإذا قد ظهر أن القلب الصالح ملك الآخرة  
لا يكون إلا عزيزا كالشخص الصالح ملك الدنيا .

### (قصة سادسة حاوية لجامع النعم)

اعلم أن النعم تنقسم إلى ما هي غاية مطلوبة لذاتها وإلى ما هي مطلوبة لأجل الغاية أما الثانية فاتها  
سعادة الآخرة ويرجع حاصلها إلى أربعة أمور : بقاء لافناء له وسرور لا غم فيه وعلم لا جهل معه وغنى  
لا فقر بعده وهي النعمة الحقيقية ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يعيش إلا يعيش الآخرة (١) »  
وقال ذلك مرة في الشدة تسلياً للنفس وذلك في وقت حفر الخندق في عدة الضر وقال ذلك مرة  
في السرور منعا للنفس من الركون إلى سرور الدنيا وذلك عند إحدائق الناس به في حجة الوداع (٢)  
وقال رجل « اللهم إني أسألك تمام النعمة فقال النبي صلى الله عليه وسلم وهل تعلم ما تمام النعمة؟ قال لا  
قال تمام النعمة دخول الجنة (٣) » وأما الوسائل فتتنقسم إلى الأقرب الأخص كفضائل النفس وإلى  
ما يليه في القرب كفضائل البدن وهو الثاني وإلى ما يليه في القرب ويجاوز إلى غير البدن كالأسباب  
للغنية بالبدن من المال والأهل والمشيئة وإلى ما يجمع بين هذه الأسباب الخارجة عن النفس  
وبين الحاصلة للنفس كالتوفيق والهداية فهي إذن أربعة أنواع : النوع الأول وهو الأخص  
الفضائل النفسية ويرجع حاصلها مع انتساب أطرافها إلى الإيمان وحسن الخلق وينقسم الإيمان  
إلى علم المكاشفة وهو العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته ورسوله وإلى علوم للعامة ، وحسن الخلق  
ينقسم إلى قسمين ترك مقتضى الشهوات والغضب واسمه العفة ومراعاة العدل في الكف عن  
مقتضى الشهوات والإقدام حتى لا يمتنع أصلا ولا يقدم كيف شاء بل يكون إقدامه وإحجابه بالميزان  
العدل الذي أنزله الله تعالى على لسان رسوله صلى الله عليه وسلم إذ قال تعالى « أن لا تطغوا في الوزن  
وأقيموا الوزن بالقسط ولا تخسروا الوزن - فمن خصى نفسه ليزيل شهوة التكاح أو ترك التكاح  
مع القدرة والأمن من الآفات أو ترك الأكل حتى ضعف عن العبادة والذكر والفكر قد أخسر  
الوزن ومن انهماك في شهوة البطن والفرج فقد طغى في الوزن وإيما العدل أن يخلووز نمو تقديره  
عن الطغيان والخسران فتعطل به كفتا الميزان فاذا في الفضائل الخاصة بالنفس للقرينة إلى الله تعالى أربعة  
علم مكاشفة وعلم معاملة وعفة وعدالة ولا يتم هذا في غالب الأمر إلا بالانواع الثلاثة وهو الفضائل البدنية

أكثرهم لا يقولون -  
وكان هذا الحال من  
وفد بني تميم جاء وإلى  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فنادوا يا محمد  
أخرج إلينا فان مدحنا  
زين وذنبا شين قال  
فسمع رسول الله صلى  
الله عليه وسلم فخرج  
إليهم وهو يقول « إنما  
ذلكم الله الذي فمه  
شين ومدحه زين » في  
قصة طويلة وكانوا أتوا  
بها عزم وخطيبهم  
فطلبهم حسان بن ثابت  
وشيبان اللهاجرين  
والأصهار بالخطبة وفي  
هذا تأدب للبريد في  
الدخول على الشيخ  
والإقدام عليه وتركه  
الاستعجال وصبره إلى  
أن يخرج الشيخ من

(١) حديث قوله عند حفر الخندق لا يعيش إلا يعيش الآخرة متفق عليه من حديث أنس (٢) حديث  
قوله في حجة الوداع لا يعيش إلا يعيش الآخرة الشافعي مرسلًا والحاكم متصلاً وصححه وتقدم في الحج  
(٣) حديث قال رجل اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث الترمذي من حديث معاذ بسند حسن



وهي أربعة الصحة والقوة والجمال وطول العمر ولا تنبأ هذه الأمور الأربعة إلا بالنوع الثالث وهي النعم الخارجة الطيبة بالبدن وهي أربعة المال والأهل والجاه وكرم العشرة ولا يتفنع شيء من هذه الأسباب الخارجة والبدنية إلا بالنوع الرابع وهي الأسباب التي تجمع بينها وبين ما يناسب الفضائل النفسية الداخلة وهي أربعة : هداية الله ورشده وتسيده وتأييده ، فمجموع هذه النعم ستة عشر إذا قسمناها إلى أربعة وقسمنا كل واحدة من الأربعة إلى أربعة وهذه الجملة يحتاج البعض منها إلى البعض إما حاجة ضرورية أو نافعة . أما الحاجة الضرورية فكحاجة سعادة الآخرة إلى الإيمان وحسن الخلق إذ لا سبيل إلى الوصول إلى سعادة الآخرة البتة إلا بهما فليس للإنسان إلا ما سعى وليس لأحد في الآخرة إلا ما تزود من الدنيا فكذلك حاجة الفضائل النفسية التي تكسب هذه العلوم وتهذيب الأخلاق إلى صحة البدن ضرورية . وأما الحاجة النافعة على الجملة فكحاجة هذه النعم النفسية والبدنية إلى النعم الخارجة مثل المال والعز والأهل فإن ذلك لو عدم ربما تفرقت الخلقة إلى بعض النعم الداخلة . فإن قلت : فما وجه الحاجة لطريق الآخرة إلى النعم الخارجة من المال والأهل والجاه والعشرة . فاعلم أن هذه الأسباب جارية مجرى الجناح للبلغ والآلة السهلة للمقصود . أما المال فالفقر في طلب العلم والكمال وليس له كفاية : كساع إلى الهيجا بغير سلاح ، وكبازي يروم الصيد بلا جناح ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « نعم المال الصالح للرجل الصالح <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على تقوى الله المال <sup>(٢)</sup> » وكيف لا ومن عدم المال صار مستغرق الأوقات في طلب الأوقات وفي تهية لباس والسكن وضرورات المعيشة ثم يتعرض لأنواع من الأذى تشغله عن الذكر والتفكير ولا تدفع إلا بسلاح المال ثم مع ذلك يحرم عن فضيلة الحج والزكاة والصدقات وإفاعة الخيرات . وقال بعض الحكماء وقد قيل له ما النعيم فقال : أهني فاني رأيت الفقير لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الأمن فاني رأيت الخائف لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال العافية فاني رأيت المريض لا يعيش له ، قيل زدنا ، قال الشباب فاني رأيت الهرم لا يعيش له ، وكأن ما ذكره إشارة إلى نعيم الدنيا ولكن من حيث إنه معين على الآخرة فهو نعمة ؛ ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « من أصبح معافي في بدنه أمان في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها <sup>(٣)</sup> » وأما الأهل والأولاد الصالح فلا غنى وجه الحاجة إليهما إذ قال صلى الله عليه وسلم « نعم العون على الدين المرأة الصالحة <sup>(٤)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم في الولد « إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث ولد صالح يدعو له <sup>(٥)</sup> » الحديث وقد ذكرنا فوائد الأهل والولد في كتاب النكاح . وأما الأقارب فلهما أكثر أولاد الرجل وأقاربه كانوا له مثل الأعين والأيدي فيتيسر له بسببهم من الأمور الدنيوية المهمة في دينه مالا وانفرد به لطلال شغلهم وكل ما يفرغ قلبك عن ضرورات الدنيا فهو معين لك على الدين فهو إذن نعمة . وأما العز

(١) حديث نعم المال الصالح للرجل الصالح أحمد وأبو يعلى والطبراني من حديث عمرو بن العاص بسند جيد (٢) حديث نعم العون على تقوى الله للمال أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية محمد بن المنكدر عن جابر ورواه أبو القاسم البغوي من رواية ابن المنكدر مرسلًا من طريقه رواه القضاة في مسند الشهاب هكذا مرسلًا (٣) حديث من أصبح معافي في بدنه أمان في سربه الحديث الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث عبيد الله بن محصن الأنصاري وقد تقدم (٤) حديث نعم العون على الدين المرأة الصالحة لم أجده إلا من حديث عبد الله بن عمرو الدنيا متاع وخير صانع الدنيا المرأة الصالحة (٥) حديث إذا مات العبد انقطع عمله إلا من ثلاث الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وتقدم في النكاح .

موضع خلوته . صحته  
أن الشيخ عبد القادر  
رحمه الله كان إذا جاء  
إليه فقير زائر يخرج  
بالفقير فيخرج ويضع  
جانب الباب ويصافح  
الفقير ويسلم عليه ولا  
يجلس معه ويرجع  
إلى خلوته وإذا جاء  
أحد ممن ليس من  
زمره الفقراء يخرج  
ويجلس معه فخطر  
لبعض الفقراء نوع  
إنكار لتركه الخروج  
إلى الفقير وخروجه  
لفقر الفقير فأنهى  
ما خطر للفقير إلى  
الشيخ فقال الفقير  
رابطتنا معه رابطة  
قلبية وهو أهل وليس  
عنده أجنبية فكنتي  
معه بموافقة القلوب

والجاء فيه يدفع الانسان عن نفسه الذل والضم ولا يستغنى عنه مسلم فانه لا ينفك عن عدو يؤذيه وظالم يشوش عليه عمله وفراغه ويشغل قلبه وقلبه رأس ماله وإعنا تدفع هذه الشواغل بالعرف والجاء ولذلك قيل الدين والسلطان توأمان . قال تعالى - ولولا دفع الله الناس بعضهم ببعض لفسدت الأرض - ولا معنى للجاء إلى ملك القلوب كالأ معنى للنفى إلا ملك الدراهم ومن ملك الدراهم تسخرت له أبواب القلوب لدفع الأذى عنه فكما يحتاج الإنسان إلى سقف يدفع عنه المطر وجية تدفع عنه البرد وكلب يدفع الذئب عن ماشيته فيحتاج أيضا إلى من يدفع التربة عن نفسه ، وعلى هذا القصد كان الأنبياء الذين لا ملك لهم ولا سلطنة يراعون السلاطين ويطلبون عندهم الجاء وكذلك علماء الدين لا يطي قصد التناول من خزائهم والاستتار والاستكثار في الدنيا بتابعهم ولا تظن أن نعمة الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم حيث نصره وأكمل دينه وأظهره على جميع أعدائه ومكن في القلوب جبهه حتى اتسع به عزه وجاهه كانت أقل من نعمته عليه حيث كان يؤذى ويضرب حتى افتقر إلى الحرب والهجرة (١) ، فان قلت كرم العشيرة وشرف الأهل هو من النعم أم لا ؟ فأقول نعم ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الأئمة من قريش » (٢) ولذلك كان صلى الله عليه وسلم من أكرم الناس أرومة في نسب آدم عليه السلام (٣) وقال صلى الله عليه وسلم « تخيروا لنطفكم الأكفاء » (٤) وقال صلى الله عليه وسلم « إياكم وخضراء الدمن ، قليل وما خضراء الدمن ؟ قال الراة الحسناء في للنبت السوء » (٥) فهذا أيضا من النعم ولست أعنى به الانتساب إلى الظلمة وأرباب الدنيا بل الانتساب إلى شجرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أئمة العلماء وإلى الصالحين والأبرار التوسمين بالعلم والعمل . فان قلت لما معنى الفضائل البدنية . فأقول لا خفاء بشدة الحاجة إلى الصحة والقوة وإلى

وقنع بها عن ملاقة الظاهرة بهذا القدر وأما من هو من غير جنس الفقراء فهو واقف مع العادات والظاهر فمى لم يوف حقه من الظاهر استوحش خلق الريد عمارة الظاهر والباطن بالأدب مع الشيخ ، قبسل لأبى منصور للفرى كم صحت أبا عثمان قال خدمته لاصحبه فالصحة مع الإخوان والأقران ومع للشيخ الخدمة وينفى للمريد أنه كمال أشكل عليه شيء من حال الشيخ بذكر قصة موسى مع الحضرة عليهما السلام كيف كان الحضرة يفعل أشياء

(١) حديث ما ناله صلى الله عليه وسلم من الأذى ونحوه حتى افتقر إلى الحرب والهجرة البخارى ومسلم من حديث عائشة أنها قالت للنبي صلى الله عليه وسلم هل آتى عليك يوم أشد من يوم أحد قال لقد لقيت من قومك وكان أشد ما لقيت يوم العقبة إذ عرضت نفسى على ابن عبد ياليل الحديث ولترمذى ومحمه وابن ماجه من حديث أنس لقد أخفت فى الله وما يخاف أحد ولقد أوديت فى الله وما يؤذى أحد ولقد آتى على ثلاثون من بين يوم وليلة ومالى ولبلال طعام بأكله ذوكيد إلا شيء يواريه ببطلال قال الترمذى معنى هذا حين خرج النبي صلى الله عليه وسلم هاربا من مكة ومعه بلال وللبخارى عن عروة قال سألت عبد الله بن عمرو عن أشد ما صنع المشركون برسول الله صلى الله عليه وسلم قال رأيت عقبة بن أبى معيط جاء إلى النبي صلى الله عليه وسلم وهو يسلى فوضع رداءه فى عنقه فحقة خنقة اخذ يد الجاء أبو بكر فدفعه عنه الحديث وللبزار وأبى يعلى من حديث أنس قال لقد ضربوا رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى غشى عليه فقام أبو بكر فجعل ينادى ويلكم أقتلوا رجلا أن يقول ربى الله وإسناده صحيح على شرط مسلم (٢) حديث الأئمة من قريش النسائى والحاكم من حديث أنس بإسناد صحيح (٣) حديث كان صلى الله عليه وسلم من أكرم أرومة فى نسب آدم . الأرومة الأصل هذا معلوم فروى مسلم من حديث وائلة بن الأعمق مرفوعا إن الله اصطفى كنانة من ولد إسماعيل واصطفى قريشاً من كنانة واصطفى من قريش بنى هاشم واصطفانى من بنى هاشم وفى رواية الترمذى إن الله اصطفى من ولد إبراهيم إسماعيل وله من حديث العباس وحسنه وابن عباس والطلب بن ربيعة وصححه والطلب بن أبى وداعة وحسنه إن الله خلق الخلق فجعلنى من خيرهم وفى حديث ابن عباس ما بال أقوام يتنزلون أصلى فوائقه لأننا أفضلهم أصلا وخيرهم موضعا (٤) حديث تخيروا لنطفكم ابن ماجه من حديث عائشة وتقدم فى النكاح (٥) حديث إياكم وخضراء الدمن تقدم فيه أيضا .

طول العمر إذ لا يتم علم وعمل إلا بهما ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم : أفضل السعادات طول  
العمر في طاعة الله تعالى (١) ، وإنما يستحق من جلته أمر الجمال فيقال يكنى أن يكون البدن سليما  
من الأمراض الشاغلة عن تحرر الخبرات ، ولعمري الجمال قليل النقاء ولكنه من الخيرات أيضا  
أما في الدنيا فلا يخفى نفعه فيها وأما في الآخرة فمن وجهين : أحدهما أن القبيح مذموم والطباع عنه  
نافرة وحاجات الجليل إلى الإجابة أقرب وجاهه في الصدور أوسع فكانه من هذا الوجه جناح يبلغ  
كالمال والجاه إذ هو نوع قدرة إذ يقدر الجليل الوجه على تنجيز حاجات لا يقدر عليها القبيح وكل  
معين على قضاء حاجات الدنيا فعين على الآخرة بواسطتها . والثاني أن الجمال في الأكثر يدل على  
فضيلة النفس لأن نور النفس إذا تم إشراقه تأدى إلى البدن فالنظر والتفكير كثيرا ما يتلازمان ولذلك  
عول أصحاب الفراسة في معرفة مكارم النفس على هيآت البدن فقالوا الوجه والعين مرآة الباطن ،  
ولذلك يظهر فيه أثر الغضب والسرور والنم ، ولذلك قيل طلاقة الوجه عنوان مافي النفس ، وقيل  
مافي الأرض قبيح إلا ووجهه أحسن مافيه ، واستعرض للأموه جيشا فرض عليه رجل قبيح  
فاستنطقه فاذا هو ألكن فأسقط اسمه من الديوان وقال الروح إذا أشرقت على الظاهر فصباحة أو طي  
الباطن قصاصة وهذا ليس له ظاهر ولا باطن ، وقد قال صلى الله عليه وسلم «اطلبوا الخير عند صباح  
الوجوه» (٢) وقال عمر رضي الله تعالى عنه : إذا بستم رسولا فاطلبوا حسن الوجه وحسن الاسم . وقال  
الفقهاء : إذا تساوت درجات الصلحين فأحسنهم وجها أولاهم بالأمامة ، وقال تعالى «متتبع ذلك زواجه»  
بسطة في العلم والجسم - ولنا نفي بالجمال ما يحرك الشهوة فان ذلك أنوثة وإنما نفي به ارتفاع  
القائمة على الاستقامة مع الاعتدال في اللحم وتناسب الأعضاء وتناصف خلقه الوجه بحيث لا تنبوا  
الطباع عن النظر إليه . فان قلت قد أدخلت المال والجاه والنسب والأهل والولد في حيز النعم ، وقد  
ضم الله تعالى للمال والجاه وكذا رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) وكذا العلماء قال تعالى - إن من  
أزواجكم وأولادكم عدوا لكم فاحذروهم - وقال عز وجل - إنما أموالكم وأولادكم فتنة وقال على  
كرم الله وجهه في ضم النسب : الناس أبناء ما يحسنون وقيمة كل امرئ ما يحسنه ، وقيل المرء بنفسه  
لأبائه فامعنى كونها نعمة مع كونها مذمومة شرعا . فاعلم أن من يأخذ العلوم من الألفاظ المنقولة  
المثولة والعمومات المخصصة كان الضلال عليه أغلب ما لم يهتد بنور الله تعالى إلى إدراك العلوم على  
ما هي عليه ثم ينزل النقل على وفق ما ظهر له منها بالتأويل مرة وبالتخصيص أخرى فهذه نعم معينة  
على أمر الآخرة لاسيلا إلى جعدها إلا أن فيها فتنا ومحاف ، فتعال للمال مثال الحية التي فيها تريق  
نافع وسم نافع فان أصابها العزم الذي يعرف وجه الاحتراز عن مهم وطريق استخراج تريقها النافع  
كانت نعمة وإن أصابها السوادى الفر فهي عليه بلاء وهلاك وهو مثل البحر الذي تحته أصناف  
الجواهر والآلى فمن ظفر بالبحر فان كان عالما بالسباحة وطريق القوص وطريق الاحتراز عن

يشكرها موسى واذا  
أخبره الخضر بسرها  
يرجع موسى عن  
إنكاره ثم يذكره  
للريد لقلعه بحقيقة  
ما يوجد من الشيخ  
فليشيخ في كل شيء  
عذر بلسان العلم  
والحكمة . سأل بعض  
أصحاب الجنيد مسألة  
من الجنيد فأجابه  
الجنيد فمارضه في ذلك  
فقال الجنيد فان لم  
تؤمنوا إلى فاعتزلون  
وقال بعض المشايخ من  
لم يعظم حرمة من  
تأدب به حرم بركة  
ذلك الأدب ، وقيل  
من قال لأستاذه لا ،  
لا يفلح أبدا . أخبرنا  
شيخنا ضياء الدين  
عبد الوهاب بن على

(١) حديث أفضل السعادة طول العمر في عبادة الله غريب بهذا اللفظ وللترمذي من حديث أبي  
بكرة أن رجلا قال يا رسول الله أى الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح  
(٢) حديث اطلبوا الخير عند حسان الوجوه أبوسمى من رواية إسماعيل بن عياش عن خيرة بنت  
محمد بن ثابت بن سباع عن أمها عائشة وخيرة وأمها لا أعرف حالهما ورواه ابن حبان من وجه  
آخر في الضعفاء واليه في الشعب من حديث ابن عمر وله طرق كلها ضعيفة (٣) حديث ضم المال  
والجاه الترمذي من حديث كعب بن مالك ماذنابان جامعان أرسلنا في غم بأفسد لها من حب المال  
والشرف لديه وقد تقدم في ضم المال والبخل .

مهلكات البحر قد ظفر بنعمه ، وإن خاضه جاهلا بذلك قد هلك فذلك مدح الله تعالى المال وسماه خيرا ومدحه رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال « نعم العون على تقوى الله تعالى المال » وكذلك مدح الجاه والعز إذ من الله تعالى على رسوله صلى الله عليه وسلم بأن أظهره على الدين كله وحبه في قلوب الخلق وهو للنبي بالجاه ولكن النقول في مدحها قليل وللتقول في ذم المال والجاه كثير ، وحيث ذم الرياء فهو ذم الجاه ، إذ الرياء مقصوده اجتلاب القلوب . ومعنى الجاه ملك القلوب وإنما كثر هذا وقل ذلك لأن الناس أكثرهم جهال بطريق الرقية لحية المال وطريق التوسل في بحر الجاه فوجب تحذيرهم فانهم يهلكون بسم المال قبل الوصول إلى تراقيه ويهلكهم تمساح بحر الجاه قبل العثور على جواهره ولو كانوا في أعيانها مذمومين بالإضافة إلى كل أحد لما تصور أن ينضاف إلى النبوة لذلك كما كان لرسولنا صلى الله عليه وسلم ولأن ينضاف إليها النبي كما كان لسلطان عليه السلام فالناس كلهم صبيان والأموال حيات والأنبياء والمرافون معزومون قد يضر الصبي ما يضر للعزم ، نعم للعزم لو كان له ولد يريد بقاءه وصلاحه وقد وجد حية تعلم أن تلوأخذها لأجل تراقيها لا تقدي به ولله وأخذ الحية إذا رآها يلعب بها فيهلك فله غرض في الترياق وله غرض في حفظ الولد فواجب عليه أن يزن غرضه في الترياق بغرضه في حفظ الولد ، فإذا كان يقدر على الصبر عن الترياق ولا يستضر به ضررا كثيرا ، ولو أخذها لأخذها الصبي ويعظم ضرره يهلكه فواجب عليه أن يهرب عن الحية إذا رآها ويشير على الصبي بالحرب ويقبح صورتها في عينه ويعرفه أن فيها سماً قاتلا لا ينجو منه أحد ولا يبعثه أصلا بما فيها من تقع الترياق فإن ذلك ربما يضره فيقدم عليه من غير تمام المعرفة وكذلك القوامس إذا علم أنه لو غاص في البحر يرى من ولده لا تبعه وهلك فواجب عليه أن يحذر الصبي ساحل البحر والتهرب ، فإن كان لا ينجو الصبي بمجرد الزجر مهما رأى والده يحوم حول الساحل فواجب عليه أن يبعد من الساحل مع الصبي ولا يقرب منه بين يديه فكذلك الأمة في حجر الأنبياء عليهم السلام كالصبيان والأغبياء ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إنما أنا لكم مثل الوالد لولده <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائس وأنا آخذ بحجزكم <sup>(٢)</sup> » وحظهم الأوفر في حفظ أولادهم عن الهالك فانهم لم يبعثوا إلا ذلك وليس لهم في المال حظ إلا بقدر القوت فلا جرم اقتصروا على قدر القوت وما فضل فلم يسكوه بل أشقوه فان الاتفاق في الترياق وفي الامساك السم ولو فتح للناس باب كسب المال ورغبوا فيه لما ألوا إلى سم الامساك ورغبوا عن ترياق الاتفاق فلذلك قبحت الأموال والنبي به تقيح إمساكها والحرس عليها للاستكثار منها والتوسع في نعيمها بما يوجب الركون إلى الدنيا ولذا أنها فاما أخذها بقدر الكفاية وصرف الفائض إلى الخيرات فليس بمذموم وحق كل مسافر أن لا يحمل إلا بقدر زاده في السفر إذا صمم العزم على أن يختص بما يحملة . فاما إذا صممت نفسه باطعام الطعام وتوسيع الزاد على الرقاء فلا بأس بالاستكثار وقوله عليه الصلاة والسلام « ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب <sup>(٣)</sup> » معناه لأنفسكم خاصة

قال أنا أبو الفتح  
المجروى قال أنا أبو نصر  
الترياقى قال أنا أبو محمد  
الجراحي قال أنا  
أبو العباس المحبوبي قال  
أنا أبو عيسى الترمذى  
قال حدثنا هناد عن  
أبي معاوية عن  
الأعمش عن أبي صالح  
عن أبي هريرة قال :  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « أتركوني  
ماتركتكم وإذا  
حدثتكم غداوا عني  
فإنما هلك من كان  
قبلكم بكثرة سؤالهم  
واختلافهم على أنبيائهم »  
قال الجنيد رحمه الله  
رأيت مع أبي حفص  
النيسابورى إنسانا  
كثير الصمت لا يتكلم  
فقلت لأصحابه من هذا

(١) حديث إنما أنا لكم مثل الوالد لولده مسلم من حديث أبي هريرة دون قوله لولده وقد تقدم  
(٢) حديث إنكم تنهاقون على النار تنهاق الفرائس وأنا آخذ بحجزكم متفق عليه من حديث  
أبي هريرة بلفظ مثلى ومثل الناس . وقال مسلم ومثل أمي كمثل رجل استوقد نارا فجلعت الدواب  
والفرائس يقعن فيه فأتا آخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه ولمسلم من حديث جابر وأنا آخذ بحجزكم  
عن النار وأنتم تخلصون من يدي (٣) حديث ليكن بلاغ أحدكم من الدنيا كزاد الراكب ابن ماجه

ولا قد كان فيمن يروي هذا الحديث. ويصل به من يأخذ مائة ألف درهم في موضع واحد ويغرقها في موضعه ولا يمسك منها حبة \* ولما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة استأذنه عبد الرحمن بن عوف رضى الله عنه في أن يخرج عن جميع ما يملكه فأذن له فنزل جبريل عليه السلام ، وقال : مه بأن يطعم للسكين ويكسو العارى ويقرى الضيف <sup>(١)</sup> الحديث. فأذن النعم الدنيوية مشوبة قد امتزج دواؤها بدائها ومرجوها بمخوفها ونقصها بضرها فمن وثق يصبرته وكال معرفته فله أن يقرب منها متقيا داءها ومستخرجا دواها ، ومن لا يثق بها فالبعد البعد والفرار الفرار عن مظان الأخطار فلا تبدل بالسلامة شيئا في حق هؤلاء. وم الخلق كلهم إلا من عصمه الله تعالى وهذه لطريقه . فان قلت : فما معنى النعم التوفيقية الراجعة إلى الهداية والرشد والتأييد والتسديد . فاعلم أن التوفيق لا يستغنى عنه أحد وهو عبارة عن التأليف والتلفيق بين إرادة البد وبين قضاء الله وقدره وهذا يشمل الخير والشر وما هو سعادة وما هو شقاوة ولكن جرت العادة بتخصيص اسم التوفيق بما يوافق السعادة من جملة قضاء الله تعالى وقدره كما أن الإلحاد عبارة عن الليل تخصص بمن ماله إلى الباطل عن الحق وكذا الارتداد ولا خفاء بالحاجة إلى التوفيق ولذلك قيل :

إذا لم يكن عون من الله للفق فأكثر ما يحصى عليه اجتناؤه

فأما الهداية فلا سبيل لأحد إلى طلب السعادة إلا بها لأن داعية الانسان قد تكون مائلة إلى ما فيه صلاح آخرته ولكن إذا لم يعلم ما فيه صلاح آخرته حتى يظن الفساد صلاحا فن أين ينفعه مجرد الإرادة فلا فائدة في الإرادة والقدرة والأسباب إلا بعد الهداية ولذلك قال تعالى ربنا الذي أعطى كل شيء خلقه ثم هدى - وقال تعالى - ولولا فضل الله عليكم ورحمته ما زكي منكم من أحد أبدا ولكن الله يزكي من يشاء - وقال صلى الله عليه وسلم \* ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله تعالى أى بهديته قيل ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا <sup>(٢)</sup> . وللهداية ثلاث منازل : الأولى معرفة طريق الخير والشر للشار إليه بقوله تعالى - وهديناه النجدين - وقد أنعم الله تعالى به على كافة عباده بعضه بالقل وببعضه على لسان الرسل ولذلك قال تعالى - وما آمنوا فهديناهم فاستجابوا للسمى على الهدى - فأسباب الهدى هي الكتب والرسل وبما الر القبول وهي مبذولة ولا يمنع منها إلا الحسد والكبر وحب الدنيا والأسباب التي تسمى القلوب وإن كانت لا تسمى الأبصار قال تعالى - فانها لا تسمى الأبصار ولكن تسمى القلوب التي في الصدور - ومن جملة العميات الإثبات والعادة وحب استصحابها وعنه العبارة بقوله تعالى

والحاكم من حديث سلمان لفظ الحاكم وقال بلفظ وقال مثل زاد الراكب وقال صحيح الاسناد . قلت هو من رواية أبي سفيان عن أشياخه غير مسمين وقال ابن ماجه عهد إلى أن يكفي أحدكم مثل زاد الراكب (١) حديث استأذنان عبد الرحمن بن عوف أن يخرج عن جميع ما يملكه لما ذكر أن الأغنياء يدخلون الجنة بشدة فأذن له فنزل جبريل فقال مه أن يطعم المسكين الحديث الحاكم من حديث عبد الرحمن بن عوف وقال صحيح الاسناد . قلت : كلا فيه خالفه بن أبي مالك ضعيف جدا (٢) حديث ما من أحد يدخل الجنة إلا برحمة الله متفق عليه من حديث أبي هريرة لن يدخل أحدكم عمله الجنة قالوا ولا أنت يا رسول الله قال ولا أنا إلا أن يتخمدنى الله بفضل منه ورحمة وفي رواية لمسلم ما من أحد يدخله عمله الجنة الحديث واتفقا عليه من حديث عائشة واخبر به مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

قيل لي هذا إنسان يصحب أبا حفص ويغمدنا وقد اتفق عليه مائة ألف درهم كانت له واستدان مائة ألف أخرى أنفقها عليه ما يسوغ له أبو حفص أن يتكلم بكلمة واحدة وقال أبو يزيد البسطامي صحبت أبا حفص السندی فكنت ألقنه ما يقيم به فرضه وكان يلحنى التوحيد والحقائق صرفا . وقال أبو عثمان صحبت أبا حفص وأنا غلام حدث فطردنى وقال لا تجلس عندى فلم اجعل مكافأتى له على كلامه أن أولى ظهري إليه فانصرفت أمتنى إلى خلف ووجهي مقابل له حتى غبت

- إنا وجدنا آباءنا على أمة - الآية وعن الكبر والحسد العبارة بقوله تعالى - وقالوا لولا نزل هذا القرآن على رجل من القريتين عظيم - وقوله تعالى - أضرنا منا واحداً يتبعه - فهذه المعينات هي التي منعت الاهتداء والهداية الثانية وراء هذه الهداية العامة وهي التي يعد الله تعالى بها العبد حالاً بعد حال وهي ثمرة المجاهدة حيث قال تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - وهو المراد بقوله تعالى: - والذين اهتدوا زادهم هدى - والهداية الثالثة وراء الثانية وهو النور الذي يشرق في عالم النبوة والولاية بعد كمال المجاهدة فيهندي بها إلى ما لا يهندي إليه بالعقل الذي يحصل به التكليف وإمكان تعلم العلوم وهو الهوى للطلق وماعداه حجاب له ومقدماته وهو الذي شرفه الله تعالى بتخصيص الإضافة إليه وإن كان الكل من جهته تعالى فقال تعالى - قل إن هدى الله فهو الهدى - وهو للسمى حياة في قوله تعالى - أو من كان ميتاً فأحييناه وجلنا له نوراً يمشي به في الناس - والعنى بقوله تعالى - ألن نرحم الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وأما الرشد فعنى به العناية الإلهية التي تعين الإنسان عند توجهه إلى مقاصده فتقويه على ما فيه صلاحه وتنفره عما فيه فساده ويكون ذلك من الباطن كما قال تعالى - ولقد آتينا إبراهيم رشده من قبل وكنا به عاقلين - فالرشد عبارة عن هداية باعثة إلى جهة السعادة محركة إليها فالصبي إذا بلغ خبيراً بحفظ المال وطرق التجارة والاستئمان ولكنه مع ذلك يندرو لا يريد الاستئمان لا يسمى رشيداً لعدم هدايته بل لقصور هدايته عن تحريك داعيته فكم من شخص يقدم على ما يظن أنه يضره فقد أعطى الهداية وميزها عن الجاهل الذي لا يدري أنه يضره ولكن ما أعطى الرشد فالرشد بهذا الاعتبار أكل من مجرد الهداية إلى وجوه الأعمال وهي نعمة عظيمة . وأما التسديد فهو توجيه حركاته إلى صوب المطلوب وتيسرها عليه ليشتد في صوب الصواب في أسرع وقت فإن الهداية بمجرد ما لا تكفي بل لابد من هداية محركة للداعية وهي الرشد والرشد لا يكفي بل لابد من تيسر الحركات بمساعدة الأعضاء والآلات حتى يتم المراد مما انبثت الداعية إليه فالهداية محض التعريف والرشد هو تنبيه الداعية لتستيقظ وتحرك والتسديد إعانة ونصرة بتحريك الأعضاء في صوب السداد وأما التأييد فكأنه جامع للكل وهو عبارة عن تقوية أمره بالبصيرة من داخل وتقوية البطش ومساعدة الأسباب من خارج وهو المراد بقوله عز وجل - إذا يدتك روح القدس - وتوحيه منه الصحة وهي عبارة عن وجود الهوى يسبح في الباطن يقوى به الإنسان على تحرى الخير وتجنب الشر حتى يصير كإنسان من باطنه غير محسوس وإياه عني بقوله تعالى - ولقد هممت به وهماً بالولول أن رأي برهان ربه - فهذه هي مجامع النعم وإن تثبت إلا بما يحول به الله من الفهم الصافي الثاقب والسمع الواعي والقلب البصير التواضع المراعى والملم الناصح والمال الزائد على ما يقصر عن المهمات بقلته القاصر عما يشغل عن الدين بكثرته والعز الذي يصونه عن سفه السفاه وظلم الأعداء ويستدهي كل واحد من هذه الأسباب الستة عشر أسباباً وتستدعي تلك الأسباب أسباباً إلى أن تنتهي بالآخرة إلى دليل التحيرين وملجأ للضطرين وذلك رب الأرباب ومسبب الأسباب وإذا كانت تلك الأسباب طويلة لا يحتمل مثل هذا الكتاب استقصاها فلقد ذكر منها أنموذجاً ليعلم به معنى قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وبالله التوفيق .

عنه واعتقدت أن أحسفر لنفسي برأ على بابه وأنزل وأقعد فيه ولا أخرج منه إلا ياذنه فلما رأى ذلك منى قريبي وقبلنى وصيرنى من خواص أصحابه إلى أن مات رحمه الله ومن آدابهم الظاهرة أن المرید لا يسطع سجدته مع وجود الشيخ إلا لوقت الصلاة فإن المرید من شأنه التبذل للخدمة في السجادة إجماعاً إلى الاستراحة والتعزز ولا يتحرك في السماع مع وجود الشيخ إلا أن يخرج عن حد التمييز وهيبة الشيخ تملك المسريد عن الاسترسال في السماع وتحميده واستغراقه في

( بيان وجه الأنموذج في كثرة نعم الله تعالى وتسلسلها وخروجها عن الحصر والإحصاء )

اعلم أنا جمعنا النعم في ستة عشر ضرباً وجلنا حمة البدن نعمة من النعم الواقعة في الرتبة للتأخرة فهذه النعمة الواحدة لو أردنا أن نستقصى الأسباب التي بها تمت هذه النعمة لم نقدر عليها ولكن الأكل أحد أسباب الصحة فلقد ذكر نبذة من جملة الأسباب التي بها تتم نعمة الأكل فلا يخفى أن الأكل فعل وكل فعل من هذا النوع فهو حركة وكل حركة لابد لها من جسم متحرك هو آلتها ولا بد لها من قدرة على

الحركة ولا بد من إرادة للحركة ولا بد من علم بالمراد وإدراك له ولا بد للأكل من مأكل ولا بد  
للمأكل من أصل منه يحصل ولا بد له من صانع يصلحه فلنذكر أسباب الإدراك ثم أسباب الإرادات  
ثم أسباب القدرة ثم أسباب المأكل على سبيل التلويح لاعلى سبيل الاستقصاء .

( الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك )

اعلم أن الله تعالى خلق النبات وهو أكمل وجوداً من الحجر والدر والحديد والنحاس وسائر الجواهر التي  
لا تنمى ولا تنفذ فإن النبات خلق فيه قوة بها يجذب الغذاء إلى نفسه من جهة أصله وعروقه التي في  
الأرض وهي له آلات فيها يجذب الغذاء وهي العروق الدقيقة التي تراها في كل ورقة ثم تملظ أصولها ثم  
تنشعب ولا تزال تستدق وتنشعب إلى عروق شعيرية تنبسط في أجزاء الورقة حتى تنقب عن البصر إلا  
أن النبات مع هذا الكمال ناقص فإنه إذا أعوزته غذاء يساق إليه ويمس أصله جف ويسس ولم يمكنه  
طلب الغذاء من موضع آخر فإن الطلب إنما يكون بمعرفة اللطوب وبالاتقال إليه والنبات عاجز عن  
ذلك فمن نعمة الله تعالى عليك أن خلق لك آلات الإحساس وآلة الحركة في طلب الغذاء فانظر إلى  
ترتيب حكمة الله تعالى في خلق الحواس الخمس التي هي آلة الإدراك فأولها حاسة اللمس وإنما خافت  
لك حتى إذا مستك نار محرقة أو سيف جارح تحس به قهراً منه وهذا أول حس يخلق للحيوان ولا  
يتصور حيوان إلا ويكون له هذا الحس لأنه لم يحس أصلاً فليس بحيوان وأنقص درجات الحس أن  
يحس بما لا يلاصقه ويمسه فإن الإحساس مما يبعد منه إحساس أتم لا محالة وهذا الحس موجود لكل  
حيوان حتى الدودة التي في الطين فإنها إذا غرر فيها إبرة انقبضت للهرب لا كالنبات فإن النبات يقطع  
فلا ينقبض إذ لا يحس بالقطع إلا أنك لو لم يخلق لك إلا هذا الحس لكنت ناقصاً كالدودة لا تقدر على  
طلب الغذاء من حيث يبعد عنك بل ما لمس بدك فتحس به فتجذبه إلى نفسك فقط فافتقرت إلى  
حس تدرك به ما بعد عنك غلظ لك الشم إلا أنك تدرك به الرائحة ولا تدري أنها جاءت من أي ناحية  
فتحتاج إلى أن تطوف كثيراً من الجوانب فربما تعثر على الغذاء الذي شممت ريحه وربما لم تعثر فتكون  
في غاية نقصان لو لم يخلق لك إلا هذا خلق لك البصر لتدرك به ما بعد عنك وتدرك جهته فتتصيد تلك  
الجهة بينها إلا أنه لو لم يخلق لك إلا هذا لكنت ناقصاً إذ لا تدرك بهذا ما وراء الجدران والحجب فتبصر  
غذاء ليس بينك وبينه حجاب وتبصر عدواً لا حجاب بينك وبينه وأمام عينيك وبينه حجاب فلا تبصره  
وقد لا ينكشف الحجاب إلا بعد قرب العدو فتعجز عن الهرب فخلق لك السمع حتى تدرك به الأصوات من  
وراء الجدران والحجب عند جريان الحركات لأنك لا تدرك بالبصر إلا شيئاً حاضراً أو ما الغائب فلا يمكنك  
معرفة الإبل بآلام ينظم من حروف وأصوات تدرك بحس السمع فاشتدت إليه حاجتك فخلق لك ذلك  
وميزت بهم الكلام عن سائر الحيوانات وكل ذلك ما كان يفنيك لو لم يكن لك حسي الذوق إذ يصل الغذاء  
إليك فلا تدرك أنه موافق لك أو مخالف فتأكله قهراً كالشجرة يصب في أصلها كل مائع ولا ذوق لها  
فتجذبه وربما يكون ذلك سبب جفافها ثم كل ذلك لا يكفيك لو لم يخلق في مقدمة دماغك إدراك آخر  
يسمى حساً مشتركاً تأدئ إليه هذه الحسوس الخمس وتجتمع فيه ولولا لطال الأمر عليك فأنك إذا  
أكلت شيئاً أصفر مثلاً فوجدته مراراً فالتفتك فذكرته فاذا رأته مرة أخرى فلا تعرف أنه مضر مالم تذقه  
ثانياً لولا الحس المشترك إذا لم ينسب البصر الصفرة ولا تدرك الرائحة فكيف تتمتع عنه الذوق يدرك الرائحة  
ولا يدرك الصفرة فلا بد من حاكم يجمع عنده الصفرة والرائحة جميعاً حتى إذا أردت الصفرة حكم بأنه  
مر فيمتنع عن تناوله ثانياً وهذا كله تشارك فيه الحيوانات إذ لا شاة هذه الحواس كلها فلو لم يكن لك  
إلا هذا لكنت ناقصاً فإن البهيمة يحتال عليها فتؤخذ فلا تدري كيف تدفع الحيلة عن نفسها وكيف

الشيخ بالنظر إليه  
ومطالعة موارد فضل  
الحق عليه أنجع له من  
الإصغاء إلى السماع ومن  
الأدب أن لا يكتفى على  
الشيخ شيئاً من حاله  
ومواهب الحق عنده  
وما يظهر له من كرامة  
وإجابة وينكشف  
للشيخ من حاله ما يعلم  
الله تعالى منه وما  
يستحي من كشفه  
يذكره إتماماً وتكريماً  
فإن المريد متى انطوى  
ضميره على شيء  
لا يكشفه للشيخ  
تصريحاً أو تعريضاً  
يصير على باطنه منه  
عقدة في الطريق  
وبالقول مع الشيخ  
تحل العقدة وتزول  
ومن الأدب أن

تتخلص إذا قيدت وقد تلقى نفسها في بر ولا تدرى أن ذلك يهلكها ولذلك قد تأكل البسمة ما تستلذه في الحال وبصرها في ثانی الحال تمرض وتموت إذ ليس لها إلا الاحساس بالحاضر فأما إدراك العواقب فلا فيترك الله تعالى وأكرمك بصفة أخرى هي أشرف من الكل وهو العقل فيه تدرك مضرة الأطعمة ومنفعتها في الحال والمآل وبه تدرك كيفية طبع الأطعمة وتأليفها وإعداد أسبابها فتنتفع بعقلك في الأكل الذي هو سبب محنتك وهو أحسن فوائد العقل وأقل الحكم فيه بل الحكمة الكبرى فيه معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله ومعرفة الحكمة في عالمه وعند ذلك تنقلب قائمة الحواس الخمس في حرك فتكون الحواس الخمس كالجواسيس وأصحاب الأخبار اللوكلين بنواحي المملكة وقد وكلت كل واحدة منها بأمر تختص به فواحدة منها بأخبار الألوان والأخرى بأخبار الأصوات والأخرى بأخبار الروائح والأخرى بأخبار الطعوم والأخرى بأخبار الحر والبرد والخشونة واللاسة واللين والصلابة وغيرها وهذه البرد والجواسيس يقتنصون الأخبار من أقطار المملكة ويسلمونها إلى الحس المشترك والحس المشترك قاعد في مقدمة الدماغ مثل صاحب القصص والكتب على باب الملك يجمع القصص والكتب الواردة من نواحي العالم فيأخذها وهي غنومة ويسلمها إذ ليس له إلا أخذها وجمعها وحفظها فأما معرفة حقائق ما فيها فلا ولكن إذا صادف القلب العاقل الذي هو الأمير والملك سلم إليها آت إليه غنومة فيفتشها الملك ويطلع منها على أسرار المملكة ويحكم فيها بأحكام محمية لا يمكن استقصاؤها في هذا المقام وبحسب ما يلوح له من الأحكام والصالح يحرك الجنود وهي الأعضاء مرة في الطلب ومرة في الحرب ومرة في إتمام التدبيرات التي تمن له فهذه سياقة نعمة الله عليك في الإدراكات ولا تظن أننا استوفيناها فان الحواس الظاهرة هي بعض الإدراكات والبصر واحد من جملة الحواس والعين آلة واحدة له وقد ركب العين من عشر طبقات مختلفة بعضها رطوبات وبعضها أغشية وبعض الأغشية كأنها نسج العنكبوت وبعضها كالشيمة وبعض تلك الرطوبات كأنه يياض البيض وبعضها كأنه الجلد ولكل واحدة من هذه الطبقات عشر صفة وصورة وشكل وهيئة وعرض وتدوير وتركيب لو اختلفت طبقة واحدة من جملة العشر أو صفة واحدة من صفات كل طبقة لاختل البصر وعجز عنه الأطباء والكحالون كلهم فهذا في حس واحد فقس به حاسة السمع وسائر الحواس بل لا يمكن أن تستوفي حكم الله تعالى وأنواع نعمه في جسم البصر وطبقاته في مجلدات كثيرة مع أن جملة لا تزيد على جوزه صغيرة فكيف ظنك بجميع البدن وسائر أعضائه ومحاجاته فهذه مرامز إلى نعم الله تعالى بخلق الإدراكات.

( الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الارادات )

اعلم أنه لو خلق لك البصر حتى تدرك به الغذاء من بعد ولم يخلق لك ميل في الطبع وشوق إلى الشهوة له تستحك على الحركة لكان البصر معطلا فكم من مريض يرى الطعام وهو أنفع الأشياء له وقد سقطت شهوته فلا يتناولها فيبقى البصر والإدراك معطلا في حقه فاضطررت إلى أن يكون لك ميل إلى ما يوافقك يسمى شهوة وقررة عما يخالفك تسمى كراهة لتطلب بالشهوة وتهرب بالكراهة فخلق الله تعالى فيك شهوة الطعام وسلطها عليك ووكلمها بك كاللقاض الذي يضطرك إلى تناول حتى تتناول وتنتدى فتبقى بالتذاء وهذا مما يشاركك فيه الحيوانات دون النبات ثم هذه الشهوة لو لم تسكن إذا أخذت مقدار الحاجة أسرفت وأهلكك نفسك فخلق الله لك الكراهة عند الشبع لترك الأكل بها لا كالزراع فإنه لا يزال يجذب الماء إذا انصب في أسفله حتى يفسد فيحتاج إلى آدمى يقدر غذاءه بقدر الحاجة فيسقيه مرة ويقطع عنه الماء أخرى وكما خلقت لك هذه الشهوة حتى تأكل فيبقى به بدنك خلق لك شهوة الجماع حتى تجامع فيبقى به نسلك ولو قصصنا عليك محاجبات صنع الله تعالى في خلق الرحم وخلق

لا يدخل في صفة الشيخ إلا بعد علمه بأن الشيخ قيم بتأديبه وتهذيبه وأنه أقوم بالتأديب من غيره ومتى كان عند الريد تطلع إلى شيخ آخر لاتصفو محبته ولا ينفذ القول فيه ولا يستمد باطنه لسراية حال الشيخ إليه فان للريد كلما أيقن تفرد الشيخ بالمشيخة عرف فضله وقويت محبته والمهبة والتألف هو الوساطة بين للريد والشيخ وعلى قدر قوة المهبة تكون سراية الحال لأن المهبة علامة التعارف والتعارف علامة الجندية والجندية جالبة للريد حال الشيخ أو بعض حاله



دم الحيض وتأليف الجنين من النى ودم الحيض وكيفية خالق الأثنين والعروق السالكة إليهم من القفار الذى هو مستقر النطفة وكيفية انصباب ماء المرأة من الترائب بواسطة العروق وكيفية انقسام مقعر الرحم إلى قوالب تقع النطفة في بعضها تنتشكلك بشكل الذكور وتقع في بعضها فتشكلك بشكل الإناث وكيفية إدارتها في أطوار خلقها مضغة وعلقه ثم عظما ولحما ودما وكيفية قسمة أجزائها إلى رأس ويد ورجل وبطن وظاهر وسائر الأعضاء لتقصيت من أنواع نم الله تعالى عليك في مبدأ خلقك كل المعجب فضلا عما تراه الآن ولكننا لسنا نريد أن نتعرض إلا لنعم الله تعالى في الأكل وحده كي لا يطول الكلام . فاذن شهوة الطعام أحد ضروب الارادات وذلك لا يكفيك فانه تأنيك الهللكات من الجوانب فلو لم يخلق فيك الغضب الذى به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك لبقيت عرضة للآفات ولأخذ منك كل ما حصلت من الغذاء فان كل واحد يشتهى ما في يديك فتحتاج إلى داعية في دفعه ومقاتلته وهى داعية الغضب الذى به تدفع كل ما يصادك ولا يوافقك ثم هذا لا يكفيك إذ الشهوة والغضب لا يدعوان إلا إلى ما يضر وينفع في الحال وأما في المآل فلا تسكن في هذه الارادة فخلق الله تعالى لك إرادة أخرى مسخرة تحت إشارة العقل المعروف للعواقب كما خلق الشهوات والغضب مسخرة تحت إدراك الحس المدرك للحالة الحاضرة فتم بها انتفاعك بالعقل إذ كان مجرد المعرفة بأن هذه الشهوة مثلا تضررك لا يغنيك في الاحتراز عنها ما لم يكن لك ميل إلى العمل بموجب المعرفة وهذه الارادة أفردت بها عن البهائم إكراما لبني آدم كما أفردت بمعرفة العواقب وقد صمينا هذه الارادة باعثة دينيا وفصلناه في كتاب الصبر تفصيلا أوفى من هذا .

### ( الطرف الثالث في نم الله تعالى في خلق القدرة وآلات الحركة )

اعلم أن الحس لا يفيد إلا الإدراك والارادة لا معنى لها إلا لليل إلى الطلب والمهرب وهذا لا كفاية فيه ما لم تكن فيك آلة الطلب والمهرب فكم من مريض مشتاق إلى شيء بعيد عنه مدرك له ولكنه لا يمكنه أن يمشى إليه فقد رجليه أولا يمكنه أن يتناول له فقد يده أو قلعج وخدر فيها فلا بد من آلات للحركة وقدرة في تلك الآلات على الحركة لتكون حركتها بمقتضى الشهوة طلبا وبمقتضى الكراهية هربا فذلك خلق الله تعالى لك الأعضاء التى تنظر إلى ظاهرها ولا تعرف أسرارها فتمها ما هو للطلب والمهرب كالرجل للانسان والجنح للطير والقوائم للدواب ومنها ما هو للدفع كالأسلحة للإنسان والقرون للحيوان وفي هذا تختلف الحيوانات اختلافا كثيرا فمنها ما يكثر أعداؤه ويعد غذاءه فيحتاج إلى سرعة الحركة فخلق له الجنح ليطير بسرعه ومنها ما خلق له أربع قوائم ومنها ما له رجلان ومنها ما يدب وذكر ذلك يطول فلنذكر الأعضاء التى بها يتم الأكل فقط ليقاس عليها غيرها فنقول : رؤيتك الطعام من بعد وحركتك إليه لا تسفى ما لم تتمكن من أن تأخذه فافتقرت إلى آلة باطشة فأتم الله تعالى عليك بخلق اليدين وهما طويلتان ممتدتان إلى الأشياء ومشتعلتان على مفاصل كثيرة لتحرك في الجهات فتتمد وتنثني إليك فلا تكون كحبة منصوبة ثم جعل رأس اليد عريضا بخلق الكف ثم قسم رأس الكف بخمسة أقسام هى الأصابع وجعلها في صفيح بحيث يكون الإبهام في جانب ويدور على الأربعة الباقية ولو كانت مجتمعة أو متراكمة لم يحصل بها تمام غرضك فوضعا وضعا إن بسطها كانت لك مجرفة وإن صممتها كانت لك مغرفة وإن جمعتها كانت لك آلة للضرب وإن تشرتها ثم قبضتها كانت لك آلة في القبض ثم خلق لها أظفارا وأسند إليها دوس الأصابع حتى لا تفتت وحتى تلتقط بها الأشياء الدقيقة التى لا تحبها الأصابع فأخذها برؤوس أظفارها ثم هب أنك أخذت الطعام باليدين فمن أين يكفيك هذا ما لم يصل إلى المعدة وهى فى الباطن فلا بد أن يكون من الظاهر

أخبرنا الشيخ الثقة  
أبو الفتح محمد بن  
سليمان قال أنا أبو الفضل  
حميد قال أنا الحافظ  
أبو نعيم قال ثنا سليمان  
ابن أحمد قال ثنا أنس  
ابن أسلم قال ثنا عتبة  
ابن رزين عن أبي  
أمامة الباهلي عن  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم قال « من علم  
عبدا آية من كتاب  
الله فهو مولاه ينبغي  
له أن لا يغذله ولا  
يستأثر عليه فمن فعل  
ذلك فقد فهم عروة  
من عرا الاسلام » ومن  
الأدب أن يراعى  
خطرات الشيخ في  
جزئيات الأمور  
وكلياتها ولا يستحقر  
كراهة الشيخ ليصير

دهليز إليها حتى يدخل الطعام منه فجعل القم منفذا إلى المعدة مع ما فيه من الحكم الكبيرة سوى كونه منفذا للطعام إلى المعدة ثم إن وضعت الطعام في القم وهو قطعة واحدة فلا يتيسر ابتلاعه فحتاج إلى طاحونة تطحن بها الطعام فخلق لك اللحين من عظمين وركب فيهما الأسنان وطبق الأضراس العليا على السفلى لتطحن بهما الطعام طحنا ثم الطعام تارة يحتاج إلى الكسر وتارة إلى القطع ثم يحتاج إلى طحن بعد ذلك قسم الأسنان إلى عريضة طواحين كالأضراس وإلى جادة قواطع كالرباعيات وإلى ما يصلح للكسر كالأنياب ثم جعل منفصل اللحين متخلخلا بحيث يتقدم الفك الأسفل ويتأخر حتى يدور على الفك الأعلى دوران الرمح ولولا ذلك لما تيسر لأضرب أحدهما على الآخر مثل تصفيق اليدين مثلا وبذلك لا يتم الطحن فجعل اللحي الأسفل متحركا حركة دورية واللحي الأعلى ثابتا لا يتحرك فانظر إلى عجب صنع الله تعالى فإن كل رحي صنعه الخلق فيثبت منه الحجر الأسفل ويدور الأعلى إلا هذا الرحي الذي صنعه الله تعالى إذ يدور منه الأسفل على الأعلى فسبحانه ما أعظم شأنه وأعز سلطانه وأتم برهانه وأوسع امتنانه ، ثم هب أنك وضعت الطعام في فضاء القم فكيف يتحرك الطعام إلى ماتحت الأسنان أو كيف تستجره الأسنان إلى نفسها أو كيف يتصرف باليد في داخل القم فانظر كيف أنعم الله عليك بخلق اللسان فإنه يطوف في جوانب القم ويرد الطعام من الوسط إلى الأسنان بحسب الحاجة كالجرفة التي ترد الطعام إلى الرحي هذا مع ما فيه من فائدة الذوق وهجائب قوة النطق والحكم التي لسانا نطلب بدكرها ، ثم هب أنك قطعت الطعام وطحته وهو يابس فلا تقدر على الابتلاع إلا بأن يترلق إلى الحلق بنوع رطوبة فانظر كيف خلق الله تعالى تحت اللسان عينا يفيض اللعاب منها وينصب بقدر الحاجة حتى ينحج به الطعام فانظر كيف سخرها لهذا الأمر فانك ترى الطعام من بعد فيثور الحنكان للخدمة وينصب اللعاب حتى تتحلب أشداقك والطعام بعد بيدك عنك ثم هذا الطعام الطحون للمعجن من يوصله إلى المعدة وهو في القم ولا تقدر على أن تدفعه باليد ولا يدق بالمعدة حتى تمتد فتجنب الطعام فانظر كيف هيأ الله تعالى للرء والحجرة وجعل على رأسها طبقات تتفتح لأخذ الطعام ثم تتطبق وتتضغط حتى يتقلب الطعام بضغطة فيهبوى إلى المعدة فدهليز للرء فاذا ورد الطعام على المعدة وهو خبز وفاكهة مقطعة فلا يصلح لأن يصير لحما وعظما ودما على هذه الهيئة بل لابد وأن يطبخ طبخا تاما حتى تتشابه أجزاؤه فخلق الله تعالى المعدة على هيئة قدر فيقع فيها الطعام فتحتوى عليه وتعلق عليه الأبواب فلا يزال لا بنا فيها حتى يتم الهضم والنضج بالحرارة التي تحيط بالمعدة من الأعضاء الباطنة إذ من جانبها الأيمن الكبد ومن الأيسر الطحال ومن قدام الترائب ومن خلف لحم الصلب فتتعدى الحرارة إليها من تسخين هذه الأعضاء من الجوانب حتى ينطبخ الطعام ويصير مائعا متشابها يصلح للنموذ في تجاويف العروق وعند ذلك يشبه ماء الشمر في تشابه أجزائه وورقه وهو بعد لا يصلح للتغذية فخلق الله تعالى بينها وبين الكبد مجارى من العروق وجعل لها فوهات كثيرة حتى ينصب الطعام فيها فينتهى إلى الكبد والكبد معجون من طينة الدم حتى كأنه دم وفيه عروق كثيرة شعرية منتشرة في أجزاء الكبد فينصب الطعام الرقيق النافذ فيها وينتشر في أجزائها حتى تستولى عليه قوة الكبد فتصبغه بلون الدم فيستقر فيها ريشما يحصل له نضج آخر ويحصل له هيئة الدم الصافي الصالح لغذاء الأعضاء إلا أن حرارة الكبد هي التي تضج هذا الدم فيتولد من هذا الدم فضلتان كما يتولد في جميع ما يطبخ إحداها شبيهة بالدردي والعكر وهو الحائط السوداءى والأخرى شبيهة بالرغوة وهي الصفراء ولو لم تفصل عنها الفضلتان فسد مزاج الأعضاء فخلق الله تعالى الحرارة والطحال وجعل لكل واحد منهما عنقا ممدودا إلى الكبد داخل في تجويفه

حركاته معتمدا على حسن خلق الشيخ وكمال حلمه ومداراه. قال إبراهيم بن شيان كنا نصحب أبا عبد الله للعربي ونحن شبان ويسافر بنا في البرارى والفلوات وكان معه شيخ اسمه حسن وقد صبه سبعين سنة فكان إذا جرى من أحدنا خطأ وتفسير عليه حال الشيخ تشفع إليه بهذا الشيخ حتى يرجع لنا إلى ما كان . ومن أدب للريد مع الشيخ أن لا يستقل بوقائه وكشفه دون مراجعة الشيخ فان الشيخ علمه أوسع وبابه المفتوح إلى الله أكبر

فتجذب المرارة الفضلة الصفراوية ويجذب الطحال المكر السوداوى فيبقى الدم صافيا ليس فيه إلا زيادة رقة ورطوبة لحافيه من المائية ولولاها لما انتشر في تلك العروق الشعرية وأخرج منها متصاعدا إلى الأعضاء فخلق الله سبحانه الكليتين وأخرج من كل واحدة عنقا طويلا إلى الكبد ومن عجائب حكمة الله تعالى أن عنقهما ليس داخلا في تجويف الكبد بل متصل بالعروق الطالعة من حدة الكبد حتى يجذب ما يليها بعد الطلوع من العروق الدقيقة التي في الكبد إذ لو اجتنب قبل ذلك للفظ ولم يخرج من العروق فاذا انفصلت منه المائية فقد صار الدم صافيا من الفضلات الثلاث بها من كل ما يفسد الغذاء ، ثم إن الله تعالى أطلع من الكبد عروقا ثم قسمها بعد الطلوع أقساما وشعب كل قسم بشعب وانتشر ذلك في البدن كله من الفرق إلى القدم ظاهرا وباطنا فيجري الدم الصافي فيها ويصل إلى سائر الأعضاء حتى تصير العروق النخسة شمعية كمروق الأوراق والأشجار بحيث لا تندرک بالأبصار فيصل منها الغذاء بالرشح إلى سائر الأعضاء ولوحلت بالمرارة آفة فلم تجذب الفضلة الصفراوية فسد الدم وحصل منه الأمراض الصفراوية كاليرقان والبثور والحمرة وإن حلت بالطحال آفة فلم يجذب الحائط السوداوى حدثت الأمراض السوداوية كالهبق والجذام والبالغيوليا وغيرها وإن لم تندفع المائية نحو الكلى حدث منه الاستسقاء وغيره ، ثم انظر إلى حكمة الفاطر الحكيم كيف رتب النافع على هذه الفضلات الثلاث الحسيسة أما المرارة فانها تجذب بأحد عنقها وتذف بالعنق الآخر إلى الأمعاء ليحصل له في ثفل الطعام رطوبة مزقة ويحدث في الأمعاء لدغ يحركها للدفع فتضغط حتى يدفع الثقل وينزلق وتكون صفرته لذلك وأما الطحال فانه يحيل تلك الفضلة إحالة يحصل بها فيه حموضة وقبض ثم يرسل منها كل يوم شيئا إلى فم المعدة فيحرك الشهوة بحموضته وينبها ويشيرها ويخرج الباقي مع الفضل وأما الكلى فانها تمتد في بياض تلك المائية من دم وترسل الباقي إلى المثانة ولتقتصر على هذا القدر من بيان نعم الله تعالى في الأسباب التي أعدت للأكل ولود ذكرنا كيفية احتياج الكبد إلى القلب والدماغ واحتياج كل واحد من هذه الأعضاء الرئيسية إلى صاحبه وكيفية انشعاب العروق الضواريب من القلب إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الحس وكيفية انشعاب العروق السواكن من الكبد إلى سائر البدن وبواسطتها يصل الغذاء ثم كيفية تركيب الأعضاء وعدد عظامها وعضلاتها وعروقها وأوتارها ورباطاتها وغضاريفها ورطوباتها لطلال الكلام وكل ذلك محتاج إليه للأكل والأمور أخر سواء بل في الآدمي آلاف من العضلات والعروق والأعصاب مختلفة بالصغر والكبر والدقة والغلظ وكثرة الانقسام وقلته ولا شيء منها إلا وفيه حكمة أو اثنتان أو ثلاث أو أربع إلى عشر وزيادة وكل ذلك نعم من الله تعالى عليك لو سكن من جملتها عرق متحرك أو عرق ساكن لمهلك يأمسكبن فانظر إلى نعمة الله تعالى عليك أولا لتقوى بعدها على الشكر فانك لا تعرف من نعمة الله سبحانه إلا الأكل وهو أخسها ثم لا تعرف منها إلا أنك نجوع فتأكل والحمار أيضا يعلم أنه يجوع فيأكل ويتعب فينام ويشتهي فيجامع ويستنهض فينهض ويرمح فاذا لم تعرف أنت من نفسك إلا ما يعرف الحمار فكيف تقوم بشكر نعمة الله عليك وهذا الذي رمزنا إليه على الإيجاز قطرة من بحر واحد من بحار نعم الله فقط فقس على الاجمال ما أهملنا من جملة ما عرفناه حذرا من التطويل وجملة ما عرفناه وعرفه الخلق كلهم بالإضافة إلى ما لم يعرفوه من نعم الله تعالى أقل من قطرة من بحر الأن من علم شيئا من هذا أدرك فهمه من معاني قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - ثم انظر كيف ربط الله تعالى قوام هذه الأعضاء وقوام منافعها وادراكها وقواها بخار لطيف يتصاعد من الأخطاط الأربعة ومستقره القلب ويسرى في جميع البدن بواسطة العروق الضواريب فلا ينتهي إلى جزء من أجزاء البدن

فإن كان واقعة للريد  
من الله تعالى بواقعه  
الشيخ وبعضها له  
وما كان من عند الله  
لا يختلف وإن كان  
فيه شبه نزول شبهة  
الواقعة بطريق الشيخ  
ويكتب للريد  
علما بصحة الوقائع  
والكشف فالريد  
له في واقعه بخامره  
كمن إرادة في النفس  
فيشتبك كمن الإرادة  
بالواقعة مناما كان  
ذلك أوقظة ولهذا  
سر عجيب ولا يقوم  
للريد باستئصال شأفة  
الكمن في النفس  
وإذا ذكره للشيخ فما  
في الريد من كمن  
إرادة النفس مفقود  
في حق الشيخ فإن

إلا وحدث عند وصوله في تلك الأجزاء ما يحتاج إليه من قوة حس وإدراك وقوة حركة وغيرها كالسراج الذي يدار في أطراف البيت فلا يصل إلى جزء إلا ويحصل بسبب وصوله ضوء على أجزاء البيت من خلق الله تعالى واختراعه ولكنه جعل السراج سبباً له بمحكته وهذا البخار اللطيف هو الذي تسميه الأطباء الروح وحله القلب ومثاله جرم نار السراج والقلب له كالسرجة والشم الأسود الذي في باطن القلب له كالفيتية والغذاء له كالزيت والحياة الظاهرة في سائر أعضاء البدن بسببه كالضوء للسراج في حجرة البيت وكما أن السراج إذا انقطع زيتُه انطفأ فسراج الروح أيضاً ينطفئ\* مهما انقطع غذاؤه وكما أن الفيتية قد تحترق فتصير رماداً بحيث لا يقبل الزيت فينطفئ\* السراج مع كثرة الزيت فسذلك الشم الذي تشبث به هذا البخار في القلب قد يحترق بفطر حرارة القلب فينطفئ\* ومع وجود الغذاء فإنه لا يقبل الغذاء الذي يبقى به الروح كما لا يقبل الرماد الزيت قبولاً تشبث النار به وكما أن السراج تارة ينطفئ\* بسبب من داخل كما ذكرناه وتارة بسبب من خارج كرجع عاصف فكذلك الروح تارة تنطفئ\* بسبب من داخل وتارة بسبب من خارج وهو القتل وكما أن انطفاء السراج بغياء الزيت أو فساد الفيتية أو برجح عاصف أو بإطفاء إنسان لا يكون إلا لأسباب مقدرة في علم الله مرتبة ويكون كل ذلك بقدر فكذلك انطفاء الروح وكما أن انطفاء السراج هو منتهى وقت وجوده فيكون ذلك أجله الذي أجل له في أم الكتاب فكذلك انطفاء الروح وكما أن السراج إذا انطفأ أظلم البيت كله فالروح إذا انطفأ أظلم البدن كله وفارقت أنوارها التي كان يستفيد منها من الروح هي أنوار الاحساسات والقدرة والارادات وسائر ما يجمعها معنى لفظ الحياة فهذا أيضاً ضرر مزو جيز إلى عالم آخر من عوالم نعم الله تعالى ومحاسن صنعته وحكته ليعلم أنه لو كان البحر مداداً لكلمات ربك لند البحر قبل أن تنفد كلمات ربي - عز وجل - قمتا لمن كفر بالله تصا وسحقا لمن كفر نعمته سحقا. فان قلت فقد وصفت الروح ومثلته ورسول الله ﷺ «سئل عن الروح فلم يزد عن أن قال - قل الروح من أمر ربي-» (١) فلم يصفه لهم على هذا الوجه . فاعلم أن هذه غفلة عن الاشتراك الواقع في لفظ الروح فان الروح يطلق لمعان كثيرة لانطول بذكرها ونحن إنما وصفنا من جعلها جماً لطيفاً تسميه الأطباء روحاً وقد عرفوا صفته ووجوده وكيفية سريانه في الأعضاء وكيفية حصول الإحساس والقوى في الأعضاء به حتى إذا خدر بعض الأعضاء علموا أن ذلك لوقوع سدة في مجرى هذا الروح فلا يما لجون موضع الخدر بل منابت الأعصاب ومواقع السدة فيها ويما لجونها بما يفتح السدة فان هذا الجسم بلطفه ينفذ في شبك العصب وبواسطته يتأذى من القلب إلى سائر الأعضاء وما يرتقى إليه معرفة الأطباء فأمره سهل نازل . وأما الروح التي هي الأصل وهي التي إذا فسدت فسد لها سائر البدن فذلك سر من أسرار الله تعالى لم نصفه ولا رخصة في وصفه إلا بأن يقال هو أمر رباني كما قال تعالى - قل الروح من أمر ربي - والأمور الربانية لا تحتمل العقول وصفها بل تحجب فيها عقول أكثر الخلق وأما الأوهام والخيالات فقاصرة عنها بالضرورة قصور البصر عن إدراك الأصوات وتنازل في ذكر مبادئ وصفها معاد العقول القيدة بالجواهر والعرض المحبوسة في منسقيها فلا يدرك بالعقل شيء من وصفه بل ينور آخر أظلي وأشرف من العقل يشرق ذلك النور في عالم النبوة والولاية فنسبه إلى العقل نسبة العقل إلى الوهم والخيال وتد خالق الله تعالى الخلق أطواراً فكما يدرك الصبي المحسوسات ولا يدرك العقولات لأن ذلك طور لم يبلغه بعد فكذلك يدرك البالغ العقولات ولا يدرك ما وراءها لأن ذلك طور لم يبلغه بعد

كان من الحق يتبرهن  
بطريق الشيخ وإن  
كان ينزع واقته إلى  
كمون هوى النفس  
تزلزل وتبرأ ساحة  
للريد وتعمل الشيخ  
تقل ذلك لقوة حاله  
وحمة إيوانه إلى جناب  
الحق وكال معرفته  
ومن الأدب مع الشيخ  
أن للريد إذا كان له  
كلام مع الشيخ في شيء  
من أمر دينه أو أمر  
دنياه لا يستعجل  
بالإقدام على مكالمته  
الشيخ والمهجوم عليه  
حتى يتبين له من حال  
الشيخ أنه مستعد له  
ولساع كلامه وقوله  
متفرغ فكما أن للدعاء  
أوقاتها وأدائها وشروطها  
لأنه مخاطبة الله تعالى

(١) حديث أنه سئل عن الروح فلم يزد على أن قال الروح من أمر ربي متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم في شرح عجائب القلب .

وإنه لقام شريف ومشرب عذب ورتبة عالية فيها يلحظ جناب الحق بنور الإيمان واليقين وذلك للشرب أعز من أن يكون شريعة لسلك وارد بل لا يطلع عليه إلا واحد بعد واحد ولبواب الحق صدر وفي مقدمة الصدر مجال وميدان رحب وطى أول اللبدان عتبة هي مستقر ذلك الأمر الرباني فمن لم يكن له على هذه العتبة جواز ولا لحافظ العتبة مشاهدة لمستحال أن يصل اللبدان فكيف بالاتباء إلى ماوراءه من للشاهدات العالية ولذلك قيل من لم يعرف نفسه لم يعرف ربها وتأتى بصاف هذا في خزنة الأطباء ومن أين للطبيب أن يلاحظ بل للنبي للسمي روحا عند الطبيب بالإضافة إلى هذا الأمر الرباني كالكرة التي يحركها صولجان لللك بالإضافة إلى لللك فمن عرف الروح الطبي فظن أنه أدرك الأمر الرباني كان كمن رأى الكرة التي يحركها صولجان لللك فظن أنه رأى لللك ولا يشك في أن خطأه فاحش وهذا الخطأ أغشى منه جدا ولما كانت العقول التي بها يحصل التكليف وبها تدرك مصالح الدنيا عقولا قاصرة عن ملاحظة كنه هذا الأمر لم يأذن الله تعالى لرسوله صلى الله عليه وسلم أن يتحدث عنه بل أمره أن يكلم الناس على قدر عقولهم ولم يذكر الله تعالى في كتابه من حقيقة هذا الأمر شيئا ولكن ذكر نسبته وتوفقه ولم يذكر ذاته أما نسبته ففي قوله تعالى - من أمر ربى - وأما فله فقد ذكر في قوله تعالى - يأتينا النفس للطمشة ارجى إلى ربك راضية مرضية فادخلني في عبادى وادخلني جنى - ولترجع الآن إلى الترض فان للتعود ذكر نعم الله تعالى في الأكل فقد ذكرنا بعض نعم الله تعالى في آلات الأكل .

( الطرف الرابع : في نعم الله تعالى في الأصول التي يحصل منها الأطعمة )

وتصير صالحة لأن يصلحها الأدنى بعد ذلك جنته )

اعلم أن الأطعمة كثيرة والله تعالى في خلقها عجائب كثيرة لأغصى وأسباب موائمة لا تنتهى وذكر ذلك في كل طعام مما يطول فان الأطعمة إما أدوية وإما فواكه وإما أغذية فلنأخذ الأغذية فانها الأصل ولنأخذ من جعلتها حبة من البر ولنضع سائر الأغذية فتقول : إذا وجدت حبة أو حبات فلو أكلتها قويت وبعيت جائعا فما أحوجك إلى أن تنمو الحبة في نفسها وتزيد وتتضاعف حتى تنقى بتمام حاجتك فخلق الله تعالى في حبة الحنطة من القوى ما يشتد به كما خلق فيك فان النبات إنما يشارك في الحس والحركة ولا يخالقك في الاعتناء لأنه يشتد بالماء ويمتدب إلى باطنه بواسطة الفروق كما تشتد أنت وتمتدب ولنا نطلب في ذكر آلات النبات في اجتذاب الغذاء إلى نفسه ولكن نشر إلى غذائه . فتقول : كما أن الحطب والتراب لا يذيقك بل تحتاج إلى طعام مخصوص فكذلك الحبة لا تشتد بكل شيء بل تحتاج إلى شيء مخصوص بدليل أنك لو تركتها في البيت لم تزد لأنه ليس يحيط بها إلا هواء ومجرد الهواء لا يصلح لغذائها ولو تركتها في الماء لم تزد ولو تركتها في أرض لا ماء فيها لم تزد بل لابد من أرض فيها ماء يمتزج مائها بالأرض فيصير طينا وإليه الإشارة بقوله تعالى - فلينظر الإنسان إلى طعامه أنا صبينا للماء صبا ثم شققنا الأرض شقا فأنبتنا فيها حبا وعبا وفضا وزيونا ونخللا - ثم لا يكفي للماء والتراب إذ لو تركت في أرض ندية صلبة مترا كسمة لم تنبت لفقد الهواء فيحتاج إلى تركها في أرض رخوة متخلقة يتغلغل الهواء إليها ثم الهواء لا يتحرك إليها بنفسه فيحتاج إلى ريح تحرك الهواء وتضربه بجهر وعنف على الأرض حتى ينفذ فيها وإليه الإشارة بقوله تعالى - وأرسلنا الرياح لواقح - وإنما إلحاقها في إيقاع الازدواج بين الهواء والماء والأرض ثم كل ذلك لا يفيك لو كان في برد مفرط وشتاء شات فحتاج إلى حرارة الريح والصيف قد بان احتياج غذائه إلى هذه الأربعة فانظر إلى ماذا يحتاج كل واحد إذ يحتاج للماء لينسق

فلقول مع الشيخ أيضا  
آداب وشروط لأنتم  
معاملة الله تعالى ويسأل  
الله تعالى قبل الكلام  
مع الشيخ التوفيق  
لما يجب من الأدب  
وقد نبه الحق سبحانه  
وتعالى على ذلك فبأمر  
به أصحاب رسول الله  
صلى الله عليه وسلم في  
مخاطبته فقال - يا أيها  
الذين آمنوا إذا ناجيتكم  
الرسول قدموا بين  
يدي نجواكم صدقة -  
يعنى أمام مناجاتكم  
قال عبد الله بن عباس  
سأل الناس رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
فأكثروا حتى شقوا  
عليه وأخفوه بالمسئلة  
فأدبهم الله تعالى  
وفطمهم عن ذلك

إلى أرض الزراعة من البحار والعيون والأنهار والسواقي فانظر كيف خلق الله البحار والجبال والعيون وأجرى منها الأنهار ثم الأرض ربما تكون مرطبة والياء لا ترضع إليها فانظر كيف خلق الله تعالى العيون وكيف سلط الرياح عليها لتسوقها باذنه إلى أقطار الأرض وهي سحب تعال حوامل بالماء ثم انظر كيف يرسله مدارا على الأرض في وقت الربيع والخريف على حسب الحاجة وانظر كيف خلق الجبال حافظة للمياه تنفجر منها العيون تدريها فلو خرجت دفعة لفرقت البلاد وهلك الزرع وللواشي ونعم الله في الجبال والسحاب والبحار والأمطار لا يمكن إحصاؤها وأما الحرارة فأنها لا تحصل بين الماء والأرض وكلاهما باردان فانظر كيف سخّر الشمس وكيف خلقها مع جدها عن الأرض مسخنة للأرض في وقت دون وقت ليحصل البرد عند الحاجة إلى البرد والحر عند الحاجة إلى الحر فهذه إحدى حكم الشمس والحكم فيها أكثر من أن تحصى ثم النبات إذا ارتفع عن الأرض كان في الفواكه انقصاد وصلابة فتفتقر إلى رطوبة تنضجها فانظر كيف خلق القمر وجعل من خاصيته الترطيب كما جعل من خاصة الشمس التسخين فهو ينضج الفواكه ويصنعها بتقدير الفاطر الحكيم ولذلك لو كانت الأشجار في ظل يمنع شروق الشمس والقمر وسائر الكواكب عليها لكانت فاسدة ناقصة حتى إن الشجرة الصغيرة تفسد إذا ظللتها شجرة كبيرة وتعرف ترطيب القمر بأن تكشف رأسك له بالليل فتخلب على رأسك الرطوبة التي يصر عنها بالزكام فكما يرطب رأسك يرطب القفا كهيئة أيضا ولا تطول فيها لا مطمح في استقصائه بل تقول كل كوكب في السماء قد سخر لنوع فائدة كما سخرت الشمس للتسخين والقمر للترطيب فلا يغلو واحد منهما عن حكم كثيرة لا تنفي قوة البشر بأحصائها ولم يكن كذلك لكان خلقها عبثا وباطلا ولم يصح قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقوله عز وجل - وما خلقتنا السموات والأرض وما بينهما إلا عبثا - وكما أنه ليس في أعضاء بدنك عضوا لا فائدة فليس في أعضاء بدن العالم عضو إلا لفائدة والعالم كله كشخص واحد وأحد أجسامه كالأعضاء له وهي متعاونة تعاون أعضاء بدنك في جملة بدنك وشرح ذلك يطول ولا ينبغي أن تظن أن الإيمان بأن النجوم والشمس والقمر مسخرات بأمر الله سبحانه في أمور جعلت أسبابا لها بحكم الحكمة يخالف للشرع لما ورد فيه من النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم (١) بل المنهى عنه في النجوم أمران : أحدهما أن تصدق بأنها فاعلة لآثارها مستقلة بها وأنها ليست مسخرة تحت تدبير مدبر خلقها وقهرها وهذا كفر . والثاني تصديق النجميين في تفصيل ما يخبرون عنه من الآثار التي لا يشترك كافة الخلق في دركها لأنهم يقولون ذلك عن جهل فان علم أحكام النجوم كان معجزة لبعض الأنبياء عليهم السلام ثم اندرس ذلك العلم فلم يبق إلا ما هو مختلط لا يتم فيه الصواب عن الخطأ فاعتقاد كون الكواكب أسبابا لآثار تحصل بخلق الله تعالى في الأرض وفي النبات وفي الحيوان ليس قادحا في الدين بل هو حق وليكن دعوى العلم بتلك الآثار على التفصيل مع الجهل قاذح في الدين ولذلك إذا كان ممكنا ثوب غسلته وتريد تخفيفه فقال لك غيرك أخرج الثوب وابسطه فان الشمس قد طلعت وحمى النهار والهواء لا يلزمك تكذيبه ولا يلزمك الإنكار عليه بحوائثه حمى

وأمرهم أن لا يتأجوه حتى يقدموا صدقة وقيل كان الأغنياء يأتون النبي عليه السلام ويطلبون الفقراء على المجلس حتى كره النبي عليه السلام طول حديثهم ومناجاتهم فأمر الله تعالى بالصدقة عند اللناجة فلما رأوا ذلك اتهموا عن مناجاته فأما أهل العسرة فلا هم لم يجدوا شيئا وأسأهل اليسرة فبخلوا ومنعوا فاشتد ذلك على أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ونزلت الرخصة وقال تعالى - آشفتم أن تقدموا بين يدي نجواكم صدقات - وقيل لما أمر الله تعالى بالصدقة

(١) حديث النهي عن تصديق النجميين وعن علم النجوم أبو داود وابن ماجه بسند صحيح من حديث ابن عباس من اقتبس علما من النجوم اقتبس شعبة من السحر زاد ما زاد ولا يطرباني من حديث ابن مسعود وثوبان إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإسنادها ضعيف وقد تقدم في العلم ولمسلم من حديث معاوية بن الحكم السلمي قال قلت يا رسول الله أمورا كنا نصنعها في الجاهلية كنا نأتى السكبان قال فلا تأتوا السكبان الحديث .

الهواء على طلوع الشمس وإذا سألت عن تمييز وجه الانسان قال قرعتي الشمس في الطريق فاسود وجهي لم يلزمك تكذيبه بذلك وقس بهذا سائر الآثار إلا أن الآثار بعضها معلوم وبعضها مجهول فالجهول لا يجوز دعوى العلم فيه والمعلوم بضه معلوم للناس كافة كحصول الضياء والحرارة بطلوع الشمس وبضه لبعض الناس كحصول الزكام بسروق القمر فاذا ان الكواكب ما خلقت عبثا بل فيها حكم كثيرة لا تحصى ولهذا نظر رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى السماء وقرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه قتنا عذاب النار - ثم قال صلى الله عليه وسلم : ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته <sup>(١)</sup> ومضاه أن يقرأ ويترك التأمل ويقتصر من فهم ملكوت السموات على أن يعرف لون السماء وضوء الكواكب وذلك مما تعرفه البهائم أيضا فمن تقع منه بمعرفة ذلك فهو القبيح مسح بها سبته لله تعالى في ملكوت السموات والآفاق والأقنص والحيوانات عجائب يطلب معرفتها المحبون لله تعالى فإن من أحب عالما فلا يزال مشغولا بطلب تصانيفه ليزداد بمزيد الوقوف على عجائب علمه جباله فكذلك الأمر في عجائب صنع الله تعالى فإن العالم كله من تصنيفه وتصنيف الصنفين من تصنيفه الذي صنعه بواسطة قلوب عباده فإن تعجبت من تصنيفه فلا تصعب من الصنف بل من الذي سخر الصنف لتصنيفه بما أنعم عليه من هدايته وتسيديته وتعميقه كما إذا رأيت لعب للشعوز ترقص وتتحرك حركات موزونة متناسبة فلا تصعب من اللعب فاتها خرق بحركة لا متحركة ولكن تعجب من حذق الشعوز المحرك لها بروابط دقيقة خفية عن الأبصار فاذا ان القصد أن غذاء النبات لا يتم إلا بالأماء والهواء والشمس والقمر والكواكب ولا يتم ذلك إلا بالأفلاك التي هي مركوزة فيها ولا يتم الأفلاك إلا بحركاتها ولا يتم حركاتها إلا بعلائكة سبوية يحركونها وكذلك يتبادى ذلك إلى أسباب بعيدة تركنا ذكرها تبيينا بما ذكرناه على ما مهملناه ولنقتصر على هذا من ذكر أسباب غذاء النبات .

### ( الطرف الخامس : في نعم الله تعالى في الأسباب للوصول للأطعمة إليك )

اعلم أن هذه الأطعمة كلها لا توجد في كل مكان بل لها شروط مخصوصة لأجلها توجد في بعض الأماكن دون بعض والناس منتشرون على وجه الأرض وقد تبعدهم عنهم الأطعمة ويحول بينهم وبينها البحار والبراري فانظر كيف سخر الله تعالى البحار وسلط عليهم حرص حب الدال وشهوة الرغب مع أنهم لا يفهمون في غالب الأمر شيء بل يجمعون فيما أن تخرق بها السفن أو تنهبها قطاع الطريق أو يعمتوا في بعض البلاد فيأخذها السلاطين وأحسن أحوالهم أن يأخذها ورتبهم وهم أشد أعدائهم لو عرفوا ، فانظر كيف سلط الله الجبل والقفلة عليهم حتى يقاسوا الشدائد في طلب الرغب ويركبوا الأخطار ويغرروا بالأرواح في ركوب البحر فيحملون الأطعمة وأنواع الحوائج من أقصى الشرق والغرب إليك وانظر كيف علمهم الله تعالى صناعة السفن وكيفية الركوب فيها وانظر كيف خلق الحيوانات وسخرها للركوب والجل في البراري وانظر إلى الأبل كيف خلقت وإلى القرس كيف أمدت بسرعة الحركة وإلى الحمار كيف جعل صبورا على التعب وإلى الجمال كيف تقطع البراري وتطوى للراحل تحت الأعباء الثقيلة على الجوع والعطش وانظر كيف سيرهم الله تعالى بواسطة السفن والحيوانات في البر والبحر ليحملوا إليك الأطعمة وسائر الحوائج وتأمل ما يحتاج

(١) حديث قرأ قوله تعالى - ربنا ما خلقت هذا باطلا سبحانه قتنا عذاب النار - ثم قال ويل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أي ترك تأملها التلبي من حديث ابن عباس بلقظ ولم يتفكر فيها وفيه أبو جنان يعنى بن أبي حبة ضعيف .

لم ينج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا على ابن أبي طالب قدس ديارا تصدق به وقال على في كتاب الله آية ما عمل بها أحد قبل ولا يعمل بها أحد بعدى وروى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لما نزلت الآية دعا عليا وقال ما ترى في الصدقة كم تكون دينار قال على لا يطبقونه قال كم قال على تكون حبة أو شعيرة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم إنك لو هيد ثم نزلت الرخصة ونسخت الآية ومأنه الحق عليه بالأمر بالصدق ومافيه من حسن الأدب وتفييد اللفظ والاحترام

إليه الحيوانات من أسنانها وأدواتها وعلفها وما يحتاج إليه السفن قد خلق الله تعالى جميع ذلك إلى حد الحاجة وفوق الحاجة وإحصاء ذلك غير ممكن ويتمادى ذلك إلى أمور خارجة عن الحصر نرى تركها طلباً للإيجاز .

### ( الطرف السادس : في إصلاح الأطعمة )

اعلم أن الذي يثبت في الأرض من النبات وما يخلق من الحيوانات لا يمكن أن يضم ويؤكل وهو كذلك بل لابد في كل واحد من إصلاح وطبخ وتركيب وتنظيف بإلقاء البعض وإبقاء البعض إلى أمور آخر لا تحصى واستقصاء ذلك في كل طعام يطول فلتعين رغيفاً واحداً ولتنظر إلى ما يحتاج إليه الرغيف الواحد حتى يستدير ويصلح للأكل من بد إلقاء البذر في الأرض فأول ما يحتاج إليه الحراث ليزرع ويصلح الأرض ثم الثور الذي يثير الأرض والقدان وجميع أسباغهم بعد ذلك التمهيد بسقي الماء مدة ثم تنقية الأرض من الحشيش ثم الحصاد ثم القربك والتنقية ثم الطحن ثم العجن ثم الخبز فتأمل عدد هذه الأفعال التي ذكرناها وما لم نذكره وعدد الأشخاص القائمين بها وعدد الآلات التي تحتاج إليها من الحديد والخشب والحجر وغيره وانظر إلى أعمال الصانع في إصلاح آلات الحراثة والطحن والخبز من نجار وحداد وغيرها وانظر إلى حاجة الحداد إلى الحديد والرماس والنحاس وانظر كيف خلق الله تعالى الجبال والأحجار والعادن وكيف جعل الأرض قطعاً متجاورات مختلفة ، فإن فقتت علت أن رغيفاً واحداً لا يستدير بحيث يصلح لأكله يمسكين ما لم يعمل عليه أكثر من ألف صانع فابتدى من الملك الذي يزجي السحاب لينزل الماء إلى آخر الأعمال من جهة اللاتسكة حتى تنتهي التوبة إلى عمل الإنسان ، فإذا استدار طلبه قريب من سبعة آلاف صانع كل صانع أصل من أصول الصنائع التي بها تتم مصلحة الخلق ، ثم تأمل كثرة أعمال الإنسان في تلك الآلات حتى إن الآلة التي هي آلة صغيرة فائدتها خياطة اللباس الذي ينع البرد عنك لا تسكل صورتها من حديد تصليح الآلة إلا بعد أن يمر على يد الأبرى خمسا وعشرين مرة ويتماطى في كل مرة منها عملاً ، فلو لم يجمع الله تعالى البلاد ولم يسخر العباد واقتضت إلى عمل للتجمل الذي تعمد به البرملا بعد نباته لفقد عمره ومجزت عنه . أفلا ترى كيف هدى الله عبده الذي خلقه من نطفة فطرة لأن يعمل هذه الأعمال العجيبة والصنائع القريه فانظر إلى القراض مثلاً وما جلمان متطابقان ينطبق أحدهما على الآخر في تناولان الشيء معاً ويقطعانه بسرعة ولولم يكشف الله تعالى طريق اتخاذ فضله وكرمه لمن قبلنا واقتصرنا إلى استنباط الطريق فيه فكبرنا ثم إلى استخراج الحديد من الحجر وإلى تحصيل الآلات التي بها يعمل القراض وعمر الواحد منا عمر نوح وأوئى أكل العقول قصر عمره عن استنباط الطريق في إصلاح هذه الآلة وحدها فضلاً عن غيرها ، فسبحان من ألحق ذوى الأبصار بالعميان وسبحان من منع التبيين مع هذا البيان . فانظر الآن لو خلا بلدك عن الطحان مثلاً أو عن الحداد أو عن الحجام الذي هو أخس العمال أو عن الخائف أو عن واحد من جملة الصنائع ماذا يصيبك من الأذى وكيف تضطرب عليك أمورك كلها ، فسبحان من سخر بعض العباد لبعض حتى تهذب به مشيته وتمت به حكته . ولنو جز القول في هذه الطبقة أيضاً فإن القرض التنبه على النعم دون الاستقصاء .

### ( الطرف السابع : في إصلاح الصالحين )

اعلم أن هؤلاء الصالحين للأطعمة وغيرها لو تفرقت آراؤهم وتنافرت طبائعهم تنافر طباع الوحش فبددوا وتباعدوا ولم ينتفع بعضهم ببعض بل كانوا كالوحوش لا يجوبهم مكان واحد ولا يجمعهم فرض واحد ، فانظر كيف ألهم الله تعالى بين قلوبهم وسلطان الأنس والمحبة عليهم لو أخفت ما في الأرض جميعاً

مانسح ، والقائدة  
باقية . أخبرنا الشيخ  
الثقة أبو الفتح محمد  
ابن سلمان قال أنا  
أبو الفضل أحمد قال  
أنا الحافظ أبو نعيم  
قال حدثنا سليمان  
ابن أحمد قال حدثنا  
مطلب بن شعيب قال  
حدثنا عبد الله بن صالح  
قال ثنا ابن لهيعة  
عن أبي قبيل عن  
عبادة بن الصامت قال  
سمعت رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
يقول « ليس منا من  
لم يعمل كبيراً وبرحم  
صغيراً ويعرف لعائلنا  
حقه » فاحترام العلماء  
توفيق وهداية وإمهال  
ذلك خذلان وعقوق .



ما ألقت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - فلاجل الإلف وتعارف الأرواح اجتمعوا واتلفوا وابتدوا  
المدن والبلاد وربوا الساكن والدور متقاربة متجاورة وربوا الأسواق والخانات وسائر أصناف البقاع  
مما يطول إحصاؤه ثم هذه المحبة تزول بأغراض يترامحون عليها ويتنافسون فيها في جبل الإنسان النيط  
والحسد والثأفة وذلك مما يؤدي إلى التقاتل والتنافر فانظر كيف سلط الله تعالى السلاطين وأمدهم  
بالقوة والمدة والأسباب وألقى رعيهم في قلوب الرعايا حتى أذعنوا لهم طوعا وكرها وكيف هدى السلاطين  
إلى طريق إصلاح البلاد حتى ربوا أجزاء البلد كأنها أجزاء شخص واحد تعاون على غرض واحد ينتفع  
البعض منها ببعض فربوا الرؤساء والقضاة والسجن وزعماء الأسواق واضطروا الخلق إلى قانون  
العدل وألزمهم التساعد والتعاون حتى صار الحداد ينتفع بالصب والحجاز وسائر أهل البلد وكلهم ينتفعون  
بالحداد وصار الحجام ينتفع بالحراث والحراث بالحجام وينتفع كل واحد بكل واحد بسبب ترتيبهم واجتماعهم  
واضباطهم تحت ترتيب السلطان وجمعه كما يتعاون جميع أعضاء البدن وينتفع بعضها ببعض وانظر  
كيف بعث الأنبياء عليهم السلام حتى أسلحو السلاطين الصالحين للرعايا وعرفهم قوانين الشرع في حفظ  
العدل بين الخلق وقوانين السياسة في ضبطهم وكشفوا من أحكام الإمامة والسلطنة وأحكام الفقه ما اهتموا  
به إلى إصلاح الدنيا فضلا عما أرشدوهم إليه من إصلاح الدين وانظر كيف أصلح الله تعالى الأنبياء باللائكة  
وكيف أصلح اللائكة بعضهم بعضا إلى أن ينتهي إلى الملك المقرب الذي لا واسطة بينه وبين الله تعالى  
فالحجاز يغبر السجين والطحان يصلح الحب بالطحن والحراث يصلحه بالحصاد والحداد يصلح آلات  
الحراثة والتجار يصلح آلات الحداد وكذا جميع أرباب الصناعات الصالحين لآلات الأطعمة والسلطان  
يصلح الصناع والأنبياء يصلحون العلماء الذين هم ورثتهم والعلماء يصلحون السلاطين ولللائكة يصلحون  
الأنبياء إلى أن ينتهي إلى حضرة الربوبية التي هي ينبوع كل نظام ومطلع كل حسن وجمال ومنشأ  
كل ترتيب وتأليف وكل ذلك نعم من رب الأرباب ومسبب الأسباب ولولا فضله وكرمه إذ قال تعالى  
- والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبيلا - لما اهتدينا إلى معرفة هذه النبذة البسيرة من نعم الله تعالى ولولا  
عزله إيانا عن أن نطعم بعين الطمع إلى الاحاطة بكنهه نعمه لتشوقنا إلى طلب الإحاطة والاستقصاء ولكنه  
تعالى عز لنا بحكم القهر والقدرة فقال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - فان تكلمنا بآياته انبسطنا  
وان سكنا فقهره اقتضاه إذ لا مطلق لما منع ولا مانع لما أعطى لأننا في كل لحظة من لحظات  
العصر قبل الموت نسمع بنغم القلوب نداء الملك الجبار - لمن الملك اليوم لله الواحد القهار - فالحمد  
له الذي ميزنا عن الكفار وأمعنا هذا النداء قبل انقضاء الأعمار .

( الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق اللائكة عليهم السلام )

ليس يخفى عليك ما سبق من نعمة الله في خلق اللائكة بإصلاح الأنبياء عليهم السلام وهذا بهم وتبليغ  
الوحي إليهم ولا تظن أنهم مقتصرون في أفعالهم على ذلك القدر بل طبقات اللائكة مع كثرتها وترتيب مراتبها  
تنحصر بالجملة في ثلاث طبقات: اللائكة الأرضية والسماوية وحملتهم العرش. فانظر كيف وكلهم الله تعالى بك  
فيما يرجع إلى الأكل والنفاء الذي ذكرناه دون ما يحاوز ذلك من الهداية والارشاد وغيرهما. واعلم أن كل  
جزء من أجزاء بدنك بل من أجزاء النبات لا يفتدى إلا بأن يوكل بمسئلة من اللائكة هو أفعاله إلى عشرة  
إلى مائة إلى ما وراء ذلك ويأمنه أن معنى الغذاء أن يقوم جزء من الغذاء مقام جزء وقد تلف ذلك الغذاء يصير  
دما في آخر الأمر ثم يصير لحما وعظما وإذا صار لحما وعظما ثم اغتذاؤا لولم والدم والحم أجسام ليس لها قدرة  
ومعرفة واختيار فهي لا تتحرك بأنفسها ولا تتغير بأنفسها ومجرد الطبع لا يكفي في تردها في أطوارها كما  
أن البر بنفسه لا يصير طحيناً ثم عجينا ثم خبزا مستديرا عجوزا إلا بصناع فكذلك الدم بنفسه لا يصير لحما

[ الباب الثاني والحمدون  
في آداب الشيخ وما  
يعتمده مع أصحاب  
والتلامذة ]

أم الآداب : أن  
لا تعرض الصادق  
للتقدم على قوم ولا  
تعرض لاستجلاب  
بواطنهم بلطف الرفق  
وحسن الكلام بحجة  
للاستبصار فإذا رأى  
أن الله تعالى يبعث  
إليه المرشدين  
والمرشدين بحسن  
الظن وصدق الإرادة  
يعذر أن يكون ذلك  
ابتلاء وامتحانا من  
الله تعالى والنفوس  
عجولة على حجة إقبال  
الخلق والشهرة وفي  
الحجون السلامة فإذا بلغ  
الكتاب أجله وتمكن

وعظما وعروقا وعصبا إلا بصناع والصناع في الباطن هم الملائكة كما أن الصناع في الظاهر هم أهل البلد وقد أسبغ الله تعالى عليك نعمه ظاهرة وباطنة فلا ينبغي أن تنفل عن نعمه الباطنة . فأقول لا بد من ملك يجذب الغذاء إلى جوار اللحم والعظم فإن الغذاء لا يتحرك بنفسه ولا بد من ملك آخر يمسك الغذاء في جواره ولا بد من ثالث يخلع عنه صورة الدم ولا بد من رابع يكسوه صورة اللحم والعروق أو العظم ولا بد من خامس يدفع الفضل الفاضل عن حاجة الغذاء ولا بد من سادس يلصق ما اكتسب صفة العظم بالعظم وما اكتسب صفة اللحم باللحم حتى لا يكون منفصلا ولا بد من سابع يرعى التقادير في الإلصاق فيلحق بالمستدير مالا يبطل استدارته وبالعرضي مالا يزيل عرضه وبالمجوف مالا يبطل تجويفه ويحفظ على كل واحد قدر حاجته فانه لو جمع مثلا من الغذاء على أنف الصبي ما يجمع على غفده لكبر أنفه ويبطل تجويفه وتشوهت صورته وخلقتة بل ينبغي أن يسوق إلى الأجفان مع رقتها وإلى الحديقة مع صفاتها وإلى الأغاذا مع غلظها وإلى العظم مع صلابته ما يلحق بكل واحد منها من حيث القدر والشكل وإلا بطلت الصورة وربما بعض المواضع وضعف بعض المواضع بل لو لم يرع هذا الملك العدل في القسمة والتقسيم فساق إلى رأس الصبي وسائر بدنه من الغذاء ما ينحوبه إلا إحدى الرجاين مثلا لبقيت تلك الرجل كما كانت في حد الصغر وكبر جميع البدن فكنت ترى شخصا في ضخامة رجل وله رجل واحدة كأنها رجل صبي فلا ينتفع بنفسه البتة فمرعاة هذه الهندسة في هذه القسمة مفوضة إلى ملك من الملائكة ولا تظن أن الدم بطبعه يهندس شكل نفسه فان محيل هذه الأمور على الطبع جاهل لا يدري ما يقول فهذه هي الملائكة الأرضية وقد شغلوا بك وأنت في النوم تستريح وفي الغفلة تتردد وهم يصلحون الغذاء في باطنك ولا خير لك منهم وذلك في كل جزء من أجزائك الذي لا يتجزأ حتى يختل بعض الأجزاء كالعين والقلب إلى أكثر من مائة ملك تركنا تفضيل ذلك للإيجاز والملائكة الأرضية مدد من الملائكة السماوية على ترتيب معلوم لا يحيط بكنهه إلا الله تعالى ومدد الملائكة السماوية من حملة العرش والنعم على جملتهم بالتأييد والهداية والتسديد المهيم القدوس المنفرد بالملك والملكوت والعرزة والجبروت جبار السموات والأرض مالك الملك ذو الجلال والإكرام والأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرض وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب (١) أكثر من أن تحصى فلذلك تركنا الاستشهاد به . فان قلت فهلا فوضت هذه

العبد من حاله وعلم بتعريف الله إياه أنه مراد بالارشاد والتعليم للمريد في فكهم حيث كلام الناصح المشفق الوالد لولده بما ينفعه في دينه ودنياه وكل مرید ومسترشد ساقه الله تعالى إليه راجع الله تعالى في معناه ويكثر الاجأ إليه أن يتولاه فيه وفي القول معه ولا يتكلم مع المرید بالكلمة إلا وقلبه ناظر إلى الله مستعين به في الهداية للصواب من القول سمعت شيخنا بالنجيب السهر وردي رحمه الله يوصي بعض أصحابه ويقول لا تكلم أحدا من الفقراء إلا في أصنى

(١) حديث الأخبار الواردة في الملائكة الموكلين بالسموات والأرضين وأجزاء النبات والحيوانات حتى كل قطرة من المطر وكل سحب ينجز من جانب إلى جانب انتهى . ففي الصحيحين من حديث أبي ذر في قصة الاسراء قال جبريل لحازن السماء الدنيا اتضح وفيه حتى أتى السماء الثانية فقال لحازنها اتضح الحديث ولهما من حديث أبي هريرة إن لله ملائكة سياحين يبلغون عن أمقي السلام وفي الصحيحين من حديث عائشة في قصة عرضه نفسه على عبد ياليل فناداني ملك الجبال إن شئت أن أطبق عليهم الأخشبين الحديث ولهما من حديث أنس إن الله وكل بالرحم ملكا الحديث وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث بريدة الأسلمي ما من نبت نبت إلا ونحته ملك موكل حتى يحصد الحديث وفيه محمد بن صالح الطبري وأبو عمر البكر الأروى واسمه عثمان بن عبد الرحمن وكلاهما ضيف ولطبراني من حديث أبي الدرداء بسند ضعيف إن لله ملائكة ينزلون في كل ليلة يحسون الكلال عن دواب الغزاة إلا دابة في عنقها جرس والترمذي وحسنه من حديث ابن عباس قالت اليهوديا بالقاسم أخبرنا عن الرعد قال ملك من الملائكة موكل بالسحاب ولمس من حديث أبي هريرة بينا رجل بفلاة من الأرض سمع صوتا من سحابة اسق حديقة فلان فتتحنى ذلك السحاب فأفرغ مائه في حرة الحديث.

الأفضل إلى ملك واحد ولم أفتر إلى سبعة أملاك والحنطة أيضا تحتاج إلى من يطحن أولانهم إلى من يميز عنه النخالة ويدفع الفضلة ثانيا ، ثم إلى من يصب الباء عليه ثالثا ، ثم إلى من يعجن رابعا ، ثم إلى من يقطعه كرات مدورة خامسا ، ثم إلى من يرقها رغفانا عريضة سادسا ، ثم إلى من يصبها بالنور سابعا ولكن قد يتولى جميع ذلك رجل واحد يستقل به فهلا كانت أعمال الملائكة باطنا كأعمال الانس ظاهرا ؟ فاعلم أن خلقه الملائكة تخالف خلقه الانس وما من واحد منهم إلا وهو وحده في الصفة ليس فيه خلط وتركيب البتة فلا يكون لكل واحد منهم إلا فعل واحد ، وإليه الإشارة بقوله تعالى - وما لنا إلا له مقام معلوم - فذلك ليس بينهم تنافس وتقاتل بل مثلهم في تعيين مرتبة كل واحد منهم وفعله مثال الحواس الخمس فان البصر لا يزاحم السمع في إدراك الأصوات ولا الشم يزاحم الالهام في انزعاج الشم وليس كاليد والرجل فانك قد تبطن بأصابع الرجل بطشا ضعيفا قترأحم به اليد وقد تضرب غيرك برأسك قترأحم اليد التي هي آلة الضرب ولا كالانسان الواحد الذي يتولى بنفسه الطحن والعجن والحزب فان هذا نوع من الاعوجاج والعدول عن العدل - به اختلاف صفات الانسان واختلاف دواعيه فانه ليس وحده في الصفة فلم يكن وحده في الفعل ولذلك نرى الانسان يطيع الله مرة ويصيه أخرى لاختلاف دواعيه وصفاته وذلك غير ممكن في طباع الملائكة بل هم مجبولون على الطاعة لا مجال للمصيبة في حقهم فلا جرم لا يصون الله مأمورهم ويفعلون ما يؤمرون ويسعون الليل والنهار لا يفترون والراحم منهم راحا أبدا والساجد منهم ساجدا أبدا والقائم قائم أبدا لاختلاف في أفعالهم ولا فتور ولكل واحد مقام معلوم لا يتعداه وطاعتهم لله تعالى من حيث لا مجال للمخالفة فيهم يمكن أن تشبه بطاعة أطرافك لك ، فانك مهما جازمت الإرادة بفتح الأجفان لم يكن للجفن الصحيح تردد واختلاف في طاعتك مرة ومصيتك أخرى بل كأنه منتظر لأمرك ونهيك ينفذ وينطبق متصلا بإشارتك فهذا يشبه من وجهه ولكن يخالفه من وجه إذا الجفن لا علم له بما يصدر منه من الحركة فتعا وإطافا والملائكة أحياء عالمون بما يعملون فاذن هذه نعمة الله عليك في الملائكة الأرضية والسموية وحاجتك إليهما في غرض الأكل فقط دون ماعداها من الحركات والحاجات كلها فانا لم نطول بذكرها ، فهذه طبقة أخرى من طبقات النعم وبجامع الطبقات لا يمكن إحصاؤها فكيف أحاد ما يدخل تحت مجامع الطبقات ، فاذن قد أسبغ الله تعالى نعمه عليك ظاهرة وباطنة ثم قال - وذروا ظاهر الإثم وباطنه - فترك باطن الإثم مما لا يعرفه الخلق من الحسد وسوء الظن والبدة وإظهار الشر للناس إلى غير ذلك من آثام القلوب هو الشكر للنعم الباطنة وترك الإثم الظاهر بالجوارح شكر للنعم الظاهرة ، بل أقول كل من عصى الله تعالى ولو في تطريفة واحدة بأن فسخ جفنه مثلا حيث يجب غض البصر فقد كفر كل نعمة لله تعالى عليه في السموات والأرض وما بينهما فان كل ما خلقه الله تعالى حق للملائكة والسموات والأرض والحيوانات والنبات بحملته نعمة على كل واحد من العباد قدّم به انتفاعه وإن انتفع غيره أيضا به فان لله تعالى في كل تطريفة للجفن نعمتين في نفس الجفن إذ خلق تحت كل جفن عضلات ولها أوتار ورباطات متصلة بأعصاب الدماغ بها يتم انخفاض الجفن الأعلى وارتفاع الجفن الأسفل وعلى كل جفن شعور سود ونعمة الله تعالى في سوادها أنها تجمع ضوء العين إذا البياض يفرق الضوء والسواد يحمله ونعمة الله تعالى في ترتيبها صفا واحدا أن يكون ما ناله من الهواء من الدبيب إلى باطن العين ومتشبها للأقذاء التي تتناثر في الهواء وله في كل شعرة منها نعمتان من حيث لبن أصلها ومع العين توام نصبا وله في اشتباك الأهداب نعمة أعظم من الكل وهو أن غبار الهواء قد يمنع من فتح العين ولو طبق لم يصير فيجمع الأجفان مقدار ما تشبك الأهداب فينظر من وراء شبك الشعر فيكون شبك الشعر ما من وصول القذى من خارج وغير مانع من امتداد البصر من داخل ثم إن أصاب الحدقة غبار فقد خلق

أوقاتك ، وهذه وصية نافعة لأن الكحة تقع في سمع الرشد الصادق كالجبة تقع في الأرض وقد ذكرنا أن الجبة الفاسدة تهلك وتضيع وفساد جبة الكلام بالهوى وقطرة من الهوى تكدر بحرا من العلم فحذروا الكلام مع أهل الصدق والإرادة ينبغي أن يستمد القلب من الله تعالى كما يستمد اللسان من الجنان وكما أن يكون قلبه ترجان القلب الحق عند الصدد فيكون ناظرا إلى الله مصغيا إليه متلقيا ما يرد عليه مؤديا للأمانة فيه ثم ينبغي

أطراف الأجنان خادمة منطبقة على الحديقة كالمصقلة للرآة فيطبقها مرة أو مرتين وقد انصقلت الحديقة من التبار وخرجت الأقداء إلى زوايا العين والأجنان والقباب لما لم يكن لحديقة جفن خلق له يدين قراه على الدوام يسبح بها حديقته ليصقلها من التبار وإذا تركنا الاستقصاء لتفاصيل النعم لاقتضاه إلى تطويل يزيد على أصل هذا الكتاب ، ولطنا نناقشه كتاباً مصاديقه إن أمهل الزمان وساعد التوفيق نسميه بحجائب صنع الله تعالى ، فلنرجع إلى غرضنا فنقول : من نظر إلى غير محرم قد كفر بفتح العين نعمة الله تعالى في الأجنان ولا تقوم الأجنان إلا بالعين ولا الرأس ولا الرأس إلا بجميع البدن ولا البدن إلا بالبدن ولا الغذاء ولا الغذاء إلا بالآباء والأرض والهواء وللطير والنعم والشمس والقمر ولا يقوم شيء من ذلك إلا بالسماوات ولا السماوات إلا باللائكة فان الكل كائناً ما كان يرتبط البعض منه ببعض ارتباط أعضاء البدن بعضها ببعض فأن كفر كل نعمة في الوجود من منتهى التبر إلى منتهى الترى فلم يبق فلك ولا ملك ولا حيوان ولا نبات ولا جاد إلا وليته وذلك ورد في الأخبار أن البقعة التي يجتمع فيها الناس إما أن تلغى إذا تفرقوا أو تستغفر لهم <sup>(١)</sup> وكذلك ورد أن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت في البحر <sup>(٢)</sup> وأن اللائكة يلغون الصلاة <sup>(٣)</sup> في ألقاط كثيرة لا يمكن إحاطتها وكل ذلك إشارة إلى أن العاصي بتطرفة واحدة جنى على جميع مافي للكل ولللكوت وقد أهلك نفسه إلا أن يتبع السيئة بحسنة تمحوها فيقبل العن بالاستغفار ففى الله أن يتوب عليه ويتجاوز عنه وأوحى الله تعالى إلى أيوب عليه السلام : يا أيوب مامن عبد لى من الآدميين إلا ومعه ملكان فإذا شكرنى على نعمائى قال للكان اللهم زده نعماً على نعم فانك أهل الحمد والشكر فكن من الشاكرين قريباً فكفى بالشاكرين علو رتبة وعندى آى أشكر شكرهم وملائكتى يدعون لهم والبقاع تحبهم والآثار تنبكي عليهم ، وكما عرفت أن فى كل طرفة عين نعماً كثيرة فاعلم أن فى كل نفس ينسبط ونبض نمتين إذا نبساطه يخرج الدخان المحترق من القلب ولولم يخرج لهلك وباتقاضه يجمع روح الهواء إلى القلب ولو سدت متنفسه لاحترق قلبه باقطاع روح الهواء وبرودته عنه هلك بل اليوم واليلة أربع وعشرون ساعة وفى كل ساعة قريب من ألف نفس وكل نفس قريب من عشر لحظات فليكن فى كل لحظة آلاف آلاف نعمة فى كل جزء من أجزاء بدنك بل فى كل جزء من أجزاء العالم فانظر هل يتصور إحصاء ذلك أم لا ، ولما انكشف لموسى عليه السلام حقيقة قوله تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - قال إلهى كيف أشكرك ولك فى كل شعرة من جسدى نعمتان أن لبت أصلها وأن طمست رأسها وكذا ورد فى الأثر أن من لم يعرف نعم الله إلا فى مطعمه وشربه قد قتل علمه وخسر عذا به وجميع مآذكرناه يرجع إلى اللطم والشرب فاعتبر ماسواه من النعم به فان البصير لا تضيع عنه فى العالم على شيء ولا يلم خاطره بوجوده إلا ويتحقق أن لله فيه نعمة عليك فلترك الاستقصاء والتفصيل فانه طمع فى غير مطعم .

### ( بيان السبب الصارف للخلق عن الشكر )

اعلم أنه لم يقصر بالخلق عن شكر النعمة إلا الجبل والغلة فانهم لم ينعموا بالجبل والغلة عن معرفة النعم ولا يتصور شكر النعمة إلا بعد معرفتها ، ثم إنهم ان عرفوا نعمة ظنوا أن الشكر عليها أن يقول بلسانه الحمد لله الشكر لله ، ولم يعرفوا أن معنى الشكر أن يستعمل النعمة فى إتمام الحكمة التي أريدت بها وهى طاعة الله عز وجل فلا يمنع من الشكر بعد حصول هاتين المرتبتين إلا غلبة الشهوة

(١) حديث إن البقعة التي اجتمع فيها الناس تلغى أو تستغفر لهم لم أجده أصل (٢) حديث إن العالم يستغفر له كل شيء حتى الحوت فى البحر تخدم فى العلم (٣) حديث إن اللائكة يلغون الصلاة من حديث أبى هريرة اللائكة تلغى أحدهم إذا أشار إلى أخيه بحديثه وإن كان أخاه لأبيه وأمه.

الشيخ أن يعتبر حال الريدن ويفرس فيه بنور الإيعان وقوة العلم والمعرفة ما يتأتى منه ومن صلاحته واستعداده فمن الريدن من يصلح لتعبد المحض وأعمال القوالب وطريق الأبرار ومن الريدن من يكون مستعداً صالحاً لقرب وسلوك طريق القربين المرادين بحماية القلوب والعمالات السنية ولكل من الأبرار والقرين مبادون نهايات فيكون الشيخ صاحب الاشراف على البواطن يعرف كل شخص وما يصلح له والسبب أن الصراوى

واستلاء الشيطان . أما النعمة عن النعم فلها أسباب وأحد أسبابها أن الناس يجملهم لا يدون مايم  
الخلق وسلم لهم في جميع أحوالهم نعمة فذلك لا يشكرون على جبة ما ذكرناه من النعم لأنها عامة  
للخلق بمنولة لهم في جميع أحوالهم فلا يرى كل واحد لنفسه منهم اختصاصا به فلا يمد نعمة ولا  
ترام يشكرون الله على روح الهواء ولو أخذ بمختلفهم لحظة حتى انقطع الهواء عنهم ماتوا ولو حبسوا في  
بيت حمام فيه هواء حر أو في بر فيه هواء قتل برطوبة اللاء ماتوا غمما فان ابتلى واحد منهم شيء من  
ذلك ثم نجى ربحا قدر ذلك نعمة وشكرا لله عليها وهذا غاية الجهل إذ صار شكرهم موقوفا على أن تسلب  
عنهم النعمة ثم ترد عليهم في بعض الأحوال والنعمة في جميع الأحوال أولى بأن تشكر في بعضها فلا ترى  
البصير يشكر صحة بصره إلا أن تسمى عينه فتد ذلك لو أعيد عليه بصره أحس بمو شكره وعنده نعمة  
ولما كانت رحمة الله واسعة وعم الخلق وبذل لهم في جميع الأحوال فمده الجاهل نعمة وهذا الجاهل  
مثل البعد السوء حقه أن يضرب دائما حتى إذا ترك ضربه ساعة تقلد به متعافان ترك ضربه على الدوام  
غلبه البطرا وترك الشكر فصار الناس لا يشكرون إلا اللال الذي يتطرق الاختصاص إليهم من حيث  
السكرة والقلة وينسون جميع نعم الله تعالى عليهم كما شكوا بعضهم قمره إلى بعض أرباب البصائر وأظهر  
شدة اعتيابه به قال له أيسرك أنك أعمى ولك عشرة آلاف درهم قال لا قال أيسرك أنك أعمى  
ولك عشرة آلاف درهم قال لا قال أيسرك أنك أقطع الدين والرجلين ولك عشرة آلاف قال لا  
قال أيسرك أنك مجنون ولك عشرة آلاف درهم قال لا قاله أما تستحي أن تشكو مولاك وله  
عندك عروض بخمسين ألفا . وحكى أن بعض القراء اشتد به الفقر حتى ضاق به ذرعا فرأى في المنام  
كان قائلا يقول له تود أنا أنسيناك من القرآن سورة الأنعام وأن لك ألف دينار قال لا قال فسورة  
هود قال لا قال فسورة يوسف قال لا فمد عليه سورا ثم قال فمك قيمة مائة ألف دينار وأنت تشكو  
فأصبح وقد سرى عنه . ودخل ابن السكك على بعض الخلفاء ويده كوز ماء يشربه فقال له عظمي قال  
لو لم تعط هذه الثرية إلا ينزل جميع أموالك وإلا بقيت عطشان فهل كنت تعطيه قال نعم قال لو لم  
تعط إلا بملكك كله فهل كنت تركه قال نعم قال فلا تفرح بملكك لا يساوي شربة ماء فهذا تبين أن  
نعمه الله تعالى على البعد في شربة ماء عند العطش أعظم من ملك الأرض كلها وإذا كانت الطباع مائلة  
إلى اعتداد النعمة الخاصة نعمة دون العامة ، وقد ذكرنا النعم العامة فلنذكر إشارة وجيزة إلى النعم  
الخاصة فنقول ما من عبد إلا ولو آمن النظر في أحواله رأى من الله نعمة أو نعمة كثيرة تخصه لا يشاركه  
فيها الناس كافة بل يشاركه عدد يسير من الناس وربما لا يشاركه فيها أحد وذلك يحترف به كل عبد  
في ثلاثة أمور : في العقل والخلق والتم أما العقل فما من عبدة تعالى إلا وهو راض عن الله في عقله يعتقد  
أنه أعقل الناس وقل من يسأل الله العقل وإن من شرف العقل أن يفرح به الخالي عنه كما يفرح به  
للتصف به فإذا كان اعتقاده أنه أعقل الناس فواجب عليه أن يشكره لأنه إن كان كذلك فالشكر  
واجب عليه وإن لم يكن ولكنه يعتقد أنه كذلك فهو نعمة في حقه فمن وضع كثر أتعنت الأرض فهو  
يفرح به ويشكر عليه فإن أخذ الكثر من حيث لا يدري فيبقى فرحه بحسب اعتقاده وميق شكره لأنه  
في حقه كالباقي وأما الخلق فما من عبد إلا ويرى من غيره عيوباً يكرهها وأخلاقاً يدينها وأعمالاً يدينها من  
حيث يرى قبه بريئا عنها فإذا لم يشتغل ببنم الغير فيبني أن يشتغل بشكر الله تعالى إذ حسن خلقه  
وابتلى غيره بالخلق السيء ، وأما العلم فما من أحد إلا ويعرف من بوطن أمور تهو خبايا أفكاره  
ما هو متعبد به ولو كشف النطاء حتى اطلع عليه أحد من الخلق لا تضح فكيف لو اطلع الناس كافة  
فانذ لكل عبد غم بأمر خاص لا يشاركه فيه أحد من عباد الله فلم لا يشكر من الله الجليل الذي  
أرسله على وجه مبالو به فأظهر الجليل وستر القبيح وأخفى ذلك عن أعين الناس وخصص علمه به

سلم الأرض والسموات  
وسلم كل غرس وأرضه  
وكل صاحب صنعة يعلم  
منافع صنعه ومضارها  
حتى للراة تعلم قتلها  
وما يتأتى منه من الفزع  
ودقته وغلظه ولا يعلم  
الشيخ حال للريد  
وما يصلح له . وكان  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم يكلم الناس  
على قدر عقولهم  
ويأمر كل شخص بما  
يصلح له فمنهم من كان  
بأمره بالاتفاق ومنهم من  
أمره بالإمساك ومنهم  
من أمره بالكسب  
ومنهم من قرره على  
ترك الكسب كأصحاب  
الصفة فكان رسول  
الله صلى الله عليه وسلم

يعرف أوضاع الناس وما يصلح لكل واحد فأما في رتبة الدعوة فقد كان يجمع الدعوة لأنه مبعوث لإثبات الحججة وإيضاح الحججة يدعو على الإطلاق ولا يخصص بالدعوة من يتفرس فيه الهداية دون غيره . ومن أدب الشيخ أن يكون له خلوة خاصة ووقت خاص لا يسهه فيه معاناة الخلق حتى يفيض على جلوته فائدة خلوته ولا تدعى نفسه قوة ظنا منها أن استدامة المخالطة مع الخلق والكلام معهم لا يضره ولا يأخذ منه وأنه غير محتاج إلى الخلوة فان رسول الله

حتى لا يطلع عليه أحد فهذه ثلاثة من النعم خاصة يشرف بها كل عبد إماما مطلقا وإماما في بعض الأمور فلنزل عن هذه الطبقة إلى طبقة أخرى أعم منها قليلا فنقول : مامن عبد إلا وقد رزقه الله تعالى في صورته أو شخصه أو أخلاقه أو صفاته أو أهله أو ولده أو مسكنه أو بلده أو رفيقه أو أقربه أو عزه أو جاهه أو في سائر محابه أمور أو سلب ذلك منه وأعطى ما يخص به غيره لكان لا يرضى به وذلك مثل أن جعله مؤمنا لا كافرا وحيا لا مجادا وإنسانا لا بهيمة وذكرنا لأنني وصحيفا لا مريضا وسليما لا معييا فان كل هذه خصائص وإن كان فيها عموم أيضا فان هذه الأحوال لو بدلت بأضدادها لم يرض بها بل له أمور لا يبدلها بأحوال الآدميين أيضا وذلك إما أن يكون بحيث لا يبدله بما يخص به أحد من الخلق أو لا يبدله بما خص به إلا أكثر فاذا كان لا يبدل حال نفسه بحال غيره فاذا حاله أحسن من حال غيره وإذا كان لا يعرف شخص يرتضى لنفسه حالة بدلا عن حال نفسه إماما للجملة وإماما في أمر خاص فان الله تعالى عليه نعم ليست له على أحد من عباده سواء وإن كان يبدل حال نفسه بحال بعضهم دون البعض فلينظر إلى عدد القبولين عنده فانه لا محالة يرام أقل بالإضافة إلى غيرهم فيكون من دونه في الحال أكثر بكثير مما هو فوقه فما باله ينظر إلى من فوقه ليزدى نعم الله تعالى على نفسه ولا ينظر إلى من دونه ليستعظم نعم الله عليه وما باله لا يسوى ديناه بدينه أليس إذا لامته نفسه على سيئة يقارنها بعشر إليها بأن في الساق كثرة فينظر أبدا في الدين إلى من دونه لا إلى من فوقه فلم لا يكون نظره في الدنيا كذلك فاذا كان حال أكثر الخلق في الدين خير منه وحاله في الدنيا خير من حال أكثر الخلق فكيف لا يلزمه الشكر، ولهذا قال صلى الله عليه وسلم « من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله جابرا وشاكرا ومن نظر في الدنيا إلى من هو فوقه وفي الدين إلى من هو دونه لم يكتبه الله جابرا ولا شاكرا » (١) فاذا كل من اعتبر حال نفسه وفتش عما يخص به وجد الله تعالى على نفسه نعمًا كثيرة لا يساها من خص بالسنة والإيمان والعلم والقرآن ثم الفراغ والصحة والأمن وغير ذلك ولذلك قيل :

من شاء عيشا رحيما بسطيل به في دينه ثم في دينه إقبالا

فلينظرن إلى من فوقه ورعا ولينظرن إلى من دونه مالا

وقال صلى الله عليه وسلم « من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله » (٢) وهذا إشارة إلى نعمة العلم وقال عليه السلام « إن القرآن هو التقي الذي لا غنى بعده ولا فقر معه » (٣) وقال عليه السلام « من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله » (٤) وقال عليه السلام « ليس من آمن لم يتغن بالقرآن » (٥) وقال عليه السلام « كفى باليقين غنى » (٦) وقال بعض السلف يقول الله تعالى في بعض الكتب التزلة

(١) حديث من نظر في الدنيا إلى من هو دونه ونظر في الدين إلى من هو فوقه كتبه الله جابرا وشاكرا الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو وقال غريب وفيه الشئ بن الصباح ضعيف (٢) حديث من لم يستغن بآيات الله فلا أغناه الله لم أجده بهذا اللفظ (٣) حديث إن القرآن هو الفناء الذي لا غناء بعده ولا فقر معه أبو يعلى والطبراني من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن القرآن غنى لا فقر بعده ولا غنى دونه قال الدارقطني رواه أبو معاوية عن الأعمش عن يزيد الرقاشي عن الحسن مرسل وهو أحبه بالصواب (٤) حديث من آتاه الله القرآن فظن أن أحدا أغنى منه فقد استهزا بآيات الله البخاري في التاريخ من حديث رجاء الغنوي بلفظ من آتاه الله حفظ كتابه ووطن أن أحدا أو تفضل بما أو تفضل صر أعظم النعم وقد تقدم في فضل القرآن ورجاء مختلف في صحته وورد من حديث عبد الله بن عمرو وجابر والبراء نحوه وكلها ضعيفة (٥) حديث ليس من آمن لم يتغن بالقرآن تقدم في آداب التلاوة (٦) حديث كفى باليقين غنى الطبراني من حديث عتبة بن عامر ورواه ابن أبي الدنيا في القناعة موقوفا عليه وقد تقدم.

إن عبدا أغيتته عن ثلاثة لقد أعمت عليه نعمتي عن سلطان يأتيه وطبيب يداويه وعما في يد أخيه وعبر الشاعر عن هذا فقال :

إذا ما القوت يأتيك كذا الصحة والأمن

وأصبحت أخاصن فلا فارقك الحزن

بل أرشق البارات وأفصح الكلمات كلام أفصح من نطق بالصاد حيث عبر صلى الله عليه وسلم عن هذا المعنى فقال « من أصبح آمنا في سربه معافى في بدنه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (١) » ومهما تأملت الناس كلهم وجدتهم يشكون ويتألمون من أمور وراء هذه الثلاث مع أنها وبال عليهم ولا يشكرون نعمة الله في هذه الثلاث ولا يشكرون نعمة الله عليهم في الإيمان الذي به وصلوهم إلى النعيم القيم والملك العظيم بل البصير ينبغي أن لا يفرح إلا بالمعرفة واليقين والإيمان بل نعم نعم من العلماء من لو سلم إليه جميع ما دخل تحت قدرة ملوك الأرض من الشرق إلى المغرب من أموال وأتباع وأنصار وقيل له خذها عوضا عن علك بل عن عشر عشر علك لم يأخذها وذلك لرجائه أن نعمة العلم تنفضي به إلى قرب الله تعالى في الآخرة بل لو قيل له لك في الآخرة ما ترجوه بكأله فخذ هذه اللذات في الدنيا بدلا عن التذاذك بالعلم في الدنيا وفرحك به لكان لا يأخذ لعله بأن لذة العلم دأمة لا تنقطع وباقية لا تسرق ولا تنصب ولا ينافس فيها وأنها صافية لاكدورة فيها ولذات الدنيا كلها ناقصة مكدرة مشوشة لا يفي مرجوها بخوفها ولا لذتها بألمها ولا فرحها بنعمها هكذا كانت إلى الآن وهكذا تكون ما بقي الزمان إذ ما خلقت لذات الدنيا إلا لتجلب بها العقول الناقصة وتخضع حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت كالمرأة الجميل ظاهرها تزين للشاب الشبق الفنى حتى إذا انخدعت وتقيدت بها أبت عليها واستعصت عنه فلا يزال معها في صب قائم وعناء دائم وكل ذلك باعتراره بللة النظر إليها في لحظة ولو عقل وغض البصر واستهان بتلك اللذة سلم جميع عمره فهكذا وقت أرباب الدنيا في شبك الدنيا وحبائلها ولا ينبغي أن يقول إن العرض عن الدنيا متألم بالصبر عنها فإن القبل عليها أيضا متألم بالصبر عليها وحفظها وتحصيلها ودفع اللصوص عنها وتألم للعرض يفضى إلى لذة في الآخرة وتألم القبل يفضى إلى الألم في الآخرة فليقرأ للعرض عن الدنيا على نفسه قوله تعالى - ولا تنهوا في ابتغاء القوم إن تكونوا تأملون فإنهم يألمون كما تألمون وترجون من الله ما لا يرجون - فإذا نمت أسد طريق الشكر على الخلق لجلبهم بضروب النعم الظاهرة والباطنة والخاصة والعامة . فان قلت فما علاج هذه القلوب الغافلة حتى تشعر بنعم الله تعالى فصاها تشكر . فأقول أما القلوب البصيرة فعلاجها التأمل فيما رمزنا إليه من أصناف نعم الله تعالى العامة وأما القلوب البليدة التي لاتعد النعمة نعمة إلا إذا خصتها أو شعرت بالبلاء مع ما في قبيله أن ينظر أبدا إلى من دونه ويفعل ما كان يفعله بعض الصوفية إذ كان يحضر كل يوم دار المرضى والمقابر والواضع التي تقام فيها الحدود فكان يحضر دار المرضى ليشاهد أنواع بلاء الله تعالى عليهم ثم يتأمل في صحته وسلامته فيشعر قلبه بنعمة الصحة عند شعوره بلاء الأمراض ويشكر الله تعالى ويشاهد الجنة الذين يقتلون وتقطع أطرافهم ويعذبون بأنواع العذاب ليشكر الله تعالى على عصمته من الجنائيات ومن تلك العقوبات ويشكر الله تعالى على نعمة الأمن ويحضر المقابر فيعلم أن أحب الأشياء إلى الموتى أن يردوا إلى الدنيا ولو يوما واحدا أما من عصى الله فليتدارك وأما من أطاع فليزد في طاعته فان يوم القيامة يوم التضايح فالمطيع مغبون إذ يرى جزاء طاعته فيقول كنت أقدر على أكثر من هذه الطاعات لما أعظم غنى إذ ضيقت بعض الأوقات في الباحات ، وأما العاصي فعبثه ظاهر فإذا شاهد للمقابر

(١) حديث من أصبح آمنا في سربه الحديث تقدم غير مرة .

صلى الله عليه وسلم مع كمال حاله كان له قيام الليل وصلوات يصلها ويدوم عليها وأوقات يغلو فيها فطبع البشر لا يستغنى عن السياسة قل ذلك أو أكثر لطف ذلك أو كشف وكم من مغرور قانع باليسير من طيبة القلب اتخذ ذلك رأس ماله واغتر بطيبة قلبه واسترمل في المازجة والمخالطة وجعل نفسه مناخ للباطلين بالقيمة توكل عنده وبرقى يوجد منه فيقصده من ليس قصده الدين ولا يقينه سلوك طريق للتقوى فافتن وأقن وبقي في خطة القصور ووقع في

وعلم أن أحب الأشياء إليهم أن يكون قد بقي لهم من العمر ما بقي له فيصرف بقية العمر إلى ما ينشئ أهل القبور العود لأجله ليكون ذلك مغرفة لنعم الله تعالى في بقية العمر بل في الأسفار في كل نفس من الأخاس وإذا عرف تلك النعمة شكر بأن يصرف العمر إلى ما خلق العمر لأجله وهو التزوّد من الدنيا والآخرة فهذا علاج هذه القلوب الغافلة لتشعر بنعم الله تعالى فصاها تشكروا وقد كان الربيع بن خيثم مع تمام استبصاره يستعين بهذه الطريق تأكيذا للمعرفة فكان قد حفر في داره قبرا فكان يضع غلّا في عنقه ويقيم في الحدة ثم يقول رب ارجعوني لأعمل صالحا ثم يقوم ويقول يارب ربيع قد أعطيت ما سألت فأعمل قبل أن تسأل الرجوع فلا ترد . وما ينبغي أن تعالج به القلوب البعيدة عن الشكر أن تعرف أن النعمة إذا لم تشكر زالت ولم تعد ولذلك كان الفضيل بن عياض رحمه الله يقول : عليكم بملازمة الشكر على النعم قبل أن تذهب زالت عن قوم فعادت إليهم . وقال بعض السلف النعم وحشية فقيدها بالشكر وفي الخبر : ما عظمت نعمة الله تعالى على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه <sup>(١)</sup> فمن تهان بهم عرض تلك النعمة للزوال وقال الله سبحانه وتعالى - إن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - فهذا تمام هذا الركن .

الركن الثالث من كتاب الصبر والشكر فيها يشترك فيه الصبر والشكر ويرتبط أحدهما بالآخر ( بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد )

لذلك نقول ما ذكرته في النعم إشارة إلى أن الله تعالى في كل موجود نعمة وهذا يشير إلى أن البلاء لا وجود له أصلا فاما معنى الصبر إذن وإن كان البلاء موجودا فاما معنى الشكر على البلاء وقد ادعى مدعون أنا نشكر على البلاء فضلا عن الشكر على النعمة فكيف يتصور الشكر على البلاء وكيف يشكر على ما يصبر عليه والصبر على البلاء يستدعي ألما والشكر يستدعي فرحا وهما يتضادان وما معنى ما ذكرتموه من أن الله تعالى في كل ما أوجده نعمة على عباده فاعلم أن البلاء موجود كما أن النعمة موجودة والقول بآثبات النعمة يوجب القول بآثبات البلاء لأنهما متضادان ففقد البلاء نعمة وفقد النعمة بلاء ولكن قد سبق أن النعمة تنقسم إلى نعمة مطلقة من كل وجه أما في الآخرة فكسعادة العبد بالتزول في جوار الله تعالى وأما في الدنيا فكلايمان وحسن الخلق وما يصيب عليهما وإلى نعمة مقيدة من وجه دون وجه كالمال الذي يصلح الدين من وجه ويغسده من وجه فكذلك البلاء ينقسم إلى مطلق ومقيد أما المطلق في الآخرة فالبعد من الله تعالى وإمامة وإمامة وأما في الدنيا فالكفر والعصية وسوء الخلق وهي التي تفضي إلى البلاء المطلق وأما المقيد فكالفقر والمرض والخوف وسائر أنواع البلاء التي لا تكون بلاء في الدين بل في الدنيا فالشكر المطلق للنعمة المطلقة وأما البلاء المطلق في الدنيا فقد لا يؤمر بالصبر عليه لأن الكفر بلاء ولا معنى للصبر عليه وكذا العصية بل حق الكافر أن يترك كفره وكذا حق العاصي نعم الكافر قد لا يعرف أنه كافر فيكون كمن به علة وهو لا يتألم بسبب غشية أو غيرها فلا صبر عليه والعاصي يعرف أنه عاص فعليه ترك العصية بل كل بلاء يقدر الإنسان على دفعه فلا يؤمر بالصبر عليه فلو ترك الإنسان الماء مع طول العطش حتى عظم تألمه فلا يؤمر بالصبر عليه بل يؤمر بإزالة الألم وإنما الصبر على ألم ليس إلى العبد إزالته فاذن يرجع الصبر في الدنيا إلى ما ليس بلاء مطلق بل يجوز أن يكون نعمة من وجه فذلك يتصور أن يجتمع عليه وظيفة الصبر والشكر فإن النفي مثلا يجوز أن يكون سببا لهلاك الإنسان حتى يقصد بسبب ماله فيقتل وتقتل أولاده

(١) ما عظمت نعمة الله على عبد إلا كثرت حوائج الناس إليه الحديث ابن عدي وابن حبان في الضعفاء من حديث معاذ بن جبل بلفظ إلا عظمت مؤنة الناس عليه فمن لم يحتمل تلك المؤنة الحديث ورواه ابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عباس وقال إنه موضوع على حجاج الأعور .

دائرة الفتور لما يستغنى الشيخ عن الاستعداد من الله تعالى والتضرع بين يدي الله بقلبه إن لم يكن بقلبه وقلبه فيكون له في كل كلمة إلى الله رجوع وفي كل حركة بين يدي الله خضوع وإعجابات الفتنة على القلوب والدين للفتنة على الاسترسال في الكلام والمخالطة لقلة معرفتهم بصفات النفس واغترارهم بيسير من اللوعة وقلة تأديهم بالشيوخ . كان الجنيد رحمه الله يقول لأصحابه لو علمت أن صلاة ركعتين لي أفضل من جلوس معكم ما جلست عندكم فإذا رأي الفضل في الخلوة غلوا



والصحة أيضا كذلك فما من نعمة من هذه النعم الدينية إلا ويجوز أن تصير بلاء ولكن بالإضافة إليه فكذلك ما من بلاء إلا ويجوز أن يصير نعمة ولكن بالإضافة إلى حاله فرب عبد تكون الحيرة له في الفقر والمرض ولو صح بدنه وكثر ماله لبطر وبني قال الله تعالى - ولو بسط الله الرزق لعباده لبغوا في الأرض - وقال تعالى - كلا إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله ليحصى عبده للؤمن من الدنيا وهو يحبه كما يحصى أحدكم مريضه (١) » وكذلك الزوجة والولد والقريب وكل ما ذكرناه في الأقسام الستة عشر من النعم سوى الإيمان وحسن الخلق فانها يتصور أن تكون بلاء في حق بعض الناس فتكون أضرارها إذن نفا في حقهم إذ قد سبق أن المعرفة كال نعمة فانها صفة من صفات الله تعالى ولكن قد تكون على العبد في بعض الأمور بلاء ويكون قدما نعمة مثاله جهل الإنسان بأجله فانه نعمة عليه إذ لو عرفه ربما تنقص عليه العيش وطال بذلك غمه وكذلك جهله بما يضره الناس عليه من معارفه وأقاربه نعمة عليه إذ لو عرف السوء واطلع عليه لطال ألمه وحقد وحسده واشتغاله بالانتقام وكذلك جهله بالصفات الذمومة من غيره نعمة عليه إذ لو عرفها أبغضه وآذاه وكان ذلك وبالا عليه في الدنيا والآخرة بل جهله بالخصال الحمودة في غيره قد يكون نعمة عليه فانه ربما يكون وليا لله تعالى وهو يضطر إلى إيذائه وإهانتة ولو عرف ذلك وآذى كان إثمه لاعماله أعظم فليس من آذى نبيا أو وليا وهو يعرف كمن آذى وهو لا يعرف. ومنها إيهام الله تعالى أمر القيامة وإيهامه ليلة القدر وساعة يوم الجمعة وإيهامه بعض الكبار فكل ذلك نعمة لأن هذا الجهل يوفر دواعيك على الطلب والاجتهاد فهذه وجوه نعم الله تعالى في الجهل فكيف في العلم وحيث قلنا إن الله تعالى في كل موجود نعمة فهو حق وذلك مطرد في حق كل أحد ولا يستثنى عنه بالظن إلا الآلام التي يخلقها في بعض الناس وهي أيضا قد تكون نعمة في حق التألم بها فان لم تكن نعمة في حقه كالألم الحاصل من اللصية كقطعه يد نفسه ووفعه بشرته فانه يتألم به وهو عاص به وألم الكفار في النار فهو أيضا نعمة ولكن في حق غيرهم من العباد لافي حقهم لأن مصائب قوم عند قوم فوائد ولولا أن الله تعالى خلق العذاب وعذب به طائفة لما عرف المتمون قدر نعمه ولا كثر فرحهم بها ففرح أهل الجنة إنما يتضاعف إذا تفكروا في آلام أهل النار أما ترى أهل الدنيا ليس يشتد فرحهم بنور الشمس مع شدة حاجتهم إليها من حيث إنها عامة مبدولة ولا يشتد فرحهم بالنظر إلى زينة السماء وهي أحسن من كل بستان لهم في الأرض يجتهدون في عمارته ولكن زينة السماء لما عمت لم يشعروا بها ولم يفرحوا بسببها فاذا قد صح ما ذكرناه من أن الله تعالى لم يخلق شيئا إلا وفيه حكمة ولا خلق شيئا إلا وفيه نعمة إما على جميع عباده أو على بعضهم فاذا في خلق الله تعالى البلاء نعمة أيضا إما على البتلى أو على غير البتلى فاذا كل حالة لا توصف بأنها بلاء مطلق ولا نعمة مطلقة فيجتمع فيها على العبد وظيفتان الصبر والشكر جميعا . فان قالت فهما متضادان فكيف يجتمعان إذ لا صبر إلا على غم ولا شكر إلا على فرح . فاعلم أن الشيء الواحد قد ينتم به من وجه ويخرج به من وجه آخر فيكون الصبر من حيث الاعتناء والشكر من حيث الفرح وفي كل قهر ومرض وخوف وبلاء في الدنيا خمسة أمور ينبغي أن يفرح الماقل بها وبشكر عليها . أحدها أن كل مصيبة ومرض فيصور أن يكون أكبر منها إذ مقدورات الله تعالى لا تتناهى فلو مضى الله تعالى وزادها ماذا كان يردده ويجبرها فليشكر إذ لم تكن أعظم منها في الدنيا. الثاني أنه كان يمكن أن تكون مصيبتها في دينه . قال رجل لسهل رضى الله تعالى عنه دخل اللص بيتي

(١) حديث إن الله ليحصى عبده الدنيا الحديث الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .

وإذا رأى الفضل في  
المسألة يجلس مع  
الأصحاب فتكون جلوته  
في حياية خلوته وجلوته  
مزيدا لخلوته وفي هذا  
سر وذلك أن آدمي  
ذو تركيب مختلف فيه  
تضاد وتغابر على  
ما أسلفنا من كونه  
متريدا بين السفلى  
والعلوى ولما فيه من  
التغابر له حظ من  
الفتور عن الصبر  
على صرف الحق ولهذا  
كان لكل عامل  
فترة والفترة قد تكون  
تارة في صورة العمل  
وتارة في عدم الروح في  
العمل وإن لم تكن في  
صورة العمل ففي وقت  
الفترة للمريد  
والسالكين تضييع

وأخذ متاعى فقال اشكر الله تعالى لو دخل الشيطان قلبك فأفسد التوحيد ماذا كنت تصنع ولذلك استعاذ عيسى عليه الصلاة والسلام في دعائه إذ قال : اللهم لا تجعل مصيبتى في ديني، وقال عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه ما ابتليت ببلاء إلا كان لله تعالى على فيه أربع نعم إذ لم يكن في ديني وإذا لم يكن أعظم منه وإذا لم أحرم الرضا به وإذا أرجو الثواب عليه . وكان لبعض أرباب القلوب صديق فحبسه السلطان فأرسل إليه يملعه ويشكو إليه فقال له اشكر الله فضر به فأرسل إليه يملعه ويشكو إليه فقال اشكر الله فجاءه مجوسى فحبس عنده وكان مبطونا قعيد وجعل حلقة من قيده في رجله وحلقة في رجل المجوسى فأرسل إليه فقال اشكر الله فكان المجوسى يحتاج إلى أن يقوم مرات وهو يحتاج إلى أن يقوم معه ويقف على رأسه حتى يقضى حاجته فكتب إليه بذلك فقال اشكر الله فقال إلى متى هذا وأى بلاء أعظم من هذا فقال لو جعل الزنار الذى في وسطه على وسطك ماذا كنت تصنع فاذن مامن إنسان قد أصيب ببلاء إلا ولو تأمل حق التأمل في سوء أذبه ظاهرا وباطنا في حق مولاه لكان يرى أنه يستحق أكثر مما أصيب به عاجلا وآجلا ومن استحق عليك أن يضربك مائة سوط فاقصر على عشرة فهو مستحق للشكر ومن استحق عليك أن يقطع يديك فترك إحداها فهو مستحق للشكر ولذلك مر بعض الشيوخ في شارع فصب على رأسه طشت من رماد فسجد لله تعالى سجدة الشكر قليل له ماهذه السجدة فقال كنت أنتظر أن تصب على النار فالاقصر على الرماد نعمة . وقيل لبعضهم ألا تخرج إلى الاستسقاء فقد احتبست الأمطار فقال أتم تستبطون المطر وأنا أستبطىء الحجر . فان قلت كيف أفرح وأرى جماعة ممن زادت معصيتهم على معصيتي ولم يصابوا بما أصبت به حتى الكفار . فاعلم أن الكافر قد خدعه له ما هو أكثر وإنما أمهل حتى يستكثر من الانتم ويطول عليه العقاب كما قال تعالى - إنما نملئ لهم ليزدادوا إثما - وأما المعاصي فمن أين تعلم أن في العالم من هو أعصى منه ورب خاطر بسوء أدب في حق الله تعالى وفي صفاته أعظم وأطم من شرب الخمر والزنا وسائر المعاصي بالجوارح ولذلك قال تعالى في مثله - ونحبونه هينا وهو عنده عظيم - فمن أين تعلم أن غيرك أعصى منك ثم اعلم قد أخرت عقوبته إلى الآخرة وهجات عقوبتك في الدنيا فلم لا تشكر الله تعالى على ذلك وهذا هو الوجه الثالث في الشكر وهو أنه مامن عقوبة إلا وكان يتصور أن تؤخر إلى الآخرة ومصائب الدنيا يتسلى عنها بأسباب أخر تهون المصيبة فيخف وقعها ومصيبة الآخرة تدوم وإن لم تدم فلا سبيل إلى تخفيفها بالتسلى إذ أسباب التسلى مقطوعة بالسكينة في الآخرة عن المعذنين ومن عجبت عقوبته في الدنيا فلا يعاقب ثانيا إذ قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابته شدة أو بلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا (١) » الرابع أن هذه المصيبة والبلية كانت مكتوبة عليه في أم الكتاب وكان لابد من وصولها إليه وقد وصلت ووقع الفراغ واستراح من بعضها أو من جميعها فهذه نعمة . الخامس أن ثوابها أكثر منها فان مصائب الدنيا طرق إلى الآخرة من وجهين : أحدهما الوجه الذى يكون به الدواء الكريه نعمة في حق المريض ويكون النعم من أسباب اللب نعمة في حق الصبي فانه لو خلى واللعب كان يمنعه ذلك عن العلم والأدب فكان ينحصر جميع عمره فكذلك السال والأهل والأقارب

(١) حديث إن العبد إذا أذنب ذنبا فأصابه شدة وبلاء في الدنيا فإله أكرم من أن يعذبه ثانيا الترمذى وابن ماجه من حديث على من أصاب في الدنيا ذنبا عوقب به فإله أعدل من أن يثني عقوبته على عبده الحديث لفظ ابن ماجه وقال الترمذى من أصاب حدا فعجل عقوبته في الدنيا وقال حسن وللشيخين من حديث عبادة بن الصامت ومن أصاب من ذلك شيئا فعوقب به فهو كفارة له الحديث.

واستراح للنفس وركون إلى البطالة فمن بلغ رتبة الشيخة انصرف قسم قترته إلى الخلق فأفلق الخلق بقسم قترته وما ضاع قسم قترته كضياحه في حق الريدين فالمرید يعود من الفترة بقوة الشدة وحدة الطلب إلى الإقبال على الله والشيخ يكتب الفضيلة من نفع الخلق بقسم قترته ويعود إلى أوطان خلوته وخاص حاله بنفس مشرقة أكثر من عود الفقير بحدة إرادته من قترته فيعود من الخلق إلى الخلوة منزع الفتور بقلب متعطف وافر النور وروح متخلصة عن

والأعضاء حتى العين التي هي أعز الأشياء قد تكون سببا لهلاك الإنسان في بعض الأحوال بل العقل الذي هو أعز الأمور قد يكون سببا لهلاكه فالملحدة غدا يتمنون لو كانوا مجانين أو صيانا ولم يتصرفوا بعقولهم في دين الله تعالى فإمن شيء من هذه الأسباب يوجد من البعد إلا ويتصور أن يكون له فيه خيرة دينية فعليه أن يحسن الظن بالله تعالى ويقدر فيه الخيرة ويشكره عليه فإن حكمة الله واسعة وهو بمصالح العباد أعلم من العباد وغدا يشكره العباد على البلاء إذا رآوا ثواب الله على البلاء كما يشكر الصبي بعد العقل والبلوغ أستاذة وأباه على ضربه وتأديبه إذ يدرك ثمرة ما استفاده من التأديب والبلاء من الله تعالى تأديب وعنايته بعباده أنهم وأوفر من عناية الآباء بالأولاد فقد روى «أن رجلا قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاء عليك (١)» ونظر صلى الله عليه وسلم إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله تعالى للمؤمن إن قضى له بالسراء رضى وكان خيرا له وإن قضى له بالضرراء رضى وكان خيرا له (٢)» الوجه الثاني أن رأس الخطايا للهلكة حب الدنيا ورأس أسباب النجاة التجاني بالقلب عن دار العز والمواة التمس على وفق الراد من غير امتزاج ببلاء ومصيبة تورث طمأنينة القلب إلى الدنيا وأسبابها وأنه بها حتى تصير كالخلة في حقه فيعظم بلاؤه عند الموت بسبب مفارقتها وإذا كثرت عليه المصائب اتزعج قلبه عن الدنيا ولم يكن إليها ولم يأنس بها وصارت سببا عليه وكانت نجاة منها غاية اللذة كالخلاص من السجن ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر (٣)» والكافر كل من أعرض عن الله تعالى ولم يرد إلا الحياة الدنيا ورضى بها واطمأن إليها والمؤمن كل منقطع بقلبه عن الدنيا شديد الحزن إلى الخروج منها والكفر بعضه ظاهر وبعضه خفي ويقدر حب الدنيا في القلب يسرى فيه الشرك الخفي بل الموحّد المطلق هو الذي لا يحب إلا الواحد الحق فاذن في البلاء نعم من هذا الوجه فيجب الفرح به وأما التألم فهو ضروري وذلك يضاهي فرحك عند الحاجة إلى الحجابة بمن يتولى حجابك مجانا أو بعتك دواء نافعا بشما مجانا فانك تألم وتفرح فصر على الألم وتشكره على سبب الفرح فكل بلاء في الأمور الدنيوية مثاله الدواء الذي يؤلم في الحال وينفع في المآل بل من دخل دار ملك للنضارة وعلم أنه يخرج منها لا محالة فرأى وجهها حسنا لا يخرج معه من الدار كان ذلك وبالا وبلاء عليه لأنه يورثه الأناج بمنزل لا يمكنه التماس فيه ولو كان عليه في المقام خطر من أن يطلع عليه الملك فيعذبه فأصابه ما يكره حتى نوره عن المقام كان ذلك نعمة عليه والدنيا منزل وقد دخلها الناس من باب الرحمة وهم خارجون عنها من باب اللحد فكل ما يحقق أنسهم بالمنزل فهو بلاء وكل ما يزجج قلوبهم عنها ويقطع أنسهم بها فهو نعمة فمن عرف هذا تصور منه أن يشكر على البلاء ومن لم يعرف هذه النعم في البلاء لم يتصور منه الشكر لأن الشكر يتبع معرفة النعمة بالضرورة ومن لا يؤمن بأن ثواب المصيبة أكبر من المصيبة لم يتصور منه الشكر على المصيبة. وحكي أن أعرابيا عزي ابن عباس على أبيه فقال :

(١) حديث قال له رجل أوصني قال لا تنهم الله في شيء قضاء عليك أحمد والطبراني من حديث عبادة بن زياد في أوله وفي إسناده ابن أبي عمير (٢) حديث نظر إلى السماء فضحك فسل فقال عجبت لقضاء الله للمؤمن الحديث مسلم من حديث صهيب دون نظره إلى السماء وضحك عجبا لأمر المؤمن إن أمره كله خير وليس ذلك لأحد إلا للمؤمن إن أصابته سرء شكر فكان خيرا له وإن أصابته ضرء صبر فكان خيرا له ولقناني في اليوم والليلة من حديث سعد بن أبي وقاص عجبت من رضا الله للمؤمن إن أصابه خير حمد به وشكر الحديث (٣) حديث الدنيا سجن المؤمن وجنة الكافر مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

مضيق مطالعة الأغيار  
قائمة بحمد شنفها الى  
دار القرار . ومن  
وظيفة الشيخ حسن  
خلقه مع أهل الارادة  
والطلب والزول من  
حقه فيما يجب من  
التبجيل والتعظيم  
للشايخ واستعماله  
التواضع . حكي الرقي  
قال كنت بصروكنا  
في المسجد جماعة من  
الفقراء جلوسا فدخل  
الزقاق فقام عنده  
أسطوانة يركع قلنا  
يفرغ الشيخ من  
صلاته وتقوم نسل عليه  
فما فرغ جاء إلينا وسلم  
علينا قلنا نحن كنا  
أولى بهذا من الشيخ  
فقال ما عذب الله

اصبر نكن بك صابرين فاقما صبر الرعية بعد صبر الراس

خير من العباس أجرك بعدد والله خير منك للعباس

قال ابن عباس ما عزاني أحد أحسن من تزيته. والأخبار الواردة في الصبر على الصائب كثيرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من يرد الله به خيرا يصيبه» (١) وقال عليه السلام «إذا وجهت إلى عبد من عبيدي مصيبة في بدته أو ماله أو ولده ثم استقبل ذلك بصبر جميل استحيت منه يوم القيامة أن أنصب له ميزانا أو أنشر له ديوانا. وقال عليه السلام «ما من عبد أصيب بمصيبة فقال كما أمره الله تعالى - إن الله وإنا إليه راجعون - اللهم أجرني في مصيبي وأعقبني خيرا منها إلا فضل الله ذلك به» قال صلى الله عليه وسلم قال الله تعالى «من سلبت كرميته جزاؤه الخلود في داري والنظر إلى وجهي» وروى أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال عليه السلام «لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره» (٢) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل لتكون له الدرجة عند الله تعالى لا يبلغها بعمل حتى ينتلي يلاء في جسمه فيبلغها بذلك» (٣) وعن خباب بن الأرت قال أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد بردائه في ظل الكعبة فشكونا إليه قلنا يا رسول الله ألا ندعو الله تستنصره لنا جلس عمرالونه ثم قال «إن من كان قلبكم يؤتي بالرجل فيحفر له في الأرض خربة ويحيا بالفتار فيوضع على رأسه فيجل فرقتين ما يصر فذلك عن دينه» (٤) وعن علي كرم الله وجهه قال : أيعا رجل حبه السلطان ظلمات فهو شهيد وإن ضربه فيأت فهو شهيد . وقال عليه السلام «من إجلال الله ومعرفة حقه أن لا تشكو وجعك ولا تذكر مصيبتك» وقال أبو الدرداء رضي الله تعالى عنه: تولدون للوثة وتعمرون للخراب وتغرصون على ما غنى وتنفرون ما يبق إلا جبنا للكروهاة الثلاث الفقر والمرض واللوثة . وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا أو أراد أن يضيفه صب عليه البلاء صبا ونجحه عليه نجا فإذا دعاه قالت الملائكة صوت معروف وإن دعاه ثانيا قال يارب قال الله تعالى ليك عبيد وحميدك لا تسألني شيئا إلا أعطيتك أودعت عنك ما هو خير وأدخرت لك عندي ما هو أفضل منه فإذا كان يوم القيامة جرى بأهل الأعمال قوفوا أعمالهم بالميزان أهل الصلاة والصيام والصدقة والحج ثم يؤتى بأهل البلاء فلا ينصب لهم ميزان ولا ينشر لهم ديوان يصب عليهم الأجر صبا كما كان يصب عليهم البلاء صبا

(١) حديث من يرد الله به خيرا يصيب منه البخاري من حديث أبي هريرة (٢) حديث أن رجلا قال يا رسول الله ذهب مالي وسقم جسمي قال لا خير في عبد لا يذهب ماله ولا يسقم جسمه إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه وإذا ابتلاه صبره ابن أبي الدنيا في كتاب المرض والكفارات من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد فيه لين (٣) حديث أن الرجل ليكون له الدرجة عند الله لا يبلغها بعمل حتى ينتلي يلاء في جسمه فيبلغها بذلك أبو داود في رواية ابن داسه وابن العبد من حديث محمد بن خالد السلمي عن أبيه عن جده وليس في رواية الثوري ورواه أحمد وأبو يعلى والطبراني من هذا الوجه ومحمد بن خالد لم يرو عنه إلا أبو الليث الحسن بن عمر الرقي وكذلك لم يرو عن خالد إلا ابنه محمد وذكر أبو نعيم أن ابن منبه سمى جده اللجلاج بن سليم فله أعلم وعلى هذا فانه خالد بن اللجلاج العامري ذلك مشهور روى عنه جماعة ورواه ابن منبه وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة من رواية عبد الله بن أبي ياس بن أبي فاطمة عن أبيه عن جده ورواه البيهقي من رواية إبراهيم السلمي عن أبيه عن جده فله أعلم (٤) حديث خباب بن الأرت أتينا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو متوسد برداء في ظل الكعبة فشكرونا إليه الحديث تقدم .

قلبي بهذا قطبى  
ما تقيدت بأن أحترم  
وأقصد . ومن آداب  
الشيخ الزول إلى  
حال الريدين من  
الرفق بهم وبسطهم .  
قال بعضهم : إذا رأيت  
القمير الله بالرفق ولا  
تلقه بالعلم فإن الرفق  
يؤنس والعلم يوحش  
فإذا فعل الشيخ  
هذا انتهى من الرفق  
يتدرج للريد بركة  
ذلك إلى الاتقاع  
بالعلم فيعامل حينئذ  
بصرح العلم . ومن  
آداب الشيخ  
التطف على الأصحاب  
وقضاء حقوقهم في  
الصحة والمرض ولا  
يترك حقوقهم اعتادا  
على إرادتهم وصدقهم

فيود أهل العافية في الدنيا لو أنهم كانت تعرض أجسادهم بالمقاريض لما يرون ما يذهب به أهل البلاء من الثواب . فذلك قوله تعالى - إنما يوفي الصابرون أجرهم بغير حساب (١) - وعن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما قال شكنا في من الأنبياء عليهم السلام إلى ربه فقال يارب العبد المؤمن يطيعك ويعتصم بمعاصيك تزوي عنه الدنيا وتعرض له البلاء ويكون العبد الكافر لا يطيعك ويعتريه عليك وظل معاصيك تزوي عنه البلاء وتبسط له الدنيا فأوحى الله تعالى إليه إن العباد لي والبلاء لي وكل يسبح بحمدي فيكون المؤمن عليه من الذنوب فأزوي عنه الدنيا وأعرض له البلاء فيكون كفارة لذنوبه حتى يلقاني فأجزيه بحسناته ويكون الكافر له الحسنات فأبسط له في الرزق وأزوي عنه البلاء فأجزيه بحسناته في الدنيا حتى يلقاني فأجزيه بسيئاته . وروى أنه لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تعرض ألست يصيبك الأذى ألست تحزن فهذه مما تجزون به (٢) » يعني أن جميع ما يصيبك يكون كفارة لذنوبك . وعن عقبة بن عامر عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا رأيتم الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على مصيئته فاعلموا أن ذلك استدراج ثم قرأ قوله تعالى - فلما ساءلوا ما ذكرناه فتحنا عليهم أبواب كل شيء - (٣) » يعني لما تركوا ما أمروا به فتحنا عليهم أبواب الخير حتى إذا فرحوا بما أوتوا أي بما أعطوا من الخير أخذناهم بغتة . وعن الحسن البصري رحمه الله أن رجلا من الصحابة رضي الله عنهم رأى امرأة كان يعرفها في الجاهلية فكلما هم تركها فجعل رجل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط فأثر في وجهه فأتى النبي ﷺ فأخبره فقال صلى الله عليه وسلم « إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « ألا أخبركم بأرجى آية في القرآن قالوا بلى فقرأ عليهم - وما أصابكم من مصيبة فبما كسبت أيديكم ويعفو عن كثير - فالمصائب في الدنيا بكسب الأوزار فإذا عاقبه الله في الدنيا فاقه أكرم من أن يعذبه ثانيا وإن عفا عنه في الدنيا فاقه أكرم من أن يعذبه يوم القيامة وعن أنس رضي الله تعالى عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « ما يرجع عبد قط جرعتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بعلم وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها ولا قطرت قطرة

(١) حديث أنس إذا أراد الله بعد خيرا وأراد أن يصابه صيب عليه البلاء صاب الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الرض من رواية بكر بن خنيس عن يزيد الرقاشي عن أنس أخصر منه دون قوله فإذا كان يوم القيامة إلى آخره وبكر بن خنيس والرقاشي ضعيفان ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب بتمامه وأدخل بين بكر وبين الرقاشي ضرار بن عمرو وهو أيضا ضعيف (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - من يعمل سوءا يجز به - قال أبو بكر الصديق كيف الفرح بعد هذه الآية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « غفر الله لك يا أبا بكر ألست تعرض » الحديث من رواية من لم يسم عن أبي بكر ورواه الترمذي من وجه آخر بلفظ آخر وضعفه قال وليس له إسناد صحيح وقال الدارقطني وروى أيضا من حديث عمر ومن حديث الزبير قال وليس فيها شيء ثبت (٣) حديث عقبة بن عامر إذا رأيتم الرجل يحطيه الله ما يحب وهو مقيم على مصيئته فاعلموا أن ذلك استدراج الحديث أحمد والطبراني والبيهقي في الشعب بسند حسن (٤) حديث الحسن البصري في الرجل الذي رأى امرأة فجعل يلتفت إليها وهو يمشي فصدمه حائط الحديث وفيه إذا أراد الله بعد خيرا عجل له عقوبة ذنبه في الدنيا أحمد والطبراني بإسناد صحيح من رواية الحسن عن عبد الله بن معقل مرفوعا ومتصلا ووصله الطبراني أيضا من رواية الحسن عن عمار بن ياسر ورواه أيضا من حديث ابن عباس وقد روى الترمذي وابن ماجه الرفوع منه من حديث أنس وحسنه الترمذي .

قال بعضهم لا تضع حق أخيك بما بينك وبينه من الودة . وحكى عن الجري قال وافيت من الحج فابتدأت بالجند وصلت عليه وقلت حتى لا يتعنى ثم أتيت منزلي فلما صليت الغداة التفت وإذا بالجند خلفي قلت يا سيدي إنما ابتدأت بالسلام عليك لكيلا تتعنى إلى ههنا فقال لي يا أبا محمد هذا حقك وذلك فضلك .

ومن آداب الشيوخ أنهم إذا علوا من بعض المسترشدين ضعفا في مراعاة النفس وقهرها واعتاد صدق العزيمة أن يرققوا

أحب إلى الله من قطرة دم أهرقت في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل وهو ساجد ولا يراه إلا الله ، وما خطا عبد خطوتين أحب إلى الله تعالى من خطوة إلى صلاة الفريضة وخطوة إلى صلاة الرحم (١) . وعن أبي الدرداء قال : توفي ابن سليمان بن داود عليهما السلام فوجد عليه وجدا شديدا فأتاه ملكان فجيا بين يديه في رزي الحصى ، فقال أحدهما : بذرت بذراقتا استصد مر به هذا فأقده ، فقال للآخر ما تقول ، فقال أخذت الحادة فأثبت على زرع فنظرت يمينا وشيلا فاذا الطريق عليه ، فقال سليمان عليه السلام ولم بذرت على الطريق أماعلت أن لا يبد للناس من الطريق . قال فلم تعزني على ذلك أماعلت أن اللوت سبيل الآخرة فتاب ساجدا إلى ربه ولم يزعج على وله بعد ذلك . ودخل عمر بن عبد العزيز على ابن له مريض ، فقال يا بني : لأن تسكون في ميزاني أحب إلى من أن أكون في ميزانك ، فقال يا أبت لأن يكون ما أحب أحب إلى من أن يكون ما أحب . وعن ابن عباس رضي الله عنهما أنه نعى إليه ابنة له فاسترجع وقال عورة سترها الله تعالى وموثة كفها الله وأجر قد ساقه الله ثم زل فضلى ركبتين ثم قال قد صنعت ما أمراه تعالى . قال تعالى - واستعينوا بالصبر والصلاة - . وعن ابن المبارك أنه مات له ابن فزاه عجوس يعرفه ، فقال له ينبغي للعاقل أن يفعل اليوم ما يضل به الجاهل بعد خمسة أيام ، فقال ابن المبارك اكتبوا عنه هذه . وقال بعض العلماء إن الله لينبئ العبد بالبلاء بعد البلاء حتى يعيش على الأرض وماله ذنب . وقال الفضيل : إن الله عز وجل ليتعاهد عبده المؤمن بالبلاء كما يتعاهد الرجل أهله بالخير . وقال حاتم الأصم إن الله عز وجل يحتج يوم القيامة على الخلق بأربعة أنفس على أربعة أجناس على الأغنياء بسليمان وعلى الفقراء بالمسيح وعلى العبيد يوسف وعلى المرضى بأبواب صلوات الله عليهم . وروى أن زكريا عليه السلام لما هرب من الكفار من بني إسرائيل واختفى في الشجرة صر فواذلك فجىء بالمنشار فشرت الشجرة حتى بلغ المنشار إلى رأس زكريا فأن منه أنه فأوحى الله تعالى إليه يا زكريا لأن صعدت منك أنه ثانية لأعوضك من ديوان النبوة ففرض زكريا عليه السلام على أصبعه حتى قطع شطرين . وقال أبو السعود البلخي : من أصيب بمصيبة ففرق ثوبا أو ضرب صدره فكأنما أخذ رحما يريد أن يقاتل به ربه عز وجل . وقال لقمان رحمه الله لابنه : يا بني إن الذهب يجرب بالنار والعبد الصالح يجرب بالبلاء فاذا أحب الله قوما ابتلاهم ، فمن رضى ظله الرضا ، ومن سخط ظله السخط . وقال الأخنف بن قيس : أصبحت يوما أشتكى ضرسى ، فقلت لعلمي ما تمت البارحة من وجع الضرس حتى قلتها ثلاثا ، فقال : لقد أكثرت من ضرسك في ليلة واحدة وقد ذهبت عيني هذه منذ ثلاثين سنة ما علم بها أحد . وأوحى الله تعالى إلى عزيز عليه السلام إذا نزلت بك بلية فلا تشكنى إلى خلقى واشك إلى كالأشكوك إلى ملائكتى إذا صعدت مساويك وفضاحك نسأل الله من عظيم لطفه وكرمه ستره الجميل في الدنيا والآخرة .

به ويوقوه على حد الرخصة ففي ذلك خير كثير وما دام العبد لا يتخطى حريم الرخصة فهو حرام إذا ثبت وخالف الفقهاء وتدريب في لزوم الرخصة يدرج بالرفق إلى أوطان العزلة . قال أبو سعيد بن الأعرابي كان شاب يعرف بأبراهيم الصانع وكان لأبيه نعمة فاقطع إلى الصوفية وصحب أبا أحمد القلاسي فربما كان يقع يد أبي أحمد شيء من الدراهم فكان يشتري له الرقاق والشواء والحلواء ويؤثره عليه ويقول هذا خرج من الدنيا وقد تعود

(١) حديث أنس ما تجرع عبد قط جرتين أحب إلى الله من جرعة غيظ ردها بحلم ، وجرعة مصيبة يصبر الرجل لها الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق من حديث علي بن أبي طالب دون ذكر الجرعتين وفيه محمد بن صدقة وهو الفدكي منكر الحديث وروى ابن ماجه من حديث ابن عمر باسناد جيد ما من جرعة أعظم عند الله من جرعة غيظ كظلمها عبد ابتغاء وجه الله وروى أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي أمامة ما قطر في الأرض قطرة أحب إلى الله عز وجل من دم رجل مسلم في سبيل الله أو قطرة دمع في سواد الليل الحديث وفيه محمد بن صدقة ، وهو الفدكي منكر الحديث .

( بيان فضل النعمة على البلاء )

لعلك تقول هذه الأخبار تدل على أن البلاء خير في الدنيا من النعم فهل لنا أن نسأل الله البلاء .  
 فأقول لا وجه لذلك لما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنه كان يستعبد في دعائه من  
 بلاء الدنيا وبلاء الآخرة <sup>(١)</sup> » وكان يقول هو والأنبياء عليهم السلام « ربنا آتنا في الدنيا حسنة  
 وفي الآخرة حسنة <sup>(٢)</sup> » وكانوا يستعيذون من شجاة الأعداء وغيرها <sup>(٣)</sup> . وقال على كرم الله وجهه  
 اللهم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله البلاء فأسأله العافية <sup>(٤)</sup> » وروى  
 الصديق رضي الله تعالى عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « سلوا الله العافية فما  
 أعطى أحد أفضل من العافية إلا اليقين <sup>(٥)</sup> » وأشار باليقين إلى عافية القلب عن مرض الجهل والشك  
 فعافية القلب أعلى من عافية البدن . وقال الحسن رحمه الله الخير الذي لا شرف فيه العافية مع الشكر  
 فكم من نعم عليه غير شاكر . وقال مطرف بن عبد الله لأن أعافى فأشكر أحب إلى من أن أبني فأعبر  
 وقال صلى الله عليه وسلم في دعائه « وعافيتك أحب إلى <sup>(٦)</sup> » وهذا أظهر من أن يحتاج فيه إلى دليل  
 واستشهاد وهذا لأن البلاء صار نعمة باعتبارين : أحدهما بالاضافة إلى ما هو أكثر منه إمامي الدنيا أوفى  
 الدين ، والآخر بالاضافة إلى ما يرجى من الثواب فينبغي أن نسأل الله تعالى نعمة في الدنيا ودفع ما فوقه من  
 البلاء ويسأله الثواب في الآخرة على الشكر على نعمته فإنه قادر على أن يعطى على الشكر ما لا يعطيه  
 على الصبر . فان قلت : قد قال بعضهم أود أن أكون جسرا على النار يصبر على الحلق كلهم  
 فينجون وأكون أنا في النار وقال ممنون رحمه الله تعالى :

وليس لي في سواك حظ فكيفما شئت فاخترني

فهذا من هؤلاء سؤال البلاء فاعلم أنه حكى عن ممنون المحب رحمه الله أنه بلى بمرض البيت ببله الحصر  
 فكان بعد ذلك يدور على أبواب الكتائب ويقول للصبيان : ادعوا لعكم الكذاب . وأما محبة الإنسان  
 ليكون هو في النار دون سائر الخلق فغير ممكنة ولكن قد تنطب المحبة على القلب حتى يظن المحب بنفسه  
 حبا لمثل ذلك فمن شرب كأس المحبة سكر ومن سكر توسع في الكلام ولوزايله سكره علم أن ما غلب  
 عليه كان حالة لا حقيقة لها فاسمعت من هذا الفن فهو من كلام العشاق الذين أفرط بهم وكلام العشاق

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم كان يستعبد في دعائه من بلاء الدنيا والآخرة أحمد من حديث  
 بشر بن أبي أرطاة بلفظ أجربنا من خزي الدنيا وعذاب الآخرة وإسناده جيد ولا يداود من حديث  
 عائشة اللهم إني أعوذ بك من ضيق الدنيا وضيق يوم القيامة وفيه بقية وهو مدلس ورواه بالنعنة  
 (٢) حديث كان يقول هو والأنبياء عليهم السلام ربنا آتنا في الدنيا حسنة وفي الآخرة حسنة وقنا  
 عذاب النار البخاري ومسلم من حديث أنس كان أكثر دعوة يدعو بها النبي صلى الله عليه وسلم يقول  
 اللهم آتنا في الدنيا الحديث ولأبي داود والنسائي من حديث عبد الله بن السائب قال سمعت رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم يقول ما بين الركنين ربنا آتتنا الحديث (٣) حديث كان يستعبد من شجاته  
 الأعداء تقدم في الدعوات (٤) حديث قال صلى الله عليه وسلم إني أسألك الصبر فقال صلى الله عليه وسلم  
 لقد سألت الله البلاء فله العافية الترمذي من حديث معاذ في أثناء حديث وحسنه ولم يسم عليا وإنما  
 قال سمع رجلا وله وللنسائي في اليوم واليلة من حديث على كنت ساكنا فربى رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم وأنا أقول الحديث وفيه فان كان بلاء فصرني فصر به برجله وقال اللهم عافه واشفه وقال حسن  
 صحيح (٥) حديث أبي بكر الصديق سلوا الله العافية الحديث ابن ماجه والنسائي في اليوم واليلة بإسناد  
 جيد وقد تقدم (٦) حديث وعافيتك أحب إلى ذكره ابن اسحق في السيرة في دعائه يوم خرج إلى  
 الطائف بلفظ وعافيتك أوسع لي وكذا رواه ابن أبي الدنيا في الدعاء من رواية حسان بن عطية مرسل

النعمة فيجب أن تفرق  
 به وتؤثره على غيره .  
 ومن آداب الشيوخ  
 التنزه عن مال المريد  
 وخدمته والارتفاق  
 من جانبه بوجه من  
 الوجوه لأنه جاء الله  
 تعالى فيجعل نفسه  
 وإرشاده خالصا لوجه  
 الله تعالى فما يسدى  
 الشيخ للمريد من  
 أفضل الصدقات .  
 وقد ورد « ما تصدق  
 متصدق بصدقة أفضل  
 من علم يثقه في الناس »  
 وقد قال الله تعالى  
 تنزيها على خلوص  
 ماله وحراسته من  
 الشوائب . إنا نطمعكم  
 لوجه الله لا نريد منكم  
 جزاء ولا شكورا فلا  
 ينبغي للشيخ أن يطلب

يستقل ساعه ولا جوار عليه كما حكى أن فاختة كان يرادها زوجها فتعنه فقال ما الذي يمنعك عنى ولو أردت أن أقلب لك الكونين مع ملك سليمان ظهرا لبطن لعلته لأجلك فسمعه سليمان عليه السلام فاستدعاه وعاتبه فقال يابى الله كلام العشاق لا يعنى وهو كما قال ، وقال الشاعر :

أريد وصاله ويريد هجرى فأترك ما أريد لما يريد

وهو أيضا محال ومعتاد أنى أريد ما لا يريد لأن من أراد الوصال ما أراد الهجر فكيف أراد الهجر الذى لم يرد به بل لا يصدق هذا الكلام إلا بتأويلين : أحدهما أن يكون ذلك فى بعض الأحوال حتى يكتب به رضاه الذى يتوصل به إلى مراد الوصال فى الاستقبال فيكون الهجران وسيلة إلى الرضا والرضا وسيلة إلى وصال المحبوب والوسيلة إلى المحبوب محبوبة فيكون مثاله مثال محب المال إذا سلم درهمه فى درهمين فهو يحب الدرهمين يترك الدرهم فى الحال . الثانى أن يصبر رضاء عنده مطلوب ومن حيث إنه رضاء فقط ويكون له لذة فى استعمار مرضاه محبوبة منه تريد تلك اللذة على لذة فى مشاهدته مع كراهته فند ذلك يتصور أن يريد ما فيه الرضا فلا ذلك قد انتهى حال بعض المحبين إلى أن صارت لذتهم فى البلاء مع استعمارهم رضاء الله عنهم أكثر من لذتهم فى العافية من غير شعور الرضا فهو لاء إذا قدر وارضاء فى البلاء صار البلاء أحب إليهم من العافية وهذه حالة لا يدور عنها فى غلبات الحب ولكنها لا تثبت وإن ثبتت مثلاً فهل هى حالة صحيحة أم حالة اقتضتها حالة أخرى وردت على القلب فالت به عن الاعتدال هذا فيه نظر وذكر تحقيقه لا يليق بما نحن فيه وقد ظهر بما سبق أن العافية خير من البلاء فنسأل الله تعالى اللان بفضل على جميع خلقه العفو والعافية فى الدين والدنيا والآخرة لنا ولجميع المسلمين .

( بيان الأفضل من الصبر والشكر )

اعلم أن الناس اختلفوا فى ذلك فقالوا الصبر أفضل من الشكر وقال آخرون الشكر أفضل وقال آخرون هما سيات وقال آخرون يختلف ذلك باختلاف الأحوال واستدل كل فريق بكلام شديد الاضطراب بعيد عن التحصيل فلامنى للتطويل بالنقل بل البادرة إلى إظهار الحق أولى فتقول فى بيان ذلك تمامان : اللقاه الأول البيان على سبيل التساهل وهو أن ينظر إلى ظاهر الأمر ولا يطلب بالتفتيش بحقيقته وهو البيان الذى ينبغى أن يخاطب به عوام الخلق لقصور أفهامهم عن درك الحقائق الغامضة وهذا الفن من الكلام هو الذى ينبغى أن يعتمد الوعاظ إذ مقصود كلامهم من مخاطبة العوام إصلاحهم والظفر المشقة لا ينبغى أن تصلح العسى الطفل بالطيور البان وضروب الحلاوات بل باللبان اللطيف وعليها أن تؤخر عنه أطايب الأطعمة إلى أن يصير ممثلاً لما بوقته ويفارق الضعف الذى هو عليه فى بنيتة فتقول : هذا اللقاه فى البيان بأى البحث والتفصيل ومقتضاها النظر إلى الظاهر المفهوم من موارد الشكر وذلك يقتضى تفضيل الصبر فإن الشكر وإن وردت أخبار كثيرة فى فضله فإذا أضيف إليه ما ورد فى فضيلة الصبر كانت فضائل الصبر أكثر بل فيه ألفاظ صريحة فى التفضيل كقوله صلى الله عليه وسلم « من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر <sup>(١)</sup> » وفى الخبر « يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض فيقال له : أما ترضى أن يجزيك كما جزينا هذا الشاكر ، فيقول نعم يا رب فيقول الله تعالى : كلا أنصت عليه فشكر وإجلتلك فصبرت لأضعف لك الأجر عليه فيعطى أضاعف جزاء الشاكرين <sup>(٢)</sup> » وقد قال الله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - وأما قوله « الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر <sup>(٣)</sup> »

ورواه أبو عبد الله بن منده من حديث عبد الله بن جعفر مسنداً وفيه من يحمل (١) حديث من أفضل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر تقدم (٢) حديث يؤتى بأشكر أهل الأرض فيجزيه الله جزاء الشاكرين ويؤتى بأصبر أهل الأرض الحديث لم أجده أصلاً (٣) حديث الطاعم الشاكر بمنزلة الصائم الصابر الترمذى وحسنه وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم .

على صدقته جزاء إلا أن يظهر له فى شيء من ذلك علم يرد عليه من الله تعالى فى قبول الفرق منه أو صلاح يراه للشيخ فى حق للريد بذلك فيكون التلبس بالله والارتفاق بخدمة لمصلحة تعود على للريد مأمونة الفائقة من جانب الشيخ قال الله تعالى - يؤتىكم أجوركم ولا بآلكم أموالكم إن يآلكموها فيضكم تبخلوا وبخرج أضعافكم - معنى يحفكم أى يحمدكم وبلغ عليكم . قال قتادة : علم الله تعالى أن فى خروج المال إخراج الأضعاف وهذا



فهو دليل على أن الفضيلة في الصبر إذ ذكر ذلك في معرض البالغة لرفع درجة الشكر فألحقه بالصبر فكان هذا منتهى درجته ولولا أنه فهم من الشرع علو درجة الصبر لما كان إلحاق الشكر به مبالغة في الشكر وهو كقوله صلى الله عليه وسلم «الجمعة حجج للسالكين وجهاد للرأى حسن التبعل» (١) وكقوله صلى الله عليه وسلم «شارب الخمر كعابد الوثن» (٢) وأبدا التشبه به ينبغي أن يكون أعلى رتبة فكذا قال صلى الله عليه وسلم «الصبر نصف الإيمان» لا يدل على أن الشكر مثله ، وهو كقوله عليه السلام «الصوم نصف الصبر» فإن كل ما ينقسم قسمين يسمى أحدهما نصفاً وإن كان بينهما تفاوت كما يقال الإيمان هو العلم والعمل فالعمل هو نصف الإيمان فلا يدل ذلك على أن العمل يساوي العلم ، وفي الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أمماني دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه» (٣) وفي خبر آخر «يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً» (٤) وفي الخبر «أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه مصراع واحد وأول من يدخله أهل البلاء أمامهم أيوب عليه السلام» (٥) وكل ما ورد في فضائل الفقر يدل على فضيلة الصبر لأن الصبر حال الفقير والشكر حال الغنى، فهذا هو المقام الذي يقع العوام ويكفيهم في الوعظ اللائق والتعريف لما فيه صلاح دينهم . المقام الثاني : هو البيان الذي قصد به تعريف أهل العلم والاستبصار بحقائق الأمور بطريق الكشف والايضاح فنقول فيه : كل أمرين مبهمين لا يمكن للوازنة بينهما مع الإبهام ما لم يكشف عن حقيقة كل واحد منهما وكل مكتشف يشتمل على أقسام لا يمكن للوازنة بين الجملة والجملة بل يجب أن تفرد الآحاد بالموازنة حتى يتبين الرجحان والصبر والشكر أقسامهما وشبههما كثيرة فلا يتبين حكمهما في الرجحان

(١) حديث الجمعة حجج للسالكين وجهاد للرأى حسن التبعل الحديث بن أبي أسامة في مسنده بالشرط الأول من حديث ابن عباس بسند ضعيف أو الطبراني بالشرط الثاني من حديثه بسند ضعيف أيضاً أن امرأة قالت كتب الله الجهاد على الرجال فلا يعدل ذلك من أعمالهم من الطاعة قال طاعة أزواجهن وفي رواية ماجزء غزوة المرأة قال طاعة الزوج الحديث وفيه القاسم بن قياض وثقه أبو داود وضعفه ابن معين وباقي رجاله ثقات (٢) حديث شارب الخمر كعابد الوثن ابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ مضمن الخمر ورواه بلفظ شارب الحديث بن أبي أسامة من حديث عبداللّٰه بن عمر وكلاهما ضعيف وقال ابن عدى إن حديث أبي هريرة أخطأ فيه محمد بن سليمان بن الأصماني (٣) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود لمكان ملكه وآخر أمماني دخولا الجنة عبدالرحمن بن عوف لمكان غناه الطبراني في الأوسط من حديث معاذ بن جبل يدخل الأنبياء كلهم قبل داود وسليمان الجنة بأربعين عاماً وقال لم يروه إلا شعيب بن خاله وهو كوفي ثقة ، وروى البزار من حديث أنس أول من يدخل الجنة من أغنياء أمي عبدالرحمن بن عوف وفيه أغلب بن تميم ضعيف (٤) حديث يدخل سليمان بعد الأنبياء بأربعين خريفاً تقدم حديث معاذ قبله ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية دينار عن أنس بن مالك ودينار الحبشي أحد الكذابين على أنس والحديث منكر (٥) حديث أبواب الجنة كلها مصراعان إلا باب الصبر فإنه باب واحد الحديث لم أجده أصلاً ولا في الأحاديث الواردة في مصاريع أبواب الجنة تفرقة ، فروى مسلم من حديث أنس في الشفاعة والذي نفس محمد بيده إن ما بين للصراعين من مصاريع الجنة لكما بين مكة وهجر أو كما بين مكة وبصرى والى الصحيحين في خطبة عتبة بن غزوان ولقد ذكر لنا أن ما بين الصراعين من مصاريع الجنة مسيرة أربعين سنة وليأتين عليه يوم وهو كظيم من الزحام .

تأديب من الله الكريم  
والأدب أدب الله .  
قال جعفر الخلدی جاء  
رجل إلى الجنيد وأراد  
أن يخرج عن ماله  
كله ويجلس معهم  
على الفقر فقال له الجنيد  
لا تخرج من مالك  
كله احبس منه مقدار  
ما يكفيك وأخرج  
الفضل وقوت بما  
حبست واجتهد في  
طلب الحلال لا تخرج  
كل ما عندك قلت  
آمن عليك أن  
تطالبك تصك وكان  
النبي عليه السلام إذا  
أراد أن يعمل عملاً  
ثبت وقد يكون  
الشيخ يعلم من حاله  
للريد أنه إذا خرج  
من الشيء يكسبه من

والنقصان مع الاجمال فتقول : قد ذكرنا أن هذه اللقائات تنظم من أمور ثلاثة : علوم وأحوال وأعمال والشكر والصبر وسائر اللقائات هي كذلك وهذه الثلاثة إذا وزن البعض منها ببعض لآخر للناظرين في الظواهر أن العلوم تتراد للأحوال والأحوال تتراد للأعمال والأعمال هي الأفضل. وأما أرباب البصائر فالأمر عندهم بالعكس من ذلك فإن الأعمال تتراد للأحوال والأحوال تتراد للعلوم فالأفضل العلوم ثم الأحوال ثم الأعمال لأن كل مراد لغيره فذلك الغير لا محالة أفضل منه . وأما آحاد هذه الثلاثة فالأعمال قد تتساوى وقد تتفاوت إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد الأحوال إذا أضيف بعضها إلى بعض وكذا آحاد المعارف وأفضل المعارف علوم الكاشفة وهي أرفع من علوم العامة بل علوم العامة دون العامة لأنها تتراد للعامة فتأيدتها إصلاح العمل وإنما أفضل العالم بالمعاملة على العابد إذا كان عليه محاسن فنه ، فيكون بالإضافة إلى عمل خاص أفضل وإلا فالعلم القاصر بالعمل ليس بأفضل من العمل القاصر فتقوله : فائدة إصلاح العمل إصلاح حال القلب وفائدة إصلاح حال القلب أن يكشف له جلال الله تعالى في ذاته وصفاته وأفعاله فأرفع علوم الكاشفة معرفة الله سبحانه وهي الغاية التي تطلب لذاتها فإن السعادة تنال بها بل هي عين السعادة ولكن قد لا يشعر القلب في الدنيا بأنها عين السعادة وإنما يشعر بها في الآخرة فهي للحررة التي لا قيد عليها فلا تنقيد بغيرها وكل ماعداها من المعارف عبيد وختم بالإضافة إليها فإنها إما تتراد لأجلها ولما كانت مرادة لأجلها كان تفاوتها بحسب تقمها في الإفضاء إلى معرفة الله تعالى فإن بعض المعارف يفضي إلى بعض إما بواسطة أو بوسائط كثيرة فكما كانت الوسائط بينهما وبين معرفة الله تعالى أقل فهي أفضل . وأما الأحوال فنحن بها أحوال القلب في تصفيته وتطهيره عن شوائب الدنيا وشواغل الخلق حتى إذا طهر وصفا تضح له حقيقة الحق فاذن فضائل الأحوال بقدر تأثيرها في إصلاح القلب وتطهيره وإعداده لأن تحصله علوم الكاشفة ، وكما أن تصفية الرأية يحتاج إلى أن يتقدم على تمامه أحوال الرأية بعضها أقرب إلى الصفاة من بعض فكذلك أحوال القلب فالحالة القريبة أو القريبة من صفاء القلب هي أفضل لمعادونها لأحالة بسبب القرب من المقصود وهكذا ترتيب الأعمال فإن تأثيرها في تأكيد صفاء القلب وجلب الأحوال إليه وكل عمل إيمان يجلب إليه حالة مائة من الكاشفة موجبة لظلمة القلب جاذبة إلى زخارف الدنيا وإما أن يجلب إليه حالة مهيبة للكاشفة موجبة لصفاء القلب وقطع علائق الدنيا عنه واسم الأول المصية واسم الثاني الطاعة والمعاصي من حيث التأثير في ظلمة القلب وقساوته متفاوتة وكذا الطاعات في تنوير القلب وتصفيته فدرجاتها بحسب درجات تأثيرها وذلك يختلف باختلاف الأحوال ، وذلك أنا بالقول للطلق ربما نقول الصلاة النافلة أفضل من كل عبادة نافلة وأن الحج أفضل من الصدقة وأن قيام الليل أفضل من غيره ولكن التحقيق فيه أن النفي الذي معه ما لو قد غلبه البخل وحب المال على إمساكه فأخرج الدرهم له أفضل من قيام ليل وصيام أيام لأن الصيام يليق بمن غلبته شهوة البطن فأراد كسرها أو منعه الشبع عن صفاء القسرك من علوم الكاشفة فأراد تصفية القلب بالجوع فأما هذا للدبر إذا لم تكن حاله هذه الحال فليس يستضر شهوة بطنه ولا هو مشغل بنوع فكر يمنعه الشبع منه فاشتغاله بالصوم خروج منه عن حاله إلى حال غيره وهو كالمرضى الذي يشكو وجع البطن إذا استعمل دواء الصداع لم ينتفع به بل حقه أن ينظر في الهلك الذي استولى عليه والشبع الطامع من جملة المهلكات ولا يزال صيام مائة سنة وقيام ألف ليلة منه ذرة بل لا يزيله إلا إخراج اللال فلهذا أن يتصدق بما معه ، وتفصيل هذا مما ذكرناه في ربيع للهلكات فليرجع إليه فاذن باعتبار هذه الأحوال يختلف وعند ذلك يعرف البصير أن الجواب للطلق فيه خطأ

الحال ملا يتطلع به إلى اللال فينتد بجوز له أن يفسح للرديد في الخروج من اللال كما فسح رسول الله صلى الله عليه وسلم لأبي بكر وقبل منه جميع ماله ، ومن آداب الشيخ إذا رأى من بعض الريدين مكروها أو علم من حاله أعوجاجا أو أحسن منه بدعوى أو رأى أنه داخله عجب أن لا يصرح له بالمكروه بل يتكلم مع الأصحاب ويشير إلى المكروه الذي يعلم ويكشف عن وجه اللزمة مجالا فتصل بذلك الفائدة لكل فهذا أقرب إلى الداراة وأكثر أثرا لتألف

إذ لو قال لنا قائل الخير أفضل أم الماء لم يكن فيه جواب حتى إلا أن الخير للجائع أفضل والماء للعطشان أفضل فان اجتماعا فليُنظر إلى الأغلب فان كان العطش هو الأغلب فالماء أفضل وإن كان الجوع أغلب فالخير أفضل فان تساوى فهما متساويان وكذا إذا قيل السكجيين أفضل أم شراب الينوفرم يصح الجواب عنه مطلقا أصلا ، نعم لو قيل لنا السكجيين أفضل أم عدم الصغراء . فنقول : عدم الصغراء لأن السكجيين مراد له وما يراد لغيره فلذلك الغير أفضل منه لاهالة فاذن في بذل المال عمل وهو الإغناق ويحصل به حال وهو زوال البخل وخروج حب الدنيا من القلب ونشأ القلب بسبب خروج حب الدنيا منه لمعرفة الله تعالى وجهه فالأفضل للفرقة ودونها الحال ودونها العمل . فان قلت قد حث الشارع على الأعمال وبالحق في ذكر فضلها حتى طلب الصدقات بقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - وقال تعالى - ويأخذ الصدقات - فكيف لا يكون الفعل والاتفاق هو الأفضل . فاعلم أن الطبيب إذا أتى على الدواء لم يملك على أن الدواء مراد لغيره أو على أنه أفضل من الصحة والشفاء الحاصل به ولكن الأعمال علاج لمرض القلوب ومرض القلوب مما لا يشعر به ظاهرا فهو كبرص على وجه من لا امرأة معه فانه لا يشعر به ولو ذكر له لا يصدق به والسيل مع البالغة في الشتاء على غسل الوجه بماء الورد مثلا إن كان ماء الورد يزول البرص حتى يستحبه فرط الشتاء على المواظبة عليه فيزول مرضه فانه لو ذكر له أن القصد زوال البرص عن وجهك ربما ترك العلاج وزعم أن وجهه لا عيب فيه ولتضرب مثلا أقرب من هذا فنقول : من له ولد علمه العلم والقرآن وأراد أن يثبت ذلك في حفظه بحيث لا يزول عنه وعلم أنه لو أمره بال تكرار والدراسة لبقى له محفوظا لقال إنه محفوظ ولا حاجة إلى تكرار ودراسة لأنه يظن أن ما يحفظه في الحال يبقى كذلك أبدا وكان له عييد فأمر الولد بتعليم العبيد ووعد على ذلك بالجليل لتوفر ذاعيته على كثرة التكرار بالتعليم فربما يظن الصبي للسكين أنه للقصد تعليم العبيد القرآن وأنه قد استخدم لتعليمهم فيشكل عليه الأمر فيقول ما بالي قد استخدمت لأجل العبيد وأنا أجل منهم وأعز عند الوالد وأعلم أن أبي لو أراد تعليم العبيد لقدّر عليه دون تكليفي به وأعلم أنه لا نقصان لأبي بقصد هؤلاء العبيد فضلا عن عدم علمهم بالقرآن فرعا يتكاسل هذا للسكين فيترك تعليمهم اعتادا على استثناء أبيه وعلى كرمه في الصفوة عنه فينسى العلم والقرآن ويسبق مدبرا محروما من حيث لا يدري وقد انخدع بمنزل هذا الخيال طائفة وسلكوا طريق الإباحة وقالوا إن الله تعالى غنى عن عبادتنا وعن أن يستقرض منا فأى معنى لقوله - من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا - ولو شاء الله إطعام الساكين لأطعمهم فلا حاجة بنا إلى صرف أموالنا إليهم كما قال تعالى حكاية عن الكفار - وإذا قيل لهم أنفقوا مما رزقكم الله قالوا الذين كفروا الذين آمنوا أن نعطيهم من لو يشاء الله أطعمهم وقالوا أيضا - لو شاء الله ما أشركنا ولا آباءنا - فانظر كيف كانوا اساقدين في كلامهم وكيف هلكوا بصدقهم فسبحان من إذا شاء أهلك بالصدق وإذا شاء أسعد بالجهل ضل به كثير أو بهدى به كثيرا فهو لا لما ظنوا أنهم استخدموا لأجل الساكين والفقراء أو لأجل الله تعالى ثم قالوا لاحظنا في الساكين ولا حظ لله فينا وفي أموالنا سواء أفتقنا أو أمسكنا هلكوا كما هلك الصبي لما ظن أن مقصود الوالد استخدامه لأجل العبيد ولم يشعر بأنه كان للقصد ثبات صفة العلم في نفسه وتأكده في قلبه حتى يكون ذلك سبب سعادته في الدنيا وإنما كان ذلك من الوالد نطقا به في استجراؤه إلى ما فيه سعادته ، فهذا للمثاليين لك ضلال من ضل من هذا الطريق فاذن للسكين الأخذ لا يستوفى بواسطة المال حيث البخل وحب الدنيا من باطنك فانه مهلك لك فهو كالحجام يستخرج الدم منك ليخرج بغيره الدم الملع الهلكة من باطنك فالجوام خادم لك لا أنت خادم للجوام ولا يخرج الجوام عن كونه خادما بأن يكون له

القلوب وإذا رأى من  
للريد تقصير في خدمة  
نديه إليها يحمل تقصيره  
ويغفو عنه ويحرمه  
على الخدمة بالرفق  
واللين وإلى ذلك نذب  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فيما أخبرنا  
ضياء الدين عبد الوهاب  
ابن أبي القاسم أبو الفتح  
الكروخي قراءة عليه  
قال أنا أبو نصر الترياق  
قال أنا أبو محمد الجراحي  
قال أنا أبو العباس  
الحجوي قال أنا أبو عيسى  
الترمذي قال ثنا حنيفة  
قال ثنا رعد بن  
سعد عن أبي هلال  
الحولاني عن ابن  
عباس بن جليل  
الحجري عن عبد الله بن

غرض في أن يصنع شيئا بالدم ولما كانت الصدقات مطهرة للبواطن ومزكية لها عن خبايا الصفات امتنع رسول الله صلى الله عليه وسلم من أخذها وانتهى عنها (١) كما نهى عن كسب الحجام وصماها أو ساع أموال الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها (٢) والتصود أن الأعمال مؤثرات في القلب كما سبق في ربيع الهلكات والقلب بحسب تأثيرها مستعد لقبول الهداية ونور المعرفة فهذا هو القول الكلي والقانون الأصلي الذي ينبغي أن يرجع إليه في معرفة فضائل الأعمال والأحوال والعرفان ولزج الآن إلى خصوص ما نحن فيه من الصبر والشكر فتقول في كل واحد منهما معرفة وحال وعمل فلا يجوز أن تقابل المعرفة في أحدهما بالحال أو العمل في الآخر بل يقابل كل واحد منهما بنظيره حتى يظهر التناسب وبهذا التناسب يظهر الفضل ومهما قولت معرفة الشاكر بمعرفة الصابر ربما رجعا إلى معرفة واحدة إذ معرفة الشاكر أن يرى نعمة العيين مثلا من الله تعالى ومعرفة الصابر أن يرى العيني من الله وهما معرفتان متلازمتان متساويتان هذا إن اعتبرت في البلاء والأصايب وقد بينا أن الصبر قد يكون على الطاعة وعن اللصيق وفيها يتحد الصبر والشكر لأن الصبر على الطاعة هو عين شكر الطاعة لأن الشكر يرجع إلى صرف نعمة الله تعالى إلى ما هو التصود منها بالحكمة والصبر يرجع إلى ثبات باعث الدين في مقابلة باعث الهوى فالصبر والشكر فيه إيمان لمسمى واحد باعتبارين مختلفين ثبات باعث الدين في مقاومة باعث الهوى يسمى صبرا بالإضافة إلى باعث الهوى ويسمى شكرا بالإضافة إلى باعث الدين إذ باعث الدين إنما خلق لهذه الحكمة وهو أن يصبر به باعث الشهوة وقد صرفه إلى مقصود الحكمة فهما عبارتان عن معنى واحد فكيف يفضل الشيء على نفسه فاذن مجازي الصبر ثلاثة : الطاعة والصلية والبلاء وقد ظهر حكمها في الطاعة والصلية وأما البلاء فهو عبارة عن فقد نعمة والنعمة إما أن تقع ضرورية كالعينين مثلا وإما أن تقع في محل الحاجة كالزيادة على قدر الكفاية من المال أما العينان فبصر الأعمى عنهما بأن لا يظهر التشكوى ويظهر الرضا بقضاء الله تعالى ولا يترخص بسبب العمى في جنى المصاوي وشكر البصير عليها من حيث العمل بأمرين : أحدهما أن لا يستعين بهما على مصيبة ، والآخر أن يستعملهما في الطاعة وكل أحد من الأمرين لا يخلو عن الصبر فإن الأعمى كفى الصبر عن الصور الجميلة لأنه لا يراها والبصير إذا وقع بصره على جبل فبصر كان ما كرا لعمدة العينين وإن أتبع النظر كفر نعمة العينين فقد دخل الصبر في شكره وكذا إذا استعان بالعينين على الطاعة فلا بد أيضا فيه من صبر على الطاعة ثم قد يشكرها بالنظر إلى حجاب صنع الله تعالى ليتوصل به إلى معرفة الله سبحانه وتعالى فيكون هذا الشكر أفضل من الصبر ولولا هذا لكانت رتبة شعب عليه السلام مثلا وقد كان ضريرا من الأنبياء فوق رتبة موسى عليه السلام وغيره من الأنبياء لأنه صبر على فقد البصر وموسى عليه السلام لم يصبر مثلا ولكان الكمال في أن يسلب الإنسان الأطراف كلها ويترك كلمه على وضوء ذلك محال جدا لأن كل واحد من هذه الأعضاء آلة في الدين يغوت بغوتها ذلك الركن من الدين وشكرها باستعمالها فيها هي آلة فيه من الدين وذلك لا يكون إلا بصبر وأما ما يقع في محل الحاجة كالزيادة على الكفاية من المال فانه إذا لم يؤت إلا قدر الضرورة وهو محتاج إلى ما وراءه ففي الصبر عنه مجاهدة وهو جهاد الفقير ووجود الزيادة نعمة وشكرها أن تصرف إلى الخيرات أو أن لا تستعمل في اللصيق فإن أضيف الصبر إلى الشكر الذي هو صرف إلى الطاعة فالشكر أفضل لأنه تضمن الصبر أيضا وفيه فرح بنعمة الله

عمر قال جاء رجل إلى النبي عليه السلام فقال يا رسول الله كم أعفو عن الخادم قال « كل يوم صبيح مرة » وأخلاق للشايع مهذبة بحسن الاقتداء برسول الله صلى الله عليه وسلم وهم أحق الناس بأحياء سنته في كل ما أمر وتنب وأنكروا وأوجب ومن جملة مهام الآداب حفظ أسرار للريدين فيها يكاشفون به ويمنحون من أنواع للنسح فسر الريد لا يتعدى ربه وشيخه ثم يحقر الشيخ في نفس للريدي ما يجد في خلوته من كشف أو صماخ خطاب أو شيء من خوارق العادات يعرفه

(١) حديث انتهى عن كسب الحجام تقدم (٢) حديث امتنع من الصدقة وصماها أو ساع الناس وشرف أهل بيته بالصيانة عنها مسلم من حديث عبد اللطيف بن ربيعة إن هذه الصدقة لا تحل لنا إنما هي أو ساع القوم وإنما لا تحل لمحمد ولا لآل محمد وفي رواية له أو ساع الناس .

تعالى وفيه احتمال ألم في صرفه إلى الفقراء وترك صرفه إلى التمتع بالبإح وكان الحاصل يرجع إلى أن شيئين  
أفضل من شيء واحد وأن الجملة أسمى رتبة من البعض وهذا فيه خلل إذ لا تصح للوازنة بين الجملة وبين  
أبعاضها وأما إذا كان شكره بأن لا يستعين به على مصيبة بل يصرفه إلى التمتع بالبإح فالصبر هو أفضل  
من الشكر والفقير الصابر أفضل من الغنى للمسك ماله الصارف إياه إلى المباحات لا من الغنى الصارف ماله  
إلى الخيرات لأن الفقير قد جاهد نفسه وكسرتهمته وأحسن الرضا على بلاء الله تعالى وهذه الحالة تستدعي  
لامحالة قوة والغنى أبسح نعمته وأطاع شهوته ولكنه اقتصر على البإح والبإح فيه مندوحة عن الحرام  
ولكن لا بد من قوة في الصبر عن الحرام أيضا إلا أن القوة التي عنها يصدر صبر الفقير أسمى وأتم من هذه  
القوة التي يصدر عنها الاقتصاد في التمتع على البإح والشرف تلك القوة التي يدل العمل عليها أن الأعمال  
لا تتراد إلا لأحوال القلوب وتلك القوة حالة القلب تختلف بحسب قوة اليقين والإيمان فإدراك زيادة  
قوة في الإيمان فهو أفضل لامحالة وجميع ما ورد من تفضيل أجر الصبر على أجر الشكر في الآيات والأخبار  
إنما أريد به هذه الرتبة على المحصر لأن السابق إلى أفهام الناس من النعمة والأموال والغنى بها  
والسابق إلى الأفهام من الشكر أن يقول الإنسان الحمد لله ولا يستعين بالنعمة على المصيبة لأن يصرفها  
إلى الطاعة ، فإذن الصبر أفضل من الشكر أي الصبر الذي فهمه العامة أفضل من الشكر الذي فهمه  
العامة وإلى هذا الغنى على الخصوص أشار الجنيد رحمه الله حيث سئل عن الصبر والشكر أيهما أفضل  
فقال ليس مدح الغنى بالوجود ولا مدح الفقر بالعدم وإنما المدح في الاثنين قيامهما بشرط ما عليهما  
فشرط الغنى يصحبه فيما عليه أشياء تلائم صفته وتمتعها وتلذذها والفقير يصحبه فيما عليه أشياء تلائم  
صفته وتقبضها وتزججها فإذا كان الاثنان قائمين لله تعالى بشرط ما عليهما كان الذي آلم صفته وأزججها  
أتم حالا ممن تمتع صفته ونعمها والأمر على ما قاله وهو صحيح من جهة أقسام الصبر والشكر في القسم  
الأخير الذي ذكرناه وهو لم يرد سواء ويقال كان أبو العباس بن عطاء قد خالفه في ذلك وقال الغنى  
الشاكر أفضل من الفقير الصابر فدعا عليه الجنيد فأصابه ما أصابه من البلاء من قتل أولاده وإتلاف  
أمواله وزوال عقله أربع عشرة سنة فكان يقول دعوة الجنيد أصابني ورجع إلى تفضيل الفقير  
الصابر على الغنى الشاكر ومهما لاحظت المعاني التي ذكرناها علمت أن لكل واحد من القولين وجها  
في بعض الأحوال فرب فقير صابر أفضل من غنى شاكر كما سبق ورب غنى شاكر أفضل من فقير صابر وذلك  
هو الغنى الذي يرى نفسه مثل الفقير إذ لا يسكن لنفسه من المال إلا قدر الضرورة والباقي يصرفه إلى الخيرات  
أو يسكنه على اعتقاد أنه خازن للمحتاجين وللساكين وإنما ينتظر حاجه تسنح حتى يصرفها إليهم إذا  
صرف لم يصرفه لطلب جاء وصيت ولا تقليد منه بل أداء لحق الله تعالى في فقد عبادته فهذا أفضل من الفقير  
الصابر ، فإن قلت فهذا لا يثقل على النفس والفقير يثقل عليه الفقر لأن هذا يستشعر لذة القدرة وذلك  
يستشعر ألم الصبر فإن كان متألما بفراق المال فينجبر ذلك ببلاته في القدرة على الانفاق ، فاعلم أن الذي  
نراه أن من ينفق ماله عن رغبة وطيب نفس أكل حالا ممن ينفقه وهو يخجل به وإنما يقتطعه عن  
نفسه قهرا وقد ذكرنا تفصيل هذا فيما سبق من كتاب التوبة في أيام النفس ليس مطاوع بالعين بل لتأديبها  
وذلك يضاهي ضرب كلب الصيد والكلب التأديب أكل من الكلب المحتاج إلى الضرب وإن كان صابرا على  
الضرب ولذلك يحتاج إلى الإيلاء والمجاهدة في البداية ولا يحتاج إليها في النهاية بل النهاية أن يصير ما كان  
مؤلما في حقه لذينة عنده كما يصير النظم عند الصبي العاقل لذينة وقد كان مؤلما له أو لا ولكن لما كان  
الناس كلهم إلا الأقلين في البداية بل قيل البداية بكثير كالصبيان أطلق الجنيد القول بأن الذي يؤلم صفته  
أفضل وهو كما قال صحيح فيما أراد من عموم الحلق ، فإذا كنت لا تفصل الجواب وتطلقه لإرادة الأكثر

أن الوقوف مع شيء  
من هذا يشغل عن  
الله ويسد باب الزيد  
بل يعرف أن هذه نعمة  
تشكر ومن ورائها نعم  
لا تحصى ويعرفه أن  
شأن المرید طلب النعم  
لا النعمة حتى يبقى سره  
محفوظا عند نفسه  
وعند شيخه ولا يذيع  
سره فإذاعة الأسرار  
من ضيق الصدر  
وضيق الصدر  
الوجب لإذاعة السر  
يوصف به الفسوان  
وضغفاء العقول من  
الرجال وسبب إذاعة  
السر أن الإنسان قوتين  
أخذة ومعطية وكلتاها  
تتشوف إلى الفضل  
المختص بها ولولا أن  
الله تعالى وكل للمعطية  
بإظهار ما عندها

فأطلق القول بأن الصبر أفضل من الشكر فانه صحيح بالمعنى السابق إلى الأفهام فإذا أردت التحقيق فصل فإن للصبر درجات أقلها ترك الشكوى مع الكراهية ووراءها الرضا وهو مقام وراء الصبر ووراءه الشكر على البلاء وهو وراء الرضا إذا الصبر مع التأمل والرضا يمكن بمال ألم فيه ولا فرح والشكر لا يمكن إلا على محبوب مفروح به وكذلك الشكر درجات كثيرة ذكرنا أقصاها ويدخل في جملتها أمور دونها فإن حياة العبد من تتابع نعم الله عليه شكر ومعرفة بتقصيره عن الشكر شكر والاعتذار من قلة الشكر شكر والمعرفة بعظيم حلم الله وكف ستره شكر والاعتراض بأن النعم ابتداء من الله تعالى من غير استحقاق شكر والطم بأن الشكر أيضا نعمة من نعم الله وهو هبة منه شكر وحسن التواضع للنعم والتذلل فيها شكر وشكر الوسائط شكر إذ قال عليه السلام «من لم يشكر الناس لم يشكر الله» (١) وقد ذكرنا حقيقة ذلك في كتاب أسرار الزكاة وقلة الاعتراف وحسن الأدب بين يدي النعم شكر وتلقى النعم بحسن القبول واستعظام صغرها شكر وما يندرج من الأعمال والأحوال تحت اسم الشكر والصبر لا تنحصر آحادها وهي درجات مختلفة فكيف يمكن إجمال القول بتفضيل أحدهما على الآخر إلا على سبيل إرادة الخصوص باللفظ العام كما ورد في الأخبار والآثار وقد روى عن بعضهم أنه قال رأيت في بعض الأسفار شيخا كبيرا قد طعن في السن فسأته عن حاله فقال إني كنت في ابتداء عمري أهوى ابنة عم لي وهي كذلك كانت ثم واني فاتفق أنهما زوجت مني فليقز فافها قلت تعالى حتى نحبي هذه الليلة شكرا لله تعالى على ما جمعا فضلينا تلك الليلة ولم يتفرغ أحدهما إلى صاحبه فلما كانت الليلة الثانية قلنا مثل ذلك فضلينا طول الليل فند سبعين أو ثمانين سنة نحن على تلك الحالة كل ليلة أليس كذلك يا فلانة قالت المعجوز هو كما يقول الشيخ فانظر إليهما لو صبرا على بلاء الفرقة أن لو لم يجمع الله بينهما وأنسب صبر الفرقة إلى شكر الوصال على هذا الوجه فلا يخفى عليك أن هذا الشكر أفضل فاذن لاوقوف على حقائق الفضلات لا بتفضيل كما سبق والله أعلم .

### (كتاب الخوف والرجاء)

(وهو الكتاب الثالث من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين)

(بسم الله الرحمن الرحيم)

الحمد لله المرجو لطفه وثوابه الخوف مكره وعقابه الذي عمر قلوب أوليائه بروح رجائه حتى ساقهم بطائف آلائه إلى التزول بفنائهم والعدول عن دار بلائه التي هي مستقر أعدائه وضرب بسياط التخويف وزجره العنيف وجوه للعرضين عن حضرته إلى دار ثوابه وكرامته وصددهم عن التعرض لأثامته والتهدف لسخطه ونعمته قودا لأصناف الخلق بسلاسل القهر والعنف وأزمة الرفق واللطف إلى جنته ، والصلاة على محمد سيد أنبيائه وخير خليفته وعلى آله وأصحابه وعترته .

[أما بعد] فإن الرجاء والخوف جناحان بهما يطير القربون إلى كل مقام محمود ومطيتان بهما يقطع من طرق الآخرة كل عقبة كشود فلا يقود إلى قرب الرحمن وروح الجنان مع كونه بعيد الأرجاء ثقيل الأعباء محفوقا بكاره القلوب ومشاق الجوارح والأعضاء إلا أزمة الرجاء ولا يصد عن نار الجحيم والعذاب الألم مع كونه محفوقا بلطائف الشهوات ومحائب اللذات إلا سياط التخويف وسطوات التعنيف فلا بد إذن من بيان حقيقتهما وفضيلتهما وسبيل التوصل إلى الجمع بينهما مع تضادها وتمازجها ونحن

(١) حديث من لم يشكر الناس لم يشكر الله تقدم في الزكاة .

### (كتاب الرجاء والخوف)

ما ظهرت الأسرار  
فكامل الخلق كلها  
طلبت القوة الفعل  
قيدها ووزنها بالعقل  
حتى يصفها في مواضعها  
فيجل حال الشيوخ  
عن إذاعة الأسرار  
لرزانة عقولهم وينبغي  
للمريد أن يحفظ سره  
من بثه في ذلك سمته  
وسلامته وتأيد الله  
سبحانه وتعالى له  
بتدارك الزيدتين  
الصادقين في مورد  
ومصدرهم .

### [الباب الثالث]

والحمسون في حقيقة  
الصحة وما فيها من  
الحير والشر  
للتفتي للصحة وجود  
الجنسية وقد يدعو  
إليها أعم الأوصاف

نجمع ذكرها في كتاب واحد يشتمل على شطرين الشطر الأول في الرجاء والشطر الثاني في الخوف أما الشطر الأول فيشتمل على بيان حقيقة الرجاء وبيان فضيلة الرجاء وبيان دواء الرجاء والطريق الذي يحتل به الرجاء .

### ( بيان حقيقة الرجاء )

اعلم أن الرجاء من جملة مقامات السالكين وأحوال الطالبين وإنما يسمى الوصف مقاماً إذا ثبت وأقام وإنما يسمى حالاً إذا كان طارضاً سريع الزوال وكما أن الصفرة تنقسم إلى ثابتة كصفرة الذهب وإلى سرية الزوال كصفرة الوجع وإلى ما هو بينهما كصفرة المريض فكذلك صفات القلب تنقسم هذه الأقسام فالذي هو غير ثابت يسمى حالاً لأنه يحول على القرب وهذا جار في كل وصف من أوصاف القلب وغرضنا الآن حقيقة الرجاء فالرجاء أيضاً يتم من حال وعلم وعمل فالعلم سبب يثمر الحال والحال يقتضي العمل وكان الرجاء اسماً من جملة الثلاثة وبيانه أن كل ما يلائقك من مكروه ومحبوب فينقسم إلى موجود في الحال وإلى موجود فيما مضى وإلى متظر في الاستقبال فإذا خطر ببالك موجود فيما مضى سمى ذكراً وتذكراً وإن كان ما خطر بقلبك موجوداً في الحال سمى وجداً وذوقاً وإدراكاً وإنما سمى وجداً لأنها حالة تجدها من نفسك وإن كان قد خطر ببالك وجود شيء في الاستقبال وغلب ذلك على قلبك سمى انتظاراً وتوقعاً فإن كان للنتظر مكروها حصل منه ألم في القلب سمى خوفاً وإشفاقاً وإن كان محبوباً حصل من انتظاره وتعلق القلب به وإخطار وجوده بالبال لذة في القلب وإرتياح سمى ذلك الارتياح رجاء فالرجاء هو ارتياح القلب لانتظار ما هو محبوب عنده ولكن ذلك المحبوب المتوقع لا بد وأن يكون له سبب فإن كان انتظاره لأجل حصول أكثر أسبابه قاسم الرجاء عليه صادق وإن كان ذلك انتظاراً مع انحراف أسبابه واضطرابها قاسم الضرر والحق عليه أصدق من اسم الرجاء وإن لم تكن الأسباب معلومة الوجود ولا معلومة الانتفاء قاسم التني أصدق على انتظاره لأنه انتظار من غير سبب وعلى كل حال فلا يطلق اسم الرجاء والخوف إلا على ما يتردد فيه أما ما يقطع به فلا ، إذ لا يقال أرجو طلوع الشمس وقت الطلوع وأخاف غروبها وقت الغروب لأن ذلك مقطوع به ، نعم يقال أرجو زول للطر وأخاف انقطاعه وقد علم أن باب القلوب أن الدنيا مزرعة الآخرة والقلب كالأرض والإيمان كالبذر فيه والطاعات جازية تجري تقليب الأرض وتطهيرها ويجري حفر الأنهار وسياقة الماء إليها والقلب المستقر بالدنيا المستغرق بها كالأرض السبعة التي لا ينمو فيها البذر ويوم القيامة يوم الحصاد ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا ينمو زرع إلا من بذر الإيمان وقلما ينفع إيمان مع خبث القلب وسوء أخلاقه كما لا ينمو بذر في أرض سبعة فينبغي أن يقاس رجاء العبد المغفرة برجاء صاحب الزرع فكل من طلب أرضاً طيبة وألقى فيها بذراً جيداً غير عفن ولا مسوس ثم أمده بما يحتاج إليه وهو سوق الماء إليه في أوقاته ثم نقي الشوك عن الأرض والحشيش وكل ما يمنع نبات البذر أو يفسده ثم جلس منتظراً من فضل الله تعالى دفع الصواعق والآفات للفسدة إلى أن يتم الزرع ويبلغ غايته سمى انتظاره رجاء وإن بث البذر في أرض صلبة سبعة مرتفعة لا ينصب إليها الماء ولم يشتغل بتعهد البذر أصلاً ثم انتظر الحصاد منه سمى انتظاره حقاً وغروراً لارجاء وإن بث البذر في أرض طيبة لكن لا ماء لها وأخذ ينتظر مياه الأمطار حيث لا تطلب الأمطار ولا يعتنق أيضاً سمى انتظاره تمنياً لارجاء ، فإذا نسي الرجاء وإنما يصدق على انتظار محبوب تمهدت جميع أسبابه الداخلة تحت اختيار العبد ولم يبق إلا ما ليس يدخل تحت اختياره وهو فضل الله تعالى بصرف القواطع والفسدات فالعبد إذا بث بذر الإيمان وسقاء بماء الطاعات

وقد يدعو إليها أخص  
الأوصاف فالدعاء بأعم  
الأوصاف كليل جنس  
البشر بعضهم إلى  
بعض والدعاء بأخص  
الأوصاف كليل أهل  
كل فئة بعضهم إلى  
بعض ثم أخص من  
ذلك كليل أهل الطاعة  
بعضهم إلى بعض وكليل  
أهل العصية بعضهم إلى  
بعض فإذا علم هذا  
الأصل وأن الجاذب  
إلى الصفة وجود  
الجنسية بالأعم تارة  
وبالأخص أخرى  
فليتفقد الإنسان نفسه  
عند الليل إلى صفة  
شخص وينظر ما الذي  
يميل به إلى محبته ويزن  
أحواله من ميل إليه  
بميزان الشرع فإن

وطهر القلب عن شوك الأخلاق الرديئة وانتظر من فضل الله تعالى تثبيتته على ذلك إلى الموت وحسن الخاتمة للفضية إلى المغفرة كان انتظاره رجاء حقيقيا محمودا في نفسه باعنا له على اللواظبة والقيام بمقتضى أسباب الإيمان في إتمام أسباب المغفرة إلى الموت وإن قطع عن بذل الإيمان تعهده بماء الطاعات أو ترك القلب مشحونا برذائل الأخلاق وانهمك في طلب لذات الدنيا ثم انتظر للمغفرة فانتظاره حق وغرور قال صلى الله عليه وسلم «الأحقق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الجنة (١)» وقال تعالى - تخلف من بعدهم خلف أضاعوا الصلاة واتبعوا الشهوات فسوف يلقون غيا - وقال تعالى - تخلف من بعدهم خلف ورثوا الكتاب يأخذون عرض هذا الأدنى ويقولون سيفغر لنا - وذن الله تعالى صاحب البستان إذ دخل جنته وقال - ما أظن أن تبدي هذه أبدا وما أظن الساعة قائمة ولئن رددت إلى ربي لأجدن خيرا منها منقلبا - فاذن العبد المجتهد في الطاعات المجتنب للمعاصي تحقيق بأن ينتظر من فضل الله تمام النعمة وما تمام النعمة إلا بدخول الجنة وأما المعاصي فإذا تاب وتدارك جميع ما فرط منه من تصير تحقيق بأن يرجو قبول التوبة وأما قبول التوبة إذا كان كارها للمعصية تسوء السيئة وتسره الحسنه وهو يذم نفسه ويلومها ويشتهي التوبة ويشاق إليها تحقيق بأن يرجو من الله التوفيق للتوبة لأن كراهيته للمعصية وحرصه على التوبة يجري مجرى السبب الذي قد يقضى إلى التوبة وإنما الرجاء بعد تأكد الأسباب ولذلك قال تعالى - إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا في سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله - معناه أولئك يستحقون أن يرجوا رحمة الله وما أراد به تخصيص وجود الرجاء لأن غيرهم أيضا قد يرجو ولكن خصص بهم استحقاق الرجاء فأما من ينهمك فيما يكرهه الله تعالى ولا يذم نفسه عليه ولا يحزم على التوبة والرجوع فرجاؤه المغفرة حق كرجاء من بث البذر في أرض سبخة وعزم على أن لا يتعده بسقي ولا تنقية. قال يحيى ابن معاذ من أعظم الاعتزاز عندى الفجائي في الذنوب مع رجاء الغفر من غير ندامة وتوقع القرب من الله تعالى بفير طاعة وانتظار زرع الجنة يئذ النار وطلب دار الطيعين بالمعاصي وانتظار الجزاء بفير عمل والتمنى على الله عز وجل مع الإفراط :

رجو النجاة ولم تسلك مسالكها إن السفينة لا تجرى على اليابس

فإذا عرفت حقيقة الرجاء ومطلته فقد علمت أنها حالة آثمها العلم بجريان أكثر الأسباب وهذه الحالة تنجز الجهد للقيام بقيمة الأسباب على حسب الإمكان فإن من حسن بذره وطابت أرضه وغزر ماؤه صدق رجاءه فلا يزال يعمل صدق الرجاء على تفقد الأرض وتعهدا وتنحية كل حشيش ينبت فيها فلا يفتر عن تعهدا أصلا إلى وقت الحصاد وهذا لأن الرجاء يضاهي اليأس والبأس يمنع من التمهيد فمن عرف أن الأرض سبخة وأن الماء معوز وأن البذر لا ينبت فيترك لاهماله تفقد الأرض والتعب في تعهدا والرجاء محمود لأنه باعث واليأس مذموم وهو ضده لأنه صارف عن العمل والخوف ليس بضده للرجاء بل هو رفيق له كما سيأتي بيانه بل هو باعث آخر بطريق الرهبة كما أن الرجاء باعث بطريق الرغبة فاذن حال الرجال يورث طول المجاهدة بالأعمال واللواظبة على الطاعات كما تنقلب الأحوال ومن آثاره التلذذ بدوام الإقبال على الله تعالى والتتم بتناجياته والتلطف في التخلق له فإن هذه الأحوال لا بد وأن تظهر على كل من يرجو ملكا من الملوك أو شخصا من الأشخاص فكيف لا يظهر ذلك في حق الله تعالى فإن كان لا يظهر فليست تدل به على الحرمان عن مقام الرجاء والفرول في حضيض الغرور والتمنى فهذا هو البيان لحال الرجاء ولما آثمه من العلم ولما استثمر منه من العمل

(١) حديث الأحقق من أتبع نفسه هواها الحديث تقدم غير مرة .

رأى أحواله مسددة  
فليشر نفسه بحسن  
الحال فقد جعل الله  
تعالى مرآته مجلوة  
يلوح له في مرآة أخيه  
جمال حسن الحال وإن  
رأى أفعاله غير مسددة  
فليرجع إلى نفسه بالآلة  
والإهام قد لاح له في  
مرآة أخيه سوء حاله  
فبالجدير أن يخرجه  
كفراره من الأسد  
فأشبهها إذا اصطحبا  
لزماد اظلمة واعوجاجا  
ثم إذا علم من صاحبه  
الذي مال إليه حسن  
الحال وحكم لنفسه  
بحسن الحال طالع ذلك  
في مرآة أخيه فليعلم أن  
الميل بالوصف الأعم  
مركوز في جبلته والميل  
بطريقه واقع وله



ويدل على إيماره لهذه الأعمال حديث زيد الخيل إذ قال لرسول الله صلى الله عليه وسلم «جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد فقال كيف أصبحت قال أصبحت أحب الخير وأهله وإذا قدرت على شيء منه سارعت إليه وأيقنت بثوابه وإذا فاتني منه شيء حزنت عليه وحنت إليه قال هذه علامة الله فيمن يريد ولو أرادك للأخرى هياك لها ثم لا يبالي في أي أوديتها هلكت فقد ذكر صلى الله عليه وسلم علامة من أريد به الخير فمن ارتجى أن يكون مراد بالخير من غير هذه العلامات فهو مغرور» (١).

(بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه)

اعلم أن العمل على الرجاء أعلى منه على الخوف لأن أقرب العباد إلى الله تعالى أحبه له والحب يوجب الرجاء واعتبر ذلك بملكين يخدم أحدهما خوفاً من عقابه والآخر رجاء لثوابه ولذلك ورد في الرجاء وحسن الظن رغائب لا سيما في وقت الموت قال تعالى - لا تقنطوا من رحمة الله - فحرم أصل اليأس وفي أخبار يعقوب عليه السلام أن الله تعالى أوحى إليه أتدري لم فرقت بينك وبين يوسف لأنك قلت أخاف أن يأكله الذئب وأنتم عنه غافلون لم خفت الذئب ولم ترجى ولم نظرت إلى غفلة إخوته ولم تنظر إلى حفظي له وقال صلى الله عليه وسلم «لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله تعالى» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «يقول الله عز وجل أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء» (٣) «ودخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال كيف تجدك فقال أجدي أخاف ذنوبي وأرجو رحمة ربي فقال صلى الله عليه وسلم ما اجتماع في قلب عبد في هذا الموطن إلا أعطاه الله مارجاً وأمنه مما يخاف» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «أخرج الخوف إلى القنوط لكثرة ذنوبه يا هذا يأسك من رحمة الله أعظم من ذنوبك» وقال سفيان: من أذنب دنياه علم أن الله تعالى قدره عليه ورجا غفرانه غفر الله ذنبه قال لأن الله عز وجل عير قومًا فقال - وذلك ظنكم الذي ظنتم بربكم أرداكم - وقال تعالى - وظننتم ظن السوء وكنتم قومًا بوراً - وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت التكرار أن تتكبر فان لقنه الله حجة قال يا رب رجوتك وخفت الناس قال فيقول الله تعالى قد غفرت لك» (٥) وفي الخبر الصحيح «أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح الغني ويتجاوز عن العسر فلقى الله ولم يعمل خيراً قط فقال الله عز وجل من أحق بذلك منا» (٦) فضا عنه الحسن ظنه ورجائه أن يعفو عنه مع إفلاسه عن الطاعات وقال تعالى - إن الذين يتلون كتاب الله

(١) حديث قال زيد الخيل جئت لأسألك عن علامة الله فيمن يريد وعلامته فيمن لا يريد الحديث الطبراني في الكبير من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وفيه أنه قال أنت زيد الخير وكذا قال ابن أبي حاتم سواء النبي ﷺ والخير ليس يروى عنه حديث وذكره في حديث يروى قيام زيد الخير فقال بارسول الله الحديث سمعت أبي يقول ذلك (٢) حديث لا يعوتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بالله مسلم من حديث جابر (٣) حديث أنا عند ظن عبدي بي ما شاء ابن حبان من حديث وائلة بن الأسقع وهو في الصحيحين من حديث أبي هريرة دون قوله فليظن بي ما شاء (٤) حديث دخل صلى الله عليه وسلم على رجل وهو في الزرع فقال كيف تجدك الحديث الترمذي وقال غريب والنسائي في الكبرى وابن ماجه من حديث أنس وقال النووي إسناده جيد (٥) حديث إن الله يقول للعبد يوم القيامة ما منعك إذ رأيت التكرار أن تتكبر الحديث ابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري بإسناد جيد وقد تقدم في الأمر بالمعروف (٦) حديث أن رجلاً كان يداين الناس فيسامح ويتجاوز عن العسر الحديث مسلم من حديث أبي مسعود حوسب رجل ممن كان قبلكم فلم يوجد له من الخير شيء إلا أنه كان يخالط الناس وكان موسراً فكان يأمر غلمانه أن يتجاوزوا عن العسر قال الله عز وجل نعم أحق بذلك تتجاوزوا عنه وانفقوا عليه من حديث حذيفة

بحسبه أحكام والنفس بسببه سكون وركون فيسلب الليل بالوصف الأعم جدوى الليل بالوصف الأنص ويصير بين النصاحين استرواحات طيبة وتلذذات جبلية لا يفرق بينها وبين خلوص الصيحة لله إلا العلماء الزاهدون وقد يفسد الريد الصادق بأهل الصلاح أكثر مما يفسد بأهل الفساد ووجه ذلك أن أهل الفساد علم فساد طريقهم فأخذ حذره وأهل الصلاح غره صلاحهم فقال إليهم بحسبة الصلاحية ثم حصل بينهم استرواحات طيبة جبلية حالت بينهم وبين

وأقاموا الصلاة وأتقوا محارز قنهم سرا وعلاية يرجون تجارة لن تبور - ولما قال صلى الله عليه وسلم  
 ولو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا ولخرجتم إلى الصعدات تلدسون صدوركم وتجارون إلى  
 ربكم فهبط جبريل عليه السلام فقال إن ربك يقول لك لم تقنط عبادي غرغ عليهم ورجام  
 وشوقهم (١) وفي الخبر «إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام أحب من عيني وخيبي إلى  
 خلقي فقال يارب كيف أحبيك إلى خلقك قال اذكرني بالحسن الجليل واذكر آلائي وإحساني وذكركم  
 ذلك فانهم لا يعرفون مني إلا الجليل (٢)» ورؤي أبان بن أبي عياش في النوم وكان يكثر ذكر أبواب الرجاء  
 فقال أوقفني الله تعالى بين يديه فقال ما الذي حملك على ذلك قلت أردت أن أحبيك إلى خلقك فقال  
 قد غفرت لك ورؤي يحيى بن أكنم بعد موته في النوم قيل له ما فعل الله بك فقال أوقفني الله بين  
 يديه وقال يا شيخ السوء فطعت وفطعت قال فأخذني من الرعب ما يعلم الله ثم قلت يارب ما هكذا  
 حدثت عنك فقال وما حدثت عني قلت حدثني عبد الرزاق عن معمر عن الزهري عن أنس عن  
 نبيك صلى الله عليه وسلم عن جبريل عليه السلام أنك قلت أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء  
 وكنت أظن بك أن لاتنذرنني فقال الله عز وجل صدق جبريل وصدق نبي وصدق أنس وصدق  
 الزهري وصدق معمر وصدق عبد الرزاق وصدقت قال فألبست ومشي بين يدي الولدان إلى الجنة  
 قلت يا لهام من فرحة - وفي الخبر «أن رجلا من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم قال  
 فيقول له الله تعالى يوم القيامة اليوم أويست من رحمتي كما كنت تقنط عبادي منها (٣)» وقال صلى الله  
 عليه وسلم «إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا خنان يا منان فيقول الله تعالى  
 لجبريل اذهب فائتني بعبدى قال فيجىء به فيوقفه على ربه فيقول الله تعالى كيف وجدت مكانك  
 فيقول شرمكان قال فيقول ردوه إلى مكانه قال فيحشى ويلتفت إليه ورائه فيقول الله عز وجل إلى  
 أي شيء تلثفت فيقول لقد رجوت أن لاتعبدني إليها بعد إذ أخرجتني منها فيقول الله تعالى اذهبوا  
 به إلى الجنة (٤)» فدل هذا على أن رجاءه كان سبب نجاته نسأل الله - حسن التوفيق بلفظه وكرمه.

( بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء وبغلب )

اعلم أن هذا الدواء يحتاج إليه أحد رجلين إما رجل غلب عليه اليأس فترك العبادة وإما رجل غلب  
 عليه الخوف فأسرف في اللواظبة على العبادة حتى أضر بنفسه وأهله وهذان رجلان مائلان عن  
 الاعتدال إلى طرفي الإفراط والتفريط فيحتاجان إلى علاج يردهما إلى الاعتدال فأما المعاصي للفرور  
 التمني على الله مع الاعراض عن العبادة واقتحام المعاصي فأدوية الرجاء تنقلب مموما مهلكة في حقها  
 وتنزل منزلة العسل الذي هو شفاء لمن غلب عليه البرد وهو سم مهلك لمن غلب عليه الحرارة بل  
 للفرور لا يستعمل في حقها إلا أدوية الخوف والأسباب المنهجة له فلهاذا يجب أن يكون واعظ الخلق  
 متلطفا ناظرا إلى مواقع العلل معالجا لكل علة بما يضاعدها لا بما يزيد فيها فان المطلوب هو العدل

وأبي هريرة بنحوه (١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا الحديث وفيه فهبط جبريل  
 الحديث ابن حبان في صحيحه من حديث أبي هريرة فأوله متفق عليه من حديث أنس ورواه زيادة ولخرجتم  
 إلى الصعدات أحمد والحاكم وقد تقدم (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى عبده داود عليه السلام  
 أحب من عيني الحديث لم أجده أصلا وكأنه من الاسرائيليات كالذي قبله (٣) حديث أن رجلا  
 من بني إسرائيل كان يقنط الناس ويشدد عليهم الحديث زواه البيهقي في الشعب عن زيد بن أسلم  
 فذكره مقطوعا (٤) حديث إن رجلا يدخل النار فيمكث فيها ألف سنة ينادي يا خنان يا منان  
 الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث أنس .

حقيقة الصبغة  
 لاكتسب من طريقهم  
 الفسور في الطلب  
 والتخلف عن بلوغ  
 الأرب فليقتبه الصادق  
 لهذه الحقيقة وتأخذ  
 من الصبغة أصنى  
 الأقسام ويذر منها  
 ما يد في وجهه للرام  
 قال بعضهم هل رأيت  
 شرا قط إلا بمن تعرف  
 ولهذا المعنى أنكر  
 طائفة من السلف  
 الصبغة ورأوا الفضيلة  
 في العزلة والوحدة  
 كإبراهيم بن آدم  
 وداود الطائي وفضيل  
 ابن عياض وسليمان  
 الخواص وحكي عنه  
 أنه قيل له جاء إبراهيم  
 ابن آدم أمانتاه قال  
 لأن ألقى سببا ضاريا

والقصد في الصفات والأخلاق كلها وخير الأمور أوساطها فإذا حاز الوسط إلى أحد الطرفين عوج بما  
يرده إلى الوسط لا بما يزيد في ميله عن الوسط وهذا الزمان زمان لا ينبغي أن يستعمل فيه مع الخلق  
أسباب الرجاء بل للبالغة في التخويف أيضا تكاد أن لاتردم إلى جادة الحق وسنن الصواب فأما ذكر  
أسباب الرجاء فيهلكهم ويرديهم بالكلية ولكنها لما كانت أخف على القلوب والله عند النفوس ولم  
يكن غرض الوعظ إلا استمالة القلوب واستنطاق الخلق بالثناء كيفما كانوا مالوا إلى الرجاء حتى ازداد  
الفساد فسادا وازداد التهمكون في طغيانهم تباديا قال على كرم الله وجهه إنما السالم الذي لا يقنط الناس  
من رحمة الله تعالى ولا يؤمنهم من مكر الله . ونحن نذكر أسباب الرجاء لتستعمل في حق الآيس  
أو فيمن غلب عليه الخوف اقتداء بكتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ فانهما مشتعلان على الخوف  
والرجاء جميعا لأنهما جامعان لأسباب الشفاء في حق أصناف الرضى ليستعمله العلماء الذين هم ورثة  
الأنبياء بحسب الحاجة استعمال الطبيب الحاذق لاستعمال الأخرى الذي يظن أن كل شيء من الأدوية  
صالح لكل مريض كيفما كان . وحال الرجاء يثلب بشيئين أحدهما الاعتبار والآخر استقراء الآيات  
والأخبار والآثار . أما الاعتبار فهو أن يتأمل جميع ما ذكرناه في أصناف النعم من كتاب السكر حتى  
إذا علم لطائف نعم الله تعالى لعباده في الدنيا وعجائب حكمه التي راعاها في فطرة الإنسان حتى أعد له في  
الدنيا كل ما هو ضروري له في دوام الوجود كالآلات الغذاء وما هو محتاج إليه كالأصابع والأظفار  
وما هو زينة له كاستقواس الحاجبين واختلاف ألوان العينين وحرمة الشفتين وغير ذلك مما كان لا يتأمل  
بفقد غرض مقصود وإنما كان يغوت به مزية جمال فالنارية الإلمية إذا لم تقصر عن عبادة في أمثال  
هذه الدقائق حتى لم يرض لعباده أن تفوتهم الزايد والزاي في الزينة والحاجة كيف رضى بساتينهم إلى  
الملاك المؤيد بل إذا نظر الانسان نظرا شافيا علم أن أكثر الخلق قد هيء له أسباب السعادة في الدنيا  
حتى إنه يكره الانتقال من الدنيا بالموت وإن أخبر بأنه لا يذهب بعد للموت أبدا مثلا أولا يعثر أصلا  
فليست كراحتهم لعدم إلا لأن أسباب النعم أغلب لا محالة وإنما الذي يتعنى الموت نادرا ثم لا يتعمد إلا في  
حال نادرة وواقعة هاجمة غريبة فإذا كان حال أكثر الخلق في الدنيا الغالب عليه الخير والسلامة  
فسنة الله لا تجعلها تبديلا فالغالب أمر الآخرة هكذا يكون لأن مدبر الدنيا والآخرة واحد وهو  
غفور رحيم لطيف بعباده متعطف عليهم فهذا إذا توكل على التأمل قوى به أسباب الرجاء ومن  
الاعتبار أيضا النظر في حكمة الشريعة وسبقها في مصالح الدنيا ووجه الرحمة للعباد بها حتى كان بعض  
المعارفين يرى آية اللدانية في البقرة من أقوى أسباب الرجاء قليل له وما فيها من الرجاء قال الدنيا  
كلها قليل ورزق الانسان منها قليل والدين قليل ورزقه فانظر كيف أنزل الله تعالى فيه أطول آية  
ليهدي عبده إلى طريق الاحتياط في حفظ دينه فكيف لا يحفظ دينه الذي لا عوض له منه .

الفن الثاني استقراء الآيات والأخبار : لما ورد في الرجاء خارج عن الحصر أما الآيات فقد قال تعالى  
- قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه  
هو الغفور الرحيم - وفي قراءة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا يالي إنه هو الغفور الرحيم (١) وقال  
تعالى - والملائكة يسبحون بحمد ربهم ويستغفرون لمن في الأرض - وأخبر تعالى أن النار أعداها  
لأعدائه وإنما خوف بها أوليائه فقال - لهم من فوقهم ظلمل من النار ومن تحتهم ظلمل ذلك يخوف الله به  
عباده - وقال تعالى - واتقوا النار التي أعدت للكافرين - وقال تعالى - فأنذرتكم نارا تلظى لا يصلاها

(١) حديث قرأ قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب  
جميعا ولا يالي الترمذي من حديث أسماء بنت يزيد وقال حسن غريب .

أحب إلى من أن أتقى  
إبراهيم بن آدم قال  
لأنني إذا رأيت أحسنه  
كلامي وأظهر قسني  
بأظهار أحسن أحوالي  
وفي ذلك القنعة وهذا  
حكلام عالم بنفسه  
وأخلاقها وهذا واقع  
بين المصاحبين إلا من  
عصمه الله تعالى . أخبرنا  
الشيخ الثقة أبو الفتح  
محمد بن عبد الباقي  
إجازة قال أنا الحافظ  
أبو بكر محمد بن أحمد  
قال أنا أبو القاسم  
أحميل بن مسعدة قال  
أنا أبو عمرو محمد بن  
عبد الله بن أحمد قال  
أنا أبو سليمان أحمد بن  
محمد الخطيب قال أنا  
محمد بن بكر بن  
عبد الرزاق قال حدثنا

إلا الأشقي الذي كذب وتولى - وقال عز وجل - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - ويقال « إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزلت عليك هذه الآية - وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم - <sup>(١)</sup> » وفي تفسير قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - قال لا يرضى محمد وواحد من أمته في النار وكان أبو جعفر محمد بن علي يقول أتم أهل العراق يقولون أرجى آية في كتاب الله عز وجل قوله - قل يا عبادي الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله - الآية ونحن أهل البيت نقول أرجى آية في كتاب الله تعالى قوله تعالى - ولسوف يعطيك ربك فترضى - وأما الأخبار فقد روى أبو موسى عنه عليه السلام أنه قال « أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها في الآخرة عجل الله عقابها في الدنيا الزلازل والفتن فإذا كان يوم القيامة دفع إلى كل رجل من أمي داخل من أهل الكتاب قليل هذا فداؤك من النار <sup>(٢)</sup> » وفي لفظ آخر « يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم فيقول هذا فدائي من النار فيلقى فيها <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « الحمى من فيج جهنم وهي حظ المؤمن من النار <sup>(٤)</sup> » وروى في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي والذين آمنوا معه « أن الله تعالى أوحى إلى نبيه عليه الصلاة والسلام أني أجعل حساب أمتك إليك قال لا يارب أنت أرحم بهم مني فقال إذن لا تخزيك فيهم <sup>(٥)</sup> » وروى عن أنس « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى ثلاث يطلع على مساوئهم غيري فأوحى الله تعالى إليه هم أمتك وهم عبادي وأنا أرحم بهم منك لا أجعل حسابهم إلى غيري لثلاث تنظر إلى مساوئهم أنت ولا غيرك <sup>(٦)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « حياتي خير لكم وموتي خير لكم أما حياتي فأمن لكم السنن وأشعر لكم الشرائع ، وأما موتي فإن أعمالكم تعرض على فما رأيتم منها حسنا حمدت الله عليه وما رأيتم منها سيئا استغفرت الله تعالى لكم <sup>(٧)</sup> »

(١) حديث إن النبي صلى الله عليه وسلم لم يزل يسأل في أمته حتى قيل له أما ترضى وقد أنزل عليك وإن ربك لذو مغفرة للناس على ظلمهم لم أجده بهذا اللفظ وروى ابن أبي حاتم والعملي في تفسيرهما من رواية علي بن زيد بن جدعان عن سعيد بن المسيب قال لما نزلت هذه الآية قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لولا عفو الله وتجاوزة ما هنا أحد العيش الحديث (٢) حديث أبي موسى أمي أمة مرحومة لا عذاب عليها عجل عقابها في الدنيا الزلازل والفتن الحديث أبو داود دون قوله فإذا كان يوم القيامة الخ فرواها ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف وفي صحيحه من حديث أبي موسى كما سيأتي ذكره في الحديث الذي يليه (٣) حديث يأتي كل رجل من هذه الأمة يهودي أو نصراني إلى جهنم الحديث مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهوديا أو نصرانيا يقول هذا فداؤك من النار وفي رواية له لا يموت رجل مسلم إلا أدخل الله مكانه في النار يهوديا أو نصرانيا (٤) حديث الحمى من فيج جهنم وهي حظ المؤمن من النار أحمد من رواية أبي صالح الأشعري عن أبي أمامة وأبو صالح لا يعرف ولا يعرف اسمه (٥) حديث إن الله أوحى إلى نبيه صلى الله عليه وسلم أني أجعل حساب أمتك إليك فقال لا يارب أنت خير لهم مني الحديث في تفسير قوله تعالى - يوم لا يخزي الله النبي - ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله (٦) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم سأل ربه في ذنوب أمته فقال يارب اجعل حسابهم إلى الحديث لم أقبله على أصل (٧) حديث حياتي خير لكم وموتي خير لكم الحديث البزار من حديث عبد الله بن مسعود ورجاله رجال الصحيح إلا أن عبد الحميد بن عبد العزيز بن أبي داود وإن أخرجه له مسلم ووثقه ابن معين والنسائي فقد ضعفه كثيرون ورواه الحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس بنحوه بأسناد ضعيف.

سليمان بن الأشعث قال ثنا عبد الله بن مسلمة عن مالك عن عبد الرحمن بن أبي صهبة عن أبيه عن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوشك أن يكون خير مال المسلم غنما يتبع بها شعاب الجبال ومواقع القطر يفر بدينه عن الفتن » قال الله تعالى إخبارا عن خليله إبراهيم - واعتزلكم وما تدعون من دون الله وأدعو ربى - استظهر بالهزلة على قومه . قيل : الهزلة نوعان فلهيئة وفضيلة فالهزلة الهزلة عن الشروا هله

وقال صلى الله عليه وسلم يوما «يا كريم الغفو قال جبريل عليه السلام أتدرى ما تفسير يا كريم الغفو هو إن غفا عن السيئات برحمة بدلها حسنات بكرمه (١)» وسمع النبي صلى الله عليه وسلم رجلا يقول «اللهم إني أسألك تمام النعمة قال هل تدري ما تعلم النعمة؟ قال لا، قال دخول الجنة (٢)» قال السقاء قد آمَنَ الله علينا نعمته برضاه الإسلام لنا إذ قال تعالى - وأتعت عليكم نعمتي ورضيت لكم الإسلام ديناً - وفي الخبر «إذا أذنب العبد ذنباً فاستغفر الله يقول الله عز وجل ملائكته انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فعمل أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له (٣)» وفي الخبر «لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء غفرتها له ما استغفرتني ورجائي (٤)» وفي الخبر «لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقراب الأرض مغفرة (٥)» وفي الحديث إن الملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه وإلا كتبها سيئة (٦)» وفي قسط آخر «فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب المئين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة تضعيف العشر وأرفع له تسع حسنات تلقى عنه السيئة» وروى أنس في حديث أنه عليه الصلاة والسلام قال «إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي وإن تاب عنه قال عي عنه قال فإن عاد قال النبي صلى الله عليه وسلم يكتب عليه قال الأعرابي فإن تاب قال عي من صحيفته قال إلى متى؟ قال إلى أن يستغفر ويتوب إلى الله عز وجل إن الله لا يعمل من الغفرة حتى يعمل العبد من الاستغفار فإذا هم العبد بحسنة كتبها صاحب المئين حسنة قبل أن يعملها فإن عملها كتبت عشر حسنات ثم يضاعفها الله سبحانه وتعالى إلى سبعمائة ضعف وإذا هم بخطيئة لم تكتب عليه فإذا عملها كتبت خطيئة واحدة ووراءها حسن غفو الله عز وجل (٧)» وجاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم يوماً يا كريم الغفو قال جبريل تدرى ما تفسير يا كريم الغفو الحديث لم أجده عن النبي صلى الله عليه وسلم وللوجود أن هذا كان بين إبراهيم الخليل وبين جبريل هكذا رواه أبو الشيخ في كتاب العظيمة من قول عتبة بن الوليد ورواه البيهقي في الشعب من رواية عتبة بن الوليد قال حدثني بعض الزهاد فذكره (٢) حديث سمع رجلاً يقول اللهم إني أسألك تمام النعمة الحديث تقدم (٣) حديث إذا أذنب العبد فاستغفر يقول الله تعالى ملائكته انظروا إلى عبدی أذنب ذنباً فعمل أن له ربا يغفر الذنوب ويأخذ بالذنب أشهدكم أني قد غفرت له من حديث أبي هريرة بلفظ إن عبداً أصاب ذنباً فقال أي رب أذنبت ذنباً فاغفر لي الحديث وفي رواية أذنب عبد ذنباً فقال الحديث (٤) حديث لو أذنب العبد حتى تبلغ ذنوبه عنان السماء الحديث الترمذي من حديث أنس يابن آدم لو بلغت ذنوبك عنان السماء ثم استغفرتني غفرت لك وقال حسن (٥) حديث لوقيتني عبدی بقراب الأرض ذنوباً لقيته بقرابها مغفرة مسلم من حديث أبي ذر ومن لقيني بقراب الأرض خطيئة لا يشركني شيئاً لقيته بمثلها مغفرة والترمذي من حديث أنس الذي قبله يابن آدم لوقيتني الحديث (٦) حديث إن للملك ليرفع القلم عن العبد إذا أذنب ست ساعات فإن تاب واستغفر لم يكتبه عليه الحديث قال وفي لفظ آخر فاذا كتبها عليه وعمل حسنة قال صاحب المئين لصاحب الشمال وهو أمير عليه ألقى هذه السيئة حتى ألقى من حسناته واحدة من تضعيف العشر الحديث البيهقي في الشعب من حديث أبي أمامة بسند فيه لين باللفظ الأول ورواه أيضاً أطول منه وفيه إن صاحب المئين أمير على صاحب الشمال وليس فيه أنه يأمر صاحب الشمال بإلقاء السيئة حتى يلقي من حسناته واحدة ولم أجده لذلك أصلاً (٧) حديث أنس إذا أذنب العبد ذنباً كتب عليه قال أعرابي فإن تاب عنه قال عي عنه قال فإن عاد الحديث وفيه إن الله لا يعمل من التوبة حتى يعمل العبد من الاستغفار

والفضيلة عزلة الفضول وأهله ويجوز أن يقال الخلو غير العزلة فالخلو من الأغيار والعزلة من النفس وما تنسحب إليه وما يشمل عن الله فالخلو كثيرة الوجود والعزلة قليلة الوجود. قال أبو بكر الوراق ما ظهرت الفتنة إلا بالخطأ فمن لدن آدم عليه السلام إلى يومنا هذا وما سلم إلا من جانب الخلطة وقيل السلامة عشرة أجزاء تسعة في الصحة وواحد في العزلة وقيل الخلوة أصل والخلطة عارض فليزِم الأصل ولا يخالط إلا بقدر الحاجة وإذا خالط لا يخالط إلا بحجة وإذا خالط يلازم

«يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع : أين أنا إذ انت قتبسم رسول الله صلى الله عليه وسلم ، وقال : نعم مئى ، إذا حفظت قلبك من اثنتين : الغل والحسد ، ولسانك من اثنتين : الغيبة والكذب ، وعينيك من اثنتين : النظر إلى ما حرم الله ، وأن تزدري بهما مسلما دخلت معي الجنة على راحتي هاتين (١) » وفي الحديث الطويل لأنس « أن الأعرابي قال يارسول الله من يلى حساب الخلق ؟ قال الله تبارك وتعالى قال هو بنفسه ؟ قال نعم فتبسم الأعرابي فقال صلى الله عليه وسلم ضحكك يا أعرابي قال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح ، قال النبي صلى الله عليه وسلم صدق الأعرابي ألا لا كريم أكرم من الله تعالى هو أكرم الأكرمين ثم قال لله الأعرابي (٢) » وفيه أيضا « إن الله تعالى شرف الكعبة وعظمها ولو أن عبدا هدمها حجرا حجرا ثم أحرقها ما بلغ جرم من استخف بولي من أولياء الله تعالى . قال الأعرابي ومن أولياء الله تعالى قال المؤمنون كلهم أولياء الله تعالى أما صمت قون الله عز وجل - الله ولي الذين آمنوا يخرجهم من الظلمات إلى النور - » وفي بعض الأخبار « للؤمن أفضل من الكعبة (٣) » « وللؤمن طيب طاهر (٤) » « وللؤمن أكرم على الله تعالى من اللائكة (٥) » وفي الخبر « خلق الله تعالى جهنم من فضل رحمته سوطا يسوق الله به عباده إلى الجنة (٦) » . وفي خبر آخر « يقول الله عز وجل

الصمت فإنه أصل  
والكلام عارض ولا  
يتكلم إلا بحجة غطر  
الصحة كثير يحتاج  
العبد فيه إلى مزيد  
علم والأخبار والآثار  
في التحذير عن  
الخلطة والصحة  
كثيرة والكتب بها  
مشحونة . وأجمع  
الأخبار في ذلك ما أخبرنا  
الشيخ الثقة أبو الفتح  
باسناده السابق إلى  
أبي سليمان قال حدثنا  
أحمد بن سليمان  
النجاد قال ثنا محمد  
ابن يونس الكريعي  
قال ثنا محمد  
ابن منصور الجشمي  
قال ثنا مسلم بن سالم  
قال ثنا السري  
ابن يحيى عن الحسن

الحديث البيهقي في الشعب بلفظ جاء رجل ، فقال يارسول الله : إني أذنبت ذنبا . قال استغفر ربك قال فاستغفر ثم أعود . قال فإذا عدت فاستغفر ربك ثلاث حمات أو أربعاً . قال فاستغفر ربك حتى يكون الشيطان هو للسجور المحسور وفيه أبو بدر يسار بن الحكم المصري منكر الحديث وروى أيضا من حديث عقبة بن عامر أحدنا يذنب . قال يكتب عليه قال ثم يستغفر ويتوب قال يفرله ويتاب عليه قال فيعود الحديث وفيه لا يعمل الله حتى تملاوا وليس في الحديثين قوله في آخره فإذا هم العبد بحسنة الخ وهو في الصحيحين بنحوه من حديث ابن عباس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما يرويه عن ربه فمن هم بحسنة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها وعملها كتبها الله عنده عشر حسنات إلى سبعمائة ضعف إلى أضعاف كثيرة وإن هم بسيئة فلم يعملها كتبها الله عنده حسنة كاملة فإن هم بها فعملها كتبها الله سيئة واحدة زاد مسلم في رواية أو عفاها الله ولا يهلك على الله إلا هالك ولهما نحوه من حديث أبي هريرة (١) حديث جاء رجل ، فقال يارسول الله إني لأصوم إلا الشهر لأزيد عليه ولا أصلي إلا الخمس لأزيد عليها وليس لله في مالي صدقة ولا حج ولا تطوع الحديث تقدم (٢) حديث أنس الطويل قال أعرابي يارسول الله من يلى حساب الخلق قال الله تبارك وتعالى فقال هو بنفسه قال نعم فتبسم الأعرابي الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث المؤمن أفضل من الكعبة ابن ماجه من حديث ابن عمر بلفظ ما أعظمك وأعظم حرمتك والذي نفسى بيده لحرمة المؤمن أعظم حرمة منك ماله ودمه وأن يظن به إلا خيرا ، وشيخه نصر ابن محمد بن سليمان الحمصي ضمه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وقد تقدم (٤) حديث المؤمن طيب طاهر لم أجده بهذا اللفظ . وفي الصحيحين من حديث حذيفة المؤمن لا يتنجس (٥) حديث المؤمن أكرم على الله من اللائكة ابن ماجه من رواية أبي الهزم يزيد بن سفيان عن أبي هريرة بلفظ المؤمن أكرم على الله من بعض اللائكة وأبو الهزم تركه شعبة وضعفه ابن معين ورواه ابن حبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من هذا الوجه بلفظ المصنف (٦) حديث خلق الله من فضل رحمته سوطا يسوق بعباده

إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم (١) « وفي حديث أبي سعيد الخدري عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما خلق الله تعالى شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه (٢) « وفي الخبر المشهور « إن الله تعالى كتب على نفسه الرحمة قبل أن يخلق الخلق إن رحمته تغلب غضبه (٣) « وعن معاذ بن جبل وأنس بن مالك أنه صلى الله عليه وسلم قال « ومن قال لا إله إلا الله دخل الجنة (٤) « . « ومن كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار (٥) « . « ومن لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار (٦) « . ولا يدخلها من في قلبه مثقال ذرة من إيمان (٧) « وفي خبر آخر « لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أيس من جنته أحد (٨) « ولما تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى « - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا هذا يوم يقال لأدم عليه الصلاة والسلام قم فابث بئس النار من ذريتك فيقول كم فيقال من كل ألف تسع مائة وتسعة وتسعون إلى النار وواحد إلى الجنة قال فأبلس القوم وجعلوا يكون وتمطلوا يومهم عن الاشتغال والعمل فخرج عليهم رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال ما لكم لا تعملون فقالوا ومن يشغل بعمل بعد ما حدثتنا بهذا قال كم أنتم في الأمم أين تأويل وتاريخ ومنك وأجوج وما جوج أم لا يحضيا إلا الله تعالى إنما أنتم في سائر الأمم كالشجرة البيضاء في جلد الثور الأسود كالرفعة في ذراع

إلى الجنة لم أجده هكذا ويخبر عنه ما رواه البخاري من حديث أبي هريرة عجب ربنا من قوم يجاء بهم إلى الجنة في السلاسل (١) حديث قال الله إنما خلقت الخلق ليرجوا على ولم أخلقهم لأرجع عليهم لم أقف له على أصل (٢) حديث أبي سعيد ما خلق الله شيئا إلا جعل له ما يغلبه وجعل رحمته تغلب غضبه أبو الشيخ ابن حبان في الثواب وفيه عبد الرحمن بن كردم جهله أبو حاتم وقال صاحب للبرهان ليس بواه ولا بمجهول (٣) حديث إن الله كتب على نفسه بنفسه قبل أن يخلق الخلق : إن رحمته تغلب غضبه متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث معاذ وأنس من قال لا إله إلا الله دخل الجنة الطبراني في الدعاء بلفظ من مات يشهد وتقدم من حديث معاذ وهو في اليوم واليلة للنسائي بلفظ من مات يشهد وقد تقدم من حديث معاذ من حديث أنس أيضا وتقدم في الأذكار (٥) حديث من كان آخر كلامه لا إله إلا الله لم تمسه النار أبو داود والحاكم ومصحح من حديث معاذ بلفظ دخل الجنة (٦) حديث من لقي الله لا يشرك به شيئا حرمت عليه النار الشيخان من حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لحاذ مامن عبد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا عبده ورسوله إلا حرمه الله على النار وزاد البخاري صادقا من قلبه وفي رواية له من لقي الله لا يشرك به شيئا دخل الجنة ورواه أحمد من حديث معاذ بلفظ جله الله في الجنة والنسائي من حديث أبي عمرة الأنصاري في أثناء حديث فقال أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أني رسول الله لا يلقى الله عبدا مؤمنا إلا حجب عن النار يوم القيامة (٧) حديث لا يدخلها من في قلبه وزن ذرة من إيمان أحمد من حديث سهل بن يساف من شهد أن لا إله إلا الله حرمه الله على النار وفيه انقطاع وله من حديث عثمان بن عفان أني لأعلم كلمة لا يقولها عبد حقا من قلبه إلا حرم على النار قال عمر بن الخطاب هي كلمة الإخلاص واسناده صحيح ولكن هذا ونحوه شاذ مخالف لما ثبت في الأحاديث الصحيحة من دخول جماعة من اللوحين النار وإخراجهم بالشفاعات ، نعم لا ينفى في النار من في قلبه ذرة من إيمان كما هو متفق عليه من حديث أبي سعيد وفيه فمن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من إيمان فأخرجوه . وقال مسلم من خير بدل من إيمان (٨) حديث لو علم الكافر نعمة رحمة الله ما أيس من جنته أحد متفق عليه من حديث أبي هريرة .

عن أبي الأحوص  
عن عبد الله بن مسعود  
قال : قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
ليأتين على الناس زمان  
لا يسلم لدى دين دينه  
إلا من فر بدينه من  
قرية إلى قرية ومن  
شاهق إلى شاهق ومن  
جمر إلى جمر كالغلب  
الذي يروغ قالوا ومتى  
ذلك يا رسول الله قال  
إذا لم تنل العيشة إلا  
بمعاصي الله فإذا كان  
ذلك الزمان حلت  
المزوجة قالوا وكيف  
ذلك يا رسول الله وقد  
أمرتنا بالزوج قال إنه  
إذا كان ذلك الزمان  
كان هلاك الرجل على  
يد أبويه فإن لم يكن له  
أبوان فعلى يذوخته

الدابة (١) فانظر كيف كان يسوق الخلق بسياط الخوف ويقودهم بأزمة الرجاء إلى الله تعالى إذ ساقهم بسياط الخوف أولا فلما خرج ذلك بهم عن حد الاعتدال إلى إفراط اليأس داوام بدواء الرجاء وردهم إلى الاعتدال والقصد والآخر لم يكن مناقضا للأول ولكن ذكر في الأول مآرآسي الشفاء واقتصر عليه فلما احتاجوا إلى للعالجة بالرجاء ذكر تمام الأمر . فعلى الواعظ أن يقتدى بسيد الوعاظ فيتلطف في استعمال أخبار الخوف والرجاء بحسب الحاجة بعد ملاحظة الطل الباطنة وإن لم يراع ذلك كان ما يفسد بوعظه أكثر مما يصلحه ، وفي الخبر « لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون فيغفر لهم (٢) » وفي لفظ آخر « لذهب بكم وجاء بخلق آخر يذنبون فيغفر لهم إنه هو الثفور الرحيم » وفي الخبر « لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب . قيل وما هو قال الصجب (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « والذي نفسي بيده أنه أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها (٤) » وفي الخبر « ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت على قلب أحد حتى إن إبليس ليتناول لمارجاء أن تصيبه (٥) » وفي الخبر « إن الله تعالى مائة رحمة ادخر منها عندة تسع وتسعين رحمة وأظهر منها في الدنيا رحمة واحدة فيها يترامح الخلق فتحن الوالدة على ولدها وتضطرب البهيمة على ولدها فإذا كان يوم القيامة ضم هذه الرحمة إلى التسع والتسعين ثم بسطها على جميع خلقه وكل رحمة منها طباق السموات والأرض قال فلا يهلك على الله يومئذ إلا هالك (٦) » وفي الخبر « ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة ولا ينجي من النار قالوا ولا أنت يا رسول الله ؟ قال ولا أنا إلا أن يتخمدني الله برحمته (٧) » وقال عليه أفضل الصلاة والسلام « اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله (٨) » . وقال صلى الله عليه وسلم « إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي آرونها للمطيعين التقيين بل هي للمتوكلين المخلصين (٩) »

وولده فإن لم يكن له زوجة ولا ولد فليد قرابته قالوا وكيف ذلك يا رسول الله قال يبرونه بضيق الميتة فيتكلف مالا يطيق حتى يورده . وقدر غيب الملكة . وجمع من السلف في الصبة والأخوة في الله وراؤا أن الله تعالى من على أهل الإيمان حيث جلهم إخوانا فقال سبحانه وتعالى - واذكروا نعمة الله عليكم إذ كنتم أعداء فألف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمة إخوانا - وقال تعالى - هو الذي أبدلك بنصره وبالمؤمنين وألف

(١) حديث لما تلا - إن زلزلة الساعة شيء عظيم - قال أتدرون أي يوم هذا الحديث الترمذي من حديث عمران بن حصين ، وقال حسن صحيح . قلت هو من رواية الحسن البصري عن عمران ولم يسمع منه ، وفي الصحيحين نحوه من حديث أبي سعيد (٢) حديث لو لم تذنبوا لخلق الله خلقا يذنبون ليغفر لهم ، وفي لفظ لذهب بكم الحديث مسلم من حديث أبي أيوب واللفظ الثاني من حديث أبي هريرة قريبا منه (٣) حديث لو لم تذنبوا لخشيت عليكم ما هو شر من الذنوب قيل ما هو قال العجب البزار وابن جبان في الضعفاء والبيهقي في الشعب من حديث أنس وتقدم في ذم الكبر والعجب (٤) حديث والذي نفسي بيده أنه أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفيقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بنحوه (٥) حديث ليغفرن الله تعالى يوم القيامة مغفرة ما خطرت قط على قلب أحد الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب حسن الظن بالله من حديث ابن مسعود باسناد ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى مائة رحمة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث ما منكم من أحد يدخله عمله الجنة الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٨) حديث اعملوا وأبشروا واعلموا أن أحدا لن ينجي عمله تقدم أيضا (٩) حديث إني اختبأت شفاعي لأهل الكبائر من أمي الحديث الشيخان من حديث أبي هريرة لكل نبي دعوة وإن خبات دعوتي شفاعا لأمتي ، ورواه مسلم من حديث أنس ، وللترمذي من حديثه وصححه وابن ماجه من حديث جابر شفاعي لأهل الكبائر من أمي ، ولابن ماجه من حديث أبي موسى ، ولأحمد من حديث ابن عمر خيرت بين الشفاعا وبين أن يدخل نصف أمي الجنة فأحررت الشفاعا لأنها أهم وأكفى آرونها للمتقين الحديث وفيه من لم يسم .



وقال عليه الصلاة والسلام «بشت بالحنيفية السمحة السهلة»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى «أحب أن يعلم أهل الكتابين أن في ديننا ساحة»<sup>(٢)</sup> ويدل على معناه استجابة الله تعالى للمؤمنين في قولهم - ولا تحمل علينا إصرا - وقال تعالى - ويضع عنهم إصرهم والأغلال التي كانت عليهم - وروى محمد بن الحنفية عن علي رضي الله تعالى عنهما أنه قال لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال عليه السلام إذا عفوت عمن ظلمك فلاتتابه فقال يا جبريل فافقه تعالى أكرم من أن يأتب من عفا عنه فبكي جبريل وبكى النبي صلى الله عليه وسلم فبعت الله تعالى إليهما ميكائيل عليه السلام وقال إن ربكما يقركما السلام ويقول كيف أعاتب من عفوت عنه هذا ما لا يشبه كرمي<sup>(٣)</sup> . والأخبار الواردة في أسباب الرجاء أكثر من أن تحصى . وأما الآثار : فقد قال علي كرم الله وجهه : من أذنب ذنبا فسره الله عليه في الدنيا فافقه أكرم من أن يكشف ستره في الآخرة ومن أذنب ذنبا فعوقب عليه في الدنيا فافقه تعالى أعدل من أن يثني عقوبته على عبده في الآخرة . وقال الثوري ما أحب أن يجعل حسابي إلى أبوي لأنني أعلم أن الله تعالى أرحم بي منهما . وقال بعض السلف : للؤمن إذا عصى الله تعالى ستره عن أبصار الملائكة كيلا تراه فتشهد عليه . وكتب محمد بن صعب إلى أسود بن سالم بخطه إن العبد إذا كان مسرفا على نفسه فرفع يديه يدعو ويقول : يارب حجبت الملائكة صوته وكذا الثانية والثالثة حتى إذا قال الرابعة يارب قال الله تعالى حق متى تعجبون عني صوت عبدي قد علم عبدي أنه ليس له رب يغفر الذنوب غيري أشهدكم أني قد غفرت له . وقال إبراهيم بن آدم رحمة الله عليه خلا لي الطواف ليلة وكانت ليلة مطيرة مظلمة فوقفت في الملتزم عند الباب قلمت : يارب اعصمني حتى لأعصيك أبدا فتهتف بي هاتف من البيت يا إبراهيم أنت تسألني العصمة وكل عبادي للمؤمنين يطلبون مني ذلك فاذا عصمتهم فعل من أفضّل ولمن أغفر ، وكان الحسن يقول : لو لم يذنب للؤمن لكان يطير في ملكوت السموات ولكن الله تعالى قمعه بالذنوب . وقال الجليل رحمة الله تعالى : إن بدت عين من الكرم ألحقت للشيخين بالهشيين . ولقي مالك بن دينار أبانا فقال له إلى كم تحدث الناس بالرخى قال بأبا يحيى إلى لأرجو أن ترى من عفا الله يوم القيامة ما تحرق له كساءك هذا من الفرح . وفي حديث ربي بن حراش عن أخيه ، وكان من خيار التابعين ، وهو ممن تكلم بعد الموت . قال لما مات أخى سجد بئوه . ألقيناه على نمشه فكشف الثوب عن وجهه واستوى قاعدا ، وقال : إن لقيت ربي عز وجل خياني بريح وريحان وربّي غير غضبان وإنّي رأيت الأمر أيسر مما تظنون فلاتفتروا وأن محمدا صلى الله عليه وسلم ينتظرني وأصحابه حتى أرجع إليهم . قال ثم طرح نفسه فكانها كانت حصى وقعت في طشت فحملناه وذقناه . وفي الحديث

بين قلوبهم لو أنشفت مافي الأرض جميعا ما ألفت بين قلوبهم ولكن الله ألف بينهم - وقد اختار الصحبة والأخوة في الله تعالى سعيد ابن السيب وعبد الله ابن المبارك وغيرهما . وفائدة الصحبة أنها تفتح مسام الباطن ويكتسب الانسان بها علم الحوادث والعوارض . قيل : أعلم الناس بالآفات أكثرهم . آفات ويتصلب الباطن برزين العلم ويمكن الصدق بطروق هبوب الآفات ثم التخلص منها بالإيمان وينفع بطريق

(١) حديث بشت بالحنيفية السمحة السهلة أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف دون قوله السهلة وله ولطبراني من حديث ابن عباس أحب الدين إلى الله الحنيفية السمحة وفيه محمد بن اسحق رواه بالضعفة (٢) حديث أحب أن يعلم أهل الكتاب أن في ديننا ساحة أبو عبيد في غريب الحديث وأحمد (٣) حديث محمد بن الحنفية عن علي لما نزل قوله تعالى - فاصفع الصفع الجليل - قال يا جبريل وما الصفع الجليل قال إذا عفوت عمن ظلمك فلاتتابه الحديث ابن مردويه في تفسيره موقوفا على علي مختصرا قال الرضا بغير عتاب ولم يذكر بقية الحديث وفي إسناده نظر .

«أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله تعالى فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً وكان يعظه ويذكره فكان يقول دعني وربّي أبشّث على رقبيا حتى رآه ذات يوم على كبيرة فضنب فقال لا يغفر الله لك قال فيقول الله تعالى يوم القيامة : أيسطيع أخذان يحظر رحق على عبادي اذهب أنت فقد غفرت لك ثم يقول للعابد وأنت فقد أوجبت لك النار قال فوالذي نفسي بيده لقد تكلم بكلمة أهلكت دنياه وآخرته <sup>(١)</sup>» وروى أيضاً أن لصاً كان يقطع الطريق في بني إسرائيل أربعين سنة فر عليه عيسى عليه السلام وخلفه عابد من عباد بني إسرائيل من الخواريين فقال اللص في نفسه هذا نبي الله يمر وإلى جنبه حواريه لو نزلت فكنت معهما ثالثاً قال فزّل لجعل يريد أن يدنو من الحوارى ويزدري نفسه تعظيماً للحواري ويقول في نفسه مثل لا يمشي إلى جنب هذا العابد قال وأحسن الحوارى به فقال في نفسه هذا يمشي إلى جانبي فضم نفسه وشمى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام فشمى بجنبه فبقى اللص خلفه فأوحى الله تعالى إلى عيسى عليه الصلاة والسلام قل لهما ليستأنا العمل فقد أحبطت ما حلف من أعمالهما أما الحوارى فقد أحبطت حسناته لجنبه بنفسه وأما الآخر فقد أحبطت سيئاته بما ازدري على نفسه فأخبرهما بذلك وضم اللص إليه في سياحته وجمله من حواريه . وروى عن مسروق أن نبيا من الأنبياء كان ساجدا فوطئ عنقه بعض العصاة حتى ألقى الحصى بجنبه قال فرجع النبي عليه الصلاة والسلام رأسه مغضبا فقال اذهب قلن يغفر الله لك فأوحى الله تعالى إليه تأنى على عبادي إني قد غفرت له . ويقرب من هذا ما روى عن ابن عباس رضي الله تعالى عنهما «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يقنت على الشركين ويلصقهم في صلاته فزّل عليه قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - الآية فترك الدعاء عليهم وهدى الله تعالى عامة أولئك للإسلام <sup>(٢)</sup>» وروى في الأثر أن رجلين كانا من العابدين متساويين في العبادة قال فإذا أدخلنا الجنة رفع أحدهما في الدرجات العلى على صاحبه فيقول يارب ما كان هذا في الدنيا بأكثر منى عبادة فرفعتني على في عليين فيقول الله سبحانه إنه كان يسأني في الدنيا الدرجات العلى وأنت كنت تسألني النجاة من النار فأعطيت كل عبد مسؤوله وهذا يدل على أن العبادة على الرجاء أفضل لأن المحبة أغلب على الراجي منها على الخائف فكم من فرق في الملوك بين من يخدم اتقاء لمقابولين من يخدم ارتجاء لانعاموا كرامه ولقد لك أمر الله تعالى بحسن الظن ولقد قال ﷺ «سلوا الله الدرجات العلى فإيماننا لنون كريما <sup>(٣)</sup>» وقال «إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله تعالى لا يتعاطمه شيء <sup>(٤)</sup>» وقال بكر بن سليم الصواف دخلنا على

الصحة والأخوة  
التماضد والتعاون  
وتتقوى جنود القلب  
وتستروح الأرواح  
بالتشام وتتفق في  
التوجه إلى الرفيق  
الأعلى ويصير مثالها  
في الشاهد كالأسوات  
إذا اجتمعت خرقت  
الأجرام وإذا تفردت  
قصرت عن بلوغ  
المرام . ورد في الخبر  
عن رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «للؤمن  
كثير بأخيه» وقال  
الله تعالى عبداً عن  
لاصديق له - فقالنا من  
شافعين ولاصديق  
حميم والحميم في الأصل  
الحميم إلا أنه أبدلت  
الهاء بالحاء لقرب  
مخرجهما إذ هما من

(١) حديث أن رجلين من بني إسرائيل تواخيا في الله عز وجل فكان أحدهما يسرف على نفسه وكان الآخر عابداً الحديث أبو داود من حديث أبي هريرة بأسناد جيد (٢) حديث ابن عباس يفتت على الشركين ويلصقهم في صلاته فزّل قوله تعالى - ليس لك من الأمر شيء - فترك الدعاء عليهم الحديث البخارى من حديث ابن عمر أنه كان إذا رفع رأسه من الركوع في الركعة الأخيرة من الفجر يقول اللهم العن فلانا وفلاناً وفلاناً بما يقول مع الله لمن حمده ربنا ولك الحمد أنزل الله عز وجل - ليس لك من الأمر شيء - إلى قوله : فانهم ظالمون - ورواه الترمذى وسامحاً بأسفيان والحريث بن هشام وصفوان بن أمية وزاد فتاب عليهم فأسلموا وحسن إسلامهم وقال حسن غريب وفي رواية له أربعة نفر ولم يسمهم وقال فهداهم الله للإسلام وقال حسن غريب صحيح (٣) حديث سلوا الله الدرجات العلى فإيماننا لنون كريما لم أجده بهذا اللفظ وللترمذى من حديث ابن مسعود سلوا الله من فضله فإن الله يحب أن يسئل وقال هكذا روى حماد بن واقد وليس بالحافظ (٤) حديث إذا سألت الله فأعظموا الرغبة واسألوا الفردوس الأعلى فإن الله لا يتعاطمه شيء مسلم من حديث أبي هريرة إذا دعا أحدكم فليقل اللهم

مالك بن أنس في العشي التي قبض فيها قلنا يا أبا عبد الله كيف تجدك قال لا أدري ما أقول لكم إلا أنكم ستعاينون من عفو الله ما لم يكن لكم في حساب ثم ما برحنا حتى أغضضناه. وقال يحيى بن معاذ في مناجاته يكاد رجائي لك مع الذنوب يطلب رجائي إليك مع الأعمال لأنني أعتمد في الأعمال على الاخلاص وكيف أحرزها وأنا بالآفة معروف وأجدني في الذنوب أعتمد على غفوك وكيف لا تغفوها وأنت بالجود موصوف. وقيل إن مجوسيا استضاف إبراهيم الخليل عليه الصلاة والسلام فقال إن أسلمت أضفك للمجوس فأوحى الله تعالى إليه يا إبراهيم لم تطعمه إلا بتفسير دينه ونحن من سبعين سنة نطعمه على كفره فلو أضفته ليلة ماذا كان عليك للمجوس يسرى خلف المجوس فردّه وأضافه فقال له المجوس ما السبب فيما بدالك فدكر له فقال له المجوس أمكدا ياملني ثم قال اعرض على الإسلام فأسلم. ورأى الأستاذ أبو سهل الصموكي أبا سهل الزجاجي في المنام وكان يقول بوعيد الأبد فقال له كيف حالك فقال وجدنا الأمر أهون مما توهمنا. ورأى بعضهم أبا سهل الصموكي في المنام على هيئة حسنة لا توصف فقال له يا أستاذهم نلت هذا فقال بحسن ظني بربي. وحكى أن أبا العباس بن سريج رحمه الله تعالى رأى في مرض موته في منامه أن القيامة قد قامت وإذا الجبار سبجانه يقول أين العلماء قال جاءوا ثم قال ماذا عملتم فيها علمتم ذلك قلنا يارب قصرنا وأسأنا قال فأعاد السؤال كأنه لم يرض بالجواب وأراد جوابا غيره فقلت أما أنا فأنس في صحيفتي الشرك وقد وعدت أن تغفر مادونه فقال اذهبوا به فقد غفرت لكم ومات بعد ذلك ثلاث ليال. وقيل كان رجل شرب جمع قوما من ندمائه ودفع إلى غلامه أربعة دراهم وأمره أن يشتري شيئا من القواكه للمجلس فر التلام ياب مجلس منصور بن عمار وهو يسأل لغير شيئا ويقول من دفع إليه أربعة دراهم دعوت له أربع دعوات قال فدفع التلام إليه الدراهم فقال منصور ما الذي تريد أن أدعوك قال لي سيد أريد أن أتخلص منه فدا منصور وقال الأخرى قال أن يغلف الله على دراهمي فدعا ثم قال الأخرى قال أن يتوب الله على سيدي فدعا ثم قال الأخرى فقال أن يغفر الله لي وليسيدي ولك وللقوم فدعا منصور فرجع التلام فقال له سيده لم أبطأت قمص عليه القصة قال وبم دعا فقال سألت نفسي المتق قال له اذهب فأنت حر قال وأبش الثاني قال أن يغلف الله على الدراهم قال لك أربعة آلاف درهم وأبش الثالث قال أن يتوب الله عليك قال ثبت إلى الله تعالى قال وأبش الرابع قال أن يغفر الله لي ولك وللقوم قال هذا الواحد ليس إلى فلما بات تلك الليلة رأى في المنام كأن قائلا يقول له أنت فعلت ما كان إليك أقربى أتى لأفضل ما إلى قد غفرت لك وللقوم وللمصورين عمار وللقوم الحاضرين أجمعين. وروى عن عبد الوهاب بن عبد الحميد الثقفي قال رأيت ثلاثة من الرجال وأمرأة يعملون جنازة قال فأخذت مكان المرأة وذهبت إلى القبرة وصلينا عليها ودفنا لبيت فقلت للمرأة من كان هذا لبيت منك قالت ابني قلت ولم يكن لكم جيران قالت بلى ولكن صفروا أمره قلت وأبش كان هذا قالت عمتنا قال فرحمته وذهبت بها إلى منزلي وأعطيتها دراهم وحنطة وثيابا قال فرأيت تلك الليلة كأنه أتاني آت كأنه القمر ليلة البدر وعليه ثياب بيض فجعل يتشكرني فقلت من أنت فقال الخنث الذي دفتمونني اليوم رحمني ربي باحتقار الناس إياي. وقال إبراهيم الأطروش كنا قعودا يشهدنا مع معروف الكرخي على دجلة إذ مر أحدنا في زورق يضربون بالدف ويشربون ويلعبون فقالوا للمعروف أما تراهم يحسون الله مجاهرين ادع الله عليهم فرفع يديه وقال إلهي كما فرحتهم في الدنيا ففرحهم في الآخرة فقال اغفر لي إن شئت ولكن ليعزم وليعظم الرغبة فإن الله عز وجل لا يتعاطى شيء أعطاه والبخاري من حديث أبي هريرة في أثناء حديث فإذا سألتهم الله فاسألوه الفردوس فإنه أوسط الجنة وأعلى الجنة ورواه الترمذي من حديث معاذ وهبادة بن الصامت

حروف الحلق والمهم  
مأخوذ من الاهتمام  
أى يهتم بأمر أخيه  
فالاهتمام بهم الصديق  
حقيقة الصداقة. وقال  
عمر إذا رأى أحدا من  
وفا من أخيه  
فليتمسك به قلنا  
يصيب ذلك وقد قال  
القائل :

وإذا صفا لك من زمانك  
واحد

فهو للراد وأين ذاك  
الواحد

وأوحى الله تعالى إلى  
داود عليه السلام  
قال يا داود ما لي أراك  
منتبذا وحده قال  
إلهي قلت الحلق من  
أجلك فأوحى الله إليه  
يا داود كن يقظا  
مرتادا لنفسك أخوانا

للقوم إنما سألك أن تدعو عليهم فقال إذا فرحهم في الآخرة تاب عليهم ، وكان بعض الساف يقول في دعائه يارب وأى أهل دهر لم يصوك ثم كانت نعمتك عليهم سابقة ورزقك عليهم دارا سبحانه ما أحلك وعزتك إنك لتعصى ثم تسبح النعمة وتدر الرزق حتى كأنك ياربنا لاتغضب فهذه هي الأسباب التي بها يجلب روح الرجاء إلى قلوب الخائفين والآيسين ، فأما الحق المعرورون فلا ينبغي أن يسموا شيئا من ذلك بل يسمعون ما منورده في أسباب الخوف فإن أكثر الناس لا يصلح إلا على الخوف كالعبد السوء والصبي العرم لا يستقيم إلا بالأسوط والعصا وإظهار الخشونة في الكلام . وأما ضد ذلك فيسد عليهم باب الصلاح في الدين والدنيا .

### ( الشطر الثاني من الكتاب في الخوف )

وفيه بيان حقيقة الخوف وبيان درجاته وبيان أقسام المخاوف وبيان فضيلة الخوف وبيان الأفضل من الخوف والرجاء وبيان دواء الخوف وبيان معنى سوء الخاتمة وبيان أحوال الخائفين من الأنبياء صلوات الله عليهم والصالحين رحمة الله عليهم ، ونسأل الله حسن التوفيق .

### ( بيان حقيقة الخوف )

اعلم أن الخوف عبارة عن تألم القلب واحترافه بسبب توقع مكروه في الاستقبال ، وقد ظهر هذا في بيان حقيقة الرجاء ومن أنس بالله وملك الحق قلبه وصار ابن وقته مشاهدا لجمال الحق على الدوام لم يبق له التفات إلى المستقبل فلم يكن له خوف ولا رجاء بل صار حاله أعلى من الخوف والرجاء فإنها زمانان يمنان النفس عن الخروج إلى رعوناتهما ، وإلى هذا أشار الواسطي حيث قال : الخوف حجاب بين الله وبين العبد . وقال أيضا إذا ظهر الحق على السرائر لا يبقى فيها فضلة لرجاء ولا خوف وبالجملة فالخوف إذا شغل قلبه في مشاهدة المحبوب بخوف الفراق كان ذلك نقصا في الشهود وإتماما في الشهود غاية القامات ، ولكننا الآن إنما نتكلم في أوائل القامات فنقول : حال الخوف ينتظم بضامن علم وحال وعمل . أما العلم فهو العلم بالسبب المفضي إلى المكروه وذلك كمن جنى على ملك ثم وقع في يده فيخاف القتل مثلا ويجوز العفو والإفلات ولكن يكون تألم قلبه بالخوف بحسب قوة علمه بالأسباب المفضية إلى قتله وهو تفاجش جانيته وكون الملك في نفسه حقودا غضوبا منتقما وكونه محفوقا بمن يحته على الانتقام خاليا عمن يتشفع إليه في حقه وكان هذا الخائف عاطلا عن كل وسيلة وحسنة تمحو أثر جانيته عند الملك فالعلم بتظاهر هذه الأسباب سبب لقوة الخوف وشدة تألم القلب وبحسب ضعف هذه الأسباب يضعف الخوف وقد يكون الخوف لاعتن سبب جناية قارفها الخائف بل عن صفة الخوف كالذي وقع في محال سبيع فإنه يخاف السبع لصفة ذات السبع وهي حرصه وسطوته على الاقتراس غالبا وإن كان اقتراسه بالاختيار وقد يكون من صفة جبلية للخوف منه تكوف من وقع في مجرى سيل أو جوار حريق فإن الساء يخاف لأنه بطبعه مجبول على السيلان والإغراق وكذا النار على الإحراق فالعلم بأسباب المكروه هو السبب الباعث للتبر لإحراق القلب وتألمه وذلك الإحراق هو الخوف فكذلك الخوف من الله تعالى تارة يكون لمعرفة الله تعالى ومعرفة صفاته وأنه لو أهلك العالمين لم يبال ولم ينمعه مانع وتارة يكون بكثرة الجناية من العبد بمقارفة المعاصي وتارة يكون بهما جميعا وبحسب معرفته بيوب نفسه ومعرفته بجلال الله تعالى واستغنائاه وأنه لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون تكون قوة خوفه فأخوف الناس لربه أعرفهم بنفسه وبربه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أنا أخوفكم لله » (١) وكذلك قال الله تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ثم إذا كملت المعرفة (١) حديث أنا أخوفكم البخاري من حديث أنس والله إني لأخشاكم لله وأتقاكم له ولاشيخين

وكل خدن لا يوافق على مسرتي . فلا تصحبه فإنه عدوي قسى قلبك وياعدك مني . وقد ورد في الخبر « إن أحبكم إلى الله الذين يألفون ويؤلفون فالؤمن ألف مألف » وفي هذا دقمة وهي أنه ليس من اختار العزلة والوحدة لله يذهب عنه هذا الوصف فلا يكون ألفا مألوفًا فإن هذه الإشارة من رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الخلق الجلي ، وهذا الخلق يكمل في كل من كان أتم معرفة وقيما وأوزن عقلا وأتم أهلية واستعدادا وكان أوفر الناس خطا

أورثت جلال الخوف واحترق القلب ثم يفيض أثر الحرقه من القلب على البدن وعلى الجوارح وعلى الصفات . أما في البدن فبالنحول والصفار والبشيه والرقة والبكاء وقد تنشق به الرارة فيفضى إلى الموت أو يبعد إلى الدماغ فيفسد العقل أو يقوى فيورث القنوط واليأس . وأما في الجوارح فيكفها عن الماصي وتقيد بها بالطاعات تلافياً لما فرط واستعداداً للمستقبل ، ولذلك قيل ليس الخائف من يكي ويمسح عينه بل من يترك ما يخاف أن يعاقب عليه . وقال أبو القاسم الحكيم من خاف شيئاً هرب منه ومن خاف الله هرب إليه ، وقيل لدى التوب متى يكون العبد خائفاً قال إذا نزل نفسه منزلة السقيم الذي يحمى بحافة طول السقام . وأما في الصفات فإن يقمع الشهوات ويكدر اللذات فتصير الماصي المحبوبة عنده مكروهة كما يصير العسل مكروها عند من يشبهه إذا عرف أن فيه سمّاً فتحرق الشهوات بالخوف وتآدب الجوارح ويحصل في القلب الذبول والخشوع والدلة والاستكانة ويفارقه الكبير والحقد والحسد بل يصير مستوعب الهم بخوفه والنظر في خطرايته فلا يتفرغ لغيره ولا يكون له شغل إلا المراقبة والمحاسبة والمجاهدة والضنة بالأنفاس واللحظات ومواخذة النفس بالخطرات والخطوات والكلمات ويكون حاله من وقع في مغالب سبع صار لا يدرى أنه يفعل عنه فيفلت أو يهجم عليه فيملك فيكون ظاهره وباطنه مشغولاً بما هو خائف منه لا متسع فيه لغيره ، هذا حال من غلبه الخوف واستولى عليه وهكذا كان حال جماعة من الصحابة والتابعين وقوة المراقبة والمحاسبة والمجاهدة بحسب قوة الخوف الذي هو تألم القلب واحتراقه وقوة الخوف بحسب قوة المعرفة بمجال الله وصفاته وأفعاله وبعبوب النفس وما بين يديها من الأخطار والأهوال وأقل درجات الخوف مما يظهر أثره في الأعمال أن يمنع عن المحظورات ويسمى الكف الحاصل عن المحظورات ورعاً فإن زادت قوته كف عما يتطرق إليه إمكان التحريم فيكف أيضاً عما لا يتقن تحريمه ويسمى ذلك تقوى إذ التقوى أن يترك ما يريه إلى ما لا يريه وقد يحمله على أن يترك ما لا بأس به مخافة ما به بأس وهو الصدق في التقوى فإذا انضم إليه التجرد للخدمة فصار لا يبنى ما لا يسكنه ولا يجمع ما لا يأكله ولا يلتفت إلى دنيا يعلم أنها تفارقه ولا يصرف إلى غير الله تعالى نفساً من أفعاله فهو الصدق وصاحبه جدير بأن يسمى صديقاً ويدخل في الصدق التقوى ويدخل في التقوى الورع ويدخل في الورع العفة فاتها عبارة عن الامتناع عن مقتضى الشهوات خاصة ، فاذن الخوف يؤثر في الجوارح بالكف والإقدام ويتجدد له بسبب الكف اسم العفة وهو كف عن مقتضى الشهوة وأعلى منه الورع فانه أعم لأنه كف عن كل محظور ، وأعلى منه التقوى فانه اسم للكف عن المحظور والشبهة جيماً ووراء اسم الصديق والتقرب وتجري الرتبة الآخرة بما قبلها مجرى الأخص من الأعم فإذا ذكرت الأخص فقد ذكرت الكل كما أنك تقول الإنسان إما عربي وإما عجمي والعربي إما قرشي أو غيره والقرشي إما هاشمي أو غيره والهاشمي إما علوي أو غيره والعلوي إما حسني أو حسيني فإذا ذكرت أنه حسني مثلاً فقد وصفته بالجميع وإن وصفته بأنه علوي وصفته بما هو فوقه بما هو أعم منه فكذا ذلك إذا قلت صديق فقد قلت إنه تقى وورع وعفيف فلا ينبغي أن تظن أن كثرة هذه الأسماء تدل على معان كثيرة متباينة فيختلط عليك كما اختلط على من طلب للعاني من الألفاظ ولم يتبع الألفاظ للعاني فهذه إشارة إلى مجامع معاني الخوف وما يكتنفه من جانب العلو كالمعرفة للوجبة له ومن جانب السفلى كالأعمال الصادرة منه كفا وإقداماً .

من حديث عائشة والله إني لأعلمهم بالله وأعدم له خشية .

من هذا الوصف  
الأنبياء ثم الأولياء  
وأنهم الجميع في هذا  
نبينا صلوات الله عليه  
وكل من كان من  
الأنبياء أنهم ألفة كان  
أكثر تبعاً ونبينا  
صلى الله عليه وسلم  
كان أكثرهم ألفة  
وأكثرهم تبعاً وقال  
«تأخروا نكثروا»  
فإن مكائدهم بكم الأمم  
يوم القيامة» وقد نبه  
الله تعالى على هذا  
الوصف من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
فقال - ولو كنت فظاً  
غليظ القلب لانقضوا  
من حولك - وإنما  
طلب العزلة مع وجود  
هذا الوصف ومن  
كان هذا الوصف فيه

( بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف )

اعلم أن الخوف محمود وربما يظن أن كل ما هو خوف محمود فكل ما كان أقوى وأكثراً كان أحمد وهو غلط بل الخوف سوط الله يسوق به عباده إلى اللواظبة على الطم والعمل لئلا يواهما رتبة القرب من الله تعالى والأصلح للبهمة أن لا تغلو عن سوط وكذا الصبي ولكن ذلك لا يدل على أن المبالغة في الضرب محمود وكذلك الخوف له قصور وله إفراط وله اعتدال والمحمود هو الاعتدال والوسط فأما القاصر منه فهو الذي يجري مجرى رقة النساء يخطر بالبال عند سماع آية من القرآن فيورث البكاء وتفيض الدموع وكذلك عند مشاهدة سبب هائل فاذا غاب ذلك السبب عن الحس رجع القلب إلى الغفلة فهذا خوف قاصر قليل الجدوى ضعيف النفع وهو كالقضب الضعيف الذي تضرب به دابة قوية لا يؤلمها المأمر حافلاً يسوقها إلى القصد ولا يصلح رياضتها وهكذا خوف الناس كلهم إلا العارفين والعلماء ولست أعني بالعلماء للترسمين برسوم العلماء والمتسمين بأسمائهم أبعد الناس عن الخوف بل أعني العلماء بالله وبأيامه وأفعاله وذلك مما قد عز وجوده الآن ، ولذلك قال الفضيل بن عياض إذا قيل لك هل تخاف الله فاسكت فانك إن قلت لا كفرت وإن قلت نعم كذبت وأشار به إلى أن الخوف هو الذي يكف الجوارح عن المعاصي ويقيدها بالطاعات وما لم يؤثر في الجوارح فهو حديث نفس وحركة خاطر لا يستحق أن يسمى خوفاً ، وأما المفرط فإنه الذي يقوى ويجاوز حد الاعتدال حتى يخرج إلى اليأس والقنوط وهو مذموم أيضاً لأنه يمنع من العمل وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل ، فالمراد من الخوف ما هو المراد من السوط وهو الحمل على العمل ولولا لما كان الخوف كلاً لأنه بالحقيقة نقصان لأن منشأ الجهل والعجز . أما الجهل فإنه ليس يدرى عاقبة أمره ولوعرف لم يكن خائفاً لأن الخوف هو الذي يتردد فيه . وأما العجز فهو أنه متعرض لمخدر ولا يقدر على دفعه فاذن هو محمود بالإضافة إلى نقص آدمي وإنما المحمود في نفسه وذاته هو العلم والقدرة وكل ما يجوز أن يوصف الله تعالى به وما لا يجوز وصف الله تعالى به فليس يكال في ذاته وإنما يصير محموداً بالإضافة إلى نقص هو أعظم منه كما يكون احتمال ألم الدواء محموداً لأنه أهون من ألم المرض والموت فما يخرج إلى القنوط فهو مذموم وقد يخرج الخوف أيضاً إلى المرض والضعف وإلى الولة والدهشة وزوال العقل وقد يخرج إلى الموت وكل ذلك مذموم وهو كالضرب الذي يقتل الصبي والسوط الذي يهلك الدابة أو يمرضها أو يكرس عضواً من أعضائها وإنما ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم أسباب الرجاء وأكثر منها يعالج به صدمة الخوف المفرط المفضي إلى القنوط أو أحد هذه الأمور فكل ما يراد لأمر فالحمود منه ما يفضي إلى المراد المقصود منه وما يقصر عنه أو يجاوزه فهو مذموم وفائدة الخوف الحذر والورع والتقوى والمجاهدة والعبادة والفكر والذكر وسائر الأسباب الموصلة إلى الله تعالى وكل ذلك يستدعي الحياة مع صحة البدن وسلامة العقل فكل ما يمدح في هذه الأسباب فهو مذموم . فان قلت من خاف فمات من خوفه فهو شهيد فكيف يكون حاله مذموماً . فاعلم أن معنى كونه شهيداً أن له رتبة بسبب موته من الخوف كان لا ينالها لومات في ذلك الوقت لا بسبب الخوف فهو بالإضافة إليه فضيلة فأما بالإضافة إلى تقدير بقاءه وطول عمره في طاعة الله وسلوك سبيله فليس بفضيلة بل للسالك إلى الله تعالى بطريق الفكر والمجاهدة والترقي في درجات المعارف في كل لحظة رتبة شهيد وشهداء ، ولولا هذا لكانت رتبة صبي يقتل أو مجنون يقتله سبع أعلى من رتبة نبي أو ولي يموت حتف أنفه وهو محال فلا ينبغي أن يظن هذا بل أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله تعالى فكل ما بطل العمر أو العقل أو الصحة التي تعطّل العمر بتعطيلها فهو حيران ونقصان بالإضافة إلى أمور وإن كان بعض أقسامها فضيلة بالإضافة

أقوى وأتم كان طلب العزلة فيه أكثر في الابتداء ولهذا المعنى حبيب إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم الخلو في أول أمره وكان يغار في غار حراء ويتحنن إلى نوات العبد وطلب العزلة لا يسلب وصف كونه آتقاً مألوفاً وقد غلط في هذا قوم ظنوا أن العزلة تسلب هذا الوصف فتركوا العزلة طلباً لهذه الفضيلة وهذا خطأ وسر طلب العزلة لمن هذا الوصف فيه أتم من الأنبياء ثم الأمثل فالأمثل ما سلفنا في أول الباب إن في الإنسان ميلا إلى الجنس بالوصف

إلى أمور آخر كما كانت الشهادة فضيلة بالاضافة إلى مادونها لا بالاضافة إلى درجة للتقين والصديقين فاذن الخوف إن لم يؤثر في العمل فوجوده كعدمه مثل السوط الذي لا يزيد في حركة الدابوق إن أثره درجات بحسب ظهور أثره فان لم يحمل إلا على العفة وهي الكف عن مقتضى الشهوات فله درجة فاذا أثمر الورع فهو أعلى وأقصى درجاته أن يثمر درجات الصديقين وهو أن يسلب الظاهر والباطن عما سوى الله تعالى حتى لا يبقى لغير الله تعالى فيه متسع فهذا أقصى ما يعمد منه وذلك مع بقاء الصحة والعقل فان جاوز هذا إلى إزالة العقل والصحة فهو مريض يجب علاجه إن قدر عليه ولو كان محمودا لما وجب علاجه بأسباب الرجاء وبغيره حتى يزول ولذلك كان سهل رحمه الله يقول للمريدين لللازمين للجوع أياما كثيرة احفظوا عقولكم فانه لم يكن لله تعالى ولي ناقص العقل .

( بيان أقسام الخوف بالاضافة إلى ما يخاف منه )

اعلم أن الخوف لا يتحقق إلا بانتظار مكروه والكروه إما أن يكون مكروها في ذاته كالنار وإما أن يكون مكروها لأنه يفضي إلى المكروه كما تكره المعاصي لأدائها إلى مكروه في الآخرة كما يكره المريض الفواكه للضرة لأدائها إلى الموت فلا بد لكل خائف من أن يتمثل في نفسه مكروها من أحد القسمين ويقوى انتظاره في قلبه حتى يحرق قلبه بسبب استشهاده ذلك للكروه ومقام الخائفين يختلف فيما يخلب على قلوبهم من المكروهات المخدورة فالدين يخلب على قلوبهم ما ليس مكروها لذاته بل لغيره كالذين يخلب عليهم خوف اللوت قبل التوبة أو خوف نقض التوبة ونكث العهد أو خوف ضعف القوة عن الوفاء بتمام حقوق الله تعالى أو خوف زوال رقة القلب وتبدلها بالسواة أو خوف الليل عن الاستقامة أو خوف اسبلاء العادة في اتباع الشهوات المألوفة أو خوف أن يكله الله تعالى إلى حسناته التي اتكل عليها وتعزز بها في عباد الله أو خوف البطر بكثرة نعم الله عليه أو خوف الاشتغال عن الله بغير الله أو خوف الاستدراج بتواتر النعم أو خوف انكشاف غوائل طاعاته حيث يبدو له من الله ما لم يكن يحسب أو خوف تبعات الناس عنده في الغيبة والحيانة والنقص وإضمار سوء أو خوف ما لا يدري أنه يحدث في بقية عمره أو خوف تعجيل العقوبة في الدنيا والافتضاح قبل اللوت أو خوف الاغترار بخلاف الدنيا أو خوف اطلاع الله على سريرته في حال غفلته عنه أو خوف الختم له عند اللوت بخاتمة سوء أو خوف السابقة التي سبقت له في الأزل ، فهذه كلها مخاوف العارفين ولكل واحد خصوص فائدة وهو سلوك سبيل الحذر عما يفضي إلى المخوف فمن يخاف اسبلاء العادة عليه فيواظب على الطعام عن العادة ، والذي يخاف من اطلاع الله تعالى على سريرته يشتغل بتطهير قلبه عن الوسواس وهكذا إلى بقية الأقسام وأغلب هذه المخاوف على اليقين خوف الخاتمة فان الأمر فيه محطر وأعلى الأقسام وأدناها على كمال المعرفة خوف السابقة لأن الخاتمة تتبع السابقة وفرع يتفرع عنها بعد تحليل أسباب كثيرة فالخاتمة تظهر ما سبق به القضاء في أم الكتاب والخائف من الخاتمة بالاضافة إلى الخائف من السابقة كرجلين وقع الملك في حقيهما بتوقيع محتمل أن يكون فيه حز الرقة ويحتمل أن يكون فيه تسليم الوزارة إليه ولم يصل التوقيع إليهما بعد فيرتبط قلب أحدهما بحالة وصول التوقيع ونشره وأنه عما إذا يظهر ويرتبط قلب الآخر بحالة توقيع الملك وكيفيته وأنه ما الذي خطر له في حال التوقيع من رحمة أو غضب وهذا النزاع إلى السبب فهو أعلى من الالتفات إلى ما هو فرع فكذلك الالتفات إلى القضاء الأزلي الذي جرى بتوقيعه القلم أعلى من الالتفات إلى ما يظهر في الأبد وإليه أشار النبي صلى الله عليه وسلم حيث كان على المنبر فقبض كفه اليمنى ثم قال : « هذا كتاب الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم لا يزادونهم ولا ينقص ثم قبض كفه اليسرى

الأعم قلما علم الخذاق  
ذلك اللهم الله تعالى  
عجة الحلوة والعزة  
لتصفية النفس عن  
الليل بالوصف الأعم  
لترتقي الهمة العالية  
عن ميل الطباع إلى  
تألف الأرواح فاذا  
وفوا التصفية حقها  
اشترأت الأرواح إلى  
جنسها بالتألف الأصلي  
الأولى وأعادها الله  
تعالى إلى الخلق  
ومخالطتهم مصفاة  
واستنارت النفوس  
الطاهرة بأنوار  
الأرواح وظهرت صفة  
الجليلة من الألفة  
للكلمة آلفة مألوفة  
فصارت العزلة من  
أهم الأمور عند من

وقال هذا كتاب الله كتب فيه أهل النار بأصنامهم وأسماء آبائهم لا يزداد فيهم ولا ينقص وليعلمن أهل السعادة بعمل أهل الشقاوة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستقدم الله قبل الموت ولو بخواق باقية وليعلمن أهل الشقاوة بعمل أهل السعادة حتى يقال كأنهم منهم بل هم ثم يستخرجهم الله قبل الموت ولو بخواق ناقة السعيد من سعد بقضاء الله والشقى من شقى بقضاء الله والأعمال بالخواتيم (١) وهذا كاتسام الخائفين إلى من يخاف معصيته وجنابته وإلى من يخاف الله تعالى نفسه لصفته وجلاله وأوصافه التي تقتضى الهيبة لاعماله فهذا أعلى رتبة ولذلك يبقى خوفه وإن كان في طاعة الصديقين وأما الآخر فهو في عرصة الثرور والأمن وإن واطب على الطاعات فالخوف من المعصية خوف الصالحين والخوف من الله خوف الموحدين والصديقين وهو ثمرة المعرفة بالله تعالى وكل من عرفه وعرف صفاته علم من صفاته ما هو جدير بأل يخاف من غير جنابة بل العاصي لو عرف الله حق المعرفة لخاف الله ولم يخف معصيته ولولا أنه يخوف في نفسه لما سخره للمعصية ويسر له سبيلها ومهد له أسبابها فان تيسر أسباب المعصية إبعاد ولم يسبق منه قبل المعصية معصية استحق بها أن يسخر للمعصية وتجري عليه أسبابها ولا سبق قبل الطاعة وسيلة توصل بها من يسهل له الطاعات ومهد له سبيل القربات فالعاصي قد قضى عليه بالمعصية شاء أم أبى وكذا الطبع فالذي يرفع محمدا صلى الله عليه وسلم إلى أعلى عليين من غير وسيلة سبقت منه قبل وجوده ويضع أبا جهل في أسفل سافلين من غير جنابة سبقت منه قبل وجوده جدير بأن يخاف منه لصفة جلالة فان من أطاع الله أطاع بأن سلط عليه إرادة الطاعة وآتاه القدرة وبعد خلق الإرادة الجازمة والقدرة التامة يصير الفعل ضروريا والذي عصى لأنه سلط عليه إرادة قوية جازمة وآتاه الأسباب والقدرة فكان الفعل بعد الإرادة والقدرة ضروريا فليت شمري ما الذي أوجب إكرام هذا وتخصيصه بتسليط إرادة الطاعات عليه وما الذي أوجب إهانة الآخر وإبعاده بتسليط دواعي المعصية عليه وكيف يحال ذلك على العبد وإذا كانت الحوالة ترجع إلى القضاء الأزلي من غير جنابة ولا وسيلة فالخوف ممن يقضى بما يشاء ويحكم بما يريد حزم عند كل عاقل ووراء هذا المعنى سر القدر الذي لا يعجز إفشاؤه ولا يمكن تفهم الخوف منه في صفاته جل جلاله إلا بمثال لولا إذن التسرع لم يستجري على ذكره ذوبصيرة فقد جاء في الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام يادود خفي كما تخاف السبع الضاري (٢) » فهذا المثال يفهمك حاصل المعنى وإن كان لا يقف بك على سببه فان الوقوف على سببه وقوف على سر القدر ولا يكشف ذلك إلا لأهله . والحاصل أن السبع يخاف لا الجنابة سبقت إليه منك بل لصفته وبطشه وسطوته وكبره وهيبته ولأنه يفعل ما يفعل ولا يبالي فان قتلك لم يرق قلبه ولا يتألم بقتلك وإن خلاك لم يخلك شفقة عليك وإبقاء على روحك بل أنت عند أخس من أن يلتفت إليك حيا كنت أو ميتا بل إهلاك ألف مثلك وإهلاك ثمة عنده على وتيرة واحدة إذ لا يقدح ذلك في عالم سبعيته وما هو موصوف به من قدرته وسطوته والله لئلا الأمل ولكن من عرفه عرف بالمشاهدة الباطنة التي هي أقوى وأوثق وأجلى من الشهادة الظاهرة أنه صادق في قوله « هؤلاء إلى الجنة ولا أبالي » هؤلاء إلى النار ولا أبالي » ويكشفك من موجبات الهيبة والخوف المعرفة بالاستثناء وعدم البالاة .

يألف فيؤلف ومن أدل الدليل على أن الذي اعتزل آلف مألوف حتى يذهب الغلط عن الذي غلط في ذلك وذم العزلة على الإطلاق من غير علم بحقيقة الصفة وحقيقة العزلة فصارت العزلة مرغوبا فيها في وقتها والصفة مرغوبا فيها في وقتها قال محمد بن الحنفية رحمه الله ليس بحكيم من لم يعاشر بالمعروف من لا يجد من معاشرته بدا حتى يجعل الله له منه فرجا . وكان بشر بن الحرث يقول إذا قصر العبد في طاعة الله سلبه الله تعالى من يؤنسه فالأنيس يهشه الله

(١) حديث هذا كتاب من الله كتب فيه أهل الجنة بأسمائهم وأسماء آبائهم الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص وقال حسن صحيح غريب (٢) حديث إن الله تعالى أوحى إلى داود يادود خفي كما يخاف السبع الضاري لم أجده أصلا ولعل المصنف قصد بإبراده أنه من الأسرانيات فانه عبر عنه بقوله جاء في الخبر وكثيرا ما يعبر بذلك عن الأسرانيات التي هي غير مرفوعة .



الطبقة الثانية من الخائفين : أن يثقل في أنفسهم ماهو للسكر وه وذلك مثل سكرات الموت وشدة  
أوسؤال منكر ونكير أو عذاب القبر أو هول المظلم أو هية الموقف بين يدي الله تعالى والحياء من  
كشف السر والسؤال عن النقر والتطمير أو الخوف من الصراط وحدته وكيفية العبور عليه  
أو الخوف من النار وأغلاها وأهوالها أو الخوف من الحرمان عن الجنة ذار النعم والملك القيم  
وعن قصان الدرجات أو الخوف من الحجاب عن الله تعالى وكل هذه الأسباب مكروهة في نفسها  
فهى لا محالة محوفة وتختلف أحوال الخائفين فيها ولعلها رتبة هو خوف الفراق والحجاب عن الله  
تعالى وهو خوف المارقين وما قبل ذلك خوف العاملين والصالحين والزاهدين وكافة العاملين ومن  
لم تكمل معرفته ولم تفتح بصيرته لم يشعر بلذة الوصال ولا بألم البعد والفراق وإذا ذكر له أن  
المارق لا يخاف النار وإنما يخاف الحجاب وجد ذلك في باطنه منكرا وتجب منه في نفسه وربما  
أنكر لذة النظر إلى وجهه الكريم لولامنع الشرع إياه من إنكاره فيكون اعترافه به باللسان  
عن ضرورة التقليد والإقباطه لا يصدق به لأنه لا يعرف إلا لذة البطن والفرج والعين بالنظر  
إلى الألوان والوجوه الحسان وبالجملة كل لذة تشاركه فيها البهائم فأما لذة المارقين فلا يدركها غيرهم  
وتفصيل ذلك وشرحه حرام مع من ليس أهلا له ومن كان أهلا استبصر بنفسه واستغنى عن أن  
يشرحه له غيره فإلى هذه الأقسام يرجع خوف الخائفين نسأل الله تعالى حسن التوفيق بكرمه .

### ( بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه )

اعلم أن فضل الخوف تارة يعرف بالتأمل والاعتبار وتارة بالآيات والأخبار . أما الاعتبار فبسيهله أن  
فضيلة الشيء بقدر غناؤه في الاضواء إلى سعادة لقاء الله تعالى في الآخرة إذ لا مقصود سوى السعادة  
ولا سعادة للعبد إلا في لقاء مولاه والقرب منه فكل ما أعان عليه فله فضيلة وفضيلته بقدر غايته وقد  
ظهر أنه لا وصول إلى سعادة لقاء الله في الآخرة إلا بتحصيل محبته والأنس به في الدنيا ولا يحصل  
المحبة إلا بالمعرفة ولا تحصل المعرفة إلا بدوام الفكر ولا يحصل الأنس إلا بالمحبة ودوام الذكر  
ولا تيسر الواظبة على الذكر والفكر إلا باقطاء حب الدنيا من القلب ولا ينقطع ذلك إلا بترك لذات  
الدنيا وشهواتها ولا يمكن ترك الشهوات إلا بجمع الشهوات ولا تنفع الشهوة بشيء كما تنفع بنار  
الخوف فالخوف هو النار المحرقة للشهوات فان فضيلته بقدر ما يحرق من الشهوات وبقدر ما يكف  
عن اللامع ويحث على الطاعات ويختلف ذلك باختلاف درجات الخوف كما سبق وكيف لا يكون  
الخوف ذا فضيلة وبه تحصل العفة والورع والتقوى والمجاهدة وهى الأعمال الفاضلة المأمودة التى  
تقرب إلى الله زلفى . وأما بطريق الاقتباس من الآيات والأخبار فتأورد في فضيلة الخوف خارج  
عن المحصر وناهيك دلالة على فضيلته جمع الله تعالى للخائفين الهدى والرحمة والعلم والرضوان وهى  
بجامع مقامات أهل الجنان قال الله تعالى - وهدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال تعالى  
- إنما يخشى الله من عباده العلماء - وصفهم بالعلم خشيتهم وقال عز وجل - رضى الله عنهم  
وبرضا عنه ذلك لمن خشى ربه - وكل ما دل على فضيلة العلم دل على فضيلة الخوف لأن الخوف  
ثمرة العلم ولذلك جاء في خبر موسى عليه أفضل الصلاة والسلام وأما الخائفون فان لهم الرفيق  
الأعلى لا يشاركون فيه فانظر كيف أفردهم بمراقبة الرفيق الأعلى وذلك لأنهم العلماء والعلماء لهم  
رتبة مراقبة الأنبياء لأنهم ورثة الأنبياء ومراقبة الرفيق الأعلى للأنبياء ومن يلحق بهم ولذلك  
لما خير رسول الله صلى الله عليه وسلم في مرض موته بين البقاء في الدنيا وبين القدوم على الله

للصادقين رهما من الله  
تعالى وثوابا للعبد  
معجلا والأنيس قد  
يكون مفيدا كالشايخ  
وقد يكون مستفيدا  
كالمريدين فصحيح  
الخلوة والعزلة لا يترك  
من غير أنيس فان  
كان قاصرا يؤنس الله  
بمن يتم حاله به وإن  
كان غير قاصر يقيض  
الله تعالى له من يؤنس  
من المرادين وهذا  
الأنس ليس فيه ميل  
بالوصف الأعم بل هو  
بالله ومن الله وفى الله.  
وروى عبد الله بن  
مسعود عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم قال  
«التحابون في الله على  
عمود من ياقوته حمراء  
في رأس العمود سبعون

تعالى كان يقول أسألك الرفيق الأمل<sup>(١)</sup> فاذن إن نظر إلى مشمره فهو العلم وإن نظر إلى ثمرته فالورع والتقوى ولا يخفى ماورد في فضائلهما حتى إن العاقبة صارت موسومة بالتقوى مخصوصة بها كما صار الحمد مخصوصا بالله تعالى والصلاة برسول الله صلى الله عليه وسلم حتى يقال الحمد لله رب العالمين والعاقبة للمتقين والصلاة على سيدنا محمد صلى الله عليه وسلم وآله أجمعين وقد خصص الله تعالى التقوى بالاضافة إلى نفسه فقال تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وإنما التقوى عبارة عن كفا بمقتضى الخوف كما سبق ولذلك قال تعالى - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - ولذلك أوصى الله تعالى الأولين والآخرين بالتقوى فقال تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - وقال عز وجل - وخافون إن كنتم مؤمنين - فأمر بالخوف وأوجبه وشرطه في الإيمان فذلك لا يتصور أن ينفك مؤمن عن خوف وإن ضعف ويكون ضعف خوفه بحسب ضعف معرفته وإيمانه وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم في فضيلة التقوى « إذا جمع الله الأولين والآخرين لمقات يوم معلوم فاذا هم بصوت يسمع أقصام كما يسمع أذانهم فيقول - يا أيها الناس إني قد أنصت لكم منذ خلقنكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم - أيها الناس إني قد جعلت نسيابا وجمعت نسيابا فوضعت نسيابا ورفعت نسيابكم - قلت - إن أكرمكم عند الله أتقاكم - وأيتهم إلا أن تقولوا فلان بن فلان وفلان أغنى من فلان فاليوم أضع نسيابكم وأرفع نسياب من يتقون فيرفع القوم لواء فيتبع القوم لواءهم إلى منازلهم فيدخلون الجنة بغير حساب<sup>(٢)</sup> » وقال عليه الصلاة والسلام « رأس الحكمة مخافة الله<sup>(٣)</sup> » وقال عليه الصلاة والسلام لابن مسعود « إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى<sup>(٤)</sup> » وقال الفضيل : من خاف الله دله الخوف على كل خير - وقال الشبلي رحمه الله : ما خفت الله يوما إلا رأيت له بابا من الحكمة والعبرة مارأيت قط - وقال يحيى بن معاذ : ما من مؤمن يعمل سيئة إلا ويلاحظها حسنتان خوف العقاب ورجاء العفو كشعلب بين أسدين - وفي خبر موسى عليه الصلاة والسلام وأما الورعون فإنه لا يبقى أحد إلا ناقشته الحساب وفقتت عما في يديه إلا الورعين فإني أستحي منهم وأجلهم أن أوقهم للحساب والورع والتقوى أسام اشتقت من معان شرطها الخوف فإن خلت عن الخوف لم تسم بهذه الأسماء وكذلك ماورد في فضائل الذكر لا يخفى وقد جعله الله تعالى مخصوصا بالخاصين فقال - سيذكر من يخشى - وقال تعالى - ولمن خاف مقام ربه جنتان - وقال صلى الله عليه وسلم « قال عز وجل وعزتي

ألف غرفة مشرفون على أهل الجنة يضئ حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا فيقول أهل الجنة انطلقوا بنا ننظر إلى التحابين في الله عز وجل فإذا أشرقوا عليهم أضياء حسنهم لأهل الجنة كما تضيئ الشمس لأهل الدنيا عليهم ثياب سندس خضر مكتوب على جباههم هؤلاء التحابون في الله عز وجل » وقال أبو إدريس الخولاني لماذ إني أحبك في الله فقال له أبشر ثم أبشر فإني سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « ينصب لطائفة من الناس كراسي حول

(١) حديث لماخبر في مرض موته كان يقول أسألك الرفيق الأمل متفق عليه من حديث عائشة قالت كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول وهو صحيح إنه لم يقبض نبي حتى يرى مقعده من الجنة ثم يغيب فلا تزل به ورأسه في حجرى غشى عليه ثم أفاق فأشخص يبصره إلى سقف البيت ثم قال اللهم الرفيق الأمل فعلت أنه لا يختارنا وعرفت أنه الحديث الذي كان يحدثنا وهو صحيح الحديث (٢) حديث إذا جمع الله الأولين والآخرين لمقات يوم معلوم ناداهم بصوت يسمعه أقصام كما يسمع أذانهم فيقول يا أيها الناس إني قد أنصت إليكم منذ خلقنكم إلى يومكم هذا فأنصتوا إلى اليوم إنما هي أعمالكم ترد عليكم أيها الناس إني جعلت نسيابا الحديث الطبراني في الأوسط والحاكم في المستدرک بسند ضعيف والتعلي في التفسير مقتصر على آخره إني جعلت نسيابا الحديث من حديث أبي هريرة (٣) حديث رأس الحكمة مخافة الله أبو بكر بن لال الفقيه في مكارم الأخلاق والبيهقي في الشعب وضعفه من حديث ابن مسعود ورواه في دلائل النبوة من حديث عقبة بن عامر ولا يصلح أيضا (٤) حديث إن أردت أن تلقاني فأكثر من الخوف بعدى قاله لابن مسعود لم أقف له على أصل.

لأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين فإن أمتي في الدنيا أخفته يوم القيامة وإن خافني في الدنيا أمتي يوم القيامة (١) « وقال صلى الله عليه وسلم » من خاف الله تعالى خافه كل شيء ومن خاف غير الله خوفه الله من كل شيء (٢) « وقال عليه السلام » أتعلمون عقلا أشدكم خوفاً لله تعالى وأحسنكم فيما أمر الله تعالى به ونهى عنه نظرا (٣) « وقال يحيى بن معاذ رحمه الله عليه مسكين ابن آدم لو خاف النار كما يخاف القفر دخل الجنة . وقال ذو النون رحمه الله تعالى من خاف الله تعالى ذاب قلبه واشتد الله حبه وصح له به . وقال ذو النون أيضا ينبغي أن يكون الخوف أبلغ من الرجاء فاذا غلب الرجاء تشوش القلب . وكان أبو الحسين الضرير يقول : علامة السعادة خوف الشقاوة لأن الخوف زمام بين الله تعالى وبين عبده فاذا انقطع زمامه هلك مع المالكين . وقيل ليحيى بن معاذ من آمن الخلق غدا فقال أشدكم خوفاً اليوم . وقال سهل رحمه الله لا نجد الخوف حتى تأكل الحلال . وقيل للحسن يا أبا عبد الله كيف نصنع نجالس أقواما يخوفوننا حتى تسكد قلوبنا تطير فقال والله إنك إن تغالط أقواما يخوفونك حتى يدركك أمن خير لك من أن تصحب أقواما يؤمنونك حتى يدركك الخوف . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما فارق الخوف قلبا إلا خرب وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويؤذي قال لا ، بل الرجل يصوم ويصلي ويتصدق ويخاف أن لا يقبل منه (٤) » والتشديدات الواردة في الأمن من مكر الله وعذابه لا تنحصر وكل ذلك ثناء على الخوف لأن مذمة الشيء ثناء على ضده الذي ينبغي وضد الخوف الأمن كما أن ضد الرجاء اليأس وكما دلت مذمة القنوط على فضيلة الرجاء فكذلك تدل مذمة الأمن على فضيلة الخوف للضاد له بل تقول كل ما ورد في فضل الرجاء فهو دليل على فضل الخوف لأنهما متلازمان فإن كل من رجا محبوبا فلا بد وأن يخاف فوته فإن كان لا يخاف فوته فهو إذا لا يحبه فلا يكون بانتظاره راجيا فالخوف والرجاء متلازمان يستحيل انفكاك أحدهما عن الآخر نعم يجوز أن يغلب أحدهما على الآخر وهما مجتمعان ويجوز أن يشتغل القلب بأحدهما ولا يلتفت إلى الآخر في الحال لفصلته عنه وهذا لأن من شرط الرجاء والخوف تعلقهما بما هو مشكوك فيه إذ للعلوم لا يرجى ولا يخاف فاذا المحبوب الذي يجوز وجوده يجوز عدمه لا محالة فتقدير وجوده يروح القلب وهو الرجاء وتقدير عدمه يوجع القلب وهو الخوف والتقديران يتقابلان لا محالة إذا كان ذلك الأمر ينتظر مشكوكا فيه نعم أحد طرفي الشك محمدي يرجح على الآخر بمحذور بعض الأسباب ويسمى ذلك ظنا فيكون ذلك سبب غلبة أحدهما على الآخر فاذا غلب على الظن وجود المحبوب قوى الرجاء وخفي الخوف بالاضافة إليه وكذا بالعكس وعلى كل حال فهما متلازمان ولذلك قال تعالى - ويدعوننا رغبا ورهبا - وقال عز وجل - يدعون ربهم خوفا وطعنا - ولذلك عبر العرب عن الخوف بالرجاء فقال تعالى - ما لكم لا ترجون لله وقارا - أي لا تخافون وكثيرا ما ورد في القرآن الرجاء بمعنى

(١) حديث لأجمع على عبدي خوفين ولا أجمع له أمنين ابن حبان في صحيحه والبيهقي في الشعب من حديث أبي هريرة ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية الحسن مرسلا (٢) حديث من خاف الله خافه كل شيء الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب الثواب من حديث أبي أمامة بسند ضعيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين باسناد ضعيف معضل وقد تقدم (٣) حديث أتعلمون عقلا أشدكم خوفاً الحديث لم أقف له على أصل ولم يصح في فضل العقل شيء (٤) حديث عائشة قالت يا رسول الله - الذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجلة - هو الرجل يسرق ويؤذي قال لا ، الحديث الترمذي وابن ماجه والحاكم وقال صحيح الاسناد . قلت بل منقطع بين عائشة وبين عبد الرحمن بن سعد بن وهب قال الترمذي وروى عن عبد الرحمن بن سعد عن أبي جازم عن أبي هريرة .

العرش يوم القيامة  
وجوهم كالعمر ليلة  
البدر يفرغ الناس  
ولا يفرعون ويخاف  
الناس ولا يخافون وهم  
أولياء الله الذين لا خوف  
عليهم ولا هم يحزنون  
ف قيل من هؤلاء  
يا رسول الله ؟ قال  
التحابون في الله عز  
وجل . وروى عبادة  
ابن الصامت عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
قال « يقول الله عز وجل  
حقن محبي للمتحابين  
في الزواجرين في  
والتبذلين في  
والتصادقين في »  
أخبرنا الشيخ  
أبو الفتح محمد بن  
عبد الباقي إجازة قال  
أنا أحمد بن الحسين

الخوف وذلك لتلازمهما إذ عادة العرب التعبير عن الشيء بما يلازمه بل أقول كل ما ورد في فضل البكاء من خشية الله فهو إظهار لفضيلة الخشية فإن البكاء ثمرة الخشية فقد قال تعالى - فليضحكوا قليلا وليبكوا كثيرا - وقال تعالى - يبكون ويزيدهم خشوعا - وقال عز وجل - أفمن هذا الحديث يعجبون وتضحكون ولا يتسبون وأنتم سامدون - وقال عليه السلام « ما من عبد مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب من خشية الله تعالى ثم تصيب شيئا من حروجه إلا حرمه الله على النار <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا اقشعر قلب المؤمن من خشية الله تحانت عنه خطايا كما يتحات من الشجرة ورقها <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « لا يلج النار أحد بكى من خشية الله تعالى حتى يعود اللبن في الضرع <sup>(٣)</sup> » وقال عقبة بن عامر « ما النجاة يا رسول الله قاله أمسك عليك لسانك وليسعك بيتك وابك على خطيئتك <sup>(٤)</sup> » وقالت عائشة رضي الله عنها « قلت يا رسول الله أيدخل أحد من أمتك الجنة بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « مامن قطرة أحب إلى الله تعالى من قطرة دمعت من خشية الله تعالى أو قطرة دم أهرقت في سبيل الله سبحانه وتعالى <sup>(٦)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان [١] بذروف الدمع قبل أن تصير الدموع دما والأضراس جمرات <sup>(٧)</sup> » وقال عليه السلام « سبعة يظلهم الله يوم لا ظل إلا ظله وذكر منهم رجلا ذكر الله خاليا ففاضت عيناه <sup>(٨)</sup> » وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من استطاع أن يبكي فليبك ومن لم يستطع فليتبك . وكان محمد بن المنكدر رحمه الله إذا بكى مسح وجهه ولحيته بدموعه ويقول : بلغني أن النار لا تأكل موضعا من الدموع . وقال عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما ابكوا فإن لم تبكوا فتبكوا فوالذي نفسي بيده لو لم أعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله ما تغرغرت عين بعائها إلا لم يرهق وجهه صاحب أقر ولا ذلة

(١) حديث مامن مؤمن يخرج من عينه دمة وإن كانت مثل رأس الدباب الحديث الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف (٢) حديث إذا اقشعر جلد المؤمن من خشية الله تحانت عنه ذنوبه الحديث الطبراني والبيهقي فيه من حديث العباس بسند ضعيف (٣) حديث لا يلج النار عبد بكى من خشية الله الحديث الترمذي وقال حسن صحيح والفائس وابن ماجه من حديث أبي هريرة (٤) حديث قال عقبة بن عامر ما النجاة يا رسول الله قال أمسك عليك لسانك الحديث تقدم (٥) حديث عائشة قلت يدخل الجنة أحد من أمتك بغير حساب قال نعم من ذكر ذنوبه فبكى لم أقف له على أصل (٦) حديث مامن قطرة أحب إلى الله من قطرة دمة من خشية الله الحديث الترمذي من حديث أبي أمامة وقال حسن غريب وقد تقدم (٧) حديث اللهم ارزقني عينين هطالتين تشفيان بذروف الدمع الحديث الطبراني في الكبير وفي الدعاء وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر بإسناد حسن ورواه الحسين الروزي في زيادته على الزهد والرقائق لابن المبارك من رواية سالم بن عبد الله مرسل دون ذكر الله وذكر الدار قطن في الملل أن من قال فيه عن أبيه وهم إنما هو عن سالم بن عبد الله مرسل قال وسالم هذا يشبه أن يكون سالم بن عبد الله المحاربي وليس بابن عمر انتهى وما ذكره من أنه سالم المحاربي هو الذي يدل عليه كلام البخاري في التاريخ ومسلم في السنن والكشي وابن أبي حاتم عن أبيه وأبي أحمد الحاكم فإن الراوي له عن سالم عبد الله أبو سلمة وإعنا ذكروا له رواية عن سالم المحاربي والله أعلم . ثم حكى ابن عساكر في تاريخه الخلاف في أن الذي يروي عن سالم المحاربي أو سالم بن عبد الله بن عمر (٨) حديث سبعة يظلهم الله في ظله الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

[١] قوله تشفيان بذروف الدمع الذي في الجامع الصغير تشفيان القلب بذروف الدمع من خشيتك اهـ .

ابن خيرون قال أنا أبو عبد الله أحمد بن عبد الله الحاملي قال أنا أبو القاسم عمر بن جعفر ابن محمد بن سلام قال أنا أبو اسحق إبراهيم بن اسحق الحاربي قال حدثنا حماد عن يحيى ابن سعيد عن سعيد ابن السيب أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال « ألا أخبركم بخير من كثير من الصلاة والصدقة قالوا وما هو قال إصلاح ذات البين وإياكم والبضعة فانها هي الخالقة » وبإسناد إبراهيم الحاربي عن عبيد الله بن عمر عن أبي أمامة عن عبد الله ابن الوليد عن عمران ابن رباح قال سمعت

يوم القيامة فان سألت دموعه أطفأ الله بأول قطرة منها محاراً من النيران ولو أن رجلاً بكى في أمة ما عذبت تلك الأمة . وقال أبو سليمان البكاء من الخوف والرجاء والطرب من الشوق . وقال كعب الأحبار رضى الله عنه والذي نفسى بيده لأن أبكى من خشية الله حتى تسيل دموعه على وجنتي أحب إلى من أن أنصدق بمجل من ذهب . وقال عبد الله بن عمر رضى الله عنهما لأن أدمع دموعاً من خشية الله أحب إلى من أن أنصدق بألف دينار . وروى عن حنظلة قال « كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا موعظة رقت لها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فذنت مني للراءة وجرى بيننا من حديث الدنيا فذيت ما كنا عليه عند رسول الله صلى الله عليه وسلم وأخذنا في الدنيا ثم تذكرت ما كنا فيه فقلت في نفسى قد ناققت حيث تحولت عنى ما كنت فيه من الخوف والركة فخرجت وجعلت أناذى نافع حنظلة فاستقباني أبو بكر الصديق رضى الله عنه فقال كلامى بنافع حنظلة فدخلت على رسول الله صلى الله عليه وسلم وأنا أقول نافع حنظلة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : كلامى بنافع حنظلة فقلت يا رسول الله كنا عندك فوعظتنا موعظة وجاءت منها القلوب وذرفت منها العيون وعرفنا أنفسنا فرجعت إلى أهلي فأخذنا في حديث الدنيا ونسيت ما كنا عندك عليه فقال صلى الله عليه وسلم يا حنظلة لو أنكم كنتم أبداً على تلك الحالة لصالحكم الملائكة في الطرق وعلى فراشكم ولكن يا حنظلة ساعة وساعة (١) » فاذن كل ما ورد في فضل الرجاء والبكاء وفضل التقوى والورع وفضل العلم ومذمة الأمن فهو دلالة على فضل الخوف لأن جملة ذلك متعلقة به إما تعلق السبب أو تعلق السبب .

( بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما )

اعلم أن الأخبار في فضل الخوف والرجاء قد كثرت وربما ينظر الناظر إليهما فيترتب شك في أن الأفضل أيهما وقول القائل الخوف أفضل أم الرجاء سؤال فاصد يراه في قول القائل الخبر أفضل أم الماء وجوابه أن يقال الخبر أفضل للجائع والماء أفضل للعطشان فإن اجتماعاً نظر إلى الأغلب فإن كان الجوع أغلب فالخبر أفضل وإن كان العطش أغلب فالماء أفضل وإن استويا فهما متساويان وهذا لأن كل ما يراد لمقصود فضله يظهر بالاضافة إلى مقصوده لا إلى نفسه والخوف والرجاء دوا آن يداوى بهما القلوب ففضلهما بحسب الدواء الموجود فإن كان الغالب على القلب داء الأمن من مكر الله تعالى والاعتذار به فالخوف أفضل وإن كان الأغلب هو اليأس والقنوط من رحمة الله فالرجاء أفضل وكذلك إن كان الغالب على العبد للعصية فالخوف أفضل ويجوز أن يقال مطلقاً الخوف أفضل على التأويل الذى يقال فيه الخبر أفضل من السكنجيين إذ يبالغ بالخبر مرض الجوع وبالسكنجيين مرض الصفراء ومرض الجوع أغلب وأكثر الحاجة إلى الخبر أكثر فهو أفضل فهذا الاعتبار غلبة الخوف أفضل لأن المعاصى والاعتذار على الخلق أغلب وإن نظر إلى مطلق الخوف والرجاء فالرجاء أفضل لأنه مستقيم من بحر الرحمة ومستقيم الخوف من بحر الغضب ومن لاحظ من صفات الله تعالى ما يقتضى اللطف والرحمة كانت المحبة عليه أغلب وليس وراء المحبة مقام . وأما الخوف فستند الالتماس إلى الصفات التى تقتضى العنف فلا تمازجه المحبة ممازجتها للرجاء . وعلى الجملة فما يراد لغيره ينبغى أن يستعمل فيه لفظ الأصلح لالتماس الأفضل فنقول : أكثر الخلق الخوف لهم أصلح من الرجاء وذلك لأجل غلبة المعاصى . فأما التقي الذى ترك ظاهر الآثم وباطنه وخفيه وجليه فالأصلح أن يعتدل خوفه ورجاؤه ولذلك

(١) حديث حنظلة كنا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فوعظنا الحديث وفيه نافع حنظلة الحديث وفيه ولكن يا حنظلة ساعة وساعة مسلم مختصراً .

أبا مسلم يقول سمعت  
أبا هريرة يقول الخبر  
وفى الخبر تحذير عن  
البغضة وهو أن يحفو  
الحنظلى الناس مقتا لهم  
وسوء ظن بهم وهذا  
خطأ وإنما يريد أن  
يخلو مقتنا لنفسه  
وعلم بما فى نفسه من  
الآفات وحذرا على  
نفسه من نفسه وعلى  
الخلق أن يعود عليهم  
من شره فمن كانت  
خلوته بهذا الوصف  
لا يدخل تحت هذا  
الوعيد والاشارة  
بالحاقة يعنى أن البغضة  
حائلة للدين لأنه نظر  
إلى المؤمنين والمسلمين  
بعين القم . وأخبرنا  
الشيخ أبو الفتح  
بأسانه إلى إبراهيم

قيل لو وزن خوف المؤمن ورجاؤه لاعتدلا وروى أن علياً كرم الله وجهه قال لبعض ولده يا بني خف الله خوفاً ترى أنك لو أتيت بهنسات أهل الأرض لم يقبلها منك وأرج الله رجاءاً ترى أنك لو أتيت بسيئات أهل الأرض غفرها لك ولذلك قال عمر رضي الله عنه لو نودي ليدخل النار كل الناس إلا رجلاً واحداً لرجوت أن أكون أنا ذلك الرجل ولو نودي ليدخل الجنة كل الناس إلا رجلاً واحداً لحشيت أن أكون أنا ذلك الرجل وهذا عبارة عن غاية الخوف والرجاء واعتدالهما مع الغلبة والاستيلاء ولكن على سبيل التقاوم والتساوي لئلا عمر رضي الله عنه ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه فأما العاصي إذا ظن أنه الرجل الذي استثنى من الدين أمراً وبدخول النار كان ذلك دليلاً على اغتراره . فان قلت مثل عمر رضي الله عنه لا ينبغي أن يستوى خوفه ورجاؤه بل ينبغي أن يغلب رجاءه كما سبق في أول كتاب الرجاء وأن قوته ينبغي أن تكون بحسب قوت أسبابه كما مثل بالزراع والبذر ومعلوم أن من بث البذر الصحيح في أرض تقيّة وواظب على تهذيبها وجاء بشرط الزراعة جميعها غلب على قلبه رجاء الإدراك ولم يكن خوفه مساوياً لرجائه فهكذا ينبغي أن تكون أحوال للتقين . فاعلم أن من يأخذ المعارف من الألفاظ والأمثلة يكثر زلله وذلك وإن أوردناه مثلاً فلا يلبس بضاهي ما نحن فيه من كل وجه لأن سبب غلبة الرجاء العلم الحاصل بالتجربة إذ علم بالتجربة صحة الأرض وثقاؤها وصحة البذر وصحة الهواء وقلة الصواعق المهلكة في تلك البقاع وغيرها وانما مثل مسألنا بذر لم يجرب جنسه وقد بث في أرض غريبة لم يحدها الزارع ولم يختبرها وهي في بلاد ليس يدري أكثر الصواعق فيها أم لا لئلا هذا الزارع وإن أدى كنه مجهوده وجاء بكل مقدورة فلا يغلب رجاءه على خوفه والبذر في مسألنا هو الإيمان وشروط صحته دقة الأرض والقلب وخفايا خبئه وصفاته من الشرك الخفي والنفاق والرياء وخفايا الأخلاق فيه غامضة والآفات هي الشهوات وزخارف الدنيا والثغرات القلب إليها في مستقبل الزمان وإن سلم في الحال وذلك مما لا يتحقق ولا يعرف بالتجربة إذ قد يمرض من الأسباب ما لا يطاق محالته ولم يجرب مثله والصواعق هي أهوال السكرات الموت واضطراب الاعتقاد عنده وذلك مما لم يجرب مثله ثم الحصاد والإدراك عند التصرف من القيامة إلى الجنة وذلك لم يجرب فمن عرف حقائق هذه الأمور فإن كان ضعيف القلب جباناً في نفسه غلب خوفه على رجائه لا محالة كما سيحكي في أحوال الخائفين من الصحابة والتابعين وإن كان قوى القلب ثابت الجأش تام المعرفة استوى خوفه ورجاؤه فأما أن يغلب رجاءه فلا وقد كان عمر رضي الله عنه يبالغ في تفتيش قلبه حتى كان يسأل حذيفة رضي الله عنه أنه هل يعرف به من آثار النفاق شيئاً إذ كان قد خصه رسول الله ﷺ بعلم المناقين (١) فمن ذا الذي يقدر على تطهير قلبه من خفايا النفاق والشرك الخفي وإن اعتقد تقاء قلبه عن ذلك فمن أين يأمن مكر الله تعالى بتلبيس حاله عليه وإخفاء عيه عنه وإن وثق به فمن أين يثق بيقائه على ذلك إلى تمام حسن الخاتمة وقد قال صلى الله عليه وسلم «إن الرجل ليعمل عمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر» (٢) ، وفي رواية «لا قدر فواقي

الحرب قال حدثنا يعقوب بن إبراهيم قال حدثنا أبو عاصم عن ثور عن خالد بن معدان قال إن الله تعالى ملكاً نصفه من نار ونصفه من ثلج وإن من دعا له اللهم فكا ألفت بين هذا الثلج وهذه النار فلا الثلج يطفى النار ولا النار تذيب الثلج ألفت بين قلوب عبادك الصالحين وصحيف لاتألف قلوب الصالحين وقد وجدتم رسول الله صلى الله عليه وسلم في وقته العزيز بقاب قوسين في وقت لا يسهه فيه شيء لطف حال الصالحين وجدتم في ذلك اللامع العزيز

(١) حديث إن حذيفة كان خصه رسول الله صلى الله عليه وسلم بعلم المناقين مسلم من حديث حذيفة في أصحابي اثنا عشر مناقباً تمامه لا يدخلون الجنة حتى يبلغ الجمل في سم الحياض الحديث (٢) حديث إن الرجل ليعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا شبر وفي رواية لا قدر فواقي ناقة الحديث مسلم من حديث أبي هريرة إن الرجل ليعمل الزمان الطويل بعمل أهل الجنة ثم يحتم له بعمل أهل النار والبرار والطبراني في الأوسط سبعين سنة وإسناده حسن والشيخين في أثناء حديث لابن مسعود إن أحدهم يعمل بعمل أهل الجنة حتى ما يكون بينه وبينها إلا ذراع الحديث

ناقة فيسبق عليه الكتاب فيحتم له بعمل أهل النار وقد فواق الناقة لا يحتمل عملاً بالجوارح إنما هو بمقدار خاطر يخرج في القلب عند الموت فيقتضى خاتمة السوء فكيف يؤمن ذلك فاذا نأصى غايات المؤمن أن يستدل خوفه ورجاؤه وغلبة الرجاء في غالب الناس تكون مستندة للاعتزاز وقلة المعرفة لذلك جمع الله تعالى بينهما في وصف من أثنى عليهم فقال تعالى - يدعون ربهم خوفاً وطمعا - وقال عز وجل - ويدعوننا رغباً ورهبا - وأين مثل عمر رضي الله عنه فالخلق الموجودون في هذا الزمان كلهم الأصلح لهم غلبة الخوف بشرط أن لا يخرجهم إلى اليأس وترك العمل وقطع الطمع من الغفرة فيكون ذلك سبباً لتكاسل عن العمل وداعياً إلى الانهماك في المعاصي فإن ذلك قنوط وليس بخوف إنما الخوف هو الذي يحث على العمل ويكسر جميع الشهوات ويزعج القلب عن الركون إلى الدنيا ويدعو إلى التجافي عن دار القرور فهو الخوف المحمود دون حديث النفس الذي لا يؤثر في الكف والخلو ودون اليأس اللوجب للقنوط وقد قال يحيى بن معاذ من عبد الله تعالى بمحض الخوف غرق في بحار الأفكار ومن عبده بمحض الرجاء تاه في مفازة الاعتزاز ومن عبده بالخوف والرجاء استقام في محبة الأذكار . وقال مكحول الدمشقي من عبد الله بالخوف فهو حروري ومن عبده بالرجاء فهو مرجي . ومن عبده بالمحبة فهو زنديق ومن عبده بالخوف والرجاء والمحبة فهو موحد فاذا نأبى من الجمع بين هذه الأمور وغلبة الخوف هو الأصلح ولكن قبل الاشراف على الموت أما عند الموت فالأصلح غلبة الرجاء وحسن الظن لأن الخوف جار مجرى السوط الباعث على العمل وقد اقتضى وقت العمل فالمشرف على الموت لا يقدر على العمل ثم لا يطبق أسباب الخوف فإن ذلك يقطع نياط قلبه ويعين على تمجيل موته وأما روح الرجاء فإنه يتقوى قلبه ويحبب إليه ربه الذي إليه رجاءه ولا ينبغي أن يفارق أحد الدنيا إلا بحب الله تعالى ليكون محباً للقاء الله تعالى فإن من أحب لقاء الله تعالى أحب لقاء الله والرجاء تفارقه المحبة فنأرتجى كرمه فهو محبوب والتقصود من العلوم والأعمال كلها معرفة الله تعالى حتى تشر المعرفة المحبة فإن الصبر إليه والقدوم بالموت عليه ومن قدم على محبوه عظم سروره بقدر محبته ومن فارق محبوه اشتدت محبته وعذابه فهمما كان القلب الغالب عليه عند الموت حب الأهل والولد والمال والسكن والعقار والرفقاء والأصحاب فهذا رجل محابه كلها في الدنيا فالله الدنيا جنته إذ الجنة عبارة عن البقعة الجامعة لجميع المحاب فهوته خروج من الجنة وجبولة بينه وبين ما يشتهي ولا يخفى حال من يحال بينه وبين ما يشتهي فاذا لم يكن له محبوب سوى الله تعالى وسوى ذكره ومعرفته والفكر فيه والدنيا وعلاقتها شاغلة له عن المحبوب فالله الدنيا إذن سجنه لأن السجن عبارة عن البقعة السائمة للمحبوس عن الاسترواح إلى محابه فهو متقدم على محبوه وخلاص من السجن ولا يخفى حال من أفلت من السجن وخلى بينه وبين محبوه بلا مناع ولا مكدر فهذا أول ما يلقاه كل من فارق الدنيا عقيب موته من الثواب والعقاب فضلاً عما أعده الله لعباده الصالحين مما لم تره عين ولم تسمعه أذن ولا خطر على قلب بشر وفضلاً عما أعده الله تعالى للذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة ورضوا بها واطمأنوا إليها من أنكال والأسلاك والأغلال وضروب الخزي والنكال فنسأل الله تعالى أن يتوفانا مسلمين ويلحقنا بالصالحين ولا مطمع في إجابة هذا الدعاء إلا بالكسب حب الله تعالى ولا سبيل إليه إلا باخراج حب غيره من القلب وقطع العلائق عن كل ما سوى الله تعالى من جاء وماله ووطن فالأولى أن تدعو بما دعا به نبينا صلى الله عليه وسلم إذ قال « اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إلي من الماء البارد <sup>(١)</sup> » والغرض

ليس فيه تهديد زمن العمل بخمسين سنة ولا ذكر شر ولا فواق ناقة (١) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من أحبك الحديث الترمذي من حديث معاذ وتقدم في الأذكار والدعوات .

وقال السلام علينا  
وعلى عباد الله الصالحين  
فهم مجتمعون وإن  
كانوا متفرقين  
وصحبهم لازمة  
وعزيمتهم في التواصل  
في الدنيا والآخرة  
جازمة . وعن عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه  
لو أن رجلاً صام النهار  
وقام الليل وتصدق  
وجاهد ولم يحب في  
الله ولم يهضم فيه  
ما نفعه ذلك . أخبرنا  
رضي الدين أحمد بن  
إسماعيل بن يوسف  
إجازة إن لم يكن معاً  
قال أنا أبو المظفر عن  
والده أبي القاسم  
القشيري قال سمعت  
أبا عبد الرحمن السلمي  
يقول سمعت عبد الله

أن غلبة الرجاء عند الموت أصلح لأنه أجلب للمحبة وغلبة الخوف قبل الموت أصلح لأنه أحرق لئلا الشهوات وأقع لمحبة الدنيا عن القلب ولذلك قال عليه السلام « لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه » (١) وقال تعالى « أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ما شاء » ولما حضرت سليمان التيمي الوفاة قال لابنه يابني حدثني بالرخص واذكري الرجاء حتى ألقى الله على حسن الظن به وكذلك لما حضرت الثوري الوفاة واشتد جزعه جمع العلماء حوله يرجونه وقال أحمد بن حنبل رضى الله تعالى عنه لابنه عند الموت اذكر لي الأخبار التي فيها الرجاء وحسن الظن والمقصود من ذلك كله أن يحبب الله تعالى إلى نفسه ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام أن حبيبي إلى عبادي فقال بماذا قال بأن تذكر لهم الدنيا من القلب حتى تصير الدنيا كلها كالسجن النافع من المحبوب ولذلك رأى بعض الصالحين بآسليمان الداراني في المنام وهو يطير فسأله فقال الآن أقلت فلما أصبح سألت عن حاله فقيل له إنه مات البارحة.

( بيان الدواء الذي به يستجلب حال الخوف )

اعلم أن ما ذكرناه في دواء الصبر وشرحاته في كتاب الصبر والشكر هو كاف في هذا العرض لأن الصبر لا يمكن إلا بعد حصول الخوف والرجاء لأن أول مقامات الدين اليقين الذي هو عبارة عن قوة الإيمان بالله تعالى وباليوم الآخر والجنة والنار وهذا اليقين بالضرورة يبيح الخوف من النار والرجاء للجنة والرجاء والخوف يقويان على الصبر فإن الجنة قد حفت بالمسكاره فلا يصبر على تحملها إلا بقوة الرجاء والنار قد حفت بالشهوات فلا يصبر على قمعها إلا بقوة الخوف ولذلك قال على كرم الله وجهه من اشتاق إلى الجنة سلا عن الشهوات ومن أشفق من النار رجع عن الهرمات ثم يؤدي مقام الصبر المستفاد من الخوف والرجاء إلى مقام المجاهدة والتجرد لذكر الله تعالى والفكر فيه على الدوام ويؤدي دوام الذكر إلى الأنس ودولم الفكر إلى كمال المعرفة ويؤدي كمال المعرفة والانس إلى المحبة ويتبعها مقام الرضا والتوكل وسائر المقامات فهذا هو الترتيب في سلوك منازل الدين وليس بعد أصل اليقين مقام سوى الخوف والرجاء ولا بعدهما مقام سوى الصبر وبه المجاهدة والتجرد لله ظاهر أو باطنا ولا مقام بعد المجاهدة من فتح له الطريق إلا الهداية والمعرفة ولا مقام بعد المعرفة إلا المحبة والانس ومن ضرورة المحبة الرضا بفعل المحبوب والثقة ببنائه وهو التوكل فاذن فيما ذكرناه في علاج الصبر كفاية ولكنا نفراد الخوف بكلام جملي فنقول : الخوف يحصل بطريقتين مختلفتين أحدهما على من الآخر، ومثاله أن الصبي إذا كان في بيت فدخل عليه سبع أو حية ربما كان لا يخاف وربما مد اليد إلى الحية ليأخذها ويلعب بها ولكن إذا كان معه أبوه وهو قائل خاف من الحية وهرب منها فإذا نظر الصبي إلى أبيه وهو يرتعد فرائسه ويختال في الحرب منها قام معه وغلب عليه الخوف وواقفه في الحرب يخوف الأب عن بصيرة ومعرفة بصفة الحية وحماها وخاصيتها وسطوة السبع وبطشه وقلة مبالاته . وأما خوف الابن فأيمانه بمجرد التقليد لأنه يحسن الظن بأبيه ويعلم أنه لا يخاف إلا من سبب مخوف في نفسه فيعلم أن السبع مخوف ولا يعرف وجهه وإذا عرفت هذا المثال فاعلم أن الخوف من الله تعالى على مقامين أحدهما الخوف من عذابه والثاني الخوف منه فأما الخوف منه فهو خوف العلماء وأرباب القلوب العارفين من صفاته ما يقتضي الهيبة والخوف والحذر المطلعين على سر قوله تعالى - ويحذركم الله نفسه - وقوله عز وجل - اتقوا الله حق تقاته - وأما الأول فهو خوف عبود الخلق وهو حاصل بأصل الإيمان بالجنة والنار وكونها جزاء من على الطاعة والمحبة وضعفه بسبب الغفلة وسبب ضعف الإيمان وإعماز زل الغفلة بالتذكير والوعظ وملازمة الفكر في أهوال

(١) حديث لا يموتن أحدكم إلا وهو يحسن الظن بربه مسلم من حديث جابر وقد تقدم .

ابن المسلم يقول  
سمعت أبا بكر  
التمساني يقول أحبوا  
مع الله فإن لم تطيقوا  
فأحبوا مع من يحب  
مع الله لتوصلكم بركة  
صحبته إلى صفة الله.  
وأخبرنا شيخنا ضياء  
الدين أبو النجيب  
إجازة قال أنا عمر  
ابن أحمد الصفار  
النيسابوري إجازة قال  
أنا أبو بكر أحمد بن  
خلف قال أنا أبو  
عبد الرحمن السلي  
قال سمعت أبا نصر  
الأصفهاني يقول سمعت  
أبا جعفر الحداد يقول  
سمعت على بن سهل  
يقول : الأنس بالله  
تعالى أن تستوحش  
من الخلق إلا من أهل



يوم القيامة وأصناف العذاب في الآخرة وتزول أيضاً بالنظر إلى الخائفين ومجالستهم ومشاهدة أحوالهم فان قامت المشاهدة فالسباع لا يخلو عن تأثير وأما الثاني وهو الأهل فان يكون الله هو الخوف أعني أن يخاف العبد الحجاب عنه ويرجو القرب منه . قال ذو النون رحمه الله تعالى خوف النار عند خوف الفراق كقطرة قطرت في بحر لجي وهذه خشية العلماء حيث قال تعالى - إنما يخشى الله من عباده العلماء - ولعموم المؤمنين أيضاً حظ من هذه الخشية ولكن هو مجرد التقليد أيضاً هي خوف الصبي من الحية تقليداً لأبيه وذلك لا يستند إلى بصيرة فلا جرم يضعف ويزول على قرب حق إن الصبي ربما يرى العزم يعدم على أخذ الحية فينظر إليه ويفتربه فيتجرأ على أخذها تقليداً له كما احترز من أخذها تقليداً لأبيه والعقائد التقليدية ضعيفة في الغالب إلا إذا قويت بمشاهدة أسبابها للؤكد لها على الدوام وبالمواظبة على مقتضاها في تكثير الطاعات واجتناب العاصي مدة طويلة على الاستمرار فاذن من ارتقى إلى ذروة المعرفة وعرف الله تعالى خافه بالضرورة فلا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف كما أن من عرف السبع ورأى نفسه واقفاً في محالبه لا يحتاج إلى علاج لجلب الخوف إلى قلبه بل يخافه بالضرورة شاء أم أبى ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه الصلاة والسلام خفي كما تخاف السبع الضاري ولا حيلة جلب في الخوف من السبع الضاري إلا المعرفة السبع ومعرفة الوقوع في محالبه فلا يحتاج إلى حيلة سواء من عرف الله تعالى عرف أنه يفعل ما يشاء ولا يبالى ويحكم ما يريد ولا يخاف قرب اللاتكة من غير وسيلة سابقة وأبعد إبليس من غير جريمة سابقة بل صفته ما ترجمه قوله تعالى هؤلاء في الجنح ولا أبالي وهؤلاء في النار ولا أبالي وإن خطر ببالك أنه لا يعاقب إلا على مصيبة ولا يثيب إلا على طاعة فتأمل أنه لم يعد الطبع بأسباب الطاعة حتى يطيع شاء أم أبى ولم يعد العاصي بدواعي المصيبة حتى يصي شاء أم أبى فانه مهما خلق الغفلة والشهوة والقدرة على قضاء الشهوة كان الفعل واقعيها بالضرورة فان كان أبعد لأنه عصاه فلم حمله على المصيبة هل ذلك لمصيبة سابقة حتى يتسلسل إلى غير نهاية أو يقف لا محالة على أول لاعة له من جهة العبد بل قضى عليه في الأزل وعن هذا المعنى عبر صلى الله عليه وسلم إذ قال «احتج آدم وموسى عليهما الصلاة والسلام عند ربهما فحج آدم موسى عليه السلام قال موسى أنت آدم الذي خلقك الله يده ونمخ فيك من روحه وأسجدك ملائكته وأسكنك جنته ثم أهبطت الناس بخطيئتك إلى الأرض فقال آدم أنت موسى الذي اصطفاك الله برسائه وبكلامه وأعطاك الألواح فيها تبيان كل شيء وقربك نجيا فبكم وحدت الله كتب التوراة قبل أن أخلق قاله موسى بأربعين عاماً قال آدم فهل وجدت فيها وعصى آدم ربه فغوى قال نعم قال ألقوا مني على أن عملت عملاً كتبته الله على قبل أن أعمله وقبل أن يخلقني بأربعين سنة قال صلى الله عليه وسلم فحج آدم موسى (١) فمن عرف السبب في هذا الأمر معرفة صادرة عن نور الهداية فهو من خصوص العارفين المطلعين على سر القدر ومن سمع هذا فقام من به وصدق بمجرد السماع فهو من عموم المؤمنين ويحصل لكل واحد من الفريقين خوف فان كل عبد فهو واقع في قبضة القدرة وقوع الصبي الضعيف في محالبه السبع والسبع قديفل بالاتفاق فيخليه وقد يهجم عليه فيقرسه وذلك بحسب ما يتفق ولذلك الاتفاق أسباب مرتبة بقدر معلوم ولكن إذا أضيف إلى من لا يعرفه سمى اتفاقاً وإن أضيف إلى علم الله لم يحز أن يسمى اتفاقاً الواقع في محالبه السبع لو كانت معرفته لكان لا يخاف السبع لأن السبع مسخر إن سلط عليه الجوع اقتصر وإن سلط عليه الغفلة خلى وترك فانما يخاف خالق السبع وخالق صفاته فليست أقول مثال الخوف من الله تعالى الخوف من السبع

(١) حديث احتج آدم وموسى عند ربهما فحج آدم موسى الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وهو متفق عليه باللفظ آخر .

ولايه الله فان الأنس بأهل ولاية الله هو الأنس بالله . وقد به القائل نظماً على حقيقة جامعة لمعان الصحة والحلوة وفائدتهما وما يحذر فيهما بقوله : وحدة الانسان خير من جليس السوء عنده

وجليس الخير خير من قوم الرء وحده  
[ الباب الرابع ]  
والحسبون في أداء حقوق الصحة والأخوة في الله تعالى  
قال الله تعالى - وتعاونوا على البر والتقوى - وقال تعالى - وتواصوا بالحق - وقال في وصف أصحاب

بل إذا كشف الغطاء علم أن الخوف من السبع هو عين الخوف من الله تعالى لأن الملك بواسطة السبع هو الله . فاعلم أن سباع الآخرة مثل سباع الدنيا وأن الله تعالى خلق أسباب العذاب وأسباب الثواب وخلق لكل واحد أهلا يسوقه القدر للتفرع عن القضاء الجزم الأزل إلى ما خلق له خلق الجنة وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا ، وخلق النار وخلق لها أهلا سخرها لأسبابها شاءوا أم أبوا فلا يرى أحد نفسه في ملتطم أمواج القدر إلا غلبه الخوف بالضرورة ، فهذه مخاوف العارفين بسر القدر فمن قعد به القصور عن الارتفاع إلى مقام الاستبصار فسيب له أن يعالج نفسه بمواعظ الأخبار والآثار فيطالع أحوال الخائفين العارفين وأقوالهم وينسب عقولهم ومناصبهم إلى مناصب الراجين للفرورين فلا يتمارى في أن الاقتداء بهم أولى لأنهم الأنبياء والأولياء والصلحاء . وأما الآمنون فهم القرائنة والجهال والأغبياء . أما رسولنا صلى الله عليه وسلم فهو سيد الأولين والآخرين (١) وكان أشد الناس خوفا (٢) حتى روى أنه كان يصلى على طفل ، قضى رواية أنه سمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار (٣) وفي رواية ثانية « أنه سمع قائلا يقول هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فضرب وقال ما يدريك أنه كذلك والله إنى رسول الله وما أدري ما يصنع بى إن الله خلق الجنة وخلق لها أهلا لا يزداد فيهم ولا ينقص منهم (٤) » وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال ذلك أيضا على جنازة عثمان بن مظعون وكان من المهاجرين الأولين لما قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة فكانت تقول أم سلمة بعد ذلك والله لأزكى أحدا بعد عثمان (٥) وقال محمد بن خولة الحنفية والله لأزكى أحدا غير رسول الله صلى الله عليه وسلم ولا أبى الذى ولدنى قال فثارت الشيعة عليه فأخذ يذكر من فضائل على ومناقبه ، وروى في حديث آخر « عن رجل من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة هاجرت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقتلت في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم : وما يدريك لعله كان يتكلم بما لا ينفعه ويمنع ما لا يضره (٦) » وفي حديث آخر « أنه دخل صلى الله عليه وسلم على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا

ر-ول الله صلى الله عليه وسلم - أشد على الكفار رحما بينهم - وكل هذه الآيات تنبيه من الله تعالى للعباد على آداب حقوق الصلوة فمن اختار صلوة أو أخوة فأدبه في أول ذلك أن يسلم نفسه وصاحبه إلى الله تعالى بالمسئلة والدعاء والتضرع ويسأل البركة في الصلوة فانه يفتح على نفسه بذلك إما بابا من أبواب الجنة وإما بابا من أبواب النار فان كان الله تعالى يفتح بينهما خيرا فهو باب من أبواب الجنة قال الله تعالى - الأخلاء يومئذ بعضهم لبعض عدو إلا المتقين - وقيل

(١) حديث كان سيد الأولين والآخرين مسلم من حديث أبى هريرة أناسيد ولد آدم ولا خفر الحديث (٢) حديث كان أشد الناس خوفا تقدم قبل هذا خمسة وعشرين حديثا قوله والله إنى لأخشاكم لله وقوله والله إنى لأعلمهم بالله وأشد لهم له خشية (٣) حديث إنه كان يصلى على طفل فسمع في دعائه يقول اللهم قه عذاب القبر وعذاب النار الطبرانى فى الأوسط من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم صلى على صبي أوصية وقال لو كان أحد نجا من ضمة القبر لنجا هذا الصبي واختلف في إسناده فرواه في الكبير من حديث أبى أيوب أن صبيًا دفن فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لو أفلت أحد من ضمة القبر لأفلت هذا الصبي (٤) حديث إنه سمع قائلا يقول لطفل مات هنيئا لك عصفور من عصافير الجنة فضرب وقال ما يدريك الحديث مسلم من حديث عائشة قالت توفي صبي فقلت طوبى له عصفور من عصافير الجنة الحديث وليس فيه فضرب وقد تقدم (٥) حديث لما توفي عثمان بن مظعون قالت أم سلمة هنيئا لك الجنة الحديث البخارى من حديث أم العلاء الأنصارية وهى القائلة رحمة الله عليك أبا السائب فشهادتى عليك لقد أكرمك الله قال وما يدريك الحديث ، وورد أن النى قالت ذلك أم خارجة بن زيد ولم أجد فيه ذكر أم سلمة (٦) حديث إن رجلا من أهل الصفة استشهد فقالت أمه هنيئا له عصفور من عصافير الجنة الحديث أبو يعلى من حديث أنس بسند ضعيف بلفظ إن أمه قالت هنيئا لك يا بنى الجنة ورواه البيهقى فى الشعب إلا أنه قال فقالت أمه هنيئا لك الشهادة وهو عند الترمذى إلا أنه قال إن رجلا قال له أجبر بالجنة وقد تقدم في ذم المال والبخل مع اختلاف.

لك الجنة فقال صلى الله عليه وسلم من هذه النافلة على الله تعالى فقال للريض هي أمي يا رسول الله فقال وما يدرك لعل فلانا كان يتكلم بما لا يعنيه ويخجل بما لا ينبغي (١) وكيف لا يخاف المؤمنون كلهم وهو صلى الله عليه وسلم يقول « شيتني هود وأخواتها (٢) » سورة الواقعة وإذا الشمس كورت وعم يتساءلون فقال الغمام لعل ذلك لما في سورة هود من الإبعاد كقوله تعالى - ألبعدا لعاد قوم هود - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا للمدين كما بعدت نمود - مع علمه صلى الله عليه وسلم بأنه لو شاء الله ما أشركوا إذ لو شاء لآتى كل نفس هداها ، وفي سورة الواقعة - ليس لو قتها كاذبة ، خاضة رافضة - أي جف القلم بما هو كائن وتمت السابقة حتى نزلت الواقعة إما خافضة قوما كانوا مرفوعين في الدنيا وإما رافضة قوما كانوا مخفوضين في الدنيا ، وفي سورة التكاوير أحوال يوم القيامة وانكشاف الحائجة وهو قوله تعالى - وإذا الجحيم سعرت وإذا الجنة أزلقت علت نفس ما أحضرت - وفي عم يتساءلون - يوم ينظر الرء ما قدمت يداه - الآية ، وقوله تعالى - لا يتكلمون إلا من أذن له الرحمن وقال صوابا - والقرآن من أوله إلى آخره مخاوف لمن قرأه بتدبر ولو لم يكن فيه إلا قوله تعالى - وإنى لغفار لمن تاب وآمن وعمل صالحا ثم اهتدى - لكان كافيا إذ علق النقرة على أربعة شروط يسجز العبد عن آحادها ، وأشد منه قوله تعالى - فأما من تاب وآمن وعمل صالحا فسي أن يكون من الفائحين - وقوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - وقوله تعالى - سنفرغ لكم آية الثقلان - وقوله عز وجل - أفأمنوا مكر الله - الآية وقوله - وكذلك أخذ ربك إذا أخذ القرى وهي ظالمة إن أخذه أليم شديد - وقوله تعالى - يوم نحشر المتقين إلى الرحمن وفدا - الآيتين وقوله تعالى - وإن منكم إلا واردها - الآية وقوله - اعملوا ما شئتم - الآية وقوله - من كان يريد حرث الآخرة زدله في حرثه - الآية وقوله - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - الآيتين وقوله تعالى - وقدمنا إلى ما عملوا من عمل - الآية وكذلك قوله تعالى - والمصر إن الإنسان لفي خسر - إلى آخر السورة فمذه أربعة شروط للخلاص من الحشران وإنما كان خوف الأنبياء مع ما فاض عليهم من النعم لأنهم لم يأمنوا مكر الله تعالى - ولا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون - حتى روى أن النبي وجبريل عليهما الصلاة والسلام بكيا خوفا من الله تعالى فأوحى الله إليهما لم تبكيا وقد أمتكما ققلا ومن يأمن مكره (٣) وكأنهما إذ علما أن الله هو علام الغيوب وأنه لا وقوف لهما على غاية الأمور لم يأمن أن يكون قوله قد أمتكما ابتلاء وامتنحنا لهما ومكرا بهما حتى إن سكن خوفهما ظهر أنهما قد أمتنا من المكرو وما وقيا بقولهما كأن إبراهيم عليه السلام لما وضع في المنجنيق قال حسبي الله وكانت هذه من الدعوات العظام فامتحن وعورض بجبريل في الهواء حتى قال ألك حاجة فقال أما إليك فلا فكان ذلك وفاء بحقيقة قوله حسبي الله فأخبر الله تعالى عنه فقال - وإبراهيم الذي وفى - أي بموجب قوله حسبي الله وبمثل هذا أخبر عن موسى عليه السلام حيث قال - إنا نخاف أن يفرط علينا أو أن يطغى قال لا تخافا إني معكما أجمع وأرى - ومع هذا لما ألقى السحرة سحرهم أوجس موسى في نفسه خيفة إذ لم يأمن مكر الله والتبس الأمر عليه حتى جدد عليه الأمن وقبل له - لا تخف إنك أنت الأعلى - ولما ضعفت شوكة المسلمين يوم بدر قال صلى الله عليه وسلم

إن أحد الأخوين في الله تعالى يقال له ادخل الجنة فيسأل عن منزل أخيه فإن كان دونه لم يدخل الجنة حتى يعطى أخوه مثل منزله . فإن قيل له لم يكن يعمل مثل عملك فيقول إني كنت أعمل لى وله فيعطى جميع ما يسأل لأخيه ويرفع ويرفع أخوه إلى درجته وإن فتح الله تعالى عليهما بالصحة شرا فهو باب من أبواب النار . قال الله تعالى - ويوم يرضى الظالم على يديه يقول يا ليتنى اتخذت مع الرسول سبيلا ياويلتى ليتنى لم اتخذ فلانا خليلا - وإن مكثت الآية

(١) حديث دخل على بعض أصحابه وهو عليل فسمع امرأة تقول هنيئا له الجنة الحديث تقدم أيضا (٢) حديث شيتني هود وأخواتها الحديث الترمذي وحسنه الحاكم ومعه من حديث ابن عباس وهو في السائل من حديث أبي جحيفة وقد تقدم في كتاب السماع (٣) حديث أنه وجبريل صلى الله عليهما وسلم بكيا خوفا من الله عز وجل فأوحى الله إليهما لم تبكيا الحديث ابن شاهين في شرح السنة من حديث عمر وروياه في مجلس من أمالي أبي سعيد النقاش بسند ضعيف .

« اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك » (١) فقال أبو بكر رضى الله تعالى عنه دع عنك مناشدتك ربك فإنه واف لك بما وعدك فكان مقام الصديق رضى الله عنه مقام الثقة بوعد الله ، وكان مقام رسول الله صلى الله عليه وسلم مقام الخوف من مكر الله وهو أتم لأنه لا يصدر إلا عن كمال المعرفة بأسرار الله تعالى وخفايا أفعاله ومعاني صفاته التى يعبر عن بعض ما يصدر عنها بالمكر وما لأحد من البشر الوقوف على كنه صفات الله تعالى ، ومن عرف حقيقة المعرفة وقصور معرفته عن الاحاطة بكنه الأمور عظم خوفه لاهمالة ولذلك قال المسيح صلى الله عليه وسلم لما قيل له - أأنت قلت للناس اتخذوني وأمى إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك - وقال - إن تعذبهم فأنهم عبادك وإن تغفر لهم - الآية . فوض الأمر إلى الشبهة وأخرج نفسه بالكلية من البين لعلمه بأنه ليس له من الأمر شيء وأن الأمور مرتبطة بالمشيئة ارتباطا يخرج عن حدود العقول والمألوفا فلا يمكن الحكم عليها بقياس ولا حدس ولا حساب فضلا عن التحقيق والاستيعان وهذا هو الذى قطع قلوب العارفين ، إذ الطامة الكبرى هى ارتباط أمرك بمشيئة من لا يبالي بك إن أهلكك فقد أهلك أمثالك ممن لا يحصى ولم يزل فى الدنيا يعذبهم بأنواع الآلام والأمراض ويرض مع ذلك قلوبهم بالكفر والنفاق ثم يخلد العقاب عليهم أبد الآبادث ثم يخبر عنه ويقول - ولو شئنا لآتينا كل نفس هداها ولكن حق القول منى لأملأن جهنم من الجنة والناس أجمعين - وقال تعالى - وتمت كلمة ربك لأملأن جهنم - الآية فكيف لا يخاف ماحق من القول فى الأزلى ولا يطعم فى تداركه ولو كان الأمر أنما كانت الأطعمة تمتد إلى حيلة فيه ولكن ليس إلا التسليم فيه واستغراء خفي السابقة من جلى الأسباب الظاهرة على القلب والجوارح فمن يسهل له أسباب الشر وحيل بينه وبين أسباب الخير وأحكمت علاقته من الدنيا فكأنه كشف له على التحقيق سر السابقة التى سبقت له بالشفاوة ، إذ كل ميسر لما خلق له وإن كانت الحيرات كلها ميسرة والقلب بالكلية عن الدنيا منقطعا وبظاهره وباطنه على الله مقبلا كان هذا يقتضى تخفيف الخوف لو كان الدواء على ذلك موثوقا به ولكن خطر الحاتمة وعسر الثبات يزيد نيران الخوف إشعالا ولا يمكنها من الانطفاء ، وكيف يؤمن تغير الحال وقلب المؤمن بين أصبعين من أصابع الرحمن وإن القلب أشد تقلبا من القدر فى غلباتها وقد قال مقلب القلوب عز وجل - إن عذاب ربهم غير مأمون - فأجهل الناس من آمنوه هو ينادى بالتحذير من الأمن ولولا أن الله لطف بعباده العارفين إذ روح قلوبهم بروح الرجاء لا حترقت قلوبهم من نار الخوف . فأسباب الرجاء رحمة لخواص الله وأسباب الغفلة رحمة على عوام الخلق من وجه ، إذ لو انكشف الغطاء لزهقت النفوس وتقطعت القلوب من خوف مقلب القلوب . قال بعض العارفين : لو حالت بينى وبين من عرفته بالتوحيد خمسين سنة أسطوانة فمات لم أقطع له بالتوحيد لأنى لأدري ما ظهر له من القلب . وقال بعضهم : لو كانت الشهادة على باب الدار والموت على الاسلام عند باب الحجرة لا اخترت الموت على الاسلام لأنى لا أدري ما يعرض لقلبي بين باب الحجرة وباب الدار . وكان أبو الدرداء يحلف بالله ما أحد آمن على إيمانه أن يسلبه عند الموت إلا سلبه . وكان سهل يقول : خوف الصديقين من سوء الحاتمة عند كل خطرة وعند كل

وردت فى قصة مشهورة ولكن الله تعالى نيه بذلك عباده على الحذر من كل خليل يقطع عن الله واختيار الصلبة والأخوة اتفاقا من غير نية فى ذلك وتثبت فى أول الأمر شأن أرباب الغفلة الجاهلين بالنيات والمقاصد والمنافع والمضار . وقد قال عبد الله بن عباس رضى الله عنهما فى كلام له وهل يفسد الناس إلا الناس ، فالفساد بالصعبة متوقع والصالح متوقع وما هذا سبيله كيف لا يعذر فى أوله ويحكم الأمر فيه بكثرة اللجأ إلى الله تعالى وصدق الاختيار

(١) حديث قال يوم بدر : اللهم إن تهلك هذه العصابة لم يبق على وجه الأرض أحد يعبدك البخارى من حديث ابن عباس باللفظ : اللهم إن شئت لم تعبد بعد اليوم الحديث .

حركة وهم الدين وصفهم الله تعالى إذ قال - وقلوبهم وجلة - . ولما احتضر سفيان جعل يركي ويجزع قبيل له يا أبا عبد الله عليك بالرجاء فإن عفوا الله أعظم من ذنوبك ، فقال أو طي ذنوبي أبكي ؟ لو علمت أني أموت على التوحيد لم أبال بأن ألقى الله بأمثال الجبال من الخطايا . وحكى عن بعض الخائفين أنه أوصى بعض إخوانه ، فقال إذا حضرته الوفاة فاقصد عند رأسى ، فإن رأيتنى متاً على التوحيد فخذ جميع ما أمسكه فاشتره لوزاوسكرا واشتره على صبيان أهل البلد ، وقل هذا عرس النفات ، وإن متّ على غير التوحيد فأعلم الناس بذلك حتى لا يفتروا بشهود جنازتى ليحضر جنازتى من أحبّ على بصيرة لتلا يلحقنى الرياء بعد الوفاة . قال : وبم أعلم ذلك فذكر له علامة فرأى علامة التوحيد عند موته فاشترى السكر والأوز وفرقه . وكان سهل يقول : للريد يخاف أن يتلى بالمعاصى ، والمعارف يخاف أن يتلى بالكفر . وكان أبو يزيد يقول : إذا توجهت إلى المسجد فكأنّ فى وسطى زناراً أخاف أن يذهب بى إلى البيعة وبيت النار حتى أدخل المسجد فينقطع عنى الزنار فهذا لى فى كل يوم خمس مرّات . وروى عن المسيح عليه الصلاة والسلام أنه قال : يا معشر الجنّ والإنس أنتم تخافون للمعاصى ، ونحن معاشر الأنبياء نخاف الكفر . وروى فى أخبار الأنبياء أن نبيا شكّا إلى الله تعالى الجوع والقمل والعري سنين وكان لباسه الصوف ، فأوحى الله تعالى إليه : عبدى أمارضيت أن عصمت قلبك أن تكفر بى حتى تسألنى الدنيا فأخذ التراب فوضعه على رأسه ، وقال بلى قد مرضيت ياربّ فاعصمنى من الكفر ، فإذا كان خوف المعارف مع رسوخ أقدامهم وقوّة إيمانهم من سوء الخاتمة فكيف لا يخافه الضعفاء ، وسوء الخاتمة أسباب تتقدّم على اللوث مثل البدعة والنفاق والكبر وجملة من الصفات المذمومة ، ولذلك اشتدّ خوف الصحابة من النفاق حتى قال الحسن : لو أعلم أنّى برى من النفاق كان أحبّ إلى مما طلعت عليه الشمس وما عذوا به النفاق القبى هو ضد أصل الإيمان بل للراد به ما يجتمع مع أصل الإيمان فيكون مسلماً مناقها ، وله علامات كثيرة : قال صلى الله عليه وسلم « أربع من كن فيه فهو منافق خالص وإن صلى وصام وزعم أنه مسلم وإن كانت فيه خصلة منهن فقيه شعبة من النفاق حتى يدعها : من إذا حدث كذب ، وإذا وعد أخلف ، وإذا ائتمن خان ، وإذا خاصم فجر (١) » وفى لفظ آخر « وإذا عاهد خدر » . وقد فسر الصحابة والتابعون النفاق بتفاسير لا يخلو عن شئ منه إلا صدق إذ قال الحسن : إن من النفاق اختلاف السر والعلانية واختلاف اللسان والقلب واختلاف للدخل والمخرج ، ومن الذى يخلو عن هذه المعانى بل صارت هذه الأمور مألوفة بين الناس متعانة ونسى كونها منكراً بالكلية بل جرى ذلك على قرب عهد بزمان النبوة ، فكيف الظن بزماننا حتى قال حذيفة رضى الله تعالى عنه : إن كان الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً إنى لأسمعها من أحدكم فى اليوم عشر مرّات (٢) وكان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون : إنكم لتعملون أعمالاً هي أدقّ فى أعينكم

(١) حديث أربع من كن فيه فهو منافق الحديث متفق عليه من حديث عبد الله بن عمرو وقد تقدم فى قواعد العقائد (٢) حديث حذيفة إن الرجل ليتكلم بالكلمة على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم فيصير بها منافقاً الحديث أحمد من حديث حذيفة وقد تقدم فى قواعد العقائد .

وسؤال البركة والخبرة  
فى ذلك وتقديم صلاة  
الاستخارة . ثم إن  
اختيار الصلحة  
والأخوة عمل وكل  
عمل يحتاج إلى النية  
وإلى حسن الخاتمة  
وقد قال عليه الصلاة  
والسلام فى الخبر  
الطويل « سبعة  
يظلمهم الله تعالى فمنهم  
اثنان نهابا فى الله  
فأشأ على ذلك وماتا  
عليه » إشارة إلى  
أن الأخوة والصلحة  
من شرطهما حسن  
الخاتمة حتى يكتب  
لهما ثواب للوفاة  
ومنى أفسد للوفاة  
بتضييع الحقوق فيها  
فقد السمل من  
الأول . قيل ما حصد

من الشمر كنا نعدّها على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم من الكبار (١). وقال بعضهم : علامة النفاق أن تكبره من الناس مأتى مثله ، وأن تعب على شيء من الجور ، وأن تبغض على شيء من الحق . وقيل من النفاق : أنه إذا مدح بشيء ليس فيه أعجبه ذلك . وقال رجل لابن عمر رحمه الله إننا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم فيما يقولون ، فإذا خرجنا تكلمنا فيهم ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٢) . وروى أنه سمع رجلا يذم الحجاج ويقع فيه ، فقال : رأيت لو كان الحجاج حاضرا أكنت تكلم بما تكلمت به قال لا قال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٣) . وأشد من ذلك ما روى أن نقرا قعدوا على باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه ، فلما خرج عليهم سكتوا حياء منه ، فقال تكلموا فيما كنتم تقولون فسكتوا ، فقال كنا نعدّ هذا نفاقا على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم (٤) . وهذا حذيفة كان قد خص بعلم النافقين وأسباب النفاق ، وكان يقول : إنه يأتي على القلب ساعة يتلى بالآيمان حتى لا يكون للنفاق فيه مفرز إبرة ويأتي عليه ساعة يتلى بالنفاق حتى لا يكون للإيمان فيه مفرز إبرة . فقد عرفت بهذا أن خوف العارفين من سوء الحاتمة ، وأن سببه أمور تتقدمه : منها البدع . ومنها المعاصي . ومنها النفاق ، ومتى غلب العبد عن شيء من جملة ذلك وإن ظن أنه قد خلا عنه فهو النفاق ، إذ قيل من آمن النفاق فهو منافق . وقال بعضهم لبعض العارفين : إني أخاف على نفسي النفاق ، قال لو كنت منافقا لما خفت النفاق فلا يزال العارف بين الالتفات إلى السابقة والحاتمة خائفا منهما ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « العبد المؤمن بين مخافتين بين أجل قد مضى لا يدري ما الله صانع فيه وبين أجل قديم لا يدري ما الله قاض فيه فوالذي نفسي بيده ما بعد الموت من مستعجب ولا بعد الدنيا من دار إلا الجنة أو النار (٥) » ، والله المستعان .

### ( بيان معنى سوء الحاتمة )

فإن قلت : إن أكثر هؤلاء يرجع خوفهم إلى سوء الحاتمة فما معنى سوء الحاتمة . فاعلم أن سوء الحاتمة على رتبتين : إحداها أعظم من الأخرى . فأما الرتبة العظيمة المسائلة : فإن يطلب على القلب عند سكرات الموت وظهور أهواله إما الشك : وإما الجحود فتقبض الروح على حال غلبة الجحود أو الشك فيكون ما غلب على القلب من عقدة الجحود حجابا

(١) حديث أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم إنكم تصملون أعمالا هي أدق في أعينكم من الشمر الحديث البخاري من حديث أنس وأحمد والبراز من حديث أبي سعيد وأحمد والحاكم من حديث عبادة بن قرص ومحمد إسناده وتقدم في التوبة (٢) حديث قال رجل لابن عمر إنا ندخل على هؤلاء الأمراء فنصدقهم بما يقولون الحديث رواه أحمد والطبراني وقد تقدم في قواعد العقائد (٣) حديث سمع ابن عمر رجلا يذم الحجاج ويقع فيه فقال رأيت لو كان الحجاج حاضرا الحديث تقدم هناك ولم أجد فيه ذكر الحجاج (٤) حديث إن نقرا قعدوا عند باب حذيفة ينتظرونه فكانوا يتكلمون في شيء من شأنه فلما خرج سكتوا الحديث لم أجد له أصلا (٥) حديث العبد المؤمن بين مخافتين من أجل قد مضى الحديث البيهقي في الشعب من رواية الحسن عن رجل من أصحاب النبي صلى الله عليه وسلم وقد تقدم في ذم الدنيا ذكره ابن المبارك في كتاب التزهيد بلاغا وذكره صاحب الفردوس من حديث جابر ولم يخرجوه ولله في مسند الفردوس .

الشیطان متعاونین  
على بر حسده  
متآخین فی الله  
متحابین فیہ فانه  
یجهد نفسه وبعث  
قیله على إفساد  
ما بینہما . وكان  
الفضیل یقول : إذا  
وقمت الغیة ارتفعت  
الأخوة ، والأخوة فی الله  
تعالی مواجهة قال  
الله تعالی - إخوانا  
على سرر متقابلین -  
ومتی أضمر أحدهما  
للآخر سوءا أؤکره  
منه شیئا ولم ینبه  
علیه حتى یزله أو  
یتسبب إلى إزالته منه  
فماواجه بل استدبره  
قال الجنید رحمه الله  
ما تواخى اثنان فی  
الله واستوحش

بينه وبين الله تعالى أبداً وذلك يقتضى البعد الدائم والعذاب المخلد . والثانية وهى دونها أن يطلب على قلبه عند الموت حب أمر من أمور الدنيا وشهوة من شهواتها فيمثل ذلك فى قلبه ويستغرقه حتى لا يبقى فى تلك الحالة متسع لغيره فيتفق قبض روحه فى تلك الحال فيكون استغراق قلبه به منكسراً رأسه إلى الدنيا وصارفاً وجهه إليها ومهما انصرف الوجه عن الله تعالى حصل الحجاب ومهما حصل الحجاب نزل العذاب إذ نار الله الموقدة لا تأخذ إلا المحجوبين عنه فأما المؤمن السليم قلبه عن حب الدنيا المصروف همه إلى الله تعالى فتقول له النار جز يا مؤمن فان نورك قد أطفأ لحيي ففهما اتفق قبض الروح فى حالة غلبة حب الدنيا فالأمر مخطر لأن للمرء يموت على ما عاش عليه ولا يمكن اكتساب صفة أخرى للقلب بعد الموت تضاد الصفة الغالبة عليه إذ لا تصرف فى القلوب إلا بأعمال الجوارح وقد بطلت الجوارح بالموت فبطلت الأعمال فلا مطمع فى عمل ولا مطمع فى رجوع إلى الدنيا ليتدارك وعند ذلك تعظم الحسرة إلا أن أصل الإيمان وحب الله تعالى إذا كان قد رسخ فى القلب مدة طويلة وتأكّد ذلك بالأعمال الصالحة فإنه يمحو عن القلب هذه الحالة التى عرضت له عند الموت فان كان إيمانه فى القوة إلى حد مثقال أخرجه من النار فى زمان أقرب وإن كان أقل من ذلك طال مكثه فى النار ولو لم يكن إلا مثقال حبة فلا بد وأن يخرج من النار ولو بعد آلاف سنين . فان قلت فما ذكرته يقتضى أن تسرع النار إليه عقوب موته فما باله يؤخر إلى يوم القيامة وبمهل طول هذه المدة . فاعلم أن كل من أنكر عذاب القبر فهو مبتدع محجوب عن نور الله تعالى وعن نور القرآن ونور الإيمان بل الصحيح عند ذوى الأبصار ما سمعت به الأخبار وهو «أن القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (١)» . «وأنه قد يفتح إلى قبر المذبذب سبعون باباً من الجحيم (٢)» كما وردت به الأخبار فلا تفارقه روحه إلا وقد نزل به البلاء إن كان قد شقى بسوء الحاتمة وإنما تختلف أصناف العذاب باختلاف الأوقات فيكون سؤال منكرو ونكير عند الوضع فى القبر (٣) والتعذيب بعده (٤) ثم المناقشة فى الحساب (٥) والافتضاح على ملاء من الأشهاد فى القيامة (٦) ثم بعد ذلك خطر الصراط (٧) وهول الزبانية (٨) إلى آخر ما وردت به الأخبار فلا يزال الشقى متردداً فى جميع أحواله بين أصناف العذاب وهو فى جملة الأحوال معذب إلا أن يتفمده الله برحمته ولا تظن أن محل الإيمان يأكله التراب بل التراب يأكل جميع الجوارح ويدها إلى أن يبلغ الكتاب أجله

(١) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة الترمذى من حديث أبى سعيد وقال غريب وتقدم فى الأذكار (٢) حديث إنه يفتح إلى قبر المذبذب سبعون باباً من الجحيم لم أجده أصلاً (٣) حديث سؤال منكرو ونكير عند الوضع فى القبر تقدم فى قواعد العقائد (٤) حديث عذاب القبر تقدم فيه (٥) حديث المناقشة فى الحساب تقدم فيه (٦) حديث الافتضاح على ملاء الأشهاد فى القيامة أحمد والطبرانى من حديث ابن عمر باسناد جيد من اتقى من ولده ليفضحه فى الدنيا فضحه الله على رموس الأشهاد وفى الصحيحين من حديث ابن عمر وأما الكافر والنافق فينادى بهم على رموس الخلائق هؤلاء الذين كذبوا على ربهم والطبرانى والمقبلى فى الضعفاء من حديث الفضيل بن عياض فضوح الدنيا أهون من فضوح الآخرة وهو حديث طويل منكرو (٧) حديث خطر الصراط تقدم فى قواعد العقائد (٨) حديث هول الزبانية الطبرانى من حديث أنس الزبانية يوم القيامة أسرع إلى فسقة حملة القرآن منها إلى عبدة الأوثان والنيران . قال صاحب الميزان حديث منكرو وروى ابن وهب عن عبد الرحمن بن زيد بن أسلم مضطرباً فى خزنة جهنم ما بين منكبى أحدهم كما بين الشرق والغرب .

أحدهما من صاحبه إلا  
لعله فى أحدهما فالموأخاة  
فى الله أصنى من الله  
الزلال وما كان لله فانه  
مطالب بالصفاء فيه وكل  
ماضفا دام والأصل فى  
دوام صفائه عدم المخالفة  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « لا تمار  
أخاك ولا تمازحه  
ولا تعدد موعدا  
فتخلفه » . قال أبو سعيد  
الحاراز : سمعت  
الصوفية خمسين سنة  
ما وقع بينى وبينهم  
خلاف قليل له وكيف  
ذلك ؟ قال لأنى كنت  
معهم على تقى .  
أخبرنا شيخنا  
أبو النجيب السمرودى  
إجازة قال أما عمر بن  
أحمد الصفار قال أنا

فتجتمع الأجزاء للفرقة وتعاد إليها الروح التي هي محل الإيمان وقد كانت من وقت الموت إلى  
الاعادة إما في حواصل طيور خضر معلقة تحت العرش إن كانت سعيدة وإما على حالة تضاد هذه  
الحال إن كانت والياد بالله شقية . فان قلت لما السبب الذي يفضي إلى سوء الحاتمة . فاعلم أن  
أسباب هذه الأمور لا يمكن إحصاؤها على التفصيل ولكن يمكن الإشارة إلى مجامعها أما الختم على  
الشك والجحود فينحصر سببه في شيئين : أحدهما يتصور مع تمام الورع والزهد وتمام الصلاح  
في الأعمال كالبتدع الزاهد فان عاقبته مخطرة جدا وإن كانت أعماله سالحة ولست أعني مذهبا .  
فأقول إنه بدعة فان يان ذلك يطول القول فيه بل أعني بالبدعة أن يعتقد الرجل في ذات الله  
وصفاته وأفعاله خلاف الحق فيعتقد على خلاف ماهو عليه إما برأيه ومعقوله ونظيره الذي به يجادل  
الحصم وعليه يسول وبه ينتر وإما أخذا بالتقليد ممن هذا حاله فاذا قرب الموت وظهرت له ناصية  
ملك الموت واضطرب القلب بما فيه ربما ينكشف له في حال سكرات الموت بطلان ما اعتقده جهلا  
إذ حال الموت حال كشف الغطاء ومبادئ سكراته منه فقد ينكشف به بعض الأمور فهما بطل  
عنده ما كان اعتقده وقد كان قاطعا به متيقنا له عند نفسه لم يظن بنفسه أنه أخطأ في هذا الاعتقاد  
خاصة لا لتجائه فيه إلى رآيه الفاسد وعقله الناقص بل ظن أن كل ما اعتقده لا أصل له إذ لم يكن  
عنده فرق بين إيمانه بالله ورسوله وسائر اعتقاداته الصحيحة وبين اعتقاده الفاسد فيكون انكشاف  
بعض اعتقاداته عن الجهل سببا لبطلان بقية اعتقاداته أو لشكه فيها فان اتفق زهوق روحه في هذه  
الخطرة قبل أن يثبت ويعود إلى أصل الإيمان فقد ختم له بالسوء وخرجت روحه على الشرك والعباد  
بالله منه فهو لاهم المرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبقوله عز وجل  
- قل هل تثبكم بالآخرين أعمالا الدين ضل سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون  
صنعا - وكما أنه قد ينكشف في النوم ما سيكون في المستقبل وذلك بسبب خفة أشغال الدنيا عن  
القلب فكذلك ينكشف في سكرات الموت بعض الأمور إذ شواغل الدنيا وشهوات البدن هي السائمة  
للقلب من أن ينظر إلى اللسكوت فيطالع ما في اللوح المحفوظ لتكشف له الأمور على ما هي عليه  
فيكون مثل هذه الحال سببا للكشف ويكون الكشف سبب الشك في بقية الاعتقادات وكل من  
اعتقد في الله تعالى وفي صفاته وأفعاله شيئا على خلاف ماهو به إما تقليدا وإما نظرا بالرأى والمعقول  
فهو في هذا الخطر والزهد والصلاح لا يكتفي لدفع هذا الخطر بل لا ينجى منه إلا الاعتقاد الحق والبله  
بعزل عن هذا الخطر أعني الذين آمنوا بالله ورسوله واليوم الآخر إيمانا محملا راسخا كالأغراب  
والسوادية وسائر العوام الذين لم يعضوا في البحث والنظر ولم يشرعوا في الكلام استقلالاً ولا صفوا  
إلى أصناف التكلمين في تقليد أقوالهم المختلفة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة  
البله (١) » ولذلك منع السلف من البحث والنظر والخوض في الكلام والتفتيش عن هذه الأمور  
وأمروا الخلق أن يقتصروا على أن يؤمنوا بما أنزل الله عز وجل جيما وبكل ما جاء من الظواهر  
مع اعتقاده نفي التشبيه ومنعهم عن الخوض في التأويل لأن الخطر في البحث عن الصفات عظيم  
وعقباته كثورة ومسالكه وعرة والمعقول عن درك جلال الله تعالى قاصرة وهداية الله تعالى بنور  
اليقين عن القلوب بما جبلت عليه من حب الدنيا ومحبة وما ذكره الباحثون ببضاعة عقولهم  
مضطرب ومتعارض والقلوب لما ألقى إليها في مبتدأ النشأة آلفة وبه متعلقة والتعصبات الثائرة بين  
الخلق مسامير مؤكدة للمقائد الورثة أو المأخوذة بحسن الظن من اللطيف في أول الأمر ثم الطباع

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله البرار من حديث أنس وقد تقدم .

أبو بكر أحمد بن خلف  
قال أنا أبو عبد الرحمن  
السلي قال سمعت  
عبد الله الداراني قال  
سمعت أبا عمرو والدمشقي  
الرازي يقول سمعت أبا  
عبد الله بن الجلاء يقول  
وقد سأله رجل على أي  
شرط أصحب الخلق  
فقال إن لم تبرم فلا  
تؤذم . وإن لم تسرم  
فلا تؤسم . وبهذا  
الاسناد قال أبو عبد الله  
لاضيع حق أخيك  
بما بينك وبينه من  
للودة والصداقة فان الله  
تعالى فرض لكل  
مؤمن حقوقا لم يضعها  
إلا من لم يراع حقوق الله  
عليه ومن حقوق  
الصحة أنه إذا وقع  
فرقة ومباينة لا يذكر



يحب الدنيا مشغوفة وعليلها مقبلة وشهوات الدنيا يخفقها آخذة وعن تمام الفكر صارفة فإذا فتح باب الكلام في الله وفي صفاته بالرأى والاعتقود مع تفاوت الناس في قرائحهم واختلافهم في طبائهم وحرص كل جاهل منهم على أن يدعى الكمال أو الاحاطة بكنه الحق انطلقت ألسنتهم بما يقع لكل واحد منهم وتعلق ذلك بقلوب الصغين إليهم وتأكّد ذلك بطول الإلف فيهم فانسدت بالكلية طريق الخلاص عليهم فكانت سلامة الخلق في أن يشتغلوا بالأعمال الصالحة ولا يتعزّضوا الماه وخارج عن حدّ طاقتهم ولكن الآن قد استرخى العنان وفشا الهذيان ونزل كل جاهل على ما وافق طبعه بظن وحسبان وهو يعتقد أن ذلك علم واستيقان وأنه صفو الايمان ويظن أنه ما وقع به من حدس وتعمين علم اليقين وعين اليقين - ولتعلن نبأه بعد حين - ويبنى أن ينشد في هؤلاء عند كشف الغطاء:

أحسنْتَ ظنك بالأيام إذ حسنت ولم تخف سوء ما يأتي به القدر  
وسألتك الليالي فاعتزرت بها وعند صفو الليالي يحدث السكر

واعلم يقينا أن كل من فارق الايمان الساذج بالله ورسوله وكتبه وخاض في البحث فقد تعرض لهذا الخطر ومثاله مثال من انكسرت سفينته وهو في ملتطم الأمواج يرميه موج إلى موج فربما يتفق أن يلقيه إلى الساحل وذلك بعيد والهلاك عليه أغلب . وكل نازل على عقيدة تلقفها من الباحثين يضاعف عقولهم إمامع الأدلة التي حرروها في تصبّياتهم أودون الأدلة فإن كان شاكا فيه فهو فاسد الدين وإن كان واتقاه فهو آمن من مكر الله مغتر بعقله الناقص وكل خائض في البحث فلا ينفك عن هاتين الحالتين إلا إذا جاوز حدود العقول إلى نور الكاشفة الذي هو مشرق في عالم الولاية والنبوة وذلك هو السكربت الأحمر وأنى يتيسر وإنما يسلم عن هذا الخطر البله من العوام والذين شغلهم خوف النار بطاعة الله فلم يخوضوا في هذا الفضول فهذا أحد الأسباب المخطرة في سوء الحاتمة . وأما السبب الثاني فهو ضعف الايمان في الأصل ثم استيلاء حب الدنيا على القلب ومهما ضعف الايمان ضعف حب الله تعالى وقوى حب الدنيا فيصير بحيث لا يبق في القلب موضع لحب الله تعالى إلامن حيث حديث النفس ولا يظهر له أثر في غفالة النفس والعدول عن طريق الشيطان فيورث ذلك الانهماك في اتباع الشهوات حتى يظلم القلب ويقتو ويسود وتراكم ظلمة النفوس على القلب فلا يزال يطفى ما به من نور الايمان على ضعفه حتى يصير طبعنا فاذا جاءت سكرات الموت ازداد ذلك الحب أعنى حب الله ضعفا لما يبدو من استعمار فراق الدنيا وهي المحبوب الغالب على القلب فيتألم القلب باستعمار فراق الدنيا ويرى ذلك من الله فيختلج ضميره بانكار ما قدر عليه من الموت وكراهة ذلك من حيث إنه من الله فيختشى أن يثور في باطنه بغض الله تعالى بدل الحب كما أن الذي يحب ولده حبا ضعيفا إذا أخذ ولده أمواله التي هي أحب إليه من ولده وأحرقها انقلب ذلك الحب الضعيف بغضا فان اتفق زهوق روحه في تلك اللحظة التي خطرت فيها هذه الخطرة فقد ختم له بالسوء وهلك هلاكاً مؤبدا والسبب الذي يفضي إلى مثل هذه الحاتمة هو غلبة حب الدنيا والركون إليها والفرح بأسبابها مع ضعف الايمان الموجب لضعف حب الله تعالى فمن وجد في قلبه حب الله أغلب من حب الدنيا وإن كان يحب الدنيا أيضا فهو أبعد عن هذا الخطر وحب الدنيا رأس كل خطيئة وهو الداء الضال وقد عم أصناف الخلق وذلك كله لقلة المعرفة بالله تعالى إذ لا يحبه إلا من عرفه ولهذا قال تعالى - قل إن كان آبؤكم وأبنؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترتموهاء وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد في سبيله فترى بصواحتي يا أي الله بأمره - فاذن كل من فارقه روحه في حالة خطرة الانكار على الله تعالى بآله وظهور بغض فعل الله تعالى في تفرقه بينه وبين أهله وماله

أخاه إلا بخير . قيل  
كان لبعضهم زوجة  
وكان يعلم منها ما يكره  
فكان يقال له استخبارا  
عن حالها فيقول لا ينبغي  
للرجل أن يقول في أهله  
إلا خيرا فأقرقها وطلقها  
فاستخبر عن ذلك فقال  
امرأة بعدت عني  
ولست متي في شيء  
كيف أذكرها وهذا  
من التخلق بأخلاق الله  
تعالى أنه سبحانه يظهر  
الجميل ويستر القبيح  
وإذا وجد من أحدها  
ما يوجب التقاطع فهل  
ينفضه أولا يختلف  
القول في ذلك . كان  
أبو ذر يقول إذا انقلب  
عما كان عليه أنفضه  
من حيث أحبته وقال  
غيره لا ينفص الأخ

وسائر محابه فيكون موته قدوما على ما أبغضه وفراقا لما أحبه فيقدم على الله قدوم الصديق البغض الابقى  
إذا قدم به على مولاه قهرا فلا يغني ما يستحقه من الحزى والنكال وأما الذي يتوفى على الحب فإنه يقدم  
على الله تعالى قدوم الصديق المحسن المشتاق إلى مولاه الذي تعمل مشاق الأعمال ووعثاء الأسفار طمعا  
في لقائه فلا يغني ما يلقاه من الفرح والسرور بمجرد القدوم فضلا عما يستحقه من لطائف الأكرام  
وبدائع الانعام . وأما الخاتمة الثانية التي هي دون الأولى وليست مقتضية للخلود في النار فلها أيضا  
سببان : أحدهما كثرة المعاصي وإن قوى الإيمان والآخرة ضعف الإيمان وإن قلت المعاصي وذلك  
لأن مقارفة المعاصي سببها غلبة الشهوات ورسوخها في القلب بكثرة الإلف والمادة وجميع ما ألغى  
الإنسان في عمره يعود ذكره إلى قلبه عند موته فإن كان ميله أكثر إلى الطاعات كان أكثر ما يحضره  
ذكر طاعة الله وإن كان ميله أكثر إلى المعاصي غلب ذكرها على قلبه عند الموت فربما تقبض  
روحه عند غلبة شهوة من شهوات الدنيا ومعصية من المعاصي فيتقيد بها قلبه ويصير محجوبا عن الله  
تعالى فالذي لا يقارف الذنب إلا الفينة بعد الفينة فهو أبعد عن هذا الخطر والذي لم يقارف ذنبا أصلا  
فهو بعيد جدا عن هذا الخطر والذي غلبت عليه المعاصي وكانت أكثر من طاعاته وقلبه بها أفرح  
منه بالطاعات فهذا الخطر عظيم في حقه جدا ونعرف هذا بمثال وهو أنه لا يغني عليك أن الإنسان يرى  
في منامه جملة من الأحوال التي عهدها طول عمره حتى إنه لا يرى إلا ما يلائم مشاهداته في اللحظة وحتى  
إن المراقب الذي يحتمل لا يرى صورة الواقع إذا لم يكن قد واقع في اللحظة ولو بقي كذلك مدة لما رأى  
عند الاحتلام صورة الواقع ثم لا يغني أن الذي قضى عمره في الفقه يرى من الأحوال المتعلقة بالعلم  
والعلماء أكثر مما يراه التاجر الذي قضى عمره في التجارة والتاجر يرى من الأحوال المتعلقة بالتجارة  
وأصحابها أكثر مما يراه الطبيب والفقيه لأنه إنما يظهر في حالة النوم ما حصل له مناسبة مع القلب بطول  
الإلف أو بسبب آخر من الأسباب والموت شبه النوم ولكنه فوقه ولكن سكرات الموت وما يتقدمه  
من الغشية قريب من النوم فيقتضى ذلك تذكر المألوف وعوده إلى القلب وأحد الأسباب للرجعة  
لحصول ذكره في القلب طول الإلف فطول الإلف بالمعاصي والطاعات أيضا مرجح وكذلك تخالف أيضا  
منامات الصالحين منامات الفساق فتكون غلبة الإلف سببا لأن تمثل صورة فاحشة في قلبه وتميل  
إليها نفسه فربما تقبض عليها روحه فيكون ذلك سبب سوء خاتمته وإن كان أصل الإيمان باقيا بحيث  
يرجى له الخلاص منها وكما أن ما عظم في اليقظة إنما يخطر بسبب خاص يعلمه الله تعالى فكذلك أحاد  
المنامات لها أسباب عند الله تعالى تعرف بعضها ولا تعرف بعضها كما أننا نعلم أن الحاطر ينتقل من الشيء إلى  
ما يناسبه إما بالمشابهة وإما بالمضادة وإما بالمقارنة بأن يكون قد ورد على الحس منه . أما بالمشابهة فبأن  
ينظر إلى جميل فيتذكر جميلا آخر وأما بالمضادة فبأن ينظر إلى جميل فيتذكر قبيحا ويتأمل في شدة  
التفاوت بينهما وأما بالمقارنة فبأن ينظر إلى فرس قدر آه من قبل مع إنسان فيتذكر ذلك الإنسان وقد  
ينتقل الحاطر من شيء إلى شيء ولا يدري وجه مناسبته له وإنما يكون ذلك بواسطة واسطتين مثل  
أن ينتقل من شيء إلى شيء ثان ومنه إلى شيء ثالث ثم ينسى الثاني ولا يكون بين الثالث والأول مناسبة  
ولكن يكون بينه وبين الثاني مناسبة وبين الثاني والأول مناسبة فكذلك لا تنتقل الحواطر في  
المنامات أسباب من هذا الجنس وكذلك عند سكرات الموت فعلى هذا العلم عند الله من كانت الخياطة  
أكثر أشغاله فأنك تراه يومئذ إلى رأسه كأنه يأخذ إبرته ليعيط بها ويبل أسبغته التي لها عادة  
بالسكتان ويأخذ الأزار من فوقه ويقدره ويشبهه كأنه يتعاطى تفصيله ثم يمد يده إلى القراض ومن  
أراد أن يكف خاطره عن الانتقال عن المعاصي والشهوات فلا طريق له إلا المجاهدة طول العمر في نظامه

بعد الصلوة ولكن  
يفض عمله قال الله  
تعالى لنبيه صلى الله  
عليه وسلم - فإن  
عصوك قل إنى برئ  
مما تعملون - ولم يقل  
إنى برئ منكم .  
وقيل . كان شاب يلازم  
مجالس أبي الدرداء  
وكان أبو الدرداء يعيزه  
على غيره فابتلى الشاب  
بكبيرة من الكبائر  
وانتهى إلى أبي الدرداء  
ما كان منه قليل له  
لأن أبعده وهجرته  
فقال سبحانه الله لا يترك  
الصاحب بشيء كان  
منه . قيل : الصداقة  
لحمة كل لحمه النسب .  
وقيل الحكيم مرة  
أجما أحب إليك أخوك  
أوصديقك فقال إنما

نفسه عنها وفي قمع الشهوات عن القلب فهذا هو القدر الذي يدخل تحت الاختيار ويكون طول المواظبة على الخير وتخليّة الفكر عن الشر عدة وذخيرة لحالة سكرات الموت فانه يموت الرء على ما عاش عليه وعشر على ما مات عليه ولذلك نقل عن بقال أنه كان يلقي عند الموت كلّي الشهادة فيقول خمسة سنة أربعة فكان مشغول النفس بالحساب الذي طال إلفه له قبل الموت. وقال بعض العارفين من السلف العرش جوهره ثلاثة ثلاثاً نوراً فلا يكون العبد على حال إلا انطبع مثاله في العرش على الصورة التي كان عليها فإذا كان في سكرات الموت كشف له صورته من العرش فربما يرى نفسه على صورة معصية وكذلك يكشف له يوم القيامة قيرى أحوال نفسه فيأخذه من الحياء والخوف ما يحل عن الوصف وما ذكره صحيح وسبب الرؤيا الصادقة قريب من ذلك فان النائم يدرك ما يكون في المستقبل من مطالعة اللوح المحفوظ وهي جزء من أجزاء النبوة فإذا رجع سوء الحاقة إلى أحوال القلب واختلاج الحواطر ومقلب القلوب والله والاتفاقات للفتنة لسوء الحواطر غير داخلية تحت الاختيار دخولا كلياً وإن كان لطول الإلف فيه تأثير فهذا عظم خوف العارفين من سوء الحاقة لأنه لو أراد الانسان أن لا يرى في المنام إلا أحوال الصالحين وأحوال الطاعات والعبادات عسر عليه ذلك وإن كانت كثرة الصلاح والمواظبة عليه مما يؤثر فيه ولكن اضطرابات الحياء لا تدخل بالكلية تحت الضبط وإن كان الغالب مناسبة ما يظهر في النوم لما غلب في اليقظة حتى سمعت الشيخ أبا علي الفارمذي رحمة الله عليه يصف لي وجوب حسن أدب المريء لشيخه وأن لا يكون في قلبه إنكار لكل ما يقوله ولا في لسانه عجالة عليه فقال حكيت لشيخ أبي القاسم الكرماني منامي وقلت رأيتك قلت لي كذا فقلت لم ذاك قال فمجرى شهر أو لم يكلمني وقال لولا أنه كان في باطنك تجويز المطالبة وإنكار ما أقوله لك لما جرى ذلك على لسانك في النوم وهو كما قال إذ قلنا يرى الانسان في منامه خلاف ما يغلب في اليقظة على قلبه فهذا هو القدر الذي نسمع بذكره في علم المعاملة من أسرار أمر الحاقة وما وراء ذلك فهو داخل في علم المكاشفة وقد ظهر لك بهذا أن الأمن من سوء الحاقة بأن ترى الأشياء كما هي عليه من غير جهل وترجي جميع العمر في طاعة الله من غير معصية فان كنت تعلم أن ذلك محال أو عسير فلا بد وأن يغلب عليك من الخوف ما غلب على العارفين حتى يطول بسببه بكائك وبناحتك ويدوم به حزنك وقلقك كما سنحكيه من أحوال الأنبياء والسلف الصالحين ليكون ذلك أحد الأسباب المهيجة لئلا الخوف من قلبك وقد عرفت بهذا أن أعمال العمر كلها ضائعة إن لم يسلم في النفس الأخير الذي عليه خروج الروح وأن سلامته مع اضطراب أمواج الحواطر مشكلة جداً ولذلك كان مطرف بن عبدالله يقول إني لا أعجب من هلك كيف هلك ولكني أعجب ممن نجا كيف نجا ولذلك قال حامد اللفاف إذا صمدت الملائكة بروح العبد المؤمن وقدمات على الخير والاسلام تعجبت الملائكة منه وقالوا كيف نجا هذا من دنيا فسد فيها خيارنا وكان الثوري يوماً يبكي فقيل له علام تبكي فقال بكينا على الذنوب زماناً فالآن نبكي على الاسلام. وبالجملة من وقعت سفينته في لجة البحر وهجمت عليه الرياح العاصفة واضطربت الأمواج كانت النجاة في حقه أبعد من الهلاك وقلب المؤمن أشد اضطراباً من السفينة وأمواج الحواطر أعظم الاضطراب من أمواج البحر وإنما الخوف عند الموت خاطر سوء يخطر فقط وهو الذي قال فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة حتى لا يبقى بينه وبين الجنة إلا فراق ناقة فيختم له بما سبق به الكتاب» (١) ولا يتسع فراق الناقة لأعماله لئلا توجب الشقاوة بل هي الحواطر التي تضرب وتخطر خطور البرق الخطف وقال سهل رأيت كأنّي أدخلت الجنة فرأيت ثلاثمائة نبي فسألهم ما أخوف ما كنتم تخافون في الدنيا قالوا سوء

(١) حديث إن الرجل يعمل بعمل أهل الجنة خمسين سنة الحديث تقدم.

أحب أخى إذا كان  
صديقى وهذا الخلاف  
في المفارقة ظاهراً وباطناً  
وأما الملازمة باطنياً إذا  
وقعت المباعدة ظاهراً  
فتختلف باختلاف  
الأشخاص ولا يطلق  
القول فيه إطلاقاً من  
غير تفصيل فمن الناس  
من كان تغيره رجوعاً  
عن الله وظهور حكم  
سوء السابقة فيجب  
بفضه وموافقة الحق  
فيه ومن الناس من  
كان تغيره غيرة  
حدثت وفترة وقعت  
يرجى عوده فلا ينبغي  
أن يفيض ولكن  
يغض عمله في الحالة  
الحاضرة ويلاحظ بعين  
الود منتظراً له العرج  
والعود إلى أوطان

الحاتمة ولأجل هذا الخطر العظيم كانت الشهادة مضبوطة عليها وكان موت الفجأة مكروها ، أما الموت فجأة فلا أنه ربما يتفق عند غلبة خاطر سوء واستيلائه على القلب والقلب لا يخلو عن أمثاله إلا أن يدفع بالكراهة أو بنور المعرفة ، وأما الشهادة فلا أنها عبارة عن قبض الروح في حالة لم يبق في القلب سوى حب الله تعالى وخرج حب الدنيا والأهل والمال والولد وجميع الشهوات عن القلب إذ لا يهجم على صف القتال موطنه نفسه على الموت إلا حب الله وطلباً لمرضاة وباعادنياء بآخرته ورأضياً بالبيع الذي يابيه الله به إذ قال تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة - والبائع راضع عن البيع لا محالة ويخرج حبه عن القلب ويجرد حب الموض المطلوب في قلبه ومثل هذه الحالة قد يظلب على القلب في بعض الأحوال ولكن لا يتفق زهوق الروح فيها صف القتال سبب لزهوق الروح على مثل هذه الحالة هذا فيمن ليس يقصد الغلبة والغنيمة وحسن الصيت بالشجاعة فإن من هذا حاله وإن قتل في المعركة فهو بعيد عن مثل هذه الرتبة كادلت عليه الأخبار<sup>(١)</sup> وإذ بان لك معنى سوء الحاتمة وما هو مخوف فيها فاشتغل بالاستعداد لها فواظب على ذكر الله تعالى وأخرج من قلبك حب الدنيا واحرس عن فعل المأصى جوارحك وعن الفكر فيها قلبك واحترز عن مشاهدة المأصى ومشاهدة أهلها جهلك فإن ذلك أيضاً يؤثر في قلبك ويصرف إليه فكرك وخواطرك وإياك أن تسوف وتقول سأستعد لها إذا جاءت الحاتمة فإن كل نفس من أنفاسك خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيمروحك فراقب قلبك في كل تطرئة وإياك أن تهمل لحظة فعمل تلك اللحظة خاتمتك إذ يمكن أن تختطف فيماروحك هذا مادمت في يقظتك وأما إذا نمت فإياك أن تنام إلا على طهارة الظاهر والباطن وأن يظلبك النوم إلا بعد غلبة ذكر الله على قلبك لست أقول على لسانك فإن حركة اللسان بمجرد ضعفة الأثر . واعلم قطعا أنه لا يغيب عند النوم على قلبك إلا ما كان قبل النوم فالبا عليه وأنه لا يظلب في النوم إلا ما كان غالباً قبل النوم ولا يثبت عن نومك إلا ما غلب على قلبك في نومك والموت والبعث شبيه النوم واليقظة فكما لا ينام العبد إلا على ما غلب عليه في يقظته ولا يستيقظ إلا على ما كان عليه في نومه فكذلك لا يموت للمرء إلا على ما عاش عليه ولا يحشر إلا على ما مات عليه وتحقق قطعا وبقينا أن الموت والبعث حالتان من أحوالك كما أن النوم واليقظة حالتان من أحوالك وآمن بهذا تصديقا باعتقاد القلب إن لم تكن أهلا لمشاهدة ذلك بعين اليقين ونور البصيرة وراقب أنفاسك ولحظاتك وإياك أن تنفل عن الله طرفه عين فانك إذا فعلت ذلك كله كنت مع ذلك في خطر عظيم فكيف إذا لم تفعل والناس كلهم هلكي إلا العالمون والعالمون كلهم هلكي إلا العاملون والعالمون كلهم هلكي إلا المخلصون والمخلصون كلهم هلكي إلا العظيم . واعلم أن ذلك لا يتيسر لك ما لم تقع من الدنيا بقدر ضرورتك وضرورتك . طعم وملبس ومسكن والباقي كله فضول والضرورة من الطعام ما يقيم صلبك ويسد رمقك فينبغي أن يكون تناولك تناول مضطر كاره له ولا تسكون رغبتك فيه أكثر من رغبتك في قضاء حاجتك إذ لا فرق بين إدخال الطعام في البطن وإخراجه فهما ضرورتان في الجبلة وكلاهما لا يكون قضاء الحاجة من همتك التي يشتغل بها قلبك فلا ينبغي أن يكون تناول الطعام من همتك . واعلم أنه إن كان همتك ما يدخل بطنك قيمتك ما يخرج من بطنك وإذا لم يكن قصدك من الطعام إلا التقوى على عبادة الله تعالى كقصدك من قضاء

الصلح قد ورد «أن النبي عليه الصلاة والسلام لما شتم القوم الرجل الذي آتى بأخشة قال له وزجرهم بقوله ولا تكونوا عوناً للشيطان على أخيك» وقال إبراهيم النخعي لا تقطع أخاك ولا تهجره عند الذنب يذنبه فانه يركبه اليوم ويتركه غدا وفي الخبر «اتقوا زلة العالم ولا تقطعوه وانتظروا فيئسه» وروى أن عمر رضي الله عنه سأل عن أخ له كان آخاه فخرج إلى الشام فسأل عنه بعض من قدم عليه فقال ما فعل أخى فقال له ذاك أخو الشيطان قال له قال له إنه قارف

(١) حديث المقتول في الحرب إذا كان قصده الغلبة والغنيمة وحسن الصيت فهو بعيد عن رتبة الشهادة متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري إن رجلاً قال يا رسول الله الرجل يقاتل للغنم والرجل يقاتل للذكر والرجل يقاتل ليري مكانه فمن في سبيل الله فقال من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله وفي رواية الرجل يقاتل شجاعة ويقاثل حمية ويقاثل رياء وفي رواية يقاتل غضبا .

حاجتك سلامة ذلك تظهر في ثلاثة أمور: من مأكولك في وقته وقدره وجنسه أما الوقت فأقله أن يكفى في اليوم واليلة بمرة واحدة فيواظب على الصوم وأما قدره فبأن لا يزيد على ثلث البطن وأما جنسه فأن لا يطلب لذائذ الأطعمة بل يقع بما يتفق فان قدرت على هذه الثلاث وسقطت عنك مشوة الشهوات والذائذ قدرت بعد ذلك على ترك الشهوات وأمكنك أن لا تأكل إلا من حله فان الحلال يميز ولا يفي بجميع الشهوات وأمامك فسلك فليكن غرضك منه دفع الحر والبرد وستر العورة فكل ما دفع البرد عن رأسك ولو قلنسوة بدائق فطلبك غيره فضول منك بضيع فيه زمانك ويلزمك الشغل الدائم والعناء القاتم في تحصيله بالكسب حرمة والطمع أخرى من الحرام والشبهة وقس بهذا ما تدفع به الحر والبرد عن بدنك فكل ما حصل مقصود اللباس إن لم تستكف به في خساسة قدره وجنسه لم يكن لك موقف ومرد بعده بل كنت بمن لا يعلأ بطنه إلا التراب وكذلك المسكن إن اكتفيت بمقصوده كفتك السماء سقفا والأرض مستقرا فان غلبك حر أو برد فمليك بالمساجد فان طلبت مسكنا خاصا طال عليك وانصرف إليه أكثر عمرك وعمرك هو بضاعتك ثم إن تيسر لك قصصت من الخائط سوى كونه حائلا بينك وبين الأبصار ومن السقف سوى كونه دافعا للأمطار فأخذت ترفع الحيطان وترزين السقوف فقد تورطت في مهواة يبعد رقيق منها وهكذا جميع ضرورات أمورك إن اقتصرت عليها تفرغت لله وقدرت على التزود لآخرتك والاستعداد لحاتمتك وإن جاوزت حد الضرورة إلى أودية الأمانى تشعبت همومك ولم يبال الله في أى واد أهلك فقبل هذه النصيحة بمن هو أحوج إلى النصيحة منك . واعلم أن متسع التدبير والتزود والاحتياط هذا العمر القصير فإذا دفعته يوما بيوم في تسويفك أو غفلتك اختطفت فجأة في غير وقت إرادتك ولم تفارقك حسرتك وندامتك فان كنت لاتقدر على ملازمة ما أرشدت إليه بضعف خوفك إذ لم يكن فيما وصفناه من أمر الحائمة كفاية في تخويفك فانا سنورد عليك من أحوال الخائفين ما نرجو أن يزيل بعض القساوة عن قلبك فانك تتحقق أن عقل الأنبياء والأولياء والعلماء وعملهم ومكانهم عند الله تعالى لم يكن دون عقلك وعملك ومكانك فتأمل مع كلال بصيرتك وعمش عين قلبك في أحوالهم لم اشتد بهم الخوف وطال بهم الحزن والبكاء حتى كان بعضهم يصق وبعضهم يدهش وبعضهم يسقط مغشيا عليه وبعضهم يغرغ ميتا إلى الأرض ولا غرو إن كان ذلك لا يؤثر في قلبك فان قلوب الغافلين مثل الحجارة أو أهدقوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون .

( بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف )

روت عائشة رضى الله عنها «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة يتغير وجهه فيقوم ويردد في الحجرة ويدخل ويخرج كل ذلك خوفا من عذاب الله<sup>(١)</sup>» وقرأ صلى الله عليه وسلم آية في سورة الواقعة فصعق<sup>(٢)</sup>» وقال تعالى سوخر موسى معقا - ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم صورة جبريل عليه السلام بالأبطح فصعق<sup>(٣)</sup>» وروى أنه عليه السلام كان إذا دخل

(١) حديث عائشة كان إذا تغير الهواء وهبت ريح عاصفة تغير وجهه الحديث متفق عليه من حديث عائشة (٢) حديث قرأ في سورة الواقعة فصعق المعروف بما يروى من هذه القصة أنه قرئ - عنده - لدينا أنكالا وجعيا وطما إذا غصة وعذابا ألجما - فصعق كما رواه ابن عدى والبيهقي في الشعب مرسلًا وهكذا ذكره المصنف على الصواب في كتاب السماع كما تقدم (٣) حديث إنه رأى صورة جبريل بالأبطح فصعق البزار من حديث ابن عباس بسند جيد سأل النبي ﷺ جبريل أن يراه في صورته فقال ادع ربك فدعاه به فطلع عليه من قبل المشرق فجعل يرتفع ويسير فلما رآه صعق ورواه ابن المبارك من رواية الحسن مرسلًا

الكبار حتى وقع في الحرج فقال إذا أردت الخروج فأذن قال فكتب إليه - حم - تنزيل الكتاب من الله العزيز العليم غافر الذنب وقابل التوب شديد العقاب - ثم عاتبه تحت ذلك وعذله فلما قرأ الكتاب بكى فقال صدق الله تعالى ونصح عمر قتاد ورجع . وروى «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى ابن عمر يلتفت يمينا وشمالا فسأله فقال يا رسول الله آخيت رجلا فأنا أطلبه ولا أراه فقال يا عبد الله إذا آخيت أحدا فأسأله عن اسمه واسم أبيه وعن منزله فان

في الصلاة يسمع لصدره أزيز كأزيز المرجل (١) وقال صلى الله عليه وسلم «ما جاءني جبريل قط إلا هو يرعد فرقا من الجبار (٢)» وقيل لما ظهر على إبليس ما ظهر طفق جبريل وميكائيل عليهما السلام يبكيان فأوحى الله إليهما مالم يكتبكيا كل هذا البكاء فقالا يارب ما نأمن منك فقال الله تعالى هكذا كونا لا تأمنا مكرى . وعن محمد بن النكدر قال لما خلقت النار طارت أنثدة لللائكة من أماكنها فلما خلق بنو آدم طارت وعن أنس أنه عليه السلام سأل جبريل «مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال جبريل ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار (٣)» ويقال إن الله تعالى ملائكة لم يضحك أحد منهم منذ خلقت النار مخافة أن يضب الله عليهم فيعذبهم بها وقال ابن عمر رضي الله عنهما «خرجت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى دخل بعض حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر وبأكل فقال يا ابن عمر مالك لا تأكل قلت يا رسول الله لا أشتيه فقال لكني أشتيه وهذا صبح رابعة لم أذق طعاما ولم أجده ولو سألت ربي لأعطاني ملك قيسر وكسرى فكيف بك يا ابن عمر إذا بقيت في قوم يخشون رزق ستمهم ويضعف اليقين في قلوبهم قال فوالله ما برحنا ولا نقا حتى نزلت سوكان من دابة لا تحمل رزقها الله يرزقها وإياكم وهو السميع العليم - قال فقال رسول الله ﷺ إن الله يأمركم بكتز المال ولا يتابع الشهوات من كنز دنائير يريد بها حياة فانية فإن الحياة بيد الله ألا وإنى لا أكنز دينار ولا درهما ولا أخبر رزقا لعد (٤)» وقال أبو الدرداء كان يسمع أزيز قلب إبراهيم خليل الرحمن صلى الله عليه وسلم إذا قام في الصلاة من مسيرة ميل خوفا من ربه . وقال مجاهد بكى داود عليه السلام أربعين يوما ساجدا لا يرفع رأسه حتى نبت للرعى من دموعه وحتى غطى رأسه فتودى يداود أجاثع أنت فطعم أم ظلمان فسقى أم عار فكتسى فحب نجة هاج العود فأحترق من حر خوفه ثم أنزل الله تعالى عليه التوبة والمغفرة فقال يارب اجعل خطيئتي في كفي فصارت خطيئته في كفه مكتوبة فكان لا يسط كفه لطعام ولا لشراب ولا لغيره إلا رآها فأبكته قال وكان يؤتى بالقدح ثائه فإذا تناوله أبصر خطيئته فما يضعه على شفته حتى يفيض القدح من دموعه . ويروى عنه عليه السلام أنه مارتع رأسه إلى السماء حتى مات حياء من الله عز وجل وكان يقول في مناجاته : إلهي إذا ذكرت خطيئتي ضاقت على الأرض رحبها وإذا ذكرت رحمتك ارتدت إلى روعي . سبحانه إلهي أتيت أطباء عبادك ليدواوا خطيئتي فكلمهم عليك يدني فؤسا لاقناطين من رحمتك . وقال الفضيل بلغني أن داود عليه السلام ذكر ذنبه ذات يوم فوثب صارخا واضع يده على

كان مريضا عدته وإن كان مشغولا أعنته »  
وكان يقول ابن عباس رضي الله عنهما ما اختلف رجل إلى مجلس ثلاثا من غير حاجة تكون له ففعلت ما مكافأته في الدنيا وكان يقول سعيد بن العاص لجليسي على ثلاث إذا دنا رجبت به وإذا حدث أقبلت عليه وإذا جلس أوسعت له وعلامة خلوص المحبة لله تعالى أن لا يكون فيها شائبة حظ عاجل من رفق أو إحسان فإن ما كان معطولا يزول بزوال علته ومن لا يستند في خلقه إلى علة يحكم بدوام خلقه ومن شرط الحب في الله

بلفظ فتشى عليه وفي الصحيحين عن عائشة رأى جبريل في صورته مرتين ولهما عن ابن مسعود رأى جبريل لسمائة جناح (١) حديث كان إذا دخل في الصلاة سمع لصدره أزيز كأزيز المرجل أبو داود والترمذي في الشمائل والنسائي من حديث عبد الله بن الشخير وتقدم في كتاب السماع (٢) حديث ما جاءني جبريل قط إلا هو وترعد فرائضه من الجبار لم أجده هذا اللفظ وروى أبو الشيخ في كتاب العظيمة عن ابن عباس قال إن جبريل عليه السلام يوم القيامة لقائم بين يدي الجبار تبارك وتعالى ترعد فرائضه فرقا من عذاب الله الحديث وفيه زميل بن سمالك الحنفي يحتاج إلى معرفته (٣) حديث أنس أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل مالي لأرى ميكائيل يضحك فقال ما ضحك ميكائيل منذ خلقت النار أحمد وابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين من رواية ثابت عن أنس باسناد جيد ورواه ابن شاهين في السنة من حديث ثابت مرسل وورد ذلك أيضا في حق إسماعيل بن عيسى في الشعب وفي حق جبريل رواه ابن أبي الدنيا في كتاب الخائفين (٤) حديث ابن عمر خرجت مع رسول الله ﷺ حتى دخل على حيطان الأنصار فجعل يلتقط من التمر وبأكل الحديث ابن مردويه في التفسير والبيهقي في الزهد من رواية رجل لم يسم عن ابن عمر قال البيهقي هذا إسناد مجهول والجراح بن مهناك ضعيف.

رأسه حتى لحق بالجلال فاجتمعت إليه السباع فقال ارجعوا لا أريدكم إنما أريد كل بكاء على خطيئته فلا يستقبلني إلا بالبكاء ومن لم يكن ذا خطيئة فما يصنع بداد الخطاء وكان يعاتب في كثرة البكاء فيقول دعوني أبكي قبل خروج يوم البكاء قبل تحريق المقام واشتعال الحشا وقبل أن يؤمرني ملائكة غلاظ شداد لا بصون الله مأمرهم ويضلون ما يؤمرون . وقال عبد العزيز بن عمر لما أصاب داود الخطيئة نقص صوته فقال إلهي مع صوتي في صفاء أصوات الصديقين ، وروى أنه عليه السلام لما طال بكاءه ولم ينفعه ذلك ضاق ذرعه واشتد غمه فقال يارب أمترحم بكائي فأوحى الله تعالى إليه يا داود نسيت ذنبك وذكرت بكاءك فقال إلهي وسيدى كيف أنسى ذنبي وكنت إذا تلوت الزبور كنف للماء الجاري عن جريه وسكن هبوب الريح وأظنني الطير على رأسي وأنست بالوحوش إلى عمراني إلهي وسيدى فما هذه الوحشة التي بيني وبينك فأوحى الله تعالى إليه يا داود ذلك أنسى الطاعة وهذه وحشة للعصية يا داود آدم خلق من خلقى خلقتة يدي ونفخت فيه من روحي وأسجدت له ملائكتي وألبسته ثوب كرامتي وتوجته بتاج وقارى وشكالى الوحدة فزوجه حواء أمي وأسكنته جنى عصاني فطردته عن جوارى عريانا ذليلا يا داود اجمع منى والحق أقول أعطيتنا فأطعناك وسألتنا فأعطيناك وعصيتنا فأهلناك وإن عدت إلينا على ما كان منك قبلنا . وقال يحيى بن أبي كثير بلغنا أن داود عليه السلام كان إذا أراد أن ينوح مكث قبل ذلك سبعا لا يأكل الطعام ولا يشرب الشراب ولا يقرب النساء فإذا كان قبل ذلك يوم أخرج له النبر إلى البرية فأمر سليمان أن ينادى فيها ألا من أراد أن يسمع نوح داود على نفسه فليأت فأتى الوحوش من البراري والآكام وتأتى السباع من الفياض وتأتى الهوام من الجبال وتأتى الطير من الأوكار وتأتى العذارى من خدورهن وتجتمع الناس لذلك اليوم ويأتى داود حتى يرنى للنبر ويحيط به بنو إسرائيل وكل صنف على حدته يحيطون به وسليمان عليه السلام قائم على رأسه فيأخذ في الشاء على ربه فيضجون بالبكاء والصراخ ثم يأخذ في ذكر الجنة والنار فتصوت الهوام وطائفة من الوحوش والسباع والناس ثم يأخذ في أهوال القيامة وفي الباحة على نفسه فيموت من كل نوع طائفة فإذا رأى سليمان كثرة الموتى قال يا أبناء قدمزقت الستمعين كل محرق وماتت طوائف من بني إسرائيل ومن الوحوش والهوام فيأخذ في الدعاء فيبناهاو كذلك إذ ناداه بعض عباد بني إسرائيل يا داود هجئت بطلب الجزاء على ربك قال فيخر داود مفشيا عليه فإذا نظر سليمان إلى ما أصابه أتى بسرير خطفه عليه ثم أمر منافيا ينادى ألا من كان له مع داود حميم أو قريب فليأت بسرير فليحمله فان الذين كانوا معه قد قتلهم ذكر الجنة والنار فكانت المرأة تأتي بالسرير وتحمل قريبها وتقول يا من قتلته ذكر النار يا من قتلته خوف الله ثم إذا أفاق داود قام ووضع يده على رأسه ودخل بيت عبادته وأغلق بابه ويقول يا إله داود أغضبان أنت على داود ولا يزال بناجي ربه فيأتى سليمان ويقعد على الباب ويستأذن ثم يدخل ومعه فرس من شعير فيقول يا أبناء تقو بهذا على ما تريد فيا كل من ذلك القرص ما شاء الله ثم يخرج إلى بني إسرائيل فيكون بينهم . وقال يزيد الرقاشي خرج داود ذات يوم بالناس يمشون ويخوفهم فخرج في أربعين ألفا فمات منهم ثلاثون ألفا ومارجع إلا في عشرة آلاف قال وكان له جاريان أخذهما حتى إذا جاءه الخوف وسقط فاضطرب قعدتا على صدره وعلى رجله مخافة أن تفرق أعضاؤه ومفاصله فيموت . وقال ابن عمر رضى الله عنهما دخل يحيى بن زكريا علىهما السلام بيت المقدس وهو ابن ثمان حجج فنظر إلى عبادهم قد لبسوا مدارع الشعر والصوف ونظر إلى مجتهدهم قد خرقوا التراقي وسلخوا فيها السلاسل وهدوا أنفسهم إلى أطراف بيت المقدس فهاله ذلك

إني أثار الأخ بكل ما بقدر  
عليه من أمر الدين  
والدنيا قال الله تعالى  
- يحبون من هاجر  
إليهم ولا يجدون في  
صدورهم حاجة مما  
أوتوا ويؤثرون على  
أنفسهم ولو كان بهم  
خصاصة - فقوله تعالى  
- لا يجدون في صدورهم  
حاجة مما أوتوا - أي  
لا يجدون إخوانهم  
على ما لهم وهذا  
الوصفان بهما يكمل  
صفو المحبة أحدهما  
انزعاح الحسد على شيء  
من أمر الدين والدنيا .  
والثاني الإيثار بالمقدور .  
وفي الخبر عن سيد  
البشر عليه الصلاة  
والسلام «المرء على  
دين خليله ولاخير

فرجع إلى أبيه فر بصبيان يلعبون فقالوا له يا يحيى هلم بنا لنلعب فقال إني لم أخلق للعب قال فأتى  
أبويه فسألهما أن يدرجاه الشرح فملا فرجع إلى بيت المقدس وكان يخدمه نهرا ويصبح فيه ليلا  
حتى أتت عليه خمس عشرة سنة فخرج ولزم أطواد الأرض وغيوان الشعب فخرج أبوابا في طلبه  
فأدركه على بحيرة الأردن وقد أتقن رجليه في الماء حتى كاد العطش يذمعه وهو يقول وعزتك وجلالك  
لا أذوق بارد الشراب حتى أعلم أين مكاني منك فسأله أبواه أن يخطر على قرص كان معهما من شعير  
ويشرب من ذلك الماء ففعل وكفر عن يمينه فمدح بالبرفردة أبوابا إلى بيت المقدس فكان إذا قام  
يصلى بكى حتى يسكى معه الشجر والدر ويسكى زكريا عليه السلام لبكائه حتى يغمى عليه فلم يزل يسكى  
حتى خرفت دموعه لحلم خديه وبدت أضراسه للناظرين فقالت له أمه يا بني لو أذنت لي أن أخذلك  
شيئا توارى به أضراسك عن الناظرين فأذن لها فمهدت إلى قطمق لبودفألقصتهما على خديه فكان  
إذا قام يصلى بكى فإذا استنقعت دموعه في القطمقين أتت إليه أمه فصرتهما فإذا رأى دموعه تسيل  
على ذراعي أمه قال اللهم هذه دموعي وهذه أمي وأنا عبدك وأنت أرحم الراحمين فقال له زكريا  
يوما يا بني إنما سألت ربّي أن يهبك لي لتقرعينائي بك فقال يحيى يا أبت إن جبريل عليه السلام  
أخبرني أن بين الجنة والنار مفازة لا يقطعها إلا كل بكاء فقال زكريا عليه السلام يا بني فابك . وقال  
المسيح عليه السلام : معاشر الخواريين خشية الله وحب الفردوس يورثان الصبر على المشقة  
وياعدان من الدنيا يحيى أقول لكم إن أكل الشعير والنوم على الزابل مع الكلاب في طلب الفردوس  
قليل . وقيل كان الخليل صلوات الله عليه وسلامه إذا ذكر خطيئته يفضي عليه ويسمع اضطراب  
قلبه ميلا في ميل فيأتيه جبريل فيقول له ربك يقرئك السلام ويقول هل رأيت خيلا يخاف  
خليه فيقول يا جبريل إني إذا ذكرت خطيئتي نسيت خلقى فهذه أحوال الأنبياء عليهم السلام فدونك  
والتأمل فيها فانهم أعرف خلق الله بالله وصفاته صلوات الله عليهم أجمعين وعلى كل عباد الله القربين  
وحسبنا الله ونعم الوكيل .

### ( بيان أحوال الصحابة والتابعين والسلف والصالحين في شدة الخوف )

روى أن أبا بكر الصديق رضي الله عنه قال لطائر ليتني مثلك يا طائر ولم أخلق بشرا . وقال أبوذر  
رضي الله عنه وددت لو أتي شجرة تعصد وكذلك قال طلحة . وقال عثمان رضي الله عنه وددت أني إذا  
مت لم أبعث وقالت عائشة رضي الله عنها وددت أني كنت نسيا منسيا وروى أن عمر رضي الله عنه  
كان يسقط من الخوف إذا سمع آية من القرآن مغشيا عليه فكان يعاد أياما وأخذ يوما تبنة من  
الأرض فقال ياليتني كنت هذه التبنة ياليتني لم أك شيئا مذكورا ياليتني كنت نسيا منسيا ياليتني لم تلدني  
أمي وكان في وجه عمر رضي الله عنه خيطان أسودان من الدموع . وقال رضي الله عنه من خاف الله  
لم يشف غيظه ومن اتقى الله لم يصنع ما يريد ولولا يوم القيامة لكان غير ماترون ولما قرأ عمر رضي الله عنه  
- إذا الشمس كورت - وانتهى إلى قوله تعالى - وإذا الصحف نشرت - خرمغشيا عليه ومروما بدار إنسان  
وهو يصل ويقرأ سورة والطور فوقف يستمع فلما بلغ قوله تعالى - إن عذاب ربك لواقع ماله من دافع -  
نزل عن حمارة واستند إلى حائط ومكث زمانا ثم رجع إلى منزله ففرض شهر ايعوده الناس ولا يدرون ما مرضه  
وقال على كرم الله وجهه وقد سلم من صلاة الفجر وقد علاه كآبة وهو يقلب يده لقد رأيت أصحاب  
عمر عليه السلام فلم أر اليوم شيئا يشبههم لقد كانوا يصبحون شماصرا غبرا بين أعينهم أمثال الركب للعرى قد  
باتوا لله سجدا وقياماتلون كتاب الله يراو حون بين جباههم وأقدامهم فإذا أصبحوا ذكروا الله فادوا  
كل عبيد الشجر في يوم الريح ومملت أعينهم بالدموع حتى تبل ثيابهم والله فكأن بالقوم باتوا غافلين

لك في صحبة من  
لا يرى لك مثل  
ما يرى لنفسه وكان  
يقول أبو معاوية  
الأسود إخواني كلهم  
خير مني قبل وكيف  
ذاك ؟ قال كلهم يرى  
لي الفضل عليه ومن  
فضلني على نفسه فهو خير  
منى وبعضهم نظما :  
تذلك لمن إن تذلل له  
يرى ذاك للفضل  
لا لاله

وجانب صداقة من  
من لم يزل  
على الأصدقاء يرى  
الفضل له .

[ الباب الخامس  
والخمسون في آداب  
الصحة والأخوة ]  
سئل أبو حفص عن  
آداب الفقراء في الصحة



ثم قام فما روى بعد ذلك ضاحكا حتى ضرب به ابن ملجم ، وقال عمران بن حصين : وددت أن أكون رمادا تنسفني الرياح في يوم عاصف ، وقال أبو عبيدة بن الجراح رضي الله عنه : وددت أني كبش فيذبحني أهلي فيأكلون لحمي ويحسون مرقى ، وكان طي بن الحسين رضي الله عنه إذا توسأ اضمر لونه فيقول له أهله ما هذا الذي يتأكد عند الوضوء فيقول أتدرون بين يدي من أريد أن أقوم . وقال موسى بن مسعود كنا إذا جلسنا إلى التورى كأن النار قد أحاطت بنا لما نرى من خوفه وجزعه وقرأ مضر القاري يوما - هذا كتابنا ينطق عليكم بالحق - الآية فبكى عبد الواحد بن زيد حتى غشى عليه فلما أفاق قال وعزتك لا عصيتك جهدي أبدا فأعنى بتوفيقك طي طاعتك ، وكان المسور ابن مخزومة لا يقوى أن يسمع شيئا من القرآن لشدة خوفه ولقد كان يقرأ عنده الحرف والآية فيصبح الصيحة لما يعقل أياها حتى آتى عليه رجل من ختم ققرأ عليه - يوم نحشر التقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق الجرمين إلى جهنم وردا - فقال أنا من الجرمين ولست من التقيين أعدى القول أياها القاري فأعادها عليه فشبهه فلهق بالآخرة ، وقرئ عند يحيى البكاء - ولو ترى إذ وقفوا على ربهم - فصاح صيحة مكث منها مريضا أربعة أشهر يناد من أطراف البصرة ، وقال مالك بن دينار بينا أنا أطوف بالبيت إذ أنا بجورية متعبدة متملقة بأستار الكعبة وهي تقول يارب كم شهوة ذهبت لذلها وبقيت تبعاتها يارب أما كان لك أدب وعقوبة إلا النار وبكى لما زال ذلك مقامها حتى طلع الفجر ، قال مالك فلما رأيت ذلك وضعت يدي على رأسي صارخا أقول شككت مالكاً أمه ، وروى أن الفضيل روى يوم عرفة والناس يدعون وهو يبكي بكاء الشكوى المحترقة حتى إذا كادت الشمس تغرب قبض على لحيته ثم رفع رأسه إلى السماء وقال واسوأناه منك وإن غفرت ثم انقلب مع الناس ، وسئل ابن عباس رضي الله عنهما عن الخائفين فقال قلوبهم بالخوف فرحة وأعينهم باكية يقولون كيف نخرج والموت من ورائنا والقبر أمامنا والقيامة موعداً وعلى جهنم طريقنا وبين يدي الله ربنا وموقفنا . وروى الحسن بشاب وهو مستغرق في ضحكته وهو جالس مع قوم في مجلس فقال له الحسن يا فقي هل مررت بالصراط قال لا قال فهل تدري إلى الجنة تصير أم إلى النار قال لا قال فما هذا الضحك قال فمارى ذلك الفتي بعدها ضاحكا . وكان حماد بن عبيد ربه إذا جلس جلس مستوفزا على قدميه فيقال له لو اطعنا ننت فيقول تلك جلسة الأمن وأنا غير آمن إذ عصيت الله تعالى ، وقال عمر بن عبد العزيز : إنما جعل الله هذه الغفلة في قلوب العباد رحمة كيلا يموتوا من خشية الله تعالى ، وقال مالك بن دينار لقد هممت إذا أنا مت آمرهم أن يقيدوني ويغلوني ثم ينطلقوا بي إلى ربي كما ينطلق بالعبد الباقي إلى سيده ، وقال حاتم الأصم لا تفترب بموضع صالح فلا مكان أصلمح من الجنة وقد لقي آدم عليه السلام فيها مالتى ولا تفترب بكثرة العبادة فان إبليس بعد طول تبعده لقي مالتى ولا تفترب بكثرة العلم فان بلعام كان يحسن اسم الله الأعظم فانظر ماذا لقي ولا تفترب برؤية الصالحين فلا شخص أكبر منزلة عند الله من المصطفى صلى الله عليه وسلم ولم ينتفع بلقاءه أقاربه وأعداؤه . وقال السري : إني لأنظر إلى أنفي كل يوم مرات مخافة أن يكون قد اسود وجهي ، وقال أبو حفص منذ أربعين سنة اعتقادي في نفسي أن الله ينظر إلى نظري السخط وأعمالى تدل على ذلك ، وخرج ابن المبارك يوما على أصحابه فقال إني اجتربت البارحة على الله أسأله الجنة ، وقالت أم محمد بن كعب القرظي لابنها يابى إني أعرفك صغيرا طيبا وكبيراً طيباً وأكأنك أحدثت حدثاً موبقاً لما أراك تصنع في ليلتك ونهارك فقال يا أمه ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع على وأنا على بعض ذنوبي فمقتني وقال وعزتي وجلالي لا غفرت لك ، وقال الفضيل إني لا أغبط نبيا مرسل ولا ملكا مقربا ولا عبدا صالحا أليس هؤلاء يعاينون يوم القيامة إنما أغبط من لم يخاف . وروى أن في من الأنصار

قال حفظ حرمت  
الشايح وحسن  
العشرة مع الاخوان  
والنصيحة للأصاغر  
وترك صحبة من ليس  
في طبقتهم وملازمة  
الإيثار ومحاجة الادخار  
والمعاونة في أمر الدين  
والدنيا فمن أدبهم  
التغافل عن زلل  
الاخوان والنصح فيما  
يجب فيه النصيحة  
وكنتم عيب صاحبه  
واطلاعه على عيب  
يعلم منه . قال عمر بن  
الخطاب رضي الله عنه  
رحم الله امرأ أهدي  
إلى عيوني وهذا فيه  
مصلحة كلية تكون  
للشخص ممن ينهيه  
على عيوبه قال جعفر  
ابن برقان قال لي

دخلته خشية النار فكان يبكي حتى حبسه ذلك في البيت فجاء النبي صلى الله عليه وسلم فدخل عليه واعتنقه فغفر ميتا فقال ﷺ جهزوا صاحبكم فان الفرق من النار فتت كبده (١) وروى عن ابن أبي ميسرة أنه كان إذا أوى إلى فراشه يقول يا ليت أمتي لم تلدني فقالت له أمه يا ميسرة إن الله تعالى قد أحسن إليك هداك إلى الاسلام قال أجل ولكن الله قديين لنا أنا ولردو النار ولم يمين لنا أنا صادرون عنها وقيل لفرقد السبخي أخبرنا بأعجب شيء بلغك عن بني إسرائيل فقال بلغني أنه دخل بيت المقدس خمسمائة عذراء لباسهن الصوف والسوح فذا كرن ثواب الله وعقابه فمئن جميعا في يوم واحد وكان عطاء السلي من الحائفين ولم يكن يسأل الله الجنة أبدا إنما كان يسأل الله العفو وقيل له في مرضه ألا تشتهي شيئا فقال إن خوف جهنم لم يدع في قلبي موضعا للشهوة ويقال إنه مازف رأسه إلى السماء ولا ضحك أربعين سنة وأنه رفع رأسه يوما فززع فسقط فافتق في بطنه فتق وكان يمس جسده في بعض الليلة عفاة أن يكون قد مسخ وكان إذا أصابتهم ريح أو برق أو غلاء طامع قال هذا من أجل صيهم لومات عطاء لاستراح الناس ، وقال عطاء خرجنا مع عتبة الغلام وقتنا كهول وشبان يصلون صلاة الفجر بطهور المشاء قد تورمت أقدامهم من طول القيام وغارت أعينهم في رؤسهم ولصقت جلودهم على عظامهم وبقيت العروق كأنها الأوتار يصبحون كأن جلودهم فتور البطيخ وكأنهم قد خرجوا من القبور يخبرون كيف أكرم الله المطيعين وكيف أهان العاصين فبينما هم يمشون إذ مر أحدهم بمكان غمر مغشيا عليه فجلس أصحابه حوله ليكون في يوم شديد البرد وجبينه برشح عرقا فجاءوا بعماء فمسحوا وجهه فأفاق وسألوه عن أمره فقال إني ذكرت أني كنت عصيت الله في ذلك المكان. وقال صالح المري قرأت على رجل من الصديين - يوم قلب وجوههم في النار يقولون يا ليتنا أطعنا الله وأطعنا الرسول - فصعق ثم أفاق فقال زدني يا صالح فاني أجد غما قرأت - كما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدها وأقيها - فغرميتا ، وروى أن زرار بن أبي أوفى صلى بالناس النداء فلما قرأ - فاذا قرأ في الناقور - خر مغشيا عليه فحمل ميتا. ودخل زيد الرقاشي على عمر بن عبد العزيز فقال عطش يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين اعلم أنك لست أول خليفة يموت فبكي ثم قال زدني قال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين آدم أب إلا ميت فبكي ثم قال زدني يا يزيد فقال يا أمير المؤمنين ليس بينك وبين الجنة والنار منزل غمر مغشيا عليه . وقال ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية - وإن جهنم لم وعدهم أجمعين - صاح سلمان الفارسي ووضع يده على رأسه وخرج هاربا ثلاثة أيام لا يتقدرون عليه (٢) ورأى داود الطائي امرأة تبكي على رأس قبر ولدها وهي تقول يا ابتاه ليت شعري أي خديك بدأ به الدود أولا فصعق داود وسقط مكانه وقيل مرضه سفيان الثوري فعرض دليله على طبيب ذمي فقال هذا رجل قطع الخوف كبده ثم جاء وجس عروقه ثم قال ما علمت أن في الله الحنيفة مثله وقال أحمد بن حنبل رحمه الله عليه سألت الله عز وجل أن يفتح علي بابا من الخوف ففتح ففتحت علي عيني فقلت يا رب على قدر ما أطيق فسكن قلبي وقال عبد الله بن عمرو بن العاص أبكوا فان لم تبكوا فتابوا فوالذي نفسي بيده لو يعلم أحدكم لصرخ حتى ينقطع صوته وصلى حتى ينكسر صلبه وكأنه أشار إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (٣) وقال العنبري اجتمع أصحاب الحديث على باب الفضيل بن عياض فاطلع عليهم من كوة وهو يبكي ولحيته

ميمون بن مهران قل لي في وجهي مأكره فان الرجل لا ينصح أخاه حتى يقول له في وجهه ما بكرهه فان الصادق يجب من صدقه والكاذب لا يجب الناصح قال الله تعالى ولكن لا تحبون الناصحين - والنصيحة ما كانت في السر - ومن آداب الصوفية القيام بخدمة الإخوان واحتمال الأذى منهم فبذلك يظهر جوهر الفقير روى أن عمر بن الخطاب رضي الله عنه أمر بقلع ميزاب كان في دار العباس بن عبد المطلب إلى الطريق بين الصفاء والمروة فقال له العباس قلعت ما كان

(١) حديث إن فني من الأنصار دخلته خشية من النار حتى حبسه خوفه في البيت الحديث ابن أبي الدنيا في الحائفين من حديث حذيفة واليهيقي في الشعب من حديث سهل بن سعد باسنادين فيهما نظر .  
(٢) حديث ميمون بن مهران لما نزلت هذه الآية وإن جهنم لم وعدهم أجمعين صاح سلمان الفارسي لم أنف له على أصل (٣) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا فواعد المعاهد

ترجع فقال عليكم بالقرآن عليكم بالصلاة ويحكم ليس هذا زمان حديث إنما هذا زمان بكاء وتضرع واستكانة ودعاء كدعاء الفريق إنما هذا زمان احفظ لسانك وأخف مكانك وعالج قلبك وخذ ما تعرف ودع ما تنكر وروى الفضيل يوما وهو يمشي قليل له إلى أين؟ قال لا أدري وكان يمشي والمها من الخوف . وقال ذر بن عمر لأبيه عمر بن ذر : ما بال التكلمين يتكلمون فلا يكي أحد فاذا تكلمت أنت سمعت البكاء من كل جانب فقال يا بني ليست النائمة الشكلى كالنائمة السناجرة وحكي أن قوما وقفوا بباب وهو يكي فقالوا ما الذي يكيك يرحمك الله ؟ قال قرعة يجدها الخائفون في نلهم قالوا وما هي ؟ قال روعة النداء بالعرض على الله عز وجل . وكان الخواص يكي ويقول في مناجاته قد كبرت وضفت جسمي عن خدمتك فأعتني . وقال صالح المري : قدم علينا ابن الهك مرة فقال أرني شيئا من بعض عجائب عبادكم فنهبت به إلى رجل في بعض الأحياء في خص له فاستأذنا عليه فاذا رجل يعمل خوصا فقرأت عليه - إذا الأغلال في أعناقهم والسهام يسحبون في الحميم ثم في النار يسجرون - فسبق الرجل شهقة وخر مغشيا عليه فخرجنا من عنده وتركناه على حاله وذهبنا إلى آخر فدخلنا عليه فقرأت هذه الآية فسبق شهقة وخر مغشيا عليه فذهبنا واستأذنا على ثالث فقال ادخلوا إن لم تشعولوا عن ربنا فقرأت - ذلك لمن خاف مقامى وخاف وعيد - فسبق شهقة فبدأ الدم من منخرينه وجعل يتشبط في دمه حتى يمس فتركناه على حاله وخرجنا فأدركته على ستة أنفس كل نخرج من عنده وتركه مغشيا عليه ثم أتيت به إلى السابع فاستأذنا فاذا امرأة من داخل الحصى تقول ادخلوا فدخلنا فاذا شيخ فان جالس في معلاة فسلمنا عليه فلم يشعر بسلامنا فقلت بصوت عال إلا إن المخلوق غدا مقاما فقال الشيخ بين يدي من ويحك ثم بقي مبهوتا فأخافاه شاخصا بصره يصيح بصوته ضعيف أوه أوه حتى انقطع ذلك الصوت فقالت امرأته اخرجوا فانكم لا تنتفمون به الساعة فلما كان بعد ذلك مالت عن القوم فاذا ثلاثة قد أفاقوا وثلاثة قد لحقوا بالله تعالى وأما الشيخ فانه مكث ثلاثة أيام على حاله مبهوتا متحيرا لا يؤدى قرضا فلما كان بعد ثلاث عقل وكان يزيد بن الأسود يرى أنه من الأبدال وكان قد حلف أنه لا يضحك أبدا ولا ينام مضطجعا ولا يأكل منا أبدا لما روى ضاحكا ولا مضطجعا ولا أكل منا حتى مات رحمه الله . وقال الحجاج لسعيد بن جبير بلغني أنك لم تضحك قط فقال كيف أضحك وجههم قد سمعت والأغلال قد نصبت والزبانية قد أعدت وقال رجل للحسن يا أبا سعيد كيف أصبحت قال بهير قال كيف حالك فتبسم الحسن وقال تسألني عن حالى ما ظنك بناس ركبوا سفينة حتى توسطوا البحر فانكسرت سفينتهم فعلق كل إنسان منهم بخشبة على أخت حال يكون قال الرجل على حال شديدة قال الحسن حالى أشد من حالهم . ودخلت مولاة لعمر بن عبد العزيز عليه فسلمت عليه ثم قامت إلى مسجد في بيته فصلت فيه ركعتين وغلبتها عينها فرقدت فاستبكت في منامها ثم انتبهت فقالت يا أمير المؤمنين إني والله رأيت عجبا قال وما ذلك ؟ قالت رأيت النار وهي تزفر على أهلها ثم جىء بالصراط فوضع على منها فقال هيه قالت جئى بعد لللك بن مروان فحمل عليه فامضى عليه إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بالوليد بن عبد الملك فحمل عليه فامضى إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى إلى جهنم فقال عمر هيه قالت ثم جىء بسلیمان بن عبد الملك فامضى عليه إلا سير حتى انكفأ به الصراط فهوى كذلك فقال عمر هيه قالت ثم جىء بك والله يا أمير المؤمنين فصاح عمر رحمه الله عليه صيحة خرم مغشيا عليه فقامت إليه فجعلت تنادى في أذنه يا أمير المؤمنين إني رأيتك والله قد نجوت إني رأيتك والله قد نجوت قال وهي تنادى وهو يصيح ويفحص برجليه

رسول الله صلى الله عليه وسلم وضع يده فقال إذن لا يردى إلى مكانه غير يدك ولا يكون لك سلم غير عاتق عمر فأقامه على عاتقه وورده إلى موضعه ومن أدبهم أن لا يرون أنفسهم ملكا يختصمون به قال ابراهيم بن شيان كنا لاصحاب من يقول نلى . أخبرنا بذلك رضى الدين عن أبي الظفر عن والده أبي القاسم القشيري قال سمعت أبا حاتم الصوفى قال سمعت أبا نصر السراج يقول ذلك وقال أحمد بن القلانى دخلت على قوم من الفقهاء يوما بالبصرة فأكرموني

وبعني أن أويس القرنى رحمه الله كان يحضر عند القاص فيسبي من كلامه فإذا ذكر النار صرخ أويس ثم يقوم منطلقاً فيتبعه الناس فيقولون مجنون مجنون . وقال معاذ بن جبل رضي الله عنه إن المؤمن لا يسكن روعه حتى يترك جسدهم وراءه وكان طائوس يفرش له الفرش فيضطجع ويتقلب كما تتقلب الحية في القلي ثم ينب فيدرجه ويستقبل القبلة حتى الصباح ويقول طير ذكر جهنم نوم الخائفين . وقال الحسن البصري رحمه الله : يخرج من النار رجل بعد ألف عام بالتي كنت ذلك الرجل وإنما قال ذلك خوفاً من الخلود وسوء الخاتمة . وروى أنه ماضحك أربعين سنة قال وكنت إذا رأيته قاعداً كأنه أسير قد قدم لتضرب عنقه وإذا تكلم كأنه يماين الآخرة فيخبر عن مشاهدتها فإذا سكنت كان النار تسر بين عينيه وعوتب في شدة حزنه وخوفه فقال ما يؤمنني أن يكون الله تعالى قد اطلع في طي بعض ما يكره فمقتني فقال اذهب فلا غفرت لك فأننا أعمل في غير معتمل . وعن ابن الهك : قال وعظت يوما في مجلس قمام شاب من القوم فقال يا أبا العباس لقد وعظت اليوم بكلمة ما كنا نبالي أن نسمع غيرها قلت وما هي رحمك الله قال ذلك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أوفى النار ثم غاب عني فقعدته في المجلس الآخر فلم أره فسألت عنه فأخبرت أنه مريض يما فأتيته أعوده فقلت يا أخي ما الذي أرى بك فقال يا أبا العباس ذلك من قولك لقد قطع قلوب الخائفين طول الخلودين إما في الجنة أو النار قال ثم مات رحمه الله فرأيت في المنام فقلت يا أخي ما فعل الله بك ؟ قال غفر لي ورحمني وأدخلني الجنة قلت بماذا ؟ قال بالكلمة فهذه مخاوف الأنبياء والأولياء والمعلماء والصالحين ونحن أجدر بالخوف منهم لسكن ليس الخوف بكثرة الذنوب بل بصفاء القلوب وكال المعرفة والإفليس أمنا لقة ذنوبنا وكثرة طاعاتنا بل قادتنا شهوتنا وغلبت علينا شقوتنا وصدتنا عن ملاحظة أحوالنا غفلتنا وقسوتنا فلاقرب الرجل ينهبنا ولا كثرة الذنوب تحركنا ولا مشاهدة أحوال الخائفين تخوفنا ولا خطر الخاتمة يزهدنا فقال الله تعالى أن يتدارك بفضل وجوده أحوالنا فيصالحنا إن كان تحريك اللسان بمجرد السؤال دون الاستعداد ينفعنا . ومن العجائب أنا إذا أردنا المال في الدنيا زرعتنا وغرسنا وأنجرتنا وركبنا البحار والبراري وخاطرنا وإن أردنا طلب رتبة العلم تفقها وتعبنا في حفظه وتكراره وسهرنا ونجهد في طلب أرزاقنا ولا شق بضمان الله لنا ولا نجلس في بيوتنا فنقول اللهم ارزقنا ثم إذا طمعت أعيننا نحو الملك الدائم المقيم قلنا بأن نقول بألسنتنا اللهم اغفر لنا وارحمنا والذي إليه رجاؤنا وبه اعتزازنا يتنادينا ويقول - وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . ولا يفرنكم بالله الفرور . يا أيها الإنسان ما تفكر بربك الكريم - ثم كل ذلك لا ينهنا ولا يخرجنا عن أودية غرورنا وأمانينا فما هذه إلا عنة هائلة إن لم يفضل الله علينا بتوبة نصوح يتداركنا بها ويحبرنا فسأل الله تعالى أن يتوب علينا بل نسأله أن يشوق إلى التوبة سراير قلوبنا وأن لا يجعل حركة اللسان بسؤال التوبة غاية حظنا فنكون ممن يقول ولا يعمل ويسمع ولا يقبل إذا سمعنا الوعظ بكينا وإذا جاء وقت العمل بما سمعناه عصينا فلا علامة للخلاص أعظم من هذا فسأل الله تعالى أن يمن علينا بالتوفيق والرشيدته وفضله ولتقتصر من حكاية أحوال الخائفين على ما أوردناه فان القليل من هذا يصادف القلب القابل فيكفي والكثير منه وإن أفيض على القلب الغافل فلا ينفع . ولقد صدق الراهب الذي حكى عنه عيسى بن مالك الحولاني وكان من خيار العباد أنه رأى على باب بيت المقدس واقفا كهية المهزوز من شدة الوله ما يكاد يبرق أمامه من كثرة البكاء فقال عيسى لما رأيته هالتي منظره قلت أيها الراهب أوصني بوصية أحفظها عنك فقال يا أخي بماذا أوصيك إن استطعت أن تكون بمنزلة رجل قد احتوشته السباع والموام فهو خائف حذر

ويعلمون قلت يوما لبعضهم أين إزارى فذهبت من أعينهم . وكان إبراهيم بن آدم إذا سمع إنسانا شارطه على ثلاثة أشياء أن تكون الخدمة والأذان له وأن تكون يده في جميع ما يفتح الله عليهم من الدنيا كيدته فقال رجل من أصحابه أنا لأقدر على هذا فقال أعجبني صدقك . وكان إبراهيم ابن آدم ينظر البسائين ويحمل في الحصاد وينفق على أصحابه . وكان من أخلاق السلف أن كل من احتاج إلى شيء من مال أخيه استعمله من غير مؤامرة قال الله

يخاف أن ينفل فتفترسه السباع أو يسهو فتنتشه الهوام فهو مذعور القلب وجل فهو في الخافة ليله وإن أمن القفرون وفي الحزن نهاده وإن فرح البطالون ثم ولي وتركني قلقت لو زدني شيئا عسى ينفعني فقال الظلمان يحزبه من الماء أيسره وقد صدق فإن القلب الصافي يهركه أدنى عناية والقلب الجامد تنبو عنه كل الواعظ وما ذكره من تقديره أنه احتوشته السباع والهوام فلا ينبغي أن يظن أنه تقدير بل هو تحقيق فانك لو شاهدت بنور البصيرة باطنك لرأيت مشحونا بأصناف السباع وأنواع الهوام مثل الغضب والشهوة والحقد والحسد والكبر والعجب والرياء وغيرها وهي التي لا تزال تفترسك وتنهشك إن غفلت عنها لحظة إلا أنك محجوب العين عن مشاهدتها فإذا انكشف الغطاء، ووضعت في قبرك عاينتها وقد تمثلت لك بصورها وأشكالها المواقفة لما فيها تقرأ بينك العقارب والحيات وقد أحدثت بك في قبرك وإنما هي صفاتك الحاضرة الآن قد انكشفت لك صورها فإن أردت أن تقتلها وتقرها وأنت قادر عليها قبل اللوت فافعل وإلا فوطن نفسك على لدغها ونهشها لصميم قلبك فضلا عن ظاهر بشرتك والسلام.

### كتاب الفقر والزهد

( وهو الكتاب الرابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذي تسبح له الرمال ، وتسجد له الظلال ، وتتدكدك من هيئته الجبال ، خلق الإنسان من الطين اللازب والصلصال ، وزين صورته بأحسن تقويم وأتم اعتدال ، وعصم قلبه بنور الهداية عن ورطات الضلال ، وأذن له في قرع باب الخدمة بالعدو والآصال ، ثم كحل بصيرة الخالص في خدمته بنور المبرة حتى لاحظ بضائته حضرة الجلال ، فلاح له من البهجة والبهاء والكمال ، ما استقبح دون مبادئ إشراقه كل حسن وجمال ، واستنقل كل ماصرفه عن مشاهدته وملازمته غاية الاستنقال ، وعثله ظاهر الدنيا في سورة امرأة جميلة تيس وتختال ، وانكشف له باطنها عن عجوز شوها عجنبت من طينة الحزى وضربت في قالب النكال ، وهي متلفعة بجلبابها لتخفي قبائح أسرارها بلطائف السحر والاحتيال ، وقد نصبت حبالها في مدارج الرجال ، فهي تقتصم بضروب السكر والإغتيال ، ثم لا تجترى . مهم بالخلف في مواعيد الوصال ، بل تقديم مع قطع الوصال بالسلاسل والأغلال ، وتبليهم بأنواع البلايا والأنكال ، فلما انكشف لعارفين منها قبائح الأسرار والأفعال ، زهدوا فيها زهد البنض لها فتركوها وتركوا التناخر والتكاثر بالأموال ، وأقبلوا بكنههم على حضرة الجلال ، واتقين منها بوصال ليس دونه انفصال ، ومشاهدته أبدية لا يعترها فناء ولا زوال ، والصلاة على سيدنا محمد سيد الأنبياء وعلى آله خير آل .

[ أما بعد ] فإن الدنيا عدوة لله عز وجل بفرورها من صل وعكرها من زل فخرها رأس الخطايا والسيئات ، وبغضها أم الطاعات وأس القربات ، وقد استقصينا ما يتعلق بوصفها وضم الحب لها في كتاب فم الدنيا من ربيع المهلكات ، ونحن الآن نذكر فضل البنض لها والزهد فيها فانه رأس النجيات ، فلا مطمع في النجاة إلا بالانقطاع عن الدنيا والبعد منها لكن مقاطعتها إما أن تكون بانزواهم عن العبد ويسمى ذلك قفرا وإما بانزواء العبد عنها ويسمى ذلك زهدا أو اسكل واحدا منهما بدرجتي نيل السعادات وحظ في الاغانة على الفوز والنجاة ونحن الآن نذكر حقيقة الفقر والزهد ودور جاتها وأقسامها وشروطها وأحكامها ونذكر الفقر في شطر من الكتاب والزهد في شطر آخر منه ونبدأ بذكر الفقر فتقول :

[ الشطر الأول من الكتاب في الفقر ] وفيه بيان حقيقة الفقر وبيان فضيلة الفقر مطلقا وبيان

( حكايات الفقر والزهد )

تعالى - وأمرهم شورى بينهم - أى مشاعهم فيه سواء ومن أدبهم أنهم إذا استملوا صاحباً يتهمون أنفسهم ويتسبون في إزالة ذلك من بواطنهم لأن انطواء الضمير على مثل ذلك للمصاحب وليجة في الصعبة . قال أبو بكر الصكثاني صحبنى رجل وكان على قلبي ثقباً فوهبت له شيئاً بنية أن يزول ثقله من قلبي فلم يزول فخلوت به يوماً وقلت له ضع رجلك على خدي فأبى فقلت له لا بد من ذلك ففعل ذلك فزال ما كنت أجده في باطني قال الرقي قصدت من الشام إلى الحجاز

خصوص فضيلة الفقراء وبيان فضيلة الفقير على الغنى وبيان أدب الفقير في فقره وبيان أدبه في قبوله العطاء وبيان تحريم السؤال بغير ضرورة وبيان مقدار الغنى المحرم للسؤال وبيان أحوال السائلين والله الموفق للصواب بلطفه وكرمه .

( بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأساميهِ )

اعلم أن الفقر عبارة عن فقد ما هو محتاج إليه أما فقد ما لا حاجة إليه فلا يسمى فقرا وإن كان المحتاج إليه موجودا مقدورا عليه لم يكن المحتاج فقيرا وإذا فهمت هذا لم تشك في أن كل موجود سوى الله تعالى فهو فقير لأنه محتاج إلى دوام الوجود في ثاني الحال ودوام وجوده مستفاد من فضل الله تعالى وجوده فإن كان في الوجود موجود ليس وجوده مستفاد الله من غيره فهو الغنى المطلق ولا يتصور أن يكون مثل هذا الموجود إلا واحدا فليس في الوجود إلا غنى واحد وكل من عداه فانهم محتاجون إليه ليجدوا وجودهم بالدوام وإلى هذا الحصر الإشارة بقوله تعالى - والله الغنى وأتم الفقراء - هذا معنى الفقر مطلقا ولكل السانقصد بيان الفقر المطلق بل الفقر من المال على الخصوص وإلا فقير العبد بالاضافة إلى أصناف حاجاته لا ينحصر لأن حاجاته لا حصر لها ومن جملة حاجاته ما يتوصل إليه بالمال وهو الذي يريد الآن بيانه فقط فقول: كل فاقد للمال فانا نسميه فقيرا بالاضافة إلى المال الذي فقده إذا كان ذلك الفقد محتاجا إليه في حقته يتصور أن يكون له خمسة أحوال عند الفقر ونعني نعيمها ونخص كل حال باسم لتوصل بالتمييز إلى ذكر أحكامها : الحالة الأولى وهي العليا أن يكون بحيث لو أتاه المال لكرهه وتأذى به وهرب من أخذه مبغضا له ومحترزا من شره وشغله وهو الزهد واسم صاحبه الزاهد . الثانية أن يكون بحيث لا يرغب فيه رغبة يفرح لحصوله ولا يكرهه كراهة يتأذى بها ويزهده فيه لو أتاه وصاحب هذه الحالة يسمى راضيا . الثالثة أن يكون وجود المال أحب إليه من عدمه لرغبة فيه ولكن لم يبلغ من رغبته أن ينهض لطلبه بل إن أتاه صفوا أعفوا أخذه وفرح به وإن افتقر إلى تعب في طلبه لم يستغل به وصاحب هذه الحالة نسميه قائما إذ قنع نفسه بالموجود حتى ترك الطلب مع ما فيها من الرغبة الضعيفة . الرابعة أن يكون تركه الطلب لهجزء وإلا فهو راغب فيه رغبة لو وجد سبيلا إلى طلبه ولو بالتعب لطلبه وأهو مشغول بالطلب وصاحب هذه الحالة نسميه بالحريص . الخامسة أن يكون ما يقده من المال مضطرا إليه كالجائع الفاقد للخبز والعاري الفاقد للثوب ويسمى صاحب هذه الحالة مضطرا كيفما كانت رغبته في الطلب إما ضعيفة وإما قوية وقدا تنفك هذه الحالة عن الرغبة ، فهذه خمسة أحوال أعلاها الزهد والاضطرار إن انضم إليه الزهد وتصور ذلك فهو أقصى درجات الزهد كما سيأتي بيانه ووراء هذه الأحوال الخمسة حالة هي أعلى من الزهد وهي أن يستوى عنده وجود المال وقفده فان وجد لم يفرح به ولم يتأذى وإن فقده فكذلك بل حاله كما كان حال عائشة رضي الله تعالى عنها إذا أتاه مائة ألف درهم من العطاء فأخذتها وفرقتها من يومها فقالت خادماتها ما استطعت فيها فرقت اليوم أن تشتري لنا بذر من الحنظل فقلت لو ذكرتني لقلت فمن هذه حاله لو كانت الدنيا بخذا في يده وخزائنه لم تضربه إذ هو يرى الأموال في خزائن الله تعالى لا في يد نفسه فلا يفرق بين أن تكون في يده أو في يد غيره وينبغي أن يصمى صاحب هذه الحالة للستغنى لأنه غنى عن قد المال ووجوده حيا وليفهم من هذا الاسم معنى يشارك اسم الغنى المطلق على الله تعالى وعلى كل من كثر ماله من العباد فان من كثر ماله من العباد وهو يفرح به فهو فقير إلى بقاء المال في يده وإعناؤه غنى عن دخول المال في يده لاعتناءه به فهو إذن فقير من وجه وأما هذا الشخص فهو غنى عن دخول المال في يده وعن بقاءه في يده وعن خروجه من يده أيضا فإنه ليس يتأذى به ليجتاح إلى إخراجه وليس يفرح به ليجتاح إلى بقاءه وليس فاقدا له

حتى سألت الكنان عن هذه الحكاية . ومن أدبهم تقديم من يعرفون فضله والتوسعة له في المجلس والابتار بالوضع . روى أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان جالسا في صفة ضيقة فجاءه قوم من البدرين فلم يجدوا موضعا يجلسون فيه فأقام رسول الله صلى الله عليه وسلم من لم يكن من أهل بدر فجلسوا فكانهم فاشتر ذلك عليهم فأمر الله تعالى - وإذا قيل انشروا فانشروا - الآية وحكى أن علي بن بشار الصوفي ورد على أبي عبد الله بن خفيف زائرا فهاشيا فقال له

ليحتاج إلى الدخول في يده فناء إلى العموم أميل فهو إلى الفنى الذى هو وصف الله تعالى أقرب وإنما قرب البعد من الله تعالى بقرب الصفات لا بقرب المكان ولكننا لانسمى صاحب هذه الحالة غيايبل مستغنيا ليقى الفنى اصلا لمن له الفنى المطلق عن كل شئ' وأما هذا البعد فان استغنى عن المال وجودا أو عدما فلم يستغن عن أشياء أخر سواه ولم يستغن عن مدد توفيق الله له ليقى استغناؤه الذى زين الله به قلبه فان القلب للقيد بحب المال رقيق والمستغنى عنه حر والله تعالى هو الذى أعنته من هذا الرقى فهو محتاج إلى دوام هذا العتق والقلوب متقلبة بين الرقى والحرية في أوقات متقاربة لأنها بين أصبعين من أصابع الرحمن فلذلك لم يكن اسم الفنى مطلقا عليه مع هذا الكمال إلا مجازا. واعلم أن الزهد درجة هي كمال الأبرار وصاحب هذه الحالة من المقربين فلا جرم صار الزهد في حقه تفضيلا إذ حسنت الأبرار سيئات المقربين وهذا لأن الكثرة للدنيا مشغول بالدنيا كما أن الراغب فيها مشغول بها والشغل بما سوى الله تعالى حجاب عن الله تعالى إذ لا يبعد بينك وبين الله تعالى حتى يكون البعد حجابا فإنه أقرب إليك من جبل الوريد وليس هو في مكان حتى تكون السموات والأرض حجابا بينك وبينه فلا حجاب بينك وبينه إلا شغلك بغيره وشغلك بنفسك وشهواتك شغل بغيره وأنت لا تزال مشغولا بنفسك وبشهووات نفسك فكذلك لا تزال محجوبا عنه فالمشغول بحب نفسه مشغول عن الله تعالى والمشغول بنفسه نفسه أيضا مشغول عن الله تعالى بكل ماسوى الله مثاله مثال الرقيب الحاضر في مجلس يجمع العاشق والمشتوق فان التفت قلب العاشق إلى الرقيب وإلى نفسه واستغفله وكرهه حضوره فهو في حال اشتغال قلبه بنفسه مصروف عن التلذذ بمشاهدة معشوقه ولو استغرقه العشق لفعل عن غير المشتوق ولم يلبثت إليه فكما أن النظر إلى غير المشتوق لحبه عند حضور المشتوق شرك في العشق ونقص فيه فكذلك النظر إلى غير المحبوب لبغضه شرك فيه ونقص ولكن أحدهما أخف من الآخر بل الكمال في أن لا يلبثت القلب إلى غير المحبوب بغضا وحبا فإنه كما لا يجتمع في القلب حبان في حالة واحدة فلا يجتمع أيضا بغض وحب في حالة واحدة فالمشغول ببغض الدنيا غافل عن الله كما المشغول بحبا إلا أن المشغول بحبا غافل وهو في غفلة سالك في طريق البعد والمشغول ببغضا غافل وهو في غفلة سالك في طريق القرب إذ يرجى له أن ينتهى حاله إلى أن تزول هذه الغفلة وتبدل بالشهود فالكمال له مرتبة لأن بغض الدنيا مطية توصل إلى الله فالهلب والبغض كرجلين في طريق الحج مشغولين بركوب الناقة وعلقها وتسييرها ولكن أحدهما مستقبل الكعبة والآخر مستدير بها فهما سيان بالاضافة إلى الحال في أن كل واحد منهما محجوب عن الكعبة ومشغول عنها ولكن حال المستقبل محمود بالاضافة إلى المستدير إذ يرجى له الوصول إليها وليس محمودا بالاضافة إلى المتكفف في الكعبة اللازمة لها الذى لا يخرج منها حتى ينتقم إلى الاشتغال بالدابة في الوصول إليها فلا ينبغي أن تظن أن بغض الدنيا مقصود في عينه بل الدنيا حائق عن الله تعالى ولا وصول إليه إلا بدفع العائق ولذلك قال أبو سليمان الداراني رحمه الله من زهد في الدنيا واقتصر عليه فقد استعجل الراحة بل ينبغي أن يشتغل بالآخرة فيبين أن سلوك طريق الآخرة وراء الزهد كما أن سلوك طريق الحج وراء دفع الغرم العائق عن الحج، فاذن قد ظهر أن الزهد في الدنيا إن أريد به عدم الرغبة في وجودها وعدمها فهو غاية الكمال وإن أريد به الرغبة في عدمها فهو كمال بالاضافة إلى درجة الراضى والقانع والحريص وتقصان بالاضافة إلى درجة المستغنى بل الكمال في حق المال أن يستوى عندك المال والماء وكثرة الماء في جوارك لا تؤذيك بأن تكون على شاطئ البحر ولا قلته تؤذيك إلا في قدر الضرورة مع أن المال محتاج إليه كما أن الماء محتاج إليه فلا يكون قلبك مشغولا بالفرار عن جوار الماء الكثير ولا يفيض الماء الكثير بل تقول أشرب

أبو عبد الله تقدم فقال  
بأى عذر فقال بأنك  
لقيت الجنيد ومالقيته  
ومن أدبهم ترك محبة  
من هم شئ من  
فضول الدنيا قال الله  
تعالى - فأعرض عن  
تولى عن ذكرنا ولم يرد  
إلا الحياة الدنيا -  
ومن أدبهم بذل  
الانصاف للاخوان  
وترك مطالبة الانصاف  
قال أبو عثمان الجبري  
حق الصعبة أن توسع  
على أخيك من مالك  
ولا تطمع في ماله وتصفه  
من نفسك ولا تطلب  
منه الانصاف وتكون  
تبعاله ولا تطمع أن  
يكون تبعالك وتستكثر  
ما يصل اليك منه  
وتستقل ما يصل اليك

منه بقدر الحاجة وأسقى منه عباد الله بقدر الحاجة ولا يغفل به على أحد فمكذبا ينبغي أن يكون المال لأن الخبز والماء واحد في الحاجة وإنما الفرق بينهما في قلة أحدهما وكثرة الآخر وإذا عرفت الله تعالى ووثقت بتدبيره الذي دبر به العالم علمت أن قدر حاجتك من الخبز يأتيك لا محالة مادمت حيا كأيأتيك قدر حاجتك من الماء على ماسيأتي بيانه في كتاب التوكل إن شاء الله تعالى، قال أحمد بن أبي الحواري قلت لأبي سليمان الداراني قال مالك بن دينار للمغيرة أذهب إلى البيت فخذ الركوة التي أهديتها لي فإن العدو يوسوس لي أن اللص قد أخذها قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية قد زاده في الدنيا ما غلبه من أخذها فبين أن كراهية كون الركوة في بيته التفات إليها سببه الضعف والقصان . فان قلت فما بال الأنبياء والأولياء هربوا من المال ونفروا منه كل النفار . فأقول : كما هربوا من الماء على معنى أنهم ما شربوا أكثر من حاجتهم قفروا عما وراءه ولم يجمعوه في القرب والروايا يديرونهم مع أنفسهم بل تركوه في الأنهار والآبار والبراري المحتاجين إليه لأنهم كانت قلوبهم مشغولة بحبه أو بغضه وقد حدثت خزائن الأرض إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر رضي الله عنهما فأخذوها ووضعوها في مواضعها وما هربوا منها (١) إذ كان يستوى عندهم المال والماء والذهب والحجر وما نقل عنهم من امتناع فاما أن ينقل عن عمر خاف أن لو أخذه أن يحدده المال ويقيده قلبه فيدعوه إلى الشهوات وهذا حال الضعفاء فلا جرم البغض للمال والهرب منه في حقهم كمال وهذا حكم جميع الخلق لأن كلهم ضعفاء إلا الأنبياء والأولياء وإما أن ينقل عن قوى بلغ الكمال واسكن أظهر الفرائز والنفار نزول إلى درجة الضعفاء ليقصدوا به في الترك إذ لو اقتدوا به في الأخذ لما سلكوا كما يفر للرجل العزم بين يدي أولاده من الحية لا لضعفه عن أخذها ولكن لعله أنه لو أخذها أخذها أولاده إذا رآها فهل يكون والسير بسير الضعفاء ضرورة الأنبياء والأولياء والعلماء فقد عرفت إذن أن المراتب ست وأعلىها رتبة المستغنى ثم الزاهد ثم الراضى ثم القانع ثم الحريص ، وأما المصطر في تصوره في حقه أيضا الزهد والرضا والقناعة ودرجته تختلف بحسب اختلاف هذه الأحوال واسم الفقير يطلق على هذه الخمسة أما تسمية المستغنى فقيرا فلا وجه لها بهذا المعنى بل إن سمى فقيرا في معنى آخر وهو معرفته بكونه محتاجا إلى الله تعالى في جميع أموره عامة وفي بقاء استغنائه عن المال خاصة فيكون اسم الفقير له كاسم العبد لمن عرف نفسه بالعبودية وأقربها فإنه أحق باسم العبد من العاقلين وإن كان اسم العبد عاما للخلق فكذلك اسم الفقير عام ومن عرف نفسه بالفقر إلى الله تعالى فهو أحق باسم الفقير فاسم الفقير مشترك بين هذين المعنيين وإذا عرفت هذا الاشتراك فهمت أن قول رسول الله صلى الله عليه وسلم «أعوذ بك من الفقر» (٢)

منك . ومن أدبهم في الصعبة لين الجانب وترك ظهور النفس بالصولة . قال أبو علي الروذباري الصولة على من فوقك قعة وعلى من مثلك سوء أدب وعلى من دونك عجز . ومن أدبهم أن لا يجري في كلامهم لو كان كذا لم يكن كذا ولت كان كذا وعسى أن يكون كذا فانهم يرون هذه التدبيرات عليه اعتراضا . ومن أدبهم في الصعبة حذر المفارقة والحرص على المألزمة . قيل مصعب رجل رجلا ثم أراد المفارقة فاستأذن صاحبه فقال بشرط أن لا تصعب أحدا إلا إذا كان فوقنا وإن كان

(١) حديث إن خزائن الأرض سمحت إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وإلى أبي بكر وعمر فأخذوها ووضعوها في مواضعها هذا معروف وقد تقدم في آداب المعيشة من عند البخاري تعليقا مجزوما به من حديث أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم بعث من البحرين وكان أكثر مال أنس به فخرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الصلاة ولم يلتفت إليه فلما قضى الصلاة جاء فجلس إليه فلما كان يرى أحدا إلا أعطاه ووصله عمر بن محمد البحري في صحيحه من هذا الوجه وفي الصحيحين من حديث عمرو بن عوف قدم أبو عبيدة بن مال من البحرين فسمعت الأنصار يقدمونه الحديث ولما من حديث جابر لوجاءنا مال البحرين أعطيتك هكذا ثلاثا فلم يقدم حتى توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم فأمر أبو بكر مناديا فنادى من كان له على رسول الله صلى الله عليه وسلم عدة أودين فليأتنا فقلت إن النبي صلى الله عليه وسلم وعدني ثلاثا (٢) حديث أعوذ بك من الفقر تقدم في الأذكار والدعوات .



وقوله عليه السلام « كاد الفقر أن يكون كفرا »<sup>(١)</sup> لا يناقض قوله « أحيى مسكينا وميتى مسكينا »<sup>(٢)</sup> إذ فقر المضطر هو الذى استعاض منه والفقر الذى هو الاعتراف بالمسكنة والذلة والافتقار إلى الله تعالى هو الذى سأل في دعائه صلى الله عليه وسلم وعلى كل عبد مصطفى من أهل الأرض والسماء .  
( بيان فضيلة الفقر مطلقا )

أما من الآيات فيدل عليه قوله تعالى - للفقر المهاجرين الذين أُخرجوا من ديارهم وأموالهم - الآية وقال تعالى - للفقر الذين أُحصروا في سبيل الله لا يستطيعون ضربا في الأرض - ساقى السلام في معرض المدح ثم قدم وصفهم بالفقر على وصفهم بالهجرة والاحصار وفيه دلالة ظاهرة على مدح الفقر .  
وأما الأخبار : في مدح الفقر فأكثر من أن تحصى روى عبد الله بن عمر رضى الله عنهم قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لأصحابه « أى الناس خير فقالوا مؤسرون المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس يارسل الله قال فقير يعطى جهده »<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم لبلال « الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا »<sup>(٤)</sup> وقال عليه السلام « إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال »<sup>(٥)</sup> وفي الخبر المشهور « يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائها بخمسمائة عام »<sup>(٦)</sup> وفي حديث آخر « بأربعين خريفا »<sup>(٧)</sup> أى أربعين سنة فيكون للراد به تقدير تقدم الفقير الحرص على النفى الحرص والتقدير بخمسمائة عام تقدير تقدم الفقير الزاهد على النفى الراغب وما ذكرناه من اختلاف درجات الفقر يعرفك بالضرورة تفاوتنا بين الفقراء في درجاتهم وكأن الفقير الحرص على درجة من خمس وعشرين درجة من الفقير الزاهد إذ هذه نسبة الأربعين إلى خمسمائة ولا تنظف أن تقدير رسول الله صلى الله عليه وسلم يجرى على لسانه جزافا وبالاتفاق بل لا يستنطق صلى الله عليه وسلم إلا بحقيقة الحق فإنه لا ينطق عن الهوى إن هو إلا وحي يوحى وهذا كقوله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة »<sup>(٨)</sup> فإنه تقدير تحقيق لا محالة ولكن ليس في قوة غيره أن يعرف علة تلك النسبة إلا بتخمين فأما بالتحقيق فلا إذ يعلم أن النبوة عبارة عما يختص به النبي ويفارق به غيره وهو يختص بأنواع من الخواص أحدها أنه يعرف حقائق الأمور المتعلقة بالله وصفاته واللائكة والدار الآخرة لا كما يعلمه غيره

(١) حديث كاد الفقر أن يكون كفرا تقدم في ذم الحسد (٢) حديث اللهم أحيى مسكينا وميتى مسكينا الترمذى من حديث أنس وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه من حديث أبى سعيد وقد تقدم (٣) حديث ابن عمر أنه صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه أى الناس خير فقالوا مؤسرون المال يعطى حق الله من نفسه وماله فقال نعم الرجل هذا وليس به قالوا فمن خير الناس قال فقير يعطى جهده أبو منصور الديلمى في مسند الفردوس بسند ضعيف مقتصر على الرفوع منه دون سؤاله لأصحابه وسؤالهم له (٤) حديث قال لبلال الق الله فقيرا ولا تلقه غنيا والحاكم في كتاب علامات أهل التحقيق من حديث بلال ورواه الطبرانى من حديث أبى سعيد بلفظ مت فقيرا ولا تمت غنيا وكلاما ضعيف (٥) حديث إن الله يحب الفقير المتعفف أبا العيال ابن ماجه من حديث عمران ابن حصين وقد تقدم (٦) حديث يدخل فقراء أمى الجنة قبل أغنيائهم بخمسمائة عام الترمذى من حديث أبى هريرة وقال حسن صحيح وقد تقدم (٧) حديث دخولهم قبلهم بأربعين خريفا مسلم من حديث عبد الله بن عمرو إلا أنه قال فقراء المهاجرين والترمذى من حديث جابر وأنس (٨) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءا من النبوة البخارى من حديث أبى سعيد ورواه هو ومسلم من حديث أبى هريرة وعبادة بن الصامت وأنس بلفظ رؤيا المؤمن جزء الحديث وقد تقدم .

فوقنا أيضا فلا تصعبه  
لأنك صحبتنا أولا فقال  
الرجل زال عن قلبي  
نية المفارقة . ومن  
أدبهم التمتع على  
الأصغر . قيل :  
كان إبراهيم بن  
أدم يعمل في الحصاد  
ويطعم الأصحاب وكانوا  
يجمعون بالليل وهم  
صيام وربما كان يتأخر  
في بعض الأيام في العمل  
فقالوا ليله تعالوا نأكل  
فطورنا دونه حتى يعود  
بعد هذا يسرع  
فأفطروا وناموا فرجع  
إبراهيم فوجدهم نياما  
فقال مساكين لعلمهم  
لم يكن لهم طعام فعمد  
إلى شيء من الدقيق  
فعمجه فانتبهوا وهو  
ينفع في النار واضعا

بل مخالفًا له بكثرة المعلومات وزيادة اليقين والتحقيق والكشف والثاني أن له في نفسه صفة بها  
تم له الأفعال الخارقة للمعادات كما أن لنا صفة بهاتم الحركات القرونة بإرادتنا وباختيارنا وهي القدرة  
وإن كانت القدرة وللقدر جميعا من فعل الله تعالى. والثالث أن له صفة بهايصر للالتصكة ويشاهد كإن  
للبصير صفة بها يغارق الأعمى حتى يدرك بها البصيرات. والرابع أن له صفة بهايذكر ما سيكون في الغيب  
إما في البقطة أو في المنام إذ بها يطالع اللوح المحفوظ فيرى ما فيه من الغيب فهذه كالات وصفات يعلم  
ثبوتها للأنبياء ويعلم انقسام كل واحد منها إلى أقسام وربما يمكننا أن نقسمها إلى أربعين وإلى  
خمسين وإلى ستين ويمكننا أيضا أن تكلف تقسيمها إلى ستة وأربعين بحيث تقع الرؤيا الصحيحة  
جزءا واحدا من جهلتها ولكن تعيين طريق واحد من طرق التقسيمات الممكنة لا يمكن إلا بظن  
وتخمين فلا ندرى تحقيقا أنه الذي أراده رسول الله صلى الله عليه وسلم أم لا وإنما المعلوم مجامع الصفات  
التي بها تتم النبوة وأصل انقسامها وذلك لإبرشدها إلى معرفة علة التقدير فكذلك نعلم أن الفقراء  
لهم درجات كما سبق فأما لم كان هذا الفقير الحريص مثلا على نصف سدس درجة الفقير الزاهد  
حتى لم يبق له التقدم بأكثر من أربعين سنة إلى الجنة واقتضى ذلك التقدم بخمسمائة عام فليس  
في قوة البشر غير الأنبياء الوقوف على ذلك إلا بنوع من التخمين ولا وثوق به والنرض التنبيه على  
منهاج التقدير في أمثال هذه الأمور فإن الضيف الايمان قد يظن أن ذلك يجري من رسول الله  
صلى الله عليه وسلم على سبيل الاتفاق وحاشا منصب النبوة عن ذلك . ولترجع إلى نقل الأخبار فقد  
قال صلى الله عليه وسلم أيضا « خير هذه الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها » (١) وقال  
صلى الله عليه وسلم « إن لي حرقين اثنتين فمن أحبهما قد أحبنى ومن أبضهما قد أبضنى الفقر  
والجهاد » (٢) وروى أن جبريل عليه السلام نزل على رسول الله ﷺ فقال يا محمد إن الله عز وجل يقرأ  
عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً (٣) وتكون مكنك أينما كنت فأشرق رسول  
الله صلى الله عليه وسلم ساعة ثم قال يا جبريل إن الدنيا دار من لا دار له وماله من لا مال له ولها جميع من  
لا عدل له فقال له جبريل يا محمد ثبتك الله بالقول الثابت . وروى أن المسيح صلى الله عليه وسلم مرقى  
سياحته رجل نائم ملتف في عباءة فأيقظه وقال يا نائم قم فاذكر الله تعالى فقال ما تريد مني ؟ إني  
قد تركت الدنيا لأهلها فقال له قم إذن يا حبيبي وموسى صلى الله عليه وسلم رجل نائم على التراب  
وتحت رأسه لبنة ووجهه ولحيته في التراب وهو متر بعباءة فقال يارب عبدك هذا في الدنيا ضائع  
فأوحى الله تعالى إليه يا موسى أما علمت آتى إذا نظرت إلى عبد بوجهي كله زويت عنه الدنيا  
كلها وعن أبي رافع أنه قال ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه  
فأرسل إلى رجل من يهودى خير وقال قل له يقول لك محمد أسلفنى أو بنى دقيقا إلى حلال رجب  
قال فأنتيه فقال لا والله إلا برهن فأخبرت رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك فقال أما والله  
إني لأؤمن في أهل السماء أمين في أهل الأرض ولو باعنى أو أسلفنى لأدبت إليه اذهب بدمعى

عاشته على التراب فقالوا  
له في ذلك قال قالت  
لعلكم لم تجدوا فطورا  
فتمنم فقالوا انظروا  
بأى شيء عاملناه  
وبأى شيء ياملنا .  
ومن أدبهم أن لا يقولوا  
عند الدعاء إلى أين ولم  
وبأى سبب قال بعض  
العلماء إذا قال الرجل  
لصاحب قم بنا فقال  
إلى أين فلا تصعبه .  
وقال آخر من قال  
لأخيه أعطنى من  
مالك فقال كم تريد  
ما قام بحق الإخاء وقد  
قال الشاعر :  
لا يسألون أخام حين  
يندبهم  
لنائبات على ما قال برهانا  
ومن أدبهم أن  
لا يتكلفوا للاخوان

(١) حديث خير الأمة قراؤها وأسرعها تضجعا في الجنة ضعفاؤها لم أجده له أصلا (٢) حديث  
إن لي حرقين اثنتين الحديث وفيه الفقر والجهاد لم أجده له أصلا (٣) حديث أن جبريل نزل فقال  
إن الله يقرأ عليك السلام ويقول أحب أن أجعل هذه الجبال ذهباً الحديث وفيه إن الدنيا دار  
من لا دار له الحديث هذا ملفق من حديثين فروى الترمذى من حديث أبي أمامة عرض على ربه  
ليجلى لي بطعام مكة ذهباً قلت لا يارب ولكن أشبع يوما وأجوع يوما الحديث وقال حسن  
ولأحمد من حديث عائشة الدنيا دار من لا دار له الحديث وقد تقدم في ذم الدنيا .

هذا إليه فارغه فلما خرجت نزلت هذه الآية - ولا تمدن عينيك إلى مامتنعا به أزواجا منهم زهرة الحياة الدنيا (١) - الآية وهذه الآية تعزية لرسول الله صلى الله عليه وسلم عن الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «الفقر أزين للمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس (٢)» وقال عليه السلام «من أصبح منكم معافى في جسده آمنا في سربه عنده قوت يومه فكأنما حيزت له الدنيا بحذافيرها (٣)» وقال كعب الأحبار «قال الله تعالى لموسى عليه السلام يا موسى إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشمار الصالحين». وقال عطاء الخراساني مرئي من الأنبياء بساحل فاذا هو برجل يصطاد حيتانا فقال بسم الله وألقى الشبكة فلم يخرج فيها شيء ثم مر بأخر فقال باسم الشيطان وألقى شبكته فخرج فيها من الحيتان ما كان يتقاعس من كثرتها فقال النبي صلى الله عليه وسلم : يارب ما هذا وقد علمت أن كل ذلك بيدك فقال الله تعالى للدلائكة اكشفوا لعبدي عن منزلتيهما فلما رأى ما أعد الله تعالى لهذا من السكرامة ولذاك من الهوان قال رضيت يارب وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «اطلمت في الجنة فرأيت أكثر أهلها الفقراء واطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها الأغنياء والنساء» وفي لفظ آخر «قللت أين الأغنياء قليل جسمهم الجده» وفي حديث آخر «فرأيت أكثر أهل النار النساء قللت ما شأنهن قليل شغلن الأحرار الذهب والزعفران (٤)» وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن في الدنيا الفقر (٥)» وفي الخبر «آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان بن داود عليهما السلام لمكان ملكه وآخر أصحابي دخولا الجنة عبد الرحمن بن عوف لأجل غناه (٦)» وفي حديث آخر «رأيت دخل الجنة زحفا (٧)» وقال المسيح صلى الله عليه وسلم بشدة يدخل الجنة وفي خبر آخر عن أهل البيت رضي الله عنهم أنه صلى الله عليه وسلم قال «إذا أحب الله عبدا ابتلاه فاذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه قال لم يترك له أهلا ولا مالا (٨)» وفي الخبر «إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشمار الصالحين وإذا رأيت الفنى مقبلا فقل ذنب عجبت عقوبته (٩)» وقال موسى عليه السلام يارب من أحباؤك من خلقك حتى أحبه لأجلك فقال: كل فقير فقير فيمكن أن يكون الثاني للتوكيد ويمكن أن يراد به الشديدا الضر وقال المسيح صلوات الله

(١) حديث أبي رافع ورد على رسول الله صلى الله عليه وسلم ضيف فلم يجد عنده ما يصلحه فأرسلني إلى رجل من يهود خيبر الحديث في نزول قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى مامتنعا به أزواجا منهم- الطبراني بسند ضعيف (٢) حديث الفقر أزين للمؤمن من العذار الحسن على خد الفرس الطبراني من حديث عداد بن أوس بسند ضعيف والمعروف أنه من كلام عبد الرحمن بن زياد بن أنعم رواه ابن عدي في الكامل هكذا (٣) حديث من أصبح منكم معافى في جسده الحديث الترمذي وقد تقدم (٤) حديث اطلمت في النار فرأيت أكثر أهلها النساء الحديث تقدم في آداب النكاح مع الزبابة التي في آخره (٥) حديث تحفة المؤمن في الدنيا الفقر رواه محمد بن خفيف الشيرازي في شرف الفقر وأبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ بن جبل بسند لا بأس به رواه أبو منصور أيضا فيه من حديث ابن عمر بسند ضعيف جدا (٦) حديث آخر الأنبياء دخولا الجنة سليمان الحديث تقدم وهو في الأوسط للطبراني بإسناد فرد وفيه نكارة (٧) حديث رأيت بني عبد الرحمن بن عوف دخل الجنة زحفا تقدم وهو ضعيف (٨) حديث إذا أحب الله عبدا ابتلاه الحديث الطبراني من حديث أبي عتبة الخولاني (٩) حديث إذا رأيت الفقر مقبلا فقل مرحبا بشمار الصالحين وإذا رأيت الفنى مقبلا فقل ذنب عجبت عقوبته أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية مكحول عن أبي الدرداء ولم يسمع منه قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام يا موسى فذكره بزيادة في أوله ورواه أبو نعيم في الحلية من قول كعب

قيل لما ورد أبو حنيفة  
العراق تكلف له  
الجنيب أنوعا من  
الأطعمة فأنكر ذلك  
أبو حنيفة وقال صير  
أصحابي مثل الخائفين  
يقدم لهم الألوان  
والفتوة عندنا ترك  
التكلف وإحضار  
ما حضر فإن بالتكلف  
ربما يؤثر مفارقة  
الضيف وبترك  
التكلف يستوى  
مقامه وذهابه ومن  
أدبهم في الصحة  
المدارة وترك المداهنة  
وتشبه المدارة  
بالمداهنة والفرق بينهما  
أن المدارة ما أردت  
به صلاح أخيك  
فدأرت لرجاء صلاحه  
واحتملت منه ما تكره

عليه وسلامه إني لأحب السكينة وأبغض النعماء وكان أحب الأسماء إليه صلوات الله عليه أن يقال له يامسكين ولما قالت سادات العرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما يجيئون إليك ولا نجيء ونجيء إليك ولا يجيئون ينعون بذلك الفقراء مثل بلال وسلمان وصهيب وأبي ذر وخباب بن الأرت وعمار بن ياسر وأبي هريرة وأصحاب الصفة من الفقراء رضي الله عنهم أجمعين أجابهم النبي صلى الله عليه وسلم إلى ذلك وذلك لأنهم شكوا إليه التأذي برأعهم وكان لباس القوم الصوف في شدة الحر فاذا عرقوا فاحت الروائح من ثيابهم فاشتد ذلك على الأغنياء منهم الأقرع بن حابس النخعي وعيينة بن حصن الفزاري وعباس بن مرداس السلمي وغيرهم فأجابهم رسول الله صلى الله عليه وسلم أن لا يجمعهم وإياهم مجلس واحد فترك عليه قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي يريدون وجهه ولا تعد عيناك عنهم - يعني الفقراء - تريد زينة الحياة الدنيا - يعني الأغنياء - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا - يعني الأغنياء - وقل الحق من ربكم لمن شاء فليؤمن ومن شاء فليكفر (١) - الآية . واستأذن ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش فشق ذلك على النبي صلى الله عليه وسلم فأنزل الله تعالى - عبس وتولى أن جاءه الأعمى وما يدريك لعله يزكى أو يذكر فتنته الذكرى - يعني ابن أم مكتوم - أما من استغنى فانت له تصدى (٢) - يعني هذا الشريف . وعن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله تعالى إليه كما يعتذر الرجل للرجل في الدنيا فيقول : وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوائك على ولكن لما أعددت لك من الكرامة والفضيلة أخرج يا عبدي إلى هذه الصفوف فمن أطعمك في أو كساك في يريد بذلك وجهي فخذ يده فهو لك والناس يومئذ قد ألجمهم العرق فيتخلل الصفوف وينظر من فعل ذلك به فيأخذ يده ويدخله الجنة (٣) » وقال عليه السلام « أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندكم الأيادي فان لهم دولة قالوا يا رسول الله وما دولتهم قال إذا كان يوم القيامة قيل لهم انظروا من أطعمكم كسرة أو سقاكم شربة أو كساكم ثوبا فخذوا يده ثم امضوا به إلى الجنة (٤) »

الأخبار غير مرفوع بإسناد ضعيف (١) حديث قال سادات البرب وأغنياؤهم للنبي صلى الله عليه وسلم اجعل لنا يوما ولهم يوما الحديث في نزول قوله تعالى - واصبر نفسك مع الذين يدعون ربهم - الآية تقدم من حديث خباب وليس فيه أنه كان لباسهم الصوف ويفوح ريحهم إذا عرقوا وهذه الزيادة من حديث سلمان (٢) حديث استئذان ابن أم مكتوم على النبي صلى الله عليه وسلم وعند رجل من أشرف قريش ونزول - قوله تعالى - عبس وتولى - الترمذي من حديث عائشة وقال غريب قلت ورجاله رجال الصحيح (٣) حديث يؤتى بالبعد يوم القيامة فيعتذر الله إليه كما يعتذر الرجل إلى الرجل في الدنيا فيقول وعزتي وجلالي ما زويت الدنيا عنك لهوائك على الحديث أبو الشيخ في كتاب الثواب من حديث أنس بإسناد ضعيف يقول الله عز وجل يوم القيامة أذنوا من أحبائي فتقول الملائكة ومن أحباؤك فيقول فقراء المسلمين فيدونون منه فيقول أما إني لم أزو الدنيا عنكم لهوان كان بكم على ولكن أردت بذلك أن أضف لكم كرامتي اليوم فتمنوا على ما شتم اليوم الحديث دون آخر الحديث وأما أول الحديث فرواه أبو نعيم في الحلية وسأني في الحديث الذي بعده (٤) حديث أكثروا معرفة الفقراء واتخذوا عندكم الأيادي فان لهم دولة الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث الحسين بن علي بسند ضعيف اتخذوا عند الفقراء أيادي فان لهم دولة يوم القيامة فاذا كان يوم القيامة نادى مناد سيروا إلى الفقراء فيعتلروا إليهم كما يعتلر أحدكم إلى

والدهانة ما قصت به شيئا من الهوى من طلب حظ أو إقامة جاء . ومن أدبهم في الصحبة رعاية الاعتدال بين الانقباض والانبساط ، قل عن الشافعي رحمه الله أنه قال : الانقباض عن الناس مكسبة لعداوتهم والانبساط إليهم مجلبة لقرناء السوء فكان بين المنقبض والمنبسط . ومن أدبهم ستر عورات الاخوان قال عيسى عليه السلام لأصحابه : كيف تصنعون إذا رأيتم أخاكم ناعما فكشف الريح عنه ثوبه قالوا نستره ونعطيه فقال بل تكشفون عورته

وقال صلى الله عليه وسلم «دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت في أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم ونظرت في أسفلها فإذا فيه من الأغنياء والنساء قليل قلت يا رب ما شأنهم قال أما النساء فأضرتهن الأحرار الذهب والحرير وأما الأغنياء فاشتغلوا بطول الحساب وتفقدت أحمالي فلم أر عبد الرحمن بن عوف ثم جاءني بعد ذلك وهو يبكي قلت ما خلفك عنى قال يا رسول الله والله ما وصلت إليك حتى لتبت للشيات وظننت أني لأأراك ، قلت ولم ؟ قال كنت أحاسب بمالي <sup>(١)</sup> فانظر إلى هذا وعبد الرحمن صاحب السابقة العظيمة مع رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو من العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة <sup>(٢)</sup> وهو من الأغنياء الذين قال فيهم رسول الله صلى الله عليه وسلم «إلا من قال بالمال هكذا وهكذا <sup>(٣)</sup> ومع هذا فقد استضرته» بالنفى إلى هذا الحد» ودخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على رجل فقير فلم ير له شيئا فقال : لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم <sup>(٤)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «الأنبياء هم خيركم» وأخبركم عنك أهل الجنة قالوا بلى يا رسول الله قال كل ضعيف مستضعف أغبر أشعث ذى طمرين لا يؤبه له لو أنتم على الله لأبره <sup>(٥)</sup> وقال عمران ابن حصين «كانت لى من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاءها فهل لك في عيادة فاطمة بنت رسول الله ﷺ قلت نعم بأبي أنت وأمي يا رسول الله فقام وقت معه حتى وقف بياب فاطمة فقرع الباب وقال السلام عليكم أأدخل فقالت ادخل يا رسول الله قال أنا ومن معي قالت ومن معك يا رسول الله قال عمران فقالت فاطمة والذي بشك بالحق نيا ما لى إلا عبادة قال اصنعى بها هكذا وهكذا وأشار بيده فقالت هذا جسدى قد واريته فكيف برأسى قالتى إليها ملاء كانت عليه خلقة فقال شدى بها على رأسك ثم أذنت له فدخل فقال السلام عليكم يا ابتناء كيف أصبحت قالت أصبحت والله وجعة وزادنى وجعا على ما بى أنى لست أقدر على طعام آكله فقد أضربنى الجوع فبكى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال لا تجزعى يا ابتناء فوالله ما ذقت طعاما منذ ثلاث وإنى لأكرم على الله منك ولوسألت ربى لأطعمنى ولكنى آثرت الآخرة على الدنيا ثم ضرب يده على منكبها وقال لها أبشرى فوالله إنك لسيدة نساء أهل الجنة قالت فأين آسية امرأة فرعون ومريم بنت عمران قال آسية سيدة نساء عالمها ومريم سيدة نساء عالمها وأنت سيدة نساء عالمك إنسكن في بيوت من قصب لا أذى فيها ولا صخب ولا نصب ثم قال لها اقمى بآبن عمك

إلى أخيه في الدنيا [١] (١) حديث دخلت الجنة فسمعت حركة أمامي فنظرت فإذا بلال ونظرت إلى أعلاها فإذا قراء أمي وأولادهم الحديث الطبرانى من حديث أبى أمامة بسند ضعيف نحوه وقصة بلال في الصحيح من طريق آخر (٢) حديث إن عبد الرحمن بن عوف أحد العشرة المحبوبين بأنهم من أهل الجنة أصحاب السنن الأربعة من حديث سعيد بن زيد قال الترمذى حسن صحيح (٣) حديث إلا من قال بالمال هكذا وهكذا متفق عليه من حديث أبى ذر فى أثناء حديث تقدم . (٤) حديث دخل على رجل فقير ولم ير له شيئا فقال لو قسم نور هذا على أهل الأرض لوسعهم لم أجده (٥) حديث الأنبياء هم خيركم عن مالك بن أنس الحديث متفق عليه من حديث حارثة بن وهب مختصرا ولم يقولوا مالوك وقد تقدم ولا بن ماجه بسند جيد من حديث معاذ الأنخبركم عن مالوك الجنة الحديث دون قوله أغبر أشعث .

[١] قال البرهان الحلبي رأيت عن ابن تيمية أبى العباس بخط بعض الفضلاء حديث أنخذوا مع الفقراء أيادى وكذا حديث الفقر فخرى قال كلاهما كذب انتهى وكذا رأيت فى كلام له آخر .

قالوا سبحان الله من يفعل هذا قال أحكم يسمع فى أخيه بالسكينة فيزيد عليها ويشيعها بأعظم منها ومن أدبهم الاستغفار للاخوان بظهور الغيب والاهتمام لهم مع الله تعالى فى دفع الكاره عنهم . حكى أن أخوين ابتلى أحدهما بهوى فأظهر عليه أخاه فقال إنى ابتليت بهوى فان شئت أن لا تعقد على محقق لله فافعل فقال ما كنت لأحل عقد إياك لأجل خطيئتك وعقد بينه وبين الله عقدا أن لا يأكل ولا يشرب حتى يمافيه الله تعالى من هواه وطوى أربعين يوما كذا يسأله

فوالله لقد زوجتك سيدا في الدنيا سيدا في الآخرة (١)» وروى عن علي كرم الله وجهه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا وتكالبوا على نعيم الدرهم رماهم الله بأربع خصال بالقحط من الزمان والجور من السلطان والخيانة من ولاية الأحكام والشوكة من الأعداء (٢)». وأما الآثار فقد قال أبو العرداء رضى الله عنه: ذوالدرهمين أشد حسبا أو قال أشد حسبا من ذى الدرهم، وأرسل عمر رضى الله عنه إلى سعيد بن عامر بألف دينار فجاء حزينا كئيبا فقالت امرأته أحدث أمر قال أشد من ذلك ثم قال أرى درعك الخلق فشقه وجهه صريرا وفرقه ثم قام يصلى ويسكى إلى الصلاة ثم قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «يدخل فقراء أمي الجنة قبل الأغنياء بمسائة عام حتى إن الرجل من الأغنياء يدخل في غمارهم فيؤخذ بيده فيستخرج (٣)» وقال أبو هريرة: ثلاثة يدخلون الجنة بغير حساب رجل يريد أن يسل ثوبه فلم يكن له خلق يلبسه ورجل لم ينصب على مستوقد قدرين ورجل دعا بشرا به فلا يقال له أيها تريد وقيل جاء فقير إلى مجلس الثوري رحمه الله فقال له تخط لو كنت غنيا لما قربتك، وكان الأغنياء من أصحابه يؤذون أنهم فقراء لكثرة تفرقه لافقراء وإعراضه عن الأغنياء. وقال المؤمل ما رأيت الغنى أذل منه في مجلس الثوري ولا رأيت الفقير أعز منه في مجلس الثوري رحمه الله. وقال بعض الحكماء: سكن ابن آدم لو خاف من النار كما يخاف من الفقر لنجا منها جميعا ولورغب في الجنة كما يرغب في الغنى لفاز بها جميعا ولو خاف الله في الباطن كما يخاف خلقه في الظاهر لسمعت الدارين جميعا وقال ابن عباس: ملعون من أكرم بالغنى وأهان بالفقر. وقال أتمان عليه السلام لابنه: لا تحقرن أحدا خلقنا نيا به فان ربك ورب واحد وقال يحيى بن معاذ: حبك الفقراء من أخلاق الرسلين وإيثارك مجالستهم من علامة الصالحين وفرارك من صحبتهم من علامة المنافقين، وفي الأخبار عن الكتب السالفة أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه عليهم السلام: احذر أن أمقتك فتسقط من عيني فأصب الدنيا عليك صبا، ولقد كانت عائشة رضى الله عنها تفرق مائة ألف درهم في يوم واحد بوجهها إليها معاوية وابن عامر وغيرهما وإن درعها لمرقوع وتقول لها الجارية لو اشتريت لك بدرهم لحا تظطرين عليه وكانت صائفة فقالت لو ذكرتني لعملت، وكان قد أوصاها رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال «إن أردت اللحق بى فليكن بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعى درعك حتى ترقعه (٤)» وجاء رجل إلى إبراهيم بن آدم بشرة آلاف درهم فأبى عليه أن يقبها فألح عليه الرجل فقال له إبراهيم أتريد أن أمحو اسمي من ديوان الفقراء بشرة آلاف درهم؟ لأفضل ذلك أبدا رضى الله عنه.

عن هواه يقول مازال  
فبعد الأربعين أخبره  
أن الهوى قد زال  
فأكل وشرب. ومن  
أدبهم أن لا يحوجوا  
صاحبهم إلى الداراة  
ولا يلجئوه إلى الاعتذار  
ولا يتكلموا للصاحب  
ما يشق عليه بل  
يكونوا للصاحب من  
حيث هو مؤثرين مراد  
الصاحب على مراد  
أنفسهم قال علي بن أبي  
طالب كرم الله وجهه  
شر الأصدقاء من  
حوجك إلى مداراة  
أو الجأك إلى اعتذار  
وتكلفت له. وقال  
جعفر الصادق أنقل  
إخواني على من  
يتكلف لي وأنحفظ  
منه وأخفهم على قلبي

(١) حديث عمران بن حصين كانت لي من رسول الله صلى الله عليه وسلم منزلة وجاء فقال يا عمران إن لك عندنا منزلة وجاها فهل لك في قيادة فاطمة الحديث تقدم (٢) حديث إذا أبغض الناس فقراءهم وأظهروا عمارة الدنيا الحديث أبو منصور الديلمي بإسناد فيه جملة وهو منكر (٣) حديث سعيد بن عامر يدخل فقراء المسلمين الجنة قبل الأغنياء بمسائة عام الحديث وفي أوله قصة أن عمر بعث إلى سعيد بألف دينار فجاء حزينا وفرقا، وقد روى أحمد في الزهد القصة إلا أنه قال تسعين عاما وفي إسناده يزيد بن أبي زياد تكلم فيه وفي رواية له بأربعين سنة وأما دخولهم قبلهم بمسائة عام فهو عند الترمذي من حديث أبي هريرة وصححه وقد تقدم قبل هذا بورتين .  
(٤) حديث قال لمائشة إن أردت اللحق بى فليكن بعيش الفقراء وإياك ومجالسة الأغنياء الحديث الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه نحوه من حديثها وقد تقدم .

بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراضين والقاننين والصادقين

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن هدى إلى الاسلام وكان عيشه كفافا وقنع به (١) »  
وقال صلى الله عليه وسلم « يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تطفروا بنواب فقركم وإلا فلا (٢) »  
فالأول القانع وهذا الراضى وبكاد يشعر هذا بفهمه أن الحريص لأثواب له على فقره ولكن العمومات  
الورادة في فضل الفقر تدل على أن له ثوابا كما سيأتى تحقيقه فلعل للراى بدم الرضا والكره لعل  
الله في حبس الدنيا عنه ورب راغب في المال لا يخطر بقلبه إنكار على الله تعالى ولا كراهة في فعله  
فذلك الكراهة هي التي تعبط ثواب الفقر ، وروى عن عمر بن الخطاب رضى الله عنه عن النبي صلى  
الله عليه وسلم أنه قال « إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين والفقراء لصبرهم جللاء  
الله تعالى يوم القيامة (٣) » وروى عن علي كرم الله وجهه عن النبي ﷺ أنه قال « أحب العباد إلى الله تعالى  
الفقير القانع برزقه الراضى عن الله تعالى (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد  
كفافا (٥) » وقال « ما من أحد غنى ولا فقير إلا ودَّ يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا (٦) » وأوحى الله  
تعالى إلى إسماعيل عليه السلام اطلبني عند المنكسرة قلوبهم قال ومن هم قال الفقراء الصادقون وقال  
صلى الله عليه وسلم « لا أحد أفضل من الفقير إذا كان راضيا (٧) » وقال ﷺ « يقول الله تعالى يوم القيامة  
أين صفوتي من خلقي فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين القاننون بعماني الراضون  
بقدرى أدخلهم الجنة فيدخلونها ويأكلون ويشربون والناس في الحساب يترددون (٨) » فهذا في  
القانع والراضى . وأما الزاهد فسنذكر فضله في الشطر الثاني من الكتاب إن شاء الله تعالى . وأما الآثار  
في الرضا والقناعة فكثيرة ولا يخفى أن القناعة يضادها الطمع ، وقد قال عمر رضى الله تعالى عنه إن  
الطمع قهر والياس غنى وإنه من يشى عمافى أيدي الناس وقنع استغنى عنهم . وقال أبو مسعود رضى الله  
تعالى عنه ما من يوم إلا وملك ينادى من تحت العرش يا ابن آدم قليل يكفيك خير من كثير يطغيك وقال  
أبو البرداء رضى الله تعالى عنه ما من أحد إلا وفي عقله نقص وذلك أنه إذا آتته الدنيا بالزيادة ظل فرحا  
مسرورا والليل والتهاور بالان في هدم عمره ثم لا يحزنه ذلك ويع ابن آدم ما ينفع مال يزيد وعمر ينقص وقيل  
لبعض الحكماء ما انتهى قال قللة تمنك ورضاك بما يكفيك وقيل كان إبراهيم بن آدم من أهل النعم غراسان  
فبينما هو يشرف من قصره ذات يوم إذ نظر إلى رجل في فناء القصر وفي يده رغيف يأكله فلما أكل  
نام فقال لبعض غلمانه إذا قام فخطي به فلما قام جاء به إليه فقال إبراهيم أيها الرجل أكلت الرغيف وأنت جائع

(١) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان عيشه كفافا وقنع به رواه مسلم وقد تقدم (٢) حديث  
يامعشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث  
أبي هريرة وهو ضعيف جدا فيه أحمد بن الحسن بن أبان المصري متهم بالكذب ووضع الحديث  
(٣) حديث إن لكل شئ مفتاحا ومفتاح الجنة حب المساكين الحديث الدار قطنى في غرائب مالک  
وأبو بكر بن لال في مقام الأخلاق وابن عدى في الكامل وابن حبان في الضعفاء من حديث ابن عمر .  
(٤) حديث أحب العباد إلى الله الفقير القانع برزقه الراضى من الله لم أجده بهذا اللفظ وتقدم عند  
ابن ماجه حديث إن الله يحب الفقير المتعفف (٥) حديث اللهم اجعل رزق آل محمد كفافا مسلم من  
حديث أبي هريرة وهو متفق عليه بلفظ قوتا وقد تقدم (٦) حديث ما من أحد غنى ولا فقير إلا ودَّ  
يوم القيامة أنه كان أوتي قوتا في الدنيا ابن ماجه من حديث أنس وقد تقدم (٧) حديث لا أحد أفضل  
من الفقير إذا كان راضيا لم أجده بهذا اللفظ (٨) حديث يقول الله يوم القيامة أين صفوتي من خلقي ؟  
فتقول الملائكة ومن هم يا ربنا فيقول فقراء المسلمين الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

من أكون معه كما  
أكون وحدي فأدب  
الصحة وحقوق  
الأخوة كثيرة  
والحكايات في ذلك  
يطول نقلها وقد رأيت  
في كتاب الشيخ أبي  
طالب المكي رحمه الله  
من الحكايات في هذا  
المنى شيئا كثيرا قد  
أودع كتابه كل شئ  
حسن من ذلك وحاصل  
الجميع أن العبد ينبغي له  
أن يكون لمولاه وريد  
كل ما يريد لمولاه  
لأنفسه وإذا صاحب  
شخصا تكون محبته  
إياه لله تعالى وإذا صحبه  
الله تعالى يجتهد في كل  
شئ يزيد عند الله  
زلفى وكل من قام  
بحقوق الله تعالى برزقه

قال نعم قال فثبت قال نعم قال ثم ثبت طيبا قال نعم فقال إبراهيم في نفسه فما أصنع أنا بالدين والنفس تنفع بهذا القدر ومرة رجل بعامر بن عبد القيس وهو يأكل ملحا وبقلا فقال له يا عبد الله أَرْضَيْتَ مِنَ الدِّينَارِ مَا أَقَالَ أَلَا أَدُلُّكَ عَلَى مَنْ رَضِيَ بَشَرًا مِنْ هَذَا قَالَ بَلَى قَالَ مَنْ رَضِيَ بِالْدِّينَارِ عَوَضًا عَنِ الْآخِرَةِ وَكَانَ مُحَمَّدُ بْنُ وَاسِعٍ رَحِمَهُ اللَّهُ عَلَيْهِ يَخْرُجُ خَبْرًا يَأْسَا فَيْلَهُ بِالْمَاءِ وَيَأْكُلُهُ بِالْمَلْحِ وَيَقُولُ مَنْ رَضِيَ مِنَ الدِّينَارِ بِهَذَا لَمْ يَحْتَاجْ إِلَى أَحَدٍ . وَقَالَ الْحَسَنُ رَحِمَهُ اللَّهُ لَمَنْ اللَّهُ أَقْوَامًا أَقْسَمَ لَهُمُ اللَّهُ تَعَالَى ثُمَّ لَمْ يَصْدُقْهُمْ ثُمَّ قَرَأَ - وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تَوْعَدُونَ فَوَرَبِّ السَّمَاءِ وَالْأَرْضِ إِنَّهُ لَخَلْقٌ - الْآيَةُ . وَكَانَ أَبُو ذَرٍّ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ يَوْمًا جَالِسًا فِي النَّاسِ فَأَتَتْهُ امْرَأَتُهُ فَقَالَتْ لَهُ أَتَجْلِسُ بَيْنَ هَؤُلَاءِ وَاللَّهُ مَا فِي الْبَيْتِ هُمَةٌ وَلَا سَهْنَةٌ قَالَ يَا هَذِهِ إِنْ بَيْنَ أَيْدِيْنَا عَقِبَةٌ كَثُودًا لَا يَنْجُو مِنْهَا إِلَّا كُلُّ غَنَفَةٍ فَرَجَمَتْ وَهِيَ رَاضِيَةٌ وَقَالَ ذُو النُّونِ رَحِمَهُ اللَّهُ أَقْرَبَ النَّاسُ إِلَى الْكُفْرِ ذُو فَاقَةٍ لَا صَبْرَ لَهُ وَقِيلَ لِبَعْضِ الْحُكَمَاءِ مَا مَالُكَ فَقَالَ التَّجَمُّلُ فِي الظَّاهِرِ وَالتَّصَدُّقُ فِي الْبَاطِنِ وَالْيَأْسُ بِمَا فِي أَيْدِي النَّاسِ وَرَوَى أَنَّ اللَّهَ عَزَّ وَجَلَّ قَالَ فِي بَعْضِ السُّكُتِ السَّالِفَةِ الْمَزَلَةَ يَا ابْنَ آدَمَ لَوْ كَانَتِ الدُّنْيَا كُلُّهَا لَكَ لَمْ يَكُنْ لَكَ مِنْهَا إِلَّا الْقَوْتُ فَإِذَا أَنَا أُعْطَيْتُكَ مِنْهَا الْقَوْتُ وَجَعَلْتُ حَسَابَهَا عَلَى غَيْرِكَ فَأَمَّا حَسَنُ إِلَيْكَ وَقَدْ قِيلَ فِي الْقَنَاعَةِ:

اضرع الى الله لا تضرع الى الناس      واقع يأس فان العز في اليأس  
واستن عن كل ذي قربى وذى رحم      إن النفي من استغنى عن الناس

وقد قيل في هذا المعنى أيضا :

يا جامعا مانعا والدمع يرمقه	بقدرا أئى باب منه يخلقه
مفكرا كيف تأتيه منيته	أغاديا أم بها يسرى فطره
جمعت ما لا يقلل هل جمعت له	يا جامع المال أيا ما تخرقه
للال عندك غمزون لو أرتبه	ما لللال مالك إلا يوم تنفقه
أرفه يال فتى يذو على ثقة	أن الذى قسم الأرزاق يرزقه
فالعرض منه مصون ما يدنس	والوجه منه جديد ليس يخلقه
إن القناعة من يخلل بساحتها	لم يبق في ظلها هم يورقه

#### بيان فضيلة الفقر على النفي

اعلم أن الناس قد اختلفوا في هذا فذهب الجليل والحواص والأكثرون إلى تفضيل الفقر . وقال ابن عطاء النفي الشاكر القاسم يحقه أفضل من الفقير الصابر ويقال إن الجليل دعا على ابن عطاء لمخالفته إياه في هذا فأصابته عنة وقد ذكرنا ذلك في كتاب الصبر وبيننا أوجه التفاوت بين الصبر والشكر ومهدنا سبيل طلب الفضيلة في الأعمال والأحوال وأن ذلك لا يمكن إلا بتفصيل ، فأما الفقر والنفي إذا أخذنا مطلقا لم يسترب من قرأ الأخبار والآثار في تفضيل الفقر ولا بد فيه من تفصيل فنقول : إنما يتصور الشك في مقامين : أحدهما فقير صابر ليس بحريص على الطلب بل هو قانع أراض بالاضافة الى غنى منفق ماله في الحيرات ليس حريصا على إمساك المال والثاني فقير حريص مع غنى حريص إذ لا يخفى أن الفقير القانع أفضل من النفي الحريص المسك وأن النفي المنفق ماله في الحيرات أفضل من الفقير الحريص أما الأول فربما يظن أن النفي أفضل من الفقير لأنهما تساويا في نصف الحرص على المال والنفي متقرب بالصدقات والحيرات والفقير عاجز عنه وهذا هو الذى ظنه ابن عطاء فيما نحسبه ، فأما النفي المتمتع بالمال وإن كان في مباح فلا يتصور أن يفضل على الفقير القانع وقد يشهد له ما روى في الخبر « أن الفقراء شكوا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالحيرات والصدقات والحج والجهاد فلعنهم كلمات في التوبيخ وذكر لهم أنهم يالون بها فوق ما ناله الأغنياء فعلم الأغنياء ذلك

الله تعالى علما بمعرفة النفس وعيوبها ويصرفه محاسن الأخلاق ومحاسن الآداب ويوقفه من أداء الحقوق على بصيرة ويفقهه في ذلك كله ولا يفوته شيء مما يحتاج إليه فيما يرجع إلى حقوق الحق وفيما يرجع إلى حقوق الخلق فكل تقصير يوجد من خبت النفس وعدم تركيتها وبقاء صفاتها عليه فإن صحبت ظلمت بالأفراط تارة وبالتفريط أخرى وتعدت الواجب فيما يرجع إلى الحق والخلق والحكايك والوعاظ والآداب وصماعها لا يعمل في النفس



فكانوا يقولونه فعاد الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم فأخبروه فقال عليه السلام ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء <sup>(١)</sup> وقد استشهد ابن عطاء أيضا لماسئل عن ذلك فقال الثنى أفضل لأنه وصف الحق أماديله الأول فضيه نظر لأن الخبر قدورد مفصلا تفصيلا يدل على خلاف ذلك وهو أن ثواب الفقير في التسبيح يزيد على ثواب الثنى وأن فوزهم بذلك الثواب فضل الله يؤتيه من يشاء قدورد في زيد بن أسلم عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال لا بحث الفقراء رسولا إلى رسول الله ﷺ قال إن رسول الفقراء إليك فقال مرحبا بك وبمن جئت من عندهم قوم أحبهم قال قالوا يا رسول الله إن الأغنياء ذهبوا بالخير يحبون ولا تقدر عليه ويعتمرون ولا تقدر عليه وإذا مرضوا بشوا بفضل أموالهم ذخيرة لهم فقال النبي صلى الله عليه وسلم بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء أما خصلة واحدة فإن في الجنة غرضا ينظر إليها أهل الجنة كما ينظر أهل الأرض إلى نجوم السماء لا يدخلها إلا النبي فقير أو شهيد فقير أو مؤمن فقير ، والثانية يدخل الفقراء الجنة قبل الأغنياء بنصف يوم وهو خمسمائة عام ، والثالثة إذا قال الثنى سبحان الله والحمد لله ولا إله إلا الله والله أكبر وقال الفقير مثل ذلك لم يلحق الثنى بالفقير ولو أنفق فيها عشرة آلاف درهم وكذلك أعمال البر كلها فرجع إليهم فأخبرهم بما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم قالوا رضيينا رضيينا <sup>(٢)</sup> فهذا يدل على أن قوله ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء أى مزيد ثواب الفقراء على ذكرهم وأما قوله إن الثنى وصف الحق فقد أجابه بعض الشيوخ فقال أنرى أن الله تعالى غنى بالأسباب والأعراض فاقطع ولم ينطق وأجاب آخرون فقالوا إن التكبر من صفات الحق فينبغى أن يكون أفضل من التواضع ثم قالوا بل هذا يدل على أن الفقر أفضل لأن صفات العبودية أفضل للعبد كالخوف والرجاء وصفات الربوبية لا ينبغى أن ينازع فيها ولذلك قال تعالى فيما روى عنه نبينا صلى الله عليه وسلم «الكبرياء ردائي والعظمة إزاري فمن نازعني واحدا منهما قصمته» <sup>(٣)</sup> وقال سهل حب العز والبقاء شرك في الربوبية ومنازعة فيها لأنها من صفات الرب تعالى فمن هذا الجنس تكلموا في تفضيل الثنى والفقر وحاصل ذلك تعلق بعمومات تثبت التأويلات وبكلمات قاصرة لا تبعد مناقضها إذ كما يناقض قول من فضل الثنى بأنه صفة الحق بالتكبر كذلك يناقض قول من ذم الثنى لأنه وصف للعبد والعلم والعرفة فأنه وصف الرب تعالى والجهل والنفقة وصف العبد وليس لأحد أن يفضل النفقة على العلم فكشف النطاء عن هذا هو ما ذكرناه في كتاب الصبر وهو أن ما لا يراد لهينه بل يراد لغيره فينبغى أن يضاف إلى مقصوده إذ به يظهر فضله والدنيا ليست محذورة لغيرها ولكن لكونها عاقبة عن الوصول إلى الله تعالى ولا الفقر مطلوب بالهينة لكن لأن فيه قد العائق عن الله تعالى وعدم الشاغل عنه وكمن غنى لم يشغله الثنى عن الله عز وجل مثل سليمان عليه السلام وعثمان وعبد الرحمن بن عوف رضي الله عنهما وكمن فقير شغله الفقر وصرفه عن التصدق غاية القصد في الدنيا

(١) حديث شكا الفقراء إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم سبق الأغنياء بالخيرات والصدقات الحديث وفي آخره فقال ذلك فضل الله يؤتيه من يشاء متفق عليه من حديث أبي هريرة نحوه  
(٢) حديث زيد بن أسلم عن أنس بحث الفقراء إلى رسول الله ﷺ رسولا إن الأغنياء ذهبوا بالجنة يحبون ولا تقدر عليه الحديث وفيه بلغ عنى الفقراء أن لمن صبر واحتسب منكم ثلاث خصال ليست للأغنياء الحديث لم أجده هكذا بهذا السياق والمعروف في هذا الثنى ما رواه ابن ماجه من حديث ابن عمر اشتكى فقراء المهاجرين إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما فضل الله به عليهم أغنياءهم فقال يا مشركم أن فقراء المؤمنين يدخلون الجنة قبل أغنيائهم بنصف يوم خمسمائة عام وإسناده ضعيف (٣) حديث قال الله تعالى الكبرياء ردائي والعظمة إزاري تقدم في العلم وغيره.

زيادة تأثير ويكون  
كبر قلبه فيه للنساء  
من فوفه فلا يكت فيه  
ولا ينتفع به وإذا  
أخذت بالتقوى والزهد  
في الدنيا نبغ منها ماء  
الحياة وتفقهت وعلمت  
وأدت الحقوق وقامت  
بواجب الآداب  
بتوفيق الله سبحانه  
وتعالى .

[ الباب السادس  
والخمسون في معرفة  
الانسان نفسه  
ومكاشفات الصوفية  
من ذلك ]

حدثنا شيخنا أبو  
النجيب السهروردي  
قال أنا الشريف نور  
الهدى أبو طالب الزيني  
قال أنا كريمة المروزية  
قالت أخبرنا أبو الهيثم

هو حب الله تعالى والأنس به ولا يكون ذلك إلا بعد معرفته وسلوك سبيل المعرفة مع الشواغل غير ممكن والفقر قد يكون من الشواغل كما أن الغنى قد يكون من الشواغل وإنما الشاغل على التحقيق حب الدنيا إذ لا يجتمع معه حب الله في القلب والحب للشيء مشغول به سواء كان في فراقه أو في وصاله وربما يكون شغله في الفراق أكثر وربما يكون شغله في الوصال أكثر والدنيا معشوقة الغاظين المحروم منها مشغول بطلبها والقادر عليها مشغول بحفظها والتفتع بها فاذا إن فرضت فارغين عن حب المال بحيث صار للمال في حقيهما كالماء استوى الفاقد والواجد إذ كل واحد غير متمتع إلا بقدر الحاجة ووجود قدر الحاجة أفضل من قنعه إذ الجائع يسلك سبيل اللوث لا سبيل للعرفة وإن أخذت الأمر باعتبار الأكبر فالفقير عن الخطر أبعد إذ فتنة السراء أشد من فتنة الضراء ومن العصة أن لا يقدر ولذلك قال الصحابة رضي الله عنهم بلينا بفتنة الضراء فصرنا وبلينا بفتنة السراء فلم نصبر وهذه خلقة الآدميين كلهم إلا الشاذ الذي لا يوجد في الأعصار الكثيرة إلا نادرا ولما كان خطاب الشرع مع الكل لامع ذلك النادر والضراء أصلح لكل دون ذلك النادر زجر الشرع عن الغنى وذمه وفضل الفقر ومدحه حتى قال المسيح عليه السلام : لا تنظروا إلى أموال أهل الدنيا فإن بريق أموالهم يذهب بنور إيمانكم . وقال بعض العلماء : تغليب الأموال يمس حلاوة الإيمان وفي الخبر « إن لكل أمة هجلا وهجلا هذه الأمة الدينار والدرهم <sup>(١)</sup> » وكان أصل مجمل قوم موسى من حلية الذهب والفضة أيضا واستواء المال والماء والذهب والحجر إنما يتصور للأتقياء عليهم السلام والأولياء ثم يتم لهم ذلك بعد فضل الله تعالى بطول المجاهدة إذ كان النبي صلى الله عليه وسلم يقول للدنيا « إليك عنى <sup>(٢)</sup> » إذ كانت تمثل له زينتها وكان على كرم الله وجهه يقول : يا صفراء غري غري ويا بيضاء غري غري وذلك لاستشعاره في نفسه ظهور مبادئ الاغترار بها لولا أن رأى برهان ربه وذلك هو الغنى المطلق إذ قال عليه الصلاة والسلام « ليس الغنى عن كثرة العرض وإنما الغنى غنى النفس <sup>(٣)</sup> » وإذا كان ذلك بعيدا فاذا الأصلح لكافة الخلق فقد للمال وإن تصدقوا به وصرفوه إلى الخيرات لأنهم لا ينفكون في القدرة على المال عن أنس بالدنيا وتمتع بالقدرة عليها واستمتاع راحة في بذلها وكل ذلك يورث الأنس بهذا العالم ويقدر ما يأنس العبد بالدنيا يستوحش من الآخرة ويقدر ما يأنس بصفة من صفاته سوى صفة المعرفة بالله يستوحش من الله من جهة ومهما انقطعت أسباب الأنس بالدنيا تجافى القلب عن الدنيا وزهرتها والقلب إذا تجافى عما سوى الله تعالى وكان مؤمنا بالله انصرف لآماله إلى الله إذ لا يتصور قلب فارغ وليس في الوجود إلا الله تعالى وغيره فمن أقبل على غيره فقد تجافى عنه ومن أقبل عليه تجافى عن غيره ويكون إقباله على أحدهما بقدر تجافيه عن الآخر وقربه من أحدهما بقدر بعده من الآخر ومثلهما مثل للشرق والغرب فاتهما جهتان فالتردد بينهما بقدر ما يقرب من أحدهما يبعد عن الآخر بل عين القرب من أحدهما هو عين البعد من الآخر فعين حب الدنيا هو عين بغض الله تعالى فينبغى أن يكون مطمح نظر العارف قلبه في عزوبه عن الدنيا وأنه بها فاذا فضل الفقير والغنى بحسب تعلق قلبيهما بالمال فقط فإن تساويا فيه تساوت درجتهم إلا أن هذا مزية قدم وموضع غرور فإن الغنى ربما يظن أنه منقطع القلب

الكشميه في قال أخبرنا أبو عبد الله الفري قال أنا أبو عبد الله البخاري قال ثنا عمر ابن حفص قال ثنا أبي قال ثنا الأعمش قال ثنا زيد بن وهب قال ثنا عبد الله قال ثنا رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو الصادق للصدوق قال « إن أحدكم يجمع خلقه في بطن أمه أربعين يوما نقطة ثم يكون علقه مثل ذلك ثم يكون مضخة مثل ذلك ثم يبعث الله تعالى إليه ملكا بأربع كلمات فيكتب عمله وأجله ووزقه وشق أم سعيدته ينفخ فيه الروح وإن الرجل يعمل بعمل

(١) حديث لكل أمة هجلا وهجلا هذه الأمة الدينار والدرهم أبو منصور الديلمي من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من حديث حذيفة بإسناد فيه جهالة (٢) حديث كان يقول للدنيا إليك عنى الحديث الحاكم مع اختلاف وقد تقدم (٣) حديث ليس الغنى عن كثرة العرض الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

عن المال ويكون حبه دفيناً في باطنه وهو لا يشعر به وإنما يشعر به إذا فقدته فليجرب نفسه بتفريقه أو إذا سرق منه فإن وجد قلبه إليه التفاتاً فليعلم أنه كان مغروراً فكأن من رجل باع سرية له لظنه أنه منقطع القلب عنها فبعد لزوم البيع وتسليم الجارية اشتعلت من قلبه النار التي كانت مستكنة فيه فتحقق إذن أنه كان مغروراً وأن العشق كان مستكناً في القواد استكنان النار تحت الرماد وهذا حال كل الأغنياء إلا الأنبياء والأولياء وإذا كان ذلك محالاً أو بعيداً فلنطلق القول بأن الفقر أصلح لكافة الخلق وأفضل لأن علاقة الفقير وأنسه بالدينا أضف وبقدر ضعف علاقته يتضاعف ثواب تسيحاته وعبادته فإن حركات اللسان ليست مرادة لأعيانها بل ليتأكد بها الأنس بالذكور ولا يكون تأثيرها في إثارة الأنس في قلب فارغ من غير المذكور كتأثيرها في قلب مشغول ولذلك قال بعض السلف مثل من تعبد وهو في طلب الدنيا مثل من يطنق النار بالحلفاء ومثل من يغسل يده من القمر بالسلك . وقال أبو سليمان الداراني رحمه الله تعالى : تنفس فقير دون شهوة لا يقدر عليها أفضل من عبادة غنى ألف عام . وعن الضحاك قال من دخل السوق فرأى شيئاً يشتهي فصرى واحتسب كان خيراً له من ألف دينار ينفقها كلها في سبيل الله تعالى . وقال رجل لبشر بن الحرث رحمه الله : ادع الله لي فقد أضرتني المبال قال إذا قال لك عيالك ليس عندنا دقيق ولا خبز فادع الله لي في ذلك الوقت فإن دعاءك أفضل من دعائي وكان يقول مثل الغنى المتعبد مثل روضة على منزلة ومثل الفقير المتعبد مثل عقد الجوهر في جيد الحسنة وقد كانوا يكرهون سماع علم المعرفة من الأغنياء ، وقد قال أبو بكر الصديق رضي الله عنه : اللهم إني أسألك الدلالة عند النصف من نفسي والزهد فيها جاوز الكفاف وإذا كان مثل الصديق رضي الله عنه في كمال حاله يحذر من الدنيا ووجودها فكيف يشك في أن قد المال أصلح من وجوده هذا مع أن أحسن أحوال الغنى أن يأخذ حالاً وينفق طيباً ومع ذلك فيطول حسابه في عرصات القيامة ويطول انتظاره ومن توفى الحساب فقد عذب ولهذا تأخر عبد الرحمن بن عوف عن الجنة إذ كان مشغولاً بالحساب كما رآه رسول الله صلى الله عليه وسلم ولهذا قال أبو الدرداء رضي الله عنه ما أحب أن لي حاثوناً على باب المسجد ولا تحطني فيه صلاة وذكر وأربع كل يوم خمسين ديناراً وأصدق بها في سبيل الله تعالى قيل وما تكبره قال سوء الحساب ولذلك قال سفيان رحمه الله اختار الفقراء ثلاثة أشياء واختار الأغنياء ثلاثة أشياء اختار الفقراء راحة النفس و فراغ القلب وخفة الحساب واختار الأغنياء تعب النفس وشغل القلب وشدة الحساب وما ذكره ابن عطاء من أن الغنى وصف الحق فهو بذلك أفضل فهو صحيح ولكن إذا كان العبد غنياً عن وجود المال وعدمه جميعاً بأن يستوى عنده كلاهما فأما إذا كان غنياً بوجوده ومفتقراً إلى بقاءه فلا يضاهاه غناه غنى الله تعالى لأن الله تعالى غنى بذاته لا بما يتصور زواله والمال يتصور زواله بأن يسرق وما ذكر من الرد عليه بأن الله ليس غنياً بالأعراض والأسباب صحيح في ذم غنى يريد بقاء المال وما ذكر من أن صفات الحق لا تليق بالعبد غير صحيح بل العلم من صفاته وهو أفضل شيء للعبد بل منتهى العبد أن يتخلق بأخلاق الله تعالى وقد سمعت بعض المشايخ يقول إن سالك الطريق إلى الله تعالى قبل أن يقطع الطريق تصير الأسماء التسعة والتسعون أوصافاً له أي يكون له من كل واحد نصيب وأما التكبر فلا يليق بالعبد فإن التكبر على من لا يستحق التكبر عليه ليس من صفات الله تعالى وأما التكبر على من يستحقه كتكبر المؤمن على الكافر وتكبر العالم على الجاهل والمطيع على العاصي فيلحق به ، ثم قد يراد بالتكبر الزهو والصلف والإيذاء وليس ذلك من وصف الله تعالى وإنما وصف الله تعالى أنه أكبر من كل شيء وأنه يعلم أنه كذلك والعبد مأثور

أهل النار حتى ما يكون  
بينه وبينها إلا ذراع  
فيسبق عليه الكتاب  
فيعمل بعمل أهل الجنة  
فيدخل الجنة وإن  
الرجل يعمل بعمل  
أهل الجنة حتى  
ما يكون بينه وبينها  
إلا ذراع فيسبق عليه  
الكتاب فيعمل بعمل  
أهل النار فيدخل النار  
وقال تعالى - ولقد  
خلقنا الإنسان من  
سلالة من طين ثم جعلناه  
نطفة في قرار مكين -  
أي حريز لا استقرارها  
فيه إلى بلوغ أمدها ثم  
قال بعد ذكر قلبها ثم  
أنشأناه خلقاً آخر - قيل  
هذا الانشاء نفخ الروح  
فيه . واعلم أن الكلام  
في الروح صعب المرام

به بأنه يطلب أعلى للراتب إن قدر عليه ولكن بالاستحقاق كما هو حقه لا بالباطل والتليس فلي  
 العبد أن يعلم أن اللؤم من أكبر من الكافر والطبع أكبر من العاصي والعالم أكبر من الجاهل والانس  
 أكبر من البهيمة والجماد والنبات وأقرب إلى الله تعالى منها فلو رأى نفسه بهذه الصفة رؤية محقة  
 لاشك فيها لكانت صفة التكبر حاصلة له ولا ثقة به وفضيلة في حقه إلا أنه لا سبيل له إلى معرفته فان ذلك  
 موقوف على الحاتمة وليس يدري الحاتمة كيف تكون وكيف تنفي فلعله بذلك وجب أن لا يستغد  
 نفسه رتبة فوق رتبة الكافر إذ ربما يغتم للكافر بالإيمان وقد يغتم له بالكفر فلم يكن ذلك لا تقابه  
 لتصور علمه عن معرفة العاقبة ولما تصور أن يعلم الشيء على ما هو به كان العلم كالا في حقه لأنه من  
 صفات الله تعالى ولما كانت معرفة بعض الأشياء قد تضره صار ذلك العلم نقصانا في حقه إذ ليس  
 من أوصاف الله تعالى علم يضره لمعرفة الأمور التي لا ضرر فيها هي التي تصور في العبد من صفات  
 الله تعالى فلاجرم هو منتهى الفضيلة وبه فضل الأنبياء والأولياء والعلماء فاذن لو استوى عنده وجود  
 المال وعدمه فهذا نوع من الغنى يضاهي بوجه من الوجوه الغنى الذي يوصف به الله سبحانه فهو  
 فضيلة أما الغنى بوجود المال فلا فضيلة فيه أصلا فهذا بيان نسبة حال الفقير القانع إلى حال الغنى الشاكر .  
 [ المقام الثاني في نسبة حال الفقير الحريص إلى حال الغنى الحريص ] ولنفرض هذا في شخص واحد  
 هو طالب المال وساع فيه وفاقد له ثم وجده فله حالة التقدر وحالة الوجود فأى حاله أفضل فنقول :  
 ننظر فان كان مطلوبه ما لا بد منه في العيشة وكان قصده أن يسلك سبيل الدين ويستعين به عليه  
 فحال الوجود أفضل لأن الفقر يشغله بالطلب وطالب القوت لا يقدر على الفكر والله كره إلا قدرا مدخوله  
 بشغل والسكنى هو القادر ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل قوت آل محمد كفايا » وقال « كاد  
 الفقر أن يكون كفرا » أي الفقر مع الاضطرار فيما لا بد منه وإن كان المطلوب فوق الحاجة أو كان  
 المطلوب قدرا الحاجة ولكن لم يكن التصود الاستعانة به على سلوك سبيل الدين فحالة الفقر أفضل وأصلح  
 لأنها استوائية في الحرص وحب المال واستوائية في أن كل واحد منهما ليس يقصد به الاستعانة على طريق  
 الدين واستوائية في أن كل واحد منهما ليس يتعرض لمصيبة بسبب الفقر والغنى ولكن افرقا في أن الواحد  
 يأني بما وجده فيتأكد حبه في قلبه ويطمئن إلى الدنيا والفاقد المضطر يتجافى قلبه عن الدنيا وتسكون  
 الدنيا عنده كالسجن الذي ينسى الخلاص منه ومهما استوت الأمور كلها وخرج من الدنيا رجلان أحدهما  
 أشد ركونا إلى الدنيا فحاله أشد لا محالة إذ يلتفت قلبه إلى الدنيا ويستوحش من الآخرة بقدر تأكد  
 أنه بالدنيا وقد قال ﷺ « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة (١) »  
 وهذا نبيه على أن فراق المحبوب شديد فينبغي أن تحب من لا يفارقك وهو الله تعالى ولا تحب ما يفارقك وهو  
 الدنيا فانك إذا أحببت الدنيا كرهت لقاء الله تعالى فيكون قدومك بالموت على ما تكرهه وفراقك لما  
 تحبه وكل من فارق محبوا فيكون أذاه في فراقه بقدر حبه وقد رآه به وأنس الواحد للدنيا القادر عليها أكثر  
 من أنس الفاقدها وإن كان حرصا عليها فاذن قد انكشف بهذا التحقيق أن الفقر هو الأشرف والأفضل  
 والأصلح لكافة الخلق إلا في موضعين أحدهما غنى مثل غنى عائشة رضي الله عنها يستوى عنده الوجود  
 والعدم فيكون الوجود مزيدا له إذ يستفيد به أدعية الفقراء والمساكين وجمع همهم والثاني الفقر عن  
 مقدار الضرورة فان ذلك يكاد أن يكون كفرا ولا خير فيه بوجه من الوجوه إلا إذا كان وجوده يبق حياته  
 ثم يستعين بقوته وحياته على الكفر والمعاصي ولومات جوارح كانت معاصيه أقل فالأصلح له أن يموت  
 جوارحا ولا يحد مضطر إليه أيضا فهذا تفصيل القول في الغنى والفقر ويبقى النظر في فقير حريص متكالب على

والامساك عن ذلك  
 سبيل ذوى الأحلام وقد  
 عظم الله تعالى شأن  
 الروح وأسجل على  
 الخلق بقلة العلم حيث  
 قال - وما أوتيتهم من  
 العلم إلا قليلا - وقد  
 أخبرنا الله تعالى في كلامه  
 عن إكرامه بنى آدم  
 فقال لو قد كرمنا بنى  
 آدم وروى « أنه لما  
 خلق الله تعالى آدم  
 وذريته قالت الملائكة  
 يارب خلقهم بأكلون  
 وشربون وينكحون  
 فاجعل لهم الدنيا ولنا  
 الآخرة فقال وعزتي  
 وجلالي لأجعل ذرية  
 من خلقت يدي كمن  
 قتلته كن فكان « فع  
 هذه الكرامات واختاره  
 سبحانه وتعالى بإمام على

(١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة تقدم .

طلب المال ليس له ثم سواء وفي غنى دونه في الحرص على حفظ المال ولم يكن تفجعه بفقد المال  
لوقد كنفجهم الفقير بفقره فهذا في محل النظر والأظهر أن بسدها عن الله تعالى بقدر قوة تفجعهما  
لفقد المال وقربهما بقدر ضعف تفجعهما بفقدته والمعلم عند الله تعالى فيه .

( بيان آداب الفقير في فقره )

اعلم أن للفقير آداباً في باطنه وظاهره وعماطته وأفعاله ينبغي أن يراعيها فأما أدب باطنه فإن لا يكون  
فيه كراهية لما ابتلاه الله تعالى به من الفقر أعني أنه لا يكون كارهها فعل الله تعالى من حيث إنه فعله  
وإن كان كارهها للفقر كالحجوم يكون كارهها للحجامة لتأله بها ولا يكون كارهها فعل الحجام ولا كارهها  
للحجام بل ربما يتفكر منه منة فهذا أقل درجاته وهو واجب وتقيضه حرام ومحبط ثواب الفقر وهو  
معنى قوله عليه السلام «يا معشر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب فقركم وإلا فلا» وأرفع  
من هذا أن لا يكون كارهها للفقر بل يكون راضياً به وأرفع منه أن يكون طالباً له وفرحاً به لعله بفوائده  
التي ويكون متوكلاً في باطنه على الله تعالى وإتقاه به في قدر ضرورته أنه يأتيه لاحتالة ويكون كارهها  
لزيادة على الكفاف وقد قال على كرم الله وجهه : إن لله تعالى عقوبات بالفقر ومثوبات بالفقر فمن  
علامات الفقر إذا كان مثوبة أن يحسن عليه خلقه ويطيع بهربه ولا يشكو حاله ويشكر الله تعالى على  
فقره ، ومن علاماته إذا كان عقوبة أن يسوء عليه خلقه ويصمى به بترك طاعته ويكثر الشكاية  
ويتسخط القضاء وهذا يدل على أن كل فقير فليس بمحمود بل المحمود الذي لا يتسخط ويرضى أو يفرح بالفقر  
ويرضى لعله بشمرته إذ قيل ما أعطى عبد شيئاً من الدنيا إلا قيل له خذ به على ثلاثة أثلاث : شغل وهم وطول  
حساب . وأما أدب ظاهره فإن يظهر التعمف والتجمل ولا يظهر الشكوى والفقر بل يستر فقره ويستتر أنه  
يستره في الحديث «إن الله تعالى يحب الفقير المتعفف أبا العيال» وقال تعالى - بحسبهم الجاهل أغنياء من  
التعفف - وقال سفيان أفضل الأعمال التجمل عند الحاجة وقال بعضهم ستر الفقر من كدوز البر . وأما في أعماله  
فأدبه أن لا يتواضع لشيء لأجل غناه بل يتكبر عليه قال على كرم الله وجهه ما أحسن تواضع الغني للفقير  
رغبة في ثواب الله تعالى وأحسن منه تيه الفقير على الغني ثقة بالله عز وجل فهذه رتبة وأقل منها  
أن لا يخالط الأغنياء ولا يرغب في مجالستهم لأن ذلك من مبادئ الطمع . قال الثوري رحمه الله إذا خالط الفقير  
الأغنياء فاعلم أنه مرء وإذا خالط الساطان فاعلم أنه لص . وقال بعض العارفين إذا خالط الفقير الأغنياء  
أحلت عروته فإذا طمع فيهم انطمعت عصمته فإذا سكن إليهم ضل وينبغي أن لا يسكت عن ذكر الحق  
مداينة للأغنياء وطعنا في العطاء وأما أدبه في أفعاله فإن لا يفتربسب بالفقر عن عبادة ولا يمنع بذلك قليل  
ما يفضل عنه فإن ذلك جهد للقل وفضله أكثر من أموال كثيرة تبذل عن ظهر غنى . روى زيد بن أسلم  
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف درهم قيل  
وكيف ذلك يا رسول الله قال أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف درهم فتصدق بها وأخرج رجل  
درهماً من درهمين لا يملك غيرها طيبة به نفسه فصار صاحب الدرهم أفضل من صاحب المائة ألف (١)»  
وينبغي أن لا يدخر مالا بل يأخذ قدر الحاجة ويخرج الباقي وفي الإخبار ثلاث درجات إحداها أن  
لا يدخر إلا ليومة وليته وهي درجة الصديقين والثانية أن يدخر لأربعين يوماً فإن ما زاد عليه داخل  
في طول الأمل وقد فهم المعنى ذلك من معاد الله تعالى لموسى عليه السلام ففهم منه الرخصة

(١) حديث زيد بن أسلم درهم من الصدقة أفضل عند الله من مائة ألف قيل وكيف يا رسول الله قال  
أخرج رجل من عرض ماله مائة ألف الحديث الثاني من حديث أبي هريرة متصلاً وقد تقدم في  
الزكاة ولا أصل له من رواية زيد بن أسلم مرسل .

اللائكة لما أخبر عن  
الروح أخبر عنهم بقلة  
العلم وقال - ويستلوثونك  
عن الروح قل الروح  
من أمر ربى - الآية قال  
ابن عباس قالت اليهود  
لنبي عليه السلام  
أخبرنا ما الروح وكيف  
تعذب الروح التي في  
الجد وإنما الروح  
من أمر الله ولم يكن  
نزل إليه فيه شيء فلم  
يجيب فأتاه جبرائيل  
بهذه الآية وحيث  
أمسك رسول الله صلى  
الله عليه وسلم عن  
الإخبار عن الروح  
وماهية باذن الله تعالى  
ووجهه وهو صلات  
الله عليه معدن  
العلم وينبوع الحكمة  
فكيف يسوغ لغيره

في أمل الحياة أربعين يوما وهذه درجة التيقن والثالثة أن يدخر لسته وهي أقصى للراتب وهي رتبة الصالحين ومن زاد في الادخار على هذا فهو واقع في غمار الصوم خارج عن حيز الخصوص بالكلية ففى الصالح الضعيف في طمأنينة قلبه في قوت سنته وغنى الخصوص في أربعين يوما وغنى خصوص الخصوص في يوم ليلة وقد قسم النبي صلى الله عليه وسلم نساءه على مثل هذه الأقسام فبعضهم كان يعطيها قوت سنة عند حصول ما يحصل وبعضهم قوت أربعين يوما وبعضهم يوما وليلة وهو قسم عائشة وحفصة .

( بيان آداب الفقير في قبول العطاء إذا جاءه بغير سؤال )

ينبغي أن يلاحظ الفقير فيما جاءه ثلاثة أمور : نفس اللال وغرض المعطي وغرضه في الأخذ أما نفس اللال فينبغي أن يكون حلالا خاليا عن الشبهات كلها فإن كان فيه شبهة فليحترز من أخذها وقد ذكرنا في كتاب الحلال والحرام درجات الشبهة وما يجب اجتنابه وما يستحب وأما غرض المعطي فلا يخفى إما أن يكون غرضه تطيب قلبه وطلب محبته وهو الهدية أو الثواب وهو الصدقة والزكاة أو الذكر والرياء والسمعة إما على التجرد وإما بمزوجة ببقية الأغراض أما الأول وهو الهدية فلا بأس بقبولها فإن قبولها سنة رسول الله ﷺ (١) ولكن ينبغي أن لا يكون فيها منة فإن كان فيها منة فالأولى تركها فإن علم أن بعضها مما تعظم فيه المنفعة فليرد البعض دون البعض فقد أهدى إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش (٢) وكان صلى الله عليه وسلم يقبل من بعض الناس ويرد على بعض (٣) وقال « لقد هممت أن لأتهب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي » (٤) وفعل هذا جماعة من التابعين وجاءت إلى فتح اللوصلى صرة فيها خمسون درهما فقال حدثنا عطاء عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « من آتاه رزق من غير مسألة فرده قائما يرد على الله » (٥) ثم فتح الصرة فأخذ منها درهما ورد سائرهما وكان الحسن يروى هذا الحديث أيضا ولكن حمل إليه رجل كيسا ورزما من رقيق ثياب خراسان فرد ذلك وقال من جلس مجلسي هذا وقبل من الناس مثل هذا لى الله عز وجل يوم القيامة وليس له خلاق وهذا يدل على أن أمر العالم والواعظ أشد في قبول العطاء

(١) حديث إن قبول الهدية سنة تقدم أنه صلى الله عليه وسلم كان يقبل الهدية (٢) حديث أهدى إلى النبي صلى الله عليه وسلم ممن وأقط وكبش قبل السمن والأقط ورد الكبش أحمد في أثناء حديث ليلى بن مرة وأهدت إليه كبشين وشيئا من ممن وأقط فقال النبي صلى الله عليه وسلم خذ الأقط والسمن وأحد الكبشين ورد عليها الآخر وإسناده جيد وقال وكيع مرة عن يلى بن مرة عن أبيه (٣) حديث كان يقبل من بعض الناس ويرد على بعض أبو داود والترمذي من حديث أبي هريرة وإيم الله لأقبل بعد يومى هذا من أحد هدية إلا أن يسكون مهاجريا الحديث فيه محمد بن اسحق ورواه بالنعنة (٤) حديث قد هممت أن لأتهب إلا من قرشي أو ثقي أو أنصاري أو دوسي الترمذي من حديث أبي هريرة وقال روى من غير وجه عن أبي هريرة قلت ورجاله ثقات (٥) حديث عطاء مرسل من آتاه رزق من غير وسيلة فرده قائما يرد على الله عز وجل لم أجده مرسل هكذا وأحمد وأبي يعلى والطبراني بإسناد جيد من حديث خالد بن عدي الجهني من بلغه معروف من أخيه من غير مسألة ولا إشراف نفس فليقبله ولا يرد فاما هو رزق ساقه الله عز وجل إليه ولأحمد وأبي داود الطيالسي من حديث أبي هريرة من آتاه الله من هذا اللال شيئا من غير أن يسأله فليقبله وفي الصحيحين من حديث عمر ما أتاك من هذا اللال وأنت غير مشرف ولا سائل فخذ الحديث .

الحوض فيه والاشارة إليه لاجرم لما تناقض الأتقى الانسانية للتطلعة إلى الفضول المشوقة إلى العقول المتحركة بوضعها إلى كل ما أمره بالسكون فيه والتسوية بحرصها إلى كل تحقيق وكل تمويه وأطلقت عنان النظر في مسارح الفكر وخاضت غمرات معرفة ماهية الروح تاهت في التيه وتنوعت آراؤها فيه ولم يوجد الاختلاف بين أرباب النقل والعقل في شيء كالاختلاف في ماهية الروح ولو لم تمت النفوس حدها منرفة بمعجزها كان ذلك أجدر بها

وقد كان الحسن يقبل من أصحابه ، وكان إبراهيم التيمي يسأل من أصحابه الدرهم والدرهمين ونحوه  
ويعرض عليه غيرهم الثين فلا يأخذها ، وكان بعضهم إذا أعطاه صديقه شيئا يقول أتركه عندك  
وانظر إن كنت بعد قبوله في قلبك أفضل من قبل القبول فأخبرني حتى آخذته والإفلا ، وأما هذا  
أن يشق عليه الرد لورده ويفرح بالقبول ويرى النية على نفسه في قبول صديقه هديته ، فإن علم  
أنه يمازجه منه فأخذه مباح ولكنه مكروه عند الفقهاء الصادقين . وقال بشر : ما سألت أحدا قط  
شيئا إلا سريا السقطي لأنه قد صح عندي زهده في الدنيا فهو يفرح بخروج الشيء من يده ويتبرم  
بقائه عنده فأكون عوناً له على ما يحب ، وجاء خراساني إلى الجنيد رحمه الله وسأله أن يأكله  
فقال أفرقه على الفقراء ، فقال ما أريد هذا . قال ومتى أعيش حتى آكل هذا قال ما أريد أن تنفقه  
في الحل والبقول بل في الحلوات والطيبات قبل ذلك منه ، فقال الخراساني ما أجد في بغداد أمن على  
منك ، فقال الجنيد ولا ينبغي أن يقبل إلا من مثلك . الثاني أن يكون للثواب المجد وذلك صدقة  
وزكاة فعليه أن ينظر في صفات نفسه هل هو مستحق للزكاة فإن اشتبه عليه فهو محل شبهة وقد  
ذكرنا تفصيل ذلك في كتاب أسرار الزكاة وإن كانت صدقة وكان يطميه لدينه فلينظر إلى باطنه ،  
فإن كان مقارفا لمصيبة في السر يعلم أن العطى لو علم ذلك لتفرط به ولما تقرب إلى الله بالتصدق  
عليه فهذا حرام أخذه كما لو أعطاه لظنه أنه عالم أو علوي ولم يكن فإن أخذه حرام محض لاشبهة  
فيه . الثالث أن يكون غرضه السمعة والرياء والشهرة فينبغي أن يرد عليه قصده الفاسد ولا يقبله ،  
إذ يكون معينا له على غرضه الفاسد . وكان سفيان الثوري يرد ما يعطى ، ويقول : لو علمت أنهم  
لا يدكرون ذلك افتخارا به لأخذت ، وعوتب بعضهم في رد ما كان يأتيه من صلة ، فقال إنما أرد  
صلتهم إشفاء عليهم ونصحا لهم لأنهم يذكرون ذلك ويحبون أن يعلم به فتذهب أموالهم وتحبط  
أجورهم . وأما غرضه في الأخذ فينبغي أن ينظر أهو محتاج إليه فيما لا بد منه أو هو مستغن عنه  
فإن كان محتاجا إليه وقد سلم من الشبهة والآفات التي ذكرناها في العطى فالأفضل له الأخذ . قال النبي  
صلى الله عليه وسلم « ما للعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا (١) » وقال صلى الله  
عليه وسلم « من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فاعما هو رزق ساقه الله  
إليه (٢) » وفي لفظ آخر « فلا يرد » . وقال بعض العلماء : من أعطى ولم يأخذ سأل ولم يسطو وقد  
كان سري السقطي يوصل إلى أحمد بن حنبل رحمه الله عليهما شيئا فرده مرة ، فقال له السري :  
يا أحمد احذر أفة الرد فإنها أشد من أفة الأخذ ، فقال له أحمد أعد على ما قلت فأعاده ، فقال أحمد  
مارددت عليك إلا لأن عندي قوت شهر فأحبسه لي عندك فإذا كان بعد شهر فأعذه إلي ، وقد  
قال بعض العلماء يخاف في الرد مع الحاجة عقوبة من ابتلاء بطمع أو دخول في شبهة أو غيره . فأما  
إذا كان مأثما زائدا على حاجته فلا يخلو إما أن يكون حاله الاشتغال بنفسه والتكفل بأمور الفقراء  
والانفاق عليهم لما في طبعه من الرفق والسخاء ، فإن كان مشغولا بنفسه فلا وجه لأخذه وإما أنه  
إن كان طالبا لطريق الآخرة فإن ذلك محض اتباع الهوى وكل عمل ليس لله فهو في سبيل الشيطان  
أوداع إليه ، ومن حام حول الحمى يوشك أن يقع فيه ، ثم له مقامان : أحدهما أن يأخذ في الملاينة

(١) حديث ما للعطى من سعة بأعظم أجرا من الأخذ إذا كان محتاجا للطرائق من حديث ابن عمر  
وقد تخدم في الزكاة (٢) حديث من أتاه شيء من هذا المال من غير مسألة ولا استشراف فاعما هو  
رزق ساقه الله إليه ، وفي لفظ آخر فلا يرد قدما قبل هذا الحديث .

وأولى فأما أقاويل  
من ليس متمسكا  
بالشرائع فنزعه  
الكتاب عن ذكرها  
لأنها أقوال أبرزتها  
العقصول التي ضلت  
عن الرشد وطغت  
على الفساد ولم يصبا  
نور الاهتداء ببركة  
مناصرة الأنبياء فهم كما  
قال الله تعالى - كانت  
أعينهم في غطاء عن  
ذكرى وكانوا  
لا يستطيعون سمعا - .  
وقالوا قلوبنا في  
أكنة مما تدعونا  
إليه وفي آذاننا وقر  
ومن بيننا وبينك  
حجاب - فلما حببوا  
عن الأنبياء لم يسمعوا  
وحيث لم يسمعوا لم  
يهتدوا فأصروا على

ويرد في السرّ أو يأخذ في العلانية ويفرق في السرّ ، وهذا مقام الصديقين وهو شاق على النفس لا يطيقه إلا من اطمانت نفسه بالرياضة . والثاني أن يترك ولا يأخذ ليصرفه صاحبه إلى من هو أحوج منه أو يأخذ ويوصل إلى من هو أحوج منه فيفعل كليهما في السرّ أو كليهما في العلانية ، وقد ذكرنا جلّ الأفضل إظهار الأخذ أو إخفاؤه في كتاب أسرار الزكاة مع جملة من أحكام الفقر فليطلب من موضعه . وأما امتناع أحمد بن حنبل عن قبول عطاء سرى السقطي رحمه الله فأما كان لاستغناء عنه إذ كان عنده قوت شهر ولم يرش لنفسه أن يعتدل بأخذه وصرفه إلى غيره فإن في ذلك آفات وأخطارا والورع يكون حذرا من مظان الآفات إذ لم يأمن مكيدة الشيطان على نفسه . وقال بعض المجاورين بمكة كانت عندي دراهم أعدتها للإحراق في سبيل الله فسمعت فقيرا قد فرغ من طوافه وهو يقول بصوت خفي أنا جائع كما ترى عريان كما ترى لها ترى فيما ترى يأمن يرى ولا يرى فنظرت فإذا عليه خلقان لا تسكاد نواريه قلت في نفسي لا أجد لدراهمي موقعا أحسن من هذا فحملتها إليه فنظر إليها ثم أخذ منها خمسة دراهم وقال : أربعة ثمن مئزرين ودرهم أخقه ثلاثا فلا حاجة في إلى الباقي فردّه . قال فرأيت الليلة الثانية وعليه مئزران جديدان فهجس في نفسي منه شيء فالتفت إلى فأخذ بيدي فأطافني معه أسبوعا كل شوط منها على جوهر من معادن الأرض يتخذه خشى تحت أقدامنا إلى الكبيين : منها ذهب وفضة وياقوت ولؤلؤ وجوهر ولم يظهر ذلك للناس ، فقال هذا كله قد أعطانيه فزهدت فيه وأخذ من أيدي الخلق لأن هذه أقال وقتة وذلك للعباد فيه رحمة ونعمة ، والقصود من هذا أن الزيادة على قدر الحاجة إنما تأتيك ابتلاء وقتة لينظر الله إليك ماذا تعمل فيه وقدر الحاجة يأتيك رتقا بك ، فلا تغفل عن الفرق بين الرفق والابتلاء . قال الله تعالى - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - وقد قال صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه ، فما زاد فهو حساب » (١) فاذن أنت في أخذ قدر الحاجة من هذه الثلاث مثاب وفيما زاد عليه إن لم تنص الله متعرض للحساب ، وإن عصيت الله فأنت متعرض للعقاب ، ومن الاختبار أيضا أن تعزم على ترك لغة من اللذات تقربا إلى الله تعالى وكسرا لصفة النفس فتأتيك عفوا صفوا لتتحن بها قوة عقلك ، فالأولى الامتناع عنها فإن النفس إذا رخص لها في نقض العزم ألقت نقض العهد وعادت لعادتها ولا يمكن قهرها فرد ذلك مهم وهو الزهد ، فإن أخذه وصرفته إلى محتاج فهو غاية الزهد ، ولا يقدر عليه إلا الصديقون . وأما إذا كانت حالك السخاء والبذل والتكفل بحقوق الفقراء وتمهيد جماعة من الصالحاء فخذ ما زاد على حاجتك فإنه غير زائد على حاجة الفقراء ، وبادر به إلى الصرف إليهم ولا تدخره فإن إمساكه ولو ليلة واحدة فيه فتنة واختبار فربما يحلو في قلبك فتصمكه فيكون فتنة عليك . وقد تصدى لخدمة الفقراء جماعة اتخذوها وسيلة إلى التوسع في المال والتعم في الطعام والشرب وذلك هو الهلاك . ومن كان غرضه الرفق وطنب الثواب به فله أن يستقرض على حسن الظن بالله لاعتماد السلاطين الظلمة فإن رزقه الله من حلال قضاء وإن مات قبل القضاء قضاء الله تعالى عنه وأرضى غرماءه وذلك بشرط أن يكون مكشوف الحال عند من يقرضه فلا يفر للقرض ولا يخذله بالمواعيد بل يكشف حاله عنده ليقدم على إقرضه على بصيرة ودين مثل هذا الرجل واجب أن يقضى من مال بيت المال ومن الزكاة وقد قال تعالى

الجهالات وخسبوا بالمقول عن المأمول والعقل حجة الله تعالى يهدي به قوما ويضل به قوما آخرين فلم تنقل أفوالهم في الروح واختلافهم فيه . وأما المستمكن بالشرائع الذين تكلموا في الروح قعود منهم بطريق الاستدلال والنظر وقوم منهم بلسان الدوق والوجد لا باستعمال الفكر حتى تكلم في ذلك مشايخ الصوفية أيضا وكان الأولى الإمساك عن ذلك والتأدب بأدب النبي عليه الصلاة والسلام ، وقد قال الجنيد : الروح شيء استأثر الله بجله ولا

(١) حديث لاحق لابن آدم إلا في ثلاث : طعام يقيم صلبه ، وثوب يوارى عورته ، وبيت يكتنه فما زاد فهو حساب الترمذي من حديث عثمان بن عفان وقال وجلف الحيز والماء بدل قوله طعام يقيم صلبه وقال صحيح .



- ومن قدر علیه رزقه فلینفق بما آتاه الله - قيل معناه لیسح أحد ثوبیه وقيل معناه فلیسترض بحاجه فذلک بما آتاه الله . وقال بعضهم إن الله تعالى عبادا ینفقون علی قدر بضائهم والله عباد ینفقون علی قدر حسن الظن بالله تعالى . ومات بعضهم فأوحى بحاله ثلاث طوائف الأقویاء والأغنیاء والأغنیاء قلیل من هؤلاء ؟ قال أما الأقویاء فهم أهل التوکل علی الله تعالى وأما الأغنیاء فهم أهل حسن الظن بالله تعالى وأما الأغنیاء فهم أهل الانقطاع إلی الله تعالى فاذن مهما وجدت هذه الشروط فیه وفي المال وفی المعطى فلیأخذه ینبغی أن یرى ما یأخذه من الله لامن للمعطى لأن المعطى واسطة قد سخر للعطاء وهو مضطر إلیه بما سلط علیه من الدواعی والإرادات والاعتقادات . وقد حکى أن بعض الناس دعا شیقا فی خمسين من أصحابه فوضع الرجل مائدة حسنة فلما تصدقوا لأصحابه إن هذا الرجل یقول من لم یرنی صنعت هذا الطعام وقدمته فطعامی علیه حرام قماموا کلهم وخرجوا إلا عابا منهم کان دونهم فی الدرجة فقال صاحب التزل لشقیق ما قصدت بهذا قال أردت أن أخبر توحید أصحابی کلهم . وقال موسى علیه السلام : یارب جعلت رزقی هكذا علی أیدی بنی اسرائیل یضربنی هذا یوما ویضربنی هذا لیلۃ فأوحى الله تعالى إلیه هكذا أصنع بأولیائی أجرى أرزاقهم علی أیدی البطالین من عبادى لیؤجروا فیهם فلا ینبغی أن یرى المعطى إلا من حیث إنه مسخر ما جاور من الله تعالى نساء الله حسن التوفیق لما یرضاه .

( بیان تحریم السؤال من غیر ضرورة وآداب الفقير للضرر فيه )

اعلم أنه قد وردت مناه كثيرة فی السؤال وتشديدات وورد فیہ ایضا ما یبدل علی الرخصة إذ قال صلى الله علیه وسلم «للسائل حق ولوجاه علی فرس (١)» وفى الحديث «ردوا السائل ولو یظلف محرق (٢)» ولو کان السؤال حراما مطلقا لما جاز إعانة للتمدی علی عدوانه والاعطاء إعانة فالكاشف للفطاء فیہ أن السؤال حرام فی الأصل وإنما یباح بضرورة أو حاجة مهمة قریة من الضرورة فان کان غیابا فهو حرام وإنما قلنا إن الأصل فیہ التحريم لأنه لا ینفک عن ثلاثة أمور محرمة : الأول إظهار الشکوى من الله تعالى إذ السؤال إظهار للفقر وذكر لقصور نعمة الله تعالى عنموهو عین الشکوى وکان أن العبد المملوك لو سأل لکان سؤاله تشیما علی سیده فکذلک سؤال العباد تشیيع علی الله تعالى وهذا ینبغی أن یحرم ولا یجوز إلا للضرورة كما نحل لیلۃ . الثانى أن فیہ إذلال السائل نفسه لیر الله تعالى وليس للؤمن أن یذل نفسه لیر الله بل علیه أن یذل نفسه لمولاه فان فیہ عزه فأما سائر الخلق فانهم عباد أمثاله فلا ینبغی أن یذل لهم إلا للضرورة وفى السؤال ذل للسائل بالاضافة إلی الشئ . الثالث أنه لا ینفک عن إیذاء للشئ غالبا لأنه ربما لا ینفک عنه بالبدل عن طیب قلب منه فان یذل حیاه من السائل أوریاه فهو حرام علی الآخذ وإن منع ربما استعجا وتأذى فی نفسه بالمنع إذ یرى نفسه فی صورة البخله ففی البخل نقصان ماله وفى المنع نقصان جاهه وکلاما مؤذیان والسائل هو السبب فی الإیذاء والإیذاء حرام إلا للضرورة ومهما فهمت هذه المذورات الثلاث قد فهمت قوله

(١) حدیث للسائل حق وإن جاء علی فرس أبوداود من حدیث الحسین بن علی ومن حدیث علی وفى الأول یملی بن أبی یحیی جهه أبو حاتم ووثقه ابن حبان وفى الثانى شیخ لم یسم وسکت علیهما أبوداود وما ذکره ابن الصلاح فی علوم الحدیث أنه یأنه عن أحمد بن حنبل قال أربعة أحادیث تدور فی الأسواق لیس لها أصل منها للسائل حق الحدیث فانه لا یصح عن أحمد قد أخرج حدیث الحسین بن علی فی مسنده (٢) حدیث ردوا السائل ولو یظلف محرق أبوداود والترمذی وقال حسن صحیح والنسائی واللفظ له من حدیث أم یحید . وقال ابن عبد البر حدیث مضطرب .

نحوز العبارة عنه  
بأكثر من موجود  
ولكن نجعل للصادقين  
محلا لأقوالهم وأفعالهم  
ويعجز أن يكون  
كلامهم في ذلك بمثابة  
التأويل لكلام  
الله تعالى والآيات  
التركية حيث حرم  
تفسيره وجوز تأويله  
إذ لا يوسع القول في  
التفسير إلا لثقل وأما  
التأويل فتتمد  
القول إليه بالباع  
الطويل وهو ذكر  
ما تحتل الآية من  
الغنى من غير القطع  
بذلك وإذا كان الأمر  
كذلك فللقول فيه  
وجهه ومحل . قال  
أبو عبد الله النجاشي  
الروح جسم يلفظ

صلى الله عليه وسلم «مسألة الناس من الفواحش ما أحل من الفواحش غيرها» (١) فانظر كيف سهاها فاحشة ولا يخفى أن الفاحشة إنما تباح لضرورة كإباحة شرب الخمر لمن غص بلقمة وهو لا يجد غيره وقال صلى الله عليه وسلم «من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم» (٢) «ومن سأل وله ما يفييه أجه يوم القيامة ووجهه عظم يتققع وليس عليه لحم» وفي لفظ آخر «كانت مسأله خدوشا وكدوحا في وجهه» (٣) وهذه الألفاظ صريحة في التحريم والتشديد «وبابح رسول الله صلى الله عليه وسلم قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال لهم كلمة خفيفة : ولا تسألوا الناس شيئا» (٤) وكان صلى الله عليه وسلم يأمر كثيرا بالتعفف عن السؤال ويقول «من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا» (٥) وقال ﷺ «استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير قالوا ومنك يا رسول الله قال ومنى» (٦) ومع عمر رضى الله عنه سائلا يسأل بعد الغرب فقال لو احدمن قومه عشي الرجل فمشاه ثم صممه ثانيا يسأل فقال ألم أقل لك عشي الرجل قال قد عشيته فنظر عمر فإذا تحت يده محلاة مملوءة خبز فقال لست سائلا ولكنتك تاجر ثم أخذ المحلاة وثرها بين يديه إبل الصدقة وضربه بالدرة وقال لا تعد ولولأن سؤاله كان حراما لما ضرب به ولا أخذ محلاته ولعل الفقيه الضعيف المنة الضيق الحوصلة يستبعد هذا من فعل عمر ويقول أما ضرب به فهو تأديب وقد ورد الشرع بالعزير وأما أخذه ماله فهو مصادرة والشرع لم يرد بالعقوبة بأخذ المال فكيف استجازوه وهو استبعاد مصدره القصور في الفقه فأين يظهر فقه الفقهاء كلهم في حصوله عمر بن الخطاب رضى الله عنه واطلاعه على أسرار دين الله ومصالح عباده أفترى أنه لم يعلم أن المصادرة بالمال غير جائزة أو علم ذلك ولكن أقدم عليه غضبا في معصية الله وحاشاء أو أراد الزجر بالمصلحة بغير طريق شرعها نبي الله وهبها فان ذلك أيضا معصية بل الفقه الذي لاح فيه أنه رآه مستغنيا عن السؤال وعلم أن من أعطاه شيئا فأنما أعطاه على اعتقاده أنه محتاج وقد كان كاذبا فلم يدخل في ملكه بأخذه مع التلبس وعسر تمييز ذلك ورده إلى أصحابه إذ لا يعرف أصحابه بأعيانهم فبقي ما لا مال لك له فوجب صرفه إلى الصالح وإبل الصدقة وعطفهم من الصالح وينزل أخذ السائل مع إظهار الحاجة كاذبا كأخذ المولى بقوله إني علوى وهو كاذب فأنه لا يملك ما يأخذه وكأخذ الصوفي الصالح الذي يبطى لصلاحه وهو في الباطن مقارفا لمعصية لو عرفها العظمى لما أعطاه وقد

(١) حديث مسألة الناس من الفواحش وما أحل الله من الفواحش غيرها لم أجده أصل (٢) حديث من سأل عن غنى فأنما يستكثر من جمر جهنم الحديث أبو داود وابن حبان من حديث سهل بن الحنظلية مقتصر على ما ذكر منه وتقدم في الزكاة والمسلم من حديث أبي هريرة من يسأل الناس أموالهم تكثر أفاعنا يسأل جمر الحديث وللبراز والطرابي من حديث مسعود بن عمر ولا يزال العبد يسأل وهو غنى حتى يخلق وجهه وفي إسناده لين وللشيخين من حديث ابن عمر ما يزال الرجل يسأل الناس حتى يأتي يوم القيامة وليس على وجهه مزعة لحم وإسناده جيد (٣) حديث من سأل وله ما يفييه كانت مسأله خدوشا وكدوحا في وجهه أصحاب السنن من حديث ابن مسعود وتقدم في الزكاة (٤) حديث بابح قوما على الإسلام فاشترط عليهم السمع والطاعة ثم قال كلمة خفيفة ولا تسألوا الناس شيئا مسلم من حديث عوف بن مالك الأشجعي (٥) حديث من سألنا أعطيناه ومن استغنى أغناه الله ومن لم يسألنا فهو أحب إلينا ابن أبي الدنيا في القناعة والحارث بن أبي أسامة في مسنده من حديث أبي سعيد الخدري وفيه حسن بن هلال لم أر من تكلم فيه وباقيم ثقات (٦) حديث استغنوا عن الناس وما قل من السؤال فهو خير الحديث البراز والطرابي من حديث ابن عباس استغنوا عن الناس ولو بشوص السواك وإسناده صحيح وله في حديث فتففوا ولو بحزم الحطب وفيه من لم يسم وليس فيه وما قل من السؤال الخ .

عن الحسن وبكر  
عن الحسن ولا جبر  
عنه بأكثر من  
موجود وهو وإن منع  
عن العبارة فقد حكم  
بأنه جسم فكأنه عبر  
عنه . وقال ابن عطاء  
خلق الله الأرواح قبل  
الأجساد لقوله تعالى  
ولقد خلقناكم - يعني  
الأرواح - ثم صورناكم -  
يعني الأجساد . وقال  
بعضهم الروح لطيف  
قائم في كسيف  
كالصبر جوهر لطيف  
قائم في كسيف وفي هذا  
القول نظر وقال  
بعضهم الروح عبارة  
والقائم بالأشياء هو  
الحق وهذا فيه نظر  
أيضا إلا أن يحمل على  
معنى الإحياء فقد قال

ذكرنا في مواضع أن ما أخذوه على هذا الوجه لا يملكونه وهو حرام عليهم ويجب عليهم الرد إلى مالكه فاستدل بفعل عمر رضي الله عنه على صحة هذا المعنى الذي يغفل عنه كثير من الفقهاء وقد قررناه في مواضع ولا تستدل بفعلتك عن هذا الفقه على بطلان فعل عمر فاذا عرفت أن السؤال يباح لضرورة فاعلم أن الشيء إما أن يكون مضطرا إليه أو محتاجا إليه حاجة مهمة أو حاجة خفيفة أو مستغنى عنه ، فهذه أربعة أحوال . أما المضطر إليه فهو سؤال الجائع عند خوفه على نفسه موتا أو مرضا وسؤال العاري وبدنه مكشوف ليس معه ما يواريه وهو مباح مهما وجدت بقية الشروط في المسئول بكونه مباحا والمسئول منه بكونه راضيا في الباطن وفي السائل بكونه عاجزا عن الكسب فإن القادر على الكسب وهو بطلان ليس له السؤال إلا إذا استغرق طلب العلم أوقاته وكل من له خط فهو قادر على الكسب بالوراقة . وأما المستغنى فهو الذي يطلب شيئا عنده مثله وأمثاله فسؤاله حرام قطعا وهذا من طرفان واضحان وأما المحتاج حاجة مهمة فكل مريض الذي يحتاج إلى دواء ليس يظهر خوفه لو لم يستعمله ولكن لا يخلو عن خوف وكن له جبة لا قميص تحتها في الشتاء وهو يتأذى بالبرد تأذيا لا ينتهي إلى حد الضرورة وكذلك من يسأل لأجل الكراء وهو قادر على الشيء بمشقة ، فهذا أيضا ينبغي أن تسترسل عليه الإباحة لأنها أيضا حاجة محقة ولكن الصبر عنه أولى وهو بالسؤال تارك للأولى ولا يسمى سؤاله مكروها مهما صدق في السؤال وقال ليس تحت جبتي قميص والبرد يؤذي أذى أظيفه ولكن يشق على فإذا صدق فصدقه يكون كفارة لسؤاله إن شاء الله تعالى . وأما الحاجة الخفيفة فمثل سؤاله قميصا يلبسه فوق ثيابه عند خروجه ليستر الحروق من ثيابه عن أعين الناس وكن يسأل لأجل الأدم وهو واحد للخبز وكن يسأل الكراء لفرس في الطريق وهو واحد كراء الحمار أو يسأل كراء الحمل وهو قادر على الرحلة فهذا ونحوه إن كان فيه تلبس حال باظهار حاجة غير هذه فهو حرام وإن لم يكن وكان في شيء من المحذورات الثلاثة من الشكوى والذل وإيذاء المسئول فهو حرام لأن مثل هذه الحاجة لا تصلح لأن تباح بها هذه المحذورات وإن لم يكن فيها شيء من ذلك فهو مباح مع الكراهة . فإن قلت فكيف يمكن إخلاء السؤال عن هذه المحذورات . فاعلم أن الشكوى تندفع بأن يظهر الشكر لله والاستغناء عن الخلق ولا يسأل سؤال محتاج ولكن يقول أنا مستغن بما أملكه ولكن تطالبني رعونة النفس بثوب فوق ثيابي وهو فضلة عن الحاجة وفضول من النفس فيخرج به عن حد الشكوى . وأما الذل فإن يسأل أباه أو قريبه أو صديقه الذي يعلم أنه لا ينقصه ذلك في عينه ولا يزدريه بسبب سؤاله أو الرجل السخي الذي قد أعدت ماله لكل هذه الكرام فيخرج بوجود مثله ويتقلد منه منته بقبوله فيستقط عند الذل بذلك فإن الذل لازم للفتة لا محالة . وأما الإيذاء فسبيل الخلاص عنه أن لا يعين شخصا بالسؤال بعينه بل يلقي الكلام عرضا بحيث لا يقدم على البذل إلا متبرع بصدق الرغبة وإن كان في القوم شخص مرموق لو لم يبذل لكان يلام فهذا إيذاء فانه ربما يبذل كرها خوفا من اللامة ويكون الأحب إليه في الباطن الخلاص لو قدر عليه من غير اللامة . وأما إذا كان يسأل شخصا معينا فينبغي أن لا يصرح بل يعرض تعريضا يبق له سبيلا إلى التعاقل إن أراد فإذا لم يتعاضل مع القدرة عليه فذلك لرغبته وأنه غير متأذبه وينبغي أن يسأل من لا يستحيا منه لورده أو يتعاضل عنه فإن الحياة من السائل يؤدي كآأن الرياء مع غير السائل يؤدي . فإن قلت فإذا أخذ مع العلم بأن باعث العطي هو الحياة منه أو من الحاضرين ولولا لما ابتداء به فهل هو حلال أو شبهة . فأقول ذلك حرام محض لا خلاف فيه بين الأمة وحكمه حكم أخذ المال الغير بالضرب والصادرة إذ لا فرق بين أن يضرب ظاهر جلده بسياط الخشب أو يضرب باطن قلبه بسوط الحياة وخوف اللام وضرب الباطن أشد نكابة في قلوب العقلاء

بعضهم الإحياء صفة  
الهي كالخلق صفة  
الخالق وقال - قل الروح  
من أمر ربى - وأمره  
كلامه وكلامه ليس  
بمخلوق أى صار إلى  
حيا بقوله كن حيا  
وعلى هذا لا يكون  
الروح معنى في الجسد  
فمن الأقوال ما يدل  
على أن قائله يستفد قيم  
الروح ومن الأقوال  
ما يدل على أنه يستفد  
حدوته ثم إن الناس  
مختلفون في الروح القدى  
مثل رسول الله صلى  
الله عليه وسلم عنه  
فقال قوم هو جبرائيل  
وتنقل عن أمير المؤمنين  
على بن أبى طالب رضى  
الله عنه أنه قال هو  
ملك من الملائكة له

ولا يجوز أن يقال هو في الظاهر قدرضى به وقد قال صلى الله عليه وسلم « إنما أحكم بالظاهر والله يتولى السرائر »<sup>(١)</sup> فإن هذه ضرورة القضاة في فصل الخصومات إذ لا يمكن ردهم إلى البواطن وقرائن الأحوال فاضطروا إلى الحكم بظاهر القول باللسان مع أنه ترجمان كثير الكذب ولكن الضرورة دعت إليه وهذا سؤال عما بين البعد وبين الله تعالى والحاكم فيه أحكم الحاكمين والقلوب عنده كاللجنة عند سائر الحكام فلا تنظر في مثل هذا إلا إلى قلبك وإن أتوك وأخوك فإن المفق مع للقاضي والسلطان ليحكموا في عالم الشهادة ومنفى القلوب هم علماء الآخرة وبتوأم النجاة من سطوة سلطان الآخرة كما أن بختوى الفقيه النجاة من سطوة سلطان الدنيا فإذا ما أخذ مع الكراهة لا يملكه بينه وبين الله تعالى ويجب عليه رده إلى صاحبه فإن كان يستحي من أن يسترده ولم يسترده فليبه أن يشبه على ذلك بما يساوى قيمته في معرض الهذية والمقاولة ليتقصى عن مهذبه فإن لم يقبل هديته فليبه أن يرد ذلك إلى ورثته فإن تلف في يده فهو مضمون عليه بينه وبين الله تعالى وهو عاص بالتصرف فيه وبالسؤال الذي حصل به الأذى . فإن قلت فهذا أمر باطن يصير الإطلاع عليه فكيف السبيل إلى الخلاص منها فربما يظن السائل أنه راض ولا يكون هو الباطن راضاً . فأقول لهذا ترك للتقوى السؤال رأساً لما كانوا يأخذون من أحد شيئاً أصلاً فكان بشر لا يأخذ من أحد أصلاً إلا من السرى رحمة الله عليهما وقال لأنى علمت أنه يفرج غروج السال من يده فأنا أعينه على ما يحب وإنما عظم التكبر في السؤال وتأكد الأمر بالتعفف لهذا لأن الأذى إنما يحصل بضرورة وهو أن يكون السائل مشرفاً على الهلاك ولم يبق له سبيل إلى الخلاص ولم يجد من يعطيه من غير كراهة وأذى فيباح له ذلك كما يباح له أكل لحم الخنزير وأكل لحم الميتة فكان الامتناع طريق الورع ومن أرباب القلوب من كان وانما يصبرته في الإطلاع على قرائن الأحوال فكانوا يأخذون من بعض الناس دون البعض ومنهم من كان لا يأخذ إلا من أصدقائه ومنهم من كان يأخذ مما يعطى بعضاً ويرد بعضاً كما فعل رسول الله ﷺ في الكبش والسمن والأخط وكان هذا فيما يأتيهم من غير سؤال فإن ذلك لا يكون إلا عن رغبة ولكن قد تكون رغبته طمعا في جاه أو طلباً للرياء والسمعة فكانوا يحترزون من ذلك فأما السؤال فقد امتنعوا عنه رأساً إلا في موضعين أحدهما الضرورة فقد سأل ثلاثة من الأنبياء في موضع الضرورة سليمان وموسى والخضر عليهم السلام ولا شك في أنهم سألوا إلا من علموا أنه يرغب في إعطائهم . والثاني السؤال من الأصدقاء والاخوان فقد كانوا يأخذون ما لهم بغير سؤال واستئذان لأن أرباب القلوب علموا أن المطلب رضا القلب لا نطق اللسان وكانوا قد وثقوا باخوانهم أنهم كانوا يفرحون بمباستهم فإذا كانوا يسألون الاخوان عند شكهم في اقتدار إخوانهم على ما يريدونه وإلّا فكانوا يستغنون عن السؤال ، وحد إباحة السؤال أن تعلم أن السؤال بصفة لو علم ما بك من الحاجة لا بد أنك دون السؤال فلا يكون لسؤالك تأثير إلا في تعريض حاجتك فأما في تحريكه بالحياء وإثارة داعيته بالحيل فلا يتصدى للسائل حالة لا يشك فيها في الرضا بالباطن وحالة لا يشك في الكراهة ويعلم ذلك بقرينة الأحوال فالأخذ في الحالة الأولى حلال مطلق وفي الثانية حرام سحت ويتردد بين الحالتين أحوال يشك فيها فليست قلبه فيها وليترك حراز القلب فإنه الاتم وليدع ما يريه إلى ما لا يريه وإدراك ذلك بقرائن الأحوال سهل على من قويت فطنته وضعف حرصه وشهوته فإن قوى الحرص وضعفت الفطنة رأى له ما يوافق حرصه فلا يشغلن للقرائن الدالة على الكراهة وبهذه الدقائق يطالع على سر قوله صلى الله عليه وسلم « إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه »<sup>(٢)</sup>

سبعون ألف وجهه  
ولكل وجه منه  
سبعون ألف لسان  
ولكل لسان منه  
سبعون ألف لغة يسبح  
الله تعالى بتلك اللغات  
كلها ويخلق من كل  
تسبيحة ملكاً يطير مع  
اللائكة إلى يوم  
القيامة . وروى عن  
عبد الله بن عباس  
رضي الله عنهما أن  
الروح خلق من خالق  
الله صورهم على صورة  
بنى آدم وما نزل من  
السماء ملك إلا ومعه  
واحد من الروح وقال  
أبو صالح الروح كهنة  
الانسان وليسوا بناس  
وقال مجاهد الروح على  
صورة بنى آدم لهم أيد  
وأرجل . وروى

(١) حديث إنما نحكم بالظاهر والله يتولى السرائر لم أجده أصلاً وكذا قال الزى لما سئل عنه.

(٢) حديث إن أطيب ما أكل الرجل من كسبه تقدم .

وقد أوتي جوامع الكلم لأن من لا كسب له ولا مال ورثه من كسب أيه أو أحد قرابته فيأكل من أيدي الناس وإن أعطى بغير سؤال فأنما يعطى بدينه ومتى يكون باطنه بحيث لو انكشف لا يعطى بدينه فيكون ما يأخذه حراما وإن أعطى بسؤال فأين من يطيب قلبه بالعطاء إذا سئل وأين من يقتصر في السؤال على حد الضرورة ، فإذا فقتت أحوال من يأكل من أيدي الناس علمت أن جميع ما يأكله أو أكثره سحت وأن الطيب هو الكسب الذي اكتسبه بجهلك أنت أو مورثك فإذا بيد أن يجتمع الورع مع الأكل من أيدي الناس ، فنسأل الله تعالى أن يقطع طمعنا عن غيره وأن يحنينا بعمله عن حرامه وبغضه عن سواه بمنه وسعة جوده فانه على ما يشاء قدير .

### ( بيان مقدار النفي المحرم للسؤال )

اعلم أن قوله صلى الله عليه وسلم « من سأل عن ظهر غنى فأنما يسأل جمرًا فليستقل منه وأليستكثر » صريح في التحريم ، ولكن حدث النفي مشكل وتقديره عسيره وليس إلينا وضع المقادير بل يستدرك ذلك بالتوقيف ، وقد ورد في الحديث « استغنوا بنفى الله تعالى عن غيره قالوا وما هو قال غدا يوم وعشاء ليلة <sup>(١)</sup> » وفي حديث آخر « من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب قد سأل إلخافا <sup>(٢)</sup> » وورد في لفظ آخر « أربعمائة درهم » ومهما اختلفت التقديرات وصحت الأخبار فينبى أن يقطع بوزودها على أحوال مختلفة فإن الحق في نفسه لا يكون إلا واحدا والتقدير مجتمع وغاية الممكن فيه تقريب ولا يتم ذلك إلا بتقسيم محيط بأحوال المحتاجين ، فنقول . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لاحق لابن آدم إلا في ثلاث طعام يقيم صلبه وثوب يوارى به غورته ويبت يكتنه فإزاد فهو حساب » فلنجعل هذه الثلاث أصلا في الحاجات لبيان أجناسها والنظر في الأجناس والمقادير والأوقات ، فأما الأجناس فهي هذه الثلاث ويلحق بها ما في معناها حتى يلحق بها الكراء للسافر إذا كان لا يقدر على الشيء وكذلك ما يجري مجراه من المهمات ويلحق بنفسه عياله وولده وكل من تحت كفائه كالدابة أيضا . وأما المقادير فالثوب يراعى فيه ما يليق بدوى الدين وهو ثوب واحد وقيص ومنديل وسراويل ومبداس وأما الثاني من كل جنس فهو مستغن عنه وليقس على هذا أثاث البيت جميعا ولا ينفى أن يطلب رقة الثياب وكون الأواني من النحاس والصفى فما يكفي فيه الحزف فإن ذلك مستغنى عنه فيقتصر من العدد على واحد ومن النوع على أحسن أجناسه ما لم يكن في غاية البعد عن العادة . وأما الطعام فقدرة في اليوم مد وهو ما قدره الشرع ونوعه ما يقتات ولو كان من الشعير والأدم على الدوام فضلة وقطعه بالسكية إضرار في طلبه في بعض الأحوال رخصة . وأما السكن فأنه ما يعجز عن من حيث المقدار وذلك من غير زينة فأما السؤال للزينة والتوسع فهو سؤال عن ظهر غنى وأما بالإضافة إلى الأوقات فما يحتاج إليه في الحال من طعام يوم وليلة وثوب يلبسه وماوى يكتنه فلا شك فيه فأما سؤاله للمستقبل فهذا له ثلاث درجات : إحداها ما يحتاج إليه في غد . والثانية ما يحتاج إليه في أربعين يوما أو خمسين يوما . والثالثة ما يحتاج إليه في السنة ، ولتقطع بأن من معه ما يكفيه له ولعياله إن كان له عيال لسنة نسأل الله حرام فإن ذلك غاية النفي وعليه ينزل التقدير بخمسين درهما في الحديث فإن خمسة دنانير تكفى للفرد

(١) حديث استغنوا بنفى الله قالوا وما هو قال غدا يوم وعشاء ليلة تقدم في الزكاة من حديث سهل ابن الحنظلية قالوا ما ينبغي قال ما ينديه أو يمشيه ولأحمد من حديث على بأسناد حسن قالوا وما ظهر غنى؟ قال عشاء ليلته وأما اللفظ الذي ذكره الصنف فذكره صاحب الفردوس من حديث أبي هريرة .  
(٢) حديث من سأل وله خمسون درهما أو عدلها من الذهب قد سأل إلخافا وفي لفظ آخر أربعمائة درهما تقدما في الزكاة .

يا كلون الطعام وليسوا  
بلائكة وقال سعيد  
ابن جبير لم يخلق الله  
خلقا أعظم من الروح  
غير العرش ولو شاء  
أن يبلغ السموات  
والأرضين السبع في  
لقمة لفعل صورة  
خلقه على صورة  
اللائكة وصورة  
وجهه على صورة  
الآدميين يقوم يوم  
القيامة عن عرش العرش  
واللائكة معه في صف  
واحد وهو عن يمين  
لأهل التوحيد ولولأن  
بينه وبين اللائكة  
سترا من نور لحرق  
أهل السموات من  
نوره فهذه الأقاويل  
لا تكون إلا قلا وسماحا  
بلفهم عن رسول الله

في السنة إذا اقتصد أما للعيل فربما لا يكفيه ذلك وإن كان يحتاج إليه قبل السنة فإن كان قادرا على السؤال ولا تقوته فرصه فلا يخل له السؤال لأنه مستغن في الحال وربما لا يعيش إلى الغد فيكون قد سأل ما لا يحتاج فيكفيه هدام يوم وعشاء ليلة وعليه ينزل الخبر الذي ورد في التقدير بهذا القدر وإن كان يقوته فرصة السؤال ولا يجد من يسطيه لو أخر فيسأل له السؤال لأن أمل البقاء سنة غير بعيد فهو بتأخير السؤال خائف أن يبقى مضطرا عاجزا عما يجنبه فإن كان خوف العجز عن السؤال في المستقبل ضعيفا وكان مألجا السؤال خارجا عن محل الضرورة لم يخل سؤاله عن كراهية وتكون كراهته بحسب درجات ضعف الاضطراب وخوف القوت وتراخي اللذة التي فيها يحتاج إلى السؤال وكل ذلك لا يقبل الضبط وهو منوط باجتهاد المبد ونظرة لنفسه بينه وبين الله تعالى فيستغنى فيه قلبه ويسمى به إن كان سالكا طريق الآخرة وكل من كان يقينه أقوى وقته بجي الرزق في المستقبل ثم وقناعته بقوت الوقت أظهر قدرته عند الله تعالى أظلى فلا يكون خوف الاستقبال وقد آتاك الله قوت يومك لك ولعياذك إلامن ضعف اليقين والاصفاء إلى تخويف الشيطان وقد قال تعالى - فلا تخافون وخافون إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفتنة والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - والسؤال من القنحاء التي أبحث بالضرورة وحال من يسأل حاجة متراخية عن يومه وإن كان مما يحتاج إليه في السنة أشد من حال من ملك مالا موروثا وادخره لحاجة وراء السنة وكلاهما مباحان في الفتوى الظاهرة ولكنهما صادران عن حب الدنيا وطول الأمل وعدم الثقة بفضل الله وهذه الحصلة من أمهات الهلكات ، نسأل الله حسن التوفيق بلطفه وكرمه .

#### ( بيان أحوال السائلين )

كان بشر رحمه الله يقول الفقراء ثلاثة : فقير لا يسأل وإن أعطى لا يأخذ فهذا مع الروحانيين في عليين وفقير لا يسأل وإن أعطى أخذ فهذا مع القرين في جنات الفردوس وفقير يسأل عند الحاجة فهذا مع الصادقين من أصحاب اليمين فاذن قد اتفق كلهم على فم السؤال وعلى أنه مع الفاقة يحط المرتبة والدرجة . قال شقيق البلخي لأبراهيم بن آدم حين قدم عليه من خراسان كيف تركت الفقراء من أصحابك قال تركتهم إن أعطوا شكروا وإن منعوا صبروا وظن أنهم لا وصفهم بترك السؤال قد أنشئ عليهم غاية الالتئام فقال شقيق هكذا تركت كلاب بلخ عندنا فقال له إبراهيم فكيف الفقراء عندك يا أبا إسحق فقال الفقراء عندنا إن منعوا شكروا وإن أعطوا آثروا وقبل رأسه وقال صدقت يا أستاذ فاذن درجات أرباب الأحوال في الرضا والصبر والشكر والسؤال كثيرة فلا بد لسالك طريق الآخرة من معرفتها ومعرفة انقسامها واختلاف درجاتها فانه إذا لم يعلم لم يقدر على الرقي من حضيضها إلى قلاعها ومن أسفل سافلين إلى أعلى عليين وقد خلق الانسان في أحسن تقويم ثم رده إلى أسفل سافلين ثم أمر أن يترك إلى أعلى عليين ومن لا يعبر بين السفل والعلو لا يقدر على الرقي قطعا وانما الشك فيمن عرف ذلك فانه ربما لا يقدر عليه وأرباب الأحوال قد تغلبهم حالة تقتضي أن يكون السؤال مزيدا لهم في درجاتهم ولكن بالاضافة إلى حالهم فان مثل هذه الأعمال بالنيات وذلك كما روي أن بعضهم رأى أبا إسحق النوري رحمه الله يعيده ويسأل الناس في بعض المواضع قال فاستعظمت ذلك واستجبته له فأثبت الجنيده رحمه الله فأخبرته بذلك فقال لا يعظم هذا عليك فان النوري لم يسأل الناس إلا لمعطهم وانما سألهم ليثيبهم في الآخرة فيؤجرون من حيث لا يضرهم وكأنه أشار به إلى قوله صلى الله عليه وسلم « يد العطي هي العليا <sup>(١)</sup> » فقال بعضهم يد العطي هي يد الآخذ للسأل لأنه يحظى الثواب والقدره

صلى الله عليه وسلم ذلك وإذا كان الروح السئول عنه شيئا من هذا المنقول فهو غير الروح الذي في الجسد فلي هذا يسوغ القول في هذا الروح ولا يكون الكلام فيه ممنوعا وقال بعضهم الروح لطيفة تسرى من الله إلى أما كن معروفة لا يعبر عنه بأكثر من موجود بإيجاد غيره وقال بعضهم الروح لم يخرج من كن لأنه لو خرج من كن كان عليه القدر قبل فمن أي شيء خرج قال من بين جماله وجلاله سبحانه وتعالى بملاحظة الإشارة خصها بسلامه وجاها بكلامه

(١) حديث يد العطي هي العليا - لم من حديث أبي هريرة .

لأما يأخذه ثم قال الجنيد هات اليزان فوزن مائة درهم ثم قبض قبضة فألقاها على المائدة ثم قال احملها إليه فقلت في نفسي إنما يوزن الشيء لمعرفة مقداره فكيف خلط به مجهول وهو رجل حكيم واستحييت أن أسأله فذهبت بالصرة إلى النوري فقال هات اليزان فوزن مائة درهم وقال ردّها عليه وقل له أنا لا أقبل منك أنت شيئا وأخذ مازاد على المائدة قال فزاد تعجبي فسأله فقال الجنيد رجل حكيم يريد أن يأخذ الجبل بطريقه وزن المائدة لنفسه طلبا لبواب الآخرة وطرح عليها قبضة بلا وزن ثم عز وجل فأخذت ما كان لله تبارك وتعالى ورددت ما جعله لنفسه قال فرددتها إلى الجنيد فبكي وقال أخذ ماله ورد مالنا الله السمتان، فانظر الآن كيف صفت قلوبهم وأحوالهم وكيف خلصت لله أعمالهم حتى كان يشاهد كل واحد منهم قلب صاحبه من غير منطقة باللسان ولكن بتشاهد القلوب وتناجي الأسرار وذلك نتيجة أكل الحلال وخلو القلب عن حب الدنيا والاقبال على الله تعالى بكنه المهمة فمن أنكر ذلك قبل تجربة طريقه فهو جاهل كمن ينكر مثلا كون الدواء مسهلا قبل شربه ومن أنكره بعد أن طال اجتناؤه حتى بذل كنهه مجهوده ولم يصل فأنكر ذلك لغيره كان كمن شرب للسبيل فلم يؤثر في حقه خاصة لعله في باطنه فأخذ ينكر كون الدواء مسهلا وهذا وإن كان في الجهل دون الأول ولكنه ليس خاليا عن حظ واف من الجهل بل البصير أحد رجلين إما رجل سلك الطريق فظهر له مثل ما ظهر لهم فهو صاحب الذوق والمعرفة وقد وصل إلى عين اليقين وإما رجل لم يسلك الطريق أو سلك ولم يصل ولكنه آمن بذلك وصدق به فهو صاحب علم اليقين وإن لم يكن واصلا إلى عين اليقين ولم يعلم اليقين أيضا رتبة وإن كان دون عين اليقين ومن خلا عن علم اليقين وعين اليقين فهو خارج عن زمرة المؤمنين وبخسر يوم القيامة في زمرة الجاحدين المستكبرين الذين هم قتل القلوب الضعيفة وأتباع الشياطين فنسأل الله تعالى أن يجعلنا من الراغبين في العلم القائلين آمنا به كل من عند ربنا وما يذكر إلا أولو الأبواب .

[الشرط الثاني من الكتاب في الزهد] وفيه بيان حقيقة الزهد وبيان فضيلة الزهد وبيان درجات الزهد وأقسامه وبيان تفصيل الزهد في اللطم والملبس والسكن والأثاث وضروب العيشة وبيان علامة الزهد .

### ( بيان حقيقة الزهد )

اعلم أن الزهد في الدنيا مقام شريف من مقامات السالكين وينتظم هذا المقام من علم وحال وعمل كاشف القامات لأن أبواب الإيمان كلها كما قال السلف ترجع إلى عقد وقول وعمل وكأن القول لظهوره أقيم مقام الحال إذ به يظهر الحال الباطن والإفليس القول مرادا لعينه وإن لم يكن صادرا عن حال سمى إسلاما ولم يسم إيمانا والعلم هو السبب في حال يجرى مجرى الثمر والعمل يجرى من الحال مجرى الثمرة فلذلك الحال مع كلاً طرفيه من العلم والعمل . أما الحال فتعني بها ما يسمى زهدا وهو عبارة عن انصراف الرغبة عن الشيء إلى ما هو خير منه فكل من عدل عن شيء إلى غيره بمحاوطة وبيع وغيره فأنما عدل عنه لرغبته عنه وإنما عدل إلى غيره لرغبته في غيره فإله بالاضافة إلى العدول عنه يسمى زهدا وبالاضافة إلى العدول إليه يسمى رغبة وحيا فإذا نبتدعى حال الزهد مرغوبا عنه ومرغوبا فيه هو خير من المرغوب عنه وشرط المرغوب عنه أن يكون هو أيضا مرغوبا فيه بوجه من الوجوه فمن رغب عما ليس مطلوبه في نفسه لا يسمى زهدا إذا ترك الحجر والتراب وما أشبهه لا يسمى زهدا وإنما يسمى زهدا من ترك الدرهم والدنانير لأن التراب والحجر ليسا في مظنة الرغبة وشرط للرغوب فيه أن يكون عنده خيرا من الرغوب عنه حتى تغلب هذه الرغبة فالبايع لا يقدم على البيع إلا والمشتري عنده خير من البيع فيكون حاله بالاضافة إلى البيع زهدا فيه وبالاضافة إلى الموضع عنه رغبة فيه وحبا ولذلك قال الله تعالى - وشروه بضمن نحس دراهم معدودة وكانوا فيه من الزاهدين - مناه باعوه فقد يطلق الشراء بمعنى البيع

فهو مستقمن فل كن  
وسئل أبو سعيد الخراز  
عن الروح مخلوقة هي  
قال نعم ولولا ذلك  
ما أقرت بالربوبية  
حيث قالت بلى والروح  
هي التي قام بها البدن  
واستحق بها اسم الحياة  
وبالروح ثبت العقل  
وبالروح قامت الحجة  
ولو لم يكن الروح  
كان العقل معطلا  
لا حجة عليه ولا له  
وقيل إنها جوهر مخلوق  
واصكها لطف  
المخلوقات وأصفي  
الجواهر وأنورها وبها  
تراءى النفوس وبها  
يكون الكشف لأهل  
الحقائق وإذا حببت  
الروح عن مراعاة  
السرايا الجوارح

ووصف إخوة يوسف بالزهد فيه إذ طعموا أن يغلولهم وجه أيهم ، وكان ذلك عندهم أحب إليهم من يوسف فباعوه طمعا في العوض فاذن كل من باع الدنيا بالآخرة فهو زاهد في الدنيا ، وكل من باع الآخرة بالدنيا فهو أيضا زاهد ولكن في الآخرة ولكن المادة جارية بتخصيص اسم الزهد بمن يزهد في الدنيا كما خصص اسم الإلحاد بمن عيّل إلى الباطل خاصة وإن كان هو للبل في وضع اللسان ولما كان الزهد رغبة عن محبوب بالجملة لم يتصور إلا بالدول إلى شيء هو أحب منه وإلا فترك المحبوب بغير الأحب محال والذي يرغب عن كل ماسوى الله تعالى حتى الفرائس ولا يحب إلا الله تعالى فهو الزاهد المطلق ، والذي يرغب عن كل حظ يناله في الدنيا ولم يزهد في مثل تلك المحظوظ في الآخرة بل طمع في الحور والقصور والأنهار والقواكه فهو أيضا زاهد ولكنه دون الأول والذي يترك من حظوظ الدنيا البعض دون البعض كالذي يترك المال دون الجاه أو يترك التوسع في الأكل ولا يترك التجميل في الزينة فلا يستحق اسم الزاهد مطلقا ودرجته في الزهاد درجة من يتوب عن بعض المعاصي في التائبين وهو زهد صحيح كما أن التوبة عن بعض المعاصي صحيحة فإن التوبة عبارة عن ترك المحظورات . والزهد عبارة عن ترك المباحات التي هي حظ النفس ، ولا يبعد أن يقدر على ترك بعض المباحات دون بعض كما لا يبعد ذلك في المحظورات ، وللتقصر على ترك المحظورات لا يسمى زاهدا وإن كان قد زهد في المحظور وانصرف عنه ولكن المادة تخصص هذا الاسم بترك المباحات فاذن الزهد عبارة عن رغبته عن الدنيا عدولا إلى الآخرة أو عن غير الله تعالى عدولا إلى الله تعالى وهي الدرجة العليا وكما يشترط في للرغوب فيه أن يكون خيرا عنده فيشترط في للرغوب عنه أن يكون مقدورا عليه فإن ترك مالا يقدر عليه محال وبالترك يتبين زوال الرغبة ، ولذلك قيل لابن المبارك يا زاهد فقال الزاهد عمر بن عبد العزيز إذ جاءته الدنيا راغمة فتركها ، وأما أنا فضاذا زهدت ؟ . وأما العلم الذي هو منبر لهذه الحال فهو العلم بكون التروك حقيقا بالاضافة إلى للأخذ كعلم التاجر بأن العوض خير من البيع فيرغب فيه ومالم يتحقق هذا العلم لم يتصور أن تزول الرغبة عن البيع فكذلك من عرف أن ماعند الله باق وأن الآخرة خير وأبقى لذاتها خير في أنفسها وأبقى كما تكون الجواهر خيرا وأبقى من الثلج مثلا . ولا يسر على مالك الثلج يبعه بالجواهر والآلئ . فهكذا مثال الدنيا والآخرة فالدنيا كالثلج اللزج في الشمس لا يزال في الدوبان إلى الانقراض والآخرة كالجواهر التي لا تناء له فيقدر قوة اليقين والمعرفة بالتفاوت بين الدنيا والآخرة فتوى الرغبة في البيع والمعاملة حتى إن من قوى يقينه يبيع نفسه وماله كما قال الله تعالى - إن الله اشترى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة . ثم بين أن صفقتهم رابحة فقال تعالى - فاستبشروا ببيعكم الذي بايعتم به - فليس يحتاج من العلم في الزهد إلا إلى هذا القدر وهو أن الآخرة خير وأبقى وقد يعلم ذلك من لا يقدر على ترك الدنيا : إما لضف عليه ويقينه . وإما لاستيلاء الشهوة في الحال عليه وكونه مقهورا في يد الشيطان . وإما لاغتراره بعوايد الشيطان في التصوف يوما بعد يوم إلى أن يحتطفه للوت ولا يبقى معه إلا الحسرة بعد القوت وإلى تعريف خسارة الدنيا الاشارة بقوله تعالى - قل متاع الدنيا قليل - وإلى تعريف تقاسة الآخرة الاشارة بقوله عز وجل - وقال الدين أوتوا العلم وبلغكم ثواب الله خير - فبه على أن العلم بتقاسة الجواهر هو الرغب عن عوضه ولما لم يتصور الزهد إلا بمداومة ورغبة عن المحبوب في أحب منه . قال الرجل في دعائه اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له النبي صلى الله عليه وسلم لا تقل هكذا ولكن قل أرني

للأدب ولذلك صارت  
الروح بين تجل واستار  
وقابض ونازع وقيل  
الدنيا والآخرة عند  
الأرواح سواء وقيل  
الأرواح أقسام أرواح  
تجول في البرزخ وتبصر  
أحوال الدنيا والآخرة  
وتسمع ما تحدث به  
في السماء عن أحوال  
الآدميين وأرواح  
تحت العرش وأرواح  
طيارة إلى الجنان  
والى حيث شاءت على  
أقدارها من السعي  
إلى الله أيام الحياة .  
وروى سعيد بن السبب  
عن سلمان قال أرواح  
للؤمنين تذهب في  
برزخ من الأرض  
حيث شاءت بين السماء  
والأرض حتى يردّها



الدنيا كأربتها الصالحين من عبادك (١) « وهذا لأن الله تعالى يراها حقيرة كما هي وكل مخلوق فهو بالاضافة إلى جلاله حقير والمبد يراها حقيرة في حق نفسه بالاضافة إلى ما هو خير له ولا يتصور أن يرى بائع القرس وإن رغب عنه فرسه كما يرى حشرات الأرض مثلاً لأنه مستغن عن الحشرات أصلاً وليس مستغنياً عن الفرس والله تعالى غنى بذاته عن كل ماسواه فيرى السكل في درجة واحدة بالاضافة إلى جلاله وبراء متفاوتا بالاضافة إلى غيره والزاهد هو الذي يرى تفاوته بالاضافة إلى نفسه لا إلى غيره . وأما العمل الصادر عن حال الزهد فهو ترك واحد لأنه يبيع ومعاملة واستبدال للذي هو خير بالذي هو أدنى فكما أن العمل الصادر من عقد البيع هو ترك البيع وإخراجه من اليد وأخذ العوض فكذلك الزهد يوجب ترك للزهد فيه بالكلية وهي الدنيا بأسرها مع أسبابها ومقدماتها وعلاقتها فيخرج من القلب حبها ويدخل حب الطاعات ويخرج من العين واليد ما أخرجه من القلب ويوظف على اليد والعين وسائر الجوارح وظائف الطاعات وإلا كان كمن سلم للبيع ولم يأخذ الثمن فإذا وفي بشرط الجانبين في الأخذ والترك فليست بشرط يبيعه الذي يبيع به فإن الذي يبيعه بهذا البيع وفي بالمعهد فمن سلم حاضر في غائب وسلم الحاضر وأخذ يسعى في طلب الغائب سلم إلى الغائب حين فراغه من سعيه إن كان العاقد ممن يوثق بسدقه وقدرته ووفائه بالمعهد وما دام محسباً للدنيا لا يصح زهده أصلاً ولذلك لم يصف الله تعالى إخوة يوسف بالزهد في بنيامين وإن كانوا قد قالوا - ليوسف وأخوه أحب إلى أيها منا - وعزموا على إبادة كما عزموا على يوسف حتى تشفع فيه أحدهم فترك ولا وصفهم أيضاً بالزهد في يوسف عند العزم على إخراجه بل عند التسليم والبيع فضلالة الرغبة في الماسك وعلامة الزهد الإخراج فان أخرجت عن اليد بعض الدنيا دون البعض فأنت زاهد فيما أخرجت فقط . ولست زاهداً مطلقاً وإن لم يكن لك مال ولم تساعدك الدنيا لم تصور منك الزهد لأن ما لا يقدر عليه لا يقدر على تركه وربما يستويك الشيطان بفروره ويغيب إليك أن الدنيا وإن لم تأتك فأنت زاهد فيها فلا ينبغي أن تتدلى بعجل غروره دون أن تستوثق وتسنظر بموت غليظ من الله فانك إذا لم تجرب حال القدرة فلا تنق بالقدرة على الترك عندها فكف من ظان بنفسه كراهة للماض عند تعذرهما فلما تيسرت له أسبابها من غير مكدر ولا خوف من الخلق وقع فيها وإذا كان هذا غرور النفس في المخطورات فإياك أن تنق برعدها في الباحات واللوثق الغليظ الذي تأخذه عليها أن تجربها مرة بعد مرة في حال القدرة فإذا دفت بما وعدت على الدوام مع انتفاء الصوارف والأعذار ظاهراً وباطناً فلا بأس أن تنق بها وثوقاً ما ولكن تكون من تغيرها أيضاً على حذر فانها سرية النقض للعهد قرية الرجوع إلى مقتضى الطبع . وبالجملة فلا أمان منها إلا عند الترك بالاضافة إلى ما تركه قط وذلك عند القدرة . قال ابن أبي ليلى لابن شبرمة ألا ترى إلى ابن الحائك هذا لا تنق في مسألة إلا رد علينا يعني أبا حنيفة فقال ابن شبرمة لا أدري أهو ابن الحائك أم ماهو لكن أعلم أن الدنيا فدت إليه فهرب منها وهربت منا فطلبناها وكذلك قال جميع المسلمين على عهد رسول الله صلى الله عليه وسلم إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لقلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم أو أخرجوا من دياركم ما فعلوه إلا قليل منهم - (٢) .

(١) حديث قال رجل اللهم أرني الدنيا كما تراها فقال له لا تنقل هكذا ولكن قل أرني الدنيا كما أريتها الصالحين من عبادك ذكره صاحب الفردوس مختصراً اللهم أرني الدنيا كما تريها صالح عبادك من حديث أبي بصير ولم يخرجوه ولده (٢) حديث قال المسلمون إنا نحب ربنا ولو علمنا في أي شيء يحبته لقلناه حتى نزل قوله تعالى - ولو أننا كتبنا عليهم أن يقتلوا أنفسهم - الآية لم أقف له على أصل .

إلى جسدها . وقيل إذا ورد على الأرواح ميت من الأحياء التقوا وتحدثوا وتساءلوا وركل الله بها ملائكة تعرض عليها أعمال الأحياء حتى إذا عرض على الأموات ما يعاقب به الأحياء في الدنيا من أجل الذنوب قالوا نعمتد إلى الله ظاهراً عنه فانه لا أحد أحب إليه العذر من الله تعالى وقد ورد في الخبر عن النبي صلى الله عليه وسلم « تعرض الأعمال يوم الاثنين والخميس على الله وتعرض على الأنبياء والآباء والأمهات يوم الجمعة فيفرحون بحسناتهم

قال ابن مسعود رحمه الله : قال لي رسول الله صلى الله عليه وسلم أنت منهم يعني من القليل قال وما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - (١) . واعلم أنه ليس من الزهد ترك المال وبذله على سبيل السخاء والفتوة وعلى سبيل استئالة القلوب وعلى سبيل الطمع فذلك كله من محاسن العادات ولكن لا مدخل لشيء منه في العبادات وإنما الزهد أن تترك الدنيا لطلبك محاربتها بالإضافة إلى نفاسة الآخرة فأما كل نوع من الترك فانه يتصور ممن لا يؤمن بالآخرة فذلك قد يكون مروءة وفتوة وسخاء وحسن خلق ولكن لا يكون زهدا إذ حسن الذكر وميل القلوب من حظوظ العاجلة وهي الدواهي من اللال وكما أن ترك المال على سبيل السلم طمعا في العوض ليس من الزهد فكذلك تركه طمعا في الذكر والشاء والاعتبار بالفتوة والسخاء واستقلاله لما في حفظ المال من الشقة والصناء والحاجة إلى التذلل للسلطين والأغنياء ليس من الزهد أصلا بل هو استبدال حظ آخر للنفس بل الزاهد من أتته الدنيا راغمة صفوا عفوا وهو قادر على التمتع بها من غير نقصان جاءه وتبجح اسم ولا فوات حظ للنفس فتركها خوفا من أن يأني بها فيكون آتيا بنير الله ومحبها سوى الله ويكون مشركا في حب الله تعالى غيره أو تركها طمعا في ثواب الله في الآخرة فترك التمتع بأشربة الدنيا طمعا في أشربة الجنة وترك التمتع بالسراري والنسوان طمعا في الجور العين وترك التفرج في البساتين طمعا في بساتين الجنة وأشجارها وترك التزين والتجمل بزينة الدنيا طمعا في زينة الجنة وترك للطعام اللذيذة طمعا في فواكه الجنة وخوفا من أن يقال له - أذهبتم طياتكم في حياتكم الدنيا - فأثر في جميع ذلك ما وعده في الجنة على ما تيسر له في الدنيا عفوا صفوا لعله بأن مافي الآخرة خير وأبقى وأن ماسوى هذا لمعاملات دنيوية لا جدوى لها في الآخرة أصلا .

### ( بيان فضيلة الزهد )

قال الله تعالى - فخرج على قومه في زينته - إلى قوله تعالى : وقال الذين أوتوا العلم ويلكم ثواب الله خير لمن آمن - فنسب الزهد إلى العلماء ووصف أهله بالعلم وهو غاية الثناء وقال تعالى - أولئك يؤتون أجرهم مرتين بما صبروا - وجاء في التفسير على الزهد في الدنيا وقال عز وجل - إنا جعلنا ما على الأرض زينة لها لنبلوهم أيهم أحسن عملا - قيل معناه أيهم أزهد فيها فوصف الزهد بأنه من أحسن الأعمال وقال تعالى - من كان يريد حرث الآخرة نزد له في حرثه ومن كان يريد حرث الدنيا نؤته منها وماله في الآخرة من نصيب - وقال تعالى - ولا تمدن عيئك إلى ما تمننا به أزواجنا منهم زهرة الحياة الدنيا لنفتنهم فيه ورزق ربك خير وأبقى - وقال تعالى - الذين يستجيبون الحياة الدنيا على الآخرة - فوصف الكفار بذلك ففهموه أن المؤمن هو الذي يتصف بتقيضه وهو أن يستحب الآخرة على الحياة الدنيا . وأما الأخبار : فما ورد منها في ذم الدنيا كثير وقد أوردنا بعضها في كتاب ذم الدنيا من ربيع الهلكات إذ حب الدنيا من الهلكات ونحن الآن تقتصر على فضيلة بعض الدنيا فانه من النجيات وهو المعنى بالزهد وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره وفرق عليه ضيعته وجعل قمره بين عينه ولم يأته من الدنيا إلا ما كتب له ومن أصبح وهمه الآخرة جمع الله له همه وحفظ عليه ضيعته وجعل غناه في قلبه وأتته الدنيا وهي راغمة » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « إذا رأيتم العبد وقد أعطى صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه »

وتزدد وجوههم ياضا وإشراقا » فاتقوا الله تعالى ولا تؤذوا موتاكم وفي خبر آخر « إن أعمالكم تعرض على عشائركم وأقاربكم من اللوق فان كان حسنا استبشروا وإن كان غير ذلك قالوا اللهم لاتنهم حتى تهديهم كما هديتنا » وهذه الأخبار والأقوال تدل على أنها أعيان في الجسد وليست بمجان وأعراض ، مثل الواسطي لأى علة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحلم الخلق ؟ قال لأنه خلق روحه أولا فوقع له صحة التحكين والاستقرار الآراء يقول « كنت

(١) حديث ابن مسعود ما عرفت أن فينا من يحب الدنيا حتى نزل قوله تعالى - منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة - الآية البيهقي في دلائل النبوة بإسناد حسن (٢) حديث من أصبح وهمه الدنيا شقت الله عليه أمره الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بسند جيد والترمذي من حديث أنس بسند ضعيف نحوه

فانه يلقي الحكمة<sup>(١)</sup> وقال تعالى - ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيرا كثيرا لولذلك قيل: من زهد في الدنيا أربعين يوما أجرى الله ينابيع الحكمة في قلبه وأنطق به لسانه. وعن بعض الصحابة أنه قال «قلنا يا رسول الله أي الناس خير؟ قال كل مؤمن مخموم القلب صدوق اللسان قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال التقى النقي القدي لاغل فيه ولاغش ولابنى ولاحسد قلنا يا رسول الله فمن على أثره؟ قال الذي يشأ الدنيا ويحب الآخرة<sup>(٢)</sup> ومفهوم هذا أن شر الناس الذي يحب الدنيا وقال صلى الله عليه وسلم «إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا<sup>(٣)</sup> فجعل الزهد سبيلا للهجة فمن أحبه الله تعالى فهو في أعلى الدرجات فينبغي أن يكون الزهد في الدنيا من أفضل المقامات ومفهومه أيضا أن حب الدنيا تعرض لبعض الله تعالى وفي خبر من طريق أهل البيت «الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا<sup>(٤)</sup> ولما قال حارثة لرسول الله صلى الله عليه وسلم «أنا مؤمن حقا قال وما حقيقة إيمانك؟ قال عزفت نفسي عن الدنيا فاستوى عندي حجرها وذهبها وكأني بالجنة والنار وكأني برش ربي بارزا فقال صلى الله عليه وسلم عرفت قائم، عبد نور الله قلبه بالايمان<sup>(٥)</sup> فانظر كيف بدأ في إظهار حقيقة الايمان بمزوف النفس عن الدنيا وقرنه باليقين وكيف زكاه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال عبد نور الله قلبه بالايمان «ولما سئل رسول الله ﷺ عن معنى الشرح في قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وقيل له ما هذا الشرح؟ قال إن النور إذا دخل في القلب انشرح له الصدر وانفتح قيل يا رسول الله وهل ذلك من علامة؟ قال نعم التجافي عن دار الضرور والإقامة إلى دار الخلود والاستعداد للوعد قبل نزوله<sup>(٦)</sup> فانظر كيف جعل الزهد شرطاً للإسلام وهو التجافي عن دار الضرور وقال صلى الله عليه وسلم «استحيوا من الله حق الحياء قالوا إنا لنستحي منه تعالى فقال ليس كذلك تنبؤن ما لا تسكنون وتجمعون ما لا تأكلون<sup>(٧)</sup> فبين أن ذلك يناقض الحياء من الله تعالى «ولما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم؟ فذكروا الصبر عند البلاء والشكر عند الرخاء والرضا بمواقع القضاء وترك الشهادة بالمصيبة إذا زلت بالأعداء فقال عليه الصلاة والسلام إن كنتم كذلك فلا تجمعوا ما لا تأكلون ولا تبنيوا ما لا تسكنون ولا تنافسوا فيما عنه ترحلون<sup>(٨)</sup> فجعل الزهد تسكلا لإيمانهم وقال جابر رضى الله عنه «خطبنا رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث إذا رأيتم العبد قد أوتى صمتا وزهدا في الدنيا فاقربوا منه فانه يلقي الحكمة ابن ماجه من حديث أبي خلاد بسنده ضعيف (٢) حديث قلنا يا رسول الله وما مخموم القلب؟ قال التقى النقي الحديث ابن ماجه باسناد صحيح من حديث عبد الله بن عمرو دون قوله يا رسول الله فمن على أثره وقد تقدم ورواه بهذه الزيادة بالاسناد للذكور الحرائطى في مكارم الأخلاق (٣) حديث إن أردت أن يحبك الله فازهد في الدنيا ابن ماجه من حديث سهل بن سعد بسند ضعيف نحوه وقد تقدم (٤) حديث الزهد والورع يجولان في القلوب كل ليلة فان صادقا قلبا فيه الايمان والحياء أقاما فيه وإلا ارتحلا لم أجده أصلا (٥) حديث لما قال له حارثة أنا مؤمن حقا فقال وما حقيقة إيمانك الحديث البزار من حديث أنس والطبراني من حديث الحارث بن مالك وكلا الحديثين ضعيف (٦) حديث سئل عن قوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه - الحديث الحاكم وقد تقدم (٧) حديث استحيوا من الله حق الحياء الحديث الطبراني من حديث أم الوليد بنت عمر بن الخطاب باسناد ضعيف (٨) حديث لما قدم عليه بعض الوفود قالوا إنا مؤمنون قال وما علامة إيمانكم الحديث الخطيب وابن عساكر في تاريخهما باسناد ضعيف من حديث جابر.

نبياء وآدم بين الروح والجسد «أى لم يكن روحا ولا جسدا وقال بعضهم الروح خلق من نور العزة وإبليس من نار العزة ولهذا قال - خلقتنى من نار وخلقتنى من طين - ولم يدرك أن النور خير من النار فقال بعضهم قرن الله تعالى العلم بالروح فهي للطاقيات سمو بالعلم كما ينمو البدن بالغذاء وهذا في علم الله لأن علم الخلق قليل لا يبلغ ذلك والختار عند أكثر متكلمي الاسلام أن الانسانية والحيوانية عرضان خلقا في الانسان والسموات يندمهما وأن الروح هي الحياة بينهما صار

قال : من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط بها غيرها وجبت له الجنة فقام إليه على كرم الله وجهه ، قال : بآب أنت وأمي يا رسول الله ما يخلط بها غيرها ؟ صف لنا فسرنا لنا ، قال : حب الدنيا طلبا لها واتباعا لها ، وقوم يقولون قول الأنبياء ويسلمون عمل الجبابرة ، فمن جاء بلا إله إلا الله ليس فيها شيء من هذا وجبت له الجنة (١) . وفي الخبر : «السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن والبخل من الشك ولا يدخل الجنة من شك» (٢) . وقال أيضا : «السخي قريب من الله قريب من الناس قريب من الجنة ، والبخل بعيد من الله بعيد من الناس قريب من النار» (٣) . والبخل ثمرة الرغبة في الدنيا والسخا ثمرة الزهد والتناء على القرة ثناء على الثمر لا محالة . وروى عن ابن السيب عن أبي ذر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال : «من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه فأطلق بها لسانه وعرفه داء الدنيا ودواءها وأخرجه منها سالما إلى دار السلام» (٤) . وروى أنه صلى الله عليه وسلم : «مر في أصحابه بشار من التوق حفل وهي الحوامل وكانت من أحب أموالهم إليهم وأتسها عندهم لأنها تجمع الظهر والجمع واللين والور ، ولعظمها في قلوبهم قال الله تعالى - وإذا العشار عطلت - قال فأعرض عنها رسول الله صلى الله عليه وسلم وغض بصره فقيل له يا رسول الله هذه أنفس أموالنا لم لا تنظر إليها فقال قد نهاني الله عن ذلك ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك إلى ما متعنا به -» (٥) الآية وروى مسروق عن عائشة رضي الله عنها قالت «قلت يا رسول الله ألا تستطم الله فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع ، قال يا عائشة والذي نفسي بيده لو سألت ربي أن يجرى مني جبال الدنيا ذهباً لأجرها حيث شئت من الأرض ولكني اخترت جوع الدنيا على شبعها وقدر الدنيا على غناها وحزن الدنيا على فرحها ، يا عائشة إن الدنيا لا تنقي ل محمد ولا لآل محمد ، يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر على مكروه الدنيا والصبر عن محبوبها ، ثم لم يرض لي إلا أن يكفني ما كلفهم ، فقال - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - والله مالي بد من طاعته وإني والله لأصبرن كما صبروا بجهدي ولا قوة إلا بالله» (٦) .

(١) حديث جابر من جاء بلا إله إلا الله لا يخلط معها شيئا وجبت له الجنة لم أر من حديث جابر وقد رواه الترمذي الحكيم في النوادر من حديث زيد بن أرقم بإسناد ضعيف نحوه (٢) حديث السخا من اليقين ولا يدخل النار موقن الحديث ذكره صاحب القردوس من حديث أبي الدرداء ولم يخرج له ولده في مسنده (٣) حديث السخي قريب من الله الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث أبي ذر من زهد في الدنيا أدخل الله الحكمة قلبه الحديث لم أره من حديث أبي ذر ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب ذم الدنيا من حديث صفوان بن سليم مرسلًا وابن عدي في الكامل من حديث أبي موسى الأشعري من زهد في الدنيا أربعين يوما وأخلص فيها العبادة أجرى الله بها ما يسع الحكمة من قلبه على لسانه وقال حديث منكر وقال الذهبي باطل ورواه أبو الشيخ في كتاب الثواب وأبو نعيم في الحلية مختصرا من حديث أبي أيوب من أخلص لله وكلها ضيفة (٥) حديث مرفي أصحابه بشار من التوق حفل الحديث وفيه ثم تلا قوله تعالى - ولا تمدن عينيك - الآية لم أجده أصلا (٦) حديث مسروق عن عائشة قلت يا رسول الله ألا تستطم ربك فيطعمك قالت وبكيت لما رأيت به من الجوع الحديث . وفيه يا عائشة إن الله لم يرض لأولى العزم من الرسل إلا الصبر الحديث أبو منصور الديلمي في مسند القردوس من طريق أبي عبد الرحمن السلمي من رواية عباد ابن عباد عن مجاهد عن الشعبي عن مسروق مختصرا : يا عائشة إن الله لم يرض من أولى العزم

البدن بوجودها حيا وبالإعادة إليه في القيامة يصير حيا وذهب بعض متكلمي الإسلام إلى أنه جسم لطيف مشبك بالأجسام العكسفة اشتباك الماء بالعود الأخضر وهو اختيار أبي العالى الجويني وكثير منهم مال إلى أنه عرض إلا أنه ردم عن ذلك الأخبار الدالة على أنه جسم لما ورد فيمن العروج والمهبوط والتردد في البرزخ حيث وصف بأوصاف دل على أنه جسم لأن العرض لا يوصف بأوصاف إذ الوصف معنى والمعنى لا يقوم بالمعنى واختار بعضهم أنه عرض .

وروى عن عمر رضي الله عنه « أنه حين فتح عليه الفتوحات قالت له ابنته حفصة رضي الله عنها البس ألين الثياب إذا وفدت عليك الوفود من الآفاق ، ومرت بصنعة طعام تطعمه وتطعم من حضر ، فقال عمر يا حفصة ألت تملين أن أعلم الناس بحال الرجل أهل بيته فقالت بلى قال ناشدتك الله هل تملين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع هو ولا أهل بيته غدوة إلا جاعوا عشية ولا شبعوا عشية إلا جاعوا غدوة . وناشدتك الله هل تملين أن النبي صلى الله عليه وسلم لبث في النبوة كذا وكذا سنة لم يشبع من التمر هو وأهله حتى فتح الله عليه خير ، وناشدتك الله هل تملين أن رسول الله ﷺ قربتم إليه يوما طعاما على مائدة فيها ارتفاع فشق ذلك عليه حتى تغير لونه ثم أمر بالمائدة فرفعت ووضع الطعام على دون ذلك أو وضع على الأرض وناشدتك الله هل تملين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان ينام على عباءة مثنية فثبتت له ليلة أربع طاقات فنام عليها فلما استيقظ قال منعموني قيام الليلة بهذه العباءة اثنوها بائنتين كما كنتم تثنونها ، وناشدتك الله هل تملين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يضع ثيابه لغسل فأتته بلال فيؤذنه بالصلاة فلما يجد ثوبا يخرج به إلى الصلاة حتى تجف ثيابه فيخرج بها إلى الصلاة ، وناشدتك الله هل تملين أن رسول الله صلى الله عليه وسلم صنعت له امرأة من بني ظفر كساءين إزارا ورداء وبعثت إليه بأحدهما قبل أن يبلغ الآخر فخرج إلى الصلاة وهو مشتمل به ليس عليه غيره قد عقد طرفه إلى عنقه فصرى كذلك لما زال يقول حتى أبكاه وبكى عمر رضي الله عنه وانتحب حتى ظننا أن نفسه ستخرج (١) » وفي بعض الروايات زيادة من قول عمر وهو أنه قال كان لي

من الرسل إلا الصبر على مكروها والصبر عن محبوبها ثم لم يرض إلا أن كلفني ما كلفهم فقال تعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - ومجاله مختلف في الاحتجاج به (١) حديث إن عمر لما فتحت عليه الفتوحات قالت له حفصة البس ألين الثياب إذا قدمت عليك الوفود الحديث بطوله وفيه ناشدتك الله هل تملين كذا يذكرها ما كان عليه النبي صلى الله عليه وسلم حتى أبكاه وبكى الخ لم أجده هكذا مجموعا في حديث وهو مفرق في عدة أحاديث فروى البزار من حديث عمران بن حصين قال ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم وأهله غداء وعشاء من خبز شعير حتى لقي ربه وفيه عمرو ابن عبد الله القدري متروك الحديث وللترمذي من حديث عائشة قالت ما شبع من طعام فأشاء أن أبكي إلا بكيت قلت لم قالت أذكر الحال التي فارق رسول الله صلى الله عليه وسلم الدنيا عليها والله ما شبع من خبز ولحم مرتين في يوم قال حديث حسن وللاشيخين من حديثها ما شبع آل محمد منذ قدم المدينة من طعام ثلاث ليل تباعا حتى قبض وللبخاري من حديث أنس كان لا يأكل على خوان الحديث وتقدم في آداب الأكل وللترمذي في الثمائل من حديث حفصة أنها لما سئلت ما كان فراش النبي صلى الله عليه وسلم؟ مسح ثنيته ثنتين فنام عليه الحديث ولابن سعد في الطبقات من حديث عائشة أنها كانت تفرش للنبي صلى الله عليه وسلم عباءة بائنتين الحديث وتقدم في آداب المعيشة والبزار من حديث أبي الدرداء قال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم لا يدخل له الدقيق ولم يكن له إلا قميص واحد وقال لا نعلم يروى بهذا اللفظ إلا بهذا الاستناد قال يونس بن بكير قد حدث عن سعيد بن ميسرة البكري بأحاديث لم يتابع عليها واحتملت على ما فيها قلت فيه سعيد ابن ميسرة قد كذبه يحيى القطان وضعفه البخاري وابن حبان وابن عدي وغيرهم ولابن ماجه من حديث عبادة بن الصامت صلى في شملة قد عقد عليها زاد المطر يني في جزئه الشهور فقدها في عنقه ما عليه غيرها وإسناده ضعيف وتقدم في آداب المعيشة .

سئل ابن عباس رضي الله عنهما قيل أين تذهب الأرواح عند مفارقة الأبدان فقال أين يذهب ضوء الصباح عند فناء الأدهان قيل له فأين تذهب الجسوم إذا بليت قال فأين يذهب لحما إذا مرضت . وقال بعض من يتم بالعلوم الردودة للذمومة وينسب إلى الاسلام: الروح تنفصل من البدن في جسم لطيف . وقال بعضهم إنها إذا فارقت البدن تحمل معها القوة الوهمية بتوسط النطقية فتكون حيث مطالبة للعاني والمحمومات لأن

صاحبان سلكا طريقا فان سلكت غير طريقهما سلك في طريق غير طريقهما وإنى والله سأصبر على عيشهما الشديدا لعل أدرك معهما عيشهما الرغيد . وعن أبي سعيد الخدري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « لقد كان الأنبياء قبلي يبتلون أحدهم بالفقر فلا يلبس إلا العباءة وإن كان أحدهم ليتلى بالقمل حتى يقتله القمل وكان ذلك أحب إليهم من العطاء إليكم <sup>(١)</sup> » وعن ابن عباس عن النبي صلى الله عليه وسلم قال : لما ورد موسى عليه السلام ماء مدين كانت خضرة البقل ترى في بطنه من الحزال فهذا ما كان قد اختاره أنبياء الله ورسله وهم أعرف خلق الله بالله وبطريق الفوز في الآخرة وفي حديث عمر رضي الله عنه أنه قال « لما نزل قوله تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله - قال صلى الله عليه وسلم تبأ الدنيا تبأ لدينار والدرهم قلقتنا يا رسول الله نهانا الله عن كثر الذهب والفضة فأى شيء ندخر فقال <sup>(٢)</sup> : ليتخذ أحدهم لسانا ذا كرا وقلبا شاكرا وزوجة سالحة تمنه على أمر آخرته <sup>(٣)</sup> » وفي حديث حذيفة رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم « من آثر الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاثها لا يخرق قلبه أبدا وقلعه لا يستقي أبدا وحرصا لا يشبع أبدا <sup>(٤)</sup> » وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يستكمل العبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته <sup>(٥)</sup> » وقال المسيح <sup>(٦)</sup> الدنيا قنطرة فأعبروها ولا تمروها وقيل له يا بني الله لو أمرتنا أن نبني بيتا نعبده فيه قال اذهبوا فابنوا بيتا على الماء فقالوا كيف يستقيم بئان على الماء قال وكيف تستقيم عبادة مع حب الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم « إن ربى عز وجل عرض على أن يمحلى بطعام مكة ذهباً قللت لا يارب ولكن أجوع يوما وأشبع يوما فأما اليوم الذى أجوع فيه فأترضع إليك وأدعوك وأما اليوم الذى أشبع فيه فأحمدك وأثنى عليك » وعن ابن عباس رضي الله عنهما قال « خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم عثى وجبريل معه فقصده على الصفا فقال له النبي <sup>(٧)</sup> يا جبريل والذى بعثك بالحق ما أمسى لآل محمد كسف سويق ولا سفة دقيق فلم يكن كلامه بأسرع من أن ممع هبة من السماء أفضطته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أمر الله

تجردها من هيات  
البدن عند الفارقة  
غير يمكن وهى عند  
الوت شاعرة بالموت  
وبعد الوت متخيلة  
بنفسها مقبورة  
وتصور جميع  
ما كانت تعتقد حال  
الحياة وتعس بالثواب  
والعقاب في القبر قال  
بعضهم أسلم القالات  
أن يقال الروح شيء  
مخلوق أجرى الله تعالى  
العادة أن يحى البدن  
مادام متصلا به وأنه  
أشرف من الجسد  
يدوق الموت بفارقة  
الجسد كما أن الجسد  
يفارقه يدوق الموت  
فان الكيفية والماهية  
يتعاشى العقل فيهما  
كما يتعاشى البصر في

(١) حديث أبي سعيد الخدري كان الأنبياء قبلي أحدهم بالفقر فلا يجد إلا العباءة الحديث باسناد صحيح في أثناء حديث أوله دخلت على النبي صلى الله عليه وسلم وهو يوعك دون قوله وإن كان أحدهم ليتلى بالقمل (٢) حديث عمر لما نزل قوله تعالى - والذين يكتزون الذهب والفضة - الآية قال تبأ الدنيا تبأ لدينار والدرهم الحديث وفيه فأى شيء ندخر الترمذي وابن ماجه وتقدم في النكاح دون قوله تبأ لدينار والدرهم والزيادة رواها الطبراني في الأوسط وهو من حديث ثوبان وإسحاق الصنف إنه حديث عمر لأن عمر هو الذي سأل النبي صلى الله عليه وسلم أى المال يتخذ كما في رواية ابن ماجه وكما رواه البزار من حديث ابن عباس (٣) حديث حذيفة من آثار الدنيا على الآخرة ابتلاه الله ثلاث الحديث لم أجده من حديث حذيفة والطبراني من حديث ابن مسعود بسند حسن من أشرق قلبه حب الدنيا التاط منها ثلاث شقاء لا ينفد عنه وحرص لا يبلغ غناه وأمل لا يبلغ منهائه وفي آخره زيادة (٤) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف وحتى يكون أقله أحب إليه من كثرته لم أجده استنادا وذكره صاحب الفردوس من رواية علي بن طلحة مرسل لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرته وحتى يكون أن يعرف في ذات الله أحب إليه من أن يعرف في غير ذات الله ولم يخرج له في مسند الفردوس وعلي بن أبي طلحة أخرجه له مسلم وروى عن ابن عباس لكن روايته عنه مرسله فالحديث إذن معضل .

القيامة أن تقوم قال لا ولكن هذا إسرائيلي عليه السلام قد نزل إليك حين سمع كلامك فأتاه إسرائيل فقال إن الله عز وجل سمع ما ذكرت فبعتني بفاتيح الأرض وأمرني أن أعرض عليك إن أحببت أن أسير معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة فضلت وإن شئت نينا ملكا وإن شئت نينا عبدا فأومأ إليه جبريل أن تواضع لله فقال نينا عبدا ثلاثا (١) وقال صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه» (٢) وقال صلى الله عليه وسلم «ازهد في الدنيا يحبك الله وازهد فيها في أيدي الناس يحبك الناس» (٣) وقال صلوات الله عليه «من أراد أن يؤتبه الله علما بغير علم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا» (٤) وقال صلى الله عليه وسلم «من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات ومن خاف من النار لها عن الشهوات ومن ترقب الموت ترك اللذات ومن زهد في الدنيا هانت عليه الصيبات» (٥) ويروى عن نينا وعن النخعي عليهما السلام «أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت وهو أول العبادة والتواضع وكثرة الذكر وقلة الشيء» (٦) وإبراهيم الأحمدي في مدح بعض الدنيا وضم حبها لا يمكن فإن الأنبياء ما بشوا إلا لأصرف الناس عن الدنيا إلى الآخرة وإليه يرجع أكثر كلامهم مع الخلق وفيما أوردناه كفاية والله المستعان. وأما الآثار: فقد جاء في الآثار: لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله عز وجل ما لم يسألوا ما تنص من دنياهم وفي لفظ آخر: ما لم يؤثروا صفة دنياهم على دينهم فإذا فعلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى: كذبتم لستم بها صادقين. وعن بعض الصحابة رضى الله عنهم أنه قال تابنا الأعمال كلها فلم نر في أمر الآخرة أبلغ من زهد في الدنيا وقال بعض الصحابة لصدر من التابعين أتم أكثر أعمالا واجتهادا من أصحاب رسول الله ﷺ وكانوا خيرا منكم قيل ولم ذلك؟ قال كانوا أزهد في الدنيا منكم. وقال عمر رضى الله عنه الزهادة في الدنيا راحة القلب والجسد وقال بلال بن سعد كفى به ذنبا أن الله تعالى يزهدنا في الدنيا ونحن نرغب فيها وقال زجل لسفيان أشتى أن أرى عالما زاهدا فقال ويحك تلك ضالة لا توجد وقال وهب بن منبه إن للجنة ثمانية أبواب فإذا صار أهل الجنة إليها جعل البوابون يقولون وعزة ربنا لا يدخلها أحد قبل الزاهدين في الدنيا العاشقين للجنة. وقال يوسف بن أسباط رحمه الله إنى لأشتى من الله ثلاث خصال أن أموت حين أموت وليس في ملكي درهم ولا يكون على دين ولا على عظمي لحم فأعطى ذلك كله. وروى أن بعض الخلفاء أرسل إلى الفقهاء بجواز قبولها وأرسل إلى الفضيل بعشرة آلاف فلم يقبلها فقال له بنوه قد قبل الفقهاء وأنت ترد على حالتك هذه فبكي الفضيل وقال أتدرون ما مثلي ومثلكم كمثل قوم كانت لهم بقرة يمرثون عليها فلما هربت ذبحوها لأجل أن يفتنوها بجملها وكذلك

(١) حديث ابن عباس خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم وجبريل معه فصعد على الصفا الحديث في نزول إسرائيل وقوله إن أحببت أن أخبر معك جبال تهامة زمردا وياقوتا وذهبا وفضة الحديث تقدم مختصرا (٢) حديث إذا أراد الله بعبده خيرا زهده في الدنيا ورغبه في الآخرة وبصره بعبود نفسه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس دون قوله ورغبه في الآخرة وزاد قته في الدين وإسناده ضعيف (٣) حديث ازهد في الدنيا يحبك الله الحديث تقدم (٤) حديث من أراد أن يؤتبه الله علما بغير علم وهدى بغير هداية فليزهد في الدنيا لم أجده أصلا (٥) حديث من اشتاق إلى الجنة سارع إلى الخيرات الحديث ابن حبان في الضعفاء من حديث علي بن أبي طالب (٦) حديث أربع لا يدركن إلا بتعب الصمت هو أول العبادة الحديث الطبراني والحاكم من حديث أنس وقد تقدم .

شماع الشمس ولما رأى للتكاملون أنه يقال لهم الموجودات محصورة قديم وجسم وجوهر وعرض فالروح من أي هؤلاء فاختار قوم منهم أنه عرض وقوم منهم أنه جسم لطيف كذا ذكرنا واختار قوم أنه قديم لأنه أمر والأمر كلام والكلام قديم فأحسن الامساك عن القول فيما هذا سبيله وكلام الشيخ أبي طالب المكي في كتابه يدل على أنه يدل إلى أن الأرواح أعيان في الجسد وهكذا النفوس لأنه يذكر أن الروح تتحرك للخير ومن حركتها يظهر نور في القلب

أنتم أردتم ذبحي على كبرسي موتوا يا أهل جوعا خير لكم من أن تدبحوا فضيلا . وقال عبيد بن عمير كان المسيح ابن مريم عليه السلام يلبس الشجر ويأكل الشجر وليس له ولد يموت ولا يمت تخربولا يدخر لقد أينما أدركه النساء نام . وقالت امرأة أبي حازم لأبي حازم هذا الشتاء قد هجم علينا ولا بد لنا من الطعام والثياب والخطب فقال لها أبو حازم من هذا كله بد ولكن لا بد لنا من الموت ثم البعث ثم الوقوف بين يدي الله تعالى ثم الجنة أو النار . وقيل للحنن لم لا تذل ثيابك قال الأمر أهمل من ذلك . وقال إبراهيم بن آدم قد حبيت قلوبنا بثلاثة أغطية فلن يكشف للعبد اليقين حتى ترفع هذه الحجب الفرح بالموجود والحزن على المفقود والسرور بالملاح فإذا فرحت بالموجود فأنت حريص وإذا حزنت على المفقود فأنت ساخط والساخط معذب وإذا سرت بالملاح فأنت معجب والمعجب يحبط العمل . وقال ابن مسعود رضي الله عنه ركعتان من زاهد قلبه خير له وأحب إلى الله من عبادة المتعبدين المجتهدين إلى آخر الدهر أبدا سرمد . وقال بعض السلف نعمة الله علينا فيما صرف عنا أكثر من نعمته فيما صرف إلينا وكأنه التفت إلى معنى قوله صلى الله عليه وسلم « إن الله يعمي عبده المؤمن الدنيا وهو رجيح كما تغمون مريضكم الطعام والشراب تخافون عليه <sup>(١)</sup> » فإذا فهم هذا علم أن النعمة في النعم التي تؤدي إلى الصحة أكبر منها في الإعطاء المؤدى إلى السقم . وكان الثوري يقول : الدنيا دار التواء لا دار استواء ودار ترج لا دار فرح من عرفها لم يفرح برحاء ولم يحزن على شقاء . وقال سهل لا يخمس العمل للمتعب حتى لا يفرح من أربعة أشياء الجوع والعري والفقر والذل . وقال الحسن البصري أدركت أقواما وصحت طوائف ما كانوا يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يأسفون على شيء منها أدبر ولهم كانت في أعينهم أهون من التراب كان أحدهم يعيش خمسين سنة أو ستين سنة لم يطوله ثوب ولم ينصب له قدر ولم يجل بينه وبين الأرض شيئا ولا أمر من في بيته بسنة طعام قط فإذا كان الليل قيام على أنفاسهم يفتشون وجوههم تجرى دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكاك رقابهم كانوا إذا عملوا الحسنة دأبوا في شكرها وسألوا الله أن يقبلها وإذا عملوا السيئة أجزتهم وسألوا الله أن يفرجها لهم فلم يزالوا على ذلك ووالله ما ملأوا من القنوب ولا نجوا إلا بالمفطرة رحمة الله عليهم ورضوانه .

( يان درجات الزهد وأقسامه بالإضافة إلى نفسه وإلى الرغبة عنه وإلى الرغبة فيه )  
اعلم أن الزهد في نفسه يتفاوت بحسب تفاوت قوته على درجات ثلاث : الدرجة الأولى وهي السفلى منها أن يزهد في الدنيا وهو لها مشتة وقلبه إليها مائل ونفسه إليها مفتة ولكنه يجاهد بها ويكفها وهذا يسمى التزهد وهو مبدأ الزهد في حق من يصل إلى درجة الزهد بالكسب والاجتهاد والتزهد يذيب أولا نفسه ثم كيسه والزاهد أو لا يذيب كيسه ثم يذيب نفسه في الطاعات لافي الصبر على ما فارقه والتزهد على خطر فاته ربما تطلبه نفسه وتجذبه شهوته فيعود إلى الدنيا وإلى الاستراحة بها في قليل أو كثير . الدرجة الثانية : التي ترك الدنيا طوعا لاستحقاقه إياها بالإضافة إلى ما طمع فيه كالقدي يترك درهما لأجل درهمين فانه لا يشق عليه ذلك وإن كان يحتاج إلى انتظار قليل ولكن هذا الزاهد يرى لامحالة زهده ويلتفت إليه كما يرى البائع المبيع ويلتفت إليه فيكاد يكون معجبا بنفسه وبزهده ويظن في نفسه أنه ترك شيئا له قدر لما هو أعظم قدرا منه وهذا أيضا نقصان . الدرجة الثالثة : وهي العليا أن يزهد طوعا وبزهده في زهده فلا يرى زهده إذا لبرى أنه ترك شيئا إذ عرف أن الدنيا لا شيء فيكون كمن ترك خرفة وأخذ جوهرة فلا يرى ذلك معاوضة ولا يرى نفسه تاركا شيئا والدنيا بالإضافة إلى الله تعالى ونعم الآخرة أخس من خرفة بالإضافة إلى جوهرة فهذا هو الكمال في الزهد وسببه كاللحرفة

(١) حديث إن الله يعمي عبده المؤمن من الدنيا الحديث تقدم .

رواه اللالك فليهم الخير  
عند ذلك وتحرك  
لشعر ومن حركتها  
تظهر ظلة في القلب  
فيرى الشيطان الظلة  
فيقبل بالأغواء ويحيث  
وجدت أقوال الشايع  
تشير إلى الروح  
أقول : ما عندي في  
ذلك على معنى ما ذكرت  
من التأويل دون  
أن أقطع به إذ ميل  
في ذلك إلى السكوت  
والاستكفاء أقول والله  
أعلم : الروح الانساني  
العلوي الساموي من  
عالم الأمر والروح  
الحيواني البشري من  
عالم الخلق والروح  
الحيواني البشري  
هل الروح العلوي  
ومورعه والروح



ومثل هذا الزاهد آمن من خطر الالتفات إلى الدنيا كما أن تارك الحزفة بالجوهرة آمن من طلب الاقالة في البيع . قال أبو يزيد رحمه الله تعالى لأبي موسى عبد الرحيم في شيء تسكلم قال في الزهد قال في أي شيء قال في الدنيا فغنض يده وقال ظننت أنه يتكلم في شيء والدنيا لا شيء . إيش يزهد فيها ومثل من ترك الدنيا للآخرة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب العمورة بالمشاهدات والمكاشفات مثل من منعه من باب الملك كلب على بابه فألقى إليه لقمة من خبز فشغفه بنفسه ودخل الباب ونال القرب عند الملك حتى أنفذ أمره في جميع مملكته أفقرى أنه يرى لنفسه يدا عند الملك بلقمة خبز ألقاها إلى كلبه في مقابلة ماقد ناله فالشيطان كلب على باب الله تعالى يمنع الناس من الدخول مع أن الباب مفتوح والحجاب مرفوع والدنيا كلقمة خبز إن أكلت فلذتها في حال الضغ وتنفى على القرب بالابتلاع ثم يبقى ثقلها في المعدة ثم تنهى إلى التثني والقدر ثم يحتاج بعد ذلك إلى إخراج ذلك الثقل فمن تركها لينال عز الملك كيف يلتفت إليها ونسبة الدنيا كلها أعنى ما يسلم لكل شخص منها وإن عمر مائة سنة بالإضافة إلى نعيم الآخرة أقل من لقمة بالإضافة إلى ملك الدنيا إذ لا نسبة للتناهي إلى مالا نهاية له والدنيا متناهية على القرب ولو كانت تسادى ألف ألف سنة صافية عن كل كدر لكان لا نسبة لها إلى نعيم الأبد فكيف ومدة العمر قصيرة ولذات الدنيا مكدر غير صافية فأى نسبة لها إلى نعيم الأبد فاذن لا يلتفت الزاهد إلى زهده إلا إذا التفت إلى ما زهده فيه ولا يلتفت إلى ما زهده فيه إلا لأنه يراه شيئا معتدا به ولا يراه شيئا معتدا به إلا لقصور معرفته فسبب نقصان الزهد نقصان المعرفة فهذه تفاوت درجات الزهد وكل درجة من هذه أيضا لها درجات إذ تصير المتردد يختلف ويتفاوت أيضا باختلاف قدر الشقة في الصبر وكذلك درجة للعجب يزهد بقدر التفاته إلى زهده . وأما أقسام الزهد بالإضافة إلى الرغبة فيه فهو أيضا على ثلاث درجات: الدرجة السفلى أن يكون المرغوب فيه النجاة من النار ومن سائر الآلام كعذاب القبر ومناقشة الحساب وخطر الصراط وسائر ما بين يدي العبد من الأهوال كما وردت به الأخبار إذ فيها « إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء (١) » فهذا هو زهد الخائفين وكانهم رضوا بالعدم لو أعدموا فإن الخلاص من الألم يحصل بمجرد عدم الدرجة الثانية أن يزهد رغبة في ثواب الله ونعيمه والذات الموعودة في جنته من الحور والقصور وغيرها وهذا زهد الراجين فإن هؤلاء ما تركوا الدنيا قناعة بالعدم والخلاص من الألم بل طمعوا في وجود دائم ونعيم سرم لا آخر له . الدرجة الثالثة وهي العليا أن لا يكون له رغبة إلا في الله وفي لقاءه فلا يلتفت قلبه إلى الآلام ليقصد الخلاص منها ولا إلى الذات ليقصد نيلها والظفر بها بل هو مستغرق الهم بالله تعالى وهو الذي أصبح وهو مومه ثم واحد وهو للوحد الحقيقي الذي لا يطلب غير الله تعالى لأن من طلب غير الله قد عبده وكل مطلوب معبود وكل طالب عبد بالإضافة إلى مطلبه وطلب غير الله من الشرك الخفى وهذا زهد المحبين وهم العارفون لأنه لا يحب الله تعالى خاصة إلا من عرفه وكما أن من عرف الدينار والدرهم وعلم أنه لا يقدر على الجمع بينهما لم يحب إلا الدينار فكذلك من عرف الله وعرف لغة النظر إلى وجهه الكريم وعرف أن الجمع بين تلك اللذة وبين لذة التمتع بالهور العين

(١) حديث إن الرجل ليوقف في الحساب حتى لو وردت مائة بعير عطاشا على عرقه لصدرت رواء أحمد من حديث ابن عباس التقي مؤمنان على باب الجنة مؤمن غنى ومؤمن فقير الحديث وفيه إني حبست بسبك عجباً فظيماً كرهها ما وصلت إليك حتى سال من العرق ما لوورده ألف بعيراً كلة حتى لصدرت عنه رواء وفيه دريد غير منسوب يحتاج إلى معرفته قال أحمد حديثه مثله .

الحيوانى جسيانى لطيف  
حامل لقوة الحس  
والحركة ينبعث من  
القلب أعنى بالقلب  
ههنا الصفة اللحية  
المروقة الشكل المودعة  
في الجانب الأيسر  
من الجسد وينتشر  
في تجاويف العروق  
الضواري وهذه  
الروح لسائر الحيوانات  
ومنه تفيض قوى  
الحواس وهو الذي  
قوامه بأجراء سنة الله  
بالغذاء غالباً ويتصرف  
بسلم الطب فيه  
باعتدال مزاج الأخلاط  
ولورود الروح الانساني  
العالى على هذا  
الروح تجنس الروح  
الحيوانى وبان  
أرواح الحيوانات

والنظر إلى شئ القصور وخضرة الأشجار غير ممكن فلا يجب إلالة النظر ولا يؤثر غيره ولا تظن أن أهل الجنة عند النظر إلى وجه الله تعالى يبق للذة الحور والقصور متسع في قلوبهم بل تلك اللذة بالإضافة إلى لذة نعيم أهل الجنة كلذة ملك الدنيا والاستيلاء على أطراف الأرض ورقاب الخلق بالإضافة إلى لذة الاستيلاء على عصفور والعب به والطالبون لنعيم الجنة عند أهل المعرفة وأرباب القلوب كالصبي الطالب للعب بالعصفور التارك للذة الملك وذلك لقصوره عن إدراك لذة الملك لأن اللعب بالعصفور في نفسه أعلى وألذ من الاستيلاء بطريق الملك على كافة الخلق . وأما انقسامه بالإضافة إلى الرغبة عنه قد كثرت فيه الأقاويل ولعل المذكور فيه يزيد على مائة قول فلا نستقل بنقل الأقاويل ولكن نشير إلى كلام محيط بالتفاصيل حتى يتضح أن أكثر ما ذكر فيه قاصر عن الاحاطة بالكل . فنقول: للرغوب عنه بالزهد له إجمال وتفصيل ولتفصيله مراتب بعضها أشرح لأحد الأقسام وبعضها أجمال للجمل . أما الإجمال في الدرجة الأولى فهو كل ماسوى الله فينبغي أن يزهد فيه حتى يزهد في نفسه أيضا ، والإجمال في الدرجة الثانية أن يزهد في كل صفة للنفس فيها متعة وهذا يتناول جميع مقتضيات الطبع من الشهوة والغضب والكبر والرياسة والمال والجاه وغيرها ، وفي الدرجة الثالثة أن يزهد في المال والجاه وأسبابهما إذ إليهما ترجع جميع حظوظ النفس ، وفي الدرجة الرابعة أن يزهد في العلم والقدرة والدينار والدرهم والجاه ، وإذا أموال وإن كثرت أصنافها فيجمعها الدينار والدرهم ، والجاه وإن كثرت أسبابه فيرجع إلى العلم والقدرة وأعني به كل علم وقدرة مقصودها ملك القلوب ، إذ معنى الجاه هو ملك القلوب والقدرة عليها كأن معنى المال ملك الأعيان والقدرة عليها فإن جاوزت هذا التفصيل إلى شرح وتفصيل أبلغ من هذا فيكاد يخرج ما فيه الزهد عن الحصر وقد ذكر الله تعالى في آية واحدة سبعة منها فقال - زين للناس حب الشهوات من النساء والبنين والقناطر المقنطرة من الذهب والفضة والخيل المسومة والأنعام والحرث ذلك متاع الحياة الدنيا - ثم رده في آية أخرى إلى خمسة فقال عز وجل - اعلموا أنما الحياة الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر في الأموال والأولاد - ثم رده تعالى في موضع آخر إلى اثنين فقال تعالى - إنما الحياة الدنيا لعب ولهو - ثم رد الكل إلى واحد في موضع آخر فقال - ونهى النفس عن الهوى فإن الجنة هي المأوى - فالهوى لفظ يجمع جميع حظوظ النفس في الدنيا فينبغي أن يكون الزهد فيه وإذافهم طريق الإجمال والتفصيل عرفت أن البعض من هذه لا يخالف البعض وإنما يفارقه في الشرح مرة والإجمال أخرى . فالحاصل أن الزهد عبارة عن الرغبة عن حظوظ النفس كلها ومهما رغب عن حظوظ النفس رغب عن البقاء في الدنيا فقصر أمه لانه إنما يريد البقاء ليعتق ويريد التمتع الدائم بإرادة البقاء فإن من أراد شيئا أزداد دوامه ولا معنى لحب الحياة إلا حب دوام ما هو موجود أو يمكن في هذه الحياة فإذا رغب عنها لم يردّها ولذلك لما كتب عليهم القتال - قالوا ربنا لم كتب علينا القتال لولا أخرتنا إلى أجل قريب - فقال تعالى - قل متاع الدنيا قليل - أي لستم تريدون البقاء إلا لمتاع الدنيا فظهر عند ذلك الزاهدون وانكشف حال المناقنين . أما الزاهدون المحبون لله تعالى فقاتلوا في سبيل الله كأنهم بنيان مرصوصوا واستظروا إحدى الحسيني وكانوا إذا دعوا إلى القتال يستنشقون رائحة الجنة ويأدرون إليه مبادرة الظلمان إلى الماء البارد حرصا على نصرة دين الله أو نيل رتبة الشهادة وكان من مات منهم على فراشه يتحسر على فوت الشهادة حتى إن خالد بن الوليد رضى الله تعالى عنه لما احتضر للموت على فراشه كان يقول كم غررت بروحي وهجمت على الصفوف طمعا في الشهادة وأنا الآن أموت موت العجائز فلما مات عد على جسده ثمانمائة ثقب من آثار الجراحات هكذا كان حال الصادقين في الإيمان رضى الله تعالى عنهم أجمعين

واكتسب صفة أخرى  
فصار قساعلا للنطق  
والإلهام قال الله تعالى  
- وتقس وما سواها  
فألمها فجورها  
وتقواها - فتسويتها  
بورود الروح الإنساني  
عليها واقطاعها عن  
جنس أرواح الحيوانات  
فكوت النفس  
بكون الله تعالى من  
الروح العلوى وصار  
تكون النفس التي  
هي الروح الحيواني من  
الآدمي من الروح  
العلوى في عالم الأمر  
تكون حواء من  
آدم في عالم الخلق وصار  
بينهما من التألف  
والتماثل كما بين آدم  
وحواء وصار كل واحد  
منهما يذوق للآخر

وأما الناقون ضرروا من الزحف خوفا من الموت قليل لهم - إن الموت الذي تفرون منه فانه ملائكم - فاشارم البقاء على الشهادة استبدال الذي هو أدنى بالذي هو خير فأولئك الذين اشتروا الضلالة بالهدى فارجحت تجارتهم وما كانوا مهتدين . وأما المخلصون فان الله تعالى اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة فطارأوا أنهم تركوا تمتع عشرين سنة مثلا أو ثلاثين سنة بتمتع الأبد استبشروا بيمينهم الذي بايعوا به فها يان الزهود فيه ، وإذا فهمت هذا علمت أن ما ذكره للتكلمون في حد الزهد لم يشيروا به إلا إلى بعض أقسامه فذكر كل واحد منهم مآرا غالبا على نفسه أو على من كان يخاطبه فقال جر رحمة الله تعالى الزهد في الدنيا هو الزهد في الناس ، وهذا إشارة إلى الزهد في الجاه خاصة . وقال قاسم الجوعى الزهد في الدنيا هو الزهد في الجوف فقدر ما تملك من بطنك كذلك تملك من الزهد ، وهذا إشارة إلى الزهد في شهوة واحدة ، ولعمري هي أغلب الشهوات على الأكثر وهي اللبحة لأكثر الشهوات . وقال الفضيل الزهد في الدنيا هو القناعة وهذا إشارة إلى المال خاصة . وقال الثوري الزهد هو قصر الأمل وهو جامع لجميع الشهوات فان من يميل إلى الشهوات يحدث نفسه بالبقاء فيطول أمله ومن قصر أمله فكأنه رغب عن الشهوات كلها . وقال أويس إذا خرج الزاهد يطلب ذهب الزهد عنه وما قصد بهذا حد الزهد ولكن جعل التوكل شرطاً في الزهد . وقال أويس أيضا الزهد هو ترك الطلب للضمون وهو إشارة إلى الرزق . وقال أهل الحديث الدنيا هو العمل بالرأى والعقول والزهد إنعما هو اتباع العلم ولزوم السنة وهذا إن أريد به الرأى الفاسد وللعقول الذي يطلب به الجاه في الدنيا فهو صحيح ولكنه إشارة إلى بعض أسباب الجاه خاصة أو إلى بعض مآه من فضول الشهوات فان من العلوم ما لا فائدة فيه في الآخرة وقد طوّلوها حتى ينقضي عمر الإنسان في الاشتغال بواحد منها فشرط الزاهد أن يكون الفضول أول مرغوب عنه عنده ، وقال الحسن الزاهد الذي إذا رأى أحدا قال هذا أفضل مني فذهب إلى أن الزهد هو التواضع وهذا إشارة إلى نفي الجاه والمعجب وهو بعض أقسام الزهد وقال بعضهم الزهد هو طلب الحلال ، وأين هذا ممن يقول الزهد هو ترك الطلب كما قال أويس ، ولا شك في أنه أراد به ترك طلب الحلال وقد كان يوسف بن أسباط يقول من صبر على الأذى وترك الشهوات وأكل الخبز من الحلال فقد أخذ بأصل الزهد ، وفي الزهد أقاويل وراما نقلناه فلم نرقى نقلها فائدة فان من طلب كشف حقائق الأمور من أقاويل الناس رأها مختلفة فلا يستفيد إلا الحيرة وأما من انكشف له الحق في نفسه وأدركه بمشاهدة من قلبه لا بتلقف من مضمه فقد وثق بالحق واطلع على قصور من قصر لقصور بصيرته وعلى اقتصار من اقتصر مع كمال المعرفة لاقتصار حاجته وهؤلاء كلهم اقتصروا لا لقصور في البصرة لكنهم ذكروا ما ذكروه عند الحاجة فلا جرم ذكروه بقدر الحاجة والحاجات تختلف فلا جرم الكلمات تختلف وقد يكون سبب الاقتصار الاخبار عن الحالة الزهنية التي هي مقام البعد في نفسه والأحوال تختلف فلا جرم الأقوال المتغيرة عنها تختلف ، وأما الحق في نفسه فلا يكون إلا واحدا ولا يتصور أن يختلف وإنما الجامع من هذه الأقاويل الكامل في نفسه وإن لم يكن فيه تفصيل ما قاله أبو سليمان الداراني إذ قال سمعنا في الزهد كلاما كثيرا والزهد عندنا ترك كل شيء يشغلك عن الله عز وجل وقد فصل مرة وقال من تزوج أو سافر في طلب العيشة أو كتب الحديث فقد ركن إلى الدنيا فجعل جميع ذلك ضدًا للزهد ، وقد قرأ أبو سليمان قوله تعالى - إلا من أتى الله بقلب سليم - فقال هو القلب الذي ليس فيه غير الله تعالى وقال إنما زهدوا في الدنيا لئلا يفرغ قلوبهم من همومها للآخرة ، فهذا يان انقسام الزهد بالإضافة إلى أصناف الزهود فيه ، فأما بالإضافة إلى أحكامه فينقسم إلى فرض وحل وسلامة كما قاله إبراهيم بن آدم فالفرض هو الزهد في الحرام والنفل هو الزهد في الحلال والسلامة هو الزهد في الشبهات . وقد ذكرنا تفاصيل درجات الورع في كتاب الحلال

عنارفة صاحبه قال الله تعالى - وجعل منازوجها ليسكن إليها - فسكن آدم إلى حواء وسكن الروح الانساني العاوى إلى الروح الحيواني وصيره نسا وتكون من سكون الروح إلى النفس القلب وأعنى بهذا القلب اللطيفة التي محلها اللبنة اللحمية فاللبنة اللحمية من عالم الخلق وهذه اللطيفة من عالم الأمر وكان تكون القلب من الروح والنفس في عالم الأمر كتكون الفرية من آدم وحواء في عالم الخلق ولولا الساكنة بين الزوجين الذين أحدهما النفس ماتكون القلب فن

والحرام وذلك من الزهد إذ قيل لما لك بن أنس ما الزهد قال التقوى ، وأما بالاضافة إلى خفايا ما يتركه فلانهاية للزهد فيه إذ لانهاية لما تمتنع به النفس في الحطرات والحفظات وسائر الحالات لاسيا خفايا الرياء فان ذلك لا يطلع عليه إلا محاسنة العلماء بل الأموال الظاهرة أيضا درجات الزهد فيها لا تنهاه فمن أقصى درجاته زهد عيسى عليه السلام إذ توسد حجرا في نومه فقال له الشيطان أما كنت تركت الدنيا لما الذي بدا لك قال وما الذي تجد قال توسدك الحجر . أي تنعمت برفع رأسك عن الأرض في النوم فرمى الحجر وقال خذه مع ما تركته لك ، وروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه لبس السجوح حتى تقب جلده تركا للتنم بلين اللباس واستراحة حس النفس فساءته أمه أن يلبس مكان السجج جبة من صوف فضلل فأوحى الله تعالى إليه يا يحيى آثرت على الدنيا فبكي ونزع الصوف وعاد إلى ما كان عليه ، وقال أحمد رحمه الله تعالى الزهد زهدا وليس يبلغ من العز أن جلس في قوصرة وجلس عيسى عليه السلام في ظل حائط إنسان فأقامه صاحب الحائط فقال ما أنتي أنت إنما أقامني الذي لم يرض لي أن أتم بظل الحائط فاذن درجات الزهد ظاهرا وباطنا لا حصر لها وأقل درجاته الزهد في كل شعبة ومحظور ، وقال قوم الزهد هو الزهد في الحلال لا في الشبهة والمحظور فليس ذلك من درجاته في شيء ثم رأوا أنه لم يبق حلال في أموال الدنيا فلا يتصور الزهد الآن . فان قلت مهما كان الصحيح هو أن الزهد ترك ما سوى الله فكيف يتصور ذلك مع الأكل والشرب واللبس ومخالطة الناس ومكالتهم وكل ذلك اشتغال بما سوى الله تعالى . فاعلم أن معنى الانصراف عن الدنيا إلى الله تعالى هو الاقبال بكل القلب عليه ذكر أو فكري ولا يتصور ذلك إلا مع البقاء ولا بقاء إلا بضروريات النفس فلهما اقتصر من الدنيا على دفع المهلكات عن البدن وكان غرضك الاستعانة بالبدن على العبادة لم تكن مشتغلا بغير الله فان ما لا يتوصل إلى الشيء إلا به فهو منه المشتغل بملف الناقصة بسبقها في طريق الحج ليس معرضا عن الحج ولكن ينبغي أن يكون بدنك في طريق الله مثل ناقتك في طريق الحج ولا غرض لك في تنعم ناقتك بالذبات بل غرضك مقصور على دفع للمهلكات عنها حتى تسير بك إلى مقصدك فكذلك ينبغي أن تكون في صيانة بدنك عن الجوع والعطش للهلك بالأكل والشرب وعن الحر والبرد للهلك باللباس والسكن فتقتصر على قدر الضرورة ولا تقصد التلذذ بل التقوى على طاعة الله تعالى فذلك لا يتناقض الزهد بل هو شرط الزهد . وإن قلت فلا بد وأن أتلفذ بالأكل عند الجوع . فاعلم أن ذلك لا يضرك إذا لم يكن قصدك التلذذ فان شارب الماء البارد قد يستلذذ بالشرب ويرجع حاصله إلى زوال ألم العطش ومن يقضى حاجته قد يستريح بذلك ولكن لا يكون ذلك مقصودا عنده ومطلوبا بالقصد فلا يكون القلب منصرفا إليه فالإنسان قد يستريح في أيام الليل بتنسم الأسفار وصوت الأطياف ولكن إذا لم يقصد طلب موضع لهذه الاستراحة لما يصيبه من ذلك بغير قصد لا يضره ولقد كان في الحائفين من طلب موضع لا يصيبه فيه نسيم الأسفار خيفة من الاستراحة به وأنس القلب معه فيكون فيه أنس بالدنيا وتقصان في الأنس بالله بقدر وقوع الأنس بغير الله ولذلك كان داود الطائي له جب مكشوف فيه ماؤه فكان لا يرفعه من الشمس وشرب الماء الحار ويقول من وجد لذة الماء البارد شق عليه مفارقة الدنيا ، فهذه مخاوف المحتاطين والحزم في جميع ذلك الاحتياط فانه وإن كان شاقا فمدته قريبة والاحتفاء مدة يسيرة للتنعم على التأييد لا يتقل على أهل المعرفة القاهرين لأنهم سياسة الشرع للتعصمين بعروة اليقين في معرفة للضادة التي بين الدنيا والدين رضى الله تعالى عنهم أجمعين .

( بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة )

اعلم أن ما الناس منهمكون فيه ينقسم إلى فضول وإلى مهم فالفضول كالحيل للسوسة مثلا وإن قال الناس

القلوب قلب متطلع إلى الأب الذي هو الروح العلوى مبال إليه وهو القلب للؤيد الذي ذكره رسول الله صلى الله عليه وسلم فيها رواه خديجة رضى الله عنه قال : القلوب أربعة قلب أجرد فيه سراج يزهو فذلك قلب المؤمن وقلب أسود منكوس فذلك قلب الكافر وقلب مربوط على غلافه فذلك قلب المنافق وقلب مصفح فيه إيمان وتفاق فذلك الإيمان في مثل البقلة يعمدها الماء الطيب ومثل النفاق فيه كمثل القرحة يعمدها القيح والصديد فأى المادتين

إنما يقتنيا لثمنه ركوها وهو قادر على الشيء ولهم كالأكل والشرب ولنا قدر على تفصيل أصناف الفضول فإن ذلك لا ينحصر وإنما ينحصر المهم الضروري ولهم أيضا يتطرق إليه فضول في مقداره وجنسه وأوقاته فلا بد من بيان وجه الزهد فيه وللهجات ستة أمور : الطعم واللبس والسكن وأثاثه والنكح والسال والجاه يطلب لأغراض وهذه الستة من مجتها وقد ذكرنا معنى الجاه وسبب حب الخلق له وكيفية الاحتراز منه في كتاب الرياء من ربيع المهلكات ونحن الآن نقتصر على بيان هذه اللهجات الستة [ الأول العظم ] ولا بد للإنسان من قوت حلال يقيم عليه ولكن له طول وعرض فلا بد من قبض طول وعرضه حتى يتم به الزهد فأما طول فبالإضافة إلى جملة العمر فإن من يملك طعام يومه فلا يقنع به وأما عرضه ففي مقدار الطعام وجنسه ووقت تناوله وأما طول فبالإضافة إلى بقصر الأمل وأقل درجات الزهد فيه الاقتصار على قدر دفع الجوع عند عدة الجوع وخوف الرض ومن هذا حاله فإذا استقل بما تناوله لم يدخر من غذائه لعشائه وهذه هي الدرجة العليا . الدرجة الثانية : أن يدخر لشهر أو أربعين يوما . الدرجة الثالثة : أن يدخر لسنة فقط وهذه رتبة ضفاء الزهاد ومن ادخر لأكثر من ذلك فتسميته زاهدا محال لأن من أهل بقاء أكثر من سنة فهو طويل الأمل جدا فلا يتم منه الزهد إلا إذا لم يكن له كسب ولم يرض لنفسه الأخذ من أيدي الناس كدواود الطائي فإنه ورث عشرين دينارا فأمسكها وأتقها في عشرين سنة فهذا لا يضاد أصل الزهد إلا اعتماد من جعل التوكل شرط الزهد وأما عرضه فبالإضافة إلى المقدار وأقل درجاته في اليوم واليلة نصف رطل وأوسطه رطل وأعلاه مد واحد وهو ما قدره الله تعالى في إ طعام للسكين في الكفارة وما وراء ذلك فهو من اتساع البطن والاشتغاله به ومن لم يقدر على الاقتصار على مد لم يكن له من الزهد في البطن نصيب وأما بالإضافة إلى الجنس فأقله كل ما يقوت ولو الحبز من النخالة وأوسطه خبز الشعير والقدرة وأعلاه خبز البر غير منخول فإذا ميز من النخالة وصار حواري فقد دخل في التمس وخرج عن آخر أبواب الزهد فضلا عن أوائله وأما الأدم فأقله للحم أو البقل والخل وأوسطه الزيت أو يسير من الأدهان أي دهن كان وأعلاه اللحم أي لحم كان وذلك في الأسبوع مرة أو مرتين فإن صار دائما أو أكثر من مرتين في الأسبوع خرج عن آخر أبواب الزهد فلم يكن صاحبه زاهدا في البطن أصلا وأما بالإضافة إلى الوقت فأقله في اليوم واليلة مرة وهو أن يكون صائما وأوسطه أن يصوم ويشرب ليلة ولا يأكل ليلة ولا يشرب وأعلاه أن يتهي إلى أن يطوى ثلاثة أيام أو أسبوعا وما زاد عليه وقد ذكرنا طريق تقليل الطعام وكسر شرهه في ربيع المهلكات ولنظر إلى أحوال رسول الله صلى الله عليه وسلم والصحابة رضوان الله عليهم في كيفية زهدهم في الطعام وتركهم الأدم قالت عائشة رضي الله تعالى عنها « كانت تأتي علينا أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار قيل لها فبم كنتم تعيشون قالت بالأسودين القرو والماء (١) » وهذا ترك اللحم والبرقة والأدم . وقال الحسن « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار ويلبس الصوف وينتمل المحصوف ويلبغ أصابعه ويأكل على الأرض ويقول إنما أنا عبد أكل كما تأكل العبيد وأجلس كما تجلس العبيد (٢) » وقال المسيح عليه السلام بحق أقول لكم إنه من طلب الفردوس غلب الشعير له والنوم على الزايل مع الكلاب كثير . وقال الفضيل

(١) حديث عائشة كانت تأتي أربعون ليلة وما يوقد في بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم مصباح ولا نار الحديث ابن ماجه من حديث عائشة كان يأتي على آل محمد الشهر ما يرى في بيت من بيوته دخان الحديث وفي رواية له ما يوقد فيه بنار ولا حمد كان يمر بنا هلال وهلال ما يوقد في بيت من بيوته نار وفي رواية له ثلاثة أهلة (٢) حديث الحسن كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يركب الحمار

غلبت عليه حكم له بها والقلب للنكوس ميل إلى الأم التي هي النفس الأمارة بالسوء ومن القلوب قلب متردد في ميده إليها وبحسب غلبة ميل القلب يكون حكمه من السعادة والشقاوة والمقل جوهر الروح العلوي ولسانه والذال عليه وتديره للقلب المؤيد والنفس الزكية للطمشة تدبير الوالد للولد البار والزوج للزوجة الصالحة وتدبيره للقلب المنكوس والنفس الأمارة بالسوء تدبير الوالد للولد العاق والزوج للزوجة السيئة فنكوس من وجه

ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر<sup>(١)</sup>. وكان المسيح صلى الله عليه وسلم يقول: يا بني إسرائيل عليكم بالماء القراح والبقل البرى وخبز الشخير وإياكم وخبز البر فانكم لن تقوموا بشكره وقد ذكرنا سيرة الأنبياء والسلف في المطعم والشرب في ربيع المهلكات فلانعيده ولما أتى النبي صلى الله عليه وسلم أهل قباء أتوه بشربة من لبن مشوبة بعسل فوضع القدح من يده وقال «أما إني لست أحرمه ولكن أركه تواسع الله تعالى»<sup>(٢)</sup> وأتى عمر رضي الله عنه بشربة من ماء بارد وعسل في يوم صائف فقال اعزلوا عنى حسابها وقد قال يحيى بن معاذ الرازي الزاهد الصادق قوته ما وجد ولباسه ما ستر ومسكنه حيث أدرك الدنيا سجنه والقبر مضجعه والحلوة مجلسه والاعتبار فكرته والقرآن حديثه والرب أنيسه والذي كره رقيقه والزهد قرينه والحزن شأنه والحياة شعاره والجوع إدامه والحكمة كلامه والتراب فراشه والتقوى زاده والصمت غنيمة والصبر معتمده والتوكل حسبه والعقل دليله والعبادة حرفه والجنة مبلغه إن شاء الله تعالى [ اللهم الثاني ] اللبس وأقل درجته ما يدفع الحر والبرد ويستر الدورة وهو كساء يغطي به وأوسطه قميص وقلنسوة ونعلان وأعلى أن يكون معه منديل وسراويل وما جاوز هذا من حيث القدر فهو مجاوز حد الزهد وشرط الزاهد أن لا يكون له ثوب يلبسه إذا غسل ثوبه بل يلبسه القعود في البيت ، فإذا صار صاحب قميص وسراويلين ومنديلين فقد خرج من جميع أبواب الزهد من حيث القدر ، أما الجنس فأقله المسوح الجشنة وأوسطه الصوف الخشن وأعلى القطن الغليظ ، وأما من حيث الوقت فأقصاه ما يستر سنة وأقله ما يبقى يوما حتى رفع بعضهم ثوبه بورق الشجر وإن كان يتسارع الجفاف إليه وأوسطه ما يتماسك عليه شهرا وما يقاربه فطلب ما يبقى أكثر من سنة خروج إلى طول الأمل وهو مضاد للزهد إلا إذا كان المطلوب خشوته ثم قد يتبع ذلك قوته ودوامه فمن وجد زيادة من ذلك فينبغي أن يتصدق به فان أمسكه لم يكن زاهدا بل كان عبا للدنيا وينظر فيه إلى أحوال الأنبياء والصحابة كيف تركوا الملابس قال أبو بردة أخرجت لنا عائشة رضي الله تعالى عنها كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين<sup>(٣)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «إن الله تعالى يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس»<sup>(٤)</sup> وقال عمرو بن الأسود العنسي لا لبس مشهورا أبدا ولا أنام بليل على دنار أبدا ولا أركب على مائور أبدا ولا أملأ جوفي من طعام أبدا فقال عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود<sup>(٥)</sup> وفي الخبر «ما من عبد لبس ثوب شهرة إلا أعرض الله عنه حتى يزعه وإن كان عنده حبيبا»<sup>(٦)</sup> واشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم<sup>(٧)</sup>

ومنجذب إلى تدبيرها من وجه إذ لا بد له منهما وقول القائلين واختلافهم في عقل العقل فمن قائل إن عقله الدماغ ومن قائل إن عقله القلب كلام القاصرين عن درك حقيقة ذلك واختلافهم في ذلك لعدم استقرار العقل على نسق واحد وانجذابه إلى البارتارة وإلى العاقبى أخرى وللقلب والدماغ نسبة إلى البار والعاقبى فإذا روى في تدبير العاقبى قيل مسكنه الدماغ وإذا روى في تدبير البار قيل مسكنه القلب فالروح العلوى بهم بالارتضاع إلى مولاه شوقا وحسوا ونزها

الحديث تقدم ذون قوله إنما أنا عبد فانه ليس من حديث الحسن إنما هو من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث ما شبع رسول الله صلى الله عليه وسلم منذ قدم المدينة ثلاثة أيام من خبز البر تقدم (٢) حديث لما أتى أهل قباء أتوه بشربة من لبن بعسل فوضع القدح من يده الحديث تقدم (٣) حديث أخرجت عائشة كساء ملبدا وإزارا غليظا فقالت قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم في هذين (٤) حديث إن الله يحب المتبذل الذي لا يبالي باللبس (٥) حديث عمر من سره أن ينظر إلى هدى رسول الله صلى الله عليه وسلم فلينظر إلى عمرو بن الأسود رواه أحمد بإسناد جيد (٦) حديث ما من عبد لبس ثوب شهرة الحديث ابن ماجه من حديث أبي ذر بإسناد جيد دون قوله وإن كان عنده حبيبا (٧) حديث اشترى رسول الله صلى الله عليه وسلم ثوبا بأربعة دراهم أبو يعلى من حديث أبي هريرة قال

وكانت قيمة ثوبه عشرة (١) . وكان إزاره أربعة أذرع ونصف (٢) . واشترى سراويل بثلاثة دراهم (٣) . وكان يلبس قميصين يضاوون من صوف (٤) وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ وفي الخبر كان قميص رسول الله صلى الله عليه وسلم كأنه قميص زيات (٥) . ولبس رسول الله صلى الله عليه وسلم يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما ثمان دراهم (٦) فكان أصحابه يلبسونه ويقولون يا رسول الله أنزل عليك هذا من الجنة فاجابوا وكان قد أهدها إليه القوقس ملك الاسكندرية فأراد أن يكرمه بلبسه ثم نزع وأرسل به إلى رجل من الثركين وصله به ثم حرم لبس الحرير والدياج وكأنه لبسه أولا تأكيداً للتحريم كما لبس خاتما من ذهب يوم مات ثم نزع (٧) فحرم لبسه على الرجال وكما قال لعائشة في شأن بريرة اشترطى لأهلها الولاء (٨) فلما اشترطته سعد عليه السلام للبر فحرمه وكما أباح للثمة ثلاثاً ثم حرمها لتأكيد أمر النكاح (٩) وقد صلى رسول الله صلى الله عليه وسلم في خيمة لها علم فلما سلم قال شغافى النظر إلى هذه اذهبوا بها إلى أبي جهم والتوى بأبجانيته (١٠) يعني كساءه فاختر لبس الكساء على الثوب الناعم وكان شر الكثرة قد أخلق فأبدل بغير جديد فلي فيه فلما سلم قال أعيذوا الشراك الحلقى واتزعوها هذا الجديد فاني نظرت إليه في الصلاة

دخلت يوما السوق مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فجلس إلى البرازين واشترى سراويل بأربعة دراهم الحديث وإسناده ضعيف (١) حديث كان قيمة ثوبه عشرة دراهم لم أجده (٢) حديث كان إزاره أربعة أذرع ونصف أبو الشيخ في كتاب أخلاق رسول الله صلى الله عليه وسلم من رواية عروة بن الزبير مرسل كان رداء رسول الله صلى الله عليه وسلم أربعة أذرع ، وعرضه ذراعان ونصف الحديث وفيه ابن لهيعة . وفي طبقات ابن سعد من حديث أبي هريرة كان له إزار من نسج عمان طوله أربعة أذرع وشبر في ذراعين وشبر ، وفيه محمد بن عمر الواقدي (٣) حديث اشترى سراويل بثلاثة دراهم للمعروف أنه اشتراه بأربعة دراهم كما تقدم عند أبي يعلى وشراؤه السراويل عند أصحاب السائق من حديث سويد بن قيس إلا أنه لم يذكر فيه مقدار ثمنه قال الترمذي حسن صحيح (٤) حديث كان يلبس قميصين يضاوون من صوف وكانت تسمى حلة لأنها ثوبان من جنس واحد وربما كان يلبس بردين يمانيين أو سحوليين من هذه الغلاظ تقدم في آداب وأخلاق النبوة لبسه للشملة والبرد والخبرة . وأما لبسه الحلة ففي الصحيحين من حديث البراء رأيت في حلة حمراء ولأبي داود من حديث ابن عباس حين خرج إلى الضرورية وعليه أحسن ما يكون من حلة اليمن وقال رأيت على رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن ما يكون من الحلة وفي الصحيحين من حديث عائشة أنه صلى الله عليه وسلم قبض في ثوبين أحدهما إزار غايظ مما يصنع باليمن وتقدم في آداب العيشة ولأبي داود والترمذي والنسائي من حديث أبي رزمة وعليه بردان أخضران سكبت عليه أبو داود واستغربه الترمذي والبراز من حديث قدامة الكلابي وعليه حلة حبرة وفيه عريف بن إبراهيم لا يعرف قاله الذهبي (٥) حديث كان قميصه كأنه قميص زيات الترمذي من حديث أنس بن سعد ضعيف كان يكثر دهن رأسه وتسريح لحته حتى كأن ثوبه ثوب زيات (٦) حديث لبس يوما واحدا ثوبا سيرا من سندس قيمته ما ثمان دراهم أهدها له القوقس ثم نزع الحديث (٧) حديث لبس يوما خاتما من ذهب [١] ثم نزع متفق عليه وقد تقدم (٨) حديث قال لعائشة في شأن بريرة اشترطى لأهلها الحديث متفق عليه من حديثها (٩) حديث أباح للثمة ثلاثاً ثم حرمها مسلم من حديث سلمة بن الأكوع (١٠) حديث صلى في خيمة لها علم الحديث متفق عليه وقد تقدم في الصلاة.

[١] قول العراقي ثم نزع الحديث هكذا في النسخ بغير ذكر راو ولم يتكلم عليه الشارح فليظنراه .

عن الأكواع ومن  
الأصكوان القلب  
والنفس فإذا ارتقى  
الروح يحبو القلب إليه  
حنو الولد الحنين  
البار إلى الوالد وحن  
النفس إلى القلب الذي  
هو الولد حينئذ والدة  
الحنينة إلى ولدها وإذا  
حننت النفس ارتقت  
من الأرض وانزوت  
عروقها الضاربة في  
العالم السفلي وأنطوى  
هواها وانحسرت  
مادته وزهدت في الدنيا  
وتجافت عن دار  
الغرور وأثابت إلى دار  
الخلود وقد تغلغل النفس  
التي هي الأم إلى  
الأرض بوضعها الجبلي  
لتسكنها من الروح  
الحيواني الجنس

«وليس خاتما من ذهب ونظر إليه على المنبر فرمى به فقال شغلني هذا عنكم نظرة إليه ونظرة إليكم» (١). «وكان صلى الله عليه وسلم قد احتذى مرة ثنتين جديدتين فأعجبهما حسنهما فخر ساجدا وقال : أهيبني حسنهما فتواضعت لربي خشية أن يعقني ثم خرج بهما فدفعهما إلى أول مسكين رآه» (٢). وعن سنان بن سعد قال حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار وجملت حاشيتها سوداء فلما لبسها قال «انظروا ما أحسنها وما أليها قال قام إليه أعرابي فقال يا رسول الله هيا لي وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا سئل شيئا لم يبعث به قال فدفنها إليه وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فمات صلى الله عليه وسلم وهي في الحياكة» (٣). وعن جابر «قال دخل رسول الله صلى الله عليه وسلم على فاطمة رضي الله تعالى عنها وهي تطحن بالرحى وعليها كساء من وبر الأبل فلما نظر إليها بكى وقال يا فاطمة تجرعي مرارة الدنيا لنعيم الأبد فأنزله الله عليه وسوف يعطيك ربك فترضى» (٤). وقال صلى الله عليه وسلم «إن من خيار أمتي فيما أنبأني للأنبياء قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة الله تعالى ويكون سرا من خوف عذابه مؤتمن على الناس خفية وعلى أنفسهم ثقيلة يلبسون الخلقان ويتبعون الرهبان أجسامهم في الأرض وأقدنهم عند العرش» (٥). فهذه كانت سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم في اللباس «وقد أوصى أمته عامة باتباعه إذ قال «من أحبني فليستن بسنني» (٦) وقال «عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين من بعدى عضوا عليها بالنواجذ» (٧) وقال تعالى «قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله» (٨) وأوصى رسول الله صلى الله عليه وسلم عائشة رضي الله عنها خاصة وقال إن أردت الحقوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء ولا تنزعني ثوبا حتى ترقعيه» (٩). «وعد على قبري عمر رضي الله عنه اثنتا عشرة رقعة بعضها من آدم واشترى على بن أبي طالب كرم الله وجهه ثوبا بثلاثة دراهم. ولبسه وهو في الخلافة وقطع كية من الرنين وقال الحمد لله الذي كساني هذا من ريشه. وقال الثوري وغيره البس من الثياب ما لا يشرك عند العلماء ولا يعقرك عند الجهال وكان يقول إن الفقير ليجري وأنا أصلي فأدعه يجوز ويمر بي واحد من أبناء الدنيا وعليه هذه البرة فأمقته ولا أدعه يجوز. وقال بعضهم قومت ثوبى سفيان ونعليه بدرهم وأربعة دنانير. وقال ابن شبرمة خير ثيابي ما خدمني وشربها ما خدمته. وقال بعض السلف : البس من الثياب ما يخلطك بالسوقة ولا تلبس منها ما يشرك فينظر إليك. وقال أبو سليمان الداراني : الثياب ثلاثة ثوب لله وهو ما يستر العورة وثوب للنفس وهو ما يطلب لينة وثوب للناس وهو ما يطلب جوهره وحسنه. وقال بعضهم من رقى ثوبه رقى دينه

(١) حديث لبس خاتما فنظر إليه على المنبر فرمى به وقال شغلني هذا عنكم الحديث تقدم (٢) حديث احتذى ثنتين جديدتين فأعجبهما حسنهما الحديث تقدم (٣) حديث سنان بن سعد حكيت لرسول الله صلى الله عليه وسلم جبة من صوف أعمار الحديث أبو داود الطيالسي والطبراني من حديث سهل بن سعد قوله وأمر أن يحاك له واحدة أخرى فهمي عند الطبراني فقط وفيه زمعة بن صالح ضعيف ويقع في كثير من نسخ الإحياء سيار بن سعد وهو غلط (٤) حديث جابر دخل على فاطمة وهي تطحن بالرحى الحديث أبو بكر بن لال في مكارم الأخلاق باسناد ضعيف (٥) حديث إن من خيار أمتي فيما أنبأني النبي قوما يضحكون جهرا من سعة رحمة ربهم ويكون سرا من خوف عذابه الحديث تقدم وهو عند الحاكم والبيهقي في الشعب وضعفه (٦) حديث من أحبني فليستن بسنني تقدم في التلخيص (٧) حديث عليكم بسنني وسنة الخلفاء الراشدين الحديث أبو داود والترمذي وصححه وابن ماجه من حديث العرياض بن سارية (٨) حديث قال لعائشة إن أردت الحقوق بي فإياك ومجالسة الأغنياء

ومستندها في ركونها إلى الطبايع التي هي أركان العالم السفلي . قال الله تعالى - ولو شئنا لرفعناه بها ولكنه أخلد إلى الأرض واتبع هواه - فإذا سكنت النفس التي هي الأم إلى الأرض انجذب إليها القلب للنكس انجذاب الولد إلى والدته الملوحة النافسة دون والد الكامل للستقيم وتنجذب الروح إلى الولد الذي هو القلب لما جبل عليه من انجذاب الوالد إلى ولده فمعد ذلك يتخلف عن حقيقة القيام بحق مولاه وفي هذين الانجذابين يظهر حكم السعادة والشقاوة



وكان جمهور العلماء من التابعين قيمة ثيابهم ما بين العشرين إلى الثلاثين درهما وكان الخواص لا يلبس أكثر من قطعتين قميص ومئزر تحته وربما يعطف ذيل قميصه على رأسه . وقال بعض السلف أول ذلك الزى وفي الخبر « البذاعة من الإيمان » وفي الخبر « من ترك ثوب جمال وهو بقدر عليه تواضع لله تعالى وإتقاء لوجهه كان حقا على الله أن يدخر له من عبقرى الجنة في تحت الياقوت » وأوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه قل لأوليائي لا يلبسوا ملابس أعدائي ولا يدخلوا مداخل أعدائي فيكونوا أعدائي كما هم أعدائي وانظر رافع بن خديج إلى بشر بن مروان على منبر الكوفة وهو يعظ فقال انظروا إلى أميركم يعظ الناس وعليه ثياب الفساق وكان عليه ثياب رفاق وجاء عبد الله بن عامر بن ربيعة إلى أبي ذر في بزته فجعل يتكلم في الزهد فوضع أبو ذر راحته على فيه وجعل يضرب به فغضب ابن عامر فشكاه إلى عمر فقال أنت صنعت بنفسك تتكلم في الزهد بين يديه بهذه البزة وقال على كرم الله وجهه إن الله تعالى أخذ على آمة الهدى أن يكونوا في مثل أدنى أحوال الناس ليقتدى بهم النعمى ولا يزرى بالفقير فقره ولما عوتب في خشونة لباسه قال هو أقرب إلى التواضع وأجدر أن يقتدى به السلم ونهى صلى الله عليه وسلم عن التعم وقال « إن الله تعالى عبادا ليسوا بالمتعدين (١) » وروى فضالة بن عبيد وهو والى مصر أن شعث حافيا قيل له أنت الأمير وتفعل هذا فقال نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء وأمرنا أن نحتفى أحيانا (٢) . وقال على لعمر رضى الله عنهما إن أردت أن تلحق بصاحبك فارقع القميص ونكس الإزار واخشف النعل وكل دون الشبع وقال عمر اخشوشنوا وإياكم وزى الصجم كسرى وقصر . وقال على كرم الله وجهه من زيا زى قوم فهو منهم وقال رسول الله ﷺ « إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعم يطلبون ألوان الطعام وألوان الثياب ويتصدقون في الكلام (٣) » وقال صلى الله عليه وسلم « أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه ولا جناح عليه فيما بينه وبين الكعبين وما أسفل من ذلك ففي النار ولا ينظر الله يوم القيامة إلى من جر إزاره بطرا (٤) » وقال أبو سليمان الداراني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لا يلبس الشر من أمتى إلا مراء أو أحرق (٥) » وقال الأوزاعي لباس الصوف في السفر سنة وفي الحضر بدعة ودخل محمد بن واسع على قتيبة بن مسلم وعليه جبة صوف فقال له قتيبة مدامك إلى مدرعة الصوف فسكت فقال أكلك ولا تيميني فقال أكره أن أقول زهدا فأزكي نفسي أو تقرا فأشكو ربى وقال أبو سليمان لما اتخذه الله إبراهيم خيلا أوحى إليه أن وار عورتك من الأرض وكان لا يتخذ من كل شيء إلا واحدا سوى السراويل فانه كان يتخذ سراويلين فاذا غسل أحدهما لبس

الترمذي وقال غريب والحاكم وصححه من حديث عائشة وقد تقدم (١) حديث نهى عن التعم وقال إن الله عبادا ليسوا بالمتعدين أحمد من حديث معاذ وقد تقدم (٢) حديث فضالة بن عبيد نهانا رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإرفاء [١] وأمرنا أن نحتفى أحيانا أبو داود بإسناد جيد (٣) حديث إن من شرار أمتى الذين غدوا بالنعم الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بإسناد ضعيف سيكون رجال من أمتى يأكلون ألوان الطعام الحديث وآخره أولئك شرار أمتى وقد تقدم (٤) حديث أزرة المؤمن إلى أنصاف ساقيه الحديث مالك وأبو داود والنسائي وابن حبان من حديث أبي سعيد ورواه أيضا النسائي من حديث أبي هريرة قال محمد بن يحيى الذهلي كلا الحديثين محفوظ (٥) حديث أبي سليمان لا يلبس الشر من أمتى إلا مراء أو أحرق لم أجده له إسنادا .

[١] الإرفاء بكسر الهمزة ثم راه ساكنة ثم فاء مقصورة ثم هاء وليست بتاء : التدهن والتجليل كل يوم . وقيل التوسع في الطعام والمشرط برهان اه .

- ذلك تقدير العزيز  
العليم - . وقد ورد  
في أخبار داود عليه  
السلام أنه سأل ابنه  
سليمان أين موضع العقل  
منك قال القلب لأنه  
قالب الروح والروح  
قالب الحياة . وقال  
أبو سعيد القرشي  
الروح روحان روح  
الحياة وروح المات فاذا  
اجتمعا عقل الجسم  
وروح المات هي التي إذا  
خرجت من الجسد  
يصير الحي ميتا وروح  
الحياة ما به مجارى  
الأنفاس وقوة الأكل  
والشرب وغيرها ،  
وقال بعضهم : الروح  
نسيم طيب يكون به  
الحياة والنفس ريح  
حارة يصحون منها

الآخر حتى لا يأتي عليه حال الإلوة عورته مستورة ، وقيل لسلطان الفارسي رضى الله عنه مالك تلبس  
الجيد من الثياب فقال وما للعبد والثوب الحسن فإذا عتق الله والله ثياب لا تبلى أبدا ، وروى  
عن عمر بن عبد العزيز رحمه الله أنه كان له جبة شعر وكساء شعر يلبسهما من الليل إذا قام يصلى ،  
وقال الحسن لفرقد السبخى تحسب أن لك فضلا على الناس بكسائك بلغنى أن أكثر أصحاب النار  
أصحاب الأكسية نفاقا . وقال يحيى بن معين : رأيت أبا معاوية الأسود وهو يلتقط الحرق من  
الزابل ويضلعها ويلبسها قلت إنك تكسى خيرا من هذا فقال ماضرم ما أصابهم في الدنيا  
جبر الله لهم بالجنة كل مصيبة فجعل يحيى بن معين يحدث بها ويسكى [ اللهم الثالث ] للسكن وللزهد  
فيه أيضا ثلاث درجات : أعلاها أن لا يطلب موصفا خاصا لنفسه فيقتنع بزوايا الساجد كأصحاب  
الصفة وأوسطها أن يطلب موصفا خاصا لنفسه مثل كوخ مبنى من سقف أو خص أو ما يشبهه وأدناها  
أن يطلب حجرة مبنية إما بشراء أو إجارة فإن كان قدر سعة السكن على قدر حاجته من غير زيادة  
ولم يكن فيه زينة لم يخرج به هذا القدر عن آخر درجات الزهد فإن طلب التشديد والتجسس  
والسعة وارتفاع السقف أكثر من ستة أذرع فقد جاوز بالسكنية حد الزهد في السكن فاختلاف  
جنس البناء بأن يكون من الجص أو القصب أو الطين أو بالآجر واختلاف قدره بالسعة والضيق  
واختلاف طوله بالإضافة إلى الأوقات بأن يكون مملوكا أو مستأجرا أو مستعارا وللزهد مدخل في  
جميع ذلك وبالجملة كل ما يراود للضرورة فلا ينبغي أن يجاوز حد الضرورة وقدر الضرورة من الدنيا  
آلة الدين ووسيلته وما جاوز ذلك فهو مضاد للدين والفرض من السكن دفع للطر والبرد ودفع الأعين  
والأذى وأقل الدرجات فيه معلوم وما زاد عليه فهو الفضول والفضول كله من الدنيا وطلب الفضول  
والساعى له بعيد من الزهد جدا وقد قيل أول شيء ظهر من طول الأمل بعد رسول الله صلى الله عليه  
وسلم التدبر والتشديد يعنى بالتدبر كف دروز الثياب فاتها كانت تشل شلا والتشديد هو البنيان  
بالجص والآجر وإنما كانوا يبنون بالسقف والجريد (١) وقد جاء في الخبر « يأتي على الناس زمان  
يوشون ثيابهم كما توشى البرود الجماني » وأمر رسول الله صلى الله عليه وسلم العباس أن يهدم عليه  
كان قد علا بها (٢) « ومروا عليه السلام بمجنونة معلاة فقال لمن هذه قالوا لفلان فلما جاءه الرجل  
أعرض عنه فلم يكن يقبل عليه كما كان فسأل الرجل أصحابه عن تغير وجهه صلى الله عليه وسلم  
فأخبر فذهب فهدمها فمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالموضع فلم يرها فأخبر بأنه هدمها فدعا له  
بخير (٣) » وقال الحسن « مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة (٤) »

(١) حديث كانت الثياب تشل شلا وكانوا يبنون بالسقف والجريد أما مثل الثياب من غير كف فروى  
الطبراني والحاكم أن عمر قطع ما فضل عن الأصابع من غير كف وقال هكذا رأيت رسول الله صلى الله عليه  
وسلم وأما البناء في الصحيحين من حديث أنس في قصة بناء مسجد المدينة فصفوا النخل قبلة المسجد وجعلوا  
عضاديه الحجارة الحديث ولهم من حديث أبي سعيد كان المسجد على عريش فوق كف للمسجد (٢) حديث  
أمر العباس أن يهدم عليه له كان قد علاها الطبراني من رواية أبي العالية أن العباس بنى غرفة فقال له  
النبي صلى الله عليه وسلم اهدمها الحديث وهو منقطع (٣) حديث مر بمجنونة معلاة فقال لمن هذه ؟ قالوا  
لفلان فلما جاءه الرجل أعرض عنه الحديث أبو داود من حديث أنس باسناد جيد بلفظ فرأى قبة مشرفة  
الحديث والجنيذة القبة (٤) حديث الحسن مات رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يضع لينة على لينة الحديث  
ابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية هكذا مر سلا والطبراني في الأوسط من حديث عائشة من سأل  
عنى أوسره أن ينظر إلى فلان نظر إلى أشعث شاحب مشعر لم يضع لينة على لينة الحديث وإسناده ضيف .

الحركات للذمومة  
والتهنؤات ويقال  
فلان حار الرأس وفى  
الفصل الذى ذكرناه  
يقع التنبيه بماهية  
النفس وإشارة الشايع  
بماهية النفس إلى  
ما يظهر من آثارها  
من الأفعال للذمومة  
والأخلاق للذمومة  
وهى التى تعالج بحسن  
الرياضة لإزالتها  
وتبديلها بالأفعال  
الريضة زوال الأخلاق  
الريضة تبدل . أخبرنا  
الشيخ العالم رضى الدين  
أحمد بن اسمعيل  
القزوينى قال أنا إجازة  
أبو سعيد محمد بن أبى  
العباس الحللى قال أنا  
القاضى محمد بن سعيد  
الفرخزادى قال أنا

وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا أراد الله بعبده شرا أهلك ماله في الماء والطين»<sup>(١)</sup> وقال عبد الله بن عمر «مررت علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ونحن نعالج خسا فقال ما هذا قلنا خسرنا قد وهى فقال أرى الأمر أعجل من ذلك»<sup>(٢)</sup> واتخذ نوح عليه السلام بيتا من قصب قليل له لو بنيت فقال هذا كثير لمن يموت ، وقال الحسن دخلنا على صفوان بن يحيى وهو في بيت من قصب قدمال عليه قليل له لو أصلحته فقال كم من رجل قدم مات وهذا قائم على حاله ، وقال النبي صلى الله عليه وسلم «من بنى فوق ما يكفيه كلف أن يحمله يوم القيامة»<sup>(٣)</sup> وفي الخبر «كل نفقة للمعد يؤجر عليها إلا ما أنفق في الماء والطين»<sup>(٤)</sup> وفي قوله تعالى - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا - إنه الرياسة والتطاول في البنيان . وقال صلى الله عليه وسلم «كل بناء وبال على صاحبه يوم القيامة إلا ما أكن من حر»<sup>(٥)</sup> وأورد<sup>(٥)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم للرجل الذي شكاه إليه ضيق منزله «اتسع في السماء»<sup>(٦)</sup> أى في الجنة ، ونظر عمر رضي الله عنه في طريق الشام إلى صرح قد بنى بحص وأجر فكبر وقال ما كنت أظن أن يكون في هذه الأمة من يبني بنيان هامان لفرعون يعني قول فرعون - فأوقد لي يا هامان على الطين - يعني به الأجر ويقال إن فرعون هو أول من بنى له بالحص والأجر وأول من عمله هامان ثم تبعهما الجبارة وهذا هو الزخرف ورأى بعض السلف جامعا في بعض الأمصار فقال أدركت هذا المسجد مبنيا من الجريد والسعف ثم رأيت مبنيا من رصاص ثم رأيت الآن مبنيا بالبن فكان أصحاب السعف خيرا من أصحاب الرصاص وكان أصحاب الرصاص خيرا من أصحاب البن وكان في السلف من يبني داره مرارا في مدة عمره لضعف بنائه وقصرأ له وزهده في إحكام البنيان وكان منهم من إذا حج أو غزا نزع بيته أو وهبه لجيرانه فإذا رجع أعاده وكانت بيوتهم من الخشب والجلود وهي عادة العرب الآن يلاذ اليمن وكان ارتفاع بناء السقف قامة وبسطة. قال الحسن كنت إذا دخلت بيوت رسول الله صلى الله عليه وسلم ضربت يدي إلى السقف، وقال عمرو

أبو اسحق أحمد بن محمد  
ابن إبراهيم قال أنا  
الحسين بن محمد بن  
عبد الله السفياني  
قال حدثنا محمد  
ابن الحسن القطيني  
قال حدثنا أحمد بن  
عبد الله بن يزيد  
القيلي قال حدثنا  
صفوان بن صالح قال  
حدثنا الوليد بن مسلم  
عن ابن لهيعة عن  
خالد بن يزيد عن

ورأى آخر شرب من النهر بكفيه فرمى بالكوز وهذا حكم كل أثاث فانه إنما يراد المقصود فاذا استغنى عنه فهو وبال في الدنيا والآخرة وما لا يستغنى عنه فيقتصر فيه على أقل الدرجات وهو الحزف في كل ما يكفي فيه الحزف ولا يبالى بأن يكون مكسور الطرف إذا كان المقصود يحصل به وأوسطها أن يكون له أثاث بقدر الحاجة صحيح في نفسه ولكن يستعمل الآلة الواحدة في مقاصد كالذى معه قصعة يأكل فيها ويشرب فيها ويحفظ التناع فيها وكان السلف يستحبون استعمال آلة واحدة في أشياء لتخفيف وأعلها أن يكون له بعد ذلك حاجة آلة من الجنس النازل الحسيس فان زاد في العدد أوفى قلته الجنس خرج عن جميع أبواب الزهد وركن إلى طلب الفضول ولينظر إلى سيرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وسيرة الصحابة رضوان الله عليهم أجمعين ، فقد قالت عائشة رضى الله عنها : كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف<sup>(١)</sup> . وقال الفضيل ما كان فراش رسول الله ﷺ إلا لعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف ، وروى أن عمر بن الخطاب رضى الله عنه دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشرط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه عليه السلام فسمعت عينا عمر فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ما الذى أبكاك يا ابن الخطاب قال ذكرت كسرى وقصر وماها فيه من اللك وذكرتك وأنت حبيب الله وصفيه ورسوله نائم على سرير مرمول بالشريط فقال صلى الله عليه وسلم أما ترى يا عمر أن تكون لهما الدنيا ولنا الآخرة قال بلى يا رسول الله قال فذلك كذلك<sup>(٢)</sup> . ودخل رجل على أبي ذر فجعل يقلب بصره في بيته فقال يا أبذر ما أرى في بيتك متاعا ولا غير ذلك من الأثاث فقال إن لنا بيتا نوجه إليه صالح متاعنا فقال إنه لا بد لك من متاع مادمت ههنا فقال إن صاحب المنزل لا يدعنا فيه ، ولما قام عمر بن سعيد أمير حمص على عمر رضى الله عنهما قال له مامعك من الدنيا فقال معى عصا أتوكأ عليها وأقل بها حية إن لقيتها ومعى جراب أحمل فيه طعامى ومعى قصعة أكل فيها وأغسل فيها رأسى وثوبى ومعى مطهرتى أحمل فيها شراي وطهورى للصلاة لما كان بعد هذا من الدنيا فهو تبع لمامعى فقال عمر صدقت رحمك الله . ووقدم رسول الله ﷺ من سفر فدخل على فاطمة رضى الله عنها فرأى على باب منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع فدخل عليها أبو رافع وهى تبكى فأخبرته برجوع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسأله أبو رافع فقال من أجل السر والسوارين فأرسلت بهما بلالا إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقالت قد تصدقت بهما فضعهما حيث ترى فقال اذهب فيهما وادفعه إلى أهل الصفة فباع القلبين بدرهمين ونصف وتصدق بهما عليهم فدخل عليها ﷺ فقال بأى أنت قد أحسنت<sup>(٣)</sup> .

النفس لطيفة مودعة في القالب منها الأخلاق والصفات المذمومة كما أن الروح لطيفة مودعة في القلب منها الأخلاق والصفات الحمودة كما أن العين محل الرؤية والأذن محل السمع والأنف محل الشم والتم محل الدوق وهكذا النفس محل الأوصاف المذمومة والروح محل الأوصاف الحمودة وجميع أخلاق النفس وصفاتها من أصليين أحدهما الطيبى والثانى الشرى وطيشها من جهلها وشرها من حرصها وشبهت النفس في طيشها بكثرة مستديرة على مكان أملس

(١) حديث عائشة كان ضجاع رسول الله صلى الله عليه وسلم الذى ينام عليه وسادة من أدم حشوها ليف أبو داود والترمذى وقال حسن صحيح وابن ماجه (٢) حديث ما كان فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم إلا لعباءة مثنية ووسادة من أدم حشوها ليف الترمذى في الشائل من حديث حفصة بقصة العباءة وقد تقدم ومن حديث عائشة بقصة الوسادة وقد تقدم قبله بعض طرقه (٣) حديث دخل عمر على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو نائم على سرير مرمول بشرط فجلس فرأى أثر الشريط في جنبه الحديث متفق عليه من حديثه وقد تقدم (٤) حديث قدم من سفره فدخل على فاطمة فرأى على منزلها سترا وفى يديها قلبين من فضة فرجع الحديث لم أره مجموعا ولأبى داود وابن ماجه من حديث صفينة بإسناد جيد أنه صلى الله عليه وسلم جاء فوضع يديه على عضادى الباب فرأى القرام قد ضربت في ناحية البيت فرجع فقالت فاطمة لعل النظر فارجه الحديث والنساء من حديث ثوبان بإسناد جيد قال جاءت ابنة هبيرة إلى النبي صلى الله عليه وسلم وفى يدها فنخ من ذهب الحديث

ورأى رسول الله صلى الله عليه وسلم على باب عائشة ستراً فتهتكه وقال «كلار آيته ذكرت الدنيا أرسلني به إلى آل فلان» (١) وفرغت له عائشة ذات ليلة فراشا جديداً وقد كان صلى الله عليه وسلم ينام على عباءة مثنية فإزالا يتقلب ليلته فلما أصبح قال لها أعدي العباءة الخلقعة ونعني هذا الفراش عني قد أسهرني الليلة (٢) وكذلك أته دنائير خمسة أو ستة ليلاً فيبيتها فسهري ليلته حتى أخرجها من آخر الليل قالت عائشة رضي الله عنها فنام حينئذ حتى صمت غبطة ثم قال «ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده» (٣) وقال الحسن أدركت سبعين من الأخيار ما لأحدم إلا توبه وما وضع أحدم بينه وبين الأرض ثواباً قط كان إذا أراد النوم ياتر الأرض بحمسه وجعل توبه فوقه [الهم الخامس] النكاح وقد قال قائلون لا معنى للزهد في أصل النكاح ولا في كثرة وإليه ذهب سهل بن عبد الله وقال قد حجب إلى سيد الزهاد بن النساء فكيف زهد فيه؟ وواقعه على هذا القول ابن عينة وقال كان أزهد الصحابة على بن أبي طالب رضي الله عنه وكان له أربع نسوة وبيع عشرة سرية والصحيح ما قاله أبو سليمان الداراني رحمه الله إذ قال كل ما شغلك عن الله من أهل ومال وولد فهو عليك مشغول والمرأة قد تكون شاغلاً عن الله وكشف الحق فيه أنه قد تكون المروبة أفضل في بعض الأحوال كما سبق في كتاب النكاح فيكون ترك النكاح من الزهد وحيث يكون النكاح أفضل لدفع الشهوة الغالبة فهو واجب فكيف يكون تركه من الزهد وإن لم يكن عليه آفة في تركه ولا فاضله ولكن ترك النكاح احترازاً عن ميل القلب إلى البهيم والأنس بهن بحيث يشتغل عن ذكر الله وترك ذلك من الزهد فإن علم أن المرأة لا تشغله عن ذكر الله ولكن ترك ذلك احترازاً من لذة النظر والمضاجعة والواقعة فليس هذا من الزهد أصلاً فإن الولد مقصود لبقاء نسله وتكثير أمة محمد ﷺ من القربات واللذة التي تلحق الإنسان فيما هو من ضرورة الوجود لا تنزهه إذ لم تكن هي المقصد والمطلب وهذا كمن ترك أكل الحبز وشرب الماء احترازاً من قدة الأكل والشرب وليس ذلك من الزهد في شيء لأن في ترك ذلك فوات بدنه فكذلك في ترك النكاح انقطاع

وفيه أنه وجد في يد فاطمة سلسلة من ذهب وفيه يقول الناس فاطمة بنت محمد في يدها سلسلة من نار وأنه خرج ولم يقعد فأمرت بالسلسلة فيمت فاعترت بتمنها عبداً فأعتقه فلما سمع قال الحمد لله الذي نجى فاطمة من النار (١) حديث رأي على باب عائشة ستراً فتهتك الحديث الترمذي وحسنه والنسائي في الكبرى من حديثها (٢) حديث فرغت له عائشة ذات ليلة فراشا جديداً وفيه كان ينام على عباءة مثنية الحديث ابن حبان في كتاب أخلاق النبي صلى الله عليه وسلم من حديثها قالت دخلت على امرأة من الأنصار فرأت فراش رسول الله صلى الله عليه وسلم عباءة مثنية فأنطلقت فبعثت إلى بفراش خشوه صوف فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال ما هذا الحديث وفيه أنه أمرها برده ثلاث مرات فردته وفيه مجاهد بن سعيد مختلف فيه والمعروف حديث حفصة التقدم ذكره من التماثل (٣) حديث أته دنائير خمسة أو ستة عشاء فيبيتها فسهري ليلته الحديث وفيه ما ظن محمد بربه لولقي الله وهذه عنده أحمد من حديث عائشة بإسناد حسن أنه قال في مرضه الذي مات فيه يا عائشة ما فعلت بالذهب فجاء ما بين الحمة إلى الثمانية إلى التسعة فجعل يقلبها بيده ويقول ما ظن محمد الحديث وزاد أنفقها وفي رواية سبعة أو تسعة دنائير وله من حديث أم سلمة بإسناد صحيح دخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو غام [١] الوجه قالت لحسبت ذلك من وجع فقلت يا بني الله مالك غام الوجه فقال من أجل الدنائير السبعة التي أتناها أمس أمسينا وهي في خصم الفراش وفي رواية أمسينا ولم تنفقها .

[١] غام بالمجعة متغير يقال شهم تغير عن حاله لغرض اهـ .

مصوب لا تزال متحركة  
يجلبها ووضعها وشبهت  
في حرصها بالفراش  
الذي يلقي نفسه على  
ضوء الصباح ولا يفتح  
بالضوء اليسير دون  
المجروح على جرم الضوء  
القدي فيه هلاكه فمن  
الطيش توجد الصبغة  
وقلة الصبر والصبر  
جوهر العقل والطيش  
صفة النفس وهواها  
وروحها لا ينلها إلا  
الصبر إذ العقل يجمع  
الهوى ومن الشر  
بظهر الطمع والحرص  
وهما اللذان ظهرا في  
آدم حيث طمع في  
الحلوة لحرص على أكل  
الشجرة وصفات النفس  
لها أصول من أصل  
تكونها لأنها مخلوقة

نفسه فلا يجوز أن يترك النكاح زهدا في لذته من غير خوف آفة أخرى وهذا ما عناه سهل لا محالة  
ولأنه نكح رسول الله صلى الله عليه وسلم وإذا ثبت هذا فمن حاله حال رسول الله ﷺ في أنه لا يشغله  
كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن<sup>(١)</sup> والاتفاق عليهن<sup>(٢)</sup> فلامعنى زهده فيهن<sup>(٣)</sup> حذر من مجرد كثرة  
الوقوع والنظر ولكن أن يتصور ذلك تغير الأنبياء والأولياء فأكثر الناس يشغلهم كثرة النسوان  
فينبئ أن يترك الأصل إن كان يشغله وإن لم يشغله وكان يخاف من أن تشغله الكثرة منهم أو جمال  
للرأة فلينكح واحدة غير جميلة وليراع قلبه في ذلك قال أبو سليمان: الزهد في النساء أن يختار للرأة الدون  
أو اليتيمة على الرأة الجميلة والشريرة. وقال الجنيد رحمه الله أحب للمرید البتدى أن لا يشغل قلبه بثلاث  
وإلتفات حاله: التمسك وطلب الحديث والزواج وقال أحب للصوفي أن لا يكتب ولا يقرأ لأنه أجمع  
لحمه فإذا ظهر أن كثرة النكاح كلذة الأكل فما شغل عن الله فهو محذور فيها جميعا [ اللهم السادس ]  
ما يكون وسيلة إلى هذه المحنة ، وهو المال والجاء: أما الجاء فضاء ملك القلوب بطلب محل فيها ليتوصل  
به إلى الاستعانة في الأغراض والأعمال وكل من لا يقدر على القيام بنفسه في جميع حاجاته وانفق إلى  
من يخدمه انفق إلى جاء لا محالة في قلب خادمه لأنه إن لم يكن له عنده محل وقدر لم يتم بخدمته وقيام  
القدر والمحل في القلوب هو الجاء وهذا له أول قريب ولكن يتماهى به إلى هاوية لا عمق لها ومن حرم  
حول المحي بوشك أن يقع فيه وإنما يحتاج إلى المحل في القلوب إما لجلب ثمن أو لدفع ضرر أو لخلاص  
من ظلم فأما النفع فينبغي عنه المال فإن من يخدم بأجرة يخدم وإن لم يكن عنده للاستأجر قدر وإنما  
يحتاج إلى الجاء في قلب من يخدم بغير أجرة وأما دفع الضرر فيحتاج لأجله إلى الجاء في بلد لا يكمل  
فيه العدل أو يكون بين جيران يظلمونه ولا يقدر على دفع شرهم إلا بعمل له في قلوبهم أو محل له  
عند السلطان وقدر الحاجة فيه لا ينضب لاسيما إذا انضم إليه الخوف وسوء الظن بالعواقب والمحاضن  
في طلب الجاء سالك طريق الملاك بل حق الزاهد أن لا يسعى لطلب المحل في القلوب أصلا فإن اشتغاله  
بالدين والعبادة يمهده من المحل في القلوب ما يدفع به عنه الأذى ولو كان بين الكفار فكيف بين  
المسلمين فأما التوهجات والتفديرات التي تنحوي إلى زيادة في الجاء على الحاصل بغير كسب فهي أوهام  
كاذبة إذ من طلب الجاء أيضا لم يحل عن أذى في بعض الأحوال فصلاح ذلك بالاحتمال والصبر أولى من  
علاجه بطلب الجاء ، فأذن طلب المحل في القلوب لا رخصة فيه أصلا واليسير منه داع إلى الكثير وضراوته  
أشد من ضراوة الحر فليحترز من قليله وكثيره . وأما المال فهو ضروري في العيشة أعنى القليل منه  
فإن كان كسوبا فإذا كتسب حاجة يومه فينبغي أن يترك الكسب كان بعضهم إذا اكتسب حبتين  
رفع سفظه وقام هذا شرط الزهد فإن جاوز ذلك إلى ما يكفي أكثر من سنة فقد خرج عن حد ضفاء  
الزهاد وأقرباؤهم جميعا وإن كانت له ضيقة ولم يكن له قوة يمين في التوكل فأمسك منها مقدار ما يكفي  
ربعه لسنة فلا يخرج بهذا القدر عن الزهد بشرط أن يتصدق بكل ما يفضل عن كفاية سنته  
ولكن يكون من ضفاء الزهاد فإن شرط التوكل في الزهد كما شرطه أوبس القرني رحمه الله فلا يكون هذا  
من الزهاد وقولنا إنه خرج من حد الزهاد نفي به أن ما وعد للزاهدين في الدار الآخرة من القامات  
المحمودة لا ينالها إلا قاسم الزهد قد لا يغارقه بالإضافة إلى ما زهد فيه من القصور والكثرة وأمر للتفرد في  
جميع ذلك أخف من أمر العيل وقد قال أبو سليمان لا ينبغي أن يهرق الرجل أهله إلى الزهد بل يدعوهم إليه  
فإن أجابوا وإلا تركهم وفضل بنفسه ماشاء معناه أن التضييق الشروط على الزاهد يحصه ولا يلزمه كل  
ذلك في عياله ، نعم لا ينبغي أن يحبسهم أيضا فخرج عن حد الاعتدال وليتعلم من رسول الله صلى الله عليه وسلم  
(١) حديث كان لا يشغله كثرة النسوة ولا اشتغال القلب باصلاحهن والاتفاق عليهن تقدم في النكاح .

من تراب ولها بحسبه  
وصف وقيل وصف  
الضف في آدمي من  
التراب ووصف البخل  
فيه من الطين ووصف  
الشهوة فيه من الجأ  
للنور ووصف الجهل  
فيه من الصلصال  
وقيل قوله كالقمار فهذا  
الوصف فيه شيء من  
الشيطنة لدخول النار  
في القمار فمن ذلك  
الحذاع والحيل والحسد  
فمن عرف أصول  
النفس وجبلاتها عرف  
أن لا قدرة له عليها  
إلا بالاستئانة بياربها  
وقاطرها فلا يتحقق  
المبد بالانسانية  
إلا بعد أن يدبر  
دواعي الحيوانية فيه  
بالعلم والعدل وهو

إذ انصرف من بيت فاطمة رضوان الله عليها بسبب ستر وقلبين لأن ذلك من الزينة لامن الحاجة ، فإذا ما اضطر الإنسان إليه من جاء ومال ليس يحذور ، بل الزائد على الحاجة سم قاتل ولتقتصر على الضرورة دواء نافع وما بينهما درجات متشابهة ، فما يقرب من الزيادة وإن لم يكن سما قاتلا فهو مضر وما يقرب من الضرورة فهو وإن لم يكن دواء ناعما لكنه قليل الضرر والسم محذور شره والدواء فرض تناوله وما بينهما مشقة أمره فمن احتاط فأنما يحاط لنفسه ومن تساهل فأنما يتساهل على نفسه ، ومن استبرأ لدينه وترك ما يريه إلى ما لا يريه ورد نفسه إلى مضيق الضرورة فهو الآخذ بالحزم ، وهو من الفرقة الناجية لأحالة ، والمقتصر على قدر الضرورة والله لا يجوز أن ينسب إلى الدنيا بل ذلك القدر من الدنيا هو عين الدين لأنه شرط الدين والشرط من جملة الشروط ، ويدل عليه ما روى أن إبراهيم الخليل عليه السلام أصابته حاجة فذهب إلى صديق له يستقرضه شيئا فلم يقرضه فرجع مهموما فأوحى الله تعالى إليه لو سألت خليلك لأعطاك فقال يارب عرفت مقتك للدنيا خفت أن أسألك منها شيئا فأوحى الله تعالى إليه ليس الحاجة من الدنيا ، فاذن قدر الحاجة من الدين وما وراء ذلك وبال في الآخرة وهو في الدنيا أيضا كذلك يعرفه من يغبر أحوال الأغنياء وما عليهم من الحنة في كسب المال وجمعه وحفظه واحتمال الدل فيه ، وظاية سعادته به أن يسلم لورثته فيا كلونه ، وربما يكونون أعداء له وقد يستعينون به على المعصية فيكون هو معينا لهم عليها ولذلك شبه جامع الدنيا ومتبع الشهوات بدود القز لا يزال ينسج على نفسه حيا ثم يروم الخروج فلا يجد مخلاصا فيموت وبذلك بسبب عمله الذي عمله بنفسه فكذلك كل من اتبع شهوات الدنيا فأنما يحكم على قلبه بسلاسل تقيده بما يشتهي حتى تتظاهر عليه السلاسل فيقيده المال والجاه والأهل والولد وشماتة الأعداء ومراآة الأصدقاء وسائر حظوظ الدنيا ، فلو خطر له أنه قد أخطأ فيه فقصده الخروج من الدنيا لم يقدر عليه ورأى قلبه مقيدا بسلاسل وأغلال لا يقدر على قطعها ولو ترك محبوبا من محابه باختياره كاد أن يكون قاتلا لنفسه وساعيا في هلاكه إلى أن يفرق ملك اللوت بينه وبين جميعها دفعة واحدة فتبقى السلاسل في قلبه معاقلة بالدنيا التي فاتته وخافها فهي تجاذبه إلى الدنيا ومغالب ملك الموت قد علفت بروق قلبه تجذبه إلى الآخرة فيكون أهون أحواله عند الموت أن يكون كشخص ينشر بالمنشار ويفصل أحد جانبيه عن الآخر بالمجاذبة من الجانبين ، والذي ينشر بالمنشار إنما ينزل اللؤلؤ يده ويؤلم قلبه بذلك بطريق السراية من حيث إنره فما ظنك بأنم يتسكن أولا من صميم القلب مخصوصا به لا بطريق السراية إليه من غيره فهذا أول عذاب يلقاه قبل مابراه من حسرة فوت النزول في أعلى عليين وجوار رب العالمين ، فبالنزوع إلى الدنيا يحجب عن لقاء الله تعالى وعند الحجاب تسلط عليه نار جهنم ، إذ النار غير مساطة إلا على محبوب . قال الله تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ، ثم إنهم لصالوا الجحيم - فترتب العذاب بالنار على ألم الحجاب وألم الحجاب كاف من غير علاوة النار فكيف إذا أضيفت العلاوة إليه ، ففسأنا الله تعالى أن يقرر في أسماعنا ما نقت في روع رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قيل له أحبب من أحببت فانك مفارقة (١) وفي معنى ما ذكرناه من المثال قول الشاعر :

(١) حديث نقت في روعه أحبب من أحببت فانك مفارقة تقدم

رعاية طرفي الإفراط والتفريط ثم بذلك تقوى إنسانيته ومعناه ويدرك صفات الشيطنة فيموال الأخلاق المذمومة وكال إنسانيته ويتقاضاه أن لا يرضى لنفسه بذلك ثم تكشف له الأخلاق التي تنازع بها الربوبية من الكبر والعز وروية النفس والعجب وغير ذلك فيرى أن صرف السودية في ترك المنازعة الربوبية والله تعالى ذكر النفس في كلامه القديم بثلاثة أوصاف : بالطمأنينة قال - يا أيها النفس المطمئنة - وسماها الوامة

كدود كدود القز ينسج دائماً وبهلك غما وسط ماهو ناسجه

ولما انكشف لأولياء الله تعالى أن العبد مهلك نفسه بأعماله واتباعه هوى نفسه إهلاك دود القز نفسه رفضوا الدنيا بالسكينة حتى قال الحسن : رأيت سبعين بدريا كانوا فيما أحل الله لهم أزهد منكم فيما حرم الله عليكم . وفي لفظ آخر : كانوا بالبلاء أشد فرحا منكم بالحسب والرخاء لو رأيتهم قلم عجائز ، ولورأوا خياركم قالوا المهولاء بمن خلاق ، ولورأوا شراركم قالوا ما يؤمن هؤلاء يوم الحساب . وكان أحدهم يعرض له المال الحلال فلا يأخذه ويقول أخاف أن يفسد على قلبي ، فمن كان له قلب فهو لاهلته يخاف من فسادة والذين أمات حب الدنيا قلوبهم فقد أخبر الله عنهم إذ قال تعالى - ورضوا بالحياة الدنيا واطمأنوا بها والذين هم عن آياتنا غافلون - وقال عز وجل - ولا تطع من أغفلنا قلبه عن ذكرنا واتبع هواه وكان أمره فرطاً - . وقال تعالى - فأعرض عنهم تولى عن ذكرنا ولم يرد إلّا الحياة الدنيا ذلك مبلغهم من العلم - فأحال ذلك كله على الغفلة وعدم العلم ولذلك قال رجل لعيسى عليه السلام بعجب يدخل النقي الجنة أوقال بشدة . مالك والحقى . فقال لا أستطيع فقال عيسى عليه السلام بعجب يدخل النقي الجنة أوقال بشدة . وقال بعضهم : ما من يوم ذر شارقه إلا وأربعة أملاك ينادون في الآفاق بأربعة أصوات ملكان بالشرق وملكبان بالمغرب يقول أحدهم بالشرق : يا باغى الخير هلم ويا باغى الشر أقصر ، ويقول الآخر : اللهم أعط منفقا خلفا وأعط ممسكا تلفا ويقول اللذان بالمغرب أحدهما لدوا للموت وأبنوا لغراب ، ويقول الآخر كلوا وتمتعوا اطول الحساب .

( بيان علامات الزهد )

اعلم أنه قد بطن أن تارك المال زاهد وليس كذلك فإن ترك المال وإظهار الخشونة سهل على من أحب للدج بالزهد فسكن من الرهايين من ردوا أنفسهم كل يوم إلى قدر يسير من الطعام ولازموا دبرا لآباب له وإتمام سريرة أحدهم معرفة الناس حاله ونظرم إليه ومدحهم له فذلك لا يدل على الزهد دلالة قاطعة بل لابد من الزهد في المال والجاه جميعا حتى يكمل الزهد في جميع حظوظ النفس من الدنيا بل قد يدعى جماعة الزهد مع لبس الأصواف الفاخرة والسياب الرقيقة كما قال الخواص في وصف الدعين إذ قال وقوم ادعوا الزهد ولبسوا الفاخر من اللباس يعوّهون بذلك على الناس ليهدى إليهم مثل لباسهم لئلا ينظر إليهم بالعين التي ينظر بها إلى الفقراء فيحتقروا فيعطوا كما تعطى للساكنين ويحتجون لنفوسهم باتباع العلم وأنهم على السنة وأن الأشياء داخلة إليهم وهم خارجون منها وإنما يأخذون بعة غيرهم . هذا إذا طولبوا بالخفائق وألجئوا إلى الضايق وكل هؤلاء أكلة الدنيا بالدين لم يعنوا بتصفية أسرارهم ولا بتهديب أخلاق نفوسهم فظهرت عليهم صفاتهم فقلبتهم فادعوا حالاً لهم فهم مائلون إلى الدنيا متبعون للهوى . فهذا كله كلام الخواص رحمه الله . فاذن معرفة الزهد أمر مشكل بل حال الزهد على الزهد مشكل وينبغي أن يحول في باطنه على ثلاث علامات : العلامة الأولى أن لا يفرح بوجود ولا يحزن على مفقود كما قال تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - بل ينبغي أن يكون بالصد من ذلك وهو أن يحزن بوجود المال ويفرح بفقده . العلامة الثانية أن يستوى عنده ذامه ومادحه فالأول علامة الزهد في المال والثاني علامة الزهد في الجاه . العلامة الثالثة أن يكون أنه بالله تعالى والغالب على قلبه حلاوة الطاعة إذ لا يخلو القلب عن حلاوة المحبة إمامة الدنيا وإمامة الله وهما في القلب كالماء والهواء في القدر فالداء إذا دخل خرج الهواء ولا يمتنعان وكل من أنس بالله اشتغل به ولم يشغل بغيره

قال - لا أنسى يوم  
القيامة ولا أنسى  
بالنفس اللوامة -  
وسماها أماراة ، فقال  
- إن النفس لأماراة  
بالسوء - وهى نفس  
واحدة . ولها صفات  
متقاربة ، فإذا امتلأ  
القلب سكينه خلج  
على النفس خلج  
الطمانينة لأن السكينة  
مزيد الإيمان وفيها  
ارتقاء القلب إلى مقام  
الروح لما منح من  
حظ اليقين وعند  
توجه القلب إلى محل  
الروح تتوجه النفس  
إلى محل القلب ، وفي  
ذلك طمانينتها وإذا  
ازدهت من مقام  
جبلاتها ودواعي  
طبيعتها متطلعة إلى



وقد لك قيل لبعضهم إلى ماذا أفنى بهم الزهد فقال إلى الأنس بالله . فأما الأنس بالدنيا وبالله فلا يجتمعان وقد قال أهل المعرفة إذا تعلق الإيمان بظاهر القلب أحب الدنيا والآخرة جميعا وعمل لهما وإذا بطن الإيمان في سويداء القلب وباشره أبغض الدنيا فلم ينظر إليها ولم يعمل لهما ولهذا ورد في دعاء آدم عليه السلام : اللهم إني أسألك إيمانا يباشر قلبي . وقال أبو سليمان من شغل نفسه شغل عن الناس وهذا مقام العاملين ومن شغل بربه شغل عن نفسه وهذا مقام العارفين والزاهد لابد وأن يكون في أحد هذين المقامين . ومقامه الأول أن يشغل نفسه بنفسه وعند ذلك يستوى عنده للدخ والنم والوجود والعدم ولا يستدل بمسألة قليلا من المال على فقد زهده أصلا . قال ابن أبي الحواري : قلت لأبي سليمان أكان داود الطائي زاهدا قال نعم قلت قد بلغني أنه ورث عن أبيه عشرين دينارا فأفقها في عشرين سنة فكيف كان زاهدا وهو يملك الدنانير ، فقال أردت منه أن يبلغ حقيقة الزهد وأراد بالحقيقة الغاية فإن الزهد ليس له غاية لكثرة صفات النفس . ولا يتم الزهد إلا بالزهد في جميعها فكل من ترك من الدنيا شيئا مع القدرة عليه خوفا على قلبه وعلى دينه فله مدخل في الزهد بقدر ما تركه وآخره أن يترك كل مأسوى الله حتى لا يتوسد حجرا كفافه للسبح عليه السلام ، فنسأل الله تعالى أن يرزقنا من مبادئه نصيبا وإن قل فإن أمثالنا لا يستجري على الطمع في غايته وإن كان قطع الرضاء عن فضل الله غير مأذون فيه . وإذا لاحظنا عجائب نعم الله تعالى علينا علمنا أن الله تعالى لا يتعاضده شيء فلا بعد في أن نعظم السؤال اعتمادا على الجود الجاوز لسكل كمال . فاذن علامة الزهد استواء الفقر والغنى والعز والذل والدمع والدم وذلك لطبقة الأنس بالله . ويتفرع عن هذه العلامات علامات أخرى لاحالة : مثل أن يترك الدنيا ولا يالي من أخذها . وقيل علامته أن يترك الدنيا كما هي فلا يقول أبني رباطا أو أعمر مسجدا . وقال يحيى ابن معاذ : علامة الزهد السخاء بالموجود . وقال ابن خفيف علامته وجود الراحة في الخروج من اللك . وقال أيضا : الزهد هو عزوف النفس عن الدنيا بلا تكلف . وقال أبو سليمان : الصوف علم من أعلام الزهد فلا ينبغي أن يلبس صوفا بثلاثة دراهم وفي قلبه رغبة خمسة دراهم . وقال أحمد ابن حنبل وسفيان رحمهما الله : علامة الزهد قصر الأمل . وقال سري : لا يطيب عيشي الزاهد إذا اشتغل عن نفسه . ولا يطيب عيش العارف إذا اشتغل بنفسه . وقال النصراني : الزاهد غريب في الدنيا والعارف غريب في الآخرة . وقال يحيى بن معاذ : علامة الزهد ثلاث عمل بلا علاقة وقول بلا طمع وعز بلا رغبة . وقال أيضا الزاهد قد يسطك الخل والحدرد والعارف يشمك السك والصبر وقال له رجل متى أدخل خانوت التوكل وألبس رداء الزهد وأصدمع الزاهدين ، فقال إذا صرت من رياضتك لنفسك في السرى حدلوقطع الله عنك الرزق ثلاثة أيام لم تضف في نفسك . فأما ما تبلغ هذه الدرجة فجلوسك على بساط الزاهدين جهل ثم لا آمن عليك أن تفتضح . وقال أيضا : الدنيا كالعروس ومن يطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينسف شعرها ويغرق ثوبها ، والعارف يشتمل بالله تعالى ولا يلتفت إليها . وقال السري ما رست كل شيء من أمر الزهد قلت منه ما أريد إلا الزهد في الناس فاني لم أبلغه ولم أطلقه . وقال الفضيل رحمه الله جعل الله الشر كله في بيت وجعل مفتاحه حب الدنيا وجعل الخير كله في بيت وجعل مفتاحه الزهد في الدنيا . فهذا ما أردنا أن نذكره من حقيقة الزهد وأحكامه وإذا كان الزهد لا يتم إلا بالتوكل فلنشرع في بيانه إن شاء الله تعالى .

مقار الطمانينة فهي  
لوامعة لأنها تعود  
باللأمة على نفسها  
لنظرها وعلها يجعل  
الطمانينة ثم انجذباها  
إلى محلها التي كانت  
فيه أماراة بالسوء ،  
وإذا أقامت في محلها  
لا يشاها نور العلم  
والعرفة فهي على  
ظلمتها أماراة بالسوء  
فالنفس والروح  
يتطاردان ، فتارة  
يملك القلب دواعي  
الروح ، وتارة يملكه  
دواعي النفس . وأما  
السرى فقد أغار  
القوم إليه ووجدت  
في كلام القوم أن  
منهم من جعله بعد  
القلب وقبل الروح ،  
ومنهم من جعله بعد

## ﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

( وهو الكتاب الخامس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله مدبر الملك والمكوت المنفرد بالمنة والجبروت الرافع للساء بغير حماد القدر فيها أرزاق  
البناد الذي صرف أعين ذوي القلوب والألباب عن ملاحظة الوسائط والأسباب إلى مسبب الأسباب  
ورفع همهم عن الالتفات إلى ماعدا والاعتماد على مدبر سواه فلم يبدؤا إلا بإياه علما بأنه الواحد القدر  
الصمد الإله وتحققا بأن جميع أصناف الخلق عباد أمثاله لا يبتغي عندهم الرزق وأنه ما من ذرة  
إلا إلى الله خالقها ومامن دابة إلا على قدر رزقها فلما تحققت أنها لرزق عباده ضامن وبه كفيل توكلوا  
عليه فقالوا حسنا الله ونعم الوكيل والصلاة على محمد قانع الأباطيل الهادي إلى سواء السبيل وعلى  
آله وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فإن التوكل منزل من منازل الدين ومقام من مقامات اللواتين بل هو من معالي درجات  
القرين وهو في نفسه غامض من حيث العلم ثم هو شاق من حيث العمل ووجه غموضه من حيث  
الفهم أن ملاحظة الأسباب والاعتماد عليها شرك في التوحيد والتناقل عنها بالكلية طعن في السنة  
وقدح في الشرع والاعتماد على الأسباب من غير أن ترى أسبابا تثير في وجه العقل وانقماش في  
غمرة الجهل وتحقق معنى التوكل على وجه يتوافق فيه مقضى التوحيد والنقل والشرع في غاية  
الندوض والصبر ولا يقوى على كشف هذا الغطاء مع شدة الحفاء لإحسان الطاء الذين اكتحلوا  
من فضل الله تعالى بأنوار الحقائق فأبصروا وتحققوا ثم نطقوا بالأعراب عما شاهدوه من حيث  
استنطقوا ونحن الآن نبدأ بذكر فضيلة التوكل على سبيل التقدمة ثم نردفه بالتوحيد في الشطر  
الأول من الكتاب ونذكر حال التوكل وعمله في الشطر الثاني .

( بيان فضيلة التوكل )

أما من الآيات فقد قال تعالى - وعلى الله توكلوا إن كنتم مؤمنين - وقال عز وجل - وعلى الله فليتوكل  
التوكلون - وقال تعالى - ومن يتوكل على الله فهو حسبه - وقال سبحانه وتعالى - إن الله يحب المتوكلين -  
وأعظم بمقام موسوم بحبة الله تعالى صاحبه ومضمون بكفاية الله تعالى ملابسه فمن الله تعالى حسبه  
وكافيه وحبه ومراعيه فقد فاز الفوز العظيم فإن المحبوب لا يعذب ولا يبعد ولا يحجب وقال تعالى -  
أليس الله بكاف عبده - فطالب الكفاية من غيره والتارك للتوكل هو المكذب لهذه الآية فانه سؤال  
في معرض استنطاق الحق كقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا -  
وقال عز وجل - ومن يتوكل على الله فإن الله عزير حكيم - أي عزير لا ينزل من استجار به ولا يضيع  
من لاذ بحبائه والتجأ إلى ذمامه وحماه وحكيم لا يقصر عن تدبير من توكل على تدبيره وقال تعالى  
- إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - بين أن كل ماسوى الله تعالى عبد مسخر لحجته  
مثل حاجتك فكيف يتوكل عليه وقال تعالى - إن الذين تصدون من دون الله لا يملكون لكم  
رزقا فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - وقال عز وجل - والله خزائن السموات والأرض ولكن للناهيين  
لا يفقهون - وقال عز وجل - يدبر الأمر ما من شفيع إلا من بعد إذنه - وكل ما ذكر في القرآن من التوحيد  
فهو تنبيه على قطع الملاحظة عن الأغيار والتوكل على الواحد القهار . وأما الأخبار : فقد قال

الروح وأعطى منها  
وأطاف وقالوا السر  
عمل للشاهدة  
والروح عمل الحجة .  
والقلب عمل المعرفة  
والسر الذي وقت  
إشارة القوم إليه غير  
مذكور في كتاب  
الله وإنما للذكر  
في كلام الله الروح  
والنفس وتنوع صفاتها  
والقلب والقواد والعقل  
وحيث لم نجد في كلام  
الله تعالى ذكر السر  
بالمعنى المشار إليه ورأينا  
الاختلاف في القول  
فيه وأشار قوم إلى أنه  
دون الروح وقوم إلى  
أنه أظرف من الروح  
فنقول والله أعلم : الذي  
سموه سرا ليس هو  
شيء مستقل بنفسه

﴿ كتاب التوحيد والتوكل ﴾

صلى الله عليه وسلم فما رواه ابن مسعود وأريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل فأهبطني كثيرهم وحياتهم قبل لي أرضيت قلت نعم قيل ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب قيل : من هم يا رسول الله قال الذين لا يكتون ولا يتطيرون ولا يسترقون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة وقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : اللهم اجعله منهم فقام آخر فقال : يا رسول الله ادع الله أن يجعلني منهم فقال صلى الله عليه وسلم : سبقك بها عكاشة <sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم : «لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خماسا وترجع بظانا <sup>(٢)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم : «من انقطع إلى الله عز وجل كفاه الله تعالى كل مؤنة ورزقه من حيث لا يحتسب ومن انقطع إلى الدنيا وكفه الله اليها <sup>(٣)</sup>» وقال صلى الله عليه وسلم : «من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه <sup>(٤)</sup>» وروى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم : «أنه كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول : بهذا أمرني ربِّي عز وجل قال عز وجل - وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها - <sup>(٥)</sup>» الآية وقال <sup>(٦)</sup> : «لم يتوكل من استرقى واكتوى <sup>(٧)</sup>» وروى أنه لما قال جبريل لإبراهيم عليهما السلام وقد رمى إلى النار بالمجنين أنك حاجة قال أما إليك فلا واه بحسب الله ونعم الوكيل إذ قال ذلك حين أخذ ليرمي فأرسل الله تعالى - وإبراهيم الذي وفى - وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام بإدوا مامن عبد يتصم في دون خلق فتكيد السموات والأرض إلا جعلت له مخرجا . وأما الآثار فقد قال سعيد بن جبير لدهغتي عن قرب فأقسمت على أمي لتسترقين فنألت الرأقي يدي التي لم تدغ وقرأ الخواص قوله تعالى - وتوكل على الحى الذى لا يموت - إلى آخرها فقال ما ينفع لأبعد بعد هذه الآية أن يلجأ إلى أحد غير الله تعالى . وقيل لبعض العلماء في منامه من وثق بالله تعالى فقد أحرز قوته وقال بعض العلماء لا يشغلك الضمون لك من الرزق عن القروض عليك من العمل فتضيع أمر آخرتك ولا تنال من الدنيا إلا ما قد كتب الله لك . وقال يحيى بن معاذ في وجود العبد الرزق من غير طلب دلالة على أن الرزق مأثور بطاب العبد . وقال إبراهيم بن آدم سألت بعض الرهبان من أين تأكل فقال لي ليس هذا العلم عندي ولكن سر ربى من أين يطعمنى . وقال هرم بن حيان لأويس القرنى أين تأمرنى أن أكون فأومأ إلى الشام قال هرم كيف العيشة قال أويس أف

(١) حديث ابن مسعود أريت الأم في اللوسم فرأيت أمي قد ملأوا السهل والجبل الحديث رواه ابن منيع بإسناد حسن واتفق عليه الشيخان من حديث ابن عباس (٢) حديث لو أنكم تتوكلون على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير الحديث الترمذى والحاكم ومحمد بن حنبل من حديث عمرو وقد تقدم (٣) حديث من انقطع إلى الله كفاه الله كل مؤنة الحديث الطبرانى في الصغير وابن أبى الدنيا ومن طريقه البيهقى في الشعب من رواية الحسن بن عمران بن حصين ولم يسمع منه وفيه إبراهيم بن الأشعث تكلم فيه أبو حاتم (٤) حديث من سره أن يكون أغنى الناس فليكن بما عند الله أوثق منه بما في يديه الحاكم والبيهقى في الزهد من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث كان إذا أصاب أهله خصاصة قال قوموا إلى الصلاة ويقول بهذا أمرني ربى قال تعالى - وأمرأهلك بالصلاة واصطبر عليها - الطبرانى في الأوسط من حديث محمد بن حمزة عن عبد الله بن سلام قال كان النبي صلى الله عليه وسلم إذا نزل بأهله الضيق أمرهم بالصلاة ثم قرأ هذه الآية ومحمد بن حمزة بن يوسف بن عبد الله بن سلام إنما ذكروا له روايته عن أبيه عن جده فيسمع مدحها من جد أبيه (٦) حديث لم يتوكل من استرقى واكتوى الترمذى وحسنه والنسائى في الكبير والطبرانى واللفظ له إلا أنه قال أو من حديث الثوري بن شعبة وقال الترمذى من اكتوى أو استرقى فقد برى من التوكل وقال النسائى ما توكل من اكتوى أو استرقى .

له وجود وذات كالروح  
والنفس وإنما  
صفت النفس وتزكت  
انطلق الروح من وثاق  
ظلمة النفس فأخذ في  
العروج إلى أوطان  
القرب واترج القلب  
عند ذلك عن مستقره  
متطلعا إلى الروح  
فأكتسب صفاتا لها  
على وصفه فانجم على  
الواجدين ذلك الوصف  
حيث رأوه أصفى من  
القلب فسموه سرا  
ولما صار للقلب وصف  
زائد على وصفه بطلعه  
إلى الروح اكتسب  
الروح وصفًا فاذا  
في عروجه وانجم  
على الواجدين فسموه  
سرا والذي زعموا أنه  
الطف من الروح روح

لهذه القلوب قد خالطها الشك فما تنفعها الوعظة وقال بعضهم متى رضيت بالله وكبلا وجدت إلى كل خير سبيلا ، نسأل الله تعالى حسن الأدب .

( بيان حقيقة التوحيد الذى هو أصل التوكل )

اعلم أن التوكل من أبواب الإيمان وجميع أبواب الإيمان لا ينتظم إلا بعلم وحال وعمل والتوكل كذلك ينتظم من علم هو الأصل وعمل هو الثمرة وحال هو المراد باسم التوكل . فلنبداً ببيان العلم الذى هو الأصل وهو للمسمى إيمانا في أصل اللسان إذ الإيمان هو التصديق وكل تصديق بالقلب فهو علم وإذا قوى مسمى يقينا ولكن أبواب اليقين كثيرة ونحن إنما نحتاج منها إلى ما نبين عليه التوكل وهو التوحيد الذى يترجمه قولك : لا إله إلا الله وحده لا شريك له والإيمان بالقدره التى يترجم عنها قولك : لا إله إلا الله والإيمان بالجود والحكمة الذى يدل عليه قولك : وله الحمد فمن قال لا إله إلا الله وحده لا شريك له له الملك وله الحمد وهو على كل شئ قدير ثم له الإيمان الذى هو أصل التوكل أعنى أن يصير معنى هذا القول وصفا لازما لقلبه غالبا عليه فأما التوحيد فهو الأصل والقول فيه بطول وهو من علم المكاشفة ولكن بعض علوم المكاشفات متعلق بالأعمال بواسطة الأحوال ولا يتم علم المعاملة إلا بها فاذن لا تعرض إلا للقدر الذى يتعلق بالمعاملة والألفاظ التوحيد هو البحر الحظم الذى لا ساحل له فتقول : للتوحيد أربع مراتب وينقسم إلى لب وإلى لب القلب وإلى قشر وإلى قشر القشر ولتلك ذلك تقريبا إلى الأقسام الضعيفة بالجوز في قشرته العليا فإن له قشرتين وله لب وللب دهن هو لب القلب فالرتبة الأولى من التوحيد هى أن يقول الإنسان بلسانه لا إله إلا الله وقلبه غافل عنه أو منكر له كتوحيد المنافقين والثانية أن يصدق بمعنى اللفظ قلبه كاصدق به عموم المسلمين وهو اعتقاد العوام والثالثة أن يشاهد ذلك بطريق الكشف بواسطة نور الحق وهو مقام المقربين وذلك بأن يرى أشياء كثيرة ولكن يراها على كثرتها صادرة عن الواحد القهار والرابعة أن لا يرى في الوجود إلا واحدا وهى مشاهدة الصديقين وتسميه الصوفية الفناء في التوحيد لأنه من حيث لا يرى إلا واحدا فلا يرى نفسه أيضا وإذا لم يرفسه لكونه مستقرا بالتوحيد كان فانيا عن نفسه في توحيده بمعنى أنه فى عن رؤية نفسه والخلق فالأول موحد بمجرد اللسان ويعصم ذلك صاحبه في الدنيا عن السيف والسنان والثاني موحد بمعنى أنه معتقد بقلبه مفهوم لفظه وقلبه خال عن التكذيب بما انعقد عليه قلبه وهو عقدة على القلب ليس فيه انشراح وانفساح ولكنه يحفظ صاحبه من العذاب في الآخرة إن توفى عليه ولم تصنف بالمعاصى عقده ولهذا القدر حيل يقصدها تضعيفه وتحليله تسمى بدعة وله حيل يقصدها دفع حيلة التحليل والتضعيف ويقصدها أيضا أحكام هذه العقدة وشدها على القلب وتسمى كلاما والعارف به يسمى متكلم وهو في مقابلة البتدع ومقصده دفع البتدع عن تحليل هذه العقدة عن قلوب العوام وقد يخص التكلم باسم للوحد من حيث إنه يعنى بكلامه مفهوم لفظ التوحيد على قلوب العوام حتى لا تتحل عقده والثالث موحد بمعنى أنه لم يشاهد إلا أفعالا واحدا إذ انكشف له الحق كما هو عليه ولا يرى فاعلا بالحقيقة إلا واحدا وقد انكشف له الحقيقة كما هى عليه لأنه كلف قلبه أن يعقد على مفهوم لفظ الحقيقة فإن تلك رتبة العوام والتكلمين إذ لم يفارق التكلم العاصى في الاعتقاد بل فى صنعة تليق الكلام الذى به حيل البتدع عن تحليل هذه العقدة والرابع موحد بمعنى أنه لم يحضر في شهوده غير الواحد فلا يرى الكل من حيث إنه كثير بل من حيث إنه واحد وهذه هى الغاية القصوى في التوحيد ، فالأول كالقشرة العليا من الجوز ، والثاني كالقشرة السفلى ، والثالث كاللب ، والرابع كالدهن المستخرج من اللب وكما أن القشرة العليا من الجوز لا خير فيها بل إن أكل فهو مر الدقيق وإن نظر إلى باطنه فهو كركي للنظر وإن أخذ

متصفة بوصف أخص  
بما عهدوه والذى سموه  
قبل الروح صرا هو قلب  
اتصف بوصف زائد  
غير ما عهدوه وفي مثل  
هذا الترقى من الروح  
والقلب ترقى النفس  
إلى محل القلب وتخدع  
من وصفها فتصير قسا  
مطمئة ترتد كثيرا  
من مردات القلب من  
قبل أذصار القلب يريد  
ما يريد مولاه متبرئا  
عن الحسول والقوة  
والارادة والاختيار  
وعندها ذاق طعم  
سرف العبودية حيث  
صار حرا عن إرادته  
واختياره وأما العقل  
فهو لسان الروح  
وترجمان البصيرة  
والبصيرة للروح بمثابة

حطبا أطقا النار وأكبر الدخان وإن ترك في البيت ضيق السكان فلا يصلح إلا أن يترك مدة على الجوف للصون ثم يرمى به عنه فكذلك التوحيد بمجرد اللسان دون التصديق بالقلب عديم الجدوى كثير الضرر عديم الظاهر والباطن لكنه ينفع مدة في حفظ القشرة السفلى إلى وقت الموت والقشرة السفلى هي القلب والبدن وتوحيد للتائق يصون بدنه عن سيف الفزاة فانهم لم يؤمروا بشق القلوب والسيف إنما يصيب جسم البدن وهو القشرة وإنما يتجرد عنه بالموت فلا يبقى لتوحيد فائدة بعده وكما أن القشرة السفلى ظاهرة النفع بالإضافة إلى القشرة العليا فانها تصون القلب وتحميه عن الفساد عند الادخار وإذا فصلت أمكن أن ينتفع بها حطبا لكنها نازلة القدر بالإضافة إلى القلب وكذلك مجرد الاعتقاد من غير كشف كثير النفع بالإضافة إلى مجرد نطق اللسان ناقص القدر بالإضافة إلى الكشف والشاهدة التي تحصل بانسراح الصدر وانساحه وإشراق نور الحق فيه إذ ذاك الشرح هو للراد بقوله تعالى - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - وبقوله عز وجل - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وكان القلب نقيس في نفسه بالإضافة إلى القشرة وكله القصور ولكنه لا يخلو عن شوب عصارة بالإضافة إلى الدهن المستخرج منه فكذلك توحيد الفعل مقصد عال للسالكين لكنه لا يخلو عن شوب ملاحظة الضمير والالتفات إلى الكثرة بالإضافة إلى من لا يشاهد سوى الواحد الحق. فان قلت كيف يتصور أن لا يشاهد إلا واحدا وهو يشاهد السماء والأرض وسائر الأجسام المحسوسة وهي كثيرة فكيف يكون الكثير واحدا . فأعلم أن هذه غاية علوم الكاشفات وأسرار هذا العلم لا يجوز أن تسطر في كتاب فقد قال العارفون إفشاء سر الربوبية كفر ثم هو غير متعلق بعلم العاملة، نعم ذكر ما يكسر سورة استبعادك تمكن وهو أن الشيء قد يكون كثيرا بنوع مشاهدة واعتبار ويكون واحدا بنوع آخر من للشاهدة والاعتبار وهذا كما أن الانسان كثير إن التفت إلى روحه وجسده وأطرافه وعروقه وعظامه وأحشائه وهو باعتبار آخر ومشاهدة أخرى واحد إذ نقول إنه إنسان واحد فهو بالإضافة إلى الإنسانية واحد وكم من شخص يشاهد إنسانا ولا يخطر بباله كثرة أمعائه وعروقه وأطرافه وتفصيل روحه وجسده وأعضائه والفرق بينهما أنه في حالة الاستغراق والاستهتار به مستغرق بواحد ليس فيه تفريق وكأنه في عين الجمع والمثلث إلى الكثرة في تفرقة فكذلك كل ما في الوجود من الخالق والمخلوق له اعتبارات ومشاهدات كثيرة مختلفة فهو باعتبار واحد من الاعتبارات واحد وباعتبارات أخرى سواء كثير وبعضها أشد كثرة من بعض ومثاله الانسان وإن كان لا يطابق الغرض ولكنه ينبه في الجملة على كيفية مصير الكثرة في حكم الشاهدة واحدا ويستبين بهذا الكلام ترك الانكار والجحود لمقام لم يبلغه وتؤمن به إيمان تصديق فيكون لك من حيث إنك مؤمن بهذا التوحيد نصيب وإن لم يكن ما آمنت به صفتك كما أنك إذا آمنت بالنبوة وإن لم تكن نبيا كان لك نصيب منه بقوة إيمانك وهذه المشاهدة التي لا يظهر فيها إلا الواحد الحق تارة تدوم وتارة نظراً كالبرق الخاطف وهو الأكثر والدوام أندر عز نزول إلى هذا أشار الحسين بن منصور الحلاج حيث رأى الخواص يدور في الأسفار فقال فيأذنت فقال أدور في الأسفار لأصح حال في التوكل وقد كان من التوكلين فقال الحسين قد أنيت عمرك في عمران باطنك فأين الفناء في التوحيد فكأن الخواص كان في تصحيح المقام الثالث في التوحيد فطالبه بالمقام الرابع فهذه مقامات الموحدين في التوحيد على سبيل الاجمال . فان قلت فلا بد لهذا من شرح بمقدار ما فهم كيفية ابتناء التوكل عليه . فأقول أما الرابع فلا يجوز الخوض في بيان وليس التوكل أيضا مبني عليه بل يحصل حال التوكل بالتوحيد الثالث. وأما الأول وهو النفاق فواضح. وأما الثاني وهو الاعتقاد فهو موجود في عموم المسلمين وطريق تأكيده بالكلام ودفع حيل

القلب والنقل بشهادة  
اللسان . وقد ورد في  
الحجر عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم أنه  
قال لا يؤمن من لم يثق  
الله العقل فقال له أقبل  
فأقبل ثم قال له أدبر  
فأدبر ثم قال له أقصد  
فقصص ثم قال له انطلق  
فطلق ثم قال له اصمت  
فصمت فقال وعزني  
وجعلني وعظمتني  
وكبريائي وساعدي  
وجبروتي ما خلقت  
خلقا أعجب إلي منك  
ولا أكرم علي منك  
بك أعرف وبك  
أحمد وبك أطاع  
وبك آخذ وبك  
أعطي وإياك أعاتب  
ولك الثواب وعليك  
العقاب وما أكرمك

البندعة فيه مذكور في علم السلام وقد ذكرنا في كتاب الاقتصاد في الاعتقاد القدر المهم منه . وأما الثالث : فهو الذي يبنى عليه التوكل إذ مجرد التوحيد بالاعتقاد لا يورث حال التوكل فلنذكر منه القدر الذي يرتبط بالتوكل به دون تفصيله الذي لا يحتمله أمثال هذا الكتاب . وحاصله أن ينكشف لك أن لا فاعل إلا الله تعالى وأن كل موجود من خلق ورزق وعطاء ومنع وحياة وموت وغنى وقهر إلى غير ذلك مما ينطلق عليه اسم الملتزم بآداعه واختراعه هو الله عز وجل لا شريك له فيه وإذا انكشف لك هذا لم تنظر إلى غيره بل كان منه خوفك وإليه رجائك وبه تقتك وعليه اتكالك فانه الفاعل على الافراد دون غيره وما سواه مسخرون لاستقلال لهم بتحريك ذرة من ملكوت السموات والأرض وإذا انفتحت لك أبواب الكاشفة اتضح لك هذا اتضاحا آتم من الشاهدة بالبصر وإنما يصعدك الشيطان عن هذا التوحيد في مقام يبتنى به أن يطرق إلى قلبك شائبة الشرك بسنين : أحدها الالتفات إلى اختيار الحيوانات . والثاني الالتفات إلى الجمادات أما الالتفات إلى الجمادات فكاعتقادك على للطرفي خروج الزرع ونباته ونسائه وعلى النسيم في نزول المطر وعلى البرد في اجتماع النسيم وعلى الريح في استواء السفينة وسيرها وهذا كله شرك في التوحيد وجهل بحقائق الأمور ، ولذلك قال تعالى - فاذا ركبوا في الفلك دعوا الله مخلصين له الدين فلما نجاهم إلى البر إذا هم يشركون - قيل معناه أنهم يقولون لولا استواء الريح لما نجاهم ومن انكشف له أمر العالم كما هو عليه علم أن الريح هو الهواء والهواء لا يتحرك بنفسه مالم يحركه محرك وكذلك محركه وهكذا إلى أن ينتهي إلى المحرك الأول الذي لا محرك له ولا هو متحرك في نفسه عز وجل فالنفاث العبد في النجاة إلى الريح يضاهي النفاث من أخذ لتحز رقبتك فكنت الملك توقيما بالعفو عنه وتخليت فأخذ يشتغل بذكر الحبر والكاغد والقلم الذي به كتب التوقيع يقول لولا القلم لما تخلصت فيرى نجاته من القلم لا من محرك القلم وهو غاية الجهل ومن علم أن القلم لا حكم له في نفسه وإنما هو مسخر في يد الكاتب لم يلتفت إليه ولم يشكر إلا الكاتب بل ربما يدهشه فرح النجاة وشكر الملك والكاتب من أن يخطريه القلم والحبر والدواة والشمس والقمر والنجوم والمطر والنسيم والأرض وكل حيوان وجماد مسخرات في قبضة القدرة كتسخير القلم في يد الكاتب بل هذا تمثيل في حقك لاعتقادك أن الملك الموقع هو الكاتب التوقيع والحق أن الله تبارك وتعالى هو الكاتب لقوله تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - فإذا انكشف لك أن جميع ما في السموات والأرض مسخرات على هذا الوجه انصرف عنك الشيطان خائبا وأيسر عن مزج توحيدك بهذا الشرك فأنت في المهلكة الثانية وهي الالتفات إلى اختيار الحيوانات في الأفعال الاختيارية ويقول كيف ترى الكل من الله وهذا الانسان يعطيك رزقك باختياره فان شاء أعطاك وإن شاء قطع عنك وهذا الشخص هو الذي يحز رقبتك بسيفه وهو قادر عليك إن شاء حز رقبتك وإن شاء عفا عنك فكيف لا تخافه وكيف لا ترجوه وأمرك بيده وأنت تشاهد ذلك ولا تشك فيه ويقول له أيضا نعم إن كنت لا ترى القلم لأنه مسخر فكيف لا ترى الكاتب بالقلم وهو السخر له وعند هذا زل أقدم الأكرين إلا عباد الله المخلصين الذين لا سلطان عليهم للشيطان اللعين فشاهدوا بنور البصائر كوز الكاتب مسخرا مضطرا كما شاهد جميع الضمماء كون القلم مسخرا وعرفوا أن غلط الضمماء في ذلك كغلط النملة مثلا لو كانت تدب على الكاغد فترى رأس القلم يسود الكاغد ولم يمتد بصرها إلى اليد والأصابع فضلا عن صاحب اليد فغلطت وظنت أن القلم هو السواد لبايض وذلك لقصور بصرها عن مجاوزة رأس القلم لفريق حدقتها فكذلك من لم ينشرح بنور الله تعالى صدره للإسلام قصرت بصيرته عن ملاحظة جبار السموات والأرض ومشاهدة كونه قاهرا وراء الكل فوقه في الطريق

بشيء أفضل من الصبر » وقال عليه السلام « لا ينجيكم إلا سلام رجل حتى تعلموا ما عقده عقله » وسألت عائشة رضي الله عنها النبي صلى الله عليه وسلم قالت قلت « يا رسول الله بأي شيء يتفاضلون الناس ؟ قال بالعدل في الدنيا والآخرة قالت قلت أليس يجزي الناس بأعمالهم ؟ قال يا عائشة وهل يعمل بطاعة الله إلا من قد عقل فبغير عقولهم يعملون وعلى قدر ما يعملون يجزون » وقال عليه السلام « إن الرجل لينطلق إلى السجد فيصلي وصلاته

على الكتاب وهو جهل بحسب بل أرباب القلوب والشاهدات قد أنطق الله تعالى في حقهم كل ذرة في السموات والأرض بقدرته التي بها نطق كل شيء حتى سمعوا تقديسها وتسبيحها لله تعالى وشهادتها على نفسها بالعجز بلسان ذلق تتكلم بالأحرف ولا صوت لا يسمعه الذين هم عن السمع معزولون ولست أثنى به السمع الظاهر الذي لا يجاوز الأصوات فإن الحمار شريك فيه ولا قدر لما يشارك فيه البهائم وإنما أريد به مما يدرك به كلام ليس بحرف ولا صوت ولا هو عربي ولا عجمي . فإن قلت فهذا أهوية لا يجلبها العقل فصف لي كيفية نطقها وأنها كيف نطقت وبماذا نطقت وكيف سبحت وقدمت وكيف شهدت على نفسها بالعجز . فأعلم أن لكل ذرة في السموات والأرض مع أرباب القلوب مناجاة في السر وذلك مما لا ينحصر وله يتناهي فأنها كانت تستمد من بحر كلام الله تعالى الذي لا نهاية له - قل لو كان البحر ممدادا لكتلمات ربى لنفد البحر - الآية ثم إنها تتناجي بأسرار الملك والملكوت وإفشاء السر لئلا يطلع على ما من الأحرار قبور الأسرار وهل رأيت قط أمينا على أسرار الملك قد توجس بخفاياه فتأذى بسره على ملائمة الخلق ولو جاز إفشاء كل سر لنا لما قال صلى الله عليه وسلم « لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا » (١) بل كان يذكر ذلك لهم حتى يكون ولا يضحكون . ولما انتهى عن إفشاء السر القدر (٢) . ولما قال « إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا وإذا ذكر أصحابي فأمسكوا » (٣) . ولما خص حذيفة رضي الله عنه ببعض الأسرار (٤) . فاذن عن حكايات مناجاة ذرات الملك والملكوت لقلوب أرباب المشاهدات ما نمان : أحدهما استعجال إفشاء السر . والثاني خروج كلماتها عن الحصر والتهاية ولو كنا في اللال الذي كفايه وهي حركة القلم نحكي من مناجاتها قدرا يسيرا يفهم به على الإجمال كيفية ابتناء التوكل عليه ونزد كلماتها إلى الحروف والأصوات وإن لم تكن هي حروفا وأصواتا ولكن هي ضرورة التفهيم فنقول : قال بعض الناظرين عن مشكاة نور الله تعالى للكاغد وقدر آه اسود وجهه بالخبر ما بال وجهك كان أبيض مشرقا والآن قد ظهر عليه السواد فلم سودت وجهك وما السبب فيه قال الكاغد ما أنصفتني في هذه المقالة فاني ماسودت وجهي بنفسي ولكن سل الخبر فانه كان مجموعا في الهيرة التي هي مستقره ووطنه فها فرعن الوطن ونزل بساحة وجهي ظمنا وعدونا فقال صدقت فسأل الخبر عن ذلك فقال ما أنصفتني فاني كنت في الهيرة وادعا ساكنا عازما على أن لا أبرح منها فاعتدى على القلم بطعمه الفاسد واختطفني من وطني وأجلاني عن بلادتي وفرق جمعي وبددني كاتري على ساحة يضاء فالسؤال عليه لاهي فقال صدقت ثم سألت القلم عن السبب في ظله وعدوانه وإخراج الخبر من أوطانه فقال مل اليد والأصابع فاني كنت قصبا نابتا على شط الأنهار منتزها بين خضرة الأشجار فجاءتني اليد بسكين فحقت عني قشري ومزقت عني ثيابي واقتلعتني من أصلي وفصلت بين أنابيبي ثم برتني وشقت رأسي ثم غمستني في سواد الخبر وممراته وهي تستخدمني وتمشي على قمة رأسي ولقد ثرت للبحر على جرحي بسؤالك وعتابك فتتبع عني وسل من قهرني فقال صدقت ثم سألت اليد عن ظلمها وعدوانها على القلم واستخدامها له فقالت اليد ما أنا إلا لحم وعظم ودم وهل رأيت لحما يظلم أوحشا يتحرك بنفسه وإنما أنا مركب مسخر ركبي فارس يقال له القدرة والعزة فهي التي تردني

(١) حديث لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا الحديث تقدم غير مرة (٢) حديث النبي عن إفشاء سر القدر ابن عدي وأبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر القدر سر الله فلا تفشوا فقد عز وجل سره انظر أبي نعيم وقال ابن عدي لا تكلموا في القدر فانه سر الله الحديث وهو ضعيف ولا تقدم (٣) حديث إذا ذكر النجوم فأمسكوا وإذا ذكر القدر فأمسكوا الحديث الطبراني وابن حبان في الضعفاء وتقدم في العلم (٤) حديث أنه خص حذيفة ببعض الأسرار تقدم .

لا تصل جناح بموضة  
وإن الرجل ليأتي  
المسجد فيصلي وصلاته  
تعدل جبل أحد إذا  
كان أحسنهما عقلا  
قبل وكيف يكون  
أحسنهما عقلا ؟ قال  
أورعهما عن محارم  
الله وأحرصهما على  
أسباب الخير وإن  
كان دونه في العمل  
والنطوع . وقال :  
عليه الصلاة والسلام  
« إن الله تعالى قسم  
العقل بين عباده  
أشتاتا فإن الرجلين  
يستوى عليهما  
وبرهما وصومهما  
وصلاتهما ولكنهما  
يتفاوتان في العقل  
كالدرة في جنب أحد »  
وروى عن وهب بن

وتجول في نواحي الأرض أما ترى المدر والحجر والشجر لا يتعدى شيء منها مكانه ولا يتحرك بنفسه إذ لم يركبه مثل هذا الفارس القوي القاهر أما ترى أيدي الوثني تساوين في صورة الأحم والعظم والدم ثم لامعاملة بينها وبين القلم فأنا أيضا من حيث أنا لامعاملة بيني وبين القلم فصل القدرة عن شأني فإني مركب أزهي من ركني فقال صدقت ثم سألت القدرة عن شأنها في استعمالها اليد وكثرة استعمالها وترديد ما قالت دع عنك لومي ومعاتبي فكم من لأم ملوم وكم من ملوم لا ذنب له وكيف خفي عليك أمرى وكيف ظننت أنني ظلمت اليد لما ركبته وقد كنت لها راكبة قبل التحريك وما كنت أحركها ولا أستسخرها بل كنت نائمة ساكنة نوما ظن الظانون بي أنني ميتة أو معدومة لأنني ما كنت أتحرك ولا أحرك حتى جاءني موكل أزهي وأرهنني إلى ماتراه مني فكانت لي قوة على مساعدته ولم تكن لي قوة على عناقته وهذا الموكل يسمى الإرادة ولا أعرفه إلا باسمه وهجومه وصياله إذ أزهي من غمرة النوم وأرهنني إلى ما كان لي مندوحة عنه لو خلاني ورأيي فقال صدقت ثم سألت الإرادة ما الذي جرأك على هذه القدرة الساكنة الطمئة حتى صرقتها إلى التحريك وأرهنها إليه إرهابا لم نجد عنه مخلصا ولا مناصا فقالت الإرادة لا تمجبل على فعلك لنا عذرا وأنت تلوم فإني ما انتهضت بنفسى ولكن أنهضت وما انتهضت ولكني بعثت بحكم قاهر وأمر جازم وقد كنت ساكنة قبل بعثته ولكن ورد على من حضرة القلب رسول العلم على لسان العقل بالإشخاص للقدرة فأشخصتها باضطراب فإني ميكنة مسخرة تحت قهر العلم والعقل ولا أدري بأي جرم وقعت عليه وسخرت له وألزمت طاعته لكي أدري أنني في دعة وسكون مالم يرد على هذا الوارد القاهر وهذا الحاكم العادل أو الظالم وقد وقفت عليه وقفا وألزمت طاعته إلزاما بل لا يبقى لي معه مهما جزم حكمه طاقة على المخالفة لعمري مادام هو في التردد مع نفسه والتخير في حكمه فأنا ساكنة لكن مع استعمار وانتظار لحكمه فاذا انجزم حكمه أزهي بطبيع وقهر تحت طاعته وأشخصت القدرة لتقوم بموجب حكمه فصل العلم عن شأني ودع عنى عتابك فإني كما قال القائل :

مضى ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تغار قهس فالراجلون م

فقال صدقت وأقبل على العلم والعقل والقلب مطالبا لهم ومعتابا لإيام على استنصاح الإرادة وتسخيرها لإشخاص القدرة فقال العقل أما أنا فسراج ما اشتعلت بنفسى ولكن أشعلت وقال القلب أما أنا فلوح ما انبسطت بنفسى ولكن بسطت وقال العلم أما أنا فنقش نقش في يابض لوح القلب لما أشرق سراج العقل وما انخططت بنفسى فكم كان هذا اللوح قبل خاليا عن فصل القلم عنى لأن الخط لا يكون إلا بالقلم فعند ذلك تنفع السائل ولم يقنع جواب وقال قد طال نهي في هذا الطريق وكثرت منازل ولا يزال يحيلني من طمعت في معرفة هذا الأمر منه على غيره ولكني كنت أطلب نفسا بكثرة التردد لما كنت أسمع كلاما مقبولا في القواد وعذرا ظاهرا في دفع السؤال فأما قولك إني خط ونقش وإنما خطى قلم فلست أفهمه فإني لأعلم قلما لإلصاق القصب ولألوحا لإلصاق الحديد أو الخشب ولا خطا إلا بالحجر ولا سراجا إلا بالنار وإني لأسمع في هذا المنزل حديث اللوح والسراج والخط والقلم ولا أشاهد من ذلك شيئا أسمع جمجمة ولا أرى طعنا فقال له القلم إن صدقت فياقلت بضاعتك مزجاة وزادك قليل ومركبك ضعيف . واعلم أن الهالك في الطريق التي توجهت إليها كثيرة فالصواب لك أن تتصرف وتدع ما أنت فيه لما هذا بمشك فادرج عنه فكل ميسر لما خلق له وإن كنت راغبا في استتمام الطريق إلى المقصد فألق معك وأنت شهيد . واعلم أن العلم في طريقك هذا ثلاثة عالم لك والشهادة أولها وقد كان السكاغد والحجر والقلم واليد من هذا العالم وقد جاوزت

منه أنه قال إني أجد في سبعين كتابا أن جميع ما أعطى الناس من بدء الدنيا إلى انقطاعها من العقل في جنب عقل رسول الله صلى الله عليه وسلم كهية رملة وقعت من بين جميع رمال الدنيا . واختلف الناس في ماهية العقل والكلام في ذلك يكثر ولا تؤثر نقل الأقاويل وليس ذلك من غرضنا قال قوم : العقل من العلوم فإن الخالي من جميع العلوم لا يوصف بالعقل وليس العقل جميع العلوم فإن الخالي من معظم العلوم يوصف بالعقل وقالوا ليس من العلوم النظرية فإن من



تلك للنازل على سهولة والثاني عالم الملكوت وهو ورأى فإذا جاوزته انتهى إلى منازل وفيه الهامه والقيح والجلال الشاهقة والبحار للفرقة ولا أدري كيف تسم فيها والثالث وهو عالم الجبروت وهو بين عالم الملك وعالم الملكوت ولقد قطعت منها ثلاث منازل في أوائلها منزل القدرة والارادة والعلم وهو واسطة بين عالم الملك والشهادة والملكوت لأن عالم الملك أسهل منه طريقا وعالم الملكوت أوعر منه منهجا وإنما عالم الجبروت بين عالم الملك وعالم الملكوت يشبه السفينة التي هي في الحركة بين الأرض والسما فلهي في حد اضطراب الساء ولاهي في حد سكون الأرض وثباتها وكل من عسى على الأرض عسى في عالم الملك والشهادة فإن جاوزت قوته إلى أن يعوى على ركوب السفينة كان كمن عسى في عالم الجبروت فإن انتهى إلى أن عسى على الساء من غير سفينة عسى في عالم الملكوت من غير تنفع فإن كنت لا تتقدم على الشيء على الساء فأنصرف قد جاوزت الأرض وخلفت السفينة ولم يبق بين يديك إلا الساء الصافي وأول عالم الملكوت مشاهدة القلم الذي يكتب به العلم في لوح القلب وحصول اليقين الذي عسى به على الماء أما سمعت قول رسول الله صلى الله عليه وسلم في عيسى عليه السلام «لوازداد يقينا لشي على الهواء» (١) لما قيل له إنه كان عسى على الماء فقال السالك السائل قد تحيرت في أمري واستشعر قلبي خوفا مما وصفته من خطر الطريق ولست أدري أطبق قطع هذه المهامه التي وصفتها أم لا فهل ذلك من علامة ؟ قال نعم افتح بصرك واجمع ضوء عينيك وحدقه نحوى فإن ظهر لك القلم الذي به أكتب في لوح القلب فيشبه أن تكون أهلا لهذا الطريق فإن كل من جاوز عالم الجبروت وقرع بابا من أبواب الملكوت كوشف بالقلم أما ترى أن النبي صلى الله عليه وسلم في أول أمره كوشف بالقلم إذا نزل عليه - اقرأ وربك الأكرم الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - فقال السالك لقد فتحت بصري وحدقته فوالله ما أرى قصبا ولا خشبا ولا أعلم قلم إلا كذلك فقال العلم لقد أبعدت النجسة أما سمعت أن متاع البيت يشبه رب البيت أما علمت أن الله تعالى لا تشبه ذاته سائر الدوات فكذلك لا تشبه يده الأيدي ولا قلبه الأفلام ولا كلامه سائر الكلام ولا خطه سائر الخطوط وهذه أمور إلهية من عالم الملكوت فليس الله تعالى في ذاته بجسم ولا هو في مكان بخلاف غيره ولا يده لحم وعظم ودم بخلاف الأيدي ولا قلبه من قصب ولا لونه من خشب ولا كلامه بصوت وحرف ولا خطه رقم ورسم ولا جوده زاج وعص فإن كنت لا تشاهد هذا هكذا فأراك إلا محنتا بين نحوه التزييه وآئونة التشبيه مذبدبا بين هذا وذا لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء فكيف زهت ذاته وصفاته تعالى عن الأجسام وصفاتها وزهت كلامه عن معاني الحروف والأصوات وأخذت تتوقف في يده وقلبه ولوحه وخطه فإن كنت قد فهمت من قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خالق آدم على صورته» الصورة الظاهرة المدركة بالبصر فكأن مشبا مطلقا كما يقال كن يهوديا صرفا وإلا فلا تلعب بالتوراة وإن فهمت منه الصورة الباطنة التي تدرك بالبصار لا بالأبصار فكأن منزها صرفا ومقدسا غلا واطو الطريق فأنك بالواد المقدس طوى واستمع بسر قلبك لما يوحى فاعلمك نجد على النار هدى ولعلك من سرادات العرش تتأدى بما نودى به موسى - إني أنا ربك - فلما سمع السالك من العلم ذلك استشعر قصور نفسه وأنه محنت بين التشبيه والتزييه فاشتعل قلبه نارا من حدة غضبه على نفسه لما رآها بين النقص ولقد كان زيتته الذي في مشكاة قلبه يكاد يضيء ولولم تمسه نارا فلما تنفع فيه العلم بمحدثه اشتعل زيتته فأصبح نورا على نور فقال له العلم اغتم الآن هذه الفرصة واقتح بصرك لعلك تجد على النار هدى ففتح بصره فأنكشف له القلم الإلهي

(١) حديث قيل له إن عيسى عسى على الماء قال لوازداد يقينا لشي على الهواء تقدم .

شرط ابتداء النظر  
تقدم كال العقل فهو  
إذن من العلوم  
الضرورية وليس هو  
جميعها فإن صاحب  
الحواس المختلة ناقص  
وقد علم بعض  
مدارك العلوم  
الضرورية. وقال بعضهم  
العقل ليس من أقسام  
العلوم لأنه لو كان منها  
لوجب المحصن بأن  
الداهل عن ذكر  
الاستحالة والجواز  
لا يتصف بكونه ناقصا  
ونحن نرى العاقل في  
كثير من أوقاته ذاهلا  
وقالوا هذا العقل صفة  
يتبها بها درك العلوم .  
وقيل عن الحرث بن  
أسد الهامسي وهو من  
أجل الشايع أنه قال

فاذا هو كما وصفه العلم في التزييه ما هو من خشب ولا قصب ولا له رأس ولا ذنب وهو يكتب على الدوام في قلوب البشر كلهم أصناف العلوم وكان له في كل قلب رأسا ولأرأس له قضى منه العجب وقال نعم الرفيق العلم جزماته تعالى عني خيرا إذا الآن ظهر لي صدق أنبائه عن أوصاف القلم فاني أراه قلما لا أقلام فعند هذا ودع العلم وشكره وقال قد طال مقامى عندك ومرادنى لك وأنا عازم على أن أسافر إلى حضرة القلم وأسأله عن شأنه فاسفر إليه وقال له: ما بالك أيها القلم تخط على الدوام في القلوب من العلوم ما تبث به الارادات إلى أشخاص القدر وصرفتها إلى اللقودرات فقال أوقد نسيت ما رأيت في عالم الملك والشهادة وصممت من جواب القلم إذ سأله فأحلك على اليد قال لم أس ذلك قال فجوابي مثل جوابه قال كيف وأنت لا تشبهه قال القلم أما سمعت أن الله تعالى خلق آدم على صورته قال نعم قال فسل عن شأني الملقب بيمين الملك فاني في قبضته وهو الذي يرد دنى وأما قههور مسخر فلا فرق بين القلم الإلهي وقلم الأدمي في معنى التسخير وإنما الفرق في ظاهر الصورة فقال فمن عين الملك فقال القلم أما سمعت قوله تعالى - والسماوات مطويات بيمينه - قال نعم قال والأقلام أيضا في قبضة يمينه هو الذي يرددها فاسفر السالك من عنده إلى اليمين حتى شاهده ورأى من عجائب ما يزيد على عجائب القلم لا يجوز وصف شيء من ذلك ولا شرحه بل لا تحصى مجلدات كثيرة عشر عشر وصفه والجملة فيه أنه يمين لا كالأيمن ويد لا كالأيدي وأصبع لا كالأصابع فرأى القلم محركا في قبضته فظهر له عذر القلم فسأل اليمين عن شأنه وتحريكه للقلم فقال جوابي مثل ما سمعته من اليمين التي رأيتها في عالم الشهادة وهي الحوالة على القدرة إذ لا بد لا حكم لها في نفسها وإنما محركا القدرة لا محالة فاسفر السالك إلى عالم القدرة ورأى فيه من العجائب ما استحقق عندها ما قبله وسألها عن تحريك اليمين فقالت إنما أنا صفة فاسأل القادر إذ العدة على الوصفات لا على الصفات وعند هذا كاد أن يزيغ ويطلق بالجرأة لسان السؤال فثبت بالقول الثابت ونودي من وراء حجاب سرادقات الحضرة - لا يسئل عما يفعل وهم يسئلون - فحشيتة هيئة الحضرة غمر صفا يضطرب في غشيتها فلما أفاق قال سبحانك ما أعظم شأنك ثبت إليك وتوكلت عليك وآمنت بأنك الملك الجبار الواحد القهار فلا أخاف غيرك ولا أرجو سواك ولا أعوذ إلا بفوك من عقابك وبرضاك من سخطك ومالي إلا أن أسألك وأنضرع إليك وأبتهل بين يديك فأقول : اشرح لي صدرى لأعرفك واحلل عقدة من لساني لأنني عليك فنودي من وراء الحجاب إياك أن تطمع في الثناء وتزيد على سيد الأنبياء بل أراجع إليه فما آتاك غفده وما نهاك عنه فاته عنه وما قاله لك قلله فانه ما زاد في هذه الحضرة على أن قال « سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أئتمت على نفسك » (١) فقال إلهي إن لم يكن لسان جرأة على الثناء عليك فهل للقلب مطمع في معرفتك فنودي إياك أن تتخطى رقاب الصديقين فأرجع إلى الصديق الأكبر فاقته فأن أصحاب سيد الأنبياء كالنجوم بأيهم اقتديتم اهتديتم أما سمعته يقول العجز عن درك الإدراك إدراك فيك فيك نصيما من حضرتنا أن تعرف أنك محروم عن حضرتنا عاجز عن ملاحظة جمائنا وجلالنا فعند هذا رجع السالك واعتذر عن أسئلته ومعاتباته وقال لليمين والقلم والعلم والإزادة والقدرة وما بعدها أقبلوا عذري فاني كنت غريبا حديث المهد بالدخول في هذه البلاد ولكل داخل دهشة لما كان إنكارى عليكم إلا عن قصور وجهل والآن قد صبح عندي عذركم وانكشف لي أن للفرد بالملك والمكوت والعزة والجبروت هو الواحد القهار فلما أنتم المسمخون تحت قهره وقدرته مرددون في قبضته وهو الأول والآخرو الظاهر والباطن فلما ذكر ذلك في عالم الشهادة استبعد منه ذلك وقيل له كيف يكون هو الأول والآخروهما وصفان متناقضان وكيف يكون هو الظاهر والباطن فالأول ليس بآخر والظاهر ليس يابطن فقال هو الأول بالاضافة إلى الموجودات إذ صدر منه الكل على ترتيبه واحدا بعد واحد وهو الآخر

العقل غريزة يتبها بها  
درك العلوم وعلى هذا  
يتقرر ما ذكرناه في  
أول ذكر العقل : أنه  
لسان الروح لأن  
الروح من أمر الله  
وهي التحملة للأمانة  
التي أبت السماوات  
والأرضون أن يعملنها  
ومنها يفيض نور  
العقل وفي نور العقل  
تشكل العلوم فالعقل  
للعلوم بمثابة الروح  
للكنوب وهو صفته  
منكوس متطلع إلى  
النفس تارة ومنتصب  
مستقيم تارة فمن كان  
العقل فيه منكوسا  
إلى النفس فرقه في  
أجزاء الكون وعدم  
حسن الاعتدال  
بذلك وأخطأ طريق

(١) حديث سبحانك لا أحصى ثناء عليك أنت كما أئتمت على نفسك تقدم .

بالإضافة إلى سير السائرين إليه فانهم لا يزالون مترقين من منزل إلى منزل إلى أن يقع الانتهاء إلى تلك الحضرة فيكون ذلك آخر السفر فهو آخر في الشهادة أول في الوجود وهو باطن بالإضافة إلى الماكفين في عالم الشهادة الطالبين لأدراكه بالحواس الخمس ظاهر بالإضافة إلى من يطلبه في السراج الذي اشتعل في قلبه بالبصيرة الباطنة النافذة في عالم للملكوت فهكذا كان توحيد السالكين لطريق التوحيد في القمل : أعنى من انكشف له أن الفاعل واحد . فان قلت فقد انتهى هذا التوحيد إلى أنه يتنى على الإيمان بعالم للملكوت فمن لم يفهم ذلك أو يجد طريقه ؟ فأقول : أما الجاحد فلا علاج له إلا أن يقال له إنكارك لعالم للملكوت كانكار السمنية لعالم الجبروت ، وهم الذين حصروا العلوم في الحواس الخمس فأنكروا القدرة والإرادة والعلم لأنها لا تدرك بالحواس الخمس فلازموا حضيض عالم الشهادة بالحواس الخمس ، فان قال وأنا منهم فاني لأهتدي إلى عالم الشهادة بالحواس الخمس ولا أعلم شيئاً سواه ، فيقال إنكارك لما شاهدناه بما وراء الحواس الخمس كانكار السوفسطائية للحواس الخمس فانهم قالوا ما نراه لا شئ به قلنا نراه في المنام ، فان قال وأنا من جملتهم فاني شاك أيضاً في المحسوسات فيقال هذا شخص فسد مزاجه وامتنع علاجه فترك أياماً قلائل ومما كل مريض يقوى على علاجه الأطباء هذا حكم الجاحد . وأما الذي لا يجد ولكن لا يفهم فطريق السالكين معه أن ينظروا إلى عينه التي يشاهد بها عالم للملكوت فان وجدوها صحيحة في الأصل وقد نزل فيها ماء أسود قبل الإزالة والتقية اشتغلوا بتفقيته اشتغال الكمال بالأبصار الظاهرة فاذا استوى بصره أرشد إلى الطريق ليسلكها كما فعل ذلك صلى الله عليه وسلم بخواص أصحابه فان كان غير قابل للعلاج فلم يمكنه أن يسلك الطريق الذي ذكرناه في التوحيد ولم يمكنه أن يسمع كلام ذرات الملك والملكوت شهادة التوحيد كلوه بحرف وصوت وردوا فدوة التوحيد إلى حضيض فهمه فان في عالم الشهادة أيضاً توحيدا إذ يعلم كل أحد أن للزلل ضد صاحبين والبلد يفسد بأمرين فيقال له على حد عقله إلى العالم واحد والدير واحد إذ لو كان فيهما آلهة إلا الله لفسدتا فيكون ذلك على ذوق مارآء في عالم الشهادة فيفسد اعتقاد التوحيد في قلبه بهذا الطريق اللائق بقدر عقله وقد كلف الله الأندياء أن يكلموا الناس على قدر عقولهم ، ولذلك نزل القرآن بلسان العرب على حد عاداتهم في المحاوراة . فان قلت فمثل هذا التوحيد الاعتقادي هل يصلح أن يكون عمادا للتوكل وأصلا فيه ؟ فأقول نعم فان الاعتقاد إذا قوى عمل الكشفي إثارة الأحوال إلا أنه في الثالب بضخ ويقتصر إلى الاضطراب والتزلزل غالبا ولذلك يحتاج صاحبه إلى متكلم يحرسه بكلامه أو إلى أن يتعلم هو الكلام ليحرس به العقيدة التي تلقاها من أستاذه أو من أبويه أو من أهل بيته . وأما الذي شاهد الطريق وسلكه بنفسه فلا يخاف عليه شئ من ذلك بل لو كشف النطاء لما ازداد يقينا وإن كان يزداد وضوحا كما أن الذي يرى إنسانا في وقت الإسفار لا يزداد يقينا عند طلوع الشمس بأنه إنسان ولكن يزداد وضوحا في تفصيل خلقته ومماثل للكاشفين والمقدين إلا كسحرة فرعون مع أصحاب السامري فان سحرة فرعون لما كانوا مطلعين على منتهى تأثير السحر لطول مشاهدتهم وتجربتهم رأوا من موسى عليه السلام ما جاوز حدود السحر وانكشف لهم حقيقة الأمر فلم يكثرثوا بقوله فرعون - لأقطعن أيديكم وأرجلكم من خلاف - بل - قالوا لن نؤثر لك على ما جاءنا من البينات والذي فطرنا فاقض ما أنت قاض إنما نفى هذه الحياة الدنيا - فان البيان والكشف يمنع التضرير . وأما أصحاب السامري لما كان إيمانهم عن النظر إلى ظاهر الثعبان فلما نظروا إلى مجل السامري ومحموا خواره تغيروا ومحموا قوله - هذا إلهكم وإله موسى - ونسوا أنه لا يرجع إليهم قولاً ولا ينك لهم صرا ولا نفعا فكل من آمن بالنظر

الاهتداء ومن انتصب العقل فيه واستقام تأيد العقل بالبصيرة التي هي لروح بمثابة القلب واهتدى إلى الملكوت ثم عرف الكون بالملكوت مستوفيا أقسام المعرفة بالكون والكون فيكون هذا العقل عقل الهداية فكما أحب الله إقباله في أمر دله على إقباله عليه وما كرهه الله في أمر دله على الادبار عنه فلا يزال يتبع محاب الله تعالى ويجنب مساخطه وكما استقام العقل وتأيد بالبصيرة كانت دلالة على الرشد ونبيه عن التضييق بعضهم : العقل على

إلى ثمان يكفر لا محالة إذا نظر إلى عجل لأن كليهما من عالم الشهادة والاختلاف والتضاد في عالم الشهادة كثير . وأما عالم الملكوت فهو من عند الله تعالى فذلك لا تجد فيه اختلافا وتضادا أصلا . فان قلت ماذا كثرته من التوحيد ظاهر مهما ثبت أن الوسائط والأسباب مسخرات وكل ذلك ظاهر إلا في حركات الانسان فانه يتحرك إن شاء ويسكن إن شاء فكيف يكون مسخرا . فاعلم أنه لو كان مع هذا إرادة إن إراد أن يشاء ولا يشاء إن لم يرد أن يشاء لسكان هذا منزلة التقدم وموقع الغلط لو كان علم أنه يفعل ما يشاء إذا شاء أن يشأ أم لم يشأ فليست المشيئة إليه إذ لو كانت إليه لافترقت إلى مشيئة أخرى وتسلسل إلى غير نهاية وإذا لم تكن المشيئة إليه فبها وجدت المشيئة التي تصرف القدرة إلى مقدورها انصرفت القدرة لا محالة ولم يكن لها سبيل إلى الخالفة فالحركة لازمة ضرورة بالقدرة والقدرة متحركة ضرورة عند انجزام المشيئة فالمشيئة تحدث ضرورة في القلب فهذه ضرورات ترتب بعضها على بعض وليس للبعد أن يدفع وجود المشيئة ولا انصراف القدرة إلى التدور بعدها ولا وجود الحركة بعد بعث المشيئة للقدرة فهو مضطر في الجميع . فان قلت فهذا جبر محض والجبر يناقض الاختيار وأنت لا تنكر الاختيار فكيف يكون مجبورا مختارا . فأقول لو انكشف الغطاء لعرفت أنه في عين الاختيار مجبور فهو إذن مجبور على الاختيار فكيف يفهم هذا من لا يفهم الاختيار ، فلنشرح الاختيار بلسان التكلمين شرحا وجيزا يليق بما ذكر متظفلا وتابعا فان هذا الكتاب لم يقصد به إلا العلم العامة ، ولكني أقول لفظ الفعل في الانسان يطلق على ثلاثة أوجه : إذ يقال الانسان يكتب بالأصابع ويتنفس بالزفة والخنجرة ويحرق اللسان إذا وقف عليه بحمسه فينسب إليه الحرق في اللسان والتنفس والكتابة ، وهذه الثلاثة في حقيقة الاضطراب والجبر واحدة ولكنها تختلف وراء ذلك في أمور فأعرب لك عنها ثلاث عبارات فنسب خرقه للسان عند وقوعه على وجهه فعلا طبيعيا ونسب تنفسه فعلا إراديا ونسب كتابته فعلا اختياريا والجبر ظاهر في الفعل الطبيعي لأنه مهما وقف على وجه الماء أو غطى من السطح للهواء انغرق الهواء لا محالة فيكون الحرق بعد التخطي ضروريا والتنفس في معناه فان نسية حركة الخنجرة إلى إرادة التنفس كنسبة انغراق الماء إلى ثقل البدن فهما كان الثقل موجودا وجد الانغراق بعده وليس الثقل إليه وكذلك الإرادة ليست إليه ، ولذلك لو قصد عين الإنسان بارة طبق الأجفان اضطرابا ولو أراد أن يتركها مفتوحة لم يقدر مع أن تضيض الأجفان اضطرابا فعل إرادى ولكنه إذا تمثل صورة الإبرة في مشاهدته بالادراك حدثت الإرادة بالتضيض ضرورة وحدثت الحركة بها ولو أراد أن يترك ذلك لم يقدر عليه مع أنه فعل بالقدرة والإرادة فقد التحق هذا بالفعل الطبيعي في كونه ضروريا . وأما الثالث وهو الاختيارى فهو مظنة الالتباس كالكتابة والنطق وهو الذى يقال فيه إن شاء فعل وإن شاء لم يفعل وتارة يفاء وتارة لا يشاء فيظن من هذا أن الأمر إليه وهذا الجبر بمعنى الاختيار فلنكشف عنه ، ويأينه أن الإرادة تبع للعلم الذى يحكم بأن الشيء موافق لك والأشياء تنقسم إلى ما تحكم مشاهدتك الظاهرة أو الباطنة بأنه يوافقك من غير تحير وتردد وإلى ما قد يتردد العقل فيه فالذى تقطع به من غير تردد أن يقصد عينك مثلا بارة أو بدتك سيف فلا يكون في علمك تردد في أن دفع ذلك خير لك وموافق فلا جرم تنبعت الإرادة بالعلم والقدرة بالإرادة وتحصل حركة الأجفان بالدفع وحركة اليد بدفع السيف ولكن من غير روية وفكرة ويكون ذلك بالإرادة ومن الأشياء ما يتوقف الخيز والعقل فيه فلا يدري أنه موافق أم لا فيحتاج إلى روية وفكر حتى يتميز أن الخير في الفعل أو الترك فإذا حصل بالفكر والرؤية العلم بأن أحدهما خير التحق ذلك بالذى تقطع بمن غير روية ففكر فانبعثت الإرادة ههنا كما تنبعت لدفع السيف واللسان فإذا انبثت فعل ما ظهر للعقل

ضربين ضرب يصبر به أمر دنياه وضرب يصبر به أمر آخرته ، وذكر أن العقل الأول من نور الروح والعقل الثاني من نور الهداية فالعقل الأول موجود في عامة ولد آدم والعقل الثاني موجود في الموحدين مفقود من المشركين . وقيل إنما هي العقل عقلا لأن الجبل ظلمة فإذا غلب النور بصبره في تلك الظلمة زالت الظلمة فأبصر فصار عقلا لمجهل ، وقيل عقل الإيمان يستحسنه في القلب ومتممه في الصدر بين عيني القماد والذى ذكرناه من كون العقل لسان

أنه خير سميت هذه الإرادة اختياراً مشتقاً من الخير أي هو انبعث إلى ما ظهر للعقل أنه خير وهو عين تلك الإرادة ولم ينتظر في انبعثاتها إلى ما انتظرت تلك الإرادة وهو ظهور خيرية الفعل في حقه لأن الخيرية في دفع السيف ظهرت من غير روية بل على البديهة وهذا افتقر إلى الروية فلاختيار عبارة عن إرادة خاصة وهي التي انبعثت بإشارة العقل فيها إلى إدراكه توقف وعن هذا قيل إن العقل يحتاج إليه للتمييز بين خير الخيرين وشر الشرين ولا يتصور أن تنبثق الإرادة إلا بحكم الحس والتخيل أو بحكم جزم من العقل ولذلك لو أراد الإنسان أن يحزن ربة نفسه مثلاً لم يمكنه لعدم القدرة في البدول لعدم السكين ولكن لفقد الإرادة الداعية للشخصية للقدرة وإنما فقدت الإرادة لأنها تنبث بحكم العقل أو الحس بكون الفعل موافقاً وقتله نفسه ليس موافقاً له فلا يمكنه مع قوة الأعضاء أن يقتل نفسه إلا إذا كان في عتوة مؤلمة لا تطاق فإن العقل هنا يتوقف في الحكم ويتردد لأن تردد بين شر الشرين فإن ترجح له بمد الروية أن ترك القتل أقل شراً لم يمكنه قتل نفسه وإن حكم بأن القتل أقل شراً وكان حكمه جزماً لا ميل فيه ولا صارف منه انبعثت الإرادة والقدرة وأهلك نفسه كالذي يتبع بالسيف للقتل فإنه يرمى بنفسه من السطح مثلاً وإن كان مهلكاً ولا يبالى ولا يمكنه أن لا يرمى نفسه فإن كان يتبع بضرب خفيف فإن انتهى إلى طرف السطح حكم العقل بأن الضرب أهون من الرمي فوقعت أعضاؤه فلا يمكنه أن يرمى نفسه ولا تنبث له داعية البتة لأن داعية الإرادة مسخرة بحكم العقل والحس والقدرة مسخرة للداعية والحركة مسخرة للقدرة والكل مقدر بالضرورة فيه من حيث لا يدري فأنما هو محل ومجرى لهذه الأمور فأما أن يكون منه فكلاً ولا فاذن معنى كونه مجبوراً أن جميع ذلك حاصل فيه من غيره لأمته ومعنى كونه مختاراً أنه محل لإرادة حدثت فيه جبراً بعد حكم العقل بكون الفعل خيراً محضاً موافقاً لحدث الحكم أيضاً جبراً فآذاه مجبور على الاختيار ففعل النار في الاحراق مثلاً جبر محض وفعل الله تعالى اختياراً لأن الله تعالى مختار محض وفعل الإنسان على منزلة بين المنزلتين فإنه جبر على الاختيار فطلب أهل الحق لهذا عبارة ثالثة لأنه لما كان فذاً ثانياً واتموا فيه بكتاب الله تعالى فسموه كسباً وليس مناقضاً للجبر ولا للاختيار بل هو جامع بينهما عند من فهمه وفعل الله تعالى يسمى اختياراً بشرط أن لا يفهم من الاختيار إرادة بعد تغير وتردد فإن ذلك في حقه محال وجميع الألفاظ للذكورة في اللغات لا يمكن أن تستعمل في حق الله تعالى إلا على نوع من الاستعارة والتجوز وذكر ذلك لا يليق بهذا العلم وبطول القول فيه . فإن قلت فهل تقول إن العلم ولد الإرادة والإرادة ولدت القدرة والقدرة ولدت الحركة وأن كل متأخر حدث من المتقدم . فإن قلت ذلك فقد حكمت بحدوث شيء لآمن قدرة الله تعالى وإن أبيت ذلك فإمضى ترتيب البعض من هذا على البعض . فاعلم أن القول بأن بعض ذلك حدث عن بعض جهل محض سواء عبر عنه بالتولد أو بغيره بل حوالة جميع ذلك على المولى الذي يعبر عنه بالقدرة الأزلية وهو الأمل الذي لم يبق كافة الحقائق عليه إلا الراسخون في العلم فأنهم وقفوا على كنهه معناه والكافة وقفوا على مجرد لفظه مع نوع تشبيه بقدرتنا وهو بعيد عن الحق ويان ذلك يطول ولكن بعض القدرات مرتبة على البعض في الحدوث ترتيب للشروط على الشرط فلا تصدر من القدرة الأزلية إرادة إلا بعد علم ولا علم إلا بعد حياة ولا حياة إلا بعد محل الحياة وكما لا يجوز أن يقال الحياة تحصل من الجسم الذي هو شرط الحياة فكذلك في سائر درجات الترتيب ولكن بعض الشروط ربما ظهرت للعامة وبعضها لم يظهر إلا للخواص الكاشفين بنور الحق والإفلا يتقدم من تقدم ولا يتأخر متأخر إلا بالحق والزموم وكذلك جميع أفعال الله تعالى ولولا ذلك لكان التقديم والتأخير عبثاً يضاهي فعل المجانين تعالى الله عن قول الجاهلين علواً كبيراً وإلى هذا أشار قوله تعالى وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون - وقوله تعالى - وما خلقت السموات والأرض وما بينهما

الروح وهو عقل واحد ليس هو على ضربين ولكنه إذا انتصب واستقام تأيد بالبصيرة واعتدل ووضع الأشياء في مواضعها وهذا العقل هو العقل المستضيء بنور الشرع لأن انتصابه واعتداله هداة إلى الاستقامة بنور الشرع لكون الشرع ورد على لسان النبي المرسل وذلك لقرب روحه من الحضرة الإلهية ومكاشفة بصيرته التي هي لروح بمثابة القلب بقدرة الله وآياته واستقامة عقله بتأيد البصيرة فالبصيرة تعبط بالمعلوم التي يستوعبها العقل والتي

لا عين . ما خلقناهما إلا بالحق - فكل ما بين السماء والأرض حادث على ترتيب واجب وحق لازم لا يتصور أن يكون إلا كما حدث وعلى هذا الترتيب الذي وجد فما تأخر متأخراً إلا لا تتظار شرطه ولكل شرط قبل الشرط محال والحال لا يوصف بكونه مقدوراً فلا يتأخر العلم عن النطفة إلا لفقد شرط الحياة ولا يتأخر عنها الإرادة بعد انعلم إلا لفقد شرط العلم وكل ذلك منهاج الواجب وترتيب الحق ليس في شيء من ذلك لعب واتفاق بل كل ذلك بحكمة وتديرو تفهم ذلك عسير ولكننا نضرب لتوقف المقدور مع وجود القدرة على وجود الشرط مثلاً لا يقرب مبادئ الحق من الأفهام الضعيفة وذلك بأن نقدر إنساناً محدثاً قد انتمس في الماء إلى رقبته فالحدث لا يرتفع عن أعضائه وإن كان للماء هو الرفع وهو ملاقيه فقدرة القدرة الأزلية حاضرة ملاقية له القدورات متعلقة بها ملاقة الماء للأعضاء ولكن لا يحصل بها القدور كما لا يحصل رفع الحدث بالماء انتظاراً للشرط وهو غسل الوجه فإذا وضع الواقف في الماء وجهه على الماء عمل للماء في سائر أعضائه وارتفع الحدث فربما يظن الجاهل أنه الحدث ارتفع عن اليدين برضه عن الوجه لأنه حدث عقيه إذ يقول كان الماء ملاقياً ولم يكن رافعاً والماء لم يتغير عما كان فكيف حصل منه ما لم يحصل من قبل بل حصل ارتفاع الحدث عن اليدين عند غسل الوجه، فأذن غسل الوجه هو الرفع للحدث عن اليدين وهو جهل يضاهي ظن من يظن أن الحركة تحصل بالقدرة والقدرة بالإرادة والإرادة بالعلم وكل ذلك خطأ بل عند ارتفاع الحدث عن الوجه ارتفع الحدث عن اليد بالماء اللزاق لها لا بفصل الوجه والماء لم يتغير واليد لم تتغير ولم يحدث فيها شيء ولكن حدث وجود الشرط فظهر أثر العلة فهكذا ينبغي أن تفهم صدور المقدرات عن القدرة الأزلية مع أن القدرة قديمة والقدورات حادثة وهذا قرع باب آخر لعالم آخر من عوالم المكاشفات فلنترك جميع ذلك فإن مقصودنا التنبيه على طريق التوحيد في الفعل فإن الفاعل بالحقيقة واحد فهو الخوف والمرجو وعليه التوكل والاعتماد ولم تقدر على أن تذكرك من بحار التوحيد إلا فطرة من بحر المقام الثالث من مقامات التوحيد واستيفاء ذلك في عمر نوح محال كاستيفاء ماء البحر بأخذ القطرات منه وكل ذلك ينطوي تحت قول لا إله إلا الله وما أخف مؤثته على اللسان وما أسهل اعتقاد مفهوم أنظله على القلب وما أعز حقيقته وله عند العلماء الراسخين في العلم فكيف عند غيرهم . فإن قلت فكيف الجمع بين التوحيد والشرع ومعنى التوحيد أن لا فاعل إلا الله تعالى ومعنى الشرع إثبات الأفعال للعباد فإن كان العبد فاعلاً فكيف يكون الله تعالى فاعلاً وإن كان الله تعالى فاعلاً فكيف يكون العبد فاعلاً ومفعول من فاعلين غير مفهوم . فأقول نعم ذلك غير مفهوم إذا كان للفاعل معنى واحد وإن كان له معنيان ويكون الاسم محالاً مردداً بينهما لم يتناقض كما يقال قتل الأمير فلاناً ويقال قتل الجلاد ولكن الأمير قاتل بمعنى والجلاد قاتل بمعنى آخر فكذلك العبد فاعل بمعنى واقفه عز وجل فاعل بمعنى آخر فعنى كون الله تعالى فاعلاً أنه المحترع الموجد ومعنى كون العبد فاعلاً أنه المحل الذي خلق فيه القدرة بعد أن خلق فيه الإرادة بعد أن خلق فيه العلم فارتبطت القدرة بالإرادة والحركة بالقدرة ارتباط الشرط بالمشروط وارتبطت القدرة بالله ارتباط المعلوم بالعلو وارتبط المحترع بالمتحترع وكل ما له ارتباط بقدرة فإن محل القدرة يسمى فاعلاً كيفما كان الارتباط كما يسمى الجلاد قاتلاً والأمير قاتلاً لأن القتل ارتبط بقدرتهما ولكن على وجهين مختلفين فذلك سمى فاعلاً لكذلك ارتباط المقدورات بالقدرتين ولأجل توافق ذلك وتطابقه نسب الله تعالى الأفعال في القرآن مرة إلى الملائكة ومرة إلى العباد ونسبها بينهما مرة أخرى إلى نفسه فقال تعالى في الموت - قل بتوفاكم ملك الموت - ثم قال عز وجل - الله يتوفى الأنفس حين موتها - وقال تعالى - أفرأيتم ما تحركون - أنصاف إليائهم قال تعالى - أنا صابنا الماء صبا ثم شققنا الأرض شققاً فابتنا فيها حياً وعنباً - وقال عز وجل - فأرسلنا إليهم باروخاً فتمثل لها بشراً سوياً - ثم قال تعالى - فنفضنا فيها من روحنا وكان النافع جبريل عليه

يضيق عنها نطاق العقل لأنها تستمد من كلمات الله التي تنفذ البحر دون نقادها والعقل ترجمان يؤدي البصيرة إليه من ذلك شطراً كما يؤدي القلب إلى اللسان بعض ما فيه ويستأثر ببعضه دون اللسان ولهذا المعنى من حمد على مجرد العقل من غير الامتناء بنور الشرع حظى بعوالم الكائنات التي هي من الملك والملك ظاهر الكائنات ومن استضاء عقله بنور الشرع تأيد بالبصيرة فاطلع على الملكوت والملكوت باطن الكائنات اختص بمكاشفته أرباب البصائر

السلام وكما قال تعالى - فاذا قرأناه فاتبع قرآنه - قيل في التفسير معناه إذا قرأه عليك جبريل - وقال تعالى - قاتلواهم بغيرهم الله بأيديكم - فأضاف القتل إليهم والتعذيب إلى نفسه والتعذيب هو عين القتل بل صرح وقال تعالى - فلم تقتلواهم ولكن الله قتلهم - وقال تعالى - وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى - وهو جمع بين النفي والإثبات ظاهرا ولكن معناه وما رميت بالمعنى الذي يكون الرب به راميا إذ رميت بالمعنى الذي يكون العبد به راميا ، إذ هما معنيان مختلفان . وقال الله تعالى - الذي علم بالقلم علم الإنسان ما لم يعلم - ثم قال - الرحمن علم القرآن - وقال - علمه البيان - وقال - ثم إن علينا ياناه - وقال - أفأرأيتم ما تمنون أأنتم تخلقونه أم نحن الخالقون - ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في وصف ملك الأرحام « إنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة في يده ثم يصورها جسدا ، فيقول يارب أذكر أم أنثى أسوى أم معوج فيقول الله تعالى ماشاء ويخلق الملك <sup>(١)</sup> » وفي لفظ آخر « ويصور الملك ثم ينفخ فيه الروح بالسعادة أو بالشقاوة » . وقد قال بعض السلف إن الملك الذي يقال له الروح هو الذي يولج الأرواح في الأجساد ، وأنه يتنفس بوصفه فيكون كل نفس من أنفاسه روحا يلج في جسم ولذلك سمى روحا وما ذكره في مثل هذا الملك وصفته فهو حق شاهده أرباب القلوب يصائرهم فأما كون الروح عبارة عنه فلا يمكن أن يعلم إلا بالنقل والحكم به دون النقل تخمين مجرد وكذلك ذكر الله تعالى في القرآن من الأدلة والآيات في الأرض والسموات ثم قال - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - . وقال - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فبين أنه الدليل على نفسه وذلك ليس متناقضا بل طرق الاستدلال مختلفة فكم من طالب عرف الله تعالى بالنظر إلى الموجودات ، وكم من طالب عرف كل الموجودات بالله تعالى كما قال بعضهم عرفت ربي بربي ولولا ربي لما عرفت ربي وهو معنى قوله تعالى - أولم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وقد وصف الله تعالى نفسه بأنه الحي والميت ثم فوض الموت والحياة إلى ملكين في الخبر « أن ملكي الموت والحياة تناظرا ، فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء ، وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله تعالى إليهما كونا على عملكما وما سخرتكما له من الصنع وأنا المهيأ والمهيأ لا يميت ولا يحيي سواي <sup>(٢)</sup> » فاذن الفعل يستعمل على وجوه مختلفة فلا تتناقض هذه المعاني إذا فهمت ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للذي ناوله التمرة « خذها لولم تأنها لأنتك <sup>(٣)</sup> » أضاف الاتيان إليه وإلى التمرة ، ومعلوم أن التمرة لا تأتي على الوجه الذي يأتي الإنسان إليها وكذلك لما قال التائب أتوب إلى الله تعالى ولا أتوب إلى محمد فقال صلى الله عليه وسلم « عرف الحق لأهله <sup>(٤)</sup> »

(١) حديث وصف ملك الأرحام أنه يدخل الرحم فيأخذ النطفة بيده ثم يصورها جسدا الحديث البزار وابن عدى من حديث عائشة إن الله تبارك وتعالى حين يريد أن يخلق الخلق يبعث ملكا فيدخل الرحم فيقول يارب ماذا الحديث وفي آخره ثم امن شيء إلا وهو يخلق معه في الرحم وفي سنده جهالة وقال ابن عدى إنه منكر ، وأصله متفق عليه من حديث ابن مسعود بنحوه (٢) حديث إن ملك الموت والحياة تناظرا فقال ملك الموت أنا أميت الأحياء وقال ملك الحياة أنا أحيي الموتى فأوحى الله إليهما أن كونا على عملكما الحديث لم أجده أصلا (٣) حديث قال للذي ناوله التمرة خذها لولم تأنها لأنتك ابن حبان في كتاب روضة العقلاء من رواية هذيل بن شرحبيل ووصفه الطبراني عن هذيل عن ابن عمر ورجاله رجال الصحيح (٤) حديث إنه قال للذي قال أتوب إلى الله ولا أتوب إلى محمد عرف الحق لأهله تقدم في الزكاة .

والقول دون الجامدين  
على مجرد القول دون  
البصائر وقد قال بعضهم  
إن العقل عقلان عقل  
لله داية مسكنه في القلب  
وذلك للمؤمنين الموقنين  
ومتعمله في الصديقين  
عيني الفؤاد والعقل  
الآخر مسكنه في الدماغ  
ومتعمله في الصديقين  
عيني الفؤاد قبل الأول  
يدبر أمر الآخرة ،  
وبالشأن يدبر أمر  
الدنيا والذي ذكرناه  
أنه عقل واحد إذا  
تأيد بالبصيرة دبر  
الأمرين وإذا تفرد  
دبر أمرا واحدا وهو  
أوضح وأبين ، وقد  
ذكرنا في أول الباب  
من تديره للنفس  
الطمشة والأمانة

فكل من أضاف الكل إلى الله تعالى فهو المحقق الذي عرف الحق والحقيقة ومن أضافه إلى غيره فهو التجوز والمستعير في كلامه والتجوز وجه كما أن الحقيقة وجهها واسم الفاعل وضعه واضع اللغة للمخترع ولكن ظن أن الانسان مخترع بقدرته فيها فاعلا بحركته وظن أنه تحقيق وتوهم أن نسبته إلى الله تعالى على سبيل المجاز مثل نسبة القتل إلى الأمير فانه مجاز بالاضافة إلى نسبته إلى الجلال فلما انكشف الحق لأهله عرفوا أن الأمر بالعكس وقالوا إن الفاعل قد وضعت أي اللغوى للمخترع فلا فاعل إلا الله فالاسم له بالحقيقة وليس به بالمجاز أي تجوز به عما وضعه اللغوى له ولما جرى حقيقة للفق على لسان بعض الأعراب قصدا أو اتفاقا صدقه رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال «أصدق بيت قاله الشاعر قول لبيد: • ألا كل شيء ما خلا الله باطل •» (١) أي كل ما لا تقوم له بنفسه وإنما قوامه بغيره فهو باعتبار نفسه باطل وإنما حقيقته وحقيقته بغيره لا بنفسه فاذن لا حق بالحقيقة إلا الخالق القويم الذي ليس كمثله شيء فانه قائم بذاته وكل ما سواه قائم بقدرته فهو الحق وما سواه باطل ولذلك قال سهل: يا مسكين كان ولم تكن ويكون ولا تكون فلما كنت اليوم صرت تقول أنا وأنا كُن الآن كُن لم تكن فانه اليوم كما كان. فان قلت قد ظهر الآن أن الكل جبر فله معنى الثواب والعقاب والنصب والرضا وكيف غضبه على فعل نفسه. فاعلم أن معنى ذلك قد أشرنا إليه في كتاب الشكر فلان طول بعادته فهذا هو القدر الذي رأينا الرمز إليه من التوحيد الذي يورث حال التوكل ولا يتم هذا إلا بالإيمان بالرحمة والحكمة فان التوحيد يورث النظر إلى مسبب الأسباب والإيمان بالرحمة وسعها هو الذي يورث الثقة بمسبب الأسباب ولا يتم حال التوكل كما سياتي إلا بالثقة بالوكيل وطمأنينة القلب إلى حسن نظر الكفيل وهذا الإيمان أيضا باب عظيم من أبواب الإيمان وحكاية طريق المكاشفين فيه تطول فلنذكر حاصله ليمتدده الطالب لمقام التوكل اعتقادا قاطعا لا يترتب فيه وهو أن يصدق تصديقا يقينا لا يضاف فيه ولا يرب أن الله عز وجل لو خلق الخلق كلهم على عقل أعقلهم وعلم أعلمهم وخلق لهم من العلم ما يحتمله نفوسهم وأفاض عليهم من الحكمة ما لا منتهى لوصفها ثم زاد مثل عدد جميعهم علما وحكمة وغفلا ثم كشف لهم عن عواقب الأمور وأطلهم على أسرار اللسكوت وعرفهم دقائق اللطف وخفايا العقوبات حتى اطلعوا به على الخير والشر والنفع والضرر ثم أمرهم أن يدبروا الملك والملكوت بما أعطوا من العلوم والحكم لما اقتضى تدبير جميعهم مع التعاون والتظاهر عليه أن يزداد فيما دبر الله سبحانه الخلق به في الدنيا والآخرة جناح بعوضة ولأن ينقص منها جناح بعوضة ولأن يرفع منها ذرة ولا أن يغفص منها ذرة ولا أن يدفع مرض أوعيب أو نقص أو فقر أو ضرر عن بلى به ولا أن يزال همه أو كمال أو غنى أو نفع عن أنعم الله به عليه بل كل ما خلقه الله تعالى من السموات والأرض إن رجعوا فيها البصر وطولوا فيها النظر مارا أو افيها من مخاوت ولا فطور وكل ما قسم الله تعالى بين عباده من رزق وأجل وسرور وحزن وهجز وقدرة وإيمان وكفر وطاعة ومعصية فكله عدل محض لا جور فيه وحق صرف لا ظلم فيه بل هو على الترتيب الواجب الحق على ما ينبغي وكما ينبغي وبالقدر الذي ينبغي وليس في الامكان أصلا أحسن منه ولا أنم ولا أكل ولو كان وادخره مع القدرة ولم يتفضل بفضله لكان بخلا يناقض الجود وظلما يناقض العدل ولو لم يكن قادرا لكان عجزا يناقض الألوية بل كل فقر وضرف الدنيا فهو نقصان من الدنيا وزيادة في الآخرة وكل نقص في الآخرة بالاضافة إلى شخص فهو نعيم بالاضافة إلى غيره إذ لولا الليل لما عرف قدر النهار ولولا المرض لما تيمم الأصحاء بالصحة ولولا النار

ما يبتغى الانسان به إلى كونه عقلا واحدا • وبدا بالبصرة تارة ومنفردا بوصفه تارة والله اللهم للصاب [ الباب السابع والخمسون في معرفة الحواطر وتفصيلها وتمييزها ]

أخبرنا شيخنا أبو النجيب للسروردي قال أخبرنا أبو الفتح الهروي قال أنا أبو نصر الترياقى قال أنا أبو محمد الجراحي قال أنا أبو العباس المحسوبي قال أنا أبو عيسى الترمذى قال أنا هناد قال أنا أبو الأحوص عن عطاء بن السائب عن مرة الحمداى عن عبد الله بن مسعود

(١) حديث أصدق بيت قالته الرب بيت لبيد : • ألا كل شيء ما خلا الله باطل •

متفق عليه من حديث أبي هريرة بلنظ قاله الشاعر وفي رواية لمسلم أشعر كلة تكلمت بها العرب



لما عرف أهل الجنة قدر النعمة وكأن فداء أرواح الانس بأرواح البهائم وتسلطهم على ذبحها ليس بظلم بل تقديم الكامل على الناقص عين العدل فكذلك تفخيم النعم على سكان الجنان بتعظيم القوة على أهل النيران وفداء أهل الايمان بأهل الكفران عين العدل وما لم يخلق الناقص لا يعرف الكامل ولولا خلق البهائم لما ظهر شرف الإنس فان الكمال والنقص يظهر بالاضافة فقتضى الجود والحكمة خلق الكامل والناقص جميعا وكما أن قطع اليد إذا تأكلت إبقاء على الروح عدل لأنه فداء كامل بناقص فكذلك الأمر في التفاوت الذي بين الخلق في القسمة في الدنيا والآخرة فكل ذلك عدل لا جور فيه وحق لا لب فيه وهذا الآن بحر آخر عظيم العمق واسع الأطراف مضطرب الأمواج قريب في السعة من بحر التوحيد فيه غرق طوائف من القاصرين ولم يعلموا أن ذلك غرض لا يقبله إلا المالمون ووراء هذا البحر سر القدر الذي تحير فيه الأكثرون ومنع من إفشاء سره المكاشفون . والحاصل أن الخير والشر مقضى به وقد كان ماقضى به واجب الحصول بعد سبق الشيئة فلا راد لحكمه ولا معقب لقضائه وأمره بل كل صغير وكبير مستطر وحصوله بقدر معلوم منتظر وما أصابك لم يكن ليخطئك وما أخطأك لم يكن ليصيبك ، ولتقتصر على هذه الرامز من علوم المكاشفة التي هي أصول مقام التوكل ولترجع إلى علم العامة إن شاء الله تعالى وحسبنا الله ونعم الوكيل .

الشرط الثاني من الكتاب : في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل وبيان ما قاله الشيوخ في حد التوكل وبيان التوكل في الكسب للمنفرد والعامل وبيان التوكل بترك الادخار وبيان التوكل في دفع الضرر وبيان التوكل في إزالة الضرر بالتداوى وغيره والله الموفق برحمته .

#### بيان حال التوكل

قد ذكرنا أن مقام التوكل ينتظم من علم وحال وعمل وذكرنا العلم فأما الحال فالتوكل بالتحقيق عبارة عنه وإنما العلم أصله والعمل ثمرة وقد أكثر الخاضعون في بيان حد التوكل واختلفت عباراتهم وتكلم كل واحد عن مقام نفسه وأخبر عن حده كما جرت عادة أهل التصوف به ولا فائدة في النقل والاكتثار فلنكشف الغطاء عنه ونقول : التوكل مشتق من الوكالة يقال وكل أمره إلى فلان أي فوضه إليه واعتمد عليه فيه ويسمى الوكول إليه وكلا ويسمى للفوض إليه متوكلا عليه ومتوكلا عليه مهما اطمأنت إليه نفسه ووثق به ولم يتهمه فيه بتقصير ولم يعتقد فيه عجزا وقصورا فالتوكل عبارة عن اعتماد القلب على الوكيل وحده ولنضرب للوكيل في الخصومة مثلا فنقول : من ادعى عليه دعوى باطلة بتلبس فوكيل للخصومة من يكشف ذلك التلبس لم يكن متوكلا عليه ولا واثقا به ولا مطمئن النفس بتوكيله إلا إذا اعتقديه أربعة أمور : منتهى الهداية ومنتهى القوة ومنتهى الفصاحة ومنتهى الشفقة أما الهداية فليعرف بها مواقع التلبس حتى لا يخفى عليه من غوامض الخيل شيء أصلا وأما القدرة والقوة فليستجري على التصريح بالحق فلا يدهن ولا يخاف ولا يستحي ولا يخجل فانه ربما يطلع على وجه تلبس خصمه فيحتمل الخوف أو الجبن أو الحياء أو صارف آخر من الصوارف المضفة للقلب عن التصريح به وأما الفصاحة فهي أيضا من القدرة إلا أنها قدرة في اللسان على الافصاح عن كل ما استجريا القلب عليه وأشار إليه فلا كل عالم بمواقع التلبس قادر بذلاقة لسانه على حل عقدة التلبس وأما منتهى الشفقة فيكون باعتنا له على بذل كل ما يقدر عليه في حقه من المجهود فان قدرته لا تنفى دون العناية به إذا كان لاهمه أمره ولا يبالى به ظفر خصمه أو لم يظفر هلك به حقه أو لم يهلك فان كان شاكا في هذه الأربعة أو في واحدة منها أو جوز أن يكون خصمه في هذه الأربعة أكل منه لمطمئن نفسه إلى وكيله بل بقي منزيع القلب مستغرق الهم بالحيلة والتدبير ليدفع ما يحذر من تصور

رضي الله عنه قال قال  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم «إن للشیطان لمة  
بابن آدم ولله لمة  
فألمة الشيطان فإبعاد  
بالشر وتكذيب بالحق  
وألمة لللك فإبعاد  
بالخير وتصديق بالحق  
فمن وجد ذلك فليعلم  
أنه من الله فليحمد الله  
ومن وجد الأخرى  
فليتموذ بالله من  
الشیطان ثم قرأ  
الشیطان بعدكم الفقر  
ويأمركم بالفحشاء - »  
وإنما يتطلع إلى معرفة  
الدين وتميز الخواطر  
طالب يريد يتشوق إلى  
ذلك تشوق العطشان  
إلى الماء لما يعلم من  
وقع ذلك وخطره  
وفلاحه وصلاحه

وكيله وسطوة خصمه ويكون تفاوت درجة أحواله في شدة الثقة والطمأنينة بحسب تفاوت قوة اعتقاده لهذه الحاصل فيه والاعتقادات والظنون في القوة والضعف تفاوت تفاوتاً لا ينحصر فلا جرم تفاوت أحوال التوكلين في قوة الطمأنينة والثقة تفاوتاً لا ينحصر إلى أن ينتهي إلى اليقين الذي لا ضعف فيه كما لو كان الوكيل والدلول كل وهو الذي يسعى لجمع الحلال والحرام لأجله فانه يحصل له يقين ينتهي الشفقة والعناية فتصير خصلة واحدة من الحاصل الأربعة قطعية وكذلك سائر الحاصل يتصور أن يحصل القطع به وذلك بطول الممارسة والتجربة وتواتر الأخبار بأنه أفصح الناس لساناً وأقواماً بياناً وأقدرهم على نصرة الحق بل على تصوير الحق بالباطل والباطل بالحق فإذا عرفت التوكل في هذا المثال نقس عليه التوكل على الله تعالى فإن ثبت في نفسك بكشف أو باعتقاد جازم أنه لا فاعل إلا الله كما سبق واعتقدت مع ذلك تمام العلم والقدرة على كفاية العباد ثم تمام العطف والعناية والرحمة بمحنة العباد والآحاد وأنه ليس وراء منتهى قدرته قدرة ولا وراء منتهى علمه علم ولا وراء منتهى عنايته بك ورحمته لك عناية ورحمة اكمل لعمالة قلبك عليه وحده ولم ياتفت إلى غيره بوجه ولا إلى نفسه وحوله وقوته فانه لا حول ولا قوة إلا بالله كما سبق في التوحيد عند ذكر الحركة والقدرة فإن الحول عبارة عن الحركة والقوة عبارة عن القدرة فإن كنت لا تجد هذه الحالة من نفسك فسيه أحد أمرين إما ضعف اليقين بأحدى هذه الحاصل الأربعة وإما ضعف القلب ومرضه باستيلاء الجبن عليه وإنزعاجه بسبب الأوهام الغالبة عليه فإن القلب قد يزعج تبعاً للوهم وطاعة له عن غير نقصان في اليقين فإن من يتناول عسلاً فشبه بين يديه بالعذرة ربما نقر طبعه وتغذر عليه تناوله ولو كلف العاقل أنه يبيت مع الليث في قبر أو فراش أو يبيت نقر طبعه عن ذلك وإن كان متيقناً بكونه ميتاً وأنه جراد في الحال وأن سنة الله تعالى مطردة بأنه لا يحصره الآن ولا يحيه وإن كان قادراً عليه كأنها مطردة بأن لا يقلب القلم الذي في يده حية ولا يقلب السور أسداً وإن كان قادراً عليه ومع أنه لا يشك في هذا اليقين ينفر طبعه عن مضاجعة الليث في فراش أو الليث معه في البيت ولا ينفر عن سائر الجمادات وذلك جبن في القلب وهو نوع ضعف قلنا يغلو الإنسان عن شيء منه وإن قل وقد يقوى فيصير مرضاً حتى يخاف أن يبيت في البيت وحده مع إغلاق الباب وإحكامه فاذن لا يتم التوكل إلا بقوة القلب وقوة اليقين جميعاً إذ بهما يحصل سكون القلب وطمأنينته فالسكون في القلب شيء واليقين شيء آخر فكم من يقين لا طمأنينة معه كما قال تعالى لإبراهيم عليه السلام - أولم تؤمن من قال بلى ولكن ليطمئن قلبي - فالتقوى أن يكون مشاهداً إحياء الليث بعينه ليثبت في خياله فإن النفس تتبع الخيال وتطمئن به ولا تطمئن باليقين في ابتداء أمرها إلى أن تبلغ بالآخرة إلى درجة النفس للطمئنة وذلك لا يكون في البداية أصلاً وكم من مطمئن لا يقين له كسائر أرباب الليل والنهار فإن اليهودي مطمئن القلب إلى تهوده وكذا النصراني ولا يقين لهم أصلاً وإنما يتبعون الظن وماتهموى الأنفس ولقد جاءهم من ربهم الهدى وهو سبب اليقين إلا أنهم معرضون عنه فاذن الجبن والجرأة غرائز ولا يتبع اليقين معانفها أحد الأسباب التي تضاد حال التوكل كأن ضعف اليقين بالحاصل الأربعة أحد الأسباب وإذا اجتمعت هذه الأسباب حصلت الثقة بالله تعالى وقد قيل مكتوب في التوراة لمؤمن من تمت إنسان مثله وقد قال عليه السلام «من استعز بالبيد أذله الله تعالى» (١) وإذا انكشف لك معنى التوكل وعلمت الحالة التي سميت توكلاً فاعلم أن تلك الحالة لها في القوة والضعف ثلاث درجات :

وفساده ويكون ذلك عبداً مراداً بالحظوة صفو اليقين ومنع اللوثين وأكسار التشوف إلى ذلك للمقربين ومن أخذ به في طريقهم ومن أخذ في طريق الأبرار قد يتشوف إلى ذلك بعض التشوف لأن التشوف إليه يكون على قدر الهمة والطلب والارادة والحظ ومن الله الكريم من هو في مقام عامة المؤمنين والمسلمين لا يتطاع إلى معرفة اللتين ولا يهتم بتمييز الخواطر ومن الخواطر ما هي رسل الله تعالى إلى العبد كما قال بعضهم لي قلب إن عصيته

(١) حديث من اعتر بالبيد أذله الله العقيلي في الضمراء وأبو نعيم في الحلية من حديث عمر أوردته العقيلي في ترجمة عبد الله بن عبد الله الأموي . وقال لا يتابع على حديثه وقد ذكره ابن جبان في الثقات وقال يخالف في روايته .

الدرجة الأولى : ما ذكرناه وهو أن يكون حاله في حق الله تعالى والثقة بكفالاته وعنايته كحالته في الثقة بالوكيل . الثانية : وهي أقوى أن يكون حاله مع الله تعالى كحال الطفل مع أمه فإنه لا يعرف غير هاولا يفرغ إلى أحد سواها ولا يستمد إلا إياها فإذا رآها تعلق في كل حال بذيلها ولم يغلبها وإن نابه أمر في غيبتها كان أول سابق إلى لسانه يأماه وأول خاطر يخطر على قلبه أمه فإنها مفرغه فانه قد وثق بكفالاتها وكفائتها وشفقها ثقة ليست خالية عن نوع إدراك بالتمييز الذي له ويظن أنه طبع من حيث إن الصبي لو طوب ب تفصيل هذه الحصال لم يقدر على تلقين لفظه ولا على إحضاره مفصلا في ذهنه ولكن كل ذلك وراء الإدراك فمن كان بالله إلى الله عز وجل ونظره إليه واعتماده عليه كاف به كما يكلف الصبي بأمه فيكون متوكلا حقا فإن الطفل متوكل على أمه والفرق بين هذا وبين الأول أن هذا متوكل وقد نفى في توكله عن توكله إذ ليس يلتفت قلبه إلى التوكل وحقيقته بل إلى التوكل عليه فقط فلا مجال في قلبه لغير التوكل عليه . وأما الأول فيتوكل بالتكلف والسكسب وليس فانيا عن توكله لأنه لا التفاتا إلى توكله وشعوره بذلك شغل صارف عن ملاحظة التوكل عليه وحده وإلى هذه الدرجة أشار سهل حيث سئل عن التوكل ما أدناه قال ترك الأمانى قيل وأوسطه قال ترك الاختيار وهو إشارة إلى الدرجة الثانية . وسئل عن أعلاه فلم يذكره وقال لا يعرفه إلا من بلغ أوسطه . الثالثة : وهي أعلاها أن يكون بين يدي الله تعالى في حركاته وسكناته مثل الليث بين يدي الغامل لا يفارقه إلا في أنه يرى نفسه ميتا تحركه القدرة الأزلية كما تحرك يد الغامل الليث وهو الذي قوى يقينه بأنه مجرى للحركة والقدرة والارادة والعلم وسائر الصفات وأن لا يحدث جبرا فيكون باثنا عن الانتظار لما يجرى عليه ويفارق الصبي فإن الصبي يفرغ إلى أمه ويصيح ويتعلق بذيلها ويسدو خلفها بل هو مثل صبي علم أنه وإن لم يزق بأمه فالأم تطلبه وأنه وإن لم تعلق بذيل أمه فالأم تعمله وإن لم يسألها اللبن فالأم تغامعه وتقيه وهذا التمام في التوكل يثمر ترك الدعاء والسؤال منه ثقة بكرمه وعنايته وأنه يعطى ابتداء أفضل مما يسأل فسكن من نعمة ابتداء قبل السؤال والدعاء وبغير الاستحقاق والتمام الثاني لا يقتضى ترك الدعاء والسؤال منه وإنما يقتضى ترك السؤال من غيره فقط . فان قلت فهذه الأحوال هل تصورها وجودها . فاعلم أن ذلك ليس بحال ولكنه عزيز نادر والتمام الثاني والثالث أعزها والأول أقرب إلى الامكان ثم إذا وجد الثالث والثاني فدوامه أبعد منه بل يكاد لا يكون التمام الثالث في دوامه إلا كمصفرة الوجه فان انبساط القلب إلى ملاحظة الحول والقوة والأسباب طبع وانقباضه عارض كما أن انبساط الدم إلى جميع الأطراف طبع وانقباضه عارض والوجه عبارة عن انقباض الدم عن ظاهر البشرة إلى الباطن حتى تتمحى عن ظاهر البشرة الحرارة التي كانت ترى من وراء الرقيق من ستر البشرة فان البشرة ستر رقيق تراه من وراء حرمة الدم وانقباضه يوجب الصفرة وذلك لا يدوم وكذا انقباض القلب بالكلية عن ملاحظة الحول والقوة وسائر الأسباب الظاهرة لا يدوم وأما التمام الثاني فيشبه صفرة المحموم فانه قد يدوم يوما ويومين والأول يشبه صفرة مريض استحكم مرضه فلا يبعد أن يدوم ولا يبعد أن يزول . فان قلت فهل يبقى مع العبد تدبير وتعلق بالأسباب في هذه الأحوال ؟ فاعلم أن التمام الثالث ينفي التدبير رأسا مادامت الحالة باقية بل يكون صاحبها كالمهتوت والتمام الثاني ينفي كل تدبير إلا من حيث الفرع إلى الله بالدعاء والابتهاال كتدبير الطفل في التعلق بأمه فقط والتمام الأول لا ينفي أصل التدبير والاختيار ولكن ينفي بعض التدبيرات كالمتوكل على وكيله في الحصومة فانه يترك تدبيره من جهة غير الوكيل ولكن لا يترك التدبير الذي أشار إليه وكيله به أو التدبير الذي عرفه من عادته وسنته دون صريح إشارته فأما الذي يعرفه بإشارته بأن يقول له لست أتكلم إلا في حضورك فيشتغل لا محالة بالتدبير للحضور ولا يكون هذا مناقضا متوكله عليه إذ ليس هو فزعامة

عصيت الله وهذا حال  
عبد استقام قلبه  
واستقامة القلب  
اطمأنينة النفس وفي  
طمأنينة النفس يأمن  
الشیطان لأن النفس  
كلما تحركت كدّرت  
صفو القلب وإذا  
تكدر طمع الشيطان  
وقرب منه لأن صفاء  
القلب محفوف بالتذكر  
والرعاية ولذا ذكر نور  
بقية الشيطان كاتقاء  
أحسنا النار . وقد  
ورد في الخبر إن  
الشیطان جاثم على  
قلب ابن آدم فإذا  
ذكر الله تعالى تولى  
وخس وإذا غفل  
التقم قلبه فذمه ومناه  
وقال الله تعالى ومن  
يشئ عن ذمرك

إلى حول نفسه وقوته في إظهار الحجة ولا إلى حول غيره بل من تمام توكله عليه أن يفعل ما رسمه له إذ لو لم يكن متوكلاً عليه ولا ممتداً له في قوله لما حضر قوله وأما للعلوم من عادته واطراد سنته فهو أن يعلم من عادته أنه لا يحتاج الحزم إلا من السجل فقام توكله إن كان متوكلاً عليه أن يكون محولاً على سنته وعادته ووافياً بمقتضاها وهو أن يعمل السجل مع نفسه إليه عند هماسته فاذن لا يستغنى عن التدبير في الحضور وعن التدبير في إحضار السجل ولوترك شيئاً من ذلك كان قصراً في توكله فكيف يكون فعله تصافيه ، ثم بعد أن حضر وفاء بأشارته وأحضر السجل وفاء بسنته وعادته وقد ناظرا إلى محاجته قد يقضى إلى المقام الثاني والثالث في حضوره حتى يبقى كالمجهول ينتظر لا يخرج إلى حوله وقوته إذ لم يبق له حول ولا قوة وقد كان فزعاً إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل بإشارة الوكيل وسنته وقد انتهى نهايته فلم يبق إلا طمأنينة النفس والثقة بالوكيل والانتظار لما يجري وإذا تأملت هذا اندفع عنك كل إشكال في التوكل وفهمت أنه ليس من شرط التوكل ترك كل تدبير وعمل وأن كل تدبير وعمل لا يجوز أيضاً مع التوكل بل هو على الانقسام وسأأتى تفصيله في الأعمال فإذا فزع التوكل إلى حوله وقوته في الحضور وإحضار السجل فالتوكل لأنه يعلم أنه لولا الوكيل لكان حضوره وإحضاره باطلاً وتعباً محضاً بلا جدوى فاذن لا يصير مفيداً من حيث إنه حوله وقوته بل من حيث إن الوكيل جله ممتداً لمحاجته وعرفه ذلك بأشارته وسنته فاذن لا حول ولا قوة إلا بالوكيل إلا أن هذه الكلمة لا يكمل معناها في حق الوكيل لأنه ليس خالقاً حوله وقوته بل هو جاعل لهما مفيداً في أنفسهما ولم يكونا مفيدين لولا فعله وإعماصه في حق الوكيل الحق وهو الله تعالى إذ هو خالق الحول والقوة كما سبق في التوحيد وهو الذي جعلهما مفيدين إذ جعلهما مشروطاً بما خلقه من بعدهما من الفوائد والمقاصد فاذن لا حول ولا قوة إلا بالله حقاً وصداقاً فمن شاهد هذا كله كان له الثواب العظيم الذي وردت به الأخبار فيمن يقول لا حول ولا قوة إلا بالله<sup>(١)</sup> وذلك قد يستبعد فيقال كيف يعطى هذا الثواب كله بهذه الكلمة مع سهولتها على اللسان وسهولة اعتقاد القلب بفهم لفظها وهيئات فانما ذلك جزاء على هذه الشهادة التي ذكرناها في التوحيد ونسبة هذه الكلمة وثوابها إلى كلمة لا إله إلا الله وثوابها كنسبة معنى إحداها إلى الأخرى إذ في هذه الكلمة إضافة شيتين إلى الله تعالى فقط وهما الحول والقوة ، وأما كلمة لا إله إلا الله فهو نسبة الكل إليه فانظر إلى التفاوت بين الكل وبين شيتين لتعرف به ثواب لا إله إلا الله بالإضافة إلى هذا وكما ذكرنا من قبل أن للتوحيد قرينين ولين فكذا لك هذه الكلمة ولما اثر الكلمات وأكثر الخلق قيدوا بالقرينين وما طرقتوا إلى القيين وإلى اللين الإشارة بقوله صلى الله عليه وسلم «من قال لا إله إلا الله صادقا من قلبه غلظت عليه الحجة»<sup>(٢)</sup> وحيث أطلق من غير ذكر الصدق والاحلاص أراد بالطلق هذا القيد كما أنصاف الغفرة إلى الإيمان والعمل الصالح في بعض المواضع وأضافها إلى مجرد الإيمان في بعض المواضع والراد به القيد بالعمل الصالح فالملك لا ينال بالحديث وحركة اللسان حديث وعقد القلب أيضاً حديث ولكنه حديث نفس وإعما الصدق والإخلاص وراءها ولا ينصب سرير الملك إلا للقرينين وهم المخلصون ، ثم لمن يقرب منهم في الرتبة من أصحاب القيين أيضاً درجات عند الله تعالى وإن كانت لا تنتهي إلى الملك أماترى أن الله سبحانه لما ذكر في سورة الواقعة القرينين السابقين تعرض لسرير الملك فقال - على

(١) أحاديث ثواب قول لا حول ولا قوة إلا بالله تقدمت في الدعوات (٢) حديث من قال لا إله إلا الله صادقا غلظت عليه الحجة وأبو يعلى من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

الرحمن تقيض له  
شيطاناً فموله قرين -  
وقال الله تعالى - إن  
الذين اتقوا إذا مسهم  
طائف من الشيطان  
تذكروا فإذا هم  
مبصرون - فبالنقوى  
وجود خالص الذكر  
وبها يفتح بابه ولا  
يزال العبد يتقى حتى  
يحمى الجوارح من  
المكارة ثم يحمى من  
الفضول وما لا يصبه  
ففسير أقواله وأفعاله  
ضرورة ثم تنتقل  
تقواه إلى باطنه ويظهر  
الباطن ويقيد عن  
المكارة ثم من الفضول  
حتى يتقى حديث النفس  
قال سهل بن عبد الله  
أسوأ للمعاصي حديث  
النفس ويرى الإصغاء

سرر موضونة متكئين عليها متقابلين - ولما انتهى إلى أصحاب البين مازاد على ذكر الماء والظل  
والفواكه والأشجار والحوار العين وكل ذلك من لذات المنظور والشروب والمأكل والنكوح ويتصور  
ذلك للبهائم على الدوام وأين لذات البهائم من لذة الملك والنزول في أعلى عليين في جوار رب العالمين  
ولو كان لهذه اللذات قدر لها وسعت على البهائم ولم أرعت عليها درجة الملائكة أفترى أن أحوال البهائم  
وهي مسية في الرياض متمتعة بالماء والأشجار وأصناف المأكولات متمتعة بالنزوان والسفاد أعلى  
والنواشرف وأجدر بأن تكون عند ذوى السكال مغبوبة من أحوال الملائكة في سرورهم وأقرب  
من جوار رب العالمين في أعلى عليين هيات هيات ما أبعد عن التحصيل من إذا خير بين أن يكون  
حماراً أو يكون في درجة جبريل عليه السلام فيختار درجة الحمار على درجة جبريل عليه السلام وليس  
يخفى أن شبه كل شيء منجذب إليه وأن النفس التي نزوعها إلى صنعة الأساكفة أكثر من نزوعها  
إلى صنعة الكتابة فهو بالأساكفة أشبه في جوهره منه بالكتاب وكذلك من نزوع نفسه إلى نيل  
لذات البهائم أكثر من نزوعها إلى نيل لذات الملائكة فهو بالبهائم أشبه منه بالملائكة لا محالة وهؤلاء  
هم الذين يقال فيهم - أولئك كالأنعام بل هم أضل - وإنما كانوا أضل لأن الأنعام ليس في قوتها طلب  
درجة الملائكة فتركها الطاب للعجز ، وأما الإنسان ففي قوته ذلك والقادر على نيل السكال أخرى بالذم  
وأجدر بالنسبة إلى الضلال مهما تقاعد عن طلب السكال. وإذا كان هذا كلاماً مقترضاً فلنرجع إلى المقصود  
فقد بينا معنى قول لا إله إلا الله ومعنى قول لا حول ولا قوة إلا بالله وأن من ليس قائلاً بهما عن مشاهدة  
فلا يتصور منه حال التوكل . فإن قلت ليس في قولك لا حول ولا قوة إلا بالله إلا نسبة شيئين إلى الله  
فوقال قائل السماء والأرض خلق الله فهل يكون ثوابه مثل ثوابه ؟ فأقول : لا ، لأن الثواب على قدر درجة  
المثاب عليه ولا مساواة بين الدرجتين ولا ينظر إلى عظم السماء والأرض وصغر الحول والقوة إن جاز  
وصفهما بالصغر تجوز أقلية الأمور بعظم الأشخاص بل كل عاى يفهم أن الأرض والسماء ليستا من  
جهة آدميين بل هما من خالق الله تعالى فأما الحول والقوة فقد أشكل أمرهما على المعتزلة والفلاسفة  
وطوائف كثيرة ممن يدعى أنه يدقق النظر في الرأي والمعقول حتى يشق الشعر بعدة نظره فهي مهلكة  
مخطرة ومزلة عظيمة هلك فيها العاقلون إذ أنبتوا لأنفسهم أمراً وهو شرك في التوحيد وإثبات خالق  
نوى الله تعالى فمن جاوز هذه العقبة بتوفيق الله تعالى إياه فقد علت رتبته وعظمت درجته فهو  
الذى يصدق قول لا حول ولا قوة إلا بالله وقد ذكرنا أنه ليس في التوحيد إلا عقبتان . إحداهما : النظر  
إلى السماء والأرض والشمس والقمر والنجوم والقيم والمطر وسائر الجمادات . والثانية : النظر إلى اختيار  
الحيوانات وهي أعظم العقبتين وأخطرها وبقطعها كمال سر التوحيد فلذلك عظم ثواب هذه الكلمة  
أعنى ثواب المشاهدة التي هذه الكلمة ترجعها فإذا رجع حال التوكل إلى التبرى من الحول والقوة  
والتوكل على الواحد الحق وسيوضح عند ذكرنا تفصيل أعمال التوكل إن شاء الله تعالى .

#### بيان ما قاله الشيوخ في أحوال التوكل

ليتين أن شيئاً منها لا يخرج عما ذكرنا ولكن كل واحد يشير إلى بعض الأحوال فقد قال أبو موسى  
الدبلي قلت لأبي يزيد ما التوكل ؟ فقال ما تقول أنت قلت إن أصحابنا يقولون لو أن السباع والأفاعي  
عن عينك ويسارك ما تحرك لذلك شرك فقال أبو يزيد نعم هذا قريب ولكن لو أن أهل الجنة في الجنة  
يتممون وأهل النار في النار يعذبون ثم وقع بك تمييز بينهما خرجت من جملة التوكل فإذا ذكره أبو موسى  
فهو خبر عن أجل أحوال التوكل وهو المقام الثالث وما ذكره أبو يزيد عبارة عن أعز أنواع العلم  
الذى هو من أصول التوكل وهو العلم بالحكمة وأن ما مله الله تعالى فعله بالواجب فلا تمييز بين أهل النار

إلى ما يحدث به النفس  
ذنباً فيتقيه ويتقصد  
القلب عند هذا الاتقاء  
بالذكر انتقاد السكواكب  
في كبد السماء وبصير  
القلب مماء عن غواظ بزيئة  
كواكب الله كذا فإذا  
صار كذلك بعد  
الشیطان ومثل هذا  
البد يسدر في حقه  
الخواطر الشيطانية  
ولماته ويكون له  
خواطر النفس ويحتاج  
إلى أن يتقيا ويعيها  
بالعلم لأن منها خواطر  
لا يضر إمضاؤها  
كطالبات النفس  
بحاجاتها وحاجاتها  
تقسم إلى الحقوق  
والحظوظ ويتعين  
التمييز عند ذلك واتهام  
النفس بمطالبات

وأهل الجنة بالإضافة إلى أصل العدل والحكمة وهذا أغضى أنواع العلم ووراه سر القدر وأبو يزيد قلنا تكلم إلا عن أعلى المقامات وأقصى الدرجات وليس ترك الاحتراز عن الحياة شرطاً في المقام الأول من التوكل فقد احتراز أبو بكر رضي الله عنه في الغار إذ سدد منافذ الحيات (١) إلا أن يقال فعل ذلك برحله ولم يتغير بسببه سره أو يقال إنما فعل ذلك شفقة في حق رسول الله صلى الله عليه وسلم لا في حق نفسه وإنما يزول التوكل بتحريك سره وتغييره لأمر يرجع إلى نفسه وللنظر في هذا الجمل ولكن سيأتي بيان أن أمثال ذلك وأكثر منه لا يناقض التوكل فإن حركة السر من الحيات هو الخوف وحق التوكل أن يخاف مسلط الحيات إذ لا حول للحيات ولا قوة لها إلا بالله فإن احترازه لم يكن اكسالة على تدبيره وحوله وقوته في الاحتراز بل على خالق الحول والقوة والتدبير . وسئل ذو النون المصري عن التوكل فقال خلغ الأرباب وقطع الأسباب فخلغ الأرباب إشارة إلى علم التوحيد وقطع الأسباب إشارة إلى الأعمال وليس فيه تعرض صريح للحال وإن كان اللفظ يتضمنه فقيل له زدنا فقال إلقاء النفس في العبودية وإخراجها من الربوبية وهذا إشارة إلى التبري من الحول والقوة فقط . وسئل حمدون القصار عن التوكل فقال إن كان لك عشرة آلاف درهم عليك دائنق دين لم تأمن أن تموت ويبق دينك في عنقك ولو كان عليك عشرة آلاف درهم دين من غير أن تترك لها وفاء لا تأمن من الله تعالى أن يقضيها عنك وهذا إشارة إلى مجرد الإيمان بسعة القدرة وأن في القدورات أسباباً خفية سوى هذه الأسباب الظاهرة وسئل أبو عبد الله القرشي عن التوكل فقال التعلق بالله تعالى في كل حال فقال السائل زدني فقال تترك كل سبب يوصل إلى سبب حتى يكون الحق هو التولي لذلك فالأول مقام للمقامات الثلاث والثاني إشارة إلى المقام الثالث خاصة وهو مثل توكل إبراهيم صلى الله عليه وسلم إذ قال له جبريل عليه السلام ألك حاجة فقال أما إليك فلا، إذ كان سؤاله سبباً يفضي إلى سبب وهو حفظ جبريل له فترك ذلك ثقة بأن الله تعالى إن أراد سخر جبريل لذلك فيكون هو التولي لذلك وهذا حال مبهوت غائب عن نفسه بالله تعالى فلم يرمعه غيره وهو حال عزيز في نفسه ودوامه إن وجد أبعد منه وأعز . وقال أبو سعيد الخزاز التوكل اضطراب بلا سكون وسكون بلا اضطراب ولعله يشير إلى المقام الثاني فسكونه بلا اضطراب إشارة إلى سكون القلب إلى الوكيل وتفتت به واضطراب بلا سكون إشارة إلى فزعه إليه واهتاله وتضرعه بين يديه كاضطراب الطفل بيديه إلى أمه وسكون قلبه إلى تمام شفقتها . وقال أبو علي الدقاق التوكل ثلاث درجات التوكل ثم التسليم ثم التفويض فالتوكل يسكن إلى وعده والسلم يكفي بطله وصاحب التفويض يرضى بحكمه وهذا إشارة إلى تفاوت درجات نظره بالإضافة إلى المنظور إليه فإن العلم هو الأصل والوعد يتبعه والحكم يتبع الوعد ولا يبعد أن يكون الغالب على قلب المتوكل ملاحظة شيء من ذلك وللشيوخ في التوكل أقوال شتى ما ذكرناه فلا نطول بها فإن الكشف أنفع من الرواية والقل فهذا ملحق بحال التوكل والله الموفق برحمته واطفه .

#### بيان أعمال المتوكلين

اعلم أن العلم يورث الحال والحال يشمر الأعمال وقد يظن أن معنى التوكل ترك الكسب بالبدن وترك التدبير بالقلب والسقوط على الأرض كالخرقة الملقاة وكاللاحم على الوضغ وهذا ظن الجهال فإن ذلك حرام في الشرع والشرع قد أتى على المتوكلين فكيف ينال مقام من مقامات الدين بمحظورات الدين بل نكشف الغطاء عنه ونقول إنما يظهر تأثير التوكل في حركة العبد وسعيه بطله إلى مقاصده وسعي العبد باختياره إما أن يكون لأجل جلب نافع هو مفقود عنده كالسكب أو لحفظ نافع هو موجود عنده كالادخار أو لدفع ضرر لم ينزل به كدفع الصائل والسارق والسباع أو لإزالة ضرر قد نزل به

الحظوظ قال الله تعالى  
يا أيها الذين آمنوا  
إن جاءكم فاسق بنبأ  
فتبينوا - أي فتبينوا  
وسبب نزول الآية  
الوليد بن عتبة حيث  
بعثه رسول الله صلى  
الله عليه وسلم إلى بني  
المصطلق فكذب عليهم  
ونسبهم إلى الكفر  
والعصيان حتى هم  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم بقتالهم ثم  
بعث خالد إليهم فسمع  
أذان القرب والمشاء  
ورأى ما يدل على  
كذب الوليد بن عتبة  
فأنزل الله تعالى الآية  
في ذلك فظهر الآية  
وسبب نزولها ظاهر  
وصار ذلك تنبيهاً من  
الله عباده على التثبت

(١) حديث إن أبا بكر سدد منافذ الحيات في الغار شفقة على النبي صلى الله عليه وسلم تقدم .

كالتداوى من المرض فتمسود حركات العبد لاتعدو هذه الصنوع الأربعة وهو جلب النافع أو حفظه أو دفع الضار أو قطعه فانذكر شروط التوكل ودرجاته في كل واحد منها مقرونا بشواهد الشرع .

[ الفن الأول : في جلب النافع ] فقول فيه : الأسباب التي بها يجلب النافع على ثلاث درجات مقطوع به ومفنون ظنا يوثق به وموهوم وهما لاشق النفس به نفع تامة ولاطمئن إليه . الدرجة الأولى : المقطوع به ، وذلك مثل الأسباب التي ارتبطت المسببات بها بتقدير الله ومشيئته ارتباطا مطردا لا يختلف كما أن الطعام إذا كان موضوعا بين يديك وأنت جائع محتاج ولكنك لست تعد اليد إليه وتقول أنا متوكل ، وشروط التوكل ترك السعي ومد اليد إليه سعي وحركة وكذلك مضغه بالأسنان وابتلاعه بإطباق أعالى الخنك على أساقفه فهذا جنون محض وليس من التوكل في شيء فانك إن انتظرت أن يخلق الله تعالى فيك شيئا دون الحيز أو يخلق في الحيز حركة إليك أو يسخر ملكا ليضغه لك ويوصله إلى معدتك فقد جهلت سنة الله تعالى وكذلك لو لم تزرع الأرض وطمعت في أن يخلق الله تعالى نباتا من غير بذر أو تلد زوجتك من غير وقاع كما ولدت مريم عليها السلام فكل ذلك جنون وأمثال هذا مما يكثر ولا يمكن إحصاؤه فليس التوكل في هذا اللقاع بالعمل بل بالحال والعلم . أما العلم . فهو أن تعلم أن الله تعالى خلق الطعام واليد والأسنان وقوة الحركة وأنه هو الذي يطعمك ويسقيك . وأما الحال فهو أن يكون سكون قلبك واعتمادك على فعل الله تعالى لاهي اليد والطعام وكيف تعتمد على صحة يدك وربما تحف في الحال وتفجع ، وكيف تعمل على قدرتك وربما يطرأ عليك في الحال ما يزيل عقلك ويطل قوة حركتك ، وكيف تعمل على حضور الطعام ، وربما يسلط الله تعالى من يهلكك عليه أو يمت حية تزحجك عن مكانك وتفترق بينك وبين طعامك . وإذا احتمل أمثال ذلك ولم يكن لها علاج إلا بفضل الله تعالى فبذلك فلتفرح وعليه فلتقول فإذا كان هذا حاله وعلمه فليعد اليد فانه متوكل . الدرجة الثانية : الأسباب التي ليست متيقنة ولكن الغالب أن المسببات لا تحصل دونها وكان احتمال حصولها دونها بعيدا كالذي يفارق الأمصار والقوافل ويسافر في البوادي التي لا يطررها الناس إلا نادرا ويكون سفره من غير استصحاب زاد فهذا ليس شرطا في التوكل بل استصحاب الزاد في البوادي سنة الأولين ، ولا يزول التوكل به بعد أن يكون الاعتماد على فضل الله تعالى لاهي الزاد كما سبق ولكن فعل ذلك جائز . وهو من أعلى مقامات التوكل ولذلك كان يفعله الخواص فان قلت : فهذا سعي في الهلاك وإلقاء النفس في التهلكة . فاعلم أن ذلك يخرج عن كونه حراما بشرطين : أحدهما أن يكون الرجل قد راض نفسه وجاهدها وسواها على الصبر عن الطعام أسبوعا وما يقاوبه بحيث يصبر عنه بلا ضيق قلب وتشوش خاطر وتعذر في ذكر الله تعالى . والثاني أن يكون بحيث يقوى على التقوى بالحشيش وما ينفق من الأشياء الحسيسة فبعد هذين الشرطين لا يخلو في غالب الأمر في البوادي في كل أسبوع عن أن يلقاه آدمي أو ينتهي إلى حلة أو قرية أو إلى حشيش يجترى به فيجيبه به مجاهدا نفسه . والمجاهدة عماد التوكل وعلى هذا كان يعمل الخواص ونظراؤه من التوكلين . والدليل عليه أن الخواص كان لاتفارقه الإبرة والقراض والحبل والركرة ويقول . هذا لا يقدح في التوكل . وسببه أنه علم أن البوادي لا يكون للقاء فيها على وجه الأرض وما جرت سنة الله تعالى بصعود الماء من البر فيريد لدلو ولا حبل ولا يفلج وجود الحبل والدلو في البوادي كما يفلج وجود الحشيش والماء يحتاج إليه لوضوئه كل يوم مرات ولمعطشه في كل يوم أو يومين مرة فان المسافر مع حرارة الحركة لا يصبر عن الماء وإن صبر عن الطعام

في الأمور قال سهل في هذه الآية القاسق الكذاب والكذب صفة النفس لأنها تميل إلى أشياء وتسول أشياء على غير حقائقها فتبين الثبوت عند خاطرها وإلقائها فيجعل العبد خاطره النفس نبأ يوجب التثبت ولا يستغفزه الطبع ولا يستعجله الهوى فقد قال بعضهم أدنى الأدب أن تقف عند الجهل ، وآخر الأدب أن تقف عند الشبهة . ومن الأدب عند الاشتباه إزاله الخاطر بحرك النفس وخالفها وبارئها وفاطرها وإظهار الفقر والفاقة إليه والاعتراف

وكذلك يكون له ثوب واحد وربما يتخرق فتكشف عورته ولا يوجد القراض والابرة في البوادي  
غالباً عند كل صلاة ولا يقوم مقامهما في الحياطة والقطع شيء مما يوجد في البوادي فكل ما في معنى هذه  
الأربعة أيضا يلحق بالدرجة الثانية لأنه مظنون ظناً ليس مقطوعاً به لأنه محتمل أن لا يتخرق الثوب  
أو يسطيه إنسان ثوباً أو يجد على رأس البئر من يسقيه ولا يحتمل أن يتحرك الطعام ممضوفاً إلى فيه  
فبين الدرجتين فرقان ولكن الثاني في معنى الأول ولهذا نقول لو انحاز إلى شعب من شعاب الجبال حيث  
لاماء ولا حشيش ولا بطرقه طارق فيه وجلس متوكلاً فهو آثم به ساع في هلاك نفسه كما روى أن زاهداً  
من الزهاد فارق الأمصار وأقام في سفح جبل سبعا وقال لانسأل أحداً شيئاً حتى يأتيني ربي رزقي فقد  
سبعا فكاد يموت ولم يأتيه رزق فقال يارب إن أحييتني فأتني برزقي الذي قسمت لي وإلا فاقبضني إليك  
فأوحى الله جل ذكره إليه وعزني لأرزقك حتى تدخل الأمصار وتقتدين الناس فدخل مصر وقد  
لجأه هذا بطعام وهذا شراب فأكل وشرب وأوحى في نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت  
أن تذهب حكمتي بزهدك في الدنيا أما علمت أني أن أرزق عبدي بأيدي عبادي أحب إلي من أن أرزقه  
يد قدرتي فإذا التباعد عن الأسباب كلها مراغمة للحكمة وجهل بسنة الله تعالى والعمل بموجب سنة  
الله تعالى مع الاتكال على الله عز وجل دون الأسباب لا يناقض التوكل كما ضربناه مثلاً في الوكيل  
بالخصومة من قبل ولكن الأسباب تنقسم إلى ظاهرة وإلى خفية فمضى التوكل الاكتفاء بالأسباب الخفية  
عن الأسباب الظاهرة مع سكون النفس إلى مسبب السبب لا إلى السبب. فان قلت لما قولك في القعود في البلد  
بغير كسب أهو حرام أو مباح أو مندوب. فاعلم أن ذلك ليس بحرام لأن صاحب السياحة في البادية إذا لم  
يكن مهلكاً نفسه فهذا كيف كان لم يكن مهلكاً نفسه حتى يكون فعله حراماً بل لا يبعد أن يأتيه الرزق  
من حيث لا يحتسب ولكن قديماً أخر عنه والصبر ممكن إلى أن يتفق ولكن لو أغلق باب البيت على  
نفسه بحيث لا طريق لأحد إليه ففعله ذلك حرام وإن قنع باب البيت وهو بطل غير مشغول بعبادة  
فالكسب والخروج أولى له ولكن ليس فعله حراماً إلا أن يشرف على الموت فعند ذلك يلزمه الخروج  
والسؤال والكسب وإن كان مشغول القلب بالله غير مستشرف إلى الناس ولا متطلع إلى من يدخل  
من الباب فيأتيه رزقه بل تطلعه إلى فضل الله تعالى واشتغاله بالله فهو أفضل وهو من مقامات التوكل  
وهو أن يشتغل بالله تعالى ولا يهتم برزقه فان الرزق يأتيه لامحالة وعند هذا يصح ما قاله بعض العلماء  
وهو أن العبد لو هرب من رزقه لطلبه كما لو هرب من الموت لأدركه وإنه لو سأل الله تعالى أن لا يرزقه  
لما استجاب وكان عاصياً وقال له يا جاهل كيف أخلقك ولا أرزقك، ولذلك قال ابن عباس رضي الله  
عنهما اختلف الناس في كل شيء إلا في الرزق والأجل فاتهم أجمعوا على أن لا رزق ولا ميت إلا الله تعالى  
وقال صلى الله عليه وسلم «لو توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير تغدو خفافاً وتروح  
بطاناً وزالت بدعائكم الجبال»<sup>(١)</sup> وقال عيسى عليه السلام: انظروا إلى الطير لا تزرع ولا تحصد ولا  
تدخر والله تعالى يرزقها يوماً بيوم. فان قلتم نحن أكبر بطوناً فانظروا إلى الأنعام كيف يقض الله تعالى  
لها هذا الحق للرزق. وقال أبو يعقوب السوسي التوكلون تجرى أرزاقهم على أيدي العباد بلا تعب  
منهم وغيرهم مشغولون مكسودون. وقال بعضهم العبيد كلهم في رزق الله تعالى لكن بعضهم يأكل

بالجهل وطلب العرفة  
والعونة منه فإنه إذا  
أتى بهذا الأدب يثاب  
ويمان ويتبين له هل  
الخاطر لطلب حظاً أو  
طلب حق فإن كان  
للحق أمضاء وإن كان  
للحظ نفاذ وهذا  
التوقف إذا لم يتبين  
له الخاطر بظاهر العلم  
لان الافتقار إلى باطن  
العلم عند فقد الدليل  
في ظاهر العلم ثم من  
الناس من لا يسه في  
صحته إلا الوقوف على  
الحق دون الحظ وإن  
أمضى خاطر الحظ بصبر  
ذلك ذنب حاله فيستغفر  
منه كما يستغفر من  
الذنوب ومن الناس  
من يدخل في تناول  
الحظ ويمضي خاطره

(١) حديث لو توكلتم على الله حق توكله الحديث وزاد في آخره وزالت بدعائكم الجبال وقد تقدم  
قريباً دون هذه الزيادة فرواها الإمام محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة من حديث معاذ  
ابن جبل باسناد فيه لين لو عرقتهم الله حق معرفته لمشيتم على البحور وزالت بدعائكم الجبال ورواه  
البيهقي في الزهد من رواية وهيب الكشي مرسلًا دون قوله لمشيتم على البحور وقال هذا منقطع



بذل كالسؤال وبعضهم يتعب وانتظار كالتجار وبعضهم بامتنان كالصانع وبعضهم بعز كالصوبة يشهدون العزيز فيأخذون رزقهم من يده ولا يرون الواسطة . الدرجة الثالثة : ملابسة الأسباب التي يتوكل بها فإضاؤها إلى للسيئات من غير ثقة ظاهرة كالذي يستغنى في التدبيرات الدقيقة في تفصيل الاكتساب ووجوهه وذلك يخرج بالسكية عن درجات التوكل كلها وهو الذي فيه الناس كلهم أغنى من يكتسب بالحيل الدقيقة اكتسابا مباحا لمال مباح فأما أخذ الشبهة أو اكتساب بطريق فيه شبهة فذلك غاية الحرص على الدنيا والاتكال على الأسباب فلا يغنى أن ذلك يطل التوكل وهذا مثل الأسباب التي نسبتها إلى جلب النافع مثل نسبة الرقية والطيرة والكي بالإضافة إلى إزالة الضرر فإن النبي صلى الله عليه وسلم وصف التوكلين بذلك ولم يصفهم بأنهم لا يكتسبون ولا يسكنون الأمصار ولا يأخذون من أحد شيئا بل وصفهم بأنهم يتعاطون هذه الأسباب وأمثال هذه الأسباب التي يوثق بها في السيئات مما يكثر فلا يمكن إحصاؤها . وقال سهل في التوكل إنه ترك التدبير وقال إن الله خلق الخلق ولم يعجبهم عن نفسه وإنما عجبهم بتدبيرهم ولعله أراد به استنباط الأسباب البعيدة بالفكر فهي التي تحتاج إلى تدبير دون الأسباب الجلية فاذن قد ظهر أن الأسباب منقسمة إلى ما يخرج التعلق بها عن التوكل وإلى ما لا يخرج عن التوكل عند وجود حال التوكل وعلمه وهو الاتكال على مسبب الأسباب فالتوكل فيها بالحال والعلم لا بالعمل . وأما المظنونيات فالتوكل فيها بالحال والعلم والعمل جميعا والمتوكلون في ملابسة هذه الأسباب على ثلاثة مقامات : الأول : مقام الخواص ونظرائه وهو الذي يدور في البوادي بغير زاد ثقة بفضل الله تعالى عليه في تقويته على الصبر أسبوعا وما فوقه أو تيسير حشيش له أو قوت أو تثبيتته على الرضا بالموت إن لم يتيسر شيء من ذلك فإن الذي يحمل الزاد قد يفقد الزاد أو يضل بغيره ويموت جوعا فذلك يمكن مع الزاد كما أنه يمكن مع فقده . المقام الثاني : أن يقعد في بيته أو في مسجد ولكنه في القرى والأصاير وهذا أصنف من الأول ولكنه أيضا متوكل لأنه تارك للكسب والأسباب الظاهرة معوله على فضل الله تعالى في تدبير أمره من جهة الأسباب الخفية ولكنه بالعود في الأمصار متعرض لأسباب الرزق فإن ذلك من الأسباب الجالبة إلا أن ذلك لا يطل توكله إذا كان نظره إلى الذي يسحره سكان البلد لا يصل رزقه إليه لا إلى مكان البلد إذ يتصور أن يغفل جميعهم عنه ويضيعوه لولا فضل الله تعالى بتبريقهم وتحريك دواعيهم . المقام الثالث : أن يخرج ويكتسب اكتسابا على الوجه الذي ذكرناه في الباب الثالث والرابع من كتاب آداب الكسب وهذا السمر لا يخرجها أيضا عن مقامات التوكل إذ لم يكن طمأنينة نفسه إلى كفايته وقوته وجاهه وبضاعته فإن ذلك ربما يهلكه الله تعالى جميعه في لحظة بل يكون نظره إلى الكفيل الحق يحفظ جميع ذلك وتيسير أممابه له بل يرى كسبه وبضاعته وكفايته بالإضافة إلى قدرته تعالى كما يرى القلم في يد الملك الوقع فلا يكون نظره إلى القلم بل إلى قلب الملك أنه بماذا يتحرك وإلى ماذا يميل وبم يحكم ثم إن كان هذا المكتسب مكتسبا لعياله أو لفرق على الساكنين فهو يئده مكتسب وبقليه عنه منقطع خلال هذا أشرف من حال القاعد في بيته . والدليل على أن الكسب لا ينافي حال التوكل إذا روعيت فيه الشروط وأضاف إليه الحال والمعرفة كاسبق أن الصديق رضي الله عنه لما بوع بالخلافة أصبح أخذ الأتواب تحت حضنه والذراع بيده ودخل السوق ينادي حتى كرهه المسلمون وقالوا كيف تفعل ذلك وقد أملت الخلافة النبوة فقال لا تشغلوني عن عيالي فاني إن أضعتهم كنت لاسواهم أضيع حتى فرضوا له قوساً هل بيت من المسلمين قد ارضوا بذلك رأى مساعدتهم وتطبيب قلوبهم واستغراق الوقت بمصالح المسلمين أولى ويستحيل أن يقال لم يكن الصديق

بمزيد علم لديه من الله وهو علم السعة لعبد مأذون له في السعة عالم بالأذن فيحصى خاطر الحظ والمراد بذلك على بصيرة من أمره يحسن به ذلك ويليق به عالم بزيادته وتقصانه عالم بحاله يحكم لحلم الحال وعلم القيام لا يقاس على حاله ولا يدخل فيه بالتقليد لأنه أمر خاص لعبد خاص وإذا كان شأن العبد تميز خواطر التفرغ في مقام تخلصه من لسات الشيطان تكثر لديه خواطر الحق وخواطر الملك وتصير خواطر الأربعة في حقه ثلاثا ويسقط خاطر الشيطان إلا

في مقام التوكل فمن أولى بهذا المقام منه فدل على أنه كان متوكلا لا باعتبار ترك الكسب والسعي بل باعتبار قطع الالتفات إلى قوته وكفايته والعلم بأن الله هو ميسر الاكتساب ومدبر الأسباب وبشروط كان يراعيها في طريق الكسب من الاكتفاء بقدر الحاجة من غير استكثار وتفاخر وادخار ومن غير أن يكون درهمه أحب إليه من درهم غيره فمن دخل السوق ودرمه أحب إليه من درهم غيره فهو حريص على الدنيا ومحب لها ولا يصح التوكل إلا مع الزهد في الدنيا نعم يصح الزهد دون التوكل فإن التوكل مقام وراء الزهد . وقال أبو جعفر الحداد وهو شيخ الجنيد رحمه الله عليهما وكان من التوكلين : أخفيت التوكل عشرين سنة وما فارقت السوق كنت أكتسب في كل يوم دينارا ولا أبيت منه دافعا ولا أستريح منه إلى قبراط أدخل به الحمام بل أخرجه كله قبل الليل وكان الجنيد لا يتكلم في التوكل بحضرة وكان يقول استحي أن أتكلم في مقامه وهو حاضر عندي . واعلم أن الجالوس في رباطات الصوفية مع معلوم بعيد من التوكل فإن لم يكن معلوم ووقف وأمروا الخادم بالخروج للطلب لم يصح معه التوكل إلا على ضعف ولكن يقوى بالحال والعلم كتوكل المكتسب وإن لم يسألوا بل قنعوا بما يعمل إليهم فهذا أقوى في توكلهم لكنه بعد اشتهار القوم بذلك قد صار لهم سوقا فهو كدخول السوق ولا يكون داخل السوق متوكلا إلا بشروط كثيرة كما سبق . فان قلت لما الأفضل أن يمدنى بيته أو يخرج ويكتسب ؟ . فاعلم أنه إن كان يتفرغ بترك الكسب لفكر وذكر وإحلاس واستغراق وقت بالعبادة وكان الكسب يشوش عليه ذلك وهو مع هذا لا تستشرف نفسه إلى الناس في انتظار من يدخل عليه فيحمل إليه شيئا بل يكون قوى القلب في الصبر والاتكال على الله تعالى فالقعود له أولى وإن كان يضطرب قلبه في البيت ويستشرف إلى الناس فالكسب أولى لأن استشراف القلب إلى الناس سؤال بالقلب وتركه أهم من ترك الكسب وما كان التوكلون يأخذون ما استشرف إليه نفوسهم . كان أحمد بن حنبل قد أمر أبا بكر المروزي أن يعطى بعض الفقراء شيئا فضلا عما كان استأجره عليه فردده فلما ولي قال له أحمد الحق وأعطه فانه يقبل فالحقه وأعطاه فأخذه فسأل أحمد عن ذلك فقال كان قد استشرفت نفسه فرد فلما خرج انقطع طعمه وأيس فأخذ . وكان الخواص رحمه الله إذا نظر إلى عبد في العطاء أو خاف اعتياد النفس لذلك لم يقبل منه شيئا . وقال الخواص بعد أن سئل عن أعجب ما رآه في أسفاره رأيت الحضرة ورضى بصحبتي ولكني فارقت خيفة أن تسكن نفسي إليه فيكون نقصا في توكلتي فاذن للكاتب إذا راعى آداب الكسب وشروط نيته كما سبق في كتاب الكسب وهو أن لا يقصد به الاستكثار ولم يكن اعتماده على بضاعته وكفايته كان متوكلا . فان قلت لما علامة عدم اتكاله على البضاعة والكفاية . فأقول علامته أنه إن سرقت بضاعته أو خسرت تجارتها أو توفى أمر من أموره كان راضيا به ولم تبطل طمأنينته ولم يضطرب قلبه بل كان حال قلبه في السكون قبله وبعده واحدا فان من لم يسكن إلى شيء لم يضطرب لفقدته ومن اضطرب لفقد شيء فقد سكن إليه وكان بشر يعمل المغازل فتركها وذلك لأن البعادي كاتبه قال بلغني أنك استمنت على رزقك بالمغازل أرايت إن أخذ الله سمعك وبصرك الرزق على من ؟ فوقع ذلك في قلبه فأخرج آلة المغازل من يده وتركها وقيل تركها لما نوهت باسمه وقصد لأجلها وقيل فعل ذلك لما مات عياله كما كان لسفيان خمسون دينارا يتجر فيها فلما مات عياله فرقها . فان قلت فكيف يتصور أن يكون له بضاعة ولا يسكن إليها وهو يعلم أن الكسب بهير بضاعة لا يمكن . فأقول بأن يعلم أن الذين يرزقهم الله تعالى غير بضاعة فيهم كثرة وأن الذين كثرت بضاعتهم فسرفت وهلكت فيهم كثرة وأن يوطن نفسه على

نادرا لضيق مكانه من النفس لأن الشيطان يدخل بطريق اتساع النفس واتساع النفس باتباع الهوى والإخلاص إلى الأرض ومن ضائق النفس على التميز بين الحق والحظ ضاقت نفسه وسقط محل الشيطان إلا نادرا لدخول الابتلاء عليه ثم من المرادين المتعلقين بمقام المقرين من إذا صار قلبه سماء مزينا بزينة كوكب الذكر بصير قلبه سماويا يترقى ويعرج يباطنه ومعناه وحقيقته في طبقات السموات وكلما ترقى تضامل النفس المظلمة وتبعد عنه خواطرها حتى يجاوز السموات

أن الله لا يعمل به إلا ما فيه صلاحه فان أهلك بضاعته فهو خير له فقلعه لو تركه كان سببا لفساد دينه وقد لطف الله تعالى به وهايته أن يموت جوعا فينبغي أن يعتقد أن الموت جوعا خيرا له في الآخرة مهما قضى الله تعالى عليه بذلك من غير تقصير من جهته فاذا اعتقد جميع ذلك استوى عنده وجود البضاعة وعدمها ففي الخبر «إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضل له لكان فيه هلاكه فينظر الله تعالى إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه فيصبح كشيئا حزيننا يتطير بخاره وابن عمه من سبقتي من دهاني وماهي إلا رحمة رحمة الله بها (١)» ولذلك قال عمر رضي الله عنه لا بألي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي ومن لم يتكامل يقينه بهذه الأمور لم يتصور منه التوكل ولذلك قال أبو سليمان الداراني لأحمد بن أبي الخوارى لي من كل مقام نصيب إلا من هذا التوكل للبارك فاني ما شغمت منه راحة هذا كلامه مع علو قدره ولم ينكر كونه من المقامات الممكنة ولكنه قال ما أدركته ولله أراد إدراك أقصاه وما لم يكمل الإيمان بأن لا فاعل إلا الله ولا رازق سواه وأن كل ما يقدره على العبد من فقر وغنى وموت وحياة فهو خير له مما يتخناه العبد لم يكمل حال التوكل فبناء التوكل على قوة الإيمان بهذه الأمور كما سبق وكذا سائر مقامات الدين من الأقوال والأعمال تنبئ على أصولها من الإيمان . وبالجملة التوكل مقام مفهوم ولكن يستدعي قوة القلب وقوة اليقين ولذلك قال سهل من طعن على التكسب فقد طعن على السنة ومن طعن على ترك التكسب فقد طعن على التوحيد . فان قلت فهل من دواء ينتفع به في صرف القلب عن الركون إلى الأسباب الظاهرة وحسن الظن بالله تعالى في تيسير الأسباب الخفية . فأقول نعم هو أن تعرف أن سوء الظن بتلقين الشيطان وحسن الظن بتلقين الله تعالى قال الله تعالى - الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا - فان الانسان بطبعه مشغوف بسباع تخويف الشيطان ولذلك قيل الشفيق بسوء الظن مولع وإذا انغم إلى الجبن وضف القلب ومشاهدة التوكلين على الأسباب الظاهرة والباعثين عليها غلب سوء الظن وبطل التوكل بالكلية بل رؤية الرزق من الأسباب الخفية أيضا تبطل التوكل فقد حكى عن عابد أنه عكف في مسجد ولم يكن له معلوم قال له الامام لو اكتبته لكان أفضل لك فلم يجبه حتى أعاد عليه ثلاثا فقال في الرابعة يهودى في جوار المسجد قد ضمن لي كل يوم رغيفين فقال إن كان صادقا في ضمانه فكوفك في السجد خير لك فقال يا هذا لو لم تكن إماما تقف بين يدي الله وبين العباد مع هذا النص في التوحيد كان خيرا لك إذ فضلت وعد يهودى على ضمان الله تعالى بالرزق . وقال إمام السجدة لبعض المصلين من أين تأكل؟ قال يا شيخ اصبر حتى أعيد الصلاة التي صليتها خلفك ثم أجيبك . وينفع في حسن الظن بمجى الرزق من فضل الله تعالى بواسطة الأسباب الخفية أن تسمع الحكايات التي فيها عجائب صنع الله تعالى في وصول الرزق إلى صاحبه وفيها عجائب قهر الله تعالى في إهلاك أموال التجار والأغنياء وقتلهم جوعا كما روى عن حذيفة الرعشى وقد كان خدم إبراهيم بن آدم قميل له ما أعجب ما رأيت منه فقال بقينا في طريق مكة أياما لم نجد طعاما ثم دخلنا الكوفة فأوينا إلى مسجد خراب فنظر إلى إبراهيم وقال يا حذيفة أرى بك الجوع فقلت هو ما رأى الشيخ فقال على بدواة وقرطاس فكتبت به إليه فكتب :

بسم الله الرحمن الرحيم أنت المقصود إليه بكل حال والمشار إليه بكل معنى وكتب شعرا :

(١) حديث إن العبد ليهم من الليل بأمر من أمور التجارة مما لو ضل له لكان فيه هلاكه فينظر الله إليه من فوق عرشه فيصرفه عنه الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف جدا نحوه إلا أنه قال إن العبد ليشرق على حاجة من حاجات الدنيا الحديث بنحوه .

بمخرج باطنه كما كان ذلك لرسول الله صلى الله عليه وسلم بظاهره وقلبه فاذا استكمل العروج تنقطع عنه خواطر النفس لقسره بأنوار القرب وبعد النفس عنه وعند ذلك تنقطع عنه خواطر الحق أيضا لأن الخاطر رسول والرسالة إلى من بعد وهذا قريب وهذا الذي وصفناه نازل ينزل به ولا يدوم بل يعود في هبوطه إلى منازل مطالبات النفس وخواطره فتعود إليه خواطر الحق وخواطر الملك وذلك أن الخواطر تستدعي وجودا وما أشرنا إليه حال الفناء ولا خاطر فيه وخواطر

أنا حامد أنا شاكر أنا ذاكر أنا جائع أنا ضائع أنا عارى  
 هى ستة وأنا الضمين لنصفها فكُن الضمين لنصفها يابارى  
 مدحى لنفرك لخب نار خضتها فأجر عبيدك من دخول النار

ثم دفع إلى الرقة فقال اخرج ولا تعلق قلبك بغير الله تعالى وادفع الرقة إلى أول من يلقاك فخرجت فأول من لقينى كان رجلا على بئلة فناولته الرقة فأخذها فلما وقف عليها بكى وقال ماضل صاحب هذه الرقة فقلت هو فى المسجد الفلانى فدفع إلى صرة فيها ستمائة دينار ثم لقيت رجلا آخر فسأله عن ركب البئلة فقال هذا نصرانى فبشت إلى ابراهيم وأخبرته بالقصة فقال لا تمسها فانه يحسب الساعة فلما كان بعد ساعة دخل النصرانى وأكب على رأس ابراهيم يقبله وأسلم . وقال أبو يعقوب الأقطع البصرى : جئت مرة بالحرم عشرة أيام فوجدت ضعفا فحدثنى نفسى بالخروج فخرجت إلى الوادى لئلى أجد شيئا يسكن ضعفى فرأيت ساجمة مطروحة فأخذتها فوجدت فى قلبى منها وحشة وكان قائلا يقول لى جئت عشرة أيام وآخره يكون حظك سلجمة متيرة فرميت بها ودخلت المسجد وقعدت فإذا أنا برجل أعجمى قد أقبل حتى جالس بين يدى ووضع قطرة وقال هذالك فقلت كيف خصصتنى بها قال اعلم أنا كنا فى البحر منذ عشرة أيام وأشرفت السفينة على العرق فندرت إن خلصنى الله تعالى أن أتصدق بهذه على أول من يقع عليه بصرى من المجاورين وأنت أول من لقيته فقلت اقتحها ففتحها فإذا فيها سميد مصرى ولوز مقشور وسكر كهاب فقبضت قبضة من ذا وقبضة من ذا وقلت رد الباقى إلى أصحابك هدية منى إليكم وقد قبلتها ثم قلت فى نفسى رزقك يسير إليك من عشرة أيام وأنت تطلبه من الوادى : وقال عمشاد الدينوى : كان على دين فاشتغل قلبى بسببه فرأيت فى النوم كأن قائلا يقول يا غيل أخذت علينا هذا القدار من الدين خذ عليك الأخذ وعلينا العطاء فما حاسبت بعد ذلك بقالا ولا نصا ولا غيرها . وحكى عن بنان الجمال قال : كنت فى طريق مكة أجيء من مصر ومعى زاد فجاءتنى امرأة وقالت لى يا بنان أنت حمال تعمل على ظهرك الزاد وتوهم أنه لا يرزقك قال فرميت بزادى ثم أتى على ثلاث لم أكل فوجدت خائلا فى الطريق فقلت فى نفسى أحمله حتى يحسب صاحبه فرمى بى شيا فآرده عليه فإذا أنا بملك الرأة فقالت لى أنت تاجر تقول عسى يحسب صاحبه فأخذ منه شيئا ثم رمى لى شيئا من الدراهم وقالت ألقها فاكثفت بها إلى قريب من مكة . وحكى أن بنانا احتاج إلى جارية فخدمه فانبسط إلى إخوانه فجمعوا له منها وقالوا هو ذا يحسب النفير فنشترى ما يوافق فلما ورد النفير اجتمع رأيهم على واحدة وقالوا إنها تصلح له فقالوا لصاحبها بكم هذه فقال إنها ليست للبيع فألحوا عليه فقال إنها لبنان الجمال أهدتها إليه امرأة من ممرقند فحملت إلى بنان وذكرت له القصة . وقيل كان فى الزمان الأول رجل فى سفر ومعه قرص فقال إن أكلته مت فوكل الله عز وجل به ملكا وقال إن أكله فارزقه وإن لم يأكله فلا تعطه غيره فلم يزل القرص معه إلى أن مات ولم يأكله وبقي القرص عنده . وقال أبو سميد الحرّاز : دخلت البادية بغير زاد فأصابتنى فاقة فرأيت الرحلة من بعيد فسررت بأن وصلت ثم فكرت فى نفسى أتى سكنت واتسكنت على غيره وآليت أن لأدخل للرحلة إلا أن أحمل إليها فحفرت لنفسى فى الرمل حفرة وواريت جسدى فيها إلى صدرى فسمعت صوتا فى نصف الليل غالبا بأهل الرحلة إن لله تعالى وليا حبس نفسه فى هذا الرمل فالحقوه فجاء جماعة فأخرجونى وحملونى إلى القرية . وروى أن رجلا لازم باب عمر رضى الله عنه فإذا هو بقاتل يقول : يا هذا هاجرت إلى عمر أو إلى الله تعالى اذهب فتعلم القرآن فانه سيمنحك عن باب عمر فذهب الرجل وغاب حتى افتقده عمر فاذا هو قد اعتزل

الحق اتى فى لمكان  
 القرب وخاطر النفس  
 بعد عنه بعد النفس  
 وخاطر الملك تخلف عنه  
 كتحذاف جبريل فى ليلة  
 للمراج عن رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم  
 حيث قال . لودنوت  
 أئمة لا حترقت . قال  
 محمد بن على الترمذى  
 المحدث والكلام إذا  
 تحققاتى درجاتهم غافا  
 من حديث النفس  
 فكما أن النبوة  
 محفوفة من إلقاء  
 الشيطان كذلك محل  
 للكلمة والمحادثة  
 محفوفة من إلقاء النفس  
 وفتحتها وعروس بالحق  
 والسكينة لأن السكينة  
 حجاب للكلم والمحدث  
 مع نفسه . وصمحت

واشتغل بالعبادة فجاءه عمر فقال له إنى قد اشتقت إليك فما الذى شغلك عني فقال إنى قرأت القرآن فأغنانى عن عمر وآل عمر فقال عمر رحمك الله الذى وجدت فيه فقال وجدت فيه - وفى السماء رزقكم وما توعدون - فقلت رزقى فى السماء وأنا أطلبه فى الأرض فبكى عمر وقال صدقت فكان عمر بعد ذلك يأتيه ويجلس إليه . وقال أبو حمزة الخراسانى حجبت سنة من السنين فبينما أنا مشى فى الطريق إذ وقعت فى برى فإزعتنى نفسى أن أستغيث فقلت لا والله لا أستغيث فما استتممت هذا الخطر حتى مر برأس البررجلان فقال أحدهما للآخر تعال حتى نسد رأس هذا البرج لا يقع فيه أحد فأتوا بقصب وبارية وطحوار رأس البرج فهممت أن أصبح قتلتي فى نفسى إلى من أصبح هو أقرب منهما وسكنت فينا أنا بعد ساعة إذ أنا بشئ جاء وكشف عن رأس البرج وأدلى رجله وكأنه يقول تعلقين فى مهملة كنت أعرف ذلك فتعلقت به فأخرجنى فاذا هو سبع فرس وهتف بي هاتف يا أبا حمزة أليس هذا أحسن نجيتك من التلف بالتلف فشيت وأنا أقول:

نهائى حياى منك أن أكشف الهوى وأغنيتهى بالفهم منك عن الكشف  
تلطفت فى أمرى فأبدت شاهدى إلى غائبي واللاطف يدرك باللاطف  
ترأيت لى بالقيب حتى صكنا عما تبشرنى بالقيب أنك فى الكف  
أراك وبى من هيبى لك وحشة فتؤانى باللاطف منك وباللطف  
وتحى محبا أنت فى الحب حشفه وإذا حجب كون الحياة مع الخلف

وأمثال هذه الوقائع مما يكثر وإذا قوى الايمان به وانضم إليه القدرة على الجوع قدر أسبوع من غير ضيق صدر وقوى الايمان بأنه إن لم يسق إليه رزقه فى أسبوع فلموت خير له عند الله عز وجل ولذلك حبسه عنه . تم التوكل بهذه الأحوال والمشاهدات وإلا فلا يتم أصلا .

#### بيان توكل الميـل

اعلم أن من له عيال فحكه يفارق المنفرد لأن المنفرد لا يصح توكله إلا بأمرين : أحدهما قدرته على الجوع أسبوعا من غير استئراف وضيق نفس . والآخر أبواب من الايمان ذكرناها من جملتها أن يطيب نفسا بالموت إن لم يأت رزقه علما بأن رزقه الموت والجوع وهو وإن كان نقصا فى الدنيا فهو زيادة فى الآخرة فيرى أنه سيق إليه خير الرزقين له وهو رزق الآخرة وأن هذا هو المرض الذى به يموت ويكون راضيا بذلك وأنه كذا قضى وقدر له فبهذا يتم التوكل للمنفرد ولا يجوز تكليف الميال الصبر على الجوع ولا يمكن أن يقرر عندهم الايمان بالتوحيد وأن الموت على الجوع رزق منبوط عليه فى نفسه إن اتفق ذلك نادرا وكذا سائر أبواب الايمان فاذن لا يمكنه فى حقه إلا توكل المكتسب وهو المقام الثالث كتوكل أبى بكر الصديق رضى الله عنه إذ خرج للكسب فأما دخول البوادر وترك العيال توكل فى حقهم أو القعود عن الاهتمام بأمرهم توكل فى حقهم فهذا حرام وقد يفضى إلى هلاكهم ويكون هو مؤاخذا بهم بل التحقيق أنه لا فرق بينه وبين عياله فإنه إن ساعده العيال على الصبر على الجوع مدة وعلى الاعتداد بالموت على الجوع رزقا وغنيمة فى الآخرة فله أن يتوكل فى حقهم ونفسه أيضا عيال عنده ولا يجوز له أن يضعها إلا أن تساعد على الصبر على الجوع مدة فإن كان لا يطيقه ويضطرب عليه قلبه وتتشوش عليه عبادته لم يجز له التوكل . ولذلك روى أن أبا تراب النخعي نظر إلى صوفى مد يده إلى قشر بطيخ ليأكله بعد ثلاثة أيام فقال له لا يصلح لك التصوف أزم السوق أى لا تصوف إلا مع التوكل ولا يصح التوكل إلا لمن يصبر عن الطعام أكثر من ثلاثة أيام . وقال أبو على الروذبارى إذا قال الفقير بعد خمسة أيام أنا جائع فألزموه السوق ومروه بالعمل والكسب فاذن بدنه عياله وتوكله فيما يضر بدنه كتوكله فى عياله وإنما يفارقهم فى شئ واحد وهو أن له تكليف نفسه الصبر على الجوع

الشيخ أبا محمد بن  
عبد الله البصرى  
بالبصرة يقول الحواطر  
أربعة : خاطر من  
النفس واطر من  
الحق واطر من  
الشیطان واطر من  
الملك فأما الذى من  
النفس فيحس به من  
أرض القلب والذى  
من الحق من فوق  
القلب والذى من الملك  
عن يمين القلب والذى  
من الشيطان عن يسار  
القلب والذى ذكره  
إنما يصح لعباد أذاب  
نفسه بالقوى والزهد  
وتصفى وجوده واستقام  
ظاهره وباطنه  
فيكون قلبه كالمرآة  
الجلوة لا يأتيه  
الشیطان من ناحية

وليس له ذلك في عياله وقد انكشف لك من هذا أن التوكل ليس انقطاعا عن الأسباب بل الاعتماد على الصبر على الجوع مدة والرضا بالموت إن تأخر الرزق نادر أو ملازمة البلاد والأمصار أو ملازمة البوادي التي لا تغلو عن حشيش وما يجري مجراه فهذه كلها أسباب البقاء ولكن مع نوع من الأذى إذ لا يمكن الاستمرار عليه إلا بالصبر والتوكل في الأمصار أقرب إلى الأسباب من التوكل في البوادي وكل ذلك من الأسباب إلا أن الناس عدلوا إلى أسباب أظهر منها فلم يعدوا تلك أسبابا وذلك لضعف إيمانهم وشدة حرصهم وقلة صبرهم على الأذى في الدنيا لأجل الآخرة واستيلاء الجبن على قلوبهم بإساءة الظن وطول الأمل ومن نظر في ملكوت السموات والأرض انكشف له تحقيقاً أن الله تعالى دبر الملك والملكوت تدبيرا لا يجاوز العبد رزقه وإن ترك الاضطراب فإن العاجز عن الاضطراب لم يجاوز رزقه أما ترى الجنين في بطن أمه لما أن كان عاجزا عن الاضطراب كيف وصل سرته بالأم حتى تنتهي إليه فضلات غذاء الأم بواسطة السرة ولم يكن ذلك بحيلة الجنين ثم لما انفصل سبط الحب والشفقة على الأم لتكفله شاءت أم أبت اضطرابا من الله تعالى إليه بما أشعل في قلبها من نار الحب ثم لما لم يكن له سن يعض به الطعام جعل رزقه من اللبن الذي لا يحتاج إلى الضغ ولكنه لرخاوة مزاجه كان لا يحتمل الغذاء الكثيف فأدر له اللبن اللطيف في ثدي الأم عند انقصاله على حسب حاجته أفكان هذا بحيلة الطفل أو بحيلة الأم فإذا صار بحيث يواجه الغذاء الكثيف أثبت له أسنانا قواطع وطواحين لأجل المضغ فإذا كبر واستقل يسره أسباب التعلم وسلك سبيل الآخرة ، فحينئذ بعد البلوغ جهل بعض لأنه ما قصت أسباب معيشته يلوغ به زادت فإنه لم يكن قادرا على الاكتساب فالآن قد قدر فزادت قدرته ، نعم كان المشفق عليه شخصا واحدا وهي الأم أو الأب وكانت شفقة مفرطة جدا فكان يطعمه ويسقيه في اليوم مرة أو مرتين وكان إطعامه بتسليط الله تعالى الحب والشفقة على قلبه فكذلك قد سلط الله الشفقة واللودة والرقوة والرحمة على قلوب المسلمين بل أهل البلد كافة حتى إن كل واحد منهم إذا أحس بمحتاج تألم قلبه ورق عليه وانبعث له داعية إلى إزالة حاجته فقد كان الشفق عليه واحدا والآن للشفق عليه ألف وزيادة وقد كانوا لا يشفقون عليه لأنهم رأوه في كفالة الأم والأب وهو مشفق خاص لما رأوه محتاجا ولو رأوه يتما ساط الله داعية الرحمة على واحد من المسلمين أو على جماعة حتى يأخذونه ويكفلونه فمارؤى إلى الآن في منى الحصب يقيم قد مات جوعا مع أنه عاجز عن الاضطراب وليس له كافل خاص والله تعالى كافله بواسطة الشفقة التي خلقها في قلوب عباده فلماذا ينبغي أن يشتغل قلبه برزقه بعد البلوغ ولم يشتغل في الصبا وقد كان الشفق واحدا وللشفق الآن ألف ، نعم كانت شفقة الأم أقوى وأحظى ولكنها واحدة وشفقة آحاد الناس وإن ضعف فيخرج من مجموعها ما يفيد الفرض فكيف من يقيم قد يسر الله تعالى له حالا هو أحسن من حال من له أب وأم فينجبر ضعف شفقة الآحاد بكثرة المشفقين ويترك التتم والاقتصار على قدر الضرورة ولقد أحسن الشاعر حيث يقول :

جری قلم القضاء بما يكون فبيان التحرك والسكون

جنون منك أن تسمى لرزق ويرزق في غشاوته الجنين

فإن قلت الناس يكفلون القيم لأنهم يرونه عاجزا بصباه وأما هذا فبالغ قادر على الكسب فلا يلتفتون إليه ويقولون هو مثلنا فليجهد لنفسه . فأقول إن كان هذا القادر بطالا فقد صدقوا فعليه الكسب ولا معنى للتوكل في حقه فإن التوكل مقام من مقامات الدين يستعان به على التفرغ لله تعالى فلا للبطل والتوكل وإن كان مشتغلا بالله ملازما لمسجد أو بيت وهو مواظب على العلم والعبادة فالناس لا يلومونه في ترك الكسب ولا يكفلونه ذلك بل اشتغاله بالله تعالى يقرر حبه

إلا ويصره فإذا السود  
القلب وعلاء الرين  
لا يصير الشيطان .  
روى عن أبي هريرة  
رضي الله عنه عن  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « إن العبد  
إذا أذنب نكت في  
قلبه نكتة سوداء  
فإن هو نزع واستغفر  
وتاب صقل وإن عاد  
زبد فيه حتى تعلو قلبه  
قال الله تعالى - كلابل  
ران على قلوبهم  
ما كانوا يكسبون - »  
سمعت بعض العارفين  
يقول كلاما دقيقا  
كوشف به فقال الحديث  
في باطن الإنسان  
والخيال الذي تراه  
لباطنه وتخيل بين  
القلب وصفاء الله كـ

في قلوب الناس حتى يحملون إليه فوق كفايته وإنما عليه أن لا يفلق الباب ولا يهرب إلى جبل من بين الناس وما روى إلى الآن عالم أو عابد استغرق الأوقات بالله تعالى وهو في الأمصار هات جوعا ولا يرى قط بل لو أراد أن يطعم جماعة من الناس بقوله لقد ر عليه فان من كان لله تعالى كان الله عز وجل له ومن اشتغل بالله عز وجل ألقى الله حبه في قلوب الناس وسخر له القلوب كما سخر قلب الأم لولدها فقد دبر الله تعالى الملك والمكوت تديرا كافيا لأهل الملك والمكوت فمن شاهد هذا التدير وثق بالمدير واشتغل به وآمن ونظر إلى مدير الأسباب لا إلى الأسباب ، نعم ما دبره تديرا يصل إلى المشتغل به الخلو والطير السان والثياب الرقيقة والحيل النفيسة على الدوام لا محالة وقد يقع ذلك أيضا في بعض الأحوال لكن دبره تديرا يصل إلى كل مشغل بعبادة الله تعالى في كل أسبوع قرص شعير أو حشيش يتناول له محالة والغالب أنه يصل أكثر منه بل يصل ما يزيد على قدر الحاجة والكفاية فلا سبب لترك التوكل إلا رغبة النفس في التمتع على الدوام ولبس الثياب الناعمة وتناول الأغذية اللطيفة وليس ذلك من طريق الآخرة وذلك قد لا يحصل بغير اضطراب وهو في الغالب أيضا ليس يحصل مع الاضطراب وإنما يحصل نادرا وفي النادر أيضا قد يحصل بغير اضطراب فأثر الاضطراب ضعيف عند من اقتضت بصيرته فذلك لا يطمئن إلى اضطرابه بل إلى مدير الملك والمكوت تديرا لا يجاوز عبدا من عباده رزقه وإن سكن إلا نادرا ندورا عظيما يتصور مثله في حق المضطرب فإذا انكشفت هذه الأمور وكان معه قوة في القلب وشجاعة في النفس أتم ما قاله الحسن البصري رحمه الله إذ قال ووددت أن أهل البصرة في عيالي وأن حبة بدنيار . وقال وهيب بن الورد لو كانت السماء نحاسا والأرض رصاصا واهتممت برزقي لظننت أني مشرك فإذا فهمت هذه الأمور فهمت أن التوكل مقام مفهوم في نفسه ويمكن الوصول إليه لمن قهر نفسه وعلمت أن من أنكر أصل التوكل وإمكانه أنكره عن جهل فإياك أن تجمع بين الإفلاس من الإفلاس عن وجود اللقاه ذوقا والإفلاس عن الإيعان به علماء ، فأذن عليك بالقناعة بالزجر القليل والرضا بالقوت فإنه يأتيك لا محالة وإن فررت منه وعند ذلك على الله أن يبعث إليك رزقك على يدي من لا يحتسب فإن اشتغلت بالتقوى والتوكل شاهدت بالتجربة مصداق قوله تعالى - ومن يتق الله يجعل له مخرجا ويرزقه من حيث لا يحتسب - الآية ، إلا أنه لم يتكفل له أن يرزقه لحم الطير ولذا الله الأطعمة لما ضمن إلا الرزق الذي تدوم به حياته وهذا المضمون مبذول لكل من اشتغل بالضامن واطمأن إلى ضمانه فإن أدى أحاط به تدير الله من الأسباب الخفية للرزق أعظم مما ظهر للعقاق بل مداخل الرزق لا تحصى ومجاريه لا يهتدى إليها وذلك لأن ظهوره على الأرض وسببه في السماء قال الله تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأسرار السماء لا يطلع عليها ولهذا دخل جماعة على الجنيد فقال ماذا تطلبون ؟ قالوا نطلب الرزق فقال إن علمت أي موضع هو فاطلبوه قالوا نسال الله قال إن علمت أنه ينسأكم فذكروه فقالوا ندخل البيت وتوكل وننظر ما يكون فقال التوكل على التجربة شك قالوا فما الحيلة ؟ قال ترك الحيلة . وقال أحمد بن عيسى الحراز كنت في البداية فتألى جوع شديد فظلمت نفسي أن أسأل الله تعالى طعاما فقلت ليس هذا من أهالي التوكلين فظلمتني أن أسأل الله صبرا فلما هممت بذلك سمعت هاتفا يهتف بي ويقول :

ويزعم أنه منا قريب وأنا لا نضيق من أمانا

ويسألنا على الإحتار جهدا نحن لا نراه ولا يرانا

قد فهمت أن من انكسرت نفسه وقوى قلبه ولم يضعف بالجبن باطنه وقوى إيمانه بتدير الله تعالى كان مطمئن النفس أبدا واتقا بالله عز وجل فإن أسوأ حاله أن يموت ولا بد أن يأتيه الموت كما يأتي من

هو من القلب وليس هو من النفس وهذا بخلاف ما تقرر فسأله عن ذلك فذكر أن بين القلب والنفس مناهة ومعادنات وتألما وتوددا وكلا انطلقت النفس في شئ بهواها من القول والفعل فأثر القلب بذلك وتكدر فإذا عاد العبد من مواطن مطالبات النفس وأقبل على ذكره وحمل مناجاته وخدمته لله تعالى أقبل القلب بالمعابسة للنفس وذكر النفس عيشا من فعلها وقولها كاللأم للنفس والمغالب لها على ذلك فإذا كان الحاضر أول الفعل

ليس مطمئنا فاذن تمام التوكل بقناعة من جانب ووفاء بالمضمون من جانب والذى ضمن رزق القانعين بهذه الأسباب التى دبرها صادق فاقنع وجرب تشاهد صدق الوعد تحقيقا بما برطيك من الأرزاق الصعبة التى لم تكن فى ظنك وحسابك ولا تكن فى توكلك متظنرا للأسباب بل بسبب الأسباب كالآتى مستظنرا لقم السكاتب بل لقلب السكاتب فانه أصل حركة القلم والمحرك الأول واحد فلا ينبغي أن يكون النظر إلا إليه وهذا شرط توكل من يخوض البوادر بلازاد أو يقعد فى الأمصار وهو حامل وأما الذى له ذكر بالعبادة والعلم فاذا قنع فى اليوم واليلة بالطعام حمة واحدة كيف كان وإن لم يكن من اللذائف وثوب خشن يلبق بأهل الدين فهذا يأتيه من حيث يحسب ولا يحسب على الدوام بل يأتيه أضافه فتركه التوكل واهتمامه بالرزق غاية الضعف والقصور فان اشتد به سبب ظاهر يجلب الرزق إليه أقوى من دخول الأمصار فى حق الحامل مع الاكتساب فالاهتمام بالرزق قبيح بذوى الدين وهو بالعلماء أقبح لأن شرطهم القناعة والعالم القانع يأتيه رزقه ورزق جماعة كثيرة وإن كانوا معه إلا إذا أراد أن لا يأخذ من أيدي الناس ويأكل من كسبه فذلك له وجه لائق بالعالم العامل الذى سلوكه بظاهر العلم والعمل ولم يكن له سير بالباطن فان الكسب يمنع عن السير بالفكر الباطن فاشتغاله بالسلوك مع الأخذ من يد من يتقرب إلى الله تعالى بما يعطيه أولى لأنه تفرغ لله عز وجل وإعانة للمعطى على نيل الثواب ومن نظر إلى مجارى سنة الله تعالى علم أن الرزق ليس على قدر الأسباب ولذلك سأل بعض الأكاسرة حكما عن الأحق للرزوق والعاقل المحروم فقال أراد الصانع أن يدل على نفسه إذ لو رزق كل عاقل وحرر كل أحق لظن أن العقل رزق صاحبه فلما رأوا خلافه علموا أن الرزاق غيرهم ولا ثقة بالأسباب الظاهرة لهم ، قال الشاعر :

ولو كانت الأرزاق تجري على الحجا هلصكن إذن من جهلن البهائم

( بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال )

اعلم أن مثال الخلق مع الله تعالى مثل طائفة من السؤال وقموا في ميدان على باب قصر الملك وهم محتاجون إلى الطعام فأخرج إليهم غلما كثيرا ومعهم أرغفة من الخبز وأمرهم أن يسطوا بعضهم رغيفين رغيفين وبعضهم رغيفا رغيفا ويحتدوا في أن لا يغفلوا عن واحد منهم وأمر مناديا حتى نادى فيهم أن اسكنوا ولا تتعاقوا بغلمان إذا خرجوا إليكم بل ينبغي أن يطمئن كل واحد منكم في موضعه فان الغلمان مسخرون وهم مأورون بأن يوصلوا إليكم طعامكم فن تلقى بالظمان وآدام وأخذر رغيفين فاذا فتح باب الميدان وخرج أتبعته بغلام يكون موكلا به إلى أن أتقدم لعقوبته في معاد معلوم عندي ولكن أخفيه ومن لم يؤذ الغلمان وقع برغيف واحد أتاه من يد الغلام وهو ساكن فأتى أخته بخلة سنية في العباد للذكور لعقوبة الآخر ومن ثبت في مكانه ولكنه أخذ رغيفين فلا عقوبة عليه ولا خلة له ومن أخطأ غلمانا فما أوصلوا إليه شيئا فبات الليلة جائعا غير متسخط للغلمان ولا قتلا لئله أوصل إلى رغيفا فأتى غدا استوزره وأفوض ما سكى إليه فأتسم السؤال إلى أربعة أقسام : قسم غلبت عليهم بطونهم فلم يلتفتوا إلى العقوبة الوعدة وقالوا من اليوم إلى غد فرج ونحن الآن جائعون فبادروا إلى الظمان فأدوم وأخذوا الرغيفين فسبقت العقوبة إليهم في العباد المذكور فقدموا ولم ينفعهم الندم ، وقسم تركوا التعلق بالظمان خوف العقوبة ولكن أخذوا رغيفين فغلبت الجوع فسلبوا من العقوبة وما فازوا بالخلة وقسم قالوا إنا نجلس بمرأى من الظمان حتى لا يخطئونا ولكن نأخذ إذ أعطونا رغيفا واحدا ونقنع به فلمنا فنوز بالخلة ففازوا بالخلة وقسم رابع اختلفوا في زوايا الميدان وانحرفوا عن مرأى أعين الظمان وقالوا إن اتهمونا وأعطينا قنعا برغيف واحد وإن

ومفتحه لفرقه من  
أم شأن العبد لأن  
الأفصال من الخواطر  
نشأ حتى ذهب بعض  
العلماء إلى أن العلم  
للفترض طلبه يقول  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم وطلب  
العلم فريضة على  
كل مسلم هو علم  
الخواطر قال لأنها أول  
الفعل وبغدادها فساد  
الفعل وهذا لعمري  
لا يتوجه لأن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
أوجب ذلك على كل  
مسلم وليس كل المسلمين  
عندهم من التريفة  
والعرفة ما يعرفون به  
ذلك ولكن يعلم  
الطالب أن الخواطر  
بغاية البذر فمنها ما هو



أخطأونا قاسينا شدة الجوع الليلة فلعلنا نقوى على ترك التسخط فنال رتبة الوزارة ودرجة القرب عند الملك فما تفهم ذلك إذ اتبعهم العلمان في كل زاوية وأعطوا كل واحد رغيفا واحدا وجرى مثل ذلك أياما حتى اتفق على الدور أن اختفى ثلاثة في زاوية ولم تقع عليهم أبصار العلمان وشغلهم شغل صارف عن طول التفتيش فباتوا في جوع شديد فقال اثنان منهم لیتنا تعرضنا للعلمان وأخذنا طعامنا فلعلنا نطيق الصبر وسكت الثالث إلى الصباح فنال درجة القرب والوزارة فهذا مثال الخلق واليدان هو الحياة في الدنيا وباب الیدان الموت والبعاد المجهول يوم القيامة والوعد بالوزارة هو الوعد بالشهادة للمتوكل إذا مات جائئا راضيا من غير تأخير ذلك إلى ميعاد القيامة لأن الشهداء أحياء عند ربهم يرزقون والتعلق بالعلمان هو المعتدى في الأسباب والعلمان السخرون هم الأسباب والجالس في ظاهر الیدان يرى العلمان هم المقيمون في الأمصار في الرباطات والمساجد على هيئة السكون والمختفون في الزوايا هم السائحون في البوادي على هيئة التوكل والأسباب تتبعهم والرزق يأتيهم إلا على سبيل الندور فان مات واحد منهم جائئا راضيا فله الشهادة والقرب من الله تعالى وقد انقسم الخلق إلى هذه الأقسام الأربعة ولعل من كل مائة تعلق بالأسباب تسعون وأقام سبعة من العشرة الباقية في الأمصار متعرضين للسبب بمجرد حضورهم واشتغالهم وساح في البوادي ثلاثة وتسخط منهم اثنان وفاز بالقرب واحد وعلل كان كذلك في الأمصار السالفة وأما الآن فالنارك للأسباب لا ينتهي إلى واحد من عشرة آلاف .

[الفن الثاني في التمرض لأسباب الادخار] فمن حصل له مال يارث أو كسب أو سؤال أو سبب من الأسباب فله في الادخار ثلاثة أحوال : الأولى أن يأخذ قدر حاجته في الوقت فيأكل كل إن كان جائعا ويلبس إن كان عاريا ويشتري مسكنا مختصرا إن كان محتاجا ويفرق الباقي في الحال ولا يأخذه ولا يدخره إلا بالقدر الذي يدرك به من يستحقه ويحتاج إليه فيدخره على هذه النية فهذا هو الوفي بموجب التوكل لتحقيقها وهي الدرجة العليا . الحالة الثانية المقابلة لهذه المخرجة له عن حدود التوكل أن يدخر لسنة فما فوقها فهذا ليس من التوكلين أصلا وقد قيل لا يدخر من الحيوانات إلا ثلاثة : الفأرة والخملة وابن آدم . الحالة الثالثة أن يدخر لأربعين يوما فما دونها فهذا هل يوجب حرمانه من المقام المأمور بالوعود في الآخرة للمتوكلين اختلفوا فيه فذهب سهل إلى أنه يخرج عن حد التوكل وذهب الحواصم إلى أنه لا يخرج بأربعين يوما ويخرج بما يزيد على الأربعين وقال أبو طالب السكي لا يخرج عن حد التوكل بالزيادة على الأربعين أيضا وهذا اختلاف لا معنى له بعد تجويز أصل الادخار ، نعم يجوز أن يظن ظان أن أصل الادخار يناقض التوكل فأما التقدير بعد ذلك فلا مدرك له وكل ثواب موعود على رتبة فانه يتوزع على تلك الرتبة وتلك الرتبة لها بداية ونهاية ويسمى أصحاب النهايات السابقين ، وأصحاب البدايات أصحاب اليمين ، ثم أصحاب اليمين أيضا على درجات وكذلك السابقون وأعلى درجات أصحاب اليمين تلاصق أسافل درجات السابقين فلا معنى للتقدير في مثل هذا بل التحقيق أن التوكل يترك الادخار لا يتم إلا بقصر الأمل وأما عدم آمال البقاء فيبعد اشتراطه ولو في نفس فان ذلك كالمستنع وجوده أما الناس فمتفاوتون في طول الأمل وقصره وأقل درجات الأمل يوم وليلة فما دونه من الساعات وأقسام ما يتصور أن يكون عمر الانسان وبينهم درجات لاحصر لها فمن لم يؤمل أكثر من شهر أقرب إلى القصود ممن يؤمل سنة وتمييده بأربعين لأجل ميعاد موسى عليه السلام بعد فان تلك الواقعة ما قصد بها بيان مقدار طارخس الأمل فيه ولكن استحقاق موسى لنيل الموعد كان لا يتم إلا بعد أربعين يوما لسر جرت به وبأمثاله سنة الله تعالى في تدريج الأمور كما قال عليه السلام «إن الله خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا» (١) لأن استحقاق تلك الطينة التخمر كان موقوفا على مدة مبلغها ما ذكر فإذا ناء ماوراء

(١) حديث خمر طينة آدم بيده أربعين صباحا أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث

بشر السعادة ومنها  
ما هو بذر الشقاوة .  
وسبب اشتباه  
الحواطر أحد أربعة  
أشياء لا خامس لها إما  
ضعف اليقين أو قلة العلم  
بعمق صفات النفس  
وأخلاقتها أو متابعة  
الهوى بخرم قواعد  
التقوى أو عجة الدنيا  
جاهها ومآلها وطلب  
الرفعة والمنزلة عند  
الناس فمن عصم  
عن هذه الأربعة  
يفرق بين لمة الملك  
ولمة الشيطان ومن  
ابتلى بها لا يعلها  
ولا يطلبها وانكشف  
بعض الحواطر دون  
البعض لوجود بعض  
هذه الأربعة دون  
البعض وأقوم الناس

السنة لا يدخره إلا بحسب ضعف القلب والركون إلى ظاهر الأسباب فهو خارج عن مقام التوكل غير واثق باحاطة التدبير من الوكيل الحق بخفايا الأسباب فإن أسباب الدخل في الارتفاعات والزيادات تتكرر بتكرر السنين غالباً ومن آخر لأقل من سنة فله درجة بحسب تصرأله ومن كان أمه شهرين لم تسكن درجته كدرجة من أمل شهراً ولا درجة من أمل ثلاثة أشهر بل هو بين حافى الرتبة ولا يمنع من الادخار إلا قصر الأمل فالأفضل أن لا يدخر أصلاً ، وإن ضعف قلبه فكلاماً في ادخاره كان فضله أكثر ، وقدروى في الفقير الذي أمر صلى الله عليه وسلم علياً كرم الله وجهه وأسامه أن يسأله فسله وكفناه يردته فلما دفعه قال لأصحابه «إنه يبعث يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر ولولا خصلة كانت فيه لبث وجهه كالشمس الضاحية . قلنا وماهى يا رسول الله ؟ قال كان صوامقوما كثيراً فكرفه تعالى غير أنه كان إذا جاء الشتاء ادخر حلة الصيف وإذا جاء الصيف ادخر حلة الشتاء لشتائه ، ثم قال صلى الله عليه وسلم بل أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر <sup>(١)</sup> الحديث ، وليس الكوز والشفرة وما يحتاج إليه على الدوام في معنى ذلك فإن ادخاره لا ينقص الدرجة وأما ثوب الشتاء فلا يحتاج إليه في الصيف ، وهذا في حق من لا يزعج قلبه بترك الادخار ولا تستشرف نفسه إلى أبدى الخلق بل لا يلتفت قلبه إلا إلى الوكيل الحق فإن كان يستشعر في نفسه اضطراباً يشغل قلبه عن العبادة والذكر والفكر فلا ادخار له أولى بل لو أمسك ضيقة يكون دخله وإيقا قدر كفائته وكان لا يفرغ قلبه إلا به فذلك له أولى لأن المقصود إصلاح القلب ليتجرد لذكر الله ورب شخص يشغله وجود المال ورب شخص يشغله عدمه والمخدور ما يشغل عن الله عز وجل وإلا فالدنيا في عينها غير مهدورة لا وجودها ولا عدمها ، ولذلك بعث رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى أصناف الخلق وفيهم التجار والمحترفون وأهل الحرف والصناعات فلم يأمر التاجر بترك تجارته ولا المحترف بترك حرفته ولا أمر التارك لهما بالاشتغال بهما بل دعا الكل إلى الله تعالى وأرشدهم إلى أن فوزهم ونجاتهم في انصراف قلوبهم عن الدنيا إلى الله تعالى وعمدة الاشتغال بالله عز وجل القلب فصواب الضعيف ادخاره قدر حاجته كما أن صواب القوي ترك الادخار ، وهذا كله حكم المنفرد ، فأما العليل فلا يخرج عن حد التوكل باذخار قوت سنة ليماله جبراً لضعفهم وتسكيناً لقلوبهم وادخار أكثر من ذلك مبطل للتوكل لأن الأسباب تتكرر عند تكرار السنين فادخاره ما يزيد عليه سيئه ضعف قلبه وذلك يناقض قوة التوكل فالمتوكل عبارة عن موحد قوى القلب مطمئن النفس إلى فضل الله تعالى واثق بتدبيره دون وجود الأسباب الظاهرة ، وقد ادخر رسول الله صلى الله عليه وسلم ليماله قوت سنة <sup>(٢)</sup> ونهى أم أيمن وغيرها أن تدخره شيئاً له <sup>(٣)</sup> ونهى بلالا عن الادخار في كسرة خبز ادخرها ليفطر عليها فقال <sup>(٤)</sup> «أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلا» <sup>(٥)</sup>

ابن مسعود وسئل أن الفارسي باسناد ضعيف جداً وهو باطل <sup>(١)</sup> حديث أنه قال في حق الفقير الذي أمر علياً أو أسامة فسله وكفنه يردته أنه يبعث يوم القيامة وجهه كالقمر ليلة البدر الحديث وفي آخره من أقل ما أوتيتم اليقين وعزيمة الصبر لم أجده أصلاً وتقدم آخر الحديث قبل هذا . <sup>(٢)</sup> حديث ادخر ليماله قوت سنة متفق عليه وتقدم في الزكاة <sup>(٣)</sup> حديث نهى أم أيمن وغيرها أن تدخر شيئاً لقد تقدم نهيه لأم أيمن وغيرها <sup>(٤)</sup> حديث نهى بلالا عن الادخار وقال أنفق بلالا ولا تخش من ذى العرش إقلا البزار من حديث ابن مسعود وأبي هريرة وبلال دخل عليه النبي صلى الله عليه وسلم وعنده صبر من تمر فقال ذلك ، وروى أبو يعلى والطبراني في الأوسط حديث أبي هريرة وكلها ضعيفة وأما ما ذكره المصنف من أنه ادخر كسرة خبز فلم أره .

بمعين الخواطر وأقوهم بعرفة النفس ومعرفة صفة التال لا تكاد تيسر إلا بعد الاستقصاء في الزهد والتقوى . واتفق الشايع على أن من كان أكمله من الحرام لا يفرق بين الإلهام والوسوسة . وقال أبو طي الدقاق من كان قوته معلوما لا يفرق بين الإلهام والوسوسة وهذا لا يصح على الإطلاق لا يقيد وذلك أن من المعلوم ما يقسمه الحق سبحانه وتعالى لعباده أن يسبق إليه في الأخذ منه والنقوت به ومثل هذا المعلوم لا يحجب عن تمييز الخواطر إنما ذلك

وقال صلى الله عليه وسلم « إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ (١) » اقتداء بسيد التوكلين صلى الله عليه وسلم وقد كان قصر أمه بحيث كان إذا بال يتيم مع قرب الماء ويقول « ما يدري لى لأبلغه (٢) » وقد كان صلى الله عليه وسلم لو ادخر لم ينقص ذلك من توكله إذا كان لا يثق بما آذخره ولكنه عليه السلام ترك ذلك تعلقاً بالأقوياء من أمته فإن أقوياء أمته ضعفاء بالاضافة إلى قوته وادخر عليه السلام لئلا يله سنة للضعف قلب فيه وفي عياله ولكن ليس ذلك للضعفاء من أمته بل أخبر « أن الله تعالى يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه (٣) » تطيبها لقلوب الضعفاء حتى لا ينتهي بهم الضعف إلى اليأس والاضوط فيتركون اليسور من الخير عليهم بهجزم عن منتهى الدرجات لما أرسل رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى الرحمة للعالمين كلهم على اختلاف أصنافهم ودرجاتهم وإذا فهمت هذا علمت أن الادخار قد يضر بعض الناس وقد لا يضر ، ويدل عليه ما روى أبو أمامة الباهلي « أن بعض أصحاب الصفة توفي فهاجده كفن فقال رسول الله ﷺ نقشوا ثوبه فوجدوا فيه دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كتمان (٤) » وقد كان غيره من المسلمين يموت ويغلف أموالاً ولا يقول ذلك في حقه وهذا يحتمل وجهين لأن حاله يحتمل حالين: أحدهما أنه أراد كتمان من النار كما قال تعالى - تكوى بها جباههم وجنوبهم وظهورهم - وذلك إذا كان حاله يظهر الزهد والفقر والتوكل مع الافلاس عنه فهو نوع تلبيس. والثاني أن لا يكون ذلك عن تلبيس فيكون المعنى به نقصان عن درجة كاله كما ينقص من جمال الوجه أثر كتمان في الوجه وذلك لا يكون عن تلبيس فإن كل ما يغلفه الرجل فهو نقصان عن درجته في الآخرة إذ لا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا نقص قدره من الآخرة . وأما بيان أن الادخار مع فراغ القلب عن الدخر ليس من ضرورته بطلان التوكل فيشهد له ما روى عن بشر قال الحسين الغزالي من أصحابه كنت عنده ضحوة من النهار فدخل عليه رجل كهل أعمر خفيف العارضين فقام إليه بشر قال وما رأيتك قام لأحد غيره قال ودفع إلى كف من دراهم وقال اشتر لنا من أطيب ما تقدر عليه من الطعام الطيب وما قال لي قط مثل ذلك قال فجئت بالطعام فوضته فأكل معه وما رأيتك أكل مع غيره قال فأكلنا حاجتنا وبقي من الطعام شيء كثير فأخذه الرجل وجمعه في ثوبه وحمله معه وانصرف ففجيت من ذلك وكرهته له فقال لي بشر لعلك أنكرت فعله قلت نعم أخذ بقية الطعام من غير إذن فقال ذاك أخونا فتح الوصل زارنا اليوم من الموصل فأنما أراد أن يعلنا أن التوكل إذا صح لم يضر مع الادخار [ الفن الثالث في مباشرة الأسباب الدافعة للضرر المعرض للخوف ] اعلم أن الضرر قد يعرض للخوف في نفس أو مال وليس من شروط التوكل ترك الأسباب الدافعة رأساً أما في النفس فكالنوم في الأرض المسبعة أو في مجارى السيل من الوادى أو تحت الجدار المسائل والسقف المنكسر فكل ذلك منهي عنه وصاحبه قد عرض نفسه للهلاك بخير فائدة ، نعم تنقسم هذه الأسباب إلى مقطوع بها ومظنونة وإلى موهومة ترك الموهوم منها من شرط التوكل وهي التي نسبتها إلى دفع الضرر نسبة السكى والرقبة

يقال في حق من دخل في معلوم باختيار منه وإيثار لأنه ينحجب لموضع اختياره والذي أشرنا إليه منسوخ من إرادته فلا يحجبه للسلوم وفرقوا بين هواجس النفس ووسوسة الشيطان وقالوا إن النفس تطالب وتلع فلا تزال كذلك حتى تصل إلى مرادها والشيطان إذا دعا إلى زلة ولم يجب يوسوس بأخرى إذ لا غرض له في تخصيص بل مراده الاغواء كيفما أمكنه وتكلم الشيوخ في الحاطرين إذا كانا من الحق أيهما يتبع قال الجنيد الحاطر الأول

(١) حديث قال لبلال إذا سئلت فلا تمنع وإذا أعطيت فلا تخبأ الطبراني والحاكم من حديث أبي سعيد هوثة . حديث القى الله فقيراً [١] قد تقدم (٢) حديث أنه صلى الله عليه وسلم بال وتيمم مع قرب الماء ويقول ما يدري لى لأبلغه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث ابن عباس بسند ضعيف (٣) حديث إن الله يحب أن تؤتى رخصه الحديث أحمد والطبراني والبيهقي من حديث أم عمر وقد تقدم (٤) حديث أبي أمامة توفي بعض أصحاب الصفة فوجدوا دينارين في داخل إزاره فقال صلى الله عليه وسلم كتمان أحمد من رواية شهر بن حوشب عنه .

[١] قول العراقي حديث القى الله فقيراً الخ لم يكن هذا الحديث موجوداً بالأصل فلهذا بنسخته تأمل.

فان الكى والرقية قد تقدم به على الهذور دفعا لما يتوقع وقد يستعمل بعد نزول الهذور للازاله للآثار - ول  
 الله صلى الله عليه وسلم لم يصف للتوكلين إلا بترك الكى والرقية والطيرة ولم يصفهم بأنهم إذا خرجوا إلى  
 موضع بارد لم يلبسوا جبة والحجة تلبس دفعا للبرد للتوقع وكذلك كل ما من منها من الأسباب ، نعم  
 الاستظهار يأكل الثوم مثلا عند الخروج إلى السفر في الشتاء تهيجا لقوة الحرارة من الباطن ربما  
 يكون من قبيل التعمق في الأسباب والتعويل عليها فيكاد يقرب من الكى بخلاف الحجة وترك الأسباب  
 الدافعة وإن كانت مقطوعة وجه إذا ناله الضرر من إنسان فإنه إذا أمكنه الصبر وأمكنه الدفع والتشنى  
 فشرط التوكل الاحتمال والصبر قال الله تعالى - فاتخذوه وكلاء واصبر على ما يقولون - وقال تعالى -  
 ولنصبرن على ما آذيتونا وعلى الله فليتوكل التوكلون - وقال عز وجل - ودع أذا هم وتوكل على الله -  
 وقال سبحانه وتعالى - فاصبر كما صبر أولوا العزم من الرسل - وقال تعالى - نعم أجر العاملين الذين  
 صبروا وعلى ربهم يتوكلون - وهذا في أذى الناس وأما الصبر على أذى الحيات والسباع والعقارب  
 فترك دفعا ليس من التوكل في شيء إذ لا فائدة فيه ولا يراد السعى ولا يترك السعى لئنه بل لإعاقته على  
 الدين وترتب الأسباب ههنا كترتها في الكسب وجلب النافع فلا تطول بالاعادة وكذلك في الأسباب  
 الدافعة عن المال فلا ينقص التوكل بإغلاق باب البيت عند الخروج ولا بأن يحمل البعير لأن هذه أسباب  
 عرفت بسنة الله تعالى إما قطعاً وإما ظناً ولذلك قال صلى الله عليه وسلم للأعرابي لما أن أهمل البعير  
 وقال توكلت على الله «اعقلها وتوكل» (١) وقال تعالى - خذوا حذركم - وقال في كيفية صلاة الخوف  
 - وليأخذوا أسلحتهم - وقال سبحانه - وأعدوا لهم ما استطعتم من قوة ومن رباط الخيل - وقال تعالى  
 لموسى عليه السلام - فأسر ببأدى ليلا - والتحصن بالليل اختفاء عن أعين الأعداء ونوع تسبب  
 واختفاء رسول الله ﷺ في الغار اختفاء عن أعين الأعداء دفعا للضرر (٢) وأخذ السلاح في الصلاة  
 ليس دافعا قطعاً كقتل الحية والعقرب فإنه دافع قطعاً ولكن أخذ السلاح سبب مظنون وقد بينا أن  
 المظنون كالقطع وإعسا الوهم هو الذى يقتضى التوكل تركه . فان قلت فقد حكى عن جماعة أن  
 منهم من وضع الأسد يده على كنفه ولم يتحرك . فأقول وقد حكى عن جماعة أنهم ركبوا الأسد وسخروه  
 فلا ينبغي أن يفرك ذلك المقام فإنه وإن كان صحيحا في نفسه فلا يصلح للاقتداء بطريق التعلم من الغير  
 بل ذلك مقام رفيع في الكرامات وليس ذلك شرطا في التوكل وفيه أسرار لا يقف عليها من لم ينته إليها .  
 فان قلت وهل من علامة أعلم بها أن قد وصلت إليها ؟ فأقول الواصل لا يحتاج إلى طلب العلامات ولكن  
 من العلامات على ذلك المقام السابقة عليه أن يسخر لك كلب هو معك في إهابك يسمى التفض فلا يزال  
 يحضرك وبعض غيرك فان سخر لك هذا الكلب بحيث إذا هيج وأشلى لم يقتل إلا بأشارتك وكان مسخرا  
 لك فربما ترتفع درجتك إلى أن يسخر لك الأسد الذى هو ملك السباع وكنب دارك أولى بأن يكون  
 مسخرا لك من كلب البوادرى وكنب إهابك أولى بأن يتسخر من كلب دارك فاذا لم يسخر لك الكلب  
 الباطن فلا تطمع في استسغار الكلب الظاهر . فان قلت فاذا أخذ التوكل سلاحه حذرا من العدو وأغلق  
 باب حذرا من اللص وعقل بعيره حذرا من أن ينطلق فيأى اعتبار يكون متوكلا . فأقول يكون متوكلا  
 بالدم والحال فما العلم فهو أن يعلم أن اللص إن اندفع لم يدفع بكنايته في إغلاق الباب بل لم يدفع إلا بدفع الله  
 تعالى إياه فكذلك من باب يلقى ولا يدفع وكمن بعير يحمل ويموت أو يقاتل وكمن أخذ سلاحه يقتل

لأنه إذا بقي رجع صاحبه  
 إلى التأمل وهذا شرط  
 العلم . وقال ابن عطاء  
 الثانى أقوى لأنه ازداد  
 قوة بالأول . وقال  
 أبو عبد الله بن خفيف  
 هما سواء لأنهما  
 من الحق فلا مزية  
 لأحدهما على الآخر قالوا  
 الواردات أعم من  
 الحواطر لأن الحواطر  
 تختص بنوع خطاب  
 او مطالبة والواردات  
 تكون تارة خواطر  
 وتارة تكون واردة  
 سرور ووارد حزن  
 ووارد قبض ووارد  
 بسط . وقيل بنور  
 التوحيد يقبل الحواطر  
 من الله تعالى وبنور  
 للعرفة يقبل من  
 لللك وبنور الايمان

(١) حديث اعقلها وتوكل الترمذى من حديث أنس قال عبي القطان منكر ورواه ابن خزيمة في  
 التوكل والطبرانى من حديث عمرو بن أمية الضمري باسناد جيد قيدها (٢) حديث اختفى رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم عن أعين الأعداء دفعا للضرر تقدم قصة اختفائه في الغار عند إرادة الهجرة .

أو يغلب فلا تشكل على هذه الأسباب أصلا بل على مسبب الأسباب كاضر بالتل في الوكيل في الخصومة فانه إن حضر وأحضر السجل فلا تشكل على نفسه وجله بل على كفاية الوكيل وقوته. وأما الحال فهو أن يكون راضيا بما يقضى الله تعالى به في بيته ونفسه ويقول اللهم إن سلطت على مافي البيت من يأخذه فهو في سيطرتك وأنا راض بحكمك فاني لأدري أن ما أعطيتني هبة فلا تسترجعها أو عارية ووديعة فستردها ولا أدري أنه رزقي أو سبقت مشيتك في الأزل بأنه رزقي غيري وكيفما قضيت فأنا راض به وما أغلقت الباب تحصنا من فضائك وتسخطا له بل جريا على مقتضى سنك في ترتيب الأسباب فلا ثقة إلا بك يا مسبب الأسباب فاذا كان هذا حاله وذلك الذي ذكرناه علمه لم يخرج عن حدود التوكل بقول البعير وأخذ السلاح وإغلاق الباب ثم إذا عاد فوجد متاعه في البيت فينبغي أن يكون ذلك عنده نعمة جديدة من الله تعالى وإن لم يجد بل وجده مسروقا فنظر إلى قلبه فان وجد راضيا أو فرحاً بذلك عالما أنه ما أخذ الله تعالى ذلك منه إلا ليزيد رزقه في الآخرة فقد صح مقامه في التوكل وظهر له صدقه. وإن تألم قلبه به ووجد قوة الصبر فقد بان له أنه ما كان صادقا في دعوى التوكل لأن التوكل مقام بعد الزهد ولا يصح الزهد إلا بمن لا يتأسف على ما فات من الدنيا ولا يفرح بما يأتي بل يكون على العكس منه فكيف يصح له التوكل ، نعم قد يصح له مقام الصبر إن أخفاه ولم يظهر شكوه ولم يكثر سعيه في الطلب والتجسس وإن لم يقدر على ذلك حتى تأذى بقلبه وأظهر الشكوى بلسانه واستقصى الطلب يئنه فقد كانت السركة مزيدا له في ذنبه من حيث إنه ظهر له قصوره عن جميع اللقائم وكذبته في جميع الدعاوى فبمدهذا ينبغي أن يجتهد حتى لا يصدق نفسه في دعاؤها ولا يتدلى بحبل غرورها فانها خداعة أمارة بالسوء مدعية للخير . فان قلت فكيف يكون للتوكل مال حتى يؤخذ . فأقول للتوكل لا يخلو بيته من متاع كقصعة يأكل فيها وكوز يشرب منه وإتمام يتوضأ منه وجراب يحفظ به زاده وعصا يدفع بها عدوه وغير ذلك من ضرورات المعيشة من أثاث البيت وقد يدخل في يده مال وهو يسكه ليجد محتاجا فيصرفه اليه فلا يكون ادخاره على هذه النية مبطالا لتوكله وليس من شرط التوكل إخراج السكوز الذي يشرب منه والجراب الذي فيه زاده وإنما ذلك في المأكل وفي كل مال زاده على قدر الضرورة لأن سنة الله جارية بوصول الخير إلى الفقراء التوكلين في زوايا المساجد وما جرت السنة بتفرقة الكيزان والأمتعة في كل يوم ولا في كل أسبوع والخروج عن سنة الله عز وجل ليس شرطا في التوكل ولذلك كان الخواص يأخذ في السفر الحبل والركوة والمقراض والإبرة دون الزاد لكن سنة الله تعالى جارية بالفرق بين الأمرين . فان قلت فكيف يتصور أن لا يعجز إذا أخذ متاعه الذي هو محتاج إليه ولا يتأسف عليه فان كان لا يشتهي فلم أمسكه وأغلق الباب عليه وإن كان أمسكه لأنه يشتهي الحاجة إليه فكيف لا يتأذى قلبه ولا يعجز وقد حيل بينه وبين ما يشتهي . فأقول إنما كان يحفظه ليستعين به على دينه إذ كان يظن أن الخيرة له في أن يكون له ذلك المتاع ولولا أن الخيرة له فيه لما رزقه الله تعالى ولما أعطاه إياه فاستدل على ذلك بتيسير الله عز وجل وحسن الظن بالله تعالى مع ظنه أن ذلك معين له على أسباب دينه ولم يكن ذلك عنده مقطوعا به إذ يحتمل أن تكون خيرته في أن يبتلى بفقد ذلك حتى ينصب في تحصيل غرضه ويكون ثوابه في النصب والتعب أكثر فلما أخذ الله تعالى منه بتسليط اللص تغير ظنه لأنه في جميع الأحوال واثق بالله حسن الظن به فيقول لولا أن الله عز وجل علم أن الخيرة كانت لي في وجودها إلى الآن والخيرة لي الآن في عدمها لما أخذها مني فبمثل هذا الظن يتصور أن يدفع عنه الحزن إذ به يخرج عن أن يكون فرحه بأسباب من حيث إنها أسباب بل من حيث إنه يسرهما مسبب الأسباب عناية وتلطفا وهو كالمرضى بين يدي الطبيب الشفيق يرضى بما يفعله فان قدم إليه الدواء فرح وقال لولا أنه

ينهي النفس وبخور  
الاسلام يرد على العدو  
ومن قصر عن درك  
حقائق الزهد وتطلع  
إلى تمييز الخواطر  
بميزان  
الشرع لما كان من  
ذلك تفلأ وفرضا عليه  
وما كان من ذلك محرما  
أو مكروها يتفيه فان  
استوى الخاطر ان في  
نظر العلم نفذ أقرهما  
إلى مخالفة هوى  
النفس فان النفس قد  
يكون لها هوى كامن  
في أحدهما والغالب من  
شأن النفس الا عوجاج  
والركون إلى الدون  
وقد يلم الخاطر بنشاط  
النفس والعبد يظن أنه  
بنهوض القلب وقد  
يكون من القلب تفاق

يعرف أن الغداء ينفعني وقد قويت على احتماله لما قربته إلى وإن أخر عنه الغداء بعد ذلك أيضا فرح وقال لولا أن الغداء يضرن ويسوقني إلى الموت لما حال بيني وبينه وكل من لا يعتقد في لطف الله تعالى ما يستدعيه للمريض في الوالد المشفق الحافق لعلم الطب فلا يصح منه التوكل أصلا . ومن عرف الله تعالى وعرف أهله وعرف سنته في إصلاح عباده لم يكن فرحه بالأسباب فانه لا يدري أي الأسباب خير له كما قال عمر رضي الله عنه : لا تأبالي أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لا أدري أيهما خير لي فكذلك ينبغي أن لا تأبالي للتوكل يسرق متاعه أولا يسرق فانه لا يدري أيهما خير له في الدنيا أو في الآخرة فكم من متاع في الدنيا يكون سبب هلاك الانسان وكم من غنى يتلى بواقعة لأجل غناه يقول ياليتني كنت فقيرا .

### ( بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم )

للتوكل آداب في متاع بيته إذا خرج عنه . الأول : أن يطاق الباب ولا يستعصى في أسباب الحفظ كالتماسه من الجيران الحفظ مع العلق وبكمه أغلاق كثيرة قد كان مالك بن دينار لا يترك بابا ولو كان يشده بشريط ويقول لولا الكلاب ما عشدته أيضا . الثاني : أن لا يترك في البيت متاعا معرض عليه السراق فيكون هو سبب مصيبتهم أو إمساكه يكون سبب هيجان رغبتهم ولذلك لما أهدى المغيرة إلى مالك بن دينار ركة قال خذها لأحاجة لي إليها قال لم ؟ قال يوسوس إلى المدون أناس أخذها فكأنه احترز من أن يصيب السارق ؟ ومن شغل قلبه بوسوس الشيطان بسرقها ولذلك قال أبو سليمان هذا من ضعف قلوب الصوفية هذا قد زهد في الدنيا لما عليه من أخذها . الثالث : أن ما يضطر إلى تركه في البيت ينبغي أن ينوي عند خروجه الرضا بما يقضي الله فيه من تسليط سارق عليه ويقول ما يأخذه السارق فهو منه في حل أو هو في سبيل الله تعالى وإن كان فقيرا فهو عليه صدقة وإن لم يشترط الفقر فهو أولى فيكون له نيتان لو أخذه غنى أو فقير : أحدهما أن يكون ماله مانعا له من العصية فانه ربما يستغنى به فيتوانى عن السرقة بدمه وقد زال عصيانه بأكل الحرام لما أن جعله في حل . والثانية أن لا يظلم مسلما آخر فيكون ماله فداء لمال مسلم آخر ، ومهما بنو حراسة مال غيره بمال نفسه أو يتو دفع العصية عن السارق أو تخفيفها عليه فقد نصح للمسلمين وامثل قوله صلى الله عليه وسلم « انصر أخاك ظالما أو مظلوما »<sup>(١)</sup> ونصر الظالم أن تمنعه من الظلم وغفوه عنه إعدام للظلم ومنع له وليتحقق أن هذه النية لا تضره بوجه من الوجوه إذ ليس فيها ما يسلط السارق ويخير القضاء الأزلي ولكن يتحقق بالزهد نية فان أخذ ماله كان له بكل درهم سبعمائة درهم لأنه نواه وقصده وإن لم يؤخذ حصل له الأجر أيضا كما روى عن رسول الله صلى الله عليه وسلم في سبيل الله تعالى وإن لم يؤخذ له<sup>(٢)</sup> لأنه ليس أمر الولد إلا الواقع فأما الحق والحياة والرزق والبقاء فليس إليه فلو خاف لكان ثوابه على فعله وفعله لم ينصم فكذلك أمر السرقة . الرابع : أنه إذا وجد المال مسروقا فينبغي أن لا يحزن بل يفرح إن أمكنه ويقول لولا أن الحيرة كانت فيه لما سلبه الله تعالى ثم إن لم يكن قد جعله في سبيل الله عز وجل فلا يبالغ في طلبه وفي إساءة الظن بالمسلمين ، وإن كان قد جعله في سبيل الله فترك طلبه فانه قد قدمه ذخيرة لنفسه إلى الآخرة فان

بسكوته إلى النفس يقول بعضهم منذ عشرين سنة ما سكن قلبي إلى نفسي ساعة فيظهر من سكون القلب إلى النفس خواطر تشبه بخواطر الحق على من يكون ضعيف العلم فلا يدرك غفاق القلب والخواطر التولدة منه إلا العلماء الراسخون . وأكثر ما يدخل الآفات على أرباب القلوب والبخذين من اليقين واليقظة والحال بسهم من هذا القليل وذلك لقلة العلم بالنفس والقلب وبقاء نصيب الهوى فيهم . وينبغي أن يعلم المبدع قطعا أنه مهما بقي عليه أثر

(١) حديث انصر أخاك ظالما أو مظلوما متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٢) حديث من ترك العزل وأقر النطفة قرارها كان له أجر غلام الحديث لم أجده أصلا .

أعيد عليه فالأولى أن لا يقبله بعد أن كان قد جعله في سبيل الله عز وجل وإن قبله فهو في ملكه في ظاهر العلم لأن الملك لا يزول بمجرد تلك النية ولكنه غير محبوب عند التوكلين . وقد روى أن ابن عمر سرق ثاقته فطلبها حتى أعيانهم قال في سبيل الله تعالى فدخل المسجد فصلى فيه ركعتين فبعاه رجل ، فقال : يا أبا عبد الرحمن إن ثاقتك في مكان كذا فليس نعه وقام ثم قال أستغفر الله وجلس فقيل له ألا تذهب فتأخذها فقال إن كنت قلت في سبيل الله . وقال بعض الشيوخ رأيت بعض إخواني في النوم بعد موته قلت ما فعل الله بك قال غفر لي وأدخلني الجنة وعرض علي منازل فيها فرأيته قال وهو مع ذلك كئيب حزين قلت قد غفر لك ودخلت الجنة وأنت حزين فتنفس الصمءاء ثم قال نعم إنى لا أزال حزينا إلى يوم القيامة قلت ولم ؟ قال إنى لما رأيت منازل في الجنة رفعت لى مقامات في عليين مارأيت مثلها فيها رأيت فقرحت بها فلما هممت بدخولها نادى مناد من فوقها اصرفوه عنها فليست هذه له وإنما هي لمن أمضى السبيل ، قلت وما إمضاء السبيل ؟ فقيل لى كنت تقول للشيء إنه لى سبيل الله ثم ترجع فيه فلو كنت أمضيت السبيل لأمضيت لك . وحكى عن بعض العباد بكه أنه كان نائما إلى جنب رجل معه هميانه فانتبه الرجل فتقدم هميانه فاتهم به فقال له كم كان في هميانك فذكر له لحمله إلى البيت ووزنه من عنده ثم بعد ذلك أعلمه أصحابه أنهم كانوا أخذوا الهميان مزحا معه فجاء هو وأصحابه معه وردوا الذهب فأبى وقال خذوه حلالاتيا فما كنت لأعود في مال أخرجه في سبيل الله عز وجل فلم يقبل فألحوا عليه فدعا ابنا له وجعل يصره صررا ويبعث بها إلى الفقراء حتى لم يبق منه شيء ففكذا كانت أخلاق السلف وكذلك من أخذ رغيفا ليعطيه فقيرا فجاب عنه كان يكره رده إلى البيت بعد إخراجهم فيعطيه فقيرا آخر وكذلك يفعل في الهرام والدنانير وسائر الصدقات . الخامس : وهو أقل الدرجات أن لا يدعوا على السارق الذي ظلمه بالأخذ ، فإن فعل بطل توكله ودل ذلك على كراهته وتأذيه على مافات وبطل زهده ولو بالغ فيه بطل أجره أيضا فبما أصيب به في الخبر « من دعا على ظالمه فقد انتصر » (١) . وحكى أن الربيع بن خيثم سرق فرس له وكان قيمته عشرين ألفا وكان قائما يصلى فلم يقطع صلاته ولم يزعج اطلبه فبعاه قوم بوزنه ، فقال أما إنى قد كنت رأيته وهو يحمله قيل وما منعك أن تزجره . قال كنت فيها هو أحب إلى من ذلك يعنى الصلاة فجمعوا يدعون عليه فقال لا تفعلوا وقولوا خيرا فأتى قد جعلها صدقة عليه . وقيل لبعضهم في شيء قد كان سرق له ألا تدعو على ظالمك قال ما أحب أن أكون عوناً للشيطان عليه قبل أن رأيت لورد عليك قال لا آخذه ولا أنظر إليه لأنى كنت قد أحلته له . وقيل لآخر : ادع الله على ظالمك ، فقال ما ظلمنى أحد ثم قال إنما ظلم نفسه ألا يكفيه السكين ظلم نفسه حتى أزيد شرا . وأكثر بعضهم شتم الحجاج عند بعض السلف في ظلمه ، فقال لا تنرق في شتمه فإن الله تعالى ينتصف للحجاج ممن انتهك عرضه كما ينتصف منه لمن أخذ ماله ودمه . وفي الخبر « إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة بما زاد عليه يقتص له من الظلوم » (٢) . السادس أن يقتصر لأجل السارق وعصيانه وتعرضه لعذاب الله تعالى ويشكر الله تعالى إذ جعله مظلوما ولم يجعله ظالما وجعل ذلك تقصا في دينه لا تقصا في دينه فقد شكك بعض الناس إلى عالم أنه قطع عليه الطريق وأخذ ماله

من الهوى وإن دق  
وقل يبق عليه بحسبه  
بقية من اشتباه  
الحواطر ثم قد يخلط  
في تمييز الحواطر من  
هو قليل العلم ولا  
يؤاخذ بذلك ما لم يكن  
عليه من الشرع  
مطالبة وقد لا يسامح  
بذلك بعض الدالين لما  
كوشفوا به من دقيق  
الحفاء في التميز ثم  
استعجالهم مع عليهم  
وقلة الثبوت . وذكر  
بعض العلماء أن لمة  
الملك ولمة الشيطان  
وجدنا لحركة النفس  
والروح وأن النفس  
إذا تحركت اقتدح من  
جوهرها ظلمة تنكث  
في القلب همه سوء  
فينظر الشيطان إلى

(١) حديث من دعا على من ظلمه فقد انتصر تقدم (٢) حديث إن العبد ليظلم المظلمة فلا يزال يشتم ظالمه ويسبه حتى يكون بمقدار ما ظلمه ثم يبقى للظالم عليه مطالبة الحديث تقدم .

قال إن لم يكن لك غم أنه قد صار في المسلمين من يستحل هذا أكثر من غمك بمالك لما صنعت للمسلمين. وسرق من علي بن الفضل دنانير وهو يطوف بالبيت فرآه أبوه وهو يبكي ويعزن فقال أحمى الدنانير تبكي؟ فقال لا والله ولكن على للسكين أن يسئل يوم القيامة ولا تكون له حجة وقيل بعضهم ادع على من ظلمك فقال إني مشغول بالحزن عليه عن الدعاء عليه فهذه أخلاق السلف رضي الله عنهم أجمعين .

[الفن الرابع في السعي في إزالة الضرر كدواوة للرض وأمثاله] اعلم أن الأسباب الزيلة للمرض أيضا تنقسم إلى مقطوع به كالماء للزيل لضرر العطش والحبز للزيل لضرر الجوع وإلى مظنون كالتقصيد والحجامة وشرب الدواء السهل وسائر أبواب الطب أغنى معالجة البرودة بالحرارة والحرارة بالبرودة وهي الأسباب الظاهرة في الطب وإلى موهوم كالسكي والرقية . أما المقطوع فليس من التوكل تركه بل تركه حرام عند خوف الموت. وأما الوهوم فشرط التوكل تركه إذ به وصف رسول الله صلى الله عليه وسلم للتوكلين وأقواها السكي وبليه الرقية والطيرة آخر درجاتها والاعتماد عليها والانتكال إليها غاية التعمق في ملاحظة الأسباب وأما الدرجة التوسطة وهي المظنونة كالدواوة بالأسباب الظاهرة عند الأطباء فعمله ليس مناقضا للتوكل بخلاف الوهوم وتركه ليس محظورا بخلاف المقطوع بل قد يكون أفضل من فعله في بعض الأحوال وفي بعض الأشخاص فهي على درجة بين الدرجتين ويدل على أن التدأوى غير مناقض للتوكل فدل رسول الله ﷺ وقوله وأمره به أما قوله فقد قال صلى الله عليه وسلم « مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام <sup>(١)</sup> » يعني الموت وقال عليه السلام « تدأوا عباد الله فإن الله خلق الداء والدواء <sup>(٢)</sup> » . « وسئل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله شيئا؟ قال: هي من قدر الله <sup>(٣)</sup> » وفي الخبر المشهور « ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة <sup>(٤)</sup> » وفي الحديث أنه أمر بها وقال « اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين لا يبيخ بك الدم فيقتل <sup>(٥)</sup> » قد ذكر أن تبيخ الدم سبب الموت وأنه قائل بإذن الله تعالى وبين أن إخراج الدم خلاص منه إذ لا فرق بين إخراج الدم المهلك من الإهاب وبين إخراج القرب من تحت الباب وإخراج الحية من البيت وليس من شرط التوكل ترك ذلك بل

القلب فيقبل بالاغواء والوسوسة وذكر أن حركة النفس تكون إما هوى وهو عاجل حظ النفس أو أمنية وهي عن الجهل الغريزي أو دعوى حركة أوسكون وهي آفة العقل ومحنة القلب ولا ترد هذه الثلاثة إلا بأحد ثلاثة بجهل أو غفلة أو طلب فضول ثم يكون من هذه الثلاثة ما يجب تقيه فانها ترد بخلاف ماورد أو على وفق منهى ومنها ما يكون تقيها فضيلة إذا وردت بمباحات . وذكر أن الروح إذا تحركت انتدح من جوهرها نور ساطع يظهر من

(١) حديث مامن داء إلا له دواء عرفه من عرفه وجهله من جهله إلا السام أحمد والطبراني من حديث ابن مسعود دون قوله إلا السام وهو عند ابن ماجه مختصرا دون قوله عرفه إلى آخره وإسناده حسن والترمذي وصححه من حديث أسامة بن شريك إلا الحرم والطبراني في الأوسط والبخاري من حديث أبي سعيد الخدري والطبراني في الكبير من حديث ابن عباس وسندهما ضعيف والبخاري من حديث أبي هريرة ما أنزل الله داء إلا أنزل له غفاء ولمسلم من حديث جابر لكل داء دواء (٢) حديث تدأوا عباد الله الترمذي وصححه وابن ماجه واللفظ له من حديث أسامة بن شريك (٣) حديث مثل عن الدواء والرقى هل يرد من قدر الله فقال هي من قدر الله الترمذي وابن ماجه من حديث أبي خزيمة وقيل عن أبي خزيمة عن أبيه قال الترمذي وهذا أصح (٤) حديث ما مرت ببل من الملائكة إلا قالوا مر أمتك بالحجامة الترمذي من حديث ابن مسعود وقال حسن غريب ورواه ابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف (٥) حديث اجتمعوا لسبع عشرة وتسع عشرة وإحدى وعشرين الحديث البزار من حديث ابن عباس بسند حسن موقوفا ورفعه الترمذي بلفظ إن خيرا ما يجتمعون فيه سبع عشرة الحديث دون ذكر التبيخ وقال حسن غريب وقال البزار إن طريقه المتقدمة أحسن من هذا الطريق ولابن ماجه من حديث أنس بسند ضعيف من أراد الحجامة فليتحتر سبعة عشر الحديث.



هو كسب الماء على النار لإطفائها ودفع ضررها عند وقوعها في البيت وليس من التوكل الحروق عن سنة الوكيل أصلاً وفي خبر مقطوع «من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة (١)» وأما أمره صلى الله عليه وسلم فقد أمر غير واحد من الصحابة بالتداوي بالحمية (٢) وقطع لسعد بن معاذ عرقاً (٣) أي فصدته وكوى سعد بن زرارة (٤) وقال لمليّ رضي الله تعالى عنه وكان رمد العين «لأنّا كل من هذا يعني الرطب وكل من هذا فانه أوفق لك (٥)» يعني سلقاً قد طبخ بدقيق شعير . وقال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين «تأكل تمراً وأنت أرمَد فقال إنّي أكل من الجانب الآخر فنبسم صلى الله عليه وسلم (٦)» . وأما فضله عليه الصلاة والسلام فقد روى في حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة (٧) قيل السنن المكي . وتداوى ﷺ غير مرة من القرب وغيرها (٨) وروى أنه كان إذا نزل عليه الوحي صعد رأسه فكان يظفّه بالحناء (٩) وفي خبر أنه كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء وقد جعل على قرحة خرجت به تراباً (١٠) وما روى في تداويه وأمره بذلك كثير خارج عن الحصر وقد صنف في ذلك كتاب ونسب طبع النبي صلى الله عليه وسلم وذكر بعض العلماء في الاسرائيليات أن موسى عليه السلام اعتل بطة فدخل عليه بنو إسرائيل فعرفوا علته

(١) حديث من احتجم يوم الثلاثاء لسبع عشرة من الشهر كان له دواء من داء سنة الطبراني من حديث معقل بن يسار وابن جبان في الضعفاء من حديث أنس وإسنادها واحد اختلف على روايته في الصحاح وكلاهما فيه زيد العمى وهو ضعيف (٢) حديث أمره بالتداوي لغير واحد من الصحابة الترمذي وابن ماجه من حديث أسامة بن شريك أنه قال للأعراب حين سألوهم تداووا الحديث وسيأتي في قصة على وصهيب في الحمية بعده (٣) حديث قطع عرقاً لسعد بن معاذ مسلم من حديث جابر قال رمى سعد في أكله غصمه النبي صلى الله عليه وسلم بيده بمشقص الحديث (٤) حديث أنه كوى أسعد بن زرارة الطبراني من حديث سهل بن حنيف بسند ضعيف ومن حديث أبي أسامة بن سهل بن حنيف دون ذكر سهل (٥) حديث قال لمليّ وكان رمداً لأنّا كل من هذا الحديث أبو داود والترمذي وقال حسن غريب وابن ماجه من حديث أم النذر (٦) حديث قال لصهيب وقد رآه يأكل التمر وهو وجع العين تأكل تمراً وأنت رمد الحديث تقدم في آفات اللسان (٧) حديث من طريق أهل البيت أنه كان يكتحل كل ليلة ويحتجم كل شهر ويشرب الدواء كل سنة ابن عدى من حديث عائشة وقال إنه منكرو فيه سيف بن محمد كذبه أحمد بن حنبل ويعني بن معين (٨) حديث أنه تداوى غير مرة من القرب وغيرها الطبراني بإسناد حسن من حديث جبلة بن الأزرق أن رسول الله صلى الله عليه وسلم لدغته عقرب فغشى عليه فرقاها الناس الحديث وله في الأوسط من رواية سعيد بن مسيرة وهو ضعيف عن أنس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان إذا اشتكى تجمّع كفاً من غوثيز ويشرب عليه ماء وعسلاً ولأبي يعلى والطبراني في الكبير من حديث عبد الله بن جعفر أن النبي صلى الله عليه وسلم احتجم بماء مسم فيه جابر الجعفي ضعه الجمهور (٩) حديث كان إذا نزل عليه الوحي صعد رأسه فيظفّه بالحناء الزبيري وابن عدى في الكامل من حديث أبي هريرة وقد اختلف في إسناده على الأحوص بن حكيم كان إذا خرجت به قرحة جعل عليها حناء الترمذي وابن ماجه من حديث سلمى قال الترمذي غريب (١٠) حديث جعل على قرحة خرجت بيده تراباً البخاري ومسلم من حديث عائشة كان إذا اشتكى الإنسان التي منه أوكانت قرحة أوجرح قال النبي صلى الله عليه وسلم بيده هكذا ووضع سفيان بن عيينة الراوى سباجته بالأرض ثم رفسها وقال بسم الله تربة أرضنا وريقة بعضنا يشفى سقيمنا .

ذلك النور في القلب همة عالية بأحد معان ثلاثة إما بفرض أمر به أو بفضله نذب إليه وإما بمباح يعود صلاحه إليه وهذا الكلام يدل على أن حركتي الروح والنفس هما للوجبتان لمتين . وعندى والله أعلم أن اللمتين يتقدمان على حركة الروح والنفس لحركة الروح من لمة الملك والهمة العالية من حركة الروح وهذه الحركة من الروح بركة لمة الملك وحركة النفس من لمة الشيطان ومن حركة النفس الهمة الدنيئة وهي من شؤم لمة الشيطان فإذا وردت اللمتان ظهرت الحركتان

فقالوا له لوتداويت بكذا لبرئت فقال لأتداوى حتى يعافيني هو من غير دواء فطالت علته فقالوا له إن دواء هذه العلة معروف مجرب وإن اتتداوى به فبئراً فقال لأتداوى وأقامت علته فأوحى الله تعالى إليه وعزى وجلالى لأبرأتك حتى تتداوى بما ذكره لك فقال لهم داوونى بما ذكرتم فدأوه فبرأ فأوحى فى نفسه من ذلك فأوحى الله تعالى إليه أردت أن تبطل حكمتى بتوكلك على من أودع العقاقير منافع الأشياء غيرة . وروى فى خبر آخر أن نبيا من الأنبياء عليهم السلام شكاه علة يجهلها فأوحى الله تعالى إليه كل البيض . وشكا نبي آخر الضعف فأوحى الله تعالى إليه كل اللحم باللبن فإن فيها القوة قيل هو الضعف عن الجماع . وقد روى أن قوما شكوا إلى نبيهم قبح أولادهم فأوحى الله تعالى إليه مرهم أن يطعموا نساءهم الحبالى السفرجل فإنه يحسن الولد . ويحل ذلك فى الشهر الثالث والرابع إذ فيه يصور الله تعالى الولد وقد كانوا يطعمون الحبلى السفرجل والفساء الرطب فهذا تبين أن مسبب الأسباب أجرى سنته بربط السبب بالأسباب إظهارا للحكمة والأدوية أسباب مسخرة بحكم الله تعالى كسائر الأسباب فكما أن الحبز دواء الجوع والماء دواء العطش فالسكنجيين دواء الصفراء والسقمونيا دواء الاسهال لا يفارقه إلا فى أحد أمرين : أحدهما أن معالجة الجوع والعطش بالماء والحبز جلى واضح يدركه كافة الناس ومعالجة الصفراء بالسكنجيين يدركه بعض الخواص فمن أدرك ذلك بالتجربة التحق فى حقه بالأول : والثانى أن الدواء يسهل والسكنجيين يسكن الصفراء بشروط أخرى الباطن وأسباب فى الزاج ربما يتعذر الوقوف على جميع شروطها وربما يغوت بعض الشروط فيتقاعد الدواء عن الاسهال . وأما زوال العطش فلا يستدعى سوى الماء شروطا كثيرة وقد يتفق من العوارض ما يوجب دواء العطش مع كثرة شرب الماء ولكنه نادر واختلال الأسباب أبدا ينحصر فى هذين الشيئين والإفلاسبب يتلو السبب لامحالة مهما تمت شروط السبب وكل ذلك بتدبير مسبب الأسباب وتسخيره وترتيبه بحكم حكته وكمال قدرته فلا يضر التوكل استعماله مع النظر إلى مسبب الأسباب دون الطبيب والدواء فقد روى عن موسى عليه السلام أنه قال يارب من الداء والدواء؟ فقال تعالى منى قال فما يصنع الأطباء؟ قال يا كلون أرزاقهم ويطيئون نفوس عبادى حتى يأتى شفاى أو قضائى فإذا نعى التوكل مع التداوى التوكل بالعلم والحال كما سبق فى فنون الأعمال الدافعة للضرر الجالبة للنفع فأما ترك التداوى رأسا فليس شرطا فيه . فإن قلت فالسكى أيضا من الأسباب الظاهرة النفع . فأقول ليس كذلك إذ الأسباب الظاهرة مثل القصد والحجامة وشرب السهل وسقى البردات للمحرور وأما السكى فلو كان مثله فى الظهور لما خلت البلاد الكثيرة عنه وقلماء يتاد السكى فى أكثر البلاد إنما ذلك عادة بعض الأتراك والأعراب فهذا من الأسباب الوهومة كالرقى إلا أنه يتميز عنها بأمر وهو أنه احتراق بالنار فى الحال مع الاستغناء عنه فإنه مأمون وجع يعالج بالسكى إلا أنه دواء يفتى عنه ليس فيه إحراق فلا إحراق بالنار جرح محرب للبنية محذور السراية مع الاستغناء عنه بخلاف القصد والحجامة فإن سرايتهما بعيدة ولا يسد مسدهما غيرها ولذلك نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى (١) وكل واحد منهما بعيد عن التوكل وروى أن عمران بن الحصين اعتل فأشاروا عليه بالسكى فامتنع فمز الوابنه وعزم عليه الأمر حتى اكتوى فكان يقول كنت أرى نورا وأسمع صوتا وتسلم على الملائكة فلما كتويت انقطع ذلك عنى وكان يقول اكتبونا كتاب فوالله ما أفلحت ولا أنجحت ثم تاب من ذلك وأتاب إلى الله تعالى

وظهر سرّ العطاء والابتلاء من معط كريم ومبل حكيم وقد تكون هاتان اللتان متداركتين وينمى أثر أحدهما بالآخرى وللتفطن للتفطن يفتح عليه بمطالعة وجود هذه الآثار فى ذاته باب أنس ويتق أبدأ متفقا حاله مطالما آثار الامتين . وذكر خاطر خامس : وهو خاطر العقل متوسط بين الخواطر الأربعة يكون مع النفس والدواء لوجود التمييز وإثبات الحجة على المبدل يدخل العبد فى التمسى بوجود عقل إذ لو فقد العقل سقط العقاب والعتاب وقد

(١) حديث نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن السكى دون الرقى البخارى من حديث ابن عباس وأنهى أمى عن السكى ، وفى الصحيحين من حديث عائشة رخص رسول الله صلى الله عليه وسلم فى الرقية من كل ذى حمة .

فرد الله تعالى عليه ما كان يجد من أمر الملائكة وقال لمطرف بن عبد الله ألم تر إلى الملائكة التي كان أكرمى الله بها قد ردها الله تعالى على بعد أن كان أخبره بقتلها فاذن السكي وما يجري مجراه هو الذي لا يليق بالتوكل لأنه يحتاج في استنباطه إلى تدبير ثم هو منموم ويدل ذلك على شدة ملاحظة الأسباب وعلى التصق فيها والله أعلم .

( بيان أن ترك التداوى قد يهمل في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل )

وأن ذلك لا يناقض فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم )

اعلم أن الذين تداؤوا من السلف لا ينصرفون ولكن قد ترك التداوى أيضا جماعة من الأكابر فرعا يظن أن ذلك تصان لأنه لو كان كالتوكل تركه رسول الله صلى الله عليه وسلم لإدراك حال غيره في التوكل أكمل من حاله ، وقد روى عن أبي بكر رضي الله عنه أنه قيل له لو دعوتك طبيباً فقال الطبيب قد انظر إلى وقال إني ضالما أريد . وقيل لأبي الدرداء في مرضه ما تشكى قال ذنوبي قيل فماتت شهيداً قال مغفرة رب قالوا ألا ندعوك طبيباً قال الطبيب أمرضى . وقيل لأبي فر وقد رمدت عيناه لوداوينهما قال إني عنهما مشغول قيل لو سألت الله تعالى أن يهلكك فقال أسأله فإيهما على منها . وكان الريح ابن خيم أصابه فالج قبل له لوداوين فقال قد همت ثم ذكرت عاداً وهوداً وأصحاب الرس وقرودنايين ذلك كثير أو كان فيهم الأطباء فهلك التداوى والتداوى ولم تكن الرقي شيئاً . وكان أحد بن حنبل يقول أحب لمن اعتقد التوكل وسلك هذا الطريق ترك التداوى من شرب الدواء وغيره وكان به علل فلا يخبر للطبيب بها أيضاً إذا سأله . وقيل لسهل بن يسح لعبد التوكل قال إذا دخل عليه الضرر في جسمه والنفس في ماله فلم يلتفت إليه شغلا بهاله ونظر إلى قيام الله تعالى عليه فإذا منهم من ترك التداوى وراءه ومنهم من كرهه ولا يضح وجه الجمع بين فعل رسول الله صلى الله عليه وسلم وأصلهم إلا بعصر الصوارف عن التداوى . فنقول إن ترك التداوى أسبابا . السبب الأول : أن يكون المريض من الكاشفين وقد كوشف بأنه انتهى أجله وأن الدواء لا ينفعه ويكون ذلك معلوماً عنه تارة برؤيا صادقة وتارة بحس وظن وتارة بكشف محقق ويشبه أن يكون ترك الصديق رضي الله عنه التداوى من هذا السبب فإنه كان من الكاشفين فإنه قال لما نشأ رضي الله عنه في أمر اليراث إنما من أختك وإنما كان لها أخت واحدة ولكن كانت امرأته حاملا فولدت أنثى فلم أنه كان قد كوشف بأنها حامل بأنثى فلا يبعد أن يكون قد كوشف أيضا بأنها حامل . وإلا فلا يظن به إنكار التداوى وقد شاهد رسول الله صلى الله عليه وسلم تداوى وأمر به . السبب الثاني : أن يكون المريض مشغولا بهاله وبخوف عاقبته وإطلاع الله تعالى عليه فينسى ذلك ألم المرض فلا تعرض قلبه للتداوى مشغولا بهاله وعليه يدل كلام أبي ذر إذا قال إني عنهما مشغول . وكلام أبي الدرداء إذا قال إنما تشكى ذنوبي فكان تألم قلبه خوفاً من ذنوبه أكثر من تألم بدنه بالمرض ويكون هذا كالمصاب بموت عزيز من أعزته أو كالحائف الذي يعمل إلى ملك من الملوك ليقتل إذا قيل له لا تأكل وأنت جائع فيقول أنا مشغول عن ألم الجوع فلا يكون ذلك إنكارا لكون الأكل نافعا من الجوع ولا طمنا فيمن أكل وقرب من هذا اشتغال سهل حيث قيل له ما الموت فقال هو ذكر الحى القيوم قيل إنما سألتك عن القوام فقال القوام هو العلم قيل سألتك عن الغذاء قال الغذاء هو الذكر قيل سألتك عن طعمة الجسد قال مالك وللجسد دع من تولاه أولا يتولاه آخر إذا دخل عليه علة فردته إلى صانعه أما رأيت الصنعة إذا عيبت ردها إلى صانعها حتى يصلحها . السبب الثالث : أن تكون العلة مزمنة والدواء الذي يؤمر به بالإضافة إلى علة وهو موهوم النفع جار مجرى السكي والرقية في ترك التوكل وإليه يشير قول الريح بن خيم إذا قال ذكرت عادا

يكون مع الملك والروح  
ليوقع الفعل مختارا  
ويستوجب به  
الثواب . وذكر  
خاطر سادس وهو خاطر  
اليقين وهو روح  
الإيمان ومزيد العلم  
ولا يبعد أن يقال الخاطر  
السادس وهو خاطر  
اليقين حاصله راجع  
إلى ما يرد من خاطر  
الحق وخاطر العقل  
أصله تارة من خاطر  
الملك وتارة من خاطر  
النفس وليس من  
العقل خاطر على  
الاستقلال لأن العقل  
كما ذكرنا غريزة يتنبأ  
بها إدراك العلوم ويتنبأ  
بها الانجذاب إلى  
دواعي النفس تارة  
وإلى دواعي الملك تارة

وعود وفيهم الأطباء فهلك المداوى والمداوى أى أن الدواء غير موثوق به وهذا قد يكون كذلك في نفسه وقد يكون عند الرضى كذلك لقلة ممارسته للطب وقلة تجربته له فلا يطلب على ظنه كونه نافعا ولا شك في أن الطبيب المحرب أشد اعتقادا في الأدوية من غيره فتكون الثقة والظن بحسب الاعتقاد والاعتقاد بحسب التجربة وأكثر من ترك التداوى من العباد والزهاد هذا مستقدم لأنه يبقى الدواء عنده شيئا موهوما لأصله وذلك صحيح في بعض الأدوية عند من عرف صناعة الطب غير صحيح في البعض ولكن غير الطبيب قد ينظر إلى الكل نظرا واحدا فيرى التداوى تعمقا في الأسباب كالسكى والرقى فيتركه توكلًا . السبب الرابع . أن يقصد العبد بترك التداوى استبقاء الرضى لينال ثواب الرضى بحسن الصبر على بلاء الله تعالى أو ليحرب نفسه في القدرة على الصبر قدورد في ثواب الرضى ما يكثر ذكره فقد قال صلى الله عليه وسلم « نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمل فالأمل يبتلى العبد على قدر إيمانه فإن كان صلب الإيمان شدد عليه البلاء وإن كان في إيمانه ضعف خفف عنه البلاء <sup>(١)</sup> » وفي الخبر « إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه بالنار فمن خرج كالذهب الإبريز لا يردونهم دون ذلك ومنهم من يخرج أسود محترقا <sup>(٢)</sup> » وفي حديث من طريق أهل البيت « إن الله تعالى إذا أحب عبدا ابتلاه فإن صبر اجتباه فإن رضى اصطفاه <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « تحبون أن تكونوا كالطير الضالة لا تمرضون ولا تسقمون <sup>(٤)</sup> » وقال ابن مسعود رضى الله عنه بعد المؤمن أصبح شئ قلبا وأمرضه جسما وتجد النفاق أصبح شئ جسما وأمرضه قلبا . فلما عظم الالتئام على الرضى والبلاء أحب قوم الرضى واغتموه لينالوا ثواب الصبر عليه فكان منهم من له على غيرها ولا يذكرها للطبيب ويقاسى العلة ويرضى بحكم الله تعالى ويسلم أن الحق أغلب على قلبه من أن يشغله الرضى عنه وإنما يمنع المرض جوارحه وعلموا أن صلاحهم قعودا مثلامع الصبر على قضاء الله تعالى أفضل من الصلاة قياما مع العافية والصحة ففي الخبر « إن الله تعالى يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى إن أطلقته أبدلته لحما خيرا من لحمه ودما خيرا من دمه وإن توفيته توفيته إلى رحمتي <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس <sup>(٦)</sup> » قليل معناه ما دخل عليه من الأمراض والمصائب وإليه الإشارة بقوله تعالى - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - وكان سهل يقول ترك التداوى وإن ضعف عن الطاعات وقصر عن الفرائض أفضل من التداوى لأجل الطاعات وكانت به علة عظيمة فلم يكن يتداوى منها وكان يداوى الناس منها وكان إذا رأى العبد يصلى من

وإلى دواعى الروح تارة  
وإلى دواعى الشيطان  
تارة فعلى هذا لا يزيد  
الخواطر على أربعة  
ورسول الله صلى الله  
عليه وسلم لم يذكر غير  
المتين وهاتان اللتان  
هما الأصل والخطاران  
الآخران فرع عليهما  
لان لمة للكل إذا حركت  
الروح واهتزت الروح  
بالهمة الصالحة قربت  
أن تهتز بالهمة الصالحة  
إلى حظائر القرب فورد  
عليه عند ذلك خواطر  
من الحق وإذا تحقق  
بالقرب يتحقق بالفناء  
فتبت الخواطر الربانية  
عند ذلك كما ذكرناه  
قبل لموضع قربه  
فيكون أصل خواطر  
الحق لمة للكل ولمة

(١) حديث نحن معاشر الأنبياء أشد الناس بلاء ثم الأمل فالأمل الحديث أحمد وأبو يعلى والحاكم وصححه على شرط مسلم نحوه مع اختلاف وقد تقدم مختصرا ورواه الحاكم أيضا من حديث سعد بن أبي وقاص وقال صحيح على شرط الشيخين (٢) حديث إن الله تعالى يجرب عبده بالبلاء كما يجرب أحدكم ذهبه الحديث الطبراني من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٣) حديث من طريق أهل البيت إن الله إذا أحب عبدا ابتلاه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على ولم يخرج له ولده في مسنده ولطبراني من حديث أبي عتبة إذا أراد الله بعبده خيرا ابتلاه وإذا ابتلاه اقتناه لا يترك له مالا ولا ولدا وسنده ضعيف (٤) حديث تحبون أن تكونوا كالطير الضالة لا تمرضون ولا تسقمون ابن أبي عاصم في الأحاد والثاني وأبو نعيم وابن عبد البر في الصحابة والبيهقي في الشعب من حديث أبي فاطمة وهو صدر حديث إن الرجل ليكون له المنزل عند الله الحديث وقد تقدم (٥) حديث إن الله يقول للملائكة اكتبوا العبدى صالح ما كان يعمل فانه في وثاقى الحديث الطبراني من حديث عبد الله بن عمر وقد تقدم (٦) حديث أفضل الأعمال ما أكرهت عليه النفوس تقدم ولم أجده مرفوعا .

قعود ولا يستطيع أعمال البر من الأمراض فيتداوى للقيام إلى الصلاة والنهوض إلى الطاعات يجب من ذلك ويقول صلاته من قعود مع الرضا بحاله أفضل من التداوى للقوة والصلاة قائما. وسئل عن شرب الدواء فقال كل من دخل في شيء من الدواء فأنما هو سعة من الله تعالى لأهل الضعف. ومن لم يدخل في شيء فهو أفضل لأنه إن أخذ شيئا من الدواء ولو كان هو الماء البارد يسهل عنه لم يأخذه ومن لم يأخذ فلا سؤال عليه وكان مذهبه ومذهب البصريين تضعيف النفس بالجوع وكسر الشهوات لهم بأن فذة من أعمال القلوب مثل الصبر والرضا والتوكل أفضل من أمثال الجبال من أعمال الجوارح والمرض لا يمنع من أعمال القلوب إلا إذا كان ألمه غالبا مدهشا. وقال سهل رحمه الله على الأجسام رحمة وعلى القلوب عقوبة. السبب الخامس: أن يكون العبد قد سبق له ذنوب وهو خائف منها عاجز عن تكفيرها فيرى للرض إذا طال تكفيرا فيترك التداوى خوفا من أن يسرع زوال المرض فقد قال عليه السلام «لا تزال الحمى والليل بالبدن حتى يمضى على الأرض كالبردة ماعليه ذنب ولا خطيئة» (١) وفي الخبر «حمى يوم كفارة سنة» (٢) قيل لأنها تهدت قوة سنة وقيل للانسان ثلثة مئة وستون مفصلا فتدخل الحمى في جميعها ويعد من كل واحد ألما فيكون كل ألم كفارة يوم، ولما ذكر صلى الله عليه وسلم كفارة الذنوب بالحمى سأله يزيد بن ثابت ربه عز وجل أن لا يزال محمومًا فلم تكن الحمى تفارقه حتى مات رحمه الله وسأل ذلك طائفة من الأنصار فكانت الحمى لا تزالهم (٣) ولما قال صلى الله عليه وسلم «من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة» (٤) قال فلقد كان من الأنصار من يتعمى العمى وقال عيسى عليه السلام: لا يكون عالما من لم يفرح بدخول المصائب والأمراض على جسده وماله لما يرجو في ذلك من كفارة خطايا. وروى أن موسى عليه السلام نظر إلى عبد عظيم البلاد فقال يارب ارحمه فقال تعالى كيف أرحمه فيما به أكره ذنوبه وأزيد في درجاته. السبب السادس: أن يستشعر العبد في نفسه مبادئ البطر والطمعان أطول مدة الصحة فيترك التداوى خوفا من أن يعاجله زوال المرض فتعاقده العفلة والبطر والطمعان أطول الأمل والتسويق في تدارك الفات وتأخير الحيرات فان الصحة عبارة عن قوة الصفات وبها ينبعث الهوى وتتحرك الشهوات وتدعو إلى المعاصي وأقلها أن تدعو إلى التنسم في الباحات، وهو تضييع الأوقات وإهمال للربح العظيم في مخالفة النفس وملازمة الطاعات وإذا أراد الله بعبد خيرا لم يخله عن التنبه بالأمراض والمصائب ولذلك قيل لا تخلو

(١) حديث لا تزال الحمى والليل بالبدن حتى يمضى على الأرض كالبردة ماعليه خطيئة أبو يعلى وابن عدى من حديث أبي هريرة والطبراني من حديث أبي الدرداء نحوه وقال الصداع بدل الحمى ولطبراني في الأوسط من حديث أنس مثل المريض إذا صح وبرأ من مرضه كمثل البردة تقع من السماء تقع في صفاتها ولونها وأسانيده ضعيفة (٢) حديث حمى يوم كفارة سنة القضاعى في مسند الشهاب من حديث ابن مسعود بسند ضعيف وقال ليلة بدل يوم (٣) حديث لما ذكر رسول الله ﷺ كفارة الذنوب بالحمى سأل زيد بن ثابت أن لا يزال محمومًا الحديث وسأل ذلك طائفة من الأنصار أحمد وأبو يعلى من حديث أبي سعيد الخدرى بإسناد جيد أن رجلا من المسلمين قال يا رسول الله أرايت هذه الأمراض تصيبنا ما لنا فيها قال كفارات قال أبى وإن قلت قال فان شوكة لما فوقها قال فدعا أبى أن لا يفارقه الوعك حتى يموت الحديث ولطبراني في الأوسط من حديث أبى بن كعب أنه قال يا رسول الله ما جزاء الحمى قال تجري الحسنات على صاحبها ما اختلج عليه قدم أو ضرب عليه عرق فقال اللهم إني أسألك حمى لا تمنعني خروجا في سبيلك ولا خروجا إلى بيتك ولا مسجد نبيك الحديث والاسناد مجهول قاله طي بن المدني (٤) حديث من أذهب الله كرميته لم يرض له ثوابا دون الجنة تقدم للرفع منه دون قوله فلقد كان في الأنصار من يتعمى العمى.

الشیطان اذا حرك  
النفس هوت بجوانها  
الى مركزها من  
الفریة والطبع  
فظهر منها لحركتها  
خاطر ملائمة لتريزتها  
وطبيعتها وهواها  
فصارت خواطر النفس  
نتیجة لمة الشیطان  
فأصلها لثان وينتجان  
آخرین وخاطر الیقین  
والعقل مندرج فیها  
واقه أعلم

[ الباب الثامن  
والخسون في شرح  
الحال والمقام والفرق  
بينهما ]

قد كثر الاشتباه بين  
الحال والمقام واختلفت  
إشارات الشيوخ في  
ذلك ووجود الاشتباه  
لمكان تشابههما

الأوس من علة أو قلة أو زلة وقد روى «أن الله تعالى يقول الفقر سجنى والرض قيدي أحبس به من أحب من خلقى» فإذا كان في المرض حبس عن الطغيان وركوب المأصي فأى خير يزيد عليه ولم ينبغ أن يشتغل بصلاحه من يخاف ذلك على نفسه فالعافية في ترك المأصي فقد قال بعض العارفين لإنسان كيف كنت بعدى؟ قال في عافية قال إن كنت لم تمس الله عز وجل فأنت في عافية وإن كنت قد عصيته فأى داء أدوأ من المصيبة ما عوفى من عصي الله . وقال على كرم الله وجهه لما رأى زينة البطح بالمراقى في يوم عيد ما هذا الذى أظهره ؟ قالوا يا أمير المؤمنين هذا يوم عيدكم فقال كل يوم لا يمضى الله عز وجل فيه فهو لنا عيد . وقال تعالى - من بعد ما أراكم ماتحبون - قيل المواقى - إن الإنسان ليطغى أن رآه استغنى - وكذلك إذا استغنى بالعافية . وقال بعضهم : إنما قال فرعون : أنار بكم الأعلى لطول العافية لأنه لبث أربع مائة سنة لم يصدع له رأس ولم يعم له جسم ولم يضرب عليه عرق فادعى الربوبية لله والله ولواخذته الشقيقة يوما لشغلته عن الفضول فضلا عن دعوى الربوبية . وقال صلى الله عليه وسلم «أكثروا من ذكر هادم اللذات» (١) وقيل الحمى رائد الموت فهو مذكر له ودافع للتسوف ، وقال تعالى - أولايرون أنهم يفتنون في كل عام مرة أو مرتين ثم لا يتوبون ولا هم يذكرون - قيل يفتنون بأمراض يختبرون بها ، ويقال إن العبد إذا مرض مرضين ثم لم يقب قال له ملك الموت يا غافل جاءك منى رسول بعذر رسول فلم تجب ، وقد كان السلف لذلك يستوحشون إذا خرج عام ولم يصابوا فيه بنقص في نفس أو مال وقالوا لا يغفل المؤمن في كل أربعين يوما أن يروع روعة أو يصاب بيلية حتى روى أن عمار بن ياسر تزوج امرأة فلم تكن تمرض فطلقها وأن النبي صلى الله عليه وسلم «عرض عليه امرأة فحكي من وصفها حتى هم أن يتزوجها ، فقيل وانها ممرضة قط ، فقال لا حاجة لى فيها» (٢) . وذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال صلى الله عليه وسلم : إليك عنى من أراد أن ينظر إلى رجل من أهل النار فلي نظر إلى هذا وهذا» (٣) لأنه ورد في الخبر «الحمى حظ كل مؤمن من النار» (٤) . وفي حديث أنس وعائشة رضى الله عنهما «قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟ فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة» (٥) . وفي لفظ آخر «الذى يذكر ذنوبه فحزنه» ولا شك في أن ذكر الموت على المريض أغلب فلما أن كثرت فوائده المرض رأى جماعة ترك الحيلة في زوالها إذ رأوا أن تقسم مزيدا فيها لامن حيث رأوا التدأوى قصانا وكيف يكون قصانا وقد فعل ذلك صلى الله عليه وسلم .

في نفسهما وقد اخلهما قترأى للمرضى شيئا حالا وتزأى للمرضى مقاما وكلا الرؤيتين صحيح لوجود تداخلهما ولا بد من ذكر ضابط يفرق بينهما على أن الانظ والعبارة عنهما مشعر بالفرق بالحال مى حال التحول والقام مقاما لثبوته واستقراره وقد يكون الشيء بعينه حالا ثم يصير مقاما مثل أن ينبعث من باطن العبد داعية المحاسبة ثم تزول الداعية بظلمة صفات النفس ثم تعود ثم تزول فلا يزال العبد حال المحاسبة يتعاهد الحال ثم يحول الحال بظهور صفات النفس

(١) حديث أكثروا ذكر هادم اللذات الترمذى وقال حسن غريب والنسائى وابن ماجه من حديث أبى هريرة وقد تقدم (٢) حديث عرضت عليه امرأة فذكر من وصفها حتى هم أن يتزوجها فقيل فانها ممرضة قط فقال لا حاجة لى فيها أحمد من حديث أنس بنحوه باسناد جيد (٣) حديث ذكر رسول الله صلى الله عليه وسلم الأمراض والأوجاع كالصداع وغيره ، فقال رجل وما الصداع ما أعرفه فقال إليك عنى الحديث أبوداود من حديث عامر البرام أخى الحضرمي [١] بنحوه وفى إسناده من لم يسم (٤) حديث الحمى حظ كل مؤمن من النار البزار من حديث عائشة وأحمد من حديث أبى أمامة والطبرائى فى الأوسط من حديث أنس وأبو منصور والديلمى فى مسند الفردوس من حديث ابن مسعود وحديث أنس ضعيف وابقا حسان (٥) حديث أنس وعائشة قيل يا رسول الله هل يكون مع الشهداء يوم القيامة غيرهم ؟

( بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال )

فلو قال قائل إنما فعله رسول الله صلى الله عليه وسلم ليس لغيره وإلا فهو حال الضعفاء، ودرجة الأقوياء توجب التوكل بترك الدواء ، فيقال يذنب أن يكون من شرط التوكل ترك الحجابة والفصد عند تبليغ الدم . فان قيل إن ذلك أيضا شرك فليكن من شرطه أن تلذغه العقرب أو الحية فلا ينحبها عن نفسه ، إذ الدم يلذغ الباطن والعقرب تلذغ الظاهر فأى فرق بينهما ؟ . فان قال وذلك أيضا شرط التوكل فيقال يذنب أن لا يزيل لذغ العطش بالماء ولذغ الجوع بالخبز ولذغ البرد بالحية وهذا لا قائل به ، ولا فرق بين هذه الدرجات فان جميع ذلك أسباب رتبها مسبب الأسباب سبحانه وتعالى وأجرى بها سنته ، ويدل على أن ذلك ليس من شرط التوكل ما روى عن عمر رضى الله عنه وعن الصحابة في قصة الطاعون فاتهم لما قصدوا الشام واتهموا إلى الجاية بلغهم الخبر أن به موتا عظيما وبواء ذريعا فافترق الناس فرقتين ، فقال بعضهم لا ندخل على الوباء فنلقى بأيدينا إلى التهلكة ، وقالت طائفة أخرى بل ندخل ونتوكل ولا نهرب من قدر الله تعالى ولا نفر من الموت فنكون كمن قال الله تعالى فيهم - ألم تر إلى الذين خرجوا من ديارهم وهم ألوف حذر الموت - فرجعوا إلى عمر فسألوه عن رأيه ، فقال ترجع ولا ندخل على الوباء ، فقال له المخالفون في رأيه : أنفر من قدر الله تعالى ؟ قال عمر نعم نعم نعم من قدر الله إلى قدر الله ، ثم ضرب لهم مثلا ، فقال : أرايت لو كان لأحدكم غنم فهبط واديا له شعتان : إحداها نخصة ، والأخرى مجذبة أليس إن رعى النخصة رعاها بقدر الله تعالى وإن رعى المجذبة رعاها بقدر الله تعالى فقالوا نعم ثم طلب عبد الرحمن ابن عوف ليسأله عن رأيه وكان غائبا فلما أصبحوا جاء عبد الرحمن فسأله عمر عن ذلك ، فقال عندي فيه يأمر المؤمنين شيء سمعت من رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عمر الله أكبر قال عبد الرحمن سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه وإذا وقع في أرض وأتم بها فلا تخرجوا فرارا منه <sup>(١)</sup> » ففرح عمر رضى الله عنه بذلك وحمد الله تعالى إذ وافق رأيه ورجع من الجاية بالناس ، فاذن كيف اتفق الصحابة كلمهم على ترك التوكل وهو من أعلى المقامات إن كان أمثال هذا من شروط التوكل . فان قلت فلم نهى عن الخروج من البلد الذى فيه الوباء ، وسبب الوباء في الطب الهواء وأظهر طرق التداوى الفرار من الضر ، والهواء هو الضر فلم يرخص فيه ؟ . فاعلم أنه لا خلاف في أن الفرار عن الضر غير منهى عنه ، إذ الحجابة والفصد فرار من الضر وترك التوكل في أمثال هذا مباح وهذا لا يدل على المقصود ولكن الذى يتقدح فيه والعلم عند الله تعالى أن الهواء لا يضر من حيث إنه يلاقى ظاهر البدن بل من حيث دوام الاستنشاق له فانه إذا كان فيه عفونة ووصل إلى الرئة والقلب وباطن الأحشاء أثر فيها بطول الاستنشاق فلا يظهر الوباء على الظاهر إلا بعد طول التأثير في الباطن فالخروج من البلد لا يخص غالبا من الأمر الذى استحکم من قبل ولكن يتوهم الخلاص فيصير هذا من جنس الموهومات كالرقى والطيرة وغيرها ، ولو تجرد هذا المعنى لكان مناقضا للتوكل ولم يكن منبها عنه ولكن صار منبها عنه لأنه انضاف إليه أمر آخر وهو أنه لو رخص للأشخاص في الخروج لما بقى في البلد إلا المرضى الذين أقدمهم الطاعون فأنكسرت قلوبهم وقعدوا التمهدين ولم يبق في البلد من يسقيهم الماء ويطعمهم الطعام وهم يجزؤون عن مباشرتهما بأنفسهم فيكون ذلك سعيًا في إهلاكهم تحقيرًا وخلاصهم منتظر

فقال نعم من ذكر الموت كل يوم عشرين مرة لم أقف له على إسناد <sup>(١)</sup> حديث عبد الرحمن بن عوف إذا سمعتم بالوباء في أرض فلا تقدموا عليه الحديث وفي أوله قصة خروج عمر بالناس إلى الجاية وأنه بلغهم أن بالشام وباء الحديث رواه البخارى .

إلى أن تداركه  
المعونة من الله الكريم  
وبغلب حال المحاسبة  
وتستقهر النفس  
وتتضبط وتسلمكها  
المحاسبة قصير المحاسبة  
وطنه ومستقره ومقامه  
فيصير في مقام المحاسبة  
بعد أن كان له حال  
المحاسبة ، ثم ينزله  
حال المراقبة ، فمن  
كانت المحاسبة مقامه  
يصير له من المراقبة  
حال ، ثم يحول حال  
المراقبة لتناوب السهو  
والغفلة في باطن العبد  
إلى أن يتفشع ضباب  
السهو والغفلة ويتدارك  
الله عبده بالمعونة  
قصير المراقبة مقاما  
بعد أن كانت حالا ولا  
يستقر مقام المحاسبة

كما أن خلاص الأنصاء منتظر فلما أقاموا لم تكن الإقامة قاطمة بالموت ولو خرجوا لم يكن الخروج قاطما بالخلّاص وهو قاطع في إهلاك الباقيين وللسلمون كالبقيان يشدّ بفضله بضاد المؤمنين كالجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى إليه سائر أعضائه فهذا هو القى ينقذ عندنا في تعليل التبي وينعكس هذا فيمن لم يقدم على البذل فانه لم يؤثّر الهواء في باطنهم ولا بأهل البذل حاجة إليهم، نعم لو لم يبق بالبذل إلا مطعونون وانفقوا إلى التمهدين وقدم عليهم قوم فربما كان ينقذ استجباب الدخول ههنا لأجل الاعانة ولا ينهى عن الدخول لأنه تعرض لضرر موهوم على رجاء دفع ضرر عن جهة المسلمين، وبهذا شبه القرار من الطاعون في بعض الأخبار بالقرار من الزحف (١) لأن فيه كسرا لقلوب بقية المسلمين وسببا في إهلاكهم فهذه أمور دقيقة فمن لا يلاحظها وينظر إلى ظواهر الأخبار والآثار يتناقض عنده أكثر ماصمه وغلط العباد والزهاد في مثل هذا كثير وإنما شرف العلم وفضيلته لأجل ذلك . فان قلت ففي ترك التداوى فضل كما ذكرت فلم لم يترك رسول الله صلى الله عليه وسلم التداوى لينال الفضل ؟ . فتقول فيه فضل بالإضافة إلى من كثرت ذنوبه ليكفرها أو خاف على نفسه طغيان العافية وغلبة الشهوات أو احتاج إلى ما يذكره الموت لثبته النفلة أو احتاج إلى نيل ثواب الصابرين لقصوره عن مقامات الراضين والتوكلين أو نصرت بصيره عن الاطلاع على ما أودع الله تعالى في الأدوية من لطائف للنافع حتى صار في حقه موهوما كالرقى أو كان شغفه بحاله يمنع عن التداوى وكان التداوى يشغله عن حاله لضغفه عن الجمع فإلى هذه المعاني رجعت الصوارف في ترك التداوى وكل ذلك كالات بالإضافة إلى بعض الخلق وقصان بالإضافة إلى درجة رسول الله صلى الله عليه وسلم بل كان مقامه أعلى من هذه اللقائات كلها إذ كان حاله يقتضى أن تكون مشاهدته على وقيرة واحدة عند وجود الأسباب وقدّها فانه لم يكن له نظر في الأحوال إلا إلى مسبب الأسباب ومن كان هذا مقامه لم تضرم الأسباب كما أن الرغبة في المال تمنى والرغبة عن المال كراهية له وإن كانت كالا فهي أيضا قصص بالإضافة إلى من يستوى عنده وجود المال وعدمه فاستواء الحجر والذهب أو كل من الحرب من الذهب دون الحجر وكان حاله صلى الله عليه وسلم استواء للدر والذهب عنده وكان لا عسكه لتعليم الخلق مقام الزهد فانه منتهى قوتهم لالخوفه على نفسه من إمساكه فانه كان أعلى رتبة من أن ترقه الدنيا وقد عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها (٢) فكذلك يستوى عنده مباشرة الأسباب وتركها لمثل هذه المشاهدة وإنما لم يترك استعمال الدواء جريا على سنة الله تعالى وترخيصا لأمتة فيما تمس إليه حاجتهم مع أنه لا ضرر فيه بخلاف إدخال الأموال فان ذلك بعظم ضرره، نعم التداوى لا يضر إلا من حيث رؤية الدواء نافعا دون خالق الدواء وهذا قد نهى عنه ومن حيث إنه يقصده الصحة ليستعان بها على المصاعى وذلك منهى عنه والمؤمن في غالب الأمر لا يقصد ذلك وأحد من المؤمنين لا يرى الدواء نافعا بنفسه بل من حيث إنه جعله الله تعالى سببا للنفع كما لا يرى الماء مرويا ولا الحجر مشبعا فحكم التداوى في مقصوده كحكم الكسب فانه إن اكتسب للاستعانة على الطاعة أو على المعصية كان له حكمها وإن اكتسب للتعم المباح فله حكمه فقد ظهر بالمعاني التي أوردناها أن ترك التداوى قد يكون أفضل في بعض الأحوال ، وأن التداوى قد يكون أفضل في بعض ، وأن ذلك يختلف باختلاف الأحوال

قراره إلا بانزال حال المراقبة ولا يستقر مقام المراقبة قراره إلا بانزال حال المشاهدة فإذا منع العبد بانزال حال المشاهدة استقرت مراقبته وصارت مقامه ونازل المشاهدة أيضا يصكون حالا يحول بالاستتار ويظهر بالتجلى ثم يصير مقاما ويتخلص منه عن كسوف الاستتار ثم مقام المشاهدة أحوال وزيادات وترقيات من حال إلى حال أعلى منه كالتحقق بالقضاء والتخلص إلى البقاء والترقى من عين اليقين إلى حق اليقين وحق اليقين نازل يغرق شفاف القلب وذلك أعلى فروع

(١) حديث تشبيه القرار من الطاعون بالقرار من الزحف رواه أحمد من حديث عائشة بإسناد جيد ومن حديث جابر بإسناد ضعيف وقد تقدم (٢) حديث أنه عرضت عليه خزائن الأرض فأبى أن يقبلها تقدم ولقطة عرضت عليه مفاتيح خزائن السماء وكنوز الأرض فردّها .



والأشخاص والنيات وأن واحدا من الفعل والترك ليس شرطا في التوكل إلا ترك التوهومات كالسكى والرقى فان ذلك تعمق في التدبيرات لا يليق بالتوكلين .

### ( بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكنهانه )

اعلم أن كتمان المرض وإخفاء الفقر وأنواع البلاء من كنوز البرّ وهو من أعلى اللقائات لأن الرضا بحكم الله والصبر على بلائه معاملة بينه وبين الله عز وجل فكتمانه أسلم عن الآفات ومع هذا فلا يظهر لأبأس به إذا صحت فيه النية والمقصد ومقاصد الاظهار ثلاثة : الأول أن يكون مرضه التداوى فيحتاج إلى ذكره للطبيب فيذكره لاني معرض الشكاية بل في معرض الحكاية لما ظهر عليه من قدرة الله تعالى ، فقد كان بشر يصف لعبد الرحمن الطبيب أوجاعه وكان أحمد بن حنبل يخبر بأمراض يعجزها ويقول إنما أصف قدرة الله تعالى في . الثاني : أن يصف لعمر الطبيب وكان ممن يقتدى به وكان مكينا في المعرفة فأراد من ذكره أن يتعلم منه حسن الصبر في المرض بل حسن الشكر بأن يظهر أنه يرى أن المرض نعمة فيشكر عليها فيتحدث به كما يتحدث بالنعم . قال الحسن البصري : إذا حمد المريض لله تعالى وشكره ثم ذكر أوجاعه لم يكن ذلك شكوى . الثالث أن يظهر بذلك عجزه وانقاره إلى الله تعالى وذلك بحسن ممن تليق به القوة والشجاعة ويستبعد منه العجز كما روى أنه قيل لعلي في مرضه رضى الله عنه كيف أنت قال بشر فظهر بهضم إلى بعض كأنهم كرهوا ذلك وظنوا أنه شكاية فقال أجمد على الله ؟ فأجاب أن يظهر عجزه وانقاره مع ما علم به من القوة والضرارة وتأدب فيه بأدب النبي صلى الله عليه وسلم إياه حيث مرض على كرم الله وجهه فسمعه عليه السلام وهو يقول : اللهم صبرني على البلاء فقال له صلى الله عليه وسلم « لقد سألت الله تعالى البلاء فسل الله العافية » (١) فهذه النيات يرخس في ذكر المرض وإنما يشترط ذلك لأن ذكره شكاية والشكوى من الله تعالى حرام كاذكرته في تحريم السؤال على انقراء إلا بضرورة ويصير الاظهار شكاية بقرينة السخط وإظهار الكراهة لله تعالى فان خلا عن قرينة السخط وعن النيات التي ذكرناها فلا يوصف بالتحريم ولكن يحكم فيه بأن الأولى تركه لأنه ربما يوم الشكاية ولأنه ربما يكون فيه تصنع ومزيد في الوصف على الموجود من العلة ومن ترك التداوى توكلًا فلاوجه في حقه للاظهار لأن الاستراحة إلى الدواء أفضل من الاستراحة إلى الانقضاء ، وقد قال بعضهم من بث لم يصبر ، وقيل في معنى قوله - فصر جليل - لاشكوى فيه ، وقيل ليعقوب عليه السلام ما الذي أذهب بصرك ؟ قال مر الزمان وطول الأحران فأوحى الله تعالى إليه : تفرغت لشكواي إلى عبادي فقال يارب آتوب إليك ، وروى عن طاوس ومجاهد أنهما قالَا يكتب على المريض أنينه في مرضه وكانوا يكرهون أنين المريض لأنه إظهار معنى يقتضى الشكوى حتى قيل ما أصاب إبليس لعنه الله من أبوب عليه السلام إلا أنينه في مرضه فجعل الأنين حظه منه ، وفي الخبر « إذا مرض العبد أوحى الله تعالى إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده فان حمد الله وأثنى غير دعواه وإن شكا وذكر شرا قالَا كذلك تكون » (٢) وإنما كره بعض العباد العيادة خشية الشكاية وخوف الزيادة في الكلام فكان بعضهم إذا مرض أغلق بابَه فلم يدخل عليه أحد حتى يبرأ فيخرج إليهم منهم فضيل ووهيب وبشر ، وكان فضيل يقول أشتى أن أمرض بلا عواد وقال لا أكره العلة إلا لأجل العواد رضى الله عنه وعنه أجمين .

الشاهدة . وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم إني أسألك إيمانًا يياشر قلبي » قال سهل بن عبد الله للقلب تجويفان أحدهما باطن وفيه السمع والبصر وهو قلب القلب وسوداؤه والتجويف الثاني ظاهر القلب وفيه العقل ومثل العقل في القلب مثل النظر في العين وهو مقال لموضع مخصوص فيه بمنزلة الصقال الذي في سواد العين ومنه تنبعث الأشعة المحيطة بالمرئيات فهكذا تنبعث من نظر العقل أشعة العلوم المحيطة بالمعلومات وهذه الحالة التي خرفت شفاف

(١) حديث مرض على فسمعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يقول اللهم صبرني على البلاء فقال لقد سألت الله البلاء فسل الله العافية تقدم مع اختلاف (٢) حديث إذا مرض العبد أوحى الله إلى الملكين انظرا ما يقول لعواده الحديث تقدم .

كل كتاب التوحيد والتوكل بمون الله وحسن توفيقه يتلوه إن شاء الله تعالى كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا والله سبحانه وتعالى للوفق .

### ﴿ كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا ﴾

( وهو الكتاب السادس من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذي نزه قلوب أوليائه عن الالتفات إلى زخرف الدنيا ونضرتهم ، وصفي أسرارهم من ملاحظة غير حضرته ، ثم استخلصها للعكوف على بساط عزته ، ثم تجل لهم بأسمائه وصفاته حتى أشرفت بأنوار معرفته ، ثم كشف لهم عن سبجات وجهه حتى احترقت بنار محبته ، ثم احتجب عنها بكنهه جلالة حتى قاهت في يدهاء كبريائه وعظمته ، فكلما اهتزت لملاحظة كنهه الجلال غشيها من الدهش ما أغبر في وجه العقل وبصيرته ، وكلاهما بالانصراف آتية نوديت من سرادقات الجلال صبر أيها الآيس عن نيل الحق بجهله ومجملته ، فبقيت بين الرد والقبول والصد والوصول غرق في بحر معرفته ، ومحرقة بنار محبته . والصلاة على محمد خاتم الأنبياء بكال نبوته ، وعلى آله وأصحابه سادة الخلق وأئمة ، وقادة الحق وأزمته وسلم كثيرا .

[ أما بعد ] فإن المحبة لله هي الغاية القصوى من اللقائات والقدرة العليا من الدرجات فإما بعد إدراك المحبة مقام إلا هو ثمرة من ثمارها وتابع من توابعها كالشوق والأنس والرضا وأخواتها ولا قبل المحبة مقام إلا هو مقدمة من مقدماتها كالثوبة والصبر والزهد وغيرها وسائر اللقائات إن عر وجودها فلم تجل القلوب عن الإيمان بإمكانها ، وأما محبة الله تعالى فقد عز الإيمان بها حتى أنكر بعض الطغاة إمكانها ، وقال لا معنى لها إلا الواظبة على طاعة الله تعالى ، وأما حقيقة المحبة فحال لإمعان الجنس والنال ولما أنكروا المحبة أنكروا الأنس والشوق ولذة الناجاة وسائر لوازم الحب وتوابعه ولا بد من كشف النطاء عن هذا الأمر ، ونحن نذكر في هذا الكتاب بيان شواهد الشرع في المحبة ثم بيان حقيقتها وأسبابها ثم بيان أن لا مستحق للمحبة إلا الله تعالى ثم بيان أن أعظم اللذات لذة النظر إلى وجه الله تعالى ثم بيان سبب زيادة لذة النظر في الآخرة على العرفة في الدنيا ثم بيان الأسباب للقوية لحب الله تعالى ثم بيان السبب في تفاوت الناس في الحب ثم بيان السبب في قصور الأنفهام عن معرفة الله تعالى ثم بيان معنى الشوق ثم بيان محبة الله تعالى للعبد ثم القول في علامات محبة العبد لله تعالى ثم بيان معنى الأنس بالله تعالى ثم بيان معنى الانبساط في الأنس ثم القول في معنى الرضا وبيان فضيلته ثم بيان حقيقته ثم بيان أن الدعاء وكرهه المعاصي لا تناقضه وكذا الفرار من المعاصي ثم بيان حكايات وكلمات للذابين متفرقة ، فهذه جميع بيانات هذا الكتاب .

( بيان شواهد الشرع في حب العبد لله تعالى )

اعلم أن الأمة مجمعة على أن الحب لله تعالى ولرسوله صلى الله عليه وسلم فرض وكيف يفرض مالا وجود له وكيف يفرض الحب بالطاعة والطاعة تبع الحب وثمرته فلا بد وأن يقدم الحب ثم بعد ذلك يطيع من أحب ويدل على إثبات الحب لله تعالى قوله عز وجل - يحبهم ويحبونه - وقوله تعالى - والذين آمنوا أهدى الله - وهو دليل على إثبات الحب وإثبات التفاوت فيه وقد جعل رسول الله صلى الله عليه وسلم الحب لله من شرط الإيمان في أخبار كثيرة إذ قال أبو رزين العقيلي « يا رسول الله ما الإيمان قال أن يكون

القلب ووصلت إلى  
سويداته وهي حق  
اليقين هي أسنى المطايا  
وأعز الأحوال  
وأشرفها ونسبة هذه  
الحال من المشاهدة  
كنسبة الآجر من  
التراب إذ يكون ترابا  
ثم طينا ثم لبنا ثم أجرا  
فالمشاهدة هي الأول  
والأصل يكون منها  
الفناء كالطين ثم البقاء  
كاللبن ثم هذه الحالة  
وهي آخر الفروع .  
ولما كان الأصل في  
الأحوال هذه الحالة  
وهي أشرف الأحوال  
وهي محض موهبة  
لا تكتسب بحيث  
كل المواهب من  
النوازل بالعبد أحوالا  
لأنها غير مقدورة

﴿ كتاب المحبة والشوق والرضا ﴾

الله ورسوله أحب إليك مما سواهما (١) « وفي حديث آخر « لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما (٢) « وفي حديث آخر « لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين (٣) « وفي رواية « ومن نفسه » كيف وقد قال تعالى - قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم - الآية. وإنما أجرى ذلك في معرض التهديد والانسكار وقد أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالهبة فقال « أحبوا الله ما يذكركم به من نعمه وأحبوني لحب الله إياي (٤) « وروى « أن رجلا قال يارسول الله إنني أحبك فقال ﷺ : استمد للفقر فقال إني أحب الله تعالى قال استمد للبلاء (٥) « وعن عمر رضي الله عنه قال « نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به فقال النبي صلى الله عليه وسلم : انظروا إلى هذا الرجل ألقى نور الله قلبه لقد رأيت بين أبيه يذوانه بأطيب الطعام والشراب فنداه حب الله ورسوله إلى ما ترون (٦) « وفي الخبر المشهور « إن إبراهيم عليه السلام قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه : هل رأيت خليلا يميت خليله فأوحى الله تعالى إليه هل رأيت محبا يكره لقاء حبيبه فقال يا ملك الموت الآن فأقبض (٧) « وهذا لا يعده إلا عبد يحب الله بكل قلبه . فإذا علم أن الموت سبب اللقاء انزعج قلبه إليه ولم يكن له محبوب غيره حتى يلتفت إليه وقد قال نبينا صلى الله عليه وسلم في دعائه « اللهم ارزقني حبك وحب من أحببك وحب ما يقربني إلى حبك واجعل حبك أحب إليّ من الماء البارد (٨) « وجاء أعرابي إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال « يارسول الله متى الساعة ؟ قال ما أعددت لها أعددت لها كثير صلاة ولا صيام إلا أني أحب الله ورسوله فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم المرء مع من أحب (٩) « قال أنس لما رأيت المسلمين فرحوا حتى بعد الإسلام فرحهم بذلك . وقال أبو بكر الصديق رضي الله عنه من ذاق من خالص حبة الله تعالى شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحشه عز جميع البشر . وقال الحسن من عرف ربه أحبه ومن عرف الدين اهتدى فيه والوؤ من لا يلهو حتى يغفل فإذا تفكر حزن . وقال أبو سليمان الداراني

(١) حديث أبي رزين العقيلي أنه قال يارسول الله ما الإيمان ؟ قال أن يكون الله ورسوله أحب إليك مما سواهما أخرجه أحمد بزيادة في أوله (٢) حديث لا يؤمن أحدكم حتى يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما متفق عليه من حديث أنس بلفظ لا يجد أحد حلاوة الإيمان حتى أكون أحب إليه من أهله وماله وذكره بزيادة (٣) حديث لا يؤمن العبد حتى أكون أحب إليه من أهله وماله والناس أجمعين وفي رواية ومن نفسه متفق عليه من حديث أنس واللفظ لمسلم دون قوله ومن نفسه وقال البخاري من والده وولده وله من حديث عبد الله بن هشام قال عمر يارسول الله لأنك أحب إليّ من كل شيء إلا نفسي فقال لا والذي نفسي بيده حتى أكون أحب إليك من نفسك فقال عمر فأنت الآن والله أحب إليّ من نفسي فقال الآن يا عمر (٤) حديث أحبوا الله لما يذكركم به من نعمه الحديث الترمذي من حديث ابن عباس وقال حسن غريب (٥) حديث إن رجلا قال يارسول الله إنني أحبك فقال استمد للفقر الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن مغفل بلفظ فأعد للفقر تحفا دون آخر الحديث وقال حسن غريب (٦) حديث عمر قال نظر النبي صلى الله عليه وسلم إلى مصعب بن عمير مقبلا وعليه إهاب كبش قد تنطق به الحديث أبو نعيم في الحلية بأسناد حسن (٧) حديث إن إبراهيم قال لملك الموت إذ جاءه لقبض روحه هل رأيت خليلا يقبض خليله الحديث لم أجد له أصلا (٨) حديث اللهم ارزقني حبك وحب من يحبك الحديث تقدم (٩) حديث قال أعرابي يارسول الله متى الساعة قال ما أعددت لها الحديث متفق عليه من حديث أنس ومن حديث أبي موسى وابن مسعود بنحوه .

للعبد يكسبه فأطلقوا القول وتداولت السنة الشيوع أن القامات مكاسب والأحوال مواهب وعلى الترتيب الذي درجنا عليه كلها مواهب إذ المكاسب محفوفة بالمواهب والمواهب محفوفة بالمكاسب فالأحوال مواجيد والقامات طرق المواجيد ولكن في القامات ظهر الكسب وبطنت المواهب وفي الأحوال بطن الكسب وظهرت المواهب فالأحوال مواهب علوية صماوية والقامات طرقها وقول أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه سلوني عن طرق

إن من خلق الله خلقا ما يشغلهم الجنان وما فيها من النعيم عنه فكيف يشغلون عنه بالدنيا . وروى  
أن عيسى عليه السلام مر بثلاثة نفر قد نخلت أبدانهم وتغيرت ألوانهم فقال لهم ما الذي بلغ بكم ما أرى  
فقالوا الحرف من النار فقال حق على الله أن يؤمن الحائف ثم جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا  
وتغيرا فقال ما الذي بلغ بكم ما أرى قالوا الشوق إلى الجنة فقال حق على الله أن يعطيكم ما ترجون ثم  
جاوزهم إلى ثلاثة آخرين فاذا هم أشد نحولا وتغيرا كأن على وجوههم البراقع فقال ما الذي بلغ  
بكم ما أرى قالوا نحب الله عز وجل فقال أنتم المعبودون أنتم المقربون . وقال عبد الواحد بن زيد  
مررت برجل قائم في الحاج فقلت أما تجد البرد فقال من شغل حب الله لم يجد البرد . وعن سري السقطي  
تدعى الأمم يوم القيامة بأبنائها عليهم السلام فقال يا أمة موسى ويا أمة عيسى ويا أمة محمد غير  
المحبين لله تعالى فانهم نادون يا أولياء الله هلموا إلى الله سبحانه فتكاد قلوبهم تتخلع فرحا . وقال هرم  
ابن حيان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل إليه وإذا وجد حلاوة الاقبال إليه  
لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحسره في الدنيا وتروحه في الآخرة .  
وقال يحيى بن معاذ عفوه يستغرق الذنوب فكيف رضوانه ورضوانه يستغرق الآمال فكيف حبه وحبه  
يدهش العقول فكيف ودهوده ينسى مادونه فكيف لطفه . وفي بعض الكتب عبيد أنا وحقت لك  
عجب فبحق عليك كن لي محبا . وقال يحيى بن معاذ مثقال خردلة من الحب أحب إلى من عبادة سبعين  
سنة بلا حب . وقال يحيى بن معاذ إني مقيم بفنائك مشغول بفنائك صغيرا أخذتني إليك وسر بلتني  
بمرفقتك وأمكنني من لطفك وتمتني في الأحوال وقلبتني في الأعمال سترا وتوبة وزهدا وشوقا ورضا  
وحبا تسقني من حياضك وتهملني في رياضك ملازما لأمرك ومشغولا بقولك ولما طرت شاربي ولاح  
طأري فكيف أنصرف اليوم عنك كبيرا وقد اعتدت هذا منك صغيرا فلي ما بقيت حولك دندنه  
وبالضراعة إليك هممة لأنى محب وكل محب بحبيبه مشغوف وعن غير حبيبه مصروف وقد ورد  
في حب الله تعالى من الأخبار والآثار ما لا يدخل في حصر حاصر وذلك أمر ظاهر وإتمام الغموض  
في تحقيق معناه فلنشتغل به .

( بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة العبد لله تعالى )

اعلم أن الطلب من هذا الفصل لا ينكشف إلا بمعرفة حقيقة المحبة في نفسها ثم معرفة شروطها وأسبابها  
ثم النظر بعد ذلك في تحقيق معناها في حق الله تعالى : فأول ما ينبغي أن يتحقق أنه لا يتصور محبة إلا  
بعد معرفة وإدراك إدراك لا يحب الإنسان إلا ما يعرفه ولذلك لم يتصور أن يتصف بالحب جاد بل هو من  
خاصية الحى المدرك ثم المدركات في انقسامها تنقسم إلى ما يوافق طبع المدرك ويلائمه ويلذه وإلى  
ما ينافيه وينافره ويؤله وإلى ما لا يؤثر فيه بإيلاهم وإلا فكل ما في إدراكه لذة وراحة فهو محبوب  
عند المدرك وما في إدراكه ألم فهو مبغوض عند المدرك وما يخلو عن استعقاب ألم ولذة لا يوصف  
بكونه محبوبا ولا مكروها فاذن كل لذية محبوب عند الملتذبه ومعنى كونه محبوبا أن في الطبع ميلا إليه  
ومعنى كونه مبغوضا أن في الطبع نفرة عنه فالحب عبارة عن ميل الطبع إلى الشيء اللذذ فان تأكد  
ذلك الميل وقوى سمي عشقا والبغض عبارة عن نفرة الطبع عن المؤلم المتعب فاذا قوى سمي مقتافها  
أصل في حقيقة معنى الحب لا بد من معرفته . الأصل الثاني : أن الحب لما كان تابعا للإدراك  
والمعرفة انقسم لا محالة بحسب انقسام المدركات والحواس فكل حاسة إدراك لنوع من المدركات  
والكل واحد منها لذة في بعض المدركات وللطبع بسبب تلك اللذة ميل إليها فكانت محبوبات عند الطبع  
المستليم فلذة العين في الابصار وإدراك المبصرات الخلية والصور اللطيفة الحسنة المستلذة ولذة الأذن في  
المنعمات الطيبة للموزونة ولذة الشم في الروائح الطيبة ولذة الذوق في الطعوم ولذة اللس في اللين والنعومة

السموات فاني أعرف  
بها من طرق الأرض  
إشارة إلى القامات  
والأحوال فطرق  
السموات التوبة والزهد  
وغير ذلك من القامات  
فان السالك لهذه  
الطرق يصير قلبه  
مماويا وهي طرق  
السموات ومتزل  
البرصكات وهذه  
الأحوال لا يتحقق بها  
إلا ذو قلب سهاوى .  
قال بعضهم الحال هو  
الذكر الخفى وهذا  
إشارة إلى شيء مما  
ذكرناه وصحمت الشايع  
بالمرق يقولون الحال  
مامن الله فكل  
ما كان من طريق  
الاكتساب والأعمال  
يقولون هذا مامن  
العبد فاذا لاح للمريد

ولما كتب هذه المدركات بالحواس ملذذة كانت محبوبة أى كان للطبع السليم ميل إليها حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «حب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء وجعل قرعة عيني في الصلاة» (١) فسمى الطيب محبوا ومعلوم أنه لاحظ للمعين والسمع فيه بل للشم فقط وسمى النساء محبوبات ولاحظ فيهن إلا للبصر والشم دون الشم والذوق والسمع وسمى الصلاة قرعة عين وجعلها أبلغ المحبوبات ومعلوم أنه ليس تحظى بها الحواس الخمس بل حس سادس مقلته القلب لا يدركه إلا من كان له قلب ولذلك الحواس الخمس تشارك فيها البهائم الإنسان فإن كان الحب مقصورا على مدركات الحواس الخمس حتى يقال إن الله تعالى لا يدرك بالحواس ولا يتمثل في الخيال فلا يجب فاذن قد بطلت خاصية الإنسان وما عيّن به من الحس السادس الذي يعبر عنه إما بالعقل أو بالنور أو بالقلب أو عاشت من العبارات فلا مشاحة فيه وهيئات فالبصيرة الباطنة أقوى من البصر الظاهر والقلب أشد إدراكا من العين وجمال المعاني المدركة بالعقل أعظم من جمال الصور الظاهرة للأبصار فتكون لا محالة لغة القلب بما يدركه من الأمور الشريفة الإلهية التي تجل عن أن تدركها الحواس أتم وأبلغ فيكون ميل الطبع السليم والعقل الصحيح إليه أقوى ولا معنى للحب إلا لليل إلى ما في إدراكه لذة كما سيأتي تفصيله فلا يسكر إذا حب الله تعالى إلا من قد به القصور في درجة البهائم فلم يجاوز إدراك الحواس أصلا . الأصل الثالث : أن الإنسان لا يخفى أنه يحب نفسه ولا يخفى أنه قد يحب غيره لأجل نفسه وهل يتصور أن يحب غيره لذاته لأجل نفسه هذا مما قد يشكل على الضعفاء حتى يظنون أنه لا يتصور أن يحب الإنسان غيره لذاته ما لم يرجع منه حظ إلى المحب سوى إدراك ذاته والحق أن ذلك متصور وموجود فلبين أسباب المحبة وأقسامها وبيان أن المحبوب الأول عند كل حي نفسه وذاته ومعنى حبه لنفسه أن في طبعه ميلا إلى دوام وجوده ونفرة عن عدمه وهلاكه لأن المحبوب بالطبع هو اللام للحب وأي شيء أتم ملازمة من نفسه ودوام وجوده وأي شيء أعظم مضادة ومنافرة له من عدمه وهلاكه فلذلك يحب الإنسان دوام الوجود ويكره الموت والقتل لا مجرد ما يخافه جسد الموت ولا مجرد الحذر من سكرات الموت بل لو اختطف من غير ألم وأميت من غير ثواب ولا عقاب لم يرض به وكان كارها لذلك ولا يحب الموت والعدم المحض إلا لمقاساة ألم في الحياة ومهما كان مبتلى بلاء فحجوبه زوال البلاء فإن أحب العدم لم يحبه لأنه عدم بل لأن فيه زوال البلاء فالهلاك والعدم محموت ودوام الوجود محبوب وكان دوام الوجود محبوب فكأن الوجود أيضا محبوب لأن الناقص فاقد للكمال والنقص عدم بالإضافة إلى القدر الفقود وهو هلاك بالنسبة إليه والهلاك والعدم محموت في الصفات وكأن الوجود كما أنه محموت في أصل الذات ووجود صفات الكمال محبوب كما أن دوام أصل الوجود محبوب وهذه غريزة في الطباع بحكم سنة الله تعالى - ولن تجد لسنة الله تبديلا - فاذن المحبوب الأول للإنسان ذاته ثم سلامة أعضائه ثم ماله وولده وعشيرته وأصدقاؤه فالأعضاء محبوبة وسلامتها مطلوبة لأن كمال الوجود ودوام الوجود موقوف عليها والمال محبوب لأنه أيضا آلة في دوام الوجود وكأله وكذا سائر الأسباب . فالإنسان يحب هذه الأشياء للأغنياء بها بل لارتباط حظه في دوام الوجود وكأله بها حتى إنه يحب ولده وإن كان لا يناله منه حظ بل يتعمل للشاق لأجله لأنه يخافه في الوجود بعد عدمه فيكون في بقاء نفسه نوع بقاء له فلفرط حبه لبقاء نفسه يحب بقاء من هو قائم مقامه وكأنه جزء منه لما يحجز عن الطمع في بقاء نفسه أبدا ، نعم لو خير بين قتله وقتل ولده وكان طبعه باقيا على اعتداله آثر بقاء نفسه على بقاء ولده

(١) حديث حب إلى من دنياكم ثلاث الطيب والنساء الحديث النسائي من حديث أنس دون قوله ثلاث وقد تقدم .

شيء من اللوالب  
وللواجد قالوا هذا  
مامن الله ومحموه حالا  
إشارة منهم إلى أن  
الحال موهبة . وقال  
بعض مشايخ خراسان  
الأحوال موارث  
الأعمال . وقال بعضهم  
الأحوال كالبروق  
فإن بقي فحدث النفس  
وهذا لا يكاد يستقيم على  
الاطلاق وإنما يكون  
ذلك في بعض الأحوال  
فإنها تسطرق ثم تستلبها  
النفس فأما على الإطلاق  
فلا والأحوال لا تغتريج  
بالنفس كالماء -  
لا يغتريج بالماء .  
وذهب بعضهم إلى  
أن الأحوال لا تكون

لأن بقاء ولده يشبه بقاءه من وجه وليس هو بقاءه الحق وكذلك حبه لأقاربه وعشيرته يرجع إلى حبه  
لكمال نفسه فانه يرى نفسه كثيرا بهم قويا بسببهم متجسلا بكاملهم فان العشرة والمال والأسباب  
الخارجة كالجناح الكمل للانسان وكمال الوجود ودوامه محبوب الطبع لا محالة فاذا كان المحبوب الأول عند  
كل حي ذاته وكمال ذاته ودوام ذلك كله والسكره عنده ضد ذلك فهذا هو أول الأسباب السبب الثاني:  
الاحسان فان الانسان عبد الاحسان وقد جبلت القلوب على حب من أحسن إليها وبغض من أساء إليها  
وقال رسول الله ﷺ «اللهم لا تجعل لنا جزا على» بدا فيحبه قلبي<sup>(١)</sup> إشارة إلى أن حب القلب لله حسن  
اضطرار لا استطاع دونه وهو جيلة وفطرة لا سبيل إلى تغييرها وبهذا السبب قد يحب الانسان الأجنبي  
الذي لا قرابة بينه وبينه ولا علاقة وهذا إذا حقق رجوع إلى السبب الأول فان المحسن من أمد بالمال  
والعونة وسائر الأسباب الموصلة إلى دوام الوجود وكمال الوجود وحصول الحظوظ التي يتهيأ الوجود  
إلا أن الفرق أن أعضاء الانسان محبوبة لأن بها كمال وجوده وهي عين الكمال المطلوب فأما المحسن  
فليس هو عين الكمال المطلوب ولكن قد يكون سببا له كالطبيب الذي يكون سببا في دوام صحة  
الأعضاء ففرق بين حب الصحة وبين حب الطبيب الذي هو سبب الصحة إذ الصحة مطلوبة لذاتها  
والطبيب محبوب لا لذاته بل لأنه سبب للصحة وكذلك العلم محبوب والأستاذ محبوب ولكن العلم  
محبوب لذاته والأستاذ محبوب لسكونه حبب العلم المحبوب وكذلك الطعام والشراب محبوب والدنانير  
محبوبة لكن الطعام محبوب لذاته والدنانير محبوبة لأنها وسيلة إلى الطعام فاذا يرجع الفرق إلى  
تفاوت الرتبة وإلا فكل واحد يرجع إلى محبة الانسان نفسه فكل من أحب المحسن لاحسانه فأحب  
ذاته تحقيقا بل أحب إحسانه وهو فعل من أفعاله لو زال زال الحب مع بقاء ذاته تحقيقا ولو قصص قصص  
الحب ولو زاد زاد ويتطرق إليه الزيادة والنقصان بحسب زيادة الاحسان ونقصانه . السبب الثالث أن  
يحب الشيء لذاته لا لحظ يتال منه وراء ذاته بل تكون ذاته عين حظه وهذا هو الحب الحقيقي البالغ  
الذي يوثق بدوامه وذلك كحب الجمال والحسن فان كل جمال محبوب عند مدرك الجمال وذلك  
لمين الجمال لأن إدراك الجمال فيه عين اللذة واللذة محبوبة لذاتها لا لغيرها ولا تنتظن أن حب  
الصورة الجميلة لا يتصور إلا لأجل قضاء الشهوة فان قضاء الشهوة لذة أخرى قد تحب الصور الجميلة  
لأجلها وإدراك نفس الجمال أيضا لذية فيجوز أن يكون محبوا لذاته وكيف ينكر ذلك والخضرة  
والماء الجاري محبوب لا ليشرب الماء وتؤكل الخضرة أو يتال منها حظ سوى نفس الرؤية وقد  
كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يعجبه الخضرة والماء الجاري<sup>(٢)</sup> والطباع السليمة قاضية باستلذاذ  
النظر إلى الأنوار والأزهار والأطيار المليحة الألوان الحسنة النقش المتناسبة الشكل حتى إن  
الانسان لتفرج عنه الصوم والمحموم بالنظر إليها لا لطلب حظ وراء النظر فهذه الأسباب ملذة  
وكل لذية محبوب وكل حسن وجمال فلا يخلو إدراكه عن لذة ولا أحد ينكر كون الجمال محبوبا  
بالطبع فان ثبت أن الله جميل كان لا محالة محبوا عند من انكشف به جماله وجلاله كما قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم «إن الله جميل يحب الجمال»<sup>(٣)</sup> .

[الأصل الرابع في بيان معنى الحسن والجمال] اعلم أن المحبوس في مضيق الخيالات والمحموسات

(١) حديث اللهم لا تجعل لكافرا على يدا فيحبه قلبي أبو منصور الديلمي في مستند القردوس من حديث  
معاذ بن جبل بسند ضعيف منقطع وقد تقدم (٢) حديث كان يعجبه الخضرة والماء الجاري أبو نعيم في  
الطب النبوي من حديث ابن عباس أن النبي صلى الله عليه وسلم كان يحب أن ينظر إلى الخضرة وإلى الماء  
الجاري وإسناده ضعيف (٣) حديث إن الله جميل يحب الجمال مسلم في أثناء حديث لابن مسعود.

إلا إذا دامت فأما إذا  
لم تدم فهي لوائح  
وطوالع وبوادروهي  
مقدمات الأحوال  
وليست بأحوال .  
واختاف المشايخ في أن  
العبد هل يجوز له أن  
ينتقل إلى مقام غير  
مقامه الذي هو فيه  
قبل إحكام حكم مقامه .  
قال بعضهم : لا ينبغي  
أن ينتقل عن الذي هو  
فيه دون أن يحكم حكم  
مقامه . وقال بعضهم :  
لا يكمل المقام الذي هو  
فيه إلا بعد ترقية إلى  
مقام فوقه فينظر من  
مقامه العالي إلى مادونه  
من المقام فيحكم أمر  
مقامه . والأولى أن يقال  
والله أعلم : الشخص في  
مقامه يمتطي حالا من

ربما يظن أنه لا معنى للحسن والجمال إلا تناسب الحلقة والشكل وحسن اللون وكون البياض مشربا بالحمرة وامتداد القامة إلى غير ذلك مما يوصف من جمال شخص الإنسان فإن الحسن الأغلب على الخلق حسن الإبصار وأكثر التفاتهم إلى صور الأشخاص فيظن أن ما ليس مبصرا ولا متخيلا ولا متشكلا ولا متلونا مقدر فلا يتصور حسنه وإذا لم يتصور حسنه لم يكن في إدراكه لثمة فلم يكن محبوبا وهذا خطأ ظاهر فإن الحسن ليس مقصورا على مدركات البصر ولا على تناسب الحلقة وامتزاج البياض بالحمرة فانا نقول هذا خط حسن وهذا صوت حسن وهذا فرس حسن بل قول هذا ثوب حسن وهذا إله حسن فأى معنى لحسن الصوت والخط وسائر الأشياء إن لم يكن الحسن إلا في الصورة ومعلوم أن المعين تستلذ بالنظر إلى الخط الحسن والأذن تستلذ استماع النغمات الحسنة الطيبة وما من شيء من اللدركات إلا وهو منقسم إلى حسن وقبيح فلهذا معنى الحسن الذى تشترك فيه هذه الأشياء فلا بد من البحث عنه وهذا البحث يطول ولا يليق بعلم العامة الاطباب فيه فنصرح بالحق ونقول كل شيء بمجمله وحسنه في أن يحضر كماله اللائق به الممكن له فإذا كان جميع كماله الممكنة حاضرة فهو في غاية الجمال وإن كان الحاضر بعضها فله من الحسن والجمال بقدر ما حضر فالفرس الحسن هو الذى جمع كل ما يليق بالفرس من هيئة وشكل ولون وحسن عدو وتيسر كركر وفر عليه والخط الحسن كل ما جمع ما يليق بالخط من تناسب الحروف وتوازيها واستقامة ترتيبها وحسن انتظامها ولكل شيء كمال يليق به وقد يليق بغيره ضده فحسن كل شيء في كماله الذى يليق به فلا يحسن الإنسان بما يحسن به الفرس ولا يحسن الخط بما يحسن به الصوت ولا يحسن الأواني بما يحسن به الثياب وكذلك سائر الأشياء . فان قلت فهذه الأشياء وإن لم تدرك جميعها بحس البصر مثل الأصوات والطعوم فانها لا تنفك عن إدراك الحواس لها ففى محسوسات وليس ينكر الحسن والجمال للمحسوسات ولا ينكر حصول اللذة بإدراك حسنها وإنما ينكر ذلك في غير اللدرك بالحواس . فاعلم أن الحسن والجمال موجود في غير المحسوسات إذ يقال هذا خلق حسن وهذا علم حسن وهذه سيرة حسنة وهذه أخلاق جميلة وإنما الأخلاق الجميلة يراد بها العلم والعقل والعفة والشجاعة والتقوى والكرم والروء وسائر خلال الخير وشيء من هذه الصفات لا يدرك بالحواس الخمس بل يدرك بنور البصيرة الباطنة وكل هذه الخلال الجميلة محبوبة والموصوف بها محبوب بالطبع عند من عرف صفاته وآية ذلك وأن الأمر كذلك أن الطباع محبولة على حب الأنبياء صلوات الله عليهم وعلى حب الصحابة رضى الله تعالى عنهم مع أنهم لم يشاهدوا بل على حب أبواب المذاهب مثل الشافعى وأبى حنيفة ومالك وغيرهم حتى إن الرجل قد يجاوز به حبه لصاحب مذهبه حد العشق فيحمله ذلك على أن ينفق جميع ماله في نصرة مذهبه والذب عنه ويخطر بروحه في قتال من يطعن في إمامه ومتبوعه فيكمن من دم أربق في نصرة أبواب المذاهب وليت شعري من يحب الشافعى مثلاف محبه ولم يشاهد قط صورته ولو شاهده ربما لم يستحسن صورته فاستحسانه الذى حمله على إفراط الحب هو لصورته الباطنة لا لصورته الظاهرة فان صورته الظاهرة قد انقلبت ترابا مع التراب وإنما يحبه لصفاته الباطنة من الدين والتقوى وغزارة العلم والاحاطة بحدارك الدين وانتهاءه لافادة علم الشرع ولشهره هذه الخيرات في العالم وهذه أمور جميلة لا يدرك جمالها إلا بنور البصيرة فأما الحواس فقاصرة عنها وكذلك من يحب أبابكر الصديق رضى الله عنه ويفضله على غيره أو يحب عليا رضى الله تعالى عنه ويفضله ويتعصب له فلا يحبهم إلا لاستحسان صورهم الباطنة من العلم والدين والتقوى والشجاعة والكرم وغيره فمعلوم أن من يحب الصديق رضى الله تعالى عنه مثلا ليس يحب عظمه ولحمه وجهه وأطرافه وشكله إذ كل ذلك زال وتبدل وانعدم ولكن بقي ما كان الصديق به صديقا وهى الصفات الحمودة التى هى مصادر السير الجميلة فكان الحب باقيا

مقامه الأعلى الذى سوف يرتقى إليه فيوجد أن ذلك الحال يستقيم أمر مقامه الذى هو فيه ويتصرف الحق فيه كذلك ولا يضاف الشيء إلى العبد أنه يرتقى أولا يرتقى فان العبد بالآحوال يرتقى إلى المقامات والآحوال مواهب ترقى إلى المقامات التى يترج فيها الكسب بالموهبة ولا يلوح للعبد حال من مقام أعلى مما هو فيه إلا وقد قرب رقيه إليه فلا يزال العبد يرقى إلى المقامات بزيادة الآحوال فعلى ما ذكرناه يتضح تداخل المقامات والآحوال حتى التوبة

بقاء تلك الصفات مع زوال جميع الصور ، وتلك الصفات ترجع جملتها إلى العلم والقدرة إذا علم حقائق الأمور وقدر على حمل نفسه عليها بقهر شهواته لجميع خلال الخير ينشعب على هذين الوصفين ، وهما غير مدركين بالحس ومحلها من جملة البدن جزء لا يتجزأ فهو المحبوب بالحقيقة وليس للجزء الذي لا يتجزأ صورة وشكل ولون يظهر للبصر حتى يكون محبوا لأجله ، فاذن الجمال موجود في السير ولو صدرت السيرة الجميلة من غير علم وبصيرة لم يوجب ذلك حبا فالمحسوب مصدر السير الجميلة ، وهي الأخلاق الحميدة والفضائل الشريفة ، وترجع جملتها إلى كمال العلم والقدرة وهو محبوب بالطبع وغير مدرك بالحواس حتى إن الصبي الخلق وطبعه إذا أردنا أن نجيب إليه غائبا أو حاضرا حبا أومينا لم يكن لنا سبيل إلا بالاطناب في وصفه بالشجاعة والكرم والعلم وسائر الخصال الحميدة فلهما اعتقد ذلك لم يتماثل في نفسه ولم يقدر أن لا يحبه فهل غلب حب الصحابة رضي الله تعالى عنهم وبغض أبي جهل وبغض إبليس لعنه الله إلا بالاطناب في وصف المحاسن واللقايع التي لا تدرك بالحواس بل لما وصف الناس حاتمًا بالسخاء ووصفوا خالدًا بالشجاعة أحبهم القلوب حبا ضروريا وليس ذلك عن نظر إلى صورة محسوسة ولا عن حظ يناله الحب منهم بل إذا حكى من سيرة بعض الملوك في بعض أنظار الأرض العدل والإحسان وإفاضة الخير غلب حبه على القلوب مع اليأس من انتشار إحسانه إلى المحبين لبعد الزار ونأي الديار ، فاذن ليس حب الإنسان مقصورا على من أحسن إليه بل المحسن في نفسه محبوب وإن كان لا ينتهي قط لإحسانه إلى الحب لأن كل جمال وحسن فهو محبوب والسورة ظاهرة وباطنة والحسن والجمال يشملهما ، وتدرك الصور الظاهرة بالبصر الظاهر والصور الباطنة بالبصيرة الباطنة ، فمن حرم البصيرة الباطنة لا يدركها ولا يلتذ بها ولا يحبها ولا يعيل إليها ، ومن كانت البصيرة الباطنة أغلب عليه من الحواس الظاهرة كان حبه للمعاني الباطنة أكثر من حبه للمعاني الظاهرة ففتان بين من يحب نقشا مصورا على الحائط للجمال صورته الظاهرة وبين من يحب نبيا من الأنبياء لجمال صورته الباطنة . السبب الخامس : المناسبة الخفية بين الحب والمحبوب ، إذ رب شخصين تتأكد المحبة بينهما لا بسبب جمال أو حظ ولكن بمجرد تناسب الأرواح كما قال صلى الله عليه وسلم « لما تعارف منها ائتلف ولمتنا كرمها اختلف <sup>(١)</sup> » وقد حققنا ذلك في كتاب آداب الصحبة عند ذكر الحب في الله فليطلب منه لأنه أيضا من عجائب أسباب الحب ، فاذن ترجع أنسام الحب إلى خمسة أسباب ، وهو حب الإنسان وجود نفسه وكاله وبقائه وحبه من أحسن إليه فيما يرجع إلى دوام وجوده ويعين على بقائه ودفع الهلكات عنه وحبه من كان محسنا في نفسه إلى الناس وإن لم يكن محسنا إليه وحبه لكل ما هو جميل في ذاته ، سواء كان من الصور الظاهرة أو الباطنة وحبه لمن بينه وبينه مناسبة خفية في الباطن فلو اجتمعت هذه الأسباب في شخص واحد تضاعف الحب لاحتالة كما لو كان للإنسان ولد جميل الصورة حسن الخلق كامل العلم حسن التدبير محسن إلى الخلق ومحسن إلى الوالد كان محبوا لاحتالة غاية الحب وتكون قوة الحب بعد اجتماع هذه الخصال بحسب قوة هذه الخلال في نفسها ، فإن كانت هذه الصفات في أقصى درجات السكالات كان الحب لا محالة في أعلى الدرجات ، فلتبين الآن أن هذه الأسباب كلها لا يتصور كلها واجتماعها إلا في حق الله تعالى فلا يستحق المحبة بالحقيقة إلا الله سبحانه وتعالى .

ولا تعرف فضيلة إلا فيها حال ومقام وفي الزهد حال ومقام وفي التوكل حال ومقام وفي الرضا حال ومقام . قال أبو عثمان الخيري منذ أربعين سنة ما أقامني الله في حال فكرهته ، أشار إلى الرضا ويكون منه حالا ثم يصير مقاما والمحبة حال ومقام ولا يزال العبد يتقرب بطروق حال التوبة حتى يتوب وطروق حال التوبة بالانزجار أولا . قال بعضهم الزجر هيجان في القلب لا يسكنه إلا الاتقياء من القفلة فيرده إلى اليقظة فإذا تيمّظ أبصر الصواب من الخطأ .

(١) حديث لما تعارف منها ائتلف مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم في آداب الصحبة .



( بيان أن الاستحق للمحبة هو الله وحده )

وأن من أحب غير الله لامن حيث نسبته إلى الله لذلك لجهله وقصوره في معرفة الله تعالى وحبه الرسول صلى الله عليه وسلم محمود لأنه عين حب الله تعالى وكذلك حب العلماء والأتقياء لأن محبوب المحبوب محبوب ورسول المحبوب محبوب ومحب المحبوب محبوب وكل ذلك يرجع إلى حب الأصل فلا يتجاوز به إلى غيره فلا محبوب بالحقيقة عند ذوى البصائر إلا الله تعالى ولا مستحق للمحبة سواه . وإيضاحه بأن ترجع إلى الأسباب الخمسة التي ذكرناها ونبين أنها مجتمعة في حق الله تعالى بحملتها ولا يوجد في غيره إلا آحادها وأنها حقيقة في حق الله تعالى ووجودها في حق غيره وهم وتخييل ، وهو مجاز محض لاحقيقة له ومهما ثبت ذلك انكشف لكل ذى بصيرة ضد ما تخيله ضفاء العقول والقلوب من استحالة حب الله تعالى تحقياً وبأن أن التحقيق يقتضى أن لا يحب أحداً غير الله تعالى . فأما السبب الأول وهو حب الإنسان نفسه وبقاءه وكأله ودوام وجوده وبضئ لهلاكه وعدمه وتقصانه وقواطع كاله فهذه جيلة كل حى ، ولا يتصور أن ينفك عنها وهذا يقتضى غاية المحبة لله تعالى فإن من عرف نفسه وعرف ربه عرف قطعا أنه لا وجود له من ذاته وإنما وجود ذاته ودوام وجوده وكأله وجوده من الله وإلى الله وبالله فهو المبتدع الوجد له وهو البقى له وهو الكل لوجوده بخلق صفات الكمال وخلق الأسباب للوصول إليه وخلق الهداية إلى استعمال الأسباب وإلا فالعبد من حيث ذاته لا وجود له من ذاته بل هو محض وعدم صرف له لا فضل الله تعالى عليه بالإيجاد وهو هالك عقيب وجوده لولا فضل الله عليه بالبقاء ، وهو ناقص بحد لوجوده لولا فضل الله عليه بالتكامل لحلقته . وبالجملة فليس في الوجود شيء له بنفسه قوام إلا اليوم الحى الذى هو قائم بذاته وكل ما سواه قائم به فإن أحب العارف ذاته ووجود ذاته مستفاد من غيره ، فبالضرورة يحب للفيد لوجوده والديم له إن عرفه خالقاً موجداً ومختراً مبقياً وقيوماً بنفسه ومقوماً لغيره فإن كان لا يحبه فهو لجهله بنفسه وربه والمحبة ثمرة المعرفة فتعتمد بالانعدامها وتضعف بضعفها وتقوى بقوتها ولذلك قال الحسن البصرى رحمه الله تعالى من عرف ربه أحبه ومن عرف الدنيا زهد فيها وكيف يتصور أن يحب الإنسان نفسه ولا يحب ربه الذى به قوام نفسه ، ومعلوم أن البتلى بحر الشمس لما كان يحب الظل فيجب بالضرورة الأشجار التي بها قوام الظل وكل ما في الوجود بالإضافة إلى قدرة الله تعالى فهو كالظل بالإضافة إلى الشجر والنور بالإضافة إلى الشمس فإن الكل من آثار قدرته ووجود الكل تابع لوجوده كما أن وجود النور تابع للشمس ووجود الظل تابع للشجر بل هذا المثال صحيح بالإضافة إلى أوهام العوام إذ تخيلوا أن النور أثر الشمس وقائض منها ووجودها هو خطأ محض إذ انكشف لأرباب القلوب انكشافاً أظهر من مشاهدة الأبصار أن النور حاصل من قدرة الله تعالى احتراطاً عند وقوع القابلة بين الشمس والأجسام الكثيفة كما أن نور الشمس وعينها وشكلها وصورتها أيضاً حاصل من قدرة الله تعالى ولكن الفرض من الأمتة أنهم فلا يطلب فيها الحقائق فاذن إن كان حب الإنسان نفسه ضرورياً فإنه لا بد له من قوامه أولاً ولا بد له من ثانياً في أصاه وصفاته وظاهره وباطنه وجواهره وأعراضه أيضاً ضرورى إن عرف ذلك كذلك ومن خلا عن هذا الحب فلا نه اشتغل بنفسه وشهواته وذهل عن ربه وخالقه فلم يعرفه حق معرفته وقصر نظره على شهواته ومحسوساته وهو عالم الشهادة الذى يشاركه البهائم في التمتع به والاتساع فيه دون عالم الملكوت الذى لا يطارأ رضى إلا من يقرب إلى شبه من الملائكة فينظر فيه بقدر قربيه في الصفات من الملائكة ويقتصر عنه بقدر انحطاطه إلى حضيض عالم البهائم .

وقال بعضهم : الزجر ضياء في القلب يصير به خطأ قصدوا الزجر في مقدمة التوبة على ثلاثة أوجه زجر من طريق السلم وزجر من طريق الصل وزجر من طريق طريق الإيمان فينازل التائب حال الزجر وهى موهبة من الله تعالى تقوده إلى التوبة ولا يزال بالعبد ظهور هوى النفس يحويه آثار حال التوبة والزجر حتى تستقر وتصير مقاما وهكذا في الزهد لا يزال يتزهد بنار له حال تربية قنة ترك الاشتغال بالدنيا وتقبض له الإقبال عليها

وأما السبب الثاني وهو حبه من أحسن إليه فواساه بماله ولاطفه بكلامه وأمدّه بموته وأتدب  
لنصرته وقمع أعداءه وقام بدفع شرّ الأشرار عنه وانتهى وسيلة إلى جميع حظوظه وأغراضه في  
نفسه وأولاده وأقاربه فانه محبوب لا محالة عنده وهذا بينه يقتضى أن لا يحب إلا الله تعالى فانه  
لو عرف حق المعرفة لعلم أن المحسن إليه هو الله تعالى فقط فأما أنواع إحسانه إلى كل عبيده فاست  
أعدها إذ ليس يحيط بها حصر حاصر كما قال تعالى - وإن تعدوا نعمة الله لا تحصوها - وقد  
أشرفنا إلى طرف منه في كتاب الشكر ولكننا تقتصر الآن على بيان أن الاحسان من الناس غير  
متصور إلا بالجواز وإنما المحسن هو الله تعالى ولنفرض ذلك فيمن أنعم عليك بجميع خرائته ومكنك  
منها لتصرف فيها كيف تشاء فانك تظن أن هذا الاحسان منه وهو غلط فانه إنما تم إحسانه به  
وبعالمه وبقدرته على المال وبداعيته الباعثة له على صرف المال إليك فمن الذي أنعم بخلق  
ماله وخلق قدرته وخلق إرادته وداعيته ومن الذي حببك إليه وصرف وجهه إليك وألقى في نفسه  
أن صلاح دينه أودياه في الاحسان إليك ولولا كل ذلك لما أعطاك حبة من ماله ومهما سلط الله  
عليه الدواعي وقرر في نفسه أن صلاح دينه أودياه في أن يسلم إليك ماله كان مقهوراً مضطراً  
في التسليم لا يستطيع مخالفته فالمحسن هو الذي اضطره لك وسخره وسلط عليه الدواعي الباعثة  
للهفة إلى الفعل وأما هذه فواسطة يصل بها إحسان الله إليك وصاحب اليد مضطر في ذلك اضطرار  
مجرى الماء في جريان الماء فيه فان اعتقدته محسناً أو شكرته من حيث هو بنفسه محسن لامن  
حيث هو واسطة كنت جاهلاً بحقيقة الأمر فانه لا يتصور الاحسان من الانسان إلا إلى نفسه أما  
الاحسان إلى غيره فمحال من المخلوقين لأنه لا يبدل ماله إلا لنفرض له في البذل إما أجل وهو الثواب  
وإما عاجل وهو اللذة والاستسحار أو الثناء والصيت والاشتهار بالسخاوة والكرم أو جذب قلوب الخلق  
إلى الطاعة والمحبة وكما أن الانسان لا يلقي ماله في البحر إذ لا غرض له فيه فلا يلقيه في يد إنسان  
إلا لغرض له فيه وذلك الغرض هو مطلوبه ومقصده وأما أنت فقلت مقصوداً بل يدرك آله في القبض  
حتى يحصل غرضه من الذكر والثناء أو الشكر أو الثواب بسبب قبضك المال فقد استسخرتك في القبض  
للتوصل إلى غرض نفسه فهو إذن محسن إلى نفسه ومعتاض عما بذله من ماله عوضاً هو أرجح عنده  
من ماله ولولا رجحان ذلك الحظ عنده لما نزل عن ماله لأجلك أصلاً البتة فاذن هو غير مستحق للشكر  
والحب من وجهين : أحدهما أنه مضطر بتسلط الله الدواعي عليه فلا قدرته على المخالفة فهو جار مجرى  
خازن الأمير فانه لا يرى محسناً بتسليم خزمة الأمير إلى من خلع عليه لأنه من جهة الأمير مضطر إلى الطاعة  
والامتثال لما يرسمه ولا يقدر على مخالفته ولو خلاه الأمير ونفسه لما سلم ذلك فكذلك كل محسن  
لو خلاه الله ونفسه لم يبدل حبة من ماله حتى سلط الله الدواعي عليه وألقى في نفسه أن حظه دينا  
ودنياً في بذله فبذله لذلك . والثاني أنه معتاض عما بذله حظاً هو أوفى عنده وأحب مما بذله فكما  
لا يعد البائع محسناً لأنه بذل بموضع هو أحب عنده مما بذله فكذلك الواهب اعتاض الثواب  
أو الحمد والثناء أو عوضاً آخر وليس من شرط العوض أن يكون عيناً متمولاً بل الحظوظ كلها  
أعوض تستحق الأموال والأعيان بالإضافة إليها فالاحسان في الجود والجود هو بذل المال من  
غير عوض وحظ يرجع إلى الباذل وذلك محال من غير الله سبحانه فهو الذي أنعم على العالمين إحساناً  
إليهم ولأنهم لا لحظ وغرض يرجع إليه فانه يتعالى عن الأغراض فللفظ الجود والاحسان في حق  
غيره كذب أو مجاز ومعناه في حق غيره محال ومتمتع امتناع الجمع بين السواد والبياض فهو للتفرد  
بالجود والاحسان والطول والامتنان فان كان في الطبع حب المحسن فينبغي أن لا يحب العارف إلا الله

فدمجو أثره بدلالة  
شره النفس وحرصها  
على الدنيا ورؤية العاجلة  
حتى تتداركه المعونة  
من الله الكريم فيزهد  
ويستقر زهده ويصير  
الزهد مقامه ولا تزال  
نازلة حال التوكل تفرغ  
باب قلبه حتى يتوكل  
وهكذا حال الرضا حتى  
يطئن على الرضا ويصير  
ذلك مقامه وههنا  
لطيفة وذلك أن مقام  
الرضا والتوكل يثبت  
ويحكم ببقائه مع وجود  
داعية الطبع ولا يحكم  
ببقاء حال الرضا مع  
وجود داعية الطبع  
وذلك مثل كراهة  
مجدها الراضى بحكم  
الطبع ولكن علمه  
بمقام الرضا يغمر حكم

تعالى إذا الاحسان من غيره محال فهو المستحق لهذه المحبة وحده وأما غيره فيستحق المحبة على  
الانسان بشرط الجهل بمعنى الاحسان وحقيقته . وأما السبب الثالث وهو حبك المحسن في نفسه وإن  
لم يصل إليك إحسانه وهذا أيضا موجود في الطباع فإنه إذا بلغك خبر ملك عابد عادل عالم رفيق  
بالناس متلطف بهم متواضع لهم وهو في قطر من أقطار الأرض بعيد عنك وبلغك خبر ملك آخر  
ظالم متكبر فاسق مهتك شرير وهو أيضا بعيد عنك فانك تجد في قلبك تفرقة بينهما إذ تجد  
في القلب ميلا إلى الأول وهو الحب وتفرقة عن الثاني وهو البغض مع أنك آتس من خير الأول  
وآمن من شر الثاني لا تقطع طمعك عن التوغل إلى بلادهما فهذا حب المحسن من حيث إنه محسن  
فقط لا من حيث إنه محسن إليك وهذا أيضا يقتضي حب الله تعالى بل يقتضي أن لا يحب غيره أصلا  
إلا من حيث يتعلق منه بسبب فإن الله هو المحسن إلى الكافة والتفضل على جميع أصناف الخلائق  
أولا بأعبادهم وثانيا بتكليمهم بالأعضاء والأسباب التي هي من ضروراتهم وثالثا بترفيهم وتنعيمهم  
بخلق الأسباب التي هي في مظان حاجاتهم وإن لم تكن في مظان الضرورة ورابعا بتجملهم بالمزايا  
والزوائد التي هي في مظنة زيتهم وهي خارجية عن ضروراتهم وحاجاتهم ومثال الضروري من الأعضاء  
الرأس والقلب والكبد ومثال المحتاج إليه العين واليد والرجل ومثال الزينة مستقواس الحاجين  
وحمرة الشفتين وتلوذ العينين إلى غير ذلك مما لو فات لم تنخرم به حاجة ولا ضرورة ومثال الضروري  
من النعم الخارجة عن بدن الانسان الساء والغذاء ومثال الحاجة السواء واللحم والفواكه ومثال الزايات  
والزوائد خضرة الأشجار وحسن أشكال الأنوار والأزهار وقلائد الفواكه والأطعمة التي لا تنخرم  
بعدمها حاجة ولا ضرورة وهذه الأقسام الثلاثة موجودة لكل حيوان بل لكل نبات بل لكل  
صنف من أصناف الخلق من فدوة العرش إلى منتهى القرش فاذن هو المحسن فكيف يكون غيره  
محسنا وذلك المحسن حسنة من حسنات قدرته فإنه خالق المحسن وخالق المحسن وخالق الاحسان  
وخالق أسباب الاحسان فالحب بهذه العلة لغيره أيضا جهل محض ومن عرف ذلك لم يحب بهذه  
العلة إلا الله تعالى . وأما السبب الرابع وهو حب كل جميل لذات الجمال لاحظ ينال منه وراء إدراك  
الجمال فقد بينا أن ذلك مجبول في الطباع وأن الجمال ينقسم إلى جمال الصورة الظاهرة المدركة بعين  
الرأس وإلى جمال الصورة الباطنة المدركة بعين القلب ونور البصيرة والأول يدركه الصبيان والبهائم  
والثاني يختص بدركه أرباب القلوب ولا يشاركهم فيه من لا يعلم إلا ظاهرا من الحياة الدنيا وكل  
جمال فهو محبوب عند مدرك الجمال فإن كان مدركا بالقلب فهو محبوب القلب ومثال هذا في المشاهدة  
حب الأنبياء والعلماء وذوى السكارم السنية والأخلاق للرضية فإن ذلك متصور مع تشوش صورة  
الوجه وسائر الأعضاء وهو المراد بحسن الصورة الباطنة والحس لا يدركه ، نعم يدرك بحسن آثاره  
الصادرة منه الدالة عليه حتى إذا دل القلب عليه مال القلب إليه فأحبه فمن يحب رسول الله صلى  
الله عليه وسلم أو الصديق رضى الله تعالى عنه أو الشافعي رحمة الله عليه فلا يحبه إلا الحسن ما ظهر له  
منهم وليس ذلك لحسن صورهم ولا لحسن أفعالهم بل دل حسن أفعالهم على حسن الصفات التي هي  
مصدر الأفعال إذ الأفعال آثار صادرة عنها ودالة عليها فمن رأى حسن تصنيف الصنف وحسن  
شعر الشاعر بل حسن نقش النقاش وبناء البناء انكشف له من هذه الأدغال صفاتها الجميلة الباطنة  
التي يرجع حاصلها عند البحث إلى العلم والقدرة ثم كلما كان العلوم أشرف وأتم جمالا وعظمة  
كان العلم أشرف وأجمل وكذا المقدور كلما كان أعظم رتبة وأجل منزلة كانت القدرة عليه أجل  
رتبة وأشرف قدرا وأجل للمعلومات هو الله تعالى فلا جرم أحسن العلوم وأشرفها معرفة الله تعالى

الطبع وظهر حكم  
الطبع في وجود  
الكراهية المقصورة  
بالعلم لا يخرج عنه  
مقام الرضا ولا يقد  
حال الرضا لأن الحال  
تجردت موهبة أحرق  
داعية الطبع فيقال  
كيف يكون صاحب  
مقام الرضا ولا يكون  
صاحب حال فيه والحال  
مقدمة المقام والمقام  
أثبت قول: لأن المقام  
لما كان مشوبا بكسب  
العبد احتمل وجود  
الطبع فيه والحال لما  
كانت موهبة من الله  
نزعت عن مزج الطبع  
فحال الرضا أصل ومقام  
الرضا أمكن ولا بد  
للمقامات من زائد  
الأحوال فلا مقام إلا

وكذلك ما يقاربه ويختص به فشرفه على قدر تعلقه به فاذا جال صفات الصديقين الذين تحبهم القلوب طبعاً ترجع إلى ثلاثة أمور : أحدها علمهم بالله وملائكته وكتبه ورسله وشرائع أنبيائه . والثاني قدرتهم على إصلاح أنفسهم وإصلاح عباد الله بالإرشاد والسياسة . والثالث تزهيمهم عن الرذائل والخبائث والشهوات الغالبة الصارفة عن سنن الخير الجاذبة إلى طريق الشر . وبمثل هذا يحب الأنبياء والعلماء والخلفاء والملوك الذين هم أهل العدل والكرم فأنسب هذه الصفات إلى صفات الله تعالى . أما العلم فأين علم الأولين والآخرين من علم الله تعالى الذي يحيط بالكل إحاطة خارجة عن النهاية حتى لا يعزب عنه مثقال ذرة في السموات ولا في الأرض وقد خاطب الخاق كلهم فقال عز وجل - وما أوتيتم من العلم إلا قليلاً - بل لو اجتمع أهل الأرض والسماء على أن يحيطوا بعلمه وحكمته في تفصيل خلق غلة أو بوضحة لم يطلعوا على عشر عشر ذلك - ولا يحيطون بشيء من علمه إلا بما شاء - والقدر اليسير الذي علمه الخلاق كلهم فبتعليمه عدوه كما قال تعالى - خاق الإنسان علمه البيان - فإن كان جمال العلم وشرفه أمراً محبوباً وكان هو في نفسه زينة وكلاً للموصوف به فلا ينبغي أن يحب بهذا السبب إلا الله تعالى فعلم العلماء جهل بالإضافة إلى علمه بل من عرف أعلم أهل زمانه وأجهل أهل زمانه استحال أن يحب بسبب العلم الأجهل ويترك الأعم وإن كان الأجهل لا يغلو عن علم ما تقاضاه معيشته والتفاوت بين علم الله وبين علم الخلاق أكثر من التفاوت بين علم أعلم الخلاق وأجهلهم لأن الأعم لا يفضل الأجهل إلا بعلوم معدودة متناهية يتصور في الامكان أن ينالها الأجهل بالكسب والاجتهاد وفضل علم الله تعالى على علوم الخلاق كلهم خارج عن النهاية إذ معلوماته لا نهاية لها ومعلومات الخاق متناهية . وأما صفة القدرة فهي أيضاً كمال والعجز نقص فكل كمال وبهاء وعظمة ومجد واستيلاء فانه محبوب وإدراكه للبدن حتى إن الإنسان ليسمع في الحكاية شجاعة على وخالد رضى الله عنهما وغيرهما من الشجعان وقدرتهما واستيلاءهما على الأقران فيصادف في قلبه اهتزازاً وفرحاً وارتياحاً ضرورياً بمجرد لذة السماع فضلاً عن المشاهدة ويورث ذلك حبا في القلب ضرورياً للمتصف به فانه نوع كمال فأنسب الآن قدرة الخلق كلهم إلى قدرة الله تعالى فأعظم الأشخاص قوة وأوسعهم ملكاً وأقوام بطشاً وأقهرهم للشهوات وأقهرهم لخبائث النفس وأجمعهم للقدرة على سياسة نفسه وسياسة غيره مامتى قدرته وإنما غاية أن يقدر على بعض صفات نفسه وعلى بعض أشخاص الناس في بعض الأمور وهو مع ذلك لا يملك لنفسه موتاً ولا حياة ولا نشوراً ولا ضرراً ولا نفعاً بل لا يقدر على حفظ عينه من العمى ولسانه من الحرس وأذنه من الصمم وبدنه من المرض ولا يحتاج إلى عد ما يجز عنه في نفسه وغيره بما هو على الجملة متعلق قدرته فضلاً عما لا تتعلق به قدرته من ملكوت السموات وأفلاكها وكواكبها والأرض وجبالها وبحارها ورياحها وصواعقها ومعادنها ونباتها وحيواناتها وجميع أجزائها فلا قدرة له على ذرة منها وما هو قادر عليه من نفسه وغيره فليست قدرته من نفسه وبفسه بل الله خالقه وخالق قدرته وخالق أسبابه والممكن له من ذلك ولو سلط بوضاه على أعظم ملك أقوى شخص من الحيوانات لأهلكه فليس لمعبد قدرة إلا بتمكين مولاه كما قال في أعظم ملوك الأرض ذي القرنين إذ قال - إن أمكننا له في الأرض - فلم يكن جميع ملكه وسلطنته إلا بتمكين الله تعالى إياه في جزء من الأرض والأرض كلها مدبرة بالإضافة إلى أجسام العالم وجميع الولايات التي يحظى بها الناس من الأرض غيرة من تلك المدبرة ثم تلك الغيرة أيضاً من فضل الله تعالى وتمكينه فيه - تحب أن يحب عبداً من عباده الله تعالى لقدرة تمسياسة وتمكينه واستيلائه وكال قوته ولا يحب الله تعالى لذلك ولا حول ولا قوة إلا بالله العلي العظيم فهو الجبار

بعد سابقة حال ولا تفرد للمقامات دون سابقة الأحوال . وأما الأحوال فمنها ما يصير مقاماً ومنها ما لا يصير مقاماً والسر فيه ما ذكرناه أن الكسب في المقام ظهر والموهبة بطنت وفي الحال ظهرت للوهبة والكسب بطن فلما كان في الأحوال الموهبة غالبية لم تتقيد وصارت الأحوال إلى ما لا نهاية لها ولطف معنى الأحوال أن يصير مقاماً ومقدورات الحق غير متناهية ومواهبه غير متناهية ولهذا قال بعضهم لو أعطيت روحانية عيسى وكلمة موسى وخلة إبراهيم

القاهر والعاليم القادر السموات مطويات يمينه والأرض وملكها وما عليها في قبضته وناصية جميع المخلوقات في قبضة قدرته إن أهلكهم من عند آخرهم لم ينقص من سلطانه وملكه ذرة وإن خلق أمثالهم ألف مرة لم يعب بخلقها ولا يعبه لئوب ولا فتور في اختراعها فلا قدرة ولا قادر إلا هو أثر من آثار قدرته فله الجمال والبهاء والعظمة والكبرياء والقهر والاستيلاء فإن كان يتصور أن يحب قادر لكمال قدرته فلا يستحق الحب بكمال القدرة سواء أصلا . وأما صفة التنزه عن العيون والنقائص والتقدس عن الرذائل والخبائث فهو أحد موجبات الحب ومقتضيات الحسن والجمال في الصور الباطنة والأنبياء والصديقون وإن كانوا منزهيين عن العيوب والخبائث فلا يتصور كمال التقديس والتنزه إلا بالواحد الحق الملك القدوس ذي الجلال والإكرام . وأما كل مخلوق فلا غلو عن نقص وعن نقائص بل كونه عاجزا مخلوقا مسخرا مضطرا هو عين العيب والنقص فالكمال لله وحده وليس لغيره كمال إلا بقدر ما أعطاه الله وأيسر في المقدور أن ينعم بمنتهى الكمال على غيره فإن منتهى الكمال أقل درجاته أن لا يكون عبدا مسخرا لغيره قائما بغيره وذلك محال في حق غيره فهو التفرد بالكمال للتنزه عن النقائص القدوس عن العيوب وشرح وجوه التقديس والتنزه في حقه عن النقائص بطول وهو من أسرار علوم المكاشفات فلا تطول بذكره فهذا الوصف أيضا إن كان كالا وجمالا محبوبا فلا تتم حقيقة إلهه وكمال غيره وتنزهه لا يكون مطلقا بل بالاضافة إلى ما هو أشد منه نقصانا كما أن للفارس كالا بالاضافة إلى الحمار وللإنسان كالا بالاضافة إلى الفرس وأصل النقص شمل للكل وإماتة فتوتون في درجات النقصان ؛ فاذن الجليل محبوب والجليل المطلق هو الواحد الذي لا ند له الفرد الذي لا ضد له الصمد الذي لا منازع له الغنى الذي لا حاجة له القادر الذي يفعل ما يشاء ويحكم ما يريد لا راد لحكمه ولا معقب لقضائه العالم الذي لا يعزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض القاهر الذي لا يخرج عن قبضة قدرته أعناق الجبابرة ولا ينفلت من سطوته وبطشه رقاب القياصرة الأتلى الذي لا أول لوجوده الأبدى الذي لا آخر لبقائه الضروري الوجود الذي لا يحوم مكان العدم حول حضرته القيوم الذي يقوم بنفسه ويقوم كل موجود به جبار السموات والأرض خالق الجناد والحيوان والنبات التفرد بالعزة والجبروت المتوحد الملك والمالكوت ذو الفضل والجلال والبهاء والجمال والقدرة والكمال الذي تحير في معرفة جلاله العقول وتخرس في وصفه الأسنة الذي كمال معرفة العارفين الاعتراف بالعجز عن معرفته ومنتهى نبوة الأنبياء الاقرار بالقصور عن وصفه كما قال سيد الأنبياء صلوات الله عليهم أجمعين « لا أحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك » (١) وقال سيد الصديقين رضى الله تعالى عنه : العجز عن درك الإدراك إدراك سبحان من لم يجعل للخلق طريقا إلى معرفته إلا بالعجز عن معرفته ، قلت شعري من ينكر إمكان حب الله تعالى تحقيقا وبجمله مجازا أينسرك أن هذه الأوصاف من أوصاف الجمال والحمد ونعوت الكمال والحاسن أو ينكر كون الله تعالى موصوفا بها أو ينكر كون الكمال والجمال والبهاء والعظمة محبوبا بالطبع عند من أدركه فسبحان من احتجب عن بشار الصبيان غيرته على جماله وجلاله أن يطلع عليه إلا من سبق له منه الحسن الذين هم عن نار الحجاب مبعدون وترك الحاسرين في ظلمات العمى يقيون وفي مسارح المحسوسات وشهوات البهائم يترددون يملكون ظاهرا من الحياة الدنيا وهم عن الآخرة هم غافلون الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون . فالحب بهذا السبب أقوى من الحب بالاحسان لأن الاحسان يزيد وينقص ولذلك أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : إن أود الأوداء إلى من عبدني بغير نوال لكن يعطى الربوبية حقها ، وفي الزبور : من أظلم ممن

(١) حديث لأحصى ثناء عليك أنت كما أثنيت على نفسك تقدم .

عليه السلام لطلب ما وراء ذلك لأن مواهب الله لا تنحصر وهذه أحوال الأنبياء ولا تعطى الأولياء ولكن هذه إشارة من القائل إلى دوام تطلع العبد وتطلبه وعدم قناعته بما هو فيه من أمر الحق تعالى لأن سيد الرسل صلوات الله عليه وسلامه به على عدم القناعة وقرع باب الطلب واستئزال بركة المزيد بقوله عليه السلام « كل يوم لم أزد فيه علما فلا يورك لي في صبيحة ذلك اليوم » وفي دعائه صلى الله عليه وسلم « اللهم ما قصر عنه رأيي وضئف فيه

عبدني لجنة أوتار لولم أخلق جنة ولا ناراً ألم أكن أهلاً أن أطاع ، ومراً عيسى عليه السلام على طائفة من المباد قد نحلوا فقالوا تخاف النار وترجو الجنة فقال لهم نحلوا خفتهم ونحلوا قارجاتهم ، ومراً يقوم آخرون كذلك فقالوا نعبده حباً له وتعظيماً لجلاله فقال أتم أولياء الله حقاً معكم أمرت أن أقيم وقال أبو حازم إني لأستحي أن أعبد للثواب والعقاب فأكون كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل ولا أجير السوء إن لم يعط لم يعمل ، وفي الخبر «لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل ولا كالعبد السوء إن لم يخف لم يعمل»<sup>(١)</sup> وأما السبب الخامس للحب فهو للناسبة والشاكلة لأن شبه النبي منجذب إليه والشكل إلى الشكل أميل ، ولذلك ترى الصبي يألف الصبي والكبير يألف الكبير ويألف الطير نوعه ويغفر من غير نوعه وأنس العالم بالعالم أكثر منه بالمخترق وأنس النجار بالنجار أكثر من أنسه بالفلح ، وهذا أمر تشهد به التجربة وتشهده الأخبار والآثار كما استقصيناه في باب الأخوة في الله من كتاب آداب الصبغة فليطلب منه وإذا كانت الناسبة سبب المحبة فالناسبة قد تكون في معنى ظاهر كناسبة الصبي الصبي في معنى الصبا وقد يكون خفياً حتى لا يطلع عليه كما ترى من الاتحاد الذي يتفق بين شخصين من غير ملاحظة جمال أو طمع في مال أو غيره كما أشار إليه النبي صلى الله عليه وسلم إذ قال «الأرواح جنود مجندة فما تعارف منها ائتلف وما تناكر منها اختلف» فالعارف هو التناسب والتناكر هو التباين وهذا السبب أيضاً يقتضي حب الله تعالى للناسبة باطنة لا ترجع إلى الشابهة في الصور والأشكال بل إلى معان باطنة يجوز أن يذكر بعضها في الكتب وبعضها لا يجوز أن يسطر بل يترك تحت غطاء الغيرة حتى يستر عليه السالكون للطريق إذا استكملوا شرط السلوك فالتدنى يذكر هو قرب العبد من ربه عز وجل في الصفات التي أقرها بالافتداء والتخلق بأخلاق الربوبية حتى قيل تخلقوا بأخلاق الله وذلك في اكتساب محامد الصفات التي هي من صفات الإلهية من العلم والبر والاحسان والاطمئنان وإفاضة الخير والرحمة على الخلق والنيحية لهم وإرشادهم إلى الحق ومنعهم من الباطل إلى غير ذلك من مكارم الشريعة فكل ذلك يقرب إلى الله سبحانه وتعالى لا بمعنى طلب القرب بالمسكان بل بالصفات ، وأما ما لا يجوز أن يسطر في الكتب من المناسبة الخاصة التي اختص بها آدمي فهي التي يومية إليها قوله تعالى - ويسئلك عن الروح قل الروح من أمر ربي - إذ بين أنه أمر رباني خارج عن حد عقول الخلق وأوضح من ذلك قوله تعالى - فإذا سويته ونفخت فيه من روحي - ولذلك أسجد له ملائكته ويشير إليه قوله تعالى - إنا جعلناك خليفة في الأرض - إذ لم يستحق آدم خلافة الله تعالى إلا بتلك الناسبة وإليه يرمز قوله صلى الله عليه وسلم «إن الله خلق آدم على صورته»<sup>(٢)</sup> حتى ظن القاصرون أن لا صورة إلا الصورة الظاهرة للدركة بالحواس فشبهوا وجسموا وصوروا ، تعالى الله رب العالمين عما يقول الجاهلون علواً كبيراً وإليه الإشارة بقوله تعالى لموسى عليه السلام «مرضت فلم تعدنني فقال يارب وكيف ذلك قال مرض عبدني فلان فلم تعده ولوعدته وجدتنني عنده»<sup>(٣)</sup> وهذه المناسبة لا تظهر إلا بالمواظبة على النوافل بعد إحكام الفرض كما قال الله تعالى «لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه فإذا أحببته كنت معه الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به ولسانه الذي ينطق به»<sup>(٤)</sup> وهذا موضع يجب قبض عنان القلم فيه فقد

عملى ولم تبلغه نيق وأمنيق من خير وعدته أحداً من عبادك أو خير أنت معطيه أحداً من خلقك فأنا أرغب إليك وأسألك إياه فاعلم أن مواهب الحق لا تنحصر والأحوال مواهب وهي متصلة بكلمات الله التي يفند البحر دون تقادها وتنفذ أعداد الرمال دون أعدادها والله النعم المعطى .

[الباب التاسع

والخمسون في الاشارات

إلى اللقائات على

الاختصار والايجاز]

أخبرنا شيخنا شيخ

الاسلام أبو النجيب

الهروردي رحمه الله

قال أنا أبو منصور بن

(١) حديث لا يكونن أحدكم كالأجير السوء إن لم يعط أجراً لم يعمل لم أجده أصلاً (٢) حديث إن الله خلق آدم على صورته تقدم (٣) حديث قوله تعالى مرضت فلم تعدنني فقال وكيف ذلك قال مرض فلان الحديث تقدم (٤) حديث قوله تعالى لا يزال يتقرب العبد إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

عزب الناس فيه إلى قاصرين مالوا إلى التشبيه الظاهر وإلى غالين مسرفين جاوزوا حد المناسبة إلى الاتحاد وقالوا بالحلول حتى قال بعضهم أنا الحق وذل النصارى في عيسى عليه السلام فقالوا هو إلهه وقال آخرون منهم مدرع الناسوت باللاهوت وقال آخرون اتحد به ، وأما الذين انكشف لهم استحالة التشبيه والتشيل واستحالة الاتحاد والحلول واتضح لهم مع ذلك حقيقة السرفهم الأقولن ، ولعل أبا الحسن النورى عن هذا القام كان ينظر إذا غلبه الوجد في قول القائل :

لازلت أنزل من ودادك منزلا تحير الأبواب عند نزوله

فلم يزل يعدو في وجده على أجمة قد قطع قصبا وبقي أصوله حتى تشقت قدماه وتور متاومات من ذلك وهذا هو أعظم أسباب الحب وأقواها وهو أعزها وأبعدها وأقلها وجودا ، فهذه هي العالومة من أسباب الحب وجملة ذلك متظاهرة في حق الله تعالى تحقيقا لا مجازا وفي أعلى الدرجات لا في أدناها فكان المقول المقبول عند ذوى البصائر حب الله تعالى فقط كما أن المقول الممكن عند العميان حب غير الله تعالى فقط ثم كل من يحب من الخلق بسبب من هذه الأسباب يتصور أن يحب غير لمشاركته إياه في السبب والشركة نقصان في الحب وغض من كماله ولا يفرد أحد بوصف محبوب إلا وقد يوجد له شريك فيه فإن لم يوجد فيمكن أن يوجد إلا الله تعالى فإنه موصوف بهذه الصفات التي هي نهاية الجلال والكمال ولا شريك له في ذلك وجودا ولا يتصور أن يكون ذلك إمكانا فلا جرم لا يكون في حبه شركة فلا يتطرق النقصان إلى حبه كما لا يتطرق الشركة إلى صفاته فهو المستحق إذا أصل المحبة والكمال المحبة استحقاقا لا يساهم فيه أصلا .

( بيان أن أجل الذات وأعلاها معرفة الله تعالى والنظر إلى وجهه الكريم

وأنه لا يتصور أن لا يؤثر عليها لذة أخرى إلا من حرم هذه اللذة )

اعلم أن الذات تابعة للإدراكات والانسان جامع لجملة من القوى والفرائز وكل قوة وغريزة للذة وإلتها في نيلها لمقتضى طبعها الذى خلقت له فان هذه الفرائز ما ركبت في الانسان عبثا بل ركبت كل قوة وغريزة لأمر من الأمور هو مقتضاها بالطبع فغريزة الغضب خلقت للتشفي والانتقام فلا جرم لذتها في الغلبة والانتقام الذى هو مقتضى طبعها وغريزة شهوة الطعام مثلا خلقت لتحصيل الغذاء الذى به القوام فلا جرم لذتها في نيل هذا الغذاء الذى هو مقتضى طبعها وكذلك لذة السمع والبصر والشم في الإبصار والاستماع والشم فلا تغلو غريزة من هذه الفرائز عن ألم ولذة بالإضافة إلى مدرجاتها فكذلك في القلب غريزة تسمى النور الإلهى لقوله تعالى - أفمن شرح الله صدره للإسلام فهو على نور من ربه - وقد تسمى العقل وقد تسمى البصيرة الباطنة وقد تسمى نور الايمان واليقين ولا معنى للاشتغال بالأسماء فان الاصطلاحات مختلفة والضعيف يظن أن الاختلاف واقع في المعاني لأن الضعيف يطلب المعاني من الألفاظ وهو عكس الواجب فالقلب مفارق لسائر أجزاء البدن بصفة بها يدرك المعاني التي ليست منخبة ولا محسوسة كما إذا كان خلق العالم واقفا قاره إلى خالق قديم مدبر حكيم موصوف بصفات إلهية ولنسم تلك الغريزة عقلا بشرط أن لا يفهم من لفظ العقل ما يدرك به طرق المجادلة والمناظرة فقد اشتهر اسم العقل بهذا ولهذا ذه بعض الصوفية والإفلاصية التي فارق الانسان بها البهائم وبها يدرك معرفه الله تعالى أعز الصفات فلا ينبغي أن ندم وهذه الغريزة خلقت ليعلم بها حقائق الأمور وكلها لمقتضى طبعها للمعرفة والعلم وهى لذتها كما أن مقتضى سائر الفرائز هو لذتها وليس يخفى أن في العلم والمعرفة لذة حتى إن الذى ينسب إلى العلم والمعرفة ولو في شيء خسيس يفرح به والذى ينسب إلى الجهل ولو في شيء حقير يغم به وحتى إن الانسان لا يكاد يصبر عن اتحدى بالعلم والاتحدى به في الأشياء الحقيقية فالعالم بالالمع بالشرع على خسته لا يطبق الكوت فيه عن التعليم وينطلق لسانه بذكر ما يطمح وكل ذلك لقرط لذة العلم وما يستشمره

خيرون إجازة قال أنا أبو محمد الحسن بن علي بن محمد الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس بن محمد قال أنا أبو محمد يحيى بن صاعد قال أنا الحسين بن الحسن الروزى قال أنا عبد الله ابن المبارك قال أنا الهيثم بن جميل قال أنا كثير بن سليم المدائني قال سمعت أنس بن مالك رضى الله عنه قال أتى النبي صلى الله عليه وسلم رجل فقال يا رسول الله إنى رجل ذرب اللسان وأكثر ذلك على أهلى فقال له رسول الله صلى الله عليه وسلم أين أنت من الاستغفار فأتى استغفراه

من كمال ذاته به فان العلم من أخص صفات الربوبية وهى منتهى الكمال ولذلك يرتاح الطبع إذا أتى عليه بالتكامل وغزارة العلم لأنه يستشعر عند سماع الشئ كمال ذاته وكمال علمه فيعجب بنفسه ويلتذبه ثم ليست لذة العلم بالحرارة والحياة كلفة العلم بسياسة الملك وتدير أمور الخلق ولا لذة العلم بالنحو والشعر كلفة العلم بالله تعالى وصفاته وملائكته وملوكوت السموات والأرض بل لذة العلم بقدر شرف العلم وشرف العلم بقدر شرف العلوم حتى إن الذى يعلم بواطن أحوال الناس ويخبر بذلك مجده لذة وإن جهله تقاضا طبعه أن يفحص عنه فان علم بواطن أحوال رئيس البلد وأسرار تديره فى رياسته كان ذلك ألد عنده وأطيب من علمه بباطن حال فلاح أو حائك فان اطلع على أسرار الوزير وتديره وما هو عازم عليه فى أمور الوزارة فهو أشهى عنده والأذن علمه بأسرار الرئيس فان كان خيرا يباطن أحوال الملك والسلطان الذى هو المستولى على الوزير كان ذلك أطيب عنده والأذن علمه بباطن أسرار الوزير وكان تمدحه بذلك وحرصه عليه وعلى البحث عنه أشد وجه له أكثر لأن لذته فيه أعظم فهذا استبان أن ألد المعارف أشرفها وأشرفها بحسب شرف العلوم فان كان فى المعلومات ما هو الأجل والأكل والأشرف والأعظم فالعلم به ألد العلوم لا محالة وأشرفها وأطيبها وليت شعري هل فى الوجود شئ أجلى وأعلى وأشرف وأكمل وأعظم من خالق الأشياء كلها ومكملها ومزيناها ومبدئها ومميدها ومدبرها ومرتبها وهل يتصور أن تكون حضرة فى الملك والكمال والجمال والبهاء والجلال أعظم من الحضرة الربانية التى لا يحيط ببادى جلالها وعجائب أحوالها وصف الواصفين فان كنت لا تشك فى ذلك فلا ينبغى أن تشك فى أن الاطلاع على أسرار الربوبية والعلم بترتيب الأمور الإلهية المحيطة بكل الموجودات هو أعلى أنواع المعارف والاطلاعات وألذها وأطيبها وأشهاها وأحرى ما تستشعر به النفوس عند الاتصاف به كمالها وجمالها وأجدر ما يظم به الفرح والارتياح والاستبشار وهذا تبين أن العلم لذى وأن ألد العلوم العلم بالله تعالى وبصفاته وأفعاله وتديره فى ملكوته من منتهى عرشه إلى تخوم الأرضين فينبغى أن يعلم أن لذة المعرفة أقوى من سائر اللذات أعنى لذة الشهوة والغضب ولذة سائر الحواس الخمس فان اللذات مختلفة بالنوع أولا كخالف لذة الوقاع لذة السماع ولذة المعرفة لذة الرياسة وهى مختلفة بالضعف والقوة كخالف لذة الشبق المتعلم من الجماع لذة الفاتر للشهوة وكخالف لذة النظر إلى الوجه الجميل الفائق الجمال لذة النظر إلى مادونه فى الجمال وإعتراف أقوى اللذات بأن تكون مؤثرة على غيرها فان الخير بين النظر إلى صورة جميلة والمتع بمشاهدتها وبين استنشاق روائح طيبة إذا اختار النظر إلى الصورة الجميلة علم أنها ألد عنده من الروائح الطيبة وكذلك إذا حضر الطعام وقت الأكل واستمر اللاعب بالشطرنج على اللعب وترك الأكل فيعلم به أن لذة القلب فى الشطرنج أقوى عنده من لذة الأكل فهذا معيار صادق فى الكشف عن ترجيح اللذات فنمودت قول: اللذات تنقسم إلى ظاهرة كلفة الحواس الخمس وإلى باطنة كلفة الرياسة والقلب والكرامة والعلم وغيرها إذ ليست هذه اللذة للمعين ولا للأنف ولا للآذن ولا لللس ولا للذوق والمعاني الباطنة أغلب على ذوى الكمال من اللذات الظاهرة فلو خير الرجل بين لذة الدجاج السمين واللوزينج وبين لذة الرياسة وقهر الأعداء ونيل درجة الاسيلاء فان كان الخير خسيس الهمة ميت القلب شديد التهمة اختار اللحم والحلاوة وإن كان على الهمة كامل العقل اختار الرياسة وهان عليه الجوع والصبر عن ضرورة القوت أياما كثيرة فاختاره لرياسة يدل على أنها ألد عنده من المطعومات الطيبة نعم الناقص الذى لم تكمل معانيه الباطنة بعد كالصبي أو كالذى ماتت قواه الباطنة كالمتوه لا يبعد أن يؤثر لذة المطعومات على لذة الرياسة وكما أن لذة الرياسة والكرامة أغلب اللذات على من جاوز نقصان الصبا والتمتة ففقه معرفة الله تعالى ومطالعة جمال حضرة الربوبية والنظر إلى

فى اليوم واليلة  
مائة مرة وروى  
أبو هريرة رضى الله عنه  
فى حديث آخر «فانى  
لأستغفر الله وأنوب  
إليه فى كل يوم مائة  
مرة» وروى أبو بريدة  
قال قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «إنه  
ليغان على قلبي فأستغفر  
الله فى اليوم مائة مرة»  
وقال الله تعالى - وتوبوا  
إلى الله جميعا آية  
للمؤمنون لعلكم  
تفلحون - وقال الله  
عز وجل - إن الله يحب  
التوابين - وقال الله  
تعالى - يا أيها الذين  
آمنوا توبوا إلى الله  
نوبة نصوحا - التوبة  
أصل كل مقام وقوام  
كل مقام ومفتاح كل



أسرار الأمور الإلهية أنه من الرياسة التي هي أعلى اللذات الغالبة على الخلق وغاية العبارة عنه أن يقال - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة أعين - وأنه أعد لهم ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر وهذا الآن لا يعرفه إلا من ذاق اللذتين جميعاً فإنه لا محالة يؤثر التبتل والتفرد والفكر والله ذكر وينغمس في بحار المعرفة ويترك الرياسة ويستحقر الخلق الذين برأسهم الله بفناء رياسته وفناء من عليه رياسته وكونه مشوباً بالكسورات التي لا يتصور الخلو عنها وكونه مقطوعاً بالموت الذي لا بد من إتيانه مهما أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهبا أنهم قادرون عليها فيستعظم بالاضافة إليها لذة معرفة الله ومطالعة صفاته وأفعاله ونظام مملكته من أعلى عِلين إلى أسفل السافلين فإنها خالية عن الزاحمات والكسورات منسعة للمتواردين عليها لا تضيق عنهم بكبرها وإعنا عرضها من حيث التقدير السموات والأرض وإذا خرج النظر عن القدرات فلا نهاية لعرضها فلا يزال العارف بمطالعتها في جنة عرضها السموات والأرض يرتع في رياضها ويقطف من ثمارها ويكرع من حياضها وهو آمن من انقطاعها إذ ثمار هذه الجنة غير مقطوعة ولا ممنوعة ثم هي أبدية سرمدية لا يقطعها الموت إذ الموت لا يهدم محل معرفة الله تعالى ومعلمها الروح الذي هو أمر رباني مملوئ بالملوت يغير أحوالها ويقطع شواغلها وعوائقها ويخلها من حجبها فأما أن يعدمها فلا ولا تحسب الذين قتلوا في سبيل الله أو اتابوا أحياء عند ربهم يرزقون فرحين بما آتاهم الله من فضله ويستبشرون بالذين لم يلحقوا بهم من خلفهم - الآية - ولا تظن أن هذا مخصوص بالمقتول في الحركة فإن للعارف بكل نفس درجة ألف شهيد وفي الخبر « إن الشهيد يتنقش في الآخرة أن يرد إلى الدنيا فيقتل مرة أخرى لعظم ما يراه من ثواب الشهادة وإن الشهداء يتنقش لو كانوا علماء لما يرونه من علو درجة العلماء <sup>(١)</sup> » فاذن جميع أقطار ملكوت السموات والأرض ميدان العارف يتبوأ منه حيث يشاء من غير حاجة إلى أن يتحرك إليها بحسبه وشخصه فهو من مطالعة جمال الملكوت في جنة عرضها السموات والأرض وكل عارف فله مثله من غير أن يضيق بعضهم على بعض أصلاً إلا أنهم يتفاوتون في سعة منزلاتهم بقدر تفاوتهم في اتساع نظرم وسعة معارفهم وهم درجات عند الله ولا يدخل في الحصر تفاوت درجاتهم فقد ظهر أن لذة الرياسة وهي باطنة أقوى في ذوى الكمال من لذات الحواس كلها وأن هذه اللذة لا تكون لبيحة ولا لصبي ولا لمعتوه وأن لذة المحسوسات والشهوات تكون لدوى الكمال مع لذة الرياسة ولكن يؤثران الرياسة فأما معنى كون معرفة الله وصفاته وأفعاله وملكوت سمواته وأسرار مملكته أعظم لذة من الرياسة فهذا يختص بعرفته من نال رتبة المعرفة وذائقها ولا يمكن إثبات ذلك عند من لا قلب له لأن القلب معدن هذه القوة كما أنه لا يمكن إثبات رجحان لذة الوقاع على لذة اللب بالصولجان عند الصبيان ولا رجحان على لذة شم البنفسج عند العنين لأنه قد الصفه التي بها تدرك هذه اللذة ولكن من سلم من آفة العنة وسلم حاسة شمه أدرك التفاوت بين اللذتين وعند هذا لا يبقى إلا أن يقال من ذاق عرف ولعمري طلاب العلوم وإن لم يشتغلوا بطلب معرفة الأمور الإلهية فقد استنشقوا رائحة هذه اللذة عند انكشاف المشكلات وانحلال الشبهات التي قوى حرصهم على طلبها فإنها أيضاً معارف وعلوم وإن كانت معلوماتها غير شريفة شرف المعلومات الإلهية فأما من طال فكره في معرفة الله سبحانه وقد انكشف له من أسرار ملك الله ولو الشيء اليسير فإنه يصادف في قلبه عند حصول الكشف من الفرح ما يكاد يطير به ويتعجب من نفسه في ثباته واحتماله لقوة فرحه وسروره وهذا مما لا يدرك إلا بالذوق والحكاية فيه قليلة الجدوى فهذا

(١) حديث إن الشهيد يتنقش أن يرد في الآخرة إلى الدنيا ليقول مرة أخرى الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم وليس فيه وإن الشهداء يتنقش أن يكونوا علماء الحديث .

حال وهي أول اللقائات وهي بمثابة الأرض للبناء فمن لا أرض له لا بناء له ومن لا توبة له لا حال له ولا مقام له وإنى يبلغ على وقد سعى وجهدى اعتبار اللقائات والأحوال وثمرتها فرأيتها يجمعها ثلاثة أشياء بعد صحة الإيمان وعقوده وشروطه فصارت مع الإيمان أربعة ثم رأيتها في إفادة الولادة العنوية الحقيقية بمثابة الطابع الأربع التي جعلها الله تعالى بأجراء سنته مفيدة للولادة الطبيعية ومن تحقق بحقائق هذه الأربع لم ينج ملكوت السموات

القدر ينهيك على أن معرفة الله سبحانه ألد الأشياء وأنه لآلة فوقها ولهذا قال أبو سليمان الداراني إن لله عبدا ليس يشغلهم عن الله خوف النار ولا رجاء الجنة فكيف تشغلهم الدنيا عن الله ولذلك قال بعض إخوان معروف الكرخي له أخبرني يا أبا محفوظ أي شيء هاجبك إلى العباد والالتفات عن الخلق فكنت فقال ذكر الموت فقال وأي شيء الموت فقال ذكر القبر والبرزخ فقال وأي شيء القبر فقال خوف النار ورجاء الجنة فقال وأي شيء هذا إن ملكا هذا كله بيده إن أحببته أنساك جميع ذلك وإن كانت بينك وبينه معرفة كفاك جميع هذا . وفي أخبار عيسى عليه السلام : إذا رأيت الفتي مشغوبا بطلب الرب تعالى فقد ألهاه ذلك عما سواه ورأى بعض الشيوخ بشر بن الحرث في النوم فقال ما فعل أبو نصر التمار وعبد الوهاب الوراق فقال تركتهما الساعة بين يدي الله تعالى يا كلان وبشر بن قت فأنت قال علم الله قلة رغبتي في الأكل والشرب فأعطاني النظر إليه وعن علي بن الوفي قال رأيت في النوم كأنني أدخلت الجنة فرأيت رجلا قائما على باب الجنة يتصفح وجوه الناس فيدخل بعضا ويرد بعضا قال ثم جاوزتهما إلى حظيرة القدس فرأيت في سرادق العرش رجلا قد شخص يصره ينظر إلى الله تعالى لا يطرف قلت لرضوان من هذا فقال معروف الكرخي عبد الله لا خوفا من ناره ولا شوقا إلى جنته بل حبا له فأباحه النظر إليه إلى يوم القيامة . وذكر أن الآخرين بشر بن الحرث وأحمد بن حنبل ولذلك قال أبو سليمان : من كان ليوم مشغولا بنفسه فهو غدا مشغول بنفسه ومن كان اليوم مشغولا بربه فهو غدا مشغول بربه . وقال الثوري لأربعة ما حقيقة إيمانك قالت ما عبدته خوفا من ناره ولا حبا لجنته فأكون كالأجير السوء بل عبدته حبا له وشوقا إليه ، وقالت في معنى المحبة نظما :

أحبك حين حبّ الهوى وحبا لأنك أهل لداكا  
فأما الذي هو حبّ الهوى فتغلب بك عن سواكا  
وأما الذي أنت أهل له فكشفك لي المحب حتى أراكا  
فلا الحمد في ذا ولا ذاك لي ولكن لك الحمد في ذا وذاكا

ولعلها أرادت بحب الهوى حب الله لإحسانه إليها وإنعامه عليها بمحظوظ العاجلة وبعبه لما هو أهل له الحب لجأله وجلاله الذي انكشف لها وهو أعلى الحبين وأقواهما واندم مطالعة جمال الربوبية هي التي عبر عنها رسول الله ﷺ حيث قال حاكيا عن ربه تعالى «أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر» (١) وقد تعجل بعض هذه الذات في الدنيا لما انتهى صفاء قلبه إلى الغاية ولذلك قال بعضهم إني أقول يا رب يا الله فأجد ذلك على قلبي أثقل من الجبال لأن النداء يكون من وراء حجاب وهل رأيت جليسا ينادي جليسه وقال إذا بلغ الرجل في هذا العلم الغاية رماه الخلق بالحجارة أي يخرج كلامه عن حد عقولهم فيرون ما يقولونه جنونا أو كفرا فتمسك العارفين كلامهم وصله ولقاؤه فقط فمضى قرة العين التي لا تعلم نفس ما أخفى لهم من أو إذا حصلت اتحدت المحموم والشهوات كلها وصار القلب مستغرقا بنعيمها فلو ألقى في النار لم يحس بها لاستغراقه ولو عرض عليه نعيم الجنة لم يلتفت إليه لكمال نعيمه وبلوغه الغاية التي ليس فوقها غاية وليت شعري من لم يفهم إلا حب المحسوسات كيف يؤمن بآلة النظر إلى وجه الله تعالى وماله صورة ولا شكل وأي معنى لو عدا الله تعالى به عبادة وذكره أنه أعظم النعم بل من عرف الله عرف أن الذات المفرقة بالشهوات المختلقة كلها تنطوي تحت هذه اللفظة كما قال بعضهم :

(١) حديث قال صلى الله عليه وسلم حاكيا عن ربه تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

ويكشف بالقدر والآيات ويصير له ذوق وفهم لكلمات الله تعالى المزلات ويعطي بجميع الأحوال والمقامات فكلاهما من هذه الأربع ظهرت وبها تهيات وتأكدت فأحد الثلاث بعد الإيمان التوبة النصوح والثاني الزهد في الدنيا والثالث تحقيق مقام العبودية بدوام العمل لله تعالى ظاهرا وباطنا من الأعمال القلبية والقالية من غير فتور وقصور ثم يستعان على إتمام هذه الأربعة بأربعة أخرى بها تمامها وقوامها وهي

كانت لقي أهواء مفترقة فاستجمعت مذ رأيتك العيين أهواي  
فصار يحسدني من كنت أحسده وصرت مولى الوري مذ صرت مولاي  
تركت للناس دنياهم ودينهم سفلا بذكرك ياديني ودنياي  
ولذلك قال بعضهم : وهجره أعظم من ناره ووصله أطيب من جته

وما أرادوا بهذا إلا إثبات لذة القلب في معرفة الله تعالى على لذة الأكل والشرب والنكاح فان  
الجنة معدن تمتع الحواس . فأما القلب فلذته في لقاء الله فقط ومثال أطوار الخلق في لذتهم ما ذكره  
وهو أن الصبي في أول حركته وتمييزه يظهر فيه غريزة بها يستلذ اللعب واللهو حتى يكون ذلك عنده  
الذات من سائر الأشياء ثم يظهر بعده لذة الزينة ولبس الثياب وركوب الدواب فيستحقر معها لذة  
اللعب ثم يظهر بعده لذة الوقاع وشهوة النساء فيترك بها جميع ما قبلها في الوصول إليها ثم تظهر لذة  
الرياسة والعلو والتكاثر وهي آخر لذات الدنيا وأعلاها وأقواها كما قال تعالى - اعلموا أنما الحياة  
الدنيا لعب ولهو وزينة وتفاخر بينكم وتكاثر - الآية ثم بعد هذا تظهر غريزة أخرى يدرك بها  
لذة معرفة الله تعالى ومعرفة أفعاله فيستحقر معها جميع ما قبلها فكل متأخر فهو أقوى وهذا هو  
الآخر إذ يظهر حب اللعب في سن التمييز وحب النساء والزينة في سن البلوغ وحب الرياسة بعد  
العشرين وحب العلوم يقرب الأربعين وهي الغاية العليا وكما أن الصبي يضحك على من يترك اللعب  
ويشتغل بملاعبة النساء وطلب الرياسة فكذلك الرؤساء يضحكون على من يترك الرياسة  
ويشتغل بمعرفة الله تعالى . والعارفون يقولون - إن تسخروا منا فانا نسخر منكم كما تسخرون  
فسوف تعلمون - .

#### ( بيان السبب في زيادة النظر في لذة الآخرة على المعرفة في الدنيا )

اعلم أن الإدراكات تنقسم إلى ما يدخل في الخيال كالصور التخيلة والأجسام المتلونة والمشكلة . من  
أشخاص الحيوان والنبات وإلى ما لا يدخل في الخيال كذات الله تعالى وكل ما ليس بجسم كالعلم والقدرة  
والإرادة وغيرها ومن رأى إنساناً ثم غص بصره وجد صورته حاضرة في خياله كأنه ينظر إليها  
والكن إذا فتح العين وأبصر أدرك تفرقة بينهما ولا ترجع التفرقة إلى اختلاف بين الصورتين  
لأن الصورة المرئية تكون مواقة للتخيلة وإنما الافتراق بمزيد الوضوح والكشف فان صورة  
المرئي صارت بالرؤية أتم انكشافاً ووضوحاً وهو كمن يرى في وقت الافطار قبل انتشار ضوء  
النهار ثم يرى عند تمام الضوء فانه لا تفارق إحدى الحالتين الأخرى إلا في مزيد الانكشاف ، فاذن  
الخيال أول الإدراك والرؤية هو الاستكمال لأدراك الخيال وهو غاية الكشف وسمى ذلك رؤية لأنه  
غاية الكشف لا لأنه في العين بل لو خلق الله هذا الإدراك الكامل للكشف في الجبهة أو الصدر  
مثلاً استحق أن يسمى رؤية وإذا فهمت هذا في التخيلات فاعلم أن المعلومات التي لا تتشكل أيضاً  
في الخيال لمعرفتها وإدراكها درجتان : إحداهما أولى والثانية استكمال لها وبين الأولى والثانية من  
التفاوت في مزيد الكشف والابصار ما بين التخيل والرؤية فيسمى الثاني أيضاً بالإضافة إلى الأول  
مشاهدة وإقامة ورؤية وهذه التسمية حق لأن الرؤية سميت رؤية لأنها غاية الكشف وكما أن سنة  
الله تعالى جارية بأن تطبيق الأجفان يمنع من تمام الكشف بالرؤية ويكون حجاباً بين البصر  
والرؤية ولا بد من ارتفاع الحجب لحصول الرؤية وما لم ترتفع كان الإدراك الحاصل مجرد التخيل  
فكذلك مقتضى سنة الله تعالى أن النفس مادامت محجوبة بموارض البدن ومقتضى الشهوات

قلة الكلام وقلة الطعام  
وقلة المنام والاعتزال  
عن الناس . واتفق  
العلماء الزاهدون  
والشايخ على أن هذه  
الأربع بها تستقر  
القامات وتستقيم  
الأحوال وبها صار  
الأبدال أبدالاً بتأييد  
الله تعالى وحين  
توفيقه وبنين بالبيان  
الواضح أن سائر  
القامات تدرج في  
صحة هذه ومن ظفر  
بها فقد ظفر بالقامات  
كلها وأولها بعد الإيمان  
التوبة وهي في مبدأ  
صحتها تقتضي إلى أحوال  
وإذا صحت تشتمل  
على مقامات وأحوال  
ولا بد في ابتدائها  
من وجسود زاجر

وما غاب عليها من الصفات البشرية فانها لا تنسب إلى الشاهدة والقائم في المعلومات الخارجة عن الخيال بل هذه الحياة حجاب عنها بالضرورة كحجاب الأجفان عن رؤية الأبصار والقول في سبب كونها حجاباً بطول ولا يلبق بهذا العلم ولذلك قال تعالى لموسى عليه السلام - لن تراني - وقال تعالى - لا تدركه الأبصار - أي في الدنيا ، والصحيح أن رسول الله صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج (١) . فإذا ارتفع الحجاب بالموث ببيت النفس ملوثة بكدورات الدنيا غير منفكة عنها بالكلية وإن كانت متفاوتة فمنها ما تراكم عليه الحبث والصدأ فصار كالمرآة التي فسد بطول تراكم الحبث جوهرها فلا تقبل الإصلاح والتصفيل وهؤلاء هم المحجوبون عن ربهم أبد الآباد نعوذ بالله من ذلك . ومنها ما لم ينته إلى حد الرين والطبع ولم يخرج عن قبول التزكية والتصفيل فيعرض على النار عرضاً يقطع منه الحبث الذي هو متدنس به ويكون العرض على النار بقدر الحاجة إلى التزكية وأقلها لحظة خفيفة وأقصاها في حق المؤمنين كما وردت به الأخبار سبعة آلاف سنة (٢) ولن ترتحل نفس عن هذا العالم إلا ويصحبها غيرة وكدورة ما وإن قلت . ولذلك قال الله تعالى - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتماً مقضياً ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثياً - فكل نفس مستيقنة للورود على النار وغير مستيقنة للصدور عنها فإذا أكل الله تطهيرها وتزكيتها وبلغ الكتاب أجله ووقع الفراغ عن جملة ما وعد به الشرع من الحساب والعرض وغيره ووافى استحقاق الجنة وذلك وقت مبهم لم يطلع الله عليه أحد من خلقه فانه واقع بعد اقامة وقت القيامة مجهول ففند ذلك يشتغل بصنائه وقائه عن الكدورات حيث لا يرهق وجهه غيرة ولا قرة لأن فيه يتجلى الحق سبحانه وتعالى فيتجلى له تجلياً يكون انكشاف تجليه بالإضافة إلى ما عليه كانه انكشاف تجلي المرآة بالإضافة إلى ما تجلله ، وهذه الشاهدة والتجلى هي التي تسمى رؤية ، فاذن الرؤية حق بشرط أن لا يفهم من الرؤية استكمال الخيال في متخيل متصور مخصوص بجهة ومكان فان ذلك مما يتعالى عنه رب الأرباب علواً كبيراً بل كما عرفته في الدنيا معرفة حقيقية تامة من غير تخيل وتصور وتقدير شكل وصورة فتراه في الآخرة كذلك ، بل أقول المعرفة الحاصلة في الدنيا بعينها هي التي تستكمل فتبلغ كمال الكشف والوضوح وتتقلب ومشاهدة ، ولا يكون بين المشاهدة في الآخرة ، والمعلوم في الدنيا اختلاف إلا من حيث زيادة الكشف والوضوح كما ضربنا من المثال في استكمال الخيال بالرؤية ، فإذا لم يكن في معرفة الله تعالى إثبات صورة وجهة فلا يكون في استكمال تلك المعرفة بعينها وترقيتها في الوضوح إلى غاية

ووجدان الزاجر حال لأنه موهبة من الله تعالى على ما تقرر أن الأحوال مواهب وحال الزجر مفتاح التوبة ومبدؤها . قال رجل لبشر الحافي مالى أراك مهموماً . قال لأنى ضالاً ومطلوب ظللت الطريق والمقصود وأنا مطلوب به ، ولو تبينت كيف الطريق إلى المقصد لطلبت ولكن سنة الغفلة أدركتني وليس لي منها خلاص إلا أن أزجر فأزجر . وقال الأصمعي : رأيت أعرايا بالبصرة يشتكي عندهم هاجيل منها المساء فقاتلها

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم مارأى الله تعالى ليلة المعراج على الصحيح هذا الذي صححه المصنف هو قول عائشة في الصحيحين أنها قالت من حدثك أن محمداً رأى ربه فقد كذب . ولمسلم من حديث أبي ذر سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم هل رأيت ربك قال نور أنى أراه وذهب ابن عباس وأكثر العلماء إلى إثبات رؤيته له وعائشة لم ترو ذلك عن النبي صلى الله عليه وسلم ، وحديث أبي ذر قال فيه أحمد ما زلت له منكراً . وقال ابن خزيمة في القلب من صحة إسناده شيء مع أن في رواية لأحمد في حديث أبي ذر رأيت نوراً إني أراه ورجال إسناده رجال الصحيح (٢) حديث إن أقصى المكث في النار في حق المؤمنين سبعة آلاف سنة الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث أبي هريرة إنما الشفاعة يوم القيامة لمن عمل الكبائر من أمي الحديث وفيه وأطولهم مكثاً فيها مثل الدنيا من يوم خلقت إلى يوم القيامة وذلك سبعة آلاف سنة وإسناده ضعيف .

الكشف أيضاً جهة وصورة لأنها بيها لا تفرق منها إلا في زيادة الكشف كأن الصورة المرئية هي التخيّل بيها إلا في زيادة الكشف وإليه الإشارة بقوله تعالى - إسمي نورم بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا أتمم لنا نورنا - إذ تمام النور لا يؤثر إلا في زيادة الكشف ولهذا لا يفوز بدرجة النظر والرؤية إلا العارفون في الدنيا لأن المعرفة هي البذر الذي ينقلب في الآخرة مشاهدة كانتقلب النواة شجرة والحب زرعاً ومن لا نواة في أرضه كيف يحصل له نخل ومن لم يزرع الحب فكيف يحصل له زرع فكذلك من لم يعرف الله تعالى في الدنيا فكيف يراه في الآخرة ولما كانت المعرفة على درجات متفاوتة كان التجلي أيضاً على درجات متفاوتة فاختلاف التجلي بالإضافة إلى اختلاف المعارف باختلاف النبات بالإضافة إلى اختلاف البذر إذ تختلف لهامحاله بكثرتها وقلتها وحسنها وقوتها وضعفها ولذلك قال النبي عليه الصلاة والسلام «إن الله يتجلي للناس عامة ولأبي بكر خاصة<sup>(١)</sup>» فلا ينبغي أن يظن أن غير أبي بكر ممن هو دونه يجد من لذة النظر والشاهدة ما يجده أبو بكر بل لا يجد إلا عشر عشرة إن كانت معرفته في الدنيا عشر عشرة ولما فضل الناس بسر وقر في صدره فضل لهامحاله يتجلّى أقدر به وكانك ترى في الدنيا من يؤثر لذة الرياسة على الطعوم والتكوح وترى من يؤثر لذة العلم وانكشاف مشكلات ملكوت السموات والأرض وسائر الأمور الإلهية على الرياسة وعلى التكوح والطعوم والشروب جميعاً فكذلك يكون في الآخرة قوم يؤثرون لذة النظر إلى وجه الله تعالى على نعيم الجنة إذ يرجع نعيمها إلى الطعوم والتكوح وهؤلاء بينهم هم الذين حالمهم في الدنيا ما وصفناه من إشارته لذة العلم والمعرفة والاطلاع على أسرار الربوبية على لذة للتكوح والطعوم والشروب وسائر الخلق مشغولون به ولذلك لما قيل لرابعة ماتحولين في الجنة فقالت الجارثم الدار فينت أنه ليس في قلبها التفات إلى الجنة بل إلى رب الجنة وكل من لم يعرف الله في الدنيا فلا يراه في الآخرة وكل من لم يجد لذة المعرفة في الدنيا فلا يجد لذة النظر في الآخرة إذ ليس يستأنف لأحد في الآخرة ما لم يصحبه من الدنيا ولا يحصد أحد إلا ما زرع ولا يحشر المرء إلا على ما مات عليه ولا يموت إلا على ما عاش عليه فما صحبه من المعرفة هو الذي يتعم به بعينه فقط إلا أنه ينقلب مشاهدة يكشف النطاء فتضاعف اللذة به كما تضاعف لذة العاشق إذا استبدل بخيال صورة المعشوق رؤية صورته فإن ذلك منتهى لذته وإنما طيبة الجنة أن لكل أحد فيها ما يشتهي فمن لا يشتهي إلا لقاء الله تعالى فلا لذة له في غيره بل ربما يتأذى به فاذا نعيم الجنة بقدر حب الله تعالى وحب الله تعالى بقدر معرفته فأصل السماعات هي المعرفة التي عبر الشرع عنها بالإيمان. فإن قلت فلذة الرؤية إن كان لها نسبة إلى لذة المعرفة فهي قليلة وإن كان أضاعفها لأن لذة المعرفة في الدنيا ضعيفة فتضاعفها إلى حد قريب لا ينتهي في القوة إلى أن يستحق سائر لذات الجنة فيها. فاعلم أن هذا الاستحقاق للذة المعرفة صدر من الخلو عن المعرفة فمن خلا عن المعرفة كيف يدرك لذتها وإن انطوى على معرفة ضئيلة وقلبه مشحون بملائق الدنيا فكيف يدرك لذتها فلما عارفين في معرفتهم وفكرتهم ومناجاتهم لله تعالى لذات لو عرضت عليهم الجنة في الدنيا بدلا عنها لم يستبدلوا بها لذة الجنة ثم هذه اللذة مع كمالها لانسبة لها أصلاً إلى لذة اللقاء والشاهدة كمالا لانسبة للذة خيال المعشوق إلى رؤيته وللذة استنشاق روائح الأطعمة الشهية إلى ذوقها وللذة المس باليد إلى لذة الوقاع وإظهار عظم التفاوت بينهما لا يمكن إلا بضرب مثال فقول

(١) حديث إن الله يتجلي للناس عامة ولأبي بكر خاصة ابن عدى من حديث جابر . وقال باطل بهذا الاسناد وفي الميزان للذهبي أن لدار قطني رواه عن المهاجلى عن طي بن عبدة وقال الدارقطنى إن طي بن عبدة كان يضع الحديث ورواه ابن عساكر في تاريخ دمشق وابن الجوزى في الموضوعات من حديث جابر وأبي بردة وعائشة .

تمسح عينك فقال لا لأن الطبيب زجرني ولاخير فيمن لا يزرع فالزاجر في الباطن حال يهبها الله تعالى ولا بد من وجودها للتائب ثم بعد الانزجار يجد العبد حال الانتباه. قال بعضهم: من لزم مطالعة الطوارق انتبه. وقال أبو يزيد : علامة الانتباه خمس إذا كر نفسه اقفر وإذا كر ذنبه استغفر إذ ذكر الدنيا اء ر وإذا ذكر الآخرة استبشر وإذا ذكر المولى اقشعر . وقال بعضهم : الانتباه أوائل دلالات الخير إذا انتبه العبد من رقدة غفلته أداه ذلك الانتباه إلى

لذة النظر إلى وجه المشرق في الدنيا تتفاوت بأسباب أحدها كمال جمال المشرق ونقصاته فإن اللذة في النظر إلى الأجل أكمل لا محالة . والثاني كمال قوة الحب والشهوة والعشق فليس التذامن اشتد عشقه كالتذامن ضعف شهوته وجهه . والثالث كمال الإدراك فليس التذامن رؤية المشرق في ظلمة أو من وراء سترة رقيق أو من بعد كالتذامن إدراكه على قرب من غير سترة وعند كمال الضوء ولا إدراك اللذة الضاحجة مع ثوب حائل كإدراكها مع التجرد . والرابع اندفاع العوائق للشهوة والآلام الشاغلة فليس التذامن الصحيح الفارغ للتجرد فتنظر إلى المشرق كالتذامن الخائف للدعور أو الرريض للنالم أو للشغل قلبه بهم من الهمات قدر عاشقا ضعيف العشق ينظر إلى وجهه مشوقه من وراء سترة رقيق على بعد بحيث يمنع انكشاف كنه صورته في حالة اجتماع عليه عقارب وزناير تؤذي بمرئيه وتغفل قلبه فهو في هذه الحالة لا يغلو عن لذة مامن مشاهدة مشوقه فلوطرأت على القبحاء حالة انبعاث بها الستر وأشرق بها الضوء واندفع عنه المؤذيات وبقي سلبا فارغا وهجمت عليه الشهوة القوية والعشق المفرط حتى بلغ أقصى الغايات فانظر كيف تتضاعف اللذة حتى لا يبقى للأولى إليها نسبة يستد بها فكذلك فافهم نسبة لذة النظر إلى لذة المعرفة فالستر الرقيق مثال البدن والاشتغال به والعقارب والزناير مثال الشهوات للتساقط على الإنسان من الجوع والعطش والغضب والنم والحزن وضعف الشهوة والحب مثال قصور النفس في الدنيا ونقصاتها عن الشوق إلى اللآلئ والأعلى والتفاتا إلى أسفل السافلين وهو مثل قصور الصبي عن ملاحظة لذة الرياضة والتفاتا إلى اللعب بالصفور والعارف وإن قويت في الدنيا معرفته فلا يغلو عن هذه للشوات ولا يتصور أن يغلو عنها البتة نعم قد تضعف هذه العوائق في بعض الأحوال ولا تدوم فلا جرم يلوح من جمال المعرفة ما يبهت العقل وتعظم لذته بحيث يكاد القلب يتفطر لعظمته ولكن يكون ذلك كالبرق الخاطف وقفا يدوم بل يمرض من الشواغل والأفكار والخواطر ما يشوشه وينقصه وهذه ضرورة دائمة في هذه الحياة الفانية فلا تزال هذه اللذة منخسة إلى اللوت وإنما الحياة الطيبة بعد اللوت وإنما العيش عيش الآخرة - وإن الدار الآخرة هي الحيوان لو كانوا يعلمون - وكل من انتهى إلى هذه الرتبة فانه يجب لقاء الله تعالى فيجب اللوت ولا يكرهه إلا من حيث ينتظر زيادة استكمال في المعرفة فإن المعرفة كالبلدر وبهر للمعرفة لا ساحل له فلا حيلة بكنهه جلال الله تعالى فكما كثرت المعرفة بالله وبصفاته وأفعاله وبأسرار مملكته وقويت كثر التسمي في الآخرة وعظم كما أنه كلما كثر البلدر وحسن كثر الزرع وحسن ولا يمكن تحصيل هذا البلدر إلا في الدنيا ولا يزرع إلا في صعيد القلب ولا حصاد إلا في الآخرة ولهذا قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله» (١) لأن المعرفة إنما تكمل وتكثر وتتسع في العمر الطويل بمداومة الفكر والمواظبة على المجاهدة والانتطاع عن علائق الدنيا والتجرد لطلب ويستدعى ذلك زمانا لا محالة فمن أحب الموت أحببه لأنه رأى نفسه واقفا في المعرفة بالناس إلى منتهى ما يسر له ومن كره الموت كرهه لأنه كان يؤمل مزيد معرفة تحصل له بطول العمر ورأى نفسه مقصرا عما تمهله قوته لو عمر فهذا سبب كراهة الموت وجهه عند أهل المعرفة . وأما سائر الخلق فنظروهم مقصور على شهوات الدنيا وإن اتسعت

(١) حديث أفضل السعادات طول العمر في طاعة الله إبراهيم الحربي في كتاب ذكر الموت من رواية ابن أبي عمير عن ابن الهادي عن المطلب عن أبيه عن النبي صلى الله عليه وسلم قال السعادة كل السعادة طول العمر في طاعة الله ووالد المطلب عبد الله بن حوطب مختلف في محبته ولأحمد من حديث جابر إن من سعادة المرء أن يطول عمره ويرزقه الله الأمانة والترمذي من حديث أبي بكر أن رجلا قال يا رسول الله أي الناس خير قال من طال عمره وحسن عمله قال هذا حديث حسن صحيح وقد تقدم.

التيقظ فإذا تيقظ  
ألزمه تيقظه الطالب  
لطريق الرشيد فيطلب  
وإذا طلب عرف  
أنه على غير سبيل الحق  
فيطلب الحق ويرجع  
إلى باب توبتهم يعطى  
بالتباه حال التيقظ.  
قال فارس : أوفى  
الأحوال التيقظ  
والاعتبار . وقيل :  
التيقظ تبيان خط  
السلك بعد مشاهدة  
سبيل النجاة . وقيل :  
إذا صحت اليقظة كان  
صاحبها في أوائل  
طريق التوبة . وقيل :  
اليقظة خردة من  
جهة الولي لقلوب  
الخائفين تدلم على  
طلب التوبة فإذا تمت

أحبوا البقاء وإن ضاقت تمنوا الموت وكل ذلك حرمان وخسران ممدرة الجهل والنفلة فالجهل والنفلة مغرس كل شقاوة والعلم والعرفة أساس كل سعادة فقد عرفت بما ذكرناه معنى المحبة ومعنى الشق فانه المحبة المفرطة القوية ومعنى لفظة المعرفة ومعنى الرؤية ومعنى لفظة الرؤية ومعنى كونها اللذات سائر اللذات عند ذوى العقول والكمال وإن لم تكن كذلك عند ذوى النقصان كما يمكن الرياسة الله من الطعومات عند الصبيان . فان قلت فهذه الرؤية محلها القلب أو العين في الآخرة . فاعلم أن الناس قد اختلفوا في ذلك وأرباب البصائر لا يلتفتون إلى هذا الخلاف ولا ينظرون فيه بل العاقل يأكل البقل ولا يسأل عن البقلة ومن يشتهي رؤية معشوقه يشغله عشقه عن أن يلتفت إلى أن رؤيته تخلق في عينه أو في جبهته بل يقصد الرؤية ولذتها سواء كان ذلك بالعين أو غيرها فان العين محل وظرف لا ينظر إليه ولا حكم له والحق فيه أن القدرة الأزلية واسعة فلا يجوز أن تحكم عليها بالقصور عن أحد الأمور . هذا في حكم الجواز ، فأما الواقع في الآخرة من الجائزين فلا يدرك إلا بالسمع (١) والحق ما ظهر لأهل السنة والجماعة من شواهد الشرع أن ذلك يخلق في العين ليكون لفظ الرؤية والنظر وسائر الألفاظ الواردة في الشرع مجرى على ظاهره إذ لا يجوز إزالة الظواهر بالضرورة والله تعالى أعلم .

( بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى )

اعلم أن أسعد الخلق حالا في الآخرة أقوام حبا لله تعالى فان الآخرة معناها التقدم على الله تعالى ودرك سعادته لقائه وما أعظم نعيم الحب إذا قدم على محبوبه بعد طول شوقه وتمكن من دوام مشاهدته أبداً الآباد من غير منقوص ومكدر ومن غير رقيب ومزاحم ومن غير خوف انقطاع إلا أن هذا النعيم على قدر قوة الحب فكلما ازدادت المحبة ازدادت اللذة وإنما يكتب البعد حب الله تعالى في الدنيا وأصل الحب لا ينفك عنه مؤمن لأنه لا ينفك عن أصل المعرفة وأما قوة الحب واستيلاؤه حتى يقبض إلى الاستتار الذي يسمى عشقا فذلك ينفك عنه الأكثرون وإنما يحصل ذلك بسببين : أحدهما قطع علائق الدنيا وإخراج حب غير الله من القلب فان القلب مثل الإناء الذي لا يتسع للخل مثلاً ما لم يخرج منه الماء . ما جعل الله لرجل من قلبين في جوفه . وكما أن الحب في أن يحب الله عز وجل بكل قلبه ومبادم يلتفت إلى غيره فزاوية من قلبه مشغولة بغيره فبقدر ما يشغل بغير الله ينقص منه حب الله وبقدر ما يبقى من الماء في الإناء ينقص من الخل المصوب فيه وإلى هذا التفريد والتجريد الإشارة بقوله تعالى - قل الله ثم ذرهم في خوضهم - وبقوله تعالى - إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا - بل هو معنى قولك لا إله إلا الله أى لا معبود ولا محبوب سواء فكل محبوب فانه معبود فان العبد هو القيد والمعبود هو القيد به وكل يحب فهو مقيد بما يحبه ولذلك قال الله تعالى - أرأيت من اتخذ إلهه هواً - وقال ﷺ « أبغض إله عبد في الأرض الهوى » ولذلك قال عليه السلام « من قال لا إله إلا الله خلاصاً دخل الجنة » (٢) ومعنى الإخلاص أن يخلص قلبه لله فلا يبقى فيه شرك لغير الله فيكون الله محبوب قلبه ومعبود قلبه ومقصود قلبه فقط ومن هذا حاله قاله نبي الله صلى الله عليه وآله « من مشاهدته محبوبه وموته خلاص من السجن وقدم على المحبوب فما حاله من ليس له إلا محبوب واحد وقد طال إليه شوقه وتغادى عنه حبسه غلى من السجن ومكن من المحبوب وروح بالأمن أبداً فأحد أسباب ضعف حب الله في القلوب قوة الدنيا وحب الأهل والمال والولد والأقارب والمقارب والدواب والبساتين والمتنزهات

(١) حديث رؤية الله في الآخرة حقيقة متفق عليه من حديث أبي هريرة أن الناس قالوا يا رسول الله هل نرى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر الحديث (٢) حديث من قال لا إله إلا الله خلاصاً دخل الجنة تقدم .

يقظته قل بذلك إلى  
مقام التوبة فهذه  
أحوال ثلاثة تقدم  
التوبة ثم التوبة في  
استقامتها تحتاج إلى  
الحاسبة ولا تستقيم  
التوبة إلا بالحاسبة .  
قل عن أمير  
المؤمنين على رضي  
الله عنه أنه قال :  
حاسبوا أنفسكم قبل  
أن تحاسبوا وزنوها  
قبل أن توزنوا  
وتزينوا للعرض  
الأكبر على الله يومئذ  
تعرضون لا تخفى  
منكم خافية - فالحاسبة  
بحفظ الأنفاس وضبط  
الحواس ورعاية  
الأوقات وإثارة المهمات  
ويصلح العبد أن

حتى إن التفرح بطيب أصوات الطيور وروح نسيم الأسفار ملئت إلى نعيم الدنيا ومتعرض لنقصان حب الله تعالى بسببه فيقدر ما أنس بالدنيا فينقص أنسه باق ولا يؤتى أحد من الدنيا شيئاً إلا وينقص بقدرة من الآخرة بالضرورة كما أنه لا يقرب الإنسان من للشرق إلا ويعبداً بالضرورة من الغرب بقدرة ولا يطيب قلب امرأته إلا ويضيق به قلب ضررتها بالدنيا والآخرة ضررتان وهما كالشرق والغرب وقد انكشف ذلك لدى القلوب انكشافاً أوضح من الإبصار بالعين وسيل قلع حب الدنيا من القلب سلوك طريق الزهد وملازمة الصبر والالتزام إليهما بزم الحوف والرجاء فما ذكرناه من المقامات كالنوبة والصبر والزهد والخوف والرجاء هي مقدمات ليكتسب بها أحد ركني المحبة وهو تخلي القلب عن غير الله وأوله الإيمان بالله واليوم الآخر والجنة والنار ثم ينشعب منه الحوف والرجاء وينشعب منها التوبة والصبر عليهما ثم ينجر ذلك إلى الزهد في الدنيا وفي المال والجاه وكل حظوظ الدنيا حتى يحصل من جميع طهارة القلب عن غير الله قسط حتى يتسع بعده لنزول معرفة الله وجهه فيه فكل ذلك مقدمات تطهير القلب وهو أحد ركني المحبة وإليه الإشارة بقوله عليه السلام «الطهور شطر الإيمان» (١) كما ذكرناه في أول كتاب الطهارة . السبب الثاني لقوة المحبة قوة معرفة الله تعالى واتساعها واستيلائها على القلب وذلك بعد تطهير القلب من جميع شواغل الدنيا وعلاقتها بحرى مجرى وضع البذر في الأرض بعد تنقيتها من الحشيش وهو الشطر الثاني ثم يتولد من هذا البذر شجرة المحبة والمعرفة وهي الكلمة الطيبة التي ضرب الله بها مثلاً حيث قال - ضرب الله كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء - وإليها الإشارة بقوله تعالى - إليه يصعد الكلم الطيب - أي المعرفة - والعمل الصالح يرفعه - فالعمل الصالح كالجمل لهذه المعرفة وكالحادهم وإتمام العمل الصالح كله في تطهير القلب أولاً من الدنيا ثم إدامة طهارته فلا يراد العمل إلا لهذه المعرفة وأما العلم بكيفية العمل فيراد للعمل فالعلم هو الأول وهو الآخر وإتمام الأول علم العامة وغرض العمل وغرض العامة صفاء القلب وطهارته ليتضح فيه حلية الحق ويتزين بعلم المعرفة وهو علم الكاشفة ومهما حصلت هذه المعرفة تنبها المحبة بالضرورة كما أن من كان متعدي المزاج إذا أبصر الجميل وأدركه بالعين الظاهرة أحبه ومال إليه ومهما أحبه حصلت اللذة فاللذة تبع المحبة بالضرورة والمحبة تبع المعرفة بالضرورة ولا يوصل إلى هذه المعرفة بعد انقطاع شواغل الدنيا من القلب إلا بالفكر الصادق والذكر الدائم والجد البالغ في الطلب والنظر المستمر في الله تعالى وفي صفاته وفي ملكوت سمواته وسائر مخلوقاته والواصلون إلى هذه الرتبة ينقسمون إلى الأقوياء ويكون أول معرفتهم لله تعالى ثم به يعرفون غيره وإلى الضعفاء ويكون أول معرفتهم بالأفعال ثم يترقون منها إلى الفاعل وإلى الأول الإشارة بقوله تعالى - أو لم يكف بربك أنه على كل شيء شهيد - وبقوله تعالى - شهد أقامناه لآله الإله - ومنه نظر بعضهم حيث قيل له بم عرفت ربك قال عرفت ربي وربى ولولا ربي لما عرفت ربي وإلى الثاني الإشارة بقوله تعالى - سترهم آياتنا في الآفاق وفي أنفسهم حتى يتبين لهم أنه الحق - الآية وبقوله عز وجل - أو لم ينظروا في ملكوت السموات والأرض - وبقوله تعالى - قل انظروا ماذا في السموات والأرض - وبقوله تعالى - الذي خلق سبع سموات طباقاً ما ترى في خلق الرحمن من تفاوت فارجع البصر هل ترى من فطور ثم ارجع البصر كرتين ينقلب إليه البصر خاسئاً وهو حاسر - وهذا الطريق هو الأسهل على الأكثرين وهو الأوسع على السالكين وإليه أكثر دعوة القرآن عند الأمر بالتدبر والتفكير والاعتبار والنظر في آيات خارجه عن الحصر . فان قلت كلا الطريقين مشكل فأوضح لنا منهما

الله تعالى أوجب عليه هذه الصلوات الخمس في اليوم واليلة رحمة منه لعله سبحانه بعبده واستيلاء الغفلة عليه كي لا يستعبده الهوى وتستره الدنيا فالصلوات الخمس سلسلة تجذب النفوس إلى مواطن العبودية أداء حق الربوبية وبراقب العبد نفسه بحسن المحاسبة من كل صلاة إلى صلاة أخرى ويصد مدخل الشيطان بحسن المحاسبة والرعاية ولا يدخل في الصلاة إلا بعد حل المقدمات القلب بحسن التوبة والاستغفار لأن كل كلمة وحركة على خلاف الشرع تسكت في

(١) حديث الطهور شطر الإيمان - لم من حديث أبي مالك الأشعري وقد تقدم .



ما يستعان به على تحصيل المعرفة والتوصل به إلى المحبة . فاعلم أن الطريق الأعلى هو الاستشهاد بالحق سبحانه على سائر الخلق فهو قاطع والكلام فيه خارج عن حد فهم أكثر الخلق فلا فائدة في إيرادها في الكتب وأما الطريق الأسهل الأدنى فأكثره غير خارج عن حد الأفهام وإنما قصرت الأفهام عنه لإعراضها عن التدبر واشتغالها بشهوات الدنيا وحفظ النفس وللنافع من ذكر هذا التأسع وكثرته وانتساب أبوابه الخارجة عن الحصر والنهاية إذ ما من ذرة من أعلى السموات إلى تخوم الأرضين إلا وفيها عجائب آيات تدل على كمال قدرة الله تعالى وكمال حكمته ومنهجه وجلاله وعظمته وذلك مما لا يتناهى - قل لو كان البحر مدادا لكلمات ربي لنفد البحر قبل أن تنفذ كلمات ربي - فالخوض فيه انغماس في بحار علوم لا تكشفه ولا يمكن أن يتطفل به على علوم العامة ولكن يمكن الرمز إلى مثال واحد على الإعجاز ليقع التنبيه لجنسه . فنقول : أسهل الطريقين النظر إلى الأفعال فلتتكمّل فيها ولنترك الأعلى ثم الأفعال الإلهية كثيرة فنطلب أقلها وأحقها وأضرها ولننظر في هجابها فأقل المخلوقات هو الأرض وماء عليها أعنى بالإضافة إلى اللائكة وما كوت السموات فانك إن نظرت فيها من حيث الجسم والعظم في الشخص فالشمس على ما ترى من صغر حجمها هي مثل الأرض مائة ونيّف وستين مرة فانظر إلى صغر الأرض بالإضافة إليها ثم انظر إلى صغر الشمس بالإضافة إلى فلكها التي هي مركوزة فيها فانه لانسبة لها إليه وهي في السماء الرابعة وهي صغيرة بالإضافة إلى ما فوقها من السموات السبع ثم السموات السبع في الكسرى كحلقة في فلاة والكسرى في العرش كذلك فهذا نظر إلى ظاهر الأشخاص من حيث القادير وما أحرر الأرض كلها بالإضافة إليها بل ما أضرر الأرض بالإضافة إلى البحار قد قال رسول الله ﷺ «الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض»<sup>(١)</sup> ومصدق هذا عرف بالمشاهدة والتجربة وعلم أن للكشوف من الأرض عن الماء بجزيرة صغيرة بالإضافة إلى كل الأرض ثم انظر إلى الأديمي المخلوق من التراب الذي هو جزء من الأرض وإلى سائر الحيوانات وإلى صغر بالإضافة إلى الأرض ودع عنك جميع ذلك فأضرر ما نعرفه من الحيوانات البعوض والنحل وما يجري مجراه فانظر في البعوض على قدر صغر قدره وتأمله بمقل حاضر وفكر صاف فانظر كيف خلقه الله تعالى على شكل القيل الذي هو أعظم الحيوانات إذ خلق له خرطومًا مثل خرطومه وخلق له على شكله الصغير سائر الأعضاء كما خلقه للقليل بزيادة جناحين وانظر كيف قسم أعضائه الظاهرة فأثبت جناحه وأخرج يده ورجله وشق سمعه وبصره ودبر في باطنه من أعضاء الغذاء وآلاته مادبره في سائر الحيوانات وركب فيها من القوى الفاذية والجاذبة والدافعة والماسكة والمأخضة ما ركب في سائر الحيوانات هذا في شكله وصفاته ثم انظر إلى هدايته كيف هداه الله تعالى إلى غذائه وعرفه أن غذاءه دم الانسان ثم انظر كيف أثبت له آلة الطيران إلى الانسان وكيف خلق له الخرطوم الطويل وهو معد الرأس وكيف هداه إلى مسام بشرة الانسان حتى يضع خرطومه في واحد منها ثم كيف قواه حتى يرض فيه الخرطوم وكيف علمه اللس والتجرع للدم وكيف خلق الخرطوم مع دقته مجوفًا حتى يجري فيه الدم الرقيق ويتنهي إلى باطنه وينتشر في سائر أجزائه وينفذه ثم كيف عرفه أن الانسان يقصده بيده فعلمه حيلة الحرب واستعداد آله وخلق له السمع الذي يسمع به خفيف حركة اليد وهي بعيدة منه فيترك اللس ويهرب ثم إذا سكنت اليد يعود ثم انظر كيف خلق له حدقتين حتى يصير موضع غذائه فيقصده مع صغر حجم وجهه وانظر إلى أن حدقة كل حيوان صغير لما لم تحمل حدقة الأجبان لصغره وكانت الأجبان مصقلة لمرآة الحدقة عن القذى والنيار خلق للبعوض والذباب يدين فتتظر إلى الذباب

(١) حديث الأرض في البحر كالاصطبل في الأرض لم أجده أصلا .

القلب نكتة سوداء  
وتعقد عليه عقدة  
والتفقد الحاسب يحيى  
الباطن للصلاة بضبط  
الجوارح ويعقق مقام  
الحاسبة فيكون عند  
ذلك لصلاته نور يشرق  
على أجزاء وقته إلى  
الصلوة الأخرى فلا تزال  
صلاته منورة تامة بنور  
وقته ووقته منورا  
معمورا بنور صلاته .  
وكان بعض الحاسبين  
يكتب الصلوات في  
قرطاس ويدع بين كل  
صلتين يامنا وكما  
ارتكب خطيئة من  
كل غية أو أمر آخر  
خط خطأ وكلماتكم  
أو تحرك فيها لا يسيب  
قط قطعة ليضرب  
ذنبه وحركته فيها

فتراه على الدوام يمسح حدقته يديه وأما الإنسان والحيوان الكبير فخلق لحدقته الأجنان حتى ينطبق أحدهما على الآخر وأطرافهما حادة فيجمع الغبار الذي يلحق الحدقة ويرميه إلى أطراف الأهداب وخلق الأهداب السود لتجمع ضوء العين وتعين على الإبصار وتحسن صورة العين وتبشكها عند هيجان الغبار فينظر من وراء شبك الأهداب واشتباكها يمنع دخول الغبار ولا يمنع الإبصار وأما البعوض فخلق لها حدقتين مصقلتين من غير أجنان وعليها كيفية التصقيل باليدين ولأجل ضعف أبصارها تراها تنهات على السراج لأن بصره ضيف فهي تطلب ضوء النهار فاذا رأى المسكين ضوء السراج بالليل ظن أنه في بيت مظلم وأن السراج كوة من البيت الظلم إلى الموضع المضي فلا يزال يطلب الضوء ويرمي نفسه إليه فإذا جاوزوه ورأى الظلام ظن أنه لم يصب الكوة ولم يقصدها على السداد فيعود إليه مرة أخرى إلى أن يحترق ولعلك تظن أن هذا لتقصاتها وجهلها فاعلم أن جهل الإنسان أعظم من جهلها بل صورة آدمي في الأكباب على الشهوات الدنيا صورة الفراش في التهافت على النار إذ تلوح للأدمى أنوار الشهوات من حيث ظاهر صورتها ولا يدري أن تحتها السم النافع القاتل فلا يزال يرمي نفسه عليها إلى أن ينفس فيها ويتقيد بها ويهلك هلاكاً مؤبداً فليت كان جهل الأدمى بجهل الفراش قائماً باعترارها بظاهر الضوء إن احترقت تخلصت في الحال والأدمى يبقى في النار أبد الآباد أومدة مديدة ولذلك كان ينادى رسول الله صلى الله عليه وسلم ويقول «إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تنهات الفراش» (١) فهذه لمعة عجبية من عجائب صنع الله تعالى في أصغر الحيوانات وفيها من العجائب ما لو اجتمع الأولون والآخرون على الاحاطة بكنهه وعجزوا عن حقيقته ولم يطلعوا على أمور جليلة من ظاهر صورته فأما خلقاً بمعاني ذلك فلا يطلع عليها إلا الله تعالى ثم في كل حيوان ونبات أعجوبة وأعاجيب تخصه لا يشاركه فيها غيره فانظر إلى النحل وعجائبها وكيف أوحى الله تعالى إليها حتى اتخذت من الجبال بيوتا ومن الشجر ومما يرشون وكيف استخراج من لعبها الشمع والعسل وجعل أحدهما ضياء وجعل الآخر شفاء ثم لو تأملت عجائب أمرها في تناولها الأزهار والأنوار واحترارها عن التماسات والأقذار وطاعتها لواحد من جملةاها أكبرها شخصاً وهو أميرها ثم ما سخر الله تعالى له أميرها من العدل والانصاف بينها حتى أنه يقتل على باب النفذ كل ما وقع منها على نجاسة لقضيت منها عجبا آخر العجب إن كنت بصيراً في نفسك وفارغاً من هم بطنك وفركك وشهوات نفسك في معاداة أقرانك وموالاة إخوانك ثم دع عنك جميع ذلك وانظر إلى بنائها بيوتها من الشمع واختيارها من جملة الأشكال الشكل السدس فلاتبني بيتاً مستديراً ولا مربها ولا مخططاً بل سدساً لخاصية في الشكل السدس يقصر فهم الهندسين عن دركها وهو أن أوسع الأشكال وأحوالها المستديرة وما يقرب منها فإن الربع يخرج منه زوايا ضائعة وشكل النحل مستدير مستطيل فترك الربع حتى لا تضيق الزوايا فبقى فارغة ثم لو بناها مستديرة لبقيت خارج البيوت فرج ضائعة فإن الأشكال المستديرة إذا جمعت لم تجتمع متراسة ولا شكل في الأشكال ذوات الزوايا يقرب في الاحتواء من المستدير ثم تراص الحلقة منه بحيث لا يبقى بعد اجتماعها فرجة إلا للسدس وهذه خاصية هذا الشكل فانظر كيف ألهم الله تعالى النحل على صغر جرمه ولطائفه

لا يعبه لضيق المحاسبة  
محارى الشيطان  
والنفس الأمارة بالسوء  
لموضع صدقه في حسن  
الانقياد وحرمة على  
تحقيق مقام العباد وهذا  
مقام المحاسبة والرعاية  
يقع من ضرورة محبة  
التوبة قال الجيد: من  
حسن رعايته حامت  
ولايته . وسئل  
الواسطي: أي الأعمال  
أفضل قال مراعاة السر  
والمحاسبة في الظاهر  
والمراقبة في الباطن  
ويكمل أحدهما بالآخر  
وبهما تستقيم التوبة  
والمراقبة والرعاية حالان  
شريخان وصيران  
مقامين شريفين  
يصحان بصحة مقام  
التوبة وتستقيم التوبة

(١) حديث إني ممسك بحجزكم عن النار وأنتم تنهاتون فيها تنهات الفراش متفق عليه من حديث أبي هريرة ثلثي ومثل أمي كمثل رجل استوقد ناراً فجعلت الدواب والفراش يقعن قائماً أخذ بحجزكم وأنتم تقتحمون فيه لفظ مسلم واقتصر البخاري على أوله ولمسلم من حديث جابر وأنا أخذ بحجزكم وأنتم تفتنون من يدي .

لطفاً به وعناية بوجوده وما هو محتاج إليه ليتناً بعيشه فبجانه ما أعظم شأنه وأوسع لطفه وامتنانه فاعتبر بهذه اللمة اليسيرة من محنرات الحيوانات ودع عنك عجائب ملكوت الأرض والسموات فإنّ القدر الذي بلغه فهنا القاصر منه تنقضي الأعمار دون إيضاحه ولانسبة لما أحاط به علنا إلى ما أحاط به الماء والأنبياء ولانسبة لما أحاط به علم الخلائق كلهم إلى ما استأثر الله تعالى ببله بل كل ما عرفه الخلق لا يستحق أن يسمى علماً في جنب علم الله تعالى فبالنظر في هذا وأمثاله تزداد المعرفة الحاصلة بأسهل الطريقين وزيادة المعرفة تزداد المحبة فإن كنت طالباً لسعادة لقاء الله تعالى فأنبذ الدنيا وراء ظهرك واستغرق العمر في الذكر الدائم والفكر اللازم فمساك تحظى منها بقدر يسير ولكن تال بذلك اليسير ملكاً عظيماً لا آخر له .

### ( بيان السبب في تفاوت الناس في الحب )

اعلم أنّ المؤمنين مشتركون في أصل الحب لا يشتركون في أصل المحبة ولكنهم متفاوتون لتفاوتهم في المعرفة وفي حب الدنيا إذ الأشياء إنما تتفاوت بتفاوت أسبابها وأكثر الناس ليس لهم من الله تعالى إلا الصفات والأسماء التي قرعت سمعهم فتلقنوها وحفظوها وربما تخيلوا لها معاني يتعالى عنها رب الأرباب وربما لم يظلموا على حقيقتها ولا تخيلوا لها معنى فاسداً بل آمنوا بها إيمان تسليم وتصديق واشتغلوا بالعمل وتركوا البحث وهؤلاء هم أهل السلامة من أصحاب اليمين والتخيلون هم الضالون والعارفون بالحقائق هم القريبون وقد ذكر الله حال الأسماء الثلاثة في قوله تعالى - فأما إن كان من القريبين فروح وريحان وجنة نعيم - الآية فإن كنت لانفهم الأمور إلا بالأمثلة فلنضرب لتفاوت الحب مثلاً فنقول أصحاب الشافعي مثلاً يشتركون في حب الشافعي رحمه الله الفقهاء منهم والعوام لأنهم مشتركون في معرفة فضله ودينه وحسن سيرته ومحامد خصاله ولكن المامى يعرف علمه بحجلاً واقفيه يعرفه بمفصلاً فتكون معرفة الفقيه به أتم وإعجابه به وجبه له أشد فأن من رأى تصنيف مصنف فاستحسنه وعرف به فضله أحبه لاهالة ومال إليه قلبه فإن رأى تصنيفاً آخر أحسن منه وأعجب تضاعف لاهالة حبه لأنه تضاعفت معرفته بعلمه وكذلك يعتد الرجل في الشاعر أنه حسن الشعر فيحبه فإذا سمع من غرائب شعره ما عظم فيه حذقه وصنعة ازداد به معرفة وازداد له حبا وكذا سائر الصناعات والفضائل والمامى قد يسمع أن فلاناً مصنف وأنه حسن التصنيف ولكن لا يدري ما في التصنيف فيكون له معرفة بحجلة ويكون له بحسبه ميل بحجمل والبصير إذا فقه عن التصنيف واطلع على ما فيها من العجائب تضاعف حبه لاهالة لأن عجائب الصنعة والشعر والتصنيف تدل على كمال صفات الفاعل والمصنف والعالم بحجملته صنع الله تعالى وتصنيفه والمامى يعلم ذلك ويعتقده وأما البصير فإنه يطالع تفصيل صنع الله تعالى فيه حتى يرى في البعوض مثلاً من عجائب صنعه ما ينهر به عقله ويثير فيه له ويزداد بسببه لاهالة عظمة الله وجلاله وكال صفاته في قلبه فيزداد له حبا وكذا ازداد على أعاجيب صنع الله اطلاعا استدلل بذلك على عظمة الله الصانع وجلاله وازداد بمعرفة قوله حبا وبحر هذه المعرفة أعنى معرفة عجائب صنع الله تعالى بحر لا ساحل له فلا جرم تفاوت أهل المعرفة في الحب لاحتصانه بمحسناً إليه من أعجابه اختلاف الأسباب الحجة التي ذكرناها للحب فإن من يحب الله مثلاً لكونه محسناً إليه من أعجابه ولم يحبه لمداته ضغف محبته إذ تغير بتغير الاحسان فلا يكون حبه في حالة البلاء كحبه في حالة الرضا والنماء وأما من يحبه لمداته ولا يتمتع بالحسب كاله وجماله ومجده وعظمته فإنه لا يتفاوت حبه بتفاوت الإحسان إليه فمداه وأمثاله هو سبب تفاوت الناس في المحبة والتفاوت في المحبة هو السبب لتفاوتهم في سعادة الآخرة ولذلك قال تعالى - والآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلاً -

على الكمال بهما  
فصارت المحاسبة  
والرأفة والراية من  
ضرورة مقام التوبة .  
أدبرنا أبو زرعة إجازة  
عن ابن خلف أبي بكر  
الشيرازي قال سمعت  
أبا عبد الرحمن السلمي  
يقول سمعت الحسن  
الفارسي يقول سمعت  
الجريري يقول أمرنا  
هذا مبني على فصلين  
وهو أن تلزم شك  
للرأفة لله تعالى ويكون  
العلم على ظاهره قائماً .  
وقال المرتضى : للرأفة  
مراعاة السر للاحطة  
الحق في كل لحظة  
ولفظه قال الله تعالى  
- ألن هو قائم على  
كل نفس بما كسبت -  
وهذا هو علم القيام

( بيان السبب في قصور أفهام الخلق عن معرفة الله سبحانه )

اعلم أن أظهر الوجودات وأجلها هو الله تعالى وكان هذا يقتضي أن تكون معرفته أول المعارف وأسبغها إلى الأفهام وأسماها على العقول وترى الأمر بالصد من ذلك فلا بد من بيان السبب فيه وإعما قلنا إنه أظهر الوجودات وأجلها لمعنى لانفهمه إلا بمثال وهو أنا إذا رأينا إنسانا يكتب أو يخط مثلا كان كونه حيا عندنا من أظهر الوجودات بحياته وعلمه وقدرته وإرادته للخياطة أجلي عندنا من سائر صفاته الظاهرة والباطنة إذ صفاته الباطنة كشموته وغضبه وخلقه وصحته ومرضه وكل ذلك لانعرفه وصفاته الظاهرة لانعرف بعضها وبعضها نشك فيه كقدر طولها واختلاف لون بشرته وغير ذلك من صفاته أمحياته وقدرته وإرادته وعلمه وكونه حيوانا فإنه جلي عندنا من غير أن يتعلق حس البصر بحياته وقدرته وإرادته فإن هذه الصفات لا تحس بشئ من الحواس الخمس ثم لا يمكن أن نعرف حياته وقدرته وإرادته إلا بخياطته وحركته فلو نظرنا إلى كل مافي العالم سواء لم نعرف به صفة لها عليه إلا لدليل واحد وهو مع ذلك جلي واضح ووجود الله تعالى وقدرته وعلمه وسائر صفاته يشهد له بالضرورة كل ما نشاهده وندركه بالحواس الظاهرة والباطنة من حجر ومدر ونبات وشجر وحيوان وسما وأرض وكوكب وبر وبحر ونار وهواء وجوهر وعرض بل أول شاهد عليه أنفسنا وأجسامنا وأوصافنا وتقلب أحوالنا وتغير قلوبنا وجميع أطوارنا في حركاتنا وسكناتنا وأظهر الأشياء في علمنا أنفسنا ثم محسوساتنا بالحواس الخمس ثم مدركاتنا بالقل والبصرة وكل واحد من هذه المدركات له مدرك واحد وشاهد واحد ودليل واحد وجميع مافي العالم شواهدنا طاقة وأدلة شاهدة بوجود خالقها ومدبرها ومصرفها ومحركها ودالة على علمه وقدرته ولطفه وحكمته والوجودات للمدركة لا حصر لها فإن كانت حياة الكاتب ظاهرة عندنا وليس يشهد لها إلا شاهد واحد وهو ما أحسنا به من حركة يده فكيف لا يظهر عندنا ما لا يتصور في الوجود شئ داخل نفوسنا وخارجها إلا وهو شاهد عليه وعلى عظمتهم وجلاله إذ كل ذرة فأنها تنادى بلسان حالها أنه ليس وجودها بنفسها ولا حركتها بذاتها وأنها تحتاج إلى موجد ومحرك لها يشهد بذلك أول تركيب أعضائنا واتلاف عظامنا ولحومنا وأعصابنا ومنابت شعورنا وتشكل أطرافنا وسائر أجزائنا الظاهرة والباطنة فانا نعلم أنها لم تأتلف بأنفسها كما نعلم أن يد الكاتب لم تتحرك بنفسها ولكن لما لم يبق في الوجود شئ مدرك ومحسوس ومعقول وحاضر وغائب إلا وهو شاهد ومعرف عظم ظهوره فانتهرت العقول ودهشت عن إدراكه فإن ما تقتصر عن فهمه عقولنا فله سببان: أحدهما خفاؤه في نفسه وغموضه وذلك لا يخفى مثاله . والآخر ما ينهيه وضوحه وهذا كما أن الخفاش يصير بالليل ولا يصير بالنهار لاختفاء النهار واستتاره لكن لعدة ظهوره فإن بصير الخفاش ضيف إليه نور الشمس إذا اشرفت فتكون قوة ظهوره مع ضعف بصيره سببا لامتناع إبصاره فلا يرى شيئا إلا إذا امتزج الضوء بالظلام وضعف ظهوره فكذلك عقولنا ضعيفة وجمال الحضرة الإلهية في نهاية الإشراق والاستنارة وفي غاية الاستغراق والشمول حتى لم يشذ عن ظهوره ذرة من ملكوت السموات والأرض فصار ظهوره بسبب خفائه فيجب أن احتجب بإشراق نوره واختفى عن البصائر والأبصار بظهوره ولا يتعجب من اختفاء ذلك بسبب الظهور فإن الأشياء تسببان بأضدادها وماعم وجوده حتى إنه لا ضد له عسر إدراكه فلو اختلفت الأشياء فدل بعضها دون بعض أدركت التفرقة على قرب ولما اشتركت في الدلالة على نسق واحد أشكل الأمر ومثاله نور الشمس الشرق على الأرض فانا نعلم أنه عرض من الأعراض يحدث في الأرض ويحول عند غيبة الشمس فلو كانت الشمس دائمة الاشرق لا غروب لها لكاننا نظن أنه لا هيئة في الأجسام إلا ألوانها وهي السواد والبياض وغيرها

وبذلك يتم علم الحال ومعرفة الزيادة والقصا وهو أن يعلم ميسار حاله فيها بينه وبين الله وكل هذا ملازم لصحة التوبة وصحة التوبة ملازم لها لأن الحواطر مقدمات العزائم والعزائم مقدمات الأعمال لأن الحواطر تحقق إرادة القلب والقلب أمير الجوارح ولا تتحرك إلا بتحرك القلب بالارادة والمراقبة حسم مواد الحواطر الرديئة فصار من تمام المراقبة تمام التوبة لأن من حصر الحواطر كفى مؤنة الجوارح لأن بالمراقبة اصطلام عروق إرادة للكاره من

فإننا لا نشاهد في الأسود إلا السواد وفي الأبيض إلا البياض فأما الضوء فلا ندركه وحده ولكن لما غابت الشمس وأظلمت للواضع أدركنا تفرقة بين الحالين فلمنا أن الأجسام كانت قد استضاءت بضوء وانصفت بصفة فارقتها عند الغروب فعرفنا وجود النور بصدمة وما كنا نطلع عليه لولا عدمه إلا بصير شديد وذلك لمشاهدتنا الأجسام متشابهة غير مختلفة في الظلام والنور وهذا مع أن النور أظهر المحسوسات إذ به تدرك سائر المحسوسات فما هو ظاهر في نفسه وهو مظهر لغيره انظر كيف تصور استنباه أمره بسبب ظهوره لولا طريان ضده فأنه تعالى هو أظهر الأمور وبه ظهرت الأشياء كلها ولو كان له عدم أو غيبة أو تغير لانهتد السموات والأرض وبطل الملك والملكوت ولأدرك بذلك التفرقة بين الحالين ولو كان بعض الأشياء موجودا به وبعضها موجودا بغيره لأدركت التفرقة بين الشيتين في الدلالة ولكن دلالاته عامة في الأشياء على نسق واحد ووجوده دائم في الأحوال يستحيل خلافه فلا جرم أورثت شدة الظهور خفاء فهذا هو السبب في قصور الأفهام وأما من قويت بصيرته ولم تصنف منته فأنه في حال اعتدال أمره لا يرى إلا الله تعالى ولا يعرف غيره يعلم أنه ليس في الوجود إلا الله وأفعاله أثر من آثار قدرته فهي تابعة له فلا وجود لها بالحقيقة ودونه وإنما الوجود للواحد الحق الذي به وجود الأفعال كلها ومن هذه حاله فلا ينظر في شيء من الأفعال إلا ويرى فيه الفاعل وينهل عن الفعل من حيث إنه معما وأرض وحيوان وشجر بل ينظر فيه من حيث إنه صنع الواحد الحق فلا يكون نظره مجاوزا له إلى غيره كمن نظر في شعر إنسان أو خطه أو تصنيفه ورأى فيها الشاعر والمصنف ورأى آثاره من حيث أثره لا من حيث إنه حبر وعفص وزاج مرقوم على بياض فلا يكون قد نظر إلى غير المصنف وكل العالم تصنيف الله تعالى فمن نظر إليه من حيث إنه فعل الله وعرفه من حيث أنه فعل الله وأحبه من حيث إنه فعل الله لم يكن ناظرا إلا في الله ولا عارفا إلا بالله ولا محبا إلا له وكان هو الواحد الحق الذي لا يرى إلا الله بل لا ينظر إلى نفسه من حيث نفسه بل من حيث إنه عبد الله فهذا الذي يقال فيه إنه فنى في التوحيد وأنه فنى عن نفسه وإليه الإشارة بقول من قال كنا بنا قنينا عنا فقينا بل نحن فهذه أمور معلومة عند ذوى البصائر أشكلت لضعف الأفهام عن دركها وقصور قدرة العلماء بها عن إيضاحها وبيانها بعبارة مفهومة موصلة للعرض إلى الأفهام أو باستغنائهم بأنفسهم واعتقادهم أن بيان ذلك لغيرهم مما لا ينهم فهذا هو السبب في قصور الأفهام عن معرفة الله تعالى وانضم إليه أن المدرجات كلها التي هي شاهدة على الله إنما يدركها الإنسان في الصبا عند قدح العقل ثم تبدو فيه غريزة العقل قليلا قليلا وهو مستغرق الهم بشهوته وقد أنس بمدركاته ومحسوساته وأهملها فمقط وقعها عن قلبه بطول الأنس ولذلك إذا رأى على سبيل الفجأة حيوانا غريبا أو نباتا غريبا أو فعلا من أفعال الله تعالى خارقا للمادة عجيبا انطلق لسانه بالمعرفة طيبا فقال سبحانه الله وهو يرى طول النهار نفسه وأعضائه وسائر الحيوانات المألوفة وكلها شواهد قاطمة لا يحس بشهادتها لطول الأس بها ولو فرض أنك بلغ عاقلا ثم اقتضت غشاوة عينه فامتد بصره إلى السماء والأرض والأشجار والنبات والحيوان دفعة واحدة على سبيل الفجأة لحيف على عقله أن ينهر لعظم تعجبه من شهادة هذه المعجائب الخالق فما هذا وأمثاله من الأسباب مع الانهماك في الشهوات هو الذي سد على الخلق سبيل الاستضاءة بأنوار المعرفة والسياسة في عمارها الواسعة فالتناس في طلبهم معرفة الله كالدهوش الذي يضرب به الكل إذا كان راكبًا لحماره وهو يطلب حمارة والحليات إذا صارت مطلوبة صارت معناتة فهذا سر هذا الأمر فليحقق ولذلك قيل:

قد ظهرت فما تخفى على أحد إلا على أكنه لا يصرف القمرا

لكن بطب بما أظهرت محتجبا فكيف يعرف من بالعرف قد ستر

القلب وبالمحاسة  
استدراك ما انفلت  
من المراقبة . أخبرنا  
أبو زرعة عن ابن  
خلف عن السلمي قال  
سمعت أبا عثمان القرني  
يقول أفضل ما يلزم  
الإنسان في هذا  
الطريق المحاسبة  
والمراقبة وسياسة  
العمل بالعلم وإذا صحت  
التوبة صحت الانابة  
قال إبراهيم بن آدم  
إذا صدق العبد في  
توبته صار منيبا لأن  
الانابة ثانی درجة  
التوبة وقال أبو سعيد  
القرشي المنيب الراجع  
عن كل شيء يشغله  
عن الله إلى الله وقال  
بعضهم الانابة الرجوع  
منه إليه لا من شيء

## ( بيان معنى الشوق إلى الله تعالى )

اعلم أن من أنكر حقيقة المحبة لله تعالى فلا بد وأن ينكر حقيقة الشوق إذ لا يتصور الشوق إلا إلى محبوب ونحن تثبت وجود الشوق إلى الله تعالى وكون العارف مضطراً إليه بطريق الاعتبار والنظر بأنوار البصائر وبطريق الأخبار والآثار أما الاعتبار فيمكن في إثباته ما سبق في إثبات الحب فكل محبوب يشاق إلى في غيبته لا محالة فأما الحاصل الحاضر فلا يشاق إليه فإن الشوق طلب وتشوق إلى أمر والوجود لا يطلب ولكن يانه أن الشوق لا يتصور إلا إلى شيء أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه فأما لا يدرك أصلاً فلا يشاق إليه فإن من لم ير شخصاً ولم يسمع وصفه لا يتصور أن يشاق إليه وما أدرك بكامله لا يشاق إليه وكال الإدراك بالرؤية فمن كان في مشاهدة محبوبه مداوماً للنظر إليه لا يتصور أن يكون له شوق ولكن الشوق إنما يتعلق بما أدرك من وجهه ولم يدرك من وجهه وهومن وجهين لا ينكشف إلا بمثل من الشهادات . فنقول مثلاً من غاب عنه معشوقه وبقي في قلبه خياله فيشتاق إلى استكمال خياله بالرؤية فلو انمحن عن قلبه ذكره وخياله ومعرفة حق نفسه لم يتصور أن يشاق إليه ولو رآه لم يتصور أن يشاق في وقت الرؤية فمعنى شوقه تشوق نفسه إلى استكمال خياله فكذلك قد يراه في ظلمة بحيث لا ينكشف له حقيقة صورته فيشتاق إلى استكمال رؤيته ونعم الانكشاف في صورته بإشراق الضوء عليه . والثاني : أن يرى وجه محبوبه ولا يرى شعره مثلاً ولا سائر محاسنه فيشتاق لرؤيته وإن لم يرها قط ولم يثبت في نفسه خيال صادر عن الرؤية ولكنه يعلم أن له عضواً وأعضاء جميلة ولم يدرك تفصيل جمالها بالرؤية فيشتاق إلى أن ينكشف له ما لم يره قط والوحيان جميعاً متصوران في حق الله تعالى بل هما لازمان بالضرورة لكل العارفين فإن ما اتضح للعارفين من الأمور الإلهية وإن كان في غاية الوضوح فكأنه من وراء ستر رقيق فلا يكون متضحاً غاية الانضاح بل يكون مشوباً بشوائب التخيلات فإن الخيالات لا تنفرد في هذا العالم عن التخييل والمحاكاة لجميع المعلومات وهي مكدرات للمعارف ومنخفضات وكذلك يضاف إليها شواغل الدنيا فأما كمال الوضوح بالمشاهدة وتماهي إشراق التجلي ولا يكون ذلك إلا في الآخرة وذلك بالضرورة بوجوب الشوق فإنه منتهى محبوب العارفين فهذا أحد نوعي الشوق وهو استكمال الوضوح فيها اتضح انضاحاً ما الثاني أن الأمور الإلهية لانهاية لها وإنما ينكشف لكل عبد من العباد بعضها وتبقى أمور لانهاية لها غامضة والعارف يعلم وجودها وكونها معلومة لله تعالى ويعلم أن ما غاب عن علمه من المعلومات أكثر مما حضر فلا يزال متشوقاً إلى أن يحصل له أصل المعرفة فيما لم يحصل مما بقي من المعلومات التي لم يعرفها أصلاً لا معرفة واضحة ولا معرفة غامضة والشوق الأول ينتهي في الدار الآخرة بالمعنى الذي يسمى رؤية ولقاء ومشاهدة ولا يتصور أن يسكن في الدنيا وقد كان إبراهيم بن آدم من المشتاقين فقال قلت ذات يوم يارب ان أعطيت أحداً من المحبين لك ما يسكن به قلبه قبل لقاءك فأعطني ذلك فقد أضربني القلق قال فرأيت في النوم أنه أوفني بين يديه وقال يا إبراهيم أما استحييت مني أن تسألني أن أعطيك ما يسكن به قلبك قبل لقاءي وهل يسكن المشتاق قبل لقاء حبيبه قلت يارب تهت في حبك فلم أدرك ما أقول فاغفر لي وعلني ما أقول فقال قل اللهم رضني بقضائك وصبرني على بلائك وأوزعني شكر نعمائك فإن هذا الشوق يسكن في الآخرة وأما الشوق الثاني فيشبه ما أن لا يكون له نهاية لافي الدنيا ولا في الآخرة إذ نهايته أن ينكشف للعبد في الآخرة من جلال الله تعالى وصفاته وحكمته وأفعاله ما هو معلوم لله تعالى وهو محال لأن ذلك لانهاية له ولا يزال العبد عالماً بأنه بقي من الجمال والجلال ما لم يتضح له فلا يسكن قط شوقه لاسيما من يرى فوق درجته درجات كثيرة إلا أنه تشوق إلى استكمال الوصال مع حصول أصل الوصال فهو يبعد لذلك شوقاً لا يبدأ لا يظهر فيه ألم ولا يبعد أن تكون

غيره فمن رجع من غيره إليه ضيق أحد طرفي الانابة والنيب على الحقيقة من لم يكن له مرجع سواء ف يرجع إليه من رجوعه ثم يرجع من رجوع رجوعه فيبقى شجوا لا وصف له قائماً بين يدي الحق مستغرقاً في عين الجمع ومخالفة النفس ورؤية عيوب الأفعال والمجاهدة لتحقيق تحقيق الرعاية والراقبة . قال أبو سليمان ما استحييت من نفسي عملاً فأحتسبه وقال أبو عبد الله السجزي من استحسن شيئاً من أحواله في حال إرادته فسدت عليه إرادته إلا أن يرجع

الطاف الكشف والظر متوالية إلى غير نهاية فلا يزال النعم واللذة متزايدا أبدا لا يباد وتكون لذة ما يتجدد من لطائف النعم شاغلة عن الاحساس بالشوق إلى ما لم يحصل وهذا بشرط أن يمكن حصول الكشف فيما لم يحصل فيه كشف في الدنيا أصلا فان كان ذلك غير مبذول فيكون النعم واقعا على حد لا يتضاعف ولكن يكون مستمرا على الدوام وقوله سبحانه وتعالى - نورهم يمشي بين أيديهم وبأيمانهم يقولون ربنا آتهم لنا نورنا - محتمل لهذا المعنى وهو أن ينعم عليه بأعمام النور مهما تزود من الدنيا أصل النور ومحتمل أن يكون الراديه إتمام النور في غير ما استنار في الدنيا استنارة محتاجة إلى مزيد الاستكمال والاشراق فيكون هو المراد بشماه وقوله تعالى - انظرونا نقبوس من نوركم قيل ارجعوا وراءكم فالتمسوا نورا - يدل على أن الأنوار لا بد وأن يتزود أصلها في الدنيا ثم يزاد في الآخرة إشراقا فاما أن يتجدد نور فلا والحكم في هذا برجم الظنون محظر ولم ينكشف لنا فيه بعدما يوثق به فنسأل الله تعالى أن يزيدنا علما ورشدا ويرينا الحق حقا فهذا القدر من أنوار البصائر كاشف لحقائق الشوق ومعانيه. وأما شواهد الأخبار والآثار فأكثر من أن تحصى فيما اشتهر من دعاء رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه كان يقول: « اللهم إني أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت ولذة النظر إلى وجهك الكريم والشوق إلى لقاءك »<sup>(١)</sup> وقال أبو الدرداء: لكتب أخبرني عن أخى آية يعني في التوراة فقال يقول الله تعالى: طال شوق الأبرار إلى لقائي وإني إلى لقاءهم لأشد شوقا قال ومكتوب إلى جانبها من طلبى وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فقال أبو الدرداء أشهد أنى لسمعت رسول الله ﷺ يقول هذا وفى أخبار داود عليه السلام إن الله تعالى قال يادود أبلغ هل أرى أنى حبيب لمن أحبني وجلس لمن جالسني ومؤنس لمن أنس بذكري وصاحب لمن صاحبي ومختار لمن اختارني ومطيع لمن أطاعني ما أحبني عبد أعلم ذلك يقينا من قلبه إلا قبلته لنفسى وأحبته جبالا لا تقده أحد من خلقى من طلبنى بالحق وجدنى ومن طلب غيرى لم يجدنى ، فارضوا يا أهل الأرض ما أتم عليه من غرورها واهلوا إلى كرامتى ومصاحبى ومجالسنى واتنسوا بى أو أنسكم وأسارع إلى محبتكم فاني خلقت طينة أحبائى من طينة إبراهيم خليلي وموسى نبي ومحمد صفي و خلقت قلوب المشتاقين من نوري ونصمتها بجلالى . وروى عن بعض السلف أن الله تعالى أوحى إلى بعض الصديقين إن لى عبادا من عبادى يحبونى وأحبهم ويشتاقون إلى وأشتاق إليهم ويذكرونى وأذكركم وينظرون إلى وأنظر إليهم فان حدثت طريقهم أحببتك وإن عدلت عنهم . فتك قال يارب وما علامتهم قال يراعون الظلال بالنهار كما يراعى الراعى الشقيق غنمه ويحمنون إلى غروب الشمس كما يحمن الطائر إلى وكفه عند الغروب فإذا جهنم الليل واختلط الظلام وغرشت القرش ونصبت الأسرة وخلا كل حبيب بحبيبه نصبوا إلى أقدامهم واقترشوا إلى وجوههم وناجوني بكلامى وتعلقوا إلى باضامى فبين صارخ وبك وبين متأوه وشاك وبين قائم وقاعد وبين راكع وساجد بينى ما يحملون من أجل وبسمى ما يشكون من حبي أول ما أعطيهم ثلاث : أقذف من نوري في قلوبهم فيخبرون عنى كما أخبر عنهم . والثانية لو كانت السموات والأرض وما فيها فى موازينهم لاستقلتها لهم . والثالثة أقبل بوجهى عليهم فقرأى من أقبلت بوجهى عليه يعلم أحد ما أريد أن أعطيه . وفى أخبار داود عليه السلام ان الله تعالى أوحى اليه يادود الى كم تذكر الجنة ولا تنسأنى الشوق الى قال يارب من المشتاقون اليك قال ان المشتاقين الى الدين صفتهم من كل كدر ونبتهم بالحذر وخرقت من قلوبهم الى خرقا ينظرون الى واني لأحمل قلوبهم بيدي فأضئها على صفائى ثم ادعوا نجباء ملائكتى فإذا اجتمعوا

(١) حديث أنه كان يقول فى دعائه اللهم انى أسألك الرضا بعد القضاء وبرد العيش بعد الموت الحديث أحمد والحاكم وتقدم فى الدعوات .

الى ابتدائه فيروض  
نفسه ثانيا ومن لم يكن  
نفسه بيزان الصدق  
فيأله وعليه لا يبلغ  
مبلغ الرجال ورؤية  
عيوب الأفعال من  
ضرورة صحة الانابة  
وهو في تحقيق مقام  
التوبة ولا تستقيم  
التوبة الا بصدق  
المجاهدة ولا بصدق  
العبد في المجاهدة الا  
بوجود الصبر. وروى  
فضالة بن عبيد قال  
سمعت رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يقول  
المجاهد من جاهد نفسه  
ولا يتم ذلك الا بالصبر  
وأفضل الصبر الصبر  
على الله بمكوف اللهم  
عليه وصدق للراقبة  
له بالقلب وجسم مواد

سجدوا لي فأقول إني لم أدعكم لتسجدوا لي ولكن دعوتكم لأعرض عليكم قلوب الشاقين إلى  
وأباهي بكم أهل الشوق إلىّ فإن قلوبهم لتضيء في سبلي للملائكة كما تضيء الشمس لأهل الأرض.  
ياداد إني خلقت قلوب الشاقين من رضواني ونصبتها بنور وجهي فأخذتهم نفسي محبتي ،  
وجعلت أبدانهم موضع نظري إلى الأرض وقطعت من قلوبهم طريقا ينظرون به إلىّ يزدادون في  
كل يوم شوقا . قال داود يارب أرني أهل محبتك ، فقال ياداد أنت جبل لبنان فإن فيه أربعة  
عشر ألفا فيهم شبان وفيهم شيوخ وفيهم كهول فإذا أتيتهم فأقرهم مني السلام وقل لهم إن ربكم  
يقربكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة فانكم أجابى وأصفياني وأولياني أفرح لفرحكم  
وأسارع إلى محبتكم فأتاهم داود عليه السلام فوجدهم عند عين من العيون يتفكرون في عظمة  
الله عز وجل ، فلما نظروا إلى داود عليه السلام نهضوا ليتفرقوا عنه ، فقال داود إني رسول الله  
إليكم جيشكم لأبلغكم رسالة ربكم فأقبلوا نحوه وألقوا أسماهم نحو قوله وألقوا أبصارهم إلى  
الأرض ، فقال داود إني رسول الله إليكم يقربكم السلام ويقول لكم ألا تسألون حاجة ألا تبادون  
أسمع صوتكم وكلامكم فانكم أجابى وأصفياني وأولياني أفرح لفرحكم وأسارع إلى محبتكم وأنظر  
إليكم في كل ساعة نظر الوالدة الشقيقة الرفيقة . قال جبرت الدموع على خدودهم ، فقال شيخهم  
سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فاغفر لنا ما قطع قلوبنا عن ذكرك فيما مضى من  
أعمارنا . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك فامتن علينا بحسن النظر  
فيما بيننا وبينك . وقال الآخر : سبحانك سبحانك نحن عبيدك وبنو عبيدك أنجرتني على  
الدعاء وقد علمت أنه لا حاجة لنا في شيء من أمورنا فأدع لنا لزوم الطريق إليك وأنعم بذلك المنة  
علينا . وقال الآخر : نحن مقصرون في طلب رضاك فأعنا علينا بمجودك . وقال الآخر : من  
نطفة خلقتنا ومننت علينا بالتفكير في عظمتك أنجرتني على الكلام من هو مشتغل بعظمتك  
متفكر في جلالك وطلبنا الدنو من نورك . وقال الآخر : كنت ألسنتنا عن دعائك لعظم شأنك  
وقربك من أوليائك وكثرة متك على أهل محبتك . وقال الآخر : أنت هديت قلوبنا لذكرك  
وفرغتنا للاشتغال بك فاغفر لنا تقصيرنا في شكرك . وقال الآخر : قد عرفت حاجتنا إنما هي  
النظر إلى وجهك . وقال الآخر : كيف يجترئ البعد على سيده إذ أمرتنا بالدعاء بمجودك فهب  
لنا نورا نهتدي به في الظلمات من أطباق السموات . وقال آخر : ندعوك أن تقبل علينا  
وتدعنا عندنا . وقال الآخر : نسألك تمام نعمتك فيما وهبت لنا وتفضلت به علينا . وقال  
الآخر : لا حاجة لنا في شيء من خلقك فامتن علينا بالنظر إلى جمال وجهك . وقال الآخر :  
أسألك من بينهم أن تسمى عيني عن النظر إلى الدنيا وأهلها وقلبي عن الاشتغال بالآخرة . وقال  
الآخر : قد عرفت تباركت وتعاليت أنك تحب أوليائك فامتن علينا باشتغال القلب بك عن كل شيء  
دونك . فأحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قل لهم قد سمعت كلامكم وأجبتكم إلى ما أجبتم فليفارق  
كل واحد منكم صاحبه وليتخذ لنفسه سربا فاني كاشف الحجاب فيما بيني وبينكم حتى تنظروا إلى نوري  
وجلالى . فقال داود يارب بم نالوا هذا منك قال بحسن الظن والكشف عن الدنيا وأهلها والحلوات في  
ومناجاتهم لي وإن هذا منزل لا يناله إلا من رضى الدنيا وأهلها ولم يشتغل شيء من ذكرها وفرغ قلبه لي  
واختارني على جميع خلق فقدر ذلك أعطف عليه وأفرغ نفسه وأكشف الحجاب فيما بيني وبينه حتى  
ينظر إلىّ نظر الناظر بعينه إلى الشيء وأريه كرامتي في كل ساعة وأقره من نور وجهي ، إن

الحواطر والصبر  
ينقسم إلى فرض  
وفضل فالفضل كالصبر  
على أداء المفترضات،  
والصبر عن المحرمات  
وهو الصبر الذي هو  
فضل الصبر على الفقر  
والصبر عند الصدمة  
الأولى وحكمتان  
للمصاب والأوجاع  
وترك الشكوى  
والصبر على إخفاء  
الفقر، والصبر على كتم  
النسب والكرامات  
ورؤية العبر والآيات  
ووجوه الصبر فرضا  
وفضلا كثيرة وكثير  
من الناس من يقوم  
بهذه الأقسام من  
الصبر ويضيق عن  
الصبر على الله بلزوم  
حمة المراقبة والرعاية



مرض مرضته كما تعرض الوالدة الشقيقة ولدها ، وإن عطش أرويته وأذيقه طعم ذكرى ، فإذا فعلت ذلك به يادود عمت نفسه عن الدنيا وأهلها ولم أحببها إليه لا يخر عن الاشتغال بي . يستعجلني القدوم وأنا أكره أن أميته لأنه موضع نظري من بين خلقى لا يرى غيرى ولا أرى غيره فلو رأته يادود وقد ذابت نفسه وتحمل جسمه وتهشمت أعضاؤه وانخلع قلبه إذا سمع بك ذكرى أباهى به ملائكتى وأهل سمواتى يزداد خوفاً وعبادة ، وعزى وجلالى يادود لأقصدته فى الفردوس ولأخفين صدره من النظر إلى حقى برضى وفوق الرضا . وفى أخبار داود أيضاً : قل لبادى للتوجهين إلى محبى ماضركم إذا احتجبت عن خلقى ورفقت الحجاب فيما بينى وبينكم حتى تنظروا إلى بيوت قلوبكم وما ضرركم ما زويت عنكم من الدنيا إذا بسطت دينى لكم وما ضرركم مسخطة الخلق إذا التمس رضائى . وفى أخبار داود أيضاً : إن الله تعالى أوحى إليه تزعم أنك تحبى ، فإن كنت تحبى فأخرج حب الدنيا من قلبك فإن حبى وحبها لا يجتمعان فى قلب . يادود خالص حبيى محالمة وخالط أهل الدنيا محالطة ودينك قلهديه ولا تقلد دينك الرجال ، أما ما استبان لك مما وافق محبى فتمسك به ، وأما ما أشكل عليك قلهديه فحاش على آتى أسارع إلى سياستك وتقويك وأكن قائداً ودليلك أعطيك من غير أن تسألنى وأعنيك على الشدائد وإن قد حلفت على نفسى آتى لا أنيب إلا عبداً قد عرفت من طلبته وإرادته إلقاء كنفه بين يدي وأنه لا غنى به عنى ، فإذا كنت كذلك نزعتم القلة والوحشة عنك وأسكن النقى قلبك فأنى قد حلفت على نفسى أنه لا يطمئن عبد لى إلى نفسه ينظر إلى فاضلها إلا وكلته إليها أنصف الأشياء إلى لا تضاد عملك فتكون متعباً ولا يتفجع بك من يصحبك ولا تجد لمعرفى حداً فليس لها غاية ، ومتى طلبت منى الزيادة أعطيك ولا تجد للزيادة منى حداً ، ثم أعلم بنى إسرائيل أنه ليس بينى وبين أحد من خلقى نسب فلتعظم رغبتهم وإرادتهم عنى أجمع لهم مالا عين رأت ولا أدن سمعت ولا خطر على قلب بشر ضمنى بين عينيك وانظر إلى يصر قلبك ولا تنظر بعينك التى فى رأسك إلى الذين حببت عقولهم عنى فأمرجوها وسخت باقطاع ثوابى عنها فأنى حلفت بعزى وجلالى لا أتسع ثوابى لبيد دخل فى طاعنى للتجربة والتسوف تواضع لمن تملعه ولا تطاول على الريدن ، فلو علم أهل محبى منزلة الريدن عندى لكانوا لهم أرضاً يمشون عليها . يادود لأن تخرج مريداً من مكرة هو فيها تستنقذه فأكتبك عندى جيداً ، ومن كتبتك عندى جيداً لا يكون عليه وحشة ولا فاقة إلى الخلقين . يادود : تمسك بكلامى وخذ من نفسك لنفسك لا تؤثمن منها فأحجب عنك محبى لا تؤيس عبادى من رحمتى أقطع شهوتك لى فأنما أبعث الشهوات لنسفة خلقى ما بال الأقوياء أن ينالوا الشهوات فأنما تنقص حسلاوة مناجاتى ، وإنما عقوبة الأقوياء عندى فى موضع التناول أدنى ما يصل إليهم أن أحجب عقولهم عنى فأنى لم أرض الدنيا لحبيى ونزته عنها . يادود : لا تجعل بينى وبينك عالماً يحجب بكركه عن محبى . أولئك قطاع الطريق على عبادى الريدن استعن على ترك الشهوات بإدمان الصوم ، وإياك والتجربة فى الإقطار فإن محبى للصوم إدمانه . يادود تحبب إلى : بمداة تفك أمنعها الشهوات أنظر إليك وترى المحبب بينى وبينك مرفوعة إنما أداريك مداراة تقوى على ثوابى إذا مننت عليك به وإنى أحبسه عنك وأنت متمسك بطاعنى . وأوحى الله تعالى إلى داود يادود لو لم يدبرون عنى كيف انتظروا لهم ورقص بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما نوا شوقاً إلى وتقطعت أوصالهم من محبى

ونفى الخواطر ، فاذن حقيقة الصبر كائنة فى التوبة ككينة فى الرقابة فى التوبة والصبر من أعز مقامات اللوقين وهو داخل فى حقيقة التوبة . قال بعض العلماء : أى شىء أفضل من الصبر وقد ذكره الله تعالى فى كلامه فى نيف وتسمين موضعاً وما ذكر شيئاً بهذا العدد وحة التوبة تحوى على مقام الصبر مع شرفه . ومن الصبر الصبر على النعمة ، وهو أن لا يهرقها فى معصية الله تعالى وهذا أيضاً داخل فى حصة التوبة

يادادود هذه إرادتي في الدارين عني فكيف إرادتي في القلابين عليّ يادادود أحوج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عني وأرحم ما أكون بعدي إذا أدبر عني وأجل ما يكون عندي إذا رجع إليّ ، فهذه الأخبار ونظائرها مما لا يحصى تدل على إثبات المحبة والشوق والأنس ، وإتمام تحقيق معناها ينكشف بما سبق .

### ( بيان محبة الله للعبد ومعناها )

اعلم أن شواهد القرآن متظاهرة على أن الله تعالى يحب عبده فلا بد من معرفة معنى ذلك . ولتقدم الشواهد على محبته ، فقد قال الله تعالى - بهم ويحبونه - وقال تعالى - إن الله يحب الذين يتاتلون في سبيله صفا - وقال تعالى - إن الله يحب التوابين ويحب المتطهرين - ولذلك رد سبحانه على من ادعى أنه حبيب الله تعالى - قل فلم يعذبكم بذنوبكم - وقد روى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إذا أحب الله تعالى عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ثم تلا - إن الله يحب التوابين - (١) » ومعناه أنه إذا أحبه تاب عليه قبل الموت فلم تضره الذنوب الماضية وإن كثرت كما لا يضر الكفر الماضي بعد الإسلام وقد اشترط الله تعالى للمحبة غفران الذنب فقال - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبكم الله ويغفر لكم ذنوبكم - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب ولا يعطي الإيمان إلا من يحب (٢) » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر ذكر الله أحبه الله (٣) » وقال عليه السلام « قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه فاذا أحببتك كنت محبة الذي يسمع به وبصره الذي يبصر به (٤) » الحديث . وقال زيد بن أسلم : إن الله يحب العبد حتى يبلغ من حبه له أن يقول : اعمل ما شئت فقد غفرت لك ، وما ورد من ألفاظ المحبة خارج عن الحصر ، وقد ذكرنا أن محبة العبد لله تعالى حقيقة وليست بمجاز ، إذ المحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى الشيء الموافق والعشق عبارة عن الليل الغالب للفرط ، وقد بينا أن الإحسان موافق للنفس والجمال موافق أيضا ، وأن الجمال والإحسان تارة يدرك بالبصر وتارة يدرك بالبصيرة والحب يتبع كل واحد منهما فلا يختص بالبصر ، فأما حب الله للعبد فلا يمكن أن يكون بهذا المعنى أصلا بل الأسمى كلها إذا أطلقت على الله تعالى وعلى غير الله لم تنطق عليهما بمعنى واحد أصلا حتى إن اسم الوجود الذي هو أعم الأسماء اشتراكا لا يشمل الخالق والخلق على وجه واحد بل كل ما سوى الله تعالى فوجوده مستفاد من وجود الله تعالى فالوجود التابع لا يكون مساويا للوجود التبويح ، وإنما الاستواء في إطلاق الاسم نظيره اشتراك الفرس والشجر في اسم الجسم ، إذ معنى الجنسية وحقيقتها مشابهة فيهما من غير استحقاق أحدهما لأن يكون فيه أصلا فليست الجنسية لأحدهما مستفادة من الآخر وليس كذلك اسم الوجود لله ولا خلقه ، وهذا التباعد في سائر الأسماء

(١) حديث أس إذا أحب الله عبدا لم يضره ذنب والتائب من الذنب كمن لا ذنب له ذكره صاحب الفردوس ولم يخرج له ولده في مسنده وروى ابن ماجه الشطر الثاني من حديث ابن مسعود وتقدم في التوبة (٢) حديث إن الله يعطي الدنيا من يحب ومن لا يحب الحديث الحاكم وصححه إسناده والبيهقي في الشعب من حديث ابن مسعود (٣) حديث من تواضع لله رفعه الله ومن تكبر وضعه الله ومن أكثر من ذكر الله أحبه الله ابن ماجه من حديث أبي سعيد بإسناد حسن دون قوله ومن أكثر إلى آخره ورواه أبو يعلى وأحمد بهذه الزيادة وفيه ابن لهيعة (٤) حديث قال الله تعالى لا يزال العبد يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

وكان سهل بن عبد الله يقول الصبر على العافية أشد من الصبر على البلاء ، وروى عن بعض الصحابة بلينا بالضراء فصرنا وبلينا بالسراء فلم نصبر ومن الصبر رعاية الاقتصاد في الرضا والغضب والصبر عن محبة الناس والصبر على المحمول والتواضع والذل داخل في الزهد وإن لم يكن داخلا في التوبة وكل ما فات من مقام التوبة من المقامات السنية والأحوال وجد في الزهد وهو ثالث الأربعة التي ذكرنا وحقيقة الصبر تظهر من طمأنينة النفس وطمأنينتها من تركيتها وتركيتها بالتوبة

أظهر كالم والارادة والقدرة وغيرها فكل ذلك لا يشبه فيه الخالق والخلق وواضح اللغة وإنما وضع هذه الأسماء أولا للخلق فان الخلق أسبق إلى القول والأفهام من الخالق فكان استعماها في حق الخالق بطريق الاستعارة والتجوز والنقل والمحبة في وضع اللسان عبارة عن ميل النفس إلى موافق ملائم وهذا إنما يتصور في نفس ناقصة فاتها ما يوافقها فتستفيد بنيله كالا فتلتذ بنيله وهذا محال على الله تعالى فان كل كمال وجمال وهما وجلال يمكن في حق الإلهية فهو حاضر وحاصل وواجب الحصول أبدا وأزلا ولا يتصور تجرده ولا زواله فلا يكون له إلى غيره نظر من حيث إنه غيره بل نظره إلى ذاته وأفعاله فقط وليس في الوجود إلا ذاته وأفعاله ، ولذلك قال الشيخ أبو سعيد الليثي رحمه الله تعالى لما قرئ عليه قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - قال بحق يحبهم فإنه ليس يحب إلا نفسه على معنى أنه الكل وأن ليس في الوجود غيره فمن لا يحب إلا نفسه وأفعاله وتسايف نفسه فلا يجاوز حبه ذاته وتوابع ذاته من حيث هي متعلقة بذاته فهو إذن لا يحب إلا نفسه ، وما ورد من الألفاظ في حبه لعباده فهو مؤول ويرجع معناه إلى كشف الحجاب عن قلبه حتى يراه بقلبه وإلى تمكينه إياه من القرب منه وإلى إرادته ذلك به في الأزل فحبه لمن أحبه أزلى مهما أضيف إلى الارادة الأزلية التي اقتضت تمكين هذا العبد من سلوك طرق هذا القرب وإذا أضيف إلى فعله الذي يكشف الحجاب عن قلب عبده فهو حادث يحدث بحدوث السبب المتقضى له كما قال تعالى «لا يزال عبيدي يتقرب إلى بالنوافل حتى أحبه» فيكون تقربه بالنوافل سببا لصفاء باطنه وارتفاع الحجاب عن قلبه وحصوله في درجة القرب من ربه فكل ذلك فعل الله تعالى ولطفه به فهو معنى حبه ، ولا يفهم هذا إلا بمثال وهو أن الملك قد يقرب عبده من نفسه ويأذن له في كل وقت في حضور بساطه لميل الملك إليه إما لينصره بقوته أو ليسترخ بمشاهدته أو ليستشيره في رأيه أو ليهيئ أسباب طعامه وشرا به فية إن الملك يحبه ويكون معناه ميله إليه لما فيه من المعنى الموافق للآثم له وقد يقرب عبدا ولا يمنعه من الدخول عليه لاللائتفاع به ولا للاستبجاد به ولكن لكون العبد في نفسه موصوفا من الأخلاق الرضية والحاصل الحميدة بما يليق به أن يكون قريبا من حضرة الملك وافر الحظ من قربه مع أن الملك لا غرض له فيه أصلا فإذا رفع الملك الحجاب بينه وبينه يقال قد أحبه وإذا اكتسب من الحاصل الحميدة ما اقتضى رفع الحجاب يقال قد توصل وحجب نفسه إلى الملك فحب الله للعبد إنما يكون بالمعنى الثاني لا بالمعنى الأول وإنما يصح تمثله بالمعنى الثاني بشرط أن لا يسبق إلى فهمك دخول تغير عليه عند تجدد القرب فان الحبيب هو القريب من الله تعالى والقرب من الله في البعد من صفات البهائم والسياع والشياطين والتخلق بمكارم الأخلاق التي هي الأخلاق الإلهية فهو قرب بالصفة لا بالمكان ومن لم يكن قريبا لصار قريبا فقد خسر فربما يظن بهذا أن القرب لما تجدد فقد تغير وصف العبد والرب جميعا إذ صار قريبا بعد أن لم يكن وهو محال في حق الله تعالى إذا تغير عليه محال بل لا يزال في نموت الكمال والجلال على ما كان عليه في أزل الأزال ولا يتكشف هذا إلا بمثال في القرب بين الأشخاص فان الشخصين قد يتقاربان يتحركهما جميعا وقد يكون أحدهما ثابتا فيتحرك الآخر فيحصل القرب بتغير في أحدهما من غير تغير في الآخر بل القرب في الصفات أيضا كذلك فان التلميذ يطلب القرب من درجة أستاذه في كمال العلم وجماله والأستاذ واقف في كمال علمه غير متحرك بالتزول إلى درجة تلميذه والتلميذ متحرك مترق من حضيض الجهل إلى ارتفاع العلم فلا يزال دائما في التغير والترق إلى أن يقرب من أستاذه والأستاذ ثابت غير متغير فكذلك ينبغي أن يفهم ترقى العبد في درجات القرب فكلما صار أكمل صفة وأتم علما وإحاطة بحقائق الأمور وأثبت قوة في قهر الشيطان وقمع الشهوات وأظهر نزاهة عن

فالنفس اذا تزكت  
بالتوبة النصوح زالت  
عنها الشراسة الطبيعية  
وقلة الصبر من وجود  
الشراسة للنفس وإزالتها  
واستصاصها والتوبة  
النصوح تلين النفس  
وتخرجها من طبيعتها  
وشراستها إلى اللين  
لأن النفس بالمحاسبة  
والرأفة تصفو وتطهى  
نيرانها التساجعة  
بمتابعة الهوى وتبلغ  
بطمأنينتها محل لرضا  
ومقامه وتطمئن في  
مجارى الأقدار قال  
أبو عبد الله النابجى  
له عباد يستحيون  
من الصبر ويتلقفون  
مواضع أقداره بالرضا  
تلقفا ، وكان عمر بن  
عبد العزيز يقول

الذائل صار أقرب من درجة الكمال ومنتهى الكمال لله وقرب كل واحد من الله تعالى بقدر كماله ، نعم قد يقدر التلبيذ على القرب من الأستاذ وعلى مساواته وعلى مجاوزته وذلك في حق الله تعالى فإنه لا نهاية الكمال وسلك العبد في درجات الكمال متناه ولا ينتهى إلا إلى حد محدود لا مطمع له في المساواة ثم درجات القرب متفاوت تفاوتاً لا نهاية له أيضاً لأجل انتفاء النهاية عن ذلك الكمال فاذن محبة الله للعبد تفرسه من نفسه بدفع الشواغل والعاصي عنه وتطهير باطنه عن كدورات الدنيا ورفع الحجاب عن قلبه حتى يشاهده كأنه يراه بقلبه . وأما محبة العبد لله فهو ميله إلى درك هذا الكمال الذى هو مفلس عنه فاقد له فلا جرم يشاق إلى مافاتة وإذا أدرك منه شيئاً يلتذبه والشوق والمحبة بهذا المعنى محال على الله تعالى . فان قلت محبة الله للعبد أمر ملتبس فبم يعرف العبد أنه حبيب الله ؟ فأقول يستدل عليه بعلاماته وقد قال صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فإذا أحبه الحب البالغ اقتناه قيل وما اقتناه ؟ قال لم يترك له أهلاً ولا مالا (١)» فعلامه محبة الله للعبد أن يوحشه من غيره ويحول بينه وبين غيره . قيل لعيسى عليه السلام لم لا تشترى حملاً فتركه فقال أنا أعز على الله تعالى من أن يشغنى عن نفسه بحمار ، وفى الخبر «إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتبه فان رضى اصطفاه (٢)» وقال بعض العلماء إذا رأيتك تحبه ورأيتك يبتليك فاعلم أنه يريد يسافيك ، وقال بعض المريدين لأستاذهم قد طولت بشئ من المحبة فقال يا بنى هل ابتلاك بمحبوب سواء فأثرت عليه إياه قال لا قال فلا تطمع في المحبة فإنه لا يعطيكها عبداً حق يلوه ، وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه وزاجراً من قلبه يأمره وينهاه (٣)» وقد قال «إذا أراد الله بعبده خيراً أبصره بعبوب نفسه (٤)» فأخص علاماته حبه لله فان ذلك يدل على حب الله . وأما الفعل الدال على كونه محبوباً فهو أن يتولى الله تعالى أمره ظاهره وباطنه سره وجهره فيكون هو الشير عليه والدبر لأمره والزين لأخلاقه والمستعمل لجوارحه والسدد لظواهره وباطنه والجاعل همومه ما واحداً والبص في الدنيا في قلبه والموحش له من غيره والمؤنس له بلذة النجاة في خلواته والكاشف له عن الحجب بينه وبين معرفته فهذا وأمثاله هو علامة حب الله للعبد ، فلنذكر الآن علامة محبة العبد لله فاتها أيضاً علامات حب الله للعبد .

( القول في علامات محبة العبد لله تعالى )

اعلم أن المحبة يدعيها كل واحد وما أسهل الدعوى وما أعز المعنى فلا ينبغي أن يفتقر الإنسان بتأبيس الشيطان وخدع النفس مهما ادعت محبة الله تعالى ما لم يتحenna بالعلامات ولم يطالبها بالبراهين والأدلة والمحبة شجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها في السماء ونمارها تظهر في القلب واللسان والجوارح وتدل تلك الآثار الفاتضة منها على القلب والجوارح على المحبة دلالة الدخان على النار ودلالة الثمار على الأشجار وهى كثيرة فمنها حب لقاء الحبيب بطريق الكشف والشاهدة في دار السلام فلا يتصور أن يحب القلب محبوباً إلا ويحب مشاهدته ولقاءه وإذا علم أنه لا وصول إلا بالارتحال من الدنيا ومفارقتها بالموت فينبغى أن يكون محباً للموت غير قار منه فان الحب لا يثقل عليه السفر عن وطنه إلى مستقر محبوبه

- (١) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه الحديث الطبرانى من حديث أبى عتبة الخولانى وقد تقدم .
- (٢) حديث إذا أحب الله عبداً ابتلاه فان صبر اجتبه الحديث ذكره صاحب الفردوس من حديث على بن أبى طالب ولم يخرج له ولمه فى مسنده (٣) حديث إذا أحب الله عبداً جعل له واعظاً من نفسه الحديث أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أم سلمة بإسناد حسن بلفظ إذا أراد الله بعبده خيراً (٤) حديث إذا أراد الله بعبده خيراً أبصره بعبوب نفسه أبو منصور الديلمى فى مسند الفردوس من حديث أنس بن مالك فى إسناده ضعيف .

أصبحت ومالى سرور  
إلا مواقع القضاء قال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم لابن عباس  
حين وصاه «اعمل لله  
باليقين فى الرضا فان لم  
يكن فان فى الصبر  
خيراً كثيراً» وفى الخبر  
عن رسول الله صلى الله  
عليه وسلم «من خير  
ما أعطى الرجل الرضا  
بما قسم الله تعالى له»  
فالأخبار والآثار  
والحكايات فى فضيلة  
الرضا وشرفه أكثر  
من أن تحصى والرضا  
ثمره التوبة النصوح  
وما تخلف عبد عن  
الرضا إلا تخلفه عن  
التوبة النصوح فاذن  
تجمع التوبة النصوح  
حال الصبر ومقام الصبر  
وحال الرضا ومقام

ليتم بمشاهدته والموت مفتاح اللقاء وباب الدخول إلى الشهادة . قال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه »<sup>(١)</sup> وقال حذيفة عند الموت حبيب جاء على فاقة لا أفلاح من ندم . وقال بعض السلف : ما من خصلة أحب إلى الله أن تكون في العبد بعد حب لقاء الله من كثرة السجود فقدم حب لقاء الله على السجود وقد شرط الله سبحانه حقيقة الصدق في الحب القتل في سبيل الله حيث قالوا إنا نحب الله فجعل القتل في سبيل الله وطلب الشهادة علامته فقال - إن الله يحب الذين يقاتلون في سبيله صفا - وقال عز وجل - يقاتلون في سبيل الله فيقتلون ويقتلون - وفي وصية أبي بكر لعمر رضي الله تعالى عنهما : الحق ثقیل وهو مع ثقله مرءىء والباطل خفيف وهو مع خفته وبىء فان حفظت وصيتي لم يكن غائب أحب إليك من الموت وهو مدركك وإن ضيقت وصيتي لم يكن غائب أبغض إليك من الموت ولئن تمجزه ، وروى عن اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغلوا في ناحية ففدا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسمت عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ثم يأخذني فيجذب أنفي وأذني ويقر بطني فإذا لقيت غدا قلت يا عبد الله من جدد أنفك وأذنتك فأقول فيك يارب وفي رسولك فتقول صدقت قال سعد فلقد رأيته آخر النهار وإن أعده وأذنه لملقتان في خيط<sup>(٢)</sup> قال سعيد بن المسيب أرجو أن يرى الله آخر قسمه كما أبرأه ، وقد كان الثوري وبشر الحافي يقولان لا يكره الموت إلا مريب لأن الحبيب على كل حال لا يكره لقاء حبيبه . وقال البيهقي لبعض الزهاد أحب الموت فكانت توقف فقال لو كنت صادقا لأحببته وتلاقوه تعالى - فتمنوا الموت إن كنتم صادقين - قال الرجل قد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يتمنين أحدكم الموت »<sup>(٣)</sup> فقال إنما قاله لضر نزل به لأن الرضا بقضاء الله تعالى أفضل من طلب الفرار منه . فان قلت ممن لا يحب الموت فهل يتصور أن يكون محبا لله ؟ فأقول كراهة الموت قد تكون لحب الدنيا والتأسف على فراق الأهل والنال والولد وهذا ينافي كمال حب الله تعالى لأن الحب الكامل هو الذي يستغرق كل القلب ولكن لا يبعد أن يكون له مع حب الأهل والولد شائبة من حب الله تعالى ضعيفة فان الناس متفاوتون في الحب ويدل على التفاوت ما روى أن أبا حذيفة بن عتبة بن ربيعة بن عبد شمس لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وقالوا أنكحت عقيلة من عقائل قريش لمولى فقال والله لقد أنكحت إياها وإني لأعلم أنه خير منها فكان قوله ذلك أشد عليهم من ضلوه فقالوا وكيف وهي أختك وهو مولاك فقال سمعت رسول الله ﷺ يقول « من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليظهر إلى سالم »<sup>(٤)</sup> فهذا يدل على أن من الناس من لا يحب الله بكل قلبه فيحبه ويحب أيضا غيره فلا جرم يكون نعيمه

(١) حديث من أحب لقاء الله أحب الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة وعائشة (٢) حديث اسحق بن سعد بن أبي وقاص قال حدثني أبي أن عبد الله بن جحش قال له يوم أحد ألا ندعو الله فغلوا في ناحية فدعا عبد الله بن جحش فقال يارب إني أقسم عليك إذا لقيت العدو غدا فلقني رجلا شديدا بأسه شديدا حرده أقاتله فيك ويقاتلني ويجذب أنفي وأذني الحديث الطبراني ومن طريقه أبو نعيم في الحلية وإسناده جيد (٣) حديث لا يتمنين أحدكم الموت لضر نزل به الحديث متفق عليه من حديث أنس وقد تقدم (٤) حديث أبي حذيفة بن عتبة أنه لما زوج أخته فاطمة من سالم مولاة عاتبة قريش في ذلك وفيه قال سمعت رسول الله ﷺ يقول من أراد أن ينظر إلى رجل يحب الله بكل قلبه فليظهر إلى سالم لم أره من حديث حذيفة وروى أبو نعيم في الحلية الرزق منه من حديث عمر أن سالما يحب الله حقا من قلبه وفي رواية له إن سالما شديدا يحب الله عز وجل ولم يخف الله عز وجل ما عصاه وفيه عبد الله بن لهيعة

الرضا والخوف والرجاء  
مقامان شريهان من  
مقامات أهل اليقين  
وهما كائنان في صلب  
التوبة التصوح لأن  
خوفه حمله على التوبة  
ولولا خوفه ما تاب  
ولولا رجاءه ما خاف  
فالرجاء والخوف  
يتلازمان في قلب المؤمن  
ويستبدل - الخوف  
والرجاء لا تائب المستقيم  
في التوبة . دخل رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
على رجل وهو في  
سياق الموت فقال  
« كيف تجدك قال  
أجدني أخاف ذنوبي  
وأرجو رحمة ربّي فقال  
ما اجتمعا في قلب عبد  
في هذا الوطن إلا أعطاه  
الله ما رجا وآمنه بما

ببقاء الله عند القدوم عليه على قدر حبه وعذابه بفراق الدنيا عند الموت على قدر حبه لها .  
وأما السبب الثاني للكرهية : فهو أن يكون العبد في ابتداء مقام المحبة وليس يكره الموت وإنما يكره  
عجلته قبل أن يستعد للقاء الله فذلك لا يدل على ضعف الحب وهو كالحب الذي وصله الحبيب بقدوم  
حبيه عليه فأحب أن يتأخر قدومه ساعة ليبيء له داره ويعد له أسبابه فيلقاه كما يهواه فارغ القلب  
عن الشواغل خفيف الظهر عن الموائق فالكرهية بهذا السبب لا تنافي كمال الحب أصلا وعلامته  
الدعوى في العمل واستغراق الهم في الاستعداد . ومنها أن يكون مؤثرا ما أحبه الله تعالى على ما يهجه  
في ظاهره وباطنه فيقوم مشاق العمل ويحسب اتباع الهوى ويعرض عن دعة الكسل ولا يزال  
مواظبا على طاعة الله ومتقربا إليه بالنوافل وطالبا عنده مزايا الدرجات كما يطلب المحب مزيدا تقرب  
في قلب محبوبه وقد وصف الله المحبين بالإيثار فقال - يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون في صدورهم  
الحاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة - ومن بقى مستمرا على متابعة الهوى  
فمحبوبه ما يهواه بل يترك المحب هوى نفسه لهوى محبوبه كما قيل :

أريد وصاله ويريد هجرى فأتى ما أريد لما يريد

بل الحب إذا غلب قبح الهوى فلم يبق له تنعم بغير المحبوب كما روى أن زليخا لما آمنت وتزوج بها  
يوسف عليه السلام انفردت عنه وتخلت للعبادة واقطعت إلى الله تعالى فكان يدعوها إلى فراشه  
نهارا فتدافعه إلى الليل فإذا دعاها ليلا سوفت به إلى التهار وقالت يا يوسف إنما كنت أحبك قبل  
أن أعرفه فأما إذ عرفته فما أبقت محبته محبة لسواه وما أريد به بدلا حتى قال لها إن الله جل  
ذكره أمرني بذلك وأخبرني أنه مخرج منك ولدين وجاعلها نبين فقالت أما إذا كان الله تعالى  
أمرك بذلك وجعلني طريقا إليه فطاعة لأمر الله تعالى ففندتها سكنت إليه ؟ فاذن من أحب الله  
لا يصيه ولذلك قال ابن المبارك فيه :

تصلى الإله وأنت تظهر حبه هذا لعمري في الفعال بديع

لو كان حبك صادقا لأطعته إن المحب لمن يحب مطيع

وفي هذا المعنى قيل أيضا :

وأترك ما أهوى لما قد هويته فأرضى بما ترضى وإن سخطت نفسي

وقال سهل رحمه الله تعالى علامة الحب إيثاره على نفسك وليس كل من عمل بطاعة الله عز وجل  
صار حبيبا وإنما الحبيب من اجتنب الناهى وهو كما قال لأن محبته لله تعالى سبب محبة الله له كما قال  
تعالى - يحبهم ويحبونه - وإذا أحبه الله تولاها ونصره على أعدائه وإنما عدوه نفسه وشهواته فلا  
يخذله الله ولا يكله إلى هواه وشهواته ولذلك قال تعالى - والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى  
بالله نصيرا - فان قلت فالصيان هل يضاد أصل المحبة فأقول : إنه يضاد كمالها ولا يضاد أصلها فكم  
من إنسان يحب نفسه وهو مريض ويحب الصحة ويأكل ما يضره مع العلم بأنه يضره وذلك لا يدل على  
عدم حبه لنفسه ولكن المعرفة قد تضاعف والشهوة قد تناب فيعجز عن القيام بحق المحبة ويدل عليه ما روى  
« أن نعيمان كان يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم في كل قليل فيجده في مصيبة يرتكبها إلى أن  
آتى به يوما فحده فلعنه رجل وقال ما أكثر ما يؤتى به رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال صلى الله عليه  
وسلم لا تلغنه فإنه يحب الله رسوله (١) » فلم يخرج به بالمصيبة عن المحبة نعم يخرج به بالمصيبة عن كمال الحب

(١) حديث آتى نعيمان يوما فحده فلعنه رجل قال ما أكثر ما يؤتى به فقال لا تلغنه فإنه يحب الله  
ورسوله البخارى وقد تقدم .

يخاف هوجاء في تفسير  
قوله تعالى سولاتلقوا  
بأيديكم إلى التهلكة  
هو العبد يذنب  
الكبائر ثم يقول قد  
هلك لا ينفعنى عمل  
فالتائب خاف ظناب  
ورجا الغفرة ولا يكون  
التائب تائبا إلا وهوا رج  
خائف ثم إن التائب  
حيث قيد الجوارح عن  
السكران واستعان بنعم  
الله على طاعة الله فقد  
شكر النعم لأن كل  
جارية من الجوارح  
نعمة وشكرها قيدها  
عن العصية واستمالها  
في الطاعة وأى شاكر  
للنعماء أكبر من التائب  
المستقيم فإذا جمع مقام  
التوبة هذه القامات  
كلها فقد جمع مقام

وقد قال بعض العارفين إذا كان الإيمان في ظاهر القلب أحب الله تعالى حبا متوسطا فإذا دخل سويداء القلب أحبه الحب البالغ وترك المعاصي وبالجملة في دعوى المحبة خطر ولذلك قال الفضيل إذا قبل لك أحب الله تعالى فاسكت فانك إن قلت لا ، كفرت وإن قلت نعم ، فليس وصفك وصف المحبين فاحذر المقت . ولقد قال بعض العلماء ليس في الجنة نعيم أعلى من نعيم أهل المعرفة والمحبة ولا في جهنم عذاب أشد من عذاب من ادعى المعرفة والمحبة ولم يتحقق شيء من ذلك . ومنها أن يكون مستترا بذكر الله تعالى لا يفتتر عنه لسانه ولا يغلو عنه قلبه فمن أحب شيئا أكثر بالضرورة من ذكره وذكر ما يتعلق به فعلمة حب الله حب ذكره وحب القرآن الذي هو كلامه وحب رسول الله صلى الله عليه وسلم وحب كل من ينسب إليه فان من يحب إنسانا يحب قلب محله فالمحبة إذا قويت تعدت من المحبوب إلى كل ما يكتنف بالمحسوب ويحيط به ويتعلق بأسبابه وذلك ليس شركة في الحب فان من أحب رسول المحبوب لأنه رسوله وكلامه لأنه كلامه فلم يعاوز حبه إلى غيره بل هو دليل على كمال حبه ومن غلب حب الله على قلبه أحب جميع خلق الله لأنهم خلقه فكيف لا يحب القرآن والرسول وعباد الله الصالحين وقد ذكرنا تحقيق هذا في كتاب الأخوة والصحة ولذلك قال تعالى - قل إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحببكم الله - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة وأحبوني لله تعالى (١)» وقال سفيان من أحب من يحب الله تعالى فأنما أحب الله ومن أكرم من يكرم الله تعالى فأنما يكرم الله تعالى . وحكى عن بعض المريدين قال كنت قد وجدت حلاوة الناجاة في سنن الإرادة فأدمنت قراءة القرآن ليلا ونهارا ثم لحقتني فترة فانتقطعت عن التلاوة قال فسمعت قائلا يقول في المنام إن كنت تزعم أنك تحبني فلم جفوت كتابي أما تدبرت ما فيه من لطيف عتابي قال فانتبهت وقد أشرب في قلبي محبة القرآن فعاودت إلى حالتي . وقال ابن مسعود لا ينبغي أن يسأل أحدكم عن نفسه إلا القرآن فان كان يحب القرآن فهو يحب الله عز وجل وإن لم يكن يحب القرآن فليس يحب الله . وقال سهل رحمة الله تعالى عليه علامة حب الله حب القرآن وعلامة حب الله وحب القرآن حب النبي ﷺ وعلامة حب النبي صلى الله عليه وسلم حب السنة وعلامة حب السنة حب الآخرة وعلامة حب الآخرة بغض الدنيا وعلامة بغض الدنيا أن لا يأخذ منها إلا زادا وبلغته إلى الآخرة . ومنها أن يكون أنسه بالحلوة ومناجاته لله تعالى وتلاوة كتابه فيواظب على التهجد ويستتم هذه الليل وصفاء الوقت بانقطاع العوائق وأقل درجات الحب التلذذ بالحلوة بالحبيب والتتم بمناجاته فمن كان النوم والاشتغال بالحديث الله عنده وأطيب من مناجاة الله كيف نصح بحبه قيل لأبراهيم بن آدم وقد نزل من الجبل من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وفي أخبار داود عليه السلام لا تستأنس إلى أحد من خلقي فاني إنما أقطع عن رجلين رجلا استبطأ ثوابي فأنقطع ورجلا نسي فرضى بحاله وعلامة ذلك أن أكله إلى نفسه وأن أدعه في الدنيا حيران ومهما أنس بغير الله كان بقدر أنسه بغير الله مستوحشا من الله تعالى ساقطا عن درجة محبه وفي قصة برخ وهو العبد الأسود الذي استسقى به موسى عليه السلام إن الله تعالى قال لموسى عليه السلام إن برخا نعم العبد هو لي إلا أن فيه عيبا قال يارب وما عيبه قال يسبحه نسيم الأسفار فيسكن إليه ومن أحبني لم يسكن إلي عني . وروى أن عابدا عبد الله تعالى في غيبة دهر طويلا فنظر إلى طائر وقد عشن في شجرة يأوى إليها وبصر عندها فقال لو حولت مسجدي إلى تلك الشجرة فكنت آنس بصوت هذا الطائر

(١) حديث أحبوا الله لما يندوكم به من نعمة الحديث تقدم .

التسوية حال الزجر  
وحال الانتباه وحال  
التيقظ ومخالفة النفس  
والتقوى والمجاهدة  
ورؤية عيوب الأفعال  
والإتابة والصبر والرضا  
والمحاسبة والمراقبة  
والرعاية والشكر  
والخوف والرجاء وإذا  
صححت التوبة النصح  
وزككت النفس انجحت  
مرآة القلب وبان قبح  
الدنيا فيها فيحصل  
الزهد والزهد يتحقق  
فيه التوكل لأنه لا يزهد  
في الوجود إلا لاعتماده  
على اللوعود والسكون  
إلى وعد الله تعالى هو  
عين التوكل وكلما بقي  
على العبد بقاء في تحقق  
المقامات كلها بعد  
توبته يستدركه

قال فضل فأوحى الله تعالى إلى نبيّ ذلك الزمان قل لفلان العابد استأنست بمخلوق لأحطتكم درجة لا تتألفا بشيء من عملك أبدا ، فاذن علامة المحبة كمال الأنس بمنجاة المحبوب وكمال التمتع بالخلاوة . وكمال الاستيحاش من كل ما ينقص عليه الخلاوة ويعوق عن لذة للتأجاة وعلامة الأنس مصير العقل والفهم كله مستغرقا بآلة للتأجاة كالذي يخاطب معشوقه ويناجيه وقد انتهت هذه اللذة يعضهم حتى كان في صلاته ووقع الحريق في داره فلم يشمر به وقطعت رجل بعضهم بسبب علة أصابته وهو في الصلاة فلم يشمر به ومهما غلب عليه الحب والأنس صارت الخلاوة والتأجاة قرّة عينه يدفع بها جميع المصوم بل يستغرق الأنس والحب قلبه حتى لا يفهم أمور الدنيا ما لم تكرر على سمعه مرارا مثل العاشق الوطيان فإنه يكلم النفس بلسانه وأنسه في الباطن بذكر حبيبته فالحب من لا يطمئن إلا بمحبوبه . وقال قتادة في قوله تعالى - الذين آمنوا وتطمئن قلوبهم بذكر الله ألا بذكر الله تطمئن القلوب - قال هشت إليه واستأنست به . وقال الصديق رضي الله تعالى عنه من ذاق من خالص محبة الله شغفه ذلك عن طلب الدنيا وأوحته عن جميع البشر . وقال مطرف بن أبي بكر الحب لا يسأم من حديث حبيبته وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام قد كذب من ادعى محبي إذا جنة الليل نام عني أليس كل محب يحب لقاء حبيبته فيها أناذا موجود لمن طلبني . وقال موسى عليه السلام : يارب أين أنت فأقصدك فقال إذا قصدت فقد وصلت . وقال يحيى بن معاذ من أحب لقاء الله أبغض نفسه . وقال أيضا من لم تكن فيه ثلاث خصال فليس بمحب : يؤثر كلام الله تعالى على كلام الخلق ولقاء الله تعالى على لقاء الخلق والعبادة على خدمة الخلق . ومنها أن لا يتأسف على ما يغوته مما سوى الله عز وجل ويعظم تأسفه على فوت كل ساعة خلت عن ذكر الله تعالى وطاعته فيكثر رجوعه عند الغفلات بالاستعطف والاستعتاب والتوبة . قال بعض العارفين إن لله عبادا أحبوه واطمأنوا إليه فذهب عنهم التأسف على القاتل فلم يتشاغلوا بحظ أنفسهم إذ كان ملك مليكهم تاما وما شاء كان فما كان لهم فهو واصل إليهم ومقاتهم فبحسن تديره لهم وحق الحب إذا رجع من غفاته في لحظة أن يقبل على محبوبه ويشغل بالعتاب ويسأله ويقول رب بأيّ ذنب قطعت برّك عني وأبعدتني عن حضرتك وشغلتنني بنفسى وبمناجاة الشيطان فيستخرج ذلك منه صفاء ذكر ورقة قلب يكفر عنه ماسبق من الغفلة وتكون هفوته سببا لتجدد ذكره وصفاء قلبه ومهما لم ير المحب إلا المحبوب ولم ير شيئا إلا الله لم يتأسف ولم يشك واستقبل الكل بالرضا وعلم أن المحبوب لم يدر له إلا ما فيه خيره ويذكر قوله - وعسى أن تكرهوا شيئا وهو خير لكم - ومنها أن يتمم بالطاعة ولا يستقلها ويسقط عنه تعبها كما قال بعضهم كابدت الليل عشرين سنة ثم تنعمت به عشرين سنة . وقال الجنيد علامة الحب دوام النشاط والدروب بشهوة تفتر بدنه ولا تفتر قلبه . وقال بعضهم العمل على المحبة لا يدخله القنور . وقال بعض العلماء والله ما اشتغى محب لله من طاعته ولو حل بحظيم الوسائل فكل هذا وأمثاله موجود في المشاهدات فإن العاشق لا يستغل السمع في هوى معشوقه ويستغل خدمته بقلبه وإن كان شاقا على بدنه ومهما عجز بدنه كان أحب الأشياء إليه أن تماوده القدرة وأن يفارقه العجز حتى يشتغل به فمكنا يكون حب الله تعالى فإن كل حب صار غالبا قهر لا محالة ما هو دونه فمن كان محبوبة أحب إليه من الكل ترك الكل في خدمته وإن كان أحب إليه من المال ترك المال في حبه ، وقيل لبعض الهيبين وقد كان بذل نفسه وماله حتى لم يبق له شيء ما كان سبب حاله هذه في المحبة فقال سمعت يوما محبا وقد خلا بمحبوبة وهو يقول أنا والله أحبك بخلي كله وأنت ممرض عني بوجهك كله فقال له المحبوب إن كنت تحبني فأيش تنفق على قال باسدي أملكك ما أملك

يزهده في الدنيا وهو ثالث الأربعة . أخبرنا شيخنا قال أنا أبو منصور محمد بن عبد الملك بن خيرو قال أنا أبو محمد الحسن بن علي الجوهري إجازة قال أنا أبو عمرو محمد بن العباس قال أنا أبو محمد يحيى بن ساعدة قال حدثنا الحسين بن الحسن السروزي قال حدثنا عبد الله بن المبارك قال حدثنا الهيثم بن جميل قال أنا محمد بن سليمان عن عبد الله بن بريدة قال قد علم رسول الله صلى الله عليه وسلم من سفر فبدأ بغاطمة رضي الله عنها فرآها قد أحدثت في البيت سرا وزوائد في يديها فلما رأى



ثم أشفق عليك روحى. حتى تهلك فقات هذا خلق لخلق وعبد أميد فكيف سجد لمعبود فكل هذا بسببه . ومنها أن يكون مشفقاً على جميع عباد الله رحماً بهم شديداً على جميع أعداء الله وعلى كل من يخافه شيئاً مما يكرهه كما قال الله تعالى - أشداه على الكفار رحماً بينهم - ولا تأخذهم لومة لائم ولا يصرفه عن الغضب لله صارف وبه وصف الله أوليائه إذ قال الذين يكافون عيسى كما يكاف الصبي بالنسي . ويأوون إلى ذكرى كما يأوى النسر إلى وكرة ويغضبون لمحارمه كما يغضب النمر إذا حرد طائفة لا يزال قل الناس أو كثروا فانظر إلى هذا للثال فان الصبي إذا كلف بالنسي لم يفارقه أصلاً وإن أخذ منه لم يكن له شغل إلا البكاء والصياح حتى يرد إليه فان قام أخذه معه في ثيابه فإذا انتبه عاد ونمستك به ومهما فارقته بكى ومهما وجده ضحك ومن نازعه فيه أبغضه ومن أعطاه أجه وأما الفراق فلا يملك نفسه عند الغضب حتى يبلغ من شدة غضبه أنه يهلك نفسه فهذه علامات المحبة فمن تمت فيه هذه العلامات فقد تمت محبته وخلص حبه فصفاً في الآخرة شرابه وعذب مشربه ومن امتزج بحبه حب غير الله تمت في الآخرة بقدر حبه إذ يمزج شرابه بقدر من شراب القربين كما قال تعالى في الأبرار - إن الأبرار لى نعيم - ثم قال - يستقون من رحيق مخموم ختامه مسك وفى ذلك فليتنافس المتنافسون ومزاجه من تسنيم عينا يشرب بها المقربون - فإذا طاب شراب الأبرار لشوب الشراب الصريف الذى هو للامقربين والشراب عبارة عن حجة نعيم الجنان كما أن الكتاب عبر به عن جميع الأعمال فقال - إن كتاب الأبرار لى عليمين - ثم قال - يشهد المقربون - فكان أمانة علو كتابهم أنه ارتفع إلى حيث يشهد المقربون وكان الأبرار يجدون الزيد فى حالهم ومعرقهم بقربهم من المقربين ومشاهدتهم لهم فكذلك يكون الحالم فى الآخرة - ما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة - كما بدأنا أول خلق نعيده - وكما قال تعالى - جزاء وفاقاً - أى وافق الجزاء نعماتهم فقول الحالم بالصرف من الشراب وقبول الشوب بالشوب وشوب كل شراب على قدر ما سبق من الشوب فى حبه وأعماله - فمن يعمل مثقال ذرة خيراً يره ومن يعمل مثقال ذرة شراً يره - وإن الله لا يغير ما بقوم حتى يغيروا ما بأنفسهم - وإن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - فمن كان حبه فى الدنيا رجاء لنعيم الجنة والخور العين والقصور مكن من الجنة ليتبوأ منها حيث يشاء فيلبس مع الولدان ويجتمع بالنسوان فهناك تنتهى لدته فى الآخر لأنه إنما يعطى كل إنسان فى المحبة ما تشبهه نفسه وتلك عينه ومن كان مقصده رب الدار ومالك الملك ولم يلبس عايه إلا حبه بالخالص والصدق أنزل فى مقعد صدق عند مليك مقتدر - فالأبرار يرتعون فى البساتين ويتعمون فى الجنان مع الخور العين والولدان والمقربون ملازمون للحضرة طاكفون بطرفهم عليها يستحقرون نعيم الجنان بالإضافة إلى ذرة منها يقوم بقضاء شهوة البطن والفرج - شفلون والمجالسة أقولم آخرون ولتلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب (١) » ولما قصرت الأفهام عن درك معنى عليين عظم أمره فقال - وما أدراك ما عليون - كما قال تعالى - القارعة ما القارعة وما أدراك ما القارعة - ومنها أن يكون فى حبه خائفاً متضائلاً تحت الهيبة والتعظيم وقد يظن أن الخوف يضاد الحب وليس كذلك بل إدراك العظمة يوجب الهيبة كما أن إدراك الجمال يوجب الحب والخصوص المحبين مخاوف فى مقام المحبة ليست لتيرم وبعض مخاوفهم أشد من بعض فأولها خوف الإعراض وأشد منه خوف الحجاب وأشد منه خوف الابداد وهذا المعنى فى سورة هود هو الذى شيب سيد

(١) حديث أكثر أهل الجنة البله وعليون لدوى الأبواب البراز من حديث أنس بن مالك ضعيف مقتصر على الشطر الأول وقد تقدم والشطر الثانى من كلام أحمد بن أبى الحوارى وأما أدراج فيه .

ذلك رجوع ولم يدخل  
ثم جلس فجعل ينكت  
فى الأرض ويقول  
مالى وللدنيا مالى  
وللدنيا فرأت فاطمة  
أنه إنما رجع من أجل  
ذلك الستر فأخذت  
الستر والزوائد  
وأرسلت بهما مع بلال  
وقالت له اذهب إلى  
النبي صلى الله عليه وسلم  
قل له قد تصدقت به  
فضعه حيث شئت فأتى  
بلال إلى النبي صلى الله  
عليه وسلم فقال قالت  
فاطمة قد تصدقت به  
فضعه حيث شئت فقال  
النبي صلى الله عليه وسلم  
بأبى وأمى قد فعلت  
بأبى وأمى قد فعلت  
اذهب فعه وقيل  
فى قوله تعالى - إنا  
جعلنا ما على الأرض  
زيناً لها لنولم أهم

الحسين (١) إذ سمع قوله تعالى - ألا بعدا لنمود - ألا بعدا لمدين كما بعدت نمود - وإنما تعظم هيبة البعد وخوفه في قلب من ألف القرب وذاقه وتنم به لحديث البعد في حق البعدين يشيب جماعه أهل القرب في القرب ولا يمن إلى القرب من ألف البعد ولا يبيك لحوف البعد من لم يمكن من بساط القرب ثم خوف الوقوف وسلب الزيد فانا قدمنا أن درجات القرب لانهائية لها وحق العبد أن يجتهد في كل نفس حتى يزداد فيه قربا ولذلك قال رسول الله ﷺ « من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون » (٢) وكذلك قال عليه السلام « إنه ليغان على قلبي في اليوم واليلة حتى أستغفر الله سبعين مرة » (٣) وإنما كان استغفاره من التقدم الأول فانه كان بعدا بالاضافة إلى التقدم الثاني ويكون ذلك عقوبة لهم على الغرور في الطريق والالتفات إلى غير المحبوب كما روى أن الله تعالى يقول إن أدنى ما أصنع بالعالم إذا أثر شهوات الدنيا على طاعتي أن أسلبه لذته مناجاتي فسلب للزيد بسبب الشهوات عقوبة للمعوم فأما الخصوص فيحبهم عن الزيد مجرد الدعوى والعجب والركون إلى مظاهر من مبادئ اللطف وذلك هو السكر الحفي الذي لا يقدر على الاحتراز منه إلا ذوو الأقدام الراسخة ثم خوف فوت ما لا يدرك بعد قوته . مع إبراهيم بن آدم قائلا يقول وهو في سياحته وكان على جبل :

كل شيء منك مغفور سوى الإعراض عنا

قد وهبنا لك ما فات فهب ما فات منا

فاضطرب وغشى عليه فلم يبق يوما وليلة وطرات عليه أحوال ثم قال سمعت النداء من الجبل يا إبراهيم كن عبدا فكنت عبدا واسترحت ثم خوف السلو عنه فان الحب يلزمه الشوق والطلب الحثيث فلا يفتر عن طلب الزيد ولا ينسلى إلا بلطف جديد فان تسلى عن ذلك كان ذلك سبب وقوفه وأسبب رجته والسلو يدخل عليه من حيث لا يشعر كما قد يدخل عليه الحب من حيث لا يشعر فان هذه التقلبات لها أسباب خفية سماوية ليس في قوة البشر الاطلاع عليها فاذا أراد الله المكر به واستدراجه أخفى عنه ما ورد عليه من السلو فيقف مع الرجاء ويفتر بحسن النظر أو بغلبة الغفلة أو الهوى أو النسيان فكل ذلك من جنود الشيطان التي تغلب جنود الملائكة من العلم والعقل والذكرواليان وكان من أوصاف الله تعالى ما يظهر فيقتضى هيجان الحب وهي أو صاف اللطف والرحمة والحكمة فن أوصافه ما يلوح فيورث السلوك أوصاف الجبرية والمزة والاستغناء وذلك من مقدمات السكر والشقاء والحرمان ثم خوف الاستبدال به بانتقال القلب من حبه إلى حب غيره وذلك هو اللتمت والسلو عنه مقدمة هذا المقام والاعراض والحجاب مقدمة السلو وضيق الصدر بالبرواقباضه عن دوام الدكر وملاحة لوظائف الأوراد أسباب هذه للعاني ومقدماتها وظهور هذه الأسباب دليل على النقل عن مقام الحب إلى مقام اللتمت نمود بالله منه وملازمة الحوف لهذه الأمور وشدة الحذر منها بصفاء المراقبة دليل صدق الحب فان من أحب شيئا خاف لاهالة تقده فلا يخلو المحب عن خوف إذا كان المحبوب بما يمكن فواته وقد قال بعض العارفين من عبد الله تعالى بمحض المحبة من غير خوف هلك بالبسط والإدلال ومن عبده من طريق الحوف من طريق الحوف من غير محبة انقطع عنه بالبعد والاستيحاش ومن عبده من طريق المحبة والحوف أحبه الله تعالى فحبه ومكنه وعلمه فالحب لا يخلو عن خوف والخائف لا يخلو عن محبة ولكن الذي غلبت عليه المحبة

أحسن عملا - قيل  
الزهد في الدنيا . سئل  
أمير المؤمنين على بن  
أبي طالب رضي الله  
عنه عن الزهد فقال  
هو أن لا تبالي بمن  
أكل الدنيا مؤمن أو  
كافر . وسئل الشبلي  
عن الزهد فقال ويلكم  
أي مقصد الجناح  
بعوضة أن يزهد فيها .  
وقال أبو بكر الواسطي  
إلى متى تصول بترك  
كيف وإلى متى تصول  
ياعراضك عما لا وزن  
عند الله جناح بعوضة  
فاذا صح زهد العبد  
صح توكله أيضا لأن  
صدق توكله مكنه من  
زهده في الوجود فن  
استقام في التوبة  
وزهد في الدنيا وحقق

(١) حديث شيبني هود أخرجه الترمذي وقد تقدم غير مرة (٢) حديث من استوى يومه فهو مغبون ومن كان يومه شرا من أمسه فهو ملعون لا أعلم هذا إلا في منام لعبد العزيز بن أبي رواد قال رأيت النبي صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله أوصني فقال ذلك بزيادة في آخره رواه البيهقي في الزهد (٣) حديث إنه ليغان على قلبي متفق عليه من حديث الأغر وقد تقدم .

حق اتسع فيها ولم يكن له من الخوف إلا يسير يقال هو في مقام المحبة وبعد من المحبين وكان شوب الخوف يسكن قليلا من سكر الحب فلو غلب الحب واستولت العرفة لم تثبت لذلك طاقة البشر فأعما الخوف ببدله ويخفف وقته على القلب فقد روى في بعض الأخبار أن بعض الصديقين سأله بعض الأبدال أن يسأل الله تعالى أن يرزقه ذرة من معرفته ففعل ذلك ففهم في الجبال وحار عقله ووله قلبه وبقي شاخصا سبعة أيام لا يفتنع بشئ ولا يفتنع به شئ فسأل له الصديق ربه تعالى فقال يا رب انقصه من الدرة بعضها فأوحى الله تعالى إليه إنما أعطيتاه جزءا من مائة ألف جزء من المعرفة فذلك أن مائة ألف عبد سألوني شيئا من المحبة في الوقت الذي سألتني هذا فأخبرت إجابتهم إلى أن شفعت أنت لهذا فلما أجبته فيها سألت أعطيتهم كما أعطيتهم فقسمت ذرة من المعرفة بين مائة ألف عبد فهذا ما أصابه من ذلك فقال سبحانه يا أحكم الحاكمين انقصه مما أعطيت فأذهب الله عنه جملة الجزء وبقي معه عشر معشاره وهو جزء من عشرة آلاف جزء من مائة ألف جزء من ذرة فاعتدل خوفه وجهه ورجاؤه وسكن وصار كسائر العارفين ، وقد قيل في وصف حال العارف :

قريب الوجد ذو مرمى بعيد	عن الأحرار منهم والبيد
غريب الوصف ذو علم غريب	كان فؤاده زبر الحديد
لقد عزت معانيه وجلت	عن الأبصار إلا للبيد
يرى الأعياد في الأوقات تجري	له في كل يوم ألف عيد
ولالأجباب أفراس بعيد	ولا يجد السرور له بعيد

وقد كان الجنيّد رحمه الله يشهد آياتا يشير بها إلى أسرار أحوال العارفين وإن كان ذلك لا يجوز إظهاره وهي هذه الآيات :

مرت بأناس في الصيوب قلوبهم	خلوا بقرب الماجد التفضل
عراسا بقرب الله في ظلّ قدسه	تجول بها أرواحهم وتفضل
مواردهم فيها على المز والتهى	ومصدرهم عنها لما هو أكمل
تروح جز مفرد من صفاته	وفي حال التوحيد تمشي وترقل
ومن جد هذا مائدق صفاته	وما كتمه أولى لديه وأعدل
ما كتم من علمي به ما يصونه	وأبذل منه ما أرى الحق يذل
وأعطى عباد الله منه حقوقهم	وأمنع منه ما أرى النعم يفضل
على أن قرّح من سرا يصونه	إلى أهله في السر والصون أجل

ومثال هذه العارف التي إليها الإشارة لا يجوز أن يشترك الناس فيها ولا يجوز أن يظهرها من انكشف له شيء من ذلك لمن لم ينكشف له بل لو اشترك الناس فيها لحربت الدنيا بالحكمة تنفض فحول الغفلة لعمارة الدنيا بل لو أكل الناس كلهم الحلال أربعين يوما لحربت الدنيا لهدم فيها وطلبت الأسواق والمنايا بل لو أكل العلماء الحلال لاشتغلوا بأنفسهم ولو قفّت الألسنة والأقدام عن كثير مما انتشر من العلوم ولكن قد تعالى فيها هو شر في الظاهر أسرار وحكم كما أن له في الخير أسراراً وحكماً ولا منتهى لحكته كما لا غاية لقدرة . ومنها كتمان الحب واجتناب الدعوى والتوقى من إظهار الوجد والمحبة تمظيها للحبوب وإجلالاً له وهيبة منه وغيرة على سره فإن الحب سر من أسرار الحبيب ولأنه قد يدخل في الدعوى ما يتجاوز حد المعنى ويزيد عليه فيكون ذلك من الاقتراء وتعظم العقوبة عليه في المعنى وتسجل عليه البلوى في الدنيا ، نعم قد يكون للحب سكرة في جبهته حتى يدهش فيه وتضطرب أحواله

هذين القاميتين استوفى  
سائر اللقائات وتكون  
فيها وتحقيقها وترتيب  
التوبة مع المراقبة  
وارتباط إحداها  
بالأخرى أن يتوب  
العبد ثم يستقيم في  
التوبة حتى لا يكتب  
عليه صاحب النجاة  
شيئاً ثم يرتقى من  
تطهير الجوارح عن  
للماضي إلى تطهير  
الجوارح عما لا يبي  
فلا يسمح بكلمة فضول  
ولا حركة فضول ثم  
ينتقل للرعاية والمهابة  
من الظاهر إلى  
الباطن وتستولي  
المراقبة على الباطن  
وهو التحقق بعلم  
القيام بمحو خواطر  
الصية عن باطنه

فيظهر عليه حبه فان وقع ذلك عن غير تحمل أو اكتساب فهو معذور لأنه مغمور وربما تشتمل من الحب نيرانه فلا يطاق - لظنه وقد يفيض القلب به فلا يندفع فيضانه فالتقادر على الكتمان يقول: وقالوا قريب قلت ما أنا صانع بقرب شعاع الشمس لو كان في حجرى ثمالى منه غير ذكرى بخاطر يهيج نار الحب والشوق في صدرى والعاجز عنه يقول :

يخفى فيسدى السمع أسرارى ويظهر الوجد عليه النفس

ويقول أيضا :

ومن قلبه مع غيره كيف حاله ومن سره في جفنه كيف يكتم وقد قال بعض العارفين أكثر الناس من الله بعدا أكثرهم إشارة به كأنه أراد من يكتر التعريض به في كل شيء ويظهر التصنع بذكره عند كل أحد فهو محقوت عند الهيبين والعلماة بالله عز وجل ودخل ذو النون المصري على بعض إخوانه ممن كان يذكر المحبة فرآه مبتلى بلاء فقال لا يحبه من وجد ألم ضره فقال الرجل لكى أقول لا يحبه من لم يتم بضره فقال ذو النون ولكنى أقول لا يحبه من شبر نفسه بحبه فقال الرجل أستغفر الله وأتوب إليه فان قلت المحبة منتهى القامات وإظهارها إظهار للغير فلماذا يستنكر فاعلم أن المحبة محمود وظهورها محمود أيضا وإعما النجوم التظاهر بها لما يدخل فيها من الدعوى والاستكبار وحق الحب أن يتم على حبه الخفى أفعاله وأحواله دون أقواله وأفعاله وينبغى أن يظهر حبه من غير قصد منه إلى إظهار الحب ولا إلى إظهار الفعل الدال على الحب بل ينبغى أن يكون قصد الحب اطلاع الحبيب فقط فأما إرادته اطلاع غيره فترك في الحب وقادح فيه كما ورد في الإنجيل إذا تصدقت فتصدق بحيث لا تعلم بذلك ما صنعت يمينك فالذى يرى الخفيات يعجز بك عناية وإذا صمت فاغسل وجهك وادهن رأسك لتلايم بذلك غير ربك فإظهار القول والفعل كله مذموم إلا إذا غلب سكر الحب فانطلق اللسان واضطربت الأعضاء فلا يلام فيه صاحبه . حكى أن رجلا رأى من بعض المجانين ما استجبه فيه فأخبر بذلك معروفا السكرخى رحمه الله فتبسم ثم قال يا أخى له محبوب صغار وكبار وعقلاء ومجانين فهذا الذى رأيته من مجانينهم ومما يكره التظاهر بالحب بسبب أن الحب إن كان عارفا وعرف أحوال اللائكة في جهنم الدائم وشوقهم اللازم الذى به يسبحون الليل والنهار لا يفترون ولا يهتفون الله ما أمرهم ويفعلون ما يؤمرون لاستنكف من نفسه ومن إظهار حبه وعلم قطعا أنه من أخس المحبين في مملكته وأن حبه أقمص من حب كل محب لله قال بعض الكاشفين من المحبين عبد الله تعالى ثلاثين سنة بأعمال القلوب والجوارح على بذل الجهود واستفراغ الطاقة حتى ظننت أن لى عند الله شيئا فذكر أشياء من مكاشفات آيات السموات فى قصة طويلة قال فى آخرها فبلغت صفا من اللائكة جدد جميع ما خلق الله من شيء قلت من أتم قالوا نحن المحبون لله عز وجل نبيدهم هنا منذ ثلثة ألاف سنة ما خطر على قلوبنا قط سواء ولا ذكرنا غيره قال فاستحييت من أعمالى فوهبتها لمن حق عليه الوعيد تخفيفا عنه فى جهنم فاذن من عرف نفسه وعرف ربه واستحياته حق الحياء خرس لسانه عن التظاهر بالدعوى ، نعم يشهد على حبه حركاته وسكناته وإقدامه وإحجامه وتردداته كما حكى عن الجنيد أنه قال مرض أستاذنا السرى رحمه الله فلم تعرف لملته دواء ولا عرفنا لها سببا فوصف لنا طبيب حاذق فأخذنا قارورة مائه فنظر إليها الطبيب وجعل ينظر إليه مليا ثم قال لى أراه بول عاشق قال الجنيد فصمت وغشى على ووقعت القارورة من يدى ثم رجعت إلى السرى فأخبرته فتبسم ثم قال قاتله الله ما أبصره قلت بأستاذ وتبين المحبة فى البول قال نعم وقد قال السرى مرة

ثم خواطر الفضول  
فإن تمكن من  
رعاية الخطرات عصم  
عن مخالفة الأركان  
والجوارح وتستقيم  
توبته قال الله تعالى  
لنبيه صلى الله عليه  
وسلم - فاستقم كما  
أمرت ومن تاب  
معك - أمره الله  
تعالى بالاستقامة فى  
التوبة أمرا له ولأتباعه  
وأمرته وقيل لا يكون  
التريد مريدا حتى  
لا يكتب عليه صاحب  
الشمال شيئا عشرين  
سنة ولا يلزم من  
هذا وجود العصمة  
ولكن الصادق التائب  
فى النادر إذا اجتلى  
بذنب ينمى أثر الذنب  
من باطنه فى

لو شئت أقول ما أيسر جلدي على عظمي ولا سل جسمي إلا حبه ثم غشي عليه وتدل القشبة على أنه أضعف في غلبة الوجد ومقدمات القشبة فهذه مجامع علامات الحب وثمراته . ومنها الأنس والرضا كما سيأتي . وبالجملة جميع محاسن الدين ومكارم الأخلاق ثمرة الحب وما لا يشمره الحب فهو اتباع الهوى وهو من رذائل الأخلاق ، نعم قد يحب الله لإحسانه إليه وقد يحبه لجلاله وجماله وإن لم يحسن إليه والمحبون لا يخرجون عن هذين القسمين ولذلك قال الجنيد الناس في محبة الله تعالى عام وخاص فالعوام ظنوا ذلك بمحبتهم في دوام إحسانهم وكثرة نعمه فلم يتمالكوا أن أرضوه إلا أنهم تمل محبتهم وتكر على قدر النعم والاحسان فأما الخاصة فتالوا المحبة بعظم القدر والقدرة والعلم والحكمة والتفرد بالملك ولما عرفوا صفاته السكاملة وأسماء الحسنى لم يمتنعوا أن أحبه إذ استحق عندهم المحبة بذلك لأنه أهل لها ولو أزال عنهم جميع النعم نعم من الناس من يحب هواء وعدواقه إبليس وهو مع ذلك يلبس على نفسه بحكم الضرور والجهل فيظن أنه يحب الله عز وجل وهو الذي قدت فيه هذه العلامات أو يلبس بها ثقافا ورياء وصمة وغرضه عاجل حظ الدنيا وهو يظهر من نفسه خلاف ذلك ككتمان السوء وقراء السوء أرتك بضاء الله في أرضه وكان سهل إذا تكلم مع إنسان قال يادوست أي يا حبيب قليل له قد لا يكون حبيبا فكيف تقول هذا فقال في أذن القائل سرا: لا يخلو إما أن يكون مؤمنا أو منافقا فإن كان مؤمنا فهو حبيب الله عز وجل وإن كان منافقا فهو حبيب إبليس وقد قال أبو تراب النخشي في علامات المحبة آياتا :

لا نتخذ عن فلان حبيب دلائل ولديه من تحف الحبيب وسائل  
● منها تمنعه بحر بلائه وسروره في كل ما هو فاعل  
فالتنع منه عطية مقبولة والفقر إحكام وبر عاجل  
ومن الدلائل أن ترى من عزمه طوع الحبيب وإن ألح العاذل  
ومن الدلائل أن يرى متبسا والقلب فيه من الحبيب بلايل  
ومن الدلائل أن يرى متفهما لكلام من يحظى لديه السائل  
ومن الدلائل أن يرى متشفيا متحفظا من كل ما هو قائل

وقال يحيى بن معاذ :

ومن الدلائل أن تراه مشمرا في خرفتين على شطوط الساحل  
ومن الدلائل حزنه ونحيبه جوف الظلام لما له من عاذل  
ومن الدلائل أن تراه مسافرا نحو الجهاد وكل فعل فاضل  
ومن الدلائل زهده فيما يرى من دار ذل والنعم الزائل  
ومن الدلائل أن تراه باحكيا أن قد رآه على قبيح ضائل  
ومن الدلائل أن تراه مسلما كل الأمور إلى ليليك العادل  
ومن الدلائل أن تراه راضيا بملكه في كل حكم نازل  
ومن الدلائل ضحكك بين الوري والقلب محزون كقلب النمل كل

( بيان معنى الأنس بالله تعالى )

قد ذكرنا أن الأنس والخوف والشوق من آثار المحبة إلا أن هذه آثار مختلفة تختلف على الحب بحسب نظره وما يطلب عليه في وقته فإذا غلب عليه التطلع من وراء حجب الغيب إلى متبى الجمال واستشعر قصوره عن الاطلاع على كنهه الجلال انبث القلب إلى الطلب وانزعج له وهاج إليه وتسمى هذه الحالة

الطيف حاسة لوجود  
الندم في باطنه  
على ذلك والندم توبة  
فلا يكتب عليه  
صاحب التوالت شيئا  
فاذا تاب توبة نصوحا  
ثم زهد في الدنيا  
حتى لا يهتم في غذائه  
لشائه ولا في عشاءه  
لغذائه ولا يرى الادخار  
ولا يكون له تعلق  
ثم يزد قد جمع  
في هذا الزهد  
والفقر والزهد أفضل  
من الفقر وهو فقر  
وزيادة لأن التقير  
عادم للشيء اضطرابا  
والزهد تارك للشيء  
اختيارا وزهده  
بحق توكله وتوكله  
بحق رضاه ورضاه  
بحق الصبر وصبره

في الاتضاع شوقا وهو بالإضافة إلى أمر غائب وإذا غلب عليه الفرح بالقرب ومشاهدة الحضور بما هو حاصل من الكشف وكان نظره مفعورا على مطالعة الجمال الحاضر للكشوف غير ملتفت إلى ما لم يدركه بعد استبشيره القلب بما يلاحظه فيسمى استبشاره أنسا وإن كان نظره إلى صفات العز والاستغناء وعدم المبالاة وخطر إمكان الزوال والبعد تألم القلب بهذا الاستشعار فيسمى تألمه خوفا وهذه الأحوال تابعة لهذه الملاحظات والملاحظات تابعة لأسباب تختصها لا يمكن حصرها فالأنس من هذه استبشار القلب وفرحه بمطالعة الجمال حتى إنه إذا غلب وتجرد عن ملاحظة ما قابله وما يتطرق إليه من خطر الزوال عظم نعيمه ولذته ومن هنا نظروا بعضهم حيث قيل له أنت مشتاق فقال لا إنما الشوق إلى غائب فإذا كان الغائب حاضرا فإلى من يشتاق وهذا كلام مستغرق بالفرح بما ناله غير ملتفت إلى ما بقي في الامكان من مزايا الألفاف ومن غلب عليه حال الأنس لم تكن شهوته إلا في الافراد والخلوة كما حكى أن إبراهيم بن آدم نزل من الجبل فقيل له من أين أقبلت فقال من الأنس بالله وذلك لأن الأنس بالله يلزمه التوحي من غير الله بل كل ما يوق عن الخلوة فيكون من أنهل الأشياء على القلب كما روى أن موسى عليه السلام لما كلمه ربه مكث دهرًا لا يسمع كلام أحد من الناس إلا أخذته النسيان لأن الحب يوجب عذوبة كلام المحبوب وعذوبة ذكره فيخرج من القلب عذوبة ما سواه . ولذلك قال بعض الحكماء في دعائه يا من آتني بذكره وأوحشني من خلقه وقال الله عز وجل لداود عليه السلام كن لي مشتاقا وبني مستأسا من سواي مستوحشا وقيل لراية لم تلت هذه المنزلة قالت بتركي مالا ينبغي وأنسى عن لم يزل . وقال عبد الواحد بن زيد مررت براهب فقلت له يا راهب لقد أعجبتك الوحدة فقال يا هذا لو ذقت حلاوة الوحدة لاستوحشت إليهم من نفسك الوحدة رأس العبادة فقلت يا راهب ما أقل ما تجده في الوحدة قال الراحة من مداراة الناس والسلامة من شرهم فقلت يا راهب متى يذوق العبد حلاوة الأنس بالله تعالى قال إذا صفا الود وخلصت للعامة قلت ومتى يصفو الود قال إذا اجتمع لهم فصارها واحدا في الطاعة . وقال بعض الحكماء عجبا للخلق كيف أرادوا بك بدلا عجبا للقلوب كيف استأنست بسواك عنك . فان قلت فما علامة الأنس فاعلم أن علامته الخاصة ضيق الصدر من معاشره الخلق والتبرم بهم واستهتاره بعذوبة الذكر فان خالط فهو كمنفرد في جماعة ومجتمع في خلوة وغريب في حضر وحاضر في سفر وشاهد في غيبة وغائب في حضور ومخالط بالبدن منفرد بالقلب مستغرق بعذوبة الذكر كما قال علي كرم الله وجهه في وصفهم هم قوم هجم بهم العلم على حقيقة الأمر فباشروا روح اليقين واستأنوا ما استوعر الترفون وأنسوا بما استوحش منه الجاهلون محبوا الدنيا بأبدان أرواحها معلقة بالهلل الأعلى أولئك خلفاء الله في أرضه والدعاة إلى دينه فهذا معنى الأنس بالله وهذه علامته وهذه شواهد وقد ذهب بعض التكميليين إلى إنكار الأنس والشوق والحب لظنه أن ذلك يدل على التشبيه وجهله بأن جمال اللذات بالبصائر أكمل من جمال البصرات ولذا معرفتها أغلب على ذوى القلوب ومنهم أحد بن غالب يعرف بسلام الخليل أنكر على الجنيد وعلى أبي الحسن النوري والجماعة حديث الحب والشوق والعشق حتى أنكر بعضهم مقام الرضا . وقال ليس إلا الصبر فأما الرضا فغير متصور وهذا كله كلام ناقص قاصر لم يطلع من مقامات الدين إلا على القشور فظن أنه لا وجود إلا للقشر فان المحسوسات وكل ما يدخل في الخيال من طريق الدين قشر مجرد ووراءه اللب المطلوب فمن لم يصل من الجوز إلا إلى قشره يظن أن الجوز خشب كله ويستحيل عنده خروج الدهن منه لا محالة وهو معذور ولكن عذره غير مقبول وقد قيل :

بحقق حبس النفس  
وصدق المجاهدة  
وحبس النفس لله  
بحقق خوفه وخوفه  
بحقق رجاءه وجمعه  
بالتوبة والزهد كل  
القمامات والزهد  
والتوبة إذا اجتمع  
صحة الإيمان وعقوده  
وشروطه يعوز هذه  
الثلاثة رابع بهتمامها  
وهو دوام العمل لأن  
الأحوال السنية  
يشكف بعضها بهذه  
الثلاثة وتيسر بعضها  
متوقف على وجود  
الرابع وهو دوام  
الصل وسكينة من  
الزهاد المتحققين بالزهد  
للتقنين في التوبة  
تخلفوا عن كثير من  
سنى الأحوال لتخلفهم

الأنس بالله لا يحويه بطلان وليس يدركه بالحول محال  
والآنسون رجال كلهم نجس وكلهم مصفوة في عمل  
( بيان معنى الانبساط والادلالات الذي تتمرره غلبة الأنس )

اعلم أن الأنس إذا دام وغلب واستحكم ولم يشوشه قلق الشوق ولم ينقصه خوف التفكير والحجاب فإنه يثمر  
نوعاً من الانبساط في الأقوال والأفعال والناجاة مع الله تعالى وقد يكون منكر الصورة لما فيه  
من الجرامة وقلة الهيبة ولكنه محتمل ممن أقيم في مقام الأنس ومن لم يتم في ذلك القام ويتشبه بهم  
في الفعل والكلام هلك به وأشرف على الكفر ومثاله مناجاة برخ الأسود الذي أمر الله تعالى عليه موسى  
عليه السلام أن يسأله ليستسقى لبي إسرائيل بعد أن قحطوا سبع سنين وخرج موسى عليه السلام  
ليستسقى لهم في سبعين ألفاً فأوحى الله عز وجل إليه كيف استجيب لهم وقد أغلقت عليهم ذنوبهم  
سرائرهم خبيثة يدعونني على غير يقين ويؤمنون مكري أرجع إلى عبد من عبادي يقال له برخ فقل له  
يخرج حتى استجيب له فسأل عنه موسى عليه السلام فلم يعرف فبينما موسى ذات يوم يمشي في طريق  
إذا ببعد أسود قد استقبله بين عينيه تراب من أثر السجود في ثملة قد عقدتها على عنقه فرفقه موسى  
عليه السلام بنور الله عز وجل فسلم عليه وقال له ما صمك فقال اسمي برخ فأنت طلبتنا منذ حين  
أخرج فاستسقى لنا فخرج فقال في كلامه ما هذا من فعلك ولا هذا من حلك وما الذي بدالك أتقصت  
عليك عيونك أم عاندت الرياح عن طاعتك أم فقد ما عندك أم اشتد غضبك على الذين أئست كنت  
غفارا قبل خلق الخطائين خلقت الرحمة وأمرت بالعطف أم فرينا أنك تمتنع أم تخشى الموت فتعجل  
بالعقوبة قال فأبرح حتى أخذت بنو إسرائيل بالقطر وأنبئت الله تعالى العشب في نصف يوم حتى بلغ  
الركب قال فرجع برخ فاستقبله موسى عليه السلام فقال كيف رأيت حين خاسمت ربي كيف أنصفني  
فهم موسى عليه السلام به فأوحى الله تعالى إليه أن برخا يضحكني كل يوم ثلاث مرات. وعن الحسن  
قال احترقت أنفاس بالبصرة فبقي في وسطها خصل لم يحترق وأبو موسى يومئذ أمير البصرة فأخبر  
بذلك فبعث إلى صاحب الخصل قال فأني بشيخ فقال يا شيخ ما بال خصلك لم يحترق قال إني أقسمت على  
ربي عز وجل أن لا يحرقه فقال أبو موسى رضي الله عنه إني صمت رسول الله صلى الله عليه وسلم بقول  
« يكون في أمي قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله لأبرم »<sup>(١)</sup> قال ووقع حريق بالبصرة  
فجاء أبو عبيدة الخواص فجعل يتخطى النار فقال له أمير البصرة انظر لا تحترق بالنار فقال إني أقسمت على  
ربي عز وجل أن لا يحرقني بالنار قال فأعزم على النار أن تطأ قال فمزم عليها فطفت وكان أبو خصل  
يمشي ذات يوم فاستقبله رستاقي مدهوش فقال له أبو خصل ما أصابك فقال ضل حماري ولا أملك غيره  
قال فوقف أبو خصل وقال وعزتك لا أخطو خطوة ما لم ترد عليه حماري قال فظهر حماره في الوقت ومر  
أبو خصل رحمه الله . فهذا وأمثاله يجري لدى الأنس وليس لغيرهم أن يتشبه بهم. قال الجنيد رحمه الله  
أهل الأنس يقولون في كلامهم ومناجاتهم في خلواتهم أشياء هي كفر عند العامة. وقال مرة لوصيها  
العموم لكفروهم وهم يحدون الزيد في أحوالهم بذلك وذلك يحتمل منهم ويليق بهم وإليه أشار القائل:

قوم تغالجهم زهو بسيدم والعبد يزهو على مقدار مولاه

تاهوا برؤيته عما سواه له يا حسن رؤيتهم في عز ما تاهوا

ولا تستبعدون رضاه عن العبد بما يغضب به على غيره مهما اختلف مقامهما في القرآن تنبيهات على

(١) حديث الحسن عن أبي موسى يكون في أمي قوم شعثاء رهوسهم دنسة ثيابهم لو أقسموا على الله

لأبرم ، ابن أبي الدنيا في كتاب الأولياء وفيه انقطاع وجهالة .

عن هذا الرابع ولا  
يراد الزهد في الدنيا  
إلا لكال الفراغ  
الاستمان به على إدامة  
العمل لله تعالى والعمل  
فه أن يكون البعد  
لا يزال ذا كرا أو تاليا  
أو مصليا أو مراقبا  
لا يشغله عن هذه إلا  
واجب شرعى أو مهم  
لا بد منه طبعي فاذا  
استولى العمل القلبي  
على القلب مع وجود  
الشغل الذي أداه إليه  
حكم الشرع لا يفتتر  
باطنه عن العمل  
فاذا كان مع الزهد  
والتقوى متمكنا  
يدوام العمل قصد  
أكمل الفضل وما آلى  
جهدا في العبودية

هذه المعاني لو فطنت وفهمت فجميع قصص القرآن تنبيهات لأولى البصائر والأبصار حتى ينظروا إليها  
بعين الاعتبار فأعماهى عند ذوى الاعتبار من الأسماء . فأول القصص قصة آدم عليه السلام  
وإبليس أما تراها كيف اشتركا فى اسم العصية والخلافة ثم تباينا فى الاجتناء والعصاة . أما إبليس  
فأبلى عن رحمته . وقيل إنه من البعدين . وأما آدم عليه السلام فقيل فيه . وعصى آدم ربه  
فغوى ثم اجتبه ربه فتاب عليه وهدى . وقد عاتب الله نبيه صلى الله عليه وسلم فى الاعراض  
عن عبد والاقبال على عبد وما فى العبودية سبيل ولكن فى الحال مختلفان ، فقال . وأما من  
جاءك يسمى وهو يخشى فأنت عنه تلهى . وقال فى الآخر . أما من استغنى فأنت له تصدى .  
وكذلك أمره بالعود مع طائفة ، فقال عز وجل . وإذا جاءك الذين يؤمنون بآياتنا قل سلام  
عليكم . وأمره بالإعراض عن غيرهم ، فقال . وإذا رأيت الذين يخوضون فى آياتنا فأعرض  
عنهم . حتى قال . فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين . وقال تعالى . واصبر نفسك مع  
الذين يدعون ربهم بالغداة والعشي . فكذا الانبساط والإدلال يحتمل من بعض العباد دون  
بعض ، فمن انبساط الأنس قول موسى عليه السلام . إن هى إلا فتنتك تضل بها من تشاء  
وتهدى من تشاء . وقوله فى التسليل والاعتذار لما قيل له . اذهب إلى فرعون . فقال . ولهم  
على ذنب . وقوله . إنى أخاف أن يكذبون ويضيق صدرى ولا ينطلق لسانى . وقوله . إننا  
نخاف أن يفرط علينا أو أن يظنى . وهذا من غير موسى عليه السلام من سوء الأدب لأن الذى  
أقيم مقام الأنس بلاطف ويحتمل ولم يحتمل ليونس عليه السلام مادون هذا لما أقيم مقام القبض  
والهية فزوق بالجن فى بطن الحوت فى ظلمات ثلاث ونودى عليه إلى يوم القيامة . لولا أن  
تداركه نعمة من ربه لنبت بالبراء وهو مذموم . قال الحسن البراء هو القيامة ، ونهى نبيها  
صلى الله عليه وسلم أن يقتدى به . وقيل له . فاصبر لحكم ربك ولا تكن كصاحب الحوت إذ  
نادى وهو مكظوم . وهذه الاختلافات بعضها لاختلاف الأحوال والقامات وبعضها لما سبق فى  
الأزل من التفاضل والتفاوت فى القسمة بين العباد ، وقد قال تعالى . ولقد فضلنا بعض النبيين  
على بعض . وقد قال . منهم من كلم الله ورفع بعضهم درجات . فكان عيسى عليه السلام من  
الفضلين والإدلاله سلم على نفسه ، فقال . والسلام على يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا .  
وهذا انبساط منه لما شاهد من اللطف فى مقام الأنس . وأما يحيى بن زكريا عليه السلام فانه أقيم  
مقام الهية والحياة فلم ينطق حتى أتى عليه خالقه ، فقال . وسلام عليه . وانظر كيف احتمل  
لإخوة يوسف مافلوه يوسف . وقد قال بعض العلماء : قد عدت من أول قوله تعالى . إذ قالوا  
ليوسف وأخوه أحب إلى أبينا منا . إلى رأس الشريرين من أخباره تعالى عن زهدهم فيه نيفا  
وأربعين خطبة بعضها أكبر من بعض وقد يجتمع فى الكلمة الواحدة الثلاث والأربع فتنفر  
لهم وغفا عنهم ولم يحتمل المزير فى مسألة واحدة سأل عنها فى القدر حتى قيل هى من ديوان النبوة  
وكذلك كان بلعام بن باعوراء من أكبر العلماء فأكل الدنيا بالدين فلم يحتمل له ذلك . وكان  
أصف من للسرفين وكانت مصيته فى الجوارح فضا عنه فقد روى أن الله تعالى أوحى إلى سليمان  
عليه السلام يارأس العابدين وياابن محبة الزاهدين إلى كم يصيبني ابن خالك أصف وأنا أحلم عليه  
مرة بعد مرة فوعزنى وجلالى لأن أخذته عصفه من صفاتى عليه لأتركه مثله لمن معه ونكالا  
لن بعده . فلما دخل أصف على سليمان عليه السلام أخبره بما أوحى الله تعالى إليه فخرج حتى علا

قال أبو بكر الوراق :  
من خرج من قالب  
العبودية صنع به ما  
يصنع بالآبق . وسئل  
سهل بن عبد الله  
القسرى : أى منزلة إذا  
قام العبد بمقام مقام  
العبودية قال إذا ترك  
التدبير والاختيار فإذا  
تحقق العبد بالثبوت  
والزهد ودوام العمل  
لله يشغله وقته الحاضر  
عن وقته الآتى ويصل  
إلى مقام ترك التدبير  
والاختيار ثم يصل إلى  
أن يملك الاختيار ،  
فيكون اختياره من  
اختيار الله تعالى لئوال  
هواه ووفور علمه  
واقطاع مادة الجهل  
عن باطنه . قال يحيى  
ابن معاذ الرازى مادام



كثيما من رمل ثم رفع رأسه ويديه نحو السماء وقال إلهي وسيدى أنت أنت وأنا أنا فكيف أتوب إن لم تقب علي وكيف أستعصم إن لم تصمني لأعودن فأوحى الله تعالى إليه صدقت يا آصف أنت أنت وأنا أنا استقبل التوبة وقد ثبت عليك وأنا التواب الرحيم ، وهذا كلام مدلل به عليه وهارب منه إليه وناظر به إليه ، وفي الخبر « إن الله تعالى أوحى إلى عبد تداركه بعد أن كان أشقى على المهلكة كم من ذنب واجهته به غفرته لك قد أهلكك في دونه أمة من الأمم » فهذه سنة الله تعالى في عباده بالتفصيل والتقديم والتأخير على ما خبقت به للشبهة الأزلية وهذه القصص وردت في القرآن لتعرف بها سنة الله في عباده الذين خلوا من قبل لما في القرآن شيء إلا وهو هدى ونور وتعرف من الله تعالى إلى خلقه فتارة يعرف إليهم بالتقديس فيقول - قل هو الله أحد الله الصمد لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفوا أحد - وتارة يعرف إليهم بصفات جلاله فيقول - للذك القدوس السلام للؤمن لليعن العزيز الجبار للتكبر - وتارة يعرف إليهم في أفعاله الخوف والرجوة فينبئهم عليه سنته في أفعاله وفي أنبيائه فيقول - ألم تر كيف فعل ربك بأدم ذات العصاة ألم تر كيف فعل ربك بأصحاب القيل واليلدو القرآن هذه الأقسام الثلاثة وهي الإرشاد إلى معرفة ذات الله وتخليده وأمعرفة صفاته وأسمائه وأمعرفة أفعاله وسنته مع عباده ، ولما اشتملت سورة الاخلاص على أحد هذه الأقسام الثلاثة وهو التقديس ولما فيها رسول الله صلى الله عليه وسلم بذلك القرآن قال « من قرأ سورة الاخلاص قد قرأ ثلث القرآن <sup>(١)</sup> » لأن منتهى التقديس أن يكون واحدا في ثلاثة أمور : لا يكون حاصلاته من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يلد ولا يكون حاصلاته من هو نظيره وشبهه ودل عليه قوله لم يولد ولا يكون في درجته وإن لم يكن أصلا له ولا فرعا من هو مثله ودل عليه قوله - ولم يكن له كفوا أحد - ويجمع جميع ذلك قوله تعالى - قل هو الله أحد - وجعلته تفصيل قول لا إله إلا الله فهذه أسرار القرآن ولا تنهاها أمثال هذه الأسرار في القرآن - ولا رطب ولا يابس إلا في كتاب مبين - ولذلك قال ابن مسعود رضي الله عنه نوروا القرآن والنور والغائب فيه علم الأولين والآخرين وهو كما قال ولا يعرفه إلا من طالع في آحاد كلماته فكره وصفاه فهمه حتى تشهد له كل كلمة منه بأنه كلام جبار قاهر ملك قادر وأنه خارج عن حد استطاعة البشر وأكثر أسرار القرآن معبأة في طي القصص والأخبار فكأن حريصا على استنباطها ليكشف لك فيه من العجائب ما تستحق معه العلوم الزخرفة الخارجة عنه فهذه ما أردنا ذكره من معنى الأنس والانسباط الذي هو نعمته وبيان تفاوت عباد الله فيه والله سبحانه وتعالى أعلم .

( القول في معنى الرضا بقضاء الله وحقيقته وما ورد في فضيلته )

اعلم أن الرضا ثمرة من ثمار المحبة وهو من أعلى مقامات التربين وحقيقته غامضة على الأكثرين وما يدخل عليه من التشابه والابهام غير منكشف إلا لمن علمه الله تعالى التأويل وفهمه وقبضه في الدين فقد أنكر منكرون تصور الرضا بما يخالف الهوى ثم قالوا إن أمكن الرضا بكل شيء لأنه فعل الله فينبغي أن يرضى بالكفر والعاصي وأنفذ بذلك قوم فرأوا الرضا بالفجور والفسق وترك الاعتراض والانكار من باب التسليم لقضاء الله تعالى ، ولو انكشف هذه الأسرار لمن اقتصر على سماع ظواهر الشرع لما دعا رسول الله صلى الله عليه وسلم لابن عباس حيث قال « اللهم قه في الدين وعلمه التأويل <sup>(٢)</sup> »

(١) حديث من قرأ سورة الاخلاص قد قرأ ثلث القرآن أحمد من حديث أبي بن كعب بإسناد صحيح ورواه البخاري من حديث أبي سعيد ومسلم من حديث أبي هريرة نحوه (٢) حديث دعاه لابن عباس اللهم قه في الدين وعلمه التأويل متفق عليه دون قوله وعلمه التأويل ورواه أحمد بهذه الزيادة وتقدم في العلم .

العبد يعرف يقال له لا اختر ولا تكن مع اختيارك حتى تعرف فاذا عرف وصار عارفا يقال له إن عشت اختر وإن عشت لا اختر لأنك إن اخترت فاختيارنا اخترت وإن تركت الاختيار فاختيارنا تركت الاختيار فانك بنا في الاختيار وفي ترك الاختيار والعبد لا يتحقق بهذا المقام العالي والحال العزيز الذي هو الغاية والنهاية وهو أن يملك الاختيار بعد ترك التدبير والخروج من الاختيار إلا بإحكامه هذه الأربعة التي ذكرناها لأن ترك التدبير فناء وتمليك التدبير

فلنبدأ ببيان فضيلة الرضا ثم بحكايات أحوال الراضين ثم نذكر حقيقة الرضا وكيفية تصوره فيما يخالف  
المعوى ثم نذكر ما يظن أنه من تمام الرضا وليس منه كترك الدعاء والكموت على المعاصي .

### ( بيان فضيلة الرضا )

أما من الآيات قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه - وقد قال تعالى - هل جزاء الإحسان  
إلا الإحسان - ومنتهى الإحسان رضا الله عن عبده وهو ثواب رضا العبد عن الله تعالى وقال تعالى  
- وما كن طيبة في جنات عدن ورضوان من الله أكبر - قد رفع الله الرضا فوق جنات عدن  
كما رفع ذكره فوق الصلاة حيث قال - إن الصلاة تنهى عن الفحشاء والنكرو ولقد كراهه أكبر فكما  
أن مشاهدة للذكر في الصلاة أكبر من الصلاة فرضوان رب الجنة أعلى من الجنة بل هو غاية مطلب  
سكان الجنان ، وفي الحديث « إن الله تعالى يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك » (١) فسؤالهم  
الرضا بعد النظر نهاية التفضيل . وأما رضا العبد فسنذكر حقيقته وأما رضوان الله تعالى عن العبد فهو  
بمعنى آخر يقرب عما ذكرناه في حب الله للعبد ولا يجوز أن يكشف عن حقيقته إذ تقتصر أفهام الخلق  
عن دركه ومن يقوى عليه فيستقل بأدراكه من نفسه . وعلى الجملة فلارتبة فوق النظر إليه فاعلموا  
الرضا لأنه سبب دوام النظر فكأنهم رأوه غاية الغايات وأقصى الأمان لما ظفروا بنعيم النظر فلما أمروا  
بالسؤال لم يسألوا إلا دوامه وعلموا أن الرضا هو سبب دوام رفع الحجاب وقال الله تعالى - ولدينا مزيد  
قال بعض المفسرين فيه يأتي أهل الجنة في وقت للزيد ثلاث تحف من عند رب العالمين : إحداها هدية  
من عند الله تعالى ليس عندهم في الجنان مثلها فذلك قوله تعالى - فلا تعلم نفس ما أخفى لهم من قرة  
أعين - والثانية السلام عليهم من ربهم فيزيد ذلك على الهدية فضلا وهو قوله تعالى - سلام قولاً من  
رب رحيم - والثالثة يقول الله تعالى : إني عنكم راض . فيكون ذلك أفضل من الهدية والتسليم فذلك  
قوله تعالى - ورضوان من الله أكبر - أي من النعم الذي هم فيه هذا أفضل رضا الله تعالى وهو ثمرة رضا  
العبد . وأما من الأخبار فقد روى « أن النبي صلى الله عليه وسلم سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا  
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم فقالوا نصبر على البلاء ونشكر عند الرخاء ورضى بمواقع القضاء فقال  
مؤمنون ورب الكعبة » (٢) وفي خبر آخر أنه قال « حكاء علماء كادوا من قههم أن يكونوا أنبياء » (٣)  
وفي الخبر « طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى به » (٤) وقال عليه السلام « من رضى من الله  
تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل » (٥) وقال أيضاً « إذا أحب الله تعالى  
عبداً ابتلاه فإن صبر اجتباء فإن رضي اصطفاه » وقال أيضاً « إذا كان يوم القيامة أنبت الله تعالى لطائفة  
من أمم أجنحة فيطفرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها ويتنعمون فيها كيف شاءوا فيقول لهم

والاختيار من الله  
تعالى لعبده ورده إلى  
الاختيار تصرف بالحق  
وهو مقام البقاء وهو  
الانسلاخ عن وجود  
كان بالعبد إلى وجود  
يصير بالحق وهذا  
العبد ما بقي عليه من  
الاعوجاج ذرة واستقام  
ظاهره وباطنه في  
العبودية وعمر العلم  
والعمل ظاهره وباطنه  
وتوطن حضرة القرب  
بنفس بين يدي الله  
عز وجل متمسكة  
بالاستكانة والافتقار  
متحققة بقول رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
« لا تنكحني إلى نفسي  
طرفة عين فأهلك ولا  
إلى أحد من خلقك  
فأضيق اكلاًني كلاله

(١) حديث إن الله يتجلى للمؤمنين فيقول سلوني فيقولون رضاك البراء والطبراني في الأوسط من حديث  
أنس في حديث طويل بسند فيه لين وفيه فيتجلى لهم يقول أنا الذي صدقكم وعدى وأتممت عليكم  
نعمي وهذا عمل إكرامي فسلوني فيسألونه الرضا الحديث ورواه أبو علي بلفظهم قول ماذا تريدون  
فيقولون رضاك الحديث ورجاله رجال الصحيح (٢) حديث سأل طائفة من أصحابه ما أتم قالوا  
مؤمنون فقال ما علامة إيمانكم الحديث تقدم (٣) حديث أنه قال في حديث آخر حكاء علماء كادوا  
من قههم أن يكونوا أنبياء تقدم أيضاً (٤) حديث طوبى لمن هدى للإسلام وكان رزقه كفافاً ورضى  
به الترمذي من حديث فضالة بن عبيد بلفظ وقع وقال صحيح وقد تقدم (٥) حديث من رضى من الله  
تعالى بالقليل من الرزق رضى الله تعالى منه بالقليل من العمل وروناه في أمالي الحاملي بإسناد ضعيف من حديث  
علي بن أبي طالب ومن طريق الحاملي رواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس .

للالائكة هل رأيتم الحساب فيقولون ما رأينا حسابا فتقول لهم هل جزتم الصراط فيقولون ما رأينا صراطا فتقول لهم هل رأيتم جهنم فيقولون ما رأينا شيئا فتقول لللائكة من أمة من أئمة فيقولون من أمة محمد صلى الله عليه وسلم فتقول ناشدناكم الله حدثونا ما كانت أعمالكم في الدنيا فيقولون خصلتان كانتا فينا قبلنا هذه للزلة بفضل رحمة الله فيقولون وماها فيقولون : كنا إذا خلونا نستحي أن نصيبه ونرضى باليسير مما قسم لنا فتقول لللائكة بحق لكم هذا <sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «يا مفسر الفقراء أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قفركم وإلا فلا <sup>(٢)</sup>» . وفي أخبار موسى عليه السلام إن بني إسرائيل قالوا له سل لنا ربك أمرا إذا نحن فطناء يرضى به عنا فقال موسى عليه السلام : إلهي قد سمعت ما قالوا فقال ياموسى قل لهم يرضون عني حتى أرضى عنهم ، ويشهد لهذا ما روى عن نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «من أحب أن يعلم ماله عند الله عز وجل فلينظر ماله عز وجل عنده فإن الله تبارك وتعالى ينزل العبد منه حيث أنزله العبد من نفسه <sup>(٣)</sup>» وفي أخبار داود عليه السلام مالأولياي والهلم بالدنيا إن الهلم يذهب حلاوة مناجاتي من قلوبهم . يادادود إن محبي من أولياي أن يكونوا روحانيين لا يفتنون . وروى أن موسى عليه السلام قال يارب دلني على أمر فيه رضاك حتى أعمله فأوحى الله تعالى إليه : إن رضائي في كرهك وأنت لاتصبر على ماتكره . قال يارب دلني عليه ، قال فإن رضائي في رضاك بقضائي . وفي مناجاة موسى عليه السلام أي رب أي خلقك أحب إليك ؟ قال من إذا أخذت منه المهنوب سألني قال فأني خلقك أنت عليه ساخط . قال من يستخيرني في الأمر فاذا قضيت له سخط قضائي . وقد روى ما هو أشد من ذلك وهو أن الله تعالى قال «أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي ولم يشكر نعمائي ولم يرض بقضائي فليخذ ربا سواي <sup>(٤)</sup>» ومثله في الشدة قوله تعالى فيما أخبر عنه نبينا صلى الله عليه وسلم أنه قال «قال الله تعالى قدرت للقادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع ، فمن رضى فله الرضا مني حتى يلغاني ومن سخط فله السخط مني حتى يلغاني <sup>(٥)</sup>» وفي الخبر المشهور «يقول الله تعالى خاقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه وويل لمن خلقته للشر وأجريت الشر على يديه وويل ثم وويل لمن قال لم وكيف <sup>(٦)</sup>» وفي الأخبار السالفة أن نبيا من الأنبياء شكأ إلى الله عز وجل الجوع والفقر والقمل عشر سنين فما أجيب إلى ما أراد ثم أوحى الله تعالى إليه كم تشكوا هكذا كان بدؤك عندي في أم الكتاب قبل أن أخلق السموات والأرض

(١) حديث إذا كان يوم القيامة أنبت الله لطائفة من أممي أجنحة فيطفرون من قبورهم إلى الجنان يسرحون فيها رواه ابن حبان في الضعفاء وأبو عبد الرحمن السلمي من حديث أنس مع اختلاف ، وفيه حميد بن علي القيسي ساقط هالك والحديث منكر مخالف للقرآن ، وللأحاديث الصحيحة في الورد وغيره (٢) حديث أعطوا الله الرضا من قلوبكم تظفروا بثواب قفركم وإلا فلا تقدم (٣) حديث من أحب أن يعلم ماله عند الله فلينظر ماله عند الله الحديث الحاكم من حديث جابر وصححه بإفظ منزلته ومنزلة الله (٤) حديث قال الله أنا الله لا إله إلا أنا من لم يصبر على بلائي الحديث الطبراني في الكبير وابن حبان في الضعفاء من حديث أبي هند الدارمي مقتصر على قوله من لم يرض بقضائي ويصبر على بلائي فليتمس ربا سواي وإسناده ضعيف (٥) حديث قال الله تعالى قدرت القادير ودبرت التدبير وأحكمت الصنع فمن رضى فله الرضا الحديث لم أجده بهذا اللفظ للطبراني في الأوسط من حديث أبي أمامة خلق الله الخلق وقضى القضية وأخذ ميثاق النبيين الحديث وإسناده ضعيف (٦) حديث يقول الله خلقت الخير والشر فطوبى لمن خلقته للخير وأجريت الخير على يديه الحديث ابن شاهين في شرح

الوليد ولا تغفل عني .

[ الباب الستون :

في ذكر إشارات

الشايخ في القامات

على الترتيب ]

قولهم في التوبة قال

رويم معنى التوبة أن

يتوب من التوبة قيل

معناه قول رابصة

أستغفر الله العظيم

من قلة صدق في قولي

أستغفر الله . وسئل

الحسن الغفاري عن

التوبة ، فقال تسألني

عن توبة الانابة أو

عن توبة الاستجابة

فقال السائل ما توبة

الانابة ؟ فقال : أن

تخاف من الله عز

وجل من أجل

قدرته عليك . قال

فما توبة الاستجابة .

وهكذا سبق لك مني وهكذا قضيت عليك قبل أن أخلق الدنيا أقرير أن أعيد خلق الدنيا من أجلك أم تريد أن أبدل ما قدرته عليك فيكون مأجوب فوق مأجوب ويكون ماتريد فوق ما أريد وعزتي وجلالي لأن تلجلج هذا في صدرك مرة أخرى لأهونك من ديوان النبوة . وروى أن آدم عليه السلام كان يبنى أولاده الصغار يصعدون على بدنه وينزلون بجمل أحدهم رجلاه على أضلاعه كهيئة الدرج فيصعد إلى رأسه ثم ينزل على أضلاعه كذلك وهو مطرق إلى الأرض لا ينطق ولا يرفع رأسه ، فقال له بعض ولده بأبت : أمارى ما يصنع هذا بك لو نبيت عن هذا فقال يا بني : إنى رأيت ما لم تروا ، وعلت ما لم تلمسوا إلى تحركت حركة واحدة فأهبطت من دار السكرامة إلى دار الهوان ومن دار النعم إلى دار الشقاء فأخاف أن أتحرك أخرى فيصينى ملا أعلم . وقال أنس بن مالك رضى الله عنه « خدمت رسول الله صلى الله عليه وسلم عشر سنين لما قال لي كفى فقلت لم فقلت ولا كفى لم أفعله لم لأفعله ولا قال في شيء كان ليته لم يكن ولا في شيء لم يكن ليته كان وكان إذا خاصنى غاصم من أهله يقول دعوه لوقضى شيء لكان (١) » . وروى أن الله تعالى أوحى إلى داود عليه السلام : يا داود إنك تريد وأريد وإنما يكون ما أريد فان سلمت لما أريد كفتك ماتريد ، وإن لم تسلم لما أريد أحببتك فيما تريد ثم لا يكون إلا ما أريد . [ وأما الآثار ] فقد قال ابن عباس رضى الله عنهما : أول من يدعى إلى الجنة يوم القيامة الذين يحمدون الله تعالى على كل حال . وقال عمر بن عبد العزيز ما بقى لى سرور إلا فى مواقع القدر . وقيل له ماتشهى ، فقال ما يقضى الله تعالى . وقال ميمون بن مهران من لم يرض بالقضاء فليس لحقه دواء . وقال الفضيل : إن لم تصبر على تقدير الله لم تصبر على تقدير نفسك . وقال عبد العزيز ابن أبي رواد : ليس الشأن فى أكل خبز الشعير والحل ولا فى لبس الصوف والشعر ولكن الشأن فى الرضا عن الله عز وجل . وقال عبد الله بن مسعود : لأن الحس حجرة أحرقت ما أحرقت وأبقت ما أبقت أحب إلى من أن أقول كفى كان ليته لم يكن أو كفى لم يكن ليته كان . ونظر رجل إلى قرحة فى رجل محمد بن واسع ، فقال لى لأرحمك من هذه القرحة ، فقال : لى لأشكرها منذ خرجت إذ لم تخرج فى عيني . وروى فى الاسرائيليات أن تابدا عبد الله دهرا طويلا فأرى فى المنام فلانة الراعية رفيقتك فى الجنة فسأل عنها إلى أن وجدها فاستضافها ثلاثا لينظر إلى عملها فسكان بيت قائما وتبيت نائمة ويظل صائما ويظل منطرة ، فقال أمالك عمل غير ما رأيت ، وقالت ما هو والله إلا ما رأيت لأعرف غيره فلم يزل يقول تذكرى حتى قالت خيبة واحدة هى فى إن كنت فى شدة لم آمن أن أكون فى رخاء وإن كنت فى مرض لم آمن أن أكون فى صحة وإن كنت فى الشمس لم آمن أن أكون فى الظل فوضع العابد يده على رأسه وقال أهذه خيبة هذه والله خيبة عظيمة يعجز عنها العباد . وعن بعض السلف إن الله تعالى إذا قضى فى السماء قضاء أحب من أهل الأرض أن يرضوا بقضائه . وقال أبو الفرداء فدوة الإيمان الصبر للحكم والرضا بالقدر . وقال عمر رضى الله عنه ما أبالى على أى حال أصبحت وأمسيت من شدة ورخاء . وقال الثوري يوما عند رابعة : اللهم ارض عني فقالت أما تستحي من الله أن تسأله الرضا وأنت عنه غير راض فقال أستغفر الله فقال جعفر ابن سليمان الضبيلى فمضى يكون العبد راضيا عن الله تعالى قالت إذا كان سروره بالمصيبة مثل سروره بالنعمة . وكان الفضيل يقول إذا استوى عنده النعم والعطاء فقد رضى عن الله تعالى . وقال أحمد بن أبي الحواري قال أبو سليمان الداراني إن الله عز وجل من كرمه قدرضى من عيبه بما رضى العبيد من مواليهم السنة عن أبي أمامة باسناد ضعيف (١) حديث أنس خدمت النبي صلى الله عليه وسلم لما قال لى كفى فقلت لم فقلت له الحديث متفق عليه وقد تقدم .

قال أن تستحي من الله لقربه منك وهذا الذى ذكره من توبة الاستجابة إذا تحقق العبد بها ربما تاب فى صلاته من كل خاطر يلزمه سوى الله تعالى ويستغفر الله منه وهذه توبة الاستجابة لازمة لبواطن أهل القرب كما قيل وجودك ذنب لا يقاس به ذنب . قال ذو النون توبة الصوام من الذنوب ، وتوبة الخواص من النفلة ، وتوبة الأنبياء من رؤية عجزهم عن بلوغ ما ناله غيرهم . مثل أبو محمد سهل عن الرجل

قلت وكيف ذاك قال أليس مراد الصبر من الخلق أن يرضى عنه مولاه قلت نعم قال فإن محبة قومه عبده أن يرضوا عنه . وقال سهل حظ العبيد من اليقين على قدر حظهم من الرضا وحظهم من الرضا على قدر عيشهم مع الله عز وجل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن الله عز وجل يحبكته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط (١) » .

( بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى )

اعلم أن من قال ليس فيما يخالف الهوى وأنواع البلاء إلا الصبر فأما الرضا فلا يتصور فاعلم أن من ناحية إنكار المحبة فأما إذا ثبت تصور الحب لله تعالى واستغرق الهم به فلا يخفى أن الحب يورث الرضا بأفعال الحبيب ويكون ذلك من وجهين : أحدهما أن يظل الاحساس بالألم حتى يجرى عليه الإؤلوم ولا يحس وتصيبه جراحة ولا يدرك ألمها ومثاله الرجل المحارب فإنه في حال غضبه أو في حال خوفه قد تصيبه جراحة وهو لا يحس بها حتى إذا رأى الدم استدلل به على الجراحة بل الذي يغدو في شغل قريب قد تصيبه شوكة في قدمه ولا يحس بألم ذلك لشغل قلبه بل الذي يحجم أو يحلق رأسه بعديدة كالة يتألم به فإن كان مشغول القلب بهم من مهماته فرغ للزينة والحجام وهو لا يشعر به وكل ذلك لأن القلب إذا صار مستغرقا بأمر من الأمور مستوفى به لم يدرك ما عداه فكذلك العاشق للشيء المستغرق الهم بمشاهدة معشوقه أو بحبه قد يصيبه ما كان يتألم به أو يتم له لولا عشقه ثم لا يدرك غمه وألمه لفرط استيلاء الحب على قلبه هذا إذا أصابه من غير حبيبه فكيف إذا أصابه من حبيبه وشغل القلب بالحب والعشق من أعظم الشواغل وإذا تصور هذا في ألم يسير بسبب حب خفيف تصور في الألم العظيم بالحب العظيم فإن الحب أيضا يتصور تضاعفه في القوة كما يتصور تضاعف الألم وكما يقوى حب الصور الجميلة للدركة بحاسة البصر فكذلك يقوى حب الصور الجميلة الباطنة للدركة بنور البصيرة وجمال حضرة الربوبية وجلالها لا يقاس به جمال ولا جلال فمن ينكشف له شيء منه فقد يبهرة بحيث يدهش ويدهش عليه فلا يحس بما يجرى عليه . فقد روي أن امرأة فتحت الوصل عثرت فاقطع ظفرها فضحكت قبل لها أما تجددين الوجع ؟ قالت إن آلة ثوابه أزالته عن قلبي مرارة وجمعه ، وكان سهل رحمه الله تعالى به علة يعالج غيره منها ولا يعالج نفسه فقيل له في ذلك فقال يادوست ضرب الحبيب لا يوجع . وأما الوجه الثاني فهو أن يحس به ويدرك ألمه ولكن يكون راضيا به بل راغبا فيه مريدا له أعز بقلبه وإن كان كارها بطبعه كالذي يلتبس من القصاد القصد والحجامة فإنه يدرك ألم ذلك إلا أنه راض به وراغب فيه ومتلذذ من القصاد به منة بفعله فهذا حال الراضى بما يجرى عليه من الألم وكذلك كل من يسافر في طلب الربح يدرك مشقة السفر ولكن حبه لثمرة سفره طيب عنده مشقة السفر وجمعه راضيا بها ومهما أصابه بلية من الله تعالى وكان له يقين بأن ثوابه الذي ادخر له فوق ما فاته رضى به ورغب فيه وأحبه وشكر الله عليه هذا إن كان يلاحظ الثواب والاحسان الذي يجازى به عليه ويجوز أن يغلب الحب بحيث يكون حظ الحب في مراد محبوبه ورضاه لا لغير آخر وراءه فيكون مراد حبيبه ورضاه محبوا عنه ومطلوبا وكل ذلك موجود في المشاهدات في حب الخلق وقد توأفها المتوافظون في نظمهم وشرمهم ولا معنى له إلا ملاحظة جمال الصورة الظاهرة بالبصر فإن نظر إلى الجمال فصاهو إلا جلد ولحم ودم مشحون بالأقدار والأخبار بدايته من نقطة ملونة ونهايته جيفة قلدة وهو فيما بين ذلك يحمل العذرة وإن نظر إلى الدرك

(١) حديث إن الله يحبكته وجلاله جعل الروح والفرح في الرضا واليقين وجعل الغم والحزن في الشك والسخط (١) . ابن مسعود إلا أنه قال بتسطه وقد تقدم .

يتوب من الشيء ويتركه ثم يخطر ذلك الشيء بقلبه أو يراه أو يسمع به فيجد حلاوته فقال الحلاوة طبع البشرية ولا بد من الطبع وليس له حيلة إلا أن يرفع قلبه إلى مولاه بالشكوى وينكره بقلبه ويلزم نفسه الانكار ولا يفارقه ويدعو الله أن ينفيه ذلك ويشغله بشيء من ذكره وطاعته قال وإن غفل عن الانكار طرفة عين أخاف عليه أن لا يسلم وتعمل الحلاوة في قلبه ولكن مع وجدان الحلاوة يلزم قلبه الانكار ويحزن فإنه لا يضره . وهنا

للجمال فهي العين الحسيدة التي تفلط فيما ترى كثيرا فتري الصغير كبيرا والكبير صغيرا والبعد قريبا والقصيح جميلا فإذا تصور استيلاء هذا الحب فمن أين يستحيل ذلك في حب الجمال الأزلي الأبدى الذي لا ينتهي لكأله الدرك بعين البصرة التي لا يعترها الفلظ ولا يدور بها الموت بل تبقى بعد الموت حية عند الله فرحة برزق الله تعالى مستفيدة بالموت مزيد تنبيه واستكشاف فمنا أمر واضح من حيث النظر بعين الاعتبار وشهد لذلك الوجود وحكايات أحوال المحبين وأقوالهم فقد قال شقيق البلخي من يرى ثواب الشدة لا يشتهي المخرج منها . وقال الجنيد سألت سرياً السقطي هل يجد الحب ألم البلاء ؟ قال لا قلت وإن ضرب بالسيف قال نعم وإن ضرب بالسيف سبعين ضربة ضربة على ضربة . وقال بعضهم أحببت كل شيء بحبه حتى لو أحب النار أحببت دخول النار . وقال بشر بن الحرث مررت برجل وقد ضرب ألف سوطاً في شرقية بغداد ولم يشكهم ثم حمل إلى الحبس فقبضته فقلت له لم ضربت ؟ فقال لأنني عاشق فقلت له ولم سكنت ؟ قال لأن معشوقى كان بحدائي ينظر إلى فقلت فلو نظرت إلى المعشوق الأكبر قال فزعتى زعقة خرميتا . وقال يحيى بن معاذ الرازى رحمه الله تعالى إذا نظر أهل الجنة إلى الله تعالى ذهبت عيونهم في قلوبهم من لذة النظر إلى الله تعالى ثمانمائة سنة لا ترجع إليهم لما ظنك بقلوب وقت بين جماله وجلاله إذا لاحظت جلالة هابت وإذا لاحظت جماله تاهت . وقال بشر قصدت عبادان في بدايتي فإذا برجل أعمى مجذوم مجنون قد صرع والتل يأكل لحمه فرفست رأسه فوضعت في حجرى وأنا أردد الكلام فلما أفاق قال من هذا الفضولى الذى يدخل بينى وبين ربى لو قطعتى إرباً إرباً ما زددت له إلا حبا . قال بشر لما رأيت بعد ذلك بقعة بين عبد وبين ربه فأنكرتها . قال أبو عمرو ومحمد بن الأشعث إن أهل مصر مكثوا أربعة أشهر لم يكن لهم غذاء إلا النظر إلى وجه يوسف الصديق عليه السلام كانوا إذا جاعوا نظروا إلى وجهه فشغلهم جماله عن الاحساس بألم الجوع بل في القرآن ما هو أبلغ من ذلك قطع النسوة أيديهن لاستهتارهن بملاحظة جماله حتى ما أحسن بذلك . وقال سعيد بن يحيى رأيت بالبصرة في خان عطاء بن مسلم شاباً وفي يده مديّة وهو ينادى بأعلى صوته والناس حوله وهو يقول : يوم الفراق من القيامة أطول . والموت من ألم التفرق أجمل

قالوا الرحيل فقلت لست براحل لكن مهجنى التي ترحل

ثم بقر بالمدينة بطنه وخرميتا فسألت عنه وعن أمره فقبل لى أنه كان يهوى فنى لبعض الملوك حجب عنه يوماً واحداً ويروى أن يونس عليه السلام قال لجبريل دنى طى أعبد أهل الأرض فدلّه طى رجل قد قطع الجذام يديه ورجليه وذهب فسمعه وهو يقول : إلهى متعتنى بهما ما شئت أنت وسليتنى ما شئت أنت وأبقيت لى قبك الأمل يا رب يا وصول . ويروى عن عبد الله بن عمر رضى الله تعالى عنهما أنه اشتكى له ابن فاشتد وجده عليه حتى قال بعض القوم لقد خشنا طى هذا الشيخ إن حدث بهذا الغلام حدث فمات الغلام فخرج ابن عمر في جنازته وما رجل أشد سروراً أبداً منه فقبل له فى ذلك فقال ابن عمر إنما كان حزنى رحمة له فلما وقع أمر الله رضىنا به . وقال مسروق : كان رجل بالبادية له كلب وحمار وديك فالدّيك يوقظهم للصلاة والحمار ينقلون عليه الماء ويعمل لهم خبأهم والكلب يحرسهم قال فجاء الثعلب فأخذ الديك فخرنوا له وكان الرجل صالحاً فقال عسى أن يكون خيراً ثم جاء ذئب فخرق بطن الحمار فقتله فخرنوا عليه فقال الرجل عسى أن يكون خيراً ثم أصيب الكلب بعد ذلك فقال عسى أن يكون خيراً ثم أصبحوا ذات يوم فنظروا فإذا قد سبي من حولهم وبقواهم قال وإنما أخذوا أولئك لما كان عندهم من أصوات الكلاب

الذى قاله سهل كاف بالغ لكل طالب صادق يريد صحة توبته . والعارف القوى الحال يتمكن من إزالة الحلاوة عن بطنه ويسهل عليه ذلك . وأسباب سهولة ذلك متنوعة للعارف ومن تمكن من قلبه حلاوة حب الله الخاص عن صفاء شاهدة وصرف يقين فأى حلاوة تبقى فى قلبه وإنما حلاوة الهوى لعدم حلاوة حب الله . وسئل السوسى عن التوبة فقال التوبة من كل شيء ذمه العلم إلى مامدحه العلم وهذا وصف يعم الظاهر والباطن لمن كوشف بصريح العلم لأنه لا بقاء

والخير والديكة فكانت الحيرة لهؤلاء في هلاك هذه الحيوانات كما قدره الله تعالى فاذن من عرف خفي  
 لطف الله تعالى رضي بفعله على كل حال . وروى أن عيسى عليه السلام مرّ برجل أعمى أبرص مقعد  
 مضروب الجنبين بفالج وقد تآثر لحمه من الجذام وهو يقول الحمد لله الذي عافاني عما ابتلى به كثيرا  
 من خلقه فقال له عيسى يا هذا أي شيء من البلاء أراه مصروفا عنك فقال يا روح الله تأخير من لم يحمل  
 الله في قلبه ما جعل في قلب من معرفته فقال له صدقت هات يدك فناولوه يده فاذا هو أحسن الناس وجها  
 وأفضلهم هيئة وقد أذهب الله عنه ما كان به فصحب عيسى عليه السلام وتبعه معه وقطع عروة بن الزبير  
 رجله من ركبته من أكلة خرجت بها ثم قال الحمد لله الذي أخذ مني واحدة وإياك لأن كنت أخذت  
 لقد أبتيت ولئن كنت ابتليت لقد عافيت ثم لم يدع ورده تلك الليلة وكان ابن مسعود يقول الفقر والنفي  
 مطيتان ما أتالي أيتهما ركبتي إن كان الفقر فإن فيه الصبر وإن كان النفي فإن فيه البذل . وقال  
 أبو سليمان الداراني قد نلت من كل مقام حالا إلا الرضا فمالي منه إلا مشام الريح وعلى ذلك لو أدخل  
 الحلائق كلهم الجنة وأدخلني النار كنت بذلك راضيا . وقيل لعارف آخر هل نلت غاية الرضا عنه فقال  
 أما الغاية فلا ولكن مقام الرضا قد نلته لوجعني جبرا على جهنم يبر الحلائق على إلى الجنة ثم ملأني  
 جهنم تحمة لقسمه وبدلا من خليقته لأحببت ذلك من حكمه ورضيت به من قسمه وهذا الكلام من علم  
 أن الحب قد استغرق همه حتى منعه الاحساس بالنار فإن بقي إحساس فيغمره ما يحصل من لذته في  
 استمعاره حصول رضا محبوبه بالقائه إياه في النار واستيلاء هذه الحالة غير محال في نفسه وإن كان  
 بعيدا من أحوالنا الضعيفة ولكن لا ينبغي أن يستنكر الضعيف المحروم أحوال الأقوياء . ويطن أن  
 ماهو عاجز عنه يسجز عنه الأولياء . وقال الروذباري قلت لأبي عبد الله بن الجلاء الدمثي قول فلان  
 وددت أن جسدي قرض بالمقاريض وأن هذا الخلق أطاعوه مامنه فقال يا هذا إن كان هذا من  
 طريق التعظيم والاحلال فلا أعرف . وإن كان هذا من طريق الاشفاق والنصح للخلق فأعرف قال  
 ثم غشي عليه وقد كان عمران بن الحصين قد استسقى بطنه فبقى ملقى على ظهره ثلاثين سنة لا يقوم  
 ولا يقعد قد تقب له في سرير من جريد كان عليه موضع لقضاء حاجته فدخل عليه مطرف وأخوه العلاء  
 فجعل يبكي لما يراه من حاله فقال لم تبكي ؟ ول لأنني أراك على هذه الحالة العظيمة قال لا تبك فان أحبه  
 إلى الله تعالى أحبه إلى ثم قال أحدثك شيئا لمأل الله أن يفتك به واكنم على حتى أموت إن الثلاثكة  
 تزورني فأكس بها وتسلم على فأسمع تسليحها فأعلم بذلك أن هذا البلاء ليس بقوة إدهو سبب هذه  
 النعمة الجسيمة فمن يشاهد هذا في بلانه كيف لا يكون راضيا به قال ودخلنا على سويد بن متعة  
 نعوذ فرأينا ثوبا ملقى فما ظننا أن تحته شيئا حتى كشف فقالت له امرأته أهلي فداؤك ما نطعمك  
 مانسبك فقال طالت الضجة ودبرت الحرافيف وأصبحت نضوا لأطعم طامام ولا أسبيغ شرابا منذ كنا  
 فذكر أياما وما يسرنى أني نقصت من هذا قلامة ظفر . ولما قدم سعد بن أبي وقاص إلى مكة وقد  
 كان كف بصره جاءه الناس يهرعون إليه كل واحد يسأله أن يدعو له فيدعوه لهذا ولهذا وكان مجاب  
 الدعوة . قال عبد الله بن السائب فأتيته وأنا غلام فتعرفت إليه فمرقني وقال أنت قاري أهل مكة ؟  
 قلت نعم فذكر قصة قال في آخرها فقلت له يا عم أنت تدعو للناس فلو دعوت لنفسك فرد الله عليك  
 بصرك فتبسم وقال يا بني قضاء الله سبحانه عندي أحسن من بصري . وضاع لبعض الصوفية ولد صغير  
 ثلاثة أيام لم يعرف له خبر فقيل له لو سألت الله تعالى أن يرده عليك فقال اعترض عليه فيما قضى أشد  
 على من ذهب ولدى . وعن بعض العباد أنه قال إني أذنبت ذنبا عظيما فأنا أبكي عليه منذ ستين سنة  
 وكان قد اجتهد في العبادة لأجل التوبة من ذلك الذنب فقيل له وما هو ؟ قال قلت مرة لشيء كان ليته

لجعل مع العلم كالإبقاء  
 ليل مع طلوع الشمس  
 وهذا يستوعب جميع  
 أقسام التوبة بالوصف  
 الخاص والعام وهذا  
 العلم يكون علم الظاهر  
 والباطن بتطهير الظاهر  
 والباطن بأخص  
 أوصاف التوبة وأعم  
 أوصافها . وقال  
 أبو الحسن النوري  
 التوبة أن تتوب عن  
 كل شيء سوى الله  
 تعالى . قولهم في الورع  
 قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم « ملاك  
 دينكم الورع » أخبرنا  
 أبو زرعة إجازة عن  
 أبي بكر بن خلف عن  
 أبي عبد الرحمن السلمي  
 إجازة قال أنا أبو سعيد  
 الحلال قال حدثني

لم يكن . وقال بعض السلف لو قرض جسمي بالمقاريض لكان أحب إلي من أن أقول لشيء قضاء الله سبحانه ليته لم يقضه ، وقيل لعبد الواحد بن زيد ههنا رجل قد تعبد خمسين سنة تقصده فقال له يا حبيبي أخبرني عنك هل قممت به ؟ قال لا ، قال أنست به ؟ قال لا ، قال فهل رضيت عنه ؟ قال لا ، قال فأتعبد مزيدك منه الصوم والصلاة ؟ قال نعم ، قال لولا أني أستحي منك لأخبرتكم بأن معاملتكم خمسين سنة مدخولة ومنه أنكم لم يفتح لك باب القلب فتتري إلى درجات القرب بأعمال القلب وإنما أنت تعدق طبقات أصحاب اليمين لأن مزيدك منه في أعمال الجوارح التي هي مزيد أهل العموم . ودخل جماعة من الناس على الشبلي رحمه الله تعالى في مارستان قد حبس فيه وقد جمع بين يديه حجارة فقال لمن أنتم ؟ قالوا عبيدك فقبل عليهم يرميهم بالحجارة قهاريوا فقال ما بالكُم ادعيتُم محبي إن صدقتم فاصبروا على بلائي ، وللشبلي رحمه الله تعالى :

إن الهبة للرحمن أسكرني وهل رأيت محبا غير سكران

وقال بعض عباد أهل الشام كلكم يلقي الله عز وجل مصدقا وله قد كذبه وذلك أن أحدكم لو كان له أصبع من ذهب ظل يثير بها ولو كان بها شلل ظل يوارى بها يعني بذلك أن النهب مذموم عند الله والناس يتفاخرون به والبلاء زينة أهل الآخرة وهم يستكفون منه . وقيل إنه وقع الحريق في السوق فقبل لشرى احترق السوق وما احترق دكانك فقال الحمد لله ثم قال كيف قلت الحمد لله على سلامتي دون المسلمين قاتل من التجارة وترك الحانوت بقية عمره قوية واستغفرا من قوله الحمد لله ، فإذا تأملت هذه الحكايات عرفت قطعا أن الرضا بما يخالف الهوى ليس مستحيلا بل هو مقام عظيم من مقامات أهل الدين ومهما كان ذلك ممكنا في حب الخلق وحفظهم كان ممكنا في حق حب الله تعالى وحفظ الآخرة قطعا . وإمكانه من وجهين : أحدهما الرضا بالألم لما توقع من الثواب الوجود كالرضا بالقصد والحجامة وشرب الدواء انتظارا للشفاء . والثاني الرضا به لالحظ وراءه بل لكونه مراد المحبوب ورضا له قد يغلب الحب بحيث ينغمز مراد الحب في مراد المحبوب فيكون ألد الأشياء عنده سرور قلب محبوه ورضاء وتقوى إرادته ولو في هلاك روحه كما قيل • فما الجرح إذا أرضاكم ألم • وهذا ممكن مع الاحساس بالألم وقد يستولى الحب بحيث يدعش عن إدراك الألم فالقياس والتجربة والشاهدة دالة على وجوده فلا ينبغي أن ينكره من تقدمه من نفسه لأنه إنما تقدمه لقدمه سببه وهو فرط حبه ومن لم يذوق طعم الحب لم يعرف محاببه فلم يجيب محابب أعظم مما وصفناه . وقد روى عن عمرو بن الحرث الراصي قال : كنت في مجلس بالرقعة عند صديق لي وكان معنا فتى يتعشق جارية مغنية وكانت معنا في المجلس فضربت بالقضيب وغنت :

علامة ذل الهوى على عاشقين البكا

ولاسيا عاشق إذا لم يجد مشككي

فقال لها الفتى أحسنت والله يا سيدتي أفأذنين لي أن أموت فقالت مت راشدا قال فوضع رأسه على الوسادة وأطبق فيه وغمض عينيه فحركناه فإذا هو ميت . وقال الجنيد رأيت رجلا متعاقباكم صبي وهو يتضرع إليه ويظهر له الهبة فالتفت إليه الصبي وقال له إلى متى هذا التفاني الذي تظهر لي فقال قد علم الله أنني صادق فيما أوردته حتى لو قلت لي مت لمت فقال إن كنت صادقا فالتفت قال فتشجى الرجل وغمض عينيه فوجد ميتا . وقال صennon المحب كان في جبرائيل رجل وله جارية يهبها فاية الحب فاعتلت الجارية فجلس الرجل ليصلح لها حيا فبينما هو يحرك القدر إذ قالت الجارية آمه قال فدعش الرجل وسقطت للامتنان يده وجلس يحرك ما في القدر يده حتى سقطت أصابعه فقالت الجارية ما هذا ؟ قال هذا ما كان قولك آمه . وحكي عن محمد بن عبد الله البندادي قال رأيت بالبصرة ها با على سطح مرتفع وقد أشرف على الناس وهو يقول :

ابن قتيبة قال ثنا عمر بن عثمان قال حدثنا بقية عن أبي بكر بن أبي مرزوم عن حبيب بن عبيد عن أبي الدرداء رضي الله عنه • أن رسول الله صلى الله عليه وسلم توسا على نهر فلما فرغ من وضوئه أفرغ فضله في النهر وقال يلقنه الله عز وجل قوما ينفعهم . قال عمر بن الخطاب لا ينبغي لمن أخذ بالتقوى ووزن بالورع أن يذل لصاحب دنيا قال معروف السكري احتفظ لسائك من اللحم كما تحفظه من الدم . قال هن الحرث بن أسد المحاسبي أنه كان على طرف أصبعه الوسطى عرق إذا مديده إلى



من مات عشقا فليمت هكذا لاخير في عشق بلا موت

ثم رمى نفسه إلى الأرض فملوه ميتا فهذا أمثاله قد يصدق به في حب المخلوق والتصديق به في حب الخالق أولى لأن البصيرة الباطنة أصدق من البصر الظاهر وجمال الحضرة الربانية أوفى من كل جمال بل كل جمال في العالم فهو حسنة من حسنات ذلك الجمال نعم الله في قدر البصر ينكر جمال الصور والله قد السمح ينكر لذة الألحان والنعيمات فالله قد القلب لا يهوان ينكر أيضا هذه اللذات التي لا مظنة لها سوى القلب.

( بيان أن الدعاء غير مناقض للرضا )

طعام فيه شبهة ضرب عليه ذلك الرقي .  
سئل الشبل عن الورع فقال الورع أن تورع أن يتشتت قلبك عن الله طرفة عين . وقال أبو سليمان الداراني الورع أول الزهد كما أن القناعة طرف من الرضا . وقال يحيى بن معاذ الورع الوقوف على حد العلم من غير تأويل . مثل الخواص عن الورع فقال أن لا يتكلم العبد إلا بالحق غضب أو رضى وأن يكون اهتمامه بما رضى الله تعالى . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن أبي بكر بن خلف بإجازة عن السلي قال سمعت الحسن بن أحمد

ولا يخرج صاحبه عن مقام الرضا وكذلك كراهة للعاصي ومقت أهل ومقت أسبابها والسعي في إزالتها بالأمر بالمعروف والنهي عن النكر لا يناقضه أيضا وقد غلط في ذلك بعض البطالين للترين وزعم أن للعاصي والفجور والكفر من قضاء الله وقدره عز وجل فيجب الرضا به وهذا جهل بالتأويل وغفلة عن أسرار الشرع ، فأما الدعاء فقد تعبدنا به وكثرة دعوات رسول الله صلى الله عليه وسلم وسائر الأنبياء عليهم السلام على ما نقلناه في كتاب الدعوات تمل عليه ولقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم في أعلى اللقائم من الرضا وقد أنى الله تعالى على بعض عباده بقوله سيد عتار غياور هب ! أما إنكار العاصي وكراهتها وعدم الرضا بها فقد تعبد الله به عباده وذمهم على الرضا به فقال السورضو بالحياة الدنيا واطمأنوا بها . وقال تعالى - رضوا بأن يكونوا مع الخوالف وطبع على قلوبهم - وفي الخبر للشهور « من شهد منكرا فرضى به فكأنه قد قتل » وفي الحديث « الدال على الشر كفاعله » (١) « وعن ابن مسعود : إن العبد ليغيب عن النكر ويكون عليه مثل وزر صاحبه قيل وكيف ذلك ؟ قال يلغنه فيرضى به وفي الخبر « لو أن عبدا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر بالمغرب كان شريكا في قتله » (٢) « وقد أمر الله تعالى بالحدس والنافقة في الخيرات وتوفى الشرور فقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا حد إلا في اثنتين رجل آتاه الله حكمة فهو يثبها في الناس ويطلبها ورجل آتاه الله مالا فسلطه علىهلكته في الحق » (٣) « وفي لفظ آخر « ورجل آتاه الله القرآن فهو يقوم به آتاه الليل والنهار فيقول الرجل لو آتاني الله مثل ما آتى هذا لعمت مثل ما فعل » . وأما بعض الكفار والقجار والآنكار عليهم ومقتهم لما ورد فيه من شواهد القرآن والأخبار لا يحصى مثل قوله تعالى - لا يتخذ المؤمنون الكافرين أولياء من دون المؤمنين - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء - وقال تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بعضا - وفي الخبر « إن الله تعالى أخذ لليثاق على كل مؤمن أن يبخس كل منافق وعلى كل منافق أن يبخس كل مؤمن » (٤) « وقال عليه السلام « الرء مع من أحب » (٥) « وقال « من أحب قوما ووالاهم حشر معهم يوم القيامة » (٦) « وقال عليه السلام « وأوثق

(١) حديث الدال على الشر كفاعله أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بإسناد ضعيف جدا (٢) حديث لو أن رجلا قتل بالمشرك ورضى بقتله آخر في المغرب كان شريكا في قتله لم أجده أصلا بهذا اللفظ ولا بن عدي من حديث أبي هريرة من حضر مصيبة فكرها فأكأنا غاب عنها ومن غاب عنها فأحبها فأكأنا حضرها وتقدم في كتاب الأمر بالمعروف (٣) حديث لا حد إلا في اثنتين الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث ابن مسعود وقد تقدم في العلم (٤) حديث إن الله أخذ لليثاق على كل مؤمن أن يبخس كل منافق الحديث لم أجده أصلا (٥) حديث الرء مع من أحب تقدم (٦) حديث من أحب قوما ووالاهم حشر معهم الطبراني من حديث أبي قرصافة وابن عدي من حديث جابر من أحب قوما على أعمالهم حشر في زمرة من زاد ابن عدي يوم القيامة وفي طريقه إسماعيل بن يحيى التيمي ضيف .

عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله (١) وشواهد هذا قد ذكرناها في بيان الحب والبغض في الله تعالى من كتاب آداب الصلوة وفي كتاب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فلا نعيد. فان قلت فقد وردت الآيات والأخبار بالرضا بقضاء الله تعالى (٢) فان كانت المعاصي بغير قضاء الله تعالى فهو محال وهو قاذح في التوحيد وإن كانت بقضاء الله تعالى فكراهتها ومقتها كراهة أقضاء الله تعالى وكيف السبيل إلى الجمع وهو متاقض على هذا الوجه وكيف يمكن الجمع بين الرضا والكراهة في شيء واحد. فاعلم أن هذا مما يلتبس على الضعفاء القاصرين عن الوقوف على أسرار العلوم وقد التبس على قوم حق رأوا السكوت عن المنكر مقاماً من مقامات الرضا وممونه حسن الخلق وهو جهل بمحض بل قوله الرضا والكراهة يتضادان إذا تواردا على شيء واحد من جهة واحدة على وجه واحد فليس من التضاد في شيء واحد أن يكره من وجه ويرضى به من وجه إذ قد يموت عدوك الذي هو أيضاً عدو بعض أعدائك وساع في إهلاكه فكركه موته من حيث إنه مات عدو وعدوك وترضاه من حيث إنه مات عدوك وكذلك العصية لها وجهان وجه إلى الله تعالى من حيث إنه فعله واختياره وإرادته فيرضى به من هذا الوجه تسليماً للملك إلى مالك الملك ورضاً بما يفعله فيه ووجه إلى العبد من حيث إنه كسبه ووصفه وعلامة كونه بمحقونا عند الله وبغضه عنده حيث سلط عليه أسباب البعد ولما لقت فهو من هذا الوجه منكراً ومذموم ولا ينكشف هذا إلا بمثال فلنفرض محبوا من الخلق قال بين يدي محبيه إنني أريد أن أميز بين من يحبني ويغضني وأنصب فيه معياراً صادقاً وميزاناً ناطقاً وهو أني أقصد إلى فلان فأؤذيه وأضربه ضرباً يضطره ذلك إلى الشتم لي حتى إذا شتمني أبغضته وأخذته عدواً لي فكل من أحبه أعلم أيضاً أنه عدوي وكل من أبغضه أعلم أنه صديقي ومحبي ثم فعل ذلك وحصل مراده من الشتم الذي هو سبب البغض وحصل البغض الذي هو سبب العداوة خلق على كل من هو صادق في محبته وعالم بشرط المحبة أن يقول أما تدبيرك في إيذاء هذا الشخص وضربه وإبعاده وتعريضك إياه للبغض والعداوة فأنا عجب له وراض به فانه رأيك وتديريك وفعلك وإرادتك وأما شتمه إياك فانه عدوان من جهته إذ كان حقه أن يصبر ولا يشتم ولكنه كان مرادك منه فانك قصدت بضربه استنطاقه بالشتم للوجب للمقت فهو من حيث إنه حصل على وفق مرادك وتديريك الذي دبّرته فأنا راض به ولو لم يحصل لك ذلك نقصاناً في تديريك وتعويهاً في مرادك وأنا كاره لقوات مرادك ولكن من حيث إنه وصف لهذا الشخص وكسب له وعدوان وتهجم منه عليك على خلاف ما يقتضيه جلالك إذ كان ذلك يقتضي أن يحتمل منك الضرب ولا يقابل بالشتم فأنا كاره له من حيث نسبته إليه ومن حيث هو وصفه له لا من حيث هو مرادك ومقتضى تديريك وأما بغضك له بسبب شتمك فأنا راض به ومحب له لأنه مرادك وأنا على موافقتك أيضاً بمقتضى له لأن شرط الحب أن يكون الحبيب المحبوب حبيباً ولامدوه عدواً وأما بغضك له فاني أراضه من حيث إنك أردت أن يبغضك إذ أبعدته عن نفسك وسلطت عليه دواعي البغض ولكني أبغضه من حيث إنه وصف ذلك البغض وكسبه وفعله وأمته لذلك فهو محموت عندئذ لقمته إياك وبغضه ومقتك لك أيضاً عندئذ مكروه من حيث إنه وصفه وكل ذلك من حيث إنه مرادك فهو مرضي وإنما التناقض أن

ابن جعفر يقول سمعت محمد بن داود الدينوري يقول سمعت ابن الجلاء يقول أعرس من أقام بمكة ثلاثين سنة ولم يشرب من ماء زمزم إلا من ماء استقاء بركوته ورشائه ولم يتناول من طعام جالب من مصر شيئاً. وقال الخواص: الورع دليل الخوف والخوف دليل المعرفة والمعرفة دليل القربة قولهم في الزهد: قال الجنيد: الزهد خلو الأيدي من الأملاك والقلوب من التبع. وسئل الشبلي عن الزهد فقال لا زهد في الحقيقة لأنه إما أن يزهد فيها ليس له فليس ذلك زهداً وزهد فيها هو له

(١) حديث أوثق عزى الإيمان الحب في الله والبغض في الله رواه أحمد وتقدم في آداب الصلوة (٢) الأخبار الواردة في الرضا بقضاء الله الترمذي من حديث سعد بن أبي وقاص من سعادة ابن آدم رضاه بما قسم الله عز وجل الحديث وقال غريب وتقدم حديث ارض بما قسم الله لك تكن أغنى الناس وحديث إن الله بقسطه جعل الروح والفرح في الرضا وتقدم في حديث الاستخارة واقدري الخير حيث كان ثم رضى به وحديث من رضى من الله بالقليل من الرزق رضى منه بالقليل من

يقول هو من حيث إنه مرادك مرضى ومن حيث إنه مرادك مكروه وأما إذا كان مكروها لامن حيث إنه فعله ومراده بل من حيث إنه وصف غيره وكسبه فهذا لاتناقض فيه ويشهد لذلك كل ما يكره من وجه ويرضى به من وجه ونظائر ذلك لاتخصى فاذن تسليط الله دواعي الشهوة والعصية عليه حتى يجره ذلك إلى حب العصية ويجره الحب إلى فعل العصية يضاهي ضرب المحبوب للشخص الذي ضربناه مثلاليجره الضرب إلى الغضب والغضب إلى الشتم ومقت الله تعالى لمن عصاه وإن كانت معصيته بتدبيره يشبه بعض الشتم لمن شتمه وإن كان شتمه إنما حصل بتدبيره واختياره لأسبابه وفعل الله تعالى ذلك بكل عبد من عبده أعنى تسليط دواعي العصية عليه يدل على أنه سبقت مشيئته بأمره ومقتته فواجب على كل عبد محب لله أن يخض من أمضه الله ويعتق من مقته الله ويعادى من أبغده الله عن حضرته وإن اضطره بقهره وقدرته إلى معاداته ومخالفته فإنه سيده مطرود ملعون عن الحضرة وإن كان بعيدا بأمره قهرا ومطرودا بطرده واضطرا رده والبعد عن درجات القرب يبنى أن يكون مقبلا أيضا إلى جميع المحبين موافقة للمحسوب بإظهار الغضب على من أظهر المحبوب الغضب عليه بأمره وبهذا يتقرر جميع ماوردت به الأخبار من البغض في الله والحب في الله والتشديد على الكفار والتخفيف عليهم وللبالغة في مقته مع الرضا بقضاء الله تعالى من حيث إنه قضاء الله عز وجل وهذا كله يستمد من سر القدر الذي لا رخصة في إفشائه وهو أن الشر والخير كلاهما داخلان في المشيئة والإرادة ولكن الشر مراد مكروه والخير مراد مرضى به فمن قال ليس الشر من الله فهو جاهل وكذا من قاله إلهما جميعا منه من غير إقرار في الرضا والكراهة فهو أيضا مقصور وكشف الفطاء عنه غير مأذون فيه فالأولى السكوت والتأدب بأدب الشرع فقد قال صلى الله عليه وسلم «القدر سر الله فلا تنشروه»<sup>(١)</sup> وذلك يتعلق بلم الكشفة وغرضنا الآن بيان الامكان فيما تعبد به الخلق من الجمع بين الرضا بقضاء الله تعالى ومقت المعاصي مع أنها من قضاء الله تعالى وقد ظهر الفرض من غير حاجة إلى كشف السر فيه وبهذا يعرف أيضا أن الدعاء بالمنفرة والعصمة من المعاصي وسائر الأسباب الدينية على الدين غير منقضى للرضا بقضاء الله تعالى فإن الله تعبد العباد بالدعاء ليستخرج الدعاء منهم صفاء الذكر وخشوع القلب ورقة التضرع ويكون ذلك جلاء للقلب ومفتاحا للكشف وسببا لتواتر مزايا اللطف كما أن حمل الكوز وشرب الماء ليس مناقضا للرضا بقضاء الله تعالى في العطش وشرب الماء طلبا لازالة العطش مباشرة سبب رتبة مسبب الأسباب فكذلك الدعاء سبب رتبة الله تعالى وأمر به وقد ذكرنا أن الحسك بالأسباب جريا على سنة الله تعالى لا يناقض التوكل واستغنائه في كتاب التوكل فهو أيضا لا يناقض الرضا لأن الرضا مقام ملاصق للتوكل ويتصل به نعم إظهار البلاء في معرض الشكوى وإنكاره بالقلب على الله تعالى مناقض للرضا وإظهار البلاء على سبيل الشكر والكشف عن قدرة الله تعالى لا يناقض . وقد قال بعض السلف من حسن الرضا بقضاء الله تعالى أن لا يقول هذا يوم حار أى في معرض الشكاية وذلك في الصيف فأما في الشتاء فهو شكر والشكوى تناقض الرضا بكل حال وذم الأطعمة وغيرها يناقض الرضا بقضاء الله تعالى لأن مذمة الصنعة مذمة للصانع والكل من صنع الله تعالى وقول القائل الفقر بلاء وحمة والعيال هم وعب والاحتراف كد ومشقة كل ذلك قاذح في الرضا بل ينبغي أن يسلم التدبير لمديره والمملكة لما لملكها ويقول ما قاله عمر رضى الله عنه : لا تأبلى أصبحت غنيا أو فقيرا فاني لأدري أيهما خير لي .

فكيف يزهد فيه وهو  
معه وعندة فليس  
إلا ظلف النفس وبذل  
مواساة ، يشير إلى  
الأقسام التي سبقت بها  
الأفلام وهذا لواطرد  
هدم قاعدة الاجتهاد  
والكسب ولكن  
مقصود الشبلى أن يقال  
الزهد في عين اللذات  
بالزهد لا يتر به .  
قاله رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «إذا  
رأيت الرجل قد أوتي  
زهدا في الدنيا ومنطقا  
فأقربوا منه فإنه يلقي  
الحكمة» وقد سمى الله  
عز وجل الزاهدين  
علماء في قصة قارون  
قال تعالى - وقال  
الذين أوتوا العلم ويلكم  
نواب الله خير - قيل

العمل وحديث أسألك الرضا بالقضاء الحديث وغير ذلك (١) حديث القدر سر الله فلا تنشروه أبو نعيم في الحلية من حديث ابن عمر وابن عدي في الكامل من حديث عائشة وكلاهما ضعيف .

( بيان أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ومنعتها لا يقدح في الرضا )

اعلم أن الضيف قد يظن أن نهى رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الخروج من بلد يظهره الطاعون (١) يدل على النهي عن الخروج من بلد ظهرت فيه المعاصي لأن كل واحد منهما فرار من قضاء الله تعالى وذلك محال بل العلة في النهي عن مفارقة البلد بظهور الطاعون أن يلوّث فتح هذا الباب لأرسل عنه الأصحاء وبقي فيه المرضى مهملين لا تمتد لهم فيه تكون هزلا وضرا ولذلك شبه رسول الله صلى الله عليه وسلم في بعض الأخبار بالفرار من الزحف (٢) ولو كان ذلك للفرار من القضاء لما أذن لمن قارب البلدة في الانصراف وقد ذكرنا حكم ذلك في كتاب التوكل وإذا عرف المعنى ظهر أن الفرار من البلاد التي هي مظان المعاصي ليس فرارا من القضاء بل من القضاء الفرار عما لا بد من الفرار منه وكذلك مذمة الواضع التي تدعو إلى المعاصي والأسباب التي تدعو إليها لأجل التفرغ عن العسية ليست منسوبة لما زال السلف يتادون ذلك حتى اتفق جماعة على ذم بئداد وإظهارهم ذلك وطلب الفرار منها فقال ابن المبارك قد طفت الشرق والغرب فما رأيت بها شرا من بئداد قيل وكيف قال هو بلد تزدري فيه نعمة الله وتستصغر فيه مصيبة الله ولما قم خراسان قيل له كيف رأيت بئداد قال ما رأيت بها إلا شريطا غضبان أو تاجرا لهفان أو قارئا حيران ولا ينبغي أن تظن أن ذلك من الغيبة لأنه لم يتعرض لشخص بعينه حتى يستضر ذلك الشخص به وإنما قصد بذلك تحذير الناس وكان يخرج إلى مكة وقد كان مقامه ببئداد يقرب استعداد القافلة ستة عشر يوما فكان يتصدق بستة عشر دينارا لكل يوم دينار كفارة لمقامه وقد ذم العراق جماعة كعمر بن عبد العزيز وكعب الأحمري وقال ابن عمر رضي الله عنهما لمولى له أين تسكن فقال العراق قال فأتصنع به بلفني أنه ما من أحد يسكن العراق إلا قبض الله له قرينا من البلاد وذكر كعب الأحمري يوما العراق فقال فيه تسعة أعشار الشر وقبض الله البضال وقد قيل قسم الخير عشرة أجزاء فثلاثة أعشاره بالشام وعشرة بالعراق وقسم الشر عشرة أجزاء على العكس من ذلك وقال بعض أصحاب الحديث كنا يوما عند الفضيل بن عياض فجاءه سوفي متدبر بعبادة فأجلسه إلى جانبه وأقبل عليه ثم قال أين تسكن فقال ببئداد فأعرض عنه وقال يأتينا أحدهم في زى الرهبان فإذا سألناه أين تسكن قال في عسى الظلة وكان بشر بن الحرث يقول مثال التعب ببئداد مثال التعب في الحبس وكان يقول لا تفتدوا بي في المقام بهما من أراد أن يخرج فليخرج وكان أحمد بن حنبل يقول لولا تعلق هؤلاء الصبيان بنا كان الخروج من هذا البلد آثرا في يقضى قبل وأن تختار السكنى قال بالثغور . وقال بعضهم وقد سئل عن أهل بئداد زاهد وشريرم شرير فهذا يدل على أن من بلى بيلة تكسر فيها المعاصي ويقتل فيها الخير فلا عذر له في المقام بها بل ينبغي أن يهاجر قال الله تعالى - ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها - فإن منه عن ذلك عيال أو علاقة فلا ينبغي أن يكون راضيا بحاله مطمئن النفس إليه بل ينبغي أن يكون مزعج القلب منها قاتلا على الدوام - ربنا أخرجنا من هذه القرية الظالم أهلها - وذلك لأن الظلم إذا عم نزل البلاد وهجر الجميع وشمل الطمحين قال الله تعالى - واتقوا فتنة لا تصيبن الدين ظلموا منكم خاصة - فاذن ليس في شيء من أسباب هجر الدين البتة رضا مطلق إلا من حيث إضاعتها إلى فعل الله تعالى فأما هي في نفسها فلا وجه للرضا بها بحال وقد اختلف العلماء في الأفضل من أهل القامات الثلاث رجل يحب الموت شيوا إلى لقاء الله تعالى ورجل يحب البقاء لخدمة الولي ورجل قال لا أختر شيئا بل أروى

م الزاهدون . وقال سهل بن عبد الله للمقل ألف اسم ولكل اسم منه ألف اسم وأول كل اسم منه ترك الدنيا ، وقيل في قوله تعالى - وجعلناهم أئمة يهدون بأمرنا لما صبروا - قيل عن الدنيا . وفي الخبر « العلماء أمناء الرسل مالم يدخلوا في الدنيا فإذا دخلوا في الدنيا فاحذروهم على دينكم » وجاء في الأثر لا تزال لإله إلا الله تدفع عن العباد سخط الله مالم يألوا ما قص من دنياهم فإذا ضلوا ذلك وقالوا لا إله إلا الله قال الله تعالى : كذبتم لستم بها صادقين .

(١) حديث النهي عن الخروج من بلد الطاعون تقدم في آداب السفر (٢) حديث إنه شبه الخروج من بلد الطاعون بالفرار من الزحف فيه .

بما اختاره الله تعالى ورفضت هذه السألة إلى بعض المارفين فقال صاحب الرضا أفضلهم لأنه أقلمهم فضولا واجتمع ذات يوم وهيب بن الورد وسفيان الثوري ويوسف بن أسباط فقال للثوري كنت أكره موت الفجأة قبل اليوم واليوم وددت أني مت فقال له يوسف لم ؟ قال لما أخوف من الفتنة فقال يوسف لكني لا أكره طول البقاء فقال سفيان لم ؟ قال لعل أصادف يوما أتوب فيه وأعمل صالحا فليل لو هيب إيش تقول أنت ؟ فقال أنا لا أختار شيئا أحب ذلك إلى أحبه إلى الله سبحانه وتعالى قبله الثوري بين عينيه وقال روحانية ورب الكعبة .

( بيان جملة من حكايات الهبين وأقوالهم ومكاشفاتهم )

قيل لبعض المارفين إنك محب فقال لست محبا إنما محروب والمحب متمعوب وقيل له أيضا الناس يقولون إنك واحد من الصبية فقال أنا أكل السمكة وكان يقول إذا رأيت مني فقد رأيتم أربعين بدلا قيل وكيف وأنت شخص واحد قال لأنني رأيت أربعين بدلا وأخذت من كل بدل خلقا من أخلاقه وقيل له بلغنا أنك ترى الخضر عليه السلام فتبسم وقال ليس المحب بمن يرى الخضر ولكن العجب بمن يريد الخضر أن يراه فيحتجب عنه وحكي عن الخضر عليه السلام أنه قال ما حدثت نفسي يوما قط أنه لم يبق ولي لله تعالى إلا عرفته إلا ورأيت في ذلك اليوم ولما لم أعرفه وقيل لأبي يزيد البسطامي مرة حدثنا عن مشاهدتك من الله تعالى فصاح ثم قال ويلكم لا يصلح لكم أن تعلموا ذلك قيل فحدثنا بأحد مجاهدتك لنفسك في الله تعالى فقال وهذا أيضا لا يجوز أن أطلعكم عليه قيل فحدثنا عن رياضة نفسك في بدايتك فقال نعم دعوت نفسي إلى الله فحججت على فعمزت عليها أن لا أشرب الماء سنة ولا أذوق النوم سنة فوفت لي بذلك . وحكي عن يحيى بن معاذ أنه رأى أبا يزيد في بعض مشاهداته من بعد صلاة العشاء إلى طلوع الفجر مستوفزا على صدور قدميه رافعا أخصيه مع عقيه عن الأرض ضاربا بذقنه على صدره شاخصا بعينه لا يطرف قال ثم سجد عند السحر فأطاله ثم قصد فقال اللهم إن قوما طلبوك فأعطيتهم الشيء على الماء والشيء في الهواء فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم على الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك وإن قوما طلبوك فأعطيتهم كنوز الأرض فرضوا بذلك وإني أعوذ بك من ذلك حتى عد نيفا وعشرين مقاما من كرامات الأولياء ثم انفتق قرآني فقال يحيى قلت نعم ياسيدي فقال مدي أنت ههنا ؟ قلت منذ حين فسكت فقلت ياسيدي حدثني بشيء فقال أحدثك بما يصلح لك أدخلني في الملك الأسفل فدورني في لللكوت السفلى وأراني الأرضين وما تحتها إلى الثرى ثم أدخلني في الملك العلوي فطوف بي في السموات وأراني ما فيها من الجنان إلى العرش ثم أوقفني بين يديه فقال سلني أي شيء رأيت حتى أحبه لك ؟ فقلت ياسيدي ما رأيت شيئا استحسنته فأسألك إياه فقال أنت عبيدي حقا تعبدني لأجلى صدقا لأفغان بك ولأنفان فقد ذكر أشياء قال يحيى فهالني ذلك وامتلات به وعجبت منه فقلت ياسيدي لم لأسألك العرفة به وقد قال لك ملك الملوك سلني ما شئت قال فصاح بي صيحة وقال اسكت ويلك غرت عليه مني حتى لا أحب أن يعرفه سواء . وحكي أن أبا تراب النخشي كان معجبا ببعض المريدين فكان يدينه ويقوم بمصالحه والمريد مشغول بعبادته ومواجهته فقال له أبو تراب يوما لو رأيت أبا يزيد فقال إني عنه مشغول فلما أكره عليه أبو تراب من قوله لو رأيت أبا يزيد حاج وجد المريد فقال ويحك ما أصنع بأبي يزيد قد رأيت الله تعالى فأغثناني عن أبي يزيد قال أبو تراب فهاج طبعي ولم أملك نفسي فقلت ويلك تعتر بالله عز وجل لو رأيت أبا يزيد مرة واحدة كان أنفع لك من أن ترى الله سبعين مرة قال فبهت الذي من قوله وأنكره فقال وكيف ذلك قال له ويلك أما ترى الله تعالى عندك فيظهر لك على مقدارك ترى أبا يزيد

وقال سهل : أعمال البر كلها في موازين الزهاد وثواب زهدهم زيادة لهم . وقيل من سمى باسم الزهد في الدنيا فقد سمى بألف اسم محمود ومن سمى باسم الرغبة في الدنيا فقد سمى بألف اسم مذموم . وقال السري الزهد ترك حظوظ النفس من جميع ما في الدنيا ويجمع هذا الحظوظ المالية والجاهية وحسب للزلة عند الناس وحسب الحمدة والثناء وسئل الشبلي عن الزهد فقال الزهد غفلة لأن الدنيا لا شيء والزهد في لا شيء غفلة وقال بعضهم لما رأوا حجارة الدنيا زهدوا في

عند الله قد ظهر له على مقدار هـ عرف ماقلت فقال احملى اليه فذكر قصة قال في آخرها فو قضا على تل تنتظره  
ليخرج إلينا من الغيضة وكان يأوى إلى غيضة فيها سباع قال لمربنا وقد قلب فروة على ظهره قفلت  
لألقى هذا أبو يزيد فانظر إليه فانظر إليه التقي فصق فركناه فاذا هوميت فقامونا على دفته قفلت  
لأبى يزيد ياسيدى نظره إليك قله قال لا، ولكن كان صاحبكم صادقا واستكن في قلبه سر لم ينكشف  
له بوصفه فلما رأنا انكشف له سر قلبه فضاقت عن حمله لأنه في مقام الضياء للردين فقلته ذلك.  
ولما دخل الزنج البصرة قتلوا الأنفس ونهبوا الأموال اجتمع إلى سهل إخوانه فقالوا لو سألت الله تعالى  
دفعهم فسكت ثم قال إن لله عبادا في هذه البلدة لودعوا على الظالمين لم يصبح على وجه الأرض ظالم  
إلامات في ليلة واحدة ولكن لا يفعلون قيل لم؟ قال لأنهم لا يحبون ما لا يحب ثم ذكر من إجابة الله  
أشياء لا يستطيع ذكرها حتى قال ولو سألوه أن لا يقيم الساعة لم يقمها وهذه أمور ممكنة في أنفسها  
فمن لم يحظ بشيء منها فلا ينبغي أن يغلو عن التصديق والایمان بامكانها فإن القدرة واسعة والفضل  
عميم وعجائب الملك والملكوت كثيرة ومقدورات الله تعالى لا نهاية لها وفضله على عباده الذين اصطفى  
لا غاية له ولذلك كان أبو يزيد يقول إن أعطاك مناجاة موسى وروحانية عيسى وخلة إبراهيم فاطلب  
ما وراء ذلك فإن عنده فوق ذلك أضعافا مضاعفة فإن سكنت إلى ذلك حبيبك به وهذا بلا مثلم  
ومن هو في مثل حالهم لأنهم الأمل فالأمل. وقد قال بعض العارفين: كوشفت بأربعين حوراء  
رأيتن يتساعين في الهواء عليهن ثياب من ذهب وفضة وجوهر يتخشش ويتقشش معهن فنظرت  
إلین نظرة فعوقبت أربعين يوما ثم كوشفت بعد ذلك بثمانين حوراء فوقهن في الحسن والجمال،  
وقيل لى انظر إلین قال فسجدت وغمضت عيني في سجودي لئلا أنظر إلین وقلت أعوذ بك  
مما سواك لاحاجة لى بهذا فلم أزل أتضرع حتى صرفهن الله عني. فأمثال هذه المكاشفات لا ينبغي  
أن ينسكرها المؤمن لإفلاسه عن مثلها فلو لم يؤمن كل واحد إلا بما يشاهده من نفسه للظلمة وقلبه  
القاسى اضاق مجال الإيمان عليه بل هذه أحوال تظهر بعد مجاوزة عقبات ونيل مقامات كثيرة  
أدناها الإخلاص وإخراج حظوظ النفس وملاحظة الخلق عن جميع الأعمال ظاهرا وباطنا، ثم  
مكاشفة ذلك عن الخلق بستر الحال حتى يبقى متحصنا بحسن المحول فهذه أوائل سلوكهم وأقل مقاماتهم  
وهي أعز موجود في الأتقياء من الناس وبعد تصفية القلب عن كدورة الالتفات إلى الخلق فيفيض  
عليه نور اليقين وينكشف له مبادئ الحق وإنكار ذلك دون التجربة وسلوك الطريق يجرى  
يجرى إنكار من أنكر إمكان انكشاف الصورة في الحديدة إذا شكلت وتقيت وصقلت وصورت  
بصورة المرأة فظهر للنكر إلى ما في يده من زبرة حديد مظلم قد استولى عليه الصدأ والخبث وهو  
لا يحكى صورة من الصور فأنكر إمكان انكشاف الرئي فيها عند ظهور جوهرها وإنكار ذلك  
غاية الجهل والضلال فهذا حكم كل من أنكر كرامات الأولياء إذ لا مستند له إلا قصوره عن ذلك  
وقصور من رآه وبشئ المستند ذلك في إنكار قدرة الله تعالى بل إنما يتم روايح المكاشفة من  
سلك شيئا ولو من مبادئ الطريق كما قيل لبشر بأى شيء بلغت هذه للزلة قال كنت أكرم الله  
تعالى حالى معناه أسأله أن يكتم على ويغنى أمرى. وروى أنه رأى الخضر عليه السلام، فقال له  
ادع الله تعالى لى، فقال بسر الله عليك طاعته. قلت: زدنى قال وسترها عليك، فقيل معناه  
سترها عن الخلق، وقيل معناه سترها عنك حتى لا تلتفت أنت إليها. وعن بعضهم أنه قال ألقنى  
الشوق إلى الخضر عليه السلام فسألت الله تعالى مرة أن يرينى إياه ليعلمنى شيئا كان أهم الأشياء  
على. قال فرأيتة فما غلب على همى ولا همى إلا أن قلت له يا أبا العباس علمنى شيئا إذا قاته حجت عن  
قلوب الخليفة فلم يكن لى فيها قدر ولا يعرفنى أحد بصلاح ولا ديانة، فقال قل: اللهم أسبل على كيف

زهدم في الدنيا  
لهوانها عندهم وعندى  
أن الزهد في الزهد  
غير هذا وإنما الزهد  
في الزهد بالخروج من  
الاختيار في الزهد لأن  
الزاهد اختار الزهد  
وأراد به إرادته تستند  
إلى علمه وعلمه قاصر  
فاذا أقيم في مقام ترك  
الارادة وانسلخ من  
اختياره. كاشفه الله  
تعالى بمراده فيترك  
الدنيا بمراد الحق لا بمراد  
نفسه فيكون زهده  
بالله تعالى حينئذ أو  
يعلم أن مراد الله منه  
التلبس بشيء من  
الدنيا فما يدخل بالله  
في شيء من الدنيا  
لا يقص عليه زهده  
فيكون دخوله في

مترك وحط على سرادقات حبيبك واجعلني في مكنون غيبك واحجبني عن قلوب خلائك قال ثم غاب فلم أراه ولم أشتق إليه بعد ذلك فمازلت أقول هذه الكلمات في كل يوم فخشي أنه صار بحيث كان يستدل ويعتمد حتى كان أهل الدمة يسخرون به ويستسخرونه في الطرق يحمل الأشياء لهم لسقوطه عندهم وكان الصبيان يلعبون به فكانت راحته ركود قلبه واستقامة حاله في ذلّه وخوله فكذا حال أولياء الله تعالى في أمثال هؤلاء ينبغي أن يطلبوا والمغرورون إنما يطلبونهم تحت الرقعات والطيافة وفي المشهورين بين الخلق بالعلم والورع والرياسة وغيره الله تعالى على أوليائه تأني بالإخفاء كما قال تعالى: «أولياي تحت قباني لا يعرفهم غيري»، وقال صلى الله عليه وسلم «رب أشعث أغبر ذي طمرين لا يؤبه له لو أقسم على الله لأبره» (١) وبالجملة فأبعد القلوب عن مشام هذه العالمة القلوب الشكيرة المعجبة بأنفسها المستبشرة بميلها وعلوها وأقرب القلوب إليها القلوب المنكسرة المستعرة ذلّ نفسها استتمارا إذا ذلّ واحتضم لم يحس بالذل كما لا يحس العبد بالذل مهما ترفع عليه مولاة فإذا لم يحس بالذل ولم يشعر أيضا بعدم التفاته إلى الذل بل كان عند نفسه أحسن منزلة من أن يرى جميع أنواع الذل ذلا في حقه بل يرى نفسه دون ذلك حتى صار التواضع الطبع صفة ذات لمثل هذا القلب يرجى له أن يستشقي مبادئ هذه الروائح فإن قدنا مثل هذا القلب وحرمانا مثل هذا الروح فلا ينبغي أن يطرح الإيمان بما كان ذلك لأهله فمن لا يقدر أن يكون من أولياء الله فليكن محبا لأولياء الله مؤنابهم فحسب أن يحضر مع من أحب ويشهد لهذا ما روى أن عيسى عليه السلام قال لبي إسرائيل أين ينبت الزرع قالوا في التراب فقال بحق أقول لكم لا تنبت الحنكة إلا في قاب مثل التراب ولقد انتهى الريدون لولاية الله تعالى في طلب شروطها باذلال النفس إلى منتهى الضعة والحقبة حتى روى أن ابن الكريبي وهو أستاذ الجند دعاه رجل إلى طعام ثلاث مرات ثم كان يردّه ثم يستدعيه فيرجع إليه بعد ذلك حتى أدخله في المرة الرابعة فسأله عن ذلك فقال قد رضت نفسي على الذل عشرين سنة حتى صارت بمنزلة الكلب يطرد فينظر ثم يدعى فيرمى له عظم فيعود ولورد دنتي خمسين مرة ثم دعوتني بعد ذلك لأجبت وعنه أيضا أنه قال نزلت في محلة ففرت فيها بالصالح فتشقت على قلمي فدخلت الحمام وعدلت إلى ثياب فاخرة فسرقتها ولبستها ثم لبست مرقعتي فوقها وخرجت وجملت أمشي قليلا قليلا فلحقوني فترعوا مرقعتي وأخذوا الثياب وصفعوني وأوجعوني ضربا فصررت بعد ذلك أعرف بلص الحمام فسكنت نفسي فهكذا كانوا يروّضون أنفسهم حتى يغاصهم الله من النظر إلى الخلق ثم من النظر إلى النفس فان التلصص إلى نفسه محجوب عن الله تعالى وشغله بنفسه حجاب له فليس بين القلب وبين الله حجاب بهر وتحال حائل وإنما بعد القلوب شغلها بغيره أو بنفسها وأعظم الحجب شغل النفس، ولذلك حكى أن شاهدا عظيم القدر من أعيان أهل بسطام كان لا يغازق مجلس أبي يزيد، فقال له يوما أنا منذ ثلاثين سنة أسوم الدهر لا أفطر وأقوم الليل لأنام ولا أجد في قلبي من هذا العلم الذي تذكر شيئا وأنا أصدق به وأحبه، فقال أبو يزيد ولو صمت ثلثمائة سنة وقت ليلى ما وجدت من هذا ذرة. قال ولم؟ قال لأنك محجوب بنفسك قال فلهذا دواء؟ قال نعم قال قل لي حتى أعمله قال لا تقبله، قال فاذكره لي حتى أعمل قال اذهب الساعة إلى الزين فاحلق رأسك ولحيّتك واتزع هذا اللباس واتزر بعباءة وعلق في عنقك مخلاة مملوءة جوزا واجمع الصبيان حولك وقل كل من صفني صفعة أعطيته جوزة وادخل السوق وطف الأرواق كلها عند الشهود وعند من يرفك وأنت على ذلك فقال الرجل سبحان الله تقول لي مثل هذا فقال أبو يزيد قولك سبحان الله شرك قال وكيف؟ قال لأنك عظمت نفسك فسبحتها

(١) حديث رب أشعث أغبر ذي طمرين مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم.

التي من الدنيا بالله  
وباذن منه زهدا  
في الزهد والزاهد  
في الزهد استوى عنده  
وجود الدنيا وعدمها  
إن تركها تركها بالله  
وإن أخذها أخذها  
بالله وهذا هو الزهد في  
الزهد وقد رأينا من  
المارفين من أقيم في  
هذا المقام. وفوق هذا  
مقام آخر في الزهد وهو  
لمن يرد الحق إليه  
اختياره لسمة عليه  
وطهارة نفسه في مقام  
البقاء في زهد زهدا  
ثالثا ويترك الدنيا بعد  
أن مكن من ناصيتها  
وأعبدت عليه  
موهوبة ويكون تركه  
الدنيا في هذا المقام  
باختياره واختياره

وما سبعت ربك فقال هذا لأفعله ولكن دلتني على غيره فقال ابتدى بهذا قبل كل شيء فقال لأطبقه قال قد قات لك إنك لا تقبل فهذا الذي ذكره أبو يزيد هو دواء من اعتل نظره إلى نفسه ومرض بنظر الناس إليه ولا ينجي من هذا المرض دواء سوى هذا وأمثاله فمن لا يطبق الدواء فلا ينفي أن ينكر إمكان الشفاء في حق من دأوى نفسه بعد المرض أو لم يمرض بمثل هذا المرض أصلاً فأقل درجات الصحة الإيمان بامكانها فويل لمن حرم هذا القدر القليل أيضاً وهذه أمور جليلة في السرع واضحة وهي مع ذلك مستعمدة عند من يعد نفسه من علماء الشرع فقد قال عليه السلام «لا يستكمل العبد الإيمان حتى تكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب من أن يعرف» (١) وقد قال عليه السلام «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرأى بشيء من عمله وإذا عرض عليه أمران أحدهما للدنيا والآخر للآخرة آثر أمر الآخرة على الدنيا» (٢) وقال عليه السلام «لا يكمل إيمان عبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق وإذا رضى لم يدخله رضاه في باطل وإذا قدر لم يتناول ما ليس له» (٣) وفي حديث آخر «ثلاث من أوتيهن فقد أوتي مثل ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب والقصد في الفنى والفقر وخشية الله في السر والعلانية» (٤) فهذه شروط ذكرها رسول الله ﷺ لأولى الإيمان فالعجب ممن يدعى علم الدين ولا يصادف في نفسه ذرة من هذه الشروط ثم يكون نصيبه من علمه وعقله أن يمجده ما لا يكون إلا بعد مجاوزة مقامات عظيمة عالية وراء الإيمان ، وفي الأخبار أن الله تعالى أوحى إلى بعض أنبيائه إيماناً أخذ لحاقاً من لا يفتقر عن ذكرى ولا يكون له هم غبرى ولا يؤثر على شيئاً من خلقه وإن حرق بالنار لم يجد لحرق النار وجهاً وإن قطع بالمشاير لم يجد لمس الحديد ألماً ، فمن لم يبلغ إلى أن يغلبه الحب إلى هذا الحد فمن أين يعرف ما وراء الحب من الكرامات والمكاشفات وكل ذلك وراء الحب والحب وراء كمال الإيمان ومقامات الإيمان وتفاوتته في الزيادة والنقصان لا حصر له ولذلك قال عليه السلام للصديق رضى الله عنه «إن الله تعالى قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى وأعطاني مثل إيمان كل من آمن به من ولد آدم» (٥) وفي حديث آخر «إن الله تعالى ثلثائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة فقال أبو بكر يا رسول الله هل في منها خلق فقال كلها فيك يا أبا بكر وأحبها إلى الله السخاء» (٦) وقال عليه السلام

من اختيار الحق قد  
يختار تركها حيناً تأسياً  
بالأنبياء والصالحين  
ويرى أن أخذها في  
مقام الزهد رفق أدخل  
عليه لموضع ضعفه عن  
درك شأواً الأقوياء من  
الأنبياء والصديقين  
فيترك الرفق من الحق  
بالحق للحق وقد يتناوله  
باختياره رفقا بنفسه  
بتدبير يسوسه فيه  
صرح العلم وهما  
مقام التصرف لأقوياء  
العارفين زهدوا ثالثاً  
بالله كما رغبوا ثانياً بالله  
كما زهدوا أولاً بالله .  
[ قولهم في الصبر ]  
قال سهل: الصبر انتظار  
الفرج من الله وهو  
أفضل الخدمة وأعلاها  
وقال بعضهم: الصبر

(١) حديث لا يستكمل عبد الإيمان حتى يكون قلة الشيء أحب إليه من كثرتة وحتى يكون أن لا يعرف أحب إليه من أن يعرف ذكره صاحب الفردوس من حديث علي بن أبي طلحة وعلى هذا فهو مضلل فعلى ابن أبي طلحة إنما سمع من التابعين ولم أجده أصلاً (٢) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وفيه سالم الرازدى ضعفه ابن معين والنسائي ووثقه ابن حبان واسم أبيه الواحد (٣) حديث لا يكمل إيمان العبد حتى يكون فيه ثلاث خصال إذا غضب لم يخرج غضبه عن الحق الحديث الطبراني في الصغير بلفظ ثلاث من أخلاق الإيمان وإسناده ضعيف (٤) حديث ثلاث من أوتيهن فقد أوتي ما أوتي آل داود العدل في الرضا والغضب غريب بهذا اللفظ والمعروف ثلاث منجيات قد ذكرهن بنحوه وقد تقدم (٥) حديث إنه قال للصديق إن الله قد أعطاك مثل إيمان كل من آمن بى من أمتى الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من رواية الحارث الأعور عن علي مع تهديم وتأخير والحارث ضعيف (٦) حديث إن الله تعالى ثلثائة خلق من لقيه بخلق منها مع التوحيد دخل الجنة الحديث الطبراني في الأوسط من حديث أنس مرفوعاً عن الله خلقت بضعة عشر وثلثائة خلق من جاء بخلق منها مع شهادة أن لا إله إلا الله دخل الجنة ومن حديث ابن عباس الإسلام ثلثائة شريعة وثلاث عشرة شريعة



« رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجعت بهم ووضع أبو بكر في كفة وجيء بأمقي فوضعت في كفة فرجع بهم (١) » ومع هذا كله فقد كان استغراق رسول الله صلى الله عليه وسلم بالله تعالى بحيث لم يتسع قلبه للخلة مع غيره فقال « لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لأخذت أبا بكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الله تعالى (٢) » يعني نفسه .

( خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالهبة ينتفع بها )

قال سفيان : الهبة اتباع رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال غيره : دوام الله كروا له غيره : إظهار المحبوب وقال بعضهم كراهية البقاء في الدنيا وهذا كله إشارة إلى ثمرات الهبة فأما نفس الهبة فلم يتعرضوا لها ، وقال بعضهم الهبة معنى من المحبوب قاهر للقلوب عن إدراكه وتمتع الأئمن عن عبارته ، وقال الجنيد حرم الله تعالى الهبة على صاحب العلاقة وقال كل حبة تكون بعوض فاذا زال العوض زالت الهبة وقال ذو النون قل لمن أظهر حب الله احذر أن تذلل لغير الله وقيل للشبلي رحمه الله صف لنا العارف والمحب فقال العارف إن تكلم هلك والمحب إن سكنت هلك وقال الشبلي رحمه الله :

يا أيها السيد العكريم      حبك بين الحشا مقيم  
يارافع النوم عن جفوني      أنت بما مر بي عليم  
هيجت لمن يقول ذكرت إلي      وهل أنسى فأذكر ما نسيت  
أموت إذا ذكرتك ثم أحيا      ولولا حسن ظني ما حييت  
فأحيا بالمني وأموت شوقاً      فكم أحيا عليك وكم أموت  
شربت الحب كلما بعد كأس      فما نقد الشراب وما رويت  
قلبت خياله نصب ليعني      فان قصرت في نظري عمت

وقالت رابعة العدوية يوماً من يدلنا على حبيبنا فقالت خادمة لها حبيبنا معنا ولكن الدنيا قطعنا عنه وقال ابن الجلاء رحمه الله تعالى أوحى الله إلى عيسى عليه السلام إنى إذا اطلمت على سر عبد فلم أجده فيه حب الدنيا والآخرة ملائمة من حبي وتوليته بحفظي وقيل تكلم سمعون يوماً في الهبة فاذا بطائر نزل بين يديه فلم يزل ينقر بمنقاره الأرض حتى سال الدم منه فمات وقال إبراهيم بن آدم إلهي إنك تعلم أن الجنة لا تزن عندي جناح بعوضة في جنب ما أكرمتني من محبتك وأستقي بذكرك وفرغتي للتفكير في عظمتك . وقال السري رحمه الله من أحب الله عاش ومن مال إلى الدنيا طاش والأحق يذو وروح في لاش والعافل عن عبوبه فناش وقيل لرابعة كيف حبك للرسول صلى الله عليه وسلم فقالت والله إنى لأحبه حباً شديداً ولكن حب الخالق شغلني عن حب المخلوقين وسئل عيسى عليه السلام عن أفضل الأعمال فقال الرضا عن الله تعالى والحب له وقال أبو يزيد المحب لا يحب الدنيا ولا الآخرة إنما يحب من مولاه مولاه وقال الشبلي المحب دهش في لذة وحيرة في تعظيم وتبيل المحبة أن عجم أترك عنك حتى لا يبقى فيك شيء راجع منك إليك وقيل الهبة قرب القلب من المحبوب بالاستبشار والفرح وقال الخواص الهبة محو الارادات واحتراق جميع الصفات والحاجات وسئل سهل عن الهبة فقال

وفيه وفي الكبير من رواية المغيرة بن عبد الرحمن بن عبيد عن أبيه عن جده نحوه بلفظ الإيمان وللبزار من حديث عثمان بن عفان إن لله تعالى مائة وسبع عشرة شريعة الحديث وليس فيها كلها تعرض لسؤال أبي بكر وجوابه وكلها ضميعة (١) حديث رأيت ميزانا دلي من السماء فوضعت في كفة ووضعت أمقي في كفة فرجعت بهم الحديث أحمد من حديث أبي أمامة بسند ضعيف (٢) حديث لو كنت متخذاً من الناس خليلاً لأخذت أبا بكر خليلاً الحديث متفق عليه وقد تقدم.

أن تصبر في الصبر  
أى لا تطالع فيه  
الفرج . قال الله تعالى  
والصابرين في البأساء  
والضراء وحين البأس  
أولئك الذين صدقوا  
وأولئك هم التقون .  
وقيل : لكل شيء  
جوهر وجوهر الإنسان  
العقل وجوهر العقل  
الصبر فالصبر عرك  
النفس وبالعرك تلين  
والصبر جاز في الصابر  
يجرى الأنفاس لأنه  
يحتاج إلى الصبر عن  
كل مسمى ومكروه  
ومذموم وظاهر أو باطنا  
والعلم يدل والصبر  
يقبل ولا تتفع دالة العلم  
بغير قبول الصبر ومن  
كان العلم سائس في  
الظاهر والباطن لا يتم

عطف الله بقلب عبده لمشاهدته بعد الفهم للمراد منه وقيل معاملة الهب على أربع منازل على المحبة والمحبة والحياة والتعظيم وأفضلها التعظيم والمحبة لأن هاتين المنزلتين يتقايان مع أهل الجنة في الجنة ويرفع عنهم غيرهما وقال هرم بن حبان المؤمن إذا عرف ربه عز وجل أحبه وإذا أحبه أقبل عليه وإذا وجد حلاوة الإقبال عليه لم ينظر إلى الدنيا بين الشهوة ولم ينظر إلى الآخرة بين الفترة وهي تحصر في الدنيا وتروحه في الآخرة . وقال عبد الله بن محمد سمعت امرأة من التبعذات تقول وهي باكية والدسوع على خدها جارية والله لقد سئمت من الحياة حتى لو وجدت الموت يباع لأشتريته شوقا إلى الله تعالى وحبا لفقائه قال فقلت لها فلي ثقة أنت من عملك قالت لا ولكن لحبي إياه وحسن ظني به أقترأ بضربتي وأنا أحبه وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام لو يعلم الديرون عنى كيف استظاري لهم ورفقي بهم وشوقى إلى ترك معاصيهم لما توا شوقا إلى وتقطعت أوصالهم من محبتي يا داود هذه إرادتي في الدارين عنى فكيف إرادتي في القبلين على يا داود أخرج ما يكون العبد إلى إذا استغنى عنى وأرحم ما أكون ببدي إذا أدبر عنى وأجل ما يكون عندي إذا رجع إلى وقال أبو خالد الصغار لقي نبي من الأنبياء عابدا فقال له إنكم معاشر العباد تعملون على أمر لسنا معشر الأنبياء نعمل عليه أتم تعملون على الحروف والرجاء ونحن نعمل على المحبة والشوق . وقال الشبلي رحمه الله أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام يا داود ذكركم ولذا كرمي وجنتي للمطيعين وزيارتى للمشتاقين وأنا خاصة للمحبين وأوحى الله تعالى إلى آدم عليه السلام يا آدم من أحب حبيبا صدق قوله ومن أنس بحبيبه رضى فله ومن اشتاق إليه جد في مسيره وكان الخواص رحمه الله يضرب على صدره ويقول واشوقه لمن يرانى ولا أراه . وقال الجنيد رحمه الله بكى بونس عليه السلام حتى عمى وقام حتى انحنى وصلى حتى أقعد وقال وعزتك وجلالك لو كان بيني وبينك بحر من نار لحضنته إليك شوقا مني إليك وعن علي بن أبي طالب كرم الله وجهه قال سألت رسول الله ﷺ عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني والمحبة أساسى والشوق مركبى وذكر الله أنيسى والثقة كنزى والحزن رفيقى والعلم سلاحى والصبر رداى والرضا غنيجى والعجز غفري والزهد حرفتى واليقين قوتى والصدق شفعى والطاعة حبي والجهاد خلقى وقرة عيني فى الصلاة (١) وقال ذوالنون سبحان من جعل الأرواح جنودا مجندة فأرواح العارفين جلالية قدسية فلذلك اشتاقوا إلى الله تعالى وأرواح المؤمنين روحانية فلذلك حنوا إلى الجنة وأرواح الفالسين هوائية فلذلك مالوا إلى الدنيا . وقال بعض الشاخر أريت فى جبل الكمام رجلا أعمى اللون ضعيف البدن وهو يقفز من جبر إلى جبر ويقول :

الشوق والهوى صيراني كما ترى

ويقال الشوق نار الله أشعلها فى قلوب أوليائه حتى يحرق بها ما فى قلوبهم من الخواطر والارادات والعيوارض والحاجات فهذا القدر كاف فى شرح المحبة والأنس والشوق والرضا فلنقتصر عليه والله الوفاق للصواب تم كتاب المحبة والشوق والرضا والأنس يتلوه كتاب النية والاخلاص والصدق .

### ﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

( وهو الكتاب السابع من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

نحمد الله حمد الشاكرين وتوهم به إيمان الموقنين ونقر بوحدانيته إقرار الصادقين ونشهد أن لا إله

(١) حديث على سأل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن سنته فقال المعرفة رأس مالى والعقل أصل ديني الحديث ذكره القاضى عياض من حديث على بن أبى طالب ولم أجد له إسنادا .

﴿ كتاب النية والاخلاص والصدق ﴾

ذلك له إلا إذا كان الصبر مستقره ومسكنه والعلم والصبر متلازمان كالروح والجسد لا يستقل أحدهما بدون الآخر ومصدرهما الثريزة العقلية وهما متقاربان لاتحاد مصدرهما وبالصبر يتعامل على النفس وبالعلم يترقى الروح وهما البرزخ والفرقان بين الروح والنفس ليستقر كل واحد منهما فى مستقره وفى ذلك صريح العدل وصحة الاعتدال وباتصال أحدهما عن الآخر أعنى العلم والصبر ميل أحدهما على الآخر أعنى النفس والروح ويان ذلك بدق وناهيك بشرف

إلا الله رب العالمين وخالق السموات والأرضين ومكلف الجن والأنس والملائكة القريبين أن يعبدوه عبادة المخلصين فقال تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - فإله إلا الدين الخالص للدين . فإنه أغنى الأغنياء عن شركة الشراكين والصلاة على نبيه محمد سيد المرسلين وعلى جميع النبيين وعلى آله وأصحابه الطيبين الطاهرين .

[ أما بعد ] قد انكشف لأرباب القلوب بصيرة الإيمان وأنوار القرآن أن لا وصول إلى السعادة إلا بالعمل والعبادة فالناس كلهم هلكت إلا العالمون والعاملون كلهم هلكت إلا العاملون والعاملون كلهم هلكت إلا المتخصصون والمتخصصون على خطر عظيم فالعمل بغير نية عناء والنية بغير إخلاص رياء وهو لا يوافق كفاء ومع المصيان سواء والإخلاص من غير صدق وتحقيق هباء وقد قال الله تعالى في كل عمل كان بإرادة غير الله مشوباً بمغموراً - وقد منّا إلى ما عملوا من عمل فجعلناه هباء منثوراً - ولست شعري كيف يصح نيته من لا يعرف حقيقة النية أو كيف يخلص من صحح النية إذا لم يعرف حقيقة الإخلاص أو كيف تطالب الخالص نفسه بالصدق إذا لم يتحقق معناه فالوظيفة الأولى على كل عبد أراد طاعة الله تعالى أن يتعلم النية أولاً لتحصل المعرفة ثم يصححها بالعمل بصدقهم حقيقة الصدق والإخلاص اللذين هما وسيلتا العبد إلى النجاة والإخلاص ونحن نذكر معاني الصدق والإخلاص في ثلاثة أبواب : الباب الأول في حقيقة النية ومعناها . الباب الثاني : في الإخلاص وحقيقته . الباب الثالث : في الصدق وحقيقته . [ الباب الأول في النية ] وفيه بيان فضيلة النية وبيان حقيقة النية وبيان كون النية خيراً من العمل وبيان تفضيل الأعمال المتعلقة بالنفس وبيان خروج النية عن الاختيار .

### ( بيان فضيلة النية )

قال الله تعالى - ولا تطرد الذين يدعون ربهم بالقعدة والعشى يريدون وجهه - والراد تلك الإرادة هي النية وقال ﷺ « إنما الأعمال بالنيات ولكل امرئ ما نوى فمن كانت هجرته إلى الله ورسوله فهجرته إلى الله ورسوله ومن كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه (١) » وقال صلى الله عليه وسلم « أكثر شهداء أمتي أصحاب القروش ورب قتيل بين الصنفين الله أعلم بنيته (٢) » وقال تعالى - إن يريدوا إصلاحاً يوفق الله بينهما - فجعل النية سبب التوفيق وقال صلى الله عليه وسلم « إن الله تعالى لا ينظر إلى صوركم وأموالكم وإنما ينظر إلى قلوبكم وأعمالكم (٣) » وإيمانناظر إلى القلوب لأنها مظنة النية وقال صلى الله عليه وسلم « إن العبد يعمل أعمالاً حسنة فتصعد للملائكة في صحن مائة خضرة فتنزل في يدي الله تعالى فيقول ألقوا هذه الصحيفة فإنه لم يرد بها فيها وجهي ثم ينادي الملائكة اكتبوا له كذا وكذا اكتبوا له كذا وكذا فيقولون ياربنا إنه لم يعمل شيئاً من ذلك فيقول الله تعالى إنه نواه (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « الناس أربعة رجل آتاه الله عز وجل علماً ومالاً فهو يعمل بطله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله تعالى مثل ما آتاه لمثل ما عملت كما يعمل فيها في الأجر سواء ورجل آتاه الله تعالى مالا ولم يؤته علماً فهو يتخطب بجهله في ماله فيقول رجل لو آتاني الله مثل ما آتاه عملت كما يعمل فيها في الوزر سواء (٥) » ألا ترى كيف شركة بالنية في محاسن عمله

(١) حديث إنما الأعمال بالنيات الحديث متفق عليه من حديث عمر وقد تقدم (٢) حديث أكثر شهداء أمتي أصحاب القروش ورب قتيل بين الصنفين الله أعلم بنيته أحمد من حديث ابن مسعود وفيه عبد الله بن لهيعة (٣) حديث إن الله لا ينظر إلى صوركم وأموالكم الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٤) حديث إن العبد يعمل أعمالاً حسنة فتصعد بها الملائكة الحديث الدار قطن من حديث أنس بإسناد حسن (٥) حديث الناس أربعة رجل آتاه الله علماً ومالاً الحديث ابن ماجه

الصبر قوله تعالى - إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب - كل أجر أجره بحساب وأجر الصابرين بغير حساب . وقال الله تعالى لنيه : - واصبر وما صبرك إلا بالله - أضاف الصبر إلى نفسه لشرف مكانه وتكمل النعمة به . قيل وقف رجل على الشبل فقال أي صبر أشد على الصابرين فقال الصبر في الله فقال لا ، فقال الصبر لله فقال لا ، فقال الصبر مع الله فقال لا ، فغضب الشبل وقال ويحك أي شيء هو فقال الرجل الصبر عن الله قال فصرخ الشبل صرخة كاد أن تلتف روحه . وعندى

ومساويه وكذلك في حديث أنس بن مالك لما خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم في غزوة تبوك ذل «إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا ولا وطننا موطنًا يخيظ الكفار ولا أنفقنا نفقة ولا أصابتنا محصة إلا شركونا في ذلك وهم بالمدينة قالوا وكيف ذلك؟ رسول الله وليسوا معنا قال حبسهم المذخر كواجر حسن النية (١)» وفي حديث ابن مسعود «من هاجر بيتي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منافس كان يسمى مهاجر أم قيس (٢)» وكذلك جاء في الخبر «إن رجلا قتل في سبيل الله وكان يدعى قتيل الحمار (٣)» لأنه قاتل رجلا ليأخذ سلبه وحماره فقتل على ذلك فأضيف إلى نيته وفي حديث عبادة عن النبي صلى الله عليه وسلم «من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى (٤)» وقال أبي «استعنت رجلا بغزو معي فقال لاحق تجمل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي صلى الله عليه وسلم فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له (٥)» وروى في الاسرائيليات أن رجلا مركبًا من رمل في جماعة فقال في نفسه لو كان هذا الرمل طعاماً لقسمته بين الناس فأوحى الله تعالى إلى نبيه أن قله إن الله تعالى قد قبل صدقتك وقد شكر حسن نيتك. وأعطاك ثواب ما لو كان طعاماً قصدت به، وقد ورد في أخبار كثيرة «من هم بعسنة ولم يعملها كتبت له حسنة (٦)» وفي حديث عبد الله بن عمرو «من كانت الدنيا نيته جعل الله قفراً بين عينيه وفارقها أرغب ما يكون فيها ومن تكن الآخرة نيته جعل الله تعالى غناه في قلبه وجمع عليه ضيقه وفارقها أزهى ما يكون فيها (٧)» وفي حديث أم سلمة «أن النبي صلى الله عليه وسلم ذكر جيشاً يغسف بهم البيداء فقلت يا رسول الله يكون فيهم السكر والأجير فقال يحشرون على نياتهم (٨)» وقال عمر رضي الله عنه سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إنما يقتل المقتلون على النيات (٩)» وقال عليه السلام «إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحقائق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا فلان يقاتل حمية فلان يقاتل عصبية ألا فلا تقولوا فلان قتل في سبيل الله فمن قاتل لتكون كلمة الله

في معنى الصبر عن الله وجهه ولكونه من أشد الصبر على الصابرين وجهه وذلك أن الصبر عن الله يكون في أخص مقامات المشاهدة يرجع العبد عن الله استحياء وإجلالا وتنطق بصبرته خجلا وذوبانا ويتغيب في مفارز استكاثته وتخفيه لإحساسه بعظم أمره المتجلى وهذا من أشد الصبر لأنه يوداستدامة هذا الحال تأدية لحق الجلال والروح تود أن تتكحل بصبرتها باستلحاق نور الجلال وكما أن النفس منازعة لعموم حال الصبر فالروح في هذا الصبر منازعة فاشتد الصبر

من حديث أبي كشة الأنعماري بسند جيد بلفظ مثل هذه الأمة كمثل أربعة نفر الحديث وقد تقدم ورواه الترمذي بزيادة وفيه وإنما الدنيا لأربعة نفر الحديث وقال حسن صحيح (١) حديث أنس إن بالمدينة أقواما ما قطعنا واديا الحديث البخاري مختصرا وأبو داود (٢) حديث ابن مسعود من هاجر بيتي شيئا فهو له هاجر رجل فتزوج امرأة منافس كان يسمى مهاجر أم قيس الطبراني بإسناد جيد (٣) حديث إن رجلا قتل في سبيل الله فكان يدعى قتيل الحمار أجده لأصلا في الموصولات وأعمارواه أبو اسحق الفراء في السنن من وجه مرسل (٤) حديث من غزا وهو لا ينوي إلا عقلا فله ما نوى النسي في حديث عبادة ابن الصامت وتقدم غير مرة (٥) حديث أبي استعنت رجلا بغزو معي فقال لاحق تجمل لي جملا فجعلت له فذكرت ذلك للنبي ﷺ فقال ليس له من دنياه وآخرته إلا ما جعلت له الطبراني في مسند الشاميين ولأبي داود من حديث يعلى بن أمية أنه استأجر أجيرا للفرز وسمى له ثلاثة دنائير فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما أجده في غزوته هذه في الدنيا والآخرة إلا دنائيره التي سمى (٦) حديث من هم بعسنة فلم يعملها كتبت له حسنة متفق عليه وقد تقدم (٧) حديث عبد الله بن عمرو من كانت الدنيا نيته جعل الله قفراً بين عينيه الحديث ابن ماجه من حديث زيد بن ثابت بإسناد جيد قوله وفارقها أرغب ما يكون فيها ودون قوله وفارقها أزهى ما يكون فيها وفيه زيادة ولم أجده من حديث عبد الله بن عمرو (٨) حديث أم سلمة في الجيش الذي يغسف بهم يحشرون على نياتهم مسلم وأبو داود وقد تقدم (٩) حديث إنما يقتل المقتلون على النيات ابن أبي الدنيا في كتاب الإخلاص والنية من حديث عمر بإسناد ضعيف بلفظ إنما بيعت ورويناه في فوائد تمام بلفظ إنما بيعت المسلمون على النيات ولا ابن ماجه من حديث أبي هريرة إنما بيعت الناس على نياتهم وفيه لبث بن أبي سليم مختلف فيه .

هي العليا فهو في سبيل الله (١) وعن جابر عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « يبعث كل عبد على ما مات عليه (٢) » وفي حديث الأحنف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار قيل يا رسول الله هذا القاتل فما بال المقتول ؟ قال لأنه أراد قتل صاحبه (٣) » وفي حديث أبي هريرة « من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان ومن أدان ديناً وهو لا ينوي قضاءه فهو سارق (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنثن من الجيفة (٥) » . وأما الآثار : فقد قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه : أفضل الأعمال أداء ما اقترض الله تعالى والورع عما حرم الله تعالى وصدق النية فيما عند الله تعالى ، وكتب سالم بن عبد الله إلى عمر بن عبد العزيز أعلم أن عون الله تعالى للعبد على قدر النية فمن تمت نيته تم عون الله له وإن نقصت نقص بقدره . وقال بعض السلف : رب عمل صغير تعظمه النية ورب عمل كبير تصغره النية . وقال داود الطائي البر همته التقوى فلو تعلقت جميع جوارحه بالدنيا لردته نيته يوماً إلى نية صالحة وكذلك الجاهل بعكس ذلك . وقال الثوري : كانوا يعلمون النية للعمل كما تعلمون العمل . وقال بعض العلماء : اطلب النية للعمل قبل العمل وما دمت تنوي الخير فأنت بخير ، وكان بعض المريدين يطوف على العلماء يقول من يداني على عمل لا أزال فيه عاملاً لله تعالى فاني لأحب أن يأتي على ساعة من ليل أو نهار إلا وأنا عامل من عمال الله فليل له قد وجدت حاجتك فاعمل الخير ما استطعت فاذا قرت أو تركته فهم بعمله فإن الهام بعمل الخير كماله ، وكذلك قال بعض السلف : إن نعمة الله عليكم أكثر من أن تحصوها وإن ذنوبكم أخفى من أن تعدوها ولكن أصبحوا توابين وأمسوا توابين يغفر الله لهم ما بين ذلك . وقال عيسى عليه السلام : طوبى لمن نامت ولاتهم بصية وانتبهت إلى غير إثم . وقال أبو هريرة : يبعثون يوم القيامة على قدر نياتهم ، وكان الفضيل بن عياض إذا قرأ أو لبس أو نكح حتى يعلم المجاهدين منكم والصابرين ونبأ أخباركم - يبكي ويردها ويقول : إنك إن بلوتنا فاضحتنا وهتكت أمتارنا . وقال الحسن : إنما خلد أهل الجنة في الجنة وأهل النار في النار بالنيات . وقال أبو هريرة : مكتوب في التوراة ما أريد به وجهي قليله كثير وما أريد به غيري فكثيره قليل . وقال بلال بن سعد : إن العبد ليقول قول مؤمن فلا يدعه الله عز وجل وقوله حتى ينظر في عمله فإذا عمل لم يدعه الله حتى ينظر في ورعه فإن تورع لم يدعه حتى ينظر ما ذنوبه فإن صاحبت نيته في الحرى أن يصلح ما دون ذلك ، فاذن عماد الأعمال النيات فالعمل مفتقر إلى النية ليصير بها خيراً والنية في نفسها خير وإن تعذر العمل بمائق .

### ( بيان حقيقة النية )

اعلم أن النية والإرادة والقصد عبارات متواردة على معنى واحد وهو حالة وصفة للقلب يكتنفها

(١) حديث إذا التقى الصفان نزلت الملائكة تكتب الحقائق على مراتبهم فلان يقاتل للدنيا الحديث ابن المبارك في الزهد موقوفاً على ابن مسعود وآخر الحديث مرفوع في الصحيحين من حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله (٢) حديث جابر يبعث كل عبد على ما مات عليه رواه مسلم (٣) حديث الأحنف عن أبي بكر « إذا التقى المسلمان بسيفهما فالقاتل والمقتول في النار متفق عليه (٤) حديث أبي هريرة من تزوج امرأة على صداق وهو لا ينوي أداءه فهو زان أحمد من حديث صهيب ورواه ابن ماجه مقتصراً على قصة الدين دون ذكر الصداق (٥) حديث من تطيب لله جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك الحديث أبو الوليد الصغار في كتاب الصلاة من حديث إسحق بن أبي طلحة مرسل .

عن الله تعالى ذلك .  
وقال أبو الحسن بن  
سالم هم ثلاثة متصبر  
وصابر وصبار فالمتصبر  
من صبر في الله فرة  
يصبر ومرة يجزع  
والصابر من يصبر في  
الله وقه ولا يجزع  
ولكن توقع منه  
الشكوى وقد يمكن  
منه الجزع وأما الصبار  
فذاك الذي صبره في  
الله والله وبالله فهذا لو  
وقع عليه جميع البلايا  
لا يجزع ولا يتغير من  
جهة الوجود والحقيقة  
لأن جهة الرسم  
والحلقة وإشارته في  
هذا ظهور حكم العلم  
فيه مع ظهور صفة  
الطبيعة . وكان  
الشبلي يمثل بهذين  
البيتين :

أمران : علم وعمل العلم يقدمه لأنه أصله وشرطه والعمل يتبعه لأنه ثمرته وفرعه وذلك لأن كل عمل أعنى كل حركة وسكون اختياري فانه لا يتم إلا بثلاثة أمور : علم وإرادة وقدرة لأنه لا يريد الإنسان ما لا يطمح فلا بد وأن يعلم ولا يعمل ما لم يرد فلا بد من إرادة ومعنى الإرادة انبعاث القلب إلى ما يراه موقفا للعرض إما في الحال أو في الآل فقد خلق الإنسان بحيث يوافق بعض الأمور ويلازم غرضه ويخالفه بعض الأمور فيحتاج إلى جلب الملائم الموافق إلى نفسه ودفع الضار النافي عن نفسه فافتقر بالضرورة إلى معرفة وإدراك للشيء المضر والنافع حتى يجلب هذا ويهرب من هذا فان من لا يصبر الغذاء ولا يعرفه لا يمكنه أن يتناول ومن لا يصبر النار لا يمكنه الحرب منها غلق الله الهداية والمعرفة وجعل لها أسبابا وهي الخواص الظاهرة والباطنة وليس ذلك من غرضنا ثم لو أبصر الغذاء وعرف أنه موافق له فلا يكفيه ذلك للتناول ما لم يكن فيه ميل إليه ورغبة فيه وشهوة له باعثة عليه إذ المريض يرى الغذاء ويعلم أنه موافق ولا يمكنه التناول لعدم الرغبة والليل ولقد الداعية الحركة إليه غلق الله تعالى له الليل والرغبة والإرادة وأعنى به نزوعا في نفسه إليه وتوجها في قلبه إليه ثم ذلك لا يكفيه فكم من مشاهد طعاما راغب فيه يريد تناوله عاجز عنه لكونه زمنا غفلت له القدرة والأعضاء للتحركة حتى يتم به التناول والعضو لا يتحرك إلا بالقدرة والقدرة تنتظر الداعية الباعثة والداعية تنتظر العلم والمعرفة أو الظن والاعتقاد وهو أن يقوى في نفسه كون الشيء موافقا له فاذا جازمت المعرفة بأن الشيء موافق ولا بد وأن يفعل وسلدت عن معارضة باعث آخر صارف عنه انبعثت الإرادة وتحقق الليل فاذا انبعثت الإرادة انتهت القدرة لتحريك الأعضاء فالقدرة خادمة للإرادة والإرادة تابعة لحكم الاعتقاد والمعرفة فالتنية عبارة عن الصفة المتوسطة وهي الإرادة والانبعاث النفس بحكم الرغبة والليل إلى ما هو موافق للعرض إما في الحال وإما في الآل فالحرك الأول هو العرض للطلب وهو الباعث والعرض الباعث هو القصد النوي والانبعاث هو القصد والنية وانهاض القدرة لخدمة الإرادة بتحريك الأعضاء هو العمل إلا أن انتهاء القدرة للعمل قد يكون يباعث واحد وقد يكون يباعثين اجتماعا في فعل واحد وإذا كان يباعثين فقد يكون كل واحد بحيث لو انفرد لكان ملبا بإنهاض القدرة وقد يكون كل واحد قاصرا عنه إلا بالاجتماع وقد يكون أحدهما كافيا لولا الآخر لكن الآخر انتهى عاضدا له ومعاوننا فيخرج من هذا التقسيم أربعة أقسام فلنذكر لكل واحد مثالا وإسما . أما الأول . فهو أن ينفرد الباعث الواحد ويتجرد كما إذا هجم على الإنسان سبع فكلما رآه قام من موضعه فلا مزعج له إلا غرض الحرب من السبع فانه رأى السبع وعرفه ضارا فانبعثت نفسه إلى الحرب ورغبت فيه فانتهت القدرة عاملة بمقتضى الانبعاث فيقال نيته الفرار من السبع لانية له في القيام لغيره وهذه النية تسمى خالصة ويسمى العمل بعوجها إخلاصا بالإضافة إلى العرض الباعث ومعناه أنه خلص عن مشاركة غيره وممازجته . وأما الثاني : فهو أن يجتمع باعثن كل واحد مستقل بإنهاض لو انفرد ومثاله من المحسوس أن يتعاون رجلان على حمل شيء بمقدار من القوة كان كافيا في الحمل لو انفرد ومثاله في غرضنا أن يسأله قريبه الفقير حاجة فيقضيها لفقره وقربته وعلم أنه لولا فقره لكان يقضيها بمجرد القرابة وأنه لولا قرابته لكان يقضيها بمجرد الفقر وعلم ذلك من نفسه بأنه يحضره قريب غني فيرغب في قضاء حاجته وفقير أجني فيرغب أيضا فيه وكذلك من أمره الطبيب بترك الطعام ودخل عليه يوم عرفة فصام وهو يعلم أنه لو لم يكن يوم عرفة لكان يترك الطعام حية ولولا الحمية لكان يتركه لأجل أنه يوم عرفة وقد اجتمعا جميعا فأقدم على الفعل وكان الباعث الثاني رفيق الأول فلنسم هذا مراقبة للباعث : والثالث : أن لا يستقل كل واحد لو انفرد

إن صوت الهب من  
ألم الشوق

ق وخوف الفراق

يورث ضرا

صابر الصبر فاستغاث

به الصبر

ر فصاح الحب للمصير

صبرا

قال جعفر الصادق

رحمه الله أمر الله تعالى

أنبياءه بالصبر وجعل

الحظ الأعلى للرسول

صلى الله عليه وسلم

حيث جعل صبره بالله

لا بنفسه فقال

وما صبرك إلا بالله -

وسئل السري عن

الصبر تسلكم فيه قدب

على رجله عقرب فجعل

بضربه يبرته فقبل له لم

لا تدفعه ؟ قال أستحي

من الله تعالى أن أتكلم

ولكن قوى مجموعهما على إتهاض القدرة ومثاله في المحسوس أن يتعاون ضعيفان على حمل ما لا ينفرد أحدهما به ومثاله في غرضنا أن يقصده قريبه النني فيطلب درهما فلا يعطيه ويقصده الأجنبي الفقير فيطلب درهما فلا يعطيه ثم يقصده القريب الفقير فيعطيه فيكون ابتعاث داعيته بمجموع الباعثين وهو القرابة والفقر وكذلك الرجل يتصدق بين يدي الناس لغرض الثواب ولغرض الشاء ويكون بحيث لو كان منفردا لكان لا يعثه مجرد قصد الثواب على العطاء ولو كان الطالب فاسقا لاثواب في التصديق عليه لكان لا يعثه مجرد الرياء على العطاء ولو اجتمعا أورثا بمجموعهما تحريك القلب ولنسم هذا الجنس مشاركة . والرابع : أن يكون أحد الباعثين مستقلا لو انفرد بنفسه والثاني لا يستقل ولكن لما انضاف إليه لم ينفك عن تأثير بالاعانة والتسهيل . ومثاله في المحسوس أن يعاون الضيف الرجل القوي على الحمل ولو انفرد القوي لاستقل ولو انفرد الضيف لم يستقل فان ذلك بالجملة يسهل العمل ويؤثر في تخفيفه . ومثاله في غرضنا أن يكون للانسان ورد في الصلاة وعادة في الصدقات فانفق أن حضر في وقتها جماعة من الناس فصار الفعل أخف عليه بسبب مشاهدتهم وعلم من نفسه أنه لو كان منفردا خاليا لم يقتر عن عمله وعلم أن عمله لو لم يكن طاعة لم يكن مجرد الرياء بحمله عليه فهو شوب تطرق إلى النية ولنسم هذا الجنس المعاونة فالباعث الثاني إما أن يكون رفيقا أو شريكا أو معينا وسنذكر حكمها في باب الاخلاص والغرض الآن بيان أقسام النيات فان العمل تابع للباعث عليه فيكتسب الحكم منه ولذلك قيل إنما الأعمال بالنيات لأنها تابعة لاحكم لها في نفسها وإنما الحكم للتبوع .

( بيان سر قوله صلى الله عليه وسلم « نية المؤمن خير من عمله » )

اعلم أنه قد يظن أن سبب هذا الترجيح أن النية سر لا يطلع عليه إلا الله تعالى والعمل ظاهر ولعمل السر فضل وهذا صحيح ولكن ليس هو المراد لأنه لو نوى أن يذكر الله بقلبه أو يتفكر في مصالح المسلمين فبقتضى عموم الحديث أن تكون نية التفكير خيرا من التفكير وقد يظن أن سبب الترجيح أن النية تدوم إلى آخر العمل والأعمال لا تدوم وهو ضعيف لأن ذلك يرجع معناه إلى أن العمل الكثير خير من القليل بل ليس كذلك فان نية أعمال الصلاة قد لا تدوم إلا في لحظات معدودة والأعمال تدوم والعموم يقتضى أن تكون نيته خيرا من عمله وقد يقال إن معناه أن النية بمجرد خيرا من العمل بمجرد دون النية وهو كذلك ولكنه بعيد أن يكون هو المراد إذا العمل بالنية أو على الغفلة لا خير فيه أصلا والنية بمجرد خيرا وظاهر الترجيح للشاركين في أصل الخير بل المعنى به أن كل طاعة تنتظم بنية وعمل وكانت النية من جملة الحيرات وكان العمل من جملة الحيرات ولكن النية من جملة الطاعة خيرا من العمل أى لكل واحد منهما أثر في المقصود وأثر النية أكثر من أثر العمل فمعناه نية المؤمن من جملة طاعته خيرا من عمله الذي هو من جملة طاعته والغرض أن للعباد اختيارا في النية وفي العمل فهما عملان والنية من الجملة خيرا فهما فلهذا معناه وأما سبب كونها خيرا ومرتجة على العمل فلا يفهمه إلا من فهم مقصد الدين وطريقه ومبلغ أثر الطريق في الاتصال إلى المقصد وقاس بعض الآثار بالبعض حتى يظهر له بعد ذلك الأرجح بالإضافة إلى المقصود فمن قال الخير خير من الفاكهة قائما بمعنى به أنه خير بالإضافة إلى مقصود القوت والاعتناء ولا يفهم ذلك إلا من فهم أن الغذاء مقصدا وهو الصحة والبقاء وأن الأغذية مختلفة الآثار فيها وفهم أثر كل واحد وقاس بعضها ببعض

(١) حديث نية المؤمن خير من عمله الطبراني من حديث سهل بن سعد ومن حديث النواص ابن سميان وكلاهما ضعيف .

في حال ثم أخالف  
ما تكلم فيه . أخبرنا  
أبو زرعة بإجازة عن  
أبي بكر بن خالف بإجازة  
عن أبي عبد الرحمن  
قال سمعت محمد بن خالد  
يقول سمعت الفرغاني  
يقول سمعت الجنييد  
رحمه الله يقول إن الله  
تعالى أكرم المؤمنين  
بالإيمان وأكرم الأيمان  
بالعمل وأكرم العمل  
بالصبر فالإيمان زين  
المؤمن والعقل زين  
الإيمان والصبر زين  
العقل وأنشد عن  
إبراهيم الخواص  
رحمه الله :

صبرت على بعض  
الأذى خوف كله  
ودافعت عن نفسي  
لنفسى فخرت

فالطاعات غذاء للقلوب ، والقصود شفاؤها وقاؤها وسلامتها في الآخرة وسعادتها وتنعمها ببقاء الله تعالى . فالقصد لغة السعادة بقاء الله قطع ولن يتم بقاء الله إلا من مات عبدا لله تعالى عارفا بالله ولن يحبه إلا من عرفه ولن يأمن بربه إلا من طاعه ذكره له ، فالأمن يحصل بدوام الذكر والمعرفة تحصل بدوام الفكر ؛ والمحبة تتبع المعرفة بالضرورة ولن يتفرغ القلب لدوام الذكر والفكر إلا إذا فرغ من شواغل الدنيا ، ولن يتفرغ من شواغلها إلا إذا انقطع عنه شهواتها حتى يصير مائلا إلى الخير مريدا له نافرا عن الشر مبغضا له وإعما ميل إلى الخيرات والطاعات إذا علم أن سعادته في الآخرة منوط بها كما يميل العاقل إلى القصد والحجامة لعله بأن سلامته فيهما ، وإذا حصل أصل الليل بالمعرفة فأنما يقوى بالعمل بمقتضى الليل والمواظبة عليه فإن اللواظبة على مقتضى صفات القلب وإرادتها بالعمل تجري مجرى الغذاء والقوت لتلك الصفة حتى ترشح الصفة وتزوى بسببها فالمائل إلى طلب العلم أو طلب الرياسة لا يكون ميله في الابتداء إلا ضعيفا ، فإن اتبع مقتضى الليل واشتغل بالعلم وتربية الرياسة والأعمال المطلوبة لذلك تأكد ميله ورسخ وعسر عليه النزوع وإن خالف مقتضى ميله ضعف ميله وانكسر وربما زال وانعقد بل القى ينظر إلى وجه حسن مثلا فيميل إليه طبعه ميلا ضعيفا لوتبعه وعمل بمقتضاه فداوم على النظر والمجالسة والمخالطة والمحاورة تأكد ميله حتى يخرج أمره عن اختياره فلا يقدر على النزوع عنه ، ولو نظم نفسه ابتداء وخالف مقتضى ميله لكان ذلك كقطع القوت والغذاء عن صفة الليل ويكون ذلك زبرا ودفا في وجهه حتى يضعف وينكسر بسببه ويتقع وينحى وهكذا جميع الصفات والخيرات والطاعات كلها هي التي تراد بها الآخرة والشرور كلها هي التي تراد بها الدنيا والآخرة ، وميل النفس إلى الخيرات الأخروية وانصرافها عن الدنيوية هو الذي يفرغها للذكر والفكر ولن يتأكد ذلك إلا بالمواظبة على أعمال الطاعة وترك المعاصي بالجوارح لأن بين الجوارح وبين القلب علاقة حتى إنه يتأثر كل واحد منهما بالآخر فترى العضو إذا أصابته جراحة تألم بها القلب وترى القلب إذا تألم بلمسه يموت عزيز من أعزته أو بهجوم أمر مخوف تأثرت به الأعضاء وارتعدت الفرائض وتغير اللون إلا أن القلب هو الأصل للتبوع فكأنه الأمير والراعي والجوارح كالخدم والراعي والاتباع ، فالجوارح خادمة للقلب بتأكيد صفاتها فيه فالقلب هو القصد والأعضاء آلات موصلة إلى القصد ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح لها سائر الجسد (١) » وقال عليه الصلاة والسلام « اللهم أصلح الراعي والرعية (٢) » وأراد بالراعي القلب . وقال الله تعالى - لن ينال الله لحومها ولادماؤها ولكن يناله التقوى منكم - وهي صفة القلب ، فمن هذا الوجه يجب لاحالة أن تكون أعمال القلب على الجملة أفضل من حركات الجوارح ، ثم يجب أن تكون النية من جملة أفضل لأنها عبارة عن ميل القلب إلى الخير وإرادته له . وغرضنا من الأعمال بالجوارح أن يعود القلب لإرادة الخير ويؤكد فيه الميل إليه ليفرغ من شهوات الدنيا ويكسب على الذكر والفكر بالضرورة يكون خيرا بالإضافة إلى الغرض لأنه متمكن من نفس القصد ، وهذا كالأثر للعدة إذا تأملت فقد تدأوى بأن يوضع الطلاء على الصدر وتداوى بالكرب واللبواء الواصل إلى للعدة ، فالكرب خير من طلاء الصدر لأن طلاء الصدر أيضا إنما أريد به أن يسرى منه الأثر

وجرعتها للكروه

حتى تدرجت

ولولم أجزعها إذن

لاعمأزت

ألارب ذلساق للنفس

عزة

وبارب نفس بالتذال

عزت

إذا مامدوت الكف

النفس التي

إلى غير من قال

اسألوني فقلت

سأصبر جهدي إن في

الصبر عزة

وأرضى بدنياي وإن

هي قلت

قال عمر بن عبدالعزيز

رحمه الله : ماأنعم الله

على عبد من نعمة ثم

اتزعه ففاضه عما

اتزعه منه الصبر

إلا كان ماعاضه خيرا

(١) حديث إن في الجسد مضغة إذا صلحت صلح سائر الجسد متفق عليه من حديث النعمان بن بشير

وقد تقدم (٢) حديث اللهم أصلح الراعي والرعية تقدم ولم أجده .



إلى العدة ، لما يلقى عين العدة فهو خير وأنفع فهكذا ينبغي أن نفهم تأثير الطاعات كلها ، إذ للطلوب منها تغير القلوب وتبديل صفاتها قسط دون الجوارح ، فلا تظن أن في وضع الجبهة على الأرض غرضا من حيث إنه جمع بين الجبهة والأرض بل من حيث إنه بحكم المادة يؤكد صفة التواضع في القلب فإن من يجد في نفسه تواضعا ، فإذا استكان بأعضائه وصورها بصورة التواضع تأكد تواضعه ، ومن وجد في قلبه رقة على يتيم فاذا مسح رأسه وقبله تأكدت الرقة في قلبه ، ولهذا لم يكن العمل بغير نية مفيدا أصلا لأن من مسح رأس يتيم وهو غافل بقلبه أو ظان أنه مسح ثوبا لم ينتشر من أعضائه أثر إلى قلبه لتأكد الرقة وكذلك من يسجد غافلا وهو مشغول الهم بأعراض الدنيا لم ينتشر من جبهته ووضعها على الأرض أثر إلى قلبه يتأكد به التواضع ، فكان وجود ذلك كدمه وما ساوى وجوده عدمه بالإضافة إلى الغرض للطلوب منه يسمى باطلا فيقال العبادة بغير نية باطلة وهذا معناه إذا فعل عن غفلة ، فاذا قصد به رياء أو تعظيم شخص آخر لم يكن وجوده كدمه بل زاده شرافته لم يؤكد الصفة للطلوب تأكيدها حتى أكد الصفة للطلوب فمعها وهي صفة الرياء التي هي من الليل إلى الدنيا فهذا وجه كون النية خيرا من العمل ، وبهذا أيضا يعرف معنى قوله صلى الله عليه وسلم « من هم بحسنة فلم يعملها كتبت له حسنة » لأن هم القلب هو ميله إلى الخير وانصرافه عن الهوى وحب الدنيا وهي غاية الحسنات وإنما الاتمام بالعمل يزيد بها تأكيدها فليس المقصود من إراقة دم القربان الدم واللحم بل ميل القلب عن حب الدنيا وبطلان إيتار لوجه الله تعالى وهذه الصفة قد حصلت عند جزم النية والهمة وإن عاق عن العمل عائق فلن ينال الله لحومها ولا دملها ولكن يئله التقوى منكم ، والتقوى هنا أعنى القلب ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « إن قوما بالمدينة ندشركوننا في جهادنا » كما تقدم ذكره لأن قلوبهم في صدق إرادة الخير وبذل المال والنفس والرغبة في طلب الشهادة وإعلاء كلمة الله تعالى كقلوب الحارثيين في الجهاد وإنما فرقهم بالأبدان لموافق تخص الأسباب الخارجية عن القلب وذلك غير مطلوب إلا لتأكيد هذه الصفات وبهذه المعاني تفهم جميع الأحاديث التي أوردها في فضيلة النية فأعرضها عليها لينكشف لك أسرارها فلا تطول بالإعادة.

### ( بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالنية )

اعلم أن الأعمال وإن اتسمت أقساما كثيرة من فعل وقول وحركة وسكون وجلب ودفع وفسكر وذكر وغير ذلك بما لا يتصور إحصاؤه واستقصاؤه فهي ثلاثة أقسام طاعات ومعاص ومباحات. القسم الأول: للأصامي وهي لا تغير عن موضعها بالنية فلا ينبغي أن يفهم الجاهل ذلك من عموم قوله عليه السلام « إنما الأعمال بالنيات » فيظن أن العصية تنقلب طاعة بالنية كالذي يفتاب إنسانا مراعاة لقلب غيره أو يطعم فقيرا من مال غيره أو يبني مدرسة أو مسجدا أو رابطا بمال حرام أو تصد الخير فهذا كله جهل بالنية لا تؤثر في إخراجه عن كونه ظلما وعدوانا ومعصية بل قصده الخير بالشر على خلاف مقتضى الشرع شر آخر ، فإن عرفه فهو معاند للشرع وإن جهله فهو عاص بجهله إذ طاب العلم فريضة على كل مسلم والخيرات إنما يعرف كونها خيرات بالشرع فكيف يمكن أن يكون الشر خيرا هيئات بل الروح لذلك على القلب خفي الشهوة وباطن الهوى فإن القلب إذا كان سائلا إلى طلب الجاهل واستماله لقلوب الناس وسائر حظوظ النفس توسل الشيطان به إلى التلبس على الجاهل ولذلك قال سهل رحمه الله تعالى : ماء من الله تعالى بمصية أعظم من الجهل. قيل يا أبا محمد هل تعرف شيئا أشد من الجهل قال نعم الجهل بالجهل وهو كما قال لأن الجهل بالجهل يسد بالكلية باب التعلم فمن يظن بالكلية بنفسه أنه عالم فكيف يعلم وكذلك أفضل ما أطيع الله تعالى به العلم ورأس العلم العلم بالعلم كما أن رأس الجهل الجهل بالجهل

بما أنزعه منه وأنشد  
لسمون :

تجمرت من حاليه  
نعمي وأبؤسا

زمانا إذا أجرى عزاليه  
احتسى

فكم غمرة قد جرعتني  
كثوسها

فجرتها من بحر صبري  
أكوسا

ندرت صبري  
والتخفت صروقه

وقلت لنفسي الصبر أو  
فاهل كي أسي

خطوب لوان الشم  
زاحم خطبها

لساخت ولم تدرك لها  
الكف ملسا

[ قولهم في الفقر ] قال  
ابن الجلاء : الفقر أن

لا يكون لك فاذا كان  
لك لا يكون لك حتى

فان من لا يعلم النافع من العلم الضار اشتغل بما أكب الناس عليه من العلوم المزخرفة التي هي وسائلهم إلى الدنيا وذلك هو مادة الجهل ومنبع فساد العالم والمقصود أن من قصد الخير بمصيبة عن جهل فهو غير معذور إلا إذا كان قريب العهد بالاسلام ولم يجد بعد مهلة للتعلم ، وقد قال الله سبحانه - فاستلوا أهل الذکر إن كنتم لاتعلمون - وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يضر الجاهل على الجهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله ولا للعالم أن يسكت على علمه » (١) « ويقرب من تقرب السلاطين ببناء المساجد والمدارس بالمال الحرام تقرب العلماء السوء بتعليم العلم للسفهاء والأشرار المشغولين بالفسق والفجور القاصرين همهم على مكارمة العلماء ومباراة السفهاء واستمالة وجوه الناس وجمع حطام الدنيا وأخذ أموال السلاطين واليتامى والساكين فان هؤلاء إذا تعلموا كانوا قاطع طريق الله وانهمض كل واحد منهم في بلدته نائبا عن الدجال يتكالب على الدنيا ويتبع الهوى ويتباعد عن التقوى ويستجريء الناس بسبب مشاهدته على معاصي الله ثم قد ينتشر ذلك العلم إلى مثله وأمثاله ويتخذونه أيضا آلة ووسيلة في الشر واتباع الهوى ويتسلسل ذلك ووبال جميعه يرجع إلى العلم الذي علمه العلم مع علمه بفساد نيته وقصده ومشاهدته أنواع المعاصي من أقواله وأفعاله وفي مطعمه وملبسه ومسكنه فيموت هذا العالم وتبقى آثار شره منتشرة في العالم ألف سنة مثلا وألني سنة وطوبى لمن إذا مات ماتت معه ذنوبه ثم العجب من جهله حيث يقول « إنما الأعمال بالنيات » وقد قصدت بذلك نشر علم الدين فان استعماله هو في الفساد فالمصيبة منه لا منى وما قصدت به إلا أن يستعين به على الخير وإعما حب الرياسة والاستتباع والتفاخر بعلم العلم يحسن ذلك في قلبه والشيطان بواسطة حب الرياسة يلبس عليه وليت شعري ما جوابه عمن وهب سيفا من قاطع طريق وأعد له خيلا وأسبابا يستعين بها على مقصوده ويقول إنما أردت البذل والسخاء والتخلق بأخلاق الله الجليلة وقصدت به أن يغزو بهذا السيف والفرس في سبيل الله فان إعداد الخيل والرباط والقوة للقزاة من أفضل القربات فان هو صرفه إلى قطع الطريق فهو العاصي وقد أجمع الفقهاء على أن ذلك حرم مع أن السخاء هو أحب الأخلاق إلى الله تعالى حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله تعالى ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء » (٢) « فليت شعري لم حرم هذا السخاء ولم وجب عليه أن ينظر إلى قرينة الحال من هذا الظالم فاذا لاح له من عادته أنه يستعين بالسلاح على الشر فينبغي أن يسعى في سلب سلاحه لا أن يمد به غيره والعلم سلاح يقاتل به الشيطان وأعداء الله وقد يعاون به أعداء الله عز وجل وهو الهوى فمن لا يزال مؤثرا لدنياء على دينه ولهواه على آخرته وهو عاجز عنها لقلة فضله فكيف يجوز إمداده بنوع علم يتمكن به من الوصول إلى شهواته بل لم يزل علماء السلف رحمهم الله يتفقدون أحوال من يتردد إليهم فلو رأوا منه تقصيرا في نقل من النوافل أنكروه وتركوا إكرامه وإذارا وأمنه فجورا واستحلال حرام هجره ونقوه عن مجالسهم وتركوا تكليمه فضلا عن تعليمه لعلهم بأن من تعلم مسألة ولم يعمل بها وجاوزها إلى غيرها فليس يطلب إلا آلة الشر وقد تمود جميع السلف بالله من الفاجر العالم بالسنة وما تعوذوا من الفاجر الجاهل . حتى عن بعض أصحاب أحمد بن حنبل رحمه الله أنه كان يتردد إليه سنين ثم اتفق أن أعرض عنه أحمد وهجره وصار لا يكلمه فلم يزل يسأله عن تغييره عليه وهو

نؤثر . وقال الكناني إذا صح الافتقار إلى الله تعالى صح الغنى بالله تعالى لأنهم أحالان لا يتم أحدهما إلا بالآخر . وقال النوري : نعمت النقاء السكون عند العدم والبذل عند الوجود . وقال غيره : والاضطراب عند للوجود . وقال الدراج فذمت كنف أستاذي أريد مكحلة فوجدت فيها قطعة فتحيرت ، فلما جاء قلت له : إني وجدت في كنفك هذه القطعة . قال قد رأيته ردها ثم قال خذها واشتر بها شيئا فقلت : ما كان أمر هذه القطعة بحق معبودك فقال مارزقي

(١) حديث لا يضر الجاهل على الجاهل ولا يحل للجاهل أن يسكت على جهله الحديث الطبراني في الأوسط وابن السني وأبو نعيم في رياضة المتعلمين من حديث جابر بسند ضعيف دون قوله لا يضر الجاهل على الجاهل وقال لا ينبغي بدل ولا يحل وقد تقدم في العلم (٢) حديث إن لله ثلثائة خلق من تقرب إليه بواحد منها دخل الجنة وأحبها إليه السخاء تقدم في كتاب المحبة والشوق .

لا يذكره حتى قال بلغني أنك طيقت حائط دارك من جانب الشارع وقد أخذت قدر سمك الطين وهو  
أعملة من شارع المسلمين فلا تصلح لنقل العلم فمكنا كانت مراقبة السلف لأحوال طلاب العلم وهذا  
وأمثاله مما يلتبس على الأغبياء وأتباع الشيطان وإن كانوا أرباب الطيبة والأحكام الواسعة وأصحاب  
الأسنة الطيبة والفضل الكثير ، أعنى الفضل من العلوم التي لا تشمل على التحذير من الدنيا  
والزجر عنها والترغيب في الآخرة والدعاء إليها بل هي العلوم التي تتعاق بالخلق ويتوصل بها إلى جمع  
الخطام واستتباع الناس والتقدم على الأقران فاذن قوله عليه السلام «إنما الأعمال بالنيات» يختص  
من الأقسام الثلاثة بالطاعات والباحات دون المعاصي إذ الطاعة تنقلب معصية بالقصد والباح ينقلب  
معصية وطاعة بالقصد فأما المعصية فلا تنقلب طاعة بالقصد أصلاً ، نعم لنية دخل فيها وهو أنه إذا انضاف  
إليها قصد خبيثة تضاعف وزرها وعظم وبالها كما ذكرنا ذلك في كتاب التوبة . القسم الثاني الطاعات  
وهي مرتبطة بالنيات في أصل صحتها وفي تضاعف فضلها . أما الأصل فهو أن ينوي بها عبادة الله تعالى  
لا غير فإن نوى الرياء صارت معصية وأما تضاعف الفضل فبكرة النيات الحسنة فإن الطاعة الواحدة  
يمكن أن ينوي بها خيرات كثيرة فيكون له بكل نية ثواب إذ كل واحدة منها حسنة ثم تضاعف كل  
حسنة عشر أمثالها <sup>(١)</sup> كما ورد به الخبر ومثاله القعود في المسجد فإنه طاعة ويمكن أن ينوي فيه نيات  
كثيرة حتى يصير من فضائل أعمال التقيين ويبلغ به درجات القربين أو لها أن يعتقد أنه بيت الله  
وأن داخله زار الله فيقصد به زيارة مولاه رجاء لما وعده به رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال  
«من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى وحق على الزور إكرام زائره» <sup>(٢)</sup> وثانيها أن ينتظر الصلاة  
بعد الصلاة فيكون في جملة انتظاره في الصلاة وهو معنى قوله تعالى - وربطوا - . وثالثها الترهيب  
بكف السمع والبصر والأعضاء عن الحركات والترددات فإن الاعتكاف كصفوه في معنى الصوم وهو  
نوع ترهب ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رهبانية أمي القعود في المساجد» <sup>(٣)</sup> ورابعها  
عكوف الهم على الله ولزوم السر للفكر في الآخرة ودفع الشواغل الصارفة عنه بالاغترال إلى المسجد  
وخامسها التجرد لذكر الله أولاً استماع ذكره وللتذكر به كما روى في الخبر «من غدا إلى المسجد ليذكر  
الله تعالى أو يذكره به كان كالمجاهد في سبيل الله تعالى» <sup>(٤)</sup> وسادسها أن يقصد إفادة العلم بأمر معروف  
ونهي عن منكر إذ المسجد لا يغلو عن منسى في صلاته أو يتعاطى ما لا يحل له في أمره بالمعروف ويرشده  
إلى الدين فيكون شريكاً معه في خيره الذي يعلم منه فتضاعف خيراته . وسابعها أن يستفيد أخاً  
في الله فإن ذلك غنيمة وذخيرة للدار الآخرة والمسجد معشش أهل الدين المحبين لله وفي الله . وثامنها  
أن يترك الذنوب حياء من الله تعالى وحياء من أن يتعاطى في بيت الله ما يقتضى هتك الحرمه ،  
وقد قال الحسن بن علي رضي الله عنهما : من أدمن الاختلاف إلى المسجد رزقه الله إحدى سبع  
خصال أحها مستغدا في الله أو رحمة مستترلة أو علماً مستظرفاً أو كفة تدل على هدى أو تصرفه

الله تعالى من الدنيا  
مفسراء ولا يضاء  
غيرها فأردت أن  
أوصي أن تصدق كفى  
فأردها إلى الله وقال  
ابراهيم الخواص الفقر  
رداء الشرف ولباس  
المسلمين وجباب  
الصلحين . وسئل  
سهل بن عبد الله عن  
الفقر الصادق فقال  
لا يسأل ولا يرد ولا  
يعبس . وقال أبو علي  
الروذباري رحمه الله  
سألت الزقاق فقال  
يا أبا علي لم ترك الفقراء  
أخذ البلقي في وقت  
الحاجة قال قلت لأنهم  
مستغنون بالمعطي عن  
العطايا قال نعم ولكن  
وقع لي شيء آخر فقلت  
هات أفدني ما وقع لك

(١) حديث تضعيف الحسنة بعشر أمثالها تقدم (٢) حديث من قعد في المسجد فقد زار الله تعالى  
وحق على المزور إكرام زائره ابن حبان في الضعفاء من حديث سلمان والبيهقي في الشعب نحوه من  
رواية جماعة من الصحابة لم يسموا بإسناد صحيح وقد تقدم ما في الصلاة (٣) حديث رهبانية أمي القعود  
في المساجد لم أجده أصلاً (٤) حديث من غدا إلى المسجد يذكر الله أو يذكره به كان كالمجاهد في سبيل  
الله تعالى هو معروف من قول كعب الأحبار رويناه في جزء ابن طوق وللطبراني في الكبير من حديث  
أبي أمامة من غدا إلى المسجد لا يريد إلا أن يتعلم خيراً أو يعلّمه كان له كأجر حج تاما حجة وإسناده جيد  
وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة من غدا إلى المسجد أو راح أعد الله له في الجنة نزلاً كلما غدا أو راح

عن ردى أو يترك الذنوب خشية أحياء فهذا طريق تسخير النيات وقس به سائر الطاعات والمباحات إذ ما من طاعة إلا واحتدل نيات كثيرة وإنما تحضر في قلب العبد المؤمن بقدر جده في طلب الخير وتشمره له وتفكره فيه فهذا تزكو الأعمال وتتضاعف الحسنات [القسم الثالث المباحات] وما من شيء من المباحات إلا ويحتمل نية أو نيات يصير بها من محاسن القربات وينال بها معالي الدرجات لها عظم خسران من يغفل عنها ويتعاطاها تعاطى اليائس للهمة عن سهو وغفلة ولا يذنب أن يستحق العبد شيئا من الخطرات والخطوات واللاحظات فكل ذلك يسئل عنه يوم القيامة أنه لم فعله وما الذى قصده بهذا في مباح محض لا يشوبه كراهة ولذلك قال صلى الله عليه وسلم «حلالها حساب وحرامها عقاب» (١) وفي حديث معاذ بن جبل أن النبي صلى الله عليه وسلم قال «إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كل عينيه وعن فتات الطينة بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه» (٢) وفي خبر آخر «من تطيب لله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أطيب من المسك ومن تطيب لغيره الله تعالى جاء يوم القيامة وريحه أنث من الحيفة» فاستعمال الطيب مباح ولكن لا بد فيه من نية . فان قلت لما الذى يمكن أن ينوى بالطيب وهو حظ من حظوظ النفس وكيف يتطيب لله . فاعلم أن من يتطيب مثلاً يوم الجمعة وفي سائر الأوقات يتصور أن يقصد التمتع بلذات الدنيا أو يقصد به إظهار التفاخر بكترة المال ليحسده الأقران أو يقصده رياء الخلق ليقوم له الجاه في قلوبهم ويذكر بطيب الرائحة أوليتودد به إلى قلوب النساء الأجنبية إذا كان مستحلاً للنظر إليهن ولأموار أخر لا تخصي وكل هذا يجعل التطيب معصية فذلك يكون أنث من الحيفة في القيامة إلا القصد الأول وهو التلذذ والتنعيم فان ذلك ليس بمعصية إلا أنه يسئل عنه ومن نوقش الحساب عذب ومن أتى شيئا من مباح الدنيا لم يعذب عليه في الآخرة ولكن ينقص من نعيم الآخرة له بقدره وناهيك خسرانا بأن يستعمل ما يغنى ويغنى زيادة نعيم لا يفي وأما النيات الحسنة فانه ينوى به اتباع سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم يوم الجمعة (٣) وينوى بذلك أيضا تعظيم المسجد واحترام بيت الله فلا يرى أن يدخله زائراً لله إلا طيب الرائحة وأن يقصده بترجيع جيرانه ليستريحوا في المسجد عند مجاورته بروائحهم وأن يقصد به دفع الروائح الكريهة عن نفسه التى تؤدى إلى إيذاء مخالطيه وأن يقصد حسم باب الغيبة عن اللغائين إذا اغتابوه بالروائح الكريهة فيصون الله بسببه فمن تعرض للغيبة وهو قادر على الاحتراز منها فهو شريك في تلك المعصية كاقبل:

إذا ترحلت عن قوم وقد قدروا أن لا تفارقهم فالراحلون هم

وقال الله تعالى - ولا تسبوا الذين يدعون من دون الله فيسبوا الله عدوا بغير علم - أشار به إلى أن التسبب إلى الشر شر وأن يقصد به معالجة دماغه لتزيد به فطنته وذكاؤه ويسهل عليه درك مهمات دينه بالفكر فقد قال الشافعي رحمه الله من طاب ريحه زاد عقله فهذا وأمثاله من النيات لا يعجز الفقيه عنها إذا كانت تجارة الآخرة وطلب الخير غالباً على قلبه وإذا لم يغلب على قلبه إلا النعيم الدنيال تحضره هذه النيات

(١) حديث حلالها حساب وحرامها عذاب تقدم (٢) حديث معاذ إن العبد ليسأل يوم القيامة عن كل شيء حتى عن كل عينيه وعن فتات الطين بإصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه لم أجده له إسناداً (٣) حديث إن لبس الثياب الحسنة يوم الجمعة سنة أبوداود والحاكم وصححه من حديث أبي هريرة وأبي سعيد من اغتسل يوم الجمعة ومس من طيب إن كان عنده ولبس أحسن ثيابه الحديث ولأبي داود وابن ماجه من حديث عبد الله بن سلام ما على أحدكم لو اشترى ثوبين ليوم الجمعة سوى ثوبين مهنته وفي إسناده اختلاف وفي الصحيحين أن عمر رأى حلة سراء عند باب المسجد فقال يا رسول الله لو اشتريت هذه فلبستها يرم الجمعة الحديث .

قال لأنهم قوم لا ينفعهم الوجود إذ لله فاقهم ولا تضرهم الفاقة إذ لله وجودهم قال بعضهم الفقر وقوف الحاجة على القلب ومحوها عما سوى الرب وقال السوحي الفقير الذى لا تخيه النعم ولا تفقره الحن . وقال يحيى بن معاذ حقيقة الفقر أن لا يستغنى إلا بالله ورحمه عدم الأسباب كلها وقال أبو بكر الطوسي بقيت مدة أسأل عن معنى اختيار أمهاتنا لهذا الفقر على سائر الأشياء فلم يجبني أحد بجواب يقنعنى حتى سألت نصر بن الحامى فقال لي لأنه أول منزل من منازل

وإن ذكرت له لم يفت قلبه فلا يكون معه منها إلا حديث النفس وليس ذلك من النية في شيء  
والباحات كثيرة ولا يمكن إحصاء النيات فيها فقس بهذا الواحد ماعداه ولهذا قال بعض العارفين من  
السلف إنني لأستعجب أن يكون لي في كل شيء نية حتى في أكل وشربي ونومي ودخولي إلى الخلاء  
وكل ذلك مما يمكن أن يقصد به التقرب إلى الله تعالى لأن كل ما هو سبب لبقاء البدن وفراغ القلب من  
مهمات البدن فهو معين على الدين فمن قصده من الأكل التقوى على العبادة ومن الوقاع تحصين دينه  
وتطيب قلب أهله والتوصل به إلى نسل صالح يصعد الله تعالى بدمه فتكثر به أمة محمد صلى الله عليه وسلم كان  
طعما بأكله ونسكاحه وأغلب حظوظ النفس الأكل والوقاع وقصد الخير بهما غير محتج لمن غلب  
على قلبه هم الآخرة ولذلك ينبغي أن يحسن نيته مهما ضاع له مال ويقول هو في سبيل الله وإذا بلغه  
اغتيال غيره له فليطيب قلبه بأنه سيحمل سيئاته وسنقل إلى ديوانه حسناته ولنيز ذلك بسكوته عن  
الجواب في الخبر « إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من  
الأعمال الصالحة ما يستوجب به الجنة فيتعجب ويقول يارب هذه أعمال ما عملتها قط فيقال هذه  
أعمال الذين اغتابوك وآذوك وظلوك (١) » وفي الخبر « إن العبد ليؤاقي القيامة بحسنات أمثال الجبال  
لو خلصت له لدخل الجنة فيأتي وقد ظلم هذا وشتم هذا وضرب هذا فيقتل هذا من حسناته ولهذا من  
حسناته حتى لا يبقى له حسنة فتقول الملائكة قد فنيت حسناته وبقي طالبون فيقول الله تعالى ألقوا عليه  
من سيئاتهم ثم صكوا له صكا إلى النار (٢) » وبالجملة فإياك ثم إياك أن تستحق شيئا من حركاتك فلا تحترز  
من غرورها وشروورها ولا تعد جوابها يوم السؤال والحساب فإن الله تعالى مطلع عليك وشهيد بما يلفظ  
من قول إلا لديه رقيب عتيد وقال بعض السلف كتبت كتابا وأردت أن أثرب به من حائط جار لي فتخرجت  
ثم قلت تراب وما تراب قربة فتفت بى هاتف سيعلم من استخف بتراب ما يلقى غدا من سوء الحساب  
وصلى مع الثوري فرآه مقلوب الثوب فمرفه فمد يده ليصلحه ثم قبضها فلم يسوء فسأله عن ذلك  
فقال إنني لبسته لله تعالى ولا أريد أن أسويه لغير الله وقد قال الحسن إن الرجل ليعلم بالرجل يوم القيامة  
فيقول بيني وبينك الله فيقول والله ما أعرفك فيقول بلى أنت أخذت ابنة من حائطي وأخذت خيطا من  
نوبي فهذا وأمثاله من الأخبار قطع قلوب الخائفين فإن كنت من أولى العزم والنهي ولم تكن من اللغو  
فانظر لنفسك الآن ودقق الحساب على نفسك قبل أن يدقق عليك وراقب أحوالك ولا تسكن  
ولا تتحرك ما لم تأمل أولا أنك لم تتحرك وماذا تقصد وما الذي تنال به من الدنيا وما الذي يفوتك  
من الآخرة وبماذا ترجع الدنيا على الآخرة فإذا علمت أنه لا باعث إلا الدين فأعرض عزمك وما خطر  
بإالك وإلا فأمسك ثم راقب أيضا قلبك في إمساكك وامتناعك فإن ترك الفعل فعل ولا بدله من نية  
صححة فلا ينبغي أن يكون الداعي هو خفي لا يطلع عليه ولا يفرنك ظواهر الأمور ومشهورات الخيرات  
وافطن للأغوار والأسرار تخرج من حيز أهل الاعتراق قد روي عن زكريا عليه السلام أنه كان يعمل  
في حائط بالطين وكان أجيرا لقوم قدموا له رغيفا إذ كان لا يأكل إلا من كسب يده فدخل عليه قوم

(١) حديث إن العبد ليحاسب فتبطل أعماله لدخول الآفة فيها حتى يستوجب النار ثم ينشر له من  
الأعمال الحسنة ما يستوجب به الجنة الحديث وفيه هذه أعمال الذين اغتابوك الحديث أبو منصور  
الدبلي في مسند الفردوس من طريق أبي نعيم من حديث شيب بن سعد البلوي مختصرا إن العبد  
ليأق كتاب يوم القيامة منتظرا فينظر فيه فيرى حسنات لم يعملها فيقول هذا لي ولم أعلمها فيقال بما  
اغتابك الناس وأنت لا تشعر وفيه ابن لهيعة (٢) حديث إن العبد ليؤاقي القيامة بحسنات أمثال  
الجبال وفيه ويأتي قد ظلم هذا وشتم هذا الحديث تقدم مع اختلاف .

التوحيد ففتمت بذلك  
وسئل ابن الجلاء عن  
الفقر فسكت حتى صلى  
ثم ذهب ورجع ثم قال  
إنني لم أسكت إلا لدرهم  
كان عندي فذهبت  
فأخرجته واستحييت  
من الله تعالى أن أتكلم  
في الفقر وعندي ذلك  
ثم جلس وتكلم .  
قال أبو بكر بن  
طاهر عن حكم الفقير  
أن لا يكون له رغبة  
فإن كان ولا بد لا تجاوز  
رغبته كفايته . قال  
فارس قلت لبعض  
الفقراء مرة وعليه أثر  
الجوع والضر لم لا تسأل  
فيطعموك ؟ فقال إنني  
أخاف أن أسألهم  
فيمنعوني فلا يفلحون  
وأشد لبعضهم :

فلم يدعهم إلى الطعام حتى فرغ فتمججوا منه لما عدوا من سخائم وزهد وظنوا أن الخير في طلب الساعة في الطعام فقال إني أعمل لقوم بالأجرة وقدسوا إلى الرغبة لا تقوى به على عملهم فلوأ كلتم معي لم يكفكم ولم يكفني وضعت عن عملهم فالصبر هكذا ينظر في البواطن بنور الله فان ضعفه عن العمل نقص في فرض وترك الدعوة إلى الطعام نقص في فضل ولا حكم للفنائ مع الفرائض . وقال بعضهم دخلت على سفيان وهو يأكل فما كلني حتى لعق أصابعه ثم قال لولا آني أخذته بدين لأحببت أن تأكل منه . وقال سفيان من دعا رجلا إلى طعامه وليس له رغبة أن يأكل منه فان أجابه فأكل فعليه وزران وإن لم يأكل فعليه وزر واحد وأراد بأحد الوزرين التفاق وبالتالي ترضيه أخاه لما يكره لوعله فهكذا ينبغي أن يتفقد العبد نيته في سائر الأعمال فلا يقدم ولا يحجم إلا بنية فان لم تحضره النية توقف فان النية لا تدخل تحت الاختيار .

### ( بيان أن النية غير داخلة تحت الاختيار )

اعلم أن الجاهل بسمع ماذكرناه من الوصية بتحسين النية وتكبيرها مع قوله صلى الله عليه وسلم «إنما الأعمال بالنيات» فيقول في نفسه عند تدريسه أو تجارته أو أكله نويت أن أدرس لله أو أكل لله ويظن ذلك نية وهيئات فذلك حديث نفس وحديث لسان وفكر أو انتقال من خاطر إلى خاطر والنية بمنزل من جميع ذلك وإنما النية انبعاث النفس وتوجهها وميلها إلى مظهر لها أن فيه غرضها إما عاجلا وإما أجلا والليل إذا لم يكن لا يمكن اختراعه واكتسابه بمجرد الإرادة بل ذلك كقول الشبان نويت أن أشتى الطعام وأميل إليه أو قول الفارغ نويت أن أعشق فلانا وأحبه وأعظمه بقلي فذلك محال بل لا طريق إلى اكتساب صرف القلب إلى الشيء وميله إليه وتوجه نحوه إلا باكتساب أسبابه وذلك مما قد يقدر عليه وقد لا يقدر عليه وإنما تنبثق النفس إلى الفعل إجابة لغرض الباعث الموافق للنفس اللائم لها ومالم يعتقد الإنسان أن غرضه منوط بفعل من الأفعال فلا توجه نحوه قصده وذلك مما لا يقدر على اعتقاده في كل حين وإذا اعتقد قائما يتوجه القلب إذا كان فارغا غير مصروف عنه بفرض شاغل أقوى منه وذلك لا يمكن في كل وقت والدواعي والصوراف لها أسباب كثيرة بها تجتمع ويختلف ذلك بالأشخاص والأحوال وبالأعمال فإذا غلبت شهوة النكاح مثلا ولم يعتقد غرضا صحيحا في الولد دينا ولادنيا لا يمكنه أن يواقع على نية الولد بل لا يمكن إلا على نية قضاء الشهوة إذ النية هي إجابة الباعث ولا باعثة إلا الشهوة فكيف ينوي الولد وإذا لم يطلب على قلبه أن إقامة سنة النكاح (١) اتباعا لرسول الله صلى الله عليه وسلم بعظم فضلها لا يمكن أن ينوي بالنكاح اتباع السنة إلا أن يقول ذلك بلسانه وقلبه وهو حديث محض ليس بنية ، نعم طريق اكتساب هذه النية مثلا أن يقوى أولا إيمانه بالشرع ويقوى إيمانه بعظم ثواب من سعى في تكثير أمة محمد صلى الله عليه وسلم ويدفع عن نفسه جميع المنفرات عن الولد من ثقل المؤنة وطول التنبؤ وغيره فإذا فعل ذلك ربما انبثت من قلبه رغبة إلى تحصيل الولد للثواب فتحركه تلك الرغبة وتحرك أعضاؤه لمباشرة العقد فإذا انتهت القدرة المحركة للسان بقبول العقد طاعة لهذا الباعث الغالب على القلب كان نوايا فان لم يكن كذلك فما يقدره في نفسه ويردده في قلبه من قصد الولد وسواس وهذيان ولهذا امتنع جماعة من السلف من جملة من الطاعات إذ لم تحضرهم النية وكانوا يقولون ليس تحضرنا نية حتى إن ابن سيرين لم يصل على جنازة الحسن البصري وقال ليس تحضرني نية ونادى بعضهم امرأته وكان يسرح شعره أن هات المدرى فقالت أجيء بالمرأة فسكت ساعت ثم قال نعم قليل له في ذلك فقال كان لي في المدرى نية

قالوا غدا العيد ماذا أنت لابسه  
فقلت خاتمة ساق عبدة الجرجا  
فقر وصبرها ثوبان تحمها  
قلب يرى ربه الأعياد والجماء  
أحرى الملابس أن تلقى الحبيب به  
يوم التزاور في التوب الذي حلما  
الدهر لي مأنهم إن غبت يأملني  
والعيد مادمت لي مرأى ومستعما .  
[ قولهم في الشكر ]  
قال بعضهم الشكر هو العينة عن النعمة برؤية النعم . وقال يحيى بن معاذ الرازي لست بشاكر مادمت تشكر وغاية الشكر

(١) حديث إن النكاح سنة رسول الله صلى الله عليه وسلم تقدم في آداب النكاح .

ولم تحضرني في المراجعة فتوقفت حتى هياها الله تعالى ومات حماد بن سليمان وكان أحد علماء أهل الكوفة قبيل الثوري ألا تشهد جنازته فقال لو كان لي نية لفعلت وكان أحدهم إذا سئل عما من أعمال البر يقول إن رزقني الله تعالى نية فعلت وكان طاوس لا يحدث إلا بنية وكان يسأل أن يحدث فلا يحدث ولا يسأل فيبديءه قيل له في ذلك قال أنتحبون أن أحدث بغير نية إذا حضرته نية فعلت. وحكي أن داود بن الحبر لما صنف كتاب العقل جاءه أحمد بن حنبل فطلبه منه فظهر فيه أحمد صفحا ورده فقال مالك قال فيه أسانيد ضاعف فقال له داود أنا لم أخرجه على الأسانيد فأظهر فيه بعين الخبر إنما نظرت فيه بعين العمل فاستغفرت قال أحمد فردده على حتى أنظر فيه بالعين التي نظرت فأخذه ومكث عنده طويلا ثم قال جزاك الله خيرا فقد انتفعت به وقيل لطاوس ادع لنا فقال حتى أجده نية. وقال بعضهم أنا في طاب نية لزيادة رجل منذ شهر لما صحت لي بعد . وقال عيسى بن كثير مشيت مع ميمون بن مهران فلما انتهى إلى باب داره انصرفت فقال ابنه ألا تعرض عليه العشاء قال ليس من نيتي وهذا لأن النية تتبع النظر فإذا تغير النظر تغيرت النية وكانوا لا يرون أن يعملوا عملا إلا بنية لهم بأن النية روح العمل وأن العمل بغير نية صادقة رياء وتكلف وهو سبب مقت لا سبب قرب وعلموا أن النية ليست هي قول القائل بلسانه نويت بل هو انبعث القلب يجرى مجرى الفتح من الله تعالى فقد تيسر في بعض الأوقات وقد تعذر في بعضها ، نعم من كان الغالب على قلبه أمر الدين تيسر عليه في أكثر الأحوال إحضار النية لخيرات فان قلبه مائل بالجملة إلى أصل الخير فينبعث إلى التفاصيل غالبا ومن مال قلبه إلى الدنيا وغلبت عليه لم تيسر له ذلك بل لا تيسر له في القرض إلا بمجهود جهده وقايتة أن يتذكر النار ويحذر نفسه عقابها أو نعيم الجنة ويرغب نفسه فيها فرجما تنبث له داعية ضعيفة فيكون ثوابه بقدر رغبته ونيتته وأما الطاعة على نية إجلال الله تعالى لاستحقاقه الطاعة والعبودية فلا تيسر للراغب في الدنيا وهذه أعز النيات وأعلاها ويمر على بساط الأرض من يفهمها فضلا عن يتعاطاها ونيات الناس في الطاعات أقسام إذ منهم من يكون عمله إجابة لباعث الخوف فإنه يتقى النار ومنهم من يعمل إجابة لباعث الرجاء وهو الرغبة في الجنة وهذا وإن كان نازلا بالإضافة إلى قصد طاعة الله وتعظيمه لذاته ولجلاله لا لأمر سواه فهو من جملة نيات الصحيحة لأنه ميل إلى الوعود في الآخرة وإن كان من جنس المألوفات في الدنيا وأغلب البواعث باعث الفرج والبطن وموضع قضاء وطرها الجنة فالعامل لأجل الجنة عامل لبطنه وفرجه كالأجير السوء ودرجته درجة البله وإنه لينالها بعمله إذا أكثر أهل الجنة البله وأما عبادة ذوى الأبواب فاتها لا تجاوز ذكر الله تعالى والفكر فيه جبالها وجلاله وسائر الأعمال تكون مؤكدات وروادف وهؤلاء أرفع درجة من الالتفات إلى المنكوح والمطعم في الجنة فاتهم لم يقصدوها بل هم الذين يدعون ربهم بالعبادة والعشى يريدون وجهه فقط وثواب الناس بقدر نياتهم فلا جرم يقتسمون بالنظر إلى وجه الكريم ويسخرون ممن يلتفت إلى وجه الحور العين كما يسخر المتنم بالنظر إلى الحور العين مما يقتسم بالنظر إلى وجه الصور للصنوعة من الطين بل أشد فإن التفاوت بين جمال حضرة الربوبية وجمال الحور العين أشد وأعظم كثيرا من التفاوت بين جمال الحور العين والصور للصنوعة من الطين بل استعظام النفوس البهيمية الشهوانية لقضاء الوطر من مخالطة الحسان وإعراضهم عن جمال وجه الله الكريم يضاهي استعظام الخنفساء لصاحبها وإفهامها وإعراضها عن النظر إلى جمال وجوه النساء فعسى أكثر القلوب عن إحصار جمال الله وجلاله يضاهي عنى الخنفساء عن إدراك جمال النساء فانها لا تشمر به أصلا ولا تلتفت إليه ولو كان لها عقل وذكرن لها لا تحسنت عقل من يلتفت إليهن - ولا يزالون مختلفين - كل حزب بما لديهم فرحون - ولذلك خلقهم -

التعبر وذلك أن  
الشكر نعمة من  
الله يجب الشكر  
عليها وفي أجار داود  
عليه السلام إلى  
كيف أشكرك وأنا  
لا أستطيع أن  
أشكرك إلا بنعمة  
ثانية من نعمك فأوحى  
الله إليه إذا عرفت  
هذا فقد شكرته  
ومعنى الشكر في اللغة  
هو الكشف والانتهاز  
يقال شكر وكشر  
إذا كشف عن قعر  
وأظهره فشر النعم  
وذكرها وتصادها  
بالسان من الشكر  
وباطن الشكر أن  
تستعين بالنعم على  
الطاعة ولا تستعين بها  
على المعصية فهو شكر

حكى أن أحمد بن خضرويه رأى ربه عز وجل في المنام فقال له كل الناس يطلبون من الجنة إلا أبا يزيد  
فان يطلبني ورأى أبو يزيد ربه في المنام فقال يارب كيف الطريق إليك فقال اترك نفسك وتعال إلي .  
وروى الشبلي بعد موته في المنام قيل له ما فعل الله بك فقال لم يطلبني على الدعاوى بالبرهان إلا على قوله  
واحد قلت يوما أي خسارة أعظم من خسران الجنة فقال أي خسارة أعظم من خسران لقائي والغرض  
أن هذه النيات متفاوتة الدرجات ومن غلب على قلبه واحدة منها ربما لا يتيسر له العدول إلى غيرها  
ومعرفة هذه الحقائق تورث أعمالا وأفعالا لا يستنكرها الظاهريون من الفقهاء فانا نقول من حضرت  
له نية في مباح ولم تحضر في فضيلة فالمباح أولى وانتقلت الفضيلة إليه وصارت الفضيلة في حقه بقصة  
لأن الأعمال بالنيات وذلك مثل العفو فانه أفضل من الانتصار في الظلم وربما تحضره نية في الانتصار  
دون العفو فيكون ذلك أفضل ومثل أن يكون له نية في الأكل والشرب والنوم ليربح نفسه ويتقوى  
على العبادات في المستقبل وليس تنبث نيته في الحالين للصوم والصلاة فالأكل والشرب والنوم هو الأفضل له  
بل لو مل العبادات لمواظبته عليها وسكن نشاطه وضعفت رغبته وعلم أنه لو ترفع ساعة بلم ووحدت عاد  
نشاطه فاللهو أفضل له من الصلاة . قال أبو الدرداء إني لأستجم نفسي بشئ من الله فيكون ذلك عوننا  
لى على الحق وقال على كرم الله وجهه روحوا القلوب فانها إذا كرهت عمت وهذه دقائق لا يدركها  
إلا بممارسة العلماء دون الحشوية منهم بل الحاذق بالطب قد يعالج المحرور بالحكم مع حرارته ويستعبده  
القاصر في الطلب وإنما ينتفى به أن يجد أولا قوته ليحتمل العالجة بالصد والحاذق في لعب الشطرنج  
مثلا قد ينزل عن الرخ والفرس عجائبا ليتوصل بذلك إلى الغلبة والضعيف البصيرة قد يضحك به ويتجب  
منه وكذلك الخبير بالقتال قد يفر بين يدي قرينه ويوليه دبره حيلة منه ليستجره إلى مضيق فيسكر  
عليه فيقهره فكذلك سلوك طريق الله تعالى كله قتال مع الشيطان ومعالجة للقلب والبصير الموفق  
يقف فيها على لطائف من الحيل يستعبد بها الضعفاء فلا ينبغي للمريد أن يضمن إنكارا على ما يراه من شيخه  
ولا لا تعلم أن يعترض على أستاذه بل ينبغي أن يقف عند حد بصيرته وما لا يهيم به من أحوالهما يسلمهما  
لهما إلى أن ينكشف له أسرار ذلك بأن يبلغ رتبتهما وينال درجتهما ومن الله حسن التوفيق .  
( الباب الثاني في الاخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته )

### ( فضيلة الاخلاص )

قال الله تعالى - وما أمروا إلا ليعبدوا الله مخلصين له الدين - وقال - ألا لله الدين الخالص - وقال تعالى  
- إلا الذين تابوا وأصلحوا واعتصموا بالله وأخلصوا دينهم لله - وقال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه  
فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - نزلت فيمن يعمل لله ويجب أن يحمده عليه وقال  
النبي صلى الله عليه وسلم « ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله <sup>(١)</sup> » وعن مصعب بن  
سعد عن أبيه قال « ظن أبي أن له فضلا على من هو دونه من أصحاب رسول الله ﷺ فقال النبي صلى الله  
عليه وسلم إنما نصر الله عز وجل هذه الأمة بضعفائهم وإخلاصهم وصلاتهم <sup>(٢)</sup> » وعن الحسن  
قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يقول الله تعالى الاخلاص سر من سرى استودعته قلب من

### ( الباب الثاني في الاخلاص )

(١) حديث ثلاث لا يغل عليهن قلب رجل مسلم إخلاص العمل لله الترمذى وصححه من حديث  
النعمان بن بشير (٢) حديث مصعب بن سعد عن أبيه أنه ظن أن له فضلا على من دونه من أصحاب  
النبي صلى الله عليه وسلم فقال النبي صلى الله عليه وسلم إنما نصر الله هذه الأمة بضعفائهم ودعوتهم  
وإخلاصهم رواه النسائي وهو عند البخارى بلفظ هل تصرون وترزقون إلا بضعفائكم .

النعمة . وصيحت شيخنا  
رحمه الله ينشد عن  
بعضهم :  
أوليتني نعماً أبوح  
بشكرها  
وكفيتني كل الأمور  
بأسرها  
فلا أشكرنك ما حبيت  
وإن أمت  
فلتشكرنك أعظمي  
في قبرها .  
قال رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« أول من يدعى إلى  
الجنة يوم القيامة الذين  
يحمدون الله في السراء  
والضراء » . وقال  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم « من ابتلى فصر  
وأعطى فشكر وظلم  
فغفر وظلم فاستغفر »  
قيل فما باله قال « أولئك



أحببت من عبادي (١) « وقال علي بن أبي طالب كرم الله وجهه لاتبهوا لقلة العمل واهتموا للقبول فان النبي صلى الله عليه وسلم قال لمعاذ بن جبل «أخلص العمل يحرك منه القليل (٢)» وقال عليه «مامن عبد يخلص لله العمل أربعين يوما إلا ظهرت بتاييس الحكمة من قلبه على لسانه (٣)» وقال عليه السلام «أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم فيقول الله تعالى ما صنعت فيما علمت فيقول يارب كنت أقوم به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم ألا فتدقيل ذلك ورجل آتاه الله ما لا فيقول الله تعالى لقد أنعمت عليك فماذا صنعت فيقول يارب كنت أنصدق به آتاه الليل وأطراف النهار فيقول الله تعالى كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان جواد ألا فتدقيل ذلك ورجل قل في سبيل الله تعالى فيقول الله تعالى ماذا صنعت فيقول يارب أمرت بالجهاد فقاتلت حتى قتلت فيقول الله كذبت وتقول لللائكة كذبت بل أردت أن يقال فلان شجاع ألا فتدقيل ذلك قال أبو هريرة ثم خط رسول الله ﷺ على غدي وقال يا باهريرة أولئك أول خلق تسعر نار جهنم يوم القيامة (٤)» فدخل راوى هذا الحديث على معاوية وروى له ذلك فبكي حتى كادت نفسه تزحف ثم قال صدق الله إذ قال - من كان يريد الحياة الدنيا وزينتها - الآية وفي الأسر إيليات أن عابدا كان يعبد الله دهرا طويلا فجاءه قوم فقالوا إن ههنا قوم ما يعبدون شجرة من دون الله تعالى فغضب لذلك وأخذ فأسه على عاتقه وقصد الشجرة ليقطعها فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال أين تريد رحلك الله قال أريد أن أقطع هذه الشجرة قال وما أنت وما ذلك تركت عبادتك واشتغلتك بنفسك وتفرغت لغير ذلك فقال إن هذا من عبادتي قال فإني لا أتركك أن تقطعها فقاتله فأخذه العابد فطرحه إلى الأرض وقعد على صدره فقال له إبليس أطلقني حتى أكلك فقام عنه فقال إبليس يا هذا إن الله تعالى قد أسقط عنك هذا ولم يفرضه عليك وما تعبدها أنت وما عليك من غيرك والله تعالى أنبياء في أقاليم الأرض ولوشاء بعبادهم إلى أهلها وأمرهم بقطعها فقال العابد لا بد لي من قطعها فذا بداه للقتال فغلبه العابد وصرعه وقعد على صدره فجزز إبليس فقال له هل لك في أمر فصل بيني وبينك وهو خير لك وأنقع قال وما هو قال أطلقني حتى أقول لك فأطلقته فقال إبليس أنت رجل فقير لاشئ لك إنما أنت كل على الناس يعولونك ولعلك تحب أن تتفضل على إخوانك وتواسي جيرانك وتشبع وتستغنى عن الناس قال نعم قال فارجع عن هذا الأمر ولك على أن أجعل عند رأسك في كل ليلة دينارين إذا أصبحت أخذتهم فأنفقت على نفسك وعيالك وتصدقت على إخوانك فيكون ذلك أنقع لك وللمسلمين من قطع هذه الشجرة التي يفرس مكانها ولا يضرهم قطعها شيئا ولا ينفع إخوانك المؤمنين قطعك إياها فتفكر العابد فيما قال وقال صدق الشيخ لست بنبي فيلزمي قطع هذه الشجرة ولا أمرني الله أن أقطعها فأكون عاصيا بتركها

(١) حديث الحسن مرسل يقول الله تعالى الإخلاص سر من سرى استودعته قلب من أحببت من عبادي رويناه في جزء من مسلسلات القزويني مسلسلا يقول كل واحد من رواة سأل فلانا عن الإخلاص فقال وهو من رواية أحمد بن عطاء الهجيمي عن عبد الواحد بن زيد عن الحسن عن حذيفة عن النبي صلى الله عليه وسلم عن جبريل عن الله تعالى وأحمد بن عطاء وعبد الواحد كلاهما متروك وهما من الزهاد ورواه أبو القاسم القشيري في الرسالة من حديث علي بن أبي طالب بسند ضعيف (٢) حديث أنه قال لمعاذ أخلص العمل يحرك منه القليل أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث معاذ وإسناده منقطع (٣) حديث مامن عبد يخلص لله أربعين يوما ابن عدي ومن طريقه ابن الجوزي في الموضوعات عن أبي موسى وقد تقدم (٤) حديث أول من يسأل يوم القيامة ثلاثة رجل آتاه الله العلم الحديث وقد تقدم .

لهم الأمن وهم مهتدون . وقال الجليلي فرض الشكر الاعتراف بالنعمة بالقلب واللسان . وفي الحديث «أفضل الذكر لإله إلا الله وأفضل الدعاء الحمد لله» . وقال بعضهم في قوله تعالى - وأسبغ عليكم نعمه ظاهرة وباطنة - قال الظاهرة العوافي والغنى والباطنة البسلاوي والفقر فان هذه نعم أخروية لما يستوجب بها من الجزاء . وحقبة الشكر أن يرى جميع المقضى له به نعمًا غير ما يضره في دينه لأن الله تعالى لا يقضى للعبد المؤمن شيئًا إلا وهو نعمته في حقه فإما عاجلة

وما ذكره أكثر منفعة فعاهده على الوفاء بذلك وحاف له فرجع العابد إلى متعبه فبات فلما أصبح رأى دينار بن عند رأسه فأخذهما وكذلك الغد ثم أصبح اليوم الثالث وما بعده فلم ير شيئا فغضب وأخذ فأسه على عاتقه فاستقبله إبليس في صورة شيخ فقال له إلى أين ؟ قال أقطع تلك الشجرة فقال كذبت والله ما أنت بقادر على ذلك ولا سبيل لك إليها قل فتناوله العابد ليفعل به كما فعل أول مرة فقال هيراث فأخذه إبليس وصرعه فاذا هو كالصفور بين رجله وقعد إبليس على صدره وقال لتبين عن هذا الأمر أولا لأذبحنك فنظر العابد فاذا لاطاقة له به قال يا هذا غلبتني غلّ غنى وأخبرني كيف غلبتك أولا وغلبتني الآن فقال لأنك غضبت أول مرة لله وكانت نيتك الآخرة فسخرني الله لا يوهنه للرة غضبت لنفسك وللدينا فصرعتك وهذه الحكايات تصديق قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - إذ لا يتخلص العبد من الشيطان إلا بالأخلاص ولذلك كان معروف السرخي رحمه الله تعالى يضرب نفسه ويقول يا نفس أخلصي تتخلصي . وقال يعقوب الكفوف : المخلص من يكتم حسنه كما يكتم سيئانه . وقال سليمان : طوبى لمن سحت له خطوة واحدة لا يريد بها إلا الله تعالى ، وكتب عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه إلى أبي موسى الأشعري : من خلعت نيته كفاه الله تعالى ما بينه وبين الناس ، وكتب بعض الأولياء إلى أخ له أخلص النية في أتمالك بكفك القليل من العمل . وقال أيوب السخيتاني : تخلص النيات على العمل أشد عليهم من جميع الأعمال ، وكان مطرف يقول من صفا صفي له ومن خلط خلط عليه . وروى بعضهم في المنام قيل له كيف وجدت عمالك ؟ فقال كل شيء عملته لله وجدته حتى حبة رمان لتقطها من طريق وحتى هرة ماتت لنا رأيتها في كفة الحسنات وكان في قلنسوتي خيط من حرير فرأيتها في كفة السيئات وكان قد تقى حماري قيمته مائة دينار فخاريتها له ثوبا فقلت موت سنور في كفة الحسنات وموت حماري فيها فقبل لي إنه قد وجّه حيث بعث به فانه لما قيل لك قد مات قلت في لعنة الله فبطل أجرك فيه ولوقلت في سبيل الله لوجدته في حسناتك . وفي رواية قال وكنت قد صدقت بصدقة بين الناس فأهينى نظرم إلى فوجدت ذلك لأعلى ولألى . قال سفيان لما سمع هذا ما أحسن حاله إذ لم يكن عليه فقد أحسن إليه . وقال يحيى بن معاذ : الاخلاص يميز العمل من العيوب كتمييز اللبن من القث والهم ، وقيل كان رجل يخرج في زى النساء ويحضر كل موضع يجتمع فيه النساء من عرس أو مأتم فاتفق أن حضر يوما موضعا فيه مجمع للنساء فسرقت درة فصاحوا أن أغلقوا الباب حتى نفقش فكانوا يفتشون واحدة واحدة حتى بلغت التوبة إلى الرجل وإلى امرأة معه فدعا الله تعالى بالأخلاص وقال إن نجوت من هذه القضية لأعود إلى مثل هذا فوجدت الدرّة مع تلك المرأة فصاحوا أن أطلقوا الدرّة فقد وجدنا الدرّة . وقال بعض الصوفية : كنت قائما مع أبي عبيد التستري وهو يحرق أرضه بعد العصر من يوم عرفة فمر به بعض إخوانه من الأبدال فساره بشي فقال أبو عبيد لا ، فمر كالسحاب يمسح الأرض حتى غاب عن عيني فقلت لأبي عبيد ما قال لك ؟ فقال سألني أن أحج معه قلت لا قلت فملا فقلت ؟ قال ليس لي في الحج نية وقد زيت أن أتم هذه الأرض العسية فأخاف إن حججت معه لأجله تعرضت لمقت الله تعالى لأنني أدخل في عمل الله شيئا غيره فيكون ما أنا فيه أعظم عندي من سبعين حجة . وروى عن بعضهم قال : غزوت في البحر فمرض بضنا عملا فقلت اشتريها فأنتفع بها في غزوي فاذا دخلت مدينة كذا بعتها فربعت فيها فاشتريتها فرأيت تلك القبة في النوم كأن شخصين قد نزلا من السماء فقال أحدهما لصاحبه اكتب الغزاة فأملى عليه خرج فلان منزها وفلان مرانها وفلان تاجرا وفلان في سبيل الله ثم نظر إلى وقال اكتب فلان خرج تاجرا فقلت

بصرفها ويصرفها وإما آجلة بما يقضى له من المكارة فاما أن تكون درجة له أو تنجيسا أو تكفيرا فاذا علم أن مولاه أنصح له من نفسه وأعلم بمصالحه وأن كل ما منه نعم فقد شكر .

[قولهم في الخوف]  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «رأس الحكمة مخافة الله» وروى عنه عليه الصلاة والسلام أنه قال «كان داود النبي عليه السلام يعود الناس يظنون أن به مرضا وما به مرض إلا خوف الله تعالى والحياء منه» قال أبو عمر الدمشقي الخائف من يخاف من

الله في أمرى ماخرجت أنجر وما مئى تجارة أنجر فيها ماخرجت إلا للزوق قال بالشيخ قد اشترت أمى عملة تريد أن تبيع فيها فبكيت وقلت لا تسكتبونى تاجرا فنظر إلى صاحبه وقال ما ترى فقال اكتب خرج فلان غازيا إلا أنه اشترى في طريقه عملة ليربع فيها حتى يحكم الله عز وجل فيه بما يرى . وقال سرى السقطى رحمه الله تعالى : لأن تصلى ركعتين في خلوة تخلصهما خير لك من أن تسكتب سبعين حديثا أو سبعائة بعلو . وقال بعضهم في إخلاص ساعة نعمة الأبد ولكن الاخلاص عزيز ويقال العلم بذر والعمل زرع وماؤه الاخلاص . وقال بعضهم إذا أنقض الله عبدا أعطاه ثلاثا ومنعه ثلاثا أعطاه محبة الصالحين ومنعه القبول منهم وأعطاه الأعمال الصالحة ومنعه الاخلاص فيها وأعطاه الحكمة ومنعه الصدق فيها . وقال السوسى : مراد الله من عمل الخلائق الاخلاص فقط . وقال الجنيدي : إن لله عبادا عقلوا فلما عملوا فلما عملوا أخلصوا فاستدعاهم الاخلاص إلى أبواب البر أجمع . وقال محمد بن سعيد المروزي : الأمر كله يرجع إلى أصلين فصل منه بك وفصل منك له فترضى ما فعل وتخلص فيما تعمل فاذن أنت قد سمعت بهذين وفزت في الدارين .

### ( بيان حقيقة الاخلاص )

اعلم أن كل شيء يتصور أن يشوبه غيره فإذا صفا عن شوبه وخلص عنه سمى خالصا ويسمى الفعل الصفي الخاص إخلاصا قال الله تعالى - من بين فوثن ودم لبنا خالصا سائغا للشاربين - فإعنا خلوص اللب أن لا يكون فيه شوب من الدم والفوثن ومن كل ما يمكن أن يمتزج به والاخلاص يضاده الاشتراك فمن ليس مخلصا فهو مشترك إلا أن المشترك درجات فالإخلاص في التوحيد يضاده التشريك في الإلهية والشرك منه خفى ومنه جلى وكذا الاخلاص والاخلاص وضده يتواردان على القلب فتحله القلب وإنما يكون ذلك في التصود والنيات وقد ذكرنا حقيقة الية وأنها ترجع إلى إجابة البواعث فمهما كان الباعث واحدا على التجرد مسمى الفعل الصادر عنه إخلاصا بالإضافة إلى النوى فمن تصدق وغرضه محض الرياء فهو محاص ومن كان غرضه محض التقرب إلى الله تعالى فهو مخلص ولكن العادة جارية بتخصيص اسم الاخلاص بتجريد قصد التقرب إلى الله تعالى عن جميع الشوائب كما أن الاتحاد عبارة عن البيل ولكن خصصته العادة بالبيل عن الحق ومن كان باعته مجرد الرياء فهو معرض للهلاك واسنا تتكلم فيه إذ قد ذكرنا ما يتعلق به في كتاب الرياء من ربيع المهلكات وأقل أموره ماورد في الخبر من « إن الرائى يدعى يوم القيامة بأربع أسام يامرأى ياخذع يا شريك يا كافر (١) » وإنما تتكلم الآن فيمن انبعث لقصد التقرب ولكن امتزج بهذا الباعث باعث آخر إما من الرياء أو من غيره من حظوظ النفس ومثال ذلك أن يصوم لينتفع بالحلمة الحاصلة بالصوم مع قصد التقرب أو يعتق عبدا ليتخلص من مؤنته وسوء خلقه أو يحج ليصح مزاجه بحركة السفر أو يتخلص من شر يعرض له في بلد أو ليهرب عن عدوه في منزله أو يتبرم بأهله وولده أو يشغل هو فيه فأراد أن يستريح منه أياما أو ليفزو وليمارس الحرب ويتعلم أسبابه ويقدر به على تهيشه الساكر وجرحها أو يصلى بالليل وله غرض في دفع الناس عن نفسه به ليراقب أهله أو رحله أو يعلم العلم ليسهل عليه طلب ما يكفيه من المال أو ليكون عزيا بين المشبهة أو ليسكون عقاره أو ماله محروسا بمن العلم عن الأطماع أو اشتغل بالدريس والوعظ ليتخلص عن كرب الصحة ويتفرج بلذة الحديث أو تكفل بخدمة العلماء والصوفية لتكون حرمته وافرة عندهم وعند الناس أو لينال برفقا في الدنيا

(١) حديث إن الرائى يدعى يوم القيامة يامرأى ياخذع الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والاخلاص وقد تهمد .

نفسه أكثر مما يخاف من الشيطان . وقال بعضهم ليس الخائف من بيكى وبمسح عينيه ولكن الخائف التارك ما يخاف أن يجذب عليه . وقيل الخائف الذى لا يخاف غير الله قيل أى لا يخاف لنفسه إنما يخاف إجلالا له والخوف للنفس خوف العقوبة . وقال سهل الخوف ذكر والرجاء أنقى أى منهما تولد حقائق الإيمان . قال الله تعالى - ولقد وصينا الذين أوتوا الكتاب من قبلكم وإياكم أن اتقوا الله - . قيل هذه الآية قطب القرآن لأن مدار

أو كتب مصحفا ليجود بالموظبة على الكتابة خطه أو حج ماشيا ليخفف عن نفسه السكراء أو تواضعا ليتذلف أو يثرد أو اغتسل لتطيب رائحته أو روى الحديث ليعرف بعلوم الاسناد أو اعتكف في المسجد ليخف كراء السكن أو صام ليخفف عن نفسه التردد في طبع الطعام أو ليتفرغ لأشغاله فلا يشغله الأكل عنها أو تصدق على السائل ليقطع إبرامه في السؤال عن نفسه أو يعود من رضا العباد إذا مرض أو يشيع جنازة ليشيع جنازة أهله أو يفعل شيئا من ذلك ليعرف بالخير ويدكر به وينظر إليه بعين الصلاح والوقار فمهما كان باعته هو التقرب إلى الله تعالى والسكن انضاف إليه خطرة من هذه الخطرات حتى صار العمل أخف عليه بسبب هذه الأمور فقد خرج عمله عن حد الاخلاص وخرج عن أن يكون خالصا لوجه الله تعالى وتطرق إليه الشرك وقد قال تعالى «أنا أغنى الشركاء عن الشرك» وبالجملة كل حظ من حظوظ الدنيا تستريح إليه النفس ويعيل إليه القلب قل أم كثر إذا تطرق إلى العمل تكدر به صفوه وزال به إخلاصه والإنسان مرتبط في حظوظه منغمس في شهوته قلما ينفك فعل من أفعاله وعبادة من عباداته عن حظوظ وأغراض عاجلة من هذه الأجناس فلذلك قيل من سلم له من عمره لحظة واحدة خالصة لوجه الله نجا وذلك لعزة الاخلاص وعسر تنقية القلب عن هذه الشوائب بل الخالص هو الذي لا يباعث عليه إلا طلب القرب من الله تعالى وهذه الحظوظ إن كانت هي الباعثة وحدها فلا يغنى شدة الأمر على صاحبه فيها وإنما نظرنا فيها إذا كان القصد الأصلي هو التقرب وانضافت إليه هذه الأمور ثم هذه الشوائب إما أن تكون في رتبة المواقفة أو في رتبة المشاركة أو في رتبة المعاونة كما سبق في النية ، وبالجملة فاما أن يكون الباعث النفسى مثل الباعث الدينى أو أقوى منه أو أضعف ولكل واحد حكم آخر كما سنذكره وإنما الاخلاص تخليص العمل عن هذه الشوائب كلها قليلا وكثيرا حتى يتجرد فيه قصد التقرب فلا يكون فيه باعث سواء وهذا لا يتصور إلا من محب لله مستتر بالله مستغرق الهم بالآخرة بحيث لم يبق لحب الدنيا في قلبه قرار حتى لا يغب الأكل والشرب أيضا بل تكون رغبته فيه كرهته في قضاء الحاجة من حيث إنه ضرورة الجلبة فلا يشتهى الطعام لأنه طعام بل لأنه يقويه على عبادة الله ويتمنى أن لو كفى شر الجوع حتى لا يحتاج إلى الأكل فلا يبقى في قلبه حظ من الفضول الزائدة على الضرورة ويكون قدر الضرورة مطلوبا عنه لأنه ضرورة دينه فلا يكون له هم إلا الله تعالى فمثل هذا الشخص لو أكل أو شرب أو قضى حاجته كان خالص العمل صحيح الية في جميع حركاته وسكناته فلو نام مثلا حتى يرجع نفسه ليتقوى على العبادة بعده كان نومه عبادة وكان له درجة الخاصين فيه ومن ليس كذلك فباب الاخلاص في الأعمال مسدود عليه إلا على الدور وكما أن من غلب عليه حب الله وحب الآخرة فاكتمت حركاته الاعتيادية صفة همه وصارت إخلاصا فالتى يغلب على نفسه الدنيا والعلو والرياسة ، وبالجملة غير الله فقد اكتمت جميع حركاته تلك الصفة فلا تسلم له عباداته من صوم وصلاة وغير ذلك إلا نادرا فإذا نزل علاج الاخلاص كسر حظوظ النفس وقطع الطمع عن الدنيا والتجرد للآخرة بحيث يغلب ذلك على القلب فاذا تيسر الاخلاص وكمن أعمال يتعب الإنسان فيها ويظن أنها خالصة لوجه الله ويكون فيها مغرورا لأنه لا يرى وجه الآفة فيها كما حكى عن بعضهم أنه قال قضيت صلاة ثلاثين سنة كنت صليتها في المسجد في الصف الأول لأنى تأخرت يوما لعذر فصليت في الصف الثانى فاعتزنى خجلة من الناس حيث رأوتنى في الصف الثانى فعرفت أن نظر الناس إلى فى الصف الأول كان مسرئى وسبب استراحة قلبي من حيث لا أشعر وهذا دقيق غامض قلما تسلم الأعمال من أمثاله وقل من ينذبه له إلا من وقفه الله تعالى والغاللون عنه يرون حسناتهم كلها في الآخرة سيئات وهم الرادون بقوله تعالى - وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحتسبون - وبدا لهم سيئات ما كسبوا -

الأمر كله على هذا .  
وقيل إن الله تعالى جمع للخائفين مافرقه على المؤمنين وهو الهدى والرحمة والعلم والرضوان فقال تعالى - هدى ورحمة للذين هم لربهم يرهبون - وقال - إنما يخشى الله من عباده العلماء - وقال - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - . وقال سهل: كالإيمان بالعالم وكال العلم بالخوف . وقال أيضا: العلم كعب الإيمان والخوف كعب المعرفة . وقال ذوالنون: لا يسقى المحب كأس المحبة إلا من بعد أن ينضج الخوف قلبه . وقال فضيل بن عياض

ويقوله تعالى - قل هل ننبئكم بالأخسرين أعمالا الذين ضلّ سعيهم في الحياة الدنيا وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا - وأشدّ الخلق تعرضا لهذه الفتنة العلماء فان الباعث اللاكثيرين على نشر العلم للذة الاستيلاء والفرح بالاستتباع والاستبشار بالحمد والشاء والسيطان يلبس عليهم ذلك ويقول غرضكم نشر دين الله والنضال عن الشرع الذي شرعه رسول الله صلى الله عليه وسلم وترى الواعظين على الله تعالى بنصيحة الخلق ووعظه للسلطين ويفرح بقبول الناس قوله وإقبالهم عليه وهو يدعى أنه يفرح بما يسره من نصرة الدين ولوظهر من أقرانه من هو أحسن منه وعظا وانصرف الناس عنه وأقبلوا عليه ساءه ذلك وغمه ولو كان باعته الدين لشكر الله تعالى إذ كفاه الله تعالى هذا المهم بغيره ثم الشيطان مع ذلك لا يخليه ويقول إننا غمك لا تقطاع الثواب عنك لا لانصراف وجوه الناس عنك إلى غيرك إذ لو انعطوا بقولك لكنت أنت المصاب واعمالك لقوات الثواب محمود ولا يدري السكين أن انقياده للحق وتسليمه الأمر أفضل وأجزل ثوابا وأعود عليه في الآخرة من انقراذه ، وليت شعري لو اعتم عمر رضي الله عنه بتصدع أبي بكر رضي الله تعالى عنه للامامة أ كان غمه محمودا أم مذموما ولا يستريب ذو دين أن لو كان ذلك لكان مذموما لأن انقياده للحق وتسليمه الأمر إلى من هو أصلح منه أعود عليه في الدين من تكفله بمصالح الخلق مع ما فيه من الثواب الجزيل بل فرح عمر رضي الله تعالى عنه باستقلال من هو أولى منه بالأمر ، فما بال العلماء لا يفرحون بمثل ذلك وقد يتخذه بعض أهل العلم بفرور الشيطان فيحدث نفسه بأنه لو ظهر من هو أولى منه بالأمر لفرح به وإخياره بذلك عن نفسه قبل التجربة والامتحان محض الجهل والغرور فان النفس سهلة الفياذ في الوعد بأمثال ذلك قبل نزول الأمر ، ثم إذا دهاه الأمر تغير ورجع ولم يف بالوعد وذلك لا يعرفه إلا من عرف مكاييد الشيطان والنفس وطال اشتغاله بامتحنائها فمعرفة حقيقة الاخلاص والعمل به بحر عميق يفرق فيه الجميع إلا الشاذ النادر والقرء القذ وهو المستثنى في قوله تعالى - لإعبادك منهم المخلصين - فليكن البعد شديد التقدير والمراقبة لهذه الدقائق وإلا التحق باتباع الشياطين وهو لا يشعر.

### ( بيان أقاويل الشيوخ في الإخلاص )

قال الموسى : الاخلاص فقد رؤية الاخلاص ، فان من شاهد في إخلاصه الاخلاص فقد احتاج إخلاصه إلى إخلاص ، وما ذكره إشارة إلى تصفية العمل عن العجب بالفعل فإن الالتفات إلى الاخلاص والنظر إليه عجب ؛ وهو من جملة الآفات . والخالص : ما صفا عن جميع الآفات فهذا تعرض لآفة واحدة . وقال سهل رحمه الله تعالى : الاخلاص أن يكون سكون العبد وحركاته لله تعالى خاصة ، وهذه كلمة جامعة محيطه بالفرض وفي معناه قول إبراهيم بن أدهم : الإخلاص صدق النية مع الله تعالى . وقبل لسهل أى شئ أشد على النفس ، فقال : الاخلاص إذ ليس لها فيه نصيب . وقال رويم : الاخلاص في العمل هو أن لا يريد صاحبه عليه عوضا في الدارين ، وهذا إشارة إلى أن حظوظ النفس آفة آجلا وعاجلا والعابد لأجل تنعم النفس بالشهوات في الجنة معاول بل الحقيقة أن لا يراد بالعمل إلا وجه الله تعالى وهو إشارة إلى إخلاص الصديقين وهو الاخلاص المطلق . فأما من يعمل لرجاء الجنة وخوف النار فهو مخلص بالإضافة إلى الحظوظ العاجلة وإلا فهو في طلب حظ البطن والفرج وإنما المطلوب الحق لذوى الأبواب وجه الله تعالى فقط ، وهو القائل لا يتحرك الانسان الا لخط والبراءة من الحظوظ صفة الالهية ، ومن ادعى ذلك فهو كافر . وقد قضى القاضي أبو بكر الباقلاني بتكفير من يدعى البراءة من الحظوظ وقال هذا من صفات

إذا قيل لك تخاف الله  
اسكت فانك ان قلت لا  
كفرت وان قلت نعم  
كذبت فليس وصفك  
وصف من يخاف .  
[قولهم في الرجاء] قال  
رسول الله صلى الله عليه  
وسلم يقول الله  
عز وجل أخرجوا من  
النار من كان في قلبه  
مثقال حبة من خردل  
من إيمان ثم يقول  
وعزني وجسالي  
لا أجعل من آمن بي  
من ساعة من ليل  
أو نهار كمن لا يؤمن  
بي . قيل « جاء أعرابي  
إلى رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقال من يلى  
حساب الخلق ؟ فقال  
الله تبارك وتعالى قال  
هو بنفسه ؟ قال نعم

الإلهية وما ذكره حق ، ولكن القوم إنما أرادوا به البراءة عما يسميه الناس حظوظا ، وهو الشوائب الموصوفة في الجنة فقط . فأما التلذذ بمجرد المعرفة والناجاة والنظر إلى وجه الله تعالى . فهذا حظ هؤلاء وهذا لا يبعد الناس حظا بل يتعجبون منه . وهؤلاء لو عوضوا عما هم فيه من لذّة الطاعة والناجاة وملزمة الشهود لحضرة الإلهية سرّا وجهرا جميع نعيم الجنة لاستحققوه ولم يلتفتوا إليه فحركتهم لحظ وطاعتهم لحظ ولكن حظهم معبودهم فقط دون غيره . وقال أبو عثمان : الاخلاص نسيان رؤية الخلق بدوام النظر إلى الخالق فقط وهذا إشارة إلى آفة الرياء فقط وذلك قال بعضهم الاخلاص في العمل : أن لا يطلع عليه شيطان فيفسده ولا ملك فيكتبه فانه إشارة إلى مجرد الاخفاء . وقد قيل الاخلاص : ما استر عن الخلائق وصفا عن العلائق وهذا أجمع للمقاصد . وقال المحاسبي : الاخلاص هو إخراج الخلق عن معاملة الرب وهذا إشارة إلى مجرد نفي الرياء وكذلك قول الخواص : من شرب من كأس الرياسة قد خرج عن إخلاص العبودية . وقال الخواريون لعيسى عليه السلام : ما الخالص من الأعمال فقال الذي يصل لله تعالى لا يجب أن يحمده عليه أحد وهذا أيضا تعرض لترك الرياء وإنما خصه بالذكر لأنه أقوى الأسباب المشوشة للاخلاص . وقال الجليل : الاخلاص تصفية العمل من السكدرات . وقال الفضيل : ترك العمل من أجل الناس رياء والعمل من أجل الناس شرك والاخلاص أن يعافيك الله منهما . وقيل : الاخلاص دوام الرقابة ونسيان الحفظ كلها وهذا هو البيان الكامل والأقاويل في هذا كثيرة . ولا فائدة في تكرير النقل بعد انكشاف الحقيقة وإنما البيان الشافي يان سيد الأولين والآخرين صلى الله عليه وسلم « إذ سئل عن الاخلاص فقال : أن تقول ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت (١) » أي لا تعبد هواك ونفسك ولا تعبد إلا ربك وتستقيم في عبادته كما أمرت وهذا إشارة إلى قطع ما سوى الله عن مجرى النظر وهو الاخلاص حقا .

( بيان درجات الشوائب والآفات السكدرية للاخلاص )

اعلم أن الآفات المشوشة للاخلاص بعضها جلي وبعضها خفي وبعضها ضئيف مع الجلاء وبعضها قوى مع الخفاء ولا يفهم اختلاف درجاتها في الخفاء والجلاء إلا بمثال . وأظهر مشوشات الاخلاص الرياء فلنذكر منه مثالا . فنقول : الشيطان يدخل الآفة على الصلّي مهم ، من مخلصا في صلاته ثم نظر إليه جماعة أو دخل عليه داخل فيقول له حسن صلاتك حتى ينظر اليك هذا الحاضر بعين الوقار والصلاح ولا يزدريك ولا يتأبك فتخضع جوارحه وتسكن أطرافه وتحسن صلاته وهذا هو الرياء الظاهر ولا يغني ذلك على البتة من الريدين . الدرجة الثانية يكون المريد قد فهم هذه الآفة وأخذ منها حذره فصار لا يطيع الشيطان فيها ولا يلتفت إليه ويستمر في صلاته كما كان فيأتيه في معرض الخير ويقول أنت متبوع ومقتدى بك ومنظور اليك وماتقعله يؤثر عنك ويتأسى بك فغيرك فيكون لك ثواب أعمالهم إن أحسنت عليك الوزر إن أسأت فأحسن عملك بين يديه فصاء يقتدى بك في الحشوع وتحسين العبادة وهذا أغصن من الأول وقد ينخدع به من لا ينخدع بالأول وهو أيضا

(١) حديث سئل عن الاخلاص فقال أن تقول : ربّي الله ثم تستقيم كما أمرت لم أره بهذا اللفظ ولقترمذني وصحبه وابن ماجه من حديث سفيان بن عبد الله الثقفى قلت يا رسول الله حدثني بأمر أعظم به قال قل ربّي الله ثم استقم وهو عند مسلم بلفظ : قل لي في الاسلام قولاً لا أسأل عنه أحدا بعدك قال قل آمنت بالله ثم استقم .

فتبسم الأعرجي فقال النبي صلى الله عليه وسلم م ضحككت يا أعرجي ؟ فقال إن الكريم إذا قدر عفا وإذا حاسب سامح . وقال شاه الكرمانى : علامة الرجاء حسن الطاعة . وقيل : الرجاء رؤية الجلال بين الجلال . وقيل : قرب القلب من ملاطفة الرب . قال أبو طي الرودباري : الخشوف والرجاء بكناسي الطائر إذا استويا استوى الطائر وتم في طيرانه . قال أبو عبد الله بن خفيف : الرجاء ارتياح القلوب لرؤية كرم المرجو . قال مطرف : لو

عين الرياء ومبطل للاخلاص فانه إن كان يرى الخشوع وحسن العبادة خيرا لا يرضى لغيره تركه فلم  
لم يرتض لنفسه ذلك في الخلوة ولا يمكن أن تكون نفس غيره أعز عليه من نفسه فهذا بعض التلبس  
بل المقتدى به هو الذي استقام في نفسه واستقام قلبه فانتشر نوره إلى غيره فيكون له ثواب عليه فأما  
عذا فمحض التفاق والتلبس فمن اقتدى به أثيب عليه . وأما هو فيطالب بتلبسه ويعاقب على إظهاره  
من نفسه ما ليس متصفا به . الدرجة الثالثة وهي أدق مما قبلها أن يجرب العبد نفسه في ذلك ويتنبه لكيد  
الشیطان ويعلم أن مخالفته بين الخلوة والشاهدة للغير محض الرياء ويعلم أن الاخلاص في أن تكون  
صلاته في الخلوة مثل صلاته في الملأ ويستحي من نفسه ومن ربه أن يتخضع لمشاهدة خلقه تخشعا  
رائدا على عادته فيقبل على نفسه في الخلوة ويحسن صلاته على الوجه الذي يرتضيه في الملأ ويصلي في الملأ  
أيضا كذلك فهذا أيضا من الرياء الغامض لأنه حسن صلاته في الخلوة لتحسن في الملأ فلا يكون قد  
فرق بينها فالنفاة في الخلوة والملأ إلى الخلق بل الإخلاص أن تكون مشاهدة البهائم لصلاته ومشاهدة  
الخلق على وتيرة واحدة فكأن نفس هذا ليست تسمح بإساءة الصلاة بين أظهر الناس ثم يستحي  
من نفسه أن يكون في صورة للرأين ويظن أن ذلك يزول بأن تستوى صلاته في الخلوة وللأوهيات  
بل زوال ذلك بأن لا يلتفت إلى الخلق كما لا يلتفت إلى الجمادات في الخلا وللأجسام وهذا من شخص  
مشغول لهم بالخلق في اللأ والخلأ جميعا وهذا من السكايد الخفية للشیطان . الدرجة الرابعة أدق  
وأخفى أن ينظر إليه الناس وهو في صلاته فيصجز الشيطان عن أن يقول له اخشع لأجلهم فانه قد عرف  
أنه تفتن لذلك فيقول له الشيطان تفكر في عظمة الله تعالى وجلاله ومن أنت واقف بين يديه  
واستحي من أن ينظر الله إلى قلبك وهو غافل عنه فيحضر بذلك قلبه وتخضع جوارحه ويظن أن  
ذلك عين الإخلاص وهو عين السكر والحداد فان خشوعه لو كان نظره إلى جلالة لكانت هذه الخطرة  
تلازمه في الخلوة ولكان لا يختص حضورها بحالة حضور غيره وعلامة الأمن من هذه الآفة أن يكون  
هذا الحاضر مما يألفه في الخلوة كما يألفه في الملأ ولا يكون حضور الغير هو السبب في حضور الحاضر كما لا يكون  
حضور البهيمة سببا لما دام يفرق في أحواله بين مشاهدة إنسان ومشاهدة بهيمة فهو بعد خارج عن  
صفو الإخلاص مدنس الباطن بالشرك الخفي من الرياء ، وهذا الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب  
الخملة السوداء في الليلة الظلماء على الصخرة الصماء (١) كما ورد به الخبر ، ولا يسلم من الشيطان إلا من  
دق نظره وسعد بصحة الله تعالى وتوفيقه وهدايته وإلا فالشيطان ملازم للمتشمسين لعبادة الله تعالى  
لا يشغل عنهم لحظة حتى يحملهم على الرياء في كل حركة من الحركات حتى في كحل العين وقص الشارب  
وطيب يوم الجمعة ولبس الثياب فان هذه سنن في أوقات مخصوصة والنفس فيها حظ خفي لا يرتبط بنظر  
الخلق بها ولا ستئاس الطبع بها فيدعوه الشيطان إلى فعل ذلك ويقول هذه سنة لا ينبغي أن تركها  
وتكون انبعاث القلب باطنا لها لأجل تلك الشهوة الخفية أو مشوبة بها شوبا يخرج عن حد الاخلاص  
بسببه وما لا يسلم من هذه الآفات كلها فليس بخالص بل من يعتكف في مسجده مور نظيف حسن  
العمارة بأنس إليه الطبع فالشيطان يرغبه فيه ويكثر عليه من فضائل الاعتكاف وقد يكون المحرك  
الخفي في سره هو الأنس بحسن صورة المسجد واستراحة الطبع إليه ويتبين ذلك في ميله إلى أحد  
المسجدين أو أحد للوضعين إذا كان أحسن من الآخر وكل ذلك امتزج بشوائب الطبع وكدورات

(١) حديث الشرك أخفى في قلب ابن آدم من ديب الخملة السوداء في الظلمة الظلماء على الصخرة

تقدم في العلم وفي ذم الجاه والرياء .

وزن خوف اللؤمن  
ورجاؤه لا اعتدلا .  
والخوف والرجاء  
للإيمان كالجنحين  
ولا يكون خافها إلا  
وهو راج ولا راجيا  
إلا وهو خائف لأن  
موجب الخوف الإيمان  
وبالإيمان رجاء  
وموجب الرجاء الإيمان  
ومن الإيمان خوف  
ولهذا المعنى روى  
عن لقمان أنه قال  
لابنه خف الله تعالى  
خوفا لا تأمن فيه  
مكره وارجعه أشد من  
خوفك ، قال فكيف  
أستطيع ذلك وإني  
لي قلب واحد ؟ قال  
أما علمت أن اللؤمن  
لقدو قلبين يخاف  
بأحدهما ويرجو

النفس ومبطل حقيقة الاخلاص لعمري النفس الذي يمزج بخالص الذهب له درجات متفاوتة فمنها ما يغلب ومنها ما يقل لكن يسهل فكره ومنها ما يدق بحيث لا يدركه إلا الناقد البصير وغش القاب ودغل الشيطان وخبت النفس أغمض من ذلك وأدق كثيرا ، ولهذا قيل ركنان من عالم أفضل من عبادة سنة من جاهل وأريد به العالم البصير بدقائق آفات الأعمال حتى يخلص عنها فإن الجاهل نظره إلى ظاهر العبادة واغتراره بها كنظر السوادي إلى حمرة الدبنار الموهو واستدارته وهو مفشوش زائف في نفسه وقبائح من الخالص الذي يرتضيه الناقد البصير خير من دبنار يرتضيه الغر القبي فكذا يتفاوت أمر العبادات بل أشد وأعظم ومداخل الآفات التطرفة إلى فنون الأعمال لا يمكن حصرها وإحصاؤها فليستعنع بما ذكرناه مثالا واللفظ يغنيه القليل عن الكثير والبليد لا يغنيه التطويل أيضا فلا فائدة في التفصيل .

### ( بيان حكم العمل المشوب واستحقاق الثواب به )

اعلم أن العمل إذا لم يكن خالصا لوجه الله تعالى بل امتزج به شوب من الرياء أو حظوظ النفس فقد اختلف الناس في أن ذلك هل يقتضى ثوابا أم يقتضى عقابا أم لا يقتضى شيئا أصلا فلا يكون له ولا عليه وأما الذي لم يرد به إلا الرياء فهو عليه قطعا وهو سبب العقاب . وأما الخالص لوجه الله تعالى فهو سبب الثواب وإنما النظر في المشوب وظاهر الأخبار تدل على أنه لا ثواب له (١) وليس تخلو الأخبار عن تعارض فيه والذي ينقدح لما فيه والعلم عند الله أن ينظر إلى قدر قوة الباعث فإن كان الباعث الديني مساويا للباعث النفسي تقاوما وتساقطا وصار العمل لا له ولا عليه وإن كان باعث الرياء أغلب وأقوى فهو ليس بنافع وهو مع ذلك مضر ومقضى للعقاب فمع العقاب الذي فيه أخف من عقاب العمل الذي تجرد للرياء ولم يمتزج به شائبة التقرب وإن كان قصد التقرب أغلب بالإضافة إلى الباعث الآخر فله ثواب بقدر ما فضل من قوة الباعث الديني وهذا لقوله تعالى - فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - ولقوله تعالى - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها - فلا ينبغي أن يضيع قصد الخير بل إن كان غالبا على قصد الرياء حبط منه القدر الذي يساويه وبقيت زيادة وإن كان مغلوبا سقط بسببه شيء من عقوبة القصد الفاسد وكشف الغطاء عن هذا أن الأعمال تأثيرها في القلوب بتأثير صفاتها فداعية الرياء من الهلكات وإنما غذاء هذا الهلك وقوته العمل على وقته وداعية الخير من اللطيفات وإنما قوتها بالعمل على وقعتها فإذا اجتمعت الصفتان في القلب فهما متضادتان فإذا عمل على وفق مقتضى الرياء فقد قوى تلك الصفة وإذا كان العمل على وفق مقتضى التقرب فقد قوى أيضا تلك الصفة وأحدهما مهلك والآخر منج فإن كان تقوية هذا بقدر تقوية الآخر فقد تقاوما فكان كالتضرر بالحرارة إذا تناول ما يضره ثم تناول من البردات ما يقاوم قدر قوته فيكون بعد تناولهما كأنه لم يتناولهما وإن كان أحدهما غالبا لم يغلب الغالب عن أثر فكما لا يضيع مثقال ذرة

(١) الأخبار التي يدل ظاهرها على أن العمل المشوب لا ثواب له قال وليس تخلو الأخبار عن تعارض أبو داود من حديث أبي هريرة أن رجلا قال يا رسول الله رجل يبتغي الجهاد في سبيل الله وهو يبتغي عرضا من الدنيا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم لا أجر له الحديث والنسائي من حديث أبي أمامة بإسناد حسن أرأيت رجلا غزا يلتحم الأجر والدكر ماله فقال لاشيء له فأعاده ثلاث مرات يقول لاشيء له ثم قال إن الله لا يقبل من العمل إلا ما كان خالصا وابتغى به وجهه وللترمذي وقال غريب وابن حبان من حديث أبي هريرة الرجل يعمل العمل فيسره فإذا اطلع عليه أعجبه قال له أجزان أجر السر وأجر العلانية وقد تقدم في ذم الجاه والرياء .

بالآخر وهذا لأنهما من حكم الإيمان . [ قولهم في التوكل ] قال السري : التوكل الانخلاع من الحول والقوة . وقال الجنيدي التوكل أن تكون لله كما لم تكن فيكون الله لك كما لم يزل . وقال سهل : كل المقامات لها وجه وفقا غير التوكل فإنه وجه بلافتة قال بعضهم يريد توكل العناية لا توكل الكفاية والله تعالى جمل التوكل مقرونا بالإيمان فقال - وعلى الله فتوكلا وإن كنتم مؤمنين - وقال - وعلى الله فليتوكل المؤمنون - وقال لنبية - وتوكل على الحى الذى لا يموت - وقال



من الطعام والشراب والأدوية ولا ينفك عن أثر في الجسد بحكم سنة الله تعالى فكذلك لا يضيع مثال ذرة من الخير والشر ولا ينفك عن تأثير في إثارة القلب أو تسويده وفي تقريبه من الله أو إبعاده فإذا جاء ما يقربه شبرا مع ما يبعده شبرا قد عاد إلى ما كان فلم يكن له ولا عليه وإن كان الفعل مما يقربه شبرين والآخر يبعده شبرا واحدا فضل له لا محالة شبر وقد قال النبي ﷺ «أتبع السيئة الحسنة تمحها» (١) فإذا كان الرياء المحض يمحوه الاخلاص المحض غفيه فإذا اجتمعا جميعا فلا بد وأن يتدافعا بالضرورة ويشهد لهذا إجماع الأمة على أن من خرج حاجا ومعه تجارة صح حجه وأثيب عليه وقد امتزج به حظ من حظوظ النفس نعم يمكن أن يقال إنما يثاب على أعمال الحج عند انتهائه إلى مكه وتجارته غير موقوفة عليه فهو خالص وإنما اشترك طول المسافة ولا ثواب فيه مهما قصد التجارة ولكن الصواب أن يقال مهما كان الحج هو المحرك الأصلي وكان غرض التجارة كالمعين والتابع فلا ينفك نفس السفر عن ثواب . وما عتدى أن الفزاة لا يدركون في أنفسهم تفرقة بين غزو الكفار في جهة تسكر فيها القنائم وبين جهة لا غنيمة فيها ويعد أن يقال إدراك هذه التفرقة يحبط بالسكينة ثواب جهادهم بل العدل أن يقال إذا كان الباعث الأصلي والزعج القوي هو إغلاء كلمة الله تعالى وإتمام الرغبة في الغنيمة على سبيل التبعية فلا يحبط به الثواب نعم لا يساوي ثوابه ثواب من لا يلتفت قلبه إلى الغنيمة أصلا فإن هذا الالتفات نقصان لا محالة . فإن قلت فالآيات والأخبار تدل على أن شوب الرياء يحبط للثواب وفي معناه شوب طلب الغنيمة والتجارة وسائر الحظوظ فقد روى طاوس وغيره من التابعين «أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمده ويؤجر فلم يدر ما يقول له حتى نزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - » (٢) وقد قصد الأجر والحمد جميعا وروى معاذ عن النبي ﷺ أنه قال «أدنى الرياء شرك» (٣) وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «يقال لمن شرك في عمله خذ أجره ممن عملت له» (٤) وروى عن عبادة «أن الله عز وجل يقول أنا أغنى الأغنياء عن الشرك من عمل لي عملا فاشرك معي غيري ودعت نصيبي لشريك» وروى أبو موسى «أن أعرابيا أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال يا رسول الله الرجل يقاتل حمية والرجل يقاتل شجاعة والرجل يقاتل ليرى مكانه في سبيل الله فقال صلى الله عليه وسلم من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله» (٥) وقال عمر رضي الله عنه تقولون فلان شهيد ولعله أن يكون تدملا دفق راحته ورقا وقال ابن مسعود رضي الله تعالى عنه قال رسول الله ﷺ «من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له» (٦) فنقول هذه الأحاديث لاتناقض ما ذكرناه بل المراد بها من لم يرد بذلك إلا الدنيا كقوله من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا وكان ذلك هو الأغلب على همه وقد ذكرنا أن ذلك عصيان وعدوان لأن طلب الدنيا حرام ولكن طلبها بأعمال الدين

(١) حديث أتبع السيئة الحسنة تمحها تقدم في رياضة النفس وفي التوبة (٢) حديث طاوس وعبدة من التابعين أن رجلا سأل النبي صلى الله عليه وسلم عمن يصطنع المعروف أوقال يتصدق فيحب أن يحمده ويؤجر فنزلت - فمن كان يرجوا لقاء ربه - ابن أبي الدنيا في كتاب السنة والحاكم نحوه من رواية طاوس مرسلًا وقد تقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث معاذ أدنى الرياء شرك الطبراني والحاكم وتقدم فيه (٤) حديث أبي هريرة يقال لمن أشرك في عمله خذ أجره ممن عملت له تقدم فيه من حديث محمود بن لبيد بنحوه وتقدم فيه حديث أبي هريرة من عمل عملا أشرك فيه معي غيري تركته وشريكه وفي رواية مالك في الموطأ فهو له كله (٥) حديث أبي موسى من قاتل لتكون كلمة الله هي العليا ففي سبيل الله تقدم فيه (٦) حديث ابن مسعود من هاجر يبتغي شيئا من الدنيا فهو له تقدم في الباب الذي قبله.

ذواته: التوكل ترك تدبير النفس والاعتماد من الحول والقوة . وقال أبو بكر الرقاعي: التوكل رد العيش إلى يوم واحد وإسقاط هم غد . وقال أبو بكر الواسطي: أصل التوكل صدق الفاقة والافتقار وأن لا يفارق التوكل في أمانيه ولا يلتفت بسره إلى توكله لحظة في عمره . وقال بعضهم من أراد أن يقوم بحق التوكل فليحفر لنفسه قبرا يدفنها فيه ونفس الدنيا وأهلها لأن حقيقة التوكل لا يقوم لها أحد من الخلق على كماله . وقال سهل أول مقامات التوكل أن يكون العبد بين يدي الله تعالى

حرام لما فيه من الرياء وتغير العبادة عن موضعها وأما لفظ الشركة حيث ورد فمطلق للتساوي وقد بينا أنه إذا تساوى القصدان تقاوما ولم يكن له ولا عليه فلا ينبغي أن يرجى عليه ثواب ثم إن الإنسان عدا الشركة أبدا في خطر فانه لا يدري أى الأمرين أغلب على قصده فربما يكون عليه وبالاولئك قال تعالى - فمن كان يرجوا لقاء ربه فليعمل عملا صالحا ولا يشرك بعبادة ربه أحدا - أى لا يرجى اللقاء مع الشركة التى أحسن أحوالها التساقط ويجوز أن يقال أيضا منصب الشهادة لا ينال إلا بالاخلاص في الزووج وبعد أن يقال من كانت داعيته الدينية بحيث تزهجه إلى مجرد الغزو وإن لم يكن غنيمة وقدر على غزوطا فثنين من الكفار إحداها غنية والأخرى فقيرة فالإجابة إلى جهة الأغنياء لا علاء كلمة الله والنعمة لا ثواب له على غزوه ألبتة ونعوذ بالله أن يكون الأمر كذلك فان هذا حرج في الدين ومداخل للبأس على المسلمين لأن أمثال هذه الشرائب التابعة قط لا ينفك الإنسان عنها إلا على الندور فيكون تأثير هذا في حصان الثواب فأما أن يكون في إحباطه فلا، نعم الإنسان فيه على خطر عظيم لأنه ربما يظن أن الباعث الأقوى هو قصد التقرب إلى الله ويكون الأغلب على سره الخط النفسى وذلك مما يخفى غاية الخفاء فلا يحصل الأجر إلا بالاخلاص والاخلاص قلما يستيقنه العبد من نفسه وإن بالغ في الاحتياط فلذلك ينبغي أن يكون أبدا بعد كمال الاجتهاد مترددا بين الرد والقبول خائفا أن تكون في عبادته آفة فيكون وبالها أكثر من نواياها وهكذا كان الخائفون من ذوى البصائر وهكذا ينبغي أن يكون كل ذى بصيرة ولذلك قال مفيان رحمه الله لأعتد بما ظهر من عملي وقال عبدالعزيز بن أبي رواد جاورت هذا البيت ستين سنة وحججت ستين حجة فما دخلت في شيء من أعمال الله تعالى إلا وحاسبت نفسي فوجدت نصيب الشيطان أوفى من نصيب الله ليته لالى ولا على ومع هذا فلا ينبغي أن يترك العمل عند خوف الآفة والرياء فان ذلك منتهى بنية الشيطان منه إذ القصد أن لا يغتفر الاخلاص ومهما ترك العمل فقد ضيع العمل والاخلاص جميعا وقد حكى أن بعض الفقهاء كان يخدم أباسعيا الحرازي ويخف في أعماله فيحكم أبو سعيد في الاخلاص يوما يريد اخلاص الحركات فأخذ الفقير يفتقه فداقه عند كل حركة ويطلبه بالاخلاص فتمدح عليه قضاء الحوائج واستنصر الشيخ بذلك فسأله عن أمره فأخبره بمطالته نفسه بحقيقة الاخلاص وأنه يعجز عنها في أكثر أعماله فتركها فقال أبو سعيد لا تفعل إذ الاخلاص لا يقطع المعاملة فواظب على العمل واجتهد في تحصيل الاخلاص فلما قلت لك أترك العمل وإنما قلت لك أخلص العمل وقد قال الفضيل ترك العمل بسبب الخلق رياء وفعله لأجل الخلق شرك.

(الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته)

(فضيلة الصدق)

قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن الصدق يهدي إلى البر والبر يهدي إلى الجنة وإن الرجل ليصدق حتى يكتب عند الله صديقا وإن الكذب يهدي إلى الفجور والفجور يهدي إلى النار وإن الرجل ليكذب حتى يكتب عند الله كذابا» (١) ويكنى في فضيلة الصدق أن الصديق مشتق منه والله تعالى وصف الأنبياء به في معرض المدح والثناء فقال - واذكر في الكتاب إبراهيم إنه كان صديقا نبيا - وقال - واذكر في الكتاب إسماعيل إنه كان صادقا الوعد وكان رسولا نبيا - وقال تعالى - واذكر في الكتاب إدريس إنه كان صديقا نبيا - وقال ابن عباس أربع من كن فيه فقد ربح الصدق والحياء وحسن الخلق والشكر. وقال بشر بن الحرث من عامل الله بالصدق

(الباب الثالث في الصدق)

(١) حديث إن الصدق يهدي إلى البر الحديث متفق عليه من حديث ابن مسعود وقد تقدم.

حكيت بين يدي  
العامل يقبله كيف أراد  
ولا يكون له حركة  
ولانتير وقال حمدون  
القصار : التوكل هو  
الاعتماد بالله . وقال  
سهل أيضا : العلم كله باب  
من التمسك والتعبد كله  
باب من الورع والورع  
كله باب من الزهد  
والزهد كله باب من  
التوكل . وقال :  
التقوى واليقين مثل  
كفك الزنزان والتوكل  
لسانه به تعرف الزيادة  
والنقصان ويقع لي أن  
اتوكل على قدر العلم  
بلوكل فكل من كان  
أتم معرفة كان أتم  
توكلا ومن كل توكله  
فأب في رؤية الوكيل  
عن رؤية توكله ثم إن

استوحش من الناس . وقال أبو عبد الله الرضائي رأيت منصوراً الدينوري في المنام قلت له ما فعل الله بك قال غفر لي ورحمني وأعطاني ما لم أؤمل قلت له أحسن ما توجه العبد به إلى الله ماذا قال الصدق وأصبح ما توجه به الكذب . وقال أبو سليمان أجمل الصدق مطيتك والحق سيفك والله تعالى غاية طلبتك . وقال رجل للحكيم ما رأيت صادقا فقال له لو كنت صادقا لعرفت الصادقين وعن محمد بن علي السكتاني قال وجدنا دين الله تعالى مبني على ثلاثة أركان على الحق والصدق والعدل فالحق على الجوارح والعدل على القلوب والصدق على العقول . وقال الثوري في قوله تعالى - ويوم القيامة ترى الذين كذبوا على الله وجوههم مسودة - قال هم الذين ادعوا محبة الله تعالى ولم يكونوا بها صادقين ، وأوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام ياد اود من صدقي في سريرته صدقته عند الخلقين في علانيته وصاح رجل في مجلس الشبلي ورمى نفسه في دجلة فقال الشبلي إن كان صادقا فالله تعالى ينجي كما نجى موسى عليه السلام وإن كان كاذبا فالله تعالى يفرقه كما أغرق فرعون . وقال بعضهم أجمع الفقهاء والملاء على ثلاث خصال أنها إذا صحت ففيها النجاة ولا يتم بعضها إلا ببعض الإسلام الخالص عن البدعة والهوى والصدق لله تعالى في الأعمال وطيب الطعم . وقال وهب بن منبه وجدت على حاشية التوراة اثنين وعشرين حرفا كان صلحاء بني إسرائيل مجتمعون فيقرءونها ويتدارسونها . لاكثر أنفع من العلم ولا مال أرفع من الحلم ولا حسب أوضع من الغضب ولا قرين أزين من العمل ولا رفيق أشين من الجهل ولا شرف أعز من التقوى ولا كرم أوفى من ترك الهوى ولا عمل أفضل من الفكر ولا حسنة أسمى من الصبر ولا سيئة أخزى من الكبر ولا دواء ألين من الرقيق ولا داء أوجع من الحرق ولا رسول أعدل من الحق ولا دليل أنصح من الصدق ولا قهر أذل من الطمع ولا غنى أشقى من الجمع ولا حياة أطيب من الصحة ولا معيشة أهنأ من العفة ولا عبادة أحسن من الخشوع ولا زهد خير من القنوع ولا حارس أحفظ من الصمت ولا غائب أقرب من الموت . وقال محمد بن سعيد الروزي إذا طلبت الله بالصدق آتاك الله تعالى امرأة يبيدك حتى تبصر كل شيء من عجائب الدنيا والآخرة . وقال أبو بكر الوراق احفظ الصدق فيما بينك وبين الله تعالى والرفق فيما بينك وبين الخلق وقيل لدى النون هل للعبد إلى صلاح أموره سبيل ؟ قال :

قد بقينا من الذنوب حيارى نطلب الصدق ما إليه سبيل

فدعواوى الهوى نخف علينا وخلاف الهوى علينا ثقیل

وقيل لسهل ما أصل هذا الأمر الذي نحن عليه فقال الصدق والسخاء والشجاعة قليل زدنا فقال التقى والحياء وطيب الغذاء . وعن ابن عباس رضي الله عنهما «أن النبي صلى الله عليه وسلم سئل عن الكمال فقال : قول الحق والعمل بالصدق<sup>(١)</sup>» وعن الجنيد في قوله تعالى - ليسأل الصادقين عن صدقهم - قال يسأل الصادقين عن أنفسهم عن صدقهم عند ربهم وهذا أمر على خطر .

( بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه )

اعلم أن لفظ الصدق يستعمل في ستة معان صدق في القول وصدق في النية والأرادة وصدق في المزم وصدق في الوفاء بالمزم وصدق في العمل وصدق في تحقيق مقامات الدين كلها فمن انصف بالصدق في جميع ذلك فهو صدقي لأنه مبالغة في الصدق ثم هم أيضا على درجات فمن كان له حظ في الصدق في شيء من الجملة فهو صادق بالإضافة إلى ما فيه صدقه . الصدق الأول : صدق اللسان وذلك لا يكون إلا في الإخبار أو فيما يتضمن الإخبار وينبئ عليه والخبر إيمان يتعلق بالماضى أو بالمستقبل

(١) حديث ابن عباس سئل عن الكمال فقال قول الحق والعمل بالصدق لم أجده بهذا اللفظ .

قوة للمعرفة فيصرف العلم بالعدل في القسمة وإن الأقسام نصبت بأزاء القسوم لهم عدلا وموازنة فإن النظر إلى غير الله لوجود الجهل في النفس وكل ما أحس بشيء يقدر في توحيده يراه من منبع النفس فقصاص التوكل يظهر بظهور النفس وكأله ثبت بضية النفس وليس للأقوياء اعتداد بتصحيح توكلهم وإنما شغلهم في تضيق النفس بتقوية مواد القلب فإذا غابت النفس انحسرت مادة الجهل فصح التوكل والعبد غير ناظر إليه وكما تحرك من

وفيه يدخل الوفاء بالوعد والخلف فيه وحق على كل عبد أن يحفظ ألفاظه فلا يتكلم إلا بالصدق وهذا هو أشهر أنواع الصدق وأظهرها فمن حفظ لسانه عن الإخبار عن الأشياء على خلاف ما هي عليه فهو صادق ولكن لهذا الصدق كمالان: أحدهما الاحتراز عن الماريض فصدقيل في الماريض مندوحة عن الكذب وذلك لأنها تقوم مقام الكذب إذ المحذور من الكذب تفهم الشيء على خلاف ما هو عليه في نفسه إلا أن ذلك محتمس إليه الحاجة وتمتضيته الصلحة في بعض الأحوال وفي تأديب الصبيان والنسوان ومن يجري مجراهم وفي الحذر عن الظلمة وفي قتال الأعداء والاحتراز عن اطلاعهم على أسرار تلك فمن اضطر إلى شيء من ذلك فصدقه فيه أن يكون نطقه فيه لله فيما يأمره الحق به وتمتضيته الدين فإذا نطق به فهو صادق وإن كان كلامه مفهما غير ما هو عليه لأن الصدق ما أريد لداته بل للدلالة على الحق والدعاء إليه فلا ينظر إلى صورته بل إلى معناه نعم في مثل هذا الوضع ينبغي أن يعدل إلى الماريض ما وجد إليه سبيلا، كان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا توجه إلى سفرو رتب بغيره (١) وذلك كي لا يتنهي الخبر إلى الأعداء فيقصد وليس هذا من الكذب في شيء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليس بكذاب من أصلح بين اثنين فقال خيرا أو نهي خيرا» (٢) ورخص في النطق على رفق للصلحة في ثلاثة مواضع من أصلح بين اثنين ومن كان له زوجتان ومن كان في مصالح الحرب، والصدق ههنا يتحول إلى النية فلا يراعى فيه إلا صدق النية وإرادة الخير فلهما صبح قصده وصدقت نيته وتجردت للخير إرادته صار صادقا وصديقا كيفما كان لفظه ثم التعريض فيه أولى وطريقه ما حكى عن بعضهم أنه كان يطلبه بعض الظلمة وهو في داره فقال لزوجه خذي بأصبعك دائرة وضعي الأصبع على الدائرة وقولي ليس هو ههنا واحترز بذلك عن الكذب ودفع الظالم عن نفسه فكان قوله صدقا وأفهم الظالم أنه ليس في الدار فالكمال الأول في اللفظ أن يحترز عن صريح اللفظ وعن الماريض أيضا إلا عند الضرورة والكمال الثاني أن يراعى معنى الصدق في ألفاظه التي يناسب بها ربه كقوله - وجهت وجهي للذي فطر السموات والأرض - فإن قلبه إن كان منصرفا عن الله تعالى مشغولا بآماني الدنيا وشهواته فهو كاذب وكقوله - إياك نعبد وإياك نستعين - فإنه إذا لم يتصف بحقيقة العبودية وكان له مطلب سوى الله لم يكن كلامه صدقا ولو طوّل يوم القيامة بالصدق في قوله أنا عبد الله فإنه لم يجز عن تحميقه فإنه إن كان عبدا لنفسه أو عبدا الدنيا أو عبدا لشهواته لم يكن صادقا في قوله وكل ما تعبد العبد به فهو عبد له كما قال عيسى عليه السلام يا عبيد الدنيا وقال نبينا صلى الله عليه وسلم «تعس عبد الدنار تعس عبد الدرهم وعبد الحلة وعبد الخيصة» (٣) فسمى كل من تعبد قلبه بشيء عبدا له وإتباعا العبد الحق لله عز وجل من اعتق أولا من غير الله تعالى فصار حرا مطلقا فإذا تقدمت هذه الحرية صار القلب فارغا لحقت فيه العبودية لله فتدخله بالله وبمحبه وتقيد بباطنه وظاهره بطاعته فلا يكون له مراد إلا الله تعالى ثم تجاوز هذا إلى مقام آخر أسفى منه يسمى الحرية وهو أن يعتق أيضا عن إرادته لله من حيث هو بل بفتح بما يريد الله له من تقرب أو إبعاد فتفي إرادته في إرادة الله تعالى وهذا عبدا عتق عن غير الله فصار حرا ثم عاد وعتق عن نفسه فصار حرا وصار مفقودا لنفسه موجودا لسيده ومولاه إن حركه تحرك وإن سكنه سكن وإن ابتلاه ابتلاه رضى لم يبق فيه متع طلب والتماس واعتراض بل هو بين يدي الله كالميت بين يدي الفاسل وهذا منتهى الصدق في العبودية

(١) حديث كان إذا أراد سفرا ورثي بغيره متفق عليه من حديث كعب بن مالك (٢) حديث ليس بكاذب من أصلح بين الناس الحديث متفق عليه من حديث أم كلثوم بنت عقبة بن أبي معيط وقد تقدم (٣) حديث تعس عبد الدنار الحديث البخاري من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

النفس بقية يرد على ضميرهم سر قوله تعالى - إن الله يعلم ما يدعون من دونه من شيء - فيطلب وجود الحق الأغنياء والأكران ويرى الكون بالله من غير استقلال الكون في نفسه ويصير التوكل حينئذ اضطرارا ولا يقصد في توكل مثل هذا التوكل ما يقصد في توكل الضمء في التوكل من وجود الأسباب والوسائل لأنه يرى الأسباب موافقا لحياته لها إلا بالتوكل وهذا توكل خواص أهل المعرفة [قوله في الرضا] قال الحارث الرضا نكون

لله تعالى فالعبد الحق هو الذي وجوده مولود لآلته وهذه درجة الصديقين . وأما الحرية عن غير الله فدرجات الصادقين وبمدها تتحقق العبودية لله تعالى وما قبل هذا فلا يتحقق صاحبه أن يسمى صادقا ولا صديقا فهذا هو معنى الصدق في القول . الصدق الثماني : في النية والأرادة ويرجع ذلك إلى الاخلاص وهو أن لا يكون له باعث في الحركات والكلمات إلا الله تعالى فإن مازجه شوب من حظوظ النفس بطل صدق النية وصاحبه يجوز أن يسمى كاذبا كإروينا في فضيلة الاخلاص من حديث الثلاثة حين يسئل العالم ما عملت فيها علمت ؟ فقال قلت كذا وكذا ، فقال الله تعالى كذبت بل أردت أن يقال فلان عالم (١) فإنه لم يكذبه ولم يقل له لم تعمل ولكنه كذبه في إرادته ونيته ، وقد قال بعضهم : الصدق صحة التوحيد في القصد وكذلك قول الله تعالى - والله يشهد إن المنافقين لكاذبون - وقد قالوا إنك لرسول الله وهذا صدق ولكن كذبهم لامن حيث نطق اللسان بل من حيث ضمير القلب وكان التكذيب يتطرق إلى الخبر وهذا القول يتضمن إخبارا بقرينة الحال ، إذ صاحبه يظهر من نفسه أن يتم ما يقول فكذب في دلالة بقرينة الحال على ما في قلبه فإنه كذب في ذلك ولم يكذب فيما يلفظ به فيرجع أحد معاني الصدق إلى خلوص النية وهو الاخلاص فكل صادق فلا بد وأن يكون مخلصا . الصدق الثالث : صدق العزم فإن الإنسان قد يقدم العزم على العمل فيقول في نفسه إن رزقني الله ما لا تصدقت بجمعيه أو بشرطه أو إن لقيت عدوا في سبيل الله تعالى قاتلت ولم أبال وإن قتلت وإن أعطاني الله تعالى ولاية عدلت فيها ولم أعص الله تعالى بظلم وميل إلى خلق فهذه العزيمة قد يصادفها من نفسه وهي عزيمة جازمة صادقة وقد يكون في عزمه نوع ميل وتردد وضف يضاد الصدق في العزيمة فكان الصدق ههنا عبارة عن التمام والقوة كما يقال لقائل شهوة صادقة ويقال هذا المريض شهوته كاذبة مهما لم تكن شهوته عن سبب ثابت قوى أو كانت ضعيفة فقد يطلق الصدق ويراد به هذا المعنى والصادق والصديق هو الذي تصادف عزمته في الخيرات كلها قوة تامة ليس فيها ميل ولا ضعف ولا تردد بل تسخو نفسه أبدا بالعزم الصمم الجازم على الخيرات وهو كما قال عمر رضي الله عنه : لأن أعدم فخر ب غنى أحب إلي من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر رضي الله عنه وكذلك بما ذكره من القتل . ومراتب الصديقين في العزائم تختلف فقد يصادف العزم ولا ينتهي به إلى أن يرضى بالقتل فيه ولكن إذا خلى ورأيه لم يقدم ولو ذكر له حديث القتل لم ينقض عزمه بل في الصادقين والوثنيين من لو خير بين أن يقتل هو أو أبو بكر كانت حياته أحب إليه من حياة أبي بكر الصديق . الصدق الرابع : في الوفاء بالعزم فإن النفس قد تسخو بالعزم في الحال إذ لا مشقة في الوعد والعزم والمؤنة فيه خفيفة فإذا حققت الحقائق وحصل التمكن وهاجت الشهوات انحلت العزيمة وغلبت الشهوات ولم تنفك الوفاء بالعزم وهذا يضاد الصدق فيه ، ولذلك قال الله تعالى - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - فقد روى عن أنس «أن عمه أنس بن النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فشق ذلك على قلبه وقال أول مشهد شهده رسول الله صلى الله عليه وسلم غبت عنه أما والله لئن أراني الله مشهدا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم ليرين الله ما أصنع قال فشهد أحدا في العام القابل فاستقبله سعد بن معاذ فقال يا أباهمرو إلى أين فقال واهما لرجع الجنة إني أجد ريحها دون أحد قتال حتى قتل فوجد في جسده بضع وثمانون ما بين رمية وضربة وطعنة فقالت أخته بنت النضر ما عرفت أختي إلا بيناته ، فنزلت هذه الآية - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه - (٢) » ووقف رسول الله صلى الله عليه وسلم على مصيب

(١) حديث الثلاثة حين سأل العالم ماذا عملت فيها علمت ماذا عملت تقدم (٢) حديث أنس أن عمه أنس بن

القلب تحت جريان الحكم وقال ذواتون الرضا سرور القلب عبر القضاء . وقال سفيان عند رابعة اللهم ارض عنا فقالت له أما تستحي أن تطلب رضا من است عنه براض فسالها بعض الحاضرين متى يكون العبد راضيا عن الله تعالى فقالت إذا كان سروره بالمصيبة كسروره بالنعمة . وقال سهل إذا اتصل الرضا بالرضوان اتصلت الطمأنينة - فطوبى لهم وحسن مآب - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ذاق طعم الإيمان من رضى بالله وباراه» وقال عليه السلام «إن الله

ابن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد شهيدا وكان صاحب لواء رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال عليه السلام - رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر - (١) وقال فضالة بن عبيد سمعت عمر بن الخطاب رضى الله عنه يقول سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك الذى يرفع الناس إليه أعينهم يوم القيامة هكذا ورفع رأسه حتى وقعت قلنسوته . قال الراوى : فلا أدري قلنسوة عمر أو قلنسوة رسول الله صلى الله عليه وسلم ، ورجل جيد الإيمان إذا لقي العدو فكأنما يضرب وجهه بشوك الطلح أثناء سهم عائر فقتله فهو فى الدرجة الثانية ورجل مؤمن خلط عملا صالحا وآخر سيئا لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الثالثة ورجل أسرف على نفسه لقي العدو فصدق الله حتى قتل فذلك فى الدرجة الرابعة (٢) » وقال مجاهد رجلان خرجا على ملأ من الناس فقالا إن رزقنا الله تعالى مال لنصدقن فيخلوا به فزلت - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين - وقال بعضهم إنما هو شئ نووه فى أنفسهم لم يشكعوا به قلب - ومنهم من عاهد الله لئن آتانا من فضله لنصدقن ولنكونن من الصالحين فلما آتاهم من فضله غلوا به وتولوا وهم معرضون فأعقبهم نفاقا فى قلوبهم إلى يوم يلقونه بما أخلفوا الله ما وعدوه وبما كانوا يكذبون - فجعل العزم عهدا وجعل الخلف فيه كذبا والوفاء به صدقا وهذا الصدق أشد من الصدق الثالث فإن النفس قد تسخو بالعزم ثم تكسح عند الوفاء لشدة عليها ولهيجان الشهوة عند التحمك وحصول الأسباب ، ولذلك استثنى عمر رضى الله عنه فقال لأن أقدم فخصرب عنقى أحب إلى من أن أتأمر على قوم فيهم أبو بكر اللهم إلا أن تسول لى نفسى عند القتل شيئا لأجده الآن لأنى لا آمن أن يشغل عليها ذلك فتضير عن عزمها ، أشار بذلك إلى شدة الوفاء بالعزم وقال أبو سعيد الخراز رأيت فى المنام كأن ملكين نزلا من السماء فتلا لى ما للصدق قلت الوفاء بالعهد فقال لى صدقت وعرجا لى السماء ، الصدق الخامس فى الأعمال وهو أن يجتهد حتى لا تدل أعماله الظاهرة على أمر فى باطنه لا يتصف هو به لا بأن يترك الأعمال ولكن بأن يستجر الباطن إلى تصديق الظاهر وهذا مخالف لما ذكرناه من ترك الرياء لأن للرائى هو الذى يقصد ذلك ورب واقف على هيئة الخشوع فى صلاته ليس يقصد به مشاهدة غيره ولكن قلبه غافل عن الصلاة فمن ينظر إليه يراه قائما بين يدى الله تعالى وهو بالباطن قائم فى السوق بين يدى شهوة من شهواته فهذه أعمال تعرب بلسان الحال عن الباطن إعرابا هو فيه كاذب وهو مطالب بالصدق فى الأعمال وكذلك قد يمشى الرجل على هيئة السكون والوقار وليس باطنه موصوفا بذلك الوقار فهذا غير صادق فى عمله وإن لم يكن ملتفتا إلى الخلق ولا مراثيا لإمام ولا ينجو من هذا إلا باستواء السريرة والعلاية بأن يكون باطنه مثل ظاهره أو خيرا من ظاهره ومن خيفة ذلك اختار بعضهم تشويش الظاهر وليس ثياب الأشرار كيلا يظن به الخير بسبب ظاهره فيكون كاذبا فى دلالة الظاهر على الباطن فاذا نكث الظاهر للباطن إن كانت عن قصد سميت زياه وبفوت بها الاخلاص وإن كانت عن غير قصد فيفوت

النضر لم يشهد بدرا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث فى قتاله بأحد حتى قتل فوجد فى جسده إصم وعما تون من بين رمية وضربة وطعنة ونزول - رجال صدقوا - الآية الترمذى وقال حسن صحيح والنسائى فى الكبرى وهو عند البخارى مختصرا إن هذه الآية نزلت فى أنس بن النضر (١) حديث وقف على مصعب بن عمير وقد سقط على وجهه يوم أحد وقرأ هذه الآية أبو نعيم فى الحلية من رواية عبيد بن عمير مرسل (٢) حديث فضالة بن عبيد عن عمر بن الخطاب الشهداء أربعة رجل مؤمن جيد الإيمان الحديث الترمذى وقال حسن .

تعالى بحكمته جعل الروح والفرح فى الرضا واليقين وجعل الهم والحزن فى الشك والسخط وقال الجنيد الرضا هو صحة العلم الواصل إلى القلوب فاذا باشر القلب حقيقة العلم أداه إلى الرضا وليس الرضا والمهبة كالحوف والرجاء فانهما حالان لا يفارقان العبد فى الدنيا والآخرة لأنه فى الجنة لا يستغنى عن الرضا والمهبة . وقال ابن عطاء الرضا سكون القلب إلى قديم اختيار الله للعبد لأنه اختار له الأفضل فیرضى له وهو ترك السخط . وقال أبو تراب ليس ينال الرضا من الله من

بها الصدق ، ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي واجعل علانيتي سالحة » (١) وقال يزيد بن الحرث إذا استوت سريرة العبد وعلانيته فذلك النصف وإن كانت سريره أفضل من علانيته فذلك الفضل وإن كانت علانيته أفضل من سريره فذلك الجور وأنشدوا:

إذا السر والإعلان في المؤمن استوى فقد عز في الدارين واستوجب الثنا

فإن خالف الإعلان سرا فما له على سعيه فضل سوى الكد والعنا

فما خالص الدينار في السوق نافق ومفشوشه الردود لا يقتضى الثنا

وقال عطية بن عبد الغافر : إذا واقفت سريرة المؤمن علانيته باهى الله به اللائكة يقول هذا عبدى حقا . وقال معاوية بن قرة من يدلنى على بكاء بالليل بسام بالنهار ، وقال عبد الواحد بن زيد كان الحسن إذا أمر بشئ كان من أشمل الناس به وإذا نهى عن شئ كان من أترك الناس له ولم أر أحدا قط أشبه سريرة بعلانية منه ، وكان أبو عبد الرحمن الزاهد يقول إلهى عاملت الناس فيما بيني وبينهم بالأمانة وعاملتك فيما بيني وبينك بالخيانة ويكي ، وقال أبو يعقوب التهرجورى : الصدق موافقة الحق في السر والعلانية فاذن مساواة السريرة للعلانية أحد أنواع الصدق . الصدق السادس : وهو أعلى الدرجات وأعزها الصدق في مقامات الدين كالصدق في الخوف والرجاء والتعظيم والزهد والرضا والتوكل والحب وسائر هذه الأمور فإن هذه الأمور لها مبادي تنطلق الاسم بظهورها ثم لها غايات وحقائق والصادق المحقق من نال حقيقتها وإذا غلب الشئ وتمت حقيقته سمي صاحبه صادقا فيه كما يقال فلان صدق القتال ، ويقال هذا هو الخوف الصادق وهذه هي الشهوة الصادقة وقال الله تعالى - إنا المؤمنون الذين آمنوا بالله ورسوله ثم لم يرتابوا - إلى قوله - أولئك هم الصادقون - وقال تعالى - ولكن البر من آمن بالله واليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - وسئل أبو ذر عن الإيمان فقرأ هذه الآية فقيل له سألتك عن الإيمان فقال « سألت رسول الله صلى الله عليه وسلم عن الإيمان فقرأ هذه الآية » (٢) ولنضرب للتخوف مثلا فما من عبد يؤمن بالله واليوم الآخر إلا وهو خائف من الله خوفا ينطلق عليه الاسم ولكنه خوف غير صادق أى غير بالغ درجة الحقيقة أما تراء إذا خاف سلطانا أو قاطع طريق في سفره كيف يصفر لونه وترتد فرسه ويتنصص عليه عيشه ويتعذر عليه أكله ونومه وينقسم عليه فكره حتى لا ينتفع به أهله وولده وقد يزعج عن الوطن فيستبدل بالأنس الوحشة وبالراحة التعب وللشفقة والتعرض للأخطار كل ذلك خوفا من مدرك المندور ثم إنه يخاف النار ولا يظهر عليه شئ من ذلك عند جريان معصية عليه ، ولذلك قال صلى الله عليه وسلم « لم أر مثل النار نام هاربها ولا مثل الجنة نام طالبها » (٣) فالتحقيق في هذه الأمور عزيز جدا ولا غاية لهذه اللقائات حتى ينال تمامها ولكن لكل عبده منه حظ بحسب حاله إما ضعيف وإما قوى فإذا قوى سعى صادقا فيه فمعرفة الله تعالى وتعظيمه والخوف منه لانهاية لها ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم لجبريل عليه السلام « أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطبق ذلك قال بل أرى فواعده البقيع في ليلة مقمرة فأتاه فنظر النبي صلى الله عليه وسلم فإذا هو به قد سد الأفق بين جوانب السماء فوق النبي عليه السلام منشبا عليه فأفاق وقد عاد

(١) حديث اللهم اجعل سريري خيرا من علانيتي الحديث تقدم ولم أجده (٢) حديث أبي ذر سألت عن الإيمان فقرأ قوله تعالى - ولكن البر من آمن بالله اليوم الآخر - إلى قوله - أولئك الذين صدقوا - رواه محمد بن نصر اللوزي في تعظيم قدر الصلاة بأسانيد منقطعة لم أجده لإسناده .  
(٣) حديث لم أر مثل النار نام هاربها الحديث تقدم .

لدينا في قلبه مقدار . وقال السري : خمس من أخلاق القربين الرضا عن الله فيما يحب النفس وتكبره والحب لله بالحبب إليه والحياء من الله والأنس به والوحشة مما سواه . وقال الفضيل الراضى لا يتمنى فوق منزلته شيئا وقال ابن شمعون الرضا بالحق والرضا له والرضا عنه فالرضا به مدبرا وعظما والرضا عنه قاسما ومعطيا والرضا له إلها وربا . سئل أبو سعيد هل يجوز أن يكون العبد راضيا ساخطا قال نعم يجوز أن يكون راضيا عن ربه ساخطا على نفسه وعلى كل قاطع

جبريل لصورته الأولى فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما ظننت أن أحدا من خلق الله هكذا قال وكيف لو رأيت إسرافيل إن العرش لملئ كاهله وإن رجليه قد مرقنا تحت غيوم الأرض السفلى وإنه ليتصاغر من عظمة الله حتى يصير كالوصع <sup>(١)</sup> « بنى كالمصفور الصغير، فانظروا الذي يشاهد من العظمة والمهية حتى يرجع إلى ذلك الحد وسائر الملائكة ليسوا كذلك لتفاوتهم في المعرفة فهذا هو الصدق في التعظيم. وقال جابر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مرت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالجلس البالي من خشية الله تعالى <sup>(٢)</sup> » بنى الكساء الذي يلي على ظهر البعير وكذلك الصحابة كانوا خائفين وما كانوا يبنوا خوف رسول الله صلى الله عليه وسلم، ولذلك قال ابن عمر رضى الله عنهما لن تبلغ حقيقة الإيمان حتى تنظر الناس كلهم حتى في دين الله. وقال مطرف ما من الناس أحد إلا وهو أحق بما بينه وبين ربه إلا أن بعض الحق أهون من بعض وقال النبي صلى الله عليه وسلم « لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير <sup>(٣)</sup> » فالصادق إذن في جميع هذه المقامات عزيز ثم درجات الصدق لانهايتها وقد يكون للعبد صدق في بعض الأمور دون بعض فإن كان صادقا في الجميع فهو الصديق حقا قال سعد بن معاذ ثلاثة أنا فيهن أقوى وفيها سواهن ضيف ما صليت صلاة منذ أسلمت حدثت نفسي حتى أفرغ منها ولا شئت جنازة حدثت نفسي بغير ما هي قائلة وما هو مقول لها حتى يفرغ من دقتها وما سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول قولاً إلا علمت أنه حق فقال ابن السيب ما ظننت أن هذه الحصال تجتمع إلا في النبي عليه السلام فهذا صدق في هذه الأمور وكم قوم من جلة الصحابة قد أدوا الصلاة واتبوا الجنائز ولم يبلغوا هذا المبلغ فهذه هي درجات الصدق ومعانيه والكلمات المأثورة عن المشايخ في حقيقة الصدق في الأغلب لا تعرض إلا لآحاد هذه المعاني نعم قد قال أبو بكر الوراق الصدق ثلاثة صدق التوحيد وصدق الطاعة وصدق المعرفة فصدق التوحيد عامة للؤمنين قال الله تعالى - والذين آمنوا بالله ورسوله أولئك هم الصديقون - وصدق الطاعة لأهل العلم والورع وصدق المعرفة لأهل الولاية الذين هم أوتاد الأرض وكل هذا يدور على ما ذكرناه في الصدق السادس ولكنه ذكر أقسام ما فيه الصدق وهو أيضا غير محيط بجميع الأقسام. وقال جعفر الصادق: الصدق هو المجاهدة وأن لا تختار على الله غيره كما لم يختار عليك غيرك فقال تعالى - هو اجتباكم - وقيل أوحى الله تعالى إلى موسى عليه السلام إنى إذا أحببت عبدا ابتليت به يلأيا لا تقوم لها الجبال لأنظر كيف صدقه فإن وجدته صابرا اتخذته وليا وحببها وإن وجدته جزوعا بشكونى إلى خلقى خذته ولا أبالي فاذن من علامات الصدق كتمان المصائب والطاعات جميعا وكراهة اطلاع الخلق عليها. ثم كتاب الصدق والاحلاص، يتلوه كتاب المراقبة والمحاسبة والحمد لله.

يقطعه عن الله. وقيل للحسن بن علي بن أبي طالب رضى الله عنهما إن أبا ذر يقول الفقر أحب إلى من الغنى والسقم أحب إلى من الصحة قال رحمه الله أبا ذر، أما أنا فأقول: من اتكل على حسن اختيار الله له لم يتمن أنه في غير الحالة التي اختار الله له وقال على رضى الله عنه من جلس على بساط الرضا لم ينله من الله مكروه أبدا ومن جلس على بساط السؤال لم يرض عن الله في كل حال. وقال يحيى رجع الأمر كله إلى هذين الأصلين فعل منه بك وفعل

- (١) حديث قال لجبريل أحب أن أراك في صورتك التي هي صورتك فقال لا تطبق ذلك الحديث تقدم في كتاب الرجاء والخوف أخصر من هذا والذي ثبت في الصحيح أنه رأى جبريل في صورته مرتين (٢) حديث مرت ليلة أسرى بي وجبريل بالملأ الأعلى كالجلس البالي من خشية الله الحديث محمد بن نصر في كتاب تعظيم قدر الصلاة والبيهقي في دلائل النبوة من حديث أنس وفيه الحارث بن عبيد الإيادي ضعفه الجمهور وقال البيهقي ورواه حماد بن سلمة عن أبي عمران الجوني عن محمد بن عمير بن عطار وهذا مرسل (٣) حديث لا يبلغ عبد حقيقة الإيمان حتى ينظر إلى الناس كالأباعر في جنب الله ثم يرجع إلى نفسه فيجدها أحقر حقير لم أجده له أصلا في حديث مرفوع.



## ﴿ كتاب المراقبة والمحاسبة ﴾

( وهو الكتاب الثامن من ربيع النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله القائم على كل نفس بما كسبت الرقيب على كل جارحة بما اجتاحت الطلع على ضياء القلوب إذا هجست الحسب على خواطر عباده إذا اختلجت الذي لا يجزب عن علمه مثقال ذرة في السموات والأرض تهركت أو سكنت المحاسب على النقيير والقطمير والقليل والكثير من الأعمال وإن خفيت التفضل بقبول طاعات العباد وإن صغرت التطول بالغفر عن معاصيهم وإن كثرت وإنما محاسبهم لتعلم كل نفس ما أحضرت وتنتظر فيما قدمت وأخرت فتعلم أنه لولا لزومها للمراقبة والمحاسبة في الدنيا لشقيت في سعيد القيامة وهلكت وبعد المجاهدة والمحاسبة والمراقبة لولا فضله بقبول بضاعتها الزجاجة لحابت وخسرت فسبحان من عمت نعمته كافة العباد وشملت واستغفرت رحمة الخلائق في الدنيا والآخرة وغمرت فينفحات فضله انسمت القلوب للإيمان وانشرحت ويمن توفيقه تقيدت الجوارح بالمبادات وتأديت وبمحسن هدايته انجلت عن القلوب ظلمات الجهل وانقشعت وبتأييده ونصرته انقطعت مكاييد الشيطان واندفعت وبططف عنايته ترجع كفة الحسنات إذا قتل وبقيسره تيسرت من الطاعات ما تيسرت فنه العطاء والجزاء والاباء والادناء والاسعاد والاشقاء والصلاة والسلام على محمد سيد الأنبياء وعلى آله سادة الأصفياء وعلى أصحابه قادة الأتقياء .

[ أما بعد ] قد قال الله تعالى - ونضع الموازين القسط ليوم القيامة فلا تظلم نفس شيئا وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين - وقال تعالى - ووضع الكتاب فترى المجرمين مشفقين مما فيه ويقولون ياويلتنا ما لهذا الكتاب لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ووجدوا ما عملوا حاضرا ولا يظلم ربك أحدا - وقال تعالى - يوم يبعثهم الله جميعا فلينبئهم بما عملوا أحصاء الله ونسوه والله على كل شيء شهيد - وقال تعالى - يومئذ يصدر الناس أشتاتا ليروا أعمالهم فمن يعمل مثقال ذرة خيرا يره ومن يعمل مثقال ذرة شرا يره - وقال تعالى - ثم توفي كل نفس ما كسبت وهم لا يظلمون - وقال تعالى - يوم نحمد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ويحذركم الله نفسه - وقال تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - فعرف أرباب البصائر من جملة العباد أن الله تعالى لهم بالمحصار وأنهم سيقاؤون في الحساب ويطالبون بمثاقيل الأثام من الحطرات واللعنات وتحققوا أنه لا ينجيهم من هذه الأخطار إلا لزوم المحاسبة وصدق المراقبة ومطالبة النفس في الأنفاس والحركات ومحاسبتها في الحطرات واللعنات فمن حاسب نفسه قبل أن يحاسب خفي في القيامة حسابه وحضر عند السؤال جوابه وحسن من قلبه وما به ومن لم يحاسب نفسه دامت حسراته وطالت في عرصات القيامة وقفاته وقادته إلى الحزى والقتى سيئاته فلما انكشف لهم ذلك علموا أنه لا ينجيهم منه إلا طاعة الله وقد أمرهم بالصبر والمراقبة فقال عز من قائل يا أيها الذين آمنوا صبروا وصابروا ورابطوا وفربطوا أنفسهم أولا بالمشاركة ثم بالمراقبة ثم بالمحاسبة ثم بالمعاقبة ثم بالمجاهدة ثم بالمعاقبة فكانت لهم في المراقبة مقامات ولا بد من شرحها وبيان حقيقتها وفضيلتها وتفصيل الأعمال فيها وأصل ذلك المحاسبة ولكن كل حساب فبعد مشاركة ومراقبة ويتبعه عند الحصران المعاقبة والمعاقبة فلنذكر شرح هذه المقامات وبالله التوفيق .

( القام الأول من الرابطة المراقبة )

اعلم أن مطالب للتعاملين في التجارات المشتركة في البضائع عند المحاسبة سلامة الربح وكان التاجر

منك له قرضي بما  
عمل وتخلص فيما  
وقال بعضهم الراضى  
من لم يندم على كانت  
من الدنيا ولم يتأسف  
عليها . وقيل ليحيى  
ابن معاذ حتى يبلغ البعد  
إلى مقام الرضا قال إذا  
أقام نفسي على أربعة  
أصول فيما يعامل به يقول  
إن أعطينى قبلت  
وإن منعتى رضيت  
وإن تركتني عديت  
وإن دعوتني أجبت  
وقال الشبلي رحمه الله  
بين يدي الجنيد لا حول  
ولا قوة إلا بالله . قال  
الجنيد قولك ذائق  
صدر فقال صدقت قال  
فضيق الصدر ترك  
الرضا بالقضاء وهذا  
إنما قاله الجنيد رحمه

يستعين بشريكه فيسلم إليه المال حتى يتجر ثم يحاسبه فكذلك العقل هو التاجر في طريق الآخرة وإنما  
مطلبه وربحه تزكية النفس لأن بذلك فلاحها قال الله تعالى - قد أقبلت من زكائها وقد خاب من  
دساها - وإنما فلاحها بالأعمال الصالحة والعقل يستعين بالنفس في هذه التجارة إذ يستعلمها ويستخرجها  
فيما يزكيها كما يستعين التاجر بشريكه وعلامة الذي يتجر في ماله وكما أن الشريك يصير خصماً منازعاً  
يحاذيه في الربح فيحتاج إلى أن يشارطه أولاً ويراقبه ثانياً ويحاسبه ثالثاً ويحاسبه رابعاً فكذلك  
العقل يحتاج إلى مشارطة النفس أولاً فيوظف عليها الوظائف ويشرط عليها الشروط ويرشدها إلى  
طرق الفلاح ويجزم عليها الأمر بسلوك تلك الطرق ثم لا يخفل عن مراقبتها لحظة فانه لو أهملها لم يربحها  
إلا الحيانة وتضييع رأس المال كالعبد الخائن إذا خلا له الجؤ واترد بالمال ثم بعد الفراغ ينبغي أن  
يحاسبها ويطلبها بالوفاء بما شرط عليها فان هذه تجارة ربحها الفردوس الأعلى وبلوغ سدره للنهي  
مع الأنبياء والشهداء فتدقيق الحساب في هذا مع النفس أهم كثيراً من تدقيقه في أرباح الدنيا مع أنها  
محتقرة بالإضافة إلى نعيم العقبى ثم كيفما كانت قصيرها إلى التصرم والاقتضاء ولا خير في خير لا يدوم بل  
شر لا يدوم خير من خير لا يدوم لأن الشر الذي لا يدوم إذا انقطع بقي الفرح باق طاعة دائماً وقد انقضى  
الشر والخير الذي لا يدوم يبقى الأسف على انقطاعه دائماً وقد انقضى الخير ولذلك قيل :

أشد النعم عندى في سرور      تيقن عنه صاحبه انتقالا

فخم على كل ذي حزم آمن بالله واليوم الآخر أن لا يخفل عن محاسبة نفسه والتضييق عليها في حركاتها  
وسكناتها وخطواتها وحظواتها فان كل نفس من أنفاس العمر جوهرة نفيسة لا عوض لها يمكن أن  
يشتري بها كثر من السكوز لا يتناهى نعمة أبد الآباد فانقضاء هذه الأنفاس ضائعة أو مصروفة إلى  
ما يحجب الهلاك خسران عظيم هائل لا تسمح به نفس عاقل ، فاذا أصبح العبد وفرغ من فريضة  
الصبح ينبغي أن يفرغ قلبه ساعة لمشارطة النفس كما أن التاجر عند تسليم البضاعة إلى الشريك  
العامل يفرغ المجلس لمشارطته فيقول للنفس مالى بضاعة إلا العمر ومهما فنى فقد فنى رأس المال  
ووقع اليأس عن التجارة وطلب الربح وهذا اليوم الجديد قد أمهاني الله فيه وأنسى في أجلي وأنعم على  
به ولو توفاني لسكنت أمتنى أن يرجعنى إلى الدنيا يوماً واحداً حتى أعمل فيه صالحاً لحاسبى أنك قد توفيت  
ثم قد رددت فأياك ثم إياك أن تضيعى هذا اليوم فان كل نفس من الأنفاس جوهرة لا قيمة لها واعلمى بانفس  
أن اليوم واللييلة أربع وعشرون ساعة ، وقد ورد في الخبر « أنه ينشر للعبد بكل يوم وليلة أربع  
وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها مملوءة نورا من حسناته التي عملها في تلك الساعة  
فيقال له من الفرح والسرور والاستبشار بمشاهدة تلك الأنوار التي هي وسيلته عند الملك الجبار الملوووع  
على أهل النار لأدهشهم ذلك الفرح عند الاحساس بألم النار ويفتح له خزانة أخرى سوداء مظلمة  
فروح تنقها وبشاه ظلامها وهي الساعة التي عصي الله فيها فيقال له من المحول والفرغ الموقم على أهل  
الجنة لتنقص عليهم نعيمها ويفتح له خزانة أخرى فارغة ليس فيها ما يسره ولا ما يسوءه (١) وهي الساعة  
التي نام فيها أو غفل أو اشتغل بشئ من مباحات الدنيا فيتعسر على خلوها ويناله من غبن ذلك ما يناله  
القادر على الربح الكثير والملك الكبير إذا أهمله وتساهل فيه حتى فاتته وناهيك به حسرة وغنا  
وهكذا تعرض عليه خزائن أوقاته طول عمره فيقول لنفسه اجتهدى اليوم في أن تعمري خزانتك ولا تدعيها  
فارغة عن كنوزك التي هي أسباب ملكك ولا تعبلى إلى الكسل والدعة والاستراحة فيفوتك من

الله نعيمها منه على  
أصل الرضا وذلك أن  
الرضا يحصل لا شرع  
القلب وانفساحه  
واندراج القلب من  
نور اليقين قال الله تعالى  
- أفن شرح الله صدره  
للإسلام فهو على نور  
من ربه - فاذا تمكن  
النور من الباطن اتسع  
الصدر وانفتحت عين  
البصيرة وعان حسن  
تدبير الله تعالى فيتنوع  
الخط والضرر لأن  
اتساع الصدر يتضمن  
حلاوة الحب وفعل  
المحبوب بموقع الرضا  
عن الحب الصادق لأن  
الحب يرى أن الفعل  
من المحبوب مراده  
واختياره فيفنى في لذة  
روية اختيار المحبوب

(١) حديث ينشر للعبد كل يوم وليلة أربع وعشرون خزانة مصفوفة فيفتح له منها خزانة فيراها  
مملوءة من حسناته الحديث بطوله لم أجد له أصلاً .

درجات عليين ما يدركه غيرك وتبقى عندك حسرة لا تفارقك وإن دخلت الجنة فألم الفين وحسنة لا يطاق وإن كان دون ألم النار وقد قال بعضهم هب أن الله قد غنى عنه أليس قد فاعلنا وب الحسين أشار به إلى الفين والحسرة وقال الله تعالى - يوم يجمعكم ليوم الجمع ذلك يوم الثمين - فهذه وصيته لنفسه في أوقاته ثم ليستأنف لها وصية في أعضائه السبعة وهي العين والأذن واللسان والبطن والفرج واليد والرجل وتسليمها إليها فاتها رعايا خادمة لنفسه في هذه التجارة وبها تم أعمال هذه التجارة وإن لهن سبعة أبواب لكل باب منهم جزء مقسوم وإنما تعين تلك الأبواب لمن عصى الله تعالى بهذه الأعضاء فيوصيها بحفظها عن معاصيها أما العين فيحفظها عن النظر إلى وجه من ليس له بحرم أو إلى عورة مسلم أو النظر إلى مسلم بعين الاحتقار بل عن كل فضول مستغنى عنه فإن الله تعالى يسأل عبده عن فضول النظر كما يسأله عن فضول الكلام ثم إذا صرفها عن هذا لم تنفع به حتى يشغلها بما فيه تجارتها ويربها وهو ما خلقت له من النظر إلى عجائب صنع الله بعين الاعتبار والنظر إلى أعمال الخير للاقتداء والنظر في كتاب الله وحنه رسوله ومطالعة كتب الحكمة للانعاظ والاستفادة وهكذا ينبغي أن يفصل الأمر عليها في عضو عضولها لسانها والبطن أما اللسان فلائنه منطق بالطبع ولا مؤنة عليه في الحركة وجناته عظيمة بالقية والكذب والخمية وتركبة النفس ومذمة الخلق والأطعمة والأمن والدعاء على الأعداء والمارة في الكلام وغير ذلك مما ذكرناه في كتاب آفات اللسان فهو بصدد ذلك كله مع أنه خلق لذلك والتذكير وتكرار العلم والتعليم وإرشاد عباد الله إلى طريق الله وإصلاح ذات البين وسائر خيراته فليشترط على نفسه أن لا يحرك اللسان طول النهار إلا في الذكر فنطق المؤمن ذكر ونظرة عبدة وصنعة فكرة وما يلفظ من قول إلا لديه رقيب عتيد - وأما البطن فيكلفه ترك الشره وتقليل الأكل من الحلال واجتناب الشبهات وبعثه من الشهوات ويقتصر على قدر الضرورة وبشرط على نفسه أنها إن خالفت شيئاً من ذلك عاقبها بالمنع عن شهوات البطن ليفوتها أكثر مما نالته بشهواتها وهكذا يشترط عليها في جميع الأعضاء واستقصاء ذلك يطول ولا تخفى معاصي الأعضاء وطاعاتها ليستأنف وصيتها في وظائف الطاعات التي تتكرر عليه في اليوم والليلة ثم في النوافل التي يقدر عليها ويقدر على الاستكثار منها ويرتب لها تفصيلها وكيفية الاستعداد لها بأسبابها وهذه شروط يفترق إليها في كل يوم ولكن إذا تعود الإنسان شرط ذلك على نفسه أياماً وطاوعته نفسه في الوفاء بجميعها استغنى عن الشارطة فيها وإن أطاع في بعضها بقيت الحاجة إلى تجديد الشارطة فيها بقي ولكن لا يخلو كل يوم عن مهم جديد وواقعة حادثة لها حكم جديد والله عليه في ذلك حق ويكثر هذا على من يشتغل بشيء من أعمال الدنيا من ولاية أو تجارة أو تدريس إذ قلما يخلو يوم عن واقعة جديدة يحتاج إلى أن يقضى حق الله فيها فعليه أن يشترط على نفسه الاستقامة فيها والالتزام للحق في مجاريها ويحذر بها مغبة الإهمال ويحفظها كما يوعظ العبد الآبق المتمرد فإن النفس بالطبع متمردة عن الطاعات مستحبة عن العبودية ولكن الوعظ والتأديب يؤثر فيها - وذكر فإن الذكرى تنفع المؤمنين - فهذا وما يجري مجراه هو أول مقام الرابطة مع النفس وهي محاسبة قبل العمل والمحاسبة تارة تكون بعد العمل وتارة قبله التحذير قال الله تعالى - واعلموا أن الله يعلم ما في أنفسكم فاحذروا - وهذا للمستقبل وكل نظر في كثرة ومقدار لمعرفة زيادة ونقصان فانه يسمى محاسبة فالتنظر فيما بين يدي العبد في نهاره ليعرف زيادته من نقصانه من المحاسبة وقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فبينوا - وقال تعالى - يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا - وقال تعالى

عن اختيار نفسه كما قيل :

وكل ما يفعل المحبوب محبوب .

[ الباب الحادى

والستون في ذكر

الأحوال وشرحها ]

حدثنا شيخنا شيخ

الاسلام أبو النجيب

السهروردي رحمه الله

قال أنا أبو طالب الزيني

قال أخبرتنا كريمة

السروزية قالت أنا

أبو الهيثم الكشميني

قال أنا أبو عبد الله

القريري قال أنا

أبو عبد الله البخاري

قال ثنا سلمان بن حرب

قال حدثنا شعبة عن

قتادة عن أنس بن

مالك رضى الله عنه

عن النبي صلى الله عليه

وسلم قال ثلاث من

- ولقد خلقنا الانسان ونعلم ما توسوس به نفسه - ذكر ذلك تحذيرا وتنبيها للاحتراز منه في المستقبل . وروى عبادة بن الصامت أنه عليه السلام قال لرجل سأله أن يوصيه وبسطه «إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته فإن كان رشدا فأمضه وإن كان غيا فأنته عنه» (١) . وقال بعض الحكماء : إذا أردت أن يكون العقل غالبا للهوى فلا تعمل بقضاء الشهوة حتى تنظر العاقبة فإن مكث الندامة في القلب أكثر من مكث خفة الشهوة . وقال لقمان : إن المؤمن إذا أبصر العاقبة أمن الندامة . وروى شداد بن أوس عنه صلى الله عليه وسلم أنه قال «الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله» (٢) . دان نفسه أي حاسبها ويوم الدين يوم الحساب وقوله - أننا لمدينون - أي لحاسبون . وقال عمر رضي الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تموت تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وتهبشوا للعرض الأكبر ، وكتب إلى أبي موسى الأشعري حاسب نفسك في الرخاء قبل حساب الشدة . وقال لكعب كيف تجدها في كتاب الله قال ويل للذيان الأرض من ديان السماء فعلاء بالذرة وقال إلامن حاسب نفسه فقال كعب يا أمير المؤمنين إنها إلى جنبها في التوراة ما بينهما حرف إلامن حاسب نفسه وهذا كله إشارة إلى المحاسبة للـ مستقبل إذ قال من دان نفسه يعمل لما بعد الموت ومعناه وزن الأمور أولا وقدرها ونظر فيها وتدبرها ثم أقدم عليها فباشرها . [لرابطة الثانية الرقابة] إذا أوصى الانسان نفسه وشرط عليها ما ذكرناه فلا يبقى إلا الرقابة لها عند الخوض في الأعمال وملاحظتها بالعين الكائنة فانها إن تركت طفت وفسدت . ولتذكر فضيلة الرقابة ثم درجاتها . أما الفضيلة : فقد سأل جبريل عليه السلام عن الاحسان فقال «أن تعبد الله كأنك تراه» (٣) وقال عليه السلام «اعبد الله كأنك تراه فإن لم تكن تراه فإنه يراك» (٤) . وقد قال تعالى - أفمن هو قائم على كل نفس بما كسبت - وقال تعالى - ألم يعلم بأن الله يرى - وقال الله تعالى - إن الله كان عليكم رقيبا - وقال تعالى - والذين هم لأماناتهم وعهدهم راعون والذين هم بشهاداتهم قانعون - . وقال ابن المبارك لرجل : راقب الله تعالى فسأله عن تفسيره فقال كن أبدا كأنك ترى الله عز وجل . وقال عبد الواحد بن زيد : إذا كان سيدي رقيبا على فلا أبالي بغيره . وقال أبو عثمان المغربي : أفضل ما يلزم الانسان نفسه في هذه الطريقة المحاسبة والرقابة وسياسة عمله بالملم . وقال ابن عطاء : أفضل الطاعات مراقبة الحق على دوام الأوقات . وقال الحريري : أمرنا هذا مبني على أصلين أن نلزم نفسك الرقابة لله عز وجل ويكون العلم على ظاهره كقائما . وقال أبو عثمان : قال لي أبو حفص إذا جلست للناس فكن واعظا لنفسك وقلبك ولا يفرئك اجتماعهم عليك فانهم يراقبون ظاهرك والله رقيب على باطنك . وحكى أنه كان لبعض الشايخين . هذه الطائفة تليق شاب وكان يكرمه ويقدمه فقال له بعض أصحابه كيف تكرم هذا وهو شاب ونحن شيوخ فدعا بعدة طيور وناول كل واحد منهم طائرا وسكينا وقال اذبح كل واحد منكم طائره في موضع لا يراه أحد ودفع إلى الشاب مثل ذلك وقال له كما قال لهم فرجع كل واحد بطائره مذبوحا ورجع الشاب والطائر حي في يده فقال مالك لم تذبح كما ذبح أصحابك فقال لم أجد موضعا لا يراى فيه أحد إذ الله مطلع على كل مكان فاستحسنوا منه هذه الرقابة وقالوا حق لك أن تكرم .

كن فيه وجد حلاوة  
الإيمان : من كان الله  
ورسوله أحب إليه مما  
سواهما ومن أحب عبدا  
لأحبه إليه ومن يكره  
أن يعود في الكفر بعد  
إذ أنقذه الله منه كما  
يكره أن يلقى في النار .  
وأخبرنا شيخنا  
أبو زرعة طاهربن  
أبي الفضل قال أنا  
أبو بكر بن خلف قال  
أنا أبو عبد الرحمن قال  
أنا أبو عمر بن حيوة  
قال حدثني أبو عبيد بن  
مؤمل عن أبيه قال  
حدثني بشر بن محمد  
قال حدثنا عبد الملك  
ابن وهب عن إبراهيم  
ابن أبي عبيدة عن  
العرباض بن سارية  
قال «كان رسول الله

- (١) حديث عبادة بن الصامت إذا أردت أمرا فتدبر عاقبته الحديث تقدم (٢) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت الحديث تقدم (٣) حديث سأل جبريل عن الاحسان فقال أن تعبد الله كأنك تراه متفق عليه من حديث أبي هريرة ورواه مسلم من حديث عمر وقد تقدم (٤) حديث اعبد الله كأنك تراه الحديث تقدم .

وحكى أن زليخا لما خات يوسف عليه السلام قامت فغطت وجهه ضم كانه لما قال يوسف مالك أنتسحين من مراقبة جماد ولا أستحي من مراقبة الملك الجبار . وحكى عن بعض الأحداث أنه راود جارية عن نفسها فقالت له ألا تستحي فقال عن أستحي ؟ وما يرانا إلا الكواكب قالت فأين مكوكبا . وقال رجل للجنيدهم أستعين على غض البصر فقال بطلك أن نظر الناظر إليك أسبق من نظرك إلى المنظور إليه . وقال الجنيده : إنما يتحقق بالمراقبة من يخاف على فوت حظه من ربه عز وجل ، وعن مالك بن دينار قال : جنات عدن من جنات الفردوس وفيها حور خلقن من ورد الجنة قيل له ومن يسكنها ؟ قال يقول الله عز وجل إنما يسكن جنات عدن الذين إذا هموا بالمعاصي ذكروا عظمى فراقبوني والذين اثنت أصلاهم من خشيق وعزنى وجلالى إني لأهم بسذاب أهل الأرض فإذا نظرت إلى أهل الجوع والمطش من مخافى صرفت عنهم العذاب . وسئل الهاسبي عن المراقبة فقال : أولها علم القلب بقرب الرب تعالى . وقال للرتش : المراقبة مراعاة السر بلا حطة القلب مع كل لحظة ولقطة . ويرى أن الله تعالى قال ملائكتكم أنتم موكلون بالظاهر وأنا الرقيب على الباطن . وقال محمد بن على الترمذى اجعل مراقبتك لمن لا تتيب عن نظره إليك واجعل شكرك لمن لا تنقطع نعمه عنك واجعل طاعتك لمن لا تستغنى عنه واجعل خضوعك لمن لا تخرج عن ملكه وسلطانه . وقال سهل : لم يزين القلب بشئ أفضل ولا أشرف من علم العبد بأن الله شاهده حيث كان . وسئل بعضهم عن قوله تعالى - رضى الله عنهم ورضوا عنه ذلك لمن خشى ربه - فقال معناه ذلك لمن راقب ربه عز وجل وحاسب نفسه وتزود لمعاده . وسئل ذوالنون بم ينال العبد الجنة ؟ فقال بخمس استقامة ليس فيها روغان واجتهاد ليس معه سهو ومراقبة الله تعالى فى السر والعلانية وانتظار الموت بالتأهب له ومحاسبة نفسك قبل أن تحاسب وقد قيل :

إذا ما خلوت الدهر يوما فلا تنقل خلوت ولكن قل على رقيب  
ولا تحسبن الله يفتل ساعة ولا أن ما تخفيه عنه يريب  
ألم تر أن اليوم أسرع ذاهب وأن غدا لناظرين قريب

وقال حميد الطويل لسليمان بن على عظمى فقال : لئن كنت إذا عصيت الله خاليا ظننت أنه يراك لقد اجترأت على أمر عظيم ولئن كنت تظن أنه لا يراك فلقد كثرت . وقال سفيان الثورى : عليك بالمراقبة ممن لا تخفى عليه خافية عليك بالرجاء ممن يملك الوفاء عليك بالحدذر ممن يملك العقوبة . وقال فرقد السنجى : إن للنافق ينظر فإذا لم ير أحدا دخل مدخل السوء وإنما يراقب الناس ولا يراقب الله تعالى . وقال عبده بن دينار : خرجت مع عمر بن الخطاب رضى الله عنه إلى مكة فرسنا فى بعض الطريق فأنعذر عليه راع من الجبل فقال له ياراعى بنى شاة من هذه النعم فقال إني مملوك فقال قل لسيديك أكلها القديب قال فأين الله قال فبكى عمر رضى الله عنه ثم غدا إلى المملوك فاشتراه من مولاه وأعتقه وقال أعتقتك فى الدنيا هذه الكلمة وأرجو أن تمتك فى الآخرة .

( بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها )

اعلم أن حقيقة المراقبة هى ملاحظة الرقيب وانصراف الهم إليه فمن احترز من أمر من الأمور بسبب غيره يقال إنه يراقب فلانا ويراعى جانبه ويعنى بهذه المراقبة حالة القلب بشمرها نوع من المعرفة وشمر تلك الحالة أعمالا فى الجوارح وفى القلب أما الحالة فهى مراعاة القلب للرقيب واشتغاله به والتفاتة إليه وملاحظته إياه وانصرافه إليه وأما المعرفة التى شمر هذه الحالة فهو العلم بأن الله مطلع على الضاهر عالم بالسرائر رقيب على أعمال العباد قائم على كل نفس بما كسبت وأن سر القلب فى حقه مكشوف كما أن ظاهر البشرة للخلق مكشوف بل أشد من ذلك فهذه المعرفة إذا صارت يقينا

صلى الله عليه وسلم  
يدعو : اللهم اجعل  
حك أحب إلى من  
نفسى وصمى وبصرى  
وأهلى ومالى ومن  
الماء الباردة فكان  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم طلب  
خالص الحب وخالص  
الحب هو أن يحب الله  
تعالى بكليته وذلك  
أن العبد قد يكون فى  
حال قائما بشروط  
حاله بحكم العلم والجيلة  
تفاضاه بصد العلم مثل  
أن يكون راضيا  
والجيلة قد تنكره  
ويكون النظر إلى  
الالتفات بالعلم لا إلى  
الاستعصاء بالجيلة  
قد يحب الله تعالى  
ورسوله بحكم الإيمان

أعنى أنها خلت على الشك ثم استولت بعد ذلك على القلب وقهرته فرب علم لاشك فيه لا يظن على القلب كالعلم بالموت فإذا استولت على القلب استجرت القلب إلى مراعاة جانب الرقيب وصرفت همه إليه والوقوفون بهذه المراقبة هم القربون ، وهم ينقسمون إلى الصديقين وإلى أصحاب اليقين ، لمراقبتهم على درجتين . الدرجة الأولى : مراقبة القربين من الصديقين ، وهي مراقبة التعظيم والاحلال ، وهو أن يصير القلب مستغرقا بملاحظة ذلك الجلال ومنكسرا تحت الهيبة فلا يبقى فيه متسع للالتفات إلى الغير أصلا وهذه مراقبة لا تطول النظر في تفصيل أعمالها فأنها مقصورة على القلب . أما الجوارح فأنها تعطّل عن الالتفات إلى اللباحات فضلا عن المخطورات ، وإذا تحركت بالطاعات كانت كالستمة بها فلا تحتاج إلى تدبير وتثبيت في حفظها على سنن السداد ، بل يسد الرعية من ملك كلية الراعى والقلب هو الراعى فإذا صار مستغرقا بالمعبود صارت الجوارح مستعملة جارية على السداد والاستقامة من غير تكلف وهذا هو الذى صار همه ما واحدا فكفاه الله سائر المهوم ، ومن نال هذه الدرجة قد ينفل عن الخلق حتى لا يصير من يحضر عنده وهو قانع بعينه ولا يسمع ما يقال له مع أنه لا يسمع به وقد يمر على ابنه مثلا فلا يكلّمه حتى كان بعضهم يجرى عليه ذلك ، فقال لمن طابه إذا مررت بى فركنى ولا تستبعد هذا فأنك تجد نظير هذا فى القلوب المظلمة للملوك الأرض حتى إن خدم للملك قد لا يحسون بما يجرى عليهم فى مجالس الملوك لشدة استغراقهم بهم بل قد يشغل القلب بهم حقير من مهجات الدنيا فيفوس الرجل فى الفكر فيه ويمشى قريبا يجاوز للوضع الذى قصده وينسى الشغل الذى نهض له . وقد قيل لبيد الواحد بن زيد هل تعرف فى زمانك هذا رجلا قد اشتغل بحاله عن الخلق ، فقال ما أعرف إلا رجلا سيدخل عليكم الساعة فما كان إلا سريما حتى دخل عتبة القلعة ، فقال له عبد الواحد بن زيد من أين جئت يا عبته ، فقال من موضع كذا وكان طريقه على السوق فقال من لقيت فى الطريق فقال ما رأيت أحدا . ويروى عن يحيى بن زكريا عليهما السلام أنه مر بامرأة فدفعها فستطت على وجهها فقيل له لم فعلت هذا ؟ فقال ما ظننتها إلا جدارا . وحكى عن بعضهم أنه قال مررت بجماعة يترامون وواحد جالس بيدها منهم فتقدمت إليه فأردت أن أكلمه فقال ذكر الله تعالى أشهى قلت أنت وحدك فقال معى ربى وملسكأى قلت من سبق من هؤلاء فقال من غفر الله له قلت أين الطريق فأشار نحو السماء وقام ومضى ، وقال أكثر خلقك شاغل عنك فهذا كلام مستغرق بمشاهدة الله تعالى لا يشككم إلا منه ولا يسمع إلا به فهذا لا يحتاج إلى مراقبة لسانه وجوارحه فأنها لا تتحرك إلا بما هو فيه . ودخل الشبلى على أبى الحسين النورى وهو معتكف فوجده ساكنا حسن الاجتماع لا يتحرك من ظاهره شئ فقال له من أين أخذت هذه المراقبة والسكون ، فقال من سنور كانت لنا فكانت إذا أرادت الصيد رابطت رأس الجحر لا تتحرك لها شمرة . وقال أبو عبد الله بن خفيف خرجت من مصر أريد الرملة للقاء أبى على الروذبارى فقال لى عيسى بن يونس المصرى المعروف بالزاهد إن فى صور شابا وكهلا قد اجتمعا على حال المراقبة ، فلو نظرت إليهما انظرة لملك تستفيد منهما فدخلت صور وأنا جائع عطشان وفى وسطى خرقه وليس على كتفى شئ فدخلت المسجد فاذا بشخصين قاعدين مستقبلي القبلة فسلمت عليهما فما أجاباني فسلمت ثانية وثالثة فلم أسمع الجواب . فقلت : نشدكما بالله إلا ردتما على السلام فرفع الشاب رأسه من مرقته فنظر إلى وقال يا ابن خفيف الدنيا قليل وما بقى من القليل إلا القليل فخذ من القليل الكثير . يا ابن خفيف : ما أقل شغلك حتى تنفرغ إلى لقائنا . قال فأخذ بكليتى ثم طأطأ رأسه فى المكان فبقيت عندهما حتى صليت الظهر والعصر

ويحب الأهل والولد  
بحكم الطبع . وللمحبة  
وجوه وبواعث المحبة  
فى الانسان متنوعة  
فمنها محبة الروح  
ومحبة القلب ومحبة  
النفس ومحبة النفس  
قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
وقد ذكر الأهل  
واللئال والماء البارد  
منه استماله عروق  
المحبة بمحبة الله تعالى  
حتى يكون حب الله  
تعالى طالبا فيحب الله  
تعالى بقلبه وروحه  
وكلته حتى يكون  
حب الله تعالى أغلب  
فى الطبع أيضا والحبيلة  
من حب الماء البارد  
وهذا يكون حبا  
صافيا لخواص تنضم

فذهب جوعى وعطشى وعنائى . فلما كان وقت العصر قلت عظمى فرفع رأسه إلى وقال : يا ابن خفيف نحن أصحاب الصائب ليس لنا لسان العظة فقيمت عندها ثلاثة أيام لا أكل ولا أشرب ولا أنام ولا رأيتهما أكلًا شيا ولا شربا فلما كان اليوم الثالث قلت فى سرى أحلفهما أن يعطاني على أن أضع بظنهما فرفع الشاب رأسه وقال لى يا ابن خفيف عليك بصحبة من يذكرك الله رؤيته وتقع هيئته على قلبك يعطك بلسان فعله ولا يعطك بلسان قوله والسلام قم عنا فهذه درجة للمراقبين الذين غلب على قلوبهم الاحلال والتعظيم فلم يبق فيهم منفع لقبير ذلك . الدرجة الثانية : مراقبة الورعين من أصحاب اليقين وهم قوم غلب يقين اطلاع الله على ظاهريهم وباطنيهم على قلوبهم ولكن لم تدهشهم ملاحظة الجلال بل بقيت قلوبهم على حد الاعتدال متسعة للتلف إلى الأحوال والأعمال إلا أنها مع ممارسة الأعمال لا تغلو عن المراقبة . نعم غلب عليهم الحياء من الله فلا يقدمون ولا يعجمون إلا بعد التثبت فيه ويمتنعون عن كل ما يفتضحون به فى القيامة فاتهم يرون الله فى الدنيا مطلقا عليهم فلا يحتاجون إلى انتظار القيامة وتعرف اختلاف الدرجتين بالمشاهدات فانك فى خلوتك قد تعاطى أعمالا فيحضرك صبي أو امرأة فتعلم أنه مطلع عليك فتستحي منه فتجسجس جلوسك وتراعى أحوالك لاعتن إجلال وتعظيم بل عن حياء فان مشاهدته وإن كانت لا تدهشك ولا تستغرقك فاتها تهيب الحياء منك وقد يدخل عليك ملك من الملوك أو كبير من الأكابر فيستغرقك التعظيم حتى تترك كل ما أنت فيه شغلا به لحياء منه فهكذا تختلف مراتب العباد فى مراقبة الله تعالى ومن كان فى هذه الدرجة فيحتاج أن يراقب جميع حركاته وسكناته وخطراته ولحظاته وبالجملة جميع اختياراته ، وله فيها نظران نظر قبل العمل ونظر فى العمل . أما قبل العمل فلينظر أن مظهره وتحرك يقطعه خاطره أهو لله خاصة أو هو فى هوى النفس ومتابعة الشيطان فيتوقف فيه ويتثبت حتى يكشف له ذلك بنور الحق ، فان كان لله تعالى أمضاء ، وإن كان لغير الله استجيا من الله وانكشف عنه ثم لام نفسه على رغبته فيه وهمه به وميله إليه وعزفها سوء فعلها وسعيها فى فضيحتها وأنها عدوة نفسها إن لم يتداركها الله بصمته وهذا التوقف فى بداية الأمور إلى حد البيان واجب محتوم لا يحصى لأحد عنه فان فى الخبر « إنه ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الديوان الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن <sup>(١)</sup> » ومعنى لم أى لم فعلت هذا أ كان عليك أن تمنعه لمولاك أوملت إليه بشهوتك وهواك فان سلم منه بأن كان عليه أن يعمل ذاك لمولاه سئل عن الديوان الثانى فقيل له كيف فعلت هذا فان لله فى كل عمل شرطاً وحكماً لا يدرك قدره ووقته وصفته إلا بعلم فيقال له كيف فعلت أبلم محقق أم بجهل وظن فان سلم من هذا نشر الديوان الثالث وهو للطالبة بالاخلاص فيقال له لمن عملت ألوجه الله خالصاً وفاء بقوله لا إله إلا الله فيسكون أجرك على الله أو لمرا آة خلق مثلك فخذ أجرك منه أم عملته لتنال عاجل دنياك فقد وفيناك نصيبك من الدنيا أم عملته بسوء وخفة فقد سقط أجرك وحبط عملك وخاب سعيك وإن عملت لغيري فقد استوجبته مقى وعقابى إذ كنت عبداً لى تأكل رزقى وترفعه بتمنى ثم تعمل لغيري أما سمعتنى أقول - إن الذين تدعون من دون الله عباد أمثالكم - إن الذين تعبدون من دون الله لا يملكون لكم رزقاً فابتغوا عند الله الرزق واعبدوه - ويحك أما سمعتنى أقول - الله الدين الحامى - فاذا عرف العبد أنه بصدده هذه اللطائف والتوبيخات طالب نفسه قبل أن تطالب وأعد لسؤال جوابا وليكن الجواب صواباً فلا يبدى ولا يبعد إلا بعد التثبت

(١) حديث ينشر للعبد فى كل حركة من حركاته وإن صغرت ثلاثة دواوين : الأول لم . والثانى كيف . والثالث لمن . لم أتف له على أصل .

به وبنوره نار الطبع والجليلة وهذا يكون حب الذات عن مشاهدة بكوف الروح وخلوصه إلى مواطن القرب . قال الواسطى فى قوله تعالى - يحبهم ويحبونه - كما أنه بذاته يحبهم كذلك يحبون ذاته فاللهاء راجعة إلى الذات دون النعوت والصفات . وقال بعضهم الحب شرطه أن تلحقه سكرات المحبة فاذا لم يكن ذلك لم يكن حبه فيه حقيقة فاذا نال الحب حيان حب عام وحب خاص فالحب العام مفسر بامتثال الأمر وربما كان حيا من معدن العلم بالآلاء

ولا يهرك جفنا ولا أظفلة إلا بعد التأمل وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم لما ذكره إن الرجل ليسئل عن كحل عينيه وعن فته الطين بأصبعيه وعن لمسه ثوب أخيه (١) وقال الحسن كان أحدهم إذا أراد أن يتصدق بصدقة نظر وثبت فإن كان لله أمضاه . وقال الحسن : رحم الله تعالى عبدا وقف عنده ما كان لله مضي وإن كان لغيره تأخر وقال في حديث سعد حين أوصاه سلمان « اتق الله عندك إذا هممت (٢) » وقال محمد بن علي إن المؤمن وقاف متأن يقف عند همه ليس كعاطب ليل فهذا هو النظر الأول في هذه الرقابة ولا يخلص من هذا إلا العالم للثبوت والمعرفة الحقيقية بأسرار الأعمال وأغوار النفس ومكاييد الشيطان فمَن لم يعرف نفسه وربه وعدوه إبليس ولم يعرف ما يوافق هواه ولم يميز بينه وبين ما يحبه الله وبرضاه في نيته وهمة وفكرته وسكوته وحركته فلا يسلّم في هذه الرقابة بل الأكثرون يرتكبون الجهل فيما يكرهه الله تعالى وهم يحسبون أنهم يحسنون صنعا ، ولا تظن أن الجاهل بما يقدر على التلم فيه يندر هبات بل طالب العلم فريضة على كل مسلم ولهذا كانت ركعتان من عالم أفضل من ألف ركعة من غير عالم لأنه يعلم آفات النفوس ومكاييد الشيطان ومواقع الضرور فيفتق ذلك والجاهل لا يعرفه فكيف يعتز منه فلا يزال الجاهل في ثوب والشيطان منه في فرح وهجامة فتعوذ بالله من الجهل والفتنة فهو رأس كل عقاوة وأساس كل خسران لحكم الله تعالى على كل عبد أن يراقب نفسه عند همه بالقل وسعيه بالجراحة فيتوقف عن الهم وعن السعي حتى ينكشف له بنور العلم أنه لله تعالى فيمضيه أو هو لهوى النفس فينتبه ويحذر القلب عن الفكر فيه وعن الهم به فإن الخطرة الأولى في الباطن إذا لم تدفع أورثت الرغبة والرغبة تورث الهم والهم يورث جزم القصد والقصد يورث الفعل والفعل يورث البوار والقت فينبغي أن تحسم مادة الشر من منبعه الأول وهو الخاطر فإن جميع ما وراءه يتبعه وبهما أشكل على العبد ذلك وأظلمت الواقعة فلم ينكشف له فينفكر في ذلك بنور العلم ويستنبد بالله من مكر الشيطان بواسطة الهوى فإن هجز عن الاجتهاد والفكر بنفسه فيستضيء بنور علماء الدين ولغير من العلماء الفضلين القبلين على الدنيا فرار من الشيطان بل أشد قد أوحى الله تعالى إلى داود عليه السلام : لا تسأل عن طالما أسكره حب الدنيا فيقطعك عن محبي أولئك قطاع الطريق على عبادي ، فالقلوب المظلمة بحب الدنيا وشدة الشر والتكالب عليها محجوبة عن نور الله تعالى فإن مستضاء أنوار القلوب حضرة الربوبية فكيف يستضيء بها من استدبرها وأقبل على عدوها وعشق بغيضا ومقبتها وهي شهوات الدنيا فتلكن همه المرید أولا في أحكام العلم أوفى طلب عالم معرض عن الدنيا أضعف الرغبة فيها إن لم يجد من هو عديم الرغبة فيها وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات والعقل الكامل عند هجوم الشهوات (٣) » جمع بين الأمرين وهما متلازمان حقائق ليس له عقل وازع عن الشهوات فليس له بصر ناقد في الشبهات ولذلك قال عليه السلام « من قارف ذنبا قارقه عقل لا يعود إليه أبدا (٤) » فما قدر العقل الضعيف الذي سعد الأدمي به حتى يصد إلى محوه وحمته بمقارفة الذنوب ومعرفة آفات الأعمال قد اندرست في هذه الأعصار فإن الناس كلهم قد هجروا هذه العلوم واعتزلوا

والنعماء وهذا الحب محرجه من الصفات وقد ذكر جمع من المشايخ الحب في المقامات فيكون النظر إلى هذا الحب العام الذي يكون لكسب العبد فيه مدخل . وأما الحب الخاص فهو حب الذات عن مطالعة الروح وهو الحب الذي فيه السكرات وهو الاصطناع من الله الكريم لبعده واصطفاؤه بإياه وهذا الحب يسكون من الأحوال لأنه محض موهبة ليس للكسب مدخل وهو مفهوم من قول النبي صلى الله عليه وسلم « أحب إلى من الماء البارد » لأنه

(١) حديث قال لما ذكره إن الرجل ليسأل عن كحل عينيه الحديث تقدم في الذي قبله (٢) حديث سعد حين أوصاه سلمان أن اتق الله عندك إذا هممت إذا هممت أحمد والحاكم وصححه وهذا القدر منه موقوف وأوله مرفوع تقدم (٣) حديث إن الله يحب البصر الناقد عند ورود الشبهات الحديث أبو نعيم في الحلية من حديث عمران بن حصين وفيه حفص بن عمر العدني ضعفه الجمهور (٤) حديث من قارف ذنبا قارقه عقل لا يعود إليه أبدا تقدم ولم أجده .



بالوسط بين الخلق في الخصومات النائرة في اتباع السموات وقالوا هذا هو الفقه وأخرجوا هذا العلم الذي هو فقه الدين عن جملة العلوم وتجردوا لفقه الدنيا الذي ما قصد به الإدفع الشواغل عن القلوب ليتفرغ لفقه الدين فكان فقه الدنيا من الدين بواسطة هذا الفقه وفي الخبر «أنتم اليوم في زمان خيركم فيه السارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه الثابت» (١) ولهذا توقف طائفة من الصحابة في القتال مع أهل العراق وأهل الشام لما أشكل عليهم الأمر كسعد بن أبي وقاص وعبد الله بن عمرو وأسامة وعمر بن مسلمة وغيرهم فمن لم يتوقف عند الاشتباه كان متبعا لهوامة معجبا برأيه وكان بمن وصفه رسول الله صلى الله عليه وسلم إذ قال «فاذا رأيت شعا مطاعا وهوى متبعا وإعجاب كل ذي رأى برأيه فعليك بخاصة نفسك» (٢) وكل من خاض في شبهة بغير تحقيق فقد خالف قوله تعالى - ولا تقف ما ليس لك به علم - وقوله عليه السلام «ياكم والظن فان الظن أ كذب الحديث» (٣) وأراد به ظنا بغير دليل كما يستق بعض الموماء قلبه فيما أشكل عليه ويتبع ظنه ولصعوبة هذا الأمر وعظمه كان دعاء الصديق رضى الله تعالى عنه اللهم أرني الحق حقا وارزقني اتباعه وأرني الباطل باطلا وارزقني اجتنابه ولا تجعله متشابها على فأتابع الهوى . وقال عيسى عليه السلام «الأمور ثلاثة: أمر استبان رعهه فاتبه وأمر استبان غيه فاجتنبه وأمر أشكل عليك فكله إلى عاله» (٤) وقد كان من دعاء النبي صلى الله عليه وسلم «اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم» (٥) فأعظم نعمة الله على عباده والعلم وكشف الحق والإيمان عبارة عن نوع كشف وعلم ولذلك قال تعالى امتثنا على عبده - وكان فضل الله عليك عظيما - وأراد به العلم وقال تعالى - فاسألوا أهل الذكر إن كنتم لا تعلمون - وقال تعالى - إن علينا للهدى - وقال - ثم إن علينا بيانه - وقال - وعلى الله قصد السبيل - وقال على كرم الله وجهه: الهوى شريك العنى ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ونعم طاردهم اليقين وعاقبة الكذب الندم وفي الصديق السلامة رب بعيد أقرب من قريب وغريب من لم يكن له حبيب والصديق من صدق غيبه ولا يهدمك من حبيب سوء ظن نعم الخلق التسكرم والحياء سبب إلى كل جميل وأوثق الراتقوى وأوثق سبب أخذت به سبب بينك وبين الله تعالى إنما لك من دنياك ما أصلحت به مثواله والرزق رزقان رزق تطلبه ورزق يطلبك فان لم تأته أذاك وإن كنت جازعا على ما أصيب مما في يديك فلا تجزع على ما لم يصل إليك واستدل على ما لم يكن بما كان فانما الأمور أشباه وللرء بسره درك ما لم يكن ليفوته ويسوء فوت ما لم يكن ليدركه لما نالك من دنياك فلا تسكرن به فرحا وما فاتك منها فلا تقيمه نفسك أسفا وليكن سرورك بما قدمت وأسفك على ما خلفت وشغلك لأخرك وهك فيما بعد الموت وغرضنا من نقل هذه الكلمات قوله ومن التوفيق التوقف عند الحيرة ، فاذا نظر الأول للمراقب نظره في الهم والحركة أهى لله أم للهوى وقد قال صلى الله عليه وسلم «ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم ولا يرى بشيء من عمله وإذا عرض له أمر أن أحدها للدنيا والآخرة والآخرة أثر الآخرة على الدنيا» (٦) وأكثر ما ينكشف له في حركاته أن يكون مباحا ولكن

(١) حديث أنتم اليوم في زمان خيركم فيه السارع وسيأتي عليكم زمان خيركم فيه الثابت لم أجده (٢) حديث فاذا رأيت شعا مطاعا وهوى متبعا الحديث تقدم (٣) حديث لماكم والظن الحديث تقدم (٤) حديث قال عيسى الأمور ثلاثة الحديث الطبراني من حديث ابن عباس بإسناد ضعيف (٥) حديث اللهم إني أعوذ بك أن أقول في الدين بغير علم لم أجده (٦) حديث ثلاث من كن فيه استكمل إيمانه لا يخاف في الله لومة لائم الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أبي هريرة وقد تقدم .

كلام عن وجدان روح  
تلتد بحب الذات  
وهذا الحب روح  
والحب الذي يظمر عن  
مطالعة الصفات ويطمع  
من مطالع الإيمان  
قال هذا الروح ولما  
صحت محبتهم هذه أخبر  
الله تعالى عنهم بقوله -  
أذلة على المؤمنين - لأن  
الحب يذل المحبوبة  
والمحبوب محبوبة  
وينشد :  
لعين تغدى ألف عين  
وتتق  
ويكرم ألف للحبيب  
السكر  
وهذا الحب الخالص  
هو أصل الأحوال  
السنية وموجبها وهو  
في الأحوال كالتوبة  
في اللقائات فمن صحت

لا يعنيه فيتركه لقوله صلى الله عليه وسلم «من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه»<sup>(١)</sup>. النظر الثاني للرقابة عند الشروع في العمل وذلك بتفقد كيفية العمل ليقض حق الله فيه ويحسن النية في إتمامه ويكمل صورته ويتعاطاه على أكمل ما يمكنه وهذا ملازم له في جميع أحواله فإنه لا يغفل في جميع أحواله عن حركة وسكون فإذا راقب الله تعالى في جميع ذلك قدر على عبادة الله تعالى فيها بالنية وحسن الفعل ومراعاة الأدب فإن كان قاعدا مثلاً فينبغي أن يقعد مستقبل القبلة لقوله ﷺ «خير المجالس ما مستقبل به القبلة»<sup>(٢)</sup> ولا يجلس متربها إذ لا يجالس للولك كذلك ومثل ذلك للولك مطلع عليه قال إبراهيم بن آدم رحمه الله جلست مرة متربها فسمعت هائضا يقول هكذا تجالس للولك فلم أجلس بعد ذلك متربها وإن كان ينام فينام على اليد اليمنى مستقبل القبلة مع سائر الآداب التي ذكرناها في مواضعها فكل ذلك داخل في الرقابة بل لو كان في قضاء الحاجة فمراعاته لآدابها وفاء بالرقابة فاذن لا يغفلو البعد إما أن يكون في طاعة أو في معصية أو في مباح فراقبته في الطاعة بالاخلاص والإكمال ومراعاة الأدب وحرصها عن الآفات وإن كان في معصية فراقبته بالتوبة والندم والاقلاع والحياء والاستغفار بالتفكير وإن كان في مباح فمراقبته بمراعاة الأدب ثم بشهود للنعم في النعمة وبالشكر عليها ولا يغفلو البعد في جملة أحواله عن بلية لا بد له من الضرب عليها ونعمة لا بد له من الشكر عليها وكل ذلك من الرقابة بل لا ينفك العبد في كل حال من فرض الله تعالى عليه إما فعل يلزمه مباشرة أو محذور يلزمه تركه أو نذوب عليه ليسارع به إلى مغفرة الله تعالى ويسابق به عباد الله أو مباح فيه صلاح جسمه وقلبه وفيه عون له على طاعته ولكل واحد من ذلك حدود لا بد من مراعاتها بدوام الرقابة - ومن يمتد حدود الله فقد ظلم نفسه - فينبغي أن يتفقد البعد نفسه في جميع أوقاته في هذه الأقسام الثلاثة فإذا كان فارغاً من الفرائض وقدر على الفضائل فينبغي أن يلتزم أفضل الأعمال ليستغل بها فإن من فاته مزيد ربح وهو قادر على دركه فهو مغبون والأرباح تال بمزايا الفضائل فبذلك يأخذ العبد من دينه لآخرته كما قال تعالى - ولا تنس نصيحتك من الدنيا - وكل ذلك إنما يمكن بصبر ساعة واحدة فإن الساعات ثلاث ساعة مضت لا تنب فيها على البعد كيفما انقضت في مشقة أو رفاهية وساعة مستقبلية لم تأت بعد لا يدري البعد أي شيء إليها أم لا ولا يدري ما يقضى الله فيها وساعة راحنة فينبغي أن يجاهد فيها نفسه وراقب فيها ربه فإن لم تأت الساعة الثانية لم يتحصر على فوات هذه الساعة وإن أتت الساعة الثانية استوفى حقه منها كما استوفى من الأولى ولا يطول أمه خمسين سنة فيطول عليه العزم على الرقابة فيها بل يكون ابن وقته كأنه في آخر أنفاسه فله آخر أنفاسه وهو لا يدري وإذا أمكن أن يكون آخر أنفاسه فينبغي أن يكون على وجه لا يكره أن يدركه الموت وهو على تلك الحالة وتكون جميع أحواله مقصورة على ما رواء أبو ذر رضي الله تعالى عنه من قوله عليه السلام «لا يكون المؤمن ظاعناً إلا في ثلاث نزود لمعاد أو مرمة لمعاش أو لغة في غير محرم»<sup>(٣)</sup> وما روى عنه أيضاً في معناه «وعلى العاقل أن تكون له أربع ساعات ساعة يناجي فيها ربه وساعة يحاسب فيها نفسه وساعة يتفكر فيها في صنع الله تعالى وساعة يغفل فيها المظلم والشرب»<sup>(٤)</sup>

نوبته على الكمال  
تحقق بسائر اللقائات  
من الزهد والرضا  
والترك على ما شرعناه  
أولاً ومن صحت  
عبته - هذه تحقق  
بسائر الأحوال من  
الفناء والبقاء والصحو  
والحو وغير ذلك  
والتوبة لهذا الحب  
أيضاً بمثابة الجسدان  
لأنها شتملة على الحب  
العام الذي هو لهذا  
الحب كالجسد ومن  
أخذ في طريق  
المحبوبين وهو طريق  
خاص من طريق  
الحبة يتكامل فيه  
ويجتمع له روح الحب  
الخاص مسع قالب  
الحب العام الذي  
تشتمل عليه التوبة

(١) حديث من حسن إسلام المرء تركه ما لا يعنيه تقدم (٢) حديث خير المجالس ما مستقبل به القبلة الحاكم من حديث ابن عباس وقد تقدم (٣) حديث أبي ذر لا يكون للمؤمن ظاعناً إلا في ثلاث نزود لمعاد الحديث أحمد وابن حبان والحاكم وصححه أنه صلى الله عليه وسلم قال إنه في صحف موسى وقد تقدم (٤) حديث وعلى العاقل أن يكون له ثلاث ساعات ساعة يناجي فيها ربه الحديث وهي بقية حديث أبي ذر الذي قبله .

فإن في هذه الساعة عوناً له على بقية الساعات ثم هذه الساعات التي هو فيها مشغول الجوارح بالطعام والشرب لا ينبغي أن يغلو عن عمل هو أفضل الأعمال وهو الذكر والفكر فإن الطعام الذي يتناوله مثلاً فيه من العجائب ما لو تفكر فيه وفطن له كان ذلك أفضل من كثير من أعمال الجوارح والناس فيه أقسام : قسم ينظرون إليه بعين التبصر والاعتبار فينظرون في عجائب صنعه وكيفية ارتباط قوام الحيوانات به وكيفية تقدير الله لأسبابه وخلق الشهوات الباعثة عليه وخلق الآلات المسخرة للشهوة فيه كما فصلنا بعضه في كتاب الشكر وهذا مقام ذوى الأبواب وقسم ينظرون فيه بعين التفت والكراهة ويلاحظون وجه الاضطراب إليه وبودهم لو استغنوا عنه ولكن يرون أنفسهم مقهورين فيه مسخرين لشهواته وهذا مقام الزاهدين وقوم يرون في الصنعة الصانع ويترقون منها إلى صفات الخالق فتكون مشاهدة ذلك سبباً لتذكر أبواب من الفكر تنفتح عليهم بسببه وهو أعلى المقامات وهو من مقامات العارفين وعلامات المحبين إذا ألهم إذا رأى صنعة حبيبه وكتابه وتصنيفه نسي الصنعة واشتغل قلبه بالصانع وكل ما يتردد العبد فيه صنع الله تعالى فله في النظر منه إلى الصانع مجال رحب إن فتحت له أبواب المسكوت وذلك عزيز جداً . وقسم رابع ينظرون إليه بعين الرغبة والحرص فيتأسفون على ما فاتهم منه ويفرحون بما حضرم من جلته ويذمون منه ما لا يوافق هوائهم ويعيبونه ويذمون فاعله فيذمون الطيبخ والطباخ ولا يعلمون أن الفاعل للطباخ والطباخ ولقد رته ولعله هو الله تعالى وأن من ذم شيئاً من خلق الله بغير إذن الله فقد ذم الله ولذلك قال النبي صلى الله عليه وسلم « لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر » (١) فهذه الرابطة الثانية بمراقبة الأعمال على الدوام والاتصال وشرح ذلك يطول وفيما ذكرناه تنبيه على المنهج لمن أحكم الأصول .

( الرابطة الثالثة : محاسبة النفس بعد العمل . ولتذكر فضيلة المحاسبة ثم حقيقتها )

أما الفضيلة : فقد قال الله تعالى - يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله ولتنظر نفس ما قدمت لنفسها - وهذه إشارة إلى المحاسبة على ماضي من الأعمال ، ولذلك قال عمر رضي الله تعالى عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا ، وفي الخبر « أنه عليه السلام جاءه رجل فقال يا رسول الله أوصني فقال أمستوص أنت فقال نعم قال إذا هممت بأمر فتدبر عاقبته فإن كان رشداً فأمضه وإن كان غيياً فاته عنه » وفي الخبر وينبغي للعاقل أن يكون له أربع ساعات ساعة يحاسب فيها نفسه . وقال تعالى - وتوبوا إلى الله جميعاً أيها المؤمنون لعلكم تفلحون - والتوبة نظر في الفعل بعد الفراغ منه بالندم عليه ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إني لأستغفر الله تعالى وأتوب إليه في اليوم مائة مرة » (٢) وقال الله تعالى - إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون - وعن عمر رضي الله تعالى عنه أنه كان يضرب قدميه بالدرة إذا جبه الليل ويقول لنفسه ماذا عملت اليوم وعن ميمون بن مهران أنه قال لا يكون العبد من المتقين حتى يحاسب نفسه أشد من محاسبة شريكه والشريكان يتحاسبان بعد العمل ، وروى عن عائشة رضي الله تعالى عنها أن أبابكر رضي الله تعالى عنه قال لها عند الموت ما أحد من الناس أحب إلي من عمر ثم قال لها كيف قلت فأعادت عليه ما قال فقال لا أحد أعز علي من عمر فأنظر كيف نظر بعد الفراغ من الكامة فتدبرها وأبدلها بكلمة غيرها « وحدث أبي طلحة حين شغله الطائر في صلاته فتدبر ذلك فجعل حائطه صدقة لله تعالى فداور جاءه للموضع بمافاته » (٣)

(١) حديث لا تسبوا الدهر فإن الله هو الدهر مسلم من حديث أبي هريرة (٢) حديث إني لأستغفر الله وأتوب إليه في اليوم مائة مرة تقدم غير مرة (٣) حديث أبي طلحة حين شغله الطائر عن صلاته فجعل حديقته صدقة لله تعالى .

النصوص وعند ذلك لا يتقلب في أطوار المقامات لأن القلب في أطوار المقامات والترقي من شيء منها إلى شيء طريق المحبين ومن أخذ في طريق المجاهدة من قوله تعالى - والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا - ومن قسوله تعالى - ويهدي إليه من ينشأ - أثبت كون الانابة سبباً للهداية في حق الحب وفي حق المحبوب صرح بالاجتهاد غير معال بالكسب فقال الله تعالى - يجتبي إليه من يشاء - فمن أخذ في طريق المحبوبين يطوى بساط أطوار المقامات ويندرج فيه

وفي حديث ابن سلام أنه حمل حزمة من حطب ثقيل له يأبى يوسف قد كان في يديك وغلمانك ما يكفونك هذا فقال أردت أن أجرب نفسي هل تنكره . وقال الحسن : للؤمن قوام على نفسه محاسبها ولو انما خف الحساب على قوم حاسبوا أنفسهم في الدنيا وإنما شق الحساب يوم القيامة على قوم أخذوا هذا الأمر من غير محاسبة ثم فسر المحاسبة فقال إن المؤمن يفجؤه الشيء يصبه فيقول والله إنك لتعجبني وإنك من حاجتي ولكن هيات حيل بيني وبينك وهذا حساب قبل العمل ثم قال ويفرط منه الشيء فيرجع إلى نفسه فيقول ماذا أردت بهذا والله لا أعثر بهذا والله لا أعود لهذا أبدا إن شاء الله . وقال أنس بن مالك سمعت عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه يوما وقد خرج وخرجت معه حتى دخل حائط فافسده ثم يقول ويبي وبينه جدار وهو في الحائط عمر بن الخطاب أمير المؤمنين يخ بخ والله لتتقين الله أو ليغيبك . وقال الحسن في قوله تعالى - ولا أقسم بالنفس اللوامة - قال لا يلقي المؤمن إلا عاتب نفسه ماذا أردت بكلمتي ماذا أردت بأكلتي ماذا أردت بشربي والفاجر يعصى فعلا لا عاتب نفسه . وقال مالك ابن دينار رحمه الله تعالى رحم الله عبدا قال لنفسه ألسنت صاحبة كذا ألسنت صاحبة كذا ثم ذمها ثم خطمها ثم ألزمها كتاب الله تعالى فكان له قائدا وهذا من معاتبة النفس كما سيأتي في موضعه ، وقال ميمون بن مهران : التقي أئمة محاسبة لنفسه من سلطان فاشم ومن شريك شحيح ، وقال إبراهيم التيمي : مثلت نفسي في الجنة أكل من ثمارها وأشرب من أنهارها وأعانق أبكارها ثم مثلت نفسي في النار أكل من زقومها وأشرب من صديدها وأعالج سلاسلها وأغلغلها فقلت لنفسى يا نفس أى شيء تريدن فقلت أريد أن أرد إلى الدنيا فأعمل صالحا قلت فأنت في الأمانة فاعملى ، وقال مالك بن دينار سمعت الحجاج يخطب وهو يقول : رحم الله امرأ حاسب نفسه قبل أن يصير الحساب إلى غيره رحم الله امرأ أخذ بعنان عمله فنظر ماذا يريد به رحم الله امرأ نظر في مكيا له رحم الله امرأ نظر في ميزانه فإزال يقول حق أبكاني ، وحكي صاحب للأحنف بن قيس قال كنت أصعبه فكان عامة صلاته بالليل الدعاء وكان يجيئ إلى المصباح فيضع أصبعه فيه حتى يحس بالنار ثم يقول لنفسه يا حنيف ما حملك على ما صنعت يوم كذا ما حملك على ما صنعت يوم كذا .

### ( بيان حقيقة المحاسبة بعد العمل )

اعلم أن العبد كما يكون له وقت في أول النهار يشارط فيه نفسه على سبيل التوضيعة بالحق فيبذى أن يكون له في آخر النهار ساعة يطالب فيها النفس ومحاسبها على جميع حركاتها وسكناتها كما يفعل التجار في الدنيا مع الشركاء في آخر كل سنة أو شهر أو يوم حرصا منهم على الدنيا وخوفا من أن يفوتهم منها ما لو فاتهم لكانت الخيرة لهم في فواته ولو حصل ذلك لهم فلا يبقى إلا أياما قلائل فكيف لا يحاسب العاقل نفسه فيما يتعلق به خطر الشقاوة والسعادة أبدأ الآباد ما هذه المساهلة إلا عن النغلة والخذلان وقلة التوفيق نعوذ بالله من ذلك ومعنى المحاسبة مع الشريك أن ينظر في رأس المال وفي الربح والخسران ليتبين له الزيادة من النقصان فإن كان من فضل حاصل استوفاه وشكره وإن كان من خسران طالبه بضمانه وكلفه تداركه في المستقبل ، فكذلك رأس مال العبد في دينه الفرائض وربه النوافل والفضائل وخسرانه المعاصي وموسم هذه التجارة جملة النهار ومعاملة نفسه بالأمانة بالسوء فيحاسبها على الفرائض أولا فإن أداها على وجهها شكر الله تعالى عليه وورعها في مثلها وإن فوتها من أصلها طالبها بالقضاء وإن أداها ناقصة كلفها الجبران بالنوافل وإن ارتكب معصية اغتفل بقوتها وتعذيبها ومعاتبتها ليستوفي منها ما يتدارك به ما فرط كما يصنع التاجر بشريكه وكما أنه يغتشى في حساب الدنيا عن الحبة والقرط فيحفظ مداخل الزيادة والنقصان حتى لا يغب في شيء منها فينبغي أن يفتى غيبة النفس ومكرها فاتها خداعة ملبسة مكاراة فليطالها أولا بتصحيح الجواب عن جميع ما تكلم به طول نهاره وليتكفل بنفسه

صفوها وخالصها بأنم وصفها والمقامات لا تقيده ولا تحبسها وهو يقيدها ويحبسها بترقيها منها وانزاعها صفوها وخالصها لأنته حيث أشرفت عليه أنوار الحب الخاص خلغ ملابس صفات النفس ونسوتها والمقامات كلها مصففة قنوت والصفات النفسانية فالزهد يصفه عن الرغبة والتوكل يصفه عن قلة الاعتماد المتولد عن جهل النفس والرضا يصفه عن ضربان عرق المنازعة والمنازعة لبقاء جمود في النفس ما أشرق عليها فتموس المحبة الخاصة فينبغي ظلمتها

من الحساب ما يستولاه غيره في صعيد القيامة وهكذا عن نظره بل عن خواطره وأفكاره وقيامه وقعوده وأكله وشربه ونومه حتى عن سكوته أنه لم سكت وعن سكوته لم سكت ؟ فإذا عرف مجموع الواجب على النفس وصح عنه قدر أدى الواجب فيه كان ذلك القدر محسوبا له فيظهر له الباقي على نفسه فليثبت عليها وليكتبه على صحيفة قلبه كما يكتب الباقي الذي على شريكه على قلبه وفي جريمة حسابه ثم النفس غريم يمكن أن يستوفي منه الديون . أما بعضها بالقراءة والضيان وبعضها برد عينه وبعضها بالعقوبة لها على ذلك ولا يمكن شيء من ذلك إلا بعد تحقيق الحساب وتميز الباقي من الحق الواجب عليه ، فإذا حصل ذلك اشتغل بعده بالمطالبة والاستيفاء ثم ينبغي أن يحاسب النفس على جميع العمر يوما يوما وساعة ساعة في جميع الأعضاء الظاهرة والباطنة كما قلنا عن توبة ابن الصمة وكان بالرقعة وكان محاسبا لنفسه فحسب يوما فإذا هو ابن ستين سنة فحسب أيامها فإذا هي واحد عشرون ألف يوم وخمسمائة يوم فصرخ وقال : يا وليق ألقى الملك بأحد وعشرين ألف ذنب فكيف . وفي كل يوم عشرة آلاف ذنب ثم خر مغشيا عليه فإذا هويت فسمعوا قائلا يقول يالك ركضة إلى الفردوس الأطل فكذا ينبغي أن يحاسب نفسه على الأنفاس وعلى معصيته بالقلب والجوارح في كل ساعة ، ولو رمى العبد بكل معصية حجرا في داره لامتلات داره في مدة يسيرة قرية من عمره ولكنه يتساهل في حفظ العامي والمساكين يحفظان عليه ذلك أحصاه الله ونسوه .

( للرابطة الرابعة في معاينة النفس على تقصيرها )

مهما حاسب نفسه فلم تسلم عن مقارنة معصية وارتكاب تقصير في حق الله تعالى فلا ينبغي أن يهملها فإنه إن أهملها سهل عليه مقارنة المصاوي وأنت بها نفسه وعسر عليه فطامها ، وكان ذلك سبب هلاكها بل ينبغي أن يعاقبها فإذا أكل لقمة شبهة بشهوة نفس ينبغي أن يعاقب البطن بالجوع وإذا نظر إلى غير محرم ينبغي أن يعاقب العين بمنع النظر وكذلك يعاقب كل طرف من أطراف بدنه بمنعه عن شهواته هكذا كانت عادة سالكي طريق الآخرة فقد روي عن منصور بن إبراهيم أن رجلا من العباد كلم امرأة فلم يزل حتى وضع يده على غذاها ثم ندم فوضع يده على النار حتى يبت . وروي أنه كان في بني إسرائيل رجل يتمدد في صومته لمكث كذلك زمانا طويلا فأشرف ذات يوم فإذا هو بامرأة فاقطن بها وهم بها فأخرج رجله لينزل إليها فأدركه الله بساغة فقال ما هذا الذي أريد أن أصنع فرجعت إليه نفسه وعصمه الله تعالى فقدم فلما أراد أن يعيد رجله إلى الصومعة قال هيأت هيأت رجل خرجت تريد أن تعصى الله تعود معي في صومتي لا يكون والله ذلك أبدا فتركها معلة في الصومعة تصيبها الأمطار والرياح والثلج والشمس حتى تقطعت فسدطت فشكر الله له ذلك وأزل في بعض كتبه ذكره ويحكى عن الجنيد قال سمعت ابن الكربي يقول أصابت ليلة جنابة فاحتجت أن أغتسل وكانت ليلة باردة فوجدت في نفسي تأخرا وتقصيرا فحدثني نفسي بالتأخير حتى أصبح وأسخن الماء أو أدخل الحمام ولا أعني على نفسي فقلت وإعجابه أنا أعامل الله في طول عمري فيجب له على حق فلا أجدي للسارة وأجد الوقوف والتأخر آليت أن لا أغتسل إلا في مرقعي هذه وآليت أن لا أنزعها ولا أعصرها ولا أجففها في الشمس . ويحكى أن غزوان وأبا موسى كانا في بعض مغازيهم ما فتسكفت جارية فنظر إليها غزوان فرفع يده فلطم عينه حتى بقرت وقال إنك للحاظلة إلي ، يا بخلك ونظر بعضهم نظرة واحدة إلى امرأة فجعل على نفسه أن لا يشرب الماء البارد طول حياته فكان يشرب الماء الحار لينقص على نفسه العيش . ويحكى أن حسان بن أبي سنان مر بخرقة فقال متى بنيت هذه ثم أقبل على نفسه فقال تسألين عما لا ينحك لأعاقبك بصوم سنة فصامها . وقال مالك بن ضيفم جاء رباح القيسي يسأل عن

وجودها فمن تحقق بالحب الخاص لانت نفسه وذبح جودهها فإذا ينزع الزهد منه من الرغبة ورغبة الحب أحرقت رغبته وماذا يصفي منه التوكل ومطالعة الوكيل حشو بصيرته وماذا يسكن فيه الرضا من عروق المنازعة ممن لم تسلم كليته . قال الروذباري ما لم تخرج من كليتك لا تدخل في حد الهبة وقال أبو يزيد من قتلتته محبته فدينه رؤيته ومن قتله عشقه فدينه منادته ، أخبرنا بذلك أبو زرعة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن قال سمعت أحمد بن علي بن جعفر

أبي بعد العصر قلنا إنه قائم فقال أنوم هذه الساعة هذا وقت نوم؟ ثم ولى منصرفاً فأتبعناه رسولاً وقلنا له ألا نوقفه لك جاء الرسول وقال هو أشغل من أن يفهم عن شيئاً أدركته وهو يدخل القابرو وهو يعتاب نفسه ويقول أقلت وقت نوم هذه الساعة أنسكان هذا عليك بنام الرجل متى شاء وما يدريك أن هذا ليس وقت نوم متكلمين بمالا تملين أما إن لله على عهداً لا أقضه أبداً لا أو سداً الأرض لنوم حولاً إلا لمرض حائل أو لعقل زائل سواء لك أما تستحين كم توبخين وعن غيبك لا تنتهين قال وجعل يسكي وهو لا يشعر بما كان فلما رأيت ذلك انصرفت وتركته . ويحك عن نعيم الدار أنه نام ليلة لم يقم فيها بتجدد فقام سنة لم يقم فيها عقوبة للذي صنع . وعن طلحة رضى الله تعالى عنه قال « انطلق رجل ذات يوم فزغ ثيابه وتعرغ في الرمضاء فكان يقول لنفسه ذوقى ونار جهنم أشد حراً أجيفة بالليل بطلاة بالتهار فيها هو كذلك إذ أبصر النبي صلى الله عليه وسلم في ظل شجرة فأثابه فقال غلبتني نفسي فقال له النبي صلى الله عليه وسلم ألم يكن لك بد من الذي صنعت أما لقد فتحت لك أبواب السماء وقد بداهي الله بك الملائكة ثم قال لأصحابه تزودوا من أخيك فجعل الرجل يقول له يا فلان ادع لي يا فلان ادع لي فقال النبي صلى الله عليه وسلم عمهم فقال اللهم اجعل التقوى زادهم واجمع على الهدى أمرهم فجعل النبي صلى الله عليه وسلم يقول اللهم سدد له فقال الرجل اللهم اجعل الجنة مأبهم<sup>(١)</sup> . وقال حذيفة بن قتادة قيل لرجل كيف تصنع بنفسك في شهواتها فقال ما طي وجه الأرض نفس أبغض إلى منها فكيف أعطيها شهواتها ودخل ابن السكك على داود الطائي حين مات وهو في بيته على التراب فقال يا داود سجت نفسك قبل أن تسجن وعذبت نفسك قبل أن تعذب قال يوم ترى ثواب من كنت تعمل له . وعن وهب بن منبه أن رجلاً تعبد زماناً ثم بدت له إلى الله تعالى حاجة فقام سبعين سباً يأكل في كل سبت إحدى عشرة مرة ثم سأل حاجته فلم يعطها فرجع إلى نفسه وقال منك أثبت لو كان فيك خير لأعطيت حاجتك فزول إليه ملك وقال يا ابن آدم ساعتك هذه خير من عبادتك التي مضت وقد قضى الله حاجتك . وقال عبد الله بن قيس كنا في غزاة لنا فحضر العدو فصيح في الناس فقاموا إلى المصاف في يوم شديد الريح وإذا رجل أمامي وهو يخاطب نفسه ويقول أي نفسي ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعك ورجعت ألم أشهد مشهد كذا وكذا فقلت لي أهلك وعيالك فأطعك ورجعت والله لأعرضنك اليوم على الله أخذك أو تركك فقلت لأرمقته اليوم فرمقته فجعل الناس على عدوهم فكان في أولهم ثم إن العدو حمل على الناس فأنكشوا فكان في موضعه حتى انكشوا امرأتها وهوا ثابتة مقاتلة فوالله ما زال ذلك الكذاب حتى رأيته صريماً فعدت به وبدابته ستين أو أكثر من ستين طعنة وقد ذكرنا حديث أبي طلحة لما اختل قلبه في الصلاة بطائر في حائطه فتصدق بالحائط كفارة لذلك وإن عمر كان يضرب قدميه بالذرة كل ليلة ويقول ماذا عملت اليوم وعن مجمع أنه رفع رأسه إلى السطح فوقع بصره على امرأة فجعل على نفسه أن لا يرفع رأسه إلى السماء مادام في الدنيا . وكان الأحنف بن قيس لا يفارقه الصباح بالليل فكان يضع أصبعه عليه ويقول لنفسه ما حملك على أن صنعت يوم كذا كذا . وأنكر وهيب بن الورد شيئاً طي نفسه فتتف شعرات على صدره حتى عظم ألمه ثم جعل يقول لنفسه ويحك إنما أريد بك الخير ورأى محمد ابن بشر داود الطائي وهو يأكل عند إفطاره خبراً بغير ملح فقال له لو أكلته بملح فقال إن نفسي تدعوني إلى الملح منذ سنة ولا ذاق داود ملحاً مادام في الدنيا فمكدا كانت عقوبة أولى الحزم لأنفسهم والعجب

يقول سمعت الحسين ابن علويه يقول قال أبو يزيد ذلك فإذا التفتل في أطوار القمامات لحوام المحبين وطى بساط الأطوار لحواس المحبين وهم المحبوبون تخلفت عن همهم القمامات وربما كانت القمامات على مدارج طبقات السموات وهي مواطن من يتمتر في أذيال جفاه . قال بعض الصكبار لأبراهيم الحواسب إلى ماذا أدى بك التصوف فقال إلى التوكل فقال تسمى في عمران باطنك أين أنت من الفناء في التوكل برؤية الوكيل فالنفس إذا تحركت

(١) حديث طلحة انطلق رجل ذات يوم فزغ ثيابه وتعرغ في الرمضاء وكان يقول لنفسه ونار جهنم أشد حراً الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في محاسبة النفس من رواية ليث بن أبي سليم عنه وهذا منقطع أو مرسل ولا أدري من طلحة هذا .

أنك تعاقب عبدك وأمتك وأهلك وولدك على ما يصدر منهم من سوء خلق وتقصير في أمر وتخلف أنك لو تجاوزت عنهم لخرج أمرهم عن الاختيار وبخوا عليك ثم تهمل نفسك وهي أعظم عدوك وأشدّ طغيانا عليك وضرك من طغيانها أعظم من ضررك من طغيان أهلك فان غابهم أن يشعروا عليك معيشة الدنيا ولو عقلت لعلت أن العيش عيش الآخرة وأن فيه النعيم المقيم الذي لا آخر له ونفسك هي التي تنقص عليك عيش الآخرة فهي بالمعاقبة أولى من غيرها .

### [ الرابطة الخامسة المجاهدة ]

وهو أنه إذا حسب نفسه فرأها قد قارفت مصيبة فينبغي أن يعاقبها بالعقوبات التي مضت وإن رآها تنوأن بحكم الكسل في شيء من الفضائل أو ورد من الأوراد فينبغي أن يؤدبها بتقيل الأوراد عليها ويلزمها فتونا من الوظائف جبرا لما فاتته وتداركا لما فرط فهكذا كان يعمل عمال الله تعالى فقد عاقب عمر بن الخطاب نفسه حين فاتته صلاة العصر في جماعة بأن تصدق بأرض كانت له قيمتها مائتا ألف درهم وكان ابن عمر إذا فاتته صلاة في جماعة أحياتك الليلة وأخر ليلة صلاة للقرب حتى طلع كوكبان فأعق رقبتين وفات ابن أبي ربيعة ركعتا الفجر فأعق رقبة وكان بعضهم يجعل على نفسه صوم سنة أو الحج ماشيا أو التصديق بجميع ماله كل ذلك مرابطة للنفس ومؤاخذه لها بما فيه نجاتها . فان قلت إن كانت نفس لا تطاوعني على المجاهدة والمواظبة على الأوراد فمما سبيل معالجتها . فأقول سبيلك في ذلك أن تسمعها ما ورد في الأخبار من فضل المجتهدين <sup>(١)</sup> ومن أنفع أسباب العلاج أن تطلب صفة عبد من عباد الله مجتهد في العبادة فتلاحظ أقواله وتقتدى به وكان بعضهم يقول كنت إذا اعترتني فترة في العبادة نظرت إلى أحوال محمد بن واسع وإلى اجتهدة فعملت على ذلك أسبوعا إلا أن هذا العلاج قد تمذر إذ قد قد في هذا الزمان من مجتهد في العبادة اجتهد الأولين فينبغي أن يعمل من الشاهدة إلى السماع فلا شيء أنفع من سماع أحوالهم ومطالعة أخبارهم وما كانوا فيه من الجهد الجيد وقد انقضى عليهم وبقي ثوابهم ونعيمهم أبد الأباد لا ينقطع لها أعظم ملكهم وما أشد حيرة من لا يقتدى بهم فيمتنع نفسه أيا ما قلائل بشهوات مكذرة ثم يأتيه الموت ويحال بينه وبين كل ما يشتهي أبد الأباد فعوذ بالله تعالى من ذلك ونحن نورد من أوصاف المجتهدين وفضائلهم ما يحرك رغبة للريد في الاجتهاد اقتداء بهم فقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وميام مرضى <sup>(٢)</sup> » قال الحسن أجهدتهم العبادة قال الله تعالى - والذين يؤتون ما آتوا وقلوبهم وجة قال الحسن يعملون ما عملوا من أعمال البر ويخافون أن لا ينجيهم ذلك من عذاب الله وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « طوبى لمن طال عمره وحسن عمله <sup>(٣)</sup> » ويروى أن الله تعالى يقول للملائكة ما بال عبادي مجتهدين

(١) الأخبار الواردة في حق المجتهدين أبو داود من حديث عبد الله بن عمرو بن العاص من قام بعشر آيات لم يكتب من الغافلين ومن قام بمائة آية كتب من القانتين ومن قام بألف آية كتب من المقنطرين وله وللفنائين وابن ماجه من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح رحم الله رجلا قام من الليل فضلى وأيقظ امرأته وللترمذي من حديث بلال عليكم بقيام الليل فإنه ذاب الصالحين قبلكم الحديث وقال غريب ولا يصح وقد تقدم في الأوراد مع غيره من الأخبار في ذاك (٢) حديث رحم الله أقواما يحسبهم الناس مرضى وميام مرضى لم أجده أصلا في حديث مرفوع ولكن رواه أحمد في الزهد موقوفا على علي في كلام له قال فيه ينظر إليهم الناظر فيقول مرضى وما بالقوم من مرض (٣) حديث طوبى لمن طال عمره وحسن عمله الطبراني من حديث عبد الله بن بشر وفيه بقية رواه بصيغة عن وهو مدلس والتزمى من حديث أبي بكر خير الناس من طال عمره وحسن عمله وقال حسن صحيح وقد تقدم .

بصفها متخلية من  
دائرة الزهد يردّها  
الزاهد إلى الدائرة  
بزهده والتوكل إذا  
تحركت نفسه يردّها  
بتوكله والراضى يردّها  
برضاه وهذه الحركة  
من النفس بقايا  
وجودية تقتدر إلى  
سياسة العلم وفي ذلك  
تسم روح القرب  
من بعيد وهو أداء  
حق العبودية مبلغ  
العلم وبحسبه الاجتهاد  
والكسب ومن أخذ  
في طريق الخاصة  
عرف طريق التخلص  
من البقايا بالتستر  
بأنوار فضل الحق  
ومن اكتفى ملابس  
نور القرب بروح دأمة  
المكوف محبة عن

فيقولون إلهنا خوقهم شيئا غفوه وشوقهم إلى شيء فاشتاقوا إليه فيقول الله تبارك وتعالى فكيف  
لورآني عبادي لكانوا أشد اجتهادا . وقال الحسن : أدركت أقواما وصحبت طوائف منهم ما كانوا  
يفرحون بشيء من الدنيا أقبل ولا يتأسفون على شيء منها أدبر ولهمى كانت أهون في أعينهم من هذا  
التراب الذي تطؤونه بأرجلكم إن كان أحدهم ليمش عمره كله ماطوى له ثوب ولا أمر أهله بصنعة  
طعام قط ولا جعل بينه وبين الأرض شيئا قط وأدركتهم عاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم إذا جنهم  
الليل قيام على أطرافهم يفتشون وجوههم تحري دموعهم على خدودهم يناجون ربهم في فكك  
رقابهم إذا عملوا الحسنة فرحوا بها ودأبوا في شكرها وسألوا الله أن يتقبلها وإذا عملوا السيئة  
أحزتهم وسألوا الله أن يضرها لهم والله ما زالوا كذلك وعلى ذلك والله ما سلموا من الذنوب ولا نجوا  
إلا بالمغفرة . وعكبي أن قوما دخلوا على عمر بن عبد العزيز يعودونه في مرضه وإذا فيهم شاب  
ناحل الجسم فقال عمر له يا فتى ما الذي بلغ بك ما أرى فقال يأمر المؤمنين أسقام وأمراض فقال  
سألتك بالله إلا صدقتني فقال يأمر المؤمنين ذقت حلاوة الدنيا فوجدتها مرة وصغر عندي زهرتها  
وحلاوتها واستوى عندي ذهبها وحجرها وكأني أنظر إلى عرش ربي والناس يساقون إلى الجنة والنار  
فأظلمات لذلك نهاري وأسهرت ليلى وقليل حقير كل ما أنا فيه في جنب ثواب الله وعقابه . وقال  
أبو نعيم كان داود الطائي يشرب الفتيت ولا يأكل الخبز قليل له في ذلك فقال بين مضغ الخبز وشرب  
الفتيت قراءة خمسين آية ودخل رجل عليه يوما فقال إن في سقف بيتك جذعا مكسورا فقال يا ابن  
أخي إن لي في البيت منذ عشرين سنة ما نظرت إلى السقف وكانوا يكرهون فضول النظر كما يكرهون  
فضول الكلام . وقال محمد بن عبد العزيز : جلسنا إلى أحمد بن رزيق من غدوة إلى العصر لما التفت  
عنة ولايسرة قليل له في ذلك فقال إن الله عز وجل خلق العينين لينظر بهما العبد إلى عظمة الله تعالى  
فكل من نظر بغير اعتبار كتب عليه خطيئة . وقالت امرأة مسروق : ما كان يوجد مسروق  
إلا وساقاه منتفختان من طول الصلاة وقالت والله إن كنت لأجلس خلفه فأبكي رحمة له . وقال  
أبو الدرداء : لولا ثلاث ما أحببت العيش يوما واحدا الظمأ لله بالهواجر والسجود لله في جوف الليل  
ومجالسة أقوام ينتقون أطياب الكلام كما ينتقى أطياب الثمر ، وكان الأسود بن يزيد يجتهد في العبادة  
ويصوم في الحر حتى يضر جسده ويصفر فكان علقمة بن قيس يقول له لم تعذب نفسك فيقول  
كرامتها أريد وكان يصوم حتى يضر جسده ويصلى حتى يسقط فدخل عليه أنس بن مالك والحسن  
فقالا له إن الله عز وجل لم يأمر بك بكل هذا فقال إنما أنا عبد مملوك لأدع من الاستكانة شيئا إلا جئت  
به ، وكان بعض المجتهدين يصلي كل يوم ألف ركعة حتى أقعد من رجله فكان يصلي جالساً ألف ركعة  
فاذا صلى العصر احتجى ثم قال عجبت للخلقة كيف أرادت بك بدلائلك عجبت للخلقة كيف أنست  
بسواك بل عجبت للخلقة كيف استذارت قلوبها بذكر سواك ، وكان ثابت البناني قد حببت إليه  
الصلاة فكان يقول اللهم إن كنت أذنت لأحد أن يصلي لك في قبره فائذن لي أن أصلي في قبري .  
وقال الجنيد : ما رأيت أعبد من السري أنت عليه ثمان وتسعون سنة ما روى مضطجعا إلا في علة  
للموت . وقال الحرث بن سعد : مر قوم براهب فرأوا ما يصنع بنفسه من شدة اجتهاده فكلموه في ذلك  
فقال وما هذا عند ما يراد بالخلق من ملاقة الأحوال وهم غافلون قد اعتكفوا على حظوظ أنفسهم  
وسوا حظهم الأكبر من ربهم فيكي القوم عن آخرهم ، وعن أبي محمد الغزالي قال جاور أبو محمد  
الجزيري بمكة سنة فلم ينم ولم يشكاه ولم يستند إلى عمود ولا إلى حائط ولم يعد رجله فغير عليه  
أبو بكر الكتاني فسلم عليه وقال له يا أبا محمد بم قدرت على اعتكافك هذا فقال علم صدق باطني

الطوارق والصروف  
لا يزججه طلب ولا  
يوحشه سلب فالزهد  
والتوكل والرضا كائن  
فيه وهو غير كائن  
فيها على معنى أنه كيف  
تقلب كان زاهدا وان  
رغب لأنه بالحق لا  
بنفسه وإن روى منه  
الالتفات إلى الأسباب  
فهو متوكل وإن وجد  
منه الكراهة فهو  
راض لأن كراهته  
لنفسه ونفسه للحق  
وكراهته للحق أعيد  
إليه نفسه بدواعيها  
وصفاتنا مطهرة  
موهوبة محمولة  
ملطوف بها صار عين  
الداء دواء وصار  
الاعلال شفاء وناب  
طلب الله له مناب كل



فأعاني على ظاهري فأطرق الكتاني ومشى مفكرا ، وعن بعضهم قول دخلت على فتاح الموصلي  
فأرأيت قد مد كفيه بيكي حتى رأيت الدموع تنحدر من بين أصابعه فدنوت منه فإذا دموعه قد  
خالطها صفرة فقلت ولم بالله يافتح بكيت الدم فقال لولا أنك أحلفتني بالله ما أخبرتك ، نعم بكيت دما  
قلت له على ماذا بكيت الدموع ؟ فقال على تخلفي عن واجب حق الله تعالى وبكيت الدم على الدموع  
ثلاثا يكون ما صحت لي الدموع قال فأرأيت بعد موته في المنام فقلت ما صنع الله بك ؟ قال غفر لي فقلت  
له فإذا صنع في دموعك ؟ فقال قربني ربي عز وجل وقال لي يافتح الدمع على ماذا ؟ قلت يارب على  
تخلفي عن واجب حقت فقال والدم على ماذا ؟ قلت على دموعي أن لا تصح لي فقال لي يافتح  
ما أردت بهذا كله وعزني وجلالي لقد صعد حافظك أربعين سنة بصحيفتك ما فيها خطيئة ، وقيل  
إن قوما أرادوا سفرا فحادوا عن الطريق فأتوها إلى راهب منفرد عن الناس فنادوه فأشرف عليهم  
من صومعته فقالوا ياراهب إنا قد أخطأنا الطريق فكيف الطريق فأومأ برأسه إلى السماء فعمل القوم  
ما أراد فقالوا ياراهب إنا سألوك فهل أنت مجيبنا ؟ فقال سلوا ولا تكثروا فإن التهارلن يرجع والعمر  
لا يعود والطالب حيث فجبب القوم من كلامه فقالوا ياراهب علام الخلق غدا عند مليككم فقال  
على نياتهم فقالوا أوصنا فقال تزودوا على قدر سفركم فإن خير الزاد ما باع البقية ثم أُرشدهم إلى الطريق  
وأدخل رأسه في صومعته . وقال عبد الواحد بن زيد مررت بصومعة راهب من رهبان الصين  
فناديته ياراهب فلم يجبني فناديته الثانية فلم يجبني فناديته الثالثة فأشرف على وقال يا هذا ما أنا  
براهب إنما الراهب من رهب الله في سمائه وعظمه في كبريائه وصبر على بلائه ورضى بقضائه وحمده  
على آلائه وشكره على نعمائه وتواضع لعظمته وذل لعزته واستسلم لقدرته وخضع لمهابته وفكر  
في حسابه وعقابه فتهاره صائم وليله قائم قد أسهره ذكر النار ومسألة الجبار فذلك هو الراهب وما أنا  
فكلب عقور حبست نفسي في هذه الصومعة عن الناس ثلاثا أعقرهم فقلت ياراهب فما الذي قطع  
الخلق عن الله بعد أن عرفوه ؟ فقال يا أخي لم يقطع الخلق عن الله إلا حب الدنيا وزينتها لأنها عمل  
المعاصي والدنوب والعاقل من رمى بها عن قلبه وتاب إلى الله تعالى من ذنبه وأقبل على ما يقربه من  
ربه . وقيل لداود الطائي لو سرحت لحيتك فقال إني إذن افارغ ، وكان أويس القرني يقول هذه  
ليلة الركوع فيجي الليل كله في ركعة وإذا كانت الليلة الآتية قال هذه ليلة السجود فيجي الليل  
كله في سجدة ، وقيل لما تاب عتبة الغلام كان لا يتنأ بالطعام والشراب فقالت له أمه لورقت بنفسك  
قال الرفق أطلب دعيني أتمب قليلا وأتئم طويلا وحج مسروق فما نام قط إلا ساجدا . وقال سفيان  
الثوري عند الصباح يحمد القوم السرى وعند الليل يحمد القوم التقى . وقال عبد الله بن داود :  
كان أحدهم إذا بلغ أربعين سنة طوى فراشه أي كان لا ينام طول الليل ، وكان كهمس بن الحسن  
يصل كل يوم ألف ركعة ثم يقول لنفسه قومي يا مأوى كل شر فلما ضعف اقتصر على خمسمائة ثم كان  
بيكي ويقول ذهب نصف عملي وكانت ابنة الربيع بن خيثم تقول له يا أبت مالي أرى الناس ينامون  
وأنت لاتنام ؟ فيقول يا ابتاه إن أباك يخاف البيات ولما رأت أم الربيع ما يلقى الربيع من البكاء  
والسهر نادته يا بني لملك قتلت قتلا قال نعم يا أماه قالت فمن هو حتى نطلب أهله فيعفو عنك فوالله  
لو يطلون ما أنت فيه لرحمك وعفوا عنك فيقول يا أماه هي نفسي ، وعن عمر ابن أخت جبر بن  
الحريث قال سمعت خالي جبر بن الحريث يقول لأمي يا أختي جوفي وخواصري تضرب على قتالته  
أمي يا أختي أنا فذني لي خفي أصليح لك قليل حساب بكف دقيق عندي تتحساه برم جوفك فقال لها  
ويحك أخاف أن يقول من أين لك هذا الدقيق فلا أدري إيش أقول له فبكت أمي وبكى معها

طالب من زهد وتوكل  
ورضا أو صار مطلوبه  
من الله ينوب عن كل  
مطلوب من زهد  
وتوكل ورضا . قالت  
رابعة : عجب الله لا يسكن  
أثنيه وحنينه حق  
يسكن مع محبوبه .  
وقال أبو عبد الله  
القرشي حقيقة المحبة  
أن تهب لمن أحببت  
كلك ولا يبقى لك منك  
شيء . وقال أبو الحسين  
الوراق : السرور بالله  
من شدة المحبة له والمحبة  
في القلب نار تحرق كل  
دنس . وقال يحيى بن  
معاذ صبر المحبين أشد  
من صبر الزاهدين  
واحبها كيف يصبر  
الإنسان عن حبيب .  
وقال بعضهم من ادعى

وبكيت معهم . قال عمر ورأت أمي ما يبشر من شدة الجوع وجعل يتنفس نفسا ضعيفا فقالت له أمي يا أخي ليت أمك لم تلدني فقد والله تقطعت كبدي مما أرى بك فسمعتة يقول لها وأنا فليت أمي لم تلدني وإذا ولدني لم يدر ثديها علي . قال عمر وكانت أمي تبكي عليه الليل والنهار . وقال الريح : أتيت أويسا فوجدته جالسا قد صلى الفجر ثم جلس فجلست فقلت لا أشغله عن التسبيح فمكث مكانه حتى صلى الظهر ثم قام إلى الصلاة حتى صلى العصر ثم جلس موضعه حتى صلى المغرب ثم ثبت مكانه حتى صلى العشاء ثم ثبت مكانه حتى صلى الصبح ثم جلس فقلبت عيناه فقال اللهم إني أعوذ بك من عين نائمة ومن بطن لا تشبع فقلت حسبي هذا منه ثم رجعت ونظر رجل إلى أويس فقال يا أبا عبد الله مالي أراك كأنك مريض فقال وما لأويس أن لا يكون مريضا يطعم المريض وأويس غير طاعم وينام المريض وأويس غير نائم . وقال أحمد بن حرب : يا عجبا لمن يعرف أن الجنة تزين فوقه وأن النار تسعر تحته كيف ينام بينهما ، وقال رجل من النساك أتيت إبراهيم بن آدم فوجدته قد صلى العشاء فعمدت أرقبه فلف نفسه بعباءة ثم رمى بنفسه فلم يتقلب من جنب إلى جنب الليل كله حتى طلع الفجر وأذن المؤذن فوثب إلى الصلاة ولم يحدث وضوءه إلخا لذلك في صدرى فقلت له رحمك الله قد نمت الليل كله مضطجعا ثم لم تجد وضوءه فقال كنت الليل كله جائلا في رياض الجنة أحيانا وفي أودية النار أحيانا فهل في ذلك نوم . وقال ثابت البناني : أدركت رجلا كان أحدهم يسلي فيعجز عن أن يأتي فراشه إلا حبوا ، وقيل مكث أبو بكر بن عياش أربعين سنة لا يضع جنبه على فراش ونزل الماء في إحدى عيفيه فمكث عشرين سنة لا يطم به أهله وقيل كان ورد صمنون في كل يوم خمسمائة ركعة ، وعن أبي بكر للطوعى قال كان وردى في شبقي كل يوم ليلة أقرأ فيه : قل هو الله أحد إحدى وثلاثين ألف مرة أو أربعين ألف مرة شك الراوى ، وكان منصور بن للتمر إذا رأيته قلت رجل أصيب بمصيبة منكسر الطرف منخفض الصوت رطب العينين إن حركته جاءت عيناه بأربع ولقد قالت له أمه ما هذا الذي تصنع بنفسك تبكي الليل عامته لانسكت لملكك يا بني أصبت نفسا لملك قتلتي قتيلا ؟ فيقول يا أمه أنا أعلم بما صنعت بنفسى ، وقيل لعامر بن عبد الله كيف صبرك على سهر الليل وظلمأ المواجر فقال هل هو إلا أنى صرفت طعام النهار إلى الليل ونوم الليل إلى النهار وليس في ذلك خطير أمر وكان يقول ما رأيت مثل الجنة نام طالها ولا مثل النار نام هاربها وكان إذا جاء الليل قال أذهب حر النار النوم لما ينام حتى يصبح فاذا جاء النهار قال أذهب حر النار النوم لما ينام حتى يمسى فاذا جاء الليل قال من خاف أدلج وعند الصباح يحمد القوم السرى . وقال بعضهم : صحبت عامر بن عبد القيس أربعة أشهر فما رأيته نام بديل ولا نهار . ويروى عن رجل من أصحاب علي بن أبي طالب رضى الله تعالى عنه أنه قال : صليت خلف علي رضى الله تعالى عنه الفجر فلما سلم انقلبت عن يمينه وعليه كآبة فمكث حتى طلعت الشمس ثم قلب يده وقال والله لقد رأيت أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم وما أرى اليوم شيئا يشبههم كانوا يصبحون شعنا غبرا صفرا قد باتوا لله سجدا وقياما يتلون كتاب الله براوحون بين أقدامهم وجباههم . وكانوا إذا ذكروا الله مادوا كما يميد الشجر في يوم الريح وهملت أعينهم حتى تبل ثيابهم وكان القوم باتوا غافلين يعنى من كان حوله وكان أبو مسلم الحولاني قد علق سوطا في مسجد بيته يخوف به نفسه وكان يقول لنفسه قومي فوالله لأزحفن بك زحفا حتى يكون السكل منك لامتى فاذا دخلت الفترة تناول سوطه وضرب به ساقه ويقول أنت أولى بالضرب من دابق وكان يقول أياظن أصحاب محمد صلى الله عليه وسلم أن يستأثروا به دوننا كلا والله لئزاحمهم عليهم حاما حتى يملوا انهم تدلفوا ووراهم رجالا . وكان صفوان بن سليم قد تعقدت ساقاه من طول القيام وبلغ من الاجتهاد

عجة الله من غير تورع  
عن محارمه فهو كذاب  
ومن ادعى عجة الجنة  
من غير إغراق ملكه  
فهو كذاب ومن ادعى  
حب رسول الله صلى  
الله عليه وسلم من غير  
حب الفقراء فهو كذاب  
وكانت رابعة تشدد :  
نعمى الإله وأنت  
تظهر حبه

هذا لعمري في القمال  
يديع  
لو كان حبك صادقا  
لأطعته

إن الحب لمن يحب

مطيع

وإذا ضحك الحب

للأحوال كالسوبة

للمقامات فمن ادعى

حالا يهتبر حبه ومن

ادعى عجة تحببته

مالم يقبل له القيامة غذا ما وجد مزيادا ، وكان إذا جاء الشتاء اضطجع على السطح ليضربه البرد وإذا كان في الصيف اضطجع داخل البيوت ليجد الحر فلا ينام وأنه مات وهو ساجد وأنه كان يقول : اللهم إني أحب لقاءك فأحب لقائي . وقال القاسم بن محمد غدوت يوما وكنت إذا غدوت بدأت بمائشة رضى الله عنها أسلم عليها فغدوت يوما إليها فإذا هي تصلى صلاة الضحى ، وهى تقرأ - فنن الله علينا ووقنا عذاب السموم - وتبكي وتدعو وتردد الآية فقمت حتى مللت وهى كاهى فلما رأيت ذلك ذهبت إلى السوق فقلت أفرغ من حاجتى ثم أرجع فقرغت من حاجتى ثم رجعت وهى كما هى تردد الآية وتبكى وتدعو . وقال محمد بن إسحاق لما ورد علينا عبد الرحمن بن الأسود حاجا اعتلت إحدى قدميه فقام يصلى على قدم واحدة حتى صلى الصبح بوضوء العشاء . وقال بعضهم : ما أخاف من الموت إلا من حيث يحول بيني وبين قيام الليل . وقال طى بن أبى طالب كرم الله وجهه سيما الصالحين صفرة الألوان من السهر وعمش العينون من البكاء وذبول الشفاء من الصوم عليهم غيرة الحاشئين . وقيل للحسن : ما بال التمجدين أحسن الناس وجوها فقال لأنهم خلوا بالرحمن فالبسهم نورا من نوره ، وكان طامر بن عبد القيس يقول : إلهى خلقتنى ولم تؤمرنى وتميتنى ولا تمنى وخلقت معى عدوا وجعلته يعجز عنى مجرى الدم وجعلته يرانى ولأراه ثم قلت لى استمسك إلهى كيف أستمسك إن لم تمسكنى إلهى فى الدنيا المصوم والأحران وفى الآخرة العقاب والحساب فأبين الراحة والفرج ، وقال جعفر بن محمد كان عبثة الغلام يقطع الليل ثلاث صبيحات كان إذا صلى الصلوة وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى ثلث الليل صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثانى صاح صيحة ثم وضع رأسه بين ركبتيه يتفكر فإذا مضى الثلث الثالث صاح صيحة قال جعفر بن محمد حدثت به بعض البصريين فقال لا تنظر إلى صياحه ولكن انظر إلى ما كان فيه بين الصيحتين حتى صاح . وعن القاسم بن راشد الشيباني قال كان زمعة نازلا عندنا بالحصب . وكان له أهل وبسات ، وكان يقول فيصلى ليلا طويلا فإذا كان السحر نادى بأعلى صوته أيها الركب للمرسون أكل هذا الليل ترقدون أفلاتقومون فترحلون فيتواثبون فيسمع من ههنا هاك ومن ههنا داع ومن ههنا قارى ومن ههنا متوضى ، فإذا طلع الفجر نادى بأعلى صوته عند الصباح بحمد التوم السرى . وقال بعض الحكماء : إن لله عبدا أنعم عليهم فرفوه وشرح صدورهم فأطاعوه وتوكلوا عليه فسلموا الخلق والأمر إليه فصارت قلوبهم معادن لصفاء اليقين ويوتا للحكمة وتوايت للعظمة وخزائن للقدرة فهم بين الخلق مقبولون ومدبرون وقلوبهم تجول فى اللسكوت وتلوذ بعجوب النجوم ثم ترجع ومعها طوائف من لطائف القوائد وما لا يمكن واصفا أن يصفه فهم فى باطن أمورهم كالدياج حسنا وهم فى الظاهر مناديل مبذولون لمن أرادهم تواضا ، وهذه طريقة لا يبلغ إلها بالتكلف وإعما هو فضل الله يؤتيه من يشاء . وقال بعض الصالحين : بينا أنا أسير فى بعض جبال بيت المقدس إذ هبطت إلى واد هناك فإذا أنا بصوت قد علا وإذا تلك الجبال تهجد لها دوى حال فاقبت الصوت فإذا أنا بروضة عليها شجر ملتف وإذا أنا برجل قائم فيها يردد هذه الآية - يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا - إلى قوله - وعذركم الله نفسه - قال فجلست خلفه أسمع كلامه وهو يردد هذه الآية إذ صاح صيحة خر مغشيا عليه فقلت وأسفاه هذا لشقائى ، ثم انتظرت إفاته فأفاق بعد ساعة فسمعته وهو يقول أعوذ بك من مقام الكذابين أعوذ بك من أعمال البطالين أعوذ بك من إعراض المنافقين ثم قال لك خست قلوب الحائفين وإليك فرغت آمال المقصرين ولعظمتك ذلت قلوب العارفين ثم نفخ بيده فقال مالي وللدنيا

فإن التوبة قالب الروح  
الحب وهذا الروح  
قيامه بهذا القلب  
والأحوال أعراض  
قوامها بجوهر الروح.  
وقال صمدون : ذهب  
الحبسون لله بشرف  
الدنيا والآخرة لأن  
النبي صلى الله عليه وسلم  
قال «المرء مع من  
أحب» فهم مع الله  
تعالى وقال أبو مقرب  
السوسي لا تصح المحبة  
حتى تخرج من رؤية  
المحبة إلى رؤية  
المحبوب بفناء علم  
المحبة من حيث كان  
له المحبوب في الغيب  
ولم يكن هذا بالمحبة  
فاذا خرج الحب إلى  
هذه النسبة كان  
محبا من غير محبة

ومال الدنيا ولي عليك يا دنيا بأبناء جنسك وآلاف نعيمك إلى عبيك فاذهبي وإياهم فاخذعي ثم قال  
 أين القرون الماضية وأهل الدهور السالفة في التراب يبلون وعلى الزمان يفنون فلو بدته يا عبد الله ألعنك  
 اليوم خافك أنتظر فراغك فقال وكيف يفرغ من يبادر الأوقات وتبادره يخاف سبقها بالموت إلى نفسه  
 أم كيف يفرغ من ذهب أيامه وبقيت آثامه ثم قال أنت لها ولكل شدة أثوق زولها ثم لها على  
 ساعة وقرا - وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ثم صاح صيحة أخرى أهد من الأولى وخر  
 مغشيا عليه فقلت قد خرجت روحه فدنوت منه فإذا هو يضطرب ثم أفاق وهو يقططن أنا ما خاطري  
 هب لي إساءتي من فضلك وجللي بترك واعف عن ذنوبي بكرم وجهك إذا وقفت بين يديك فقلت  
 له بالذي ترجوه لنفسك وتثق به إلا كتبتى فقال عليك بكلام من ينفك كلامه ودع كلام من أوقته  
 ذنوبه إني لفي هذا الموضع مذ شاء الله أجاهد إبليس وبجاهدني فلم يجد عونا على ليخرجني مما أنا فيه  
 غيرك فإليك عني يا مخدوع قد عطلت على لساني وميلت إلى حديثك شعبة من قلبي وأنا أعوذ بالله  
 من شرك ثم أرجو أن يعيذني من سخطه ويغفر لي برحمته . قال فقلت هذا ولي الله أخاف أن أشغله  
 فأعاقب في موضعي هذا فانصرفت وتركته . وقال بعض الصالحين بينا أنا أسير في مسيرى إذ علمت إلى  
 شجرة لأستريح تحتها فإذا أنا بشيخ قد أشرف على فقال لي يا هذا قم فإن الموت لم يمت ثم هام على وجهه  
 فاتبعته فسمعتة وهو يقول - كل نفس ذائقة الموت - اللهم بارك لي في الموت فقلت وفيما بعد للموت  
 فقال من أيقن بما بعد الموت شمر مئزر الحذر ولم يكن له في الدنيا مستقر ثم قال يامن لوجهه عن  
 الوجوه يبض وجهي بالنظر إليك واملا قلبي من المحبة لك وأجرني من ذل التويع غدا عندك قد  
 آن لي الحياء منك وحن لي الرجوع عن الاعراض عنك ، ثم قال لولا حلك لم يسخى أجلى ولولا  
 عفوك لم ينسبط فيما عندك أملى ثم مضى وتركني ، وقد أنشدوا في هذا للمنى :

تحيل الجسم مكثب الفؤاد	تراه بقعة أوبطن وادي
ينوح على معاص فاضحات	يكدر ثقلها صفو الرقاد
فان هاجت مخاوفه وزادت	فدعوته أغنى ياعمداي
فأنت بما ألقىه عليم	كثير الضجع عن زلل العباد
وقيل أيضا :	ألف من التلذذ بالتواني
منيب فر من أهل ومال	يسبح إلى مكان من مكان
ليحمل ذكره ويعيش فردا	ويظفر في العباد بالأماني
تلذذه التسلاوة أين ولي	وذكر بالأسود وباللسان
وعند الموت يأتيه بشر	يشر بالنجاة من الهوان
فيسدرك ما أراد وماتمضى	من الراحة في غرف الجنان

وكان كرز بن وبرة يحتم القرآن في كل يوم ثلاث مرات ويجاهد نفسه في العبادات غاية المجاهدة فقل له  
 قد أجهدت نفسك فقال كم عمر الدنيا فقل سبعة آلاف سنة فقال كم مقدار يوم القيامة فقل خمسون  
 ألف سنة فقال كيف يعجز أحدكم أن يعمل سبع يوم حتى يأمن ذلك اليوم يعني أنك لو عشت عمر الدنيا  
 واجتهدت سبعة آلاف سنة وتخلصت من يوم واحد كان مقداره خمسين ألف سنة لكان ربك  
 كثيرا وكنت بالرضا فيه جديرا فكيف وعمرك قصير والآخرة لا غاية لها فهكذا كانت سيرة السلف  
 الصالحين في مرابطة النفس ومراقبتها فلهما تدرت نفسك عليك وامتنعت من الواطية على العبادة  
 فطالع أحوال هؤلاء فانه قد عز الآن وجود مثله ولو قدرت على مشاهدة من اقتدى بهم فهو أنجح

مثل الجنيد عن  
 المحبة قال : دخول  
 صفات المحبوب على  
 البذل من صفات  
 المحب . قيل هذا على  
 معنى قوله تعالى « فإذا  
 أحببته كنت له سمعا  
 وبصرا » وذلك أن  
 المحبة إذا صفت وكملت  
 لا تزال تجذب بوصفها  
 إلى محبوبها ، فإذا  
 انتهت إلى غاية جهدها  
 وقفت والرابطة متصلة  
 متأكدة وبكمال وصف  
 المحبة أزال للوانع من  
 المحب وبكمال وصف  
 المحبة تجذب صفات  
 المحبوب تعطف على  
 المحب الخالص من  
 موانع قادحة في صدق  
 الحب ونظرا إلى  
 قصوره بعد استفاد

في القلب وأبحت على الاقتداء فليس الخبر كالمعاينة وإذا هجرت عن هذا فلا تنفل عن سماع أحوال هؤلاء فان لم تكن إبل لمعزى وخير نفسك بين الاقتداء بهم والسكون في زمريهم وغمارهم وهم العقلاء والحكماء وذوو البصائر في الدين وبين الاقتداء بالجملة الغافلين من أهل عصرك ولا ترض لما أن تنخرط في سلك الحق وتقع بالتشبه بالأغبياء وتؤثر مخالفة العقلاء فان حدثك نفسك بأن هؤلاء رجال أقوياء لا يطاق الاقتداء بهم فطالع أحوال النساء المجتهدات وقل لها يا نفس لا تستكفي أن تسكوني أقل من امرأة فأخس رجل يقصر عن امرأة في أمر دينها ودنياها ، ولندكر الآن نبذة من أحوال المجتهدات قد دروي عن حبيبة المدوية أنها كانت إذا صلت الصلوة قامت على سطح لها وشدت عليها درعها وخمارها ثم قالت يا إلهي قد غارت النجوم ونامت العيون وغلقت اللوك أبوابها وخلا كل حبيب بحبيبه وهذا مقامى بين يديك ثم قبل على صلاتها فإذا طلع الفجر قالت يا إلهي هذا الليل قد أدبر وهذا النهار قد أسفر فليت شعري أنبلت مني ليلتي فأهنا أم رددتها على فأعزى وعزتك لهذا دأبى ودأبك ما بقيت وعزتك لو انتهرتني عن بابك ما برحت لما وقع في نفسي من وجودك وكرمك . وروى عن هجرة أنها كانت تحي الليل وكانت مكفوفة البصر فإذا كان في السحر نادت بصوت لها محزون إليك قطع العابدون دجى الليالى يستببون إلى رحمتك وفضل مغفرتك فبك يا إلهي أسألك لا بغيرك أن تجعلني في أول زمرة السابقين وأن ترفقني لديك في عليين في درجة القرين وأن تلحقني بصادك الصالحين فأنت أرحم الرحماء وأعظم المظماء وأكرم الكرماء يا كريم ثم تخر ساجدة فيسمع لها وجة ثم لا تزال تدعو وتبكي إلى الفجر . وقال يحيى بن بسطام: كنت أشهد مجلس شعوانة فكنت أرى ما تصنع عن النياحة والبكاء فقلت لصاحب لي لو أتيناها إذا خلعت فأمرناها بالرفق بنفسها فقال أنت وذلك قال فأتيناها فقلت لها لورقت بنفسك وأقصرت عن هذا البكاء شيئا فكان لك أقوى على ما تريد بن قال فبككت ثم قالت والله لو ددت أن أبكي حق تنفد دموعي ثم أبكى دما حتى لا تبقى قطرة من دم في جرحه من جوارحي وأنى لي بالبكاء وأنى لي بالبكاء فلم تزل تردد وأنى لي بالبكاء حتى غشى عليها . وقال محمد بن معاذ حدثني امرأة من المتبذات قالت رأيت في منامي كأنى أدخلت الجنة فإذا أهل الجنة قيام على أبوابهم فقلت ما شأن أهل الجنة قيام فقال لي قائل خرجوا ينظرون إلى هذه المرأة التي زخرفت الجنان لقدومها فقلت ومن هذه المرأة فقيل أم مسوداء من أهل الأيكة قال لها شعوانة قالت فقلت أخى والله قالت فبينما أنا كذلك إذ أقبل بها على نجيحة تطير بها في الهواء فلما رأيتها ناديت يا أخى أما ترى من مكان من مكانك فلو دعوت لي مولاك فألحقني بك قالت فتبسمت إلى وقالت لي بأن لقدومك ولكن احفظي عنى اثنتين ألزمتي الحزن قلبك وقدمى محبة الله على هواك ولا يضرك منى مت . وقال عبد الله بن الحسن كانت لي جارية رومية وكنت بها معجبا فكانت في بعض الليالى نائمة إلى جنبى فانتبهت فالتفتها فلم أجدها فقممت أطلبها فإذا هي ساجدة وهي تقول بحبك لي إلا ما غفرت لي ذنوبى فقلت لها لا تقولى بحبك لي ولكن قولى بحبى لك فقلت يا مولاي بحبى لي أخرجنى من الشرك إلى الاسلام وبحبى لي أيقظ عيني وكثير من خلقه نيام . وقال أبو هاشم القرشى قدمت علينا امرأة من أهل اليمن يقال لها سريفة فزلت في بعض ديارنا قال فكنت أسمع لها من الليل أنينا وشهيقا فقلت يوما لحامى لي أشرف على هذه المرأة ماذا تصنع قال فأشرف عليها فلما رآها تصنع شيئا غير أنها لا ترد طرفها عن السماء وهي مستقبله القبلة تقول خافت سريفة ثم غديتها بنعمتك من حال إلى حال وكل أحوالك لها حسنة وكل بلاتك عندها جميل وهي مع ذلك متعرضة لخطبك بالتوب على ماصيك فلما بعد قلعة أترها تظن أنك لا ترى سوء قولها وأنت عليم خير وأنت على كل شيء قدير . وقال ذو النون المصري خرجت ليل من وادى كنعان فلما علوت الوادى إذا سواد مقبل على وهو يقول

جهده فيجود الحب  
ينفوالله اكتساب  
الصفات من المحبوب  
فيقول عند ذلك :  
أنا من أهوى  
ومن أهوى أنا  
نحن روحان حللنا بدنا  
فإذا أبصرتنى أبصرته  
وإذا أبصرته أبصرتنا  
وهذا الذى عبرنا عنه  
حقيقة قول رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« تخلقوا بأخلاق الله »  
لأنه بزاهة النفس  
وكال الزكية يستمد  
للمحبة والمحبة موهبة  
غير مطلة بالزكية  
ولكن سنة الله  
جارية أن يركب نفوس  
أحبائه بحسن توفيقه  
وتأييده وإذا منح  
زاهة النفس وطهارتها

- وبدا لهم من الله ما لم يكونوا يحسبون - ويكي فلما قرب من السواد إذا هي امرأة عليها صوف  
ويدها ركوة فقالت لي من أنت غير فزعة مني فقلت رجل غريب فقالت يا هذا وهل يوجد مع  
الله غربة قال فبكيت لقولها فقالت لي ما الذي أبكاك فقلت قد وقع الدواء على داء قد قرح فأسرع  
في نجاحه قالت فإن كنت صادقاً فلم بكيت فقلت برحمك الله والصادق لا يبكي قالت لا قلت ولم ذلك قالت  
لأن البكاء راحة القلب فسكت متعباً من قولها . وقال أحد بن علي استأذنا على عفيرة فحببتنا فلأزمننا  
الباب فلما علمت ذلك قامت لتفتح الباب لنا فسمعنا وهي تقول اللهم إني أعوذ بك من جاء يشغلني  
عن ذكرك ثم فتحت الباب ودخلنا عليها فقلنا لها يا أمة الله ادعي لنا فقالت جعل الله قراكم في بيتي  
للنفرة ثم قالت لنا مكث عطاء السلي أربعين سنة فكان لا ينظر إلى السماء فحانت منه نظرة فغمضها  
عليه فأصابه فتق في بطنه فباليث عفيرة إذا رفعت رأسها لم تمس وباليث إذا عصمت لم تصد . وقال بعض  
الصالحين خرجت يوماً إلى السوق ومعي جارية حبشية فاحتسبتها في موضع ناحية السوق وذهبت في بعض  
حواسبي وقلت لا تبرحني حتى أنصرف إليك قال فأنصرفت فلم أجدها في اللوح فأنصرفت إلى  
منزلي وأنا شديد الغضب عليها فلما رأته عرفت الغضب في وجهي فقالت يا مولاي لا تسجل على إنك  
أجلستني في موضع لم أرفيه ذا كر الله تعالى خفت أن يحسف بذلك اللوح فصبرت لقولها وقلت لها  
أنت حرة . فقالت ساء ما صنعت كنت أخدمك فيكون لي أجران وأما الآن فقد ذهب عني أجدها .  
وقال ابن العلاء السعدي كانت لي أبة عم يقال لها بريدة تعبدت وكانت كثيرة القراءة في الصحف فكلمها  
أمت على آية فيها ذكر النار بكت فلم تزل تبكي حتى ذهبت عيناها من البكاء فقال بنو عمها انطلقوا بنا  
إلى هذه للرأفة حتى نضلها في كثرة البكاء قال فدخلنا عليها فقلنا يا بريدة كيف أصبحت قالت أصبحت  
أضيقاً منيخين بأرض غربة تنتظر متى ندعي فنجيب فقلنا لها كم هذا البكاء قد ذهبت عيناك منه فقالت  
إن يكن لعيني عند الله خير لما يضرها ما ذهب منها في الدنيا وإن كان لهما عند الله شرف فسيزيدهما بكاء  
أطول من هذا ثم أعرضت . قال فقال القوم قوموا بنا فمسي والله في شيء غير ما نحن فيه . وكانت معاذة  
المدوية إذ جاء النهار تقول هذا يوم الذي أموت فيه لما تطعم حتى تمسي فإذا جاء الليل تقول هذه الليلة التي  
أموت فيها فقصي حتى تصبح . وقال أبو سليمان الداراني بت ليلة عند رابعة فقامت إلى محراب لها وقلت أنا  
إلى ناحية من البيت فلم تزل قائمة إلى السحر فلما كان السحر قلت ما جزاء من قواني على قيام هذه الليلة قالت  
جزاؤه أن تصوم له غداً وكانت شعوانة تقول في دعائها إلهي ما أعوذ في إلى لقاءك وأعظم رجائي لجزائك  
وأنت الكريم الذي لا يغيب لديك أمل الآملين ولا يبطل عندك شوق المشتاقين إلهي إن كان دنائي إلى  
ولم يقريني منك عمل فقد جلت الاعتراف بالتدب وسائل عظمى فان عفوت فمن أولى منك بذلك  
وإن عذبت فمن أعدل منك هنالك إلهي قد جرت على نفسي في النظر لها وبقي لها حسن نظرك  
فالويل لها إن لم تسعدها إلهي إنك لم تزل بي برا أيام حياتي فلا تقطع عني برك بعد مماتي ولقد رجوت  
من تولا في حياتي باحسانه أن يسخطني عند مماتي بفترانه إلهي كيف أياأس من حسن نظرك بعد  
مماتي ولم تولني إلا الجليل في حياتي إلهي إن كانت ذنوبي قد أخافتني فإن عبيتك قد أجارتني تقول من  
أمرى ما أنت أهله وعد بفضلك على من غره جهله إلهي لو أردت إهانتني لما هديتني ولو أردت فضيحتي  
لم تسترني فمتني بماله هديتني وأدم لي ما به سترتني إلهي ما أظنك تردني في حاجة أنفيت فيها عمري  
إلهي لولا ما قارفت من الذنوب ما خفت عقابك ولولا ما عرفت من كرمك ما رجوت ثوابك .  
وقال الخواص دخلنا على رحلة العابدة وكانت قد صامت حتى اسودت وبكت حتى عمت وصلت  
حتى أقعدت وكانت تصلي قاعدة فسلنا عليها ثم ذكرناها شيئاً من العفوليهون عليها الأمر قال فتشبهت

جلب روحه بمجاذب  
الحبة خلغ عليه خلغ  
الصفات والأخلاق  
ويكون ذلك عنده  
رتبة في الوصول فتارة  
ينبعث الشوق من  
باطنه إلى ما وراء ذلك  
لكون عطايا الله  
غير متناهية  
وتارة يسقى بما منح  
فيكون ذلك وصوله  
الذي يسكن نيران  
هوقه وياعث الشوق  
بمستقر الصفات للهوبة  
الحققة رتبة الوصول  
عند الحب ولولا باعث  
الشوق رجح القهقري  
وظهرت صفات نفسه  
الحالقة بين اللز وقلبه  
ومن ظن من الوصول  
غير ما ذكرناه أو تخاليل  
له غير هذا القدر فهو

ثم قالت على بنفى فرح فزادى وكلم كبدى والله لوددت أن الله لم يخلفنى ولم أك شيئا مذكورا  
ثم أقبلت على صلاتها . فليك إن كنت من الرابطين الراقبين لنفسك أن تطالع أحوال الرجال والنساء  
من المجتهدين ليثبت نشاطك ويزيد حرصك وإياك أن تنظر إلى أهل عصرك فانك إن تطع أكثر  
من فى الأرض يضلوك عن سبيل الله وحكايات المجتهدين غير محصورة وفيما ذكرناه كفاية للمعتبر وإن  
أردت مزيدا فليك بالمواظبة على مطالعة كتاب حلية الأولياء فهو مشتمل على شرح أحوال الصحابة  
والتابعين ومن بعدهم وبالوقوف عليه يستبين لك بعدك وبعد أهل عصرك من أهل الدين فإن  
حدثك نفسك بالنظر إلى أهل زمانك وقالت إنما تيسر الخير فى ذلك الزمان لكثرة الأعوان  
والآن فإن خالفت أهل زمانك رأوك مجنونا وسخروا بك فواقهم فيما هم فيه وعليه فلا يجرى عليك  
إلا ما يجرى عليهم والصية إذا عمت طابت فأياك أن تتدلى بحبل غرورها وتتخضع بتزويرها وقل  
لها أرايت لو هجم سيل جارف يفرق أهل البلد ويثبتوا على مواضعهم ولم يأخذوا حذرهم لجهلهم  
بحقيقة الحال وقد رت أنت على أن تفارقهم وتركى فى سفينة تتخلصين بها من الترق فهل يخلج  
فى نفسك أن الصية إذا عمت طابت أم تركين مواضعهم وتستجھلنهم فى صنيعهم وتأخذين حذر  
عما دهاك فاذا كنت تركين مواضعهم خوفا من الترق وعذاب الترق لا يتماضى إلا ساعة فكيف  
لا تهربين من عذاب الأبد وأنت متعرضة له فى كل حال ومن أين تطيب للصية إذا عمت ولأهل  
النار شغل شاغل عن الالتفات إلى العموم والخصوص ولم يهلك السكار إلا بما عاها أهل زمانهم  
حيث قالوا - إنا وجدنا آباءنا على أمة وإنا على آثارهم مقتدون - فليك إذا اشتغلت بمعاينة نفسك  
وحملها على الاجتهاد فاستصحت أن لا تترك معانيها وتوبيخها وتقريرها وتعريفها سوء نظرها لنفسها  
فصاها تنزجر عن طغيانها .

### ( الرابطة السادسة فى توبيخ النفس ومعانيها )

اعلم أن أعدى عدوك نفسك التى بين جنيدك وقد خلقت أمارة بالسوء مائلة إلى الشر فرارة من الخير  
وأمرت بتركها وتويعها وقودها بسلاسل القهر إلى عبادة ربها وخالفها ومنعها عن شهواتها وفطامها  
عن لذاتها فإن أهملتها جمحت وشردت ولم تنظر بها بعد ذلك وإن لازمتها بالتوبيخ والمعانية والمذل  
والملامة كانت نفسك هى النفس اللوامة التى أقسم الله بها ورجوت أن تصير النفس للطمشة الدعوة  
إلى أن تدخل فى زمرة عباد الله راضية مرضية فلا تغفل ساعة عن تذكيرها ومعانيها ولا تشغل  
بوعظ غيرك ما لم تشغل أولابوعظ نفسك أوحى الله تعالى إلى عيسى عليه السلام يا ابن مريم عظ  
نفسك فإن اعطت فمظ الناس وإلا فاستحي منى وقال تعالى - وذكر فإن الله كرى تنفع المؤمنين -  
وسيلك أن تقبل عليها فتقرر عندها جهلها وغباوتها وأنها أبدا تعزز بغطتها وهدايتها ويشد ألقها  
واستكافها إذا نسبت إلى الحق فتقول لها يا نفس ما أعظم جهلك تدعين الحكمة والذكاء والفطنة  
وأنت أشد الناس غباوة وحما أما تعرفين ما بين يديك من الجنة والنار وأنت صائرة إلى إحداها على  
القرب فما لك تفرحين وتضحكين وتشغلين باللهو وأنت مطلوبة لهذا الخطب الجسيم وعساك اليوم  
تخطفين أوغدا فأراك ترين اللوت بعيدا ويراه الله قريبا أما تعلمين أن كل ما هو آت قريب وأن  
البعيد ما ليس بآت أما تعلمين أن اللوت يأتى بضئ من غير تقديم رسول ومن غير مواعدة ومواظاة  
وأنة لا يأتى فى شيء دون شيء ولا فى شتاء دون صيف ولا فى صيف دون شتاء ولا فى نهار دون ليل ولا فى ليل  
دون نهار ولا يأتى فى الصبا دون الشباب ولا فى الشباب دون الصبا بل كل نفس من الأتاس يمكن أن يكون  
فيه الموت فجأة فإن لم يكن الموت فجأة فيكون المرض فجأة ثم ينفى إلى الموت فمالك لا تستمدين للموت

متعرض للذهب  
النصارى فى اللاهوت  
والناسوت. وإشارات  
الشيوخ فى الاستغراق  
والفناء كلها مائدة إلى  
تحقيق مقام المحبة  
بإستلاء نور اليقين  
وإخلاصة الذكر على  
القلب وتحقيق حق  
اليقين بزوال داعي  
البقايا وأمنت اللوث  
الوجودى من بقاء  
صفات النفس وإذا  
صحت المحبة ترتبت  
عليها الأحوال وتبينها.  
سئل الشبل عن المحبة  
فقال كاس لها وهج  
إذا استقر فى الخواص  
وسكن فى النفوس  
تلاشت . وقبل للمحبة  
ظاهر وباطن ظاهرها  
اتباع رضا المحبوب

وهو أقرب إليك من كل قريب أما تدبرين قوله تعالى - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - وعليك يا نفس إن كانت جرائمك على معصية الله لا اعتقادك أن الله لا يراك فما أعظم كفرك وإن كان مع غمك باطلاعه عليك فما أشد وقاحتك وأقل حياءك . وعليك يا نفس لو واجهك عبد من عبيدك بل أخ من إخوانك بما تكرهينه كيف كان غضبك عليه ومفتك له فبأي جسارة تمرصين لقت الله وغضبه وشديده عقابه أتعظين أنك تطيقين عذابه هيات هيات جري نفسك إن الهالك البطر عن ألم عذابه فاحبس ساعة في الشمس أو في بيت الحمام أو قرب أصبعك من النار ليتبين لك قدر طاعتك أم تغترين بكرم الله وفضله واستغناءه عن طاعتك وعبادتك فمالك لاتعولن على كرم الله تعالى في مهمات دنياك فاذا قصدك عدو فلم تستبطين الحيل في دفعه ولا تكتفين إلى كرم الله تعالى وإذا أرهقتك حاجة إلى شهوة من شهوات الدنيا مما لا ينقضي إلا بالدينار والدرهم فمالك تزعين الروح في طلبها وتغصليها من وجوه الحيل فلم لاتعولن على كرم الله تعالى حتى يثر بك على كنز أو يسخر عبدا من عبيده فيحمل إليك حاجتك من غير سعي منك ولا طلب أتعجبين أن الله كريم في الآخرة دون الدنيا وقد عرفت أن سنة الله لا تبدل لها وأن رب الآخرة والدنيا واحد وأن ليس للانسان إلا ماسعى . وعليك يا نفس ما أعجب ثقافتك ودعائك الباطلة فانك تدعين الايمان بلسانك وأثر النفاق ظاهر عليك ألم يقل لك سيدك ومولاك - وما من دابة في الأرض إلا على الله رزقها - وقال في أمر الآخرة - وأن ليس للانسان إلا ماسعى - فقد تكفل لك بأمر الدنيا خاصة وصرفك عن السعي فيها فكذبته بأفعالك وأصبحت تكالين على طلبها تنكالب المدهوش المستهتر ووكل أمر الآخرة إلى سعيك فأعرضت عنها إعراضا للفرور المستحقر ما هذان علامات الايمان لو كان الايمان باللسان فلم كان الناقثون في الدرك الأسفل من النار . وعليك يا نفس كأنك لاتؤمنين بيوم الحساب وتظنين أنك إذا مت انقلت وتخلصت وهيات أتعجبين أنك تركين سدى ألم تكوني نقطة من مئى مئى ثم كنت علقة غلقى فسوى أليس ذلك بقادر على أن يعيى للوئى فان كان هذا من إضمارك فما أ كفرك وأجهلك أما تفكرين أنه بماذا خلقتك من نقطة خلقتك قدرك ثم السيل يسرك ثم أماتك فأقبرك أفتكذبنه في قوله ثم إذا شاء أشرك فان لم تكوني مكذبة فمالك لاتأخذين حذرك ولو أن يهوديا أخبرك في آله أطمعتك بأنه يضرك في مرضك لصبرت عنه وتركته وجاهدت نفسك فيه أفكان قول الأنبياء للوئدين بالمعجزات وقول الله تعالى في كنه للزلة أقل عندك تأثيرا من قول يهودى يخبرك عن حدس وتخمين وظن مع قصان عقل وقصور علم والعجب أنه لو أخبرك طفل بأن في ثوبك عقربا لميت ثوبك في الحال من غير مطالبة له بدليل وبرهان أفكان قول الأنبياء والعلماء والحكماء وكافة الأولياء أقل عندك من قول صبي من جملة الأغبياء أم صار حرجهم وأغلالمها وأنكالمها وزقومها ومقامها وصديدها ومومها وأفاعيها وعظفها أحقر عندك من عقرب لاتحسين بألمها إلا يوما أو أقل منه ماهذه أفعال العقلاء بل لو انكشف لبيها ثم حالك لضحكوا منك وسخروا من عقلك فان سكنت يا نفس قد عرفت جميع ذلك وآمنت به فما لك تسوفين العمل واللوت لك بالمرصاد ولله بختطفك من غير مهلة فبا إذا آمنت استجبال الأجل وهبك أنك وعدت بالامهال مائة سنة أتعظين أن من يطعم الدابة في حضيض القبة يفلح ويقدر على قطع القبة بها إن ظننت ذلك فما أعظم جهلك أرايت لو سافر رجل ليتفقه في الفرية فأقام فيها سنين متعطلا بطلا بدقته بالتفقه في السنة الأخيرة عند رجوعه إلى وطنه هل كنت تضحكين من عقله وظنه أن تفقيه النفس بما يطعم فيه بعة قرية أو حساباته أن مناصب القمهاء تنال من غير تفقه اعياها على كرم الله سبحانه وعالي

وباطنها أن يكون مفتونا بالحبيب عن كل شئ ولا يبقى فيه بقية لغيره ولا نفسه فمن الأحوال السنية في المحبة الشوق ولا يكون المحب إلا مشتاقا أبدا لأن أمر الحق تعالى لا نهاية له فما من حال ينافيها المحب إلا ويعلم أن ما وراء ذلك أوفى منها وآتم : حزنى كحسبك لالدا أمد

ينهى إليه ولالدا أمد ثم هذا الشوق الحادث عنده ليس كسبه وإنما هو موهبة خص الله تعالى بها المحبين . قال أحمد ابن أبي الخوارى دخلت على أبي سليمان



ثم هي أن الجهد في آخر العمر نافع وأنه موصل إلى الدرجات العلا فلهذا اليوم آخر عمرك فلم لا تشغلن فيه بذلك فإن أوحى إليك بالامهال لما للنافع من اللبادة وما للبائع لك على التسويف هل له سبب إلا هجرتك عن مخالفة شهواتك لما فيها من التعب والشقة أنتظرين يوما بأنيك لا تنصر فيه مخالفة الشهوات هذا يوم لم يخلق الله قط ولا يخلق فلا تكون الجنة قط إلا محفوفة بالمكاره ولا تكون الكاره قط خفيفة على النفوس وهذا محال وجوده أما تتأملين مذكم تمددين نفسك وتقولين غذا غذا فقد جاء القدر وصار يوما فكيف وجدته أما علمت أن القدر الذي جاء وصار يوما كان له حكم الأيسر لا بل تعجزين عنه اليوم فأت غذا عنه أهجر وأهجر لأن الشهوة كالشجرة الراسخة التي تعبد العبد بقلعها فإذا هجر العبد عن قلعها للضعف وأخرها كان كمن هجر عن قلع شجرة وهو شاب قوى فأخرها إلى سنة أخرى مع العلم بأن طول المدة يزيد الشجرة قوة ورسوخا ويزيد القالع ضعة ووهنا لا يقدر عليه في الشباب لا يقدر عليه قط في الشباب بل من العناء رياضة الحرم ومن التعذيب تهذيب القديب والقضيب الرطب يقبل الانحناء فإذا جف وطال عليه الزمان لم يقبل ذلك فإذا كنت أيها النفس لا تهتمين هذه الأمور الجليلة وتركبين إلى التسويف لما بالك تدعين الحكمة وأية حماقة تزيد على هذه الحماقة ولعلك تقولين ما معنى عن الاستقامة إلا حرص على لغة الشهوات وقلة صبري على الآلام والشقات فما أحد غباوتك وأبشع اعتذارك إن كنت صادقة في ذلك فاطلبي التمتع بالشهوات الصافية عن الكدورات الدائمة أبد الآباد ولا مطعم في ذلك إلا في الجنة فإن كنت ناظرة لشهوتك فالنظر لها في مخالفتها قرب أكلة تمنع أكلات وما قولك في عقل مريض أشار عليه الطبيب بترك الماء البارد ثلاثة أيام ليصح ويهنا بشر به طول عمره وأخبره أنه إن شرب ذلك مرض مرضا مزنا وامتنع عليه شربه طول العمر فما مقتضى العقل في قضاء حق الشهوة أيسر ثلاثة أيام لينتم طول العمر أم يقضى شهوته في الحال خوفا من ألم المخالفة ثلاثة أيام حتى يلزمه ألم المخالفة ثلاثة يوم وثلاثة آلاف يوم وجميع عمرك بالإضافة إلى الأبد الذي هو مدة نعيم أهل الجنة وعذاب أهل النار أقل من ثلاثة أيام بالإضافة إلى جميع العمر وإن طالت مدته ، وليت عمرى ألم الصبر عن الشهوات أعظم شدة وأطول مدة أو ألم النار في درجات جهنم فمن لا يطبق الصبر على ألم المجاهدة كيف يطبق ألم عذاب الله ما أراك تتوانين عن النظر لنفسك إلا لكفر حتى أو لحق جلى . أما الكفر الحق فهو ضعف إيمانك بيوم الحساب وقلة معرفتك بمظم قدر الثواب والعقاب . وأما الحق الجلى فاعتمادك على كرم الله تعالى وغفوه من غير التفات إلى مكره واعتداجه واستغفاله عن عبادتك مع أنك لا تعتمدين على كرمه في لقمة من الخبز أو حبة من اللؤلؤ أو كلة واحدة تسمعها من الخلق بل تتوصلين إلى غرضك في ذلك بجميع الحيل وبهذا الجهل تستحقين لقب الحماقة من رسول الله صلى الله عليه وسلم حيث قال « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت والأحمق من أتبع نفسه هواها وتمنى على الله الأمانى » ويحك يا نفس لا ينبغي أن تترك الحياة الدنيا ولا يتركك بالله الغرور فانظري لنفسك فما أمرك بهم لغيرك ولا تضيعي أو قاتك فالأفاس معدودة فإذا مضى منك نفس فقد ذهب بضعك فاغتنمي الصحة قبل السقم والفراغ قبل الشغل والعنى قبل الفقر والشباب قبل الهرم والحياة قبل الموت واستعدي للآخرة على قدر بقائك فيها يا نفس أما تستعدين للشتاء بقدر طول مدته فتجمنين له القوت والكسوة والخطب وجميع الأسباب ولا تسكين في ذلك على فضل الله وكرمه حتى يدفع عنك البرد من غير جبة ولبد وخطب وغير ذلك فإنه قادر على ذلك أنتظنين أيها النفس أن زمهرير جهنم أخف بردا وأقصر مدة من زمهرير الشتاء أم تظنين أن ذلك دون هذا كلا أن يكون هذا كذلك أو أن يكون بينهما مناهضة

الداراني فرائته يكي  
قلعت ما يسيك رحك  
الله قال ويحك يا أحمد  
إذا جن هذا الليل  
اقرشت أهل الحبة  
أقدامهم وجرت  
دموعهم على خدودهم  
وأشرف الجليل  
جل جلالة عليهم  
يقول « بعيني من تقد  
بكلامي واستراح إلى  
مناجاني وإني مطلع  
عليهم في خلواتهم أسمع  
أنينهم وأرى بكاءهم  
يا جبريل ناد فيهم  
ما هذا البكاء الذي  
أراه فيكم هل خبركم  
خبر أن حبيا يندب  
أحبابه بالنار كيف  
يجعل بي أن أعذب  
قوما إذا جن عليهم  
الليل تعلقوا إلى فمي

في الشدة والبرودة أنتظنين أن البعد ينجو منها بغير سعى هيات كما لا يدفع برد الشتاء إلا بالجيلة والنار وسائر الأسباب فلا يدفع حر النار وبردها إلا بحصن التوحيد وخندق الطاعات وإنما كرم الله تعالى في أن عرفك طريق التحصن ويسر لك أسبابه لاني أن يدفع عنك العذاب دون حصنه كأن كرم الله تعالى في دفع برد الشتاء أن خلق النار وهذا للطريق استخراجها من بين حديدية وحجر حتى تدفى بها برد الشتاء عن نفسك وكما أن شراء الحطب والجيلة بما يستغنى عنه خالقك ومولاك وإنما اشترى به لنفسك إذ خلقه سبيلا لاستراحتك فطاعتك ومجاهداتك أيضا هو مستغن عنها وإنما هي طريقك إلى نجاتك فمن أحسن فلنفسه ومن أساء فطغيها والله غنى عن العالمين . ومحك يأنس أنزعى عن جهلك وقبى آخرتك بدنيك فما خلقكم ولا بشكم إلا كنفس واحدة وكما بدأنا أول خلق نعيده . وكما بدأكم تعودون وسنة الله تعالى لأتجدين لها تبديلا ولا تحويلا . ومحك يأنس ما أراك إلا ألفت الدنيا وأنت بها فصر عليك مفارقتها وأنت مقبلة على مقاربتها وتؤكد في نفسك مودتها فاحسب أنك غافلة عن عقاب الله وثوابه وعن أهوال القيامة وأحوالها فأنات مؤمنة بالموت الفرق بينك وبين عبادك أتقرين أن من يدخل دار ملك ليخرج من الجانب الآخر فهدبصره إلى وجهه مليح يعلم أنه يستغرق ذلك قبله ثم يضطر لاحتالة إلى مفارقتها فهو معدود من المعتلاء أم من الحق . أما تملين أن الدنيا دار الملك الملوك ومالك فيها إلا عجاز وكل ما فيها لا يصحب المجتازين بها بعد الموت ، ولذلك قال سيد البشر صلى الله عليه وسلم « إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة فاعمل ما شئت فانك تجزى به وعش ما شئت فانك ميت (١) » . ومحك يأنس أتملين أن كل من يلتفت إلى ملاذ الدنيا ويأنس بها مع أن الموت من ورائه فانما يستكر من الحسرة عند المفارقة وانما يزود من السم للملك وهو لا يدري أو ما تنظرين إلى الذين مضوا كيف بنوا وعلاؤهم ذهبوا واخلوا وكيف أورش الله أرضهم وديارهم أعداءهم أما ترينهم كيف يجمعون مالا يأكلون ويبنون مالا يسكنون ويؤملون مالا يدركون بيني كل واحد قصرا مرفوعا إلى جهة السماء ومقرة قبر محفور تحت الأرض فهل في الدنيا حق وانكاس أعظم من هذا يعمر الواحد دنياه وهو مرتحل عنها يقينا ويغرب آخرته وهو سائر إلى ما قطعها ، أما تستعين بأنفس من مساعدة هؤلاء الحق على حماقتهم واحسب أنك لست ذات بصيرة تهتدي إلى هذه الأمور وإنما تملين بالطبع إلى التشبه والافتداء فتبسى عقل الأنبياء والعلماء والحكماء بعقل هؤلاء النكبين على الدنيا واقتدى من الفريقين بمن هو أعدل عندك إن كنت تعتقد في نفسك العقل والدكاء بأنفس ما أعجب أمرك وأشد جهلك وأظهر طغيانك ، عجبك كيف تعمين عن هذه الأمور الواضحة الجلية ولعلك يأنس أسكرك حب الجاه وأدهشك عن فهمها ، أو ما تفكرين أن الجاه لا معنى له إلا ميل القلوب من بعض الناس إليك فاحسب أن كل من طي وجه الأرض سجد لك وأطاعك ، أقما تعرفين أنه بعد خمسين سنة لا تبقى أنت ولا أحد ممن طي وجه الأرض ممن عبدك وسجد لك وسيأتي زمان لا يبقى ذكرك ولا ذكر من ذكرك كما أتى على الملوك الذين كانوا من قبلك فهل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا فكيف تبين يأنس ما يبقى أبد الآباد بما لا يبقى أكثر من خمسين سنة إن بقي هذا إن كنت ملكا من ملوك الأرض سلم لك الشرق والغرب حتى أدعنت لك الرقاب وانتظمت لك الأسباب كيف ويأبى إيدبارك وشقاوتك أن يسلم لك أمر محلتك بل أمر دارك فضلا عن محلتك فان كنت يأنس لا تركين للدنيا رغبة في الآخرة لجهلك وعمى بصيرتك فما لك لا تتركينها ترضا عن خسة شركائهم ونزها عن كثرة عنائهم وتوفيا من سرعة فناهم أم مالك لا تزهدين في قليلها بعد أن زهدت في كثيرها ومالك

حلفت إذا وردوا القيامة على أن أسفر لهم عن وجهي وأيحم رباض قدسي وهذه أحوال قوم من المحبين أقيموا مقام الشوق والشوق من المحبة كالزهد من التوبة إذا استقرت التسوية ظهر الزهد وإذا استقرت المحبة ظهر الشوق . قال الواسطي في قوله تعالى - وعجبات إليك رب لترضى - قال شوقا واستهانة بمن وراءه - قال هم أولاء على أنرى - من شوقه إلى مكاملة الله ورمى بالألواح لما فاته من وقته . قال أبو عثمان الشوق نعمة المحبة فمن أحب الله اشتاق إلى

تفرحين بدنيا إن ساءرتك فلا تخلو بلدك من جماعة من اليهود والمجوس يسبقونك بها ويزيدون عليك في نعيمها وزينتها فأف لدنيا يسبقك بها هؤلاء الأخساء فما أجھلك وأخس همتك وأسقط رأيك إذا رغبت عن أن تكون في زمرة المقتربين من النبيين والصديقين في جوار رب العالمين أهد الآبدن لتكون في صف النعال من جملة الحق الجاهلين أياما قلائل في أحسرة عليك إن خسرت الدنيا والدين ، فبادري وبحك يا نفس قد أشرفت على الهلاك واقترب الموت وورد النذير فمن ذا يصلح عنك بعد الموت ومن ذا يصوم عنك بعد الموت ومن ذا يترضى عنك ربك بعد الموت . وبحك يا نفس مالك إلا أيام معدودة هي بضاعتك إن أنجرت فيها وقد ضيعت أكثرها فلو بكيت بقية عمرك على مضض منها لكنت مقصرة في حق نفسك فكيف إذا ضيعت البقية وأصررت على عادتك . أما تعلمين يا نفس أن الموت موعدك والقبر بيتك والتركاب فراشك والدود أنيسك والقرع الأكبرين يدك ، أما علمت يا نفس أن عسكر الموت عندك على باب البلد ينتظرونك وقد آلوا على أنفسهم كلهم بالإيمان اللفظة أنهم لا يرحون من مكانهم ما لم يأخذوك معهم ، أما تعلمين يا نفس أنهم يتحنون الرجعة إلى الدنيا يوما ليستفلوا بتدارك ما فرط منهم وأنت في أمنيتهن ويوم من عمرك لو يبع منهم بالدنيا بخذا فبها لا شروه لو قدروا عليه وأنت تضيعين أيامك في الغفلة والبطالة . وبحك يا نفس أما تستحيين تزينين ظاهرك للخلق وتبارزين الله في السرّ بالعظائم أفستحيين من الخلق ولا تستحيين من الخالق . وبحك أهو أهون الناظرين عليك أتامرين الناس بالخير وأنت متلطفة بالذائل تدعين إلى الله وأنت عنه فارة وتذكرين بالله وأنت له ناسية ، أما تعلمين يا نفس أن المذنب أثنى من العذرة وأن العذرة لا تطهر غيرها فلم تطمئني في تطهير غيرك وأنت غير طيبة في نفسك . وبحك يا نفس لو عرفت نفسك حق المعرفة لظننت أن الناس ما يصيبهم بلاء إلا بشؤمك . وبحك يا نفس قد جعلت نفسك حمارا لإبليس يقولك إلى حيث يريد ويسخر بك ، ومع هذا فتعجبين بملك وفيه من الآفات ما لو نجوت منه رأسا برأس لكان الربح في يدك وكيف تعجبين بملك مع كثرة خطاياك وزلللك وقد لمن الله إبليس بخطيئة واحدة بعد أن عبده مائتي ألف سنة وأخرج آدم من الجنة بخطيئة واحدة مع كونه نبيه وصفيه . وبحك يا نفس ما أغدرك وبحك يا نفس ما أوقحك وبحك يا نفس ما أجھلك وما أجراك على المعاصي وبحك كم تعقدين فتقصين وبحك كم تهملين فتغدين وبحك يا نفس أتستغلبين مع هذه الخطايا بهمارة دنياك كأنك غير مرتحلة عنها أما تنظرين إلى أهل القبور كيف كانوا جموا كثيرا وبوا مشيدا وأملوا بيذا فأصبح جمعهم بورا وبنياهم قبورا وأملهم غرورا وبحك يا نفس أملك بهم عبرة أملك إليهم نظرة أنظنين أنهم دعوا إلى الآخرة وأنت من المخلدين هيات هيات ساء ماتوهمين ما أنت إلا في هدم عمرك منذ سقطت من بطن أمك فابقي على وجه الأرض قصرك فان بطنها عن قليل يكون قبرك أما تخافين إذا بلغت النفس منك التراقى أن تبدورسل ربك منحدرة إليك بسواد الألوان وكلح الوجوه وبشرى بالعذاب فهل ينفعك حينئذ الندم أو يقبل منك الحزن أو يرحم منك البكاء والعجب كل العجب منك يا نفس أنك مع هذا تدعين البصيرة والفطنة ومن قطنتك أنك تفرحين كل يوم بزيادة مالك ولا تحزنين بنقصان عمرك وما تقع مال يزيد وعمر ينقص . وبحك يا نفس تمرضين عن الآخرة وهي مقبلة عليك وتقبلين على الدنيا وهي معرضة عنك ، فكم من مستقبل يوما لا يستكملها وكم من مؤمل لند لا يبلغه فأنت تشاهدين ذلك في إخوانك وأقاربك وجيرانك قترين تحسرم عند الموت ثم لا ترجعين عن جهالتك فاحذري أيتها النفس السكينة يوما آلى الله فيه على نفسه أن لا يترك عبدا أمره في الدنيا ونهاه حتى يسأله عن عمله دقيقه وجليله سره وعلايته

لقائه . وقال أيضا في قوله تعالى - فان أجل الله لآت - تقرية للمشتاقين معناه آلى أعلم أن شوقكم إلى غالب وأنا أجلت للقائكم أجلا وعن قريب يكون وصولكم إلى من تشاقون إليه وقال ذو النون: الشوق أعلى الدرجات وأعلى القامات إذا بلغها الإنسان استبطأ الموت شوقا إلى ربه ورجاء لقائه والنظر إليه . وعندى أن الشوق السكأن في الحبين إلى رتب يتوقعونها في الدنيا غير الشوق الذي يتوقعون به ما بعد الموت والله تعالى يكشف أهل وده بمطايا يحدونها

فانظري يا نفس بأي بدن تغفين بين يدي الله وبأي لسان تهجين وأعدى للسؤال جوابا وللجواب  
صوابا واعلمي بقية عمرك في أيام قصار لأيام طوال وفي دار زوال والدار مقام توفي دار حزن ونصب لدار نعيم  
وخلود اعملي قبل أن لا تعمل اخرجي من الدنيا اختيارا خروج الأحرار قبل أن تخرجي منها على  
الاضطرار ولا تفرحي بما يساعدك من زهرات الدنيا فرب مسرور مغبون ورب مغبون لا يشعر فويل  
لن له الويل ثم لا يشعر بضحك وضحك ويلهو ويمرح ويأكل ويشرب وقد حق له في كتاب الله أنه  
من وقود النار فليكن نظرك يا نفس إلى الدنيا اعتبارا وسعيك لها اضطرابا ورغبتك لها اختيارا وطلبك  
للاخرة ابتدارا ولا تكوني ممن يجز عن فكر ما أوتى ويتنسى الزيادة فيبقى وينسى الناس ولا ينتهي  
واعلمي يا نفس أنه ليس للدين عوض ولا للإيمان بدل ولا للجسد خلف من كانت مطيته الليل والنهار  
قائه يساره وإن لم يسر فاعطى يا نفس بهنه للوعظة واقبل هذه النصيحة فإن من أعرض عن  
الوعظة قد رضى بالنار وما أراه بها راضية ولا لهذه للوعظة واعية فإن كانت المساواة تمنحك عن  
قبول للوعظة فاستعني عليها بدوام التهجذ والقيام فإن لم تزل فبالمواظبة على الصيام فإن لم تزل فبمكة  
الحاطلة والكلام فإن لم تزل فبصلة الأرحام والطف بالأيتام فإن لم تزل فاعلمي أن الله قد طبع على قلبك  
وأقل على عينه وأنه قد تراكت ظلمة الذنوب على ظاهره وباطنه فوطئي نفسك على النار قد خلق الله  
الجنة وخلق لها أهلا وخلق النار وخلق لها أهلا فكل ميسر لما خلق له فإن لم يبق فيك مجال للوعظ  
فاقتطعي من نفسك والقنوط كبيرة من الكبار فعوذ بالله من ذلك فلا سميل لك إلى القنوط ولا سميل  
لك إلى الرجاء مع انسداد طرق الخير عليك فإن ذلك اختار وليس برجاء فانظري الآن هل يأخذك  
حزن على هذه النصيحة التي ابتليت بها وهل تسمح عينك بدمعة رحمة منك على نفسك فإن  
صحت فاستقي الدمع من بحر الرحمة قد بقي فيك موضع للرجاء فواظبي على النياحة والبكاء واستعني  
بأرحم الراحمين واشتكي إلى أكرم الأكرمين وأدنى الاستغاثة ولا تعلمي طول الشكاية لله أن يرحم  
نفسك وبنيك فإن مصيبتك قد عظمت وبليتك قد خالفت وتماديك قد طال وقد انقطعت منك  
الحيل وراحت عنك الطل فلا مذهب ولا مطلب ولا مستنات ولا مهرب ولا ملجأ ولا منجأ إلا إلى مولاك  
فافرعي إليه بالتضرع واخشي في تضرعك على قدر عظم جهلك وكثرة ذنوبك لأنه يرحم للتضرع  
الدليل وبنيك الطالب للتلطف ويجب دعوة للظفر وقد أصبحت إليه اليوم مضطرة وإلى رحمته  
محتاجة وقد ضاقت بك السبل وانسدت عليك الطرق وانقطعت منك الحيل ولم تنجع فيك العظات  
ولم يكسرك التوبيخ فالمطلوب منه كريم والسئول جواد ولستغاث به برهوف والرحمة واسعة  
والكرم قاض والخوشاغل وقولي يا أرحم الراحمين يا رحمن يا رحيم يا حليم يا عظيم يا كريم أنا للذنب  
الصر أنا الجريء الذي لا أفلح أنا للهادي الذي لا أستحي هذا مقام للتضرع للسكين والبائس الفقير  
والضعيف الحفيظ والمالك الفريق فجعل أغاثي وفرجي وأرني آثار رحمتك وأذقني برد غضوك ومغفرتك  
وارزقني قوة عظمتك يا أرحم الراحمين اقتداء بأبيك آدم عليه السلام قد قال وهب بن منبه لما أهبط  
الله آدم من الجنة إلى الأرض مكث لا ترقأ له فمعة فاطلع الله عز وجل عليه في اليوم السابع وهو عززون  
كثيب كظيم منكس رأسه فأوحى الله تعالى إليه يا آدم مله هذا الجهد الذي أرى بك قال يارب عظمت  
مصيبتى وأحاطت بي خطيئتي وأخرجت من ملكوت ربى نصرت في دار الهوان بعد الكرامة وفي دار  
الشقاء بعد السعادة وفي دار النصب بعد الراحة وفي دار البلاء بعد العافية وفي دار الزوال بعد القرار  
وفي دار اللوت والفناء بعد الخلود والبقاء فكيف لأبكي على خطيئتي فأوحى الله تعالى إليه يا آدم ألم  
أصطفك لنفسى وأحللتك داري وخصصتك بكرامتي وحذرتك سخطي ألم أخلقك يدي وقدمت فيك

علما ويطلبونها ذوقا  
فكذلك يكون شوقهم  
ليصير العلم ذوقا وليس  
من ضرورة مقام الشوق  
استبطاء اللوت وربما  
الأسعاء من الحبسين  
يتلذذون بالحياة لله  
تعالى كما قال الجليل  
رسوله عليه الصلاة  
والسلام قل إن صلاتي  
ونسكي ومحياي ومماتي  
له رب العالمين فمن  
كانت حياته لله منه  
الكرم لله للنجاة  
والهبة فمحتل به  
من التقدير ثم يكلفه من  
النبح والعطاي في الدنيا  
ما يتحقق مقام الشوق  
من غير الشوق إلى  
ما بعد اللوت وأنكر  
بعضهم مقام الشوق  
وقال إنما يكون الشوق

من روحى وأسجدت لك ملائكتى فصبت أمرى وسيت عهدي وتعرضت لسخطى فوعزنى وجلالى  
لو ملأت الأرض رجالا كلهم مثلك يعبدونى ويسبحونى ثم عصونى لأنزلتهم منازل العاصين فبكى آدم  
عليه السلام عند ذلك ثلثائة عام . وكان عبيد الله البجلي كثير البكاء يقول فى بكائه طول ليلة: إلهى أنا  
الذى كلما طال عمرى زادت ذنوبى أنا الذى كلما همت بترك خطيئة عرضت لى شهوة أخرى واعبيدها  
خطيئة لم تبل وصاحبها فى طلب أخرى واعبيدها إن كانت النار لك مقبلا وماوى واعبيدها إن كانت  
المقامع لرأسك تهباً واعبيدها قضيت حوائج الطالبين ولعل حاجتك لا تقضى . وقال منصور بن عمار سمعت  
فى بعض الليالى بالكوفة عابداً يناجى ربه وهو يقول يارب وعزتك ما أردت بعصيتك مخالفتك ولا عصيتك  
إذ عصيتك وأنا بمكانك جاهل ولا لعقوبتك متعرض ولا لنظرك مستخف ولكن سولت لى نفسى  
وأعانت على ذلك شقوتى وغرنى سترك الرخى طي فصيتك بمجلى وخالفتك بفعلى فمن عذابك  
الآن من يستغنى أو يجمل من اعتصم إن قطعت حبلك عني واسواته من الوقوف بين يديك غدا  
إذا قيل للمخفين جوزوا وقيل للمتقين حطوا أمع المخفين أجوز أم مع المتقين أحطوا بلى كلما كبرت سنى كثرت  
ذنوبى وبلى كلما طال عمرى كثرت معاصي قالى متى آتوب وإلى متى أعودأما أن لى أن أستعجى من ربى  
فهذه طرق القوم فى مناجاة مولاهم وفى معاتبة نفوسهم وإنما مطلبهم من التناجاة الاسترخاء ومقصدهم  
من المعاتبة التنبيه والاسترخاء فمن أهمل المعاتبة والتناجاة لم يكن لنفسه مراعىا ويوشك أن لا يكون  
الله تعالى عنه راضيا والسلام . ثم كتاب المحاسبة والمراقبة . ويتلوه كتاب التفكير إن شاء الله تعالى  
والحمد لله وحده وصلاة على سيدنا محمد وآله وصحبه وسلامه .

### ( كتاب التفكير )

( وهو الكتاب التاسع من ربح النجيات من كتب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذى لم يخذل عزته نهوا ولا قطرا ولم يجعل لمرأى أقدام الأوهام ومرمى سهام الأنفهام  
إلى حمى عظمت هجرى بل ترك قلوب الطالبين فى يدهاء كبرياته والهمة حيرى كلما اهترت لنيل  
مطلوبها ردتها سبحات الجلال قسرا وإذا همت بالانصراف آية نوديت من سرادقات الجلال صبرا  
صبرا ثم قبل لها أجبلى فى ذل البودية منك فكرا لأنك لو تفكرت فى جلال الربوبية لم تقدرى  
له قدرا وإن طلبت وراء الفكر فى صفاتك أمرا فانظرى فى نعم الله تعالى وآيابه كيف توالى عليك  
ترى وجددى لكل نعمة منها ذكرا وشكرا وتأملى فى بحار القادير كيف فاضت على العالمين خيرا  
وشرا ونفعا وضرا وعسرا ويسرا وفوزا وخسرا وجبرا وكسرا وطبا ونشرا وإيمانا وكفرا وعرفانا  
ونكرا فان جاوزت النظر فى الأفعال إلى النظر فى الذات فقد حاولت أمرا إمرا وخطرت بنفسك  
بمجازة حد طاقة البشر ظلما وجورا قد انبهرت العقول دون مبادئ إشراقه وانقصت على أعقابها  
اضطرابا وقهرا والصلاة على محمد سيد ولد آدم وإن كان لم يعد سيادته غرا صلاة تبقى لنا فى  
عرصات القيامة عدة وذخرا وعلى آله وأصحابه الذين أصبح كل واحد منهم فى سماء الدين بدرا  
واطواف للسلمين صدرا وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فقد وردت السنة بأن « تفكر ساعة خير من عبادة سنة » (١) وكثر الحديث فى كتاب

### ( كتاب التفكير )

(١) حديث تفكر ساعة خير من عبادة سنة ابن حبان فى كتاب العظيمة من حديث أبى هريرة

لغائب ومتى يغيب  
الحبيب عن الحبيب  
حتى يشاق ولها مثل  
الأنطاكي عن الشوق  
قَالَ إِنَّمَا يَشْتَاكُ إِلَى  
الغائب وما غبت عنه  
منذ وجدته وإنكار  
الشوق على الإطلاق  
لا أرى له وجهاً لأن  
رتب العطايا والنسج  
من أنصبة القرب إذا  
كانت غير متناهية  
كيف ينكر الشوق  
من الحب فهو غير غائب  
وغير مشتاق بالنسبة  
إلى ما وجد ولكن  
يكون مشتاقاً إلى ما لم  
يجد من أنصبة القرب  
فكيف يمنع حال  
الشوق والأمر هكذا  
ووجه آخر أن الإنسان  
لا بد له من أمور يردها

الله تعالى على التدبر والاعتبار والنظر والافتكار ولا يعني أن الفكر هو مفتاح الأنوار ومبدأ الاستبصار وهو شبكة العلوم ومصيدة المعارف والفهوم وأكثر الناس قد عرفوا فضله وربته لكن جعلوا حقيقته وعمرة ومصدره ومورده ومجره ومسرحه وطريقه وكيفيته ولم يعلم أنه كيف يتفكر وفيماذا يتفكر ولماذا يتفكر وما الذي يطلب به أهو مراد لعينه أم ثمرة تستفاد منه فان كان ثمرة فما تلك الثمرة أهى من العلوم أو من الأحوال أو منها جميعا وكشف جميع ذلك مهم ونحن نذكر أولا فضيلة التفكير ثم حقيقة التفكير وعمرة ثم مجارى الفكر ومسارحه إن شاء الله تعالى.

### ( فضيلة التفكير )

قد أمر الله تعالى بالتفكير والتدبر في كتابه العزيز في مواضع لا تحصى وأثنى على المتفكرين فقال تعالى - الذين يذكرون الله قياما وقعودا وعلى جنوبهم ويتفكرون في خلق السموات والأرض ربنا ما خلقت هذا باطلا - وقد قال ابن عباس رضى الله عنهما « إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره (١) » وعن النبي صلى الله عليه وسلم « أنه خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالك لا تسكلمون؟ فقالوا نتفكر في خلق الله عز وجل قال فكذلك فافعلوا تفكروا في خلقه ولا تنفكروا فيه فان بهذا المغرب أرضا يضاء نورها يياضها ويأضها مسيرة الشمس أربعين يوما بها خلق من خلق الله عز وجل لم يصو الله طرفه عين قالوا يارسول الله فأين الشيطان منهم ؟ قال ما يدرون خلق الشيطان أم لا قالوا من ولد آدم ؟ قال لا يدرون خلق آدم أم لا (٢) » وعن عطاء قال « انطلقت يوما أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة رضى الله عنها فكلمتنا وبيننا وبينها حجاب فقالت يا عبيد ما عنكم من زيارتنا ؟ قال قول رسول صلى الله عليه وسلم زر غبا تزدد حبا قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم قال فبككت وقالت كل أمره كان عجبا أتاني في ليلتي حتى مس جلده جلدي ثم قال ذريني أتعبد لربي عز وجل ققام إلى القرية فتوضأ منها ثم قام يصلى فبكى حتى بل لحيته ثم سجد حتى بل الأرض ثم اضطجع على جنبه حتى آتى بلال يؤذنه صلاة الصبح فقال يارسول الله ما يبكيك وقد غفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر ؟ فقال وعك يا بلال وما يعنى أن أبكي وقد أنزل الله تعالى على في هذه الليلة - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار لآيات لأولى الأبواب - ثم قال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها (٣) » قبل

بلفظ ستين سنة بإسناد ضعيف ومن طريقه ابن الجوزى في الموضوعات ورواه أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث أنس بلفظ ثمانين سنة وإسناده ضعيف جدا ورواه أبو الشيخ من قول ابن عباس بلفظ خير من قيام ليلة (١) حديث ابن عباس إن قوما تفكروا في الله عز وجل فقال النبي صلى الله عليه وسلم تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في الله فانكم لن تقدروا قدره أبو نعيم في الحلية بالمرفوع منه بإسناد ضعيف ورواه الأصمباني في التريغيب والترهيب من وجه آخر أصح منه ورواه الطبراني في الأوسط والبيهقي في الشعب من حديث ابن عمر وقال هذا إسناد فيه نظر قلت فيه الوازع بن نافع متروك (٢) حديث خرج على قوم ذات يوم وهم يتفكرون فقال مالك لا تسكلمون فقالوا نتفكر في خلق الله الحديث رويناه في جزء من حديث عبد الله بن سلام (٣) حديث عطاء انطلقت أنا وعبيد بن عمير إلى عائشة الحديث قال ابن عمير فأخبرنا بأعجب شيء رأيته من رسول الله صلى الله عليه وسلم الحديث في نزول - إن في خلق السموات والأرض - وقال ويل لمن قرأها ولم يتفكر فيها تقدم في الصبر والشكر وأنه في صحيح ابن حبان من رواية عبد الملك بن أبي سليمان عن عطاء .

حكم الحال لموضع  
بشريته وطبيعته  
وعدم وقوفه على حد  
العلم الذي يقتضيه حكم  
الحال ووجود هذه  
الأمر مثيل لآثار الشوق  
ولا نفي بالشوق إلا  
مطالبة بتبعث من  
الباطن إلى الأولى  
والأعلى من أنصبة  
القرب وهذه للطالبة  
كثافة في المحين فالشوق  
إذن كائن لاوجه  
لأنكاره وقد قال قوم  
شوق للشاهدة واللقاء  
أشد من شوق البعد  
والغيوبة فيكون في  
حال الغيبة مشتاقا  
إلى اللقاء ويكون في  
حال اللقاء والشاهدة  
مشتاقا إلى زوائد  
ومبار من الحبيب

للأوزاعي ما غاية التفكير فمن قال يقرؤهن ويصلهن . وعن محمد بن واسع أن رجلا من أهل البصرة ركب إلى أم ذر بعد موت أبي ذر فسألها عن عبادة أبي ذر فقالت كان نهاره أجمع في ناحية البيت يتفكر . وعن الحسن قال : تفكر ساعة خير من قيام ليلة . وعن الفضيل قال : الفكر مرآة تريك حسناتك وسيئاتك ، وقيل لأبراهيم إنك تطيل الفكرة فقال الفكرة مخ العقل ، وكان سفيان بن عيينة كثيرا ما يتمثل بقول القائل :

إذا للره كانت له فكرة ففي كل شيء له عبرة

وعن طاوس قال قال الحواريون لميسى بن مريم ياروح الله هل على الأرض اليوم مثلك ؟ فقال نعم من كان منطقته ذكرا وصمته فكرا ونظره عبدة فانه مثلي . وقال الحسن : من لم يكن كلامه حكمة فهو لغو ومن لم يكن سكوته تفكرا فهو سهو ومن لم يكن نظره اعتبارا فهو لهو وفي قوله تعالى - سأصرف عن آياتي الذين يتكبرون في الأرض بغير الحق - قال أمنع قلوبهم التفكير في أمري . وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أعطوا أعينكم حظها من العبادة فقالوا يارسول الله وما حظها من العبادة ؟ قال النظر في الصحف والتفكير فيه والاعتبار عند عجائبه <sup>(١)</sup> » ، وعن امرأة كانت تسكن البادية قريبا من مكة أنها قالت . لو تطالعت قلوب التقيين بفكرها إلى ما قد ادخر لها في حجب النيب من خير الآخرة لم يصف لهم في الدنيا عيش ولم تفر لهم في الدنيا عين . وكان لقمان يطيل الجلوس وحده فكان يمر به مولاه فيقول يا لقمان إنك تديم الجلوس وحدك فلو جلست مع الناس كان آنس لك فيقول لقمان إن طول الوحدة أفهم للفكر وطول الفكر دليل على طريق الجنة . وقال وهب بن منبه : ما طالت فكرة امرئ قط إلا علم وما علم امرؤ قط إلا عمل . وقال عمر بن عبد العزيز : الفكرة في نعم الله عز وجل من أفضل العبادة . وقال عبد الله ابن المبارك يوما لسهل بن علي وراه ساكتا متفكرا أين بلغت ؟ قال الصراط . وقال بشر : لو تفكر الناس في عظمة الله ما عصوا الله عز وجل . وعن ابن عباس ركتان مقصدتان في تفكير خير من قيام ليلة بلا قلب . وبينما أبو شريح يمضي إذ جلس فتفتح بكسائه فجعل يبكي قتيلا ليكيك ؟ قال تفكرت في ذهاب عمري وقلة عملي واقتراب أجلي . وقال أبو سليمان عودوا أعينكم البكاء وقلوبكم التفكير . وقال أبو سليمان الفكر في الدنيا حجاب عن الآخرة وعقوبة لأهل الولاية والفكر في الآخرة يورث الحكمة ويعمي القلوب . وقال حاتم من العبارة يزيد العلم ومن الله كر يزيد الحب ومن التفكير يزيد الخوف . وقال ابن عباس : التفكير في الخير يدعو إلى العمل به والندم على التردد إلى تركه . وروى أن الله تعالى قال في بعض كتبه إني لست أقبل كلام كل حكيم ولكن أنظر إلى همه وهو أهو فإذا كان همه وهو أهو أهو جعلت صمته تفكرا وكلامه حمدا وإن لم يتكلم . وقال الحسن إن أهل العقل لم يزالوا يودون بالذكور على الفكر والتفكير على الذكور حتى استنطقوا قلوبهم فنطقت بالحكمة . وقال اسحاق بن خاف كان داود الطائي رحمه الله تعالى على سطح في ليلة قراء تفكر في ملكوت السموات والأرض وهو ينظر إلى السماء ويكي حتى وقع في دار جارية له قال فوثب صاحب الدار من فراشه عريانا ويده سيف وظن أنه لسان فلما نظر إلى داود رجع ووضع السيف وقال من ذا الذي طرحتك من السطح قال ما شئت بذلك . وقال الجنيد أشرف المجالس وأعلاها الجلوس مع الفكرة في ميدان التوحيد والتنسيم بنسيم المعرفة والشرب بكأس الحبة من بحر الوداد والنظر بحسن الظن لله عز وجل ثم قال يا إلهام من مجالس ما أجملها ومن شراب ما ألذ طوبى لمن رزقه

(١) حديث أبي سعيد الخدري أعطوا أعينكم حظها من العبادة الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة باسناد ضعيف .

وإفضاله وهذا هو الذي أراه وأختاره . وقال فارس : قلوب المشتاقين منورة بنور الله فإذا تحركت اشتتابة أضاء النور ما بين الشرق والغرب فيعرضهم الله على الملائكة فيقول هؤلاء المشتاقون إلى أشهدكم أنني إليهم أشوق . وقال أبو يزيد : لو أن الله حجب أهل الجنة عن رؤيته لاستغاثوا من الجنة كما يستغيث أهل النار من النار . سئل ابن عطاء الله عن الشوق فقال هو احتراق الحشا وتلهب القلوب وتقطع الأكباد من البعد بعد القرب . سئل بعضهم هل الشوق

وقال الشامي رحمه الله تعالى استعينوا على الكلام بالصمت وعلى الاستنباط بالفكر وقال أيضا صحة النظر في الأمور نجاة من الغرور والعزم في الرأي سلامة من التفریط والندم والروية والفكر يكشيان عن الحزم والقطنة ومشاورة الحكماء ثبات في النفس وقوة في البصيرة ففكر قبل أن تعزم وتدبر قبل أن تهجم وشاور قبل أن تهدم . وقال أيضا الفضائل أربع : إحداها الحكمة وقوامها الفكرة . والثانية العفة وقوامها في الشهوة . والثالثة القوة وقوامها في الغضب . والرابعة العدل وقوامها في اعتدال قوى النفس فهذه أقاويل العلماء في الفكرة وما شرع أحد منهم في ذكر حقيقتها وبيان مجاريها .

### ( بيان حقيقة الفكر ونعته )

اعلم أن معنى الفكر هو إحضار معرفتين في القلب ليستمر منهما معرفة ثالثة . ومثاله أن من مال إلى العاجلة وآثر الحياة الدنيا وأراد أن يعرف أن الآخرة أولى بالإيثار من العاجلة فله طريقتان : أحدهما أن يسمع من غيره أن الآخرة أولى بالإيثار من الدنيا فيقلده ويصدق من غير بصيرة بحقيقة الأمر فيميل ببعده إلى إيثار الآخرة اعتقادا على مجرد قوله وهذا يسمى تقليدا ولا يسمى معرفة . والطريق الثاني أن يعرف أن الأتقي أولى بالإيثار ثم يعرف أن الآخرة أبقى فيحصل له من هاتين للمعرفتين معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار ولا يمكن تحقق المعرفة بأن الآخرة أولى بالإيثار إلا بالمعرفتين السابقتين فاحضار للمعرفتين السابقتين في القلب للتوصل به إلى المعرفة الثالثة يسمى تفكرا واعتبارا وتذكرا ونظرا وتأملا وتدبرا . أما التدبر والتأمل والتفكير فعبارات مترادفة على معنى واحد ليس تحتها معان مختلفة وأما اسم التذكر والاعتبار والنظر فهي مختلفة المعاني وإن كان أصل المسمى واحدا كما أن اسم الصارم والهند والسيف يتوارد على شيء واحد ولكن باعتبارات مختلفة فالصارم يدل على السيف من حيث هو قاطع والهند يدل عليه من حيث نسبته إلى موضعه والسيف يدل دلالة مطلقة من غير إشعار بهذه الزوائد فكذلك الاعتبار ينطلق على إحضار للمعرفتين من حيث إنه يعبر منها إلى معرفة ثالثة وإن لم يقع البور ولم يمكن إلا الوقوف على للمعرفتين فينتقل عليه اسم التذكر لاسم الاعتبار . وأما النظر والتفكير فيقع عليه من حيث إن فيه طلب معرفة ثالثة فمن ليس يطلب المعرفة الثالثة لا يسمى ناظرا فكل متفكر فهو متذكر وليس كل متذكر متفكرا ، وفائدة التذكر أن تكرار العارف على القلب لترسخ ولا تتمنى عن القلب ، وفائدة التفكير تكثير العلم واستجلاب معرفة ليست حاصلة فهذا هو الفرق بين التذكر والتفكير والعارف إذا اجتمعت في القلب وازدوجت على ترتيب مخصوص أثمرت معرفة أخرى فالمعرفة تناج المعرفة فإذا حصلت معرفة أخرى وازدوجت مع معرفة أخرى حصل من ذلك تناج آخر وهكذا يتمادى التناج وتتمادى العلوم ويتمادى الفكر إلى غير نهاية ، وإنما تنسد طريق زيادة العارف بالموت أو بالعواقب . هذا لمن يقدر على استقبار العلوم ويهتدى إلى طريق التفكير . وأما أكثر الناس فاعما منوا الزيادة في العلوم لقدم رأس المال وهو العارف التي بها تستمر العلوم كالتدبير لا بضاعة له فانه لا يقدر على الربح وقد يملك البضاعة ولكن لا يحسن صناعة التجارة فلا يربح شيئا فكذلك قد يكون معه من العارف ما هو رأس مال العلوم ولكن ليس يحسن استعمالها وتأليفها وإيقاع الازدواج القضي إلى التناج فيها ومعرفة طريق الاستعمال والاستثمار تارة تكون بنور الهي في القلب يحصل بالقطرة كما كان للأنياء صلوات الله عليهم أجمعين وذلك عزيز جدا وقد تكون بالتعلم والممارسة وهو الأكثر ثم للتفكير قد تحضره هذه العارف وتحصل له الثمرة وهو لا يشعر بكيفية حصولها ولا يقدر على التعبير عنها فقلعة ممارسته لصناعة التعبير في الإرادة فكأن من إنسان يعلم أن الآخرة أولى بالإيثار علما حقيقيا ولو شغل عن سبب معرفته لم يقدر على إيرادها والتعبير عنه مع أنه لم تحصل معرفته إلا عن للمعرفتين السابقتين وهو أن الأتقي أولى

أعلى أم الهبة ؟ قال الهبة لأن الشوق يتولد منها فلا مشتاق إلا لمن غلبه الحب فالحب أصل والشوق فرع وقال النصر اباضى : للخلق كلهم مقام الشوق لامقام الاشتياق ومن دخل في حال الاشتياق هام فيه حتى لا يرى له أثر ولا قرار . ومنها الأنس وقد مثل الجنيد عن الأنس فقال : ارتضاع الحنمة مع وجود الهبة . ومثل فو النون عن الأنس فقال : هو انبساط الحب إلى المحبوب قيل معناه قول الخليل - أرني كيف تحب للوفى - وقول موسى - أرني



بالإيثار وأن الآخرة أبقى من الدنيا فتحصل له معرفة ثالثة وهو أن الآخرة أولى بالإيثار فرجع حاصل حقيقة التفكير إلى إحضار معرفتين للتوصل بهما إلى معرفة ثالثة . وأما ثمرة الفكر فهي العلوم والأحوال والأعمال ولكن ثمرة الخاصة العلم لا غير ، نعم إذا حصل العلم في القلب تغير حال القلب وإذا تغير حال القلب تغيرت أعمال الجوارح فالعمل تابع للحال والحال تابع العلم والعلم تابع الفكر ، فالفكر إذن هو للبدأ والفتاح للخبرات كلها وهذا هو الذي يكشفك عن فضيلة التفكير وأنه خير من الذكر والتذكر لأن الفكر ذكر وزيادة وذكر القلب خير من عمل الجوارح بل شرف العمل لما فيه من الذكر ، فإذن التفكير أفضل من جملة الأعمال ولذلك قيل تحسب ساعة خير من عبادة سنة ، قيل هو الذي ينقل من المكروه إلى المحبوب ومن الرغبة والحرص إلى الزهد والقناعة ، وقيل هو الذي يحدث مشاهدة وتقوى ولذلك قال تعالى - لعلهم يتقون أو يحدث لهم ذكرا - وإن أردت أن تفهم كيفية تغير الحال بالفكر فثاله ما ذكرناه من أمر الآخرة فإن الفكر فيه يعرفنا أن الآخرة أولى بالإيثار فإذا رسخت هذه المعرفة يقينا في قلوبنا تغيرت القلوب إلى الرغبة في الآخرة والزهد في الدنيا وهذا ما عنيناه بالحال إذ كان حال القلب قبل هذه المعرفة حب العاجلة والميل إليها والثغرة عن الآخرة وقلة الرغبة فيها وبهذه المعرفة تغير حال القلب وتبدلت إرادته وورغته ثم أثر تغير الإرادة أعمال الجوارح في طراح الدنيا والانبال على أعمال الآخرة فهنا خمس درجات : أولاها التذكر وهو إحضار المرفقين في القلب ، وثانيها التفكير وهو طاب للعرفة القصودة منهما . والثالثة حصول المعرفة المطلوبة واستنارة القلب بها . والرابعة تغير حال القلب عما كان بسبب حصول نور المعرفة . والخامسة خدمة الجوارح لقلب بحسب ما يتجدد له من الحال فكما يضرب الحجر على الحديد فيخرج منه نار يستضيء بها للوضع فتصير العين مبصرة بعد أن لم تكن مبصرة وتنهض الأعضاء للعمل فكذلك زنداد نور المعرفة هو الفكر فيجمع بين المرفقين كما يجمع بين الحجر والحديد ويؤلف بينهما تأليفا مخصوصا كما يضرب الحجر على الحديد ضربا مخصوصا فينبعث نور المعرفة كانبثاق النار من الحديد ويغير القلب بسبب هذا النور حتى يميل إلى ما لم يكن يميل إليه كما يتغير البصر بنور النار فيرى ما لم يكن يراه ثم تنهض الأعضاء للعمل بمقتضى حال القلب كما ينهض العاجز عن العمل بسبب الظلمة للعمل عند إدراك البصر ما لم يكن يبصره ، فإذن ثمرة الفكر العلوم والأحوال والعلوم لأنها يملأها والأحوال التي تصورها أن تغلب على القلب لا يمكن حصرها ولهذا لو أراد مرید أن يحصر فنون الفكر ومجاريها وأنه فياذا تفكر لم يقدر عليه لأن مجارى الفكر غير محصورة وثمراته غير متناهية ، نعم نحن نجتهد في ضبط مجاريها بالإضافة إلى مهجات العلوم الدينية وبالإضافة إلى الأحوال التي هي مقامات السالكين ويكون ذلك ضبطا جليلا فإن تحصل ذلك يستدعى شرح العلوم كلها وجملة هذه الكتب كالتشرح لبعضها فاتها مشتملة على علوم تلك العلوم تستمد من أفكار مخصوصة فلنشر إلى ضبط الجامع فيها ليحصل الوقوف على مجارى الفكر .

### ( بيان مجارى الفكر )

اعلم أن الفكر قد يجري في أمر يتعلق بالدين وقد يجري فيما يتعلق بشير الدين وإنما غرضنا ما يتعلق بالدين فلترك القسم الآخر ونعني بالدين العامة التي بين السبدين الرب تعالى لجميع أفكار العبد إيمان أن تتعلق بالبعد وصفاته وأحواله وإما أن تتعلق بالمبود وصفاته وأفضاله لا يمكن أن يخرج عن هذين القسمين وما يتعلق بالبعد إيمان أن يكون نظرا فيما هو محبوب عند الرب تعالى أو فيما هو مكروه ولا حاجة إلى الفكر في غير هذين القسمين ، وما يتعلق بالرب تعالى إيمان أن يكون نظرا في ذاته وصفاته وأسمائه الحسنى ولما أن يكون في أفضاله وملكه وملكوته وجميع ما في السموات والأرض وما بينهما وبكشف

أنظر إليك وأنت

لروم :

شملت قلبى بما لديك فلا

ينفك طول الحيلة

عن فكر

آستنى منك بالوداد قد

أوحشتنى من جميع

ذا البشر

ذكرك لى مؤنس

يعارض

يوعدنى عنك منك

بالظفر

وجيئا صكنت

يامدى همى

فأنت منى بموضع النظر

وروى أن مطرف

ابن الشخير كتب إلى

عمر بن عبد العزيز

ليكن أنسك بالله

واستهطاعك إليه فان

فه عبادا استأنسوا

بالله وكانوا في وحدتهم

لك انحصار الفكر في هذه الأقسام بمثل وهو أن حال السائر إلى الله تعالى والمشتاقين إلى لقاءه يضاهي حال العاشق فلتتخذ العاشق للشيء مثالا ، فنقول : العاشق المستغرق في المحبة يشق لا يسدو وفكره من أن يتعلق بمشوقه أو يتعاقى بنفسه فإن تفكر في مشوقه فاما أن يتفكر في جماله وحسن صورته في ذاته ليتنعم بالفكر فيه وبمشاهدته وإما أن يتفكر في أفعاله اللطيفة الحسنة الدالة على أخلاقه وصفاته ليكون ذلك مضاعفا لذاته ومقويا لمحبهته وإن تفكر في نفسه فيكون فكره في صفاته التي تسقطه من عين محبوه حتى ينزله عنها أوفى الصفات التي تقربه منه وتحييه إليه حتى يتصف بها فإن تفكر في شيء خارج عن هذه الأقسام فذلك خارج عن حد العشق وهو نقصان فيه لأن العشق التام الكامل ما يستغرق العاشق ويستوفي القلب حتى لا يترك فيه متسما لغيره فمحب الله تعالى ينبغي أن يكون كذلك فلا يسدو نظره وتفكره محبوه ومهما كان تفكره محصورا في هذه الأقسام الأربعة لم يكن خارجا عن مقتضى المحبة أصلا فلنبدأ بالقسم الأول وهو تفكره في صفات نفسه وأفعاله نفسه ليميز المحبوب منها عن المكروه فإن هذا الفكر هو الذي يتعلق بعلم العاملة الذي هو المقصود بهذا الكتاب وأما القسم الآخر فيتعلق بعلم الكاشفة ثم كل واحد مما هو مكروه عند الله أو محبوب ينقسم إلى ظاهر كالطاعات والمعاصي وإلى باطن كالصفات النجيات والمهلكات التي محلها القلب وذكرنا تفصيلها في ربيع المهلكات والنجيات والطاعات والمعاصي تنقسم إلى ما يتعلق بالأعضاء السبعة وإلى ما ينسب إلى جميع البدن كالقرار من الزحف وعقوق الوالدين والسكون في المسكن الحرام ويجب في كل واحد من المكروه التفكير في ثلاث أمور : الأول التفكير في أنه هل هو مكروه عند الله أم لا قرب شيء لا يظهر كونه مكروها بل يدرك بدقيق النظر . والثاني التفكير في أنه إن كان مكروها فما طريق الاحتراز عنه . والثالث أن هذا المكروه هل هو متصف به في الحال فيتركه أو هو متعرض له في الاستقبال فيحترز عنه أو قارقه فيما مضى من الأحوال فيحتاج إلى تداركه وكذلك كل واحد من المحبوبات ينقسم إلى هذه الانقسامات فإذا جمعت هذه الأقسام زادت مجارى الفكر في هذه الأقسام على مائة والعبد مدفوع إلى الفكر إما في جميعها أو في أكثرها وشرح آحاد هذه الانقسامات يطول ولكن انحصر هذا القسم في أربعة أنواع الطاعات والمعاصي والصفات المهلكات والصفات النجيات فلنذكر في كل نوع مثالا ليقيس به المرید سائر ما هو يفتح له باب الفكر ويتسع عليه طريقه [النوع الأول المعاصي] ينبغي أن يفطن الإنسان صبيحة كل يوم جميع أعضائه السبعة تفصيلا ثم بدنه على الجلة هل هو في الحال ملابس لمعصية بها فيتركها أو لا يسبها بالأسس فيتداركها بالترك والندم أو هو متعرض لها في نهاره فيستعد للاحتراز والتباعد عنها فينظر في اللسان ويقول إنه متعرض للقيية والكذب وتركية النفس والاستهزاء بالغير والمماراة والمحاذاة والخوض فيها لا ينسحب إلى غير ذلك من المكروه فيقرر أولا في نفسه أنها مكروهة عند الله تعالى ويتفكر في شواهد القرآن والسنة على شدة العذاب فيها ثم يتفكر في أحواله أنه كيف يتعرض لها من حيث لا يشعر ثم يتفكر أنه كيف يحترز منه ويعلم أنه لا يتم له ذلك إلا بالعزلة والافتراء وبأن لا يجالس إلا صالحا نقييا ينكر عليه مهما تكلم بما يكرهه الله والإفضيع حجرا في فيه إذا جالس غيره حتى يكون ذلك مذكرا له أنه فكذا يكون الفكر في حيلة الاحتراز ويتفكر في معصية أنه يضمنى به إلى القية والكذب وفصول الكلام وإلى اللهو والبدعة وأن ذلك إنما يسمعه من زيد وعمرو وأنه ينبغي أن يحترز عنه بالاعتزال أو بالنهي عن النكر فمهما كان ذلك فيتفكر في بطنه أنه إنما يعضى الله تعالى فيه بالأكل والشرب إما بكثرة الأكل من الحلال فإن ذلك مكروه عند الله ومقو للشهوة التي هي سلاح الشيطان عدو الله وإما بأكل الحرام والشبهة فينظر من أين مطعمه وملبسه ومسكنه ومكسبه ومالكسبه ويتفكر في طريق الحلال ومداخله ثم

أشد استئناسا من  
الناس في كثرتهم  
وأوحش ما يكون  
الناس أنس ما يكونون  
وأنس ما يكون الناس  
أوحش ما يكونون .  
قال الواسطي : لا يصل  
إلى محل الأنس  
من لم يستوحش من  
الأكلان كلها . وقال  
أبو الحسين الوراق :  
لا يكون الأنس بالله  
إلا ومعه التعظيم لأن  
كل من استأنست  
به سقط عن قلبك  
تعظيمه إلا الله تعالى  
فانك لا تزايد به أنسا  
إلا زددت منه هية  
وتعظيما . قالت رابعة :  
كل مطع مستأنس  
وأنشدت :  
ولقد جعلت في الفؤاد  
عدو

يتفكر في طريق الحيلة في الاكتساب منه والاحترام من الحرام ويقرر على نفسه أن العبادات كلها ضائعة مع أكل الحرام وأن أكل الحلال هو أساس العبادات كلها وأن الله تعالى لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام (١) كما ورد الخبر به فهكذا يتفكر في أعضائه في هذا القدر كفاية عن الاستقصاء فهم ما حصل بالتفكير حقيقة المعرفة بهذه الأحوال اشتغل بالمراقبة طول النهار حتى يحفظ الأعضاء عنها [وأما النوع الثاني وهو الطاعات] فينظر أولاً في الفرائض للكتابة عليه أنه كيف يؤديها وكيف يحرسها عن النقصان والتقصير أو كيف يجبر نقصانها بكرة النوافل ثم يرجع إلى عضو عضو فيتفكر في الأفعال التي تتعلق بها بما يحبه الله تعالى فيقول مثلاً إن العين خلقت للنظر في ملكوت السموات والأرض عبدة ولتستعمل في طاعة الله تعالى وتطير في كتاب الله وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم وأنا قادر على أن أشغل العين بطاعة القرآن والسنة فلم لأفعله وأنا قادر على أن أنظر إلى فلان للطبع بين التعظيم فأدخل السرور على قلبه وأنظر إلى فلان الفاسق بين الازدراء فأزجره بذلك عن مصيئته فلم لأفعله وكذلك يقول في سمعه إنني قادر على استماع كلام مملوف أو استماع حكمة وعلم أو استماع قراءة وذكراً فلمي أعطه وقد أتم الله على به وأودعني لأشكره فلمي أكفر نعمة الله فيه بتضييعه أو تعطيله وكذلك يتفكر في اللسان ويقول إنني قادر على أن أقرب إلى الله تعالى بالتعليم والوعظ والتودد إلى قلوب أهل الصلاح وبالأسوال عن أحوال الفقراء وإدخال السرور على قلب زيد الصالح وعمرو العالم بكلمة طيبة وكل كلمة طيبة فإنها صدقة وكذلك يتفكر في ماله فيقول أنا قادر على أن أتصدق بالمال الفلاني فأنى مستغن عنه ومهما احتجت إليه رزقني الله تعالى مثله وإن كنت محتاجاً الآن فأنى إلى ثواب الأيثار أخرج مني إلى ذلك المال وهكذا يفكر عن جميع أعضائه وجملة بدنه وأمواله بل عن دوابه وغلغلاته وأولاده فان كل ذلك أدواته وأسبابه ويقدر على أن يطيع الله تعالى بها فيستنبط بدقيق الفكر وجوه الطاعات للممكنة بها ويتفكر فيها يري في البدار إلى تلك الطاعات ويتفكر في إخلاص النية فيها ويطلب لها مظان الاستحقاق حتى يزكو بها عمله وقس على هذا سائر الطاعات [وأما النوع الثالث فهي الصفات الهلكتة التي محلها القلب] فيعرفها بما ذكرناه في ربيع الهلكتات وهي امتلاء الشهوة والغضب والبخل والكبر والعجب والرياء والحسد وسوء الظن والنفقة والترور وغير ذلك ويتقدم من قلبه هذه الصفات فان ظن أن قلبه منزّه عنها فيتفكر في كيفية امتحانه والاستشهاد بالعلاجات عليه فان النفس أبداً تعد بالحير من نفسها وتختلف فاذا ادعت التواضع والبرامة من الكبر فتنهى أن تجرب بحمل حزمة حطبي في السوق كما كان الأولون يجربون به أنفسهم وإذا ادعت الحلم تعرض للغضب يناله من غيره ثم يجربها في كظم الغيظ وكذلك في سائر الصفات وهذا تفكر في إنه هل هو موصوف بالصفة المكروهة أم لا ولذلك علامات ذكرناها في ربيع الهلكتات فاذا دلت العلامة على وجودها فكر في الأسباب التي تقبح تلك الصفات عنده وتبين أن منشأها من الجهل والنفقة وخيب البخله كالورأى في نفسه عجباً بالعمل فيتفكر ويقول إنما عملي يبدى وجارحى ويقدرنى وإرادتى وكل ذلك ليس منى ولا إلى وإنما هو من خلق الله وفضله على فهو الذى خلقنى وخلق جارحى وخلق قدرتى وإرادتى وهو الذى حرك أعضائى بقدرته وكذلك قدرتى وإرادتى فكيف أعجب بعملى أو بنفى ولا أقوم لنفى بنفى فاذا أحس في نفسه بالكبر قرر على نفسه ما فيه من الحماقة ويقول لها لم ترين نفسك أكبر والكبير من هو عند الله كبير وذلك ينكشف بسد اللوت وكمن كافر في الحال يموت مقرباً إلى الله تعالى بنزوعه عن الكفر وكمن مسلم يموت شقياً

(١) حديث إن الله لا يقبل صلاة عبد في ثمن ثوبه درهم حرام أحمد من حديث ابن عمر بسند فيه

مجهول وقد تقدم .

وأبحت جسمى من

أراد جلوسى

فالجسم منى للجلوس

مؤانس

وحبيب قلبى فى الفؤاد

أنسى

وقال مالك بن دينار:

من لم يأنس بمحادثة

الله عن محادثة الخلق

قد قل علمه وعمى

قلبه وضع عمره .

قيل لبعضهم من معك

فى الدار قال الله تعالى

معى ولا يستوحش من

أنس بربه . وقال

الحراز: الأنس بمحادثة

الأرواح مع المحبوب

فى مجالس القرب .

ووصف بعض المارفين

صفة أهل المحبة

الواصلين فقال: جدد

لهم الود فى كل طرفة

بتغير حاله عند الموت بسوء الحظاءة فإذا عرف أن الكبير مهلك وأن أصله الحظاءة فيتفكر في علاج إزالة ذلك بأن يتطلى أفعال للتواضع وإذا وجد في نفسه شهوة الطعام وشرهه تفكر في أن هذه صفة البهائم ولو كان في شهوة الطعام والوقوع كال لكان ذلك من صفات الله وصفات الملائكة كالعلم والقدرة ولما اتصف به البهائم ومهما كان الثمر عليه أغلب كان بالبهائم أشبه وعن للملائكة القريبين أبعد وكذلك يقرر على نفسه في الغضب ثم يتفكر في طريق العلاج وكل ذلك ذكرناه في هذه الكتب فمن يريد أن يتسع له طريق الفكر فلا بد له من تحصيل ما في هذه الكتب [ وأما النوع الرابع وهو للنجيات ] فهو التوبة والندم على الذنوب والصبر على البلاء والشكر على النعماء والخوف والرجاء والزهدي في الدنيا والإخلاص والصدق في الطاعات ومحبة الله وتعظيمه والرضا بأفعله والشوق إليه والخشوع والتواضع له وكل ذلك ذكرناه في هذا الربيع وذكرنا أسبابه وعلاماته فليتفكر العبد كل يوم في قلبه ما الذي يوزنه من هذه الصفات التي هي للقربة إلى الله تعالى فإذا افتقر إلى شيء منها فليعلم أنها أحوال لا يثمرها إلا علوم وأن العلوم لا يثمرها إلا أفكار فإذا أراد أن يكتب لنفسه أحوال التوبة والندم فليفتش ذنوبه أولا وليتفكر فيها وليجمعها على نفسه وليعظمها في قلبه ثم لينظر في الوعيد والتشديد الذي ورد في الشرع فيها وليتحقق عند نفسه أنه متعرض لقتل الله تعالى حتى يثبت له حال الندم وإذا أراد أن يستثير من قلبه حال الشكر فليتنظر في إحسان الله إليه وأياديه عليه وفي إرساله جميل ستره عليه على ما شرعنا بعضه في كتاب الشكر فليطالع ذلك وإذا أراد حال المحبة والشوق فليتنفكر في جلال الله وجماله وعظمته وكبريائه وذلك بالنظر في عجائب حكمته وبدائع صنعه كما سنشير إلى طرف منه في القسم الثاني من الفكر وإذا أراد حال الخوف فليتنظر أولا في ذنوبه الظاهرة والباطنة ثم لينظر في اللوث وسكراته ثم فيما بعده من سؤال المنكر ونكير وعذاب القبر وحياته وعقابه وديدانه ثم في هول النداء عند نفخة الصور ثم في هول المحشر عند جمع الخلائق على صعيد واحد ثم في الناقشة في الحساب والمضايقة في التقير والقطيع ثم في الصراط ودقته وحدته ثم في خطر الأمر عنده أنه يصرف إلى التبال فيكون من أصحاب النار أو يصرف إلى اليقين فينزل دار القرار ثم ليحضر بعد أحوال القيامة في قلبه صورة جهنم ودركاها ومقامها وأحوالها وسلسلها وأغلالها وزقومها وصديدها وأنواع العذاب فيها وقبح صور الزبانية الموكلين بها وأنهم كلما نضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها وأنهم كلما أرادوا أن يخرجوا منها أعيدوا فيها وأنهم إذا رأوها من مكان بعيد سمعوا لها تغيظا وزفيرا وهلم جرا إلى جميع ما ورد في القرآن من شرحها وإذا أراد أن يستجلب حال الرجاء فليتنظر إلى الجنة ونعيمها وأشجارها وأنهارها وحورها وولدانها ونعيمها اللقيم وملوكها الدائم فهكذا طريق الفكر الذي يطلب به العلوم التي تثمر اجتلاب أحوال محبوبة أو التزهد عن صفات مذمومة وقد ذكرنا في كل واحد من هذه الأحوال كتابا مفردا يستعان به على تفصيل الفكر أما بذكر مجامعه فلا يوجد فيه أنفع من قراءة القرآن بالتفكير فإنه جامع لجميع اللقائات والأحوال وفيه شفاء للعالمين وفيه ما يورث الخوف والرجاء والصبر والشكر والمحبة والشوق وسائر الأحوال وفيه ما يزرع عن سائر الصفات المذمومة فينبغي أن يقرأه العبد ويردد الآية التي هو محتاج إلى التفكير فيها مرة بعد أخرى ولو مائة مرة قراءة آية بتفكير وفهم خير من ختمه بتغير تدبر وفهم فليتوقف في التأمل فيها ولو ليلة واحدة فإن تحت كل كلمة منها أسرار لا تنحصر ولا يوقف عليها إلا بدقيق الفكر عن صفاء القلب بعد صدق للعامة وكذلك مطالعة أخبار رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه قد أوتي جوامع الكلم <sup>(١)</sup> وكل كلمة من كلماته بحر من بحور الحكمة ولو تأملها

بدوام الاتصال وآوام  
في كنهه بحقائق  
السكون إليه حق  
أنت قلوبهم وحن  
أرواحهم شوقا وكان  
الحب والشوق منهم  
إشارة من الحق إليهم  
عن حقيقة التوحيد  
وهو الوجود بالله  
فذهبت مناهم وانقطعت  
آمالهم عنده لما بان  
منه لهم ولو أن الحق  
تعالى أمر جميع الأنبياء  
يسألون لهم ما سألوه  
بعض ما أعد لهم من  
قديم وحدانيته ودوام  
أزليته وسابق علمه  
وكان نصيبهم معرفتهم  
به وفراغ همهم عليه  
واجتماع أهوائهم فيه  
ضار بحمد من  
عيده العموم أن

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم أوتي جوامع الكلم تقدم.

العالم حق التأمل لم ينقطع فيها نظره طول عمره وشرح آحاد الآيات والأخبار يطول فانظر إلى قوله صلى الله عليه وسلم «إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة وعش ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فان هذه الكلمات جامعة حكم الأولين والآخرين وهي كافية للتأملين فيها طول العمر إذلو وقفوا على معانيها وغلبت على قلوبهم غلبة يقين لاستغرقهم ولحال ذلك بينهم وبين التلفت إلى الدنيا بالكلية فهذا هو طريق الفكر في علوم الجامعة وصفات العبد من حيث هي محبوبة عند الله تعالى أوسكره واهل البتدى. ينبغي أن يكون مستغرق الوقت في هذه الأفكار حتى يمر قلبه بالأخلاق الحمودة والقامات الشريفة وينزه باطنه وظاهره عن السكره وليعلم أن هذا مع أنه أفضل من سائر المبادات فليس هو له غاية للطلب بل المشغول به محبوب عن مطلب الصديقين وهو التمتع بالفكر في جلال الله تعالى وجماله واستغراق القلب بحيث يفنى عن نفسه أى ينسى نفسه وأحواله ومقاماته وصفاته فيكون مستغرق الهم بالمحبوب كالعاشق المستغرق عند لقاء الحبيب فانه لا يتفرغ للنظر في أحواله نفسه وأوصافها بل يبقى كالمهتوت الغافل عن نفسه وهو منتهى لذة الشاق. فأما ما ذكرناه فهو شكر في عمارة الباطن ليلصق للقرب والوصال فاذا ضيع جميع عمره في إصلاح نفسه فحق ينعم بالقرب ولذلك كان الخواص يدور في البوادي فلقية الحسين بن منصور وقال فيم أنت؟ قال أدور في البوادي أصلح حالى في التوكل فقال الحسين أفيت عمرك في عمران باطنك فأين القضاء في التوحيد فالقضاء في الواحد الحق هو غاية مقصد الطالبين ومنتهى نعم الصديقين. وأما التزهد عن الصفات المهلكات فيجربى مجرى الخروج عن السدة في النكاح. وأما الاتصاف بالصفات المنجيات وسائر الطاعات فيجربى مجرى تهية المرأة جهازها وتنظيفها وجهها ومشطها شعرها لتصلح بذلك لقاء زوجها فان استغرقت جميع عمرها في تبرة الرحم وتزيين الوجه كان ذلك حجابا لها عن لقاء المحبوب، فكذا ينبغي أن تفهم طريق الدين إن كنت من أهل المجالسة وإن كنت كالعبد السوء لا يتحرك إلا خوفا من الضرب وطمعا في الأجرة فدونك وإتمام البدن بالأعمال الظاهرة فان بينك وبين القلب حجابا كثيفا فاذا قضيت حق الأعمال كنت من أهل الجنة ولكن للمجالسة أقوام آخرون وإذ اعرف مجال الفكر في علوم الجامعة التي بين العبد وبين ربه فينبغى أن تتخذ ذلك عادتك وديندك صباحا ومساء فلا تنفل عن نفسك وعن صفاتك للبعد من الله تعالى وأحوالك للمقربة إليه سبحانه وتعالى بل كل مرید فينبغى أن يكون له جريدة يشبث فيها جملة الصفات المهلكات وجملة الصفات للمنجات وجملة المعاصى والطاعات ويعرض نفسه عليها كل يوم ، ويكفيه من المهلكات النظر في عشرة فانه إن سلم منها سلم من غيرها وهى البخل والكبر والعجب والرياء والحسد وشدة الغضب وشراء الطعام وشراء الوقوع وحب المال وحب الجاه . ومن المنجات عشرة : الندم على الذنوب ، والصبر على البلاء ، والرضا بالقضاء ، والشكر على النعماء ، واعتدال الخوف والرجاء ، والزهدي في الدنيا ، والاخلاص في الأعمال ، وحسن الخلق مع الخلق ، وحب الله تعالى ، والخشوع له . فهذه عشرون خصلة عشرة مذمومة وعشرة محمودة فمهما كفى من المذمومات واحدة فيخط عليها في جريدته ويدع الفكر فيها ويشكر الله تعالى على كفايته إياها وتنزيه قلبه عنها ويعلم أن ذلك لم يتم إلا بتوفيق الله تعالى وعونه ولو وكله إلى نفسه لم يقدر على محو أقل الرذائل عن نفسه فيقبل على الذمعة الباقية وهكذا يعمل حتى يخط على الجميع ، وكذا يطالب نفسه بالاتصاف بالمنجات ، فاذا اتصف بواحدة منها كالنوبة والتهم مثلا خط عليها واشتغل بالباقي ، وهذا يحتاج إليه المرید المشر .

رفع عن قلوبهم جميع  
المهموم . وأنشد في  
معناه :  
كانت قلبي أهواء  
مفرقة  
فاستجعت إذا رأيتك  
النفس أهوائ  
نصار يهدني من  
كنت أحسنه  
وصرت مولى الورى  
مدصرت مولائى  
تركت للناس دينام  
ودينهم  
شعلا بذكرك ياديني  
ودنيائى  
وغد يكون من الأنس  
الأنس بطاعة الله  
وذكرك وتلاوة كلامه  
وسائر أبواب القربات  
وهذا القدر من الأنس  
نعمة من الله تعالى  
ومنحة منه ولكن

وأما أكثر الناس من الموددين من الصالحين فينبغي أن يشتبوا في جرائمهم المعاصي الظاهرة كأكل الشبهة وإطلاق اللسان بالغيبة والتمجية والراء والثناء على النفس والافراط في معاداة الأعداء وموالاته الأولياء والداهنة مع الخلق في ترك الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر فإن أكثر من يعد نفسه من وجوه الصالحين لا ينفك عن جملة من هذه المعاصي في جوارحه وما لم يظهر الجوارح عن الآثام لا يمكن الاشتغال بمسألة القلب وتطهيره بل كل فريق من الناس يظلم عليهم نوع من العصية فينبغي أن يكون تقدم لها وتفكيرهم فيها لا في معاصيهم بمنزلة عنها. مثاله العالم الورع فإنه لا يخاف في غالب الأمر عن إظهار نفسه بالعلم وطلب الشهرة وانتشار الصيت إماما للتدريس أو بالوعظ ومن فعل ذلك تصدى لفئة عظيمة لا ينجو منها إلا الصديقون فإنه إن كان كلامه مقبولا حسن الوقع في القلوب لم ينفك عن الإعجاب والخيلاء والتزين والتصنع وذلك من المهلكات وإن رد كلامه لم يخل عن غيظ وأثرة وحقد على من يرده وهو أكثر من غيظه على من يرد كلامه غيره وقد يلبس الشيطان عليه ويقول إن غيظك من حيث إنه رد الحق وأنكره فإن وجد تفرقة بين أن يرد عليه كلامه أو يرد على عالم آخر فهو مغرور وضحكة للشيطان ثم مهما كان له ارتياح بالقبول وفرح بالثناء واستنكاف من الرد أو الاعتراض لم يخل عن تكلف وتصنع لتحسين اللفظ والإيراد حرصا على استجلاب الثناء والله لا يحب التكلفين والشيطان قد يلبس عليه ويقول إنما حرصك على تحسين الألفاظ والتكلف فيها ينتشر الحق ويحسن موقعه في القلب إعلاء لدين الله فإن كان فرحه بحسن ألفاظه وثناء الناس عليه أكثر من فرحه بثناء الناس على واحد من أقرانه فهو مخدوع وإنما يدورون حول طلب الجاه وهو يظن أن مطلبه الدين ومهما اختلج ضميره بهذه الصفات ظهر على ظاهره ذلك حتى يكون للموقر له الاعتقاد لفضله أكثر احتراماً ويكون بلفظه أشد فرحا واستبشاراً ممن يغلو في موالاته غيره وإن كان ذلك الغير مستحقا للموالاته وربما ينتهي الأمر بأهل العلم إلى أن يتفابروا تبايرا فاشقى على أحدهم أن يختلف بعض تلامذته إلى غيره وإن كان يعلم أنه منتفع بغيره ومستفيد منه في دينه وكل ذلك رشح الصفات المهلكات المستنكرة في سر القلب التي قد يظن العالم النجاة منها وهو مغرور فيها وإنما يكشف ذلك بهذه العلامات ففتنة العالم عظيمة وهو إماما لك وإماما لك ولا مطمع له في سلامة العوام فمن أحسن في نفسه بهذه الصفات فالواجب عليه العزلة والانفراد وطلب الخمول والمدافعة للفتاوى مهماسن فقد كان المسجد يحوي في زمن الصحابة رضى الله تعالى عنهم جمعا من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم كلهم مفتون وكانوا يتدافعون الفتوى وكل من كان يغنى كان يود أن يكفيه غيره وعند هذا ينبغي أن يتقى شياطين الانس إذا قالوا لا تفعل هذا فإن هذا الباب لو فتح لاندurst العلوم من بين الخلق وليقل لهم إن دين الاسلام مستغن عنى فإنه قد كان معمورا قبلى وكذلك يكون بعدى ولو لم تم تهديم أركان الاسلام فإن الدين مستغن عنى وأما أنا فلت مستغنيا عن إصلاح قلبي، وأما أداء ذلك إلى اندراس العلم خيال يدل على غاية الجهل فإن الناس لو حبسوا في السجن وقيدوا بالقيود وتوعدوا بالنار على طلب العلم لكان حب الرياضة والعلو يحلهم على كسر القيود وهزم حيطان الحصون والخروج منها والاشتغال بطلب العلم فالعلم لا يندرس مادام الشيطان يحجب إلى الخلق الرياضة والشيطان لا يفتقر عن عمله إلى يوم القيامة بل ينتهز لنشر العلم أقواما لانسبب لهم في الآخرة كما قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم»<sup>(١)</sup> و «إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر»<sup>(٢)</sup> فلا ينبغي أن يفتخر العالم بهذه التلبسات فيشتغل بمخالطة الخلق حتى يتربى في قلبه حب الجاه والثناء والتعظيم فإن ذلك بذور النفاق

ليس هو حال الأنس الذي يكون له حجبين والأنس حال شريف يكون عند طهارة الباطن وكنهه صدق الزهد وكال التقوى وقطع الأسباب والعلائق ومحو الخواطر والمواجس وحقيقته عندى كنس الوجود بثقل لأنح العظمة وانتشار الروح في ميادين الفسوح وله استقلال بنفسه يشتمل على القلب فيجمعه به عن الهية وفي الهية اجتماع الروح ورسوبه إلى محل النفس وهذا الذي وصفناه من أنس القادات وهيبة القادات يكون في مقام البقاء بعد العبور على

(١) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بأقوام لا خلاق لهم تقدم (٢) حديث إن الله يؤيد هذا الدين بالرجل الفاجر تقدم أيضا في العلم .

قال صلى الله عليه وسلم « حب الجاه والمال يثبت النفاق في القلب كما يثبت الماء البقل »<sup>(١)</sup> وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما ذنبان ضاريان أرسلاني زريبة غنم بأكثر إفساد فيها من حب الجاه والمال في دين المرء للسلم »<sup>(٢)</sup> ولا ينقل حب الجاه من القلب إلا بالاعتزال عن الناس والمهرب من مخاطبتهم وترك كل ما يزيد جاهه في قلوبهم فليكن العالم في التنظن لحفايا هذه الصفات من قلبه وفي استنباط طريق الخلاص منها وهذه وظيفة العالم التي فأما أمثالنا فينبغي أن يكون تفكرنا فيما يقوى إيماننا يوم الحساب إذ لو رأنا السلف الصالحون لقالوا قطما إن هؤلاء لا يؤمنون يوم الحساب فأعمالنا أعمال من يؤمن بالجنة والنار فإن من خاف شيئا هرب منه ومن رجاشا طلبه وقد علمنا أن المهرب من النار بترك الشهوات والحرام وترك المعاصي ونحن منه مكمون فيها وأن طلب الجنة بتكثير نوافل الطاعات ونحن مقصرون في الفرائض منها فلم يحصل لنا من ثمرة العلم إلا أنه يقتدى بنا في الحرص على الدنيا والتسكيب عليها ويقال لو كان هذا مذموما لكان العلماء أحق وأولى باجتنابه منا فليتنا كنا كالعوام إذا امتنا ماتت معنا ذنوبنا فما أعظم الفتنة التي تعرضنا لها لو تفكرنا فنسأل الله تعالى أن يصلحنا ويصلح بنا ويوفقنا للتوبة قبل أن يتوفانا إنه الكريم اللطيف بنا النعم علينا فله مجاري أفكار العلماء والصالحين في علم المعاملة فإن فرغوا منها انقطع التفاتهم عن أنفسهم وارتفعوا منها إلى التفكير في جلال الله وعظمته والتمتع بمشاهدته بعين القلب ولا يتم ذلك إلا بعد الانفكاك من جميع للهالكات والانصاف بجميع النجيات وإن ظهر شيء منه قبل ذلك كان مدخولا معولا مكدرا مقطوعا وكان ضعيفا كالبرق الخاطف لا يثبت ولا يدوم ويكون كالعاشق الذي خلا بمحشوقه ولكن تحت ثيابه حيات وعقارب تلدغه مرة بعد أخرى فتفنى عليه قمة الشهادة ولا طريق له في كمال التمتع إلا بإخراج العقارب والحيات من ثيابه وهذه الصفات المذمومة عقارب وحيات وهي مؤذيات ومشوشات وفي القبر يزيد ألم لدغها على لدغ العقارب والحيات فهذا القدر كاف في التنبيه على مجاري فكر المبدى صفات نفسه المحبوبة والكروهة عند ربه تعالى . القسم الثاني الفكر في جلال الله وعظمته وكراماته ، وفيه مقامان المقام الأعلى الفكر في ذاته وصفاته ومعاني أسمائه وهذا مما منع منه حيث قيل تفكروا في خلق الله تعالى ولا تفكروا في ذات الله وذلك لأن العقول تتحير فيه فلا يطبق مد البصر إليه إلا الصديقون ثم لا يطبقون دوام النظر بل سائر الخلق أحوال أبحارهم بالإضافة إلى جلال الله تعالى كحال بصر الحفاش بالإضافة إلى نور الشمس فانه لا يطبقه البتة بل يغشى نهارا وإنما يتردد ليلا ينظر في بقية نور الشمس إذا وقع على الأرض وأحوال الصديقين كحال الإنسان في النظر إلى الشمس فانه يقدر على النظر إليها ولا يطبق دوامه ويغشى على بصره لو أدام النظر ونظره المختطف إليها يورث الممش ويفرق البصر وكذلك النظر إلى ذات الله تعالى يورث الحيرة والذهش واضطراب العقل فالصواب إذن أن لا يتعرض لمجاري الفكر في ذات الله سبحانه وصفاته فإن أكثر العقول لا تختمه بل القدر اليسير الذي صرح به بعض العلماء وهو أن الله تعالى مقدس عن اللكان ومنزه عن الأقطار والجهات وأنه ليس داخل العالم ولا خارجه ولا هو متصل بالعالم ولا هو منفصل عنه قد حير عقول أقوام حتى أنكروه إذ لم يطيقوا سماعه ومعرفته بل ضعفت طاقته عن احتمال أقل من هذا إذ قيل لهم إنه يشاظم ويتعالى عن أن يكون له رأس ورجل ويد وعين وغضو وأن يكون جسما مشخصا له مقدار وحجم فأنكروا هذا وظنوا أن ذلك قدح في عظمة الله وجلاله حتى قال بعض الحق من العوام إن هذا وصف بطيخ هندي لا وصف الإله لظن المسكين أن الجلالة

(١) حديث حب المال والجاه يغيب النفاق في القلب الحديث تقدم (٢) حديث ما ذنبان جاحقان أرسلاني في زريبة غنم الحديث تقدم .

مر القناء وما غيبر  
الأنس والهيبة للذين  
يذهبون بوجود القناء  
لأن الهيبة والأنس  
قبل القناء ظهرا من  
مطالعة الصفات من  
الجلال والجمال وذلك  
مقام التلويح وما ذكرناه  
بعد القناء في مقام  
التحكيك والبقاء من  
مطالعة القنات ومن  
الأنس خضوع النفس  
للمطمئنة ومن الهيبة  
خشوعها والخضوع  
والخشوع يتقاربان  
ويترقان بفرق لطيف  
يدرك بإمعان الروح .  
ومنها القرب قال الله  
تعالى لئيبه عليه الصلاة  
والسلام - واسجد  
واقرب - وقد ورد  
« أقرب ما يكون العبد

والعظمة في هذه الأعضاء وهذا لأن الانسان لا يعرف إلا نفسه فلا يستعظم إلا نفسه فكل ما لا يساويه في صفاته فلا يفهم العظمة فيه ، نعم غاية أن يقدر نفسه جميل الصورة جالس على سريره وبين يديه غلمان يتلون أمره فلا جرم غايته أن يقدر ذلك في حق الله تعالى وتقدس حتى يفهم العظمة بل لو كان للذباب عقل وقيل له ليس لحافلك جناحان ولا يد ولا رجل ولا له طيران لأنكر ذلك وقال كيف يكون خالقي أنقص مني أف يكون مقصوص الجناح أو يكون زمنا لا يقدر على الطيران أو يكون لي آلة وقدرة لا يكون له مثاها وهو خالقي ومصوري وعقولي أكثر الخلق قريب من هذا العقل وإن الانسان لجهول ظلم كفار . ولذلك أوحى الله تعالى إلى بعض أنبيائه لا تخبر عبادي بصفاتي فينكروني ولكن أخبرهم عني بما يفهمون . ولما كان النظر في ذات الله تعالى وصفاته مخظرا من هذا الوجه اقتضى أدب الشرع وصالح الخلق أن لا يتعرض لمجاري الفكر فيه لكننا نعدل إلى المقام الثاني وهو النظر في أفعاله ومجاري قدره ومجائب صنعه وبدائع أمره في خلقه فانها تدل على جلالة وكبريائه وتقدمه وتعالى وتدل على كمال علمه وحكمته وعلى نفاذ مشيئته وقدرته فينظر إلى صفاته من آثار صفاته فإننا لانطبق النظر إلى صفاته كما أننا نطبق النظر إلى الأرض مهما استتارت بنور الشمس ونستدل بذلك على عظم نور الشمس بالإضافة إلى نور القمر وسائر الكواكب لأن نور الأرض من آثار نور الشمس والنظر في الآثار يدل على المؤثر دلالة ما وإن كان لا يقوم مقام النظر في نفس المؤثر وجميع موجودات الدنيا أثر من آثار قدرة الله تعالى ونور من أنوار ذاته بل لاطلة أشد من العدم ولا نور أظهر من الوجود ووجود الأشياء كلها نور من أنوار ذاته تعالى وتقدس إذ قوام وجود الأشياء بذاته التي يوم بنفسه كأن قولم نور الأجسام بنور الشمس للضيئة بنفسها ومهما انكشف بعض الشمس فقد جرت العادة بأن يوضع طشت ماء حتى ترى الشمس فيه ويمكن النظر إليها فيكون الماء واسطة ينض قليلا من نور الشمس حتى يطاق النظر إليها فكذلك الأنفال واسطة نشاهد فيها صفات الفاعل ولا نهرب بأنوار الذات بعد أن تباعدنا عنها بواسطة الأفعال فهذا سر قوله ﷺ « تفكروا في خلق الله ولا تفكروا في ذات الله تعالى » .

( بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى )

اعلم أن كل ما في الوجود مما سوى الله تعالى فهو فعل الله وخلق وكل ذرة من الذرات من جوهر وعرض وصفة وموصوف فيها عجائب وغرائب تظهر بها حكمة الله وقدرته وجلاله وعظمته وإحصاء ذلك غير ممكن لأنه لو كان البحر مدادا لكد ذلك لكد البحر قبل أن ينفد عشر عشره ولكننا نشير إلى جل منة ليكون ذلك كالمثال لما عدا . فتقول للوجودات المخلوقة منقسمة إلى ما لا يعرف أصلها فلا يمكننا التفكير فيها وكما من الوجودات التي لانعلمها كما قال الله تعالى - وخلق ما لا تعلمون - سبحانه الذي خلق الأزواج كلها مما تنبت الأرض ومن أنفسهم وما لا يحلون - وقال - وننشك فيما لا تعلمون - وإلى ما يعرف أصلها وجلتها ولا يعرف تفصيلها فيمكننا أن تفكر في تفصيلها وهي منقسمة إلى ما ذكرناه بحس البصر وإلى ما لا ندركه بالبصر أما الذي لا ندركه بالبصر فكاللائكة والجن والشياطين والعرش والكرسي وغير ذلك ومجال الفكر في هذه الأشياء مما يضيق ويغض فلنعدل إلى الأقرب إلى الأفهام وهي الدرجات بحس البصر وذلك هو السموات السبع والأرض وما بينهما فالسموات مشاهد بكواكبها ونجمها وقمرها وحركتها ودوراتها في طلوعها وغروبها والأرض مشاهدة بما فيها من جبالها ومعادنها وأنهارها وبحارها وحيوانها ونباتها وما بين السماء والأرض وهو الجو مدرك بنومها وأمطارها وتلوجها ورعدها وبرقها وصور أفعها وشبهها وحوافها فهذه هي الأجناس المشاهدة من السموات والأرض وما بينهما وكل جلس منها ينقسم إلى أنواع وكل نوع ينقسم إلى أقسام وينشعب كل قسم

من ربه في سجوده  
فالساجد إذا ذيق طعم  
السجود يقرب لأنه  
يسجد ويطوى  
بسجوده بساط الكون  
ما كان وما يكون  
ويسجد على طرف  
رداء العظمة يقرب .  
قال بعضهم إن لأجد  
الحضور فأقول يا الله  
أو يارب فأجد ذلك  
على أثقل من الجبال  
قيل ولم قال لأن النداء  
يكون من وراء حجاب  
وهل رأيت جليسا  
ينادي جليسه وإنما  
هي إشارات وملاحظات  
ومتغاة وملاطفات  
وهذا الذي وصفه مقام  
عزيز متحقق فيه  
القرب ولكنه مشعر  
بتجو ومؤذن بسكر



إلى أصناف ولانهاية لانتعاب ذلك وانقسامه في اختلاف صفاته وهياته ومعانيه الظاهرة والباطنة  
وجميع ذلك مجال التفكير فلا تحرك ذرة في السموات والأرض من جماد ولا نبات ولا حيوان ولا  
فلك ولا كوكب إلا والله تعالى هو محركها وفي حركتها حكمة أو حكمتان أو عشر أو ألف حكمة كل ذلك  
شاهدته تعالى بالوحدانية ودال على جلالة وكبريائه وهي الآيات الدالة عليه ، وقد ورد القرآن بالحث  
على التفكير في هذه الآيات كما قال الله تعالى - إن في خلق السموات والأرض واختلاف الليل والنهار  
لآيات لأولي الأبصار - وكما قال تعالى - ومن آياته - من أول القرآن إلى آخره ، فلنذكر كيفية التفكير  
في بعض الآيات ، فمن آياته الإنسان المخلوق من النطفة وأقرب شيء إليك نفسك وفيك من الجوانب  
الدالة على عظمة الله تعالى ما تنقضي الأعمار في الوقوف على عشر عشره وأنت غافل عنه ، فإما من هو غافل  
عن نفسه وجاهل بها كيف تطمع في معرفة غيرك وقد أمرك الله تعالى بالتدبر في نفسك في كتابه  
العزيز فقال - وفي أنفسكم أفلا تبصرون - وذكر أنك مخلوق من نطفة قدرة فقال - قتل الإنسان  
ما أكفره من أي شيء خلقه ، من نطفة خلقه قدره ، ثم السبيل يسره ، ثم أماته فأقبره ، ثم إذا شاء  
أنشره - وقال تعالى - ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنشقرون - وقال تعالى سأل  
بك نطفة من متى متى ثم كان علقه خلق نسوى - وقال تعالى - ألم نخلقكم من ماء مهين فجعلناه  
في قرار مكين إلى قدر معلوم - وقال - أولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فاذا هو خصيم مبين - وقال  
- إنا خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج - ثم ذكر كيف جعل النطفة علقه والعلقة مضغة واللضغة عظما  
فقال تعالى - ولقد خلقنا الإنسان من سلالة من طين ، ثم جعلناه نطفة في قرار مكين ، ثم خلقنا النطفة  
علقه - الآية ، فتكرير ذكر النطفة في الكتاب العزيز ليس ليعلم لفظه ويترك التفكير في معناه فانظر  
الآن إلى النطفة وهي قطرة من الماء قدرة لتوركت ساعة ليضربها الهواء فسدت وأنت كيف أخرجه  
رب الأرباب من الصاب والتراب وكيف جمع بين الذكر والأنثى وألقى الألفة والمحبة في قلوبهم وكيف  
قدم بسلسلة المحبة والشهوة إلى الاجتماع وكيف استخرج النطفة من الرجل بحركة الوقاع وكيف  
استجلب دم الحيض من أعماق المروى وجمعه في الرحم ، ثم كيف خلق الولود من النطفة وسقاء بهاء  
الحيض وغذاء حتى يماوربا وكبر ، وكيف جعل النطفة وهي يضاء مشرقة علقه حمراء ثم كيف جعلها  
مضغة ثم كيف قسم أجزاء النطفة وهي متشابهة متساوية إلى العظام والأعصاب والمروى والأوتار واللحم  
ثم كيف ركب من اللحم والأعصاب والمروى الأعضاء الظاهرة فدور الرأس وشق السمع والبصر  
والأنف والتم وسائر المنافذ ثم مديد الرجل وقسمه ، وسها بالأسابع وقسم الأسابع بالأصابع بالأنامل ثم كيف  
ركب الأعضاء الباطنة من القلب والمعدة والكبد والطحال والرقبة والرحم والثلاثة والأمعاء كل واحد  
على شكل مخصوص ومقدار مخصوص لعمل مخصوص ، ثم كيف قسم كل عضو من هذه الأعضاء  
بأقسام أخر فركب العين من سبع طبقات لكل طبقة وصف مخصوص وهيئة مخصوصة لوقدت طبقة  
منها أوزالت صفة من صفاتها تعطلت العين عن الإبصار فلماذا جعلنا إلى أن نصف ما في أحاديث هذه الأعضاء  
من المعجائب والآيات لا تنقضي فيه الأعمار فانظر الآن إلى النظام وهي أجسام صلبة قوية كيف خلقها  
من نطفة سخيصة رقيقة ثم جعلها قواما لبدن وعماد له ثم قدرها بمقادير مختلفة وأشكال مختلفة  
فمنه صغير وكبير وطويل ومستدير ومجوف ومصمت وعريض ودقيق ، ولما كان الإنسان محتاجا  
إلى الحركة بجملة بدنه وبعض أعضائه مفتقرا للتدرد في حاجاته لم يجعل عظمه عظما واحدا بل  
عظما كثيرة بينها مفاصل حتى تيسر بها الحركة وقد شكل كل واحدة منها على وفق الحركة  
المطلوبة بها ثم وصل مفاصلها وربط بعضها ببعض بأوتار أنبتها من أحد طرفي العظم وألصقه بالعظم

يكون ذلك لمن غابت  
نفسه في نور روحه  
لغلبة سكره وقوة محوه  
فاذا محوا فاق تتخلص  
الروح من النفس  
والنفس من الروح  
ويعود كل من البدن  
إلى محله ومقامه فيقول  
يا الله ويلرب بلسان  
النفس للطمشة العائدة  
إلى مقام حاجتها وهل  
مبسوديتها والروح  
تستقل بفتوحه وبكمال  
الحال عن الأقوال  
وهذا أتم وأقرب من  
الأول لأنه وفي حق  
القرب باستقلال الروح  
بالفتوح وأقام رسم  
المبسوذية بهود حكم  
النفس إلى محل الاقتدار  
وحظ القرب لا يزال

الآخر كالرباط له ثم خلق في أحد طرفي العظم زوائد خارجة منه وفي الآخر حفر اغاصة فيه موافقة لشكل الزوائد لتدخل فيها وتطبق عليها فصار العبد إن أراد تحريك جزء من بدنه لم يتمتع عليه ولولا للفواصل لتعذر عليه ذلك ثم انظر كيف خلق عظام الرأس وكيف جمعها وركبها وقدر كهبها من خمسة وخمسين عظما مختلفة الأشكال والصور فألف بعضها إلى بعض بحيث استوى به كرة الرأس كما تراه فيها ستة تخمس المقحف وأربعة عشر للحمي الأعلى واثنان للحمي الأسفل والبقية هي الأسنان بعضها عريضة تصلح للطحن وبعضها حادة تصلح للقطع وهي الأنياب والأضراس والثنايا ثم جعل الرقبة مركبا للرأس وركبها من سبع خرزات مجوفات مستديرات فيها تحريفات وزيدات وتقصانات لينطبق بعضها على بعض ويطول ذكر وجه الحكمة فيها ثم ركب الرقبة على الظهر وركب الظهر من أسفل الرقبة إلى منتهى عظم العجز من أربع وعشرين خرزة وركب عظم العجز من ثلاثة أجزاء مختلفة فيتصل به من أسفله عظم العنق وهو أيضا مؤلف من ثلاثة أجزاء ثم وصل عظام الظهر بعظام الصدر وعظام الكتف وعظام اليدين وعظام المانة وعظام العجز وعظام الفخذين والساقين وأصابع الرجلين ، فلانطول بذلك عدد ذلك ومجموع عدد العظام في بدن الانسان ما تناه عظم وعمانية وأربعون عظما سوى العظام الصغيرة التي حشى بها خلل الفواصل فانظر كيف خلق جميع ذلك من نقطة سخيفة رقيقة ، وليس للقصود من ذكر أعداد العظام أن يعرف عددها فان هذا علم قريب يعرفه الأطباء ولشراحون وإنما الغرض أن ينظر منها في مدبرها وخالقها أنه كيف قدرها ومدبرها وخالق بين أشكالها وأعدادها خصصا بهذا العدد المخصوص لأنه لو زاد عليها واحدا لكان وبالا على الانسان يحتاج إلى قلعه ولو نقص منها واحدا لكان نقصانا يحتاج إلى جبره فالطبيب ينظر فيها ليعرف وجه العلاج في جبرها وأهل البصائر ينظرون فيها ليستدلوا بها على جلالة خالقها وبصورها فتنتان بين النظرين ، ثم انظر كيف خلق الله تعالى آلات لتحريك العظام وهي العضلات خلقت في بدن الانسان خمسمائة عضلة وتسعا وعشرين عضلة ، والعضلة مركبة من لحم وعصب ورباط وأعشية ، وهي مختلفة القادير والأشكال بحسب اختلاف مواضعها وقدر حاجاتها فأربع وعشرون عضلة منها هي لتحريك حدة العين وأجفائها لو نقصت واحدة من جعلتها اختلافاً لمعين وهكذا لكل عضو عضلات بعدد مخصص وقدر مخصص وأمر الأعصاب والعروق والأوردة والشرايين وعددها ومنابتها وانشعاباتها أعجب من هذا كله وشرحه يطول ، فلنذكر بحال في آحاد هذه الأجزاء ثم في آحاد هذه الأعضاء ثم في جملة البدن فكل ذلك نظر إلى عجائب أجسام البدن وعجائب المعاني والصفات التي لا تدرك بالحواس أعظم ، فانظر الآن إلى ظاهر الانسان وباطنه وإلى بدنه وصفاته فترى به من العجائب والصنعة ما يقضى به العجب وكل ذلك صنع الله في قطرة ماء قطرة ماء قدرة فترى من هذا صنعه في قطرة ماء فما صنعه في ملكوت السموات وكواكبها وما حكمته في أوضاعها وأشكالها ومقاديرها وأعدادها واجتماع بعضها وتفرق بعضها واختلاف صورها وتفاوت مشارقتها ومغاربتها فلانطلق أن ذرة من ملكوت السموات تنفك عن حكمة وحكم بل هي أحكم خلقا وأتقن صنعا وأجمع للعجائب من بدن الانسان بل لانسبة لجميع ما في الأرض إلى عجائب السموات ولذلك قال تعالى - أأنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها ، وأغطش ليها وأخرج ضحاها - فارجع الآن إلى النطفة وتأمل حالها أولا وما صارت إليه ثانيا وتأمل أنه لو اجتمع الجن والاناس على أن يخلقوا للنطفة سمعاً أو بصراً أو عقلاً أو قدرة أو علماً أو روحاً أو خلقوا فيها عظماً أو عرقاً أو عصباً أو جليداً أو شعراً لم يقدر أن يخلقوا ذلك بل لو أرادوا أن يعرفوا كنه حقيقته وكيفية خلقته بعد أن خلق الله تعالى ذلك لعجزوا عنه فالعجب منك لو نظرت إلى صورة

بتوفر نصيب الروح  
باقامة رسم العبودية  
من النفس . وقال  
الجنيد إن الله تعالى  
يقرب من قلوب  
عباده على حسب  
ما يرى من قرب قلوب  
عباده منه فانظر ماذا  
يقرب من قلبك .  
وقال أبو إسفوب  
السوسي مادام العبد  
يكون بالقرب لم يكن  
قريبا حتى يقرب عن  
رؤية القرب بالقرب  
فاذا ذهب عن رؤية  
القرب بالقرب فذلك  
قرب وقد قال قائمهم:  
قد تحققتك في الله  
ر فناجك لسان  
فاجتمعنا لمعان  
وافترقنا لمعان

إنسان مصور على حائط تأنيق النقاش في تصويرها حتى قرب ذلك من صورة الإنسان وقال الناظر إليها كأنه إنسان عظم تصيبك من صنعة النقاش وحذقه وخفة يده ونحام فطنته وعظم في قلبك عمله مع أنك تعلم أن تلك الصورة إنما تمت بالصيغ والقلم واليد وبالحوائط وبالقدرة والعلم وبالارادة وشيء من ذلك ليس من فعل النقاش ولا خلقه بل هو من خلق غيره وإنما منتهى فعله الجمع بين الصيغ والحوائط على ترتيب مخصوص فيكبر تصيبك منه وتستعظمه وأنت ترى النطفة القذرة كانت معدومة غلقها خالقها في الأصلاب والترائب ثم أخرجها منها وشكلها فأحسن تشكيلها وقدرها فأحسن تقديرها وتصويرها وقسم أجزائها للنشابة إلى أجزاء مختلفة فأحكم العظام في أرجائها وحسن أشكال أعضائها وزين ظاهرها وباطنها ورتب عروقها وأعصابها وجعلها تجري لنذاتها ليكون ذلك سبب بقائها وجعلها مهيبة بصيرة عالة ناطقة وخلق لها الظهر أساسا لبدنها والبطن حاويا لآلات غذائها والرأس جامعاً لحواسها ففتح العينين ورتب طبقاتها وأحسن شكلها ولونها وهيئاتها ثم حماها بالأجفان لتسترها وتحفظها وتصفقها وتدفع الأذى عنها ثم أظهر في مقدار عدسة منها صورة السموات مع اتساع أكنافها وتباعد أقطارها فهو ينظر إليها ثم شق أذنيه وأودعها ماء مرا ليحفظ سمعها ويدفع الهوام عنها وحوطها بصدقة الأذن لتجمع الصوت قرده إلى صياحها ولتحمس بدبيب الهوام إليها وجعل فيها تحريفات وأعوجاجات لتكثر حركة ما يدب فيها ويطول طريقه فيتنبه من النوم صاحبها إذا قصد ما دابة في حال النوم ثم رفع الأنف من وسط الوجه وأحسن شكله وفتح منخريه وأودع فيه حاسة الشم ليستدل باستنشاق الروائح على مطامعه وأغذيته وليستنشق بمنفذ للنخريين روح الهواء غذاء لقلبه وترويحاً لحرارة باطنه وفتح الفم وأودعها اللسان ناطقا وترجمانا ومعربا هما في القلب وزين الفم بالأسنان لتكون آلة الطحن والكسور والقطع فأحكم أصولها وحدد ردوسها وبيض لونها ورتب صفوفها متساوية الرؤوس متساقة الترتيب كأنها الدر المنظوم وخلق الشفتين وحسن لونها وشكلها لتنطبق على الفم فتسد منفذه ولتحمها حروف الكلام وخلق الحنجرة وهياها لخروج الصوت وخلق للسان قدرة للحركات والنقطيات لتقطع الصوت في مخارج مختلفة تختلف بها الحروف ليتسع بها طريق النطق بكبرتها ثم خلق الحناجر مختلفة الأشكال في الضيق والسعة والحشونة واللينة وصلابة الجوهر وروخاوته والطول والقصر حتى اختلفت بسببها الأصوات فلا يتشابه صوتان بل يظهر بين كل صوتين فرقة حتى يميز السامع بعض الناس عن بعض بمجرد الصوت في الظلمة ثم زين الرأس بالشعر والأصداغ وزين الوجه بالحيوة والحاجبين وزين الحاجب برقة الشعر واستقواس الشكل وزين العينين بالأهداب ثم خلق الأعضاء الباطنة وسخر كل واحد لفعل مخصوص فسخر للمعدة لتضج الغذاء والكبد لإحالة الغذاء إلى الدم والطحال والمرارة والكلى لخدمة الكبد فالطحال يخدمها يجذب السوداء عنها والمرارة تخدمها يجذب الصفراء عنها والكلى تخدمها يجذب المائية عنها والثانة تخدم الكلى بقبول الماء عنها ثم تخرجه في طريق الإحليل والعروق تخدم الكبد في إيصال الدم إلى سائر أطراف البدن ثم خلق اليدين وطولهما لتمتد إلى المقاصد وعرض الكف وقسم الأصابع الخمس وقسم كل أصبع بثلاث أنامل ووضع الأربعة في جانب والإبهام في جانب لتدور الإبهام على الجميع ولو اجتمع الأولون والآخرون على أن يستبطنوا بدقيق الفكر وجها آخر في وضع الأصابع سوى ما وضعت عليه من بعد الإبهام عن الأربع وثقوت الأربع في الطول وترتيبها في صف واحد لم يقدروا عليه إذ بهذا الترتيب صلحت اليد للقبض والإعطاء فإن بسطها كانت له طبعا يضع عليها ما يريد وإن جمعها كانت له آلة للضرب وإن ضمها

إن يكن غيبك التمد  
ظلم عن لحظ عياني  
فلقد صيرك الوجـ  
د من الأحشاء داني  
قال ذو النون ما ازداد  
أحد من الله قرابة إلا  
ازداد هيبه . وقال  
سهل أدنى مقام من  
مقامات القرب الحياء  
وقال النصراني  
باتباع السنة تال  
المعرفة وبأداء  
القرائن تال القرية  
وبالمواظبة على التواضل  
تال المحبة . ومنها  
الحياء والحياء على  
الوصف العام والوصف  
الحاس فأما الوصف  
العام فما أمر به رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
في قوله «استحيوا من  
الله حتى الحياء قالوا

ضما غير تام كانت منفردة له وإن بسطها وضم أصابعها كانت مجردة له ثم خلق الأظفار على رءوسها زينة للأنامل وعمادا لها من ورائها حتى لا تنقطع وليلتقط بها الأشياء الدقيقة التي لا تتناولها الأنامل وليحك بها بدنه عند الحاجة فالظفر الذي هو أخصى الأعضاء لو عدمه الإنسان وظهر به حكمة لكان أجهز الخلق وأضعفهم ولم يتم أحد مقامه في حك بدنه ثم هذى اليد إلى موضع الحك حتى تمتد إليه ولو في النوم والنفث من غير حاجة إلى طلب ولو استعان بغيره لم يثر على موضع الحك إلا بعد تعب طويل ثم خلق هذا كله من النطفة وهي في داخل الرحم في ظلمات ثلاث ولو كشف النطاء والفتاء وامتد البصر إليه لكان يرى التخطيط والتصوير يظهر عليها هيئا فثبتا ولا يرى الصور ولا آله فهل رأيت مصورا أو فاعلا لا يمس آله ومصنوعه ولا يلاقيه وهو يتصرف فيه فسبحانه ما أعظم شأنه وأظهر برهانه ، ثم انظر مع كل قدرته إلى تمام رحمته فانه لما ضاق الرحم عن الصبي لما كبر كيف هداه السبل حتى تنكس وتحرك وخرج من ذلك الضيق وطلب للنفذ كانه قافل صبر بما يحتاج إليه ثم لما خرج واحتاج إلى الغذاء كيف هداه إلى الثمام الذي ثم لما كان بدنه سخيفا لا يحتمل الأغذية الكثيفة كيف دبر له في خلق اللبن اللطيف واستخرجه من بين القرث والقمع ما نجا خالصا وكيف خلق الثديين وجمع فيهما اللبن وأثبت منهما حلمتين على قدر ما ينطبق عليهما فم الصبي ثم فتح في حلة الثدي تقبا ضيقا جدا حتى لا يخرج اللبن منه إلا باليد للص تدريجا فان الطفل لا يطيق منه إلا القليل ثم كيف هداه للامتصاص حتى يستخرج من ذلك الضيق اللبن الكثير عند شدة الجوع ثم انظر إلى عطفه ورحمته ورأفته كيف أخر خلق الأسنان إلى تمام الحولين لأنه في الحولين لا يتنذى إلا باللبن فيستغنى عن السن وإذا كبر لم يواقه اللبن السخيف ويحتاج إلى طعام غليظ ويحتاج الطعام إلى الضغ والطحن فأثبت له الأسنان عند الحاجة لاجلها ولا بعدها فسبحانه كيف أخرج تلك العظام الصلبة في تلك الثبات البينة ثم حثن قلوب الوالدتين عليه للقيام بتدبيره في الوقت الذي كان عاجزا عن تدبير نفسه فلم يسلط الله الرحمة على قلوبهما لكان الطفل أجهز الخلق عن تدبير نفسه ، ثم انظر كيف رزقه القدرة والتميز والقل والمداية تدريجا حتى بلغ وتكامل فصار مرافقا ثم شابا ثم كهلا ثم شيخا إما كنورا أو شكورا مطيعا أو عاصيا مؤمنا أو كافرا تصديقا لقوله تعالى - هل أتى على الإنسان حين من الدهر لم يكن شيئا مذكورا إما خلقنا الإنسان من نطفة أمشاج نبتليه فجعلناه سميما بصيرا إما هديناه السبيل إما شاكرا وإما كفورا - فانظر إلى اللطف والكرم ثم إلى القدرة والحكمة بهزك هجاب الحضرة الربانية والسبب كل العجب ممن يرى خطأ حسنا أو نقسا حسنا على حائط فيستحسنه فيصرف جميع همه إلى التفكير في النقائص والخطايات وأنه كيف نفسه وخطه وكيف اقتدر عليه ولا يزال يستعظمه في نفسه ويقول ما أحذقه وما أكل صنعه وأحسن قدرته ثم ينظر إلى هذه العجائب في نفسه وفي غيره ثم يفكر عن صانعه ومصوره فلا تدعشه عظمتة ولا يحيره جلالة وحكمته فهذه نبذة من هجاب بدئك التي لا يمكن استنساؤها فهو أقرب مجال تفكيرك وأجل شاهد على عظمة خالقك وأنت قافل عن ذلك مشغول يطنك وفرجك لا تعرف من نفسك إلا أن مجموع فتا كل وتشتت فتنام وتنتهي فتجتمع وتنضب فتتائل والبهائم كلها تشاركك في معرفة ذلك وإنما خاصة الإنسان التي حببت البهائم عنها معرفة الله تعالى بالنظر في ملكوت السموات والأرض وهجاب الآفاق والأنفس إذ بها يدخل البعد في زمرة اللاتسكة القربين ويحشر في زمرة النبيين والصدقين مقربا من حضرة رب العالمين وليست هذه المنزلة للبهائم ولا لإنسان رضى من الدنيا شهوات البهائم فانه شر من البهائم بكثير إذ لا قدرة

إننا نستحي يا رسول الله  
قال ليس ذلك ولكن  
من استحي من الله  
حق الحياء فليحفظ  
الراس وما وعى والبطن  
وما حوى وليذكر الموت  
والبلى ومن أراد الآخرة  
ترك زينة الدنيا فمن  
فعل ذلك فقد استحي  
من الله حق الحياء  
وهذا الحياء من  
القصاصات وأما الحياء  
الخاص فمن الأحوال  
وهو ما نقل عن عثمان  
رضي الله عنه أنه قال إنى  
لأقتل في البيت للظلم  
فأنطوى حياء من  
الله . أخبرنا أبو زرعة  
عن ابن خلف عن  
أبي عبد الرحمن قال  
سمعت أبا العباس  
البنسدامي يقول  
سمعت أحمد السقطي

البيحة على ذلك وأما هو قد خلق الله القسرة ثم عطلها وكفر نعمة الله فيها فأولئك كالأنعام بل هم أضل سبيلا . وإذا عرفت طريق التفكير في تمسك تفكير في الأرض التي هي مقررك ثم في أنهارها وبحارها وجبالها ومعادنها ثم ارفع منها إلى ملكوت السموات . أما الأرض : فمن آياته أن خلق الأرض فراغا ومهادا وسلك فيها سبلا فجاءا وجعلها ذلولا لتمشوا في مناكبها وجعلها قارة لاتتحرك وأرسى فيها الجبال أوتاندا لها تمنحها من أن تميد ثم وسع أكنافها حتى همز الآدميون عن بلوغ جميع جوانبها وإن طالت أعمارهم وكثر تطوافهم قال تعالى - والسماء بانيها بأيد وإنا لموسعون والأرض فرشناها فنعم للهادون - وقال تعالى هو الذي جعل لكم الأرض ذلولا فامشوا في مناكبها - وقال تعالى - الذي جعل لكم الأرض فراشا - وقد أذكر في كتابه العزيز من ذكر الأرض ليتفكر في عجائبها فظهرها مقر للأحياء وبطنها مرقد للأموات قال الله تعالى - ألم نجعل الأرض كفاتا أحياء وأمواتا - فانظر إلى الأرض وهي ميتة فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأخضرت وأنبثت عجائب النبات وخرجت منها أصناف الحيوانات ثم انظر كيف أحكم جوانب الأرض بالجبال الراسيات الشوامخ الصم الصلاب وكيف أودع للماء نعمة فاجبر العيون وأسأل الأنهار تجري على وجهها وأخرج من الحجارة اليابسة ومن التراب الكدر ماء رقيقا عذبا صافيا زلالا وجعل به كل شيء حتى فأخرج به فروع الأشجار والنبات من حب وعنب وقضب وزيتون ونخل ورمان وفواكه كثيرة لأغصن مختلفة الأشكال والألوان والطعوم والصفات والأرايح بفضل بعضها على بعض في الأكل تسقى بماء واحد وتخرج من أرض واحدة . فان قلت إن اختلافها باختلاف بذورها وأصولها فمتى كان في النواة نطفة مطوقة بتقيد الرطب ومتى كان في حبة واحدة سبع سنابل في كل سنبلة مائة حبة ثم انظر إلى أرض البوادي وتنتس ظاهرها وباطنها اقترها ترايامة شامها فإذا أنزل عليها الماء اهتزت وربت وأنبثت من كل زوج بهيج ألوانا مختلفة ونباتا متشابهة وغير متشابهة لكل واحد طعم وريح ولون وهكل يخالف الآخر فانظر إلى كثرتها واختلاف أصنافها وكثرة أشكالها ثم اختلاف طبائع النبات وكثرة منافعه وكيف أودع الله تعالى العقاقير النافع الفرية فهذا النبات يهدى وهذا قوي وهذا يهي وهذا يقتل وهذا يبرد وهذا يسخن وهذا إذا حصل في المعدة فتح الصفراء من أحماق المروق وهذا يستحيل إلى الصفراء وهذا يجمع البلغم والسوداء وهذا يستحيل إليهما وهذا يصفي الدم وهذا يستحيل دما وهذا يفرح وهذا ينوم وهذا يخوى وهذا يضعف فلم تثبت من الأرض ورقة ولا تينة إلا وفيها منافع لا يخوى البشر على الوقوف على كنهها وكل واحد من هذا النبات يحتاج الفلاح في تربته إلى عمل مخصوص فالتنخل وتؤبر والسكرم يكسح والزرع ينقى عنه الحشيش والدغل وبعض ذلك يستنبت بيت البلد في الأرض وبضه بفرس الأغصان وبضه يركب في الشجر ولوأردنا أن نذكر اختلاف أجناس النبات وأنواعه ومنافعه وأحواله وعجائبه لا تقضت الأيام في وصف ذلك فيمكنك من كل جنس نبذة يسيرة تدلك على طريق التفكير فهذه عجائب النبات [ومن آياته الجواهر المودعة تحت الجبال والمعادن الحاصلة من الأرض] ففي الأرض قطع متجاورات مختلفة فانظر إلى الجبال كيف يخرج منها الجواهر النفيسة من الذهب والفضة والفيروز واللؤلؤ وغيرها بعضها منطبعة تحت الطارقي كالذهب والفضة والنحاس والرصاص والحديد وبعضها لا ينطبع كالفيروز واللؤلؤ وكيف هدى الله الناس إلى استخراجها وتنقيتها واتخاذ الأواني والآلات والنقود والحلى منها ثم انظر إلى معادن الأرض من النفط والكبريت والقار وغيرها وأقلها الملح ولا يحتاج إليه إلا للتطبيب الطعام ولو خلقت عنه بنية لتسارع الهلاك إليها فانظر إلى رحمة الله تعالى كيف خلق بعض الأراضي سبعة بجوهرها بحيث يجتمع فيها الماء الصافي من الطر فيستحيل ملحا مالحا محرقا لا يمكن تناول مثقال منه

ابن صالح يقول سمعت  
محمد بن عبدون يقول  
سمعت أبا العباس  
المؤدب يقول قال لي  
سري : احفظ على  
ما أقول لك إن الحياة  
والأنس يطوفان  
بالقلب فإذا وجد فيه  
الزهد والورع حطا  
وإلارحلا والحياة  
إطراق الروح إجلالا  
لعظيم الجلال والأنس  
التذاذ الروح بكمال  
الجمال فإذا اجتمعا  
فهو الغاية في المنى والنهاية  
في العطاء وأنشد  
شيخ الاسلام :  
أشواقه فإذا بدا  
أطرق من إجلاله  
لاخنة بل هية  
وصيانة لجماله  
الموت في إداره  
والعيش في إقباله

ليكون ذلك تطييبا لطعامك إذا أكلته فبينما تعيش وما من جماد ولا حيوان ولا نبات إلا وفيه حكمة وحكم من هذا الجنس ما خلق شيئا منها عينا ولا لبا ولا هزلا بل خلق الكل بالحق كائنه على الوجه الذي ينبغي وكما يليق بجلاله وكرمه ولطفه ولذلك قال تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا بعين ما خلقناهما إلا بالحق . ومن آياته أصناف الحيوانات : وأنساءها إلى ما يطير وإلى ما يعيش وأنقسام ما يعيش إلى ما يعيش على رجلين وإلى ما يعيش على أربع وعلى عشر وعلى مائة كما شاهد في بعض الحشرات ثم اتقسامها في النافع والصور والأشكال والأخلاق والطباع فانظر إلى طيور الجوارح وإلى وحوش البر والبهائم الأهلية ترى فيها من العجائب ما لا تشك معه في عظمة خالقها وقدره مقدرها وحكمة مصورها وكيف يمكن أن يستقصى ذلك بل لو أردنا أن نذكر عجائب البقعة أو النحلة أو النحلة أو الضفادع وهي من صغار الحيوانات في بنائها بينها وفي جمعها غذاءها وفي إلقائها لزوجها وفي ادخارها لنفسها وفي حذقها في هندسة بينها وفي هدايتها إلى حاجاتها لم نهدر على ذلك قري الضفادع بين يديه على طرف نهر فيطلب أولا موضعين متقاربين بينهما فرجة بمقدار ذراع لما دونه حتى يمكنه أن يصل بالحيط بين طرفيه ثم يتدلى ويلقى اللعاب الذي هو خيطه على جانب ليتصق به ثم يقبل إلى الجانب الآخر فيحك الطرف الآخر من الحيط ثم كذلك يردد ثانيا وثالثا ويجعل بعد ما بينهما متساويا تناسبا هندسيا حتى إذا أحكم معاقده القمط ورب الحيوط كالسدى اشتغل باللحمة فيضع اللحمة على السدى ويضيف بضعه إلى بعض ويحكم العقد على موضع التقاء اللحمة بالسدى ويراعى في جميع ذلك تناسب الهندسة ويجعل ذلك شبكة يقع فيها البق والذبابة ويقعد في زاوية مترصدا لوقوع الصيد في الشبكة فإذا وقع الصيد يبادر إلى أخذه وأكله فان عجز عن الصيد كذلك طلب لنفسه زاوية من حائط أو وصل بين طرفي الزاوية بخيط ثم علق نفسه فيها بخيط آخر وبقى منكس في الهواء ينتظر ذباية تطير فإذا طارت رمى نفسه إليه فأخذه ولف خيطه على رجله وأحكاه ثم أكله وما من حيوان صغير ولا كبير إلا وفيه من العجائب ما لا يحصى أفترى أنه تعلم هذه الضفعة من نفسه أو تكون بنفسه أو كونه آدمى أو علمه أو لا هادي له ولا معلم أفيتشك ذو بصيرة في أنه ممكن ضعيف عاجز بل القليل العظيم شخصه الظاهرة قوته عاجز عن أمر نفسه فكيف هذا الحيوان الضعيف أفلا يشهد هو بشكائه وصورته وحركته وهدايته وعجائب صنعه لقاطره الحكيم وخالقه القادر العالم فالصير يرى في هذا الحيوان الصغير من عظمة الخالق للبر وجلاله وكما لا قدرته وحكمته ما تعجب فيه الأبواب والعقول فضلا عن سائر الحيوانات وهذا الباب أيضا لا حصر له فان الحيوانات وأشكالها وأخلاقها وطباعها غير محصورة وإنما سقط تعجب القلوب منها لأنهم ابتكروا الشاهدة ، نعم إذا رأى حيوانا غريبا ولدودا تجد تعجبه وقال سبحانه الله ما أعجب أعجب الحيوانات وليس يتعجب من نفسه بل لو نظر إلى الأنعام التي أنعم الله عليها ونظر إلى أشكالها وصورها ثم إلى منافعها وفوائدها من جلودها وأصوافها وأوبارها وأشعارها التي جعلها الله لباسا لخلقها وأكادنا لهم في ظلمهم وإقامتهم وآتية لأشربهم وأوعية لأغذيتهم وصوانا لأقدامهم وجعل ألبانها ولحومها أغذية لهم ثم جعل بعضها زينة للركوب وبعضها حاملة للأثقال قاطعة للوادي والقفارات البعيدة لأكثر الناظر التعجب من حكمة خالقها ومصورها فانه ما خلقها إلا بطل محيط بجميع منافعها سابق على خاقه بإياه سبحانه من الأمور مكشوفة في علمه من غير تفكير ومن غير تأمل وتدبر ومن غير استمالة بوزير أو مشير فهو العليم الخبير الحكيم القدير فلقد استخرج بأقل القليل مما خلقه صدق الشهادة من قلوب المارفين بتوحيده فما للخلق إلا الأذعان لقهره وقدرته والاعتراف بربوبيته والافتقار بالعجز عن معرفة جلاله وعظمته فمن ذا الذي يحصى ثناء عليه بل هو كما أثنى على نفسه وإنما غاية معرفتنا الاعتراف بالعجز عن

وأصد عنه إذا بدا  
وأروم طيف خياله  
قال بعض - الحكاء  
من تسكلم في الحياء  
ولا يستحي من الله فيها  
يتكلم به فهو مستدرج .  
وقال ذو النون : الحياء  
وجود الهيبة في القلب  
مع حشمة ما سبق منك  
إلى ربك . وقال ابن  
عطية . العلم الأكبر  
الهيبة والحياء فإذا  
فهب عنه الهيبة  
والحياء فلا خير فيه .  
وقال أبو سليمان : إن  
العباد عملوا على أربع  
درجات على الخوف  
والرجاء والتعظيم  
والحياء وأشرفهم منزلة  
من عمل على الحياء  
لما أيقن أن الله تعالى  
يراه على كل حال

معرفة فسأل الله تعالى أن يكرما بهديته عنه ورافته . ومن آياته البحار العميقة المكتشفة لأقطار الأرض التي هي قطع من البحر الأعظم المحيط بجميع الأرض حتى إن جميع المكشوف من البوادي والجبال من الماء بالاضافة إلى الماء بجزيرة صغيرة في بحر عظيم وبقية الأرض مستورة بالماء . قال النبي صلى الله عليه وسلم « الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض <sup>(١)</sup> » فالنسب اصطبل إلى جميع الأرض . واعلم أن الأرض بالاضافة إلى البحر مثله وقد شاهدت عجائب الأرض وما فيها تأمل الآن عجائب البحار فأن عجائب ما فيه من الحيوان والجواهر أضاعف عجائب ما تشاهده على وجه الأرض كما أن سعة أضاعف سعة الأرض ولعظم البحر كان فيه من الحيوانات العظام ما ترى ظهورها في البحر فتظن أنها جزيرة فينزل الركاب عليها فربما تحس بالنيران إذا اشتعلت فتتحرك ويعلم أنها حيوان وما من صنف من أصناف حيوان البر من فرس أو طير أو بقر أو إنسان إلا وفي البحار مثاله وأضاعفه وفيه أجناس لا يسهلها نظير في البر وقد ذكرت أو صافها في مجلدات وجمعها أقوام عنوا بركوب البحر وجمع عجائبه ثم انظر كيف خلق الله اللؤلؤ ودوره في صدفه تحت الماء وانظر كيف أنبت المرجان من صم الصخور تحت الماء وإنما هو نبات على هيئة شجر ينبث من الحجر ثم تأمل ما عداه من العنبر وأصناف النفائس التي يقدفها البحر وتستخرج منه ثم انظر إلى عجائب السفن كيف أمسكها الله تعالى على وجه الماء وسير فيها التجار وطلاب الأموال وغيرهم وسخر لهم الفلك لتحمل أثقالهم ثم أرسل الرياح لتسوق السفن ثم عرف للأحبار موارد الرياح ومهاجها ومواقيتها ولا يستقصى على الجملة عجائب صنع الله في البحر في مجلدات وأعجب من ذلك كله ما هو أظهر من كل ظاهر وهو كيفية قطرة الماء وهو جسم رقيق لطيف سيال مشف متصل الأجزاء كأنه شيء واحد لطيف التركيب سريع القبول للتطبيع كأنه منفصل مسخر للتصرف قابل للانفصال والاتصال به حياة كل ما على وجه الأرض من حيوان ونبات فلو احتاج العبد إلى شربة ماء ومنع منها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في تحصيلها لو هلك ذلك ثم لو شربها ومنع من إخراجها لبذل جميع خزائن الأرض وملك الدنيا في إخراجها فالعجب من آدمي كيف يستعظم الدينار والدرهم ونفائس الجواهر ويفعل عن نعمة الله في شربة ماء إذا احتاج إلى شربها أو الاستفراغ عنها بذل جميع الدنيا فيها فتأمل في عجائب المياه والأنهار والآبار والبحار فيها تمتع للفكر ومجال وكل ذلك شواهد متظاهرة وآيات متناصرة ناطقة بلسان حالها مفصحة عن جلال بارئها معربة عن كمال حكمته فيها منادية أرباب القلوب بنفائسها قائلة لكل ذي لب ما ترائى وترى صورتي وتركبي وصفاتي ونفاتي واختلاف حالاتي وكثرة فوائدي أنظن أنني كوت نفسي أو خلقتي أحد من جنس أوما تستحي أن تنظر في كلمة مر قومة من ثلاثة أحرف فتقطع بأنها من صنعة آدمي عالم قادر مريد متكلم ثم تنظر إلى عجائب الخطوط الإلهية للرقومة على صفحات وجهي بالقلم الإلهي الذي لا تدرك الأبصار ذاته ولا حركته ولا اتصاله بمحل الخط ثم ينفك قلبك عن جلالة صانعه وتقول النطقة لأرباب السمع والقلب لا للذين هم عن السمع معزولون توهموني في ظلمة الأحشاء مغموسة في دم الخيض في الوقت الذي يظهر التخطيط والتصوير على وجهي فينقش النقاش حدقي وأجفاني وجهي وخدي وشفتي فري القويس يظهر شيئا فشيئا على التدرج ولا ترى داخل النطقة نقاشا ولا خارجها ولا داخل الرحم ولا خارجة ولا خبر منها للآم ولا للآب ولا للنطقة ولا للرحم أم هذا النقاش بأعجب مما تشاهده بنقش بالقلم صورة عجيبة لو نظرت إليها مرة أو مرتين لتعلمته فهل تقدر على أن تعلم هذا الجنس من النقش والتصوير الذي هم ظاهر النطقة وباطنها وجميع أجزائها من غير ملامسة للنطقة ومن غير

(١) حديث الأرض في البحر كالإصطبل في الأرض تقدم ولم أجده .

استحيا من حسنه  
أكثر مما استحيا  
العاصون من سيئاتهم .  
وقال بعضهم : الغالب  
على قلوب المستعدين  
الاجلال والتعظيم دائما  
عند نظر الله إليهم .  
ومنها الاتصال . قال  
النوري : الاتصال  
مكشفات القلوب  
ومشاهدات الأسرار .  
وقال بعضهم الاتصال  
وصول السر إلى مقام  
الدهول وقال بعضهم  
الاتصال أن لا يشهد  
العبد غير خالق  
ولا يتصل بغير مخلص  
لغير صانعه . وقال .  
سهل بن عبد الله  
حركوا بالبلاء فتحركوا  
ولو سكنوا اتصلوا .  
وقال يحيى بن معاذ

اتصال بها لا من داخل ولا من خارج فان كنت لاتعجب من هذه السجائب ولا تفهم بها أن الذي صور  
وتش وقد لا نظير له ولا يساويه نقاش ولا مصور كما أن نقشه وصنعه لا يساويه نقش وصنع فبين  
القاعلين من البايئة والتباعد ما بين الفاعلين فان كنت لاتعجب من هذا فتعجب من عدم تعجبك فانه  
أعجب من كل عجب فان الذي أعشى بصيرتك مع هذا الوضوح ومنك من التبيين مع هذا البيان  
جدير بأن تعجب منه فسيحان من هدى وأضل وأغوى وأرشد وأشقى وأسعد وفتح بصائر أحيابه  
فشاهدوه في جميع ذرات العالم وأجزائه وأعشى قلوب أعدائه واحتجب عنهم بزمه وعلائقه الخلق  
والأمر والامتنان والفضل والطف والقهر لاراد حكمه ولا معقب لقضائه [ومن آياته الهواء اللطيف  
المحبوس بين مقعر السماء ومحدب الأرض] لا يدرك بحس اللبس عند هبوب الرياح جسمه ولا يرى  
بالمين شخصه وجمته مثل البحر الواحد والطيور مخلقة في جو السماء ومستبقة سباحة فيه بأجنحتها  
كما تسبح حيوانات البحر في الماء وتضطرب جوانبه وأمواجه عند هبوب الرياح كأن تضطرب أمواج  
البحر فإذا حرك الله الهواء وجمه ريحا هابتة فان شاء جمه لشرابين يدي رحمة كما قال سبحانه - وأرسلنا  
الرياح لواقع - فيصل بحركته روح الهواء إلى الحيوانات والنباتات فتستعمل الماء وإن شاء جمه عذابا  
على العصاة من خلقته كما قال تعالى - إنا أرسلنا عليهم ريحا صرصرا في يوم نحس مستمر ترتفع الناس  
كانهم أعجاز نخل منقعر - ثم انظر إلى لطف الهواء ثم شدته وقوته معها ضغط في الماء فالتقى النفوخ  
يتحمل عليه الرجل القوى ليغمسه في الماء فيجزي عنه والحديد الصلب تضعه على وجه الماء فيرسب فيه  
فانظر كيف يقبض الهواء من الماء بقوة مع لطافته وهذه الحكمة أمسك الله تعالى السفن على وجه  
الماء وكذلك كل مجوف فيه هواء لا يفوس في الماء لأن الهواء يقبض عن القوس في الماء فلا يفصل  
عن السطح الداخلة من السفينة فتبقى السفينة الثقيلة مع قوتها وصلابتها معلقة في الهواء اللطيف  
كالذي يقع في بئر فيتملق بذيل رجل قوى تمتنع عن الهوى في البئر فالسفينة بمقعرها تثبت بأذيال  
الهواء القوى حتى تمتنع من الهوى والقوس في الماء فسيحان من خلق الربك الثقيل في الهواء اللطيف  
من غير علاقة تشاهد وعقدة تشد ثم انظر إلى عجائب الجو وما يظهر فيه من العيوم والرياح والبرق  
والأمطار والثلوج والشهب والصواعق فهي عجائب ما بين السماء والأرض وقد أشار القرآن إلى جملة  
ذلك في قوله تعالى - وما خلقنا السموات والأرض وما بينهما إلا عين - وهذا هو الذي بينهما وأشار إلى  
تفصيله في مواضع شتى حيث قال تعالى - والسحاب السخريين الماء والأرض - وحيث تعرض للبرق  
والبرق والسحاب والطر فاذا لم يكن لك حظ من هذه الجملة إلا أن ترى المطر بينك وتسمع الرعد بأذنك  
فالهيئة تشاركك في هذه العرفة فارفع من حضيض عالم البهائم إلى عالم اللا الأعلى فقد فتحت عينك  
فأدركت ظاهرها فتمض عينك الظاهرة وانظر بصيرتك الباطنة ترى عجائب باطنها وغرائب  
أسرارها وهذا أيضا باب بطول الفكر فيه إذ لا مطمع في استقصائه تأمل السحاب الكثيف المظلم كيف  
تراه يجتمع في جو صاف لا كدورة فيه وكيف يخلق الله تعالى إذا شاء متى شاء وهو مع رخاوته حامل  
لثقل القبل ومحمك له في جو السماء إلا أن يأذن الله في إرسال الماء وتطبيع القطرات كل قطرة بالقدر  
الذي أراده الله تعالى وعلى الشكل الذي شاء فترى السحاب يرش الماء على الأرض ويرسله قطرات  
متناصلة لا تدرك قطرة منها قطرة ولا تتصل واحدة بأخرى بل تنزل كل واحدة في الطريق الذي رسم  
لها لاتعدل عنه فلا يتقدم للتأخر ولا يتأخر للتقدم حتى يسحب الأرض قطرة قطرة فلو اجتمع الأولون  
والآخرون على أن يخلقوا منها قطرة أو يعرفوا عددها ما ينزل منها في بلدة واحدة أو قرية واحدة  
لمجز حسابها لجن والانس عن ذلك فلا يعلم عددها إلا الذي أو جدها ثم كل قطرة منها عينت

الرازي : العمال أربعة  
ثابت وزاهد ومشتاق  
وواصل فالثابت  
محبوب بتوبته  
والزاهد محبوب بزهده  
والمشتاق محبوب  
بماله والواصل لا يحبه  
عن الحق شيء . وقال  
أبو سعيد القرشي :  
الواصل الذي يصله الله  
فلا يحشى عليه القطع  
أبدا والمتصل الذي  
يجهده يصل وكما دنا  
القطع وكان هذا  
الذي ذكره حال  
المريد والمراد لكون  
أحدهما مبادأ  
بالكشف وكون  
الآخر مردودا إلى  
الاجتهاد . وقال  
أبو يزيد : الواصلون  
في ثلاثة أحرف مهم



لكل جزء من الأرض ولكل حيوان فيها من طير ووحش وجميع الحشرات والدواب مكتوب على تلك القطرة بخط إلهي لا يدرك بالبصر الظاهر أنها رزق الدودة الفلانية التي في ناحية الجبل الفلاني تصل إليها عند عطشها في الوقت الفلاني هذا مع ما في انعقاد البرد الصلب من الماء اللطيف وفي تناثر الثلوج كالظن للندوف من العجائب التي لا تحصى كل ذلك فضل من الجبار القادر وقهر من الخلاق القاهر ما لأحد من الخلق فيه شرك ولا مدخل بل ليس له مؤنن من خلقه إلا الاستكانة والخضوع تحت جلاله وعظمته ولا لعميان الجاهدين إلا الجهل بكيفيته ورجم الظنون بذكر سببه وعلته فيقول الجاهل للفرور إنما ينزل الماء لأنه ثقیل بطبعه وإنما هذا سبب نزوله ويظن أن هذه معرفة انكشفت له ويفرح بها ولو قيل له مامنى الطبع وما الذى خلقه ومن الذى خلق الماء الذى طبعه الثقل وما الذى رقى الماء للصوب في أسافل الشجر إلى أعالي الأغصان وهو ثقیل بطبعه فكيف هوى إلى أسفل ثم ارتفع إلى فوق في داخل تجاويف الأشجار شيئاً فشيئاً بحيث لا يرى ولا يشاهد حتى ينتشر في جميع أطراف الأوراق فيندى كل جزء من كل ورقة ويجرى إليها في تجاويف عروق شعيرية صفار يروى منه العرق الذى هو أصل الورقة ثم ينتشر من ذلك العرق الكبير للممدود في طول الورقة عروق صفار فكان الكبير نهروما انشعب عنه جداول ثم ينشعب من الجداول سوق أصغر منها ثم ينتشر منها خيوط عنكبوتية دقيقة تخرج عن إدراك البصر حتى تنبسط في جميع عرض الورقة فيصل للماء في أجوافها إلى سائر أجزاء الورقة ليغذيها وينميها ويزينها وتبقى طراوتها ونضارتها وكذلك إلى سائر أجزاء الفواكه فإن كان الماء يتحرك بطبعه إلى أسفل فكيف تحرك إلى فوق فإن كان ذلك يجذب جاذب فما الذى سخر ذلك الجاذب وإن كان ينتهى بالآخرة إلى خالق السموات والأرض وجبار الملك والملكوت فلم لا يحال عليه من أول الأمر فنهاية الجاهل بداية العاقل [ومن آياته ملكوت السموات والأرض وما فيها من الكواكب] وهو الأمر كله ومن أدرك الكل وفاته عجائب السموات قد فاته الكل تحقيقاً فالأرض والنبع والهواء وكل جسم سوى السموات بالإضافة إلى السموات قطرة في بحر وأصغر ثم انظر كيف عظم الله أمر السموات والنجوم في كتابه فأمين سورة إلا وتشتمل على تفصيلها في مواضع وكمن قسم في القرآن بها كقوله تعالى - والسماء ذات البروج، والسماء الطارق، والسماء ذات الحيك، والسماء وما بناها - وكقوله تعالى - والشمس وضحاها والقمر إذا تلالها - وكقوله تعالى - فلا أقسم بالخنس الجوار الكنس - وقوله تعالى - والنجم إذا هوى ، فلا أقسم بمواقع النجوم وإنه لقسم لو تعلمون عظيم - فقد علمت أن عجائب النطفة القنطرة عجز عن معرفتها الأولون والآخرون وما أقسم الله بها فما ظنك بما أقسم الله تعالى به وأحاله الأرزاق عليه وأضافها إليه فقال تعالى - وفي السماء رزقكم وما توعدون - وأثنى على التفكيرين فيه فقال - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لا يدل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته» (١) أي تجاوزها من غير تفكير فم الغرضين عنها فقال - وجلنا السماء سقفا محفوظا وهم عن آياتها معرضون - فأى نسبة لجميع البعابر والأرض إلى السماء وهي منضيات على القرب والسموات صلاب شداد محفوظات عن التضر إلى أن يبالغ الكتاب أجله ولذلك ساء الله تعالى محفوظا فقال - وجلنا السماء سقفا محفوظا - وقال سبحانه - وبينا فوقكم سماءً جدادا - وقال - أنتم أشد خلقا أم السماء بناها رفع سمكها فسواها - فأنظر إلى الملكوت ترى عجائب العز والجبروت ولا تظن أن معنى النظر إلى الملكوت بأن تعد البصر إليه فترى زرقة السماء وضوء الكواكب وتفرقها فإن البهائم

(١) حديث يدل لمن قرأ هذه الآية ثم مسح بها سبته أي قوله تعالى - ويتفكرون في خلق السموات والأرض - تقدم .

له وشغلهم في الله ورجوعهم إلى الله . وقال السيارى الوصول مقام جليل وذلك أن الله تعالى إذا أحب عبداً أن يوصله اختصر عليه الطريق وقرب إليه البعد . وقال الجيد الواصل هو الحاصل عند ربه وقال رويم أهل الوصول أوصل الله إليهم قلوبهم فهم محفوظو القوى ممنوعون من الخلق أبداً . وقال ذوالنون ما رجع من رجوع إلا من الطريق وما وصل إليه أحد قرجع عنه . واعلم أن الاتصال وللواصلة أشار إليه الشيخ وكل من

تشارك في هذا النظر فإن كان هذا هو المراد فلم مدح الله تعالى إبراهيم بحوله - وكذلك ترى إبراهيم ملكوت السموات والأرض - لا بل كل ما يدرك بحاسة البصر فالقرآن يعبر عنه بالملك والشهادة وما قاب عن الأبصار فيعبر عنه بالقيب والملكوت والله تعالى عالم القيب والشهادة وجبار الملك والملكوت ولا يعيط أحد بشيء من علمه إلا بما شاء وهو عالم القيب فلا يظهر على غيبه أحدا إلا من ارتضى من رسول فأجل أيها العاقل فكرك في الملكوت فمضى فتح لك أبواب السماء فتجول بقلبك في أقطارها إلى أن يقوم قلبك بين يدي عرش الرحمن فتند ذلك بمجاير جئ لك أن تبلغ رتبة عمر بن الخطاب رضي الله عنه حيث قال : رأي قلبي ربي . وهذا لأن بلوغ الأقصى لا يكون إلا بعد مجاوزة الأدنى وأدنى شيء إليك نفسك ثم الأرض التي هي مقرك ثم الهواء الكتنف لك ثم النبات والحايوان وما على وجه الأرض ثم عجائب الجو وهو ما بين السماء والأرض ثم السموات السبع بكواكبها ثم الكرسي ثم العرش ثم اللانسة الذين هم حملة العرش وخزان السموات ثم منه تجاوز إلى النظر إلى رب العرش والكرسي والسموات والأرض وما بينهما فينبك وبين هذه الفاوز العظيمة والسافات الشاسعة والعقبات الشاهقة وأنت بعد لم تفرغ من العقبة القرية النازلة وهي معرفة ظاهر نفسك ثم صرت تطلق اللسان بوقاحتك وتدعى معرفتك برك وتقول قد عرفته وعرفت خلقه فقبها ذا أنشكر وإلى ماذا أنطلق فارفع الآن رأسك إلى السماء وانظر فيها وفي كواكبها وفي دوراتها وطلوعها وغروبها وفحسها وقررها واختلاف مشارقها ومغاربها ودورها في الحركة على الدوام من غير فتور في حركتها ومن غير تغير في سيرها بل تجري جميعا في منازل مرتبة بحساب مقدر لا يزيد ولا ينقص إلى أن يطوبها الله تعالى طي السجل للكتاب وتبدع عدد كواكبها وكثرتها واختلاف ألوانها فبعضها يميل إلى الحمرة وبعضها إلى البياض وبعضها إلى اللون الرصاصي ثم انظر كيفية أشكالها فبعضها على صورة المقر وبعضها على صورة الحل والثور والأسد والإنسان وما من صورة في الأرض إلا ولها مثال في السماء ثم انظر إلى مسير الشمس في فلكها في مدة سنة ثم هي تطلع في كل يوم وتغرب بسير آخر سخرها له خالقها ولولا طلوعها وغروبها لما اختلف الليل والنهار ولم تعرف الواقيت ولأطبق الظلام على الدوام أو الضياء على الدوام فكان لا يتميز وقت المعاش عن وقت الاستراحة فانظر كيف جعل الله تعالى الليل ليأسا والنوم سباتا والنهار معاشا وانظر إلى إيلاجه الليل في النهار والنهار في الليل وإدخاله الزيادة والنقصان عليهما على ترتيب مخصوص وانظر إلى إماتة مسير الشمس عن وسط السماء حتى اختلف بسببه الصيف والشتاء والربيع والخريف فإذا انخفضت الشمس من وسط السماء في مسيرها برد الهواء وظهر الشتاء وإذا استوت في وسط السماء اشتد القيظ وإذا كانت فيما بينهما اعتدل الزمان وهجائب السموات لا مطمع في إحصاء عشر عشر جزء من أجزائها وإنما هذا تنبيه على طريق الفكر واعتقد على طريق الجملة أنه ما من كوكب من الكواكب إلا وقته تعالى حكم كثيرة في خلقه ثم في مقداره ثم في شكله ثم في لونه ثم في وضعه من السماء وقربه من وسط السماء وبعده وقربه من الكواكب التي يحته وبعده وقس على ذلك ما ذكرناه من أعضاء بدنك إذ ما من جزء إلا وفيه حكمة بل حكم كثيرة وأمر السماء أعظم بل لانسبة لعالم الأرض إلى عالم السماء لافي كبر جسم ولا في كثرة معانيه وقس التفاوت الذي بينهما في كثرة المعاني بما بينهما من التفاوت في كبر الأرض فأنت تعرف من كبر الأرض واتساع أطرافها أنه لا يقدر آدمي على أن يدركها ويدور بحواشيها وقد اتفق الناظرون على أن الشمس مثل الأرض مائة وثلاثين مرة وفي الأخبار ما يدل على عظمها (١) ثم الكواكب

وصل إلى صفو اليقين بطريق الذوق والوجدان فهو من رتبة الوصول ثم يتفاوتون فمنهم من يجد الله بطريق الأفصال وهو رتبة في التجلي فيفنى قلبه وفعل غيره لوقوفه مع فعل الله ويخرج في هذه الحالة من التدبير والاختيار وهذه رتبة في الوصول ومنهم من يوقف في مقام الهيبة والأنس بما يكشف قلبه به من مطالعة الجمال والجلال وهذا تجلي طريق الصفات وهو رتبة في الوصول ومنهم من ترقى لتمام الفناء مشتملا على باطنه أنوار اليقين وللشاهدة مفعيا في

(١) الحديث الدال على عظم الشمس أحمد من حديث عبد الله بن عمر رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم الشمس حين غربت فقال في نار الله الحامية لولا ما ترعها من أمر الله لأهلك

التي تراها أصفرها مثل الأرض ثمانى مرات وأكبرها يتسنى إلى قريب من مائة وعشرين مرة مثل الأرض وهذا تعرف ارتفاعها وبمدها إذ لبعد صارت ترى صفارا ولذلك أشار الله تعالى إلى بدها فقال - رفع صمكتها فساوها - وفي الأخبار أن ما بين كل سماء إلى الأخرى مسيرة خمسمائة عام<sup>(١)</sup> فإذا كان مقدار كوكب واحد مثل الأرض أضغافا فانظر إلى كثرة الكواكب ثم انظر إلى السماء التي الكواكب مركوزة فيها وإلى عظمها ثم انظر إلى سرعة حركتها وأنت لاتعص بحركتها فضلا عن أن تدرك سرعتها لكن لاتشك أنها في لحظة تسير مقدار عرض كوكب لأن الزمان من طلوع أول جزء من كوكب إلى تمامه يسير وذلك الكوكب هو مثل الأرض مائة مرة وزيادة مقدار الفلك في هذه اللحظة مثل الأرض مائة مرة وهكذا يدور على الدوام وأنت فاقل عنه وانظر كيف عبر جبريل عليه السلام عن سرعة حركته إذ قال له النبي صلى الله عليه وسلم «هل زالت الشمس قال لا نعم فقال كيف تقول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم صارت الشمس خمسمائة عام<sup>(٢)</sup> فانظر إلى عظم شخصها ثم إلى خفة حركتها ثم انظر إلى قدرة الفاطر الحكيم كيف أثبت صورته مع اتساع أكتافها في حدة العين مع صفرها حتى تجلس على الأرض وتفتح عينيك نحوها فترى جميعها بهذه السماء بعظمها وكثرة كواكبها لاتنظر إليها بل انظر إلى بارئها كيف خلقها ثم أمسكها من غير عمد ترونها ومن غير علاقة من فوقها وكل عالم كبيت واحد والسماء سقفة فالعجب منك أنك تدخل بيت غنى فتراه مزوقا بالصبح نحوها بالذهب فلا ينقطع تهجيك منه ولا تزال تذكره وتصف حسنه طول عمره وأنت أبدا تنظر إلى هذا البيت العظيم وإلى أرضه وإلى سقفه وإلى هوائه وإلى عجائب أمتعته وغرائب حيواناته وبدائع نقوشه ثم لاتحدث فيه ولا تلتفت بقلبك إليه لما هذا البيت دون ذلك البيت الذي تصفه بل ذلك البيت هو أيضا جزء من الأرض التي هي أخس أجزاء هذا البيت ومع هذا فلا تنظر إليه ليس له سبب إلا أنه بيت ربك هو الذي انفرد بينائه وترتيبه وأنت قد نسيت نفسك وربك وبيت ربك واشتغلت بطنك وفرجك ليس لك ثم إلا شهوتك أو حشمتك وغاية شهوتك أن علا بطنك ولا تقدر على أن تأكل عشر مائتا كلة هيمه فتكون الهيمه فوقك بشعر درجات وغاية حشمتك أن تقبل عليك عشرة أو مائة من معارفك فيناقون بالسهم بين يديك ويضمرون خبايا الاعتقادات عليك وإن صدقوك في مودتهم إياك فلا يملكون لك ولا لأتقسم نعمنا ولا ضررا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا وقد يكون في بلدك من أغنياء اليهود والنصارى من يزيد جاهه على جاهك وقد اشتغلت بهذا القرور وغفلت عن النظر في جمال ملكوت السموات والأرض ثم غفلت عن التمتع بالنظر إلى جلال مالك الملك وما مثلك ومثل عقلك إلا كمثل النملة تخرج من جحرها الذي خفرتة في قصر مشيد من تصور الملك رفيع البنيان حصين الأركان مزين بالجواوير والفلسان وأنواع الدخائر

ما على الأرض وللطيراني في الكبير من حديث أبي أمامة وكل بالشمس تسعة أملاك يرمونها بالثلج كل يوم لولا ذلك ما أنت على شيء إلا أحرقتة<sup>(١)</sup> حديث بين كل سماء إلى سماء خمسمائة عام الترمذي من رواية الحسن عن أبي هريرة وقال غريب قال ويروى عن أيوب ويونس بن عبيد وعلى ابن زيد قالوا ولم يسمع الحسن من أبي هريرة ورواه أبو الشيخ في العظمة من رواية أبي نصره عن أبي ذر ورجاله ثقات إلا أنه لا يعرف لأبي نصره سماع من أبي ذر<sup>(٢)</sup> حديث أنه قال لجبريل هل زالت الشمس فقال لانهم فقال كيف تحول لانهم فقال من حين قلت لا إلى أن قلت نعم صارت الشمس مسيرة خمسمائة عام لم أجد له أصلا .

شهوده عن وجوده وهذا ضرب من تجلى القدرات لخواص القرين وهذا المقام رتبة في الوصول وفوق هذا حق اليقين ويكون من ذلك في الدنيا لخواص لمع وهو سريان نور الشاهدة في كلية العبد حتى يحظى به روحه وقلبه ونفسه حتى قلبه وهذا من رطل الوصول فإذا تحققت الحقائق يعلم العبد مع هذه الأحوال الشريفة أنه بعد في أول المنزل فأين الوصول هيات منازل طريق الوصول لا تقطع أبد الآباد في عمر الآخرة الأبدى فكيف في العمر القصير الدنيوى ومنها

والتماس فإياها إذا خرجت من جحرها ولقيت صاحبها لم تتحدث لو قدرت على النطق إلا عن بينها  
وعذاتها وكيفية ادخارها فأما حال القصر والملك الذي في القصر فهي بمنزلة عن وعن التفكير فيه  
بل لا قدرة لها على المجاوزة بالنظر عن نفسها وغذائها وبينها إلى غيره وكما غفلت التملة عن القصر  
وعن أرضه وسقفه وحيطانه وسائر بنيانه وغفلت أيضا عن مكانه فأنت أيضا غافل عن بيت الله  
تعالى وعن ملائكته الذين هم سكان موانئه فلا تعرف من السماء إلا ما تعرفه التملة من سقف بيتك  
ولا تعرف من ملائكة السموات إلا ما تعرفه التملة منك ومن سكان بيتك ، نعم ليس للتملة طريق إلى  
أن تعرفك وتعرف عجائب قصرك وبدائع صنعة الصانع فيه وأما أنت فلك قدرة على أن تجول في  
الملوكوت وتعرف من عجائبه ما الخلق غافلون عنه ولتقبض عنان الكلام عن هذا الخط فانه مجال  
لا آخر له ولو استقصينا أعمارا طويلة لم نقدر على شرح ما تفضل الله تعالى علينا بعرفته وكل ما عرفناه  
قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه جملة العلماء والأولياء وما عرفوه قليل نزر حقير بالاضافة إلى ما عرفه  
الأنبياء عليهم الصلاة والسلام وجملة ما عرفوه قليل بالاضافة إلى ما عرفه محمد نبينا صلى الله عليه وسلم  
وما عرفه الأنبياء كلهم قليل بالاضافة إلى ما عرفته الملائكة القربون كإسرافيل وجبريل وغيرهم  
جميع علوم الملائكة والجن والانس إذا أضيف إلى علم الله سبحانه وتعالى لم يستحق أن يسمى  
علما بل هو إلى أن يسمى دهشا وحيرة وقصورا وعجزا أقرب فسبحان من عرف عباده ما عرف  
ثم خاطب جميعهم فقال - وما أوتيتم من العلم إلا قليلا - فهذا بيان معاقب الجمل التي تجول فيها فكر  
المتفكرين في خلق الله تعالى وليس فيها فكر في ذات الله تعالى ولكن يستفاد من الفكر في  
الخلق لا محالة معرفة الخالق وعظمته وجلاله وقدرته وكما استكثرت من معرفة عجيب صنع الله تعالى  
كانت معرفتك بجلاله وعظمته أتم ، وهذا كما أنك تعظم عالما بسبب معرفتك بعمقه فلا تزال تطلع  
على غريبة غريبة من تصنيفه أو شعره فتزداد به معرفة وتزداد بحسنه له توقيرا وتعظيما واحتراما  
حتى إن كل كلمة من كلماته وكل بيت عجيب من أبيات شعره يزيدك محلا من قلبك يستدعي التعظيم  
له في نفسك فهكذا تأمل في خلق الله تعالى وتصنيفه وتأليفه وكل مافي الوجود من خلق الله وتصنيفه  
والنظر والفكر فيه لا يتأهى أبدا وإنما لكل عبد منها بقدر مازرق ، فلنقتصر على ما ذكرناه  
ولنضيف إلى هذا ما فصلناه في كتاب الشكر فانا نظرننا في ذلك الكتاب في فعل الله تعالى من حيث  
هو إحسان إلينا وإنعام علينا ، وفي هذا الكتاب نظرننا فيه من حيث إنه فعل الله فقط وكل ما نظرننا  
فيه فان الطبيعي ينظر فيه ويكون نظره سبب ضلاله وشقاوته وللوقوف ينظر فيه فيكون سبب هدايته  
وسعادته وما من ذرة في السماء والأرض إلا والله سبحانه وتعالى يضل بها من يشاء ويهدي بها  
من يشاء ، فمن نظر في هذه الأمور من حيث إنها فعل الله تعالى وصنعه استفاد منه المعرفة بجلال  
الله تعالى وعظمته واهتدى به ومن نظر فيها قاصرا للنظر عليها من حيث تأثير بعضها في بعض  
لامن حيث ارتباطها بحسب الأسباب فقد شقي وارتنى فعوذ بالله من الضلال ، ونسأله أن يحببنا  
مزلة أقدم الجبال بمنه وكرمه وفضله وجوده ورحمته .

( ثم الكتاب التاسع من ربيع النجيات والحمد لله وحده وصلواته على محمد وآله وسلامه )

يتلوه كتاب ذكر الموت وما بعده وبه كل جميع الديوان بحمد الله تعالى وكرمه .

القبض والبسط وهما  
حالات شريفة قال الله  
تعالى - والله يقبض  
ويبسط - وقد تكلم  
بهما الشيوخ وأشاروا  
بإشارات هي علامات  
القبض والبسط ولم  
أجد ككشافا عن  
حقيقتيهما لأنهما كنفوا  
بالإشارة والإشارة  
تخفى الأهل وأحببت  
أن أشبع الكلام فيهما  
لهما يتشوق إلى ذلك  
طالب ويعجب بسط  
القول فيه والله أعلم .  
واعلم أن القبض  
والبسط لهما موسم  
معلوم ووقت محتموم  
لا يكونان قبله ولا  
يكونان بعده ووقتهما  
ومومهما في أوائل حال  
الحبة الخاصة لا في نهايتها

## ( كتاب ذكر الموت وما بعده )

( وهو الكتاب العاشر من ربيع المنجيات ، وبه اختتام كتاب إحياء علوم الدين )

( بسم الله الرحمن الرحيم )

الحمد لله الذي قسم بالموت رقاب الجبابرة ، وكسر به ظهور الأكاسرة ، وقصر به آمال القياصرة الذين لم تزل قلوبهم عن ذكر الموت نافرة ، حتى جاءهم الوعد الحق فأرداهم في الحافرة ، فقلوا من القصور إلى القبور ، ومن ضياء الهوى إلى ظلمة اللحد ، ومن ملاعبة الجوارى والفلان إلى مقاساة الهوام والديدان ، ومن التعم بالطعام والشراب إلى التفرغ في التراب ، ومن أنس العشرة إلى وحشة الوحدة ، ومن الضجع الوثير إلى المصراع الويل ، فانظر هل وجدوا من الموت حصنا وعزا ، وانخذلوا من دونه حجابا وحرزا ، وانظر - هل تحس منهم من أحد أو تسمع لهم ركزا - فبجان من انقرد بالقهر والاستيلاء ، واستأثر باستحقاق البقاء ، وأذل أصناف الخلق بما كتب عليهم من الفناء ، ثم جعل الموت محلا للالتقاء وموعدا في حقهم للقاء وجعل القبر سجنًا للأشقياء وحسبًا للصلحاء عليهم إلى يوم الفصل والقضاء فله الانعام بالنعم المتظاهرة ، وله الانتقام بالنقم القاهرة ، وله الشكر في السموات والأرض وله الحمد في الأولى والآخرة ، والصلاة على محمد وآله العجرات الظاهرة والآيات الباهرة وعلى آله وأصحابه وسلم تسليما كثيرا .

[ أما بعد ] فجدد بمن الموت مصرعه ، والتراب مضجعه ، والدود أنيسه ، ومنكر ونكير جلسه ، والقبر مقره وبطن الأرض مستقره ، وإقامة مواعده ، والجنة والنار مورد ، أن لا يكون له فكر إلا في الموت ولا ذكر إلا له ، ولا استعداد إلا لأجله ، ولا تدبير إلا فيه ، ولا تطمع إلا إليه ، ولا ترجع إلا عليه ، ولا اهتمام إلا به ، ولا حول إلا حوله ، ولا انتظار وترقب إلا له ، وحقيق بأن بعد نفسه من الموتى وبراهها في أصحاب القبور ، فإن كل ما هو آت قريب والبعيد ما ليس بآت ، وقد قال صلى الله عليه وسلم « الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت <sup>(١)</sup> » وإن ييسر الاستعداد للشيء إلا عند تجديد ذكره على القلب ولا يتجدد ذكره إلا عند التذكر بالأصناف إلى المذكرات له والنظر في النهايات عليه ونحن نذكر من أمثال الموت ومقدماته ولواحقه وأحوال الآخرة والقيامة والجنة والنار ما لا بد للعبد من تذكره على التكرار وملازمته بالافتكار والاستبصار ، ليكون ذلك مستحضرًا على الاستعداد فقد قرب لما بعد الموت الرحيل فابقي من العمر إلا القليل والخلق عنه غافلون - اقرب للناس حسابهم وهم في غفلة معرضون - ونحن نذكر ما يتعلق بالموت في شطرين :

( الشطر الأول في مقدماته وتوابعه إلى نفخة الصور ، وفيه ثمانية أبواب : )

الباب الأول في فضل ذكر الموت والترغيب فيه . الباب الثاني في ذكر طول الأمل وقصره . الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عند الموت . الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده . الباب الخامس في كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين . الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقبور وحكم زيارة القبور . الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور . الباب الثامن فيها عرف من أحوال الموتى بالكاشفة في المنام .

( كتاب ذكر الموت وما بعده )

(١) حديث الكيس من دان نفسه وعمل لما بعد الموت تقدم غير مرة .

ولا قبل حال المحبة  
الخاصة فمن هو  
في مقام المحبة العامة  
الثابتة بحكم الإيمان  
لا يكون له قبض ولا  
بسط وإنما يكون له  
خوف ورجاء وقد يجد  
شبه حال القبض وشبه  
حال البسط ويظن  
ذلك قبضا وبسطا  
وليس هو ذلك وإنما  
هو ثم يستريح فيظنه  
قبضا واهتزاز نقاني  
ونشاط طبيعي يظنه  
بسطا والهم والنشاط  
يصدران من محل  
النفس ومن جوهرها  
لبقاء صفاتها ومادامت  
صفة الأمانة فيها بقية  
على النفس يكون منها  
الاهتزاز والنشاط والهم  
وهج ساجور النفس

## ( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب في الإكثار من ذكره )

اعلم أن التمهك في الدنيا السكب على غرورها المحب للشهوات يغفل قلبه لاحالة عن ذكر الموت فلا يذكره وإذا ذكر به كرهه ونفر منه أولئك هم الذين قال الله فيهم - قل إن للموت الذي تفرون منه فانه ملايكم ثم تردون إلى عالم الغيب والشهادة فينبئكم بما كنتم تعملون - ثم الناس إمامهمك وإماتائب مبتدئ. وأعارف منته أما التمهك فلا يذكر الموت وإن ذكره فيذكره للتأسف على دنياه ويشغل بدمته وهذا يزيد ذكر الموت من الله بعدا ، وأما التائب فانه يكثر من ذكر الموت لينبش به من قلبه الخوف والحشية فينبى بتمام التوبة وربما يكره الموت خيفة من أن يخطئه قبل تمام التوبة وقبل إصلاح الزاد وهو معذور في كراهة الموت ولا يدخل هذا تحت قوله صلى الله عليه وسلم «من كره لقاء الله كره الله لقاءه»<sup>(١)</sup> فان هذا ليس يكره الموت ولقاء الله وإنما يخاف فوت لقاء الله لقصوره وتقصيره وهو كالذي يتأخر عن لقاء الحبيب مشغلا بالاستعداد للقاءه على وجهه رضاه فلا يد كارهه للقاءه ، وعلامة هذا أن يكون دائم الاستعداد له لاشغل له سواء وإلا التحق بالتمهك في الدنيا وأما العارف فانه يذكر الموت دائما لأنه موعده للقاءه لحبيبه والمحب لا ينسى قط موعد لقاء الحبيب وهذا في غالب الأمر يستبطن بحسب الموت ويحب مجيئه ليتخلص من دار العاصين وينتقل إلى جوار رب العالمين كما روى عن حذيفة أنه لما حضرته الوفاة قال حبيب جاء على فاقة لأفلق من ندم اللهم إن كنت تعلم أن الفقر أحب إلى من الفنى والسقم أحب إلى من الصحة والموت أحب إلى من العيش فسهل على الموت حتى ألقاك ، فأذن التائب معذور في كراهة الموت وهذا معذور في حب الموت وتمنيه وأعلى منهما رتبة من فوض أمره إلى الله تعالى فصار لا يخار لنفسه موتا ولا حياة بل يكون أحب الأشياء إليه أحبها إلى مولاه فهذا قد انتهى بفرط الحب والولاء إلى مقام التسليم والرضا وهو الغاية والمنتهى ، وعلى كل حال ففى ذكر الموت ثوابه وفضل فان التمهك أيضا يستفيد بذكر الموت التجافى عن الدنيا إذ ينقص عليه نعيمه ويكدر عليه صفوته وكل ما يكدر على الانسان اللذات والشهوات فهو من أسباب النجاة .

## ( بيان فضل ذكر الموت كيفما كان )

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر هازم اللذات»<sup>(٢)</sup> معناه نقصوا بذكره اللذات حتى ينقطع ركونكم إليها فتقبلوا على الله تعالى . وقال صلى الله عليه وسلم «لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا»<sup>(٣)</sup> وقالت عائشة رضى الله عنها «يا رسول الله هل يحشر مع الشهداء أحد ؟ قال نعم من يذكر الموت في اليوم والليلة عشرين مرة»<sup>(٤)</sup> وأما سبب هذه الفضيلة كلها أن ذكر الموت يوجب التجافى عن دار النور ويتقاضى الاستعداد للآخرة والغفلة عن الموت تدعو إلى الانهماك في شهوات الدنيا ، وقال صلى الله عليه وسلم «تحفة المؤمن الموت»<sup>(٥)</sup> وأما قال هذا

## ( الباب الأول في ذكر الموت والترغيب فيه )

(١) حديث من كره لقاء الله كره الله لقاءه متفق عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أكثرُوا من ذكر هازم اللذات الترمذى وقال حمن والنسائى وابن ماجه من حديث أبي هريرة وقد تقدم (٣) حديث لو تعلم البهائم من الموت ما يعلم ابن آدم ما أكلتم منها سمينا البيهقى فى الشعب من حديث أم حبيبة الجهنية وقد تقدم (٤) حديث قالت عائشة هل يحشر مع الشهداء أحد قال نعم من ذكر الموت فى اليوم والليلة عشرين مرة تقدم (٥) حديث تحفة المؤمن الموت ابن أبى الدنيا فى كتاب الموت والطبرانى والحاكم من حديث عبد الله بن عمر مرسل بسند حسن .

والنشاط ارتفاع موج النفس عند تلاطم بحر الطبع فاذا ارتقى من حال المحبة العامة إلى أوائل المحبة الخاصة يصير ذاحل وذاق قلب وذا نفس لوامة ويتناوب القبض والبسط فيه عند ذلك لأنه ارتقى من رتبة الإيمان إلى رتبة الايمان وحال المحبة الخاصة فيقبضه الحق تارة ويبسطه أخرى قال الواسطى يقبض عمالك ويبسطك فيما له وقال النورى يقبض بياك ويبسطك لإياه واعلم أن وجود القبض لظهور صفة النفس وغلبتها وظهر البسط لظهور صفة القلب وغلبته

لأن الدنيا سجن المؤمن إذ لا يزال فيها في عناء من مقاساة نفسه ورياضة شهواته ومداواة شيطانه فالموت إطلاق له من هذا العذاب والإطلاق تخفة في حقه وقال صلى الله عليه وسلم «الموت كفارة لكل مسلم» (١) «وأراد بهذا المسلم حقا للمؤمن صدقا الذي يسلم المسلمون من لسانه ويده ويتحقق فيه أخلاق المؤمنين ولم يتدنس من المعاصي إلا باللمس والصفائر فالموت يطهره منها ويكفرها بعد اجتنبه الكبار وإقامته الفرائض . قال عطاء الخراساني «مر رسول الله صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلى فيه الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر الازدات قالوا وما مكدر اللذات قال الموت» (٢) وقال أنس رضي الله تعالى عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا» (٣) «وقال صلى الله عليه وسلم «كفى بالموت مفرقا» (٤) «وقال عليه السلام «كفى بالموت واعظا» (٥) . «وخرج رسول الله ﷺ إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون ، فقال: اذكروا الموت أما والذي نفسي بيده لو تعلمون ما أعلم لضحكتم قليلا ولبكيتم كثيرا» (٦) . «وذكر عند رسول الله صلى الله عليه وسلم رجل فأحسنوا الثناء عليه ، فقال: كيف ذكر صاحبكم للموت قالوا ما كنا نكاد نسمعه يذكر الموت قال فان صاحبكم ليس هنالك» (٧) «وقال ابن عمر رضي الله عنهما «أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس وأكرم الناس يا رسول الله فقال: أكثرهم ذكر الموت وأشدهم استعدادا له أولئك هم الأكياس ذهبوا بشرف الدنيا وكرامة الآخرة» (٨) «وأما الآثار : فقد قال الحسن رحمه الله تعالى فضح الموت الدنيا فلم يترك لدى لب فرحا . وقال الربيع ابن خيثم ما طائب ينتظره المؤمن خيرا له من الموت وكان يقول لا تشعروا بي أحدا وسالوني إلى ربى سلا وكتب بعض الحكماء إلى رجل من إخوانه : يا أخى احذر الموت في هذه الدار قبل أن تصير إلى دار تبعى فيها الموت فلا تجده . وكان ابن سيرين إذا ذكر عنده الموت مات كل عضو منه وكان عمر بن عبد العزيز يجمع كل ليلة الفقهاء فينذاكرون الموت والقيامة والآخرة ثم يكونون حتى كأن بين أيديهم جنازة . وقال إبراهيم التيمي شيئا قطعنا عن لذة الدنيا ذكر الموت والوقوف بين يدي الله عز وجل . وقال كعب

(١) حديث الموت كفارة لكل مسلم أبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب والخطيب في التاريخ من حديث أنس قال ابن العربي في سراج الرايدين إنه حسن صحيح وضعفه ابن الجوزي وقد جمعت طرقه في جزء (٢) حديث عطاء الخراساني مر النبي صلى الله عليه وسلم بمجلس قد استعلاء الضحك فقال شوبوا مجلسكم بذكر مكدر اللذات الحديث ابن أبي الدنيا في الموت هكذا مر سلا وروينا في أمالي الحلال من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث أنس أكثرُوا من ذكر الموت فإنه يحصن الذنوب ويذهب في الدنيا ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف جدا (٤) حديث كفى بالموت مفرقا الحديث ابن أبي أسامة في مسنده من حديث أنس وعراك بن مالك بسند ضعيف ورواه ابن أبي الدنيا في البر والصلة من رواية أبي عبد الرحمن الجبلي مر سلا (٥) حديث كفى بالموت واعظا الطبراني والبيهقي في الشعب من حديث عمار بن ياسر بسند ضعيف وهو مشهور من قول الفضيل بن عياض رواه البيهقي في الزهد (٦) حديث خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المسجد فاذا قوم يتحدثون ويضحكون فقال اذكروا الموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث ابن عمر باسناد ضعيف (٧) حديث ذكر عند رسول الله ﷺ رجل فأحسنوا الثناء عليه فقال كيف كان ذكر صاحبكم للموت الحديث ابن أبي الدنيا في الموت من حديث أنس بسند ضعيف وابن المبارك في الزهد قال أنا مالك بن مغول فذكره بلاغا بزيادة فيه (٨) حديث ابن عمر أثبت النبي صلى الله عليه وسلم عاشر عشرة فقال رجل من الأنصار من أكيس الناس الحديث ابن ماجه مختصرا وابن أبي الدنيا بكأله باسناد جيد .

والنفس مادامت لوامة  
فتارة مغلوبة وتارة  
غالبة والقبض والبسط  
باعتبار ذلك منها  
وصاحب القلب تحت  
حجاب نوراني لوجود  
قلبه كما أن صاحب  
النفس تحت حجاب  
ظلماني لوجود نفسه  
فاذا ارتقى من القلب  
وخرج من حجاب  
لا يقيدته الحال ولا  
يتصرف فيه فيخرج  
من تصرف القبض  
والبسط حيث يشاء فلا  
يقبض ولا يبسط مادام  
متخلصا من الوجود  
النوراني الذي هو القلب  
و، متحققا بالقرب من  
غير حجاب النفس  
والقلب فاذا عاد إلى

من عرف الموت هانت عليه مصائب الدنيا وهمومها . وقال مطرف رأيت فيما يرى النائم كأن قاتلا يقول في وسط مسجد البصرة : قطع ذكر الموت قلوب الخائفين فوالله ما ترام إلا والهي . وقال أشعث كنا ندخل على الحسن فأنما هو النار وأمر الآخرة وذكر الموت . وقالت صفية رضي الله تعالى عنها إن امرأة اشتكت إلى عائشة رضي الله عنها قساوة قلبها فقالت أكرهى ذكر الموت يرق قلبك فقلعت فرق قلبها فجاءت تشكر عائشة رضي الله عنها . وكان عيسى عليه السلام إذا ذكر الموت عنده يقطر جلده دما . وكان داود عليه السلام إذا ذكر الموت والقيامة يبكي حتى تتخلع أوصاله فإذا ذكر الرحمة رجعت إليه نفسه . وقال الحسن . ما رأيت عاقلا قط إلا أصبته من الموت حذرا وعليه حزينا وقال عمر بن عبد العزيز لبعض العلماء عظمي فقال ألت أول خليفة يموت قال زدني قال ليس من آبائك أحد إلى آدم إلا ذاق الموت وقد جاءت نوبتك فبكي عمر لذلك . وكان الربيع بن خيثم قد حفر قبراً في داره فكان ينام فيه كل يوم مرات يستديم بذلك ذكر الموت وكان يقول لو فارق ذكر الموت قلبي ساعة واحدة لفسد . وقال مطرف بن عبد الله بن الشخير إن هذا الموت قد نصى على أهل النعم نعيمهم فاطلبوا نعيماً لاموت فيه . وقال عمر بن عبد العزيز لعنينة أكثر ذكر الموت فإن كنت واسع العيش ضيقه عليك وإن كنت ضيق العيش وسع عليك . وقال أبو سليمان الداراني قلت لأبي هرون : أتحب الموت ؟ قالت لا ، قلت لم ؟ قالت لو عصيت آدمياً ما اشتيت لقاءه فكيف أحب لقاءه وقد عصيته ( بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب )

اعلم أن الموت هائل وخطره عظيم وغفلة الناس عنه لقلة فكرهم فيه وذكورهم ومن يذكركه ليس يذكركه بقلب فارغ بل بقلب مشغول بشهوة الدنيا فلا ينجع ذكر الموت في قلبه فالطريق فيه أن يفرغ القلب من كل شيء إلا عن ذكر الموت الذي هو بين يديه كالذي يريد أن يسافر إلى مفازة خطيرة أو يركب البحر فإنه لا يتفكر إلا فيه فإذا باشر ذكر الموت قلبه فيوشك أن يؤثر فيه وعند ذلك يقل فرجه وسروره بالدنيا وينكسر قلبه واتيح طريق فيه أن يكثر ذكر أشكاله وأقرانه الذين مضوا قبله فينتدح موتهم ومصارعهم تحت التراب ويتذكر صورهم في مناصبهم وأحوالهم ويتأمل كيف يحال التراب الآن حسن صورهم وكيف تبددت أجزاؤهم في قبورهم وكيف أرموا نساءهم وأيتمو أولادهم وضيعوا أموالهم وخلت منهم مساجدهم ومجالسهم وانقطعت آثارهم فمهما تذكر رجلاً رجلاً وفصل في قلبه حاله وكيفية موته وتوهم صورته وتذكر نشاطه وتردده وتأمله للعيش والبقاء ونسيانه للموت وانغذاعه بموتة الأسباب وبركوته إلى القوة والشباب وميله إلى الضحك واللهو وغفلته عما بين يديه من الموت الذريع والهلاك السريع وأنه كيف كان يتردد والآن قد تهدمت رجلاه ومفاصله وأنه كيف كان ينطق وقد أكل الدود لسانه وكيف كان يضحك وقد أكل التراب أسنانه وكيف كان يدبر لنفسه ما لا يحتاج إليه إلى عشر سنين في وقت لم يكن بينه وبين الموت إلا شهر وهو غافل عما يراد به حتى جاء الموت في وقت لم يحتسبه فأنكشف له صورة الملك وقرع صممه النداء إما بالجنة أو بالنار فند ذلك ينظر في نفسه أنه مثلهم وغفلته كغفلتهم وستكون عاقبته كما قبته . وقال أبو الدرداء رضي الله عنه : إذا ذكرت الموتى فقد نفسك كأحدهم . وقال ابن مسعود رضي الله عنه السعيد من وعظ بغيره . وقال عمر بن عبد العزيز ألا ترون أنكم تجهزون كل يوم غداً بأوراحكم إلى الله عز وجل تضعونه في صعد من الأرض قد توسد التراب وخلف الأحباب وقطع الأسباب فلازمة هذه الأفكار وأمثالها مع دخول المقابر ومشاهدة المرضى هو الذي يحدد ذكر الموت في القلب حتى يغلب عليه بحيث يصير نصب عينيه فعند ذلك يوشك أن يستعد له ويتجافى عن دار الضرور وإلا قاله كرى بظاهر القلب وعذبة اللسان

الوجود من الفناء والبقاء يسود إلى الوجود والنوراني الذي هو القلب فيعود القبض والبسط إليه عند ذلك ومهما تخلص إلى الفناء والبقاء فلا قبض ولا بسط قال فارس أوالا القبض ثم البسط ثم لا قبض ولا بسط لأن القبض والبسط يقع في الوجود فأما مع الفناء والبقاء فلا ثم إن القبض قد يكون عقوبة الإفراط في البسط وذلك أن الولد من الله تعالى يرد على القلب فيمتلئ القلب منه روحاً وفرحاً واستبشاراً فتشرق النفس السمع عند ذلك وتأخذ نصيبها فإذا وصل أثر الوارد



قيل الجدوى في التحذير والتنبية ومهما طاب قلبه بشئ من الدنيا ينبغي أن يتذكر في الحال أنه لا بد له من مفارقتها ، نظر ابن مطيع ذات يوم إلى داره فأعجبه حسناتها بكى فقال والله لولا اللواتي كنت بك مسرورا ولولا ما نصير إليه من ضيق القبور اقربت بالدنيا أعيننا ثم بكى بكاء شديدا حتى ارتفع صوته .

( الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طوله وكيفية معالجته )

### ( فضيلة قصر الأمل )

قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعبد الله بن عمر « إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح وخذ من حياتك لموتك ومن صحتك لضعفك فانك يا عبد الله لا تدري ما أصابك غدا <sup>(١)</sup> » وروى طي كرم الله وجهه أنه صلى الله عليه وسلم قال « إن أشد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل فأما اتباع الهوى فإنه يصد عن الحق وأما طول الأمل فإنه الحب للدنيا ثم قال : ألا إن الله تعالى يعطي الدنيا من يحب ويمنع وإذا أحب عبدا أعطاه الإيمان ألا إن الدين أبناء والدنيا أبناء فكونوا من أبناء الدين ولا تكونوا من أبناء الدنيا ألا إن الدنيا قد ارتفعت مولية ألا إن الآخرة قد ارتفعت مقبلة ألا وإنكم في يوم عمل ليس فيه حساب ألا وإنكم توشكون في يوم حساب ليس فيه عمل <sup>(٢)</sup> » وقالت أم النضر « اطلع رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات عشية إلى الناس فقال : أيها الناس أمانتحيون من الله قالوا وما ذلك يا رسول الله ؟ قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون <sup>(٣)</sup> » وقال أبو سعيد الخدري « اشترى أسامة بن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة المشتري إلى شهر إن أسامة أطول الأمل والذي نفسي بيده ما طرفت عينا إلا ظننت أن شغري لا يلتقيان حتى يقبض الله روعي ولا رفت طرفي فظننت أني واضع حتى أقبض ولا لثمت لقمة إلا ظننت أني لا أسيغها حتى أغص بها من الموت ثم قال يا بني آدم إن كنتم تقولون فعدوا أنفسكم من الموت والذي نفسي بيده - إن ماتوا وعدون لآت وما أتم بمعجزين - <sup>(٤)</sup> » وعن ابن عباس رضي الله عنهما « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالتراب فأقول له يا رسول الله إن الماء منك قريب فيقول ما يدري لعل لأبائه <sup>(٥)</sup> » وروى « أنه صلى الله عليه وسلم أخذ ثلاثة أعواد فحز عودا

### ( الباب الثاني في طول الأمل )

(١) حديث قال لعبد الله بن عمر إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء الحديث ابن حبان ورواه البخاري من قول ابن عمر في آخر حديث كنى في الدنيا كأنك غريب (٢) حديث طي إن أعد ما أخاف عليكم خصلتان اتباع الهوى وطول الأمل الحديث بطوله ابن أبي الدنيا في كتاب قصر الأمل ورواه أيضا من حديث جابر بنحوه وكلامه ضعيف (٣) حديث أم النضر أيها الناس أمانتحيون من الله تعالى قالوا وما ذلك يا رسول الله قال تجمعون ما لا تاكلون وتأملون ما لا تدركون وتبنون ما لا تسكنون الحديث ابن أبي الدنيا ومن طريقه البيهقي في الشعب بإسناد ضعيف وقد تقدم (٤) حديث أبي سعيد اشترى ابن زيد من زيد بن ثابت وليدة بمائة دينار إلى شهر فسمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول ألا تعجبون من أسامة الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والطبراني في مسند الشاميين وأبو نعيم في الحلية والبيهقي في الشعب بإسناد ضعيف (٥) حديث ابن عباس كان يخرج يهريق الماء فيمسح بالباب فأقول الماء منك قريب فيقول ما يدري لعل لأبائه الحديث ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل والبراز بإسناد ضعيف .

إلى النفس طنت بطبعها وأفرطت في البسط حتى تشاكل البسط نشاطا فتقابل بالقبض عقوبة وكل القبض إذا قفص لا يكون إلا من حركة النفس وظهورها بصفتها ولو تأدبت النفس وعدلت ولم تجر بالطغيان تارة وبالصبيان أخرى ما وجد صاحب القلب القبض وما دام روحه وأنسسه ورعايته الاعتدال الذي يبد باب القبض متلقى من قوله تعالى - لكيلا تأسوا على ما فاتكم ولا تفرحوا بما آتاكم - فوارد الفرح مادام موقوفا على الروح والقلب لا يكثف

بين يديه والآخر إلى جنبه وأما الثالث فأبده فقال هل تدرون ما هذا قالوا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان وهذا الأجل وذلك الأمل يتعاطاه ابن آدم ويختلجه الأجل دون الأمل <sup>(١)</sup> وقال عليه السلام «مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون مية إن أخطأته الناياء وقع في الهرم» <sup>(٢)</sup> قال ابن مسعود هذا الرء وهذه الختوف حوله شوارع إليه والهرم وراء الختوف والأمل وراء الهرم فهو يؤمل وهذه الختوف شوارع إليه فأياها أمر به أخذه فان أخطأته الختوف قتله الهرم وهو ينتظر الأمل قال عبدا لله «خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا وخط خطوطا إلى جنب الخط وخط خطا خارجا وقال أندرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا الإنسان للخط الذي في الوسط وهذا الأجل محيط به وهذه الأعراض للخطوط التي حوله تنهشه إن أخطأته هذا نهشه هذا وذاك الأمل يعني الخط الخارج <sup>(٣)</sup>» وقال أنس «قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يرمي ابن آدم ويقيم معه اثنتان الحرص والأمل <sup>(٤)</sup>» وفي رواية وتنبأ معه اثنتان الحرص على المال والحرص على العمر وقال رسول الله ﷺ «نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وبهلك آخر هذه الأمة باليخل والأمل» <sup>(٥)</sup> وقيل بينا عيسى عليه السلام جالس وشيخ يعمل بمسحاة يثر بها الأرض فقال عيسى اللهم انزع منه الأمل فوضع الشيخ المسحاة واضطجع قلبت ساعة فقال عيسى اللهم اردد إليه الأمل فقام فجعل يعمل فساله عيسى عن ذلك فقال بينا أنا أعمل إذ قالت لي نفسي إلى متى تحمل وأنت شيخ كبير فألقيت المسحاة واضطجعت ثم قالت لي نفسي والله لا بد لك من عيش ما بقيت فقامت إلى مسحاتي، وقال الحسن قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أكلكم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل وثبتوا أجالكم بين أبصاركم واستحيوا من الله حق الحياء» <sup>(٦)</sup> «وكان صلى الله عليه وسلم يقول في دعائه : اللهم إني أعوذ بك من دنيا تمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل» <sup>(٧)</sup> الآثار : قال مطرف بن عبد الله لوعلت متى أجلى لحشيت على دهاب عقلي ولكن الله تعالى من على عباده بالنفلة عن الموت ولولا النفلة ماتهنوا بعيش ولا دامت بينهم الأسواق. وقال الحسن السهو والأمل نعمتان عظيمتان على بني آدم ولولا هما ما مشى المسلمون في الطرق. وقال الثوري بلغني أن الإنسان خلق أحق ولولا ذلك لم يهنا العيش . وقال أبو سعيد بن عبد الرحمن إنما

(١) حديث أنه أخذ ثلاثة أعواد ففرز عودا بين يديه الحديث أحمد وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له الرامهرمزي في الأمثال من رواية أبي المتوكل الناجي عن أبي سعيد الخدري وإسناده حسن ورواه ابن المبارك في الزهد وابن أبي الدنيا أيضا من رواية أبي المتوكل مراسلا (٢) حديث مثل ابن آدم وإلى جنبه تسع وتسعون مئة الحديث الترمذي من حديث عبد الله بن الشخير وقال حسن (٣) حديث ابن مسعود خط لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم خطا مربعا وخط وسطه خطا الحديث رواه البخاري (٤) حديث أنس يهرم ابن آدم ويبقى معه اثنان الحرص والأمل وفي رواية ويشب معه اثنان الحرص على المال والحرص على العمر ورواه مسلم بلفظ الثاني وابن أبي الدنيا في قصر الأمل باللفظ الأول باسناد صحيح (٥) حديث نجا أول هذه الأمة باليقين والزهد وهلك آخر هذه الأمة بالبخل والأمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية ابن الهيثم عن عمرو بن شبيب عن أبيه عن جده (٦) حديث الحسن أكلتم يحب أن يدخل الجنة قالوا نعم يا رسول الله قال قصر وامن الأمل الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا من حديث الحسن مراسلا (٧) حديث كان رسول الله ﷺ يقول في دعائه اللهم إني أعوذ بك من أمل يمنع خير الآخرة وأعوذ بك من حياة تمنع خير المعات وأعوذ بك من أمل يمنع خير العمل ابن أبي الدنيا فيه من رواية حوشب عن النبي صلى الله عليه وسلم وفي إسناده ضعف وجه القول أدري من حوشب.

ولا يستوجب صاحبه  
القبض سيما إذا لطف  
بالفرح بالوارد بالايواء  
إلى الله وإذا لم يلجئ  
بالايواء إلى الله تعالى  
تطلعت النفس وأخذت  
حظها من الفرح وهو  
الفرح بما أتى الممنوع  
منه فمن ذلك القبض  
في بعض الأحيان  
وهذا من أطف  
الذنوب الموجبة للقبض  
وفي النفس من حركاتها  
وصفاتها وإثبات متعددة  
موجبة للقبض ثم  
الخوف والرجاء  
لا يدمهما صاحب  
القبض والبسط ولا  
صاحب الأنس والهيبة  
لأنهما من ضرورة  
الإيمان فلا يعدمان  
وأما القبض والبسط

عمرت الدنيا بقلعة عقول أهلها . وقال سلمان الفارسي رضي الله عنه ثلاث أعجزتني حتى أضحكنتي مؤمل الدنيا والووت يطابه وغافل وليس يغفل عنه وضاحك ملء فيه ولا يدري أساخط رب العالمين عليه أم راض وثلاث أحزنتني حتى أبكتني فراق الأخية محمد وحزبه وهول المطلع والوقوف بين يدي الله ولا أدري إلى الجنة يؤمر بي أو إلى النار . وقال بعضهم رأيت زرارة بن أبي أوفى بعد موته في المنام فقلت أي الأعمال أبلغ عنكم قال التوكل وقصر الأمل . وقال الثوري الزهد في الدنيا قصر الأمل ليس بأكل الفليظ ولا لبس العباءة وسأل الفضل بن فضالة ربه أن يرفع عنه الأمل فذهبت عنه شهوة الطعام والشراب ثم دعا ربه فرد عليه الأمل فرجع إلى الطعام والشراب . وقيل للحسن يا أبا سعيد ألا تتسل قريضك فقال الأمر أعجل من ذلك . وقال الحسن الموت معقود بنواصيك والدنيا تطوى من ورائكم وقال بعضهم أنا كرجل هاد عنقه والسيوف عليه ينتظر متى تضرب عنقه . وقال داود الطائي لو أملت أن أعيش شهرا لرايتني قد أتيت عظيما وكيف أوئل ذلك وأرى الفجائع تغشى الخلائق في ساعات الليل والنهار . وحكى أنه جاء شقيق البلخي إلى أستاذ له يقال له أبو هاشم الرمانى وفي طرف كسائه شئ مصرور فقال له أستاذك يشى هذا معك فقال لوزات دفعها إلى أخ لي وقال أحب أن تفطر عليا فقال يا شقيق وأنت تحدث نفسك أنك تبقى إلى الليل لا كنتك أبدا قال فأغلق في وجهي الباب ودخل . وقال عمر ابن عبد العزيز في خطبته إن لكل سفر زادا لا محالة فزودوا لسفركم من الدنيا إلى الآخرة التقوى وكونوا كمن عاين ما أعد الله من ثوابه وعقابه ترغبوا وترهبوا ولا يطولن عليكم الأمد ففسدوا قلوبكم وتقادوا لعدوكم فانه والله ما بسط أمل من لا يدري لعله لا يصبح بعد مسائه ولا يمسي بعد صباحه وربما كانت بين ذلك خطافات للنايا وكم رأيت ورأيتهم من كان بالدنيا مغترا وإعما قمر عين من وثق بالنجاة من عذاب الله تعالى وإعما يفرح من أمن أهوال القيامة فأما من لا يداوى كلها إلا أصابه جرح من ناحية أخرى فكيف يفرح أعوذ بالله من أن آمركم بما لا ينهى عنه نفسي فتخسر صفقة وتظهر عيبى وتبدو مسكنتى في يوم يبدو فيه الفنى والفقر والوازين فيه منصوبة لقد عنيتم بأمر لو عنيتم به النجوم لانكدرت ولو عنيتم به الجبال لدايت ولو عنيتم به الأرض لشقةقت أما تعلمون أنه ليس بين الجنة والنار منزلة وأنكم سائرون إلى إحداها وكتب رجل إلى أخ له أما بعد فإن الدنيا حلم والآخرة يقظة والمتوسط بينهما الموت ونعمن في أضفأت أحلام والسلام وكتب آخر إلى أخ له إن الحزن على الدنيا يطويل والووت من الانسان قريب ولانقص في كل يوم منه نصيب وللبلاء في جسمه ديب فبادر قبل أن تنادى بالرحيل والسلام . وقال الحسن كان آدم عليه السلام قبل أن يخطئ أمه خلف ظهره وأجله بين عينيه فلما أصاب الخطيئة حول جعل أمه بين عينيه وأجله خلف ظهره . وقال عبد الله بن محيطة سمعت أبي يقول أيها الغر بطول محنته أما رأيت ميتا قط من غير سقم أيها الغر بطول المهلة أما رأيت ما خذا قطن من غير عدة إنك لو فكرت في طول عمرك لنسيت ما قد تقدم من لذاتك أبا لصحة تتعرون أم بطول العافية تمرحون أم الموت تأمنون أم على ملك الموت تجترئون إن ملك الموت إذا جاء لا يمنعه منك ثروة مالك ولا كثرة احتشادك أما علمت أن ساعة الموت ذات كرب وغصص وندامة على التفريط ثم يقال رحم الله عبدا عمل لما بعد الموت رحم الله عبدا نظرا لنفسه قبل نزول الموت . وقال أبو بكر الصديق فيما سأل ابن عبد الملك في المسجد الحرام إذ أتى بحجر منقور فطلب من يقرؤه فأتى يوهب بن منبه فاذا فيه ابن آدم إنك لو رأيت قرب ما بقى من أجلك لزهدت في طول أملك ولرغبت في الزيادة من عملك وانصرت من حرصك وحيلك وإعما يلقاك غدا ندمك لو قد زلت بك قدمك وأسلحك أهلك وحشمتك وفارقك الوالد والقريب ورفضك الولد والنسب فلا أنت إلى دنياك عائد ولا في حسانك زائد فاعمل

فينعمان عند صاحب  
الإيمان لنقصان الحظ  
من القلب وعند صاحب  
الفناء والبقاء والقرب  
لتخلصه من القلب  
وقد يرد على الباطن  
قبض وبسط ولا  
يسرف سببها ولا  
يخفى سبب القبض  
والبسط إلا على قليل  
الحظ من العلم القدي  
لم يحكم علم الحال ولا  
علم المقام . ومن أحكم  
علم الحال والمقام لا يخفى  
عليه سبب القبض  
والبسط وربما يشبهه  
عليه سبب القبض  
والبسط كما يشبهه عليه  
الهم بالقبض والنشاط  
بالبسط وإعما علم  
ذلك لمن استقام قلبه  
ومن عدم القبض  
والبسط وارتقى منهما

ليوم القيامة قبل الحسرة والندامة فيكي سليمان بكاء شديدا وقال بعضهم رأيت كتابا من محمد بن يوسف إلى عبد الرحمن بن يوسف سلام عليك فإني أحمد الله الذي لا إله إلا هو أما بعد فإني أحذرك متحولك من دار مهلكك إلى دار إقامتك وجزاء أعمالك فتصير في قرار باطن الأرض بعد ظاهرها فيأتيك منكر ونكير فيقعدانك ويتهرانك فان يكن الله معك فلا بأس ولا وحشة ولا فاقه وإن يكن غير ذلك فأعاذني الله وإياك من سوء مصرع وضيق مضجع ثم تبليتك صيحة الحشر وتفتح الصور وقيام الجبار لفصل قضاء الخلائق وخلاء الأرض من أهلها والسموات من سكانها فباحث الأسرار وأسعرت النار ووضعت الموازين وجرى بالنيين والشهداء وقضى بينهم بالحق وقيل الحمد لله رب العالمين فكم من مفتضح ومستور وكم من هالك وناج وكم من معذب ومرحوم فيا ليت شعري ما حالى وحالك يومئذ في هذا ما هدم اللذات وأسلى عن الشهوات وقصر عن الأمل وأيقظ النائمين وحذر الغافلين أعاننا الله وإياكم على هذا الخطر العظيم وأوقع الدنيا والآخرة من قلبي وقلبك موقعهما من قلوب المتقين فاعلمنا نحن به وله والسلام . وخطب عمر بن عبد العزيز حمد الله وأثنى عليه وقال أيها الناس إنكم لم تخلعوا عبثا ولن تتركوا سدى وإن لكم معادا يجمعكم الله فيه للحكم والفصل فيما بينكم غاب وشقى غدا عيدا أخرجه الله من رحمته التي وسعت كل شيء وجته التي عرضها السموات والأرض وإنما يكون الأمان غدا لمن خاف واتقى وباع قليلا بكثير وقانيا ياق وشقوة بسعادة ألا ترون أنكم في أسلاب المالكين وسيخلف بعدكم الباقون ألا ترون أنكم في كل يوم تشيعون غدا ياورعنا إلى الله عز وجل قد قضى نحبنا واتقطع أمه فضعفونه في بطن صدع من الأرض غير موسى ولا محمد قد خلع الأسباب وفارق الأحياب وواجه الحساب وإيم الله إني لأقول مقالتي هذه ولا أعلم عند أحدكم من الذنوب أكثر مما أعلم من نفسي ولكننا سنن من الله عادلة أمر فيها بطاعته وأنهى فيها عن معصيته وأستغفر الله ووضع كفه على وجهه وجعل يميني حق بليت دموعه لحيته وما عاد إلى مجلسه حتى مات وقال القعقاع بن حكيم قد استعددت للموت منذ ثلاثين سنة فلو أتاني ما أحببت تأخير شيء عن شيء وقال الثوري رأيت شيخا في مسجد الكوفة يقول أما في هذا المسجد منذ ثلاثين سنة أنتظر الموت أن ينزل بي ولو أتاني ما أمرته بشيء ولا نهيته عن شيء ولا لي على أحد شيء ولا لأحد عندي شيء وقال عبد الله بن ثعلبة تضحك ولعل أ كفاك قد خرجت من عند القصار ، وقال أبو محمد بن علي الزاهد خرجنا في جنازة بالكوفة وخرج فيها داود الطائي فانتبذ قعده ناحية وهي تدفن جثت فقعدت قريبا منه فتكلم قال : من خاف الوعيد قصر عليه البعد ومن طال أمه ضف عمله وكل ما هو أنت قريب . واعلم يا أخى أن كل شيء يشظك عن ربك فهو عليك مشيئ ومعلم أن أهل الدنيا جميعا من أهل القبور إنما يندمون على ما عطفون ويفرحون بما يقدمون فما ندم عليه أهل القبور أهل الدنيا عليه يقتلون وفيه يتنافسون وعليه عند القضاة يختصمون . وروى أن معروفا الكرخي رحمه الله تعالى أقام الصلاة قال محمد بن أبي توبة فقال لي تقدم فقلت إني إن صليت بكم هذه الصلاة لم أصل بكم غيرها فقال معروف وأنت تحدث نفسك أن تصلي صلاة أخرى نموذبا لله من طول الأمل فإنه يمنع من خير العمل وقال عمر بن عبد العزيز في خطبته إن الدنيا ليست بدار قرار كم دار كتب الله عليها الفناء وكتب على أهلها الظعن عنها فكم من عامر موثق عما قليل يهرب وكم من مقيم مفتبط عما قليل يظعن فأحسنوا رحمكم الله منها الرحلة بأحسن ما يحضرتمكم من الثقة وتزودوا فان خير الزاد التقوى إنما الدنيا كئى ظلال قلبي فذهب بينا ابن آدم في الدنيا ينافس وهو قدير العين إذ دعاه الله بقدره ورماء يوم حنقه فسلبه آثاره ودنياه وصير لقوم آخرين مصانعه ومضاه إن الدنيا لا تسر بقدر ماتضر إنما تسر قليلا وتحزن طويلا . وعن أبي بكر اللهديق رضي الله تعالى عنه

نفسه مطمئنة  
لا تنفد من جوهرها  
فان توجب القبض ولا  
يتلاطم بحر طبعها من  
أهوية الهوى حتى  
يظهر منه البسط وربما  
صار لئلا هذا القبض  
والبسط في نفسه لا من  
نفسه فتكون نفسه  
المطمئنة بطبع القلب  
فيجري القبض  
والبسط في نفسه  
المطمئنة وما لقلبه قبض  
ولا بسط لأن القلب  
متحصن بشعاع نور  
الروح مستقر في دعة  
القرب فلا قبض ولا  
بسط ( ومنها الفناء  
والبقاء ) قد قيل  
الفناء أن يفنى عن  
الخطوط فلا يكون له  
في شيء حظ بل يفنى

أنه كان يقول في خطبته أين الوضاعة الحسنة وجوههم للمحبون بشبابهم أين الملوك الذين بنوا المدن  
وحصنوها بالخيوطان أين الذين كانوا يملطون القلبة في مواطن الحرب قد تضع بهم الدهر فأصبحوا  
في ظلمات القبور الوحا الوحا ثم النجا النجا .

### ( بيان السبب في طول الأمل وعلاجه )

اعلم أن طول الأمل له سببان : أحدهما الجهل والآخر حب الدنيا أما حب الدنيا فهو أنه إذا أنس بها  
وشبهواتها ولذاتها وعلاقتها ثقل على قلبه مفارقتها فامتنع قلبه من الفكر في الموت الذي هو سبب مفارقتها  
وكل من كره شيئا دفعه عن نفسه والانسان مشغوف بالأمانى الباطلة فيمنى نفسه أبدا بما يوافق مراده  
وإنما يوافق مراده البقاء في الدنيا فلا يزال يتوهمه ويقدره في نفسه ويقدر توابع البقاء وما يحتاج  
إليه من مال وأهل ودار وأصدقاء ودواب وسائر أسباب الدنيا فيصير قلبه كغاطي هذا الفكر موقوفا  
عليه فلمه عن ذكر الموت فلا يقدر قربه فان خطر له في بعض الأحوال أمر الموت والحاجة إلى الاستعداد  
له سوف ووعد نفسه وقال الأيام بين يديك إلى أن تكبر ثم تتوب وإذا كبر فيقول إلى أن تصير شيخا  
فاذا صار شيخا قال إلى أن تفرغ من بناء هذه الدار وعمارة هذه الضيعة أو ترجع من هذه السفرة  
أو تفرغ من تدبير هذا الولد وجهازه وتدبير مسكن له أو تفرغ من قهر هذا العدو الذي يشمت بك  
فلا يزال يسوف ويؤخر ولا يغوص في شغل إلا ويتعلق باتمام ذلك الشغل عشرة أشغال أخرى وهكذا  
على التدريج يؤخر يوما بعد يوم ويفضي به شغل إلى شغل بل إلى أشغال إلى أن تحتطفه النية في وقت  
لا يحتسبها فطول عند ذلك حسرتة وأكثر أهل النار وصياحهم من سوف يقولون واحزننا من سوف  
والسوف السكين لا يدري أن الذي يدعو إلى التسويف اليوم هو معه غدا وإنما زاد بطول الله  
قوة ورسوخا ويظن أنه يتصور أن يكون الخائف في الدنيا والحافظ لها فراغ نظوهيات فما يفرغ  
منها إلا من أطرحها :

### فما قضى أحد منها لبائسه وما انتهى أرب إلا إلى أرب

وأصل هذه الأمانى كلها حب الدنيا والأنس بها والغفلة عن معنى قوله عليه السلام « أحب من أحببت فانك  
مفارقة (١) » . وأما الجهل فهو أن الانسان قد يعود على شبابه فيستبعد قرب الموت مع الشباب وليس  
يتفكر السكين أن مشايخ بلده لو عدوا لكانوا أقل من عشر رجال البلد وإنما قلوا الآن لا موت في الشباب  
أكثر فإلى أن يموت شيخ يموت ألف صبي وشاب وقد يستبعد الموت لصحته ويستبعد الموت فجأة ولا  
يدري أن ذلك غير بعيد وإن كان ذلك بعيدا فالمرض فجأة غير بعيد وكل مرض فائما يقع فجأة وإذا  
مرض لم يكن الموت بعيدا ولو تفكر هذا الغافل وعلم أن الموت ليس له وقت مخصوص من شباب  
وشيب وكهولة ومن صيف وشتاء وخريف وربيع من ليل ونهار اعظم استشهاده واشغل بالاستعداد  
له ولكن الجهل بهذه الأمور وحب الدنيا دعواه إلى طول الأمل وإلى الغفلة عن تقدير الموت القريب  
فهو أبدا يظن أن الموت يكون بين يديه ولا يقدر نزوله به ووقوعه فيه وهو أبدا يظن أنه يشيع الجنائز  
ولا يقدر أن تشيع جنازته لأن هذا قد تكرر عليه وألفه وهو مشاهدة موت غيره فأما موت نفسه  
فلم يألفه ولم يتصور أن يألفه فانه لم يقع وإذا وقع لم يقع دفعة أخرى بعد هذه فهو الأول وهو الآخر  
وسيله أن يفتيس نفسه بغيره ويهمل أنه لا بد وأن تحمل جنازته ويدفن في قبره ولعل اللبن الذي يشطى  
به لحد قد ضرب وفرغ منه وهو لا يدري فتسويفه جهل محض ، وإذا عرفت أن سببه الجهل  
وحب الدنيا فعلاجه دفع سببه أما الجهل فيدفع بالفكر الصافي من القلب الحاضر وبسبب الحكمة

(١) حديث أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم غير مرة .

عن الأشياء كلها  
شغلا بمن في فيه  
وقد قال عامر بن  
عبد الله لأبالي  
امرأة رأيت أم حانظا  
ويكون عفوفا فيها  
فله عليه مصروفا  
عن جميع الخالقات  
والبقاء يعقبه وهو  
أن يغنى عماله ويغنى  
عالمه تعالى . وقيل  
الباقى أن تصير  
الأشياء كلها له شيئا  
واحدا فيكون كل  
حركته في موافقة  
الحق دون مخالفة  
فصكان قابلا عن  
المخالقات باقيا في  
المواقفات . وعندى  
أن هذا الذى ذكره  
هذا القائل هو

الباقية من القلوب الطاهرة وأما حب الدنيا فالعلاج في إخراجها من القلب شديد وهو الداء المضال الذي أعيا الأولين والآخرين علاجه ولا علاج له إلا الإيمان باليوم الآخر وبما فيه من عظيم العقاب وجزيل الثواب ومهما حصل له اليقين بذلك ارتحل عن قلبه حب الدنيا فإن حب الخطيئة هو الذي يمحو عن القلب حب الحقير فإذا رأى حقارة الدنيا ونفاسة الآخرة استبكت أن يلتفت إلى الدنيا كلها وإن أعطى ملك الأرض من الشرق إلى المغرب وكيف وليس عنده من الدنيا إلا قدر يسير مكدر منفس فكيف يفرح بها أو يترسخ في القلب حبها مع الإيمان بالآخرة فنسأل الله تعالى أن يرينا الدنيا كما أراها الصالحين من عباده ولا علاج في تقدير الموت في القلب مثل النظر إلى من مات من الأقران والأشكال وأنهم كيف جاءهم الموت في وقت لم يعتسبوا أماناً كان مستعداً قد فاز فوزاً عظيماً وأما من كان مغروراً بطول الأمل فقد خسر خسرانا مبيناً فلينظر الإنسان كل ساعة في أطرافه وأعضائه وليتدبر أنها كيف تأكلها الديدان لاهالة وكيف تنفت عظامها وليتذكر أن الدود يبدأ بعدته التي أولاً والبسرى فما على بدنه شيء إلا وهو طعمة الدود وماله من نفسه إلا العلم والعمل الخالص لوجه الله تعالى وكذلك يتفكر فيما سنورده من عذاب القبر وواله منكر ونكير ومن الحشر والنشر وأحوال القيامة وقرع النداء يوم العرض الأكبر فأمثال هذه الأنكار هي التي تجدد ذكر الموت على قلبه وتدعوه إلى الاستعداد له .

( بيان مراتب الناس في طول الأمل وقصره )

اعلم أن الناس في ذلك يتفاوتون فمنهم من يأمل البقاء ويشتهي ذلك أبداً قال الله تعالى - يؤد أحدم ليعمر ألف سنة - ومنهم من يأمل البقاء إلى المهرم وهو أقصى العمر الذي شاهده ورآه وهو الذي يحب الدنيا حباً شديداً قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الشيخ شاب في حب طلب الدنيا وإن التفت ترقتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقيل مام<sup>(١)</sup> » ومنهم من يأمل إلى سنة فلا يشتغل بتدبير ما وراءها فلا يقدر لنفسه وجوداً في عام قابل ولكن هذا يستعد في الصيف للشتاء وفي الشتاء للصيف فإذا جمع ما يكفيه استغل بالعبادة ومنهم من يأمل مدة الصيف أو الشتاء فلا يدخر في الصيف ثياب الشتاء ولا في الشتاء ثياب الصيف ومنهم من يرجع أمله إلى يوم وليلة فلا يستعد إلا للهاره وأماله فلا قال عيسى عليه السلام : لاهتموا برزق غد فإن يكن غد من آجالكم فستأني فيه أرزاقكم مع آجالكم وإن لم يكن من آجالكم فلا تهتموا لآجال غيركم ومنهم من لا يجاوز أمله ساعة كما قال نبينا ﷺ « يا عبد الله إذا أصبحت فلا تذكر نفسك بالمساء وإذا أمسيت فلا تذكر نفسك بالصباح » ومنهم من لا يقدر البقاء أيضاً ساعة كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقيم مع القدرة على الماء قبل مضي ساعة ويقول املئ لا أبلغه ومنهم من يكون الموت نصب عينيه كأنه واقع به فهو ينتظره وهذا الإنسان هو الذي يصلي صلاة مودع وفيه ورد ما نقل عن معاذ بن جبل رضى الله تعالى عنه لما سأله رسول الله صلى الله عليه وسلم عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبها أخرى<sup>(٢)</sup> وكما نقل عن الأسود وهو حبشي أنه كان يصلي ليلاً ويلتفت يمينا وشمالاً فقال له قائل ما هذا قال أنظر ملك الموت من أي جهة يأتيني فهذه مراتب الناس ولكل درجات عند الله وليس من

(١) حديث الشيخ شاب في حب الدنيا وإن التفت ترقتاه من الكبر إلا الذين اتقوا وقيل مام لم أجده بهذا اللفظ وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة قال الشيخ شاب على حب اثنين طول الحياة وحب المال (٢) حديث سؤاله لمعاذ عن حقيقة إيمانه فقال ما خطوت خطوة إلا ظننت أني لا أتبها أخرى أبو نعم في الحلية من حديث أنس وهو ضيف .

مقام صحة التوبة  
النصح وليس من  
الفناء والبقاء في شيء  
ومن الإشارة إلى الفناء  
ماروى عن عبد الله  
ابن عمر أنه سلم عليه  
إنسان وهو في الطواف  
فلم يرد عليه فسكاه  
إلى بعض أصحابه فقالا  
له كنا نترأى الله في  
ذلك المكان . وقيل :  
الفناء هو التوبة عن  
الأشياء كما كان فناء  
موسى حين تجلى ربه  
للجبل . وقال الحراز :  
الفناء هو التلاشي  
بالحق والبقاء هو  
الحضور مع الحق .  
وقال الجنيد : الفناء  
استجماع الكل عن  
أوصافك واستئصال  
الكل منك بكلية

أمله مقصور على شهر كمن أمله شهر ويوم بل بينهما تفاوت في الدرجة عند الله فإن الله لا يظلم مثقال ذرة - ومن يعمل مثقال ذرة خيرا يره - ثم يظهر أثر قصر الأمل في البادرة إلى العمل وكل إنسان يدعى أنه قصير الأمل وهو كاذب وإنما يظهر ذلك بأعماله فإنه يعتنى بأسباب ربما لا يحتاج إليها في سنة فيدل ذلك على طول أمله وإنما علامة التوفيق أن يكون الموت نصب العين لا يفل عنه ساعة فليست معد للموت الذي يرد عليه في الوقت فإن عاش إلى المساء شكر الله تعالى على طاعته وفرح بأنه لم يضيع نهاره بل استوفى منه حظه وادخره لنفسه ثم يستأنف مثله إلى الصباح وهكذا إذا أصبح ولا يتيسر هذا إلا لمن فرغ القلب عن الغد وما يكون فيه فمثل هذا إذا مات سعد وغنم وإن عاش سر بحسن الاستعداد ولذة المناجاة فالموت له سعادة والحياة له مزيد فليكن الموت على بالك يأسكين فإن السير حث بك وأنت غافل عن نفسك ولعلك قد قاربت المنزل وقطعت المسافة ولا تكون كذلك إلا بمبادرة العمل اغتناما لكل نفس أمهات فيه .

### ( بيان البادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير )

اعلم أن من له أخوان غائبان وينتظر قدوم أحدهما في غد وينتظر قدوم الآخر بعد شهر أو سنة فلا يستعد للذي يقدم إلى شهر أو سنة وإنما يستعد للذي ينتظر قدومه غدا فلا استعداد نتيجة قرب الانتظار فمن انتظر مجيء الموت بعد سنة اشتغل قلبه بالمدة ونسى ما وراء المدة ثم يصبح كل يوم وهو منتظر للسنة بكاملها لا ينقص منها اليوم الذي مضى وذلك يمنع من مبادرة العمل أبدا فإنه أبدا يرى لنفسه متسما في تلك السنة فيؤخر العمل كما قال عليه السلام « ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطعيا أو فقرا منسيا أو مرضا مفسدا أو هرماء قيدا أو موتا مجهزا أو الدجال فالدجال شر غائب ينتظر أو الساعة أو الساعة أدهى وأمر » (١) وقال ابن عباس قال النبي صلى الله عليه وسلم لرجل وهو يمظ « اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك وصحتك قبل سقمك وغناك قبل فقرك وفراغك قبل شغلك وحياتك قبل موتك » (٢) وقال صلى الله عليه وسلم « نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ » (٣) أي أنه لا يفتنهما ثم يعرف قدرهما عند زوالهما وقال صلى الله عليه وسلم « من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل ألا إن سعade الله غالية ألا إن سعade الله الجنة » (٤) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « جاءت الراحفة تتبعها الرادفة وجاء الموت بما فيه » (٥) « وكان رسول الله صلى الله عليه وسلم إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية راتبة لازمة إما بشقاوة وإما بسعادة » (٦) وقال أبو هريرة « قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أنا النذير والموت المعير والساعة الوعد » (٧)

(١) حديث ما ينتظر أحدكم من الدنيا إلا غنى مطعيا أو فقرا منسيا الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة بلفظ هل ينتظرون إلا غناء الحديث وقال حسن ورواه ابن المبارك في الزهد ومن طريقه ابن أبي الدنيا في قصر الأمل بلفظ للصف وفيه من لم يسم (٢) حديث ابن عباس اغتنم خمسا قبل خمس شبابك قبل هرمك الحديث ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن ورواه ابن المبارك في الزهد من رواية عمرو بن ميمون الأزدی مرسل (٣) حديث نعمتان مغبون فيهما كثير من الناس الصحة والفراغ البخاري من حديث ابن عباس وقد تقدم (٤) حديث من خاف أدلج ومن أدلج بلغ المنزل الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن (٥) حديث جاءت الراحفة تتبعها الرادفة الحديث الترمذي وحسنه ابن أبي بن كعب (٦) حديث كان إذا أنس من أصحابه غفلة أو غرة نادى فيهم بصوت رفيع أتتكم المنية الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل من حديث زيد السلمي مرسل (٧) حديث أبي هريرة أنا النذير والموت المعير والساعة الموعد ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وأبو القاسم البغوي بإسناد فيه لين .

وقال إبراهيم بن  
شيبان علم الفناء  
والبقاء يدور على  
إخلاص الوجدانية  
وصحة العبودية وما  
كان غير هذا  
فهو من الخاليط  
والزندقة . وسئل  
الحراز ما علامة  
القاني ؟ قال علامة من  
ادعى الفناء ذهب  
حظه من الدنيا  
والآخرة إلا من الله  
تعالى . وقال أبو سعيد  
الحراز : أهل الفناء  
في الفناء صحتهم أن  
يصحبهم علم البقاء  
وأهل البقاء في البقاء  
صحتهم أن يصحبهم  
علم الفناء .

واعلم أن أقاويل  
الشيوخ في الفناء

وقال ابن عمر «خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه» (١) وقال صلى الله عليه وسلم «مثل الدنيا كمثل ثوب شق من أوله إلى آخره فبقي متعلقا بخيط في آخره فيوشك ذلك الخيط أن ينقطع» (٢) وقال جابر «كان رسول الله ﷺ إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه كأنه منذر جيش يقول صبحكم ومسيبتكم بعثت أنا والساعة كهاتين وقرن بين أصبعيه» (٣) وقال ابن مسعود رضى الله عنه «تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل الصدر انفسح قليل يا رسول الله هل لذلك من علامة تعرف قال نعم التجافي عن دار الفرور والانابة إلى دار الخلود والاستعداد للموت قبل نزوله» (٤) وقال السدي - الذي خلق الموت والحياة ليولكم أيكم أحسن عملا - أي أيكم أكثر للموت ذكرا وأحسن له استعدادا وأشد منه خوفا وحذرا وقال حذيفة مامن صباح ولا مساء إلا ومناد ينادي أيها الناس الرحيل الرحيل وتصديق ذلك قوله تعالى - إنها لإحدى الكبر نذيرا للبشر لمن شاء منكم أن يتقدم أو يتأخر في الموت وقال سعيد مولى بني تميم جلست إلى عامر بن عبد الله وهو يصلي فأوجز في صلاته ثم أقبل عليّ فقال أرحنى بحاجتك فاني أبادر قلت وما تبادر قال ملك الموت رحمك الله قال قممت عنه وقام إلى صلاته ومرداود الطائي فسأله رجل عن حديث فقال دعني إنما أبادر خروج نفسي قال عمر رضى الله عنه التؤدة في كل شيء خبر إلا في أعمال الخير للآخرة ، وقال النضر سمعت مالك بن دينار يقول لنفسه ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر ويحك بادري قبل أن يأتيك الأمر حتى كرر ذلك ستين مرة أجمعه ولا يراني. وكان الحسن يقول في مواعظته المبادرة البادرة فانما هي الأنفاس لو حبست انقطعت عنكم أعمالكم التي تتقربون بها إلى الله عز وجل رحم الله امرأ نظر إلى نفسه وبكى على عدد ذنوبه ثم قرأ هذه الآية - إنما نعد لهم عذابا - يعني الأنفاس آخر العدد خروج نفسك آخر العدد فراق أهلك آخر العدد دخولك في قبرك واجتهد أبو موسى الأشعري قبل موته اجتهدا شديدا قليل له لو أمسكت أو رفقت بنفسك بعض الرفق فقال إن الخيل إذا أرملت تقاربت رأس مجراها أخرجت جميع ما عندها والذي بقي من أجلى أقل من ذلك قال فلم يزل على ذلك حتى مات، وكان يقول لامرأته شدي رحلك فليس على جهنم معبر وقال بعض الخلفاء على منبره: عباد الله اتقوا الله ما استطعتم وكونوا قوما صيحبهم ثاقبوا وعلوا أن الدنيا ليست لهم بدار فاستبدلوا واستعدوا للموت فقد أظلمكم وترحلوا فقد جد بكم وإن غاية تنقصها اللحظة وتهدمها الساعة لجديرة بقصر الدت وإن غابا يجد به الجديدان الليل والنهار حري بسرعة الأوبة وإن قادما يحل بالفوز أو الشقة والمستحق لأفضل العدة فالتقى عند ربه من ناصح نفسه وقدم ثوبته وغلب شهوته فان أجله مستور عنه وأمله خادع له والشيطان موكل به يئنيه التوبة ليسوفها ويزين إليه العصية ليرتكبها حتى تهجم منيته عليه أغفل ما يكون عنها وإنه ما بين أحدكم وبين الجنة أو النار إلا الموت أن ينزل به فيا لها حيرة على ذي غفلة العبد فيغلب كون

والبقاء كثيرة فبعضها إشارة إلى فناء الخالقات وبقاء للواقعات وهذا يقتضيه التوبة النصوح فهو ثابت بوصف التوبة وبعضها يشير إلى زوال الرغبة والحرص والأمل وهذا يقتضيه الزهد وبعضها إشارة إلى فناء الأوصاف للذمومة وبقاء الأوصاف الحمودة وهذا يقتضيه تزكية النفس وبعضها إشارة إلى حقيقة الفناء المطلق وكل هذه الاشارات فيها معنى الفناء من وجه ولكن الفناء المطلق هو ما يستولى من أمر الحرق سبحانه وتعالى على العبد فيغلب كون

(١) حديث ابن عمر خرج رسول الله صلى الله عليه وسلم والشمس على أطراف السمف فقال ما بقي من الدنيا إلا كما بقي من يومنا هذا في مثل ما مضى منه ابن أبي الدنيا فيه بإسناد حسن والترمذي نحوه من حديث أبي سعيد وحسنه (٢) حديث مثل الدنيا مثل ثوب شق من أوله إلى آخره الحديث ابن أبي الدنيا فيه من حديث أنس ولا يصح (٣) حديث جابر كان إذا خطب فذكر الساعة رفع صوته واحمرت وجنتاه الحديث مسلم وابن أبي الدنيا في قصر الأمل واللفظ له (٤) حديث ابن مسعود تلا رسول الله صلى الله عليه وسلم - فمن يرد الله أن يهديه يشرح صدره للإسلام - فقال إن النور إذا دخل القلب انفسح الحديث ابن أبي الدنيا في قصر الأمل والحاكم في المستدرک وقد تقدم .



أن يكون عمره عليه حجة وأن ترديه أيامه إلى شقوة جعلنا الله وإياكم ممن لا تبطره نعمة ولا تنصربه  
عن طاعة الله معصية ولا يخل به بعد الموت حسرة إنه مبيع الدعاء وإنه بيده الخير دائماً فما لم يشاء وقال  
بعض المفسرين في قوله تعالى - فنتم أنفسكم - قال بالشهوات واللذات - وتربصتم - قال بالتوبة - وارتبتم -  
قال شككتم - حتى جاء أمر الله - قال الموت - وغرکم بالله الغرور - قال الشيطان . وقال الحسن  
تصبروا وتشددوا قائما هي أيام قلائل وإنما أنتم ركب وقوف يوشك أن يدعى الرجل منكم فيجيب  
ولا يلتفت فأتفلوا بصالح ما يحضر تكم وقال ابن مسعود ما منكم من أحد أصبح إلا وهو ضيف وماله  
عارية والضيف مرتحل والغارية مؤداة وقال أبو عبيدة الباجي : دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات  
فيه فقال مرحبا بكم وأهلا بكم الله بالسلام وأهلنا وإياكم دار المقام هذه علانية حسنة إن صبرتم  
وصدقتم واتقيتم فلا يكن حظكم من هذا الخبر رحمكم الله أن تسمعه بهذه الأذن وتخرجوه من هذه  
الأذن فإن من رأى محمدا صلى الله عليه وسلم فقد رآه غاديا ورائحا لم يضع لينة على لينة ولا قصبة على قصبة  
ولكن رفع له علم فشمم إليه الوحا الوحا النجا النجا اعلام تخرجون أيتيم ورب الكعبة كأنكم والأمر  
معا رحم الله عبدا جعل العيش عيشا واحدا فأكل كسرة ولبس خلتا ولزق بالأرض واجتهد في العبادة  
وبكى على الخطيئة وهرب من العقوبة وابتغى الرحمة حتى يأتيه أجله وهو على ذلك<sup>(١)</sup> . وقال عاصم الأحول  
قال لي فضيل الرقاشي وأنا سائله يا هذا لا يشغلنك كثرة الناس عن نفسك فإن الأمر يخلص إليك  
دونهم ولا تنقل أذهب ههنا وههنا فيقطع عنك النهار في لاشئ فإن الأمر محفوظ عليك ولم تر شيئا  
قط أحسن طلبا ولا أسرع إدراكا من حسنة حديثه لذنب قديم .

### ( الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عنده )

اعلم أنه لو لم يكن بين يدي العبد للسكين كرب ولا هول ولا عذاب سوى سكرات الموت مجرد هال كان  
جدرا بأن يتغص عليه عيشه ويتكدر عليه سروره ويفارقه سهوه وغفلته وحقا بأن يطول فيه  
فكره ويعظم له استمداده لاسما وهو في كل نفس بصدده كما قال بعض الحكماء كرب يبدسواك لا تدرى  
متى يفشاك . وقال لقمان لابنه يا بني أمر لا تدرى متى يلقاك استمد له قبل أن يفجأك والعجب أن  
الإنسان لو كان في أعظم اللذات وأطيب مجالس اللهو فانتظر أن يدخل عليه جندي فيضربه خمس  
خشبات لتكدرت عليه لذته وفسد عليه عيشه وهو في كل نفس بصدده أن يدخل عليه ملك الموت  
بسكرات التزع وهو عنه غافل لما لهذا سبب الإلجاء والغرور . واعلم أن شدة الألم في سكرات  
الموت لا يعرفها بالحقيقة إلا من ذاقها ومن لم يذوقها فاعلم يعرفها إما بالقياس إلى الآلام التي أدر كها وإما  
بالاستدلال بأحوال الناس في التزع على شدة ما هم فيه فأما القياس الذي يشهد له فهو أن كل عضو  
لأرواح فيه فلا يحس بالألم فإذا كان فيه الروح فالمدرك للألم هو الروح فمهما أصاب العضو جرح  
أو حريق سرى الأثر إلى الروح فبقدر ما يسرى إلى الروح يتألم واللؤم يتفرق على اللحم والدم وسائر  
الأجزاء فلا يصيب الروح إلا بعض الألم فإن كان في الآلام ما يباشر نفس الروح ولا يلاقى غيره فما أعظم  
ذلك الألم وما أشده . والتزع عبارة عن مؤلم تزل بنفس الروح فاستغرق جميع أجزائه حتى لم يبق  
جزء من أجزاء الروح المنتشر في أعماق البدن إلا وقد حل به الألم فلو أصابته شوكة فالألم الذي  
يجده إنما يجري في جزء من الروح يلاقى ذلك الموضع الذي أصابته الشوكة وإنما يعظم أثر  
الاحتراق لأن أجزاء النار تنوص في سائر أجزاء البدن فلا يبقى جزء من العضو المحترق ظاهرا

(١) حديث أبي عبيدة الباجي دخلنا على الحسن في مرضه الذي مات فيه فقال مرحبا بكم الحديث  
ابن أبي الدنيا في قصر الأمل وابن حبان في الثقات وأبو نعيم في الحلية من هذا الوجه .

الحق سبحانه وتعالى  
على كون العبد وهو  
يتقسم إلى فناء ظاهر  
وفناء باطن فأما الفناء  
الظاهر فهو أن  
يتجلى الحق سبحانه  
وتعالى بطريق الأفعال  
ويستلب عن العبد  
اختياره وإرادته فلا  
يرى لنفسه ولا لغيره  
أملا إلا بالحق ثم  
يأخذ في المعاملة  
مع الله تعالى بحسبه  
حتى سمع أن بعض  
من أقبح في هذا  
المقام من الفناء كان  
يبقى أياما لا يتناول  
الطعام والشراب حتى  
يتجرد له فعل  
الحق فيه ويقبض  
الله تعالى له من

وباطنا لإلوتصيه النار فتحسه الأجزاء الروحانية المنتشرة في سائر أجزاء اللحم . وأما الجراحة فأنما تصيب للوضع الذي منه الحديد قطع فكان لذلك ألم الجرح دون ألم النار فآلم التزعج بهجم على نفس الروح ويستغرق جميع أجزائه فانه التزوع المجذوب من كل عرق من العروق وعصب من الأعصاب وجزء من الأجزاء ومفصل من المفاصل ومن أصل كل شعرة وبشرة من العرق إلى القدم فلا تسأل عن كربيه وألمه حتى قالوا إن اللوت لأشد من ضرب بالسيف ونشر بالمنشير وقرض بالمقاريض لأن قطع البدن بالسيف إنما يؤلم لتعلقه بالروح فكيف إذا كان التناول للباشر نفس الروح وأنما يستنثى المضروب ويصبح لبقاء قوته في قلبه وفي لسانه وأنما انقطع صوت الميت وصياحه مع شدة ألمه لأن الكرب قد بالغ فيه وتساعد على قلبه وبلغ كل موضع منه فهذه كل قوة وضعف كل جراحة فلم يترك له قوة الاستغانة . أما العقل فقد غشيه وشوشه وأما اللسان فقد أبكمه وأما الأطراف فقد ضعفها ويود لو قدر على الاستراحة بالأنين والصياح والاستغانة ولكنه لا يقدر على ذلك فان بقيت فيه قوة سمعت له عند نزع الروح وجذبها خوارجا وغرغرة من حلقه وصدره وقد تغير لونه واربدا حتى كأنه ظهر منه التراب الذي هو أصل فطرته وقد جذب منه كل عرق على حياله فالألم منتشر في داخله وخارجه حتى ترتفع الحدقتان إلى أعالي أجفانه وتتقلص الشفتان ويتقلص اللسان إلى أصله وترتفع الأثنيان إلى أعالي موضعهما وتخضر أنامله فلا تسأل عن بدن يجذب منه كل عرق من عروقه ولو كان المجذوب عرقا واحدا لكان ألمه عظيما فكيف والمجذوب نفس الروح التآلم لا من عرق واحد بل من جميع العروق ثم يموت كل عضو من أعضائه تدريجا فبردا ولا قدما ثم ساقا ثم غداءه ولكل عضو سكرة بعد سكرة وكربة بعد كربة حتى يبلغ بها إلى الحلقوم فند ذلك ينقطع نظره عن الدنيا وأهلها ويطلق دونه باب التوبة وتحيط به الحسرة والندامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «تقبل توبة العبد ما لم يفرغ» (١) وقال مجاهد في قوله تعالى - وليست التوبة للذين يعملون السيئات حتى إذا حضر أحدهم الموت قال إني تبت الآن - قال إذا عاين الرسل فند ذلك تبدوله صفحة وجهه ملك الموت فلا تسأل عن طعم مرارة الموت وكربه عند ترادف سكراته ولذلك كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «اللهم هوّن على محمد سكرات الموت» (٢) والناس إنما يستعبدون منه ولا يستعظمونه لجهلهم به فان الأشياء قبل وقوعها إنما تدرك بنور النبوة والولاية ولذلك عظم خوف الأنبياء عليهم السلام والأولياء من الموت حتى قال عيسى عليه السلام يا معشر الخواريين ادعوا الله تعالى أن يهون على هذه السكرة يعني الموت فقد خفت الموت مخافة أوقفني خوفا من الموت على الموت. وروى أن نمران بن إسرائيل مرّ بمقبرة فقال بعضهم لبعض لودعوتهم الله تعالى أن يخرج لكم من هذه المقبرة ميتا تسألونه فدعوا الله تعالى فاذا هم رجل قد قام وبين عينيه أثر السجود قد خرج من قبر من القبور فقال يا قوم ما أردتم مني لقد ذقت الموت منذ خمسين سنة ما سكنت مرارة الموت من قلبي وقالت عائشة رضي الله عنها لا أغبط أحدا يهون عليه الموت بعد الذي رأييت من شدة موت رسول الله صلى الله عليه وسلم. وروى أنه عليه السلام كان يقول «اللهم إنيك تأخذ الروح من بين العصب والعصب والأنامل اللهم فأعني على الموت وهوّنه عليّ» (٣) وعن الحسن «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر الموت وغصته وألمه فقال

بطعمه وبسقيه كيف شاء وأحب وهذا لعمري فناء لأنه في عن نفسه وعن الغير نظرا إلى فعل الله تعالى بفناء فعل غير الله والفناء الباطن أن يكشف تارة بالصفات وتارة بمشاهدة آثار عظمة الذات فيستولي على باطنه أمر الحق حتى لا يبقى له هاجس ولا وسواس وليس من ضرورة الفناء أن يغيب إحساسه وقد يتفق غيبة الإحساس لبعض الأشخاص وليس ذلك من ضرورة الفناء على الإطلاق وقد سألت الشيخ أبا محمد بن عبد الله البصري

(١) حديث إن الله يقبل توبة العبد ما لم يفرغ الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث ابن عمر

(٢) حديث كان يقول اللهم هوّن على محمد سكرات الموت تقدم (٣) حديث كان يقول اللهم إنيك تأخذ الروح من بين العصب والعصب والأنامل الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث صعبة ابن غيلان الجعفي وهو معتل سقط منه الصحابي والتابعي .

هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف<sup>(١)</sup>». «وسئل صلى الله عليه وسلم عن اللوت وشدته فقال إن أهون اللوت بمنزلة حسكة في صوف فهل تخرج الحسكة من الصوف إلا ومعها صوف<sup>(٢)</sup>». «ودخل صلى الله عليه وسلم على مريض ثم قال إني أعلم ما يلقي مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته<sup>(٣)</sup>» وكان على كرم الله وجهه يحض على القتال ويقول إن لم تقتلوا تموتوا والذي نفسي بيده لألف ضربة بالسيف أهون على من موت على فراش وقال الأوزاعي بلغنا أن الميت يجد ألم اللوت ما لم يبعث من قبره وقال شداد بن أوس الموت أقطع هول في الدنيا والآخرة على المؤمن وهو أشد من نشر بالناشير وقرض بالمقاريض وعلى في القدرور ولو أن الميت نشر فأخبر أهل الدنيا بالموت ما اتفقوا بيش ولا قدوا بنوم. وعن زيد بن أسلم عن أبيه قال إذا بقى على المؤمن من درجاته شيء لم يبلغها بعمله شدد عليه اللوت ليبلغ بسكرات الموت وكرهه درجته في الجنة وإذا كان للكافر معروف لم يجزبه هون عليه في الموت ليستكمل ثواب معروفة فيصير إلى النار وعن بعضهم أنه كان يسأل كثيرا من المرضى كيف يجدون اللوت فقال مرض قيل له فأنت كيف تجده فقال كأن السموات مطبقة على الأرض وكأن نفسي يخرج من قف إبرة وقال صلى الله عليه وسلم «موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر<sup>(٤)</sup>» وروى عن مكحول عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال «لو أن شجرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بأذن الله تعالى لأن في كل شجرة للوت ولا يقع اللوت بشيء إلا مات<sup>(٥)</sup>» وروى «لو أن قطرة من ألم اللوت وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت<sup>(٦)</sup>» وروى أن إبراهيم عليه السلام لما مات قال الله تعالى له كيف وجدت اللوت يا خليلي قال كسفود جعل في صوف رطب ثم جذب فقال أما إنا قد هونا عليك وروى عن موسى عليه السلام أنه لما صارت روحه إلى الله تعالى قال له ربه يا موسى كيف وجدت اللوت قال وجدت نفسي كالصفور حين يقلى على القلى لا يموت فيستريح ولا ينجو فيطير. وروى عنه أنه قال وجدت نفسي كشاة حية تملغ بيد القصاب وروى عن النبي صلى الله عليه وسلم «أنه كان عنده قدح من ماء عند اللوت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هوّن على سكرات الموت<sup>(٧)</sup>»

(١) حديث الحسن أن رسول الله صلى الله عليه وسلم ذكر اللوت وغصته وأله فقال هو قدر ثلثائة ضربة بالسيف ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث مثل عن اللوت وشدته فقال إن أهون اللوت بمنزلة حسكة الحديث ابن أبي الدنيا فيه من رواية شهر بن حوشب مرسلًا (٣) حديث دخل على مريض فقال إني أعلم ما يلقي مامنه عرق إلا ويألم للموت على حدته ابن أبي الدنيا فيه من حديث سلمان بسند ضعيف ورواه في المرض والكفارات من رواية عبيد ابن عمير مرسلًا مع اختلاف ورجاله ثقات (٤) حديث موت الفجأة راحة للمؤمن وأسف على الفاجر أحمد من حديث عائشة باسناد صحيح قال وأخذة أسف ولأبي داود من حديث خالد السلمي موت الفجأة أخذة أسف (٥) حديث مكحول لو أن شجرة من شعر الميت وضعت على أهل السموات والأرض لما اتوا بالحديث ابن أبي الدنيا في اللوت من رواية أبي ميسرة رفعه وفيه لو أن ألم شجرة ، وزاد وإن في يوم القيامة لتسعين هولاً أدناها هولاً يضاعف على اللوت سبعين ألف ضعف وأبو ميسرة هو عمرو بن شرحبيل والحديث مرسل حسن الاسناد (٦) حديث لو أن قطرة من اللوت لو وضعت على جبال الدنيا كلها لذابت لم أجده أصلاً ولعل للصف لم يورده حديثاً فإنه قال وروى (٧) حديث إنه كان عنده قدح من ماء عند اللوت فجعل يدخل يده في الماء ثم يمسح بها وجهه ويقول اللهم هوّن على سكرات اللوت متفق عليه من حديث عائشة .

وقلت له هل يكون بقاء التخيلات في السر ووجود الوسواس من الشرك الحنفى وكان عندي أن ذلك من الشرك الحنفى فقال لي هذا يكون في مقام الفناء ولم يذكر أنه هل هو من الشرك الحنفى أم لا ثم ذكر حكاية مسلم بن يسار أنه كان في الصلاة فوقمت أسطوانة في الجامع فأنزعج لهدتها أهل السوق فدخلوا المسجد فرأوه في الصلاة ولم يحس بالأسطوانة ووقعها فهنا هو الاستغراق والفناء باطنياً ثم قد يتسع وعاءه حتى لعله يكون

وقاطمة رضى الله عنها تقول واكرىاه لسكربك يا أبتاه وهو يقول لا كرب على أيك بعد اليوم<sup>(١)</sup> وقال عمر رضى الله عنه لسكرب الأخبار يا كعب حدثنا عن الموت فقال نعم يا أمير المؤمنين إن الموت كمن كثير الشوك أدخل في جوف رجل وأخذت كل شوكة بقرق ثم جذبه رجل شديدا لجذب فأخذ ما أخذ وأبقى ما أبقي . وقال النبي صلى الله عليه وسلم « إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض تقول عليك السلام تفارقتى وأفارقك إلى يوم القيامة<sup>(٢)</sup> » فهذه سكرات الموت على أولياء الله وأحبابه ، فما حالنا ونحن للممكون في المعاصى وتوالى علينا من سكرات الموت بقية الدواهي فان دواهي الموت ثلاث . الأولى : شدة النزاع كاذكرناه . الداهية الثانية مشاهدة صورة ملك الموت ودخول الروح والخوف منه على القلب فلو رأى صورته التي قبض عليها روح العبد المذنب أعظم الرجال قوة لم يطق رؤيته ، فقد روى عن إبراهيم الخليل عليه السلام أنه قال لملك الموت هل تستطيع أن ترى صورتك التي قبض عليها روح الفاجر ؟ قال لا تطبق ذلك . قال بلى . قال فأعرض عني فأعرض عنه ثم التفت فاذا هو برجل أسود قائم الشعر منتن الريح أسود الثياب يخرج من فيه ومناخيره لهيب النار والدخان فتنش على إبراهيم عليه السلام ثم أفاق وقد عاد ملك الموت إلى صورته الأولى فقال يا ملك الموت لو لم يلق الفاجر عند الموت لإصورة وجهك لكان حسبه ، وروى أبو هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم « أن داود عليه السلام كان رجلا غيورا وكان إذا خرج أغلق الأبواب فأغلق ذات يوم وخرج فأشرفت امرأته فاذا هي برجل في النار قالت من أدخل هذا الرجل لئن جاء داود ليلقين منه عناء فجاء داود فرآه فقال من أنت فقال أنا الذي لا أهلب الملوك ولا يمنع مني الحجاب فقال فأنت والله إذن ملك الموت وزمل داود عليه السلام مكانه<sup>(٣)</sup> » وروى أن عيسى عليه السلام مر بمجمعة فضر بها برجله فقال تكلمى بأذن الله قالت يا روح الله أنا ملك زمان كذا وكذا بينا أنا جالس في ملكي على تاجي وحولي جنودى وحشمي على سريري ملكي إذ بدا لي ملك الموت فزال مني كل عضو على حياله ثم خرجت نفسى إليه فاليك ما كان من تلك الجموع كان فرقة وياليت ما كان من ذلك الأنس كان وحشة ، فهذه داهية يلقاها الصاة ويكتفها المطيعون ، فقد حكى الأنبياء مجرد سكرة النزاع دون الروعة التي يدركها من يشاهد صورة ملك الموت كذلك ولو رآها في منامه ليلة لتنفص عليه بقية عمره فكيف برؤيته في مثل تلك الحال . وأما اللطيف فانه يراه في أحسن صورة وأجملها ، فقد روى عكرمة عن ابن عباس أن إبراهيم عليه السلام كان رجلا غيورا وكان له بيت يتعبد فيه فاذا خرج أغلقه فرجع ذات يوم فاذا برجل في جوف البيت فقال من أدخلك دارى فقال أدخلنيها ربيها فقال أنا ربيها فقال أدخلنيها من هو أملك بها مني ومنك فقال من أنت من الملائكة قال أنا ملك الموت قال هل تستطيع أن ترى الصورة التي قبض فيها روح المؤمن ؟ قال نعم فأعرض عني فأعرض ثم التفت فاذا هو بشاب قد ذكر من حسن وجهه وحسن ثيابه وطيب ريحه فقال يا ملك الموت لو لم يلق المؤمن عند الموت إلا صورتك كان حسبه ومنها مشاهدة المالكين الحافظين . قال وهيب : بلغنا أنه مامن ميت يموت حتى يترأى له ملكاه

(١) حديث إن فاطمة قالت واكرىاه لسكربك يا أبتاه الحديث البخارى من حديث أنس بلفظ واكرىه أبتاه وفي رواية لابن خزيمة واكرىاه (٢) حديث إن العبد ليعالج كرب الموت وسكرات الموت وإن مفاصله ليسلم بعضها على بعض الحديث رواه في الأربعين لأبي هدية إبراهيم بن هدية عن أنس وأبو هدية هالك (٣) حديث أبي هريرة إن داود كان رجلا غيورا الحديث أحمد بإسناد جيد نحوه وابن أبي الدنيا في كتاب الموت بلفظه .

متحققا بالفناء ومعناه روحا وقلبا ولا يغيب عن كل ما يجري عليه من قول وفعل ويكون من أقسام الفناء أن يكون في كل فعل وقول مرجعه إلى الله وينتظر الاذن في كليات أموره ليكون في الأشياء بالله لا بنفسه فتارك الاختيار منتظر لفعل الحق فان وصاحب الانتظار لاذن الحق في كليات أموره راجع إلى الله يباطنه في جزئياتها فان ومن ملكه الله تعالى اختياره وأطلقه في التصرف يختار كيف شاء وأراد لا منتظرا للفعل ولا منتظرا للاذن هو باقى والباقى في مقام

السكرات عملها فان كان مطيعا قال له جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس صدق أجلسنا وعمل صالح أحضرنا ، وإن كان فاجرا قال له لا جزاك الله عنا خيرا فرب مجلس سوء أجلسنا وعمل غير صالح أحضرنا وكلام قبيح أسمعنا فلا جزاك الله عنا خيرا فذلك شخص بصر البيت إليهما ولا يرجع إلى الدنيا أبدا. الداهية الثالثة : مشاهدة العصاة مواضعهم من النار وخوفهم قبل المشاهدة فاتهم في حال السكرات قد تمأذلت قوام واستسلمت للخروج أرواحهم ولن تخرج أرواحهم ما لم يسموا التهمة ملك الموت بأحد البشريين إما أشر يا عدو الله بالنار أو أشر يا ولي الله بالجنة ، ومن هذا كان خوف أرباب الأبواب ، وقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من أحب لقاء الله أحب لقاء الله لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه فقالوا كلنا نكره الموت قال ليس ذاك بذلك إن المؤمن إذا فرج له عما هو قادم عليه أحب لقاء الله وأحب لقاءه <sup>(٢)</sup> » وروى أن حذيفة بن اليمان قال لابن مسعود وهو لما به من آخر الليل قم فانظري ساعة هي قيام ابن مسعود ثم جاءه فقال قد طلعت الحمراء فقال حذيفة أعوذ بالله من صباح إلى النار ، ودخل مروان على أبي هريرة فقال مروان اللهم خفف عنه فقال أبو هريرة اللهم اشد ثم بكى أبو هريرة وقال والله ما أبكي حزنا على الدنيا ولا جزعا من فراقكم ولكن أنتظر إحدى البشريين من ربي يمنة أم بئرا ، وروى في الحديث عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « إن الله إذا رضى عن عبد قال يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه ذرعه حسبي من عمله قد بلوته فوجدته حيث أحب فينزل ملك الموت ومعه خمسمائة من الملائكة ومعهم قضبان الريحان وأصول الزعفران كل واحد منهم يبشره ببشارة سوى بشارة صاحبه وتقوم الملائكة سفينة لخروج روحه معهم الريحان فإذا نظر إليهم إبليس وضع يده على رأسه ثم صرخ قال فيقول له جنوده مالك يا سيدنا فيقول أمانتوني هذا العبد من الكرامة أين كنتم من هذا قالوا قد جهدنا به فكان مصوما <sup>(٣)</sup> » وقال الحسن لأرواح المؤمنين إياي لقاء الله ومن كانت راحته في لقاء الله تعالى فيوم الموت يوم سروره وفرحه وأمنه وعزه وشرفه ، وقيل لجابر بن زيد عند الموت ما تشتهي قال نظرة إلى الحسن فلما دخل عليه الحسن قيل له هذا الحسن فرفع طرفه إليه ثم قال يا إخواناه الساعة والله أفارقكم إلى النار أو إلى الجنة ، وقال محمد بن واسع عند الموت يا إخواناه عليكم السلام إلى النار أو يوفوا الله وتمنى بعضهم أن يبقى في الترع أبدا ولا يميت ثواب ولا عقاب . يخوف سوء الخاتمة قطع

(١) حديث لن يخرج أحدكم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره وحتى يرى مقعده من الجنة أو النار ابن أبي الدنيا في الموت من رواية رجل لم يسم عن أبي موقوفا لا يخرج نفس ابن آدم من الدنيا حتى يعلم أين مصيره إلى الجنة أم إلى النار وفي رواية حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار وفي الصحيحين من حديث عبادة بن الصامت ما يشهد لذلك إن المؤمن إذا حضره الموت بشر برضوان الله وكرامته وإن الكافر إذا حضر بشر بعذاب الله وعقوبته الحديث (٢) حديث من أحب لقاء الله أحب لقاءه ومن كره لقاء الله كره لقاءه الحديث متفق عليه من حديث عبادة بن الصامت (٣) حديث إن الله إذا رضى على عبده قال يا ملك الموت اذهب إلى فلان فأتني بروحه لأرجمه الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب الموت من حديث تميم الداري بإسناد ضعيف بزيادة كثيرة ولم يصرح في أول الحديث برفعه وفي آخره ما دل على أنه مرفوع وللإسناد من حديث أبي هريرة بإسناد صحيح إذا حضر الميت أتمه ملائكة الرحمة بحريرة يضاء فيقولون أخرجني راضية مرضية عنك إلى روح الله وريحان ورب راض غير غضبان الحديث .

لا يحجب الحق عن  
الحق ولا الخلق عن  
الحق والفاني محبوب  
بالحق عن الخلق  
والفناء الظاهر لأرباب  
القلوب والأحوال  
والفناء الباطن لمن  
أطلق عن وثاق  
الأحوال وصار بالله  
لا بالأحوال وخرج  
من القاب فصار مع  
مقلبه لأمع قلبه .  
[الباب الثاني والستون]  
في شرح كلمات مشيرة  
إلى بعض الأحوال في  
اصطلاح الصوفية  
أخبرنا الشيخ الثقة  
أبو الفتح محمد بن  
عبد الباقي بن سليمان  
إجازة قال أنا أبو الفضل  
أحمد بن أحمد قال أنا  
الحافظ أبو نعيم

قلوب العارفين وهو من الدواهي العظيمة عند الموت وقد ذكرنا معنى سوء الخاتمة وشدة خوف العارفين منه في كتاب الخوف والرجاء وهو لائق بهذا الوضع ، ولكننا لانطول بذكره وإعادته .  
( بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت )

اعلم أن المحبوب عند الموت من صورة المحتضر هو الهدوء والسكون ومن لسانه أن يكون ناطقا بالشهادة ومن قلبه أن يكون حسن الظن بالله تعالى . أما الصورة فقد روى عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال « ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه ودمعت عيناه ويشت شفتاه فهي من رحمة الله قد نزلت به وإذا غط غطيط الخنوق وأحمر لونه وارتدت شفتاه فهو من عذاب الله قد نزل به <sup>(١)</sup> » وأما انطلاق لسانه بكلمة الشهادة فهي علامة الخير قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « لقنوا موتاكم لا إله إلا الله <sup>(٢)</sup> » وفي رواية حذيفة « فاتها تهديم ما قبلها من الخطايا <sup>(٣)</sup> » وقال عثمان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة <sup>(٤)</sup> » وقال عبيد الله وهو يشهد وقال عثمان إذا احتضر الميت فلقنوه لا إله إلا الله فإنه ما من عبد يحتم له بها عند موته إلا كانت زاده إلى الجنة . وقال عمر رضى الله عنه : أحضرنا أمواتا كم ذكرهم فأنهم يرون مالاترون ولقنوم لا إله إلا الله . وقال أبو هريرة سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « حضر ملك الموت رجلا يموت فظن في قلبه فلم يجد فيه شيئا ففك لحية فوجد طرف لسانه لاصقا بحنكته يقول لا إله إلا الله ففصر له بكلمة الاخلاص <sup>(٥)</sup> » وينبغي للملقن أن لا يلج في التلقين ولكن يלטف فربما لا ينطق لسان المريض فيشق عليه ذلك ويؤدي إلى استئفاله التلقين وكراهيته للكلمة ويغشى أن يكون ذلك سبب سوء الخاتمة ، وإنما معنى هذه الكلمة أن يموت الرجل وليس في قلبه شيء غير الله فإذا لم يبق له مطلوب سوى الواحد الحق كان قدومه بالموت على محبوبه غاية النعيم في حقه وإن كان القلب مشغولاً بالدنيا ملتفتاً إليها متأسفاً على لذاتها وكانت الكلمة على رأس اللسان ولم ينطبق القلب على تحقيقها وقع الأمر في خطر المشيئة فإن مجرد حركة اللسان قليل الجدوى إلا أن يفضل الله تعالى بالقبول . وأما حسن الظن فهو مستحب في هذا الوقت وقد ذكرنا ذلك في كتاب الرجاء وقد وردت الأخبار بفضل حسن الظن بالله ، دخل واثلة بن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله قال أغرقني ذنوب لي وأشرفت على هلكة ولكن أرجو رحمة ربي فكبر واثلة وكبر أهل البيت بتكبيره وقال الله أكبر سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يقول الله تعالى أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء <sup>(٦)</sup> » ودخل النبي صلى الله عليه وسلم على شاب وهو يموت فقال : كيف تجحدك قال أرجو الله وأخاف ذنوبي فقال النبي صلى الله عليه وسلم ما اجتمعا في قلب عبد في مثل هذا

الأسفها قال تناهد ابن إبراهيم قال ثنا أبو مسلم الكشي قال ثنا مسور بن عيسى قال ثنا القاسم بن يحيى قال ثنا ياسين الزيات عن أبي الزبير عن جابر عن النبي صلى الله عليه وسلم قال « إن من معادن التقوى تملك إلى ما قد علمت علم مالم تعلم والتقص فيما علمت قلة الزيادة فيه وإنما زهد الرجل في علم مالم يعلم قلة الانتفاع بما قد علم » فتناجى الصوفية أحكموا أساس التقوى وتعلموا العلم لله تعالى وعملوا بما علموا لموضع تقواهم فطمعهم الله تعالى مالم

(١) حديث ارقبوا الميت عند ثلاث إذا رشح جبينه وذرفت عيناه الحديث الترمذي الحكيم في نوادر الأصول من حديث سلمان ولا يصح (٢) حديث لقنوا موتاكم لا إله إلا الله تقدم (٣) حديث حذيفة فاتها تهديم ما قبلها تقدم (٤) حديث من بات وهو يعلم أن لا إله إلا الله دخل الجنة تقدم . (٥) حديث أبي هريرة حضر ملك الموت رجلا يموت فظن في قلبه فلم يجد فيه شيئا الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب المحتضرين وللطبراني والبيهقي في الشعب وإسناده جيد إلا أن في رواية البيهقي رجلا لم يسم وصي في رواية الطبراني إسحق بن يحيى بن طاحه وهو ضيف (٦) حديث دخل واثلة ابن الأسقع على مريض فقال أخبرني كيف ظنك بالله وفيه يقول الله أنا عند ظن عبدي بي فليظن بي ماشاء ابن حبان بالمرفوع منه وقد تقدم وأحمد والبيهقي في الشعب به جميعا .

للوطن إلا أعطاه الله الذي يرجو وأمنه من الذي يخاف (١) وقال ثابت البناني كان شاباً به حدة وكان له أم تعظه كثيراً وتقول له يا بني إن لك يوماً فاذكر يومك فلما نزل به أمر الله تعالى أكتب عليه أمه وجعلت تقول له يا بني قد كنت أحذرك مصرعك هذا وأقول إن لك يوماً فقال يا أمه إن لي رباً كثيراً للمروق وإني لأرجو أن لا يدمني اليوم بعض معروفه ، قال ثابت فرحمه الله بحسن ظنه بربه . وقال جابر بن وداعة كان شاب به رهق فاحتضر فقالت له أمه يا بني توصني بشي ، قال نعم خاتمي لاسلبيته فإن فيه ذكر الله تعالى فلعل الله يرحمني فلما دفن روى في اللام فقال أخبروا أمي أن السلعة قد تقعتني وأن الله قد غفر لي . ومريض أعرابي قيل له إنك تموت فقال أين يذهب بي قالوا إلى الله قال لما كراهني أن أذهب إلى من لا يرى الخير إلا منه . وقال أبو العتمر بن سليمان قال أي لما حضرته الوفاة يا معتمر حدثني بالرخص لعل ألقى الله عز وجل وأنا حسن الظن به وكانوا يستحبون أن يذكر للبعد بحسن عمله عند موته لكي يحسن ظنه بربه .

( بيان الحسرة عند لقاء ملك الموت بحكايات يعرب لسان الحال عنها )

قال أشعث بن أسلم سأل إبراهيم عليه السلام ملك الموت واسمه عزرائيل وله عينان عين في وجهه وعين في قفاه فقال يا ملك الموت ما تصنع إذا كان نفس بالشرق ونفس بالمغرب ووقع الوباء بأرض والتقى الزحفان كيف تصنع ؟ قال أدعو الأرواح بأذن الله فتكون بين أصبعي هاتين وقال قد دحيت له الأرض فتركت مثل الطشت بين يديه يتناول منها ما يشاء قال وهو يبشره بأنه خليل الله عز وجل . وقال سليمان بن داود عليهما السلام ملك الموت عليه السلام مالي لأراك تعدل بين الناس تأخذ هذا وتدع هذا قال ما أنا بذلك بأعلم منك إنما هي صحف أو كتب تلقى إلى فيها أسماء ، وقال وهب بن منبه كان ملك من الملوك أراد أن يركب إلى الأرض فعدا بثياب ليلبسها فلم تعجبه فطلب غيرها حتى لبس ما أعجبه بعد مرات وكذلك طلب دابة فأتى بها فلم تعجبه حتى أتى بدواب فركب أحسنها فجاء إبليس فنفع في منخره نفخة ففلا . كبراً ثم سار وسارت معه الحيل وهو لا ينظر إلى الناس كبرافجاءه رجل رث الهيئة فلم ير عليه السلام فأخذ بلجام دابته فقال أرسل اللجام فقد تماطيت أمراً عظيماً قال إن لي إليك حاجة قال امبر حتى أنزل قال لا الآن قهره على اللجام دابته فقال اذكرها قال هو سر فأدنى له رأسه فساروه وقال أنا ملك الموت فخير لون الملك واضطرب لسانه ثم قال دعني حتى أرجع إلى أهلي وأقضى حاجتي وأودعهم قال لا والله لا ترى أهلك وتملك أبداً قبض روحه فخر كأنه خشية ثم مضى فلقى عبداً مؤمناً في تلك الحال فسلم عليه فرد عليه السلام فقال إن لي إليك حاجة أذكرها في أذنك فقال هات فساروه وقال أنا ملك الموت فقال أهلاً ومرحباً بمن طالت غيبته على فو الله ما كان في الأرض غائب أحب إلى أن ألقاه منك فقال ملك الموت اقض حاجتك التي خرجت لها فقال مالي حاجة أكبر عندي ولا أحب من لقاء الله تعالى قال فاختر على أي حال شئت أن أقبض روحك فقال تقدر على ذلك قال نعم إنني أمرت بذلك قال فدعني حتى أتوضأ وأصلي ثم أقبض روحي وأنا ساجد قبض روحه وهو ساجد . وقال أبو بكر بن عبد الله المزني جمع رجل من بني إسرائيل مالا فلما أشرف على الموت قال لبنيه أروني أصناف أموالي فأتى بشيء كثيراً من الخيل والأبل والرقائق وغيره فلما نظر إليه بكى فتمسحاً عليه فرآه ملك الموت وهو يبكي فقال له ما يبكيك فو الذي خولك ما أنا بخارج من منزلك حتى أفرق بين روحك وبدنك قال فالمهلة حتى أفرقه قال هيات انقطعت عنك المهلة فهل كان ذلك قبل حضور أجلك قبض روحه . وروى أن رجلاً جمع مالا فأوعى ولم يدع صنفاً من المال إلا اتخذ به وابنى قصراً وجعل عليه بايين وثيمين وجمع عليه حراماً من غلماناً ثم جمع أهله وصنع لهم طعاماً وقصد على سريره ورفع إحدى رجله على الأخرى وهم يأكلون .

(١) حديث دخل على شاب وهو يموت فقال كيف تجدك فقال أرجو الله وأخاف ذنوبي الحديث تقدم .

يسلوا من غرائب  
العلوم ودقيق الاشارات  
واستنبطوا من كلام  
الله تعالى غرائب العلوم  
وعجائب الأسرار  
وترسخ قدمهم في العلم  
قال أبو سعيد الخزاز  
أول الفهم لكلام الله  
العمل به لأن فيه العلم  
والفهم والاستنباط  
وأول الفهم إلقاء السمع  
والمشاهدة لقوله تعالى  
- إن في ذلك لذكرى  
لمن كان له قلب أو ألقى  
السمع وهو شحيب .  
وقال أبو بكر الواسطي  
الراسخون في العلم هم  
الذين رسخوا بأرواحهم  
في غيب الغيب وفي  
سر السر ففهمهم  
ما عرفهم وأراد منهم  
من مقتضى الآيات

فلما فرغوا ، قال ياتمس انعمي لسنين قد جمعت لك ما يكفيك فم يخرج من كلامه حتى أقبل إليه ملك الموت في هيئة رجل عليه خلقان من الثياب وفي عنقه محلاة يتشبه بالمساكين قمرع الباب بشدة عظيمة قرعاً أفزعوه وهو على فراشه فوثب إليه الضمان وقالوا ماشأناك فقال ادعوا إلى مولانا كم فقالوا وإلى مثلك يخرج مولانا قال نعم فأخبروه بذلك فقال هلا فسلم به وفعلتم قمرع الباب قرعة أعد من الأولى فوثب إليه الحرس فقال أخبروه أني ملك الموت فلما سمعوه ألقى عليهم الرعب ووقع على مولاهم القتل والتخضع فقال قولوا له قولاً لنا وقولوا له تأخذ به أحداً فدخل عليه وقال اصنع في مالك ما أنت صانع فاني لست بخارج منها حتى أخرج روحك فأمر بماله حتى وضع بين يديه فقال حين رآه لعنك الله من مال أنت شغلتني عن عبادة ربي ومنعتني أن آتخلى لربي فأنطق الله إليك فقال لم تصبني وقد كنت تدخل على السلاطين بي ويرد التقي عن بابهم وكنت تتسكع التتمعات بي وتجلس مجالس اللوك بي وتتفقني في سبيل الشر فلا أمتنع منك ولو آتقتني في سبيل الخير شغلتك خلقت وابن آدم من تراب فتطلق يري ومنطلق باثم ثم قبض ملك الموت روحه فقطع وقال وهب بن منبه قبض ملك الموت روح جبار من الجبابرة ما في الأرض مثله ثم عرج إلى السماء فقالت اللائكة لمن كنت أشد رحمة ممن قبضت روحه قال أمرت بقبض نفس امرأة في فلاة من الأرض فأثبتها وقد ولدت مولوداً فرحمتها فثربتها ورحمت ولدها لصغره وكونه في فلاة لا تمتهد له بها فقالت اللائكة الجبار الذي قبضت الآن روحه هو ذلك الولود الذي رحمته فقال ملك الموت سبحان اللطيف لما يشاء قال عطاء بن يسار إذا كان ليلة النصف من شعبان دفع إلى ملك الموت صحيفة فيقال اقبض في هذه السنة من في هذه الصحيفة قال فإن البعد ليعرس القراس وينكح الأزواج ويبني البنيان وإن اسمه في تلك الصحيفة وهو لا يدري . وقال الحسن ما من يوم إلا وملك الموت يتصفح كل بيت ثلاث مرات فمن وجده منهم قد استوفى رزقه وانقضى أجله قبض روحه فاذا قبض روحه أقبل أهله برنة وبكاء فيأخذ ملك الموت بضادتي الباب فيقول والله ما أكلت له رزقا ولا أفيت له عمرا ولا انتقصت له أجلا وإن لي فيكم لعودة بعد عودة حتى لا أبقى منكم أحداً قال الحسن فوالله لو يرون مقامه ويسمعون كلامه لذهبوا عن منبتهم ولبكوا على أنفسهم وقال يزيد الرقاشي بينا جبار من الجبابرة من بني اسرائيل جالس في منزله قد خلا بعض أهله إذ نظر إلى شخص قد دخل من باب بيته فثار إليه فزعا مضطربا فقال له من أنت ومن أدخلك على داري فقال أما الذي أدخلني الدار فربها وأما أنا فوالذي لا يمنع مني الحجاب ولا أستأذن على اللوك ولا أخاف مولاة للتسلطين ولا يمنع مني كل جبار عنيد ولا شيطان مرید قال فسقط في يد الجبار وارتد حتى سقط منكبا على وجهه ثم رفع رأسه إليه مستجديا متذلا له فقال له أنت إذن ملك الموت قال أنا هو قال فهل أنت ممهل حتى أحدث عهدا قال هيأت انقطعت مدتك وانقضت أنفاسك وتعدت ساعاتك فليس إلى تأخيرك سبيل قال فإلى أين تذهب بي قال إلى عملك الذي قدمته وإلى بيتك الذي مهدته قال فإني لم أقدم عملا صالحا ولم أمهد بيتا حسنا قال فإني لأظن نزاعة للشوى ثم قبض روحه فسقط ميتا بين أهله فمن بين صارخ وبك قال يزيد الرقاشي لو يعلمون سوء القلب كان العويل على ذلك أكثر وعن الأعمش عن خزيمة قال دخل ملك الموت على سليمان بن داود عليه السلام فجعل ينظر إلى رجل من جلسائه يديم النظر إليه فلما خرج قال الرجل من هذا قال هذا ملك الموت قال أقدر أيتيه ينظر إلى كانه يريدني قال فماذا تريد قال أريد أن تغلصني منه فأمر الریح حتى تحملني إلى أقصى الهند ففعلت الریح ذلك ثم قال سليمان لملك الموت بعد أن أتاه ثانيا رأيتك تديم النظر إلى واحد من جلسائي . قال نعم كنت أتعجب منه لأنني كنت أمرت أن أقبضه بأقصى الهند في ساعة قريبة وكان عندك ففعلت من ذلك.

مالم يرد من غيرهم  
وخاضوا بحر السلم  
بالفهم لطلب الزبادات  
فانكشف لهم من  
مدخور الحزائن  
والخزون تحت كل  
حرف وآية من الفهم  
وعجائب النص  
فاستخرجوا الدرر  
والجواهر ونطقوا  
بالحكمة . وقد ورد  
في الخبر عن رسول  
الله صلى الله عليه وسلم  
فيما رواه سفيان بن  
عيينة عن ابن جريج  
عن عطاء عن أبي  
هريرة أنه قال إن من  
العلم كهيئة المسكون  
لا يملأه إلا العلماء بالله  
فإذا انطقوا به لا ينكره  
إلا أهل النعمة بالله .  
أخبرنا أبو زرعة قال



( الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والخلفاء الراشدين من بعده )

( وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم )

اعلم أن في رسول الله صلى الله عليه وسلم أسوة حسنة حيا وميتا وفلاوقولا وجميع أحواله عبرة للناظرين وتبصرة للمستبصرين إذ لم يكن أحد أكرم على الله منه إذ كان خليل الله وحبيبه ونجيه وكان صفيه ورسوله ونييه فانظر هل أمهله ساعة عند انقضاء مدته وهل أخره لحظة بعد حضور منيته لا بل أرسل إليه الملائكة الكرام الوكلاء ببعض أرواح الأنام فجدوا بروحه الزكية الكريمة لينقلوها وعلجوها ليرحلوها عن جسده الطاهر إلى رحمة ورضوان وخيرات حسان بل إلى مقعد صدق في جوار الرحمن فاشتد مع ذلك في التزع كربه وظهر آنيته وترادف قلقة وارتفع حنينه وتغير لونه وعرق جبينه واضطربت في الانقباض والانبساط فماله وعينه حتى بكى لمصرعه من حضره وانتحب لشدة حاله من شاهد منظره فهل رأيت منصب النبوة دافعا عنه مقدورا وهل راقب الملك فيه أهلا وعشيرا وهل ساعاه إذ كان للحق نصيرا وللخلق بشيرا ونذيرا هيات بل امتثل ما كان به مأمورا واتباع ما وجدته في اللوح مسطورا فهذا كان حاله وهو عند الله ذو المقام المحمود والخواص للورود وهو أول من تنشق عنه الأرض وهو صاحب الشفاعة يوم العرض فالسبب أنا لانعبر به ولنا على ثقة فيها نلقاه بل نحن أسراء الشهوات وقرناء العاصي والسيئات فما بالنا لا نتعظ بمصرع محمد سيد المرسلين وإمام المؤمنين وحبيب رب العالمين لعنا نظن أننا مخلدون أو توهم أنامع سوء أفعالنا عند الله مكرمون هيات بل تيقن أناجميا على النار واردون ثم لا ينجو منها إلا المتقون فنحن للورود مستيقنون ولصدور عنها متوهمون لا بل ظلمنا أنفسنا إن كنا كذلك لنال الظن منتظرين لما نحن والله من التيقن وقد قال الله رب العالمين - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم نجى الدين اتقوا ونذر الظالمين فيها جثيا - فلينظر كل عبد إلى نفسه انه إلى الظالمين أقرب أم إلى المتقين فانظر إلى نفسك بعد أن تنظر إلى سيرة السلف الصالحين فلقد كانوا مع ما وقفوا له من الحقائق ثم انظر إلى سيد المرسلين فانه كان من أموره على يقين إذ كان سيد النبيين وقائد المتقين واعتبر كيف كان كربه عند فراق الدنيا وكيف اشتد أمره عند الانقلاب إلى جنسة المأوى قال ابن مسعود رضي الله عنه «دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة رضي الله عنها حين دنا الفراق فنظر إلينا فدمعت عيناه صلى الله عليه وسلم ثم قال مرحبا بكم حياكم الله آواكم الله نصركم الله وأوصيكم بتقوى الله وأوصى بكم الله إلى لكم منه نذير مبين ألا تعلوا على الله في بلاءه وعبادته وقد دنا الأجل والمنقلب إلى الله وإلى سدرة المنتهى وإلى جنسة المأوى وإلى السكاس الأولى فاقروا على أنفسكم وعلى من دخل في دينكم بعدى منى السلام ورحمة الله (١) ». وروى أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عليه السلام عند موته «من لأمتي بعدى

( الباب الرابع في وفاة النبي صلى الله عليه وسلم )

(١) حديث ابن مسعود دخلنا على رسول الله صلى الله عليه وسلم في بيت أمنا عائشة حين دنا الفراق الحديث رواه البزار وقال هذا الكلام قد روى عن مرة عن عبد الله من غير وجه وأسانيدها متقاربة قال وعبد الرحمن الأصبهاني لم يسمع هذا من مرة وإنما هو ممن أخبره عن مرة قال ولا أعلم أحدا رواه عن عبد الله غير مرة . قلت وقد روى من غير ما وجه رواه ابن سعد في الطبقات من رواية ابن عوف عن ابن مسعود وروناه في مشيخة القاضي أبي بكر الأنصاري من رواية الحسن العربي عن ابن مسعود ولكنهما منقطعان وضيفان والحسن العربي إنما يرويه عن مرة كرواه ابن أبي الدنيا والطبراني في الأوسط .

أنا أبو بكر بن خلف  
قال ثنا أبو عبد الرحمن  
قال سمعت الصراباذي  
يقول سمعت ابن عائشة  
يقول سمعت القرشي  
يقول هي أسرار الله تعالى  
ييدها إلى أمناه وأوليائه  
وسادات النبلاء من  
غير جماع ولادراسة  
وهي من الأسرار التي  
لم يطلع عليها إلا  
الخواص . وقال  
أبو سعيد الخزاز  
للعارفين خزائن  
أودعها علوما غريبة  
وأبناء محمية يتكلمون  
فيها بلسان الأبدية  
ويخبرون عنها ببارة  
الأزلية وهي من العلم  
المجهول بقوله بلسان  
الأبدية وعبارة الأزلية  
إشارة إلى أنهم بالله

فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته وبشره بأنه أسرع الناس خروجاً من الأرض إذا بشوا وسيدهم إذا جمعوا وأن الجنة محرمة على الأمم حتى تدخلها أمته فقال الآن قرت عيني (١) وقالت عائشة رضي الله عنها «أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن نقتله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فسلمى بالناس واستغفروا لأهل أهدودها لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبى التي أوتيت إليها فأكرموا كريمهم يعنى محبتهم وتجاوزوا عن مسيئتهم ثم قال إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر وأهذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأة أفضل عندى في الصعبة من أبي بكر (٢) قالت عائشة رضي الله عنها «قبض صلى الله عليه وسلم في بيتى وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ريتى وريحه عند الموت فدخل على أخى عبد الرحمن ويده سواك فجعل ينظر إليه ففرقت أنه يسجبه ذلك فقلت له آخذه لك فأوماً برأسه أن نعم فتناولته إياه فأدخله في فيه فاشتد عليه فقلت أليته لك فأوماً برأسه أن نعم فليته وكان بين يديه ركوة ماء فجعل يدخل فيها يده ويقول لا إله إلا الله إن للموت لسكرات ثم نصب يده يقول الرفيق الأعلى الرفيق الأعلى فقلت إذن والله لا تخارنا (٣) وروى سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأيت الأنصار أن رسول الله صلى الله عليه وسلم يزداد تقلباً أطافوا بالمسجد فدخل العباس رضي الله عنه على النبي صلى الله عليه وسلم فأعلمه بمكانهم وإشفاقهم ثم دخل عليه الفضل فأعلمه بذلك ثم دخل عليه على رضي الله عنه فأعلمه بمكانه فد يده وقالها فتناولوه فقال ماتقولون قالوا تقول نخشى أن تموت وتصاح نساؤم لاجتماع رجالهم إلى النبي صلى الله عليه وسلم فثار رسول الله ﷺ فخرج متوكفاً على طى والفضل والعباس أمامه ورسول الله صلى الله عليه وسلم معصوب الرأس يخط برجليه حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبر وثاب الناس إليه فحمد الله وأثنى عليه وقال : أيها الناس إنه بلغنى أنكم تخافون على الموت كأنه استنكار منكم للموت وما تسكرون من موت نبيكم ألم أنع إليكم وتنعى إليكم أنفسكم هل خلدني قبلى فممن بعث فأخذه فيكم ألا إنى لاحق برى وإنكم لاحقون به وإنى أوصيكم بالمهاجرين الأولين خيراً وأوصى المهاجرين فيما بينهم فإن الله عز وجل قال - والعصر إن الإنسان لني خسر إلا الذين آمنوا - إلى آخرها وإن الأمور تجري بأذن الله فلا يحملك استبطاء أمر على استعجاله فإن الله عز وجل لا يعجل لمجدة أحد ومن غالب الله غلبه ومن خادع الله خدعه - فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم - وأوصيكم بالأنصار خيراً فإنهم الذين تبوءوا الدار والايمان من قبلكم

(١) حديث أنه صلى الله عليه وسلم قال لجبريل عند موته من لأمتى بعدى فأوحى الله تعالى إلى جبريل أن بشر حبيبي أني لا أخذه في أمته الحديث الطبراني من حديث جابر وابن عباس في حديث طويل فيه من لأمتى المصطفاة من بعدى قال أشير يا حبيب الله فإن الله عز وجل يقول قد حرمت الجنة على جميع الأنبياء والأمم حتى تدخلها أنت وأمتك قال الآن طابت نفسى وإسناده ضعيف (٢) حديث عائشة أمرنا أن نقتله بسبع قرب من سبعة آبار ففعلنا ذلك فوجد راحة فخرج فسلمى بالناس واستغفروا لأهل أهدودها لهم وأوصى بالأنصار فقال أما بعد يا معشر المهاجرين فإنكم تزيدون وأصبحت الأنصار لا تزيد على هبتها التي هي عليها اليوم وإن الأنصار عيبى التي أوتيت إليها فأكرموا كريمهم يعنى محبتهم وتجاوزوا عن مسيئتهم ثم قال إن عبداً خير بين الدنيا وبين ما عند الله فاختار ما عند الله فبكى أبو بكر رضي الله عنه وظن أنه يريد نفسه فقال النبي صلى الله عليه وسلم على رسلك يا أبا بكر وأهذه الأبواب الشوارع في المسجد إلا باب أبي بكر فاني لا أعلم امرأة أفضل عندى في الصعبة من أبي بكر (٣) حديث عائشة قبض صلى الله عليه وسلم في بيتى وفي يومى وبين سحرى ونحرى وجمع الله بين ريتى وريحه عند الموت الحديث متفق عليه .

ينطقون وقد قال تعالى على لسان نبيه صلى الله عليه وسلم «بى ينطق» وهو العلم اللدنى الذى قال الله تعالى فيه فى حق الخضر - آتيناها رحمة من عندنا وعلما من لدنا علما - فماتداولته ألسنتهم من الكلمات ففهموا من بعضهم لبعض وإشارة منهم إلى أحوال يعبدونها ومعاملات قلبية يعرفونها قولهم الجمع والفرقة قيل أصل الجمع والفرقة قوله تعالى - شهد الله أنه لا إله إلا هو - فهذا جمع ثم فرق فقال ولللاسلكة وأولوا العلم هو قوله تعالى - آمنا بالله - جمع ثم فرق بقوله - وما أنزل إلينا - والجمع أصل والفرقة

أن تحسنوا إليهم ألم يشاطروكم الفخار ألم يوسعوا عليكم في الديار ألم يؤثروكم على أنفسهم وبهم الخاصة  
ألا فمن ولي أن يحكم بين رجلين فليقبل من أحسنهم وليتجاوز عن سيئهم ألا ولا تستأثروا عليهم  
ألا وإنى فرط لكم وأنتم لاحقون بي ألا وإن موعدكم الخوض حوضي أعرض مما بين بصري الشام  
وصنعاء اليمن يصب فيه ميزاب الكوثر ماء أشد يابضا من اللبن وألين من الزبد وأحل من الشهد  
من شرب منه لم يظلمأ أبدا حضاؤه اللؤلؤ وبطحاؤه للسك من حرمة في الوقف غدا حرم الحيرة  
ألا فمن أحب أن يردني على غدا فليكنف لسانه ويده إلا عما ينبغي فقال العباس يابني أله أوص بقرش  
قال إنما أوصي بهذا الأمر قرشا والناس تبع لقريش يرم يرم ليرم وفاجرهم فاجرم فاستوصوا  
آل قريش بالناس خيرا يا أيها الناس إن القنوب تغير النعم وتبدل القسم فإذا بر الناس يرم أئتمهم  
وإذا فجر الناس عقوم قال الله تعالى - وكذلك نولي بعض الظالمين بضامنا كانوا يكسبون (١) »  
وروى ابن مسعود رضي الله عنه « أن النبي صلى الله عليه وسلم قال لأبي بكر رضي الله عنه سل يا أبا بكر  
قال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل وتبدل ليتهك يابني الله ماعد الله فليت شعري  
عن منقلبتنا فقال إلى الله وإلى مدرة للنهي ثم إلى جنة للأوى والفردوس الأعلى والسكاس الأوفى  
والرفيق الأعلى والحظ والعيش اللهم قال يابني الله من يلى غسلك قال رجال من أهل بيتي الأدي فالأدي  
قال فقيم نكفك ؟ فقال في ثيابي هذه وفي حلة يمانية وفي ياض مصر فقال كيف الصلاة عليك منا  
وبكينا وبكى ثم قال مهلا غفر الله لكم وجزاكم عن نبيكم خيرا إذا غسستموني وكفتموني فضعوني  
على سريري في بيتي هذا على شفير قبري ثم اخرجوا عني ساعة فإن أول من صلى على الله عز وجل هو  
أدنى صلى عليكم وملائكته - ثم يأذن للملائكة في الصلاة على فأول من يدخل على من خلق الله  
ويصلى على جبريل ثم ميكائيل ثم إسرافيل ثم ملك اللوت مع جنود كثيرة ثم للملائكة بأجمعها صلى  
الله عليهم أجمعين ثم أتم فادخلوا على أقواجا فسلوا على أقواجا زمرة زمرة ولسوا تسايلا ولا تؤذوني  
بزيكة ولا صيحة ولا رنة وليبدأ منكم الامام وأهل بيتي الأدي فالأدي ثم زمر النساء ثم زمر الصبيان  
قال فمن يدخلك القبر ؟ قال زمر من أهل بيتي الأدي فالأدي مع ملائكة كثيرة لارونهم وهم يرونكم  
قوموا فأدوا عني إلى من بدي (٢) » وقال عبد الله بن زمة جاء بلال في أول شهر ربيع الأول فأذن  
بالصلاة فقال رسول الله ﷺ « مروا أبا بكر يصلى بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في  
رجال ليس فيهم أبو بكر فقلت تم يا عمر فصل بالناس مقام عمر فلما كبر وكان رجلا صبيحا سمع  
رسول الله صلى الله عليه وسلم صوته بالتكبير فقال أين أبو بكر يابني الله ذلك واللسلون قالها ثلاث  
مرات مروا أبا بكر فليصل بالناس فقالت عائشة رضي الله عنها يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق  
القلب إذا قام في مقامك غلبه البكاء فقال إنكن صويحات يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس

(١) حديث سعيد بن عبد الله عن أبيه قال لما رأت الأنصار رسول الله صلى الله عليه وسلم  
يزداد تقلا أطافوا بالمسجد فدخل العباس فأعلمه بكانهم وإشفاقهم فذكر الحديث في خروجه متوكئا  
مصبوب الرأس يخط رجله حتى جلس على أسفل مرقاة من اللبن قد كثر خطبته بطولها هو حديث  
مرسل ضيف وفيه نكارة ولم أجده أصلا وأبوه عبد الله بن ضرار بن الأزور تابعي. روى عن  
ابن مسعود قال أبو حاتم فيه وفي أبيه سعيد ليس بالقوى (٢) حديث ابن مسعود أن النبي صلى الله  
عليه وسلم قال لأبي بكر سل يا أبا بكر فقال يا رسول الله دنا الأجل فقال قد دنا الأجل الحديث في  
سؤالهم له من يلى غسلك وفيهم نكفك وكيف الصلاة عليه رواه ابن سعد في الطبقات عن محمد  
ابن عمر وهو الواقدي باسناد ضعيف إلى ابن عوف عن ابن مسعود وهو مرسل ضعيف كاتقدم.

فرع لكل جمع  
بلا بخرقة زندقه  
وكل بخرقة بلا جمع  
تعطيل . وقال الجنيدي  
القرب بالوجد جمع  
وغيته في البشرية  
بخرقة وقيل جمعهم في  
المرقة وفرقهم في  
الأحوال والجمع اتصال  
لا يشاهد صاحبه إلا  
الحق فني شاهد غيره  
لما جمع والفرقة تشهده  
لمن شاء بالمباينة  
وعباراتهم في ذلك  
كثيرة والمقصود أنهم  
أشاروا بالجمع إلى  
تجريد التوحيد  
وأشاروا بالفرقة إلى  
الاكتساب فلي هذا  
لا جمع إلا بفرقة  
ويقولون فلان في عين  
الجمع ينون استيلاء

قال صلى أبو بكر بعد الصلاة التي صلى عمر فكان عمر يقول لعبد الله بن زمعة بذلك وعك ماذا  
صنعت في والله لولا آتي ظننت أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمرك ما فعلت فيقول عبد الله إن لم  
أر أحدا أولى بذلك منك قالت عائشة رضي الله عنها وما قلت ذلك ولا صرقت عن أبي بكر إلا رغبة  
به عن الدنيا ولما في الولاية من المخاطرة والمأساة إلا من سلم الله وخشيت أيضا أن لا يكون الناس  
يعجبون رجلا صلى في مقام النبي صلى الله عليه وسلم وهو حي أبدا إلا أن يشاء الله فيحسدونه ويغفون  
عليه ويتشاءمون به فأذن الأمر أمر الله والقضاء قضاءه وعصمه الله من كل ما عوفت عليه من أمر  
الدنيا والدين (١) وقالت عائشة رضي الله عنها فلما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه  
وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوائحهم يستبشرون وأخلاء رسول الله  
صلى الله عليه وسلم بالنساء فيينا نحن على ذلك لم نكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «أخرجني عن هذا الملك يستأذن على فخرج من في البيت غيبي  
ورأسه في حجرى وجلس وتحتيت في جانب البيت فاجى الملك طويلا ثم إنه دعاني فأدور رأسه في  
حجرى وقال لندوة ادخلني قلت ما هذا يحسن جبريل عليه السلام قال رسول الله صلى الله عليه وسلم  
أجل يا عائشة هذا ملك الموت جاءني فقال إن الله عز وجل أرسلني وأمرني أن لا أدخل عليك إلا بأذن  
فان لم تأذن لي أرجع وإن أذنت لي دخلت وأمرني أن لا أقبضك حتى تأمرني فإذا أمرتك قلت اكفف  
عني حتى يأتي جبريل عليه السلام فهذه ساعة جبريل قالت عائشة رضي الله عنها فاستقبلنا بأمر  
لم يكن له عندنا جواب ولا رأى فوجنا وكأنا ضربنا بصخرة مانعير إليه شيئا وما يتكلم أحدهم  
أهل البيت إعظاما لذلك الأمر وهيبة ملائكة أجوافنا قالت وجاء جبريل في ساعته فلم تعرفه  
خرج أهل البيت فدخل فقال إن الله عز وجل قرأ عليك السلام ويقول كيف تجدك وهو أعلم بالذي  
تجد منك ولكن أراد أن يزيدك كرامة وشرقا وأن يتم كرامتك وشرقا على الخلق وأن تكون  
سنة في أمك قال أجذني وجا فقال أبشر فان الله تعالى أراد أن يملك ما أعد لك فقال يا جبريل إن ملك  
الموت استأذن على وأخبره الخبر فقال جبريل يا محمد إن ربك إليك مشتاق ألم يملك الذي يريد بك  
لا والله ما استأذن ملك الموت على أحد قط ولا يستأذن عليه أبدا إلا أن ربك متم شرفك وهو إليك  
مشتاق قال فلا تبرح إذن حتى يبعث وأذن لنداء فقال بافاطمة ادنى فأكبت عليه فاجاها فرفعت  
رأسها وعيناها تدمع وما تطيق الكلام ثم قال أدنى مني رأسك فأكبت عليه فاجاها فرفعت رأسها  
وهي تضحك وما تطيق الكلام فكان الذي رأينا منها هجيا فأسألتها بعد ذلك فقالت أخبرني وقال إنى  
ميت اليوم فبكيت ثم قال إنى دعوت الله أن يملكك في في أول أهلى وأن يملكك معى فضحكت  
وأدنت ابنها منه فشمهما قالت وجاء ملك الموت فسلم واستأذن فأذن له فقال الملك سأمرنا يا محمد قال  
ألحقني ربى الآن فقال بلى من يومك هذا أما إن ربك إليك مشتاق ولم يتردد عن أحد ترده عنك

(١) حديث عبد الله بن زمعة جاء بلال في أول ربيع الأول فأذن بالصلاة فقال النبي صلى الله  
عليه وسلم مروا أبا بكر فليصل بالناس فخرجت فلم أر بحضرة الباب إلا عمر في رجال ليس فيهم أبو بكر  
الحديث أبو داود باسناد جيد نحوه مختصرا دون قوله فقالت عائشة إن أبا بكر رجل رقيق إلى آخره  
ولم يقل في أول ربيع الأول وقال مروا من يصل بالناس وقال يابى الله ذلك وللؤمنون مرتين وفي  
رواية له فقال لا لا لا يصل للناس ابن أبي قحافة يقول ذلك مضطربا وأما ما في آخره من قول عائشة في  
الصحيحين من حديثها فقالت عائشة يا رسول الله إن أبا بكر رجل رقيق إذا قام مقامك لم يسمع الناس  
من البكاء فقال إنك صواحب يوسف مروا أبا بكر فليصل بالناس .

مراقبة الحق على باطنه  
فاذا عاد إلى شيء من  
أعماله عاد إلى التفرقة  
فضحة الجمع بالتفرقة  
وصحة التفرقة بالجمع  
فهذا يرجع حاصله  
إلى أن الجمع من العلم  
بالله والتفرقة من العلم  
بأمر الله ولا بد منها  
جميعا . قال للزين  
الجمع عين القضاء بالله  
والتفرقة العبودية  
متصل بعضها ببعض  
وقد غلط قوم وادعوا  
أنهم في عين الجمع  
وأشاروا إلى صرف  
التوحيد وعطلوا  
الاكتساب فترددوا  
ولما الجمع حكم الروح  
والتفرقة حكم القالب  
وما دلم هذا التركيب  
باقيا فلا بد من الجمع

ولم ينه عن الدخول على أحد إلا بآذن غيرك ولسكن ساعتك أمامك وخرج قالت وجاء جبريل فقال السلام عليك يا رسول الله هذا آخر ما أنزل فيه إلى الأرض أبدا طوى الوحي وطويت الدنيا وما كان لي في الأرض حاجة غيرك ومالي فيها حاجة إلا حضورك ثم لزوم موقفي لا والذي بيث عهد بالحق ما في البيت أحد يستطيع أن يحير إليه في ذلك كلمة ولا يمشي إلى أحد من رجاله لعظم ما يسمع من حديثه ووجدنا وإشفاقا قالت قصمت إلى النبي ﷺ حتى أضاع رأسه بين يدي وأمسكت بصدري وجعل يغمي عليه حتى يثلم وجهته ترشح رشحا مارأيته من إنسان قط فجعلت أسلت ذلك الفرق وما وجدت راحة شيء أطيب منه فكنت أقول له إذا أفاق بأبي أنت وأمي ونفسي وأهلي ما تلقى جهتك من الرشح فقال يا عائشة إن نفس المؤمن تخرج بالرشح ونفس الكافر تخرج من شقيه كنفس الحمار فعند ذلك ارتبنا وبشنا إلى أهلنا فكان أول رجل جاءنا ولم يشهده أخي بعثه إلى أبي فمات رسول الله صلى الله عليه وسلم قبل أن يحجي أحد وإنما صدم الله عنه لأنه ولاء جبريل وميكائيل وجعل إذا أغشى عليه قال بل الرفيق الأعلى كأن الخيرة تعاد عليه فإذا أطاق الكلام قال الصلاة الصلاة إنكم لا تزالون متماكين ما صليتم جميعا الصلاة الصلاة كان يوصي بها حتى مات وهو يقول الصلاة الصلاة (١) قالت عائشة رضي الله عنها مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين (٢) قالت فاطمة رضي الله عنها ما لقيت من يوم الاثنين والله لا تزال الأمة تصاب فيه بعظيمة

(١) حديث عائشة لما كان اليوم الذي مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم رأوا منه خفة في أول النهار ففرق عنه الرجال إلى منازلهم وحوالهم مستبشرين وأخبروا رسول الله ﷺ بالنساء فينا نحن على ذلك لم يكن على مثل حالنا في الرجاء والفرح قبل ذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم أخرجني عنى هذا للكم يستأذن على الحديث بطوله في محبي ملك الموت ثم ذهبه ثم محبي جبريل ثم محبي ملك الموت ووفاته صلى الله عليه وسلم الطبراني في الكبير من حديث جابر وابن عباس مع اختلاف في حديث طويل فيه فلما كان يوم الاثنين اشتد الأمر وأوحى الله إلى ملك الموت أن اهبط إلى حبيبي وصفي محمد صلى الله عليه وسلم في أحسن صورة وارفق به في قبض روحه وفيه دخول ملك الموت واستئذنه في قبضه فقال يا ملك الموت أين خلفت حبيبي جبريل قال خلفته في صحاء الدنيا والآخرة بمزونه فيك فلما كان بأسرع أن أتاه جبريل فقعده عند رأسه وذكر بشارة جبريل له بما أعد الله له وفيه أدن يا ملك الموت فأتته إلى ما أمرت به الحديث وفيه فدنا ملك الموت بجال قبض روح النبي صلى الله عليه وسلم وذكر كربه لذلك إلى أن قال فقبض رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو حديث طويل في ورقتين كبار وهو منكسر وفيه عبد النعم بن إدريس ابن سنان عن أبيه عن وهب بن منبه قال أحمد كان يكذب على وهب بن منبه وأبوه إدريس أيضا متروك قاله الدارقطني ورواه الطبراني أيضا من حديث الحسين بن علي أن جبريل جاءه أولا فقبضه عليه عن ربه كيف تعبدك ثم جاءه جبريل اليوم الثالث ومعه ملك الموت وملك الهواء إسماعيل وأن جبريل دخل أولا فسأله ثم استأذن ملك الموت وقوله امض لما أمرت به وهو منكسر أيضا وفيه عبد الله بن ميمون القداح قال البخاري ذاهب الحديث ورواه أيضا من حديث ابن عباس في محبي ملك الموت أولا واستئذنه قوله إن ربك يقرئك السلام فقال ابن جبريل فقال هو قريب مني الآن يأتي فخرج ملك الموت حتى نزل عليه جبريل الحديث وفيه المختار بن نافع منكسر الحديث (٢) حديث عائشة مات رسول الله صلى الله عليه وسلم بين ارتفاع الضحى واتصاف النهار يوم الاثنين رواه ابن عبد البر .

والتفارقة . وقال الواسطي إذا نظرت إلى نفسك فرقت وإذا نظرت إلى ربك جمعت . وإذا كنت قائما بغيرك فأنت فان بلا جمع ولا تفرقة . وقيل جمعهم بذاته وفرقهم في صفاته وقد يريدون بالجمع والتفرقة أنه إذا أثبت لنفسه حكما ونظرا إلى أعماله فهو في التفرقة وإذا أثبت الأشياء للحق فهو في الجمع وبمجموع الاشارات يفي أن الكون يفرق والمكون يجمع فمن أفرد المكون جمع ومن نظر إلى الكون فرق فالتفرقة عبودية والجمع توحيد فإذا

وقالت أم كلثوم يوم أصيب على كرم الله وجهه بالكوفة مثلها ما لقيت من يوم الاثنين مات فيه رسول الله صلى الله عليه وسلم وفيه قتل على وفيه قتل أبي فمأقيت من يوم الاثنين وقالت عائشة رضي الله عنها «لما مات رسول الله ﷺ اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله صلى الله عليه وسلم اللائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخلط آخرون فلاتوا الكلام بغير بيان وبقي آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون فكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت وليرجعه الله عز وجل وليقطع أيدي وأرجل رجاله من المنافقين يتعنون لرسول الله صلى الله عليه وسلم الموت إنما واعد الله عز وجل كما واعد موسى وهو آتيكم<sup>(١)</sup> وفي رواية أنه قال : يا أيها الناس كفوا ألسنتكم عن رسول الله صلى الله عليه وسلم فإنه لم يمت والله لا أسمع أحدا يذكر أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قد مات إلا علوته بسفي هذا . وأما على فإنه أقعد فلم يرح في البيت وأما عثمان فجعل لا يكلم أحدا يؤخذ بيده فيجاء به ويذهب به ولم يكن أحد من المسلمين في مثل حال أبي بكر والعباس فإن الله عز وجل أيدهما بالتوفيق والهدى وإن كان الناس لم يروا إلا بقول أبي بكر حتى جاء العباس فقال والله الذي لا إله إلا هو لقد ذاق رسول الله صلى الله عليه وسلم الموت ولقد قال وهو بين أظهركم - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - وبلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء ودخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله ثم قال بأبي أنت وأمي يا رسول الله ما كان الله ليذيقك الموت مرتين فقد والله توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم خرج إلى الناس فقال أيها الناس من كان يبعد محمداً فإن محمداً قد مات ومن كان يبعد رب محمد فإنه حي لا يموت قال الله تعالى - وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم -<sup>(٢)</sup> الآية فكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ وفي رواية : أن أبا بكر رضي الله عنه لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والقال فأكب عليه فكشف عن وجهه وقبل جبينه وخديه ومسح وجهه وجعل يبكي ويقول : بأبي أنت وأمي ونفسي وأهل طبت

(١) حديث عائشة لما مات رسول الله صلى الله عليه وسلم اقتحم الناس حين ارتفعت الرنة وسجى رسول الله ﷺ اللائكة بثوبه فاختلفوا فكذب بعضهم بموته وأخرس بعضهم فماتكم إلا بعد البعد وخلط آخرون معهم عقولهم وأقعد آخرون وكان عمر بن الخطاب فيمن كذب بموته وعلى فيمن أقعد وعثمان فيمن أخرس فخرج عمر على الناس وقال إن رسول الله صلى الله عليه وسلم لم يمت الحديث إلى قوله عند ربكم تختصمون لم أجده أصلاً وهو منكرو (٢) حديث بلغ أبا بكر الخبر وهو في بني الحارث بن الخزرج فجاء فدخل على رسول الله صلى الله عليه وسلم فنظر إليه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي ما كان الله ليذيقك الموت مرتين الحديث إلى آخر قوله وكان الناس لم يسموا هذه الآية إلا يومئذ البخاري ومسلم من حديث عائشة أن أبا بكر أقبل على فرس من مسكنه بالسنع حتى نزل ودخل المسجد فلم يكلم الناس حتى دخل على عائشة فيم رسول الله ﷺ وهو منثنى بثوب حبرة فكشف عن وجهه ثم أكب عليه قبله وبكى ثم قال بأبي أنت وأمي والله لا يجمع الله عليك موتين أما الموتة التي كتبت عليك فقد منها ولهما من حديث ابن عباس أن أبا بكر خرج وعمر يكلم الناس الحديث وفيه والله لكان الناس لم يعلموا أن الله أنزل هذه الآية حتى تلاها أبو بكر لفظ البخاري فيها .

أثبت طاعته نظرا  
إلى كسبه فرق وإذا  
أثبتها بالله جمع وإذا  
تحقق بالفناء فهو  
جمع الجمع ويمكن أن  
يقال رؤية الأفعال  
تفرقة ورؤية الصفات  
جمع ورؤية الذات جمع  
الجمع . سئل بعضهم  
عن حال موسى عليه  
السلام في وقت  
الكلام فقال : أفنى  
موسى عن موسى فلم  
يكن لموسى خبر  
من موسى ثم كأم  
فكان الكلام والكلم  
هو وكيف كان  
يطبق موسى حمل  
الخطاب ورد الجواب  
لولا بإياه جمع ومعنى  
هذا أن الله تعالى  
منحه قسوة بذلك

حيا وميتا انقطع لموتك ما لم ينقطع لموت أحد من الأنبياء والنبوة ف عظمت عن الصفة وجللت عن البكاء وخصت حتى صرت مسلاة وعممت حتى صرنا فيك سواء ولولا أن موتك كان اختيارا منك لجدنا لحزنك بالنفوس ولولا أنك نهيت عن البكاء لأفدنا عليك ماء العيون فأما ما لا نستطيع نفيه عنا فكده وادكار محالفان لا يرحان اللهم فأبانه عنا اذكرنا يا محمد صلى الله عليك عند ربك ولنكن من بالك فلولا ما خلقت من السكينة لم يتم أحد لما خلقت من الوحشة اللهم أبلغ نبيك عنا واحظه فينا (١) . وعن ابن عمر أنه لما دخل أبو بكر البيت وصلى وأثنى عجب أهل البيت عجبا سمعه أهل الصلي كلها ذكر شيئا ازدادوا لما سكن عجبهم إلا تسليم رجل على الباب صبت جلد قال السلام عليكم يا أهل البيت - كل نفس ذائقة الموت - الآية إن في الله خلقا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه فتموا فاستمعوا له وأنكروه وقطعوا البكاء فلما انقطع البكاء فقد صوته فاطمأناهم فلم ير أحدا ثم عادوا فبكوا فناداهم مناد آخر لا يعرفون صوته بأهل البيت اذكروا الله واحمدوه على كل حال تكونوا من المخلصين إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فاطمأناهم وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الحضر واليسع عليهما السلام حضرا النبي صلى الله عليه وسلم (٢) واستوفى القمعاق بن عمرو حكاية خطبة أبي بكر رضي الله عنه فقال قام أبو بكر في الناس خطيبا حيث قضى الناس عبراتهم بخطبة جلها الصلاة على النبي صلى الله عليه وسلم فحمد الله وأثنى عليه

(١) حديث إن أبا بكر لما بلغه الخبر دخل بيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو يصلي على النبي صلى الله عليه وسلم وعيناه تهلان وغصصه ترتفع كقصع الجرة وهو في ذلك جلد الفعل والمقال فأكب عليه فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى قوله واحظه فينا ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث ابن عمر باسناد ضيف جاء أبو بكر ورسول الله صلى الله عليه وسلم مسجى فكشف الثوب عن وجهه الحديث إلى آخره (٢) حديث ابن عمر في معاج التعزية به صلى الله عليه وسلم إن في الله خلقا من كل أحد ودركا لكل رغبة ونجاة من كل عناية فآله فارجوا وبه فتموا ثم صموا آخر بعده إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل رغبة فآله فاطمأناهم وبأمره فاعملوا فقال أبو بكر هذا الحضر واليسع لم أجد فيه ذكر اليسع وأما ذكر الحضر في التعزية فأنكر النووي وجوده في كتب الحديث وقال إنما ذكره الأصحاب قلت على قدر رواه الحاكم في المستدرک في حديث أنس ولم يصحبه ولا يصح ورواه ابن أبي الدنيا في كتاب العزاء من حديث أنس أيضا قال لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم اجتمع أصحابه حوله يكون فدخل عليهم رجل طويل شعر للتكفين في إزار ورداء يتخطى أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم حتى أخذ بضادتي باب البيت فبكى على رسول الله صلى الله عليه وسلم ثم أقبل على أصحابه فقال إن في الله عزاء من كل مصيبة وعوضا من كل فائت وخلفا من كل هالك قال في الله تعالى فأنبيوا ونظروا إليكم في البلاء فانظروا فان للصاب من لم يجبره الثواب ثم ذهب الرجل فقال أبو بكر على الرجل فظفروا بميتنا وشمالا غم يروا أحدا فقال أبو بكر لعل هذا الحضر أخو نبينا عليه السلام جاء يمزينا ورواه الطبراني في الأوسط وإسناده ضيف جدا ورواه ابن أبي الدنيا أيضا من حديث علي بن أبي طالب لما قبض رسول الله صلى الله عليه وسلم جاء أت نسبح حسه ولا نرى شخصه قال السلام عليكم ورحمة الله وبركاته إن في الله عوضا من كل مصيبة وخلفا من كل هالك ودركا من كل فائت فآله فتموا وإياه فارجوا فان المحروم من حرم الثواب والسلام عليكم فقال علي تدرون من هذا هو الحضر وفيه محمد بن جعفر الصادق تكلم فيه وفيه انقطاع بين علي بن الحسين وبين جده علي والمروفي عن علي بن الحسين مرسلا من غير ذكر على كما رواه الشافعي في الأم وليس فيه ذكر الحضر.

القوة مع ولولا  
تلك القوة ما قدر  
على السمع ثم أنشد  
القائل متملا :

وبدا له من بعد  
ما اندمل الهوى  
برق تألق موهبا  
لمانه

يندو كحاشية الرداء  
ودونه  
صب القرى متضنع  
أركانها

فبدا لينظر كيف لاح  
فلم يطق  
نظرا إليه ورده  
أشجانه

قالنار ما اشتملت عليه  
خلوعه  
وللاء ما صبحت به  
أجانه

ومنها قولهم التحلى  
والاستثار . قال الجنيدي

على كل حال وقال أشهد أن لا إله إلا الله وحده صدق وعده ونصر عبده وعلب الأحزاب وحده الله الحمد وحده وأشهد أن محمدا عبده ورسوله وخاتم أنبيائه وأشهد أن الكتاب كأنزل وأن الدين كاشرع وأن الحديث كما حدث وأن القول كما قل وأن الله هو الحق المبين اللهم فصل على محمد عبدك ورسولك ونيبك وحبيبك وأمينك وخيرتك وصفوتك بأفضل ما صليت به على أحد من خلقك اللهم واجعل صلواتك ومغافاتك ورحمتك وبركاتك على سيد المرسلين وخاتم النبيين وإمام المتقين محمد قائد الحير وإمام الخير ورسول الرحمة اللهم قرب زلفته وعظم برهانه وكرم مقامه وابشئه مقاما محمودا يعظمه به الأولون والآخرون وانفضا بمقامه المحمود يوم القيامة واخلفه فينا في الدنيا والآخرة وبلغه الدرجة والوسيلة في الجنة اللهم صلى على محمد وعلى آل محمد وبارك على محمد وعلى آل محمد كما صليت وباركت على إبراهيم إنك حميد مجيد أيها الناس إنه من كان يعبد محمدا فإن محمدا قد مات ومن كان يعبد الله فإن الله حي لم يموت وإن الله قد تقدم إليكم في أمره فلا تدعوه جزعا فإن الله عز وجل قد اختار لنبيه صلى الله عليه وسلم ماعنده على ماعندكم وقبضه إلى ثوابه وخلف فيكم كتابه وسنة نبيه صلى الله عليه وسلم فمن أخذ بهما عرف ومن فرق بينهما أنكر - يا أيها الذين آمنوا كونوا قوامين بالقسط ولا يشفلكم الشيطان بموت نبيكم ولا يفتنكم عن دينكم وعاجلوا الشيطان بالخير تعجزوه ولا تستنظروه فيلحق بكم ويفتكم . وقال ابن عباس لما فرغ أبو بكر من خطبته قال يا عمر أنت الذي بلغني أنك تقول ما مات نبي الله صلى الله عليه وسلم أما ترى أن نبي الله صلى الله عليه وسلم قال يوم كذا: كذا وكذا ويوم كذا: كذا وكذا وقال تعالى في كتابه - إنك ميت وإنهم ميتون - فقالوا والله لكأنى! أسمع بها في كتاب الله قبل الآن لما نزل بنا أشهد أن الكتاب كما أنزل وأن الحديث كما حدث وأن الله حي لا يموت - إنا لله وإنا إليه راجعون - وصلوات الله على رسوله وعند الله نختب رسوله صلى الله عليه وسلم ثم جلس إلى أبي بكر . وقالت عائشة رضي الله عنها لما اجتمعوا لفصله قالوا : والله ما ندري كيف نفصل رسول الله صلى الله عليه وسلم أتجرده عن ثيابه كما نضع بموتانا أو ننسله في ثيابه قالت فأرسل الله عليهم النوم حتى ما بق منهم رجل إلا واضع لحته على صدره نائم ثم قال لا يدري من هو عسوا رسول الله صلى الله عليه وسلم وعليه ثيابه فانتبهوا ففعلوا ذلك فنزل رسول الله صلى الله عليه وسلم في قميصه حتى إذا فرغوا من غسله كفن وقال على كرم الله وجهه أردنا خلع قميصه فنودينا لا نخلفوا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم ثيابه فأقررناه فغسلناه في قميصه كما نفصل موتانا مستلقيا مانشاء أن يقلب لنا منه عضو لم يخال فيه إلا قلب لنا حتى نفرغ منه وإن معنا لحفيفا في البيت كالريح الرخاء وبصوت بنا ارفقوا رسول الله ﷺ فانكم ستكفون فهكذا كانت وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم ولم يترك سبدا ولا لبدا إلا دفن معه قال أبو جعفر فرش لحده بغير شعوة قطيفته وفرشت ثيابه عليها التي كان يلبس يقظان على القطيفة والمفرش ثم وضع عليها في أكفانه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قسبة على قسبة <sup>(١)</sup> في وفاته عبرة تامة للمسلمين به أسوة حسنة .

( وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه )

لما احتضر أبو بكر رضي الله تعالى عنه جاءت عائشة رضي الله عنها فتمثلت بهذا البيت :

(١) حديث أبي جعفر فرش لحده بغير شعوة وقطيفة وفيه فلم يترك بعد وفاته مالا ولا بنى في حياته لبنة على لبنة ولا وضع قسبة على قسبة أما وضع المفرشة والقطيفة فالذي وضع القطيفة شقران مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم وليس ذكر ذلك من شرط كتابنا وأما كونه لم يترك مالا فقد تقدم من حديث عائشة وغيرها وأما كونه ما بقى في حياته فتقدم أيضا .

إنما هو تأديب وتهذيب وتذويب فالتأديب محل الاستتار وهو للعوام والتهذيب للخواص وهو التجلي والتذويب للأولياء وهو المشاهدة وحاصل الاشارات في الاستتار والتجلي راجع إلى ظهور صفات النفس ( ومنها الإستتار ) وهو إشارة إلى غيبة صفات النفس بكال قوة صفات القلب ( ومنها التجلي ) ثم التجلي قد يكون بطريق الأفعال وقد يكون بطريق الصفات وقد يكون بطريق الذات والحق تعالى أبقى على الخواص موضع الاستتار رحمة منه



لمسرك ما ينفى التراء عن الفتى إذا حشر جرت يوما وضاق بها الصدر  
فكشفت عن وجهه وقال ليس كذا ولكن قولى - وجاءت سكرة الموت بالحق ذلك ما كنت منه  
تخيد - انظروا ثوبى هذين فاعسلوها وكفوني فيها فان الحق إلى الجديد أخرج من البيت .  
وقالت عائشة رضى الله عنها عند موته :

وأبيض يستقى الفمام بوجهه ربيع اليتامى عصمة للأرامل

فقال أبو بكر ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم ودخلوا عليه فقالوا ألا ندعوك طيبا ينظرك إليك؟  
قال قد نظر إلى طيبى وقال إني ضال لما أريد . ودخل عليه سلمان الفارسي رضى الله تعالى عنه  
يوجهه فقال يا أبا بكر أوصنا فقال : إن الله فاع عليكم الدنيا فلا تأخذن منها إلا بلاغك . واعلم أن  
من صلى صلاة الصبح فهو في ذمة الله فلا تضرن الله في ذمته فيك في النار على وجهك، ولما نقل  
أبو بكر رضى الله تعالى عنه وأراد الناس منه أن يستخاف فاستخاف عمر رضى الله عنه فقال الناس  
له استخلفت علينا فظا غليظا لماذا تقول لربك فقال أقول استخافت على خلقك خير خافك ثم أرسل  
إلى عمر رضى الله عنه فجاء فقال إني موصيك بوصية . اعلم أن الله حقا في التهار لا يقبله في الليل وأن  
الله حقا في الليل لا يقبله في النهار وأنه لا يقبل النافلة حتى تؤدي الفريضة وإنما قلت موازين من قلت  
موازينهم يوم القيامة باتباعهم الحق في الدنيا وتقله عليهم وحق لميزان لا يوضع فيه إلا الحق أن يقل  
وإما خفت موازين من خفت موازينهم يوم القيامة باتباع الباطل وخفته عليهم وحق لميزان لا يوضع  
فيه إلا الباطل أن يخف وإن الله ذكر أهل الجنة بأحسن أعمالهم وتجاوز عن سيئاتهم فيقول القائل  
أنا دون هؤلاء ولا يبلغ مبلغ هؤلاء فان الله ذكر أهل النار بأسوأ أعمالهم ورد عليهم صالح الذي عملوا  
فيقول القائل أنا أفضل من هؤلاء وإن الله ذكر آية الرحمة وآية العذاب ليكون للؤمن راغبا راغبا  
ولا يلقي يديه إلى التهلكة ولا يتخنى على الله غير الحق فان حفظت وصيتي هذه فلا يكون غائب أحب  
إليك من الموت ولا بذلك منه وإن ضيعت وصيتي فلا يكون غائب أبغض إليك من الموت ولا بذلك  
منه ولست بمعجزه ، وقال سعيد بن المسيب لما احتضر أبو بكر رضى الله عنه أتاه ناس من الصحابة  
فقالوا يا خليفة رسول الله صلى الله عليه وسلم زدنا فانا نراك لما بك . فقال أبو بكر من قال هؤلاء  
الكلمات ثم مات جعل الله روحه في الأفق البين قالوا وما الأفق البين ؟ قال قاع بين يدي العرش  
فيه رياض الله وأشجار يشاء كل يوم مائة رحمة فمن قال هذا القول جعل الله روحه في هذا  
الكان : اللهم إنك ابتدأت الخلق من غير حاجة بك إليهم ثم جعلتهم فريقين فريقا للنعيم وفريقا  
للسعير فأجعلني للنعيم ولا تجعلني للسعير . اللهم إنك خلقت الخلق فرقا وميزتهم قبل أن تخلقهم فجعلت  
منهم شقيا وسعيدا وغويا ورشيدا فلا تشفق بمصايك . اللهم إنك علمت ما تكسب كل نفس قبل  
أن تخلقها فلا تجعل لها مما علمت فأجعلني ممن تستعمله بطاعتك . اللهم إن أحدا لا يشاء حتى تشاء  
فاجعل مشيئتك أن أشاء ما يقربني إليك . اللهم إنك قد قدرت حركات العباد فلا تتحرك شيء  
إلا بأذنك فأجعل حركاتي في تقواك . اللهم إنك خلقت الخير والشر وجعلت لكل واحد منهما عاملا  
يعمل به فأجعلني من خير التسمين . اللهم إنك خلقت الجنة والنار وجعلت لكل واحدة منهما أهلا  
فأجعلني من سكان جنتك . اللهم إنك أردت بقوم الضلال وضيق به صدورهم فأشرح صدري  
للإيمان وزينه في قلبي . اللهم إنك دبرت الأمور وجعلت مصيرها إليك فأجني بعد الموت حياة  
طيبة وقربني إليك زلفى . اللهم من أصبح وأمسى تمته ورجاؤه غيرك فأنت تقى ورجائي ولا حول  
ولا قوة إلا بالله قال أبو بكر هذا كله في كتاب الله عز وجل .

لهم ولغيرهم فأما لهم  
فلائهم به يرجعون  
إلى مصالح النفوس وأما  
لغيرهم فلا نه لولا مواضع  
الاستئثار لم ينتفع بهم  
لاستغراقهم في جمع  
الجمع وبروزهم لله الواحد  
القهار . قال بعضهم  
علامة تجلي الحق  
للأسرار هو أن لا يشهد  
السر ما يتسلط عليه  
التصير ويحويه الفهم  
فمن عبر أوفهم فهو  
صاحب استدلال لا ناظر  
اجلال . وقال بعضهم  
التجلى رضى حجة  
البشرية لأن يتلون  
ذات الحق عز وجل  
والاستئثار أن تكون  
البشرية حائلة بينك  
وبين شهود الغيب .  
(ومنها التجريد والتفريد)

( وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه )

قال عمرو بن ميمون كنت قائما غداة أصيب عمر مائني وبينه إلا عبد الله بن عباس وكان إذا مر بين الصنفين قام بينهما فإذا رأى خلا قال استوا حتى إذا لم يرفهم خلا تقدم فكبر قال وربما قرأ سورة يوسف أو النحل أو نحو ذلك في الركعة الأولى حتى يجتمع الناس فما هو إلا أن كبر فسمعتة يقول قتلني أو أكلني الكلب حين طعنه أبو لؤلؤة وطار الملعج بسكين ذات طرفين لا يمر على أحد يميناً أو شمالاً إلا طعنه حتى طعن ثلاثة عشر رجلاً فمات منهم تسعة وفي رواية سبعة فلما رأى ذلك رجل من المسلمين طرح عليه برنسا فلما ظن الملعج أنه مأخوذ نحر نفسه ، وتناول عمر رضي الله عنه عبد الرحمن بن عوف فقدمه فأما من كان يلي عمر فقد رأى ما رأيت وأما نواحي المسجد ما يدرون ما الأمر غير أنهم فقدوا صوت عمر وهم يقولون سبحان الله سبحان الله صلى بهم عبد الرحمن صلاة خفيفة فلما انصرفوا قال يا ابن العباس انظر من قتاني قال فغاب ساعة ثم جاء فقال غلام الغيرة بن شعبة فقال عمر رضي الله عنه قاتله الله لقد كنت أمرت به معروفا ، ثم قال الحمد لله الذي لم يجعل مني يد رجل مسلم قد كنت أنت وأبوك تحبان أن يكثر العلوج بالمدينة وكان العباس أكرمهم رقيقا فقال ابن عباس إن شئت فعلت : أي إن شئت قتلناهم قال بعد ما تكلموا بلسانكم وصلوا إلى قبلكم وجواحكم فاحتمل إلى بيته فانطلقنا معه قال وكان الناس لم تصبهم مصيبة قبل يومئذ قال قاتل يقول أخاف عليه وقائل يقول لا بأس فأتى بنيذ فشرب منه فخرج من جوفه ثم أتى بلبن فشرب منه فخرج من جوفه فزفروا أنه ميت قال فدخلنا عليه وجاء الناس يثنون عليه وجاء رجل شاب فقال أبتري أمير المؤمنين يشرى من الله عز وجل قد كان لك محبة من رسول الله صلى الله عليه وسلم وقدم في الإسلام ما قد علمت ثم ولت فعدلت ثم شهادة فقال وددت أن ذلك كان كفافا لا على ولا لي فلما أدبر الرجل إذا إزاره يمس الأرض فقال ردوا على الغلام فقال يا ابن أخي ارفع ثوبك فإنه أتقى لثوبك وأتقى لربك ثم قال يا عبد الله انظر ما على من الدين لحسبوه فوجدوه ستة وعشرين ألفا أو نحوها فقال إن وفي به مال آل عمر فأده من أموالهم وإلا نسل في بني عدي بن كعب فإن لم تف أموالهم فسل في قريش ولا تدهم إلى غيرهم وأدعني هذا المال انطلق إلى أم المؤمنين عائشة فقل عمر يقرأ عليك السلام ولا تغفل أمير المؤمنين فأتى لست اليوم للمؤمنين أميرا وقل يستأذن عمر بن الخطاب أن يدفن مع صاحبيه فذهب عبد الله وسلم واستأذن ثم دخل عليها فوجدها قاعدا تبكي فقال يقرأ عليك عمر بن الخطاب السلام ويستأذن أن يدفن مع صاحبيه فقالت كنت أريده لنفسى ولأثرته اليوم على نفسى فلما أقبل قيل هذا عبد الله بن عمر قد جاء فقال ارفعوني فأسنده رجل إليه فقال ما لديك قال الذي تحب يا أمير المؤمنين قد أذنت قال الحمد لله ما كان شيء أم إلى من ذلك فإذا أنا قبضت فأحملوني ثم سلم وقل يستأذن عمر فان أذنت لي فأدخلوني وإن ردتني ردوني إلى مقابر المسلمين وجاءت أم المؤمنين حفصة والنساء يسترنها فلما رأيناها قمنا فوالت عليه فبكت عنده ساعة واستأذن الرجال فوالت داخلا فسمنا بكاءها من داخل فقالوا أوص يا أمير المؤمنين واستخلف فقال ما أرى أحق بهذا الأمر من هؤلاء النفر الذين توفي رسول الله صلى الله عليه وسلم وهو عنهم راض فسمى عليا وعثمان والزبير وطلحة وسعدا وعبد الرحمن وقال يشهدكم عبد الله بن عمر وليس له من الأمر شيء كهيئة التعزية له فإن أصابت الامارة سعدا فذاك وإلا فليستن به أيكم أمرفاني لم أعزله من عجز ولا خيانة وقال أوصي لخليفة من بعدي بالمهاجرين الأولين أن يعرف لهم فضلهم ويحفظ لهم حرماتهم وأوصيه بالأصاخير الذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم أن يقبل من محبتهم وأن يعفوا عن مسيئتهم وأوصيه بأهل الأمصار خير أقاتهم رده الإسلام

الإشارة منهم في التجريد والتفريد أن العبد يتجرد عن الأغراض فيما يفعله لا يأتي بما يأتي به نظرا إلى الأغراض في الدنيا والآخرة بل ما كوشف به من حق العظمة يؤديه حسب جهده عبودية وإقيادا والتفريد أن لا يرى نفسه فيما يأتي به بل يرى منة الله عليه فالتجريد بنى الأغيار والتفريد بنى نفسه واستغراقه في رؤية نعمة الله عليه وغيبته عن حجبها ( ومنها الوجد والتواجد والوجود ) فالوجد ما يرد على الباطن من الله يكسبه فرحا أو حزنا ويضيره عن هيبته

وجباة الأموال وغيظ العدو وأن لا يأخذ منهم إلا فضلهم عن رضا منهم وأوصيه بالأعراب خيرا فأنهم أصل العرب ومادة الاسلام وأن يأخذ من حوائج أموالهم ويرد على فقرائهم وأوصيه بذمة الله عز وجل وذمة رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يوفى لهم بمهمهم وأن يقاتلهم من وراءهم ولا يكافهم إلا طاقهم قال فلما قبض خرجنا به فانطلقنا نحشى فسلم عبد الله بن عمر وقال يستأذن عمر بن الخطاب فقالت أدخلوه فأدخلوه في موضع هناك مع صاحبيه الحديث وعن النبي صلى الله عليه وسلم قال « قال لي جبريل عليه السلام لييك الاسلام على موت عمر (١) » وعن ابن عباس قال « بوضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون قبل أن يرفع وأنا فيهم فلم يرعنى إلا رجلا قد أخذ بمنكبى فالتفت فاذا هو على بن أبي طالب رضي الله عنه ترحم على عمر وقال ما خلفت أحدا أحب إلى أن ألقى الله بمثل عمله منك وإيم الله إن كنت لأظن ليجعلنك الله مع صاحبيك وذلك أنى كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول « ذهب أنا وأبو بكر وعمر وخرجت أنا وأبو بكر وعمر ودخلت أنا وأبو بكر وعمر (٢) » فأنى كنت لأرجو أو لأظن أن يجعلك الله معهما .

( وفاة عثمان رضي الله عنه )

الحديث في قتله مشهور وقد قال عبد الله بن سلام أتيت أخى عثمان لأسلم عليه وهو محصور قد دخلت عليه فقال مرحبا يا أخى رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم الليلة في هذه الخوخة وهى خوخة في البيت فقال يا عثمان حصروك قلت نعم قال عطشوك قلت نعم فأدلى إلى دلو فيه ماء فشربت حتى رويت حتى إنى لأجد برده بين يدي وبين كتفى وقال لى إن شئت نصرت عليهم وإن شئت أفطرت عندنا فاخترت أن أفطر عنده فقتل ذلك اليوم رضى الله عنه . وقال عبد الله بن سلام لمن حضر : تشبط عثمان في الموت حين جرح ماذا قال عثمان وهو يتشبط ؟ قالوا معناه يقول : اللهم اجمع أمة محمد صلى الله عليه وسلم ثلاثا قل والذى نفسى بيده لو دعا الله أن لا يجتمعوا أبدا ما اجتمعوا إلى يوم القيامة وعن ثمامة بن حزن القشيري قال شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال اتوني بصاحبيكم الذين ألباكم على قال فجئ بهما كأنهما هما حملان أو حماران فأشرف عليهم عثمان رضي الله عنه فقال أنشدكم بالله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قدم للدينة ولينس بها ماء يستحذب غير بئر رومة فقال من يشتري رومة يجعل دلوه مع دلاء المسلمين غير له منها في الجنة فاشترتها من سلب مالى فأتهم اليوم يتمنون أن أشرب منها ومن ماء البحر ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أنى جهزت جيش العسرة من مالى ؟ قالوا نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن للسجد كان قد ضاق بأهله فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من يشتري بقعة آل فلان فيزيدها في السجد بخير منها في الجنة فاشترتها من سلب مالى فأتهم اليوم يتمنون أن أصلى فيها ركعتين ؟ قالوا اللهم نعم قال أنشدكم الله والاسلام هل تعلمون أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان على نبيز بمكة ومعه أبو بكر وعمر وأنا فحرك الجبل حتى تساقطت حجارتها بالحصى قال فركضه برجله وقال اسكن نبيز لما عليك إلا نبي وصديق وشهيدان ؟ قالوا اللهم نعم قال الله أكبر شهدوا لى ورب الكعبة أتى شهيد (٣) . وروى عن شيخ من ضبة أن عثمان حين

(١) حديث قال لي جبريل عليه السلام لييك الاسلام على موت عمر أبو بكر الأجرى في كتاب الشريعة من حديث أبي بن كعب بسند ضعيف جدا وذكره ابن الجوزى في الموضوعات (٢) حديث ابن عباس قال وضع عمر على سريره فكشفه الناس يدعون ويصلون فذكر قول على بن أبي طالب كنت كثيرا أسمع النبي صلى الله عليه وسلم يقول ذهب أنا وأبو بكر وعمر الحديث متفق عليه (٣) حديث ثمامة ابن حزن القشيري شهدت الدار حين أشرف عليهم عثمان الحديث الترمذى وقال حسن والفسائى .

وتطلع إلى الله تعالى وهو فرجة يجدها القلوب عليه بصفات تله ينظر منها إلى الله تعالى والتواجد استجلاب الوجد بالذكر والتفكير والوجود اتساع فرجة الوجد بالخروج إلى قضاء الوجدان فلا وجد مع الوجدان ولا خبر مع العيان فالوجد بمرضية الزوال والوجود ثابت ثبوت الجبال وقد قيل : قد كان يطربنى وجدى فأفقدنى عن رؤية الوجد من فى الوجد موجود والوجد يطرب من فى الوجد راحته والوجد عند حضور الحق مفقود

ضرب والدماء تسيل على لحيته جعل يقول لا إله إلا أنت سبحانك إني كنت من الظالمين اللهم إني أستعديك عليهم وأستهينك على جميع أموري وأسألك الصبر على ما ابتليتني .

( وفاة على كرم الله وجهه )

قال الأصمعي الحنظلي لما كانت الليلة التي أصيب فيها على كرم الله وجهه أتاه ابن التياح حين طلع الفجر يؤذنه بالصلاة وهو مضطجع متناقل فماد الثانية وهو كذلك ثم عاد الثالثة فقام على عشي وهو يقول:

اشدد حيازك للموت فان الموت لا يكا

ولا تجزع من الموت إذا حل بواديكا

فلما بلغ الباب الصغير شد عليه ابن ملجم فضربه فخرجت أم كلثوم ابنة على رضى الله عنه فجعلت تقول مالى ولصلاة الغداة قتل زوجي أمير المؤمنين صلاة الغداة وقتل أبي صلاة الغداة وعن شيخ من قريش أن عليا كرم الله وجهه لما ضربه ابن ملجم قال فزت ورب الكعبة وعن محمد بن علي أنه لما ضرب أوصى بنيه ثم لم ينطق إلا بلا إله إلا الله حتى قبض ولما نقل الحسن بن علي رضى الله عنه ما دخل عليه الحسين رضى الله عنه فقال يا أخى لأى شئ تجزع تقدم على رسول الله ﷺ وعلى بن أبي طالب وهما أبوك وعلى خديجة بنت خويلد وفاطمة بنت محمد وهما أمك وعلى حمزة وجعفر وهما عمك قال يا أخى أقدم على أمر لم أقدم على مثله وعن محمد بن الحسن رضى الله عنه ما قال لما نزل القوم بالحسين رضى الله عنه موافق أنهم قاتلوه قام في أصحابه خطيبا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال قد نزل من الأمراء من وإن الدنيا قد تغيرت وتسكرت وأدير معروفها وانشمرت حتى لم يبق منها إلا كصباة الإناء ألا حسبي من عيش كالمرعى الويل ألا ترون الحق لا يعمل به والباطل لا يفتأهى عنه ليرغب المؤمن في لقاء الله تعالى وإني لأرى الموت لإسماعدة والحياة مع الظالمين إلا جرما.

( الباب الخامس في كلام المختصرين من الخلفاء والأمراء والصالحين )

لما حضرت معاوية بن أبي سفيان الوفاة قال أتعذون فأعذت فجعل يسبح الله تعالى ويدكره ثم بكى وقال تذكر ربك يا معاوية بعد الهرم والانحطاط ألا كان هذا وغصن الشباب نضريان وبكى حتى علا بكأوه وقال يارب ارحم الشيخ العاصي ذا القلب القاسى اللهم أقل العثرة وأغفر الزلة وعد بحلمك على من لم يرج غيرك ولم يثق بأحد سواك . وروى عن شيخ من قريش أنه دخل مع جماعة عليه في مرضه فرأوا في جلده غصونا فحمد الله وأثنى عليه ثم قال أما بعد فمل الدنيا أجمع إلا ما جربنا ورأينا أما والله لقد استقبلنا زهرتها بمجدتنا وباستلذاذنا بعيشنا فما لبثنا الدنيا أن تفتت ذلك منا حالا بعد حال وعروة بعد عروة فأصبحت الدنيا وقد وترتنا وأخلفتنا واستلأمت إلينا أف للدنيا من دار ثم أف لها من دار . وروى أن آخر خطبة خطبها معاوية أن قال : أيها الناس إن من زرع قد استحصد وإني قد وليتكم ولن يليكم أحد من بعدى إلا وهو شر منى كما كان من قبلى خيرا منى ويا يزيد إذا وفى أجلي قول غملى رجلا ليبيبا فان الأيب من الله يمكن فلينعم القمل وليجهر بالتكبير ثم اعمد إلى منديل في الحزاة فيه ثوب من ثياب النبي صلى الله عليه وسلم وقرضه من شعره وأظفاره فاستودع القراضة أنفى وففى وأذن وعينى واجعل الثوب على جلدى دون أكفانى ويا يزيد احفظ وصية الله في الوالدين فإذا أدرجتموني في جديدى ووضعتوني في حفرتى غفلوا معاوية وأرحم الراحمين . وقال محمد بن عقبة لما نزل بمعاوية الموت قال ياليتنى كنت رجلا من قريش بذى طوى وإني لم آل من هذا الأمر شيئا . ولما حضرت عبد الملك بن مروان الوفاة نظر إلى غسال بجانب دمشق يلوى ثوبا بيده ثم يضرب به لفصلة فقال عبد الملك ليتنى كنت غسالا آكل من كسب يدي يوما يوم

( ومنها الغلبة ) الغلبة وجد متلاحق فالوجد كالبرق يبدو والغلبة كتلاحق السبق وتواتره يغيب عين التمييز فالوجد ينطقه سرهما والغلبة تسبق للأسرار حرز انبعا . ( ومنها السامرة ) وهى تفرد الأرواح بعنى مناجاتها ولطيف مناجاتها فى سر السر بلطيف إدراكها للقلب لتفرد الروح بها فتلتذ بها دون القلب ( ومنها السكر والصحو ) فالسكر استيلاء سلطان الحال والصحو المود إلى ترتيب الأفعال وتهذيب الأقوال قال محمد بن خفيف

( الباب الخامس في كلام جماعة من المختصرين )

ولم آل من أمر الدنيا شيئا قبل ذلك أباحازم فقال الحمد لله الذي جعلهم إذا حضروا الموت يتمنون ما نحن فيه وإذا حضروا الموت لم تمن ما هم فيه . وقيل لعبد الملك بن مروان في مرضه الذي مات فيه كيف تجدك يا أمير المؤمنين ؟ قال أجدي كما قال الله تعالى - ولقد جئتمونا فرادى كما خلقناكم أول مرة وترككم ما خولناكم وراء ظهوركم - الآية ، ومات . وقالت فاطمة بنت عبد الملك بن مروان امرأة عمر بن عبدالعزيز كنت أسمع عمر في مرضه الذي مات فيه يقول : اللهم أخف عليهم موتى ولوساعة من نهار فلما كان اليوم الذي قبض فيه خرجت من عنده فجلست في بيت آخر بيني وبينه باب وهو في قبة له فسمعتة يقول - تلك الدار الآخرة نجعلها للذين لا يريدون علوا في الأرض ولا فسادا والعاقبة للمتقين - ثم هدأ فجلست لأسمع له حركة ولا كلاما فقلت لوصيف له انظر أنا ثم هو فلما دخل صاح فوثبت فإذا هو ميت وقيل له لما حضره الموت اعهد يا أمير المؤمنين قال أحذركم مثل مصر عى هذا فإنه لا بد لكم منه وروى أنه لما ثقل عمر بن عبدالعزيز دعى له طبيب فلما نظر إليه قال أرى الرجل قد سقى السم ولا آمن عليه الموت فرفع عمر بصره وقال ولأنتم الموت أيضا على من لم يسق السم قال الطبيب هل أحسست بذلك يا أمير المؤمنين قال نعم قد عرفت ذلك حين وقع في بطنى قال فعالج يا أمير المؤمنين فأنى أخاف أن تذهب نفسك قال ربى خير مذهوب إليه والله لو علمت أن شقائى عند شحمة أذنى مارفعت يدي إلى أذنى فتناولته اللهم خر لعمر في ثنائك فلم يلبث إلا أياما حتى مات وقيل لما حضرته الوفاة بكى قتيلا له ما يبكيك يا أمير المؤمنين أبشر فقد أحيا الله بك سفنا وأظهر بك عدلا فبكى ثم قال أليس أوقف فأسأل عن أمر هذا الخلق فوالله لو عدلت فيهم لحففت على نفسى أن لا تقوم بحجتها بين يدي الله إلا أن يلقننا الله حجتها فكيف بكثير مما ضيعنا وفاضت عيناه فلم يلبث إلا سيرا حتى مات ولما قرب وقت موته قال أجلسوني فأجلسوه فقال : أنا الذى أمرتني فقصرت ونهيتني فصبت ثلاث مرات ولكن لا إله إلا الله ثم رفع رأسه فأحد النظر قتيلا له في ذلك فقال إني لأرى خضرة ما هم بأفس ولا جن ثم قبض رحمه الله . وحكى عن هرون الرشيد أنه انتهى أ كفافه يده عند الموت وكان ينظر إليها ويقول ما أغنى عني ماله هلك عني سلطانيه وفرش المؤمن رمادا واضطجع عليه وكان يقول يا من لا يزول ملكه ارحم من قد زال ملكه وكان العتصم يقول عند موته لو علمت أن عمري هكذا قصير ما فعلت وكان للتصير يضطرب على نفسه عند موته قتيلا له لا بأس عليك يا أمير المؤمنين فقال ليس إلا هذا لقد ذهبت الدنيا وأقبلت الآخرة . وقال عمرو بن العاص عند الوفاة وقد نظر إلى صناديق لبيته من يأخذها بما فيها ليه كان بعرا . وقال الحجاج عند موته اللهم اغفر لي فإن الناس يقولون إنك لا تنفرد لي فكان عمر بن عبدالعزيز تعجبه هذه الكلمة منه وبغبطه عليها ولما حكى ذلك للحسن قال أقالها ؟ قيل نعم قال عسى .

( بيان أقوال جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم )

( من أهل التصوف رضى الله عنهم أجمعين )

لما حضرت معاذا رضى الله عنه الوفاة قال اللهم إني قد كنت أخافك وأنا اليوم أرجوك اللهم إنك تعلم أني لم أكن أحب الدنيا وطول البقاء فيها لجرى الأنهار ولا لفرس الأشجار ولكن لظما للهواجر ومكابدة الساعات ومزاحمة العلماء بالركب عند خلق الذكر ولما اشتد به التبع ونزع نزعا لم يترعه أحد كان كما أفانى من غمرة فتح طرفه ثم قال رب ما أخفتني خفتك فوعزت لك إنك تعلم أن قلبي يحبك ولما حضرت سلمان الوفاة بكى قتيلا له ما يبكيك قال ما أبكى جزعا على الدنيا ولكن عهد إلينا رسول الله

السكر غليان القلب  
عند معارضات ذكر  
المحبوب وقال الواسطي  
مقامات الوجد أربعة  
الذهوله ثم الحيرة ثم  
السكر ثم الصحو كمن  
سمح بالبحر ثم دنامته  
ثم دخل فيه ثم أخذته  
الأمواج فقل هذا من  
بقى عليه أثر من  
سريان الحال فيه  
فعله أثر من السكر  
ومن عاد كل شئ منه  
إلى مستقره فهو صاح  
فالسكر لأرباب القلوب  
والصحو كالمصايفين  
بعقائق الغيوب .  
( ومنها الهو والإنبات )  
الهو بإزالة أوصاف  
النفس والانبات بما  
أدبر عليهم من آثار  
الحب كؤوس أو الهو

صلى الله عليه وسلم أن تكون بلفة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب (١) فلما مات سلمان نظرت جميع مارك فاذا قيمته بضعة عشر درهما ولما حضر بلالا الوفاة قالت امرأته واحزناته فقال بل واطرباه غدا نلقى الأحبة محمدا وحزبه وقيل فتح عبد الله بن المبارك عينه عند الوفاة وضحك وقال مثل هذا فيعمل العاملون - ولما حضر إبراهيم النخعي الوفاة بكى قبيل له ما يبكيك قال أنتظر من الله رسولا يبشرني بالجنة أو بالنار ولما حضر ابن للكندر الوفاة بكى قبيل له ما يبكيك قال والله ما أبكي لأني أعلم أني أتيته ولكن أخاف أني أتيت شيئا حسبه هينا وهو عند الله عظيم ولما حضر عامر بن عبد القيس الوفاة بكى قبيل له ما يبكيك قال ما أبكي جزعا من الموت ولا حرصا على الدنيا ولكن أبكي على ما يغوتني من ظمأ المواجر وعلى قيام الليل في الشتاء ولما حضرت فضيلا الوفاة غشي عليه ثم فتح عينيه وقال وابد سفره واقلة زاداه ولما حضرت ابن المبارك الوفاة قال لعمر مولاة اجعل رأسي على التراب فبكى نصر فقال له ما يبكيك قال ذكرت ما كنت فيه من النعيم وأنت هو ذا تموت فقبرا غريبا قال اسكت فاني سألت الله تعالى أن يمحيي حياة الأغنياء وأن يميتي موت الفقراء ثم قال له لقي ولأهد على ما لم أنسكم بكلام ثان . وقال عطاء بن يسار تبدي إبليس لرجل عند الموت فقال له نجوت قال ما آمنتك بعد وبكى بعضهم عند الموت قبيل له ما يبكيك قال آية في كتاب الله تعالى قوله عز وجل - إنما يتقبل الله من المتقين - ودخل الحسن رضي الله عنه على رجل مجود بنفسه فقال إن أمرا هذا أوله لجدير أن يتقى آخره وإن أمرا هذا آخره لجدير أن يزهدي في أوله . وقال الجريري كنت عند الجنيد في حال نزعه وكان يوم الجمعة ويوم النيروز وهو يقرأ القرآن ففتحتم قلعت له في هذه الحالة يا أبا القاسم قال ومن أولى بذلك مني وهو ذا تطوى صحيفتي . وقال رويم حضرت وفاة أبي سعيد الخزاز وهو يقول:

حين قلوب العارفين إلى الذكر وتذكرهم وقت للناجاة للسر  
أدبرت مكثوس للمنايا عليهم فأغفوا عن الدنيا كما غفاه ذى الشكر  
همومهم جواة بمسك به أهل ود الله كالأنجم الزهر  
فأجسامهم في الأرض قتلى بحبه وأرواحهم في الحجب نحو الملائكة  
لما عزموا إلى اقرب حبيبهم وما عرجوا من مس يؤس ولا ضر

وقيل للجنيد إن أبا سعيد الخزاز كان كثير التواجد عند الموت فقال لم يكن يجب أن تطير روحه احتياقا وقيل لدى النون عند موته ما تشتهي قال أن أعرفه قبل موتى بلحظة وقيل لبعضهم وهو في التزع قل الله فقال إلى متى تقولون الله وأنا محترق بالله . وقال بعضهم كنت عند محمد بن النورى قدّم قفير وقال السلام عليكم هل هنا موضع نظيف يمكن الإنسان أن يموت فيه قال فأشاروا إليه بمكان وكان ثم عين ماء فجعد الفقير الوضوء وركع ماشاء الله ومضى إلى ذلك المكان ومدرجاه ومات وكان أبو العباس الدينوري يتكلم في مجلسه فصاحت امرأة نواجدا فقال لها موتى فقامت المرأة فلما بلغت باب الدار التفتت إليه وقالت قد مت ووقت ميتة . ويعك عن فاطمة أخت أبي على الروذبارى قالت لما قرب أجل أبي على الروذبارى وكان رأسه في حجرى فتح عينيه وقال هذه أبواب السماء قد فتحت وهذه الجنان قد زينت وهذا قائل يقول يا أبا على قد بلغناك الرتبة القصوى وإن لم ترد هاهنا أنشأ يقول:

وحقك لا نظرت إلى سواكا بسنين مودة حتى أراكا  
أراك معذبي بفتور لحظ وبالحد للورد من حياكا

(١) حديث لما حضرت سلمان الوفاة بكى وفيه عهد إلينا رسول الله صلى الله عليه وسلم أن يكون بلفة أحدنا من الدنيا كزاد الراكب أحمد والحاكم وصححه وقد تقدم .

محو رسوم الأعمال  
ينظر الفناء إلى نفسه  
ومامنسه والاثبات  
إثباتها بما أنشأ الحق  
له من الوجود به  
فهو بالحق لا بنفسه  
بأثبات الحق إياه  
مستأنفا بعد أن  
عمده عن أوصافه .  
قال ابن عطاء بمحو  
أوصافهم ويثبت  
أسرارهم (ومنها علم  
اليقين وعين اليقين  
وحق اليقين) فعمل  
اليقين ما كان  
من طريق النظر  
بالاستدلال وعين اليقين  
ما كان من طريق  
الكشف والتوكل  
وحق اليقين ما كان  
بتحقيق الانفصال  
عن لوث الصلصال

وقيل للجنيدي قل لا إله إلا الله فقال ما نسيت فأذكره وسأل جعفر بن نصير بكران الدينوري خادم الشبلي ما الذي رأيت منه فقال قال عليّ درهم مظلمة وتصدقت عن صاحبه بألوف فما طلى قلبي شغل أعظم منه ثم قال وضئني للصلاة ففعلت ففسدت تحليل لحيتي وقد أمسك على لسانه فقبض على يدي وأدخلها في لحيتي ثم مات فبكى جعفر وقال ما تقولون في رجل لم يفته في آخر عمره أدب من آداب الشر يعقوب قيل لبشر بن الحرث لما احتضر وكان يشق عليه كأنك تحب الحياة فقال القوم على الله شديد وقيل لصالح بن مسمار ألا تومى بابتك وعيالك فقال إني لأستحي من الله أن أوصي بهم إلى غيرهم ولما احتضر أبو سليمان الداراني أتاه أصحابه فقالوا أبشر فانك تقدم على رب غفور رحيم فقال لهم ألا تقولون احذر فانك تقدم على رب يحاسبك بالصغير ويعاقبك بالكبير ولما احتضر أبو بكر الواسطي قيل له وأوصنا فقال احفظوا مراد الحق فيكم احتضر بعضهم فبكت امرأته فقال لها ما يبكيك فقالت عايك أبكي فقال إن كنت باكية فابكي على نفسك فلقد بكيت لهذا اليوم أربعين سنة وقال الجنيدي دخلت على سري السقطي أعوده في مرض موته فقلت كيف تجددك فأنشأ يقول :

كيف أشكو إلى طبيبي ما بي والذى بي أصابني من طبيبي

فأخذت الروحة لأروحه فقال كيف يجد ريع الروحة من جوفه يحترق ثم أنشأ يقول :

القلب يحترق والدمع مستبق والكرب مجتمع والصبر مفترق

كيف القرار على من لا قرار له مما جناه الهوى والشوق والقلق

يا رب إن بك شيء فيه لي فرج فامضني على به مادام بي رمق

وحكى أن قوما من أصحاب الشبلي دخلوا عليه وهو في الموت فقالوا له قل لا إله إلا الله فأنشأ يقول :

إن بيتا أنت ساكنه غير محتاج إلى السرج وجهك المأمول حجتنا

يوم يأتي الناس بالحجج لا أتاح الله لي فرجا يوم أدعو منك بالفرج

وحكى أن أبا العباس بن عطاء دخل على الجنيدي في وقت نزع فسلم عليه فلم يجبه ثم أجاب بعد ساعة وقال اعذرني فاني كنت في وردي ثم ولى وجهه إلى القبلة وكبر ومات وقيل للسكتاني لما حضرته

الوفاة ما كان عمالك فقال لو لم يقرب أجلى ما أخبرتك به وقفت على باب قلبي أربعين سنة فكل عامر

فيه غير الله حجته عنه وحكى عن المعتز قال كنت فيمن حضر الحسين بن عبد الملك حين جاءه الحق

فقلت اللهم هون عليه سكرات الموت فانه كان وكان فذكرت محاسنه فأفاق فقال من التلكم؟ فقلت أنا

فقال إن ملك الموت عليه السلام يقول لي إن بكل سخي رفيق ثم طفي ولما حضرت يوسف بن أسباط

الوفاة شهد حذيفة فوجده قلما فقال يا أبا محمد هذا أو ان القلق والجزع فقال يا أبا عبد الله وكيف لا أقلق

ولا أجزع وإني لا أعلم أتى صدق الله في شيء من عملي فقال حذيفة واهجأ لهذا الرجل الصالح علف

عند موته أنه لا يعلم أنه صدق الله في شيء من عمله. وعن المغازي قال دخلت على شيخ لي من أصحاب هذه الصفة

وهو عليل وهو يقول يمكنك أن تعمل ما تريد فارقني بي. ودخل بعض المشايخ على محمد الدينوري

في وقت وفاته فقال له فعل الله تعالى وصنع من باب الدعاء فضحك ثم قال منذ ثلاثين سنة تعرض على

الجنة بما فيها لما أعرتها طرفي. وقيل لرويم عند الموت قل لا إله إلا الله فقال لأحسن غيره ولما حضرت

الثوري الوفاة قيل له قل لا إله إلا الله فقال أليس ثم أمر. ودخل للزني على الشافعي رحمه الله عليه ما

في مرضه الذي توفي فيه فقال له كيف أصبحت يا أبا عبد الله فقال أصبحت من الدينار احلاو ولاخوان

مفارقا ولسوء عملي ملاقيا ولكأس النية شاربا وعلى الله تعالى واردا ولا أدري أروحي تصير إلى

الجنة فأهنيها أم إلى النار فأعزها ثم أنشأ يقول :

بورود رائد الوصال

قال فارسي : علم اليقين

لا اضطراب فيه

وعين اليقين هو

العلم الذي أودعه

الله الأسرار والعلم

إذا انفرد عن نعت

اليقين كان علما

بشبهة فاذا انضم

إليه اليقين كان علما

بلاشبهة وحق اليقين

هو حقيقة ما أشار

إليه علم اليقين وعين

اليقين. وقال الجنيدي

حق اليقين ما يتحقق

المبدأ بذلك وهو

أن يشاهد الغيوب

كما يشاهد المرئيات

مشاهدة عيان

ويحكم على الغيب فيخبر

عنه بالصدق كما أخبر

الصديق حين قال لما

ولما قسا قلبي وضاعت مذاهي جعلت رجائي نحو عفوك سلما  
تعاظمي ذنبي فلما قرئت به بعفوك ربي كان عفوك أعظما  
لما زلت ذا عفوك عن الذنب لم تزل تجود وتعفو منة وتكرما  
ولولاك لم يغوى إبليس عابد فكيف وقد أغوى صنك آدماء

ولما حضر أحمد بن خضرويه الوفاة سئل عن مسألة فدمعت عيناه وقال يا بني باب كنت أدقه خمسا  
وتسعين سنة هوذا يفتح الساعة لي لأدري أيفتح بالمادة أو الشقاوة فآن لي أوان الجواب فهذه  
أقاويلهم وإنما اختلفت بحسب اختلاف أحوالهم فقلب على بعضهم الخوف وعلى بعضهم الرجاء وعلى  
بعضهم الشوق والحب فتكلم كل واحد منهم على مقتضى حاله والكل صحيح بالإضافة إلى أحوالهم.

( الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر وحكم زيارة القبور )

اعلم أن الجنائز عبرة للبصير وفيها تنبيه وتذكير لأهل الغفلة فإنها لا تزيدهم مشاهدتها إلا قساوة لأنهم  
يظنون أنهم أبدا إلى جنازة غيرهم ينظرون ولا يحسبون أنهم لا محالة على الجنائز يحملون أو يحسبون  
ذلك ولكنهم على القرب لا يجدون ولا يتفكرون أن المحولين على الجنائز هكذا كانوا يحسبون  
فبطل حسابهم وانعرض على القرب زمانهم فلا ينظر عبد إلى جنازة إلا ويقدر نفسه محمولا عليها  
فانه محمول عليها على القرب وكأن قد ولطه في غد أو بعد غد . وروى عن أبي هريرة أنه كان إذا  
رأى جنازة قال امضوا فانا على الأثر . وكان مكحول الدمشقي إذا رأى جنازة قال اغدوا فانا رائعون  
موعظة بليغة وغفلة سرية يذهب الأول والآخر لا عقل له . وقال أسيد بن حضير ما شهدت جنازة  
فحدثني نفسي بشيء سوى ما هو مفعول به وما هو صائر إليه ولمامات أخو مالك بن دينار خرج مالك  
في جنازته يبكي ويقول والله لا تفر عيني حتى أعلم إلى ماذا صرت إليه ولا أعلم مادمت حيا وقال الأعمش  
كنا نشهد الجنائز فلا ندري من نعزي لحزن الجميع وقال ثابت البناني كنا نشهد الجنائز فلا ندري إلا  
متنعما بما كنا فيه فكذا كان خوفهم من الموت والآن لا تنظر إلى جماعة يحضرون جنازة إلا وأكثرهم  
يضحكون ويلهون ولا يتسكلمون إلا في ميراثه وما خلفه لورثته ولا يتفكر أقرانه وأذنيه إلا في الحيلة  
التي بها يتناول بعض ما خلفه ولا يتفكر واحد منهم إلا ما شاء الله في جنازة نفسه وفي حاله إذا حمل  
عليها ولا سبب لهذه الغفلة إلا قسوة القلوب بكثرة المعاصي والذنوب حتى نسينا الله تعالى واليوم الآخر  
والأحوال التي بين أيدينا فصرنا نلهو ونغفل ونشتغل بما لا يعنيننا فنسأل الله تعالى اليقظة من هذه  
الغفلة فإن أحسن أحوال الحاضرين على الجنائز بكاؤهم على الميت ولو عقلوا البكوا على أنفسهم لا على الميت  
نظر إبراهيم الزيات إلى أناس يترحمون على الميت فقال لو ترحمون على أنفسكم لكان خيرا لكم فإنه  
نجا من أهوال ثلاثة : وجه ملك الموت وقد رأى ، ومرارة الموت وقد ذاق ، وخوف الحاتمة وقد  
أمن . وقال أبو عمرو بن العلاء : جلست إلى جريح وهو يملى على كاتبه شعرا فأطلعت جنازة  
فأمسك وقال شيتني والله هذه الجنائز وأنشأ يقول :

ثرونا الجنائز مقبلات ونلهو حين تذهب مدبرات

مكروعة ثلة لخار ذئب فلما قاب عادت راتمات

فمن آداب حضور الجنائز التفكير والتنبه والاستعداد والتي أمامها على هيئة التواضع كما ذكرنا  
آدابه وسننه في فن النقة ومن آدابه حسن الظن بالميت وإن كان فاسقا وإساءة الظن بالنفس وإن  
كان ظاهرها الصلاح فإن الحاتمة محطرة لا تدرى حقيقتها ، ولذلك روى عن عمر بن عبد الله أنه مات

( الباب السادس في أقاويل العارفين على الجنائز والقابر )

قال له رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
« ماذا أقيمت لميالك  
قال الله ورسوله » وقال  
بعضهم : علم اليقين  
حال التفرقة وعين  
اليقين حال الجمع وحق  
اليقين جمع الجمع  
بلسان التوحيد وقيل  
ليقين اسم ورسم  
وعلم وعين وحق  
فالاسم والرسم للموأم  
وعلم اليقين للأولياء  
وعين اليقين لخواص  
الأولياء وحق اليقين  
للأنبياء عليهم الصلاة  
والسلام وحقبة اليقين  
اختص بها نبينا محمد  
صلى الله عليه وسلم .  
( ومن الوقت ) والمراد  
بالوقت ما هو غالب  
على البعد وأغلب



واحد من جيرانه وكان مسرفا على نفسه فتجافى كثير من الناس عن جنازته فحضرها هو وصلى عليها فلما دلى في قبره وقف على قبره وقال يرحمك الله يا أبا فلان فلقد صحبت عمرك بالتوحيد وعفرت وجهك بالسجود وإن قالوا مذنب وذو خطايا فمن منا غير مذنب وغير ذي خطايا . ويعجى أن رجلا من قتهمكين في القصادمات في بعض نواحي البصرة فلم تجد امرأته من يسيها على حمل جنازته إذ لم يدبرها أحد من جيرانه لكثرة فسقه فاستأجرت محالين وحملتها إلى الصلي فاصلى عليه أحد خدمتها إلى الصحراء للدفن فكان على جبل قريب من الموضع زاهد من الزهاد الكبار فرأته كالمنتظر للجنازة ثم قصد أن يصلى عليها فانتشر الخبر في البلد بأن الزاهد نزل ليصلى على فلان فخرج أهل البلد فصلى الزاهد وصلوا عليه وتعجب الناس من صلاة الزاهد عليه فقال قيل لى في المنام أنزل إلى موضع فلان ترى فيه جنازة ليس معها أحد إلا امرأة فصلت عليه فانه مغفور له فزاد تعجب الناس فاستدعى الزاهد امرأته وسألها عن حاله وأنه كيف كانت سيرته قالت كما عرف كان طول نهاره في الماخور مشغولا بشرب الخمر فقال انظرى هل تعرفين منه شيئا من أعمال الخير قالت نعم ثلاثة أشياء : كان كل يوم يفيق من سكره وقت الصبح يبدل ثيابه ويتوضأ ويصلى الصبح في جماعة ثم يعود إلى الماخور ويشتمل بالفسق ، والثاني أنه كان أبدا لا يخلو بيته من يتيم أو يتيمين وكان إحسانه إليهم أكثر من إحسانه إلى أولاده وكان شديد التفقد لهم ، والثالث أنه كان يفيق في أثناء سكره في ظلام الليل فيبكي ويقول يارب أى زاوية من زوايا جهنم تريد أن تملأها بهذا الحبيث بمنى نفسه فانصرف الزاهد وقد ارتفع إشكاله من أمره . وعن صلة بن أشيم وقد دفن أخ له فقال على قبره :

فان تنج منها تنج من ذى عظمة وإلا فأنى لإخالك ناجيا

( بيان حال القبر وأقاربهم عند القبور )

قال الضحاك قال رجل « يارسول الله من أزهد الناس قال من لم ينس القبر والبلى وترك فضل زينة الدنيا وآثر ما يبقى على ما يفنى ولم يعد غدا من أيامه وعد نفسه من أهل القبور (١) » . وقيل أملى كرم الله وجهه ما سألتك جاورت القبرة قال « إنى أجدم خير جيران « إنى أجدم جيران صدق يكفون الألسنة ويذكرون الآخرة وقال رسول الله ﷺ « ما رأيت منظرا إلا والقبر أظفح منه (٢) » وقال عمر ابن الخطاب رضى الله عنه « خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس إلى قبر وكنت أدنى القوم منه فبكى وبكى فقال ما يبكيكم قلنا بكى البكاك قال هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى فاستأذنته أن أستغفر لها فأبى على فأدركنى ما يدرك الولد من الرقة (٣) »

(١) حديث الضحاك : قال رجل يارسول الله من أزهد الناس؟ قال من لم ينس القبور والبلى الحديث تقدم (٢) حديث : ما رأيت منظرا إلا والقبر أظفح منه تقدم في الباب الثالث من آداب الصلاة (٣) حديث عمر : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم إلى المقابر فجلس على قبر وكنت أدنى القوم الحديث وفيه هذا قبر أمى آمنة بنت وهب استأذنت ربي في زيارتها فأذن لى الحديث وتقدم في آداب الصلاة أيضا ورواه ابن أبى الدنيا في كتاب القبور من حديث ابن مسعود وفيه ذكر لعمر بن الخطاب وآخره عند ابن ماجه مختصرا وفيه أيوب بن هانى عن عذبة بن معين وقال أبو حاتم صالح .

ما على العبد وقته  
قانه كالسيف يعضى  
الوقت بحكمه ويقطع  
وقد يراد بالوقت  
ما يهجم على العبد  
لا يكسبه فيتصرف  
فيه فيكون بحكمه  
يقال فلان يحكم  
الوقت يسعى مأخوذا  
عما منه بما للحق.  
(ومن الغيبة والشهود)  
قال الشهود هو الحضور  
وقنا بنت المرافقة  
ووقنا بوصف  
الشاهدة لآدام العبد  
موصوفا بالكشود  
والرطابة فهو حاضر  
فاذا قد حال  
الشاهدة والرافقة  
خرج من دائرة  
الحضور فهو غائب  
وقد ينعون بالنية

وكان عثمان بن عفان رضى الله عنه إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته فسئل عن ذلك وقيل له تذكر الجنة والنار فلا تبكى وتبكي إذا وقفت على قبر فقال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «إن القبر أول منازل الآخرة فإن نجا منه صاحبه لم يبعده أيسر منه وإن لم ينج منه لم يبعده أشد» (١) وقيل إن عمرو بن العاص نظر إلى القبرة فنزل وصلى ركعتين فقبل له هذا ثم لم تكن تصنع فقال ذكرت أهل القبور وما حيل بينهم وبينه فأحببت أن أقرب إلى الله بهما وقال مجاهد أول ما يكلم ابن آدم حفرته فتقول أنا بيت الدود وبيت الوحدة وبيت الغربة وبيت الظلمة هذا ما أعددت لك فما أعددت لى . وقال أبوذر ألا أخبركم يوم قبرى يوم أوضع فى قبرى وكان أبو الدرداء يقعد إلى القبور فقبل له فى ذلك فقال أجلس إلى قوم يذكرونى معادى وإذا قتلت لم يثابونى وكان جعفر بن محمد يأتى القبور ليلا ويقول يا أهل القبور مالى إذا دعوتكم لآلئىونى ثم يقول حيل والله بينهم وبين جوابى وكأنى بى أكون مثلهم ثم يستقبل الصلاة إلى طلوع الفجر . وقال عمر بن عبد العزيز لبعض جلسائه يا فلان لقد أرتقت الليلة أنفكر فى القبر وسأكنه إنك لو رأيت البيت بعد ثلاثة فى قبره لاستوحشت من قبره بعد طول الأنس منك به ولأرأيت بيتا تجول فيه الهوام ويمر فى الصديد وتغترقه الديدان مع تغير الريح وبلى الأكفان بعد حسن الهيئة وطيب الريح وتقاء الثوب قال ثم شق شهقة خرمشيا عليه وكان يزيد الرقاشى يقول أيها القبور فى حفرته والتخلى فى القبر بوحدته للستأنس فى بطن الأرض بأعماله ليت شعرى بأى أعمالك استبشرت وبأى اخوانك اغتبطت ثم يبكى حتى يبل عمامته ثم يقول استبشر والله بأعماله الصالحة واغبط والله بأخوانه للتعاونين على طاعة الله تعالى وكان إذا نظر إلى القبور خار كما يغور الثور وقال حاتم الأصم من مر بالقبابر فلم يفكر لنفسه ولم يدع لهم فقد خان نفسه وخانهم وكان بكر العابد يقول يأما ليتك كنت بى عقيما إن لابتك فى القبر حيسا طويلا ومن بعد ذلك منه رجلا وقال يحيى بن معاذ يا ابن آدم دعاك ربك إلى دار السلام فانظر من أين تجيبه إن أجبتك من دنياك واشتغلت بالرحلة إليه دخلتها وإن أجبتك من قبرك منعها وكان الحسن بن صالح إذا أشرف على القابر يقول ما أحسن ظواهركم إنما الدواهي فى بواطنكم وكان عطاء السلمي إذا جن عليه الليل خرج إلى القبرة ثم يقول يا أهل القبور متم فواموتاه وعانيتم أعمالكم فواعملاه ثم يقول غدا عطاء فى القبور غدا عطاء فى القبور فلا يزال ذلك دأبه حتى يصبح وقال سفيان من أكثر من ذكر القبر وجدته روضة من رياض الجنة ومن غفل عن ذكره وجدته حفرة من حفر النار وكان الربيع بن خيثم قد حفر فى داره قبرا فكان إذا وجد فى قلبه قساوة دخل فيه فاضطجع ومكث ما شاء الله ثم يقول رب ارجعون لعل أعمل صالحا فيها تركت يرددها ثم يرد على نفسه ياربيع قد رجعتك فاعمل وقال أحمد بن حرب تعجب الأرض من رجل يهد مضجعه ويسوى فراشه للنوم فتقول يا ابن آدم لم لاتذكر طول بلاك وما بينى وبينك شئ وقال ميمون بن مهران خرجت مع عمر بن عبد العزيز إلى القبرة فلما نظر إلى القبور بكى ثم أقبل على فقال يا ميمون هذه قبور آبائى بنى أمية كأنهم لم يشاركوا أهل الدنيا فى دنائهم وعيشهم أما تراهم صرعى قد حلت بهم المثلث واستحك فيهم البلى وأصابته الهوام مقيلا فى أبدانهم ثم بكى وقال والله ما أعلم أحدا أنعم بمن صار إلى هذه القبور وقد أمن من عذاب الله وقال ثابت البناني دخلت للقبائر فلما قصدت الخروج منها فإذا بصوت قائل يقول يا ثابت لا يفرنك صوت أهلها فكم

الغيبه عن الأشياء بالحق فيكون على هذا المعنى حاصل ذلك راجعا إلى مقام الفناء (ومنها الذوق والشرب والرى) فالذوق إيمان والشرب علم والرى حال فالذوق الأرباب البواده والشرب لأرباب الطوابع واللوامع والاروامع والرى لأرباب الأحوال وذلك أن الأحوال هى التى تستقر فما لم يستقر فليس بحال وإنما هى لوامع وطوابع وقيل الحال لا تستقر لأنها تحول فاذا استقرت تكون مقاما (ومنها المحاضرة والكاشفة والشاهدة) فالمحاضرة لأرباب التساوين والشاهدة

(١) حديث عثمان كان إذا وقف على قبر بكى حتى يبل لحيته وفيه إن القبر أول منازل الآخرة الترمذى وحسنه وابن ماجه والحاكم وصححه وتقدم فى آداب الصحبة .

من نفس مغمومة فيها ، ويروى أن فاطمة بنت الحسين نظرت إلى جنازة زوجها الحسن بن الحسن  
فقطت وجهها وقالت :

وكانوا رجاء ثم أموار زية لقد عظمت تلك الرزايا وجلت

وقيل إنها ضربت على قبره فسطاطا واعتكفت عليه سنة فلما مضت السنة قلعوا الفسطاط ودخلت  
المدينة فسمعوا صوتا من جانب البقيع هل وجدوا ما فقدوا فسمعوا من الجانب الآخر بل يشعوا  
فاتقبلوا . وقال أبو موسى التيمي : توفيت امرأة الفرزدق فخرج في جنازتها وجوه البصرة وفيهم  
الحسن فقال له الحسن يا أبا فراس ماذا أعددت لهذا اليوم فقال شهادة أن لا إله إلا الله منذ ستين سنة  
فلما دفنت أقام الفرزدق على قبرها فقال :

أخاف وراء القبر إن لم تعافى أشد من القبر التهابا وأخيقا

إذا جاءني يوم القيامة قائداً عنيف وسواق يسوق الفرزدقا

لقد خاب من أولادهم من مثي إلى النار مغلول القلادة أزرقا

وقد أنشدوا في أهل القبور :

قف بالقبور وقل على ساكنها من منكم للعمور في ظلماتها

ومن للمكرم منكم في قعرها قد ذاق برد الأمن من روعاتها

أما السكون لدى العيون فواحد لا يستبيز الفضل في درجاتها

لو جابوك لأخبروك بالسن نصف الحقائق بعد من حالاتها

أما المطيع فنازل في روضة يفضى إلى ماشاء من دوحاتها

والمحرم الطاغى بها متقلب في حفرة يأوى إلى حياتها

وعقارب تسعى إليه فروحه في شدة التعذيب من لدعاتها

ومر داود الطائي على امرأة تبكي على قبر وهي تقول :

عدمت الحياة ولا نلتها إذا كنت في القبر قد ألدوكا

فكيف أذوق لطم الكرى وأنت يمينك قد وسدوكا

ثم قالت يا ابناء بأى خديك بدأ الدود فصعق داود مكانه وخر مغشيا عليه . وقال مالك بن دينار  
مررت بالمقبرة فأنشأت أقول :

أنيت القبور فناديتها فأين العظم والمختر

وأين الدل بسلطانه وأين الزكي إذا ما اقتخر

قال فنوديت من بينها أسمع صوتا ولا أرى شخصا وهو يقول :

تفانوا جميعا فما خبر وماتوا جميعا ومات الخبر

تروح وتندو نبات الثرى فتمحو محاسن تلك الصور

فيا سائل عن أناس مضوا أما لك فما ترى معتبر

قال فرجعت وأنا باك .

آيات وجدت مكتوبة على القبور

وجد مكتوبا على قبر :

تتاجيك أجدات وهن صموت وسكانها تحت التراب خفوت

أيا جامع الدنيا لغير بلاغه لمن تجمع الدنيا وأنت تموت

لأرباب النكبين

وللكاشفة بينهما إلى

أن تستقر للمشاهدة

والمحاضرة لأهل العلم

وللكاشفة لأهل العين

والشاهدة لأهل الحق

أى حق اليقين (ومنها

الطوارق والبوادي

والبادع والواقع

والقادر والطوالع

واللواسع واللاوائح)

وهذه كلها ألفاظ

متقاربة المعنى ويمكن

بسط القول فيها

ويكون حاصل ذلك

راجعا إلى معنى واحد

يكثر بالعبارة فلا فائدة

فيه والمقصود أن هذه

الأسماء كلها مبادئ

الحال ومقدماته وإذا

صح الحال استوعب

ووجد على قبر آخر مكتوبا :

أيا غانم أما ذراك فواسع وقبرك معمور الجوانب محكم  
وما ينفع القبور عمران قبره إذا كان فيه جسمه ينهم  
وقال ابن السكك مررت على المقابر فإذا على قبر مكتوب :

يمر أقاربى جنبات قبرى كأن أقاربى لم يعرفونى  
ذوو الميراث يقتسمون مالى وما يألون أن جعدوا ديونى  
وقد أخذوا سهامهم وعاشوا فيأله أسرع ما نسونى  
ووجد على قبر مكتوبا :

إن الحبيب من الأحباب غنّى لا ينفع الموت بواب ولا حرس  
فكيف تفرح بالدنيا ولذتها يامن بعد عليه اللفظ والنفس  
أصبحت يا غافلا فى القمص منغما وأنت دهرك فى اللذات منغمس  
لا يرحم الموت ذا جهل لثرتة ولا الذى كان منه العلم يقتبس  
كم أحرص الموت فى قبر وقت به عن الجواب لسانا مابه خرس  
قد كان قصرك معمورا له شرف فقبرك اليوم فى الأجداث مندرس  
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

وقفت على الأحية حين صفت قبورهم كأفراس الرهان  
فلا أن بكيت وقاض دمعى رأيت عيناي بينهم مكانى  
ووجد على قبر طيب مكتوبا :

قد قلت لما قال لى قائل صار لقمان إلى رصه  
فأين ما يوصف من طبه وحذقه فى الماء مع جسّه  
هيات لا يدفع عن غيره من كان لا يدفع عن نفسه  
ووجد على قبر آخر مكتوبا :

يا أيها الناس كان لى أمل قصر بى عن بلوغه الأجل  
فلتقى الله ربه رجل أمكنه فى حياته العمل  
ما أنا وحدى قلت حيث ترى كلّ إلى مثله سيقتل

فلهذه آيات كتبت على قبور لتقصير مكانها عن الاعتبار قبل الموت والبصير هو الذى ينظر إلى قبر غيره فيرى مكانه بين أظهرهم فيستمد للحوق بهم ويعلم أنهم لا يبرحون من مكانهم ما لم يلحق بهم وليتحقق أنه لو عرض عليهم يوم من أيام عمره الذى هو مضى له لكان ذلك أحب إليهم من الدنيا بعد أفيها لأنهم عرفوا قدر الأعمار وانكشفت لهم حقائق الأمور فأنما حسرتهم على يوم من العمر ليتدارك القصر به تقصيره فيتخلص من العقاب وليستزيد الوفاق به ربه فيتضاعف له الثواب فاتهم إنما عرفوا قدر العمر بعد انقطاعه حسرتهم على ساعة من الحياة وأنت قادر على تلك الساعة وأهلك تقدر على أمثالهم ثم أنت مضى لهما فوطن نفسك على التحسر على تضييعها عند خروج الأمر من الاختيار إذ لم تأخذ نصيبك من ساعتك على سبيل الابتداء فقد قال بعض الصالحين رأيت أخا لى فى الله فها يرى النائم قلت يا فلان عشت الحمد لله رب العالمين قال لأن أقدر على أن أقولها معنى الحمد لله رب العالمين أحب إلى من الدنيا وما فيها ثم قال ألم تر حيث كانوا يدفنونى فإن فلانا

هذه الأسماء كلها ومعانيها .

( ومنها التلوين والتحكين )

فالتلوين لأرباب القلوب لأنهم تحت حجب القلوب وللقلوب

تخلص إلى الصفات وللصفات تمدد بتعدد

جهاتها فظهر لأرباب القلوب بحسب تعدد

الصفات تلوينات ولا تجاوز للقلوب وأربابها

عن عالم الصفات وأما أرباب التحكين

تفرجوا عن مشائم الأحوال وخرقوا حجب القلوب

وباشرت أرواحهم مسطوح نور الذات

فأرفع التلوين لعدم

قد قام فصلي ركعتين لأن أكون أقدر على أن أصليهما أحب إلي من الدنيا وما فيها .

( بيان أقوالهم عند موت الولد )

حق على من مات ولده أو قريب من أقاربه أن يتزله في تقدمه عليه في الموت منزلة ما لو كان في سفر فسبقه الولد إلى البلد الذي هو مستقره ووطئه فإنه لا يعظم عليه تأسفه لعلمه أنه لاحق به على القرب وليس بينهما إلا تقدم وتأخر وهكذا للموت فإن معناه السبق إلى الوطن إلى أن يلحق التأخر وإذا اعتقد هذا قل جزعه وحزنه لاسما وقد ورد في موت الولد من الثواب ما يعزى به كل مصاب قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله» (١) وإنما ذكر السقط تنبيها بالأدنى على الأعلى وإلا فالثواب على قدر عمل الولد من القلب وقال زيد بن أسلم توفي ابن لدواد عليه السلام فحزن عليه حزنا شديدا فبذل ما كان عدله عندك قال ملء الأرض ذهباً قيل له فإن لك من الأجر في الآخرة مثل ذلك وقال رسول الله ﷺ «لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم إلا كانوا له جنة من النار» قالت امرأة عند رسول الله صلى الله عليه وسلم أو اثنان قال أو اثنان (٢) وليخلص الوالد الدعاء لولده عند الموت فإنه أرجى دعاء وأقرب به إلى الاجابة . وقف محمد بن سليمان على قبر ولده فقال اللهم إني أصبحت أرجوك له وأخافك عليه فحق رجائي وآمن خوفي ووقف أبو سنان على قبر ابنه فقال اللهم إني قد غفرت له ما وجب لي عليه فأغفر له ما وجب لك عليه فانك أجود وأكرم ، ووقف أعرابي على قبر ابنه فقال اللهم إني قد وهبت له ما قصر فيه من برى فهب له ما قصر فيه من طاعتك . ولما مات ذر بن عمر بن ذر قال أبوه عمر بن ذر بعد ما وضعه في الحدة فقال يا ذر لقد شغلنا الحزن لك عن الحزن عليك فليت شمرى ماذا قالت وماذا قيل لك ثم قال اللهم إن هذا ذر متعنى به مامتتى ووفيته أجله ورزقه ولم تظلمه اللهم وقد كنت ألزمت طاعتك وطاعتي اللهم وما وعدتني عليه من الأجر في مصيبي فقد وهبت له ذلك فهب لي عذابه ولا تمذه فأكبى الناس ثم قال عند انصرافه ما علينا بعدك من خصاصة يا ذر وما بنا إلى إنسان مع الله حاجة فاقد مضينا وتركنك ولو ألقنا ما فنعناك . ونظر رجل إلى امرأة بالصرة فقال ما رأيت مثل هذه النظارة وما ذاك إلا من قلة الحزن فقالت يا عبد الله إني لفي حزن ما يشركني فيه أحد قال فكيف قالت إن زوجي ذبح شاة في يوم عيد الأضحى وكان لي صبيان مليحان بامبان فقال أكبرهما للآخر أريد أن أريك كيف ذبح أبي الشاة قال نعم فأخذه وذبحه وما شعرنا به إلا امتشحنا في دمه فلما ارتفع الصراخ هرب الغلام فاجأ إلى جبل فرمقه ذئب فأكله وخرج أبوه يطلبه فمات عطشا من شدة الحر قالت فأرادني الدهر كما ترى فأمثال هذه المصائب ينبغي أن تتذكر عند موت الأولاد ليتسلى بها عن شدة الجزع فإمن مصيبة لا لا يتصور ما هو أعظم منها وما يدفعه الله في كل حال فهو الأكثر .

( بيان زيارة القبور والدعاء للميت وما يتعلق به )

زيارة القبور مستحبة على الجملة للتذكر والاعتبار بزيارة قبور الصالحين مستحبة لأجل التبرك مع الاعتبار وقد كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهى عن زيارة القبور ثم أذن في ذلك بعد (٣) .

(١) حديث لأن أقدم سقطا أحب إلي من أن أخلف مائة فارس كلهم يقاتل في سبيل الله لم أجد فيه ذكر مائة فارس وروى ابن ماجه من حديث أبي هريرة لسقط أقدمه بين يدي أحب إلي من فارس أخلفه خنبي (٢) حديث لا يموت لأحد من المسلمين ثلاثة من الولد فيحتسبهم الحديث تقدم في السكاح (٣) حديث نهى عن زيارة القبور ثم أذنه في ذلك مسلم من حديث بريدة وقد تقدم .

التغير في القدرات إذ جلت ذاته عن حلول الحوادث والتغيرات فلما خلصوا إلى مواطن القرب من أنصبة بحلى الذات ارتفع عنهم التلوين فالتلوين حينئذ يكون في نفوسهم لأنها في محل القلوب لموضع طهارتها وقدسها والتلوين الواقع في النفوس لا يخرج صاحبها عن حال التمكن لأن جريان التلوين في النفس بقاء رسم الانسانية وثبوت القسمة في التمكن كشف حق الحقيقة وليس المعنى بالتمكن أن لا يكون له تغيير فإنه بشر وإنما المعنى

روى عن علي رضي الله عنه عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا <sup>(١)</sup> » وزار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يبا كيا أكثر من يومئذ <sup>(٢)</sup> وفي هذا اليوم قال أذن لي في الزيارة دون الاستغفار <sup>(٣)</sup> كأوردنا من قبل وقال ابن أبي مليكة أقبلت عائشة رضي الله عنها يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن فقلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنها قالت نعم ثم أمر بها <sup>(٤)</sup> ولا ينبغي أن يتمسك بهذا يؤذن للنساء في الخروج إلى المقابر فانهم يكثرن الهجر على رؤوس المقابر فلا ينبغي خير زيارتهن بشرها ولا يخلون في الطريق عن تكشف وتبرج وهذه عظام والزيار سنة فكيف يحتمل ذلك لأجلها ، نعم لا بأس بخروج المرأة في ثياب بذلة تردأعين الرجال عنها وذلك بشرط الاختصار على الدعاء وترك الحديث على رأس القبر وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « زر القبور تذكر بها الآخرة واغسل اللوتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة وصل على الجنائز لعل ذلك أن يحزنك فان الحزين في ظل الله <sup>(٥)</sup> » وقال ابن أبي مليكة قال رسول الله ﷺ « زوروا موتاكم وسلموا عليهم فان لكم فيهم عبرة <sup>(٦)</sup> » وعن نافع أن ابن عمر كان لا يمر بقبر أحد الأوقف عليه وسلم عليه وعن جعفر بن محمد عن أبيه أن فاطمة بنت النبي صلى الله عليه وسلم كانت تزور قبر عمها حمزة في الأيام فتصلي وتبكي عنده وقال النبي صلى الله عليه وسلم « من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا <sup>(٧)</sup> » وعن ابن سيرين قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل لم يمت والداه وهو عاق لهما فیدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين <sup>(٨)</sup> » وقال النبي صلى الله عليه وسلم

أن ما كوشف له من الحقيقة لا يتوارى عنه أبدا ولا ينقص بل يزيد وصاحب التلوي قد ينقص الشيء في حقه عند ظهور صفات نفسه وتقيب عنه الحقيقة في بعض الأحوال ويكون ثبوته على مستقر الإيمان وتلوينه في زوائد الأحوال (ومنها النفس) ويقال النفس المنتهى والوقت للمبتدى والحال للمتوسط فكأنه إشارة منهم إلى أن المبتدى يطرقه من الله تعالى طارق لا يستقر والمتوسط صاحب حال غالب حاله عليه وللنهي صاحب نفس

(١) حديث علي كنت نهيتكم عن زيارة القبور فزورها فانها تذكركم الآخرة غير أن لا تقولوا هجرا رواه أحمد وأبو يعلى في مسنده وابن أبي الدنيا في كتاب القبور واللفظ له وأبو يعلى غير أن لا تقولوا هجرا وفيه على بن زيد بن جده عن ربيعة بن النابتة قال البخاري لم يصح وربيعة ذكره ابن حبان في الثقات (٢) حديث زار رسول الله ﷺ قبر أمه في ألف مقنع فلم يبا كيا أكثر من يومئذ ابن أبي الدنيا في كتاب القبور من حديث بريدة وشيخه أحمد بن عمران الأخرس متروك ورواه بنحوه من وجه آخر كنا معه قريبا من ألف راكب وفيه أنه لم يأذن له في الاستغفار لها (٣) حديث وقال في هذا اليوم أذن لي في الزيارة دون الاستغفار تقدم في الحديث قبله من حديث بريدة أنه لم يؤذن له في الاستغفار لها ورواه مسلم من حديث أبي هريرة استأذنت ربي أن أستغفر لأمي فلم يأذن لي واستأذنت أن أزور قبرها فأذن لي (٤) حديث ابن أبي مليكة أقبلت عائشة يوما من المقابر فقلت يا أم المؤمنين من أين أقبلت قالت من قبر أخي عبد الرحمن قلت أليس كان رسول الله صلى الله عليه وسلم نهي عنها قالت نعم ثم أمر بها ابن أبي الدنيا في القبور بإسناد جيد (٥) حديث أبي ذر زر القبور تذكر الآخرة واغسل اللوتى فان معالجة جسد خاو موعظة بليغة الحديث ابن أبي الدنيا في القبور والحاكم بإسناد جيد (٦) حديث ابن أبي مليكة زوروا موتاكم وسلموا عليهم وصلوا عليهم الحديث ابن أبي الدنيا فيه هكذا مرصلا وإسناده حسن (٧) حديث من زار قبر أبويه أو أحدهما في كل جمعة غفر له وكتب برا الطبراني في الصغير والأوسط من حديث أبي هريرة وابن أبي الدنيا في القبور من رواية محمد بن النعمان برفعه وهو معضل ومحمد بن النعمان مجهول وشيخه عند الطبراني يحيى بن العلاء البجلي متروك (٨) حديث ابن سيرين أن الرجل لم يمت والداه وهو عاق لهما فیدعوا الله لهما من بعدهما فيكتبه الله من البارين ابن أبي الدنيا فيه وهو مرسل صحيح الإسناد ورواه ابن عدى من رواية يحيى بن عتبة بن أبي العزاز عن محمد بن جعدة

« من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة <sup>(٢)</sup> » وقال كعب الأحبار: ما من جري طاع إلا أنزل سبعون ألفا من الملائكة حتى يحفوا بالقبر يضربون بأجنحتهم ويصلون على النبي صلى الله عليه وسلم حتى إذا أمسوا عرجوا وهبط مثلهم فصنعوا مثل ذلك حتى إذا انشقت الأرض خرج في سبعين ألفا من الملائكة يوقرونه. ولستحب في زيارة القبور أن يقف مستدبر القبلة مستقبلا بوجهه البيت وأن يسلم ولا يمسح القبر ولا يمسح ولا يقبله فان ذلك من عادة النصارى. قال نافع كان ابن عمر رأى مائة مرة أو أكثر يمشي إلى القبر فيقول السلام على النبي السلام على أبي بكر السلام على أبي وبنصره. وعن أبي أمامة قال رأيت أنس بن مالك أتى قبر النبي صلى الله عليه وسلم فوقف فرفع يديه حتى ظننت أنه اقتنع الصلاة فسلم على النبي صلى الله عليه وسلم ثم انصرف. وقالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله ﷺ « ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم <sup>(٣)</sup> » وقال سليمان بن سحيم رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم فقلت يا رسول الله هؤلاء الذين يأتونك ويسلمون عليك أتفقه سلامهم قال نعم وأرد عليهم وقال أبو هريرة إذا مر الرجل بقبر الرجل يعرفه فلم عليه رد عليه السلام وعرفه وإذا مر بقبر لا يعرفه وسلم عليه رد عليه السلام وقال رجل من آل عاصم الجحدري رأيت عاصميا منامى بعد موته بسنتين فقلت أليس قد مات قال بلى فقلت أين أنت فقال أنا واقف في روضة من رياض الجنة أنا وقرن من أصحابي نجتمع كل ليلة جمعة وصبيحتها إلى أبي بكر بن عبد الله الذي فتلا في أخباركم قلت أجسامكم أم أرواحكم قال هيئات بلية الأجسام وإنما تتلاقى الأرواح قال قلت فهل تعلمون بزيارتنا إياكم قال نعم نعم بها عشية الجمعة ويوم الجمعة كله ويوم السبت إلى طلوع الشمس قلت وكيف ذاك دون الأيام كلها قال لفضل يوم الجمعة وعظمه. وكان محمد بن واسع يزور يوم الجمعة قبيل له لو أخرت إلى يوم الاثنين قال بلغني أن الموتى يملكون بزوارهم يوم الجمعة ويوما قبله ويوما بعده وقال الضحاك: من زار قبر قبل طلوع الشمس يوم السبت علم البيت بزيارته قبل وكيف ذاك قال لمكان يوم الجمعة. وقال بشر بن منصور لما كان زمن الطاعون كان رجل يختلف إلى الجبانة فيشهد الصلاة على الجنائز فإذا أمسى وقف على باب القابر فقال أنس الله وحشتكم ورحم غربتكم وتجاوز عن سيئاتكم وقبل الله حسناتكم لا يزيد على هذه الكلمات قال الرجل فأسميت ذات ليلة فأنصرفت إلى أهلي ولم آت القابر فأدعوا كما كنت أدعو فبينما أنا نائم إذا بخلق كثير قد جاءوني فقلت ما أنتم وما حاجتكم قالوا نحن أهل القابر فقلت ما جاءكم بكم قالوا إنك قد عودتنا منك هدية عند انصرافك إلى أهلنا فقلت وما هي قالوا الدعوات التي كنت تدعو لنا بها قلت فاني أعود لذلك لما تركتها بعد ذلك. وقال بشر بن غالب النجرائي رأيت رابعة العدوية العابدة في منامى وكنت كثير الدعاء لها فقالت لي يا بشر بن غالب هداياك تأتينا على أطباق من نور مخمرة بمناديل الحرير قلت وكيف ذاك قالت وهكذا دعاء المؤمنين الأحياء إذا دعوا للموتى فاستجيب لهم جعل ذلك الدعاء على أطباق النور وخمر بمناديل الحرير ثم أتى به البيت فقيل له هذه هدية فلان إليك وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « ما الميت في قبره إلا كالفرق الثوب ينتظر دعوة تلحقه من أبيه

عن أنس قال ورواه الصلت بن الحجاج عن ابن جعدة عن قتادة عن أنس ويحيى بن عتبة والصلت بن الحجاج كلاهما ضعيف (١) حديث من زار قبري فقد وجبت له شفاعتي تقدم في أسرار الحج (٢) حديث من زارني بالمدينة محسبا كنت له شفيعا وشهيدا يوم القيامة تقدم فيه (٣) حديث عائشة ما من رجل يزور قبر أخيه ويجلس عنده إلا استأنس به ورد عليه حتى يقوم ابن أبي الدنيا في القبور وفيه عبد الله بن مسمان ولم أقف على حاله ورواه ابن عبد البر في التمهيد من حديث ابن عباس نحوه وصححه عبد الحق الأشيلي.

متمكن من الحال  
لا يتناوب عليه الحال  
بالتوبة والحضور بل  
تكون للواجب  
مقرونة بأفهامه مقبلة  
لا تتناوب عليه وهذه  
كلها أحوال لأربابها  
ولهم منها ذوق وشرب  
والله ينفع يركنهم  
آمين

[ الباب الثالث  
والستون في ذكر  
شئ من البدايات  
والنهايات ومعتها ]  
حدثنا شيخنا شيخ  
الاسلام أبو النجيب  
السهروردي قال أنا  
الشريف أبو طالب  
الحسين بن محمد الزيني  
قال أخبرتنا كريمة  
الروزية قالت أخبرنا  
أبو الهيثم محمد بن مكي

وأخيه أوصديق له فإذا لحقته كانت أحب إليه من الدنيا وما فيها وإن هدايا الأخياء للأموات  
الدعاء والاستغفار<sup>(١)</sup> . وقال بعضهم مات أخ لي فرأيتني في المنام فقلت ما كان حالك حيث وضعت  
في قبرك قال أتاني آت بشهاب من نار فلولا أن داعيا دعاني لرأيت أنه سيضربني به ومن هذا يستحب  
تلقين الميت بعد الدفن والدعاء له قال سعيد بن عبد الله الأزدي وشهدت أبا أمامة الباهلي وهو في  
الترغ فقال ياسعيد إذا مات فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم  
فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول يا فلان ابن فلانة فانه يسمع ولا يجب  
ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثانية فانه يستوى قاعدا ثم ليقول يا فلان ابن فلانة الثالثة فانه يقول أرسدنا  
برحمتك الله ولكن لا تسمون فيقول له اذكر ما خرجت عليه من الدنيا شهادة أن لا إله إلا الله  
وأن محمدا رسول الله وأنت رضى بالله ربا وبالإسلام ديناً وبمحمد صلى الله عليه وسلم نبياً وبالقرآن  
إماماً فان منكراً ونكيراً يتأخر كل واحد منهما فيقول انطلق بنا ما يقعدنا عنده هذا وقد لقن حجته  
ويكون الله عز وجل حبيبه دونهما فقال رجل يا رسول الله فان لم يعرف اسم أمه قال فلينسبه إلى  
حواء<sup>(٢)</sup> ولا بأس بقراءة القرآن على القبور روى عن علي بن موسى الحدا قال: كنت مع أحمد بن  
حنبل في جنازة ومحمد بن قدامة الجوهري معنا فلما دفن الميت جاء رجل ضرب يقرأ عند القبر فقال له  
أحمد يا هذا إن القراءة عند القبر بدعة فلما خرجنا من المقابر قال محمد بن قدامة لأحمد يا أبا عبد الله  
ما تقول في مبشر بن اسمعيل الحلبي قال ثقة قال هل كتبت عنه شيئا قال نعم قال أخبرني مبشر بن  
اسمعيل عن عبد الرحمن بن العلاء بن اللجلاج عن أبيه أنه أوصى إذا دفن أن يقرأ عند رأسه فاتحة  
البقرة وخاتمتها وقال سمعت ابن عمر يوصى بذلك فقال له أحمد فارجع إلى الرجل فقل له يقرأ. وقال محمد  
ابن أحمد الروزي سمعت أحمد بن حنبل يقول إذا دخلتم المقابر فاقرأوا وباتحة الكتاب والمعوذتين وقل  
هو الله أحد واجعلوا ثواب ذلك لأهل المقابر فانه يصل اليهم وقال أبو قلابة أقبلت من الشام إلى البصرة  
فنزلات الخندق فظهرت وصليت ركعتين بديل ثم وضعت رأسي على قبر فسمعت ثم فنبهت فإذا صاحب القبر  
يشتكي يقول لقد آذيتني منذ الليلة ثم قال إنكم لا تعلمون ونحن نعظم ولا تقدر على العمل ثم قال للركعتان  
اللتان ركعتهما خير من الدنيا وما فيها ثم قال جزى الله عنا أهل الدنيا خير أقرهم السلام فانه قد يدخل  
عليها من دعائهم نور أمثال الجبال فالقصد من زيارة القبور للزائر الاعتبار بها وللمزور الانتفاع بدعائه  
فلا ينبغي أن يغفل الزائر عن الدعاء لنفسه وللميت ولا عن الاعتبار به وإنما يحصل له الاعتبار بأن يصور  
في قلبه الميت كيف تفرقت أجزاؤه وكيف يبعث من قبره وأنه على القبر سيلحق به كما روى  
عن مطرف بن أبي بكر الهذلي قال كانت عجوز في عبد القيس متعبدة فكان إذا جاء الليل  
تخزمت ثم قامت إلى المهراب وإذا جاء النهار خرجت إلى القبور فبلغني أنها عوتبت في كثرة اتيانها للمقابر

الكشميني قال أنا  
أبو عبد الله محمد بن  
يوسف القريري قال  
حدثنا أبو عبد الله محمد  
ابن اسمعيل بن ابراهيم  
البخاري قال حدثنا  
الحسين بن علي قال حدثنا  
مغيان بن عيينة قال  
حدثنا يحيى بن سعيد  
الأنصاري قال أخبرني  
محمد بن ابراهيم التيمي  
أنه سمع علقمة بن  
وقاص قال سمعت عمر  
ابن الخطاب رضي الله  
عنه يقول على المنبر  
سمعت رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يقول  
وإنما الأعمال بالنيات  
وإنما لكل امرئ  
ما نوى فمن كانت  
هجرته إلى الله  
ورسوله فحجرتها إلى  
الله ورسوله ومن

(١) حديث ما لي في قبره إلا كالفرق للفوت ينتظر دعوة تليقته من أبيه أو من أخيه أو صديق له  
الحديث أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس من حديث ابن عباس وفيه الحسن بن علي بن  
عبد الواحد قال الذهبي حدث عن هشام بن عمار بهديث باطل (٢) حديث سعيد بن عبد الله الأزدي  
قال شهدت أبا أمامة الباهلي وهو في الترع فقال ياسعيد إذا مات فاصنعوا بي كما أمرنا رسول الله  
صلى الله عليه وسلم فقال إذا مات أحدكم فسويتم عليه التراب فليقم أحدكم على رأس قبره ثم يقول  
يا فلان ابن فلانة الحديث في تلقين الميت في قبره الطبراني هكذا بإسناد ضعيف .



قالت إن القلب القاسى إذا جفا لم يلينه إلا رسوم البلى وإنى لآنى القبور فسكأن أنظروا وقد خرجوا من بين أطباقها وكأنى أنظر إلى تلك الوجوه المتضررة وإلى تلك الأجسام المتغيرة وإلى تلك الأجفان الدصمة فيالها من نظرة لو أشربها العباد قلوبهم ما أنكل مرارتها للأنفس وأشد تلفها للابدان بل ينبى أن يحضر من صورة الميت ما ذكره عمر بن عبد العزيز حيث دخل عليه فقيه فجعج من تغير صورته لكثرة الجهد والعبادة فقال له يا فلان لورأيتنى بعد ثلاث وقد أدخلت قبرى وقد خرجت الحدتان فسالتا على الحدين وتقلصت الشفتان عن الأسنان وخرج الصديد من الفم وانفتح الفم وتآ البطن فلا الصدر وخرج الصلب من الدبر وخرج الدود والصديد من الناحر لرأيت أعجب مما تراه الآن ويستحب الثناء على الميت والأبذكر لإلجاليل قالت عائشة رضى الله عنها قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقموا فيه»<sup>(١)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا»<sup>(٢)</sup> وقال صلى الله عليه وسلم «لا تذكروا موتاكم إلا بخير فانهم إن يكونوا من أهل الجنة تأمنوا وإن يكونوا من أهل النار تحسبهم مأم فيه»<sup>(٣)</sup> وقال أنس بن مالك «مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال عليه السلام وجبت ومروا بأخرى فأتوا عليها خيرا فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم وجبت فسأله عمر عن ذلك فقال إن هذا أتيتكم عليه خيرا فوجبت له الجنة وهذا أتيتكم عليه شرا فوجبت له النار وأنتم شهداء لله فى الأرض»<sup>(٤)</sup> وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن البديوت فينبى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غيره فيقول الله تعالى للملائكة أشهدكم أنى قد قبلت شهادة عبيدى على عبيدى وتجاوزت عن عفى فى عبيدى»<sup>(٥)</sup>

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر إلى نسخة الصور)

(بيان حقيقة الموت)

اعلم أن الناس فى حقيقة الموت ظنونا كاذبة قد أخطأوا فيها فظن بعضهم أن الموت هو العدم وأنه لا حشر ولا نشر ولا عاقبة للخير والشر وأن موت الانسان كموت الحيوانات وجفاف النبات وهذا رأى للحددين وكل من لا يؤمن بالله واليوم الآخر وظن قوم أنه ينعدم بالموت ولا يتألم بتعاب ولا يتنعم بثواب مادام فى القبر إلى أن يعاد فى وقت الحشر وقال آخرون إن الروح باقية لا تنعدم بالموت وإنما الثاب والمعاقب هى الأرواح دون الأجساد وإن الأجساد لا تنبث ولا تحشر أصلا

(١) حديث إذا مات صاحبكم فدعوه ولا تقموا فيه أبو داود من حديث عائشة باسناد جيد (٢) حديث لا تسبوا الأموات فانهم قد أفضوا إلى ما قدموا البخارى من حديث عائشة أيضا (٣) حديث لا تذكروا موتاكم إلا بخير الحديث ابن أبى الدنيا فى الموت هكذا باسناد ضعيف من حديث عائشة وهو عند النسائى من حديث عائشة جيد مقتصر على ما ذكر منه هنا بلفظ هل سكاكم وذكره بالزيادة صاحب مسند الفردوس وعلم عليه علامة النسائى والطبرانى (٤) حديث أنس مرت جنازة على رسول الله صلى الله عليه وسلم فأتوا عليها شرا فقال وجبت الحديث متفق عليه (٥) حديث أبى هريرة إن البديوت فينبى عليه القوم الثناء يعلم الله منه غير ذلك الحديث أحمد من رواية شيخ من أهل البصرة عن أبى هريرة عن النبي صلى الله عليه وسلم يرويه عن ربه عز وجل مامن عبد مسلم يموت فيشهد له ثلاث آيات من جبراته الأدين بخير لإقال الله عز وجل قد قبلت شهادة عبادى على ما علموا وغفرت لهم أعلم.

(الباب السابع فى حقيقة الموت وما يلقاه الميت فى القبر)

كانت هجرته إلى دنيا يصيبها أو إلى امرأة ينكحها فهجرته إلى ما هاجر إليه النية أول العمل وبعبها يكون العمل وأهم ما للمريد فى ابتداء أمره فى طريق القوم أن يدخل طريق الصوفية ويتزيا بزبهم وبجالس طاقتهم لله تعالى فإن دخوله فى طريقهم هجرة حاله ووقته. وقد ورد «الهاجر من هجر مانهاه الله عنه» وقد قال الله تعالى - ومن يخرج من بيته مهاجرا إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله - فالمريد ينبى أن

وكل هذه ظنون فاسدة ومائلة عن الحق بل الذي تشهد له طرق الاعتبار وتنطق به الآيات والأخبار أن الموت معناه تغير حال فقط وأن الروح باقية بعد مفارقة الجسد إمامة مذبذبة وإما منعمة ، ومعنى مفارقتها للجسد انقطاع تصرفها عن الجسد بخروج الجسد عن طاعتها فإن الأعضاء آلات للروح تستعملها حتى أنها لتبسط باليد وتسمع بالأذن وتبصر بالعين وتعلم حقيقة الأشياء بالقلب والقلب ههنا عبارة عن الروح والروح تعلم الأشياء بنفسها من غير آلة ولذلك قد يتألم بنفسه بأنواع الحزن والغم والكمد ويتنعم بأنواع الفرح والسرور وكل ذلك لا يتعلق بالأعضاء فكل ما هو وصف للروح بنفسها فيبقى معها بعد مفارقة الجسد وما هو لها بواسطة الأعضاء فيتعطل بموت الجسد إلى أن تعاد الروح إلى الجسد ولا يبعد أن تعاد الروح إلى الجسد في القبر ولا يبعد أن تؤخر إلى يوم البعث والله أعلم بما حكم به على كل عبد من عباده وإنما تعطل الجسد بالموت يضاهي تعطل أعضاء الزمن بساكن مزاج يقع فيه وبشدة تقع في الأعصاب تمنع نفوذ الروح فيها فتكون الروح العالمة العاقلة للدركة باقية مستعملة لبعض الأعضاء وقد استعصى عليها بعضها والموت عبارة عن استنصاء الأعضاء كلها وكل الأعضاء آلات والروح هي المستعملة لها وأعني بالروح المعنى الذي يدرك من الإنسان العلوم والآلام الغيومية وللذات الأفراح ومهما بطل تصرفها في الأعضاء لم تبطل منها العلوم والإدراكات ولا بطل منها الأفراح والضموم ولا بطل منها قبولها للآلام والذات والإنسان بالحقيقة هو المعنى المدرك للعلوم والآلام والذات وذلك لا يموت أى لا ينعدم ومعنى الموت انقطاع تصرفه عن البدن وخروج البدن عن أن يكون آلة له كما أن معنى الزمان خروج اليد عن أن تكون آلة مستعملة فالوقت زمانة مطلقا في الأعضاء كلها وحقيقة الإنسان نفسه وروحه وهى باقية . ثم تغير حاله من جهتين : إحداهما أنه سلب منه غيظه وأذنه ولسانه ويده ورجله وجميع أعضائه وسلب منه أهله وولده وأقاربه وسائر معارفه وسلب منه خيله ودوابه وغلمانه ودوره وعقاره وسائر أملاكه ولا فرق بين أن تسلب هذه الأشياء من الإنسان وبين أن يسلب الإنسان من هذه الأشياء فإن التوهم هو الفرق والفراق يحصل تارة بأن ينهب مال الرجل وتارة بأن يسبي الرجل عن الملك والمال والألم واحد في الحالين ، وإتمام معنى الموت سلب الإنسان عن أمواله بازعاجه إلى عالم آخر لا يناسب هذا العالم فإن كان له في الدنيا شيء يأنس به ويحترج إليه ويعتمد بوجوده فيعظم تحسره عليه بعد الموت ويصعب شقاؤه في مفارقه بل ياتفت قلبه إلى واحد واحد من ماله وجاهه وعقاره حتى إلى قميص كان يلبسه مثلا ويفرح به وإن لم يكن يفرح إلا بذكر الله ولم يأنس إلا به عظم نعيمه وتمت سعادته إذ دخل بينه وبين محبوبه وقطعت عنه العوائق والشواغل إذ جميع أسباب الدنيا شاغلة عن ذكر الله ، فهذا أحد وجهي المخالفة بين حال الموت وحال الحياة ، والثاني أنه ينكشف له بالموت ما لم يكن مكشوقا له في الحياة كما قد ينكشف للمتيقظ ما لم يكن مكشوقا له في النوم والناس نيام فإذا ماتوا انتبهوا وأول ما ينكشف له ما يضره وينفعه من حسناته وسيئاته وقد كان ذلك مسطورا في كتاب مطوى في سر قلبه وكان يشغله عن الاطلاع عليه شواغل الدنيا فإذا انقطعت الشواغل انكشف له جميع أعماله فلا ينظر إلى سيئة إلا ويحسرها عليها تحسرا يؤثر أن يخوض غمرة النار للخلاص من تلك الحسرة وعند ذلك يقال له - كفى بنفسك اليوم عليك - سيئا - وينكشف كل ذلك عند انقطاع النفس وقبل الدفن وتشتغل فيه نيران الفراق أعني فراق ما كان يطمئن إليه من هذه الدنيا القانية دون ما أراد منها لأجل الزاد والبلغة فإن من طلب الزاد للبلغة فإذا بلغ المقصد فرح

يخرج إلى طريق القوم لله تعالى فإنه إن وصل إلى نهايات القوم فقد لحق بالقوم بالمرزلة وإن أدركه الموت قبل الوصول إلى نهايات القوم فأجره على الله وكل من كانت بدايته أحكم كانت نهايته أتم . أخبرنا أبو زرعة بإجازة عن ابن خلف عن أبي عبد الرحمن عن أبي العباس البغدادي عن جعفر الحلي قال سمعت الجنييد يقول أكثر العوائق والحوائل والأنواع من فساد الابتداء فالمريد في أول مسأله هذا الطريق محتاج

بمفارقة بنية الزاد إذ لم يكن يريد الزاد لعينه وهذا حال من لم يأخذ من الدنيا إلا بقدر الضرورة وكان  
يود أن تنقطع ضرورته ليستغنى عنه فقد حصل ما كان يوده واستغنى عنه وهذه أنواع من العذاب  
والآلام عظيمة تهجم عليه قبل الدفن ثم عند الدفن قد ترد روحه إلى الجسد لنوع آخر من العذاب  
وقد يعنى عنه ويكون حال التمتع بالدنيا المظنين إليها كحال من تتم عند غيبة ملك من الملوك في داره  
وملكه وحرمة اعتياده على أن الملك يتساهل في أمره أو على أن الملك ليس يدرى ما يتعاطاه من قبيح  
أفعاله فأخذه الملك بفتنة وعرض عليه جريدة قد دونت فيها جميع فواحشه وجنباياته ذرة وذرة وخطوة  
خطوة والملك قاهر متسلط وغيور على حرمة ومتنقم من الجناة على ملكه وغير ملتفت إلى من يتشفع  
إليه في العصاة عليه فانظر إلى هذا للأخذ كيف يكون حاله قبل نزول عذاب الملك به من الخوف  
والحجبة والحياء والتحسر والندم فهذا حال الميت الفاجر للفتن بالدنيا المظنين إليها قبل نزول عذاب  
القبر به بل عند موته نعوذ بالله منه فإن الحزى والافتضاح وهتك السر أعظم من كل عذاب يحل بالجسد  
من الضرب والقطع وغيرها فهذه إشارة إلى حال الميت عند الموت شاهداً وأول البصائر بمشاهدة باطنة  
أقوى من مشاهدة العين وشهد لذلك شواهد الكتاب والسنة نعم لا يمكن كشف الغطاء عن كنه  
حقيقة الموت إذ لا يعرف الموت من لا يعرف الحياة ومعرفة الحياة بمعرفة حقيقة الروح في نفسها وإدراك  
ماهية ذاتها « ولم يؤذن لرسول الله ﷺ أن يتكلم فيها ولا أن يزيد على أن يقول الروح من أمر ربى (١) »  
فليس لأحد من علماء الدين أن يكشف عن سر الروح وإن اطلع عليه وإنما للأذون في هذا كرسال  
الروح بعد الموت ويدل على أن الموت ليس عبارة عن انعدام الروح وانعدام إدراكها آيات وأخبار  
كثيرة : أما الآيات فما ورد في الشهداء إذ قال تعالى - ولا تحسبن الذين قتلوا في سبيل الله أمواتاً بل  
أحياء عند ربهم يرزقون فرحين - ولما قتل صناديد قريش يوم بدر ناداهم رسول الله صلى الله  
عليه وسلم فقال « يا فلان يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً فهل وجدتم ما وعد ربكم حقاً فقل  
بارسول الله أتاديهم وهم أموات فقال صلى الله عليه وسلم والذي نفسي بيده إنهم لأسمع لهذا الكلام  
منكم إلا أنهم لا يفتدرون على الجواب (٢) » فهذا نص في بقاء روح الشق وبقاء إدراكها ومعرفة  
والآية نص في أرواح الشهداء ولا يغلو للميت عن سعادة أو شقاوة وقال صلى الله عليه وسلم « القبر  
إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة (٣) » وهذا نص صريح على أن الموت معناه  
تغير حال فقط وأن ما سيكون من شقاوة الميت وسعادته يتبع حاله عند الموت من غير تأخر وإنما  
يتأخر بعض أنواع العذاب والثواب دون أصله . وروى أنس عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه قال  
« الموت القيامة فمن مات فقد قامت قيامته (٤) » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا مات أحدكم عرض عليه  
مقعد غداة وعشية إن كان من أهل الجنة فمن الجنة وإن كان من أهل النار فمن النار ويقال لهذا  
مقعدك حتى تبعث إليه يوم القيامة وليس يخفى ما في مشاهدة القعدين من عذاب ونعيم في الحال (٥) »

(١) حديث إنه لم يؤذن لرسول الله صلى الله عليه وسلم أن يتكلم في الروح ، متفق عليه من حديث  
ابن مسعود في سؤال اليهود له عن الروح ونزول قوله تعالى - ويسألونك عن الروح - وقد تقدم  
(٢) حديث ندائه من قتل من صناديد قريش يوم بدر يا فلان قد وجدت ما وعدني ربي حقاً الحديث  
مسلم من حديث عمر بن الخطاب (٣) حديث القبر إما حفرة من حفر النار أو روضة من رياض الجنة  
الترمذي من حديث أبي سعيد وتقدم في الرجاء والخوف (٤) حديث أنس الموت القيامة من مات  
فقد قامت قيامته ابن أبي الدنيا في الموت باسناد ضعيف وقد تقدم (٥) حديث إذا مات أحدكم  
عرض عليه مقعده بالغداة والعشي الحديث متفق عليه من حديث ابن عمر .

إلى إحكام النية وإحكام  
النيسة تنزيهاً من  
دواعي الهوى وكل  
ما كان للنفس فيه حظ  
عاجل حتى يكون  
خروجه خالصاً لله تعالى .  
وكتب سالم بن عبد الله  
إلى عمر بن عبد العزيز  
اعلم يا عمر أن عون الله  
للعبد بقدر النية فمن  
تمت نيته تم عون الله له  
ومن قصرت عنه نيته  
قصرت عنه عون الله  
بقدر ذلك . وكتب  
بعض الصالحين إلى  
أخيه أخلص النية في  
أعمالك يكفك قليل  
من العمل ومن لم يهتد  
إلى النية بنفسه يصعب  
من يلمه حسن النية .  
قال سهل بن عبد الله  
التستري أول ما يؤمر به

وعن أبي قيس قال كنا مع عاقمة في جنازة فقال أما هذا فقد قامت قيامته . وقال علي كرم الله وجهه حرام على نفس أن تخرج من الدنيا حتى تعلم من أهل الجنة هي أم من أهل النار . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر وغدى وريح عليه برزقه من الجنة (١) » وقال مسروق ما غبطت أحدا ما غبطت مؤمنا في اللحد قد استراح من نصب الدنيا وأمن عذاب الله تعالى . وقال يعلى بن الوليد كنت أمتى يوما مع أبي الدرداء فقلت له ما تحب لمن تحب قال الموت قلت فإن لم يمت قال يقل ماله وولده وإنا أحب الموت لأنه لا يحبه إلا المؤمن والموت إطلاق المؤمن من السجن وإنا أحب قلة المال والولد لأنه فتنة وسبب للانسان بالدنيا والأنس به لا بد من فراقه غاية الشقاء فكل ماسوى الله وذكره والانسان به فلا بد من فراقه عند الموت لا محالة ولهذا قال عبد الله بن عمرو : إنا مثل المؤمن حين يخرج نفسه أو روحه مثل رجل بات في سجن فأخرج منه فهو يتفزع في الأرض ويتقلب فيها وهذا الذي ذكره حال من يخاف عن الدنيا وتبرم بها ولم يكن له أنس إلا بذكر الله تعالى وكانت شواغل الدنيا تحبسه عن محبوه ومقاساة الشهوات تؤذيه فكان في الموت خلاصه من جميع المؤذيات وانفراده بمحبوه الذي كان به أنسه من غير عائق ولا دافع وما أجدر ذلك بأن يكون منتهى النعيم والذات وأكل الذات لاشهداء الذين قتلوا في سبيل الله لأنهم ما أقدموا على القتال إلا قاطعين التفاتهم عن علائق الدنيا مشتاقين إلى لقاء الله راضين بالقتل في طلب مرضاته فان نظر إلى الدنيا فقد باعها طوعا وبالآخره والبائع لا يلتفت قلبه إلى البيع وإن نظر إلى الآخرة فقد اشتراها وتشوق إليها فما أعظم فرحه بما اشتراه إذا رآه وما أقل التفاته إلى ما باعه إذا فارقته وتجرد القلب لحب الله تعالى قد ينشق في بعض الأحوال وإن كان لا يدركه الموت عليه فيتخير واقتال سبب للموت فكان سببا لإدراك الموت على مثل هذه الحالة فلهذا عظم النعيم إذ معنى النعيم أن ينال الانسان ما يريد قال الله تعالى - ولهم ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لمعانى لذات الجنة وأعظم المذاب أن يمنع الانسان عن مراده كما قال الله تعالى - وحيل بينهم وبين ما يشتهون - فكان هذا أجمع عبارة لعقوبات أهل جهنم وهذا النعيم يدركه الشهيد كما أنقطع نفسه من غير تأخير وهذا أمر انكشف لأرباب القلوب بنور اليقين وإن أردت عليه شهادة من جهة السمع فجميع أحاديث الشهداء تدل عليه وكل حديث يشتمل على التعبير عن منتهى نعيمهم بعبارة أخرى فقد روى عن عائشة رضي الله عنها أنها قالت قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لجابر « ألا أبشرك بإجابر وكان قد استشهد أبوه يوم أحد فقال بلى أبشرك الله بالخير فقال إن الله عز وجل قد أحيا أباك وأقعد بين يديه وقال تمن على عبدى ما شئت أعطيكه فقال يارب ما عبدتك حق عبادتك آتني عليك أن تردني إلى الدنيا فأقاتل مع نبيك فأقتل فيك مرة أخرى قال له إنه قد سبق مني أنك إليها لا ترجع (٢) » وقال كعب يوجد رجل في الجنة يبكي فيقال له لم تبكي وأنت في الجنة قال أبكي لأني لم أقتل في الله إلا فتنة واحدة فكنت أشتهي أن أرد فأقتل فيه قتلات . واعلم أن المؤمن ينكشف له عقيب الموت . ن سعة جلال الله ما تكون الدنيا بالإضافة إليه كالسجن والضيق ويكون مثاله كالحبوس في بيت مظلم فتح له باب

للريد البتدى التبرى  
من الحركات الذمومة  
ثم النقل إلى الحركات  
المحمودة ثم التفرد  
لأمر الله تعالى ثم  
التوقف في الرشد ثم  
الثبات ثم البيان ثم  
القرب ثم المناجاة ثم  
الصلاة ثم الموالاة  
ويكون الرضا والقسم  
مراده والتفويض  
والتوكل حاله ثم بمن  
الله تعالى بعد هذه  
بالمعرفة فيكون مقامه  
عند الله مقام التبرين  
من الحول والقوة  
وهذا مقام حملة العرش  
وليس بعده مقام  
هذا من كلام سهل  
جمع فيه ما في البداية  
والنهاية ومتى تمسك  
الريد بالمصدق

(١) حديث أبي هريرة من مات غريبا مات شهيدا ووقى فئات القبر ابن ماجه بسند ضعيف وقال فتنة القبر وقال ابن أبي الدنيا خان (٢) حديث عائشة ألا أبشرك بإجابر الحديث وفيه إن الله أحيا أباك فأقعد بين يديه الحديث ابن أبي الدنيا في الموت بإسناد فيه ضعف وللمزمذى وحسنه وابن ماجه من حديث جابر ألا أبشرك بما لقي الله به أباك قال بلى يا رسول الله الحديث وفيه فقال يا عبدى تمن على أعطاك قال يارب تحييني فأقتل فيك ثانية قال الرب سبحانه إنه سبق مني أنهم لا يرجعون .

إلى بستان واسع الأكناف لا يبلغ طرفيه أقصاه فيه أنواع الأشجار والأزهار والشمار والطيور فلا يشهى العود إلى السجن المظلم وقد ضرب له رسول الله صلى الله عليه وسلم مثلاً فقال لرجل مات «أصبح هذا مرتحلاً عن الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه<sup>(١)</sup>» فعرفك بهذا أن نسبة سعة الآخرة إلى الدنيا كنسبة سعة الدنيا إلى ظلة الرحم وقال صلى الله عليه وسلم «إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه<sup>(٢)</sup>» وكذلك المؤمن يخرج من الموت فإذا أفضى إلى ربه لم يحب أن يرجع إلى الدنيا كما لا يحب الجنين أن يرجع إلى بطن أمه وقيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فلاناً قدمنا فقال مستريح أو مستراح منه<sup>(٣)</sup>» وأشار بالمستريح إلى المؤمن والمستراح منه إلى الفاجر إذ يستريح أهل الدنيا منه وقال أبو عمر صاحب السقياء مرثياً ابن عمر ونحن صبيان فنظر إلى قبر فاذا جمجمة بادية فأمر رجلاً فواراها ثم قال إن هذه الأبدان ليس يضرها هذا الثرى شيئا وإنما الأرواح التي تعاقب وتتأب إلى يوم القيامة، وعن عمرو بن دينار قال ما من ميت يموت إلا وهو يعلم ما يكون في أهله بعده وإنهم ليسأله ويكفونه وإنه لينظر إليهم وقال مالك بن أنس بلغني أن أرواح المؤمنين مرسلات تذهب حيث شاءت وقال النعمان بن بشير «سمعت رسول الله ﷺ على المنبر يقول ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فإله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم<sup>(٤)</sup>» وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «لا تفضحوا موتاكم ببيات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور<sup>(٥)</sup>» ولذلك قال أبو الدرداء اللهم إني أعوذ بك أن أعمل عملاً أخزى به عند عبد الله بن ربيعة وكان قد مات وهو خاله وسئل عبد الله بن عمرو بن العاص عن أرواح المؤمنين إذا ماتوا أين هي؟ قال في حواصل طير يبض في ظل العرش وأرواح الكافرين في الأرض السابعة. وقال أبو سعيد الخدري سمعت رسول الله

(١) حديث قال لرجل مات أصبح هذا قد خلا من الدنيا وتركها لأهلها فان كان قدرضى فلا يسره أن يرجع إلى الدنيا كما لا يسر أحدكم أن يرجع إلى بطن أمه ابن أبي الدنيا من حديث عمرو بن دينار مرسلًا ورجاله ثقات (٢) حديث إن مثل المؤمن في الدنيا كمثل الجنين في بطن أمه إذا خرج من بطنها بكى على مخرجه حتى إذا رأى الضوء ووضع لم يحب أن يرجع إلى مكانه ابن أبي الدنيا فيه من رواية بقية عن جابر بن غانم السلمي عن سليم بن عامر الجنازي مرسلًا هكذا (٣) حديث قيل لرسول الله صلى الله عليه وسلم إن فلاناً قد مات فقال مستريح أو مستراح منه متفق عليه من حديث أبي قتادة باللفظ مرّ عليه بخاتمة فقال ذلك وهو عند ابن أبي الدنيا في الموت باللفظ الذي أورده المصنف (٤) حديث النعمان بن بشير ألا إنه لم يبق من الدنيا إلا مثل الباب يمور في جوفها فإله في إخوانكم من أهل القبور فإن أعمالكم تعرض عليهم ابن أبي الدنيا أبو بكر بن لال من رواية مالك بن أدّى عن النعمان من قوله الله الله ورواه بكاه الأزد في الضمراء وقال لأصح إسناده وذكره ابن أبي حاتم في الجرح والتعديل بكاه في ترجمة أبي اسمعيل السكوني رواية عن مالك بن أدّى ونقل عن أبيه أن كلا منهما مجهول قال الأزد لأصح إسناده وذكر ابن حبان في الثقات مالك بن أدّى (٥) حديث أبي هريرة لا تفضحوا موتاكم ببيات أعمالكم فإنها تعرض على أوليائكم من أهل القبور ابن أبي الدنيا والمهاملي بإسناد ضعيف ولأحمد من رواية من سمع إنساناً عن أنس أن أعمالكم تعرض على أقاربكم وعشائركم من الأموات الحديث.

والإخلاص بلغ مبلغ الرجال ولا يحقق صدقه وإخلاصه شيء مثل متابعة أمر التبرع وقطع النظر عن الخلق فكل الآفات التي دخلت على أهل البدايات لموضع نظرم إلى الخلق وبلغنا عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال «لا يكمل إيمان المرء حتى يكون الناس عنده كالأباعر ثم يرجع إلى نفسه فيراها أصغر صاغراً» إشارة إلى قطع النظر عن الخلق والخروج منهم وترك التفتيد بعاداتهم. قال أحمد بن خضرويه: من أحب أن يكون الله تعالى معه على كل حال فليترك

صلى الله عليه وسلم يقول «إن للبت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدلّه في قبره»<sup>(١)</sup>. وقال صالح  
المرى بلغنى أن الأرواح تتلاقى عند الموت فتقول أرواح الموتى الروح التي تخرج إليهم كيف كان مآلهم  
وفي أي الجسد كنت في طيب أو خبيث . وقال عبيد بن عمير أهل القبور يترقبون الأخبار فإذا أتاهم  
البت قالوا ما فعل فلان ؟ فيقول ألم يأتكم أو ما قدم عليكم فيقولون إن الله وإنا إليه راجعون سلك به  
غير سبيلنا . وعن جعفر بن سعيد قال إذا مات الرجل استقبله ولده كما يستقبل الغائب . وقال مجاهد:  
إن الرجل ليبشر بصلاح ولده في قبره وروى أبو أيوب الأنصاري عن النبي صلى الله عليه وسلم أنه  
قال «إن نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير في الدنيا يقولون أنظروا  
أخاكم حتى يستريح فإنه كان في كرب شديد فيسألونه ماذا فعل فلان وماذا فعلت فلانة وهل تزوجت  
فلانة فإذا سألوهم عن رجل مات قبله وقال مات قبل قالوا إن الله وإنا إليه راجعون ذهب به إلى أمه الهاوية»<sup>(٢)</sup>.  
( بيان كلام القبر للبت )

وكلام الموتى إما بلسان الثقال أو بلسان الحال التي هي أفصح في تفهيم الموتى من لسان الثقال في تفهيم  
الأحياء قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يقول القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في  
ألم تعلم أتى بيت الفتنة وبيت الظلمة وبيت الوحدة وبيت الدود ما غرك في إذ كنت تمرى فذاذا  
فان كان مصلحا أجاب عنه عجيب القبر فيقول أرأيت إن كان يأمر بالمعروف وينهى عن المنكر فيقول  
القبر إني إذا تحول عليه خضرا ويعود جسده نورا وتصدر روحه إلى الله تعالى»<sup>(٣)</sup> والفذاهو  
الذي يقدم رجلا ويؤخر أخرى هكذا فسر الرواى . وقال عبيد بن عمير اللبى ليس من ميت يموت  
إلا نادته حفرته التي يدفن فيها أنا بيت الظلمة والوحدة والانفراد فان كنت في حياتك لله مطيعا  
كنت عليك اليوم رحمة وإن كنت عاصيا فأنا اليوم عليك نعمة أنا الذي من دخلنى مطيعا خرج  
مسرورا ومن دخلنى عاصيا خرج مشورا . وقال محمد بن صبيح بلغنا أن الرجل إذا وضع في قبره فغذب  
أو أصابه بعض ما يكره ناداه جيرانه من الموتى أيها المتخلف في الدنيا بعد إخوانه وجيرانه أما كان لك  
فيما تعتبر أما كان لك في متقدمنا إليك فكرة أماريت انقطاع أعمالنا عنا وأنت في المهلة فلا استدركت  
ما فات إخوانك وتناديه بقاع الأرض أيها المقتدر بظاهر الدنيا هلا عتبرت بمن غيب من أهللك في بطن  
الأرض بمن غرته الدنيا قبلك ثم سبق به أجله إلى القبور وأنت تراه محمولا لها دام أجته إلى المنزل الذي  
لا بد له منه . وقال يزيد الرقاشى بلغنى أن للبت إذا وضع في قبره احتوشته أعماله ثم أنطقها الله؟ فقالت  
أيها العبد المنفرد في حفرته انقطع عنك الأخلاء والأهلون فلا أنيس لك اليوم عندنا . وقال كعب: إذا  
وضع العبد الصالح في القبر احتوشته أعماله الصالحة الصلاة والصيام والحج والجهاد والصدقة قال فتجىء  
ملائكة المذاب من قبل رجليه فتقول الصلاة إليك عنه فلا سبيل لكم عليه فقد أطال في القيام لله

(١) حديث أبي سعيد الخدرى إن للبت يعرف من يفسله ومن يحمله ومن يدلّه في قبره رواه أحمد  
من رواية رجل عنه اسمه معاوية أو ابن معاوية نسيه عبد الملك بن حسن (٢) حديث أبي أيوب إن  
نفس المؤمن إذا قبضت تلقاها أهل الرحمة من عند الله كما يتلقى البشير يقولون أنظروا أخاكم حتى  
يستريح ابن أبي الدنيا في كتاب الموت والطبراني في مسند الشاميين بإسناد ضعيف ورواه ابن المبارك  
في الزهد موقوفا على أبي أيوب بإسناد جيد ورفعه ابن صاعد في زوائده على الزهد وفيه سلام الطويل  
ضعيف وهو عند النسائي وابن حبان نحوه من حديث أبي هريرة بإسناد جيد (٣) حديث يقول  
القبر للبت حين يوضع فيه ويحك يا ابن آدم ما غرك في ألم تعلم أتى بيت الفتنة الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب  
القبور والطبراني في مسند الشاميين وأبو أحمد الحارثي في الكنى من حديث أبي الحجاج الثمالى بإسناد ضعيف.

الصدق فان الله تعالى  
مع الصادقين وقد ورد  
في الخبر عن رسول الله  
صلى الله عليه وسلم  
«الصدق يهdy إلى  
البر» ولا بد للمريد  
من الخروج من المال  
والجاء والخروج عن  
الحلق بقطع النظر  
عنهم إلى أن يحكم  
أساسه فيعلم دقائق  
المهوى وخفايا شهوات  
النفس وأنفع شئ  
للمريد معرفة النفس  
ولا يقوم بواجب حق  
معرفة النفس من له  
في الدنيا حاجة من  
طلب الفضول  
والزيادات أو عليه  
من المهوى بقية . قال  
زيد بن أسلم: خصلتان  
هما كمال أمرك تصبح

عليهما فيأتونه من قبل رأسه فيقول الصيام : لاسيّل لكم عليه قد أطال ظمأه لله في دار الدنيا فلا سبيل لكم عليه فيأتونه من قبل جسده فيقول الحج والجهاد : إليكم عنه قد أنصب نفسه وأتعب بدنه وحج وجهه لله فلا سبيل لكم عليه قال فيأتونه من قبل يديه فتقول الصدقة كفوا عن صاحبي فكم من صدقة خرجت من هاتين اليدين حتى وقعت في يد الله تعالى ابتغاء وجهه فلا سبيل لكم عليه قال فيقال له هنيئا طبت حيا وطبت ميتا قال وتأتيه ملائكة الرحمة فتنزّل له فراش من الجنة ودثارا من الجنة ويضع له في قبره مد بصره ويؤتى بتعديل من الجنة فيستضيء بنوره إلى يوم يبعث الله من قبره . وقال عبد الله بن عبيد بن عمير في جنازة بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال : إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعة فلا يكلمه شيء إلا قبره يقول ويحك ابن آدم أليس قد حذرتني وحذرت ضيق وتنى وهولى ودودى لماذا أعددت لي (١) .

( بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير )

قال البراء بن عازب : خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكسا رأسه ثم قال : اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر ثلاثا ثم قال إن المؤمن إذا كان في قبر من الآخرة بعث الله ملائكة كأن وجوههم الشمس معهم حنوطه وكفته فيجلسون مد بصره فإذا خرجت روحه صلى الله عليه وسلم عليه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وفتحت أبواب السماء فليس منها باب إلا يجب أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه قيل أي رب عبدك فلان فيقول أرجعوه فأروهم ما أعددت لهم من الكرامة فإني وعدته منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق ناله إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك وما دينك ومن نبيك ؟ فيقول ربى الله ودينى الاسلام ونبى محمد ﷺ قال فيتهراته انتهارا شديدا وهى آخر فتنة تعرض على الميت فإذا قال ذلك نادى مناد أن قد صدقت وهى معنى قوله تعالى - ثبت الله الذين آمنوا بالقول الثابت - الآية ثم يأتيه آت حسن الوجه طيب الريح حسن الثياب فيقول لأبشر برحمة ربك وجنت فيها نعيم مقيم فيقول وأنت فبشرك الله بخير من أنت ؟ فيقول أنا عملك الصالح والله ما علمت إن كنت لسريما إلى طاعة الله بطيئا عن معصية الله فجزاك الله خيرا قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له من فرش الجنة وافتحوا له بابا إلى الجنة فيفرش له من فرش الجنة ويفتح له باب إلى الجنة فيقول اللهم عجل قيام الساعة حتى أرجع إلى أهلى ومالى . قال وأما الكافر فإنه إذا كان في قبر من الآخرة وانقطع من الدنيا نزلت إليه ملائكة غلاظ شداد معهم ثياب من نار وسراويل من قطران فيحتوشونه فإذا خرجت نفسه لفسه كل ملك بين السماء والأرض وكل ملك في السماء وغلقت أبواب السماء فليس منها باب إلا يكره أن يدخل بروحه منه فإذا صعد بروحه نذ وقيل أي رب عبدك فلان لم تقبله سماء ولا أرض فيقول الله عز وجل أرجعوه فأروهم ما أعددت له من الشر إني وعدته - منها خلقناكم وفيها نعيدكم - الآية وإنه ليسمع خفق ناله إذا ولوا مدبرين حتى يقال يا هذا من ربك ومن نبيك وما دينك فيقول لا أدري فيقال لا أدريت ثم يأتيه آت قبيح الوجه منتن الريح قبيح الثياب فيقول أبشر بسخط من الله وبعذاب أليم مقيم فيقول بشرك الله بشر من أنت فيقول أنا عملك الخبيث والله إن كنت لسريما في معصية الله بطيئا عن طاعة الله فجزاك الله شرا

(١) حديث عبد الله بن عبيد بن عمير بلقي أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال إن الميت يقعد وهو يسمع خطب مشيعة فلا يكلمه إلا قبره يقول ويحك يا ابن آدم الحديث ابن أبي الدنيا في القبور هكذا مرسلًا ورجاله ثقات ورواه ابن المبارك في الزهد إلا أنه قال بلقي ولم يرفعه .

لاهم لله بمصية وتسمى  
ولا لهم لله بمصية فإذا  
أحكم الزهد والتقوى  
انكشفت له النفس  
وخرجت من حجبها  
وعلم طريق حركتها  
وخفى شهبواتها  
ودسائسها وتلبساتها  
ومن تمسك بالصدق  
قد تمسك بالبروة  
الوثقى . قال ذو النون  
الله تعالى في أرضه  
سيف ما وضع على شيء  
إلا قطع وهو الصدق  
ونقل في معنى الصدق  
أن عابدا من بني  
إسرائيل راودته  
ملكة عن نفسه ،  
فقال اجعلوا لى ماء فى  
الحلاء أنتظف به ثم  
صعد على موضع فى  
القصر فرمى بنفسه

فيقول وأنت جزاك الله شرًا ثم يقبض له أصم أعمى أبكم معه مرزبة من حديد لو اجتمع عليها الثقلان على أن يملوها لم يستطيعوا لو ضرب بها جبل صار ترابا فيضربه بها ضربة فيصير ترابا ثم تعود فيه الروح فيضربه بها بين عينيه ضربة يسحق بها من على الأرضين ليس الثقلين قال ثم ينادى مناد أن افرشوا له لوحين من نار واقتحوا له بابا إلى النار فيفرش له لوحان من نار ويفتح له باب إلى النار (١) وقال محمد بن علي مامن ميت يموت إلا مثل له عند الموت أعماله الحسنة وأعماله السيئة قال فيشخص إلى حسنة وبطرق عن سيئاته . وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن المؤمن إذا احتضر أتته الملائكة بهريرة فيها مسك وضائر الریحان فتسل روحه كانتل الشعرة من العيين ويقال : أيتها النفس الطمئة اخرجي راضية ومرضا عنك إلى روح الله وكرامته فإذا أخرجت روحه وضعت على ذلك اللك والريحان وطويت عليها الحريرة وبعث بها إلى عليين وإن الكافر إذا احتضر أتته الملائكة بمسح فيه بحجارة فتخرج روحه أنزاعا شديدا ويقال : أيتها النفس الحثيئة اخرجي ساخطة ومسغوطة عليك إلى هوان الله وعذابه فإذا أخرجت روحه وضعت على تلك الحجرة وإن لها نحيشا ويطوى عليها للسخ ويذهب بها إلى سجين (٢) وعن محمد بن كعب القرظي أنه كان يقرأ قوله تعالى - حتى إذا جاء أحدهم الموت قال رب ارجعوني لأعمل صالحا فإني تركت - قال أي شيء تريد في أي شيء ترغب أتريد أن ترجع لتجمع المال وتقرس القراس وتبني البنين وتشقق الأنهار قال لا لأعمل صالحا فإني تركت قال فيقول الجبار - كلا إنها كلمة هو قائلها - أي ليقولها عند الموت . وقال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم « للؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا ويضوء حتى يكون كالقمر ليلة البدر هل تدرون فيما إذا أنزلت - فإن له مبيتة ضنكا - قالوا الله ورسوله أعلم قال عذاب الكافر في قبره يسلب عليه تسعة وتسعون تينا هل تدرون ما التين ؟ تسعة وتسعون حبة لكل حبة سبعة رؤوس يغدشونه ويلجئون به وينفخون في جسمه إلى يوم يبعثون » ولا ينبغي أن يتعجب من هذا العدد على الخصوص فإن أعداد هذه الحيات والعقارب بعدد الأخلاق الذمومة من الكبر والرياء والحسد والغل والحقد وسائر الصفات فإن لها أصولا معدودة ثم تنشعب منها فروع معدودة ثم تنقسم فروعها إلى أقسام وتلك الصفات بأعيانها هي المهلكات وهي بأعيانها تنقلب عقارب وحيات فالقوى منها يلدغ لدغ التين والضعيف يلدغ لدغ العقرب وما بينهما يؤذي إيذاء الحية وأرباب القلوب والبصائر يشاهدون بنور البصيرة هذه المهلكات وانشعب فروعها إلا أن مقدار عددها لا يوقف عليه إلا بنور النبوة (٣) فأما هذه الأخبار لها ظواهر صحيحة وأسرار خفية ولكنها عند أرباب البصائر واضحة فمن لم تنكشف له حقائقها فلا ينبغي أن ينكر ظواهرها بل أقل درجات الإيمان التصديق والتسليم . فإن قلت فنحن نشاهد الكافر في قبره مدة ونراقبه ولا نشاهد شيئا من ذلك فما وجه التصديق على خلاف الشاهدة ؟ فاعلم أن لك ثلاث مقامات في التصديق بأمثال هذا [أحدها] وهو الأظهر والأصح

فأوحى الله تعالى إلى ملك الهواء أن أرم عبدي قال فلزمه ووضعه على الأرض وضعا رفيقا قيل لإبليس ألا أغويته فقال ليس لي سلطان على من خالف هواه وبذل نفسه لله تعالى وبنى للمريد أن تكون له في كل شيء نية لله تعالى حتى في أكله وشربه وملبوسه فلا يلبس إلا لله ولا يأكل إلا لله ولا يشرب إلا لله ولا ينام إلا لله لأن هذه كلها أرفاق أدخلها على النفس إذا كانت لا تستصحب النفس وتجب إلى ما يراد منها من المعاملة لله والإخلاص وإذا

(١) حديث البراء خرجنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة رجل من الأنصار فجلس رسول الله صلى الله عليه وسلم على قبره منكما رأسه ثم قال اللهم إني أعوذ بك من عذاب القبر الحديث بطوله أبو داود والحاكم بكامله وقال صحيح على شرط الشيخين وضعفه ابن حبان ورواه النسائي وابن ماجه مختصرا (٢) حديث أبي هريرة إن المؤمن إذا حضر أتته الملائكة بهريرة فيها مسك وضائر الریحان الحديث ابن أبي الدنيا وابن حبان مع اختلاف والبراز بالفتح المصنف (٣) حديث أبي هريرة المؤمن في قبره في روضة خضراء ويرحب له في قبره سبعون ذراعا الحديث ورواه ابن حبان



والأسلم أن تصدق بأنها موجودة وهي تلدغ ليت ولكنك لا تشاهد ذلك فان هذه العين لا تصلح لمشاهدة الأمور للكونية وكل ما يتعلق بالآخرة فهو من عالم السموات أما ترى الصحابة رضي الله عنهم كيف كانوا يؤمنون بنزول جبريل وما كانوا يشاهدونه ويؤمنون بأنه عليه السلام يشاهده فان كنت لا تؤمن بهذا فصحيح أصل الايمان بالملائكة والوحي أم عليك وإن كنت آمنت به وجوزت أن يشاهد النبي ما لا تشاهده الأمة فكيف لا تجوز هذا في ليت وكما أن الملك لا يشبه الأعميين والحيوانات فالحيات والعقارب التي تلدغ في القبر ليست من جنس حيات عالمنا بل هي جنس آخر وتدرك بحاسة أخرى [للقام الثاني] أن تذكر أمر النائم وأنه قد يرى في نومه حية تلدغه وهو يتألم بذلك حتى تراه يصبح في نومه ويعرق جبينه وقد يزعج من مكانه كل ذلك يدركه من نفسه ويتأذى به كما يتأذى البقطان وهو يشاهده وأنت ترى ظاهره ساكنا ولا ترى حواله حية والحية موجودة في حقها والعذاب حاصل ولكنه في حقه غير مشاهد وإذا كان العذاب في ألم اللدغ فلا فرق بين حية تخيل أو تشاهد [للقام الثالث] أنك تعلم أن الحية بنفسها لا تؤلم بل الذي يلقاها منها وهو السم ثم السم ليس هو الألم بل عذابك في الأثر الذي يحصل فيك من السم فلو حصل مثل ذلك الأثر من غير سم لكان العذاب قد توفروا وكان لا يمكن تعريف ذلك النوع من العذاب إلا بأن يضاف إلى السبب الذي يقضى إليه في العادة فإنه لو خلق في الإنسان لهذه الوقوع مثلا من غير مباشرة صورة الوقوع لم يمكن تعريفها إلا بالاضافة إليه لتكون الاضافة للتعريف بالسبب وتكون ثمرة السبب حاصلة وإن لم تحصل صورة السبب والسبب يراد لثمرته لا لآثاره وهذه الصفات للمهلكات تنقلب مؤذيات ومؤلمات في النفس عند الموت فتكون آلامها كالآلام لدغ الحيات من غير وجود حيات وانقلاب الصفة مؤذية بضاهي انقلاب العشق مؤذيا عند موت العشوق فإنه كان لقيذا فطرات حالة صار اللذيق بنفسه مؤلما حتى يرد بالقلب من أنواع العذاب ما يمتحن معه أن لم يكن قد تتم بالعشق والوصال بل هذا بينه هو أحد أنواع عذاب اليت فإنه قد سلط العشق في الدنيا على نفسه فصار يشقى ماله وعقاره وجاهه وولده وأقاربه ومعارفه ولو أخذ جميع ذلك في حياته من لا يرجو استرجاعه منه فإذا ترى يكون حاله أليس يعظم شقاؤه ويشدد عذابه ويمتنع ويقول ليته لم يكن لي مال قط ولا جاه قط فكنت لا تأذى بفراقه فالموت عبارة عن مفارقة المحبوبات الدنيوية كلها دفعة واحدة:

ما حال من كان له واحد غيب عنه ذلك الواحد

لما حال من لا يفرح إلا بالدنيا فتؤخذ منه الدنيا وتسلم إلى أعدائه ثم يضاف إلى هذا العذاب تحمره على ما فاتته من نعيم الآخرة والحجاب عن الله عز وجل فان حب غير الله يحجبه عن لقاء الله والنعم به فيؤلى عليه ألم فراق جميع محبوباته وحسرتة على ما فاتته من نعيم الآخرة أبدأ الآباد وذل الرد والحجاب عن الله تعالى وذلك هو العذاب الذي يمدب به إذ لا يتبع نار الفراق إلا نار جهنم كما قال تعالى - كلا إنهم عن ربهم يومئذ لمحجوبون ثم إنهم لصالوا الجحيم - وأما من لم يأنس بالدنيا ولم يحب إلا الله وكان مشتاقا إلى لقاء الله فقد تخلص من سجن الدنيا ومقاساة الشهوات فيم أوقدم على محبوه وانقطعت عنه العوائق والصوارف وتوفر عليه النعيم مع الأمن من الزوال أبدأ الآباد ولمثل ذلك فليعمل العاملون والقصود أن الرجل قد يحب فرسه بحيث لو خير بين أن يؤخذ منه وبين أن تلدغه عقرب آثر الصبر على لدغ العقرب ، فاذن ألم فراق القرس عنده أعظم من لدغ العقرب وحبه للفرس هو الذي يلدغه إذا أخذ منه فرسه فليست هذه اللدغات فان الموت يأخذ منه فرسه ومركبه وداره وعقاره وأهله وولده وأحبابه ومعارفه ويأخذ منه جاهه وقبوله بل يأخذ منه سمعه وبصره وأعضائه ويأس من رجوع جميع ذلك إليه فاذا لم يحب سواه وقد أخذ جميع ذلك منه فذلك أعظم عليه

دخل في شيء من رفق  
النفس لا لله بغير نية  
صالحة صار ذلك وبالا  
عليه وقد ورد في الخبر  
«من تطيب لله تعالى  
جاء يوم القيامة وريحه  
أطيب من السك الأذفر  
ومن تطيب لغير الله  
عز وجل جاء يوم  
القيامة وريحه أثنى  
من الجيفة» . وقيل  
كان أنس يقول طيبوا  
كفى بكم فان ثابتا  
يصالحني ويقبل يدي  
وقد كانوا يحسنون  
اللباس للصلاة متقربين  
بذلك إلى الله بنيتهم  
فالمريد ينبغي أن يتفقد  
جميع أحواله وأعماله  
وأقواله ولا يسمع  
نفسه أن تتحرك  
بحركة أو تكلم  
بكلمة إلا الله تعالى

من العقارب والحيات وكما لو أخذ ذلك منه وهو حيّ فيعظم عقابه فكذلك إذا مات لأننا قد بينا أن  
 للنبي الذي هو للدرك للآلام والشدات لم يمّت بل عذابه بعد الموت أشدّ لأنه في الحياة يتسلّى بأسباب  
 يشغل بها حواسه من مجالسة ومحادثة ويتسلّى برجاء العود إليه ويتسلّى برجاء الموضع منه ولاسلوة  
 بعد الموت إذ قد السدّ عليه طرق التسلي وحصل اليأس ، فاذن كل قميص له ومنديل قد أحبه بحيث  
 كان يشقّ عليه لو أخذ منه فانه يبقى متأسفا عليه ومنذبا به فان كان غضا في الدنيا سلم وهو للنبي  
 بقولهم نجا الخفون وإن كان متقلا عظم عذابه وكما أن حال من يسرق منه دينار أخف من حال من  
 يسرق منه عشرة دنانير فكذلك حال صاحب الدرهم أخف من حال صاحب الدرهمين وهو النبي بقوله  
 صلى الله عليه وسلم «صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين» (١) وما من شيء من الدنيا  
 يتخلف عنك عند الموت إلا وهو حيرة عليك بعد الموت فان شئت فاستكر وإن شئت فاستقل  
 فان استكرت قلت بمستكر إلا من الحسرة وإن استقلت قلت تخفف إلا عن ظهرك وأمتا تكرر  
 الحيات والعقارب في قبور الأغنياء الذين استحبوا الحياة الدنيا على الآخرة وفرحوا بها واطمأنوا إليها  
 فهذه مقامات الإيمان في حيات القبر وعقابه وفي سائر أنواع عذابه . رأى أبو سعيد الخدري  
 ابنا له قد مات في المنام فقال له يابني عظمي قال لا تخاف الله تعالى فبا يريد قال يابني زدني قال يا أبت  
 لا تطيق قال قل قال لا تجعل بينك وبين الله قيما فما ليس قيما ثلاثين سنة . فان قلت فما الصحيح  
 من هذه القامات الثلاث . فاعلم أن في الناس من لم يثبت إلا الأول وأنكر ما بعده ومنهم من أنكر  
 الأول وأثبت الثاني ومنهم من لم يثبت إلا الثالث وإنما الخلق الذي انكشف لنا بطريق الاستبصار  
 أن كل ذلك في حيز الامكان وأن من ينكر بعض ذلك فهو لضيق حوصلة وجهه باتساع قدرة الله  
 سبحانه ومعجائب تديره فينكر من أفعال الله تعالى ما لم يأنس به ويألفه وذلك جهل وقصور بل  
 هذه الطرق الثلاثة في التعذيب ممكنة والتصديق بها واجب ورب عبد يعاقب بنوع واحد من هذه  
 الأنواع ورب عبد تجمع عليه هذه الأنواع الثلاثة نعوذ بالله من عذاب الله قليلا وكثيرا ، هذا  
 هو الحق صدق به تقليدا فيز طي بسط الأرض من يعرف ذلك تحقيا والذي أوصيك به أن  
 لا تكثر نظرك في تفصيل ذلك ولا تشتغل بمعرفته بل اشتغل بالتدبير في دفع العذاب كيفما كان  
 فان أهملت العمل والعبادة واشتغلت بالبحث عن ذلك كنت كمن أخذ سلطان وجبهه ليقطع يده  
 ويجمع أنه فأخذ طول الليل يفكر في أنه هل يقطعه بسكين أو بسيف أو بموسى وأهمل طريق  
 الحيلة في دفع أصل العذاب عن نفسه وهذا غاية الجهل فقد علم على القطع أن البعد لا يخلو بعد  
 الموت من عذاب عظيم أو نعم مقيم فينبغي أن يكون الاستعداد له . فاما البحث عن تفصيل  
 العقاب والثواب ففضول وتضييع زمان .

( بيان سؤال منكر ونكير وصورتها وضغطة القبر وبقية القول في عذاب القبر )

قال أبو هريرة قال النبي صلى الله عليه وسلم «إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال  
 لأحدهما منكر وللآخر نكير فيقولان له ما كنت تقول في النبي فان كان مؤمنا قال هو عبد الله  
 ورسوله أشهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله فيقولان إن كنا لنعلم أنك تقول ذلك ثم فرغنا  
 في قبره سبعون ذراعا في سبعين ذراعا وينور له في قبره ثم يقال له ثم يقول دعوني أرجع إلى أهلي  
 فأخبرهم فيقال له ثم فينام كنومة العروس الذي لا يوقظه إلا أحب أهله إليه حتى يبعثه الله من مضجعه  
 ذلك وإن كان منافقا قال لا أدري كنت أسمع الناس يقولون شيئا وكنت أقوله فيقولان إن كنا نعلم

(١) حديث . صاحب الدرهم أخف حسابا من صاحب الدرهمين لم أجده أصلا .

وقد رأينا من أصحاب  
 شيخنا من كان ينوي  
 عند كل لقمة ويقول  
 بلسانه أيضا أكل  
 هذه اللقمة لله تعالى  
 ولا ينعى القول إذا لم  
 تكن النية في القلب  
 لأن النية عمل القلب  
 وإنما اللسان ترجمان  
 لما لم تشتمل عليها  
 غزيرة القلب لله  
 لا تكون نية . ونادى  
 رجل امرأته وكان  
 يسرح شعره فقال  
 هات الدرري أراد  
 الليل ليفرق شعره  
 فقالت له امرأته أجي  
 بالمسدرى وللرأة  
 فسكت ثم قال نعم  
 فقال له من سمع سكوت  
 وتوقفت عن للرأة  
 ثم قلت نعم فقال إنى

أنك تقول ذلك ثم يقال للأرض التثني عليه فلتثني عليه حتى تختلف فيها أضلاعه فلا يزال معذبا حتى يبعثه الله من مضجعه ذلك (١) وعن عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر ابن الخطاب رضي الله عنه « يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ثم رجعوا إليك ففسلوك وكفنوك وحنطوك ثم احتملوك حتى يضعوك فيه ثم يهولوا عليك التراب ويدفنوك فإذا انصرفوا عنك أتاك فتانا القبر منكرا ونكيرا أصواتهما كالرعد القاصف وبصائرهما كالبرق الحاطف يجران أشعارهما ويحدثان القبر بأنبياهما فتتلاك وترتاك كيف بك عند ذلك يا عمر ؟ فقال عمر ويكون معي مثل عثلى الآن ؟ قال نعم قال إذن أكيفيهما (٢) وهذا نص صريح في أن العقل لا يتغير بالموت إنما يتغير البدن والأعضاء فيكون الميت عاقلا مدركا لما بالآلام والذات كما كان لا يتغير من عقله شيء وليس العقل الدرك هذه الأعضاء بل هو شيء باطن ليس له طول ولا عرض بل الذي لا يتقسم في نفسه هو الدرك للأشياء ولو تنارت أعضاء الإنسان كلها ولم يبق إلا الجزء الدرك الذي لا يتجزأ ولا يتقسم لكان الإنسان العاقل بكامله قائما باقيا وهو كذلك بعد الموت فان ذلك الجزء لا يحل الموت ولا يطرأ عليه العدم . وقال محمد بن النكدر بلغني أن الكافر يسلط عليه في قبره دابة عجياء صامو في يدها سوط من حديد في رأسه مثل غرب الحمل تضربه به إلى يوم القيامة لاتراه فتفتيه ولا يسمع صوته قرحه . وقال أبو هريرة إذا وضع الميت في قبره جاءت أعماله الصالحة فاحتوشته فان أتاه من قبل رأسه جاء قرايته القرآن وإن أتاه من قبل رجله جاء قيامه وإن أتاه من قبل يده قالت الديدان والله لقد كان يمسطنى للصدقة والدعاء لاسبيل لكم عليه وإن جاء من قبل فيه جاء ذكره وصيامه وكذلك تقف الصلاة والصبر ناحية فيقول أما إني لو رأيت خلا لكنت أنا صاحبه . قال سفيان تجاحش عنه أعماله الصالحة كما يجاحش الرجل عن أخيه وأهله وولده ثم يقال له عند ذلك بارك الله لك في مضجعتك فعم الأخلاء أخلاؤك ونعم الأصحاب أمحباك . وعن حذيفة قال « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ثم قال « يضغط الوثمن في هذا ضغطة ترد منه حمائله (٣) » وقالت عائشة رضي الله عنها : قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن للقبر ضغطة ولو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ (٤) » وعن أنس قال « توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقاة فبعها رسول الله صلى الله عليه وسلم فساءنا حاله ، فلما اتينا إلى القبر فدخله اتقع وجهه صفرة ، فلما خرج أسفر وجهه قلنا يا رسول الله رأينا منك شأنا لم ذلك ؟ قال ذكرت ضغطة ابنتي وشدة عذاب القبر ، فأنتيت فأخبرت أن الله

(١) حديث أبي هريرة إذا مات العبد أتاه ملكان أسودان أزرقان يقال لأحدهما منكر وللآخر نكير الحديث الترمذي وحسنه وابن حبان مع اختلاف (٢) حديث عطاء بن يسار قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لعمر بن الخطاب يا عمر كيف بك إذا أنت مت فانطلق بك قومك فقاموا لك ثلاثة أذرع في ذراع وشبر ، الحديث ابن أبي الدنيا في كتاب القبور هكذا رسلوا ورجاله ثقات قال البيهقي في الاعتقاد رويناه من وجه صحيح عن عطاء بن يسار مرسل . قلت ووصله ابن بطة في الإبانة من حديث ابن عباس ورواه البيهقي في الاعتقاد من حديث عمر وقال غريب بهذا الإسناد خرد به مفضل . ولأحمد وابن حبان من حديث عبد الله بن عمر فقال عمر أريد إلينا عاقلنا فقال نعم كبريتكم اليوم فقال عمر بن الخطاب الجبر (٣) حديث حذيفة كنت مع رسول الله صلى الله عليه وسلم في جنازة فجلس على رأس القبر ثم جعل ينظر فيه ، الحديث رواه أحمد بسند ضعيف (٤) حديث عائشة إن للقبر ضغطة لو سلم أو نجما منها أحد لنجا سعد بن معاذ رواه أحمد بإسناد جيد .

قلت لها هات المدري  
بنية فلما قالت والمرأة  
لم يكن لي في المرأة  
توقفت حتى هيا الله  
تعالى لي نية فقلت  
نعم وكل مبتدئ  
لا يحكم أساس بدايته  
بمهاجرة الألف  
والأصدقاء والمعارف  
ويتمسك بالوحدة  
لا تستقر بدايته ، وقد  
قل من قلة الصدق  
كثرة الخطاء وأقع  
ماله لزوم الصمت وأن  
لا يطرئ سمعه كلام  
الناس فإن باطنه يتغير  
ويتأثر بالأقوال المختلفة  
وكل من لا يعلم كمال  
زهده في الدنيا وعسكه  
بحقائق التقوى  
لا يعرفه أبدا فان عدم

قد خفف عنها ولقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الخافقين (١) .

( الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة في المنام )

اعلم أن أنوار البصائر للاستفادة من كتاب الله تعالى وسنة رسوله صلى الله عليه وسلم ومن مناهج الاعتبار تعرفنا أحوال الموتى على الجملة وانقسامهم إلى سعداء وأشقياء ولكن خالد زيد وعمر وبينه فلا ينكشف أصلاً فانا إن عولنا على إيمان زيد وعمر فلا ندرى على ماذا مات وكيف ختم له وإن عولنا على صلاحه الظاهر فالتقوى محله القلب وهو غامض يخفى على صاحب التقوى فكيف على غيره فلا حكم لظاهر الصلاح دون التقوى الباطن قال الله تعالى - إنما يتقبل الله من المتقين - فلا يمكن معرفة حكم زيد وعمر إلا بمشاهدته ومشاهدة ما يجري عليه وإذا مات قد تحول من عالم الملكوت والشهادة إلى عالم النيب والملكوت فلا يرى بالعين الظاهرة وإنما يرى بعين أخرى خلقت تلك العين في قلب كل إنسان ولكن الإنسان جعل عليها غشاوة كثيفة من شهواته وأشغاله الدنيوية فصار لا يبصر بها ولا يتصور أن يبصر بها شيئاً من عالم الملكوت ما لم تنفتح تلك الغشاوة عن عين قلبه، ولما كانت الغشاوة منقشة عن أعين الأنبياء عليهم السلام فلا جرم نظروا إلى الملكوت وشاهدوا عجائبه واللوتى في عالم الملكوت فشاهدوه وأخبروا ، ولذلك رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته (٢) وكذلك حال أبي جابر لما استشهد إذ أخبره أن الله أقعده بين يديه ليس بينهما ستر ، ومثل هذه الشهادة لا مطمع فيها لغير الأنبياء والأولياء الذين تقرب درجتهم منهم وإنما الممكن من أمثالنا مشاهدة أخرى ضعيفة إلا أنها أيضاً مشاهدة نبوية وأعلى بها الشهادة في المنام وهي من أنوار النبوة . قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة » (٣) وهو أيضاً انكشف لا يحصل إلا بانقشاع الغشاوة عن القلب فلذلك لا يوثق إلا برؤيا الرجل الصالح الصادق ومن كثر كذبه لم تصدق رؤيته ومن كثر فساده ومعاصيه أظلم قلبه فكان ما يراه أضغاث أحلام ، ولذلك أمر رسول الله صلى الله عليه وسلم بالطهارة عند النوم لينام طاهراً (٤) وهو إشارة إلى طهارة الباطن أيضاً فهو الأصل وطهارة الظاهر بمنزلة التمسك والتسكك لها ومهما صفا الباطن انكشف في حدة القلب ما سيكون في المستقبل كأنه انكشف دخول مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في اليوم حتى نزل قوله تعالى - لقد صدق الله رسوله الرؤيا بالحق - (٥) وقبلنا نخلو الإنسان عن منامات دلت على أمور فوجدناها جميعاً الرؤيا ومعرفة الغيب في النوم من عجائب صنع الله تعالى وبدائع فطرته الآدمي وهو من أوضح الأدلة على عالم الملكوت والحقا فافلون عنه كففتهم عن سائر عجائب القلب وعجائب العالم والقول في حقيقة الرؤيا من دقائق علوم المكاشفة فلا يمكن ذكره

(١) حديث أنس توفيت زينب بنت رسول الله صلى الله عليه وسلم وكانت امرأة مسقاة الحديث وفيه لقد ضغطت ضغطة مع صوتها ما بين الخافقين ابن أبي الدنيا في الموت من رواة تسليمان الأعشى عن أنس ولم يسمع منه .

( الباب الثامن فيما عرف من أحوال الموتى بالمكاشفة )

(٢) حديث رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ضغطة القبر في حق سعد بن معاذ وفي حق زينب ابنته وكذلك حال أبي جابر لما استشهد تقدمت الثلاثة أحاديث في الباب الذي قبله (٣) حديث الرؤيا الصالحة جزء من ستة وأربعين جزءاً من النبوة تقدم (٤) حديث أمره بالطهارة عند النوم متفق عليه من حديث البراء إذا أتيت مضجعت فتوضأ وضوءك للصلاة الحديث (٥) حديث انكشف دخوله مكة لرسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم ابن أبي حاتم في تفسيره من رواية مجاهد مرسل .

معرفة لا يفتح عليه خيراً وبواطن أهل الابتداء كالسمع قبل كل نقش وربما استضر المبتدىء بمجرد النظر إلى الناس ويستضر بفضل النظر أيضاً وفصول المني فيقف من الأشياء كلها على الضرورة فينظر ضرورة حق لو مشى في بعض الطريق يجتهد أن يكون نظره إلى الطريق الذي يسلكه لا يلتفت بيمينه ويساره ثم يبقى موضع نظر الناس إليه وإحساسهم منه بالزعايق والاحتراز فإن علم الناس منه بذلك أضرب عليه من فضله ولا يستحق فضول

علاوة على علم العاملة ولكن القدر الذي يمكن ذكره ههنا مثال يفهمك المقصود وهو أن تعلم أن القلب مثله مثال امرأة تراهي فيها الصور وحقائق الأمور وأن كل ما قدره الله تعالى من ابتداء خلق العالم إلى آخره مسطور ومثبت في خلق خلقه الله تعالى يعبر عنه تارة باللوح وتارة بالكتاب اللين وتارة بإمام مبين كما ورد في القرآن لجميع ما جرى في العالم وما سيجري مكتوب فيه ومنقوش عليه تشا لا يشاهد بهذه العين ولا تظن أن ذلك اللوح من خشب أو حديد أو عظم وأن الكتاب من كاغد أو ورق بل ينبغي أن تفهم قطعاً أن لوح الله لا يشبه لوح الخلق وكتاب الله لا يشبه كتاب الخلق كما أن ذاته وصفاته لا تشبه ذات الخلق وصفاتهم بل إن كنت تطلب له مثالا يقرّبه إلى فهمك فاعلم أن ثبوت القادير في اللوح يضاها ثبوت كلمات القرآن وحرروفه في دماغ حافظ القرآن وقلبه فانه مسطور فيه حق كأنه حين يقرؤه ينظر إليه ولو فتشت دماغه جزء جزء لم تشاهد من ذلك الخط حرفاً وإن كان ليس هناك خط يشاهد ولا حرف ينظر فمن هذا الخط ينبغي أن تفهم كون اللوح سنة وشا لجميع ما قدره الله تعالى وقضاء اللوح في المثال كمرآة ظهر فيها الصور فلو وضع في مقابلة المرأة مرآة أخرى لكانت صورة تلك المرأة تراهي في هذه إلا أن يكون بينهما حجاب فالقلب مرآة تقبل رسوم العلم واللوح مرآة رسوم العلم كلها موجودة فيها واشتغال القلب بشهواته ومقتضى حواسه حجاب مرسل بينه وبين مطالعة اللوح الذي هو من عالم الملكوت ، فإن هبت ريح حركت هذا الحجاب ورففته تالاً في مرآة القلب شيء من عالم الملكوت كالبرق الخاطف وقد ثبت ويدوم وقد لا يدوم وهو الغالب وما دام متيقظاً فهو مشغول بما تورده الحواس عليه من عالم الملك والشهادة وهو حجاب عن عالم الملكوت ، ومعنى النوم أن تترك الحواس عليه فلا تورده على القلب فإذا تخلص منه ومن الخيال وكان صافياً في جوهره ارتفع الحجاب بينه وبين اللوح المحفوظ فوقع في قلبه شيء من عالم اللوح كما تقع الصورة من مرآة في مرآة أخرى إذا ارتفع الحجاب بينهما إلا أن النوم مانع سائر الحواس عن العمل وليس مانعاً للخيال عن عمله وعن تحركه فما يقع في القلب يتبدّر الخيال فيحاكيه بمثال يقاربه وتكون للتخيلات أثبت في الحفظ من غيرها فيبقى الخيال في الحفظ فإذا انتبه لم يتذكر إلا الخيال فيحتاج العبر أن ينظر إلى هذا الخيال حكاية أي معنى من المعاني فيرجع إلى المعاني المناسبة التي بين التخيل والمعاني وأمثلة ذلك ظاهرة عند من نظر في علم التعبير وبكيفية مثال واحد وهو أن رجلاً قال لابن سيرين رأيت كأن يدي خاتماً أختم به أفواه الرجال وفروج النساء قال أنت مؤذن تؤذن قبل الصبح في رمضان قال صدقت فانظر أن روح الختم هو المنع ولأجله يراد الختم وإعنا يكشف للقلب حال الشخص من اللوح المحفوظ كما هو عليه وهو كونه مانعاً للناس من الأكل والشرب ولكن الخيال ألقى المنع عند الختم الخاتمة فتشبه بالصورة الخيالية التي تتضمن روح المعنى ولا يبقى في الحفظ إلا الصورة الخيالية ، فهذه نبذة يسيرة من بحر علم الرؤيا الذي لا تحصر بحجابه وكيف لا وهو أخو الموت وإنما الموت هو عجب من العجائب وهذا لأنه يشبه من وجه ضعيف أثر في كشف الغطاء عن عالم الغيب حتى صار النائم يعرف ما سيكون في المستقبل لماذا ترى في الموت الذي يخبر في الحجاب ويكشف الغطاء بالملكة حتى يرى الإنسان عند انقطاع النفس من غير تأخير نفسه إما محفوفة بالأنكال والمجازي والنضام نموذجاً من ذلك وإما مكنوفاً بنعيم مقيم وملك كبير لا آخره وعند هذا يقال للأغنياء وقد انكشف الغطاء - لقد كنت في غفلة من هذا فكشفنا عنك غطاءك فبصرك اليوم حديد - ويقال - أفسح هذا أم أتم لا تبصرون أصلوها فاصبروا أو لا تبصروا سواء عليكم إنما تجزون ما كنتم تعملون - وإليه الإشارة بقوله تعالى - وبدلهم من الله ما لم يكونوا يحسبون -

الشيء فإن كل شيء من قول وفعل ونظر وسماع خرج عن حد الضرورة بحر إلى الفضول ثم يجر إلى تضييع الأصول - قال سفيان : إنما حرموا الوصول بتضييع الأصول ففككت من لا يتمسك بالضرورة في القول والفعل لا يقدر أن يقف على قدر الحاجة من الطعام والشراب والنوم ومضى تسدى الضرورة تداعت عزائم قلبه وأغلقت شيئاً بعد شيء - قال سهل بن عبد الله من لم يعبده اختاراً يعبد الخلق اضطراراً وينفتح على البعد أبواب الرخصي

فأعلم الطماء وأحكم الحكماء ينكشف له عقيب الموت من العجائب والآيات ما لم يخطر قط بباله ولا اختلج به ضميره فلو لم يكن للعاقل هم وغم إلا الفكرة في خطر تلك الحال أن الحجاب عما ذير ترفع وما الذي ينكشف عنه النطاء من شقاوة لازمة أم سعادة دأمة لكان ذلك كافيا في استغراق جميع العمر والعجب من غفلتنا وهذه العظام بين أيدينا وأعجب من ذلك فرحنا بأموالنا وأهلينا وبأسبابنا وفدنا بتنايل بأعضائنا وسمنا وبصرنا مع أننا لم مفارقة جميع ذلك يقينا ولكن أين من ينث روح القدس في روعه فيقول ما قال لسيد النبيين «أحب من أحببت فانك مفارقة وعنى ماشئت فانك ميت واعمل ماشئت فانك مجزى به» (١) فلا جرم لما كان ذلك مكشوفاً له بين اليقين كان في الدنيا كما برسيل لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة (٢) ولم يخلف ديناراً ولا درهما (٣) ولم يتخذ حياً ولا خليلاً نعم قال «لو كنت متخذاً لئلا لا تخذت أبابكر خليلاً ولكن صاحبكم خليل الرحمن» (٤) فيين أن خلة الرحمن تخلت باطن قلبه وأن حبه تمكن من حبه قلبه فلم يترك فيه مقسماً لخليل ولا حبيب وقد قال لأمته - إن كنتم تحبون الله فاتبعوني يحبسكم الله - فأتاها أمتها من أتبعه وماتبعه إلا من أعرض عن الدنيا وأقبل على الآخرة فانه مادها إلا إلى الله واليوم الآخر وما صرف إلا عن الدنيا والحظوظ العاجلة فبقدر ما عرضت عن الدنيا وأقبلت على الآخرة قد سلكت سبيله الذي سلكه وبقدر ما سلكت سبيله قد اتبعته وبقدر ما اتبعته قد صرت من أمتها وبقدر ما أقبلت على الدنيا عدلت عن سبيله ورغبت عن متابعتها والتحق بالدين قال الله تعالى فيهم - فأما من طغى وآثر الحياة الدنيا فإن الجحيم هي المأوى - فلو خرجت من مكن التورور وأنصفت نفسك يا رجل وكلنا ذلك الرجل لعلبت أنك من حين تصبح إلى حين تمسي لانسى إلا في الحظوظ العاجلة ولا تتحرك ولا تسكن إلا لما جل الدنيا ثم تطمع أن تكون غدا من أمتها وأتباعه ما أبدنك وما أبد طمعك - أفجعل السليين كالجحيمين ما لكم كيف تحكمون - ولترجع إلى ما كنا فيه وبصده قد امتد عنان الكلام إلى غير مقصده ولنذكر الآن من اللامات الكاشفة لأحوال اللوق ما يعظم الانتفاع به إفذهبت النبوة وبقيت البشرات وليس ذلك إلا للامات

(بيان منامات تكشف عن أحوال اللوق والأعمال النافذة في الآخرة)

فمن ذلك رؤيا رسول الله صلى الله عليه وسلم وقد قال عليه السلام «من رأى في المنام قدراً آتى حقا فإن الشيطان لا يمثل بي» (٥) وقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه رأى رسول الله ﷺ في المنام فرأيت لا ينظر إلى قلات يارسل الله ماشأني فأنصت إلى وقال ألت القبل وأنت صائم قال والذي نفسي بيده لا أقبل امرأة وأنا صائم أبدا . وقال العباس رضي الله عنه كنت ودأ لعمر فأنصت أن أزل في المنام فما رأيته إلا عند رأس الحول فرأيت يمسح العرق عن جبينه وهو يقول هذا أوان فراغى إن كان عرشى ليهذ لولا آتى لقيته رءوفا رحما . وقال الحسن بن علي رضي الله عنه إن رسول الله صلى الله عليه وسلم سنع لي الليلة في منامى فقلت يارسل الله ما لقيت من أمك قال ادع عليهم فقلت اللهم أبدلني بهم من هو خير لي منهم وأبدلهم بي من هو شر لهم منى يخرج نضرباً ابن ملجم وقال بعض الشيوع رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم فقلت يارسل الله استغفر لي فأعرض عني فقلت يارسل الله إن

والانواع وبهك مع  
المالكين ولا ينبغي  
للبتدى أن يعرف  
أحدا من أرباب  
الدنيا فان معرفته لهم  
سم قاتل . وقد ورد  
«الدنيا مبغوضة الله  
فمن تمسك بحبل منها  
قاده إلى النار» وما  
حبل من حبالها إلا  
كأبنائها والطالبين  
لها والمحبين فمن  
عرفهم انجذب إليها  
هاء أو أبى ويحترز  
للبتدى عن مجالسة  
الغفراء الذين لا يقولون  
بقيام الليل وصيام  
التهار فانه يدخل عليه  
منهم أثر ما يدخل  
عليه بمجالسة أبناء  
الدنيا وربما يشربون  
إلى أن الأعمال غفل

- (١) حديث إن روح القدس نفث في روعي أحب من أحببت فانك مفارقة الحديث تقدم .
- (٢) حديث لم يضع لينة على لينة ولا قصة على قصة أيضا (٣) حديث لم يخلف ديناراً ولا درهما (٤) حديث لو كنت متخذاً خليلاً لا تخذت أبابكر ولكن صاحبكم خليل الرحمن (٥) حديث من رأى في المنام قدراً آتى حقا فإن الشيطان لا يتغلب بي متفق عليه من حديث أبي هريرة .

سفيان بن عيينة حدثنا عن محمد بن النكدر عن جابر بن سميد الله إنك لم تسأل شيئا قط قلت لا فأقبل على فقال غفر الله لك (١) وروى عن العباس بن عبد المطلب قال كنت مواخيا لأبي لهب مصاحبا له فلما مات وأخبر الله عنه بما أخبر حزنت عليه وأمنى أمره فسألت الله تعالى حولاً أن يرني إياه في المنام قال فرأيت يلقب ناراً فسألته عن حاله فقال صرت إلى النار في العذاب لا يخفف عني ولا يروح إلا ليلة الاثنين في كل الأيام والليالي قلت وكيف ذلك قال ولد في تلك الليلة محمد صلى الله عليه وسلم فجاءني أميمة فبشرتني بولادة أمية إياه ففرحت به وأعنت وليلة لي فرحاً به فأناهي الله بذلك أن رفع عني العذاب في كل ليلة اثنين . وقال عبد الواحد بن زيد خرجت حاجاً فصحبني رجل كان لا يقوم ولا يقعد ولا يتحرك ولا يسكن إلا صلى على النبي ﷺ فسألته عن ذلك فقال أخبرك عن ذلك خرجت أول مرة إلى مكة ومعى أبي فلما انصرفنا نمت في بعض المنازل فبينما أنا نائم إذ أتاني آت فقال لي قم فقد أمان الله أباك وسود وجهه قال قممت مذعوراً فكشفت الثوب عن وجهه فإذا هو ميت أسود الوجه فداخلني من ذلك رعب فبينما أنا في ذلك النعم إذ غلبني عيني فتمت فإذا على رأس أبي أربعة سودان معهم أعمدة حديد إذ أقبل رجل حسن الوجه بين ثوبين أخضرين فقال لهم تتحوا فمسح وجهه يده ثم أتاني فقال قم فقد يرض الله وجهه أيك قلت له من أنت بآبي أنت وأمي فقال أنا محمد قال قممت فكشفت الثوب عن وجه أبي فإذا هو أبيض لما تركت الصلاة بعد ذلك على رسول الله صلى الله عليه وسلم . وعن عمر بن عبد العزيز قال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم وأبو بكر وعمر رضي الله عنهما جالسا عنده فجلست فبينما أنا جالس إذ أتى بعل ومعاوية فأدخلا بيتا وأجيف عليهما الباب وأنا أنظر لما كان بأسرع من أن خرج على رضي الله عنه وهو يقول قفى لي وزب الكعبة وما كان بأسرع من أن خرج معاوية على أثره وهو يقول غفر لي ورب الكعبة واستيقظ ابن عباس رضي الله عنهما مرة من نومه فاسترجع وقال قتل الحسين والله وكان ذلك قبل قتله فأنكره أصحابه فقال رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم ومعه زجاجة من دم فقال ألا تعلم ما صنعت أمتي بعدى قتلوا ابني الحسين وهذا دمه ودم أصحابه أرفضها إلى الله تعالى فجاء الخبر بعد أربعة وعشرين يوماً بقتله في اليوم الذي رآه ورؤي الصديق رضي الله عنه فقيل له إنك كنت تحول أبداً في لسانك هذا أوردني اللواز فهاذا فعل الله بك قال قلت به لا إله إلا الله فأوردني الجنة .

( بيان منامات الشايع رحمة الله عليهم أجمعين )

قال بعض الشايع رأيت منما الدورق في المنام فقلت يا سيدي ما فعل الله بك فقال ديرني في الجنان قيل لي يا منتم هل استحسنتم فيها شيئا قلت لا يا سيدي فقال الو استحسنتم منها شيئا لو كنتك إليهم أو صلتك إلى ورؤي يوسف بن الحسين في المنام فقيل له ما فعل الله بك قال غفر لي قبل بماذا قال ما خلطت جدا بهزل وعن منصور بن إسماعيل قال رأيت عبد الله البزار في النوم فقلت ما فعل الله بك قال أوقفت بين يديه فغفر لي كل ذنب أقررت به إلا ذنبا واحدا فأتى استحييت أن أقربه فأوقفت في المرق حتى سقط لحم وجهي فقلت ما كان ذلك القذ قال نظرت إلى غلام جميل فاستحسنته فاستحييت من الله أن أذكره وقال أبو جعفر الصيدلاني رأيت رسول الله صلى الله عليه وسلم في النوم وحوله جماعة من الفقراء فبينما نحن كذلك إذ انشقت السماء فزل ملكان أحدهما يده طشت ويد الآخر إبريق فوضع الطشت بين يدي رسول الله صلى الله عليه وسلم فمسح يده ثم أمر حق غسلوا ثم وضع الطشت بين يدي

(١) حديث ابن عيينة عن محمد بن النكدر عن جابر ما مثل النبي صلى الله عليه وسلم شيئا قط فقال لا ، رواه مسلم وقد تقدم .

التعبدن وأن أرباب  
الأحوال ارتضوا عن  
ذلك . وينبغي للفقير  
أن يختصر على الفرائض  
وصوم رمضان حسب  
ولا ينبغي أن يدخل  
هذا الكلام فيه رأسا  
فانا اخترنا ومارسنا  
الأمور كلها وجالسنا  
الفقراء والصالحين  
ورأينا أن الدين يحولون  
هذا القول ويرون  
الفرائض دون  
الزيادات والنوافل  
تحت القصور مع كونهم  
أصحاء في أحوالهم فلي  
العبد التمسك بكل  
فريضة وفضية فبذلك  
يثبت قدمه في بدايته  
ويراعى يوم الجمعة  
خاصة ويحمله لله تعالى  
خالصا لا يمزجه بشيء

فقال أحدهما للآخر لا تصب على يده فإنه ليس منهم قلت يا رسول الله ليس قد روى عنك أنك قلت «المرء مع من أحب» قال بلى قلت يا رسول الله فاني أحب هؤلاء الفقراء فقال صلى الله عليه وسلم صب على يده فإنه منهم وقال الجنيد رأيت في المنام كأنني أتكم على الناس فوقف على ملك فقال أقرب ما تقرب به للتقربون إلى الله تعالى ماذا فعلت عمل خفي بغير أن وفي قولي للملك وهو يقول كلام موفق والله وروى مجمع في النوم قيل له كيف رأيت الأمر قال رأيت الزاهد بن في الدنيا ذهبوا بغير الدنيا والآخرة . وقال رجل من أهل الشام لعلاء بن زياد رأيتك في النوم كأنك في الجنة فزل عن مجلسه وأقبل عليه ثم قال لعل الشيطان أراد أمراً فصمت منه فأشخص رجلاً يقتلني . وقال محمد بن واسع الرؤيا تسر المؤمن ولا تفره وقال صالح بن بشير رأيت عطاء السلي في النوم قلت له رحمك الله لقد كنت طويل الحزن في الدنيا قال أما والله لقد أعفيت ذلك راحة طويلاً وفرحاً دائماً قلت في أي الدرجات أنت - فقال مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية . وسئل زرار بن أبي أوفى للناس أي الأعمال أفضل عندكم فقال الرضا وقصر الأمل وقال يزيد بن مذكور رأيت الأوزاعي في المنام فقلت يا أبا عمرو دلني على عمل أقرب به إلى الله تعالى قال ما رأيت هناك درجة أرفع من درجة العلماء ثم درجة المهزومين قال وكان يزيد شيخاً كبيراً فلم يزل يبكي حتى أظلمت عيناه وقال ابن عيينة رأيت أخى في المنام فقلت يا أخى ما فعل الله بك فقال كل ذنب استغفرت منه غفر لي وما لم أستغفر منه لم يغفر لي وقال علي الطلمي رأيت في المنام امرأة لا تشبه نساء الدنيا فقلت من أنت فقالت حوراء فقلت زوجي نفسك قالت اخطبني إلى سيدي وأمهرني قلت وما مهرك قالت حبسك عن آفاتنا وقال إبراهيم بن اسمعق الحربي رأيت زينة في المنام فقلت ما فعل الله بك قالت غفر لي فقلت لها بما أنفقت في طريق مكة قالت أما النفقات التي أنفقتها رجعت أجورها إلى أربابها وغفر لي بنيتي ولما مات سفيان الثوري روى في المنام قيل له ما فعل الله بك قال وضعت أول قدمي على الصراط والثاني في الجنة وقال أحمد بن أبي الخواريزي رأيت فيما يرى النائم جارية ما رأيت أحسن منها وكان يتلأأ وجهها نوراً فقلت لها لماذا ضوء وجهك قالت تذكر تلك الليلة التي بكيت فيها قلت نعم قالت أخذت معك لمسحت به وجهي فمن ثم ضوء وجهي كما ترى وقال السكتاني رأيت الجنيد في المنام فقلت له ما فعل الله بك قال طاحت تلك الاشارات وذهبت تلك العبارات وما حصلنا إلا طير كعتين كنا نصليهما في الليل ورؤيت زينة في المنام قيل لها ما فعل الله بك قالت غفر لي بهذه الكلمات الأربع لا إله إلا الله أفنى بها عمري لا إله إلا الله أدخل بها قبري لا إله إلا الله أدخل بها وحدي لا إله إلا الله ألقى بها ربي وروى بشر في المنام قيل له ما فعل الله بك قال رحماني عز وجل وقال يا بشر أما استحييت مني كنت تخافني كل ذلك الخوف وروى أبو سليمان في النوم قيل له ما فعل الله بك قال رحماني وما كان شيء أضر علي من إشارات القوم إلي وقال أبو بكر السكتاني رأيت في النوم شاباً لم أر أحسن منه فقلت له من أنت قال النفوي قلت فأين تسكن قال كل قلب حزين ثم انفت فاذا امرأت سوداء فقلت من أنت قالت أنا السقم قلت فأين تسكنين قالت كل قلب فرح مرح قال فانتبهت وتماهدت أن لأضحك إلا غلبت وقال أبو سعيد الخزاز رأيت في المنام كأن إبليس وثب على فأخذت العصا لأضربه فلم يفرج منها فنهتف بي هاتف إن هذا لا يخاف من هذه وإنما يخاف من نور يكون في القلب وقال المسوحي رأيت إبليس في النوم يمشي عرياناً فقلت ألا تستحي من الناس فقال بالله هؤلاء ناس لو كانوا من الناس ما كنت ألعب بهم طرفي النهار كما يتلاعب الصبيان بالسكره بل الناس قوم غير هؤلاء قد أسقموا جسمي وأشار بيده إلى أصحابنا الصوفية وقال أبو سعيد الخزاز كنت في دمشق فرأيت في المنام كأن النبي

من أحوال نفسه  
ومآربها ويسكر إلى  
الجامع قبل طلوع  
الشمس بعد الغيل  
للجمعة وإن اغتسل  
قريباً من وقت الصلاة  
إذا أمكنه ذلك فحسن  
قال رسول الله صلى  
الله عليه وسلم «يا أبا  
هريرة اغتسل للجمعة  
ولو اشتريت الماء  
بشائك وما من  
نبي إلا وقد أمره  
الله تعالى أن يغتسل  
للجمعة فإن غسل  
الجمعة كفارة للذنوب  
ما بين الجمعةين» ويستدل  
بالصلاة والتضرع  
والدعاء والتلاوة وأنواع  
الذكر من غير شور  
لأنه أن يغتسل للجمعة  
ويجلس متذكراً في



صلى الله عليه وسلم جاءني متكئا على أبي بكر وعمر رضى الله عنهما فجاء فوقف على وأنا أقول شيئا من الأصوات وأدق في صدري فقال شر هذا أكثر من خيره. وعن ابن عيينة قال رأيت سفيان الثوري في النوم كأنه في الجنة يطير من شجرة إلى شجرة يقول لكل هذا فاعمل العاملون فقلت له أوصى قال أقلل من معرفة الناس وروى أبو حاتم الرازي عن قبيصة بن عقبة قال رأيت سفيان الثوري فقلت ما فعل الله بك فقال:

نظرت إلى ربي كفاحا فقال لي هنيئا رضائي عنك يا ابن سعيد  
قد كنت قواما إذا أظلم الدجى بصيرة مشتاق وقلب عميد  
فدونك فاختر أي قصر أردته وزرني فاني منك غير بعيد

وروى الشبلبي بعد موته بثلاثة أيام قفيل له ما فعل الله بك قال ناقض حتى أيسر فلما رأى بأسى تمدني برحمته وروى مجنون بن عامر بعد موته في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وجعلني حجة على الحبين وروى الثوري في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال رحماني قفيل له ما حال عبد الله بن المبارك فقال هو عمن يلج على ربه في كل يوم مرتين وروى بعضهم فسل عن حاله فقال : حاسبونا فقد قوائهم نوا فأعتقوا وروى مالك بن أنس قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي بكلمة كان يقولها عثمان بن عفان رضى الله عنه عند رؤية الجنائز سبحان الحى الذى لا يموت وروى في الليلة التى مات فيها الحسن البصرى كان أبواب السماء مفتحة وكان ناديا ينادى ألا إن الحسن البصرى قدم على الله وهو عنه راض وروى الجاحظ قفيل له ما فعل الله بك فقال :

ولا تكتب بخطك غير شئ يسرك في القيامة أن تراه

ورأى الجنيد إبليس في المنام عريانا فقال ألا تستحي من الناس فقال وهؤلاء ناس الناس أقوام في مسجد الشونيزية قد أضنوا جسدى وأحرقوا كبدى قال الجنيد فلما انتبهت غدوت إلى المسجد فرأيت جماعة قد وضعوا رؤوسهم على ركبهم يتفكرون فلما رأوني قالوا لا يترك حديث الحديث وروى النصر أباضى بمكة بعد وفاته في النوم قفيل له ما فعل الله بك قال عوتبت عتاب الأشراف ثم نوديت يا أبا القاسم أبعده الاتصال انفصال فقلت لا يا أبا الجلال لما وضعت في اللحد حتى لحقت بربي ورأى عتبة الغلام حوراء في المنام على صورة حسنة فقالت يا عتبة أتالك عاشقة فأنظر لافعل من الأعمال شيئا فيحالف بيني وبينك فقال عتبة طلقت الدنيا ثلاثا لا رجعة لي عليها حتى ألقاك وقيل رأى أيوب الدخيتاني جنازة عاص فدخل الدهليز كيلا يصلى عليها فرأى الميت بعضهم في المنام قفيل له ما فعل الله بك قال غفر لي وقال قل لأيوب - قل لو أنتم تملكون خزائن رحمة ربى إذ أمسكم خشية الاتفاق - وقال بعضهم رأيت في الليلة التى مات فيها داود الطائى نوراً وملائكة تزولوا وملائكة صعودا فقلت أى ليلة هذه فقالوا ليلة مات فيها داود الطائى وقد زخرفت الجنة لقوم روحه وقال أبو سعيد الشعام رأيت سهلاً الصعلوكي في المنام فقلت أيها الشيخ قال دع الشيخ قلت تلك الأحوال التى شاهدتها فقال لم تمنعنا فقلت ما فعل الله بك قال غفر لي بمسائل كان يسأل عنها الهجرو وقال أبو بكر الرشيدى رأيت محمدا الطوسي المعلم في النوم فقال لي قل لأبي سعيد الصغار المؤدب :

وكنّا على أن لا نحول عن الهوى فقد وحيات الحب حلمت وما حلنا

قال فاتبته فذكرت ذلك له فقال كنت أزور قبره كل جمعة فلم أزره هذه الجمعة وقال ابن راشد رأيت ابن المبارك في النوم بعد موته فقلت أليس قد مات قال بلى فأتى فاصنع الله بك قال غفر لي مغفرة فأحاطت بكل ذنب قلت فسفيان الثوري قال بلغني ذلك - من الذين أنعم الله عليهم من النبيين والصديقين - الآية وقال الربيع بن سليمان رأيت الشافعى رحمة الله عليه بعد وفاته في المنام فقلت يا أبا عبد الله ما صنع الله بك

الجامع إلى أن يصلى  
فرض العصر وبقية  
النهار يشغله بالتسبيح  
والاستغفار والصلاة  
على النبي صلى الله عليه  
وسلم فانه يرى بركة  
ذلك في جميع الأسبوع  
حتى يرى ثمرة ذلك  
يوم الجمعة وقد كان من  
الصادقين من يضبط  
أحواله وأقواله وأفعاله  
جميع الأسبوع لأنه يوم  
المزيد لكل صادق  
ويكون ما يجده يوم  
الجمعة معيارا يعتبر به  
سائر الأسبوع الذى  
مضى فانه إذا كان  
الأسبوع سليما يكون  
يوم الجمعة فيه مزيد  
الأنوار والبركات وما يجد  
في يوم الجمعة من الظلمة  
وسامة النفس وقلة

قال أجلفي على كرسى من ذهب ونثر على الأوثار الرب و رأى رجل من أصحاب الحسن البصري ليلتمات الحسن كأن مناديا ينادى - إن الله اصطفى آدم ونوحا وآل إبراهيم وآل عمران على العالمين - و اوصطفى الحسن البصري على أهل زمانه وقال أبو يعقوب القاري الدقيقي رأيت في منامي رجلا آدم طوا الأوال الناس يتبعونه فقلت من هذا قالوا أويس القرني فأثبته فقلت أوصني رحمك الله فكلمني في وجهي فقلت مسترشد فأرشدني أرشدك الله فأقبل على وقال اتبع رحمة ربك عند محبته واحذر قهقهة عند مصيبتها ولا تقطع رجاءك منه في خلال ذلك ثم ولى وتركني وقال أبو بكر بن أبي مريم رأيت ورقاء بن بشر الحضرمي فقلت ما فعلت يا ورقاء قال نجوت بعد كل جهد فقلت فأبى الأعمال وجدتموها أفضل قال البكاء من خشية الله وقال يزيد بن نعمة هلكت جارية في الطاعون الجارف فرأها أبوها في المنام فقال لها يا بنة أخبريني عن الآخرة قالت يا بنت قدما على أمر عظيم نعم ولا نعمل وتعملون ولا تعلمون والله لتسيحبة أو تسيحطان أو ركبة أو ركمتان في فسحة عمل أحب إلى من الدنيا وما فيها وقال بعض أصحاب عتبة الغلام رأيت عتبة في المنام فقلت ما صنع الله بك قال دخلت الجنة بتلك الدعوة المكتوبة في بيتك قال فلما أصبحت جئت إلى بيتي فإذا خط عتبة الغلام في حائط البيت يا هادي الضلين ويا راحم الذين ويا مقبل عثرات العائرين ارحم عبدك ذا الخطر العظيم والسليين كلهم أجمعين واجعلنا مع الأحياء الرزوقين الذين أنعمت عليهم من النبيين والصديقين والشهداء والصالحين آمين يارب العالمين وقال موسى بن حماد رأيت سفيان الثوري في الجنة يطير من نخلة إلى نخلة ومن شجرة إلى شجرة فقلت يا أبا عبد الله سمعت هذا فقال بالورع قلت فتابل على بن عاصم قال ذلك لا يكاد يرى إلا تكايري الكوكب ورأى رجلا من التابعين النبي صلى الله عليه وسلم في المنام فقال يا رسول الله عظمي قال نعم من لم ينفق القصاص فهو في نقصان ومن كان في نقصان فالموت خير له . وقال الشافعي رحمه الله عليه دهمني في هذه الأيام أمر مضى وآلني ولم يطلع عليه غير الله عز وجل فلما كان البارحة أتاني آت في منامي فقال لي يا محمد بن إدريس قل اللهم إني لأملك لنفسى نقما ولا ضرا ولا موتا ولا حياة ولا نشورا ولا أستطيع أن آخذ إلا ما أعطيتني ولا أتقى إلا ما وقفتى اللهم فوقنى لما يحب وترضى من القول والعمل في عافية فلما أصبحت ذلك فلما ترحل النهار أعطاني الله عز وجل طلبتي وسهل لي الخلاص مما كنت فيه فغلبكم بهذه اللدعات لا تغفلوا عنها فهذه جملة من الكاشفات تدل على أحوال اللوتى وعلى الأعمال القريبة إلى الله زلتى ، فلنذكر بعدها ما بين يدي اللوتى من ابتداء نفخة الصور إلى آخر القرار إما في الجنة أوفى النار والحمد لله حمد الشاكرين .

[ الشطر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال الميت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أوفى النار وتفصيل ما بين يديه من الأهوال والأخطار ] وفيه بيان نفخة الصور وصفة أرض المحشر وأهله وصفة عرق أهل المحشر وصفة طول يوم القيامة وصفة يوم القيامة ودواهيها وأساليبها وصفة المسألة عن الذنوب وصفة الميزان وصفة الحصى ورد المظالم وصفة الصراط وصفة الشفاعة وصفة الخوض وصفة جهنم وأهوالها وأنكالتها وحياتها وعقاربها وصفة الجنة وأصناف نعيمها وعدد الجنان وأبوابها وغرفها وحيطانها وأنهارها وأشجارها ولباس أهلها وفرشهم وشررهم وصفة طعامهم وصفة الحور العين والولدان وصفة النظر إلى وجه الله تعالى وباب في سعة رحمة الله تعالى وبه ختم الكتاب إن شاء الله تعالى .

( صفة نفخة الصور )

قد عرفت فيما سبق شدة أحوال الميت في مكرات الموت وخطره في خوف العاقبة ثم مقاساته لظلمة القبر

( الشطر الثاني من وقت نفخة الصور )

الانفراج فلما ضيع في الأسبوع يعرف ذلك ويعتبره ويتقى جدا أن يلبس للناس اما للترفع من الثياب أو ثياب التشفين ليرى بين الزهد فقى لبس للترفع للناس هو وفى لبس الحسن رياء فلا يلبس إلا الله . بلقنا أن سفيان لبس القمح مغلوبا ولم يعلم بذلك حتى ارتفع النهار ونبهه على ذلك بعض الناس فهم أن يخلع ويغير ثم أسسك وقال لبسته بنية الله فلا غيره فألبسه بنية للناس فليعلم العبد ذلك وليعتبره ولا يبدل البتة أن يكون له حظ من تلاوة القرآن ومن حفظه فيحفظ

وديدانه ثم لشكر ونكير وسؤالهما ثم لعذاب القبر وخطره إن كان مضطربا عليه وأعظم من ذلك كله الأخطار التي بين يديه من فسخ الصور والبث يوم النشور والعرض على الجبار والتسأل عن القليل والكثير ونصب لليزان لمعرفة القادير ثم جواز الصراط مع وقته وحدته ثم انتظار النداء عند فضل القضاء إما بالاستعداد وإما بالاستشفاء فهذه أحوال وأحوال لا يدرك من معرفتها إلا بالآمان بها على سبيل الجزم والتصديق ثم تطويل الفكر في ذلك لينبت من قلبك دواعي الاستعداد لها وأكثر الناس لم يدخل الآمان باليوم الآخر صميم قلوبهم ولم يتمكن من سويدها أثبتهم ويدل على ذلك شدة تشمرهم واستعدادهم لحمل الصيف وبرد الشتاء وتهاونهم بحر جهنم وزمهرير هامة ما تكتفه من الصاحب والأحوال بل إذا استأوا عن اليوم الآخر نطقت به ألسنتهم ثم غفلت عنه قلوبهم ومن أخبر بأن ما بين يديه من الطعام مسموم فقال لصاحبه الذي أخبره صدقت ثم مديده لتأوله كان مصداقاً لبسائه ومكذبا بعمله وتكذيب العمل أبلغ من تكذيب اللسان وقد قال النبي ﷺ « قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وكذبني وما ينبغي له أن يكذبني أما شتمه إياي فيقول إن لي ولداً وأما تكذيبه فيقوله لن سيدني كابدني (١) » وإنما قدور البواطن عن قوة اليقين والتصديق بالبث والنشور لقلة الفهم في هذا العالم لأمثال تلك الأمور ولولم يشاهد الإنسان نوال الحيوانات وقيل له إن صافها يصنع من النطفة الفترة مثل هذا الأدمي الصور العاقل التكلم التصرف لا عند نفور باطنه عن التصديق به ولذلك قال الله تعالى « وأولم ير الإنسان أنا خلقناه من نطفة فإذا هو خصيم مبين - وقال تعالى أيعجب الإنسان أن يترك سدى ألم يك نطفة من منى ثم كان علقة مخلوق فسوى فجعل منه الزوجين الذكر والأنثى - فني خلق الأدمي مع كثرة عجائبه واختلاف تركيب أعضائه أعجيب تزيد على الأعاجيب منه وإعادته في فكيف ينكر ذلك من قدرة الله تعالى وحكمته من يشاهد ذلك في صنعه وقدرته فإن كان في إيمانك ضعف فقول الإيمان بالنظر في النشأة الأولى فإن الثانية مثلاً وأسهل منها وإن كنت قوى الإيمان بها فأشعر قلبك تلك المخاوف والأخطار وأكثر فيها التفكير والاعتبار لتسلب عن قلبك الراحة والقرار فتشتغل بالتشمر للعرض على الجبار وتفكر أولاً فيما يقرع مع سكان القبور من شدة نفخ الصور فإنها صيحة واحدة تنفجر بها القبور عن رءوس الموتى فيثورون دفعة واحدة فتوهم نفسك وقد وثبت متغيراً وجهك متغيراً بدنك من فرقك إلى قبلك من رباب قبرك مبهوتا من شدة الصمقة شاخص العين نحو النداء وقد ثار الخلق ثورة واحدة من القبور التي طال فيها بلاؤهم وقد أزهجهم الفزع والروع مضافاً إلى ما كان عندهم من المموم والغموم وشدة الانتظار لعاقبة الأمر كما قال تعالى - ونفخ في الصور فصعق من في السموات ومن في الأرض إلا من شاء الله ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - وقال تعالى - فإذا قرأ في الناقور فذلك يومئذ يوم عسير على السكاقرين غير يسير - وقال تعالى - ويقولون متى هذا الوعد إن كنتم صادقين ما ينظرون إلا صيحة واحدة تأخذهم وهم يخصمون فلا يستطيعون توصية ولا إلى أهلهم يرجعون ونفخ في الصور فإذا هم من الأجداث إلى ربهم ينسلون قالوا يا ويلنا من بهتنا من مرقدنا هذا ما وعد الرحمن وصدق المرسلون - فلم يكن بين يدي الموتى إلا هول تلك النفخة لكان ذلك جديراً بأن يتقي فإنها نفخة وصيحة يصعق بها من في السموات والأرض يعني يموتون بها إلا من شاء الله وهو بعض الملائكة ولذلك قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « كيف أنعم وصاحب الصور قد التقم القرن وحنى الجبهة

(١) حديث قال الله تعالى شتمني ابن آدم وما ينبغي له أن يشتمني وما ينبغي له أن يكذبني الحديث البخاري من حديث أبي هريرة .

من القرآن من السبع إلى الجميع إلى أقل أو أكثر كيف أمكن ولا يصنى إلى قول من يقول ملازمة ذكر واحد أفضل من تلاوة القرآن فإنه يحذف تلاوة القرآن في الصلاة وفي غير الصلاة جميع ما يستغنى بتوفيق الله تعالى وإنما اختار بعض الشايع أن يديم الريد ذكرًا واحدًا ليجتمع المم فيه ومن لازم التلاوة في الخلوة وتمسك بالوحدة تنفيده التلاوة والصلاة أو في ما يفيد الذكر الواحد فإذا سئم في بعض الأحيان يصانع النفس على الذكر تصانعة وينزل من التلاوة

وأصغى بالأذن ينتظر متى يؤمر فينفخ (١) « قال مقاتل : الصور هو القرن وذلك أن إسرئيل عليه السلام وضع يده على القرن كبشة اليوق ودائرة رأس القرن كقرص السموات والأرض وهو شاخص بصره نحو العرش ينتظر متى يؤمر فينفخ النفخة الأولى فإذا نفخ صفق من في السموات والأرض أي مات كل حيوان من شدة الفزع إلا من شاء الله وهو جبريل وميكائيل وإسرئيل وملك الموت ثم يأمر ملك الموت أن يقبض روح جبريل ثم روح ميكائيل ثم روح إسرئيل ثم يأمر ملك الموت فيموت ثم يابث الخلق بعد النفخة الأولى في البرزخ أربعين سنة ثم يحيي الله إسرئيل فيأمره أن ينفخ الثانية فنكف قوله تعالى - ثم نفخ فيه أخرى فإذا هم قيام ينظرون - على أرجلهم ينظرون إلى البعث وقال صلى الله عليه وسلم « حين يبعث إلى يبعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى ينتظر متى يؤمر بالنفخ ألا فأتقوا النفخة (٢) » فنفكر في الخلائق وذلمم وانكسارهم واستكاثهم عند الانبعاث خوفا من هذه الصعقة وانتظارا لما يقضى عليهم من معادة أو شقاوة وأنت فيما بينهم منكسر كانكسارهم متحيرا كتحيرهم بل إن كنت في الدنيا من الترفين والأغنياء للتمتعين فملوك الأرض في ذلك اليوم أدل أهل أرض الجمع وأصغرهم وأحقهم يوطشون بالأقدام مثل الدار وعند ذلك تقبل الوحوش من البراري والجبال منكسة رهوسها مختلطة بالخلائق بعد توحشها ذليلة ليوم التشور من غير خطيئة تدنس بها ولكن حشرتهم شدة الصعقة وهول النفخة وشغلهم ذلك عن الحرب من الخلق والتوحش منهم وذلك قوله تعالى - وإذا الوحوش حشرت - ثم أبليت الشياطين للردة بعد تمردها وعتوها وأذعنت خاشعة من هبة العرش على الله تعالى تصديقا لقوله تعالى - فو ربك لنحشرنهم والشياطين ثم لنحضرنهم حول جهنم جثيا - فنفكر في حالك وحال قايتك هناك .

### ( صفة أرض المحشر وأهله )

ثم النظر كيف يساقون بعد البعث والنشور حفاة عراة غرلا إلى أرض المحشر أرض بيضاء قاع مصف لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ولا ترى عليها قوة يخفى الإنسان ورامها ولا وهدة ينخفض عن الأعين فيها بل هو صعيد واحد بسيط لا تفاوت فيه يساقون إليه زمرا فصباحا من جمع الخلائق على اختلاف أصنافهم من أنظار الأرض إذ ساقهم بالراجفة تتبعها الرادفة والراجفة هي النفخة الأولى والرادفة هي النفخة الثانية وحقيق لتلك القلوب أن تكون يومئذ واجفة وتلك الأبصار أن تكون خاشعة قال رسول الله صلى الله عليه وآله وسلم « يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها ماء لم لأحد (٣) »

(١) حديث كيف أنعم وصاحب الصور قد التزم القرن وحتى الجهة الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن ورواه ابن ماجه بلفظ إن صاحبي القرن بأيديهما أو في أيديهما قرآن يلاحظان النظر متى يؤمران وفي رواية ابن ماجه الحجاج بن أرطاة مختلف فيه (٢) حديث حين يبعث إلى يبعث إلى صاحب الصور فأهوى به إلى فيه وقدم رجلا وآخر أخرى الحديث لم أجده هكذا بل قد ورد أن إسرئيل من حين ابتداء الخلق وهو كذلك كما رواه البخاري في التاريخ وأبو الشيخ في كتاب العظمة من حديث أبي هريرة إن الله تبارك وتعالى لما فرغ من خلق السموات والأرض خلق الصور فأعطاه إسرئيل فهو واضمه على فيه شاخص بصره إلى العرش ينتظر متى يؤمر قال البخاري ولم يصح وفي رواية لأبي الشيخ ما طرف صاحب الصور مذ وكل به مستعد ينظر نحو العرش مخافة أن يؤمر قبل أن يرتد إليه طرفه كأن عينه كوكبان دريان وإسناده جيد (٣) حديث يحشر الناس يوم القيامة على أرض بيضاء عفراء كقرص النقي ليس فيها ماء لم لأحد

إلى الله كره فانه أخف على النفس وينبغي أن يعلم أن الاعتبار بالقلب فكل عمل من تلاوة وصلاة وذكر لا يجمع فيه بين القلب واللسان لا يستد به كل الاستعداد فانه عمل ناقص ولا يحشر الوساوس وحديث النفس فانه مضروداه عزال فيطالب نفسه أن تصبر في تلاوته معنى القرآن مكان حديث النفس من باطنه فكما أن التلاوة على اللسان هو مشتمل بها ولا يمزجها بكلام آخر هكذا يكون معنى القرآن في القلب لا يمزجه بحديث النفس وإن كان أعجميا لا يعلم

قال الراوى : والعفرة بياض ليس بالناصع والنقى هو النقى عن القشر والنخالة ومعلم أى لانباء يستر ولا تفتاوت برد البصر ، ولا تظن أن تلك الأرض مثل أرض الدنيا بل لاتساويها إلا في الاسم قال تعالى - يوم تبدل الأرض غير الأرض والسماوات - . قال ابن عباس : يزداد فيها وينقص وتذهب أشجارها وجبالها وأوديتها وما فيها وتمدد الأديم العكاظى أرض بياض مثل الفضة لم يسفك عليها دم ولم يعمل عليها خطيئة والسماوات تذهب شمسهما وقررها ونجومها فانظر يامسكين في هول ذلك اليوم وشدة فانه إذا اجتمع الخلائق على هذا الصعيد تثار من فوقهم نجوم السماء وطمس الشمس والقمر وأظلمت الأرض لحدود سراجها فينهم كذلك إذ دارت السماء من فوق رؤسهم وانشقت مع غلظها وشدها خمسة عام والملائكة قيام على حافات وأرجائها فياهول صوت انشاقها في سمعك وياهيبة ليوم تنشق فيه السماء مع صلابتها وشدها ثم تنهار وتسيل كالفضة المذابة تغالطها صفرة فصارت وردة كالدهان وصارت السماء كاللؤلؤ وصارت الجبال كالعمن واشتبك الناس كالفرش الميثوث وهم حفاة عراة مشاة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان . قالت سودة زوج النبي صلى الله عليه وسلم راوية الحديث قلت يارسول الله واسوأناه ينظر بعضنا إلى بعض فقال شغل الناس عن ذلك بهم - لكل امرئ منهم يومئذ شأن يغنيه - (١) » فأعظم يوم تنكشف فيه العورات ويؤمن فيه مع ذلك النظر والاتفات كيف وبعضهم يمشون على بطونهم وجوههم فلا قدرة لهم على الالتفات إلى غيرهم قال أبو هريرة رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يحشر الناس يوم القيامة ثلاثة أصناف ركباناً ومشاة وعلى وجوههم فقال رسول الله وكيف يمشون على وجوههم ؟ قال الذى أمشاهم على أقدامهم قادر على أن يمشيهم على وجوههم (٢) » في طبع الأدمى إنكار كل مالم يأنس به ولو لم يشاهد الإنسان الحية وهى تمتشى على بطنها كالبرق الخاطف لأنكر تصور الشئ على غير رجل والشئ بالرجل أيضاً مستبعد عند من لم يشاهد ذلك فإياك أن تنكر شيئاً من عجائب يوم القيامة لحاقته قياس ما في الدنيا فانك لو لم تكن قد شاهدت عجائب الدنيا ثم عرضت عليك قبل المشاهدة لكنت أشد إنكاراً لها فأحضر في قلبك صورتك وأنت واقف عارياً مكشوفاً ذليلاً مدحوراً متعجراً مبهوتاً منتظراً لما يجرى عليك من القضاء بالسعادة أو بالشقاوة وأعظم هذه الحال فانها عظيمة .

### ( صفة العرق )

ثم تفكر في ازدحام الخلائق واجتماعهم حتى ازدحم على الموقف أهل السماوات السبع والأرضين السبع من ملك وجن وإنس وشیطان ووحش وسبع وطير فأشرقت عليهم الشمس وقد تضاعف حرها وتبدلت عما كانت عليه من خفة أمرها ثم أدنيت من رؤوس العالمين كقواب قوسين فلم يبق على الأرض ظل إلا ظل عرش رب العالمين ولم يمكن من الاستظلال به إلا القربون فمن بين مستظل بالعرش وبين مضح لحر الشمس قد صهرته بحرها واشتدكر به وغمهم من وهجها ثم تدافعت الخلائق ودفع

متفق عليه من حديث سهل بن سعد وفصل البخارى قوله ليس فيها معلم لأحد فجعلهم من قول سهل أو غيره وأدرجها مسلم فيه (١) حديث يبعث الناس حفاة عراة غرلا قد ألجمهم العرق وبلغ شحوم الآذان قالت سودة راوية الحديث واسوأناه الحديث الثعلبي والبقوى وهو في الصحيحين من حديث عائشة وهى القائلة واسوأناه ورواه الطبراني في الأوسط من حديث أم سلمة وهى القائلة واسوأناه (٢) حديث أبى هريرة يحشر الناس يوم القيامة ركباناً ومشاة على وجوههم الحديث رواه الترمذى وحسنه وفي الصحيحين من حديث أنس أن رجلاً قال يابى الله كيف يحشر الكافر على وجهه قال أليس الذى أمشاه على الرجلين في الدنيا قادر على أن يمشيه على وجهه يوم القيامة .

معنى القرآن يكون لمراقبة حلية باطنه فيشفل باطنه بمطالعة نظراً لله إليه مكان حديث النفس فان بالدوام على ذلك يصير من أبواب المشاهدة . قال مالك : قلوب الصديقين إذا سمعت القرآن طربت إلى الآخرة فليتمسك المرید بهذه الأصول وليستعن . بدوام الافتقار إلى الله فبذلك ثبات قدمه . قال سهل : على قدر لزوم الالتجاء والافتقار إلى الله تعالى يرف البلاء وعلى قدر معرفته بالبلاء يكون افتقاره إلى الله فدوام الافتقار إلى الله أصل كل خير

بعضهم بعضاً لشدة الزحام واختلاف الأقدام وانضاف إليه شدة الحجلة والحياة من الانتضاح والاختراء عند العرض على جبار السماء فاجتمع وهج الشمس وحر الأنفاس واحتراق القلوب بنار الحياة والخوف ففاض العرق من أصل كل شجرة حتى سال على صعيد القيامة ثم ارتفع على أبدانهم على قدر منازلهم عند الله فذهبهم بلغ العرق ركبته وبعضهم حقويه وبعضهم إلى شحمة أذنيه وبعضهم كاد يغيب فيه . قال ابن عمر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يوم يقوم الناس لرب العالمين - حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه <sup>(١)</sup> » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « يرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين باعوا يلجمهم ويلغ أذانهم <sup>(٢)</sup> » كذا رواه البخاري وسلم في الصحيح وفي حديث آخر « قياما شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء فيلجمهم العرق من شدة الكرب <sup>(٣)</sup> » وقال عقبة بن عامر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمن الناس من يبلغ عرقه عقبه ومنهم من يبلغ نصف ساقه ومنهم من يبلغ ركبته ومنهم من يبلغ نغذه ومنهم من يبلغ خاصرته ومنهم من يبلغ فاه ، وأشار يده فألجمها فاه ، ومنهم من يغطي العرق ، وضرب يده على رأسه هكذا <sup>(٤)</sup> » فتأمل يا مسكين في عرق أهل الحشر وشدة كربهم وفيهم من ينادى فيقول رب أرحنى من هذا الكرب والانتظار ولو إلى النار وكل ذلك ولم يلقوا بعد حسابا ولا عقابا فانك واحد منهم ولا تدري إلى أين يبلغ بك العرق . واعلم أن كل عرق لم يخرج التنب في سبيل الله من حج وجهاد وصيام وقيام وتردد في قضاء حاجة مسلم وتحمل مشقة في أمر معروف ونهى عن منكر فسيخرجه الحياة والخوف في صعيد القيامة ويطول فيه الكرب ولو لم يكن ابن آدم من الجهل والغرور لطم أن تعب العرق في تحمل مصائب الطاعات أهون أمرا وأقصر زمانا من عرق الكرب والانتظار في القيامة فانه يوم عظمة شدته طويلة مدته .

( صفة طول يوم القيامة )

يوم تقف فيه الخلائق شاحصة أبصارهم منفطرة قلوبهم لا يكلمون ولا ينظر في أمورهم بقفون ثلثائة عام لا يأكلون فيه أكلة ولا يشربون فيه شربة ولا يجدون في روح نسيم . قال كعب وقادة - يوم يقوم الناس لرب العالمين - قال يقومون مقدار ثلثائة عام بل قال عبد الله بن عمر وتلا رسول الله صلى الله عليه وسلم هذه الآية ثم قال « كيف بكم إذا جمعكم الله كما تجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم <sup>(٥)</sup> » وقال الحسن ما ظنك يوم قاموا فيه على أقدامهم مقدار خمسين ألف سنة

(١) حديث ابن عمر يوم يقوم الناس لرب العالمين حتى يغيب أحدهم في رشحته إلى أنصاف أذنيه متفق عليه (٢) حديث أبي هريرة يرق الناس يوم القيامة حتى يذهب عرقهم في الأرض سبعين ذراعا الحديث أخرجاه في الصحيحين كما ذكره المصنف (٣) حديث قياما شاحصة أبصارهم أربعين سنة إلى السماء يلجمهم العرق من شدة الكرب ابن عدى من حديث ابن مسعود وفيه أبو طيبة عيسى ابن سليمان الجرجاني ضعفه ابن معين وقال ابن عدى لا أظن أنه كان يعتمد الكذب لكن له تشبه عليه (٤) حديث عقبة بن عامر تدنو الشمس من الأرض يوم القيامة فيعرق الناس فمنهم من يبلغ عرقه عقبه الحديث رواه أحمد وفيه ابن لهيعة (٥) حديث ابن عمر وتلا هذه الآية يوم يقوم الناس لرب العالمين ثم قال كيف بكم إذا جمعكم الله كما يجمع النبل في الكنانة خمسين ألف سنة لا ينظر إليكم قلت إنما هو عبد الله بن عمرو رواه الطبراني في الكبير وفيه عبد الرحمن بن ميسرة ولم يذكر له ابن أبي حاتم راويا غير ابن وهب ولهم عبد الرحمن بن ميسرة الحضرى أربعة هذا أحدهم مصرى والثلاثة الآخرون شاميون .

ومفتاح كل علم دقيق في طريق التسوم وهذا الافتقار مع كل الأقداس لا ينشبت بحركة ولا يستقل بكلمة دون الافتقار إلى الله فيها وكل كلمة وحركة خلعت عن مراجعة الله والافتقار فيها لا تعقب خيرا قطعا علما ذلك ونحفظناه . وقال سهل من اتقى من نفس إلى نفس من غير ذكر فقد ضيع حاله وأدى ما يدخل على من ضيع حاله دخوله فيها لا يعنيه وتركه ما بينه . وبلغنا أن حسان بن سنان قال ذات يوم لمن عنده الهدى ثم رجس إلى

لا يأكلون فيها أكلة ولا يشربون فيها شرربة حتى إذا انقطعت أعناقهم عطشا واحترقت أجوافهم جوعا انصرف بهم إلى النار فسقوا من عين آتية قد آن حرها واشتد لقمها فلما بلغ المجهود منهم ما لا طاقة لهم به كلم بعضهم بضاً في طلب من يكرم على مولاه ليشفع في حقهم فلم يتعلقوا بنبي إلا دفعهم وقال دعوني نفسي نفسي غفلي أمري عن أمر غيبي واعتذر كل واحد بشدة غضب الله تعالى وقال قد غضب اليوم ربنا غضباً لم يغضب قبله مثله ولا ينضب بعده مثله حتى يشفع نبينا صلى الله عليه وسلم لمن يؤذن له فيه - لا يملكون الشفاعة إلا من أذن له الرحمن ورضي له قولا - فتأمل في طول هذا اليوم وشدة الانتظار فيه حتى يخف عليك انتظار الصبر عن العاصي في عمره المختصر . واعلم أن من طال انتظاره في الدنيا للموت لشدة مقاساته للصبر عن الشهوات فإنه يقصر انتظاره في ذلك اليوم خاصة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما سئل عن طول ذلك اليوم فقال «والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا» (١) فاجتهد أن تكون من أولئك المؤمنين فإدام بقاءك في ذلك نفس من عمره فالأمر إليك والاستعداد بيدك فاعمل في أيام قصار لأيام طوال ترج ربحاً لا تنتهي لسروره واستحق عمره بل عمر الدنيا وهو سبعة آلاف سنة فانك لو صبرت سبعة آلاف سنة مثلاً لتخلص من يوم مقداره خمسون ألفاً لكان ربحك كبيراً وتعبك يسيراً .

(صفة يوم القيامة ودواهيه وأساميه)

فاستعد يا مسكين لهذا اليوم العظيم شأنه للديد زمانه القاهرة سلطانه القريب أوانه ، يوم ترى السماء فيه قد انقطرت ، والسكوا كب من هولاء قد انتثرت ، والنجوم الزواهر قد انكدرت ، والشمس قد كورت ، والجبال قد سيرت ، والعشار قد عطلت ، والوحوش قد حشرت ، والبحار قد سحرت ، والنفوس إلى الأبدان قد زوجت ، والجحيم قد سمرت ، والجنة قد أزلت ، والجبال قد نسفت ، والأرض قد مدت ، يوم ترى الأرض قد زلزلت فيه زلازلهاء ، وأخرجت الأرض أنعامها ، يومئذ يصدر الناس اثنتان ليروا أعمالهم ، يوم تحمل الأرض والجبال فدكتا دكة واحدة ، فيومئذ وقعت الواقعة وانشقت السماء فهي يومئذ واهية ، والملك على أرجائها ، وعمل عرش بك فوقهم يومئذ ثمانية يومئذ تعرضون لا تخفى منكم خافية ، يوم تسير الجبال وترى الأرض بارزة ، يوم ترج الأرض فيه رجا وتبس الجبال بسا فكانت هباء منبثا ، يوم يكون الناس كالفرأش البثوث وتكون الجبال كالهن النفوش ، يوم تذهل فيه كل مرضعة عما أرضعت وتضع كل ذات حمل حملها وترى الناس سكارى وما هم بسكارى ولكن عذاب الله شديد ، يوم تبدل الأرض غير الأرض والسموات وبرزوا لله الواحد القهار ، يوم تنسف فيه الجبال نسفا فترك قاعا منصفا لا ترى فيها عوجا ولا أمنا ، يوم ترى الجبال تحسبها جامدة وهي تمر مر السحاب ، يوم تنشق فيه السماء فتكون وردة كالدهان ، فيومئذ لا يسئل عن ذنبه إنس ولا جان ، يوم يمنع فيه العاصي من الكلام ولا يسئل فيه عن الإجماع بل يؤخذ بالنواصي والأقدام ، يوم تجد كل نفس ما عملت من خير محضرا وما عملت من سوء تود لو أن بينها وبينه أمدا بعيدا ، يوم تعلم فيه كل نفس ما أحضرت وتشهد ما قدمت وأخرت يوم تنفخ فيه الألسن

(١) حديث سئل عن طول ذلك اليوم فقال والذي نفسي بيده إنه ليخفف على المؤمن حتى يكون أهون عليه من الصلاة المكتوبة يصلحها في الدنيا أبو يولي والبيهقي في الشعب من حديث أبي سعيد الخدري وفيه ابن لهيعة وقد رواه ابن وهب عن عمرو بن الحارث بدل ابن لهيعة وهو حسن ولأبي يعلى من حديث أبي هريرة بإسناد جيد يهون ذلك على المؤمن كتندي الشمس للغروب إلى أن تغرب ورواه النسائي في الشعب إلى أن قال أنه رفعه بإفظ إن الله ليخفف على من يشاء من عباده طوله كوقت صلاة مفروضة .

نفسه وقال نالني وهذا السؤال وهل هذه إلا كلمة لا تمنيني وهل هذا إلا لاستيلاء نفسي وقلة أدبها وإلى نفسي أنه أن يصوم سنة كفارة لهذه الكلمة فيصدق نالوا ما نالوا وبقوة العزائم عزائم الرجال بلغوا ما بلغوا . أخبرنا أبو زرعة بإجازة قال أنا أبو بكر بن خلف قال أنا أبو عبد الرحمن قال سمعت منصورا يقول سمعت أبا عمرو الأعماسي يقول سمعت الجنيد يقول لو أقبل صادق على الله ألف سنة ثم أعرض عنه لحظة لكان ما فاتته من الله أكثر مما سألناه وهذه

وتتطرق الجوارح يوم شيب ذكره سيد المرسلين إذ قال له الصديق رضى الله عنه : أراك قد شبت يا رسول الله قال « شيتنى هود وأخواتها »<sup>(١)</sup> وهى الواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت؛ فيا أيها القارئ العاجز إنما حظك من قراءة ذلك أن تجمع القرآن وتحرك به اللسان ولو كنت متفكرا فيما تقرأه لكنت جديرا بأن تنشق مرارتك عما شاب منه شعر سيد المرسلين وإذا قنعت بحركة اللسان افتقد حرمت ثمرة القرآن فالقيامة أحد ما ذكر فيه وقد وصف الله بعض دواهيها وأكثرها من أساميها لتقف بكثرة أساميها على كثرة معانيها فليس المقصود بكثرة الأسامي تكرير الأسامي والألقاب بل الفرض تنبيه أولى الألباب فتحت كل اسم من أسماء القيامة سر وفي كل نعمت من نعمتها معنى فاحرص على معرفة معانيها ونحن الآن نجمع لك أساميا . وهى : يوم القيامة ويوم الحسرة ويوم الندامة ويوم الحاسبة ويوم المسألة ويوم المسابقة ويوم المناقشة ويوم النافسة ويوم الرزقة ويوم الدسمة ويوم الساعة ويوم الواقعة ويوم القارعة ويوم الراجفة ويوم الرادفة ويوم العاشية ويوم الداهية ويوم الآزفة ويوم الحاقة ويوم الطامة ويوم الصاخة ويوم التلاق ويوم الفراق ويوم اللحاق ويوم القصاص ويوم التناد ويوم الحساب ويوم اللآب ويوم العذاب ويوم الفرار ويوم القرار ويوم اللقاء ويوم البقاء ويوم القضاء ويوم الجزاء ويوم البلا ويوم البكاء ويوم الحشر ويوم الوعيد ويوم العرض ويوم الوزن ويوم الحق ويوم الحكم ويوم الفصل ويوم الجمع ويوم البعث ويوم الفتح ويوم الخزي ويوم عظيم ويوم عقيم ويوم عسير ويوم الدين ويوم اليقين ويوم النشور ويوم المصير ويوم النفخة ويوم الصيحة ويوم الرجفة ويوم الرجة ويوم الزجرة ويوم السكرة ويوم الفزع ويوم الجزع ويوم النهى ويوم التأوى ويوم الميقات ويوم اليعاد ويوم الرصاد ويوم القلق ويوم العرق ويوم الانتار ويوم الانكدار ويوم الانتشار ويوم الانشقاق ويوم الوقوف ويوم الخروج ويوم الخلود ويوم التغابن ويوم عبوس ويوم معلوم ويوم موعود ويوم مشهود ويوم لا ريب فيه ويوم تبلى السرائر ويوم لا تجزى نفس عن نفس شيئا ويوم تشخص فيه الأبصار ويوم لا ينفع مولى عن مولى شيئا ويوم لا تملك نفس لنفس شيئا ويوم يدعون إلى نار جهنم دعا ويوم يسحبون فى النار على وجوههم ويوم تقلب وجوههم فى النار ويوم لا يجزى والد عن ولده ويوم يفر المرء من أخيه وأمه وأبيه ويوم لا ينطقون ولا يؤذن لهم فيعتذرون يوم لا مرد له من الله يوم هم بارزون يوم هم على النار يفتنون يوم لا ينفع مال ولا بنون يوم لا تنفع الظالمين معذرتهم ولهم الأمانة ولهم سوء الدار يوم تردفهم العاذر وتبلى السرائر وتظهر الضمائر وتكشف الأستار يوم تخشع فيه الأيصار وتسكن الأصوات ويقل فيه الالتفات وتبرز الخفيات وتظهر الخطيئات يوم يساق العباد ومعهما الشهداء وشيب الصغير ويسكر الكبير فيومئذ وضعت الموازين ونشرت الدواوين وبرزت الجحيم وأغلى الجحيم وزفرت النار ويشس الكفار وسمرت النيران وتغيرت الألوان وخرس اللسان ونطقت جوارح الانسان فيا أيها الانسان ما غرك بربك الكريم حيث أغلقت الأبواب وأرخت السُّور واستترت عن الخلائق قمارفت الفجور فماذا تفعل وقد شهدت عليك جوارحك كل لويل كل لويل لنا معاشر الغافلين يرسل الله لنا سيد المرسلين وينزل عليه الكتاب المبين ويخبرنا بهذه الصفات من نعوت يوم الدين ثم يعرفنا غفلتنا ويقول - اقتراب للناس حسابهم وهم فى غفلة معرضون ما يأتيهم من ذكر من ربهم محدث إلا استمعوه وهم يلعبون لاهية قلوبهم - ثم يعرفنا قرب القيامة فيقول اقتربت الساعة

الجملة يحتاج البدنى أن يحكمها والنهسى عالم بها عامل بحقائقها فالمتسدى صادق والنهسى صديق قال أبو سعيد القرنى الصادق الذى ظاهره مستقيم وباطنه يعيل أحيانا إلى حفظ النفس وعلامته أن يجد الخلاوة فى بعض الطاعة ولا يجدها فى بعض وإذا اشتغل بالله كثر نور الروح وإذا اشتغل بمحظوظ النفس يحجب عن الأذكار والصدى الذى استقام ظاهره وباطنه سبب الله تعالى بتسلوئ الأحوال لا يجيبه عن الله وعن الأذكار أكل

(١) حديث شيتنى هود والواقعة والمرسلات وعم يتساءلون وإذا الشمس كورت الترمذى وحسنه والحاكم وصححه وقد تقدم .



وانشق القمر - إنهم يرونه بعيدا ويراها قريبا - وما يدريك لعل الساعة تكون قريبا ثم يكون أحسن أحوالنا أن نتخذ دراسة هذا القرآن عملا فلا تتدبر معانيه ولا تنظر في كثرة أوصاف هذا اليوم وأساميهِ ولا نستعد لتخلص من دواهيهِ فتموذ بالله من هذه الغفلة إن لم يداركنا الله بواسع رحمته.

(صفة الساءة)

ثم تفكر يا مسكين بعد هذه الأحوال فيما يتوجه عليك من السؤال شفاها من غير ترجمان فتسئل عن القليل والكثير والتغير والعطير فبينما أنت في كرب القيامة وعرقها وشدة عذابها إذ نزلت ملائكة من أرجاء السماء بأجسام عظام وأشخاص ضخام غلاظ شداد أمروا أن يأخذوا بنواصي المهجرين إلى موقف العرض على الجبار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة مائة عام (١) » لما ظنك بنفسك إذا شاهدت مثل هؤلاء الملائكة أرسلوا إليك ليأخذوك إلى مقام العرض وتراهم على عظم أشخاصهم منكسرين لشدة اليوم مستشعرين مما بدا من غضب الجبار على عباده وعند نزولهم لا يبقى نبى ولا صديق ولا صالح إلا ويخرون لأذقانهم خوفا من أن يكونوا هم المأخوذون فهذا حال المقربين لما ظنك بالعصاة المهجرين وعند ذلك يدار أقوام من شدة الفزع فيقولون للملائكة أفكم ربنا وذلك لعظم موكبهم وشدة هيبتهم فتفزع الملائكة من سؤلهم إجلالا لحاقهم عن أن يكون فيهم فنادوا بأصواتهم منزهين لليكم عما توهمه أهل الأرض وقالوا سبحان ربنا ما هو فينا ولكنه آت من بعد وعند ذلك تقوم الملائكة صفحا محدقين بالخلائق من الجوانب وعلى جميعهم شعار الدل والخضوع وهيئة الخوف والهابة لشدة اليوم وعند ذلك يصدق الله تعالى قوله - فلنسلأن الذين أرسل إليهم ولنسلأن للرسلين فلنقصن عليهم بعلوما كنا غائبين - وقوله - فو ربك لنسلأنهم أجمعين عما كانوا يعملون - فيبدأ سبحانه بالأنبياء يوم يجمع الله الرسل فيقول ماذا أجبتم قالوا لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب - فيأشدة يوم تذهل فيه عقول الأنبياء وتنمحي علومهم من شدة الهيبة إذ يقال لهم ماذا أجبتم وقد أرسلتم إلى الخلائق وكانوا قد علموا قدهش عقولهم فلا يدرون بماذا يجيبون فيقولون من شدة الهيبة لا علم لنا إنك أنت علام الغيوب وهم في ذلك الوقت صادقون إذ طارت منهم العقول وانمحت العلوم إلى أن يقوبهم الله تعالى فيدعى نوح عليه السلام فيقال له هل بلغت فيقول نعم فيقال لأمته هل بلغكم فيقولون ما أئانا من نذير ويؤتى عيسى عليه السلام فيقول الله تعالى له أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي الهين من دون الله فيبقى متشحطا تحت هبة هذا السؤال سنين فيالعظم يوم تقام فيه السياسة على الأنبياء بمثل هذا السؤال ثم تقبل الملائكة فينادون واحدا واحدا يافلان بن فلانة هلم إلى موقف العرض وعند ذلك ترتعد الفرائس وتضطرب الجوارح وتبهت العقول ويتمنى أقوام أن يذهب بهم إلى النار ولا تعرض قبائح أعمالهم على الجبار ولا يكشف سترهم على ملائ الخلائق وقبل الابتداء بالسؤال يظهر نور العرش - وأشرفت الأرض بنور ربها - وأيقن قلب كل عبد باقبال الجبار لمسالة العباد وظن كل واحد أنه ما يراه أحد سواء وأنه المقصود بالأخذ والسؤال دون من عداه فيقول الجبار سبحانه وتعالى عند ذلك يا جبريل اتقنى بالنار فيجىء لها جبريل ويقول يا جبريل أجيبي خالقك ومليكك فيصادفهم جبريل على غيظها وغضبها فلم يلبث بعد ندائه أن ثارت وفارت وزفرت إلى الخلائق وشتمت وسمعت الخلائق تغيظها وزفيرها واتهضت خزنتها متوبهة إلى الخلائق غضبا على من عصى الله تعالى وخالف أمره فأخطر ببالك وأحضر في قلبك حالة قلوب العباد وقد امتلأت فزعا ورعبا فساقتوا على الركب

ولا نوم ولا شرب  
ولا طعام والصديق  
يريد نفسه لله وأقرب  
الأحوال إلى النبوة  
الصدقية . وقال  
أبو يزيد : آخر  
نهايات الصديقين أول  
درجة الأنبياء . واعلم  
أن أرباب النهايات  
استقامت بواطنهم  
وظواهرهم لله  
وأرواحهم خلصت  
عن ظلمات النفوس  
ووطئت بساط القرب  
وتسوسهم متقادة  
مطوعة صالحة مع  
القلوب مجيبة إلى كل  
ما تحيب إليه القلوب  
أرواحهم متعلقة  
بالمقام الأعلى انطفأت  
فيهم نيران الهوى  
وتخمر في بواطنهم

(١) حديث إن لله عز وجل ملكا مابين شفرى عينيه مسيرة خمسمائة عام لم أره بهذا اللفظ .

وولوا مدبرين - يوم ترى كل أمة جاثية - وسقط بعضهم على الوجوه منسكين وينادى الصاقي الظالمون بالويل والثبور وينادى الصديقون نفسى نفسى فبينما هم كذلك إذ زفرت النازر زفرتها الثانية فتضاعف خوفهم وتخاذلت قواهم وظنوا أنهم مأخوذون ثم زفرت الثالثة فساقط الحلائق على وجوههم وشخصوا بأبصارهم ينظرون من طرف خفى خاشع وانهمضت عند ذلك قلوب الظالمين فلبست الحناجر كاطمين وذهلت العقول من السمداء والأعقياء أجمعين وبعد ذلك أقبل الله تعالى على الرسل وقال ماذا أجيتم فإذا رأوا ما قد أقيم من السياسة على الأنبياء اشتد الفزع على العصاة فقر الوالد من ولده والأخ من أخيه والزوج من زوجته وبقي كل واحد منتظرا لأمره ثم يؤخذ واحد واحد فيسأله الله تعالى شفاها عن قليل عمله وكثيره وعن سره وعلايته وعن جميع جوارحه وأعضائه قال أبو هريرة « قالوا يا رسول الله هل ترى ربنا يوم القيامة فقال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب قالوا لا قال فهل تضارون في رؤية القمر ليلة البدر ليس دونه سحاب قالوا لا قال فوالله نفسى يده لا تضارون في رؤية ربكم فيلقى العبد فيقول له ألم أكرمك وأسودك وأزوجك وأسخر لك الحيل والابل وأذكرك ترأس وتربع فيقول العبد بلى فيقول أظننت أنك ملاقي فيقول لا فيقول فأنا أنساك كما نسيتنى (١) فتوهم نفسك يا مسكين وقد أخذت اللانكة بضديك وأنت واقف بين يدي الله تعالى يسألك شفاها فيقول لك ألم أنعم عليك بالشباب قويا ذا ألبية ألم أمهل لك في العمر قويا ذا أفتية ألم أرزقك المال فمن أين اكتسبته وفيا ذا أفتقته ألم أكرمك بالملم فإذا عملت فباعلت فكيف ترى حياتك وخجلتك وهو يعد عليك إنعامه ومعاصيك وأياديه ومساويك فان أسكرت شهدت عليك جوارحك - قال أنس رضي الله عنه « كنا مع رسول الله ﷺ فضحك ثم قال أتندرون ثم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه يقول يارب ألم تجرني من الظلم قال يقول بلى قال فيقول فاني لا أجزى على نفسى إلا شاهدا منى فيقول كفى بنفسك اليوم عليك حسيبوا بالكرام السكاكين شهودا قال فيحتم على فيه ويقال لأركانه انطق قال فتنطق بأعماله ثم يخلى بينه وبين الكلام فيقول لأعضائه بمدا لكن وسحقا فضكن كنت أنا ضل (٢) فتعذبوا به من الاتضاح على ملا الحاق بشهادة الأعضاء إلا أن الله تعالى وعد للؤمن بأن يستر عليه ولا يطلع عليه غيره . سأل ابن عمر رجل فقال له كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى فقال قال رسول الله ﷺ « يدنو أحدكم من ربه حتى يضع كنفه عليه فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم فيقول عملت كذا وكذا فيقول نعم ثم يقول إني سترتها عليك في الدنيا وإني أغفرها لك اليوم (٣) » وقد قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة (٤) » فهذا إغيار جى لعبد مؤمن ستر على الناس عيوبهم واحتمل في حق نفسه تقصيرهم ولم يحرك لسانه بذكر مساوئهم ولم يذكرهم في غيبهم عما يكرهون لو سمعوه فهذا جدير بأن يجازى بمثله في القيامة وهب أنه قد ستره عن غيرك ليس قد فرغ سمعك النداء إلى المعرض فيكفيك تلك الروعة جزاء عن ذنوبك إذ يؤخذ بناصيتك فتقاد وفؤادك مضطرب ولبك طائر وفرائصك مرتعدة وجوارحك مضطربة ولونك متغير والعالم عليك من عدة المول مظلم تقدر

صریح العلم وانكشف  
لم الآخرة كما قال  
رسول الله صلى الله  
عليه وسلم في حق أبي  
بكر رضي الله عنه « من  
أراد أن ينظر إلى ميت  
يتنوى على وجه الأرض  
فلينظر إلى أبي بكر »  
إشارة منه عليه  
الصلاة والسلام إلى  
ما كشف به من  
صریح العلم الذى  
لا يصل إليه عوام  
الؤمنين إلا بعد الموت  
حيث يقال فكشفنا  
عنك غطاءك فبصرك  
اليوم حديد - فأرباب  
النهايات ماتت أهولهم  
وخلصت أرواحهم .  
قال يحيى بن ماذوق  
سئل عن وصف  
العارف فقال رجل

(١) حديث أبي هريرة هل ترى ربنا يوم القيامة قال هل تضارون في رؤية الشمس في الظهيرة ليس دونها سحاب الحديث متفق عليه دون قوله فيلقى العبد الخ فانفرد به مسلم (٢) حديث أنس أتندرون ثم أضحك قلنا الله ورسوله أعلم قال من مخاطبة العبد ربه الحديث رواه مسلم (٣) حديث سأل ابن عمر رجل فقال كيف سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول في النجوى الحديث رواه مسلم (٤) حديث من ستر على مؤمن عورته ستر الله عورته يوم القيامة تقدم .

نفسك وأنت بهذه الصفة تتخطى الرقاب وتغرق الصفوف وتقاد كما تقاد الفرس المجنوب وقد رفع الخلائق إليك أبصارهم فزوم نفسك أنك في أيدي الوكيلين بك على هذه الصفة حتى انتهى بك إلى عرش الرحمن فرموك من أيديهم وناداك الله سبحانه وتعالى بعظيم كلامه يا ابن آدم أدن مني فدنوت منه بقلب خافق حمزون وجل وطرف خاضع ذليل وفؤاد منكسر وأعطيت كتابك الذي لا يغادر صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها فكم من فاحشة نسبتها فقد كرتها وكم من طاعة غفلت عن آفاتها فأنكشفت لك عن مساوئها فكم لك من خجل وجبن وكم لك من حصر وهجز فليت شعري بأي قدم تقف بين يديه وبأي لسان تجيب وبأي قلب تعقل ما تقول ثم تفكر في عظم حباثتك إذا ذكرك ذنوبك شفاها إذا يقول يا عبدي أما استحييت مني فبارزني بالقبيح واستحييت من خلقي فأظهرت لهم الجليل أ كنت أهون عليك من سائر عبادي استخفت بنظري إليك فلم تكترث واستعظمت نظر غيبي ألم أنعم عليك فإذا غرك بي أظننت أني لا أراك وأنتك لا تلتفتاني قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين ليس بينه وبينه حجاب ولا ترجمان» (١) وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ليقفن أحدكم بين يدي الله عز وجل ليس بينه وبينه حجاب فيقول له ألم أنعم عليك ألم أوتك مالا فيقول بلى فيقول ألم أرسل إليك رسولا فيقول بلى ثم ينظر عن يمينه فلا يرى إلا النار ثم ينظر عن شماله فلا يرى إلا النار فليتنق أحدكم النار ولو بشق تمرة فإن لم يجد فبكلمة طيبة» (٢) وقال ابن مسعود ما منكم من أحد إلا سيخبره الله عز وجل به كما يخبر أحدكم بالقر ليلة البدر ثم يقول يا ابن آدم ما غرك بي يا ابن آدم ما عملت فيما علمت يا ابن آدم ماذا أجبت المرسلين يا ابن آدم ألم أكن رقيبا على عينك وأنت تنظر بها إلى مالا يحل لك ألم أكن رقيبا على أذنك وهكذا حتى عد سائر أعضائه وقال مجاهد لا تزول قدما عبد يوم القيامة من بين يدي الله عز وجل حتى يسأله عن أربع خصال عن عمره فيما أفناه وعن عمله ما عمل فيه وعن جسده فيما أبلاه وعن ماله من أين اكتسبه وفماذا أنفق فاعظم يأمنك بين يديك عند ذلك ويخطر قلبك فانك بين أن يقال لك سترتها عليك في الدنيا وأنا أغفرها لك اليوم فند ذلك يعظم سرورك وفرحك وينبطك الأولون والآخرون وإما أن يقال له لا تسك خذوا هذا الصبد السوء فخلوه ثم ألجج صلوه وعند ذلك لو بكت السموات والأرض عليك لكان ذلك جديرا بعظم مصيبتك وشدة حسرتك على ما فرطت فيه من طاعة الله وعلى ما بعت آخرتك من دنيا دنيئة لم تبق معك.

## ( صفة اليزان )

ثم لا تنفل عن الفكر في اليزان وتطير الكتب إلى الأيمان والتمائل فإن الناس بعد السؤال ثلاث فرق فرقة ليس لهم حسنة فيخرج من النار عنق أسود فيلقطهم لقط الطير الحب وينطوى عليهم ويلقيهم في النار فتبتلهم النار وينادي عليهم شقاوة لا سمادة بعدها وقسم آخر لا سيئة لهم فينادى مناد ليقيم الحمدون لله على كل حال فيقومون ويسرحون إلى الجنة ثم يفعل ذلك بأهل قيام الليل ثم عن لم تشغلهم نجارة الدنيا ولا يعيها عن ذكر الله تعالى وينادي عليهم سعادة لا شقاوة بعدها وينتقى قسم ثالث وهم الأكثرون خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا وقد غنى عنهم ولا يغنى على الله تعالى أن الغالب حسنتهم أو سيئاتهم ولكن يأبى الله إلا أن يعرفهم ذلك ليعين فضلهم عند العفو وعده عند العقاب فتطير الصحف والكتب منطوية على الحسنات والسيئات وينصب اليزان وتشخص الأبصار إلى الكتب أ تقع في اليمن أو في الشمال ثم إلى لسان اليزان أي ميل إلى جانب السيئات أو إلى جانب الحسنات

(١) حديث ما منكم من أحد إلا ويسأله الله رب العالمين الحديث متفق عليه من حديث ابن عدي عن أبي حاتم بلفظ إلا سيكلهم الحديث (٢) حديث ليقفن أحدكم بين يدي الله تعالى ليس بينه وبينه ترجمان الحديث البخاري من حديث عدي بن حاتم .

مهم بأن منهم وقال  
مرة عبد كان فبان  
فأرباب النهايات هم  
عند الله بحقيقتهم  
معوقين بتوفيت الأجل  
جعلهم الله تعالى من  
جنوده في خلقه بهم  
يهدى وبهم يرشد  
وبهم يجذب أهل  
الارادة كلامهم دواء  
واظرم دواء ظاهرهم  
محفوظ بالحكم وباطنهم  
معمور بالمسلم . قال  
ذو النون علامة  
العارفين ثلاثة لا يطفىء  
نور معرفته نور ورعه  
ولا يستفقد باطننا من  
العلم ينقض عليه ظاهرا  
من الحكم ولا يجعله  
كثره نعم الله وكرامته  
على هتك أستار محارم  
الله فأرباب النهايات

وهذه حالة هائلة تطيش فيها عقول الخلائق . وروى الحسن « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان رأسه في حجر عائشة رضى الله عنها فنفس فذكرت الآخرة فبكت حتى سال دمعها فتقط على خد رسول الله صلى الله عليه وسلم فانتبه فقال ما يبكيك يا عائشة ؟ قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة قال والذي نفسي بيده في ثلاثة مواطن فإن أحدا لا يذكر إلا نفسه : إذا وضعت الموازين ووزنت الأعمال حتى ينظر ابن آدم أينخف ميزانه أم يثقل ، وعند الصحف حتى ينظر أيمنه يأخذ كتابه أو شماله ، وعند الصراط (١) . » وعن أنس « يؤتى بابن آدم يوم القيامة حتى يوقف بين كفتي الميزان ويؤكل به ملك فإن ثقل ميزانه نادى الملك بصوت يسمع الخلائق سمد فلان سعادة لا يشقى بعدها أبداً وإن خف ميزانه نادى بصوت يسمع الخلائق شقي فلان سعادة لا يسعد بعدها أبداً وعند خفة كفة الحسنات تقبل الزبانية وبأيديهم مقامع من حديد عليهم ثياب من نار فيأخذون نصيب النار إلى النار » قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في يوم القيامة « إنه يوم ينادى الله تعالى فيه آدم عليه السلام فيقول له قم يا آدم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعة وتسعون فلما سمع الصحابة ذلك أباسوا حتى ما أوضوا بضاحكة فلما رأى رسول الله صلى الله عليه وسلم ما عند أصحابه قال اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي محمد بيده إن معكم لحليقتين ما كانتا مع أحد قط إلا كثرتا مع من هلك من بني آدم وبني إبليس قالوا وما هما يا رسول الله ؟ قال يأجوج ومأجوج قال فسرى عن القوم فقال اعملوا وأبشروا فوالذي نفسي محمد بيده ما أتم في الناس يوم القيامة إلا كالشامة في جنب البعير أو كالرقعة في ذراع الدابة (٢) »

### (صفة الحصاء ورد المظالم)

قد عرفت هول الميزان وخطره وأن الأعين شاحصة إلى لسان الميزان - فأما من تقلت موازينه فهو في عيشة راضية وأما من خفت موازينه فألمة هاوية وما أدراك ما هي نار حامية - واعلم أنه لا ينجو من خطر الميزان إلا من حاسب في الدنيا نفسه ووزن فيها بميزان الشرع أعماله وأقواله وخطراته ولحظاته كما قال عمر رضى الله عنه : حاسبوا أنفسكم قبل أن تحاسبوا وزنوها قبل أن توزنوا وإنما حاسبه لنفسه أن يتوب عن كل معصية قبل الموت توبة نصوحا ولا يدرك ما فرط من تقصيره في فرائض الله تعالى ويرد للمظالم حبة بعد حبة ويستعمل كل من تعرض له بلسانه ويده وسوء ظنه بقلبه ويطيّب قلوبهم حتى يموت ولم يبق عليه مظلمة ولا فريضة فهذا يدخل الجنة بغير حساب وإن مات قبل رد المظالم أحاط به خصماؤه فهذا يأخذ بيده وهذا يقبض على ناصيته وهذا يتعلق بلبه هذا يقول ظلمتني وهذا يقول شتمتني وهذا يقول استهزأت بي وهذا يقول ذكرتني في الغيبة بما يسوءني وهذا يقول جاورتني فأسأت جوارى وهذا يقول عاملتني فشمشتني وهذا يقول أبائتني فعبتني وأخفيت عني عيب سلتك وهذا يقول كذبت في سمر

- (١) حديث الحسن أن عائشة ذكرت الآخرة فبكت الحديث وفيه فقال ما يبكيك يا عائشة قالت ذكرت الآخرة هل تذكرون أهليكم يوم القيامة الحديث أبو داود من رواية الحسن أنها ذكرت النار فبكت فقال ما يبكيك دون كون رأسه صلى الله عليه وسلم في حجرها وأنه نفس وإسناده جيد
- (٢) حديث يقول الله يا آدم قم فابست النار فيقول وكم بعث النار فيقول من كل ألف تسعمائة وتسعون وتسعون الحديث متفق عليه من حديث أبي سعيد الخدري ورواه البخاري من حديث أبي هريرة نحوه وقد تقدم .

كلما ازدادوا نعمة  
ازدادوا عبودية وكلما  
ازدادوا دنيا ازدادوا  
قربا وكلما ازدادوا  
جها ورفعة ازدادوا  
تواضعا وذلة - أدلة على  
الؤمنين أعزة على  
الكافرين - وكلما تناولوا  
شهوة من شهوات  
النفوس استخرجت  
منهم شكرا صافيا  
بتناولون الشهوات مرة  
رققا بالنفوس لأنها  
معهم كالطفل الذي  
يلطف بالشيء ويهدى  
له شيء لأنه مقهور  
تحت السياسة مرحوم  
ملطوف به وتارة  
يمنعون نفوسهم  
لشهووات تأسيا بالأنبياء  
واختيارهم التقليل من  
الشهووات الدنيوية قال

متاعك وهذا يقول رأيتني محتاجا وكنت غنيا لها أطعمتني وهذا يقول وجدته مظلوما وكنت قادرا على دفع الظلم عن فداهنت الظالم وما راعيتني ، فبينا أنت كذلك وقد أنشب الخصماء فيك محالهم وأحكوا في تلايبك أيديهم وأنت مبهوت متحير من كثرتهم حتى لم يبق في عمرك أحد عامله على درهم أو جالسته في مجلس إلا وقد استحق عليك مظلة بغية أو خيانة أو نظر بعين استحقار وقد ضعفت عن مقاومتهم ومددت عنق الرجاء إلى سيدك ومولاك لعله يخاضك من أيديهم إذ قرع صمك نداء الجبار جل جلاله - اليوم تجزى كل نفس بما كسبت لا ظلم اليوم - فخذ ذلك ينخلع قلبك من الهية وتوقن نفسك بالبور وتذكر ما أنذرك الله تعالى على لسان رسوله حيث قال - ولا تحبين الله غافلاً عما يعمل الظالمون إنما يؤخركم ليوم تشخص فيه الأبصار مهطعين مغنى رءوسهم لا يرتد إليهم طرفهم وأفئدتهم هواء وأنذر الناس الآلة فما أشد فرحك اليوم بتمضمضك بأعراض الناس وتناولك أموالهم وما أشد حسراتك في ذلك اليوم إذا وقف ربك على بساط العدل وشوقته بخطاب السياسة وأنت مغلس فقير عاجز مهين لا تقدر على أن ترد حقاً أو تظهر عذراً فخذ ذلك تؤخذ حسناتك التي تمبت فيها عمرك وتنقل إلى خصمائك عوضاً عن حقوقهم . قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « هل تدرون من ألقى الفلوس قلنا الفلوس فينا يا رسول الله من لا درهم له ولا دينار ولا متاع قال الفلوس من ألقى من يأتي يوم القيامة بصلاة وصيام وزكاة ويأتي وقد شتم هذا وقذف هذا وأكل مال هذا وسفك دم هذا وضرب هذا فيعطى هذا من حسناته وهذا من حسناته فإن فئت حسناته قبل أن يقضى ما عليه أخذ من خطاياهم فطرحت عليه ثم طرح في النار (١) » ، فانظر إلى مصيبتك في مثل هذا اليوم إذ ليس يملك لك حسنة من آفات الرياء ومكاييد الشيطان ، فإن سلمت حسنة واحدة في كل مدة طوية ابتدرها خصماؤك وأخذوها ، ولعلك لو حاسبت نفسك وأنت مواظب على صيام النهار وقيام الليل لعلت أنه لا ينقضى عنك يوم إلا ويجرى على لسانك من غيبة المسلمين ما يستوفي جميع حسناتك فكيف يبقية السيئات من أكل الحرام والشبهات والتقصير في الطاعات وكيف ترجو الخلاص من الظالم في يوم يقتص فيه للجماة من القراء ، فقد روى أبو ذر « أن رسول الله صلى الله عليه وسلم رأى شاتين ينتطحان فقال يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن الله يدري وسيقضى بينهما يوم القيامة (٢) » . وقال أبو هريرة في قوله عز وجل - وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم - إنه يحشر الخلق كلهم يوم القيامة البهايم والدواب والطيور وكل شيء فيبلغ من عدل الله تعالى أن يأخذ للجماة من القراء ثم يقول كوني تراباً فذلك حين يقول الكافر ياليتني كنت تراباً فكنت أنت يامسكين في يوم ترى صحيفتك خالية عن حسنات طال فيها تبك فتقول أين حسناتي فيقال نقلت إلى صحيفة خصمائك وترى صحيفتك مشحونة بسيئات طال في الصبر عنها نصبت واشتد بسبب الكف عنها عناؤك فتقول يارب هذه سيئات ما فارقتها قط فيقال هذه سيئات القوم الذين اغتبتهم وشتمتهم وقصدتهم بالسوء وظلمتهم في المباينة والمجاورة والمناظرة والمذاكرة والدارسة وسائر أصناف العامة .

(١) حديث أبي هريرة : هل تدرون من ألقى الفلوس ؟ قالوا الفلوس يا رسول الله من لا درهم له ولا متاع الحديث تقدم (٢) حديث : يا أبا ذر أتدرى فيم ينتطحان قلت لا قال ولكن ربك يدري وسيقضى بينهما أحمد من رواية أشياخ لم يسموا عن أبي ذر .

يحيى بن معاذ الدنيا عروس تطلبها ماشطتها والزاهد فيها يسخم وجهها وينتف شعرها ويحرق ثوبها والعارف بالله مشغل بسيدته ولا يلتفت إليها . واعلم أن المنتهى مع كمال حاله لا يستغنى أيضاً عن سياسة النفس ومنعها الشهوات وأخذ الحظ من زيادة الصيام والقيام وأنواع البر وقد غلط في هذا خلق وظنوا أن المنتهى استغنى عن الزيادات والنوافل ولا على قلبه من الاسترسال في تناول اللذات والشهوات وهذا خطأ لا من حيث إنه يحجب العارف عن معرفته ولكن

قال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الشيطان قد يش أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيريض منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات فاتقوا الظلم ما استطعتم فان العبد ليحیی يوم القيامة بأمثال الجبال من الطاعات فيرى أنهن سينجيه لما يزال عبد يحیی فيقول رب إن فلانا ظلمي بمظلمة فيقول أمح من حسناته لما يزال كذلك حتى لا يبقى له من حسناته شيء وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة من الأرض ليس معهم - حطب فتفرق القوم فخطبوا فلم يلبثوا أن أعظموا نارهم وصنعوا ما أرادوا (١) » وكذلك الذنوب « ولما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون - قال الزبير : يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا في الدنيا مع خواص الذنوب قال : نعم ليكررن عليكم حتى تؤدوا إلى كل ذي حق حقه (٢) » قال الزبير والله إن الأمر لشديد فأعظم بشدة يوم لا يسامح فيه بخطوة ولا يتجاوز فيه عن لطفة ولا عن كلمة حتى ينتقم للمظلوم من الظالم قال أنس سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « يحشر الله العباد عراة غير أنهم قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء ثم يناديهم ربهم تعالى بصوت يسمعه من بعد كما يسمعه من قرب أنا الملك أنا الديان لا ينبغي لأحد من أهل الجنة أن يدخل الجنة ولا أحد من أهل النار عليه مظلمة حتى أقضه منه ولا لأحد من أهل النار أن يدخل النار ولا أحد من أهل الجنة عنده مظلمة حتى أقضه منه حتى لاظلمة قلنا وكيف وإنما نأتى الله عز وجل عراة غير أنهم قال بالحسنات والسيئات (٣) » فاتقوا الله عباد الله وظالم العباد بأخذ أموالهم والتعرض لأعراضهم وتضييق قلوبهم وإساءة الخلق في معاشرتهم فإن ما بين العبد وبين الله خاصة فالمغفرة إليه أسرع ومن اجتمعت عليه مظالم وقد تاب عنها وعسر عليه استحلال أرباب المظالم فليكرم من حسناته ليوم القصاص وليس ببعض الحسنات بينه وبين الله بكال الإخلاص بحيث لا يطلع عليه إلا الله فمسا به يقربه ذلك إلى الله تعالى فينال به لطفه الذي ادخره لأحبابه المؤمنين في دفع مظالم العباد عنهم كما روى عن أنس عن رسول الله صلى الله عليه وسلم أنه قال « بيننا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذا بناه ضحك حتى بدت ثناياه فقال عمر ما يضحكك يا رسول الله بأني أنت وأمي قال رجلان من أمي جثا بين يدي رب العزة فقال أحدهما يا رب خذ لي مظمتي من أخى فقال الله تعالى أعطاك مظلمته فقال يا رب لم يبق من حسناتي شيء قال الله تعالى للطالب كيف تصنع ولم يبق من حسناته شيء قال يا رب يتحمل عني من أوزاري قال وفاضت عينا رسول الله صلى الله عليه وسلم بالبكاء ثم قال إن ذلك ليوم عظيم يوم يحتاج الناس إلى أن يحمل عنهم من أوزارهم قال فقال الله للطالب ارفع رأسك فانظر في الجنان فرفع رأسه فقال يا رب أرى مدائن من فضة

يوقف عن مقام الزيد وقوم لما رأوا أن هذه الأشياء لا تؤثر فيهم فسوة ولا نورهم حجة ركنوا إليها واسترسلوا فيها وقنعوا بأداء الفرائض واتسعوا في للأكل والشرب وهذا الانبساط منهم بقية من سكر الأحوال وتغير بنور الحال وعدم التخلص بالكلية إلى نور الحق ومن تخاف من نور

(١) حديث ابن مسعود إن الشيطان قد آيس أن تعبد الأصنام بأرض العرب ولكن سيريض منكم بما هو دون ذلك بالمحقرات وهي الموبقات الحديث وفي آخره وإن مثل ذلك مثل سفر نزلوا بفلاة الحديث رواه أحمد وأحمد والبيهقي في الشعب مقتصرًا على آخره إما كم ومحقرات الذنوب فانهن يجتمعن على الرجل حتى يهلكته وإن رسول الله صلى الله عليه وسلم ضرب لهن مثلا الحديث وإسناده جيد فأما أول الحديث فرواه مسلم مختصرا من حديث جابر إن الشيطان قد آيس أن يعبد المصلون في جزيرة العرب ولكن في التحريش بينهم (٢) حديث لما نزل قوله تعالى - إنك ميت وإنهم ميتون ثم إنكم يوم القيامة عند ربكم تختصمون قال الزبير يا رسول الله أكرر علينا ما كان بيننا الحديث أحمد واللفظ له والترمذي من حديث الزبير وقال حسن صحيح (٣) حديث أنس يحشر العباد عراة غير أنهم قال : قلنا ما بهما قال ليس معهم شيء الحديث فأتى من حديث أنس وإنا هو عبيد الله ابن أنس رواه أحمد بإسناد حسن وقال غرلا مكان غيرا .

مرغمة وقصورا من ذهب مكللة بالؤلؤ لؤلؤى نبى هذا أولى صدق هذا أولى شهيد هذا قال لمن أعطاني  
الغن قال يارب ومن يملك ثمنه قال أنت تملكه قال وما هو قال عفوك عن أخيك قال يارب إنى قد عفوت  
عنه قال الله تعالى خذ يد أخيك فأدخله الجنة ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم عند ذلك اتقوا الله  
وأصلحوا ذات بينكم فإن الله يصلح بين المؤمنين (١) وهذا تنبيه على أن ذلك إنما ينال بالخلق بأخلاق  
الله وهو إصلاح ذات البين وسائر الأخلاق فتذكر الآن في نفسك إن خلت محبتك عن الظالم أو تطف  
لك حق عفائك وأمنت بسعادة الأبد كيف يكون سرورك في منصرفك من مفصل القضاء وقد خلع  
عليك خلة الرضا وعدت بسعادة ليس بعدها شقاء وبنعيم لا يدور بهواضه الفناء وعند ذلك طار  
قلبك سرورا وفرحا وابتسج وجهك واستنار وأشرق كإشراق القمر ليلة البدر فتوهم بتجرك بين الخلائق  
رافضا رأسك خاليا عن الأوزار ظهرتك ونصرة نسيم النسيم وبرد الرضا تلا لآمن جبينك وخلق الأولين  
والآخرين ينظرون إليك وإلى حالك وينبطونك في حسنك وجمالك واللائكة يحشون بين يديك ومن  
خالقك وينادون على رموس الأشهداد هذا فلان بن فلان رضى الله عنه وأرضاه وقد سدد سعادته لا يشقى  
بعدها أبدا أقرى أن هذا للنصب ليس بأعظم من السكينة التى تنالها في قلوب الخلق في الدنيا بريائك  
ومداهنتك وتضمنك وتزينك فإن كنت تعلم أنه خير منه بل لانسبة له إليه فتوصل إلى إدراك هذه  
الربة بالاخلاص الصافي والنية الصادقة في معاملتك مع الله فإن تدرك ذلك إلا به وإن تسكن الأخرى  
والعياذ بالله بأن خرج من محبتك جريئة كنت تحسبها هينة وهى عند الله عظيمة ففتنك لأجلها فقال  
عليك لنتى يا عبد السوء لا تخجل منك عبادتك فلا تسمع هذا النداء إلا وبسود وجهك ثم تغضب  
للائكة تغضب الله تعالى فيقولون عليك لعنتنا ولعنة الخلائق أجمعين وعند ذلك تنال إليك الزبانية  
وقد غضبت لتغضب خالقها فأقدمت عليك بمظاظها وزعارتها وصورها المنكرة فأخذوا بناصيتك  
يسحبونك على وجهك على ملا الخلق وهم ينظرون إلى أسوداد وجهك وإلى ظهور خزيك وأنت  
تنادى بالويل والثبور وهم يقولون لك لا تدع اليوم ثورا واحدا وادع ثورا كثيرا وتنادى لللائكة  
ويقولون هذا فلان بن فلان كشف الله عن فضائحه وعجازه ولعنه بعبا مع مساويه فتشقى شقاوة لا يسد  
بعدها أبدا وربما يكون ذلك بذنب أذنبته خفية من عباد الله أو طابا للسكينة في قلوبهم أو خوفا من  
الافتضاح عندهم لما أعظم جهلك إذ تحتز عن الافتضاح عند طائفة يسيرة من عباد الله في الدنيا  
للتفرقة ثم لا تخشى من الافتضاح العظيم في ذلك الملا العظيم مع التمرض لسخط الله وعقابه الأليم والسياق  
بأيدي الزبانية إلى سواء الجحيم فهذه أحوالك وأنت لم تشعر بالخطر الأعظم وهو خطر الصراط .

( صفة الصراط )

ثم تفكر بعد هذه الأهوال في قول الله تعالى - يوم نحشر النقيين إلى الرحمن وفدا ونسوق المجرمين  
إلى جهنم وردا - وفي قوله تعالى - فاهدوهم إلى صراط الجحيم - وقوهم إنهم مسئولون - قال ناس بعد هذه  
الأهوال يساقون إلى الصراط وهو جسر محدود على متن النار أحد من السيف وأدق من الشعر فمن  
استقام في هذا العالم على الصراط المستقيم خف على صراط الآخرة ونجا ومن عدل عن الاستقامة في الدنيا  
وأثقل ظهره بالأوزار وعصى تشرى أول قدم من الصراط وتردى ففكر الآن فيما عمل من الفزع بخوادك  
إذا رأيت الصراط ودقته ثم وقع بصرك على سواد جهنم من تحتك ثم قرع سمك شقيق النار وتفيظها

(١) حديث أنس بنينا رسول الله صلى الله عليه وسلم جالس إذ رأينا ضحك حتى بدت ثناياه فقال  
عمر ما أضحكك يا رسول الله أبى وأمى قال رجلان من أمى جسيان يديرب العالمين الحديث بطوله  
ابن أبي الدنيا في حسن الظن بالله والحاكم في الاستدراك وقد تقدم .

الحال إلى نور الحق  
ينهب عنه بقايا  
السكر ويوقف نفسه  
مقام العبيد كأحد  
عوام المؤمنين يتقرب  
بالصلاة والصوم وأنواع  
البر حتى يطمأنة الأذى  
عن الطريق ولا  
يستكبر ولا يستكف  
أن يسود في صور  
عوام المؤمنين من  
إظهار الإرادة بكل  
بر وصلة فيتناول  
الشهوات وقتا رقنا

وفدكفت أن تمشي على الصراط مع ضعف حالك واضطراب قلبك وزلزل قدمك وثقل ظهرك بالأوزار  
السائلة لك عن المشي على بساط الأرض فضلا عن حدة الصراط فكيف بك إذا وضعت عليه  
إحدى رجليك فأحسست بحدته واضطربت إلى أن ترفع القدم الثانية والخلاتق بين يديك زلزون  
ويتعثرون وتتباولهم زبانية النار بالخطاطيف والكلايب وأنت تنظر إليهم كيف يتكسون فتسفل  
إلى جهة النار ردوسهم وتملأ أرجلهم فياله من منظر ما أفظمه ومترقى ما أصعبه وعجز ما أضيقه فانظر  
إلى حالك وأنت تزحف عليه وتصعد إليه وأنت مثقل الظهر بأوزارك تلتفت يمينا وشمالا إلى الخلق  
وهم يتهاقون في النار والرسول عليه السلام يقول «يا رب سلم سلم» والزغقات بالويل والثبور قد  
ارتفعت إليك من قعر جهنم لكثرة من زل عن الصراط من الخلّاتق فكيف بك لو زلت قدمك  
ولم ينفعك ندمك فنادت بالويل والثبور وقلت هذا ما كنت أخافه فياليتني قدمت لحياقي باليتني  
اتخذت مع الرسول سيلا يوليئني لم آخذ فلانا خليلا ياليتني كنت ترابا ياليتني كنت نسياما نسيا  
ياليت أُمِّي لم تلدني ، وعند ذلك تحتطفك النيران والعاذبات فينادي النادى اخسثوا فيها ولا تكلمون  
فلا يبقى سبيل إلا الصياح والأنين والتنفس والاستغاثة فكيف ترى الآن عقلك وهذه الأخطار  
بين يديك فإن كنت غير مؤمن بذلك فما أطول مقامك مع الكفار في دركات جهنم وإن كنت  
به مؤمنا وعنه غافلا وبلاستعداد له متهاونا فما أعظم خسارتك وطفيلتك وماذا ينفعك إيمانك إذا  
لم ينحك على السعي في طلب رضا الله تعالى بطاعته وترك معاصيه فلم يكن بين يديك إلا هول الصراط  
وارتياع قلبك من خطر الجواز عليه وإن سلمت فناهيك به هولا وفزعاً ورعباً قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم «يضرب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يحزن بأمتة من الرسل ولا يتكلم يومئذ  
إلا الرسل ودعوى الرسل يومئذ اللهم سلم اللهم سلم وفي جهنم كلاب مثل شوك السعدان هل رأيت  
شوك السعدان قالوا نعم يا رسول الله قال فأنها مثل شوك السعدان غير أنه لا يعلم قدر عظمها إلا الله تعالى  
تختطف الناس بأعمالهم فمنهم من يوق بماله ومنهم من يغردل ثم ينجو<sup>(١)</sup> وقال أبو سعيد الخدري  
قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يمر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب وخطاطيف  
تختطف الناس يمينا وشمالا وعلى جنبتيه ملائكة يقولون اللهم سلم اللهم سلم فمن الناس من يمر مثل البرق  
ومنهم من يمر كالريح ومنهم من يمر كالفرس المجري ومنهم من يسعى سعيًا ومنهم من يمشي مشيًا ومنهم من  
يعبو حبوا ومنهم من يزحف زحفا فأمّا أهل النار الذين هم أهالها فلا يموتون ولا يحبون وأما ناس  
فيؤخذون بذنوب وخطايا فيحترقون فيكونون لحما ثم يؤذن في الشفاعة<sup>(٢)</sup>» وذكر إلى آخر  
الحديث . وعن ابن مسعود رضى الله عنه أنه صلى الله عليه وسلم قال «يجمع الله الأولين والآخرين  
ليقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاخصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء» وذكر الحديث  
إلى أن ذكر وقت سجود المؤمنين قال «ثم يقول للمؤمنين ارفعوا رءوسكم فيرفعون رءوسهم فيعطى  
نورهم على قدر أعمالهم فمنهم من يعطى نوره مثل الجبل العظيم يسعى بين يديه ومنهم من  
يعطى نوره أصغر من ذلك ومنهم من يعطى نوره مثل النخلة ومنهم من يعطى نوره أصغر من  
ذلك حتى يكون آخرهم رجلا يعطى نوره على إبهام قدمه فيضي مرة ويخجو مرة فإذا أضاء  
قدم قدمه فمشى وإذا أظلم قام ثم ذكر مرورهم على الصراط على قدر نورهم فمنهم من

بالنفس المطهرة المزكاة  
للقادة الطواعة لأنها  
أسيرته وبعثها  
النسوات وقتا لأن  
في ذلك صلاحها  
واعتبر هذا سواء  
بحال الصبي فإنه إن  
جاوز حد الاعتدال  
من إعطاء المراد  
وقتا ومنه وقتا  
انفس طبعه لأن  
الجلبة لا بد من فهمها  
بسياسة العلم ومادامت  
الجلبة باقية لا بد من

(١) حديث ينصب الصراط بين ظهري جهنم فأكون أول من يحزن بأمتة من الرسل حديث أبي هريرة  
في أثناء حديث طويل (٢) حديث أبي سعيد يخبر الناس على جسر جهنم وعليه حسك وكلايب  
وخطاطيف الحديث متفق عليه مع اختلاف ألفاظ .



يمر كطرف العين ومنهم من يمر كالبرق ومنهم من يمر كالسحاب ومنهم من يمر كانهضاض السكواكب ومنهم من يمر كشدة الفرس ومنهم من يمر كشدة الرجل حتى يمر الذي أعطى نوره على إيمانهم قدمه يحبو على وجهه ويديه ورجليه تجر منه يد وتعلق أخرى وتعلق رجل وتجر أخرى وتصيب جوانبه النار قال فلا يزال كذلك حتى يخلص فإذا خلص وقف عليها ثم قال الحمد لله لقد أعطاني الله ما لم يعط أحدا إذ نجاني منها بعد إذ رأيتها فينطلق به إلى غدير عند باب الجنة فيقتل (١) » وقال أنس بن مالك سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول « الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة وإن اللائكة ينجون المؤمنين والمؤمنات وإن جبريل عليه السلام يأخذ بحجزتي وإنى لأقول يا رب سلم سلم فاللون والزلات يومئذ كثير (٢) » فهذه أهوال الصراط وعظائم فطوله فيه فكرك فان أسلم الناس من أهوال يوم القيامة من طال فيها فكره في الدنيا فان الله لا يجمع بين خوفين على عبد فن خاف هذه الأهوال في الدنيا أمنا في الآخرة ولست أعنى بالخوف رقة كركة النساء تدمع عينك وبرق قلبك حال السباع ثم تنسأ على القرب وتعود إلى لهوك ولعبك فماذا من الخوف في شيء بل من خاف شيئا هرب منه ومن رجا شيئا طلبه فلا ينجيك إلا خوف يمنعك عن معاصي الله تعالى ويعثك على طاعته وأبعدك من رقة النساء خوف الحق إذا سمعوا الأهوال سبق إلى ألسنتهم الاستعاذة فقال أحدهم استعذت بالله لنعوذ بالله اللهم سلم سلم وهم مع ذلك مصرون على المعاصي التي هي سبب هلاكهم فالشياطين يضحك من استعاذتهم كما يضحك على من يقصده سبع ضار في صحراء ووراء حصن فادارأي أذياب السبع وصولته من بعد قال بلسانه أعوذ بهذا الحصن الحصين وأسستين بشدة بنيانه وإحكام أركانه فيقول ذلك بلسانه وهو قاعد في مكانه فأنى ينفي عنه ذلك من السبع وكذلك أهوال الآخرة ليس لها حصن إلا قول لا إله إلا الله صادقا ومعنى صدقه أن لا يكون له مقصود سوى الله تعالى ولا معبود غيره ومن أعجز إله هو الله فهو بعيد من الصدق في توحيد وأمره محط في نفسه فان عجزت عن ذلك كله فكن محبا لرسول الله صلى الله عليه وسلم حريصا على تعظيم سنته ومشوقا إلى مراعاة قلوب الصالحين من أمتهم ومبتبرا بأدعيتهم فصاك أن تنال من شفاعته أو شفاعتهم فتنجو بالشفاعة إن كنت قليل البضاعة .

## ( صفة الشفاعة )

اعلم أنه إذا حق دخول النار على طوائف من المؤمنين فان الله تعالى يفضله قبل فيهم شفاعة الأنبياء والصديقين بل شفاعة العلماء والصالحين وكل من له عند الله تعالى جاه وحسن معاملة فان له شفاعة في أهله وقراته وأصدقائه ومعارفه فكن حريصا على أن تكتسب لنفسك عندهم رتبة الشفاعة وذلك بأن لا تحقر آدميا أصلا فان الله تعالى خبا ولايته في عباده قائل الذي تزدرب عينك هو ولي الله ولا تستصغر مصيبة أصلا فان الله تعالى خبا غضبه في معاصيه فلعل مقت الله فيه ولا تستحق أصلا طاعة فان الله تعالى خبا رضاه في طاعته فلعل رضاه فيه ولو الكلمة الطيبة أو الكلمة أو النية الحسنة أو ما يجري مجرا وشواهد الشفاعة في القرآن والأخبار كثيرة : قال الله تعالى - ولستوف يعطيك ربك فترضى -

(١) حديث ابن مسعود يجمع الله الأولين والآخرين لميقات يوم معلوم قياما أربعين سنة شاحصة أبصارهم إلى السماء ينتظرون فصل القضاء قال وذكر الحديث إلى ذكر سجود المؤمنين الحديث يطوله رواد ابن عدي والحاكم وقد تقدم بعضه مختصرا (٢) حديث أنس الصراط كحد السيف أو كحد الشعرة الحديث البيهقي في الشعب وقال هذا إسناد ضيف قال وروى عن زياد الخير عن أنس مرفوعا الصراط كحد الشعرة أو كحد السيف قال وهي رواية صحيحة انتهى ورواه أحمد من حديث عائشة وفيه ابن لهيعة .

سياسة المسلم وهذا  
باب غامض دخل  
في النهايات على المنتهى  
من ذلك ودخل ووقع  
الركون وانسد به  
باب الزيد فالمنتهى  
ملك ناصية الاختيار  
في الأخذ والترك ولا بد  
له من أخذ وترك  
في الأعمال والحظوظ  
ففي الأعمال لا بد له من  
أخذ وترك فتارة  
يأتي بالأعمال كأحد  
الصادقين وتارة يترك

روى عمرو بن العاص «أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه السلام - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى عليه السلام - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه وقال أمتي أمتي ثم بكى فقال الله عز وجل يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سرضيك في أمتك ولا نسوءك <sup>(١)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي نصرت بالرعب مسيرة شهر وأحللت لي القتائم ولم تحل لأحد قبلي وجعلت لي الأرض مسجداً وترابها طهوراً فأنا رجل من أمتي أدركته الصلاة فليصل وأعطيته الشفاعة وكل نبي بعث إلى قومه خاصة وبعثت إلى الناس عامة <sup>(٢)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر » وقال صلى الله عليه وسلم « أنا سيد ولد آدم ولا غفر وأنا أول من تنشق الأرض عنه وأنا أول شافع وأول مشفع يدي لواء الحمد تحت آدم فمن دونه <sup>(٣)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة <sup>(٤)</sup> » وقال ابن عباس رضي الله عنهما قال رسول الله ﷺ « ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقيمون منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً مخافة أن يبعث بي إلى الجنة وتبقى أمتي بعدي فأقول يا رب أمتي فيقول الله عز وجل يا محمد وما تريد أن أصنع بأمتك فأقول يا رب عجل حسابهم لنا أزال أشفع حتى أعطى صكاً كرجال قد بعث بهم إلى النار وحتى إن مالكا خازن النار يقول يا محمد مارتكت النار لنضرب ربك في أمتك من بقية <sup>(٥)</sup> » وقال صلى الله عليه وسلم « إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر <sup>(٦)</sup> » وقال أبو هريرة « أتى رسول الله صلى الله عليه وسلم بلحم فرفع إليه الذراع وكانت تصببه فقبض منها ثمشة ثم قال أنا سيد المرسلين يوم القيامة وهل تدرون مم ذلك يجمع الله الأولين والآخرين في صعيد واحد يسمعون الداعي وينفذهم البصر وتدنو الشمس فيبلغ الناس من النعم والكرب مالا يطيقون ولا يحتملون فيقول الناس

زيادة الأعمال رقماً  
بالنفس وتارة يأخذ  
الخطوط والشهوات رقماً  
بالنفس وتارة يتركها  
افتقاداً للنفس بحسن  
السياسة فيكون في  
ذلك كله مختاراً فمن  
ساكن ترك الخطوط  
بالكلية فهو زاهد  
تارك بالكلية ومن  
استمرسل في أخذها  
فهو راغب بالكلية  
والمتنهي شمل الطرفين  
فانه على غاية الاعتدال

(١) حديث عمرو بن العاص أن رسول الله صلى الله عليه وسلم تلا قول إبراهيم عليه وسلم - رب إنهن أضللن كثيرا من الناس فمن تبعني فإنه مني ومن عصاني فإنك غفور رحيم - وقول عيسى صلى الله عليه وسلم - إن تعذبهم فإنهم عبادك - ثم رفع يديه . ثم قال أمتي أمتي ثم بكى الحديث وفيه يا جبريل اذهب إلى محمد فقل له إنا سرضيك ولا نسوءك في أمتك قلت ليس هو من حديث عمرو بن العاص وإنما هو من حديث ابنه عبد الله بن عمرو بن العاص كما رواه مسلم ولعله سقط من الإحياء ذكر عبد الله من بعض النسخ (٢) حديث أعطيت خمساً لم يعطهن أحد قبلي الحديث وفيه وأعطيته الشفاعة متفق عليه من حديث جابر إذا كان يوم القيامة كنت إمام النبيين وخطيبهم وصاحب شفاعتهم من غير غفر الترمذي وابن ماجه من حديث أبي بن كعب قال الترمذي حسن صحيح (٣) حديث أنا سيد ولد آدم ولا غفر الحديث الترمذي وقال حسن وابن ماجه من حديث أبي سعيد الخدري (٤) حديث لكل نبي دعوة مستجابة فأريد أن أختبى دعوتي شفاعة لأمتي يوم القيامة متفق عليه من حديث أنس ورواه مسلم من حديث أبي هريرة (٥) حديث ابن عباس ينصب للأنبياء منابر من ذهب فيجلسون عليها ويقيمون منبري لا أجلس عليه قائماً بين يدي ربي منتصباً الحديث الطبراني في الأوسط وفي إسناده محمد بن ثابت البناني ضعيف (٦) حديث إني لأشفع يوم القيامة لأكثر مما طي وجه الأرض من حجر ومدر أحمد والطبراني من حديث مريدة بسند حسن .

بعضهم لبعض ألا ترون ما قد بانكم ألا تنظرون من يشفع لكم إلى ربكم فيقول بعض الناس لبعض عليكم  
بآدم عليه السلام فيأتون آدم فيقولون له أنت أبو البشر خلقك الله بيده ونفخ فيك من روحه وأمر  
اللائكة فسجدوا لك اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه ألا ترى ما قد بلغنا فيقول لهم آدم عليه السلام  
إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد نهاني عن الشجرة فصيته نفسي  
نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى نوح فيأتون نوحا عليه السلام فيقولون يانوح أنت أول الرسل  
إلى أهل الأرض وقد ممالك الله عبدا شكورا اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول إن ربي قد  
غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنه قد كانت لي دعوة دعوتها على قومي  
نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى إبراهيم خليل الله فيأتون إبراهيم خليل الله عليه السلام  
فيقولون أنت نبي الله وخليفه من أهل الأرض اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول لهم إن ربي  
قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولا يغضب بعده مثله وإنى كنت كذبت ثلاث كذبات  
ويذكرها نفسى نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى موسى فيأتون موسى عليه السلام فيقولون  
ياموسى أنت رسول الله فضلك برسائه وبكلامه على الناس اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول  
إن ربي قد غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله وإنى قتلت نفسا وأمر بقتلها نفسى  
نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى عيسى عليه السلام فيأتون عيسى فيقولون يا عيسى أنت رسول الله  
وكلته ألقاها إلى مريم وروح منه وكتب الناس في المهد اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فيقول عيسى  
عليه السلام إن ربي غضب اليوم غضبا لم يغضب قبله مثله ولن يغضب بعده مثله ولم يذكر ذنبا نفسى  
نفسى اذهبوا إلى غيرى اذهبوا إلى محمد صلى الله عليه وسلم فيأتون فيقولون يا محمد أنت رسول الله  
وخاتم النبيين وغفر الله لك ما تقدم من ذنبك وما تأخر اشفع لنا إلى ربك ألا ترى ما نحن فيه فأطلق  
فأتى تحت العرش فأقع ساجدا لربي ثم يفتح الله لى من محامده وحسن الثناء عليه شيئا لم يفتح على  
أحد قبل ثم يقال يا محمد ارفع رأسك سل تعط واشفع تشفع فأرفع رأسى فأقول أمى أمى يارب يقال يا محمد  
أدخل من أمتك من لا حساب عليهم من الباب الأيمن من أبواب الجنة وهم شركاء الناس فيما سوى ذلك من  
الأبواب ثم قال والذي نفسى بيده إن بين المصرعين من مصاريع الجنة كباين مكة وحجير أو كما بين مكة  
وبصرى (١) وفي حديث آخر هذا السياق بعينه مع ذكر خطايا إبراهيم وهو قوله في السكوا كب هذا ربي  
وقوله لألهمهم بل ضله كبيرهم هذا وقوله إنى سقيم فهذه شفاعرة رسول الله صلى الله عليه وسلم وآحاد أمته من  
الطهارة والصالحين شفاعرة أيضا حتى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم يدخل الجنة بشفاعرة رجل من أمتى  
أكثر من ربيعة ومضر (٢) وقال صلى الله عليه وسلم يقال للرجل قم يا فلان فاشفع في قوم الرجل فيشفع للقبيلة

(١) حديث أبي هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم أتى بلحم فرفع إليه الذراع وكان يعجبه فنهش منها  
نمشة ثم قال أنا سيد الناس الحديث بطوله في الشفاعة قال وفي حديث آخر هذا السياق مع ذكر خطايا  
إبراهيم متفق عليه وهذه الرواية الثانية أخرجهما مسلم (٢) حديث يدخل الجنة بشفاعرة رجل من  
أمتى أكثر من ربيعة ومضر رويناه في جزء أبي عمر بن السكك من حديث أبي أمامة إلا أنه  
قال مثل أحد الحيين ربيعة ومضر وفيه فكان الشيخة يرون أن ذلك الرجل عثمان بن عفان  
وإسناده حسن ولازمذى وابن ماجه والحاكم من حديث عبد الله بن أبي الجعداء يدخل الجنة  
بشفاعة الرجل من أمتى أكثر من بنى تميم قالوا سواك قال سواى قال الترمذى حسن صحيح وقال  
الحاكم صحيح قيل أراد بالرجل أويسا .

واقف على الصراط  
بين الافراط والتفريط  
فن ردت إليه  
الأقسام في النهاية  
فأخذها زاهدا في  
الزهد فهو تحت قهر  
الحال من ترك الاختيار  
وتارك الاختيار الوافق  
مع فعل الله تعالى مقيد  
بالحال وكأ أن الزاهد  
مقيد بالترك تارك  
الاختيار فكذلك  
الزاهد في الزهد الآخذ  
من الدنيا ماسيق إليه

ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله (١) « وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يا فلان هل تعرفني ؟ فيقول لا والله ما أعرفك من أنت ، فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة ماء فسقيتك قال قد عرفت قال فاشفع لي بها عند ربك فيسأل الله تعالى ذكره ويقول إني أشرفت على أهل النار فناداني رجل من أهلها فقال هل تعرفني ؟ فقلت لا من أنت ؟ فقال أنا الذي استسقيتني في الدنيا فسقيتك فاشفع لي عند ربك فشفعني فيه فيشفعه الله فيه فيؤمر به فيخرج من النار (٢) « وعن أنس قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا وأنا خطيبهم إذا وفدوا وأنا مبشرهم إذا يثسوا لواء الحمد يومئذ يدي وأنا أكرم ولد آدم على ربي ولا غفر (٣) « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إني أقوم بين يدي ربي عز وجل فأكسي حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن عيمن العرش ليس أحد من الخلائق يقوم ذلك المقام غيري (٤) « وقال ابن عباس رضى الله عنهما « جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم منهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا إن الله عز وجل اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليلا ، وقال آخر ماذا بأعجب من كلام موسى كله تكليما ، وقال آخر فعيسى كله الله وروحه ، وقال آخر آدم اصطفاه الله فخرج عليهم صلى الله عليه وسلم فلم وقال قد سمعت كلامكم وتمجيكم إن إبراهيم خليل الله وهو كذلك وموسى نجي الله وهو كذلك وعيسى روح الله وكلته وهو كذلك وآدم اصطفاه الله وهو كذلك ألا وأنا حبيب الله ولا غفر وأنا حامل لواء الحمد يوم القيامة ولا فخر وأنا أول شافع وأول مشفع يوم القيامة ولا فخر وأنا أول من يحرك خلق الجنة فيمنح الله لي فأدخلها ومعى قفراء المؤمنين ولا فخر وأنا أكرم الأولين والآخرين ولا فخر (٥) «

## (صفة الحوض)

اعلم أن الحوض مكرمة عظيمة خص الله بها نبينا صلى الله عليه وسلم وقد اشتملت الأخبار على وصفه ونحن نرجو أن يرزقنا الله تعالى في الدنيا علمه وفي الآخرة ذوقه فإن من صفاته أن من شرب منه لم يظم أبدا . قال أنس « أغنى رسول الله صلى الله عليه وسلم إغفاءة فرفع رأسه متبسما فقالوا له يا رسول الله لم ضحكك ؟ فقال آية أنزات على آفقا وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - حتى ختمها ثم قال هل تدرون ما الكوثر ؟ قالوا الله ورسوله أعلم قال إنه نهر وعديته

(١) حديث يقال للرجل قم يا فلان فاشفع فيقوم يشفع للقبيلة ولأهل البيت وللرجل والرجلين على قدر عمله الترمذي من حديث أبي سعيد إن من أمي من يشفع للقبائل ومنهم من يشفع للقبيلة الحديث وقال حسن وللبرار من حديث أنس إن الرجل ليشفع للرجلين والثلاثة (٢) حديث أنس إن رجلا من أهل الجنة يشرف يوم القيامة على أهل النار فيناديه رجل من أهل النار ويقول يا فلان هل تعرفني فيقول لا والله ما أعرفك من أنت فيقول أنا الذي مررت بي في الدنيا فاستسقيتني شربة فسقيتك الحديث في شفاعته فيه وإخراجه من النار أبو منصور الديلمي في مسند الفردوس بسند ضعيف (٣) حديث أنس أنا أول الناس خروجا إذا بعثوا الحديث الترمذي وقال حسن غريب (٤) حديث فأكسي حلة من حلال الجنة ثم أقوم عن عيمن العرش الحديث الترمذي من حديث أبي هريرة وقال حسن غريب صحيح (٥) حديث ابن عباس جلس ناس من أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم ينتظرونه فخرج حتى إذا دنا منهم منهم يتذاكرون فسمع حديثهم فقال بعضهم عجبا إن الله اتخذ من خلقه خليلا اتخذ إبراهيم خليل الله الحديث رواه الترمذي وقال غريب .

لرويته فعل الله مقيدا بالأخذ وإذا استقرت النهاية لا يتقيد بالأخذ ولا بالترك بل يترك وقتا واختياره من اختيار الله ويأخذ وقتا واختياره من اختيار الله وهكذا صومه النافلة وصلاته النافلة يأتي بها وقتا ويسمح للنفس وقتا لأنه مختار صحيح في الاختيار في الحالين وهذا هو الصحيح ونهاية النهاية وكل حال يستقر

ربى عز وجل في الجنة عليه خير كثير عليه حوض ترد عليه أمتي يوم القيامة آتيته عدد نجوم السماء (١) وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «بيننا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب التؤلؤ المجووف قلت ماهذا يا جبريل قال هذا الكوثر الذي أعطاك ربك فضرب الملك يده فاذا طينه مسك أذفر (٢) وقال كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان (٣) وروى ابن عمر «أنه لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرا به أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل التؤلؤ والرجان (٤) وقال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء من شرب منه شربة لم يظلمأ بعدها أبدا أو كره الناس ورودا عليه قراءه الهاجرين فقال عمر بن الخطاب ومن ثم يارسل الله قال ثم الشمت رومسا الدنيس ثيابا الذين لا ينسكحون التلتمات ولا تفتح لهم أبواب السدد (٥) قال عمر بن عبد العزيز والله لقد نسكحت التلتمات فاطمة بنت عبد الملك وفتحت لي أبواب السدد لأن يرحمني الله لا جرم لأذهن رأسي حتى شمت ولا أغسل ثوبي الذي على جسدي حتى يتسح وعن أبي ذر قال «قلت يارسل الله ما آتية الحوض قال والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للفضية من شرب منه لم يظلمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل ظوله ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٦) وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبى حوضا وإنهم يلقاهون أبهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٧) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متعيا ومفترا وهو يظن أنه راج فان الراخى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أو ان الحصاد فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتفق الأَرْض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

(١) حديث أنس أغفى رسول الله صلى الله عليه وسلم غفاه فرفع رأسه متبسما فقالوا له يارسل الله لم ضحكك فقال آية زالت على آفها وقرأ بسم الله الرحمن الرحيم - إنا أعطيناك الكوثر - رواه مسلم (٢) حديث أنس بينا أنا أسير في الجنة إذا بنهر حافتاه قباب التؤلؤ المجووف الحديث الترمذى وقال حسن صحيح ورواه البخارى من قول أنس لما عرج بالنبي صلى الله عليه وسلم إلى السماء الحديث وهو مرفوع وإن لم يكن صرح به عن النبي صلى الله عليه وسلم (٣) حديث أنس ما بين لابتي حوضي مثل ما بين المدينة وصنعاء أو مثل ما بين المدينة وعمان رواه مسلم (٤) حديث ابن عمر لما نزل قوله تعالى - إنا أعطيناك الكوثر - قال رسول الله صلى الله عليه وسلم هو نهر في الجنة حافتاه من ذهب شرا به أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأطيب ريحا من المسك يجري على جنادل التؤلؤ والرجان (٥) حديث ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن حوضي ما بين عدن إلى عمان البلقاء ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل وأكوابه عدد نجوم السماء (٦) حديث أبي ذر قال «قلت يارسل الله ما آتية الحوض قال والذي نفس محمد بيده لأنيته أكثر من عدد نجوم السماء وأكوابها في الليلة المظلمة للفضية من شرب منه لم يظلمأ آخر ما عليه يشخب فيه ميزابان من الجنة عرضه مثل ظوله ما بين عمان وأيلة ماؤه أشدّ يابسا من اللبن وأحلى من العسل (٧) وعن سمرة قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن لكل نبى حوضا وإنهم يلقاهون أبهم أكثر واردة وإنى لأرجو أن أكون أكثرهم واردة (٨) فهذا رجاء رسول الله صلى الله عليه وسلم فليرج كل عبد أن يكون في جملة الواردين وليحذر أن يكون متعيا ومفترا وهو يظن أنه راج فان الراخى للحصاد من بث البذر ونقى الأرض وسقاها الماء ثم جلس يرجو فضل الله بالإنبات ودفع الصواعق إلى أو ان الحصاد فأما من ترك الحراثة أو الزراعة وتفق الأَرْض وسقيها وأخذ يرجو من فضل الله أن ينبت له الحب والفاكهة

ويستقيم يشاكل حال رسول الله صلى الله عليه وسلم وهكذا كان رسول الله عليه الصلاة والسلام يقوم من الليل ولا يقوم الليل كله ويصوم من الشهر ولا يصوم الشهر كله غصير رمضان ويتناول الشهوات ولما قال الرجل إننى عزمتم أن لا أأكل اللحم قال فإنى أأكل اللحم وأجبه ولوسألت

فهذا مغر ومتمنّ وليس من الراجين في شيء. وهكذا رجاء أكثر الخلق وهو غرور الخلق نموذبا لله من الغرور والنفلة فان الاغترار بالله أعظم من الاغترار بالدنيا قال الله تعالى - فلا تترنكم الحياة الدنيا ولا يترنكم بالله الغرور -

( القول في صفة جهنم وأهوالها وأنكالها )

يا أيها الناقل عن شبه الغرور بما هو فيه من شواغل هذه الدنيا للشرقة على الاضضاء والازوال دع التفكير فيما أنت مرتحل عنه واصرف الفكر إلى موردك فانك أخبرت بأن النار مورد للجميع إذ قيل - وإن منكم إلا واردها كان على ربك حتما مقضيا ثم تنجي الذين اتقوا ونذر الظالمين فيها جسيا - فأنت من الورود على يقين ومن النجاة في شك فاستشعر في قلبك هول ذلك المورد فساك تستعد للنجاة منه وتأمل في حال الخلاق وقد قاسوا من دواهي القيامة ما قاسوا فيناهم في كربها وأهوالها وقوا فينتظرون حقيقة أنبأها وتشفيح شفعاها إذ أحاطت بالمجرمين ظلمات ذات شعب وأظلت عليهم نار ذات لب وصعدوا لها زفيرا وجرجرة تفصح عن هدة القبط والغضب فتند ذلك أيمن المجرمون بالطيب وجئت الأمم على الركب حتى أشفق البراء من سوء القلب وخرج للنادي من الزبانية قائلا : أين فلان ابن فلان للسوف نفسه في الدنيا بطول الأمل الضيع عمره في سوء العمل فيأدرونه بمقامع من حديد ويستقبلونه بهظامم التهديد ويسوقونه إلى العذاب الشديد ، وينكسونه في قعر الجحيم ويقولون له ذق إنك أنت العزيز الكريم - فأسكنوا مارا ضيقة الأرجاء مظلمة السالك مبهمة الهالك غلد فيها الأسير ويوقد فيها السعير شرابهم فيها الحميم ومستقرهم الجحيم الزبانية تقمهم والهاوية تجمعهم أمانهم فيها الهلاك ومالم منها فساك قد شدت أقدامهم إلى النواصي واسودت وجوههم من ظلمة المعاصي ينادون من أكنافها ويصيحون في نواحيها وأطرافها : يا مالك قد حق علينا الوعيد يا مالك قد أثقلنا الحديد يا مالك قد فضجت منا الجلود يا مالك أخرجنا منها فانا لانمود فتقول الزبانية هيأت لات حين أمان ولا خروج لكم من دار الهوان فاخسثوا فيها ولا تكلمون ولو أخرجتم منها لكنتم إلى ما نهيتهم عنه تمودون فتند ذلك يقنطون وعلى ما فرطوا في جنب الله يتأسفون ولا ينجيهم الندم ولا يغنيهم الأسف بل يكون على وجوههم مغلولين النار من فوقهم والنار من تحتم والنار عن أيمنهم والنار عن شمائلهم فهم غرقى في النار طعاصمهم نار وشرابهم نار ولباسهم نار ومهادهم نار فهم بين مقطعات النيران وسرايل القطران وضرب القامع وتقل السلاسل فهم يتجلجلون في مضائقها ويتحطمون في دركاتهما ويضطربون بين غواصيا تغلق بهم النار كغلي القدور ويهتفون بالويل والويل ومهما دعوا بالثبور صب من فوق رؤسهم الحميم يصهر به مافي بطونهم والجلود ولحم مقامع من حديد تهشم بها جباههم فيفتجر الصديد من أفواههم وتنقطع من المعشأ كبادهم وتسيل على الحدود أحداقهم ويسقط من الوجنات لحومها ويتمتع من الأطراف شعورها بل جلودها وكلما فضجت جلودهم بدلوا جلودا غيرها قد عريت من اللحم عظامهم فبقيت الأرواح منوطة بالعروق وعلائق المصوب وهي تنش في لفتح تلك النيران وهم مع ذلك يتمنون الموت فلا يموتون فكيف بك لو نظرت إليهم وقد سودت وجوههم أشد سوادا من الحميم وأعميت أبصارهم وأبكت ألسنتهم وقصمت ظهورهم وكسرت عظامهم وجدعت آذانهم ومزقت جلودهم وغلت أيديهم إلى أعناقهم وجمع بين نواصمهم وأقدامهم وهم يحشون على النار بوجوههم ويطنون حسك الحديد بأحداقهم فليبيب النار سار في بواطن أجسامهم وحيات الهاوية وعقاربها متشبثة بظواهر أعضائهم هذا بعض

( القول في صفة جهنم )

ي أن يطعم كل يوم لأطعمني وذلك يدلك على أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان مختارا في ذلك إن شاء أكل وإن شاء لم يأكل وكان يترك الأكل اختيارا وقد دخلت الفتنة على قوم كلما قيل لهم إن رسول الله صلى الله عليه وسلم فعل كذا يقولون كان رسول الله صلى الله عليه وسلم مشرعا وهذا إذا

جملة أحوالهم وانظر الآن في تفصيل أهوالهم وتذكر أيضا في أودية جهنم وشعابها فقد قال النبي صلى الله عليه وسلم « إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله » (١) وقال صلى الله عليه وسلم « وجهه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « تمودوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن قبل يارسول الله وما وادي أوجب الحزن قال واد في جهنم تمود منه جهنم كل يوم سبعين مرة أعد الله تعالى للقراء الرايين (٢) « فهذه سعة جهنم وانشعاب أوديتها وهي بحسب عدد أودية الدنيا وشهواتها وعدد أبوابها بمدد الأعضاء السبعة التي بها يصح العبد بعضها فوق بعض الأعلى جهنم ثم سقر ثم لظى ثم الحطمة ثم السعير ثم الجحيم ثم الهاوية ، فانظر الآن في عمق الهاوية فانه لا حد لعمقها كما لا حد لعمق شهوات الدنيا فكما لا ينتهي أرب من الدنيا إلا إلى أرب أعظم منه فلا تنتهي هاوية من جهنم إلا إلى هاوية أعمق منها قال أبو هريرة « كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمنا وجية فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم : أتدرون ما هذا قلنا الله ورسوله أعلم قال هذا جبار أرسل في جهنم مندسبعين عاما الآن انتهى إلى قعرها (٣) « ثم انظر إلى تفاوت الدرجات فان الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا فكما أن إكباب الناس على الدنيا يتفاوت فن منهمك مستكبر كالغريق فيها ومن خائف فيها إلى حد محدود فكذلك تناول النار لهم متفاوت فان الله لا يظلم مثقال ذرة فلا تترادف أنواع العذاب على كل من في النار كيفما كان بل لكل واحد حد معلوم على قدر عصيانه وذنبه إلا أن أقامهم عذابا لوعرضت عليه الدنيا بخلافها لا تقدي بها من شدة ما هو فيه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنطين من نار يظلم دماغه من حرارة نعليه (٤) « فانظر الآن إلى من خفف عليه واعتبر به من شدد عليه ومهما تشككت في شدة عذاب النار فاقرب أصبعك من النار وقس ذلك به ثم اعلم أنك أخطأت في القياس فان نار الدنيا لا تناسب نار جهنم ولكن لما كان أشد عذاب في الدنيا عذاب هذه النار عرف عذاب جهنم بها وهيات لو وجد أهل الجحيم مثل هذه النار لحاضوا طامعين هربا عما هم فيه وعن هذا عبر في بعض الأخبار حيث قيل « إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقت أهل الدنيا (٥) « بل صرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بصفة نار جهنم فقال « أمر الله تعالى أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت ثم أوقد عليها ألف عام حتى ابيضت ثم أوقد عليها ألف عام حتى اسودت فهي سوداء مظلمة (٦) « وقال ﷺ « اشتكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها فسبغ في سبغها »

(١) حديث إن في جهنم سبعين ألف واد في كل واد سبعون ألف شعب في كل شعب سبعون ألف ثعبان وسبعون ألف عقرب لا ينتهي الكافر والنافق حتى يواقع ذلك كله لم أجده هكذا بحملته وسيأتي بعده ما ورد في ذكر الحيات والعقارب (٢) حديث على تعوذوا بالله من جب الحزن أو وادي الحزن الحديث رواه ابن عدى بلفظ وادي الحزن وقال باطل وأبو نعيم والأصبهاني بسند ضعيف ورواه الترمذي وقال غريب وابن ماجه من حديث أبي هريرة بلفظ جب الحزن وضعفه ابن عدى وتقدم في ذم الجاه والرياء (٣) حديث أبي هريرة كنا مع رسول الله صلى الله عليه وسلم فسمنا وجية الحديث وفيه هذا حجر أرسل في جهنم الحديث رواه مسلم (٤) حديث إن أدنى أهل النار عذابا يوم القيامة ينتعل بنطين من نار الحديث متفق عليه من حديث النعمان بن بشير (٥) حديث إن نار الدنيا غسلت بسبعين ماء من مياه الرحمة حتى أطاقت أهل الدنيا ذكر ابن عبد البر من حديث ابن عباس وهذه النار قد ضربت بماء البحر سبع مرات ولو لا ذلك ما انتفع بها أحد وللبزاز من حديث أنس وهو ضعيف وما وصلت إليكم حتى أحسبه قال نضحت بالماء فتنهى عليكم (٦) حديث أمر الله أن يوقد على النار ألف عام حتى احمرت الحديث تقدم

قالوه على معنى أنه لا يلزمهم التأني به جهل محض فان الرخصة الوقوف على حد قوله والعزيمة التأني بفعله وقول رسول الله صلى الله عليه وسلم لأرباب الرخص وقوله لأرباب العزائم ثم إن المنتهى يحاكي حاله حال رسول الله عليه الصلاة والسلام في دعاء الخلق إلى الحق فكل

نفس في الشتاء ونفس في الصيف فأشد ما تجدونه في الصيف من حرها وأشد ما تجدونه في الشتاء من  
 زمهريرها (١) وقال أنس بن مالك يؤتى بأثم الناس في الدنيا من الكفار فيقال اغمسوه في النار غمسة  
 ثم يقال له هل رأيت نعيما قط فيقول لا ويؤتى بأشد الناس حرًا في الدنيا فيقال اغمسوه في الجنة غمسة  
 ثم يقال له هل رأيت ضرًا قط فيقول لا . وقال أبو هريرة لو كان في السجدة ألف ألف أوزيدون ثم تنفس  
 رجل من أهل النار لما توارى وقد قال بعض الماء في قوله - تلتفح وجوههم النار - إنها لفتحهم لحة واحدة لما  
 أثبت لها على عظم إلا ألقته عند أعقابهم ثم انظر بعد هذا في نتن الصديد الذي يسيل من أبدانهم حتى  
 يترقون فيه وهو الضنق ، قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله ﷺ «لو أن دلوان من غساق جهنم ألقى  
 في الدنيا لأنن أهل الأرض (٢) » فهذا شرابهم إذا استغاثوا من العطش فيسقى أحدهم من ماء صديد  
 يتجرعه ولا يكاد يسيفه وبأبيه للوت من كل مكان وما هو بيت وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل  
 يشوى الوجوه بشئ الشراب وساءت مرتفعها . ثم انظر إلى طعامهم وهو الزقوم كما قال الله تعالى  
 - ثم إنكم أيها الضالون المكذبون لا تكون من شجر من زقوم فمالتون منها البطون فشاربون  
 عليه من الحميم فشاربون شرب الحميم - وقال تعالى - إنها شجرة تخرج في أصل الجحيم طلوعها كأنه  
 رؤس الشياطين فانهم لا تكون منها فمالتون منها البطون ثم إن لهم عليها ثوبا من حميم ثم إن مرجعهم  
 إلى الجحيم - وقال تعالى - تصلى نارًا حامية تسقى من عين آنية - وقال تعالى - إن الدنيا أنكالا وجهيا  
 وطعاما ذا غصا وعذابا أليما - وقال ابن عباس قال رسول الله ﷺ «لو أن قطرة من الزقوم قطرت في  
 بحر الدنيا أفسدت على أهل الدنيا معاشهم فكيف من يكون طعامه ذلك (٣) » وقال أنس قال  
 رسول الله صلى الله عليه وسلم «ارغبوا فيما رغبتكم الله واحذروا ما خوفكم الله به من عذابه  
 وعقابه ومن جهنم فانه لو كانت قطرة من الجنة معكم في دنياكم التي أنتم فيها طيبتها لكم ولو كانت  
 قطرة من النار معكم في دنياكم التي أنتم فيها خبيثتها عليكم (٤) » وقال أبو الدرداء قال رسول الله صلى الله  
 عليه وسلم «يلقى على أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام  
 من ضريع لا يسمن ولا يبنى من جوع ويستغيثون بالطعام فيغاثون بطعام ذي غصة فيذكرون أنهم  
 كما كانوا يجيزون القصص في الدنيا بشراب فيستغيثون بشراب فيرفع إليهم الحميم بكلايب الحديد  
 فإذا دنت من وجوههم شوت وجوههم فإذا دخل الشراب بطونهم قطع ما في بطونهم فيقولون ادعوا  
 خزنة جهنم قال فيدعون خزنة جهنم أن ادعوا ربكم يخفف عنا يوما من العذاب فيقولون أولم تك  
 تأتيكم رسلكم بالبينات قالوا بلى قالوا فادعوا موادعاء الكافرين إلى ضلال قال فيقولون ادعوا مالكا  
 فيدعون فيقولون يا مالكا ليقتض علينا ربك قال فيجيئهم إنكم ما كنون (٥) » قال الأعمش أثبت أن

ما كان يعتمد رسول  
 الله صلى الله عليه وسلم  
 ينبغي أن يعتمد  
 فكان قيام رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم  
 وصيامه الزائد لا يغلو  
 إما أنه كان يقتدى به  
 وإما أنه كان لمزيد  
 كان يحده بذلك فإن  
 كان يقتدى به  
 فالمنتهى أيضا مقتدى  
 به ينبغي أن يأتي بثل  
 ذلك والصحيح الحق  
 أن رسول الله صلى الله

(١) حديث اشكت النار إلى ربها فقالت يارب أكل بعضي بعضا فأذن لها بنفسين الحديث متفق  
 عليه من حديث أبي هريرة (٢) حديث أبي سعيد الخدري لو أن دلوان من غساق ألقى في الدنيا  
 لأنن أهل الأرض الترمذي وقال إنما نعرفه من حديث رشد بن سعد وفيه ضعف (٣) حديث  
 ابن عباس لو أن قطرة من الزقوم قطرت في دار الدنيا أفسدت على أهل الأرض معاشهم الحديث  
 الترمذي وقال حسن صحيح وابن ماجه (٤) حديث أنس ارغبوا فيما رغبتكم فيه واحذروا ما خوفكم  
 به من عذاب الله وعقابه من جهنم الحديث لم أجده إلا سنادا (٥) حديث أبي الدرداء يلقى على  
 أهل النار الجوع حتى يعدل مام فيه من العذاب فيستغيثون بالطعام الحديث الترمذي من رواية سمرة  
 ابن عطية عن شهر بن حوشب عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قال الدارمي والناس لا يعرفون هذا  
 الحديث وإنما روى عن الأعمش عن سمرة بن عطية عن شهر عن أم الدرداء عن أبي الدرداء قوله .



بين دعائهم وبين إجابة مالك إياهم ألف عام قال فيقولون ادعوا ربكم فلا أحد خير من ربكم فيقولون ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما ضالين ربنا أخرجنا منها فان عدنا فانا ظالمون قال فيجيبهم اخسوا فيها ولا تسكلمون قال فعند ذلك يشعرون من كل خير وعند ذلك أخذوا في الزفير والحسرة والويل قال أبو أمامة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال «يقرب إليه فيسكره فاذا أدنى منه شوى وجهه فوقت فروة رأسه فاذا شربه قطع أمعاءه حتى يخرج من دبره يقول الله تعالى - وسقوا ماء حيا فقطع أمعاءهم - وقال تعالى - وإن يستغيثوا يغاثوا بماء كالمهل يشوي الوجوه - فهذا طعامهم وشرابهم عند جوعهم وعطشهم<sup>(١)</sup>» فانظر الآن إلى حيات جهنم وعقاربها وإلى شدة سمومها وعظم أشخاصها وفضاظة منظرها وقد سلطت على أهلها وأغريت بهم فهي لا تفر عن النهش واللدغ ساعة واحدة قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له يوم القيامة شجاعا أقرع له زبيبتان يطوقه يوم القيامة ثم يأخذ بلهزيمه يعني أشداه فيقول أنا مالك أنا كنزك ثم تلا قوله تعالى - ولا يحسبن الذين يخولون بنا آتاهم الله من فضله الآية -<sup>(٢)</sup>» وقال الرسول صلى الله عليه وسلم «إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسمة فيجد حموتها أربعين خريفا وإن فيها لعقارب كالغزال الوكفة يلسعن اللسمة فيجد حموتها أربعين خريفا وهذه الحيات والعقارب إنما تسلط على من سلط عليه في الدنيا البخل وسوء الحاق وإيذاء الناس ومن وفى ذلك وفى هذه الحيات فلم تمتل له<sup>(٣)</sup>» ثم تكرر بهذا كلف في تعظيم أجسام أهل النار فان الله تعالى يزيد في أجسامهم طولاً وعرضاً حتى يتزايد عذابهم بسببه فيحسون بلفح النار وبلغ العقارب والحيات من جميع أجزائها دفعة واحدة على التوالي قال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ «ضرس الكافر في النار مثل أحد وغلظ جلده مسيرة ثلاث<sup>(٤)</sup>» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه<sup>(٥)</sup>» وقال عليه السلام «إن الكافر ليجر لسانه في سبعين يوم القيامة يتواطؤه الناس<sup>(٦)</sup>» ومع عظم الأجسام كذلك تحرقهم النار مرات فتجدد جلودهم ولحومهم قال الحسن في قوله تعالى - كلما نضجت جلودهم بدلناها جلوداً غيرها - قال تأكلهم النار كل يوم سبعين ألف مرة كلما أكلتهم قيل لهم عودوا فيعودون كما كانوا. ثم تكرر الآن في بكاء أهل النار وشيقهم ودعائهم بالويل والثبور فان ذلك يسلط عليهم في أول إقامتهم في النار قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام مع كل زمام سبعون ألف ملك<sup>(٧)</sup>» وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع ثم يكون الدم حتى يرى في وجوههم كهيئة الأخدود لو أرسلت فيها السفن لجرت ومادام يؤذن لهم في البكاء

(١) حديث أبي أمامة في قوله تعالى - ويسقى من ماء صديد يتجرعه ولا يكاد يسيغه - قال يقرب إليه الحديث الترمذي وقال غريب (٢) حديث أبي هريرة من آتاه الله مالا فلم يؤد زكاته مثل له ماله يوم القيامة شجاعا أقرع الحديث البخاري من حديث أبي هريرة ومسلم من حديث جابر نحوه (٣) حديث إن في النار لحيات مثل أعناق البخت يلسعن اللسمة الحديث أحمد من رواية ابن أبي ليلى عن ذراج عن عبد الله بن الحارث بن جزء (٤) حديث أبي هريرة ضرس الكافر في النار مثل أحد الحديث رواه مسلم (٥) حديث شفته السفلى ساقطة على صدره والعليا قاصة قد غطت وجهه الترمذي من حديث أبي سعيد وقال حسن صحيح غريب (٦) حديث إن الكافر ليجر لسانه فرسخين يوم القيامة يتواطؤه الناس الترمذي من رواية أبي الحارث عن ابن عمر وقال غريب وأبو الحارث لا يعرف (٧) حديث يؤتى بهم يومئذ لها سبعون ألف زمام الحديث مسلم من حديث عبد الله بن مسعود.

عليه وسلم لم يخل ذلك لمجرد الاقتداء بل كان يحد بذلك زيادة وهو ما ذكرناه من تهذيب الجيلة. قال الله تعالى خطاباً له - واعبد ربك حتى يأتيك اليقين - لأنه بذلك ازداد استمداداً من الحضرة الإلهية وقرع باب الكرم والنهي عليه الصلاة والسلام مفتقر إلى الزيادة من الله تعالى غير مستغن

والشهيق والزفير والدعوة بالويل والشبور فلهم فيه مستروح ولكنهم ينعون أيضا من ذلك <sup>(١)</sup> قال محمد بن كعب : لأهل النار خمس دعوات يجيبهم الله عز وجل في أربعة فإذا كانت الخامسة لم يتكلموا بعدها أبدا يقولون - ربنا أمتنا اثنتين وأحييتنا اثنتين فاعترفنا بذنوبنا فهل إلى خروج من سبيل - فيقول الله تعالى مجيبا لهم - ذلكم بأنه إذا دعى الله وحده كفرتم وإن يشرك به تؤمنوا فالحكم لله العلي الكبير - ثم يقولون - ربنا أبصرنا وصحفنا فأرجعنا لعل صالحا - فيجيبهم الله تعالى - أولم تكونوا أقسمتم من قبل ما لكم من زوال - فيقولون ربنا أخرجنا نعمل صالحا غير الذي كنا نعمل - فيجيبهم الله تعالى - أولم نعمركم ما يتذكر فيه من تذكر وجاءكم النذير فذوقوا عذابا لظالمين من نصير - ثم يقولون - ربنا غلبت علينا شقوتنا وكنا قوما صالحين ربنا أخرجنا منها فإن عدنا فاعظا لظالمون - فيجيبهم الله تعالى - اخشوا فيها ولا تكلموا - فلا يتكلمون بعدها أبدا وذلك غاية شدة العذاب . قال مالك بن أنس الله رضى عنه : قال زيد بن أسلم في قوله تعالى - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا ما لنا من محيص - قال صبروا مائة سنة ثم جزعوا مائة سنة ثم صبروا مائة سنة ثم قالوا - سواء علينا أجزعنا أم صبرنا - وقال صلى الله عليه وسلم « يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح بين الجنة والنار ويقال بأهل الجنة خلود بلا موت وبأهل النار خلود بلاموت <sup>(٢)</sup> » وعن الحسن قال يخرج من النار رجل بعد ألف عام ويلقى كنت ذلك الرجل ورؤي الحسن رضى الله عنه جالسا في زاوية وهو يكي قفيل لم يبكى ؟ قال أخشى أن يطرحني في النار ولا يبالي فهذه أصناف عذاب جهنم على الجملة وتفصيل غموها وأحزانها وبجها وحسرتها لانهاية له فأعظم الأمور عليهم مع ما يلاقونه من شدة العذاب حسرة فوت نعيم الجنة وفوت لقاء الله تعالى وفوت رضاه مع علمهم بأنهم باعوا كل ذلك بشئ بخس دراهم معدودة إذ لم يبيعوا ذلك إلا بشهوات حقيرة في الدنيا أياها قصيرة وكانت غير صافية بل كانت مكدرية منخصة فيقولون في أنفسهم واحسرتاه كيف أهلكنا أنفسنا بهيئان ربنا وكيف لم نكلف أنفسنا الصبر أياها قلائل ولو صبرنا لكانت قد انتفعت عنا أيامه وبقينا الآن في جوار رب العالمين متممين بالرضا والرضوان في الجنة هؤلاء وقد فاتهم ما فاتهم وبلوا بما بلوا به ولم يبق معهم شيء من نعيم الدنيا ولقد اتهم إنهم لو لم يشاهدوا نعيم الجنة لم تعظم حسرتهم لكنها تعرض عليهم فقد قال رسول الله ﷺ « يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفوا راحتها ونظروا إلى قصورها وإلى ما أعد الله لأهلها فيها نودوا أن اصرفوهم عنها لا نصيب لهم فيها فيرجعون بحسرة ما رجع الأولون والآخرون يمثلها فيقولون يا ربنا لو أدخلتنا النار قبل أن ترينا ما أرى قاتنا من ثوابك وما أعددت فيها لأوليائك كان أهون علينا فيقول الله تعالى ذاك أردت بكم كنتم إذا خلوتهم بارزتموني بالعظام وإذا لقيتهم الناس لقيتموهم محبتين تراءون الناس بخلاف ما تعطوني من قلوبكم هبتم الناس ولم تهابوني وأجلتكم الناس ولم تجلوني وتركتم للناس ولم تتركوا لي قال يوم أذيقكم العذاب الأليم مع ما حرمتكم من الثواب القيم <sup>(٣)</sup> » قال أحمد بن حرب إن أحدا لا يؤثر الظل على الشمس ثم لا يؤثر الجنة على النار . وقال عيسى عليه السلام كم من جسد صحيح ووجه صحيح ولسان فصيح غدا بين أطباق النار يصيح . وقال داود إلهي لا صبر لي على حر نفسك - كيف صبري

عن ذلك ثم في ذلك سر غريب وذلك أن رسول الله صلى الله عليه وسلم برابطة جنسية النفس كان يدعو الخلق إلى الحق ولولا رابطة الجنسية ما وصلوا إليه ولا انضموا به وبين نفسه الطاهرة ونفوس الأتباع رابطة التأليف كما بين روحه وأرواحهم رابطة التأليف ورباطة النفوس

(١) حديث أنس يرسل على أهل النار البكاء فيكون حتى تنقطع الدموع الحديث ابن ماجه من رواية يزيد الرقاشي عن أنس والرقاشي ضعيف (٢) حديث يؤتى بالموت يوم القيامة كأنه كبش أملح فيذبح البخاري من حديث ابن عمر ومسلم من حديث أبي سعيد وقد تقدم (٣) حديث يؤتى يوم القيامة بناس من النار إلى الجنة حتى إذا دنوا منها واستشفوا راحتها رواه الحديث رويناه في الأربعين لأبي هدية عن أنس وأبو هدية إبراهيم بن هدية هالك .

على حر نارك ولا صبر لي على صوت رحمتك فكيف على صوت عذابك فانظر يا مسكين في هذه الأهوال واعلم أن الله تعالى خلق النار بأهوالها وخلق لها أهلا لا يزيدون ولا ينقصون وأن هذا أمر قد قضى وفرغ منه قال الله تعالى - وأنذرهم يوم الحسرة إذ قضى الأمر وهم في غفلة وهم لا يؤمنون - ولعمري الإشارة به إلى يوم القيامة بل في أزل الأزل ولكن أظهر يوم القيامة ما سبق به القضاء فالعجب منك حيث تضحك وتلهو وتشتغل بمحقرات الدنيا ولست تدري أن القضاء بماذا سبق في حقك ؟ فإن قلت فليت شعري ماذا موردى وإلى ماذا مآلى ومرجى وما الذى سبق به القضاء في حقك فلك علامة تستأنس بها وتصدق رجاءك بسببها وهي أن تنظر إلى أحوالك وأعمالك فإن كلا ميسر لما خلق له فإن كان قد يسر لك سبيل الخير فأبشر فإنك مبعث عن النار وإن كنت لا تقصد خيرا إلا وتخطبك الموائق خدفعه ولا تقصد شرا إلا فيتيسر لك أسبابه فاعلم أنك مقضى عليك فإن دلالة هذا على العاقبة كدلالة الطر على النبات ودلالة الدخان على النار فقد قال الله تعالى - إن الأبرار لفي نعيم وإن الفجار لفي جحيم - فأعرض نفسك على الآيتين وقد عرفت مستقر كل من الفارين والله أعلم .

### ( القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها )

اعلم أن تلك الدار التي عرغت همومها وغمومها تقابلها دار أخرى تأمل نعيمها وسرورها فإن من بعد من أحدهما استقر لا محالة في الأخرى فاستمر الخوف من قبلك بطول الفكر في أهوال الجحيم واستمر الرجاء بطول الفكر في النعيم القيم للعود لأهل الجنان وسقى نفسك بسوط الخوف وقد هازم الرجاء إلى الصراط المستقيم فبذلك تنال الملك العظيم وتسلم من العذاب الأليم فتفكر في أهل الجنة وفي وجوههم نظرة النعم يسقون من رحيق محتوم جالسين على منابر الياقوت الأحمر في خيام من اللؤلؤ الرطب الأبيض فيها بسط من البقري الأخضر متكئين على أرائك منصوبة على أطراف أنهار مطردة بالجر والعسل مخفوفة بالظنان والولدان مزينة بالخور العين من الخيرات الحسان كأنهن الياقوت والمرجان لم يطمئن إنس قبلهم ولا جان يعيش في درجات الجنان إذا اختالت إحداهن في مشيها حمل أعطافها سبعون ألفا من الولدان عليها من طرائف الحرير الأبيض ماتتجر فيه الأبصار مكملات بالتيجان المرصعة باللؤلؤ والمرجان شكلات غنجات عطرates آمنت من الحرم والبؤس مقصورات في الخيام في قصور من الياقوت بنيت وسط روضات الجنان قاصرات الطرف عين ثم يطاف عليهم وعليهن بأكواب وأباريق وكأس من معين يضاء لذة للشاربين ويطوف عليهم خدام وولدان كأمثال اللؤلؤ الكتون جزاء بما كانوا يعملون في مقام أمين في جنات وعيون في جنات ونهر في مقعد صدق عند مليك مقتدر ينظرون فيها إلى وجه الملك الكريم وقد أشرقت في وجوههم نظرة النعم لا يرهقهم قتر ولا ذلة بل عباد مكرمون وبأنواع التحف من ربههم يتعاهدون فهم فيها اشتبهت أنفسهم خالدون لا يخافون فيها ولا يحزنون وهم من ريب اللون آمنون فهم فيها يتمتعون وبأكلون من أطعمتها ويشربون من أنهارها لبنا وخمرا وعسلا في أنهار أراضها من فضة وحبابها مرجان وعلى أرض ترابها مسك أذفر ونباتها زعفران ويمطرون من سحب فيها من ماء النسرين على كسبان السكافور ويؤتون بأكواب وأى أكواب بأكواب من فضة مرصعة بالدر والياقوت والمرجان كوب فيه من الرحيق المحتوم ممزوج به السليل العذب كوب يشرق نوره من صفاء جوهره يبدو الشراب من ورائه بريقته وحرته لم يصنعه آدمى في مصر في تدوية صنعه وتحسين صناعته في كف خادم يحكى ضياء وجهه الشمس في إشراقها ولكن من أين للشمس حلاوة مثل حلاوة صورته وحسن أصداغه

### ( القول في صفة الجنة )

ألفت آغا كا أن  
الأرواح ألفت أولا  
ولكل روح مع  
نفسه تأليف خاص  
والسكون والتأليف  
والامتزاج واقع بين  
الأرواح والنفوس  
وكان رسول الله صلى  
الله عليه وسلم يديم  
العمل لتصفية نفسه  
وتقوى الأتباع لها  
احتاج إليه نفسه من  
ذلك ناله وما فضل من  
ذلك وصل إلى نفوس

وملاحة أحداقه في أعجبا لمن يؤمن بدار هذه صفتها ويوقن بأنه لا يموت أهلها ولا نحل القبايع عن نزل جناتها ولا تنظر الأحداث بين التغير إلى أهلها كيف يأبى بدار قد أذن الله في خرابها وبنائها بصي دونهما والله لو لم يكن فيها إلا سلامة الأبدان مع الأمن من اللوث والجوع والبطش وسائر أصناف الحدثنان لكان جديرا بأن يهجر الدنيا بسببها وأن لا يؤثر عليها ما التصرم والتفحص من ضرورته كيف وأهلها ملوك آمنون وفي أنواع السرور ممتون لهم فيها كل ما يشتهون وهم في كل يوم بثناء العرش يحضرون وإلى وجه الله الكريم ينظرون وينالون بالنظر من الله ما لا ينظرون معه إلى سائر نعيم الجنان ولا يلتفتون وهم على الدوام بين أصناف هذه النعم بقرّة دون وهم من زوالها آمنون قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد يا أهل الجنة إن لكم أن تصدقوا فلا تسقموا أبدا وإن لكم أن تموتوا فلا تموتوا أبدا وإن لكم أن تسبوا فلا تسبوا أبدا وإن لكم أن تصموا فلا تصموا أبدا» فذلك قوله عز وجل - ونودوا أن تلكم الجنة أورثتموها بما كنتم تعملون - (١) وبهذه أردت أن تعرف صفة الجنة لاقرأ القرآن فليس وراء يان الله تعالى يان وأقرأ من قوله تعالى - ولن خاف مقام ربه جنان - إلى آخر سورة الرحمن وأقرأ سورة الواقعة وغيرها من السور وإن أردت أن تعرف تفصيل صفاتها من الأخبار فأقبل الآن تفصيلها بعد أن اطلعت على جملة وأأمل أو لا تعدد الجنان قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - ولن خاف مقام ربه جنان - قال «جنان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنان من ذهب آتيتهما وما فيهما وما بين القوم وبين أن ينظروا إلى ربهم إلا رداء الكبرياء على وجهه في جنة عدن» (٢) ثم انظر إلى أبواب الجنة فاتها كثيرة بحسب أصول الطاعات كالأن أبواب النار بحسب أصول المعاصي قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «من أتق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة كلها وللجنة ثمانية أبواب فمن كان من أهل الصلوة دعى من باب الصلاة ومن كان من أهل الصيام دعى من باب الصيام ومن كان من أهل الصدقة دعى من باب الصدقة ومن كان من أهل الجهاد دعى من باب الجهاد فقال أبو بكر رضي الله عنه والله ما على أحد من ضرورة من أيها دعى فهل يدعى أحد منها كلها؟ قال نعم وأرجو أن تكون منهم» (٣) وعن معمر بن شمرة عن علي بن كرم الله وجهه أنه ذكر النار فظم أمرها ذكر الأجنة ثم قال - بسوق الذين اتقوا ربهم إلى الجنة زمرا - حتى إذا اتقوا إلى باب من أبوابها وجدوا عند مفجعة يخرج من تحتها عتبان فخرجان فمعدوا إلى إحداها كما أمروا به فمعدوا منها فأذهبت مائي بطونهم من أذى وأبأس ثم عمدوا إلى الأخرى فمعدوا منها فخرت عليهم فصرة النعم فلم تغير أعمارهم بعدها أبدا ولا تشعب رؤسهم كأنما دهنوا بالدهان ثم اتقوا إلى الجنة فقال لهم خزنتها سلام عليكم طمتم فادخلوها خالدين ثم تلقاهم الولدان يطيفون بهم كما تطيف ولدان أهل الدنيا بالحبيب يقدم عليهم من غيبة يقولون له أجر أعد الله لك من الكرامة كذا قال فينطلق غلام من أولئك الولدان إلى من أزواجه من الحور العين فيقول قد جاء فلان بأهله الذين كان يدعى به في الدنيا فيقول أنت رأيت فيقول أنا رأيته وهو بأثرى فيستخفها الفرح حتى تقوم إلى أسكفة بابها فإذا انتهى إلى منزله نظر إلى أساس بنيانه فإذا جند اللؤلؤ فوقه صرح أحمر وأخضر وأصفر من كل لون ثم يرفع رأسه فينظر إلى سقفه فإذا

الأمّة وهكذا انتهى مع الأصحاب والأتباع على هذا المعنى فلا يتخلف عن الزيادات والنوافل ولا يسترسل في الشهوات والذوات إلا بدلالة تخص النفس ولا يعطى الاعتدال حقه من ذلك إلا بتأييد الله تعالى ونور الحكمة وكل من يحتاج إلى صحة الجلوقة للتفسير لا بد له من خلوّة صحيحة بالحق حتى تكون

(١) حديث أبي هريرة ينادي مناد إن لكم أن تصموا فلا تسقموا أبدا الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وأبي سعيد (٢) حديث جنتان من فضة آتيتهما وما فيهما وجنتان من ذهب آتيتهما وما فيهما الحديث متفق عليه من حديث أبي موسى (٣) حديث أبي هريرة من أتق زوجين من ماله في سبيل الله دعى من أبواب الجنة الحديث متفق عليه .

مثل البرق ولولا أن الله تعالى قدره لألم أن يذهب بصره ثم يطأطأ رأسه فاذا أزواجه وأكواب موضوعة ونبارق مصفوفة وزرابى مثبثة - ثم انكأ فقال - الجنة الذي هداها لهما وما كنا لنهتدى لولا أن هدانا الله - ثم ينادى مناد يحيون فلا تموتون أبدا وتقيمون فلا تنظنون أبدا وتصحون فلا تمرضون أبدا « وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد فيقول بك أمرت أن لا أفتح لأحد قبلك (١) » ثم تأمل الآن في غرف الجنة واختلاف درجات العلو فيها فإن الآخرة أكبر درجات وأكبر تفضيلا وكما أن بين الناس في الطاعات الظاهرة والأخلاق الباطنة المحمودة تفاوتا ظاهرا فكذا في الجاهلون به تفاوتا ظاهرا فإن كنت تطلب أعلى الدرجات فاجتهد أن لا يسبقك أحد بطاعة الله تعالى فقد أمرك الله بالمسابقة والتنافس فيها فقال تعالى - ساقوا إلى مغفرة من ربكم - وقال تعالى - وفي ذلك فليتنافس المتنافسون - والعجب أنه لو تقدم عليك أقرانك أو جيرانك بزيادة درهم أو بعلوباء قل عليك ذلك وضاق به صدرك وتنقص بمسب الحسد عيشك وأحسن أحوالك أن تستقر في الجنة وأنت لا تسلم فيها من أقوام يسبقونك بلطائف لا توازيها الدنيا بخلافها فقد قال أبو سعيد الخدري قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما يتراءون السكوك الفائر في الأفق من الشرق إلى الغرب لفاضل ما بينهم قالوا يا رسول الله تلك منازل الأنبياء لا يليقها غيرهم قال بلى والذي نفسي بيده رجال آمنوا بالله وصدقوا المرسلين (٢) » وقال أيضا « إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كاترون النجم الطالع في أفق من آفاق السماء وإن أبابكر وعمر منهم وأنما (٣) » وقال جابر قال لنا رسول الله صلى الله عليه وسلم « ألا أحدثكم بنرف الجنة قال قلت بلى يا رسول الله صلى الله عليك بأبينا أنت وأمتنا قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر كله يرى ظاهرها من باطنها وباطنها من ظاهرها وفيها من النعيم واللذات والسرور ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر قال قلت يا رسول الله ولمن هذه الغرف قال لمن أتبعوا السلام وأطعموا الطعام وأداموا الصيام وصلى بالليل والناس نيام قال قلنا يا رسول الله ومن يطيق ذلك قال أمقر تطيق ذلك وسأخبركم عن ذلك من لقي أخاه فسلم عليه أو رد عليه فقد أفضى السلام ومن أطعم أهله وعياله من الطعام حتى يشبعهم فقد أطعم الطعام ومن صام شهر رمضان ومن كل شهر ثلاثة أيام فقد أدام الصيام ومن صلى العشاء الآخرة وصلى الجماعة فقد صلى بالليل والناس نيام (٤) » يعني اليهود والنصارى والمجوس . « وسئل رسول الله صلى الله عليه وسلم عن قوله - وما كن طيبة في جنات عدن - قال : قصور من لؤلؤ في كل قصر سبعون دارا من ياقوت أحمر في كل دار سبعون بيتا من زمرد أخضر في كل بيت سرير على كل سرير سبعون فراشا من كل لون على كل فراش زوجة من الحور العين في كل بيت سبعون مائدة على كل مائدة سبعون لونا من الطعام في كل بيت سبعون وصيفة ويسطى للؤمن في كل غداة يعني من القوة ما يأتي على ذلك أجمع (٥) » .

(١) حديث أتى يوم القيامة باب الجنة فاستفتح فيقول الحازن من أنت فأقول محمد الحديث مسلم من حديث أنس (٢) حديث أبي سعيد إن أهل الجنة ليتراءون أهل الغرف فوقهم كما يتراءون السكوك الحديث متفق عليه وقد تقدم (٣) حديث إن أهل الدرجات العلى ليرام من تحتهم كاترون النجم الطالع رواه الترمذي وحسنه وابن ماجه من حديث أبي سعيد (٤) حديث جابر ألا أحدثكم بنرف الجنة قلت يا رسول الله بأبينا أنت وأمتنا قال إن في الجنة غرفا من أصناف الجوهر الحديث أبو نعيم من رواية الحسن عن جابر (٥) حديث مثل عن قوله تعالى - وما كن طيبة في جنات عدن - قال قصور من لؤلؤ الحديث أبو الشيخ ابن حبان في كتاب العظمة والأجرى في كتاب المصيبة

جلوته في حياية خلوته  
ومن يراى له أن  
أوقاته كلها خلوة وأنه  
لا يحجب شئ وأن  
أوقاته بالله والله لا يرى  
قصانا لأن الله ما حفظه  
لحقيقة المزيد فهو  
محب في حاله غير أنه  
نحت قصور لأنه مانبه  
لسياسة العيلة وما عرف  
سر تملك الاختيار  
وما وقف من البيان  
على البيضاء النقية وقد  
نقلت عن الشايع كلمات

( صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها )

تأمل في صورة الجنة وتفكر في غبطة سكانها وفي حسرة من حرمها لقناعتها بالدنيا عوضاً عنها قد قال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك <sup>(١)</sup> » . « وسئل عليه السلام عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص <sup>(٢)</sup> » وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « من سره أن يسقيه الله عز وجل الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير في الآخرة فليتركه في الدنيا <sup>(٣)</sup> » « أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك <sup>(٤)</sup> » « ولو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبها الله عز وجل به في الآخرة أفضل من حلية الدنيا جميعها <sup>(٥)</sup> » وقال أبو هريرة قال رسول الله ﷺ « إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها أقرءوا وإن شقتم - وظل محدود - <sup>(٦)</sup> » وقال أبو أمامة : « كان أصحاب رسول الله صلى الله عليه وسلم يقولون إن الله عز وجل ينفضنا بالأعراب ومسايلهم أقبل أعرابي فقال يارسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية وما كنت أدري أن في الجنة شجرة تؤذي صاحبها فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم ما هي قال السدر فإن لها شوكاً فقال قد قال الله تعالى - في سدر غضود - يخشد الله شوكه فيجعل مكان كل شوكه ثمرة ثم تتفتح الثمرة منها عن اثنين وسبعين لونا من الطعام ما منها لون يشبه الآخر <sup>(٧)</sup> » وقال جرير بن عبد الله : نزلنا الصفا فإذا رجل نائم تحت شجرة قد كادت الشمس أن تلبسه فقلت للفلان انطلق بهذا النطح فأظله فانطلق فأظله فلما استيقظ فإذا هو سلمان فأتيته أسلم عليه فقال يا جرير تواضع لله فإن من تواضع لله في الدنيا رفعه الله يوم القيامة هل تدري ما الظلمات يوم القيامة قلت لأدري قال ظلم الناس بعضهم بعضاً ثم أخذ عويداً لا أكاد أراه من

فيها موضع اشتباه قد يسميها الإنسان ويبني عليها والأولى أن يفتقر إلى الله تعالى في أي كلمة يسميها حتى يسميها الله من ذلك الصواب . قل عن بعضهم أنه سئل عن كمال المعرفة فقال : إذا اجتمعت التفرقات واستوت الأحوال والأماكن وسقطت رؤية التمييز ومثل هذا القول يوم أن

من رواية الحسن بن خليفة عن الحسن قال سألت أبا هريرة وعمران بن حصين في هذه الآية ولا يصح والحسن بن خليفة لم يعرفه ابن أبي حاتم والحسن البصري لم يسمع من أبي هريرة على قول الجمهور (١) حديث أبي هريرة : إن حائط الجنة لبنة من فضة ولبنة من ذهب ترابها زعفران وطينها مسك الترمذي يلفظ وبلاطها المسك وقال ليس إسناده بذلك القوى وليس عندي بتصل ورواه البزار من حديث أبي سعيد بإسناد فيه مقال ورواه موقوفاً عليه بإسناد صحيح (٢) حديث : سئل عن تربة الجنة فقال درمكة يضاء مسك خالص مسلم من حديث أبي سعيد أن ابن صياد سأل النبي ﷺ عن ذلك فذكره (٣) حديث أبي هريرة : من سره أن يسقيه الله الخمر في الآخرة فليتركها في الدنيا ومن سره أن يكسوه الله الحرير فليتركه في الدنيا الطبراني في الأوسط بإسناد حسن وللنسائي بإسناد صحيح : من لبس الحرير في الدنيا لم يلبسه في الآخرة ومن شرب الخمر في الدنيا لم يشربها في الآخرة (٤) حديث : أنهار الجنة تنفجر من تحت تلال أو تحت جبال للمسك العقيلي في الضعفاء من حديث أبي هريرة (٥) حديث : لو كان أدنى أهل الجنة حلية عدلت بحلية أهل الدنيا جميعها لكان ما يحلبها الله به في الآخرة أفضل من حلية أهل الدنيا جميعها الطبراني في الأوسط من حديث أبي هريرة بإسناد حسن (٦) حديث : إن في الجنة شجرة يسير الراكب في ظلها مائة عام لا يقطعها الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة (٧) حديث أبي أمامة أقبل أعرابي قال يارسول الله قد ذكر الله في القرآن شجرة مؤذية قال ما هي قال السدر الحديث ابن الباركي في الزهد عن صفوان بن عمرو عن سليم بن عامر مرسل من غير ذكر لأبي أمامة .

صفه فقال يا جرير لو طلبت مثل هذا في الجنة لم تجده قلت يا أبا عبد الله فأين النخل والشجر قال أصولها القؤلز والذهب وأعلىها النمر .

( صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسررهم وأرائكهم وخيامهم )

قال الله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب ولؤلؤا ولباسهم فيها حرير - والآيات في ذلك كثيرة وإنما تفصيله في الأخبار فقد روى أبو هريرة أن النبي صلى الله عليه وسلم قال « من يدخل الجنة يتم لا يأس لا تبلى ثيابه ولا يفنى شبابه في الجنة ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر » (١) . « وقال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلق أم نسج تنسج فسكت رسول الله ﷺ وضعك بعض القوم فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم من تضعكون من جاهل سأل علما ثم قال رسول الله صلى الله عليه وسلم بل ينشق عنها ثمر الجنة مرتين » (٢) وقال أبو هريرة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أول زمرة تلج الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر لا يصقون فيها ولا يمتخطون ولا يتخطون آنتهم وأشاطهم من الذهب والفضة وورشهم المسك لكل واحد منهم زوجتان يرى مخ ساقها من وراء اللحم من الحسن لا اختلاف بينهم ولا تباغض قلوبهم على قلب واحد يسبحون الله بكرة وعشية ( وفي رواية ) على كل زوجة سبعون حلة » (٣) وقال صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال « إن عليهم التيجان إن أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب » (٤) وقال ﷺ « الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا في كل زاوية منها للؤمن أهل لإبراهيم الآخرون » (٥) « ورواه البخاري في الصحيح قال ابن عباس الحيمة درة مجوفة فرسخ في فرسخ لها أربعة آلاف مصراع من ذهب وقال أبو سعيد الخدري « قال رسول الله ﷺ في قوله تعالى : وفرش مرفوعة قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض » (٦) »

( صفة طعام أهل الجنة )

بيان طعام أهل الجنة مذكور في القرآن من النواكه والطيور والسمان واللبن والسوى والعسل واللبن وأصناف كثيرة لا تحصى قال الله تعالى - كلما رزقوا منها من ثمرة رزقا قالوا هذا الذي رزقنا من قبل وأتوا به متشابها - ، وذكر الله تعالى شراب أهل الجنة في مواضع كثيرة ،

(١) حديث أبي هريرة : من يدخل الجنة يتم ولا يأس لا تبلى ثيابه الحديث رواه مسلم دون قوله : في الجنة ما لا عين رأت الخ فانفق عليه الشيخان من حديث آخر لأبي هريرة : قال الله تعالى أعددت لعبادي الصالحين ما لا عين رأت الحديث (٢) حديث : قال رجل يا رسول الله أخبرنا عن ثياب أهل الجنة أخلق خلقا أم تنسج نسجا الحديث النسائي من حديث عبد الله بن عمرو (٣) حديث أبي هريرة : أول زمرة تدخل الجنة صورتهم على صورة القمر ليلة البدر الحديث متفق عليه (٤) حديث : في قوله تعالى - يحلون فيها من أساور من ذهب - قال إن عليهم التيجان أدنى لؤلؤة فيها تضيء ما بين الشرق والغرب الترمذي من حديث أبي سعيد دون ذكر الآية وقال لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد (٥) حديث : الحيمة درة مجوفة طولها في السماء ستون ميلا الحديث عزاه المصنف للبخاري وهو متفق عليه من حديث أبي موسى الأشعري (٦) حديث أبي سعيد في قوله تعالى - وفرش مرفوعة - قال ما بين الفراشين كما بين السماء والأرض الترمذي بلفظ : ارتفاعها لسما بين السماء والأرض خمسمائة سنة وقال غريب لا نعرفه إلا من حديث رشد بن سعد .

لا يبقى تمييز بين الخلوة والجلوة وبين القيام بصور الأعمال وبين تركها ولم يفهم منه أن القائل أراد بذلك معنى خاصا يبنى أن حظ للعرفة لا يتغير بحال من الأحوال وهذا صحيح لأن حظ العرفة لا يتغير ولا يفتقر إلى التمييز وتستوى الأحوال فيه ولكن حظ للبريد يتغير ويحتاج إلى

وقد قال ثوبان مولى رسول الله صلى الله عليه وسلم «كنت قائما عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فجاءه جبر من أخبار اليهود فذكر أسئلة إلى أن قال فمن أول إجازة يعنى على الصراط ؟ قال قراء المهاجرين ، قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة ؟ قال زيادة كبد الحوت ، قال لما غداؤهم على أثرها ؟ قال ينحرف لهم نور الجنة الذى كان يأكل فى أطرافها . قال فمأشراهم عليه ؟ قال من عين فيها تسمى سلسيلا . فقال صدقت (١) » وقال زيد بن أرقم «جاء رجل من اليهود إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم وقال يا أبا القاسم أأست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون وقال لأصحابه إن أقرئى بها خدمته فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم بلى والذى نفسى بيده إن أحدهم ليعطى قوة مائة رجل فى الطعام والشرب والجماع ، قال اليهودى فان الذى يأكل ويشرب يكون له الحاجة فقال رسول الله صلى الله عليه وسلم حاجتهم عرق فيض من جلودهم مثل السك فاذا البطن قد ضمير (٢) » وقال ابن مسعود قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فقتشه فيخر بين يديك مشويا (٣) » وقال حذيفة قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني . قال أبو بكر رضى الله عنه إنها لناعمة يارسول الله . قال أنهم منها من يأكلها وأنت بمن يأكلها يا أبا بكر (٤) » وقال عبد الله بن عمر فى قوله تعالى - يطاف عليهم بصحاف - قال يطاف عليهم بسبعين صحيفة من ذهب كل صحيفة فيها لون ليس فى الأخرى مثله . وقال عبد الله ابن مسعود رضى الله عنه - ومزاجه من تسنيم - قال يمزج لأصحاب اليمين ويشربه للتقربون صرفا . وقال أبو الدرداء رضى الله عنه : فى قوله تعالى - ختامه مسك - قال هو شراب أبيض مثل الفضة يخنمون به آخر شراهم لو أن رجلا من أهل الدنيا أدخل يده فيه ثم أخرجها لم يبق ذوروح إلا وجد ريح طيبها .

#### ( صفة الحور العين والولدان )

قد تكرر فى القرآن وصفهم ووردت الأخبار بزيادة شرح فيه ، روى أنس رضى الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال «غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها ولقاب قوس أحكم أوموضع قدمه من الجنة خير من الدنيا وما فيها ولو أن امرأة من نساء أهل الجنة طلعت إلى الأرض لأضأت وللاث ما بينهما رائحة ولنصفها على رأسها خير من الدنيا بما فيها (٥) » يعنى الحمار وقال

(١) حديث ثوبان جاء جبر من أخبار اليهود فذكر سؤاله إلى أن قال فمن أول الناس إجازة يعنى على الصراط فقال قراء المهاجرين قال اليهودى لما تحفتهم حين يدخلون الجنة قال زيادة كبد النون الحديث رواه مسلم بزيادة فى أوله وآخره (٢) حديث زيد بن أرقم جاء رجل من اليهود فقال يا أبا القاسم أأست تزعم أن أهل الجنة يأكلون فيها ويشربون الحديث وفيه حاجتهم عرق فيض من جلودهم مثل السك الفسائى فى الكبرى بإسناد صحيح (٣) حديث ابن مسعود إنك لتنظر إلى الطير فى الجنة فقتشه فيخر بين يديك مشويا بالزار بإسناد فيه ضعف (٤) حديث حذيفة إن فى الجنة طيرا أمثال البخاني الحديث غريب من حديث حذيفة ولأحمد من حديث أنس بإسناد صحيح إن طير الجنة كأمثال البخت ترعى فى شجر الجنة قال أبو بكر يارسول الله إن هذه الطير لناعمة قال أكلها أنهم منها قالها ثلاثا وإنى أرجو أن تكون بمن يأكل منها وهو عند الترمذى من وجه آخر ذكر فيه نهر السكونى وقال فيه طير أعناقها كأعناق الجزر قال عمر : إن هذه لناعمة الحديث وليس فيه ذكر لأبى بكر وحسن (٥) حديث غدوة فى سبيل الله أروحة خير من الدنيا وما فيها الحديث البخارى من حديث أنس .

التميز وليس فى هذا الكلام وأمثاله ما ينافى ما ذكرناه . قيل ل محمد ابن الفضل حاجة الممارفين إلى ماذا قال حاجتهم إلى الحصلة التى كلفت بها الحسن كلها ألا وهى الاستقامة وكل من كان آمم معرفة كان آمم استقامة فاستقامة أرباب النهاية على التجماع والعباد فى الابتداء مأخوذ فى الأعمال محبوب بها



أبو سعيد الخدرى قال رسول الله صلى الله عليه وسلم في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والرجان - قال ينظر إلى وجهها في خدرها أصنى من الرأة وإن أدنى لؤلؤة عليها لنضى مما بين الشرق والغرب وإنه يكون عليها سبعون ثوبا ينفذها بصره حتى يرى مخ ساقها من وراء ذلك <sup>(١)</sup> وقال أنس قال رسول الله صلى الله عليه وسلم لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى اليبسخ عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر فقام السلام عليك يا رسول الله فقلت يا جبريل ماهذا النداء قال هؤلاء المقصورات في الخيام استأذن ربهن في السلام عليك فأذن لهن فطفقن يقان نحن الراضيات فلا نسخط أبدا ونحن الخالدات فلا نطفن أبدا ، وقرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - حور مقصورات في الخيام - <sup>(٢)</sup> وقال مجاهد في قوله تعالى - وأزواج مطهرة - قال من الحيض والغائط والبول والبصاق والنخامة والمني والولد . وقال الأوزاعي - في شغل ما يكون - قال شغلهم اقتضاض الأبكار . وقال رجل يا رسول الله أياضع أهل الجنة ؟ قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منك <sup>(٣)</sup> وقال عبد الله بن عمر إن أدنى أهل الجنة منزلة من يسمى معه ألف خادم كل خادم على عمل ليس عليه صاحبه ، وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحدة منهم مقدار عمره في الدنيا» <sup>(٤)</sup> وقال النبي صلى الله عليه وسلم «إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء فإذا انتهى الرجل صورة دخل فيها وإن فيها لمجتمع الحور العين يرفعن بأصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقان نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له» <sup>(٥)</sup> وقال أنس رضى الله عنه قال رسول الله صلى الله عليه وسلم

(١) حديث أبي سعيد الخدرى في قوله تعالى - كأنهن الياقوت والرجان - قال تنظر إلى وجهها في خدرها أصنى من الرأة الحديث أبو يعلى من رواية أبي الهيثم عن أبي سعيد بإسناد حسن ورواه أحمد وفيه ابن لهيعة ورواه ابن المبارك في الزهد والرقائق من رواية أبي الهيثم عن النبي ﷺ مرسل دون ذكر أبي سعيد وللترمذى من حديث ابن مسعود إن الرأة من نساء أهل الجنة ليرى يابض مخ ساقها من وراء سبعين حلة الحديث ورواه عنه موقوفا قال وهذا أصح وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة لكل امرئ منهم زوجتان اثنتان يرى مخ سوقهما من وراء اللحم <sup>(٢)</sup> حديث أنس لما أسرى بي دخلت في الجنة موضعا يسمى الصرح عليه خيام اللؤلؤ والزبرجد الأخضر والياقوت الأحمر الحديث وفيه أن جبريل قال هؤلاء المقصورات في الخيام وفيه فطفقن يقان نحن الراضيات فلا نسخط لم أجده هكذا بتمامه وللترمذى من حديث علي بن إن في الجنة لمجتمع للحور العين يرفعن أصوات لم تسمع الخلائق مثلها يقان نحن الخالدات فلا نبيد ونحن الناعمات فلا نبأس ونحن الراضيات فلا نسخط فطوبى لمن كان لنا وكنا له وقال غريب والأبى الشيخ في كتاب العظمة حديث ابن أبي أوفى بسند ضعيف فيجتمع في كل سبعة أيام فيقن بأصوات الحديث <sup>(٣)</sup> حديث قال رجل يا رسول الله أياضع أهل الجنة قال يعطى الرجل منهم من القوة في اليوم الواحد أفضل من سبعين منك الترمذى ومحمد وابن حبان من حديث أنس يعطى المؤمن في الجنة قوة كذا وكذا من الجماع قليل أو يطبق ذلك قال يعطى قوة مائة <sup>(٤)</sup> حديث إن الرجل من أهل الجنة ليتزوج خمسمائة حوراء وأربعة آلاف بكر وثمانية آلاف ثيب يعانق كل واحد منهم مقدار عمره في الدنيا أبو الشيخ في طبقات المحدثين وفي كتاب العظمة من حديث ابن أبي أوفى إلا أنه قال مائة حوراء ولم يذكر فيه عناقته لهن وإسناده ضعيف وتقدم قبله حديث <sup>(٥)</sup> حديث إن في الجنة سوقا ما فيها بيع ولا شراء إلا الصور من الرجال والنساء الحديث الترمذى فرقه في موضعين من حديث علي وقد تقدم بعضه قبل هذا بحديثين .

عن الأحوال وفي التوسط محفوظ بالأحوال فقد يحجب عن الأعمال وفي الإتهاء لا تعجبه الأعمال عن الأحوال ولا الأحوال عن الأعمال وذلك هو الفضل العظيم . مثل الجنيد عن النهاية فقال هي الرجوع إلى البداية وقد فسر بعضهم قول الجنيد فقال معناه أنه كان في ابتداء أمره في جهل ثم وصل إلى

« إن الحور في الجنة يتفنن نحن الحور الحسان خبثنا لأزواج كرام <sup>(١)</sup> » وقال يحيى بن كثير في قوله تعالى - في روضة يجبرون - قال الساج في الجنة وقال أبو أمامة الباهلي قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الحور العين يضيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهديسه <sup>(٢)</sup> » .  
( بيان جمل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردت بها الأخبار )

روى أسامة بن زيد أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال لأصحابه « ألا هل مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها هي ورب الكعبة نور يتلأل وريحانة تهتز وقصر مشيد ونهر مطرد وفاكة كثيرة نضيجة وزوجة حسناء جميلة في حبرة وخدمة في مقام أبدا ونضرة في دار عالية بهية سليمة قالوا نعم المشمرون لها يا رسول الله قال قولوا إن شاء الله تعالى ثم ذكر الجهاد وحض عليه <sup>(٣)</sup> » وجاء رجل إلى رسول الله ﷺ وقال هل في الجنة خيل فأنها تصبني قال إن أحببت ذلك أتيت بفرس من باقوتة حمراء فتطير بك في الجنة حيث شئت له وقال رجل : إن الأبل تصبني فهل في الجنة من إبل قال يا عبد الله إن أدخلت الجنة فلك فيها ما تشتهي نفسك ولدت عيناك <sup>(٤)</sup> » وعن أبي سعيد الخدري قال قال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي يكون حملا وفصاله وشبابه في ساعة واحدة <sup>(٥)</sup> » وقال رسول الله ﷺ « إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا فيلتميان ويتحدثان ما كان بينهما في دار الدنيا فيقول بأخي تذكري يوم كذا في مجلس كذا فدعونا الله عز وجل ففقرنا <sup>(٦)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « إن أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين على خلق آدم طولهم ستون ذراعا في عرض سبعة أذرع <sup>(٧)</sup> » وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم « أدنى أهل الجنة الذي له ثمانون ألف خادم

للمعرفة ثم زد إلى التحير والجهل وهو كالطفولية يكون جهل ثم علم ثم جهل قال الله تعالى - لكيلا يعلم بعد علم شيئا - وقال بعضهم: أعرف الخلق بالله أشد ثم تحيرا فيه ويجوز أن يكون معنى ذلك ما ذكرناه أنه ينادى الأعمال ثم يرقى إلى الأحوال ثم يجمع له بين الأعمال والأحوال وهذا يكون المنتهى

(١) حديث أنس إن الحور في الجنة يتفنن فيقلن نحن الحور الحسان خبثنا لأزواج كرام الطبراني في الأوسط وفيه الحسن بن داود للنسكندري قال البخاري يتكلمون فيه وقال ابن عدي أرجو أنه لا بأس به (٢) حديث أبي أمامة مامن عبد يدخل الجنة إلا ويجلس عند رأسه وعند رجله ثقتان من الحور العين يضيانه بأحسن صوت سمعه الانس والجن وليس بمزمار الشيطان ولكن بتحميد الله وتهديسه الطبراني باسناد حسن (٣) حديث أسامة بن زيد « ألا هل من مشمر للجنة إن الجنة لا خطر لها الحديث ابن ماجه وابن حبان (٤) حديث جاء رجل إلى النبي صلى الله عليه وسلم فقال له هل في الجنة خيل فأنها تصبني الحديث الترمذي من حديث بريدة مع اختلاف لفظ وفيه المصودى مختلف فيه ورواه ابن المبارك في الزهد بلفظ المصنف من رواية عبد الرحمن بن سابط مرسل قال الترمذي وهذا أصح وقد ذكر أبو موسى اللديني عبد الرحمن بن سابط في ذيله على ابن منده في الصحابة ولا يصح له محبة (٥) حديث أبي سعيد إن الرجل من أهل الجنة ليولد له الولد كما يشتهي ويكون حملا وفصاله ونشأته في ساعة واحدة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب قال وقد اختلف أهل العلم في هذا فقال بعضهم في الجنة جماع ولا يكون ولد انتهى ولأحمد من حديث أبي رزين يلد ويلد مثل ما تشتهي في الدنيا ويلد ذن بكم غير أن لا توالد (٦) حديث إذا استقر أهل الجنة في الجنة اشتاق الاخوان إلى الاخوان فيسير سرير هذا إلى سرير هذا البزار من رواية الربيع بن صبيح عن الحسن بن أنس وقال لا نعلمه يروى عن النبي صلى الله عليه وسلم إلا بهذا الاسناد تفرد به أنس انتهى والربيع بن صبيح ضعيف جدا ورواه الأصفهاني في الترغيب والترهيب مرسل دون ذكر أنس (٧) حديث أهل الجنة جرد مرد يبيض جماد مكحولون أبناء ثلاث وثلاثين الحديث الترمذي من حديث معاذ وحسنه دون قوله يبيض جماد ودون قوله على خلق آدم إلى آخره

وثنتان وسبعون زوجة وينصب له قبة من لؤلؤ وزبرجد ويقوت كابين الجاية إلى صنعاء وإن عليهم  
 التيجان وإن أدنى لؤلؤة منها تفضي ما بين الشرق والغرب (١) وقال صلى الله عليه وسلم «نظرت  
 إلى الجنة فإذا الرمان من رمانها تكلف البعر اللقّب وإذا طيرها كالبعث وإذا فيها جارية قتلت يا جارية  
 لمن أنت ؟ قالت لزيد بن حارثة وإذا في الجنة مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر (٢)»  
 وقال كعب : خلق الله تعالى آدم عليه السلام يده وكتب التوراة يده وغرس الجنة يده ثم قال لها  
 تكلمي فقالت - قد أفلح المؤمنون - فهذه صفات الجنة ذكرناها جملة ثم قلناها تفصيلا ، وقد  
 ذكر الحسن البصري رحمه الله جملة فقال : إن رمانها مثل الدلاء وإن أنهارها لمن ماء غير آسن  
 وأنهار من لبن لم يتغير طعمه وأنهار من عسل مصفى لم يصفه الرجال وأنهار من خمر لينة لا تشغى  
 الأحلام ولا تصدع منها الرءوس وإن فيها مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر مملوك ناعمون  
 أبناء ثلاث وثلاثين في سن واحد طولهم ستون ذراعا في السماء كل جرد مرد قد آمنوا العذاب وأطاعت  
 بهم النار وإن أنهارها لتجري على رضراض من ياقوت وزبرجد وإن عروقها وتخلهاو كرمها اللؤلؤ  
 ونمارها لا يلم عليها إلا الله تعالى وإن ربها ليوجد من مسيرة خمسمائة سنة وإن لهم فيها خيلا وإبل  
 هفافة رحالها وأزمتها وسروجها من ياقوت يزاورون فيها وأزواجهم المحور العين كأنهن يبيض مكنون  
 وإن للراء تأخذ بين أصبعي سبعين حلة فلبسها فيرى مخ ساقها من وراء تلك السبعين حلة قد طهر الله  
 الأخلاق من السوء والأجساد من اللوث لا يتخطون فيها ولا يولون ولا يتفوطون وإنما هو جشاء ورشح  
 مسك لهم رزقهم فيها بكرة وعشيا أما إنه ليس ليل يكر العدو على الرواح والرواح على العدو وإن آخر من  
 يدخل الجنة وأدناهم منزلة ليمدله في بصره وملكه مسيرة مائة عام في قصور من الذهب والفضة وخيام اللؤلؤ  
 ويضع له في بصره حتى ينظر إلى أقصاه كما ينظر إلى أدناه يمدى عليهم سبعين ألف صحيفة من ذهب وبراح  
 عليهم بمثلها في كل صحيفة لون ليس في الأخرى مثله ولا يحيط به آخره كما يحيط به أوله وإن في الجنة لياقوتة  
 فيها سبعون ألف دار في كل دار سبعون ألف بيت ليس فيها صدع ولا تقب. وقال مجاهد : إن أدنى أهل  
 الجنة منزلة لمن يسير في ملكه ألف سنة يرى أقصاه كما يرى أدناه وأرضهم القدي ينظر إلى ربه بالقدرة  
 والعشي . وقال سعيد بن المسيب : ليس أحد من أهل الجنة إلا وفي يده ثلاثة أسورة سوار من ذهب وسوار  
 من لؤلؤ وسوار من فضة . وقال أبو هريرة رضي الله عنه : إن في الجنة حوراء يقال لها العيئة إذا مشى  
 عن يمينها ويسارها سبعون ألف وصيفة وهي تقول أين الأمرين بالمعروف والناهون عن المنكر . وقال  
 يحيى بن معاذ : ترك الدنيا شديد وفوت الجنة أشد من ترك الدنيا مفر الآخرة ، وقال أيضا في طلب الدنيا ذل  
 النفوس وفي طلب الآخرة عز النفوس فإيهما لمن يختار الذلة في طلب ما يفنى ويترك العز في طلب ما يبقى .

( صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى )

قال الله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - وهذه الزيادة هي النظر إلى وجه الله تعالى وهي اللذة

ورواه أيضا من حديث أبي هريرة مختصرا أهل الجنة جرد مرد كل وقال غريب وفي الصحيحين  
 من حديث أبي هريرة على صورة أبيهم آدم تحتون ذراعا (١) حديث أدنى أهل الجنة منزلة الذي له  
 ثمانون ألف خادم الحديث الترمذي من حديث أبي سعيد منقطع من أوله إلى قوله وإن عليهم التيجان  
 ومن هنا باسناده أيضا وقال لانمره إلا من حديث رعد بن سمدة (٢) حديث نظرت إلى الجنة فإذا الرمان  
 من رمانها ككبد البحر للقتب وإذا طيرها كالبعث الحديث رواه الثعلبي في تفسيره من رواية أبي هريرة  
 البدي عن أبي سعيد وأبو هريرة اسمه عمارة بن حريث ضعيف جدا وفي الصحيحين من حديث أبي هريرة  
 يقول الله أعددت لعبادي الصالحين مالا عين رأت ولا أذن سمعت ولا خطر على قلب بشر .

الراد الأخذ في طريق  
 المحسوسين تجنب  
 روحه إلى الحضرة  
 الإلهية وتتبع  
 القلب والقلب يتبع  
 النفس والنفس تتبع  
 القلب فيكون بكنهه  
 قائما بالله ساجدا  
 بين يدي الله تعالى  
 كما قال رسول الله  
 صلى الله عليه وسلم  
 «سجد لك سواي  
 وخيالي» وقال الله تعالى  
 - والله يسجد من في

الكبرى التى ينسى فيها نعيم أهل الجنة وقد ذكرنا حقيقتها فى كتاب الهبة وقد شهد لها الكتاب والسنة على خلاف ما يعتقد أهل البعدة قال جرير بن عبد الله البجلي « كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر قال إنكم ترون ربكم كما ترون هذا القمر لا تضامون فى رؤيته فإن استطعتم أن لا تغلبوا على صلاة قبل طلوع الشمس وقبل غروبها فافعلوا ثم قرأ - وصبح بحمد ربك قبل طلوع الشمس وقبل غروبها - (١) وهو مخرج فى الصحيحين وروى مسلم فى الصحيح عن صيب قال « قرأ رسول الله صلى الله عليه وسلم قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - قال إذا دخل أهل الجنة الجنة وأهل النار النار نادى مناد يا أهل الجنة إن لكم عند الله موعدا يريد أن ينجزكموه قالوا ما هذا الموعد ؟ ألم يتقل موازيننا وبيننا وجوهنا ويدخلنا الجنة ويخبرنا من النار قاله فيرفع الحجاب وينظرون إلى وجه الله عز وجل فما أعطوا شيئا أحب إليهم من النظر إليه (٢) » وقرئ حديث الرؤيا جماعة من الصحابة وهذه هى غاية الحسنى ونهاية التحسنى وكل ما فصلناه من التمتع عند هذه النعمة ينسى وليس لسرور أهل الجنة عند سعادة اللقاء منتهى بل لانسبة لشيء من لذات الجنة إلى لذة اللقاء ، وقد أوجزنا فى الكلام هنا لما فصلناه فى كتاب الهبة والشوق والرضا فلا ينبغي أن تكون همه البعد من الجنة بشئ سوى لقاء الولي . وأما سائر نعيم الجنة فانه يشارك فيه البريمة للسرحة فى للرعى .

( نغتم الكتاب بباب فى سنة رحمة الله تعالى على سبيل التناؤل بذلك )

قد « كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التناؤل (٣) » وليس لنا من الأعمال ما نرجو به للتغفرة فنقتدى برسول الله ﷺ فى التناؤل ونرجو أن نغتم عاقبتنا بالخير فى الدنيا والآخرة كما ختمنا الكتاب بذكر رحمة الله تعالى فقد قال الله تعالى - إن الله لا يفر أن يحرك به ويفر مادون ذلك لمن يشاء - وقال تعالى - قل يا عبادى الذين أسرفوا على أنفسهم لا تقنطوا من رحمة الله إن الله يغفر الذنوب جميعا إنه هو الغفور الرحيم - وقال تعالى - ومن يعمل سوءا أو يظلم نفسه ثم يستغفر الله يجد الله غفورا رحيما - ونحن نستغفر الله تعالى من كل ما زلت به القدم أو طفى به القلم فى كتابنا هذا وفى سائر كتبنا ونستغفره من أقوالنا التى لاتوافقها أعمالنا ونستغفره مما ادعينا وأظهرناه من العلم والبصيرة بدین الله تعالى مع التقصير فيه ونستغفره من كل علم وعمل قصدنا به وجهه الكريم ثم خالطه غيره ونستغفره من كل وعد وعدهاء به من أنفسنا ثم قصرنا فى الوفاء به ونستغفره من كل نعمة أنعم بها علينا فاستعملناها فى معصيته ونستغفره من كل تصريح وتعمير بنقصان ناقص وتقصير مقصر كنا متصفين به ونستغفره من كل خطرة دعنا إلى تصنع وتكلف تزينا للناس فى كتاب سطرناه أو كلام نظمناه أو علم أفدناه أو استفدناه ، ونرجو بعد الاستغفار من جميع ذلك كله لنا ولمن طالع كتابنا هذا أو كتبه أو سمعه أن نكرم بالمغفرة والرحمة والتجاوز عن جميع السيئات ظاهرا وباطنا

(١) حديث جرير : كنا جلوسا عند رسول الله صلى الله عليه وسلم فرأى القمر ليلة البدر قال إنكم ترون ربكم الحديث هو فى الصحيحين كما ذكر المصنف (٢) حديث صيب فى قوله تعالى - للذين أحسنوا الحسنى وزيادة - رواه مسلم كما ذكره المصنف .

( باب فى سنة الرحمة )

(٣) حديث : كان رسول الله صلى الله عليه وسلم يحب التناؤل متفق عليه من حديث أنس فى أثناء حديث : ويصحبى النأل الصالح والكلمة الحسنة ولهما من حديث أبى هريرة : وخيرهما النأل قالوا وما النأل ؟ قال الكلمة الصالحة يسميها أحدكم .

السموات والأرض  
طوعا وكرها وظلالهم  
بالصدو والآمال -  
والظلال القلوب تسجد  
بسجود الأرواح وعند  
ذلك تسرى روح الهبة  
فى جميع أجزائهم  
وأبعاضهم فيتقدون  
ويتنعمون بذكر  
الله تعالى وتلاوة  
كلامه بحبة وودا  
فيحبهم الله تعالى

فان الكرم عظيم والرحمة واسعة والجود على أصناف الخلائق فائض ونحن خلق من خالق الله عز وجل لا وسيلة لنا إليه إلا فضله وكرمه فقد قال رسول الله ﷺ «إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس والطيور والبهائم والحوام فيها يتعاطفون وبها يتراحمون وأخر تسع وتسعين رحمة يرحم بها عباده يوم القيامة (١)» وروى أنه «إذا كان يوم القيامة أخرج الله تعالى كتابا من تحت العرش فيه إن رحمى سبقت غضبي وأنا أرحم الراحمين فيخرج من النار مثلاً أهل الجنة (٢)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «يتجلى الله عز وجل لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه في النار يهودياً أو نصرانياً (٣)» وقال النبي ﷺ «يشفع الله تعالى آدم يوم القيامة من جميع ذريته في مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف (٤)» وقال ﷺ «إن الله عز وجل يقول يوم القيامة للؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم يا ربنا فيقول لم؟ فيقولون رجونا عفوك ومغفرتك فيقول قد أوجبت لكم مغفرتى (٥)» وقال رسول الله ﷺ «يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافى فى مقام (٦)» وقال رسول الله ﷺ «إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معنا فى النار فيقولون كانت لنا ذنوب فأخذنا بها فيسمع الله عز وجل ما قالوا فيأمر بأخراج من كان فى النار من أهل القبلة فيخرجون فإذا رأى ذلك الكفار قالوا يا ليتنا كنا مسلمين فنخرج كما أخرجوا ثم قرأ رسول الله ﷺ ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين (٧)» وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «الله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفقة بولدها (٨)» وقال جابر بن عبد الله

(١) حديث إن الله تعالى مائة رحمة أنزل منها رحمة واحدة بين الجن والإنس الحديث مسلم من حديث أبي هريرة وسلمان (٢) حديث إذا كان يوم القيامة أخرج الله كتاباً من تحت العرش فيه إن رحمى سبقت غضبي الحديث متفق عليه من حديث أبي هريرة لما قضى الله الخلق كتب عنده فوق العرش إن رحمى سبقت غضبي لفظ البخارى وقال مسلم كتب فى كتابه على نفسه إن رحمى تطلب غضبي (٣) حديث يتجلى الله لنا يوم القيامة ضاحكاً فيقول أشيروا بعشر المسلمين فإنه ليس منكم أحد إلا وقد جعلت مكانه فى النار يهودياً أو نصرانياً مسلم من حديث أبي موسى إذا كان يوم القيامة دفع الله إلى كل مسلم يهودياً أو نصرانياً فيقول هذا فداؤك من النار ولأبى داود أمى أمة مرحومة لا عذاب عليها فى الآخرة الحديث وأما أول الحديث فرواه الطبرانى من حديث أبي موسى أيضاً يتجلى الله ربنا لنا ضاحكاً يوم القيامة حتى ينظروا إلى وجهه فيخرون له سجداً فيقول ارفعوا رءوسكم فليس هذا يوم عبادة وفيه على بن زيد ابن جلدان (٤) حديث يشفع الله آدم يوم القيامة من ذريته فى مائة ألف ألف وعشرة آلاف ألف الطبرانى من حديث أنس بإسناد ضعيف (٥) حديث إن الله تعالى يقول يوم القيامة للؤمنين هل أحببتم لقائى فيقولون نعم الحديث أحمد والطبرانى من حديث معاذ بسند ضعيف (٦) حديث يقول الله عز وجل يوم القيامة أخرجوا من النار من ذكرنى يوماً أو خافى فى مقام الترمذى من حديث أنس وقال حسن غريب (٧) حديث إذا اجتمع أهل النار فى النار ومن شاء الله معهم من أهل القبلة قال الكفار للمسلمين ألم تكونوا مسلمين ؟ قالوا بلى فيقولون ما أغنى عنكم إسلامكم إذ أنتم معانفى النار الحديث فى إخراج أهل القبلة من النار ثم قرأ رسول الله ﷺ - ربما يود الذين كفروا لو كانوا مسلمين - النسائى فى الكبرى من حديث جابر نحوه بإسناد صحيح (٨) حديث لله أرحم بعبده المؤمن من الوالدة الشفقة بولدها متفق عليه من حديث عمر بن الخطاب وفى أوله قصة المرأة من السبي إذ وجدت صبياً فى السبي فأخذته فألصقته ببطنها فأرضته .

ويعجبهم إلى خلقه  
نعمه منه عليهم وفضلا  
على ما أخبرنا شيخنا  
ضياء الدين أبو النجيب  
السهروردى رحمه الله  
قال أنا أبو طالب  
الزبني قال أخبرتنا  
حكمة الدروزية  
قالت أنا أبو الهيثم  
الكشميهني قال أنا  
عبد الله الفريرى قال  
أنا أبو عبد الله البخارى

من زادت حسناته على سيئاته يوم القيامة فذلك الذي يدخل الجنة بغير حساب ومن استوت حسناته وسيئاته فذلك الذي يحاسب حسابا يسيرا ثم يدخل الجنة وإنما شفاعة رسول الله صلى الله عليه وسلم لمن أوبق نفسه وأثقل ظهره ويروى أن الله عز وجل قال لموسى عليه السلام يا موسى استغاث بك فارون فلم تنه وعزني وجلالي لو استغاث بي لأعنته وعفوت عنه وقال سعد بن بلال : يؤمر يوم القيامة باخراج رجلين من النار فيقول الله تبارك وتعالى ذلك بما قدمت أيديكما وما أنا بظلام للعبيد ويأمر بردهما إلى النار فيعدو أحدهما في سلاسله حتى يقتحمها وينلكا الآخر فيؤمر بردهما ويسألهما عن فعلهما فيقول الذي عدا إلى النار قد حذرت من وبال العصية فلم أكن لأعرض لسخطك ثانية ويقول الذي نلكا حسن ظني بك كان يشمرني أن لا تردني إليها بعد ما أخرجتني منها فيأمر بهما إلى الجنة . وقال رسول الله صلى الله عليه وسلم «ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد وهبت لكم وبقيت التبعات فتواهبوها وادخلوا الجنة رحمى<sup>(١)</sup>» ويروى أن أعرايا مع ابن عباس يقرأ - وكنت على شفاخرة من النار فأخذكم منها - فقال الأعراي والله ما أتدكم منها وهو يريد أن يوقهم فيها فقال ابن عباس خذوها من غير قبيه وقال الصائغي دخلت على عبادة بن الصامت وهو في مرض الموت فبكت فقال مهلا لم يبكى؟ فوالله ما من حديث سمعته من رسول الله ﷺ لكم فيه خير إلا حدثتكموه إلا حديثا واحدا وسوف أحدثكموه اليوم وقد أحبط بنفسى سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول «من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرم الله عليه النار<sup>(٢)</sup>» وقال عبد الله بن عمرو بن العاص قال رسول الله ﷺ «إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر عليه تسعة وتسعين سجلا كل سجل منها مثل مد البصر ثم يقول أتتكر من هذا شيئا أظلمت لك كنتي الحافظون فيقول لا يارب فيقول أفلك عذر فيقول لا يارب فيقول بلى إن لك عندنا حسنة وإنه لا ظلم عليك اليوم فيخرج بطاقة فيها أشهد أن لا إله إلا الله وأشهد أن محمدا رسول الله فيقول يارب ما هذه البطاقة مع هذه السجلات فيقول إنك لا تطعم قال فتوضع السجلات في كفة والبطاقة في كفة قال فطاشت السجلات وتقلت البطاقة فلا تثقل مع اسم الله شيء<sup>(٣)</sup>» وقال رسول الله ﷺ في آخر حديث طويل يصف فيه القيامة والصراط إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم ندر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال نصف دينار من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم ندر فيها أحدا ممن أمرتنا به ثم يقول ارجعوا فن وجدتم في قلبه مثقال ذرة من خير فأخرجوه فيخرجون خلقا كثيرا ثم يقولون ياربنا لم ندر فيها أحد ممن أمرتنا به فكان أبو سعيد يقول إن لم تصدقوني بهذا الحديث فاقروا إن شئتم - إن الله لا يظلم مثقال ذرة وإن تك حسنة يضاعفها ويؤت من لدنه أجرا عظيما -

(١) حديث ينادي مناد من تحت العرش يوم القيامة يا أمة محمد أما ما كان لي قبلكم فقد غفرت له لكم وبقيت التبعات فتواهبوها بينكم وادخلوا الجنة برحمي ربي رواه في سباعات أبي الأعمد القشيري من حديث أنس وفيه الحسين بن داود البجلي قال الخطيب ليس بثقة (٢) حديث الصائغي عن عبادة بن الصامت من شهد أن لا إله إلا الله وأن محمدا رسول الله حرمه الله على النار مسلم من هذا الوجه وانفقا عليه من غير رواية الصائغي بلفظ آخر (٣) حديث عبد الله بن عمرو إن الله يستخلص رجلا من أمتي على رؤوس الخلائق يوم القيامة فينشر له تسعة وتسعون سجلا فذكر حديث البطاقة ابن ماجه والترمذي وقال حسن غريب .

قال حدثني إسحق قال  
حدثنا جسد الصد  
قال حدثنا عبد الرحمن  
ابن عبد الله بن دينار  
عن أبيه عن أبي  
سالم عن أبي هريرة  
رضي الله عنه قال  
قال رسول الله صلى الله  
عليه وسلم « إن الله

قال فيقول الله تعالى شفعت للانسكة وشفع النبيون وخضع المؤمنون ولم يبق إلا أرحم الراحمين فيقبض قبضة فيخرج منها قوما لم يعملوا خيرا قط قد عادوا حمما فيلقهم في نهر في أفواه الجنة يقال للنهر الحياة فيخرجون منها كما تخرج الحبة في حميل السيل الأترونها تكون مما يلي الحجر والشجر مما يكون إلى الشمس أصفر وأخضر وما يكون منها إلى الظل أبيض قالوا يا رسول الله كأنك كنت ترعى بالبادية قال فيخرجون كاللؤلؤ في رقابهم الخواتيم يعرفهم أهل الجنة يقولون هؤلاء عتقاء الرحمن الذين أدخلهم الجنة بغير عمل عملهم ولا خير قدموه ثم يقول ادخلوا الجنة ثم أرايتم فهو لكم فية ولون ربنا أعطيتنا ما لم نعط أحدا من العالمين فيقول الله تعالى إن لكم عندي ما هو أفضل من هذا فيقولون يا ربنا أي شيء أفضل من هذا؟ فيقول رضائي عنكم فلا أسخط عليكم بعده أبدا<sup>(١)</sup> رواه البخاري ومسلم في صحيحهما وروى البخاري أيضا عن ابن عباس رضي الله عنهما قال «خرج علينا رسول الله صلى الله عليه وسلم ذات يوم فقال عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجل والنبي ليس معه أحد والنبي معه الرهط فرأيت سوادا كثيرا فرجوت أن تكون أمي قبل لي هذا موسى وقومه ثم قيل لي انظر فرأيت سوادا كثيرا قد سد الأفق قبل لي انظر هكذا وهكذا فرأيت سوادا كثيرا قيل لي هؤلاء أمتك ومع هؤلاء سبعون ألفا يدخلون الجنة بغير حساب فتفرق الناس ولم يبق لهم رسول الله صلى الله عليه وسلم فتذاكر ذلك الصحابة فقالوا أما نحن فولهنا في الشرك ولكن قد آمننا بالله ورسوله هؤلاء هم أنباؤنا فبلغ ذلك رسول الله صلى الله عليه وسلم فقال هم الذين لا يكتنون ولا يسترقون ولا يتطيرون وعلى ربهم يتوكلون فقام عكاشة فقال ادع الله أن يجعلني منهم يا رسول الله فقال أنت منهم ثم قام آخر فقال مثل قول عكاشة فقال النبي صلى الله عليه وسلم سبئك بها عكاشة<sup>(٢)</sup> وعن عمرو بن حزم الأنصاري قال «تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع فلما كان اليوم الرابع خرج إلينا قلنا يا رسول الله احتسبت عنا حتى ظننا أنه قد حدث حدث قال لم يحدث إلا خير إن ربي عز وجل وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لاحتساب عليهم وإنني سألت ربي في هذه الثلاثة أيام الزيد فوجدت ربي ماجدا واجدا كريما فأعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا قال قلت يا رب وتبلغ أمي هذا؟ قال أكمل لك العدد من الأعراب<sup>(٣)</sup> وقال أبو ذر قال رسول الله صلى الله عليه وسلم «عرض لي جبريل في جانب الحرة فقال بشر أمك أنه من مات لا يشرك بالله شيئا دخل الجنة قلت يا جبريل

(١) حديث إن الله يقول للملائكة من وجدتم في قلبه مثقال دينار من خير فأخرجوه من النار فيخرجون خلقا كثيرا الحديث في إخراج اللوحدين وقوله تعالى لأهل الجنة: فلا أسخط عليكم بعده أبدا أخرجه في الصحيحين كما ذكر المصنف من حديث أبي سعيد (٢) حديث ابن عباس عرضت على الأمم يمر النبي معه الرجل والنبي معه الرجل والنبي ليس معه أحد الحديث إلى قوله سبئك بها عكاشة رواه البخاري (٣) حديث عمرو بن حزم الأنصاري تقرب عنا رسول الله صلى الله عليه وسلم ثلاثا لا يخرج إلا الصلاة مكتوبة ثم يرجع وفيه إن ربي وعدني أن يدخل من أمي الجنة سبعين ألفا لاحتساب عليهم وفيه أعطاني مع كل واحد من السبعين ألفا سبعين ألفا وفيه رجل لم يسم ولا أحمد والطبراني في الأوسط من حديث عبد الرحمن بن أبي بكر فقال عمر فلا استزدته فقال قد استزدته فأعطاني مع كل رجل سبعين ألفا قال عمر فلا استزدته قال قد استزدته فأعطاني هكذا وفرج عبد الله بن أبي بكر بين يديه قال عبد الله وبسط باعیه وحشي عليه وفيه موسى بن عبيدة الرندي طيف .

تعالى إذا أحب عبدا  
نادى جبريل إن الله  
تعالى قد أحب فلانا  
فأحبه فيحبه جبريل  
ثم ينادى جبريل  
في السماء إن الله قد  
أحب فلانا فأحبوه  
فيحبه أهل السماء  
ويوضع له القبول في





## فهرس

١١٥	الطرف الخامس في نعم الله تعالى في الأسباب الموصلة للأطمعة إليك	٢	( مكناب التوبة )
١١٦	الطرف السادس في إصلاح الأطمعة	٣	الركن الأول في نفس التوبة الخ
الطرف السابع في إصلاح المصلحين	١١٧	بيان حقيقة التوبة وحدها	٤
الطرف الثامن في بيان نعمة الله تعالى في خلق الملائكة عليهم السلام	١١٧	بيان وجوب التوبة وفضلها	٥
١٢٠	بيان السبب العارف للخلق عن الشكر	٦	بيان أن وجوب التوبة على القور
١٢٤	الركن الثالث من كتاب الصبر	٩	بيان أن وجوب التوبة عام في الأشخاص والأحوال فلا ينفك عنه أحد البتة
١٣١	بيان وجه اجتماع الصبر والشكر على شيء واحد	١٢	بيان أن التوبة إذا استجمعت شرائطها فهي مقبولة لا محالة
١٣٢	بيان فضل النعمة على البلاء	١٥	الركن الثاني فيها عنه التوبة وهي الذنوب
١٣٢	بيان الأفضل من الصبر والشكر	٢٢	بيان أقسام الذنوب بالإضافة إلى صفات العبد
١٣٨	( كتاب الخوف والرجاء )	٢٢	بيان كيفية توزيع الدرجات والدركات في الآخرة على الحسنات والسيئات في الدنيا
ويشتمل على شطرين أما الشطر الأول فيشتمل على		٣٢	بيان ما تعظم به الصفات من الذنوب
بيان حقيقة الرجاء الخ		٣٤	الركن الثالث في تمام التوبة الخ
١٣٩	بيان حقيقة الرجاء	٤٣	بيان أقسام الصادق في دوام التوبة
١٤١	بيان فضيلة الرجاء والترغيب فيه	٤٦	بيان ما ينبغي أن يبادر إليه التائب الخ
١٤٢	بيان دواء الرجاء والسبيل الذي يحصل منه حال الرجاء ويغلب	٤٩	الركن الرابع في دواء التوبة الخ
١٥٢	الشرط الثاني من الكتاب في الخوف	٥٩	( مكناب الصبر والشكر )
بيان حقيقة الخوف		٦٠	الشرط الأول في الصبر
١٥٤	بيان درجات الخوف واختلافه في القوة والضعف	٦١	بيان فضيلة الصبر
١٥٥	بيان أقسام الخوف بالإضافة إلى ما يخاف منه	٦٥	بيان كون الصبر نصف الإيمان
١٥٧	بيان فضيلة الخوف والترغيب فيه		بيان الأسامي التي تتجدد للصبر الخ
١٦١	بيان أن الأفضل هو غلبة الخوف أو غلبة الرجاء أو اعتدالهما	٦٦	بيان أقسام الصبر بحسب اختلاف القوة والضعف
١٦٤	بيان الذي به يستجلب حال الخوف	٦٧	بيان مظان الحاجة إلى الصبر الخ
١٧٠	بيان معنى سوء الخاتمة	٧٣	بيان دواء الصبر وما يستعان به عليه
١٧٧	بيان أحوال الأنبياء والملائكة عليهم الصلاة والسلام في الخوف	٧٨	الشرط الثاني من الكتاب في الفكر
١٨٠	بيان أحوال الصعابة والتأبين والسلف والصالحين في شدة الخوف		الركن الأول في نفس الفكر
١٨٥	( كتاب الفقر والزهد )		بيان فضيلة الفكر
الشرط الأول من الكتاب في الفقر		٧٩	بيان حد الشكر وحدته
١٨٦	بيان حقيقة الفقر واختلاف أحوال الفقير وأسامي	٨٣	بيان طريق كشف النقاء عن الشكر في حق الله تعالى
١٨٩	بيان فضيلة الفقر مطلقا	٨٧	بيان تعمير ما يحبه الله تعالى عما يكرهه
١٩٥	بيان فضيلة خصوص الفقراء من الراصين والقانتين والصادقين	٩٦	الركن الثاني من أركان الشكر الخ
١٩٩	بيان فضيلة الفقر على التقي		بيان حقيقة النعمة وأقسامها
٢٠١	بيان آداب الفقير في فقره	١٠٦	بيان وجه التواضع في كثرة نعم الله تعالى وتسللها وخروجها من الحصر
٢٠٢	بيان آداب الفقير في قبول الصفاء الخ	١٠٧	الطرف الأول في نعم الله تعالى في خلق أسباب الإدراك
٢٠٥	بيان تحريم السؤال من غير ضرورة وآداب الفقير المضطرب فيه	١٠٨	الطرف الثاني في أصناف النعم في خلق الإرادات
٢٠٩	بيان مقدار النقي المحرم للسؤال	١٠٩	الطرف الثالث في نعم الله تعالى في خلق القدرة والآلات المحركة
		١١٣	الطرف الرابع في نعم الله تعالى في الأصول التي تحصل فيها الأطمعة الخ

## ملحوظ

## صفحة

٢١٠	بيان أحوال السالكين
٢١١	الشطر الثاني من الكتاب في الزهد
	بيان حقيقة الزهد
٢١٤	بيان فضيلة الزهد
٢٢٠	بيان درجات الزهد وأقسامه الخ
٢٢٤	بيان تفصيل الزهد فيما هو من ضروريات الحياة
٢٣٦	بيان علامات الزهد
٢٣٨	( كتاب التوحيد والتوكل )
	بيان فضيلة التوكل
٢٤٠	بيان حقيقة التوحيد الذي هو أصل التوكل وهو الشطر الأول من الكتاب
٢٥٣	الشطر الثاني من الكتاب في أحوال التوكل وأعماله وفيه بيان حال التوكل الخ
	بيان حال التوكل
٢٥٧	بيان ما قاله الصيوخ في أحوال التوكل
٢٥٨	بيان أعمال التوكلين
٢٦٥	بيان توكل المعبول
٢٦٨	بيان أحوال التوكلين في التعلق بالأسباب بضرب مثال
٢٧٤	بيان آداب التوكلين إذا سرق متاعهم
٢٧٩	بيان أن ترك التداوى قد يحمي في بعض الأحوال ويدل على قوة التوكل الخ
٢٨٣	بيان الرد على من قال ترك التداوى أفضل بكل حال
٢٨٥	بيان أحوال التوكلين في إظهار المرض وكنائه
٢٨٦	( كتاب المحبة والشوق والأنس والرضا )
	بيان شواهد الشروع في حب المبدقة تعالى
٢٨٨	بيان حقيقة المحبة وأسبابها وتحقيق معنى محبة المبدقة تعالى
٢٩٣	بيان أن المستحق للمحبة هو الله وحده
٢٩٩	بيان أن أجل الذات وأعلامها معرفة الله تعالى الخ
٣٠٣	بيان السبب في زيادة النظر في الآخرة على المعرفة في الدنيا
٣٠٧	بيان الأسباب القوية لحب الله تعالى
٣١١	بيان السبب في تفاوت الناس في الحب
٣١٢	بيان السبب في قصور أفهام المخلق عن معرفة الله سبحانه وتعالى
٣١٤	بيان معنى الشوق إلى الله تعالى
٣١٨	بيان محبة الله تعالى للمبدد ومعناها
٣٢٠	القول في علامات محبة المبدقة تعالى
٣٢٩	بيان معنى الأنس بالله تعالى
٣٣١	بيان معنى الانبساط والإدلال الذي يشهده خلقه الأس
٣٣٣	القول في معنى الرضا بقضاء الله الخ
٣٣٤	بيان فضيلة الرضا
٣٣٧	بيان حقيقة الرضا وتصوره فيما يخالف الهوى
٣٤١	بيان أن الدعاء غير منافس للرضا

٣٤٤	بيان أن التفرار من البلاد التي هي مطلق القاص ومنعتها لا يقدح في الرضا
٣٤٥	بيان جهة من حكايات المحبين وأقوالهم ومكاشفتهم
٣٤٩	خاتمة الكتاب بكلمات متفرقة تتعلق بالمحبة ينتفع بها
٣٥٠	( كتاب الثبة والإخلاص والصدق )
٣٥١	الباب الأول في الثبة
	بيان فضيلة الثبة
٣٥٣	بيان حقيقة الثبة
٣٥٥	بيان سر قول صلى الله عليه وسلم : لا يؤمن خير من عمله
٣٥٧	بيان تفصيل الأعمال المتعلقة بالثبة
٣٦٢	بيان أن الثبة غير داخلة تحت الاختيار
٣٦٤	الباب الثاني في الإخلاص وفضيلته وحقيقته ودرجاته
	فضيلة الإخلاص
٣٦٧	بيان حقيقة الإخلاص
٣٦٩	بيان أقوال الصيوخ في الإخلاص
٣٧٠	بيان درجات القناعات والآفات للكدرة للإخلاص
٣٧٢	بيان حكم العمل للشوب واستحقاق الثواب به
٣٧٤	الباب الثالث في الصدق وفضيلته وحقيقته ودرجاته .
	فضيلة الصدق
٣٧٥	بيان حقيقة الصدق ومعناه ومراتبه
٣٨١	( كتاب المراقبة والمحاسبة )
	المقام الأول من الرابطة المشارطة
٣٨٤	المراقبة الثانية المراقبة
٣٨٥	بيان حقيقة المراقبة ودرجاتها
٣٩١	المراقبة الثالثة محاسبة النفس الخ
	فضيلة المحاسبة
٣٩٢	بيان حقيقة المحاسبة بمد العمل
٣٩٣	المراقبة الرابعة في مراقبة النفس على تصرفها
٣٩٥	المراقبة الخامسة المجاهدة
٤٠٣	المراقبة السادسة في توبيخ النفس ومعاتبتها
٤٠٩	( كتاب التفكير )
٤١٠	فضيلة التفكير
٤١٢	بيان حقيقة التفكير وثمرته
٤١٣	بيان مجازي التفكير
٤٢٠	بيان كيفية التفكير في خلق الله تعالى
٤٣٣	( كتاب ذكر الموت وما بعده )
	الشطر الأول في مقدمته وتوابعه الخ
٤٣٤	الباب الأول في ذكر الموت الخ
	بيان فضل ذكر الموت كما كان
٤٣٦	بيان الطريق في تحقيق ذكر الموت في القلب
٤٣٧	الباب الثاني في طول الأمل وفضيلة قصر الأمل وسبب طول وكيفية معالجته

صفحة	موضوع
٤٨٦	بيان سؤال منكر ونكير وصورتها ونقطة القبر
	وجبة القول في عذاب القبر
٤٨٨	الباب الثامن في معرفة أحوال الموتى بالكشفة والناس
٤٩٠	بيان منامات تكشف عن أحوال الموتى والأعمال النافعة في الآخرة
٤٩١	بيان منامات الشايع رحمة الله عليهم أجمعين
٤٩٤	الشعر الثاني من كتاب ذكر الموت في أحوال البيت من وقت نفخة الصور إلى آخر الاستقرار في الجنة أو النار وتفصيل ما بين يديه من الأموال والأخطار وفيه بيان نفخة الصور الخ . صفة نفخة الصور
٤٩٦	صفة أرض المحض وأهلها
٤٩٧	صفة العرق
٤٩٨	صفة طول يوم القيامة
٤٩٩	صفة يوم القيامة ودوامه وأساسه
٥٠١	صفة المساءة
٥٠٣	صفة الميزان
٥٠٤	صفة الخصاء ورد الظالم
٥٠٧	صفة الصراط
٥٠٩	صفة الشفاعة
٥١٢	صفة الخوض
٥١٤	القول في صفة جهنم وأحوالها وأنكالتها
٥١٩	القول في صفة الجنة وأصناف نعيمها
٥٢٢	صفة حائط الجنة وأراضيها وأشجارها وأنهارها
٥٢٣	صفة لباس أهل الجنة وفرشهم وسروهم وأرائكهم وخيامهم
	صفة طعام أهل الجنة
٥٣٤	صفة الخمر والعين والودان
٥٢٦	بيان جبل مفرقة من أوصاف أهل الجنة وردة بها الأخيار
٥٢٧	صفة الرؤية والنظر إلى وجه الله تبارك وتعالى . نغم الكتاب ياب في سعة رحمة الله تعالى على سبيل التفاؤل بذلك
٥٢٨	باب في سعة رحمة الله تعالى

صفحة	موضوع
	فضيلة نصر الأمل
٤٤١	بيان السبب في طول الأمل وعلاجه
٤٤٧	بيان مراتب الناس في طول الأمل والصره
٤٤٣	بيان للمبادرة إلى العمل وحذر آفة التأخير
٤٤٥	الباب الثالث في سكرات الموت وشدة وما يستحب من الأحوال عنده
٤٥٠	بيان ما يستحب من أحوال المحتضر عند الموت
٤٥١	بيان المسرة عند لقاء ملك الموت بمكاييد يرب لها المال عنها
٤٥٣	الباب الرابع في وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم والمخلفاء الراشدين من بعده
	وفاة رسول الله صلى الله عليه وسلم
٤٦٠	وفاة أبي بكر الصديق رضي الله تعالى عنه
٤٦٢	وفاة عمر بن الخطاب رضي الله تعالى عنه
٤٦٣	وفاة عثمان رضي الله تعالى عنه
٤٦٤	وفاة علي كرم الله وجهه
	الباب الخامس في كلام المحتضرين من المخلفاء والأسماء والصالحين
٤٦٥	بيان أقاويل جماعة من خصوص الصالحين من الصحابة والتابعين ومن بعدهم من أهل التصوف رضي الله عنهم أجمعين
٤٦٨	الباب السادس في أقاويل المارفين على الجنائز والمقابر وحكم زيارة القبور
٤٦٩	بيان حال القبر وأقاويلهم عند القبور
٤٧٣	بيان أقاويلهم عند موت الولد
	بيان زيارة القبور والدعاء للبيت الخ
٤٧٧	الباب السابع في حقيقة الموت وما يلقاه الميت في القبر إلى نفخة الصور
	بيان حقيقة الموت
٤٨٧	بيان كلام القبر للبيت وكلام الموتى إما بلسان المقال أو بلسان الحال
٤٨٣	بيان عذاب القبر وسؤال منكر ونكير

## فهرس

## بقة عوارف المعارف للسهروردي الذي بالمأش

صفحة	صفحة
٢٥٢ الباب السابع والخمسون في معرفة الخواطر وتخصيلها وتميزها	٢ الباب التاسع والأربعون في استقبال النهار والأدب فيه والعمل
٢٨١ الباب الثامن والخمسون في شرح الحال والمقام والفرق بينهما	٣٧ الباب الخمسون في ذكر المصل في جميع النهار وتوزيع الأوقات
٢٩٨ الباب التاسع والخمسون في الإشارات إلى المقامات على الاختصار والإيجاز	٧٨ الباب الحادي والخمسون في آداب المريد مع الشيخ
٣٣٥ الباب الستون في ذكر إشارات المشايخ في المقامات على الترتيب	١١٧ الباب الثاني والخمسون في آداب الشيخ وما يستدعيه مع الأصحاب والتلامذة
٣٨٣ الباب الحادي والستون في ذكر الأحوال وشرحها	١٣٨ الباب الثالث والخمسون في حقيقة الصفة وما فيها من الخير والشر
٤٤٩ الباب الثاني والستون في شرح كلمات مشيرة إلى بعض الأحوال في اصطلاح الصوفية	١٦٥ الباب الرابع والخمسون في أداء حقوق الصفة والأخوة في الله تعالى
٤٧٥ الباب الثالث والستون في ذكر شيء من البدايات والنهايات وصحتها	١٨٠ الباب الخامس والخمسون في آداب الصفة والأخوة
	١٩٧ الباب السادس والخمسون في معرفة الإنسان نفسه ومكاشفات الصوفية من ذلك

بمجد الله تعالى تم طبع كتاب [ إحياء علوم الدين ] لحجة الإسلام الإمام الفزالي ، ومع كتاب [ الكافي عن سمل الأسفار في الأسفار في تخرج ما في الإحياء من الأخبار ] لحافظ الإسلام زين الدين العراقي .

وبهاش ثلاثة كتب :

الأول : تعريف الأحياء بفضل الإحياء للشيخ عبد القادر العيدروس باعلوى .

الثاني : الإملاء عن إشكالات الإحياء تصنيف الإمام الفزالي .

الثالث : عوارف المعارف للإمام السهروردي .